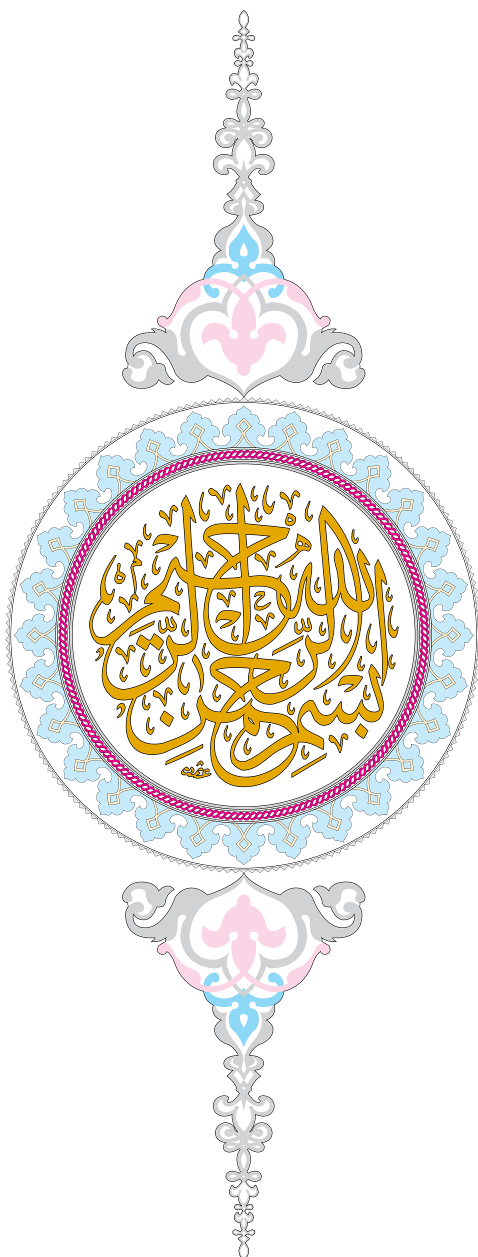
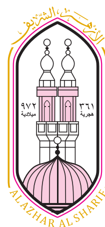




٢٣


بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

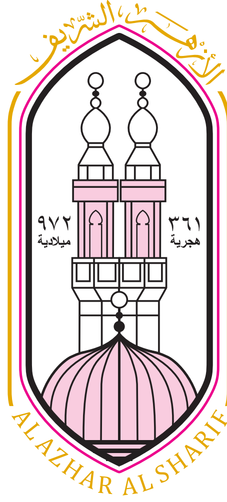
٢٣

المجلد الثالث والعشرون

السنة ١٣٧١هـ

الأزهر الشريف

سقيفة الصفا العلمية



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مجلة الأزهر

يشمل هذا المجموع عدد شعبان لتوقف
المجلة عن الصدور هذا الشهر
مع ملاحظة بأن أعداد هذه المجلة
[illegible] سنويا

المجلد الثالث والعشرون

مدير المجلة

ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي بك

الاشتراك السنوى

٤٠	لمصر والسودان
٥٠	لخارج القطر المصرى

ثمن العدد ٤٠ مليما

إدارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة

مطبعة الأزهر

١٩٥١

(١)

الاحتفال بيوم الهجرة النبوية

يحتفل المسلمون اليوم فى مشارق الأرض ومغاربها بيوم الهجرة النبوية ، واحتفلنا بها نحن فى البلاد المصرية كافة فى أشهر مساجدها ، وكان احتفال القاهرة به فى الجامع الأزهر تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، وقد حضره صاحب السعادة محافظ القاهرة نائباً عن حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، فألقى فضيلته خطبة جامعة شملت ملخصا من تاريخ النبى صلى الله عليه وسلم ، ضمنها الأصول التى يقوم عليها الإسلام مما يحيى الأمم ويأخذ بيدها إلى الغايات البعيدة من خيرى الدنيا والدين . كل ذلك فى قالب بديع من البيان وسمو رائع من الالقاء ، مما أعجب به المجتمعون ، وكانوا كلهم من علية القوم وأهل العلم ، أعاده الله على الأمة الإسلامية بالخير العميم ، والسعادة واليمن .

وها هى خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .

حضرة صاحب السعادة مندوب حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم .
أيها السادة :

شاعت فى الأمم السابقة خرافات وعقائد باطلة لم تكن وليدة بحث ودرس ونظر واستدلال ، وإنما هى أقوال ملفقة ، يأخذها الخلف عن السلف ، ويقلد فيها الأبناء آباءهم من غير فهم ولا روية ، وهى موضع تقديرهم ، ومحل اعتبارهم ؛ وأشد الناس تمسكا بها ومحافظة عليها المترفون ، لأنهم يعتقدون أن فى الدين زوالا لهيبتهم وذهابا لعظمتهم ؛ قال تعالى « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »

وقد أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بدينه الذى ارتضاه لخلقه ، واختاره لعباده ، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فكان موقف أمته منه ، صلوات الله وسلامه عليه ، موقف الأمم السابقة من رسلها ، ولم تستحدث الأيام خلقا ، ولا حالت من الزمن العهود .

بدأ محمد صلى الله عليه وسلم ، بدعوة العرب ، وكانوا وقتئذ أقل الناس حظاً وأشقاهم عيشاً ، وأبينهم ضلالة ، بأسهم بينهم شديد ، يقتتلون لأقل الأمور وأحقر الأسباب ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم وحدة ولا يشملهم نظام ، وكان يجاور العرب ، دولتان عظيمتان : دولة الفرس ، ودولة الروم الشرقية ؛ استولت كل واحدة منهما على ما جاورها من بلاد العرب ، وجعلت عليه حاكما من العرب ، يعمل لها وينفذ إرادتها ، ويرعى مصالحها ، وبهذا الوضع كان العرب محصورين فى جزيرتهم ، قانعين بما فيها من مفاوز وصحارى .

دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى خير الأمور ، وأفضل الأعمال : دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، لأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تعطى ولا تمنع ، ولا تدفع عن نفسها أذاة ، ولا تميط قذاة ، ولا تحاق حصاة ؛ ومع ظهور الحجة ووضوح البرهان ، وتنبيههم للحق فى كثير من الآيات ؛ قال تعالى : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » إلى غير ذلك من الأمثال التى صرفها الله تعالى فى كتابه ، ومع كل ذلك لم يؤمنوا به ، بل كذبوه أشد تكذيب وبالغوا فى الإنكار ، وقالوا « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » . ومن جهلهم زعموا أن دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الناس إلى عبادة الله ، وترك عبادة الأصنام ، لم تكن إلا لأنه صلوات الله عليه يكره الأصنام ، ويريد الانتقام منها ، لأن بعضها اعتراه بسوء ، وألحق به ضرراً ، فقالوا : « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » فكان ذلك صراعاً بين الحق والباطل ، وبين الحجة والبرهان ، والجهل والطغيان ، ولم يقفوا عند التكذيب والإنكار ، بل تجاوزوا ذلك إلى إيذائه وإيذاء من شرح الله صدورهم للإسلام ، فقبلوا دعوته ، وآمنوا برسالته ، وفازوا بشرف السبق ، وكلما بالغوا فى الإيذاء ، بالغ صلى الله عليه وسلم فى الصبر ، واجتهد فى الدعوة ، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص ، عظيم الاهتمام بكثرة الأعوان والأنصار ليتمكن بذلك من أداء مهمته ، وتبليغ رسالته ، فكان عليه السلام يتلق من أقبلوا

إلى مكة فى موسم الحج ، فيدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، فما أجابه أحد ، ومنهم من رد عليه رداً قبيحاً .

وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقابلة الوفود ، ولم يصرفه إيذاء قريش عن دعوته ، ولا الرد القبيح عن السعى فى إدراك طلبته ، فكان يقابل الوفود فى كل موسم ؛ ففى موسم التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجماعة من الخزرج ، ولما عرض عليهم الإسلام قبلوه ، فكان ذلك الاجتماع مقدمة النجح ووسيلة الفوز ، فانهم لما عادوا إلى أهلهم بالمدينة ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدين الذى يدعو إليه ، فأسلم منهم كثيرون ؛ وفى موسم آخر حضر جمع من مسلمى المدينة والتقى بهم رسول الله وبايعوه ، إن هاجر إليهم ، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ؛ وبعد ذلك أمر صلوات الله عليه ، أصحابه بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم ، وقال لهم « إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها » فخرجوا أرسالا ، رجالا ونساء إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين ؛ ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غير بلدهم ، وخرج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، ائتمروا على قتله قبل الهجرة حتى يأمنوا حربه .

ولما علم رسول الله ما أجمعت عليه قريش ، وعرف الليلة التى يريدون الفتك به فى صبحها ، توجه صلوات الله عليه إلى أبى بكر ، وأخبره أن الله أذن له بالهجرة ، فسأله الصحبة ، فأجابه إليها ، واتعدا على الهجرة فى تلك الليلة ، وقد أمر النبى صلوات الله عليه على بن أبى طالب أن ينام مكانه فى تلك الليلة ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد فى وجوده ، وأصبحت فتيان قريش ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم للفتك به ، فإذا بعلى يخرج إليهم ، فعلموا أنهم باتوا يحرسون عليا .

ولما علمت قريش بذلك ثارت ثائرتهم وأخذوا يقتصون الأثر ، وجعلوا لمن يأتى به حياً مائة من الإبل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم بإذن الله وفى رعايته وحفظه إلى أن بلغ المدينة ، ولما استقر بالمدينة أخذ ينشر دعوته ويبلغ رسالته إلى أن بلغ كل ما أمر بتبليغه ، وبذلك تمت الشريعة وكمل النظام الذى وضعه العليم الحكيم .

والشريعة التى بلغها تسمو بالعقول عن التقليد ، واتباع القول بلا دليل ، وأمرها بالنظر فيما بث الله فى الآفاق من آيات ، ونصب فى الكون من دلائل تدفعها إلى الاذعان بوجود الله ، وبما له من صفات الكمال . من القدرة التامة والعلم المحيط والتفرد بالسلطان فيما عداه ، يمضى فيه حكمه وينفذ قضاؤه ، وعبادة وخضوع وتقرب وخشوع ، شكرا لمن خلقهم ، وأسبغ عليهم النعم الظاهرة والباطنة . وتهذيب نفوس وتطهير قلوب . وبعد عن الآثام والذنوب ، وتنزه عن الصغائر ، وصدق فى القول ، وإخلاص فى العمل ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وشجاعة ونجدة ، وإعداد عدة لإرهاب الأعداء ، ومساواة فكلهم عند الله سواء ، لافرق بين عظيم وحقير وغنى وفقير ، لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله والتقرب منه ، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين ، وتعاون وتناصر ، وتواد وتراحم وتعاطف وطاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المسلمين ، إلى غير ذلك مما أمرت به الشريعة ، وحثت عليه ، ورغبت فيه ، وقد أعد الله تعالى للذين يعملون الصالحات سعادة الدنيا والآخرة ، قال تعالى «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » وقال تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » .

وقد عملت الأمة بتلك الشريعة ، فآتت أعمالها الصالحة أكلها ، وأثمرت ثمرتها فى بناء الأمة على أسس متينة ، وأخلاق عظيمة ، وربطت بينهما برباط التعاون والمساعدة ، والمساواة والألفة والمحبة ، والدين والخلق ، فاتحدت بعد تفرق ، وقويت بعد ضعف ، وسعدت بعد شقاء ، وعزت بعد ذل ، فعظم قدرها وعلا شأنها ، وأحكم أمرها ، فغيرت وجه التاريخ ، وفكت الحصر الذى ضربته دولة الفرس ، ودولة الروم ، وفتحت بلاد الأعداء الذين كانوا يكيدون لها ، ويعملون على مضايقتها ، ولا زالت الدولة الإسلامية تنتقل من فتح إلى فتح ، ومن نصر إلى نصر ، وعاشت قوية عزيزة ، تتمدرها الأمم ، ويرهبها الأعداء ؛ ولما انحرفت عن العمل بالدين ، واتباع هدى سيد المرسلين ، اعتراها الضعف والوهن ، فلانت قناتها ، وذهبت هيبتها .

وإنى أدعو المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يستمسكوا بدينهم ، ليقيهم

شرور المذاهب المحدثة ، والآراء المتطرفة التى تخالف دينهم ، وليكون بينهم ائتلاف واتحاد ، فيكون لهم بذلك قوة ومنعة تدفع عنهم الأعداء .

وإنى أوجه التهنئة لإخوانى وأبنائى المسلمين ، داعيا أن يعيد الله عليهم هذا العيد وهم فى غبطة وسعادة .

وأتوجه إليه تعالى أن يحفظ جلالة الملك المعظم فاروق الأول ذخراً للبلاد ، وراعياً للدين وأهله ، وأن يطيل فى عمره ليستقبل من أعياد الهجرة مالا يعد ولا يحصى ، وأن يوفقه ويوفق ملوك المسلمين وأمراءهم إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين ، كما أسأله أن يوفق رجال حكومة جلالته للعمل لخير البلاد والعباد فى ظل جلالته ، أعزه الله وسدد خطاه .

والسلام عليكم ورحمة الله

العام الجديد

ونهض بعد فضيلة الأستاذ الأكبر حضرة الأستاذ النابه الشيخ حسن جاد المدرس بكلية اللغة ، فألقى قصيدة عصماء قوبلت بإعجاب عظيم ننشر أبياتاً منها تقديراً لقدر منشئها :

بشراك بالعام الجديد　　قم حى مطلعه السعيد
قل يا وليد الدهر حدث　　ما وراءك يا وليد
جددت أروع ذكريا　　ت المجد فى الماضى المجيد
ونشرت أبدع صفحة　　يزهى بها سفر الخلود
ذكرى تهز الشرق تحنا　　نأ لماضيه التليد
من ذلك السارى بجنح　　الليل فى سجواء بيد
يمشى غريب الدار فى　　أوطانه مشى الشريد
الأهل تنكره ، وتعر　　فه المسالك والنجود
وربوع مكة كلها　　تومى إليه بالسجود
والليل يرهف سمعه　　لخطاه والنجم الشهيد
لم يثنه عن عزمه　　وعد العشيرة والوعيد

الحق فى يمناه يعشى　　نوره قلب الجحود
مكروا وراموا كيده　　والله يعصم من يريد
من ذلك الغازى كأن　　خطاه زلزال شديد ؟
الأرض ترجف تحته　　وتكاد من هول تميد
قاد الجيوش مظفراً　　يختال فى خفق البنود
قد راع مكة زحفها　　قدماً وأهلوها قعود
وكأنما تكبيرها فى　　سمعهم قصف الرعود
واستسلم الطاغى وأسلس　　كل جبار عنيد
واندك طود المشركين　　وزلزل الحصن العتيد
وتداعت الأصنام وانكـ　　ـفأت على هام العبيد
الله أكبر هذه　　عقبى التجلد والصمود
ساد النبى على عداه　　وكان بالأمس الطريد
هى هجرة الحق الغريب　　وقصة المجد الفريد
فتبارك الله القوى　　وعز ذو العرش المجيد

* * *

قل يا وليد الدهر حدث　　ما وراءك يا وليد ؟
ماذا يخبئه غد　　ومن المسود ومن يسود ؟
وأد السلام دعاته　　ورموه فى ظلم اللحود
هم حاسدوه وقد يغرك　　بابتسامته الحسود
ليس الشهيد قتيلهم　　إن السلام هو الشهيد
الغرب حاد عن الهدى　　ونأى عن القصد السديد
يفتن فى ذرّية لهـ　　ـوى مطامعه تبيد
فالبحر جن سفينه　　والبر معتوه الحديد
والشرق مغلوب القوى　　أسوان يرسف فى القيود
دب الفساد به وأوهن　　عزمه طول الرقود
لم يجن من آفاته　　غير الأمانى والوعود

لو تنهض الأخلاق فيه لعاد فى عزم الأسود
وسما إلى مايرتجيه وأثمرت كل الجهود

* * *

قل يا وليد الدهر حدث ما وراءك يا وليد ؟
قرنت بمطلعك السعيد رئاسة الشيخ الجديد
فأل يبشرنا بأن عهوده أزكى العهود
دلت مخايله على يمن الطليعة والسعود
فالأزهر اليوم اغتدى يختال فى أبهى البرود
من بعد ما استعر اللظى فيه وشب له وقود
أضحى «بابراهيم» برداً والسلام به يسود
هى حكمة ، «الفاروق» والـ فاروق ذو الرأى الحميد
مولاى معذرة إذا لم تلقنى بين الوفود
وأنا الوفى لعهدكم وعن المودة لا أحيد
هو منصب يسمو على النثر المنمق والقصيد
أمل تحقق طالما رمناه من زمن بعيد
قد طالعتنا منه أعراس المنى فى يوم عيد
وفقت فى أعبائه وسعدت بالعمر المديد

وهذه قصيدة عصماء أخرى لحضرة الأستاذ النابغة الشيخ أحمد شفيع السيد الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

تألق بساما وأشرق زاهره هلال على الآفاق لاحت بشائره
طوى الكون آلاف السنين فما دنت ركائبه يوما ولا كل دائره
وكم تشخص الأبصار فى مستهله ومن عجب لا يسأم الدهر ناظره
تعد به الأعوام مهما تطاولت فيا لسجل لم تحبر دفاتره
يمثل ألوان الحياة طفولة يليها شباب يقطر الحسن ناضره
وبعدهما شيب ، كذاك هلاله يكمل بدراً ، والمحاق أواخره

يذكرنا مسراه فى هدأة الدجى بمسرى رسول الله يرعاه آمره
تخيفه ظلم عسوف مخاطر ولم يدر أن الشرك تهوى مخاطره
رفيقان فى غار خفى تواريا وحولهما نور تفيض بواهره
لقد عشيت عن مشرق النور أعين يرين عليها من ضلال دياجره
وما يبصر الخفاش فى روعة الضحى فهل يبصر الكفار ما الله ساتره ؟ ؟
وليس فراراً ما أتاه محمد فليس يطيق الضيم إلا أصاغره
يقيم النعام وادعا فى كناسه ويجلو عن الآجام ظلما قساوره
إلى طيبة الخير استقلت ركابه فأثل مجداً فى السماء مفاخره

* * *

فيا هجرة المختار قد كنت فيصلا رأينا به الإشراك قطع دابره
وبدل دين الله بالضعف قوة وفارق أهلا فاستفاضت عشائره
فيالك سوأى قد تحولت حيرة وشرا جرى بالخير واليمن طائره
فلم ينصر الكفار والله فوقهم ولم يخذل المختار والله ناصره
سماء تعالت لن تنالوا عنانها ولن تطفئوا نورا، وذو العرش ناشره

* * *

وما عرفت هذى الدنا كمحمد كريما يرجى أو شجاعا تحاذره
ألم يحى هذا الكون بعد مماته وتسكب على وادى النفوس مواطره ؟
ألم يأتهم بالذكر نورا وحكمة موارده تزكو وتزكو مصادره ؟
ألم يبن من أبناء يعرب أمة إليها عنا كسرى ودانت قياصره ؟
أياديه فى الإنسان بيض كأنها أيادى الربيع الطلق يبسم زاهره
فلم يجن هذا الكون من مدنية سوى ثمر دين الحنيفة باذره
ومهما بدا فى الكون نور معارف ففى مشرق الإسلام كانت بواكره

* * *

فياقادة الاسلام هذا رسولكم تمرس بالأهوال وهى تساوره
فكونوا جنود الدين والعلم تنصروا ومن ينصر الاسلام فالله ناصره
وفى عصمة الفاروق للدين عزة يذاد بها واهى الذمام وداثره
وفى ظل ابراهيم مرجو نجحكم فآلاؤه ترجى وتخشى بوادره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على تواتر نعمه ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله ، وعلى آله وصحبه ومتبعي ملته أجمعين ، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين .

أما بعد فقد أدركتنا السنة الثالثة والعشرون من حياة هذه المجلة القيمة ، وهي دائبة على خدمة الإسلام والمسلمين ، مترسمة الخطة التي وُضعت لها ، والطريقة المثلى التي رسمت لتسلكها ، فوجدت طريقها إلى القلوب ممهداً فسلكته جادة غير متلكئة ولا وانية ، فآنست من الرأي العام مشجعاً قويا ، وبلغت من القلوب مكانا عليا . وقد أسندت إلينا إدارتها منذ نحو عشرين سنة ، فلا نتمدح بما قمنا لها فيها من الخدم ، ولا بما أحدثنا في تحريرها من التطورات ، ولكننا نذكر أن دعوتنا لهذه المهمة كان أمرا يجب التفكير فيه إذ ذاك قبل الاقدام عليه ، لما كان عليه أصحاب الكلمة العليا في الأزهر من الورع المبالغ فيه في الكتابة للدين ، ولكن ما كاد يظهر العدد الذي تولينا إدارته حتى تواترت على الأستاذ الأكبر التهنئات من كل صوب ، حتى من الذين كانوا لا يأبهون للدين ، ويتخيلون أن الكتابة في موضوعه لا تروق للقارئين . واليوم نحمد الله ونشكره على ما حدث من الإنقلاب في هذا المجال . فإن القراء أصبح يشوقهم أن يقرأوا البحوث الدينية بتقدير عظيم ، وهذا الانتقال الشديد إنما جاءهم من معالجة الكتاب الدينيين في كتاباتهم الشئون الحيوية التي تهم الناس أجمعين ، وقد تمرسوا على الاحسان فيها ، ولذلك تنال من قرائها الاقبال والثناء العظيم .

وهذه مجلة الأزهر تنشر في جميع الأقطار الإسلامية ، وتحمل إلى تلك البلاد النائية النور والعلم والإيمان ، دائبة على ذلك لا يعتريها فتور ، والفضل في ذلك يرجع لأفراد من علمائه فهموا الإسلام على حقيقته ، وأدركوا الارتقاء البعيد الذي يوجه أهله إليه ، فعملوا وسيعملون على فتح الطريق أمام كتاباته وكل ما يمت بصلة إليه .

ولا يجوز لنا أن ننسى في هذا المقام ما نلقاه من التنشيط والتشجيع من لدن حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، ملك هذه البلاد ، فنتلقاه بالقبول راجين لجلالته دوام التوفيق .

ولا يجوز لنا أن نغفل أيضا ما لقيناه من جميع الشيوخ الذين تولوا الأزهر من التقدير والتشجيع العظيم ، ونأمل أن نجد مثل ذلك من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الحالي الشيخ ابراهيم حمروش بل نطمع منه في المزيد ؟

محمد فريد وجدي

الأستاذ الأكبر الجديد

قابل جميع علماء الأزهر وطلابه خبر تعيين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش شيخاً للأزهر ، بقبول لم نشهد مثله فى تعيين أحد ممن سبقه فى العهد الأخير ، لعلمهم بألمعيته وهمته فى جميع المناصب التى تولاها ، فهو من الأفراد القلائل الذين حصلوا على إجماع الناس فى تقديرهم والثناء عليهم ، وقد دلت مظاهر استقباله « يوم شرف إدارة الأزهر بحضوره » على مبلغ ما يكنه العلماء والطلبة لشيخهم الأكبر من الحب الخالص والتقدير البالغ . ولأول مرة شاهدنا دلائل الاستبشار بالاجماع على وجوه طلبة الأزهر وعلمائه فى استقبالهم لشيخ جديد .

والذى يشجعنا أن نمضى فى تفاؤلنا قدما أن فضيلة الأستاذ الأكبر أمضى جميع سنى الاضطرابات الأزهرية بين ظهرانى الطلبة ، فهو أعرف الناس بحاجاتهم الملحة ، وأدراهم بما يتفق تنفيذه ومصلحتهم ، وما هو أولى بالبدء به من غيره ، مما لا يدور بخلد كبار الشيوخ ممن بعد عهدهم بالتدريس وقيادة الطلاب ، ولا يعدونه مما يصح أن يشتغل به بالهم ، ولا يرون للطلبة وجها فى تمنيه فضلا عن الإلحاح فى طلبه ، والاضراب عن تلقى الدروس فى سبيله .

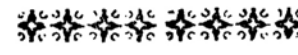
واعتباراً لهذا الأصل نرجو أن يكون دخل الأزهر فى دور جديد من أدوار حياته الطويلة المباركة ، ينال فيه كل ما يجب أن يكون له كجامعة دينية عالميه ؛ وفى تحقيق هذا الأمل تحقيق لأمانى العالم الاسلامى كله الذى يتطلع إلى هذه الغاية بقدر تطلعه إلى استكمال حياته الأدبية من جميع مظانها الروحية والعقلية .

وليس ببدع أن يتطلع العالم الاسلامى كله إلى تحقيق هذه الأمنية ، فإن الحوادث العالمية تدفعه إلى استكمال قواه ، ولا يتم له ذلك إلا باستكمال مصادر حياته الروحية والعقلية .

ومجلة الأزهر ، بلسان مديرها وجميع موظفيها ومحرريها ، تقابل تعيين فضيلة الأستاذ الأكبر الجديد بكل إجلال وتقدير ، ونرجو أن تنال فى عهده من الكمال ما هى عاملة لبلوغه فى كل حين . فإلى فضيلته « من مديرها وموظفيها ومحرريها » ماتكنه قلوبهم من الشعور العالى والتقدير العظيم ، راجين أن يوفقه الحق جل وعز إلى تحقيق ما يتوخاه من الإصلاحات القيمة والتجديدات التى تقتضيها السنن الإلهية فى مثل الزمان الذى نحن فيه . وفقه الله لتحقيق كل ما يرجوه للأزهر والأزهريين بامداده من عنده ، إنه ولى المؤمنين ؟

تهنئـــــة

صغ التهانىَّ من آيات سحبان ... واختر جواهرها من صنع فنان
وأحكم القول واستلهم دقائقه ... وانسج غلائله من ذوب إتقان
فأنت تمـــدح رب القول مفرده ... حامى حمى الضاد فى علم وعرفان
«حمروش» والفصحى أرسى دعائمها ... له عليها أيادى المصلح البانى
فكيف أقوى على تدبيج تهنئة ... وكيف أقوى على قول وتبيان؟
كناقل التمر يهديه إلى هجر ... وناظم الشعر يهديه لحسان
لو كنت تلهمنى من وحى خاطركم ... لقلت شعراً يحاكى شعر ذبيان
ولو رنت نحو أفكارى بلاغتكم ... لفاض شعرى رحيقا ملء أدنانى
يا واحد الضاد كم نادت شريعتنا ... «حمروش» أيقظنى حمروش أحيانى
أضفى عليها كثيراً من معارفه ... وذاد عنها بإخلاص وإيمان
فى كل علم تراه حجة ثبتا ... هيهات ليس له فى العلم من ثان
ماضيه يزهى بآثار محجلة ... للعلم أخلص فى سر وإعلان



قد جئت والأزهر المعمور فى لجج ... يكاد يغرق فى موج وطوفان
ظلت سفينته فى اليم حائرة ... كم استغاثت ونادت أين ربانى؟
تلفت الركب من فى القوم ينقذها ... وقد تناهت إلى صدع وخسران
قالوا جميعا عليكم بابن بجدتها ... حمروش يخرجها للشاطىء الهانى
ألقوا مقاليدها فى كف قسورة ... يصول عنها ويحمى أى عدوان



أمانة الأزهر المعمور قد وضعت ... فى كفك السمح ترجو خير معوان
فكن حريصا عليها حرص مقتدر ... يصرف الأمر تصريفاً بإمعان
هناك تبـــذل أرواح مفدية ... ويمنحونك إحسانا بإحسان
قد اصطفاك مليك النيل عن ثقة ... فاهنأ بعطف من الفاروق هتان
حكومة الشعب أولتكم محبتها ... ولست أملك إلا آى شكران

السباعى الشناوى
المراقب بالأزهر

الدين أمام العلم والفلسفة

علماء أوروبا وفلاسفتها يهتدون إلى الإسلام

إن لفظة دين قديمة جدا كقوم مسماها ، وشائعه بين جميع الطوائف البشرية سواء حاضرها وباديها ، وحشيها ومتمدنها ، ولكن الناس لم يدركوا معناها على الوجه الصحيح الذى جاءت به الكتب الإلهية والذى ينطبق على رحمة الخالق وعنايته . ومن يتدبر التاريخ ير الشعوب المختلفة قد تطورت مرات كثيرة فى فهم معنى هذه الكلمة على نسبة تطور العقل البشرى والمعقولات .

كان الأقدمون لا يعرفون الدين إلا أنه مجموعة احتفالات عمومية ، تضحى فيها الحيوانات وأسرى الحروب إرضاء لمعبوداتهم ، وتسكينا لغضبهم . ثم لما ترقت المدارك الإنسانية ، ونمت فيها الغريزة العقلية بظهور العلوم والفنون ، أخذ معنى الدين ينجلى شيأ فشيأ ، ويقرب رويداً رويدا من المعنى المراد لله ، والذى جاءت الأديان تأمر الناس بفهمه على هذا الوجه .

نحن هنا قبل أن نتكلم على ماهية الدين بالمعنى المراد للاسلام يجب علينا أولا أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوروبا من هذه اللفظة بعد أن فحصوا العلوم فحصا ، وأوسعوا الكون بحثا عن نواميسه ، وتنقيرا عن قوانينه ، لنجعل هذا من بعض الأدلة الحسية ، على نظريتنا من أن كل خطوة يخطوها العلم فى سبيل فهم الحقائق هى تقرب ظاهر إلى الإسلام فنقول :

أن علماء أوروبا بعد أن دخلوا فى كل دور يمكن أن يدخله الإنسان المعرض لكل أصناف الفتن العلمية ، عادوا الآن حيث الهدوء شامل ، فاعترفوا عن بينة بأن لهذا الكون خالقا قادراً حكيما متصفا بكل صفات الكمال ، ومنزها عن كل ما يشعر بالنقص . وأنه جل سلطانه وضع الكون على نظام مخصوص يستطيع من ينظر إليه بروية أن يستنتج منه تلك الصفات العليا استنتاجا محسوسا . وأن يتعلم منها أمورا يغنى الجرى عليها ، على قلتها وسوء فهمها ، عن ألوف القواعد والتعاليم التى كانت تلقى على الناس فيحنون رؤسهم خضوعا لها ، ولكن على غير فهم لحكمها وحكمتها .

ثم رأوا باستقراء نظام الكون وتدبر نواميسه ، أن الخالق جل شأنه يتعالى علواً كبيرا عن الاحتياج لكائن من صنع يده ، بل هو غنى بذاته عن كل من عداه. ثم قالوا إن غناه هذا لم يمنعه عن الاهتمام بمخلوقاته اهتماماً يدل على عظيم رحمته ، وأقل نظرة فى الوجود تدل على صدق هذه النظرية دلالة حسية

انظر إلى صنوف النباتات والحيوانات من أدناها إلى أعلاها ، تر آثار هذه الرحمة العظمى تتجلى للانسان تجليا يبعثه رغم أنفه إلى محبة ذلك الخالق العظيم . فإنه جل شأنه لم يترك كائنا من الكائنات إلا وهبه ما يقيم أود حياته ، ويحفظ بقاءه ، وزوده من القوى بما يدفع عنه البوائق والجوائح ، إلا ما يستلزمه نظام الكون ، ويكون فى حصوله أثر مرحمه أسمى ، ورأفة أعلى وأن إلها هذا شأنه لا يحمل الانسان من العبادة إلا ما فيه حكمة بالغة , وفائدة جليلة لذات الشخص وبنى نوعه .

ومن يتأمل فى مبلغ الرقى الذى وصل إليه الإنسان من أول نشأته إلى الآن ، يتحقق أن الخالق جل شأنه وهبه من الخصائص ما يستمر به ترقيه وتدرجه إلى حيث لم يصل إليه الفكر البشرى إلى الآن .

ثم قالوا وبما أن أفعال الله مجردة عن العبث والتناقض فيجب أن تكون مرغوبة لله تعالى ، موافقة للنواميس العالمية الثابتة السائدة فى الكون كله ، وملائمة للميول والمرامى المغروسة فى جبلة النوع الإنسانى .

فاستناداً إلى هذه البدائه العلمية التى لا يصح المراء فيها ، بنى طائفة عظيمة من علماء أوروبا ديانتهم التى سموها طبيعية . وإليك ما قاله فى هذا الشأن الفيلسوف المشهور (حون سيمون) الفرنسى قال :

« إننا نؤدى فى أثناء هذه الحياة الواجبات التى رسمها الله تعالى لنا تحت رعايته وعنايته ، وعند ما ينتهى وجودنا فهو إما أن يثيبنا أو يعاقبنا » . ثم ذكر الأسباب التى تقتضى الإثابة أو المؤاخذة فقال :

« أما الأمر الذى يقتضى المثوبة الحسنة ، فهو طاعة الإنسان للواجب عليه ، طبقاً

لقانونه الخاص وعمله للخير . أما القانون الخاص فهو حفظ ذاته من العطب وترقية خصائصه المودعة فيه ، ثم هى محبة وخدمة إخوانه ، ومحبة موجد ذاته وعبادته .

« ولكن ما هى الطريقة التى يعبد بها الإنسان ربه ؟ هى أداء الواجب ؛ وعمل الخير هو العبادة ؛ والحب والعمل والاخلاص هى العبادة الحقيقية وهى الصلاة ؛ والاخلاص للوطن ، هذه هى العبادة فى الديانة الطبيعية ، كل أصول مذهبنا واضحة لا رموز فيها . أما أصوله فهى الاعتقادبوجود إله قادر على كل شىء ، ولا يغيره شىء . خلق العوالم وحكمها بنواميس عامة . ووجود حياة أخرى تؤدى لنا جميع وعود هذه الحياة الدنيا ، وتكافىء المظالم بالجزاء الأوفى ، هذه هى عقائدنا . أما صلاتنا فهى أن تكون قلوبنا مملوءة بمحبة الله تعالى ومحبة الإنسان ، وأن تكون لنا ارادة ثابتة فى أداء الواجب وخدمة ارادة الله تعالى بعمل الخير والبر » انتهى .

هنا نستدرك فنقول إن أصحاب هذه الديانة لا يكرهون العبادة الجثمانية كما يؤخذ ذلك من أقوال الفيلسوف (جول سيمون) فى غير هذا الموضع ، إلا أنهم لا يعتدون بعبادة جثمانية لا يكون لها ثمرة أدبية . فهم يريدون أن تكون تلك العبادة معتبرة وسائل لإحياء القلوب وتطهيرها من أدناسها ، لا أغراضاً قائمة بنفسها مجردة من كل غاية . قال (كانت) الفيلسوف الألمانى المشهور : « العبادات الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا اعتبرت أغراضا لا وسائل . فهى يمكن أن تكون نافعة مفيدة إذا لم تعتبر إلا وسائل لايقاظ وتقوية العواطف الفاضلة فى النفس البشرية » .

ونحن نستخلص من كل هذه الأقاويل أربعة أمور هامة هى مذهب علماء أوروبا فى الدين وهى :

(أولا) الاعتقاد بأن الله غنى عنا وعن أعمالنا ، وأن ما نعمله من خير لا ثمرة له إلا منفعتنا الخاصة .

(ثانيا) أن الله تعالى رحيم بالإنسان يود صلاحه ولا يكلفه بشىء إلا لمصلحة نفسه .

(ثالثـا) أن العبادة يجب أن تنطبق على النواميس الثابتة للحياة ، وأن تلائم الطبيعة البشرية ، لا أن تعارضها وتسعى فى ملاشاتها .

(رابعا) العبادات الجسمية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها ، لا أغراضا مطلوبة لذاتها .

نقول إن هـذه الأربعة الأمور التى لم يصل إليها العقل البشرى إلا بعد أن شابت ناصية الكرة الأرضية ، وجعلت علماء القرن التاسع عشر يتيهون بها عجبا ، ويتمايلون طربا ، ليست إلا قطرة من بحر الديانة الإسلامية الزاخر ، وشعاعا من شمسها المتألقة . ونحن لأجل زيادة الاقناع نأتى هنا على النصوص الشريفة التى تنطبق على هذه الأمور الأربعة مرتبة على حسبها فنقول :

(أولا) الاعتقاد بأن الله غنى عنا ، وأن ما نعمله تعود ثمرته إلينا ولا ينال الله منه شيأ ، يقابله قوله تعالى : « ومن جاهد فإنمـا يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين » .

(ثانيا) أن الله تعالى رحيم بالإنسان ويود صلاحه ، ولا يكلفه بالعبادة إلا لفائدة نفسه . قال الله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ، ولـكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلـكم تشكرون » .

(ثالثـا) يجب أن تنطبق العبادة على نواميس الحياة ، وأن تلائم الطبيعة البشرية ، لا أن تعارضها وتسعى فى ملاشاتها ، قال الله تعـالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لهـا ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وقال تعالى : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » . وقال تعـالى : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » .

(رابعا) التكاليف العبادية يجب أن تعتبر وسائل لتطهير النفوس وتهذيبها ، لا أغراضا مطلوبة لذاتها . قال الله تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولـكن يناله التقوى منكم » . وقال النبى عليـه الصلاة والسلام : « من لم تنهه صلاته عن

الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا ، وقال عليه الصلاة والسلام : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .

هذه هى عقيدتنا فى فهم الدين ، وقد رأيت أنها مطابقة للعقل والعلم تمام الانطباق ، ومتفقة مع النواميس الثابتة كمال الاتفاق ، ولما كانت مطاعن علماء أوروبا على الأديان لم تتوجه إليها غالباً إلا من هذه الوجهة الرئيسية التى تبتنى عليها سائر قواعد الدين ، فقد حق لنا أن ننادى بأعلى صوتنا أن الاسلام هو الدين الذى ترضاه العقلية العلمية ، لاتفاقهما فى الأصول ، واتحادهما فى الأغراض والوجهة ، وهو أجل من أن تناله هباءة من ذلك التنديد ، وأعظم وأعز من أن يصيبه أى مطعن من تلك المطاعن .

هذه الأربعة الأصول يعتبرها أصحاب الديانة الطبيعية أركانا تبتنى عليها القواعد القانونية التى يكون فى العمل بها ارتفاع الانسان فى معارج الكمال الذى أعد الحق هذا النوع لبلوغه ، ولما كان العلم هو المنوط إجماعا بالتحسس من تلك القواعد المرقية للانسانية ، فهم يعتبرون كل قاعدة يتوصل إليها من هذا القبيل كأنها قاعدة دينية فى الجرى على سنتها رضاء الخالق جل وعز .

أما المرويات القديمة والأساطير التى مضى عليها ألوف من السنين مع ما استلزمته من قواعد الدين ، فقد صدفوا عنها وهجروها هجرا لا رجعة عنه . قال الفيلسوف الألمانى (كانت) Kant :

« الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى إلا على قوانين ، أعنى قواعد قابلة للتطبيق نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والآراء الكهنوتية » نقول كأن (كانت) يريد أن يذكر المسلمين بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » ؟

محمد فريد وجدى

الربا
فى نظر القانون الاسلامى

تعريب المحاضرة الفرنسية التى ألقاها فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز
مندوب الأزهر فى مؤتمر القانون الإسلامى المنعقد بباريس
فى ٧ من يوليو سنة ١٩٥١ م

— ١ —

مقدمة تاريخية

قبل أن أعرض على أنظاركم وجهة نظر الإسلام فى الربا ، ائذنوا لى ياجناب الرئيس ويا حضرات السادة والسيدات ، أن أقول كلمة موجزة عن وضع المسألة فى طائفة من التشريعات السابقة ، مدنية كانت أم دينية .

مصر فى عهد الفراعنة :

يلوح أن قدماء المصريين لم يكونوا يحظرون الربا حظراً صارماً ، بل وضعوا له نظما وقواعد تحد من أضراره ؛ ونحن ، وإن لم يصل إلينا نبأ هذه القواعد فى جملتها ، فقد نعلم بعض الشىء عنها .

هذا (ديودور) المؤرخ الأغريقى يحدثنا مثلا عن القانون الذى وضعه الملك (بوخوريس) من ملوك الأسرة الرابعة والعشرين ، والذى يقضى بأن الربا مهما تطاولت عليه الآجال لا يجوز أن يصل إلى مقدار رأس المال .

أثينا وروما :

أما فى الدولتين الإغريقية والرومانية فإن الربا — قبل ظهور الإصلاحات التى وضعها (صولون) المشرع الإغريقى ، وقبل الإصلاحات التى وضعها مؤلفو

(الألواح الاثنى عشر) فى روما - كان شائعا بدون قيود ولا حدود، وكان العرف[1] الجارى فى كلتا المملكتين أن المدين إذا لم يوف دينه أصبح هو نفسه ملكا للدائن. فجاء تشريع (صولون) قاضيا على هذه العادة الشنيعة، حيث قرر أن تكون مسئولية المدين فى ماله وذمته، لا فى شخصه ورقبته. كما أنه حدد النهاية القصوى التى يمكن أن تبلغها فوائد الدين (يقال إنه حددها بنسبة ١٢ ./. من رأس المال). وكذلك صنع واضعو الألواح الاثنى عشر فى روما، وبقيت هذه النسبة محفوظة فى التشريع الرومانى حتى جاء (جستينيان) فجعلها تدور بين ١٢ ./. للتجار وأمثالهم و ٤ ./. للنبلاء.

هذه التشريعات كلها لم تظهر إلا فى أعقاب اضطرابات وحروب داخلية مستمرة بين الأغنياء والفقراء فى تلك الشعوب، فكانت هذه الإصلاحات علاجا وقتيا لتلك المشاكل الاجتماعية الخطيرة التى ولدتها هذه الوضعية الربوية.

هكذا مهما نصعد بنظرنا فى تاريخ التشريعات المدنية القديمة، نجد أن مبدأ التعامل بالربا كان سائغا فيها، وأنه كانت توضع له فى بعض الأحيان نظم تحميه إذا لم يجاوز حداً معلوما.

إسبارطة :

غير أن مدينة إسبارطة تبدو لنا فى صورة استثناء من هذه القاعدة العامة: إذ لا يعرف فى تاريخها أنها تعاملت بالربا أو أنها نظمته. وقد يرجع السر فى ذلك إلى أنها - من جهة - لم تكن ذات طابع تجارى واضح، حتى إنها لم يكن لها نظام نقدى، بل كانت عمدتها الرئيسية فى التعامل هى المبادلة والتقايض، ومن جهة أخرى فإن قانونها لم يكن يخول للغرباء الذين يحملون نقود بلادهم أن يدخروا الذهب والفضة، ومن عرف عنه أنه يكتنز شيئا منها كان جزاؤه الإعدام

---

(١) وكذلك جرى العرف فى كلتا الدولتين بأن الفائدة السنوية يؤديها المدين على أقساط شهرية. قارن هذا بعادة العرب فى الجاهلية أيضا، كما سيأتيك نبؤه قريبا.

اليهودية والنصرانية :

فإذا ما انتقلنا الآن من المنظمات المدنية الى التشريعات الدينية ، فأننا نشهد ظاهرة جديدة فى تاريخ التشريع فى هذا الشأن . فبعد أن كنا نرى التعامل بالربا فى الشرائع غير الدينية أمراً سائغا فى حدود واسعة أو ضيقة ، نرى التشريعات السماوية تتجه به نحو الحظر والتحريم الكلى .

هكذا نقرأ فى كتاب العهد القديم : « إذا أقرضت مالا لأحد من أبناء شعبى ... فلا تقف منه موقف الدائن : لا تطلب منه ربحاً لمالك » (الآية ٢٥ من الفصل ٢٢ من سفر الخروج) وفى موضع آخر : « إذا افتقر أخوك فاحمله . . . لاتطلب منه ربحاً ولا منفعة » (الآية ٣٥ من الفصل ٢٥ من سفر اللاويين) .

وكذلك نقرأ فى كتاب العهد الجديد : « إذا أقرضتم لمن تنتظرون منهم المكافأة فأى فضل يعرف لكم ؟ . . . ولكن . . . افعلوا الخيرات وأقرضوا غير منتظرين عائدتها . وإذاً يكون ثوابكم جزيلا » (الآيتان ٣٤ و ٣٥ من الفصل ٦ من انجيل لوقا) . ولقد أجمع رجال الكنيسة ورؤساؤها كما اتفقت مجامعها على أن هذا التعليم الصادر من السيد المسيح عليه السلام يعد تحريما قاطعا للتعامل بالربا . حتى إن الآباء اليسوعيين الذين يتهمون غالبا بالميل الى الترخص والتسامح فى مطالب الحياة وردت عنهم فى شأن الربا عبارات صارمة ، منها قول سكوبار : « إن من يقول إن الربا ليس معصية يعد ملحدا خارجا عن الدين » وقول الأب بونى : « إن المرابين يفقدون شرفهم فى الحياة الدنيا ، وليسوا أهلا للتكفين بعدموتهم[1] » .

أوربا المسيحية :

هذه النظرة الدينية أقرها القانون المدنى الأوربى فى سنة ٧٨٩ (مرسوم إيكس لاشابيل) وبقيت هى المذهب الوحيد فى أوربا طوال القرون الوسطى . ولكنها بدأت تفقد مناعتها شيئا فشيئا منذ عصر النهضة ، على أثر الاعتراضات المتكررة التى وجهت إليها بين القرنين السادس عشر والثامن عشر من (كالفان) إلى (مونتيسكيو) . وكان لهذا الضعف مظهران : مظهر عملى ، ومظهر تشريعى .

---

(١) انظر باسكال فى مرسلاته الاقليمية ، الخطاب الثامن Pascal, Les provinciales

فأما المظهر العملى فهو أن بعض الملوك والرؤساء الدينيين أنفسهم أخذوا يجترئون على انتهاك هـذا التحريم علنا . من ذلك أن (لويس الرابع عشر) اقترض بالربا ليسدد ثمن دانكرك فى سنة ١٦٦٢ وأن البابا (پى التاسع) تعامل بالربا فى سنة ١٨٦٠ . وأما المظهر التشريعى فهو أنه منذ آخر القرن السادس عشر (١٥٩٣) وضع استثناء لهـذا الحظر فى أموال القاصرين [١] فصار يباح تثميرها بالربا بإذن من القاضى .

أما الضربة القاضية التى وجهت إلى هذه النظرة الدينية فقد حملتها إليها الثورة الفرنسية حيث احتضنت المذهب المعارض وجعلته مبدأ رسمياً منذ قررت الجمعية العمومية فى الأمر الصادر بتاريخ ١٢ اكتوبر سنة ١٧٨٩ أنه يجوز لـكل أحد أن يتعامل بالربا فى حدود خاصة يعينها القانون .

بلاد العرب قبل الإسلام :

لم يكن قد بقى لعرب الجزيرة فى الجاهلية من التراث الدينى الذى تركه جدهم ، أبو الأنبياء ، إبراهيم عليه السلام ، إلا آثار قليلة لا تخلو من التحريف . ولذلك لم يفتأوا يتبعون أهواءهم ونزعاتهم المادية فى أكثر عباداتهم ومعاملاتهم . وكان من ذلك تعاملهم بالربا بدون قيد من عرف ولا تشريع . ولعل مرد هذا (أولا) إلى نزعة الاستكثار وحب الـكسب التى تنمو عادة فى البيئات التى تزدهر فيها التجارة كما كان هو الحال فى مكة (وثانياً) إلى علاقتهم المستمرة باليهود ، الذين هم جيرانهم وأبناء عمومتهم .

ولعلـكم تعجبون أن تـكون مجاورتهم لشعب ذى شريعة سماوية تحرم الربا سببا فى تشجيعهم على التعامل به ، ولـكن الذى يزيل هـذا العجب أن نعرف أن هذه الديانة نفسها ــ حسبما ورد فى كتب أهلها ــ تبيح الربا كما تحرمه . نعم لقد سقنا آنفا شواهد التحريم من نصوص التوراة ، ولـكننا وا أسفاه نجد فيها نصاً

---

(١) قارن هذا بالرخصة التى أخذت بها المحاكم فى عهد الدولة العثمانية ، اعتماداً على الفتوى الواردة فى كتب الحنفية .

آخر يقيد هذا التحريم ويجعله خاصاً بالشعب العبرانى ، بحيث يسوغ لليهودى أن يأخذ الربا من غير اليهودى [1] (الآية ٢٠ من الفصل ٢٣ من سفر التثنية) . ولما لم يكن فى هذا النص تحديد قانونى لقدر الربا المأذون فيه كان ذلك فتحاً لباب الاستغلال المالى على مصراعيه بحيث يدخله أشد أنواع الربا فداحة وإفراطا .

هكذا كان هذا النص المنسوب للقانون الموسوى سببا فيما نرى (أو جزءا كبيرا من السبب) لا فى بقاء التعامل بالربا فى العالم إلى اليوم فحسب ، بل فى تهوين أمره على كثير من النفوس واتخاذها إياه أمرا مشروعا فى بعض الأحوال .

ومهما يكن من أمر فقد اعتاد العرب فى عصور الوثنية أن يقترضوا بالربا من اليهود وأن يتقارضوا به فيما بينهم ، دون أن يجدوا فيه حرجا ولا غضاضة .

وقد عرفت لهم فى ذلك أنواع مختلفة من العقود الربوية . وأكثرها انتشارا فيما بينهم كانت تبدأ المحاسبة فيه – على ما يظهر – من السنة الثانية ؛ بمعنى أن الدائن لا يطلب من مدينه شيئاً وراء رأس المال إذا وفاه دينه فى أجله المعلوم . فإن لم يستطع أداءه فى ذلك الأجل اتفقا على تأجيله سنة ثانية فى مقابل زيادة يختلف مقدارها على حسب التراضى بينهم . ونضرب مثلا : مديناً كان عليه أن يسلم للدائن فى أجل كذا حيوانا سنه ثلاث سنوات . فإذا لم يدفعه إليه فى ذلك الموعد أجله إلى السنة التالية ، لكن الحيوان يجب أن تكون سنه إذ ذاك أربع سنوات . ولقد كانت تصل الزيادة فى بعض الأحيان إلى قدر رأس المال فى آخر السنة الثانية فتصبح المائة مائتين ؛ فإن لم يؤد تضاعف رأس المال والفائدة معا فيصيران أربعمائة فى آخر السنة الثالثة وهكذا .

وضرب آخر من هذه العقود أن يدفع الدائن لمدينه قدراً من المال لسنة ، على أن يأخذ منه فائدة معينة كل شهر ؛ فإذا جاء آخر السنة ولم يرد رأس المال اتفقا على فوائد أخرى للتأخير .

---

(١) معروف ود القرآن (فى الآيتين ٧٥ و ٧٦ من السورة الثالثة) على هذه الدعوى التى لا تدع لقانون الفضيلة إلا مجالا محدوداً للتطبيق ؛ مع أن مبادىء الأخلاق يجب أن تكون عالمية لا حدود لها من جنس ولا لون ولا عقيدة ولا إقليم .

البلاد الإسلامية فى العصر الحاضر :

لقد جاهد الإسلام والمسيحية قرونا متطاولة لا لمنع قانونية الربا فحسب ، بل لمنع التعامل به إطلاقا .

بيد أننا رأينا آنفا كيف انتهى الأمر بالثورة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر أن قضت على هذه المقاومة فى أوربا ، وأقرت النظام الذى بقى فيها منبوذاً طوال ألف عام كاملة .

وكان طبيعيا أن تؤدى العلاقات المستمرة بين أجزاء العالم القديم إلى انتشار هذه الفكرة المادية رويداً رويداً وانتقالها إلى خارج أوربا . وهكذا لم ينتصف القرن التاسع عشر إلا وقد سرت عدواها إلى البلاد الإسلامية ، فبدأ بعض المسلمين يتعاملون بالربا لا إقراضاً ، بل اقتراضاً ؛ ثم اتسع الأمر وشاع عمليا ، مع بقائه محظوراً قانونياً ؛ ثم دخل الإذن به فى دائرة التشريع تحت ضغط السلطات الأوربية المحتلة للأقطار الإسلامية ؛ وبقيت الشعوب الإسلامية نفسها مدة طويلة متمردة على فكرة تأسيس مصارف وطنية تكون مهمتها التصرف فى جميع المعاملات المالية التى منها القرض بفائدة .

ونذكر فيما يتعلق بمصر على الخصوص أن هذه المقاومة الشعبية بدأت تضمحل فى أول هذا القرن العشرين ، بسبب حادث تاريخى خاص أثار فيها أزمة مالية وأزمة نفسية فى وقت واحد . نعم لقد حدث إذ ذاك أن امتنعت المصارف الأجنبية المؤسسة فى مصر عن مد يدها بالقرض إلى الشعب المصرى ، فأصبح الشعب وقد وجد نفسه أمام محظورين لا مخرج له منهما : إما أن يلجأ إلى المرابين الذين ليس فى قلوبهم رحمة يقترض منهم بأفدح الربا وأخطره ، وإما أن ينشىء شركة مالية برؤوس أموال وطنية خالصة ، يقترض منها المحتاجون بشروط غير مجحفة .

ومالت بعض النفوس إلى اختيار الشق الثانى غير أنه وقفت أمامها اعتبارات دينية قوية . إذ كيف تقوم فى بلد إسلامى مؤسسة مالية مخالفة لقواعد القرآن ؟

هنالك فتح باب المناقشة فى الصحف وفى الأندية المختلفة ، وألقيت سلسلة من المحاضرات [١] عرضت فيها مختلف الآراء فى الموضوع من حيث تحقيق المبدأ الإسلامى ؛ فالتقت آراء أكثر المحاضرين على رفض المشروع من الوجهة الدينية . غير أن فريقاً (منهم الكاتب المشهور المرحوم حفنى ناصف ، والزعيم السياسى الوطنى المرحوم عبد العزيز جاويش) أيدوا الفكرة معتمدين على نص قرآنى فى دعوى أن الربا المحظور فى الإسلام بالنص والإجماع إنما هو الربا الذى يصل إلى مثل رأس المال أو يزيد عليه ، وأن كل ربح ينقص عن مقدار رأس المال ، فهو محل بحث واختلاف فى نظرهم .

للبحث تكملة

غاية العـدل

تفقد عمر بن الخطاب يوما إبل الصدقة ، فوجد بينها طائفة أنكرها . لجودتها وسمنها وحسن العناية بهـا . فقال لعامله على إبل الصدقة : إبل من هذه ؟ فقال العامل : إنهـا إبل عبد الله بن عمر ! فقال ، ومن عبد الله بن عمر ؟ فقال العامل : ابن أمـير المؤمنين فقال : على به ! فأحضروه . فقال عمر لابنه : بـكم اشتريت هـذه الإبل ؟

فقال عبد الله : اشتريتها بكذا يا أمير المؤمنين . فقال عمر : لك ما اشتريت به ، وهى لبيت المال . قال عبد الله وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : نعم يقولون : هذه إبل ابن أمير المؤمنين فارعوها . هذه إبل ابن أمير المؤمنين فاسقوها . هـذه إبل ابن أمير المؤمنين فلا تهيجوها ، لك ما اشتريت به ، ثم هى لبيت مال المسلمين !

---

(١) كان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٦ ﻫ (سنة ١٩١٢ م)

التفسير

من

سورة النساء

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيط » (١٠٨) سورة النساء

سبق فى الأعداد السادس والسابع والثامن من العام الماضى أن تناولت تفسير الآيات السابقة التى بدأت بها قصة هؤلاء المتآمرين على الحق من قوله تعالى « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذى يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » .

واليوم أتناول هذه الآية التى تكشف عن نفسية هؤلاء المتآمرين وتفضح تآمرهم فيقول الله تعالى : ـ

« يستخفون من الناس » أى يستترون يقال استخفيت أى تواريت واستترت ومنه قوله تعالى « ومن هو مستخف بالليل » أى مستتر والمعنى على هذا أنهم بمجاداتهم عن السارق والدفاع عنه مدفوعون بالرغبة فى الاستتار من الناس حياء منهم حتى لا ينفضحوا أمامهم .

« ولا يستخفون من الله » أى ولا يستحون من الله ولا يرغبون فى الاستتار منه وإلا لرجعوا عما هم فيه ، مع أن الأولى بهم الخوف منه وعدم ارتكاب الذنوب حياء من جلاله .

« وهو معهم » بعلمه مطلع عليهم لا تخفى منهم خافية « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » فالمعية هنا معية علمية فمحال أن يغيبوا بعملهم عن علمه أو أن يستتروا عنه كما يستترون عن الناس

وكان الأجدر بهم لو كانوا عقلاء - أن يفهموا هذا ويراعوه فلا يقبلوا على الذنب مهما كان فيه من نصر رخيص أو لذة عاجلة .

« إذ يبيتون مالا يرضى من القول » تصوير لاستخفائهم وحالتهم المعيبة . وبيت الأمر : دبره ليلا إذ أن فيه مجالا فسيحاً للتدبير والاستتار عن أعين الناس ثم أطلق على كل تدبير بالليل أو النهار والعرب تقول : أمر بيت بليل إذا أحكم تدبيره إذ فى التبييت معنى التدبير والإحكام فيما يدبر ، إذ لو جاء طبيعياً لما قيل : بيت

والذى لا يرضاه الله من القول ، هو اتهامهم للبرىء ، والحلف الكاذب ، وشهادة الزور ، وتعاونهم فى الإثم ، وسمى المدبَّر والمبيت قولا . إما لأن الكلام الحقيقى هو المعنى القائم بالنفس فيكون القول قد جاء على الحقيقة وإما لأنهم دبروا ورتبوا كلاما يقولونه للرسول دفاعا عن المتهم ، فيكون التعبير بالقول قد جاء على الحقيقة كذلك وهذا هو الأقرب فى الفهم والواقع .

« وكان الله بما يعملون محيطا » مطلعاً وعالما بأعمالهم الظاهرة والباطنة لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك ، وفى معناه - من الإنذار والتخويف - جاء قوله تعالى فى آية أخرى : « والله يكتب مايبيتون » إذ الغرض من هذا وذاك أنهم سيحاسبون على تبييتهم وتدبيرهم وسيلقون جزاء ماصنعوا فعليهم أن يحذروا عذاب الله .

جاء الإسلام بالتوحيد الخالص الكامل ليرفع الإنسان من الأرض إلى السماء ويجعله دائماً مرتبطاً بالواحد القهار لاسلطان لأحد عليه إلا بسلطان الله والإسلام بهذا يرفع من قدر الإنسان ويضعه فى أكرم ما يبتغيه الأحرار العقلاء لأنفسهم الذين يحبون أن يتحرروا من قيود الأرض ليعيشوا داخل حدود الله سعداء يراقبونه وحده ويعملون على مرضاته هو ، رضى العباد أم سخطوا أحبوا أم كرهوا :

فياليت ما بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

والناس إن فهموا هذا وساروا عليه وتشربوا لذته عاشوا سعداء أصفياء وماتوا أتقياء ، لهم فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة . ولكنهم رغم هذا يخالط نفوسهم ظلام الطين وتراودهم نزغات الشياطين فتحجب عنهم نور هذه الحقائق وتحول بينهم وبين نور السماء ، وتقطع بينهم وبين ربهم ، فيتيهون فى بيداء شهواتهم

ويتخبطون فى ظلام أرضهم ويعيشون يراقب بعضهم بعضاً ، ويخشى بعضهم بأس بعض ، ناسين الرقيب الأعلى مؤثرين اليوم على غدهم والناس على ربهم ، وفى ذلك الخطر الأكبر على الإنسانية ، ولهذا نرى الله سبحانه يلفت نظر عباده فى أكثر من موضع فى القرآن إلى أن يتحرروا من خوف الناس فلا يخافوا إلا هو ولا يكونوا عبيداً إلا له ليعيشوا أسياد أنفسهم ، ولتكون أعمالهم كلها كما يحب الله ويرضى ، فيقول فى سورة البقرة لعباده المؤمنين « فلا تخشوهم « أى الناس » واخشونى » ويقول لهم فى مناسبة أخرى فى خطاب اللائم الموجه « أتخشونهم ؟ ! ! فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » لأن من خصائص الإيمان الاتجاه إلى الله والخوف منه وحده ، ويقول فى موضع آخر ذما لفريق من الناس « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

وفى موضع آخر يقول : « فلا تخشوا الناس واخشونى . ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا » ، ويقول فى الآية التى معنا وصفا لهؤلاء المتآمرين على الحق المتعاونين فى الإثم والعدوان تشنيعاً عليهم وذمالهم أبلغ ذم أنهم « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » .

كل هذا ومثله كثير فى القرآن والحديث ليربى فى نفس المؤمن روح المراقبة مراقبة الله سبحانه فى كل حالاته : فى صحوه ونومه فى سره وجهره فى عمله وراحته فيعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، وحينئذ تجىء أعماله طيبة كلها ، فيستهين بما عند الناس أملا فيما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى - ويزهد فى الكسب الحرام والجاه القائم على الملق والعصيان إيثاراً لرضا الله والتقرب منه . ولو أن الناس نمت فى نفوسهم روح المراقبة لله لوجدتهم جميعاً رجالا صالحين ولوجدت أممهم سعيدة بهم عزيزة بأعمالهم ، ولكنهم فى غمرة ساهون شأنهم كشأن هؤلاء الذين يقص الله أخبارهم علينا للعظة والاعتبار ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، يتآمرون على الحق ويدبرون الأمر للقضاء عليه طمعاً فى جاه خاطف أو فى منزلة عند الناس ، أو خوفا من الفضيحة أمامهم ويرتكبون فى سبيل ذلك من الإثم والعدوان ما يرتكبون ، ناسين أن الله عليهم رقيب حسيب وأن أمامهم يوما فيه ، تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » . . فاعتبروا يا أولى الأبصار ، « إن الله كان عليكم رقيبا » . هدانا الله وجعلنا من أهل المراقبة له والخشية منه .

حكم الختـــــان

فى الشريعة الاسلامية

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

صورة ما أرسله فضيلة الأستاذ الكاتب الى حضرة
صاحب المعالى وزير الصحة فى ٢٨ / ٥ / ١٩٥١

الختان شأن قديم ترجع معرفة الناس به إلى عهد ابراهيم عليه السلام ، وكانوا يختتنون الذكور والإناث . وقد رويت فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث ، اتفق المحدثون على صحة بعضها ، وضعّف البعض الآخر ؛ فمما اتفق عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم « خمس من الفطرة : الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الأظفار » وقوله عليه الصلاة والسلام « اختتن ابراهيم خليل الرحمن » وهو متفق عليه بين البخارى ومسلم .

وقال العلماء : الفطرة السنة القديمة التى اختارها الأنبياء واتفقت عليها الشرائع ، وكانت لذلك كالأمر الجبلى الذى تدعو إليه الخلقة ، وتقتضيه ، فيما يختص بالتطهر والنظافة .

ومما ناله تضعيف المحدثين قول النبى صلى الله عليه وسلم « من أسلم فليختتن » وقوله لمن جاء إليه وقد أسلم « ألق عنك شعر الكفر واختتن » وقوله للمرأة التى كانت تختن الإناث « أشمى ولا تنهكى » ومعناه : خفضى ولا تبالغى فى القطع . وقوله « الختان سنة فى الرجال مكرمة فى النساء »

* * *

وأمام هذه الأحاديث اختلف الفقهاء فى حكم الختان ، شأنهم فى كل مالم يرد فيه نص صريح قاطع .

فرأى الشافعية أنه واجب فى الذكور والإناث ، ووافقهم الحنابلة على الوجوب فى الذكور فقط . ورأى الحنفية والمالكية أنه سنة فى الذكور ومكرمة فى الإناث .

وقد قال الإمام الشوكانى بعد استعراض المرويات فى الموضوع من جهة الرواية والدلالة « والحق أنه لم يقم دليل صحيح يدل على الوجوب ، والمتيقن السنية كما فى حديث « خمس من الفطرة » ونحوه ، والواجب « الوقوف على المتيقن إلى أن يقوم ما يوجب الانتقال عنه » .

ومن هنا يتبين أن الأدلة لا تعطى أكثر من أن الختان سنة . وقد كان العموم فى حديث السنية الصحيح وهو « خمس من الفطرة » يقضى بالمساواة بين الذكر والأنثى فى سنية الختان . ولكن كثيراً من المذاهب رأى أنه مكرمة ، فى الإناث ، وسنة فى الذكور ، ولعل هذه التفرقة ترجع فيما وراء الأحاديث إلى اعتبار آخر يقضى بأهمية الختان فى الذكر ، والتأكيد فيه ، وهو أن داخل القلفة منبت خصب لتكون الافرازات التى تؤدى إلى تعفن ، يغلب معه تكون جراثيم لأمراض ضارة . وإلى هذا الاعتبار يشير الإمام أحمد بقوله فى الفرق بين الذكر والأنثى « ان الرجل إذا لم يختتن فتلك الجلدة مدلاة على الكمرة ، ولا ينقى ما ثم » .

ونظرا إلى أن ختان الذكر كان دائرا عند الأئمة بين الوجوب والسنية المؤكدة ، وفيه هذا الاعتبار الوقائى الذى تعنى به الشريعة أيما عناية - قال الفقهاء - « إنه من شعائر الإسلام حتى لو اجتمع أهل مصر أو قرية على تركه يحاربهم الإمام وهذا فى الذكور خاصة . أما الأناث فلعدم تحقق هذا الاعتبار الصحى فيهن فقد نزل الحكم فيهن عن درجة السنية إلى درجة المكرمة . ولعل ذلك يرجع إلى أن تلك « الزائدة » من شأنها أن تحدث عند المماسة مضايقة للأنثى ، أو للرجل الذى لم يألف الاحساس بها ، ويشمئز منها ، فيكون خفضها مكرمة للأنثى ، وفى الوقت نفسه مكرمة للرجل فى الفترات المعروفة .

وختان الأنثى بهذا الاعتبار لايزيد عما تقتضيه الراحة النفسية ، واستدامة العاطفة القلبية بين الرجل وزوجه من التزين ، والتطيب ، والتطهر من الزوائد الأخرى التى تقترب من هذا الحمى .

أما ما يراه بعض الناس من لزوم ختان الأنثى نظرا إلى أن تركه يشعل لديها الغريزة الجنسية فتندفع إلى مالا ينبغى فهو مما يحتاج فى قبوله وترتيب الحكم عليه إلى فحص واستقراء غالب ، على أن الانزلاق إلى ما لا ينبغى كثيرا ما يوجد فى المختونات كما هو معروف فى الجنايات العرضية ، والمستور منها أكثر مما يعرف الناس. والواقع أن الشأن فى هذا لا يرجع إلى ترك الختان ، وإنما يرجع - كما قررته الدكتورة كوكب حفنى ناصف - إلى سلامة البنية ، ونشاط الغدد وضعفهما ، ثم - من جانبنا - يرجع أيضا إلى الخلق ، والبيئة ، والرعاية فى التربية ، والاشراف والحزم فى المراقبة ، والقبض على ناصية الأمر ، وعدم إرسال الحبل على الغارب فى الاختلاط الذى كاد يقضى على العفة والكرامة .

وكذلك ما يراه بعض آخر من منع الختان نظرا إلى أنه يضعف فى الأنثى النزعة الجنسية فيحتاج الرجل تمكينا لها من تلك النزعة إلى الاستعانة بتناول المواد المعروفة ، ومن ذلك وجب ترك ختانها حفظا للرجل من تناول هذه المواد الضارة .

والواقع فى هذا الاعتبار أن الذين يعتادون تناول هذه المواد لا يقصدون سوى تلبية نزعتهم الخاصة فى الجانب الجنسى ، وأن كثيرا منهم يتناولها لعادة تحكمت فيه ، وصارت بها لديهم من المكيفات اللازمة كما هو الحال عند مدمنى الشاى والدخان .

ومن هذا نرى أن هذا الاعتبار لا ينهض حجة فى منع ختان الأنثى ، كما أن الاعتبار السابق لا ينهض حجة فى لزومه . ولذلك سَلِمَ لغير الشافعية من الفقهاء القول « بأن ختان الأنثى ليس واجبا ولا سنة ، وإنما هو مكرمة للرجال أو النساء »

* * *

هذا والشريعة تقرر مبدأ عاما وهو « أنه متى ثبت بطريق البحث الدقيق - لا بطريق الآراء الوقتية التى تلقى تلبية لنزعة خاصة ، أو مجاراة لتقاليد قوم معينين - أن فى أمر ما ضررا صحيحا ، أو فسادا خلقيا وجب شرعا منع ذلك العمل دفعا للضرر أو الفساد ، وإلى أن يثبت ذلك فى ختان الأنثى فإن الأمر فيه

على ما درج عليه الناس وتعودوه فى ظل الشريعة الإسلامية ، وعلم رجال الشريعة من عهد النبوة إلى يومنا هذا ، وهو أن ختانها مكرمة وليس واجبا ولا سنة .

أما ما يراه بعض الكاتبين من أنه « عملية وحشية » فمن رأيى أنه إسراف فى التعبير ومبالغة فى التنفير ، وقد تكون « الوحشية » المتخيلة فى أصل ختانها ناشئة من تحكيم الحال فى عمليات بجريها الجاهلات المحترفات لهذه العملية . ويرجع ذلك إلى تقصير أولياء الأمر فى مراقبة هذا الجانب ، ومنع من لا يحسن العملية من مباشرتها ، والشريعة تقرر فى هذا وأمثاله وجوب الحجر على المتطبب الجاهل والجراح الجاهل ، وتوجب على أولياء الأمر حفظا لصحة الناس ، ووقاية لهم من الضرر منع من يسيئون فى الأعمال العامة ، كما توجب تعزيرهم عند المخالفة بما يردعهم ويردع أمثالهم .

أما بعد :

فهذا هو حكم الشريعة - فيما نرى - فى موضوع الختان أخذا من النصوص ومقارنة الأدلة ، نبعث به إلى معاليكم تلبية لرغبتكم الشريفة ، واستجابة لداعى الحق والدين .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

ما يصفو به الود

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه فى ثلاث : فى نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

وقال أبو العتاهية :

أحب من الإخوان كل مُواتى ... وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده ... ويحفظنى حيا وبعد مماتى
ومن لى بهذا ليت أنى وجدته ... فقاسمته مالى من الحسنات

فى الأزهر ورسالته وإصلاحه

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
مدرس الشريعة الإسلامية المساعد بكلية الحقوق

نحن الآن فى مستهل عام جديد من أعوام المجلة الغراء ، وفى مفتتح عهد جديد للأزهر نرجو أن يكون مباركا ، لهذا رأيت أن أتقدم فى هذا العدد بهذه الكلمة ، وهى خلاصة تجارب إحدى وأربعين عاما قضيتها بالأزهر طالبا ومعلماً ، ونتيجة مقارنات بين الأزهر وأمثاله من المعاهد العلمية والجامعات بأوربا ، والله المستعان الموفق لما فيه الخير .

---

١ — الأزهر ليس لهذا الجيل وحده ، ولا مصر وحدها ، بل للأمة الإسلامية جميعا ، وهو كما لمست هذا بنفسى بأوربا المعهد الذى يخشاه رجال الغرب والمستعمرون بخاصة ، ويحسبون لوجوده حسابا كبيراً وإن كانوا — مع الأسف — قد بدأوا يعرفون ضعف أثره فى توجيه الحياة فى مصر ، بله الأمة الإسلامية كلها . ولا أدل على ضعف هذا الأثر من قيام كثير من النظم التى تتعارض مع الإسلام ومن أن القائمين على الحكم فى كل العهود لا يكادون يتساءلون عن مبلغ رضاء الأزهر أو سخطه حيال هذا الأمر أو ذاك قبل تقريره .

وهذا المعهد الجليل مهدد بالزوال ما لم تتحدد الغاية ، وتصطنع الوسائل التى تؤدى إلى هذه الغاية ، وهذه الغاية يجب أن تتحد على ضوء الحياة فى العصر الذى نعيش فيه ، ومعنى هذا أن الأزهر ، مثله مثل كل المؤسسات والكائنات الحية ، يجب أن يتطور مع الزمن ، وذلك ليستطيع أن يؤثر أثراً بليغاً فى حياة العصر ، إن لم نقل يسيطر عليها ، بتوجيهها إلى أنبل الغايات على أساس الإسلام وتعاليمه الحقة .

٢ — وفى الناحية العلمية فى الدراسات الإسلامية وما يتصل بها ، نجد الأزهر تخلى عن الصف الأول ، فصار العدد الأكبر الذى برز فى الدراسات الإسلامية والتأليف فيها ، والذى تقرأ لهم مصر والبلاد العربية عامة ، من غير الأزهريين .

وأقول هذا وفى النفس منه غصة وألم شديد ، ولكنه الواقع فعلا ، والمطابع ودور النشر تقدم على هذا دليل أى دليل ! وعلاج هذا ، فى رأينا ، يكون بتشجيع العاكفين على الدرس والبحث والإنتاج ، وعدم نقل أى مدرس للكليات إلا إذا شهد له بذلك مؤلفات منشورة قيمة ، وجعل الترقية فى هيئة التدريس بالكليات نفسها مشروطة كذلك ببحوث أصلية منشورة ، وبدهى أن هذا كله يجب أن يلاحظ تماما فى الترقية للمراكز العلمية الرسمية العامة أى التفتيش ومشيخة المعاهد والكليات .

٣ — والأزهر ، منذ زمن طويل ، بعيد عن شئون الإدارة والحكم فى البلد ، وذلك لأسباب وعوامل نعرفها جميعاً . ولكنه يستطيع بلا شك أن يساهم بقوة فى التوجيه لما يريد من غايات ، وهذا يكون لو وضع القائمون عليه ذلك نصب أعينهم وعملوا له ، ولو أحسنوا تحبيب الدين والشريعة الإسلامية للناس بعرضهما عرضاً ، طيباً ، ولو كانوا فى أفعالهم مصداق أقوالهم ولم يكتفوا بالوعظ والنصح لغير سميع ؛ إذ من طبيعة النفس ألا تسمع ، سماع امتثال وقبول ، إلا لمن يكون قدوة طيبة فيما يقول .

٤ — ثم الأزهر بما عكف عليه من علوم نقلية ، يدرسها من كتب معينة ألفت فى عصور خاصة ؛ وبإعراضه إلى حد ملحوظ عن الدراسات التى تقوم على العقل ونظره ، لا على تقليد الأقدمين فحسب ؛ وبهجره تماما ما كان يعنى به الأسلاف من الأزهريين أنفسهم من علوم الحياة العملية ، مثل الطب والطبيعة والكيمياء والرياضات العالية ، وبانطواء أهله على أنفسهم ، حتى كأنهم يعيشون فى وطنهم على هامش الحياة ـ نقول ، بسبب هذا كله ، وربما لأسباب وعوامل أخرى ، قد صار لنا معشر الأزهريين فهم خاص للحياة ، وعقلية خاصة نحيا بها ، وتقدير خاص نقدر به الأمور ، ومقاييس للحق والباطل والخير والشر لا تتفق كثيراً ومقاييس طوائف الأمة الأخرى .

وكان من هذا أن انفرجت زاوية الخلف بين الأزهريين وإخوانهم فى الدين والوطن ، وكان من هذا خلاف شديد فى الرأى تشق به الأمة كثيراً وتتفرق بسببه الأهداف والغايات والوسائل والجهود ، ونتيجة هذا كله إعراض عن الأزهر ،

وعدم استماع لرأيه فى جلائل الأمور ، وكأن الأزهر غفل عن أن العالم يتطور ، وأن هذا التطور سنة من سنن الحياة لا يفلت منها كائن حى ؛ وكأن القائمين على الأمر فى الدولة يغفلون عن أن مصر مدينة بزعامتها فى العالم الإسلامى ، وبمركزها فى الغرب ، للأزهر وحده ، وعن أن الأمة الإسلامية لا تستطيع بحال ما ، الاستغناء عنه أو التفريط فيه ! لهذا يكون على الأزهر أن يعى ذلك تماما ، وأن يعد لكل أمر عدته فيساير تطور الزمن فيما فيه خيره وخير مصر والإسلام جميعاً ، ووسائل هذا كله ميسورة تذكر حين نريد الدخول فى التفاصيل . وإن كنا نشير هنا إلى ما سبق أن نشرناه فى الصحف ، منذ أكثر من عام من وجوب توحيد التعليم العام فى مصر على أساس التمكين للشبيبة كلها فى الابتدائى والثانوى من الثقافة الإسلامية الصحيحة ، وعلى أساس أن تكون فى نهاية التعليم الثانوى مرحلة توجيهية فى الدين والدراسات الإسلامية ، يغذى المتخرجون منها كليات الأزهر وكلية دار العلوم.

٥ — والأزهر بعد هذا ، هو رباط ما بين الشعوب الإسلامية ، والمركز الثقافى الإسلامى الأكبر الذى يفد إليه كل عام العدد الكبير من ناشئة البلاد الإسلامية ، لهذا نرى من المحزن ماتحققناه من أن أكثر هؤلاء الوافدين على الأزهر من غير مصر ، وقد صاروا يعدون بالآلاف ، لا يجدون عندنا ماكانوا يرجون من عناية خاصة وتوجيه ، حتى يفيدوا أكبر فائدة من مقامهم بيننا ، وحتى يكونوا متى انقلبوا إلى بلادهم رسل خير وصلاح ، وسفراء لمصر والإسلام أينما وجدوا ، وذلك لا يكون إلا بالاهتمام اهتماما جاداً بمراقبة البعوث ، وتعرف حاضر العالم الإسلامى بلداً بلداً ، ليكون من الممكن معرفة حاجة كل بلد من الثقافة الإسلامية لوناً وقدراً .

٦ — والأزهر ، مع ذلك كله ، جامعة ، بل أقدم الجامعات العالمية وأمجدها تاريخا ، ، ولكل جامعة طابعها وأهدافها وتجاربها وتطوراتها ، وربما شاركتنا بعض الجامعات الأخرى ، فى الشرق أو الغرب ، فى بعض ما نهدف إليه من غرض وغاية وخالفتنا فى الطرق والوسائل . من أجل هذا ، نرى أن على الأزهر بهذا الاعتبار — ولأنه صار له من أبنائه نفر عرفوا غير قليل من جامعات الغرب — أن يحرص على الاتصال الصحيح بهذه الجامعات ، ففى ذلك خير كثير : تعاون فى الوصول إلى الهدف المشترك ، ووقوف على تطور بعض العلوم التى نعنى بدراستها

وعلى ما جد فيها من حقائق جديدة ، إلى غير هذا أو وذاك مما نرجحه من الاتصال الحق بهذه الجامعات .

٧ — وعلى الأزهر إشاعة التربية الدينية والثقافة الإسلامية بين أبناء مصر جميعاً . لقد لاحظ كثير منا فى ألم شديد مقدار جهل كثير من أبناء الأمة بالدين وثقافته جهلا فاضحاً ، وعذرهم أنه لم يتح لهم أن يختلفوا إلى دروس الأزهر ومعاهده ، وأن مدارس الحكومة الرسمية لا تقوم بالواجب فى هذه الناحية . لهذا نعتقد أن من الخير الكثير أن ينشىء الأزهر فى الأقاليم والمدن المختلفة ما يمكن أن يسمى : « مراكز الثقافة الإسلامية الشعبية » : وفى هذه المراكز تلقى دروس ومحاضرات مسائية لمن يريد هذه الثقافة الإسلامية على غرار مؤسسات الجامعة الشعبية . حينئذ تتاح الفرصة لكل من يريد من المسلمين والمصريين جميعا معرفة الدين الإسلامى فى عقائده وعباداته ، والإلمام بالثقافة الإسلامية فى ألوانها المختلفة

ولا نريد أن يكون إنشاء هذه « المراكز » عبئاً على الميزانية ، فإنه من الممكن استخدام المعاهد الدينية فى المدن التى بها معاهد ، واستعارة قاعات للمحاضرات من مبانى الحكومة فى المدن الأخرى ؛ على أن يكلف مدرسو المعاهد الدينية القيام بهذه المحاضرات ، فضلا عن التبرع الإلزامى رسميا بنحو ١ ٪ من مرتباتهم جميعا للقيام بما يلزم لهذا المشروع من نفقات . إن هذا المشروع حين يتم على نحو هذا الوجه ، يعطى للأمة الدليل الملموس على أن أبناء الأزهر يعطون من أموالهم ومن أنفسهم للأمة وفى سبيل الدين ، كما يسد نقصا ملحوظا فى مناهج وتقسيمات مؤسسات الجامعة الشعبية التى شملت كل الثقافات العامة ماعدا الثقافة الدينية الإسلامية

٨ — إن كثيراً من المسلمين ، بله غير المسلمين وغير الشرقيين ! ، لا يعرفون الإسلام معرفة يمكن أن تكون صحيحة وكافية ولو تجوزا . فمن الواجب إذا ، أن يصدر عن الأزهر كتاب عن الإسلام : عقيدة ، وأخلاقا ، وتشريعا ، ونظاما اجتماعيا ، ومذهباً اقتصاديا ، إلى سائر نواحيه المختلفة حتى الدولى منها . ثم ، أن يترجم هذا الكتاب للغات جميعها فى الغرب والشرق ، ويوزع فى أقطار الأرض كلها . بهذا وحده — لا بترجمة القرآن لو كان هذا ممكنا — يستطيع أن يعرف الإسلام حق المعرفة من يريد ، وبهذا نكون قد أدينا واجباً لهؤلاء الحائرين فى

الغرب الذين يبحثون عن دين يسير فهمه، ويتفق مع مقتضيات هذا العصر، وما أكثر ما لقينا من هؤلاء الحائرين فى أوربا! كما نكون قد أدينا واجباً للإنسانية كلها وللحقيقة، لأن أكثر ما كتب عن الإسلام تعوزه الدقة والإنصاف

٩ — وأخيراً، لقد لمس الأزهر هذه الأيام قلة الذين يحذقون لغة من لغات الغرب، ولهذا أوفد بعض أبنائه لذلك بانجلترا؛ حتى إذا عادوا للوطن، أمكن أن يسدوا بعض حاجات الشعوب والبلاد الإسلامية التى تطلب من الأزهر إمدادها بمن يثقفهم بثقافة الإسلام باللغة الإنجليزية.

ونعتقد أن الأمر بحاجة إلى من ينظر إليه نظرة أوسع وأعمق. يجب فى رأينا أن تعلم بعض اللغات الغربية فى الأزهر تعليما جاداً فى المرحلة الثانوية والعالية، وبجانب هذه اللغات يجب كذلك تعليم بعض اللغات الشرقية كالصينية والأوردية، وبخاصة هذه لأنها لغة الباكستان الوطنية، ومن هؤلاء الذين يتعلمون هذه اللغات ويجيدونها، يمكن الدعوة للإسلام ونشر الثقافة الإسلامية فى هذه البلاد.

وبعد! فهذه كلمة عن بعض ما أرى فى إصلاح الأزهر ليؤدى رسالته كاملة، وأرجو أن يكون فى نشرها ما أرجو من خير، والله يهدينا جميعاً سواء السبيل.

* * *

(مجلة الأزهر) تلفت النظر إلى ما ورد فى هذه المقالة من الاقتراحات القيمة الخاصة بالأزهر وبالأمم الإسلامية. فقد أزف الوقت الذى يجب فيه أن ينظر إلى أمثال هذه الاقتراحات بعناية فائقة. فإن أمة تتألف من نحو أربعمائة مليون نسمة تقوم على بلاد العالم وأخصبها بقعة، يجب أن تكون فى مقدمة الأمم علما وصناعة ومدنية، لاسيما وقد كانت مهداً لها منذ أقدم العصور التاريخية إما الاستنامة إلى التقاليد الاجتماعية البالية فقد أصبحت مما لا سبيل إلى المحافظة عليه، وأولى بها أن تزول ويحل محلها الإيمان والإسلام بمعناهما الصحيحين، بدل أن يغتصب مكانها الإلحاد والانحلال، وقد أبدع حضرة الكاتب فى بيانه فنعجب به ونشكره عليه، ونبشره بأن أولى الأمر يعملون جاهدين على تحقيق هذه الأمانى النبيلة.

محمد فريد وجدى

شُعَرَاءُ الأَزْهَرْ

٧ ــ الشيخ عبد الرحمن قراعة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

كنت مدرساً فى مدرسة خليل أغا ، إحدى مدارس الدائرة الخاصة الملكية ، حينما كتب الدكتور منصور فهمى فى سلسلة مقالاته : « خطرات نفس . . الأهرام » ينقد : « هيئة كبار العلماء » نقداً مقذعاً ، عرض فيه لذكر الموائد ، والطعام ، وما إلى ذلك ؛ وكتبت تحت عنوان : « على رسلك يا دكتور » رداً نشرته الأهرام ، ومضى بإعجاب الأزهر ، ونمى إلىّ أنّ حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى الديار المصرية . كان أشد كبار العلماء إعجاباً ، وأبلغهم إطراء . وكنت مستحقاً فى جراية « أتوزبير » الممتازة ؛ ولعدم حاجتى إلى الخبز ، كنت أبيعها شهرياً لتاجر مشهور يلقانى على رأس كل شهر لينقدنى ثمنها .

واتفق أن « فرز » مستحقو أتوزبير ، فى أوائل اكتوبر ولم أحضر ، فشطب اسمى ، وجرى التاجر على عادته فلم يلقنى إلا أول نوفمبر ، لا لينقدنى ثمن الجراية ، بل ليبشرنى ـ أجزاه الله ـ بشطب اسمى لعدم حضورى فى الفرز ! وأحزننى ـ علم الله ـ هذا الشطب ؛ الذى لم يكن يكلفنى اتقاؤه إلا علمى بالفرز فى حينه ، إذ أن نظام عملى يوجب أن أكون فى مقره من أول يوم من سبتمبر ؛ ولكننى قلت فى نفسى : إن فضيلة المفتى ، الذى إليه أمر « أتوزبير » سوف لا يتردد فى الأمر بإعادة قيدى ، متى علم أن هذا الذى شطب اسمه ، هو بعينه كاتب المقال « إياه » !

وأسرعت إلى دار الإفتاء ، ومثلت فى حضرة الشيخ ، وبعد أن حييته التحية التقليدية المعروفة ؛ قلت : أنا ـ يا مولاى ـ مستحق بأتوزبير ، وقد شطب اسمى لأننى لم أعلم بالفرز ، مع أنى كنت فى القاهرة . . . وقطع الشيخ على كلامى بقوله :

وأنت أيه ؟ قلت : أنا ؟ أنا أزهرى يا مولاى ؛ فصوب نظره فىّ وصعّده ، ثم صوبه وصعده ، ثم قال : ودَهْ شكل أزهرىّ !!! وخلخلتنى الصدمة : صدمة الفشل ، وخيبة الأمل ! ففتحت فمى لحظة ؛ ثم تماسكت . فقلت : ولكن هذا شىء آخر . فقال : آخر ، ما فيش جراية ، امشى . . !

وتناثر على أثر هذه الجملة كلمات من هنا ومن هناك ، صاح الشيخ على أثرها فى عصبية هادرة : يا فراش ، أخرج ده من هنا . وكان الجواب : هنا دار الإفتاء ، لا دار مولانا . . . ولن أخرج منها حتى يخرج . ووقف الفراش المسكين بالباب ، ينظر الى الشيخ مرة ، وإلى أخرى ؛ وأقبل الشيخ عليش أمين الفتوى ، فقال : كان ينبغى — يا أستاذ — أن تخبر الشيخ ، أنك من علماء الأزهر ، قلت : بل كان ينبغى أن أضع رخصة على كتفى ، لأعرف لأول نظرة . ودق الموقف وتحرج ؛ ولكن الشيخ هب واقفا ، وأمر باستدعاء العربة ، ثم خرج ، وخرجت خلفه ؛ وبعد أن اتخذ طريقه الى الأزهر ، اتخذت طريقى راجعا بالخفين « إياهم » . فأما الجراية ، فكانت الضحية البريئة ، التى اتخذت طريقها الى قرافة المجاورين ! .

لم يكن الشيخ متجنيا ولا معتديا ؛ وإنما رأى شابا شديد الاعتداد بنفسه الى ما يشبه الغرور ؛ يتزيا بزى بعيد الشبه بأزياء المشايخ : ألوان صارخة ؛ وحزام معقود على البطن مرسل الأهداب ، كأنه « حياصة كاعب حسناء » وعمامة « حمصانية » تقلصت عن شعر عمل فيه الترجيل والتهذيب ، فبدا براقا صقيلا . . الخ الخ . وأكبر الظن أن نجاح الشيخ فى إصلاحى ، كان مضمونا ، لو أنه سلك معى مسلك الناصح الشفيق ؛ لولا أن « لازمة » رجال الدين جميعا ، لا الشيخ وحده ، هى حدة العاطفة ، والصراحة فى الحق ، والأخذ بأقوى شعب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وأقسم لو أننى كنت مكانه ، لما فعلت غير ما فعل ؛ ولكن الحياة أطوار !

والشيخ عبد الرحمن قراعة ، شخصية غنية بأنواع الكرامة : كرامة الأسرة ، فبيته من بيوتات الصعيد الكريمة المعروفة ؛ وكرامة الخلق ، فقد كان نزيها ، بعيدا عن مزالق الشبهات ، ومطارح الريب ، شديد التمسك بمظاهر الترفع والتكرم ، الى حد التزمت ؛ وهو بهذا يشذ عن مذاهب الأدباء فى التسامح ، واتساع الأفق ؛

والكرامة العلمية ، فقد كان من أجل العلماء ، وأصفاهم قريحة ، وأقواهم حجة ، وأوفاهم أمانة ؛ والكرامة الأدبية ، فقد كان أديبا مطبوعا ذواقة ، ذا موهبة شعرية قوية ، قاومت بعناد غير قليل طغيان الأسلوب العلمى ، الذى يرجع إليه فى الأزهر الشريف ، ضعف سلطان الشعر ، وتواضعه عن مساماة غيره من ضروب الثقافات التى تعالج فيه ومن هنا ،كان اتصال الأدباء بالشيخ ، وقربهم منه ، ومدحهم له ؛ فقد مدحه الشاعر البدوى الفحل المغفور له الشيخ محمد عبد المطلب ؛ ومدحه الشاعران : الشيخ على الريان ، وصادق عرنوس أفندى ، فى مجموعة أشعارهما المشتركة : « الديوان » المطبوعة سنة **١٩١٢** على ما أذكر ؛ ومدحه الشاعر الراوية المرحوم أحمد الزين .

يقول عبد المطلب من قصيدة :

العالم الورع ، ابن العالم الورع ، ا ... معروف ، فى النفر البيض الصناديد
القاطع الليل ، والظلماء شاهدة ... ما بين حالين : تسبيح وتحميد
وناصر الدين فى قول وفى عمل ... إذا التوت عنه أرسان المذاويد
وجاعل الحق نهجا لا تحيد به ... عنه الخطوب ، ولا سيما المحاييد
ترمى به الفضل نفس كلما طمحت ... نحو العلا ظفرت منها بمقصود

إلى أن قال :

لله ما حاز من علم ومن أدب ... ومن كمال له فى الدين مشهود
تلك السيادة ، لا ما كان زخرفها ... متاع دنيا لعمرى غير موجود
أولى بها عابد الرحمن وهو بها ... أولى ، وما كل من ساد « ابن محمود »
حسب المكارم أن الله أودعها ... فى آله ، فتولاها بتسديد
من كل أروع يزدان الفخار به ... وعيلم فى بحار العلم مورود
إذا السيادة أعيت من يحاولها ... كانوا مواليها عند المواليد
قوم كرام ، إلى « قراعة » انتسبوا ... بخير ما تنسب الأشبال للصيد

ويقول الزين ، لما تولى الشيخ إدارة الأزهر ، من قصيدة :

وأرقنى داع لاصلاح معهد ... له من فعال المفسدين نحيب
فقلت له لا تأس ، ملك أمره ... أخو ثقة للمعضلات ركوب
فذاك الذى قرت به عين أمة ... لها عبرات سيلهن يصوب
وألقت عصاها حين قام بنصرها ... جموع لشتى المكرمات كسوب
ولست أرى فيه سوى أنه الذى ... تقر به عين العلا وتطيب
به أدرك المهضوم خطة عادل ... وأصبح داعى الحق ليس يخيب
وأورق غصن العلم بعد ذبوله ... وألبس ثوب المجد وهو قشيب

* * *

وشعر الشيخ - كما قلت - ينساب فى أعطافه نفحة من نفحات فحول الشعراء ، وإن عارضها - أحيانا - طابع أشعار العلماء ؛ وهذا مقام كريم ، إذا عرفنا أن الشيخ ومعاصريه من الشعراء ، كانوا البرزخ الذى انتقل به الشعر إلى البعث فى عهد النهضة الحديثة ، بعد أن وقف حتى جمد : وضعف حتى همد .

تطالعك هذه النفحة . بدرجات متفاوتة ، فى جميع ما تناوله من أغراض الشعر وقد تناول الأغراض القديمة كلها ؛ فمن غزله :

أهلا بطيف خيال زارنى سحرا ... لولاه لم تكتحل عينى بطيب كرى
طوى المراحل نحوى ، والمنازل فى ... جنح الليالى يخوض الهول والخطرا
فلا - وربك - لولا ليل طرته ... أخفاه عن أعين الواشين ما استترا
حيا ، فأحيا فؤاداً قد قضى أسفا ... لولا التحية أحيته لما نشرا
زموا الرجال . وضموا فى هوادجهم ... بدرا ، إذا غربت شمس الضحى سفرا !
ياسائق العيش ، إن جزت العقيق فقف ... به رويدا عسى نقضى به وطرا
وانشق عبير ثراه ، واسق روضته ... بدمع عينك ، واستنجد لها المطرا
وصن فؤادك لا تغلبك خردهُ ... عليه ، إن فوقت عن قوسها وترا

ويقول فى « الاخوانيات » يمدح ويشكر :

شقيق الروح أهدانى[1] سلامه — فألبسنى به حلل السلامه
فلم أر قبله أبدا سلاما — إذا وافى العليل شفى سقامه
سكرت بطيب رياه ، فلولا — تقاه ، لقلت أهدانى المدامه
فيالك ناظما عقداً ثمينا — يد الأفكار قد نسقت نظامه
لقد أحرزت غاية كل سبق — فما عبد الحميد ، وما قدامه ؟

* * *

وفى تهنئة الأستاذ الإمام محمد عبده ، بمنصب الافتاء :

بهديك فى الفتوى إلى الحق نهتدى — ومن فيض هذا الفضل نجدى ونجتدى
لكل زمان من بنيه مجدد — لما أبلت الأهواء من دين أحمد
وقد علم الأقوام أن محمداً — مجدد هذا الدين فى اليوم والغد
يميناً به ، بالفضل خصص « عبده » — محمداً ، الداعى لهدى محمد
وقلده عقد الفتاوى فأصبحت — تتيه به الفتيا بخير مقلد
لتخترقن الحجب بالرشد لا الهوى — وتبنى منار الحق بالفكر واليد
فتوضح من إشكاله كل غامض — وتفتح من أبوابه كل موصد

* * *

وله فى رثاء بعض أصدقائه من قصيدة :

أيها النفس ، كيف علمك بالصبر فقد فلت الحوادث حدى
إن رزء « الحسين » قوض أطنا — ب سرورى ، وهد أركان مجدى
أغمدت بعده سيوف عهدنا — أنها لا تقر يوما بغمد
وخبت بعده مصابيح كانت — هى شمس الهدى لهاد ومهدى
وخلت بعده المنازل من إجزال رفد ، أو من تحية وفد

---

(١) عدى الشيخ « أهدى » بنفسها ؛ والمعروف تعديتها بألى .

وله فى العتاب ، وهو بالغ الجودة :

صلونى ، وان شئتم فاهجروا وأوفوا بعهدى ، أو فاغدروا
خضعت لأحكامكم صاغراً ومن ذا يحب ولا يصغر !!!
وحاولت كتمان وجدى بكم فنمت دموعى بما أضمر
فياحيرة الحى رحماكمو لمن دمعه سائل ينهر
أجن لرؤيتكم كلما دنا جؤذر ، وأضا نير
وأشكو اليكم جوى فى الحشا إذا أنا أخفيته يظهر
بكم عذت من جوركم فاعدلوا ولذت بكم منكمو فانصروا !
فما أحسن العفو عمن أسا ولا سيما عفو من يقدر

وله هجاء ، أكثره من الأدب المكشوف ، على طريقة شعراء البتيمة ، أو كما يقول جرير فى هجاء الراعى التميرى :

أجندل ، ما تقول بنو نمير إذا ما ... فى ... أبيك غابا

وفى هجاء الفرزدق :

إذا سعلت فتاة بنى تميم تلقم باب عضرتها الترابا
ترى برصا بأسفل إسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا

فله عفا الله عنه :

لله درك من رفيع كاتب بدواته تتعاقب الأقلام
عرضتها للكاتبين ، فكلها عجزت أغيلمة ، أتاك غلام
هذى مفاخرك التى أحرزتها وأفادك الخالات والأعمام
وبها نخارك ، فافتخر ما شئت ، لا عرض ، ولا عقل ، ولا إسلام

* * *

وله :

إن كنت يا ... تزعم أنها صدقت ، فإنك آثم أفاك
لو كنت من أهل الفسوق عرفتنى أيام كنت بدرهمين ... !

وله :

ما زلت تذتف عارضيك لـكل من أبصرته ، وترجرج الأفلاكا
وتقول : هل من . . . لم يدخل الد دنيا ، فـلم تر فى الورى . . .

وفى الحق أنهـا ملـكة من تراث قدامى الشعراء . طاغية مقذعة !

وله فى غير ذلك إحسان كثير ، تقرؤه فى مجموعة : « الشيخ عبد الرحمن قراعة كأديب » بقلم محمود على قراعة . المطبوعة سنة ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م . أهـداها إلى الأستاذ الصديق على محمد حسن المدرس فى معهد القاهرة .

وأختم مختارى من أشعار الشيخ رحمه الله تعالى ، بقوله يصف النياق ويمدح الرسول الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه :

إذا نظمت أخفافها عقـد منزل نثرن حصا البيداء نثر الدراهم
متى أرم أكباد البطاح بها أصب مقاتلهـا ، موطوءة بالمنـاسم
تحن إلى طى القفار حنينها لأم القرى من بين كل العواصم
وتأبى ، ولو أن السماكين سخرا لها منزلا ، إلا بشعب ابن هاشم
هنالك ، حيث الـكون أشرق وازدهى بخير الورى والبيت سامى الدعائم

إلى أن قال :

إلى حيث أنوار النبوة أشرقت على الناس طرا : عربهم والأعاجم
إلى الآية الـكبرى على كل جاحد إلى الحجة العظمى على كل ظالم
إلى الغرض الأقصى الذى ليس ١ مرام لرام ، أو مرام لرائم
إلى أحمد الهـادى البشير محمـ إلى الطاهر المـاحى ظلام المظالم
إلى الحامد المحمود أكرم فاتح وأفضل مبعوث وأشرف خاتم

* * *

صلى الله عليه وسلم ، وأسبل على جدث الشيخ العظيم هوامى رحمته ورضوانه ، كفاء إخلاصه وإحسانه . آمين .

دراسات فى القرآن

موسى الكليم — فى سورة المائدة (١)

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

قلت إن الله سبحانه قد ذكر موسى الكليم فى خمسة وعشرين موضعاً من الكتاب الكريم وتعرضت لما ورد فى السورة التى ذكرت فيها البقرة من نعمة الانجاد من آل فرعون وفرق البحر ، واتجاه قوم موسى ، وإغراق عدوهم ، ومواعدة موسى أربعين ليلة ، وعفو الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ، وطلبهم رؤية الله ، ثم عتابهم والعفو عنهم ، وإحسان الله إليهم بتظليل الغمام فى الصحراء ، وإنزال المن والسلوى من السماء وعدم تحقيقهم دخول القرية ، وطلبهم السقيا من موسى ، ثم إخراج الماء لهم من الحجر ، وما تبع ذلك من مظاهر الضجر . واعتدائهم فى السبت ، ثم قصة البقرة ، وأختلافهم فى أمرها — وكان الموضع الثانى من المواضع الخمسة والعشرين سورة المائدة .

وفيها خبر يصور قسوة قلوب القوم . وإختلافهم أيضا ، وعقاب الله لهم . وهذا الموضع يقع من الناحية التاريخية بعد نجاتهم من آل فرعون وخروجهم من مصر كما سترى وهو مما لم يذكر فى غير هذه السورة الكريمة فيما نعلم .

والواقع أن سورة المائدة (وهى الرابعة من سور القرآن الكريم) تذكر أحوالا أخرى من تواريخ بنى إسرائيل قبل زمن محمد صلى الله عليه وسلم وفى زمنه بل الواقع أن كثرة من سور القرآن الكريم لاتخلو من شرح لأحوال هؤلاء الناس تحديا لهم وعظة بتواريخهم ، وصورهم النفسية العجيبة . وهداية لمن أراد الله هدايته

---

(١) الواقع أن فى سورة النساء ذكر الشىء من أحوال كليم الله وقومه فى الآيات (١٥٣ - ١٦٢) ولكنها مستطردة - فيها مر سريع ببعض الحوادث ولذلك لم أقصد إليها فى المواضع الخمسة والعشرين . وللقارىء الكريم أن يرجع إليها فى الكتاب الكريم .

منهم وكذلك هذا الكتاب الكريم . هدى للمتقين ، وتسجيل وحجة على المعتدين المعاندين وإنما أحاول دراسة الأحوال التى تتصل بكليم الله وتلابسه ملابسة قريبة وفى سورة المائدة من ذلك الآيات من (٢٠ — ٢٦) .

وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله — إلى قوله فلا تأس على القوم الفاسقين وفى هذه الآيات أن موسى صلوات الله عليه قال لقومه بنى إسرائيل أذكروا نعمة الله عليكم فى ثلاثة مواضع فاشكروها وأدوا حقها . واسمعوا وأطيعوا لرسوله فيما يدعوكم إليه إسعاداً لكم وإصلاحاً لشئونكم . وإن شق الأمر على نفوسكم وتوهمت فيه إضرار بكم ، وهذه النعم الثلاثة هى :

١ — أنه جعل فيهم أنبياء كثيرين والله سبحانه قد جعل فى ذرية إبراهيم النبوة والكتاب . وردد هذا المعنى فى كثير من آيات الكتاب . وذلك يقتضى الاستقامة على الطريقة فإن النسب الكريم يزينه العمل الكريم . حفظاً لكرامته ورعاية لحرمته . وإلا ذهب جمال الشرف . وضاعت ميزته ولهذا يقول النبى (آل النبى كل تقى) .

٢ — أنه سبحانه جعلهم ملوكا . فقد حررهم من رق العبودية . وأخرجهم إلى فضاء الحرية وذلك الملك الحق . والصفاء الذى لا يقاس به عز . قال زياد : خير الناس ، رجل لا يعرفنا ولا نعرفه فى غنيمات له . فالملك من لا سلطان عليه لأحد . وذلك سائد فى لغة العرب وقد دلت عليه الآية الكريمة فإن الله سبحانه يقول جعلكم ملوكا . ولم يقل جعل فيكم ملوكا والعبارة لا تصدق إلا بهذا التفسير .

٣ — أنه سبحانه آتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وهذا يشبه أن يكون من عطف العام عن الخاص لإفادة الشمول وعدم الخصوص .

ومعنى ذلك أنه سبحانه آتاهم النبوة وآتاهم الملك وأعطاهم فرق البحر وإغراق فرعون ، والتوراة فيها هدى ورحمة ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل المن والسلوى ، وغير ذلك ، وكل هذا لم يعطه الله أحداً من العالمين .

وإذا كان ذلك فمن حقه أن يشكروه ، ويقدروه ويتلقوا ما يأمر به بقبول حسن ، وكان نبى الله وكليمه علم من قسوة قلوبهم ما يدعو إلى تخفيفها وترقيقها

ولكن ... ولكن أنى هـــذا وهى كما يقول الله سبحانه كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وكان من حكمة الله سبحانه أن يطلب منهم ذلك الأمر فيخالفوا فيعزلهم فى ذلك التيه الذى يبلغ عشرة فراسخ فى مثلها يخبطون فيه ليلهم ونهارهم ، ويعودون من حيث ابتدءوا بقدرة الله حتى ينقرض هذا الجيل الفاسد ، ولا يكون عدوى لذلك العنصر الذى أفسده الاستعباد والاحتلال الفرعونى نسأل الله السلامة .

قال موسى لقومه يا قوم ادخلوا الأرض المقدسـة وهى أرض الشام والحق أنها غير القرية التى ذكرت فى سورتى البقرة والأعراف — (وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية ، وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية) فإن السياق فى القرآن يشعر بأن دخول القرية كان وهم فى التيه ، وأما هـذه الأرض المقدسة فطلب منهم دخولها قبل التيه ، وكان التيه عقوبة لهم على تركها ، والقصة تتلخص فى أن موسى قال لبنى إسرائيل بعد أن عبر بهم البحر ، ومهد بالتذكير بنعم الله عز وجل ، أدخلوا الأرض المطهرة المباركة التى وعـد الله إبراهيم أن يجعلها لذريته كما ورد فى سفر التكوين أن الله سبحانة قال لابراهيم ـ لنسلك اعطى هـذه الأرض ـ وحذرهم أن يجبنوا عن القتال ، وإلا رجعوا خاسرين لم يظفروا بهذه الأرض ، فيحقق الله سبحانه الوعد لغيرهم من ذرية إبراهيم ، من المطيعين لأوامره ، ولكن ضعف الاستعباد وسوء تربية الاحتلال علمهم الجبن والخور فهم الذين يحسبون كل صيحة عليهم ، قالوا إن نبى الله أراد أن يقرهم فى أرض يستقرون فيها بعـد خروجهم من مصر فلما قرب من حدود الشام قال لهم إن الله سبحانه وعدكم هذه الأرض فادخلوها واستعدوا لقتال من يقاتلكم من أهلها ، فأرسلوا اثنى عشر جاسوسا منهم يدرسون أحوال أهلها ، فلما رجعوا قال عشرة منهم لموسى وهو فى ملأ من بنى إسرائيل . إنها أرض تدر لبنا وعسلا ، غير أن القوم أقوياء والمدن حصينة ، وقد رأينا أهلها وهم طوال الهامات فصرنا فى عيونهم كالجراد ، وكذلك كنا فى عيوننا . ذلك بمعناه فى السفر الرابع من التوراة وهو قـدر معقول لا ينافى نص القرآن الكريم بل يسايره . قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين ، والجبار فى اللغة عظيم الجثة الطويل من قولهم نخلة جبارة ، وناقة جبارة ، وقد ذكرت أوصاف أخرى فى الاسرائيليات

الكاذبة ، نقلها بعض المفسرين ، ولا معول عليها ، ولا تتفق مع المنطق ولا التاريخ الطبيعي .

وما كاد بنو إسرائيل يسمعون من الجواسيس وصفهم ، وما بهم من بطش وقوة حتى طاروا شعاعاً ، وتولاهم الرعب والفزع . وأكل قلوبهم الهلع . وبكوا وتمنوا لو أنهم ماتوا بمصر ، ثم صاحوا بموسى متظاهرين « إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . كره القوم الجهاد في سبيل الله . لأنهم ألفوا ألا يدفعوا عن أنفسهم شراً . واطمأنوا إلى الخوارق التي عودهم موسى وما كانت من الأوضاع الطبيعية ولا السنن الكونية . وإنما الحياة عقيدة وجهاد ، وكفاح وجلاد .

فهذه الإسعافات المؤقتة التي يثبت الله بها قلوب عباده لا تستقيم عليها حياة . وإلا كان الإنسان جماداً ، ولا حراك به ، ولا تصرف له .

ولما كان كل وسط لا يخلو من ذوي مزايا ممتازة ، فقد كان في بني إسرائيل من ينكر عليهم تمردهم ولا يقرهم على تمردهم ، فانبرى رجلان من الذين يخافون الله . ولا يرهبون بطش سواه . قد أنعم الله عليهما بالانقياد والطاعة ، وقد ذكرت التوراة أنهما يوشع بن نون وكالب بن يفنة وأجمع المفسرون من المسلمين على ذلك . وقالا لقومهما ادخلوا عليهم باب تلك المدينة ووعداهم ثقة بالله وتوكلا عليه بالنصر والغلبة ، وطلبا منهم أن يتوكلوا على الله كما توكلا ، إن كانو قد آمنوا كما يقولون . فإن المؤمن الصادق من يتوكل على الله ، ولا سيما في جهاد عدوه ، والدفاع عن حقه « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

ولكن القوم لضعف نفوسهم وخور عزائمهم ، أصروا على جبنهم . ولم يتوكلوا على ربهم « وقالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » . يتهكمون بكليم الله قائلين في محاجته . إن كان ربك هو الذي أمر بإخراجنا من مصر لسكنى هذه الأرض وكتبها لنا ، فاذهب أنت ومن أمرك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ننتظر ما يتم بينكم ، عند ذلك أخذ موسى يشكو

إلى ربه ، هذا الذى نزل به . من تمرد قومه ويتنصل من فسقهم وتمردهم « رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » .

ولقد احتاط صلوات الله عليه غاية الحيطة فلم يكفل إلا هرون معه . لأنه مطواعاً لا يخالفه ولأن الله أتاه سؤله فيه يوم قال « اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى » . فليس من الجائز أن يخرج عن توجيهه . وأما الرجلان فجائز أن ينكلا ، وقد نكل القوم لأن الكثرة غير القلة ، وأنت فى الجماعة غيرك إذا انخذلت عنك . وقد عجل الله سبحانه للقوم جزاء من جنس ما عملوا فحرم عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون فى أرض مقدارها عشرة فراسخ فى مثلها لا يمكنون من الخروج منها حتى ينقرضوا ويأتى الله بقوم آخرين فيهم صلاحية للبقاء والخلافة على الأرض الطيبة لم يفسد الاستعباد فطرهم . ولم يفت الاحتلال فى أعضادهم « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر إن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . اللهم خلصنا من أوحال الاحتلال . وارفع عنا نير الاستعباد حتى نحسن عبادتك .

« التورع عن ولاية المناصب »

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى . إلى عدى بن أرطاة أن اجمع بين إياس من معاوية . والقاسم بن ربيعة الجرشي . فول القضاء أنفذهما . فجمع عدى بينهما . فقال له إياس : أيها الرجل سل عنى وعن القاسم . فقيهى البصره : الحسن وابن سيرين . وكان القاسم يتردد عليهما وإياس لا يأتيهما . يريد بذلك أن يشهدا بكفايته فيسند عدى القضاء إليه . ويخاص هو منه . فأدرك القاسم هذه الحيلة فقال لعدى لا تسأل عنى ولا عنه . فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياس ابن معاويه أفقه منى وأعلم بالقضاء . فإن كنت كاذبا فما ينبغى أن توليني . وإن كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى : فقال إياس لعدى إنك جئت برجل فأوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف فقال عدى : إما أن فهمتها فأنت لها . فاستقضاه ؟

أبو اسحاق الشيرازى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى
مدير المساجد بوزارة الأوقاف

امتاز القرن الخامس الهجرى بطابع النشاط العلمى فى التأليف ، نتيجة لتنازع القوى السياسية والمراكز الإسلامية المتعددة المتنازعة فى الخلافة ، فأنت ترى فى مصر الدولة الفاطمية التى أسست الجامع الأزهر سنة ٣٦١ ﻫ وجعلته معهدا علميا لدراسة المذهب الشيعى وتكوين الدعاة لتدعيم مذهبهم وتثبيت خلافتهم ، وذلك مما دعا الخلفاء العباسيين ببغداد الى أن يزداد نشاطهم صدا لهذا التيار الجارف . وكما نرى تلك المنافسة بين مصر وبغداد حامية الوطيس نراها أيضا فى الأندلس حين اشتد ساعد دولة المرابطين ، إذ نرى يوسف بن تاشفين يرسل قائده داود بن عائشة لمحاربة كاثوليك الأسبان قرب بطليوس ، ونراه يخرج من هذه الحرب ظافرا منتصرا حاميا لبيضة الإسلام ، ذائدا عن حياضه ، ملقبا نفسه باسم أمير المؤمنين .

ومن الطبيعى أن يكون لهذه المنافسة السياسية أثرها فى الجوانب العلمية المختلفة لذلك نرى أن هذا القرن أنجب ، نتيجة لذلك التفاعل ، علماء محققين فى كل عاصمة من تلك العواصم الإسلامية . فأنت ترى أبا إسحاق الاسفرائينى الشافعى ، وأبا عمر الطلمنكى المالكى ، وأبا زيد الدبوسى الحنفى ، وابن حزم الذى كان شافعى المذهب ثم انتقل الى مذهب الظاهرية ، وأبا الوليد الباجى المالكى ، وإمام الحرمين الجوينى الشافعى ، ومترجمنا أبا إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الشيرازى الشافعى وغير هؤلاء من جلة العلماء وأفاضل المحققين الذين ذخرت بمؤلفاتهم المكتبة الإسلامية وتناقل العلماء أفكارهم وآراءهم منذ ذلك القرن الى اليوم .

هذه صورة مصغرة تضىء لنا نواحى البيئة العلمية التى نشأ فيها الشيرازى ، ونعود بعد ذلك الى أطوار حياته فنذكرها طورا إثر طور على حسب ترتيبها الزمنى وبمقدار ماتسعفنا به المراجع التى بين أيدينا ، علنا نصل الى إبراز هذه الشخصية التى أدت واجبها نحو عقيدتها ، ونحو مجتمعها الذى عاشت فيه واستظلت بظله .

يذكر لنا محب الدين بن النجار فى تاريخ بغداد ، أن الشيرازى ولد بفيروز أباد (بلدة بفارس) ونشأ بها ، ولم تبين لنا كتب التاريخ التى بين أيدينا كيفية نشأته الأولى ، وهى على ما نظن كانت على وفق نشأة أقرانه وأهل عصره ، فهى حفظ للقرآن وتعلم للقراءة والكتابة ، ويذكر لنا هذا المصدر نفسه أن أبا إسحاق دخل شيراز وقرأ بها الفقه على أبى عبد الله البيضاوى وعلى أبى أحمد عبد الوهاب بن رامين ثم دخل البصرة وقرأ على الجوزى .

تلك هى البلاد التى تنقل بها الشيرازى فى شبابه طالباً للعلم من أهله ، ثم دخل بعد ذلك بغداد فى شوال سنة ٤١٥ هـ . وفى بغداد أصبح الشيرازى متأثراً بشيوخه متلقياً عنهم ، مستوعباً لأنواع العلم فيها ، مؤثراً فى تلاميذه وأبنائه . وأشد العلماء تأثيراً فى الشيرازى شيخه أبو الطيب الطبرى الذى كان يصحبه طويلا ، ويأخذ عنه كثيراً ، وينيبه عنه فى درسه ، بل قد رتبه معيداً فى حلقته بصورة لعلها لا تعدو ما عليه نظام المعيدين بالجامعات فى العهد الحديث . وإذا أردنا تحقيق سن الشيرازى وقت دخوله بغداد ، وجدناها أقل من عشرين بقليل ، أو أزيد منها بقليل ، على اختلاف الروايات فى مولده ، ونجتاز تلك المرحلة إلى مرحلة التأليف والتدريس اللذين كان محطهما بغداد ، فقد ألف فى الفقه الشافعى « التنبيه » وهو أحد الكتب المشهورة فى المذهب ، فرغ من تصنيفه سنة ٤٥٣ هـ ولبعضهم فى مدحه :

يا كوكباً ملأ البصائر نوره من ذا الذى لك فى الأنام شبيهاً
كانت خواطرنا نياما برهة فرزقنا من تنبيهه تنبيهاً

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ، ومع هذه الترجمة مقدمات للأستاذ جوينبول . وله « المهذب » فى المذهب ، فرغ من تأليفه سنة ٤٦٩ هـ وصفه صاحب كشف الظنون بقوله كتاب جليل القدر ، اعتنى بشأنه فقهاء الشافعية . وقيل إن سبب تصنيف المهذب أنه بلغ الشيرازى أن ابن الصباغ قال : إذا اصطلح الشافعى وأبو حنيفة ذهب علم أبى إسحق الشيرازى ، يعنى بذلك أن علمه هو مسائل الخلاف بينهما فإذا اتفقا ارتفع ، فكان ذلك حافزاً للشيرازى على تصنيف هذا المؤلف . وللشيرازى رسالة فى علم الأخلاق وفى الطب الروحانى المتعلق بالوعظ والإرشاد . وله فى علم أصول الفقه كتاب « اللمع » الذى أشار فى مقدمته إلى سبب تأليفه وإلى ذكر

مؤلفه فى علم الخلاف إذ يقول : الحمد لله كما هو أهله ، وصلواته على محمد خاتم النبيين وسيدالمرسلين . سألنى بعض إخوانى أن أصنف له مختصراً فى المذهب (يعنى به مذهب الشافعى) فى أصول الفقه ليكون ذلك مضافاً إلى ما عملت من التبصرة فى الخلاف فأجبته إلى ذلك إيجاباً لمسألته ، وقضاء لحقه ، وأشرت فيه إلى ذكر الخلاف وما لابد منه من الدليل ، فربما وقع ذلك إلى من ليس عنده ما علمت من الخلاف وإلى الله تعالى أرغب أن يوفقنى للصواب ويجزل لى الأجر والثواب إنه كريم وهاب .

والناظر فى هذا الكتاب يرى أن علم الأصول قد لان لمؤلفه حتى استطاع أن يبسط قواعده بعبارة سهلة ميسرة للأفهام يسهل الحصول منها على القواعد الأصولية التى اعتمد عليها المذهب الشافعى كما يسهل أخذ القواعد الأصولية العامة وقد وصف بعض الشعراء هذا الكتاب بقوله .

ان شئت شرع رسول الله مجتهدا تغنى وتعلم حقا كلما شرعا
فاقصد هديت أبا إسحاق مغتنما وادرس تصانيفه ثم احفظ اللمعا

وكانت له قدم راسخة فى علم التاريخ ، يدل عليه مؤلفه طبقات الفقهاء ، ولا نرى تعريفا بهذا الكتاب أوضح من مقدمته التى أحاطت بموضوعه وما اشتمل عليه إذ يقول : « هذا كتاب مختصر فى ذكر الفقهاء وأنسابهم ومبلغ أعمارهم ووقت وفاتهم وما دل على علمهم من أنباء الفضلاء رحمة الله عليهم ، وذكر من أخذ عنهم العلم من أتباعهم وأنسابهم وأصحابهم ، لايسع الفقيه جهله لحاجته اليه فى معرفة من يعتبر قوله فى انعقاد الاجماع ، ويعتد به فى الخلاف ، فأول مابدأت بفقهاء الصحابة رضى الله عنهم ثم بمن بعدهم من التابعين وتابع التابعين ثم بفقهاء الأنصار وإلى الله تعالى أرغب أن يوفقنى إلى الصواب ويجزل لى فى الأجر والثواب إنه كريم وهاب ، قد طبع هذا المؤلف النفيس نعمان الأعظمى صاحب المكتبة العربية ببغداد سنة ١٣٥٦ ومعه طبقات الشافعية لأبى بكر بن هداية الله الحسينى الملقب بالمصنف المتوفى سنة ١٠١٤ ، وأما اشتغاله بالتدريس ومكانته فيه وقدرته على مزاولته فيكفينا أن ندل عليه بأن نظام الملك لما بنى مدرسته ببغداد سأل الشيرازى أن يتولاها فلم يقبل ، فولاها لأبى نصر بن الصباغ صاحب الشامل مدة يسيرة ، ثم قبل الشيرازى التدريس بها فتولاها ، ولم يزل بها إلى أن مات

فولى مؤيد الملك بن نظام الملك أبا سعد المتولى مكانه فى التدريس ، فلما بلغ الخبر نظام الملك أنكر ذلك وقال : كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنة بعد وفاته حزنا عليه .

ويكفى فى الدلالة على كثرة تلاميذه الذين تلقوا عنه العلم أنه قال : لما ذهبت الى خراسان لم أجد قاضيا ولا مفتيا ولا خطيبا إلا وهو من تلامذتى أو أصحابى وقد ضرب بزهده المثل وضم إلى ذلك الزهد شدة الورع ومع ذلك قد كان أديبا أثر عنه بعض الإشعار منها قوله :

سألت الناس عن خل وفىّ   فقالوا : ما إلى هـذا سبيل
تمسك أن ظفرت بذيل حرٍّ   فإن الحر فى الدنيا قليل

ولما توفى الشيرازى رثاه أبو القاسم بن نافياء بقوله :

أجرى المدامع بالدم المهراق   خطب أقام قيامة الآماق
مال الليالى لا تؤلف شملها   بعـد ابن بجدتها أبى إسحاق
أن قيل مات فلم يمت من ذكره   حىّ على مر الليالى باقى

رحم الله الشيرازى رحمة واسعة ، كفاه ما قدمت يداه من جهد وما لاقى من نصب لنصرة الشريعة الاسلامية والقيام على تدعيم مذهب الشافعى ، وجعل فيه للعلماء قدوة ، وللزهاد أسوة . ولد سنة (٣٦٣) وتوفى سنة (٤٧٦) ه .

هذا هو العدل

التقى عمر بن الخطاب بأبى مريم الحنفى ، قاتل زيد بن الخطاب ، فقال له عمر : والله لولا ألإسلام ما تركتك ، والله إنى لا أحبك ! فقال له أبو مريم : أو تمنعنى لذلك حقاً يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : لا ، وكررها ثلاثا . فقال أبو مريم : لست أبالى بعد ذلك ، ما يفرح بالحب غير النساء ! !

البابية والبهائية

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ،
ثم يقولون : هذا من عند الله »
« قرآن كريم » ٢ ـ ٧٩

عرف العالم مدعي النبوة منذ أقدم عصوره ، وكانوا جميعاً يتخذون أحد الأديان السائدة تكأة يبنون عليها ادعاءاتهم ، وقد يحدث أن يبهر أحدهم لأبصار حينا ، ولكنه لا يلبث حتى ينطفيء نوره ، وأن يخبو ذكره ، وتاريخ الإسلام حافل بذكر مدعي النبوة ، ولكن أخطرهم شأنا ، هو من سنتحدث عنه فى هذه المقالات ، التى سنذكر فى ختامها ثبتا بالمراجع ، لمن شاء أن يعرف المزيد عن هذه الفرقة .

* * *

بعث الله ـ جل وعلا ـ محمداً صلى الله عليه وسلم ـ نبياً ورسولا ، فأضاء بنور دينه العالم ، واجتث الجهالة ، وكان نبراسا ، قام المسلمون بهديه ، فحطموا الأمبراطوريات ودكوا العروش . وأعلنوا حقوق الإنسان ، وأقاموا أسس الحرية الفردية . ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفه الخلفاء الراشدون ، حتى كان مقتل عثمان ، وما نعرفه من أمر على بن أبى طالب ، فانقسم المسلمون فئتين : أهل السنة والشيعة . رأى أهل السنة صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، أما الشيعة فلم يعترفوا بالخلافة إلا لعلى ـ كرم الله وجهه ـ ومن بعده الحسن ثم الحسين .

ولم يقتصر الخلاف على ذلك ، بل نرى أن كلا الفريقين اختلف ، والذى يهمنا هنا هو اختلاف الشيعة ، وهى اختلافات رئيسية تدور حول الإمامة ؛ إذ أنه بعد استشهاد الحسين فى كربلاء ، بدأ الخلاف يدب بينهم ، فنشأت عدة فرق :

١ — الفرقة الكيسانية : فقد بايع فريق على بن الحسين إماما رابعاً ، وبايع فريق آخر محمد بن الحنفية ، وهؤلاء عرفوا بالفرقة الكيسانية ، وبعد أن مات محمد هذا ، قالوا عنه إنه هو الإمام الحى الغائب ، وأنه هو المهدى المنتظر ، وهو غائب فى جبل رضوى يتمتات بالماء والعسل الذى يأتيه من عند الله . وفى هذا يقول السيد اسماعيل الحميرى أحد علماء هذه الطائفة : ـ

على والثلاثة من بنيه فهم أسباطنا والأولياء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط قد حوته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الجيش يقدمه اللواء
يغيب ـ فلا يرى ـ عنا زمانا برضوى ، عنده عسل وماء

٢ — والفرقة الأخرى بايعت على بن الحسين إماما ، ومن بعده ابنه محمد ابن على الباقر ، واعتقد كثيرون أنه المهدى المنتظر ، ولكنه نفى ذلك عن نفسه . وبويع بعد الباقر ابنه جعفر الصادق .

٣ — الاسماعيلية : وأوصى جعفر بالإمامة لابنه اسماعيل ، غير أنه مات قبل أبيه جعفر ، ومع ذلك اعتبره البعض إماما ، وكان عندهم هو المهدى المنتظر ، وهو عند أتباعه سابع الأئمة وخاتمهم ، استنادا إلى الحديث الشريف : « أوصيائى سبعة » وزعموا أن أيام الأسبوع السبعة ، والسيارات السبع والسماوات السبع ، والأرضين السبع الواردة فى الفرقان ، والسبع المثانى ، كل ذلك رمز إلى الأئمة السبعة [١] .

٤ — ووجد فريق تبع موسى بن جعفر ، واختلفوا بعد وفاته فريقين : فريق رأى أن موسى بن جعفر لم يمت ، ولكنه غائب سيظهر آخر الزمان ، وعرف هؤلاء باسم « الواقفية » .

٥ — وفريق ارتضى إمامة الرضى على بن موسى . وبعد موته انقسم الشيعة إلى قسمين : قسم رأى انسداد باب الإمامة ، وقد تشعب إلى شعب كثيرة ، كان أهمها الدراويش ، وكان لهم شأن عظيم فى القرون الوسطى ، وكانوا يقولون

---

(١) وعلى هذا يكون الأئمة السبعة هم : على ثم الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين ثم محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم اسماعيل .

بأن العالم لا يخلو فى أى زمن عن إمام أو حجة بين الناس ، فخالفوا بهذا رأى الشيعة الذين يجيزون الغيبوبة والخلو .

٦ — والفريق الثانى قبل إمامة محمد الجواد بن على ، ثم على بن محمد ثم الحسن بن على العسكرى ، واعتقدوا بمهدوية محمد بن الحسن العسكرى الغائب الحى ، وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية [1] .

أما محمد بن الحسن فهو ابن صغير للحسن العسكرى ، أخفاه خوفا من المتوكل العباسى، فكان اختفاؤه هذا هو الغيبة الصغرى ، ولذلك قام أربعة رجال، الواحد بعد الآخر ، وادعوا النيابة عن الإمام الغائب ، وعرفوا باسم النواب الأربعة ، ومات رابع النواب سنة ٢٦٠ ﻫ ، وقفل بموته باب النيابة ، وأشيع أن غيبة الإمام الكبرى تبتدىء من هذا التاريخ .

تلك كانت معتقدات الشيعة ، أما أهل السنة فقد شغلتهم السياسة ، وكادوا أن ينسوا قضية المهدى ، والاعتقاد السائد أنه فى آخر دورات الإسلام ، وهو العصر الذى يضعف التمسك فيه بأساس الديانة الإسلامية ، وترفع الأحكام ويبطل عملها ، فى هذا الميقات يبعث الله شخصا من السلالة الطاهرة يلقب بالمهدى ، ومن بعده يظهر المسيح ، وهناك جماعة تعتقد بنزول المسيح دون المهدى .

وقد رسخت غيبوبة الإمام محمـــد بن الحسن العسكرى فى عقول أهل إيران رسوخا عجيبا حتى كانوا يكفرون من ينكرها ، وزادوا فى قصته ، فقالوا بمدينة مجهول مكانها اسمها « جابلقا » وبها أبناء الإمام الثلاثة : هاشم ، وقاسم ، وطاهر ، مشغولين بزعامة المسلمين وقيادتهم .

وقد تشعبت هذه المعتقدات ، فرأت السلطات حسما للأمر أن تكلف العلماء

---

(١) وهم كما سبق بيانهم فى الأئمة السبعة حتى جعفر الصادق ومن بعده ابنه موسى ، فابنه الرضى على ، ثم محمد الجواد بن على ، ثم على بن محمد ، ثم الحسن العسكرى ، ثم محمد بن الحسن أو القائم .

بوضع هذه العقائد على أسس ثابتة ، فقام العلامة المجلسى بذلك ، ودون اعتقادات الشيعة على اختلافها وتباينها [١] .

* * *

كانت إيران ، منذ نحو قرنين من الزمان ، تعانى من حالة اجتماعية وسياسية شاذة ، فلم يكن الأمن مستتبا ، وإنما كانت الحياة كبحيرة تجمدت مياهها ، وانقسم المجتمع إلى طبقات اجتماعية ، وإلى أحزاب سياسية ، وتفرقت الأجناس والأديان ، وعدم الوحدة والتجانس ، وسادت فارس حياة اجتماعية مظلمة ، وتحول الدين الإسلامى بها إلى مجموعة من الخرافات ، وسيطر على العقول بعض رجال الدين الجهلاء . ورأى الناس أن الظلم يكتنفهم ، والجور يحيط بهم ، وكانوا يعلمون بأمر المهدى المنتظر ، الذى يأتى فيملأ الدنيا عدلا وقسطا ، بعد أن ملئت جورا وظلما . وكان الجور والظلم موجودين ، على أشد ما يكون الجور أو يكون الظلم ، فلم يكن غريبا أن تسرى بينهم الأخبار والشائعات بأن المهدى لابد آت فى عصرهم لينقذهم من هذه الحال التى يقاسونها .

كان يعيش فى القرن الثالث عشر الهجرى شيخ من علماء الشيعة ، ولد عام ١١٥٧ هـ — ١٧٤٣ م ، من أصل عربى ، تلقى علومه فى العراق ، ثم اشتغل بالتعليم فاشتهر والتف حوله المريدون . وإن كان الرأى قد انقسم فيه ، ففريق يراه تقيا مؤمنا ، وفريق ناجزه وكفره . وسافر الشيخ إلى ايران وأقام بمدينة يزد ثم خراسان فطهران .

ذلك هو الشيخ أحمد الأحسائى ، مؤسس الفرقة الشيخية ، وهى الفرقة التى مهدت الطريق وأعدت العقول لظهور الباب ، لم تفعل ذلك مباشرة ، وإنما أتى عن طريق غير مباشر ، إذ أن الروايات عن المهدى المنتظر كانت تملأ العقول وتسيطر على الأفكار .

---

(١) راجع كتاب الملل والنحل « تخريج الأستاذ بدران من ٢٧٧ - ٤٤٨ - طبعة الأزهر ، وكتاب المهدى والمهدوية للأستاذ أحمد أمين بك ، وهو كتاب يعطى فكرة سريعة عن هذا الأمر ، وكتاب روح الاسلام لسيد أمير على فيما يختص بالمقارنة بين اعتقادات أهل السنة والشيعة .

وكان الشيخ حر التفكير ، فلم يعبأ بالتقاليد التى كان يسير عليها الشيعة فى أيامه، فخالفهم فى استقبال ضريح الحسين بكربلاء حين الصلاة - كما هى عادة الشيعة - ، كما خالفهم فى بعض المسائل العقيدية ، فقال إن المعراج كان روحانيا لا جسمانيا ، وقال عن البعث : إن الجسم الإنسانى ترابى مؤلف من العناصر الأرضية وأنه يتلاشى بعد الموت بالكلية لا محالة ، ولا يمكن أن تكون له رجعة [بعث] أبدا ، وانتهى إلى أن القابل للبقاء والحرى بالدوام والأبدية والحشر والنشر ، إنما هو هذا الروح الإلهى الذى يعبر عنه بـ « هور قلبا » والذى هو من عالم المثال وجوهر الجواهر .

وكانت للشيخ آراء خاصة فى المهدى المنتظر ، وإن اضطر إلى مجاراة العامة فى القول بأن المهدى هو محمد بن الحسن العسكرى ، وأنه حى لم يمت ، إلا أنه أردف ذلك بعبارات تدل على عقيدته الخاصة ، فقال : « إن الإمام - روحى له الفداء - لما خاف من أعدائه ، خرج من هذا العالم ودخل جنة هور قلبا ، وسيعود إلى هـذا العالم بصورة شخص من أشخاصه » وسئل لماذا سمى المهدى بـ « القائم المنتظر» ؟ فأجاب : «لأنه يعود بعد الموت» ، وسئل ما معنى قيام القائم من القبر ، وما حقيقة ذلك ؟ فأجاب : « يقوم من قبره أى من بطن أمه » وقال : إن جابلقا التى هى مدينة القائم ومكانه ، موجودة فى السماء ، لا على الأرض .

وهذه كلها أقوال صريحة الدلالة ، واضحة المعنى ، تدل على أن المهدى سيظهر من بين الناس ، وأنه تمكن معرفته بعلامات وصفات خاصة .

وإلى المقال القادم لنبين هذه الصفات ونتحدث عن ظهور الباب .



أثر الهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

إن هلال المحرم ليذكرنا بهذا الحادث الذى قام فيه الصراع بين قوم تغلغلت فى نفوسهم الجهالة ، وتمكنت منهم الضلالة ، ورجل من أشرف بيوتهم نسباً ، وأكرمها محتدا ، نشأ بينهم فقيراً ، وتربى يتيما .

فلما بلغ أشده واستوى ، قام يسفه آلهتهم ، ويحقر عقائدهم ، وقد اعتزل عبادتهم فى فتوته ، وهجر ناديهم فى صبوته واتجه بنفسه إلى نوع من العبادة والتدين ندّ عن فهمهم واستعصى على إدراكهم ، حينما فاجأهم بصوت الواثق مما يقول ، المطمئن إلى ما يعتقد ، يا قوم : إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم ضرا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

ولكن قريشاً عز عليها ما ألفت ، وهالها أن تفقد ما هى عليه من جاه وسلطان ، فتنكرت لهذه الدعوة الجديدة ، وعملت جاهدة على محاربتها ، والقضاء عليها فى مهدها ، قبل أن ينبثق نورها ، ويتألق فى الخافقين ضوءها .

وتنفيذاً لما عقدت عليه العزم أنزلت أقسى ضروب التعذيب ، وأنكى أساليب القسوة والاضطهاد بالمستضعفين الذين رأوا فى الإسلام عدلا ومساواة ، وتقريراً لكرامة الإنسان ، ونزل إلى هذا الميدان سادتها وكبراؤها ، وفى هذه الفترة امتحنت حرية الرأى بأشق وسائل الامتحان وابتليت بأعنف صنوف الابتلاء ، وقد كظم المسلمون غيظهم ، وصبروا يستعذبون الألم ، ويستسيغون مرارة العنت حرصاً على دينهم ، وانتهازاً للفرصة المواتية التى يستطيعون فيها أن يحاسبوا الظالم ويواجهوا المستكبر ، ويخاصموا الباغى .

واستمر الرسول ومن ورائه الذين آمنوا به يدعون الناس إلى دين الله ، واندفع المشركون فى عتوهم وطغيانهم ، يسرفون فى الإيذاء لهم ، والتنكيل بهم . فقد أعماهم عن الحق الصلف والحرص على ما ورثوه عن آبائهم من رياسة وصدارة

وكان لصنيعهم أثر لم يقدروه ، فقد ازداد به الرسول وصحبه استمساكا بدينهم ، وكفاحاً لصون عقيدتهم ، مؤمنين بأن طبيعة النفوس محاربة الهداة والمصلحين ، ومطاردة الدعاة إلى المبادىء السامية والأغراض النبيلة (إن النفس لأمارة بالسوء) وموقنين بأن لهم - لا محالة - إحدى الحسنيين ، الشهادة أو النصر .

ولما لم تفد مع رسول الله وصحابته أساليب التهديد المتنوعة ، ووسائل الكيد التى لم يدعو شيئاً منها ، مالوا عن الشدة إلى الملاينة ، وعن العداوة إلى المصانعة ، وبذلوا له الوعود ومنوه بالمال والجاه ، وعرضوا عليه بيعة بالملك والطاعة ، فأجابهم فى حزم وقوة ، وثبات ويقين بقوله المأثور : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته .

وكيف يرضى بما بذلوا من وعود . وهو الذى عرض عليه أن تكون له بطاح مكة ذهباً فقال : لا يا رب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما .

وقد دفع هذا الموقف الكريم المشركين بعد أن باءوا بالفشل فى محاولتهم إلى أن يزدادوا غياً على غيهم وضلالا على ضلالهم وبالغوا فى إيذاء المسلمين بكل ما هو فى مقدورهم غير متورعين ولا متعففين .

ولما كان هدف الرسول أن ييسر السبل لنشر دعوته . فقد بدأ يفكر فى الهجرة من مكة حفاظا عليها . وتمكينا لها . بعد أن ضاق ذرعا بإيذاء أهله . ومحاربة عشيرته . واستيقن أن تربة مكة وعليها هذا الكفاح المستمر . والنضال القوى لا تصلح موطنا للذى ينادى به فى أنديتها ومجالس سادتها وأشرافها . من حب وإخاء . ومودة وسلام . وحرية ومساواة . وقد أوحى إليه أن الصبر على الأذى . والإقامة على الضيم . ظلم للنفس وهضم لحقوقها . وقضاء على حريتها . وتمكين لليأس منها . ومن يرتضى لنفسه هذا الظلم ليستحق اللوم والتأنيب (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)

وأخيراً . بهذه الدوافع وبعد أن مضى من عمر الدعوة ثلاثة عشر عاما . ينافح ويكافح . قد أسر بدعوته حينا وجهر بها أحيانا باذلا أقصى ما يسطيع من جهد ووقت . حريصا أشد الحرص على أن يستجيبوا لما يدعوهم إليه . وقابل أذاهم

فى هذه الحقبة من الزمن . بصدر رحب ونفس مطمئنة . علهم يثوبون إلى رشدهم ويذعنون لصوت العقل . ونداء الضمير ، ولكنهم بالغوا فى خصومتهم . وافتنوا فى عداوتهم . ولم يؤمن به إلا أقلية تنزهت عن الغرض ونأت عن العَرض فقرّ رأى الرسول الكريم على الهجرة من البلد الذى نبت فيه . ودرج فوق أديمه . وأشرب قلبه حبه . يذكر معه أهله وجيرته . إلى البلد الطيب الذى أقبل أهله عليه يعاهدونه على الوفاء لدينه . وبذل النصرة لتعاليمه . ضاربا بذلك المثل الرفيع فى التضحية والإيثار . والمثابرة والاحتمال . مع بعد الشقة . ووعورة الطريق . وقسوة الصحراء . وكان المشركون يترصدون خطى الرسول ويتسمعون لأخباره وقد وصل إليهم نبأ الليلة التى قدرها لرحيله : وقد آوت فيها قريش إلى مضاجعها وسكنت فى مخادعها الإلافتية قد ملأ الشر قلوبهم . وأكل الغيظ أكبادهم . فسهدت أجفانهم . وقد كانوا من شباب قريش الأشداء ينتمى كل فرد منهم إلى بطن من بطونها . حتى يتفرق دمه فى القبائل . فلا تقدر بنو عبد مناف على الثأر له . وتربصوا به أن يخرج ليقتلوه . فتهدأ ثائرتهم . وتستريح مكة من جلجلة هذا الصوت القوى . ولكن قضاء الله رد كيدهم إلى نحورهم . إذ خرج الرسول من مضجعه وهم قيام ينظرون . بعد أن ترك علياً يتدثر ببرده . يتحدّى الموت المائل والهلاك الراصد .

ولما تبينوا فشلهم ردوا سيوفهم إلى أغمادها . وصدورهم تغلى حقدا . وتضطرم غيظاً وانقلب أعوان الباطل إلى أهليهم حيارى (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ثم عقدوا العزم على ملاحقة الرسول وصاحبه . وساروا يقتفون أثره الى أن وصلوا إلى غار ثور . وداروا حوله . ثم عادوا مهمومين آسفين . تلاحقهم الخيبة ويصاحبهم الفشل . مع أن أحدهم لو نظر تحت قدمه لرآهما . ولكنها رعاية الله لهما وعنايته بهما « إلا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

وبعد ثلاث ليال رحل إلى المدينة وفى جوها الندى العطر . تفجرت ينابيع الهداية . وشع نور التوحيد وتفتحت قلوب أهلها إلى الدين الجديد الذى آخى

بينهم على اختلاف قبائلهم وتفاوت مراتبهم وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية - فأصبحوا بنعمة الله إخوانا . (لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم . ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) وتسابق أهلها إلى رسول الله يعلنون إسلامهم فى صراحة لا تعرف الالتواء . وشجاعة عرفوها منذ القدم حببت إليهم أن يحملوا نفوسهم على أكفهم فى سبيل نصرته ، والدفاع عن دينه ، ويخرجوا عن أموالهم وديارهم فى سماحة ورضى لإخوانهم المهاجرين . وبعد حقبة من الزمن عاد الرسول وأصحابه إلى مكة فاتحين ، ثم توالت بعد ذلك فتوح القرى والأمصار .

وكانت الهجرة مفتاح النصر للمسلمين لأنها نوع من الجهاد الحق الذى يتسم بالقوة والإقدام ، ويجافى الضعف والتردد ، والذلة والاستكانة ، وفيها مغالبة لأهواء النفوس ، وحث على صون الحياة من الخنوع والهوان ، وهى مثل خالد يدفع الزعيم الذى يبغى التوفيق ، والقائد الذى يأمل الظفر ، أن يتزعم المجالدين المكافحين ويتقدم الصفوف ، ويبرز إلى مواطن التضحية ، ويقاسم أتباعه ما ينالهم من سراء وضراء ، وما يلقونه فى مجتمعهم من عسر ورخاء ، ما دام مؤمنا بحقه ، مخلصاً فى عمله ، يهدف من نجاح دعوته إلى إقرار المبادىء الإنسانية التى تحارب الفروق بين الطبقات وتشعر الجميع بالعداله والحرية والمساواة .

وقد رسم الزعيم الأول صلوات الله عليه وسلامه ، الطريق المستقيم ، والنهج الواضح للسياسة الشعبية الحكيمة ، حينما قد الفرد لعمله لا لحسبه ، ووسد الأمور إلى مستحقيها ممن يتسمون بالكفاية والنزاهة ، والعفة والطهارة ، إذ يقول لأهله لا يأتونى الناس بأعمالهم . وتأتونى بأحسابكم .

وما أحوج زعماء المسلمين أن يأتسوا بزعيمهم الملهم ، فيصدفوا عن المآرب والأغراض ، ويتجردوا عن الأثرة وحب الذات ، ويتعرفوا آلام أممهم وآمالهم ليفسحوا لها مكانا فى ركب الحياة الكريمة ، وقد أورثهم هو ومن اتبع سننه دولة قوية الأساس ، متماسكة البناء . قادت الأمم ، وأرست بين الشعوب قواعد العدل والإنصاف ، ونشرت بينها ألوية التعاون والإخاء .

وفق الله القادة والزعماء إلى الطريق السوى ، وبصرهم بما فى الهجرة من قدوة حسنة ، ونهج قويم .

أمن المجتمع واستقراره
فى نظر الاسلام

لحضرة الأستاذ الدكتور محمود فياض
المدرس بكلية أصول الدين

يعنى الإسلام عناية كبرى بتوفير أسباب الأمن والاستقرار فى المجتمع ، إذ أن رقى الشعوب وتقدمها العمرانى ، وازدهار الحضارات والثقافات ، ورغد العيش ، وسلامة الفرد والجماعة ، وتحقق العزة والكرامة لهما ، إنما يتوقف على سيادة الأمن ووجود الاستقرار فى المجتمع ، فبدهى أن مجتمعا تحتله الفوضى ، ويسوده العدوان ، وتسيطر عليه المخاوف ، يصبح كقطع الليل المظلم ، لا يدرى المرء فيه هل يصبح إذا أمسى ، أو يمسى إذا أصبح ، ولا يدرى عابر السبيل أيعود إلى مأمنه أو لا يعود ، ولا يجد فيه البائس المحروم من يأسو جراحه أو يسدّ رمقه أو يأخذ بيده من جحيم الحاجة ، ويعدم المتجبرون فيه من يكبح جماحهم ، أو يحد من استعبادهم للمستضعفين ، مجتمع كهذا يعيش الناس فيه تحت ضغط الخوف والفزع ، والجور والبطش واستبداد المسلطين . مجتمع كهذا المجتمع لا يمكن أن يرتقى شعبه ، ولا يمكن أن ينعم بالسلام والرخاء ، ومحال أن يتقدم فيه عمران أو تزدهر حضارة . وكذلك إذا وجدت مجتمعاً قلقا غير مستقر الأحوال ، تتداوله الثورات . وتتخطفه المطامع من داخله أو خارجه ، فلن تجد فيه مجالا للفكر والتحضر ، ما دامت « الذاتية » تفرقه فى لجج من المظالم .

أتذكر ياسيدى أننى قلت لك من قبل (١) : إن الإسلام كما مزج بين الأمور

---

(١) راجع كتابتنا فى المجلة فى السنة الماضية .

الروحية والأمور المادية ، مزج بين الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، وجعل من هذا المزيج نظاما عاما ، يلتزمه المسلم على أنه دين واجب الاتباع ، ليس له أن يتحلل منه ، أو يحتال على الخلوص منه ، إلا بانسلاخه عن الإسلام ؛ فهذا النظام العام ، اسمه النظام الإسلامى ، وحرام عليك أن تنزل به عن مكانته العلية ، فى زحمة الأهواء البشرية فتصفه بشىء من مستحدثات البشر التى لا تستقر ، ولا تسلم من العيوب . ولا تنجو من النقد . كأن تصفه مثلا بالديموقراطية أو الاشتراكية أو غيرهما . فقد بينت لك فيما مضى أن سياسة الإسلام خاصة به ، وأن نظامه إسلامى فحسب ، واليوم أقول لك إن اقتصاد الإسلام ، ليس رأسماليا ولا اشتراكيا وإنما هو اقتصاد إسلامى فحسب ، وإليك حديثى :

الإسلام أول نظام عالمى سليم ربط السياسة والاجتماع بالاقتصاد ، وجعل من ذلك دواء لشفاء الإنسانية من أسقامها ، وسبيلا إلى تحقيق العدالة والاستقرار وتوفير أسباب الأمن والرخاء فى المجتمع الذى يعمل بأحكامه ، ويلتزم تطبيقها على كل أموره بدقة وعناية ، جادا غير هازل ، مؤمنا بسموه لا مواربا ولا مرائيا ، ولن تكون أحوال المسلمين — التى بلغت اليوم غاية السوء — حجة على عدم سلامة هذا النظام ، أو دليلا على قصور مبادئه ، فالمبادئ شىء ، وتطبيقها والعمل بها شىء آخر ، ومن المقرر عند أهل العلم ، أن كل مبدأ دينياً كان أو اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً ، إذا ثبتت صلاحيته بوسائل الاقناع المعروفة ؛ فإنه يظل صالحا نظريا ولو لم يعمل به ، فإذا طبق عمليا ونجح تطبيقه ، ولو مرة واحدة ، فأنه يصبح صالحا نظريا وعملياً . فإذا أساء المؤمنون به ، تطبيقه ، وحكموا فيه أهواءهم ، فلا توجه طعونك إلى هذه المبادئ الصالحة ، بل وجه سهامك إلى المؤمنين به ، وابحث عن جدية إيمانهم ، وعن مدى هذا الإيمان ، ومبلغ ما يأمرهم به من حسن وجمال ، وهذا هو شأن النظام الإسلامى العام .

فقد ثبت صلاحيته نظريا وعمليا ، وطبق بنجاح عجيب قرونا طويلة ، فحقق الأمن والرخاء ، والسلام والعزة للمؤمنين به ، ودل هذا التطبيق الناجح على أنه

نظامٌ مثالى لازم لسعادة البشرية فى مختلف عصورها ، ولكن المسلمين أصابتهم لوثة المدنيات الخادعة ، فنسوا الله ، ونظام الله ، فأنساهم أنفسهم ، ووكلهم إلى أنفسهم ، فتحكمت فيهم . والنفس أمارة بالسوء .. فأساءوا التطبيق أولا ، ثم انسلخوا من نظامهم فتلقفتهم أطماع أعدائهم من كل مكان ، وأحيط بهم ، فأصبحوا يقلبون أكفهم على ما فرطوا فى جنب الله ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

أقام الإسلام تنظيماته الاقتصادية ، على أسس فطرية واجتماعية ، كان إغفالها فى غيره من النظم سبباً للثورات والحروب الطبقية ، وأهم عوامل تقلقل المجتمعات البشرية ، واضطرابها فى محيط النظم المتغيرة فى مختلف العصور ، فأنت تعلم أن فى الإنسان غرائز ركبها الله فى طبعه ، وفطره عليها ، وأن هذه الغرائز تتحكم فى الإنسان وتوجهه إلى ما يلائمها ، وبما أن خالق الإنسان واحد ، وطبيعة الإنسان واحدة ، كانت الغرائز فى الأفراد متشابهة تسعى إلى هدف واحد ، وكان لابد من التصادم بينها إذا تركت دون ضبط أو توجيه ، ومن أجل ضبط هذه الغرائز البشرية ، ومن أجل إحسان توجيهها إلى الخير والجمال ، كان التشريع الإلهى الذى بلغ ذروة كماله ، عندما بلغ الإنسان رشده ، وذروة نضجه العقلى . بالرسالة الكبرى على يد خاتم المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام ، فكان الإسلام آخر دواء نافع للإنسانية ، وآخر منظم للغرائز البشرية وما كان للإسلام أن يغفل فى تنظيماته لشئون الإنسان : غرائز الإنسان ، وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، بل إنه واجه هذه الغرائز بالترقية والتهذيب ، ودفعها إلى الخير العام ، وكان من فضل الله ، أن تستجيب غرائز الإنسان ، لغريزة الإيمان بالخالق ، والخضوع المطلق للكائن الأعظم الذى يوجه الحياة ، ولهذا كله تجد الإسلام يقرر ما يلى :

١ — حق التملك : يقر الإسلام الملكية الفردية ؛ لأن التملك أمر غرزى فى الإنسان ، وكل أفراد الإنسان سواء فى نسبتهم إلى الخالق ، وفى أحقيتهم فى التمتع بكل ما أباحه لهم ، ولأن التملك فى الوقت الذى يرضى فيه غريزة الفرد ، يبعثه على النشاط ويحفزه إلى العمل ، ويدفعه إلى العدل مع غيره ، مخافة أن يظلم

إذا ظلم ، أو يعتدى عليه إذا اعتدى على أحد (والخوف غريزة أيضاً) ، لهذا كان لكل فرد حق التملك ، والعمل ، والكسب ، وهو حر — غاية الحرية — فى تملكه ، لا تقيد ملكيته بقدر خاص ، ولا يجبر على كيفيته ، وهذا سبيل إلى العمران ، والنشاط الحيوى ، ووسيلة لسعادة الإنسان ؛ ولكن الإسلام وإن ترك للفرد حرية التملك ، فإنه يحتم عليه ، أن يكون تملكه ، وكسبه ، من طرق عادلة شريفة ، لا يداخلها الظلم والعدوان ، باستغلال حاجة المحتاجين ، أو اغتصاب أموال الضعفاء ، ولهذا حرم الإسلام كل وسيلة للتملك والكسب الممقوت . يشوبها ظلم ، أو اعتداء ، أو تبعث على الشر ، أو تثير الشحناء والبغضاء ، أو تحط من كرامة الإنسان أو تهدر حرمته ، فحرم الربا ، والميسر وكل أنواع المقامرة وحرم التعامل (بيعاً وشراء) بالخمر والخنزير وأهدر أهليتهما للتقوم ، وحرم أكل أموال الناس بالباطل اعتمادا على شهادة الزور ، وحرم الكسب عن طريق الفروج كما حرم الزنا ، وحرم الرشوة ، وحرم بيع مالا يملكه الإنسان الخ ما هو مقرر معروف فى كتب الفروع والأصول ، ثم انثنى يحرض الإنسان على العمل الشريف ، والكسب الحلال ، وابتغاء الرزق « فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه . . » ودعاه إلى مراقبة الله فى عمله ، وإحسان ما يوكل إليه « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » وذكره أن مرده إلى الله . وأنه مسئول أمام ربه عن حريته ، وعمله ، وكسبه « إليه النشور » وهكذا ترك الإسلام للفرد حرية التملك والعمل والكسب الحلال غير باغ ، ولا عاد ، ولا متأثم .

ترى هل يتفق الناس على السلام ؟ وهل يعدلون فى توزيع خيرات الله فيما بينهم ؟ إن الأفراد يتفاوتون قوة وضعفاً ، كما تختلف قدرهم على الكسب ، ولهذا لابد من وجود الغنى والفقر ، والغنى والفقير ؛ ولكن هذا العاجز والضعيف ، ومن لا قدرة له على العمل والكسب . لا يد له فيما يعانيـه من ضعف أو عجز ، لأنه لم يصبغ نفسه هكذا ! وهؤلاء العجزة والضعفاء الذين لا يقدرون على العمل والكسب لهم حق الحياة ، ومن حقهم أن تكفل لهم معيشة كريمة تحفظ كرامتهم ، وعزتهم ، كغيرهم من بنى الإنسان القادرين ! فهل تدرك هؤلاء حكمة المشرع

سبحانه ، حتى لا يضل الضعيف أو يشقى ؟ أم يترك للقادرين حبل التملك والاحتكار ، والغنى والتضخم ، ويترك للضعفاء حبل الحرمان والعوز والفقر المرير ؟ إن حرية التملك إذن خلقت مشكلة الغنى والفقر ، وهى مشكلة الإنسانية الكبرى ، التى تقض أمن المجتمعات وكثيراً ما تبعث الفوضى والثورات ، ولا زالت هى مشكلة الإنسانية الكبرى ، ولا حل لها عند الناس ، وقد حلها الإسلام منذ ١٣٧٠ عاما ، إذ آخى بين الغنى والفقير ، وسلك الغنى والفقير فى سلك واحد ، حملهما على المحبة والتعاون . « فكانوا بنعمة الله إخوانا » .

واجه الإسلام مشكلة الغنى والفقر بنظام اقتصادى بارع ، يرتبط بتنظيمه السياسى والاجتماعى ، ويشرف على توجيهه روح الدين فى كل مكلف من المسلمين ، وبه يحفظ التوازن تماما بين الضعف والقوة ، والعدل والظلم ، والغنى والفقر ، ويضمن أمن المجتمع واستقراره ، وإنى موجزلك الحديث فى فقرات قصيرة .

٢ — السيادة والحاكمية : قرر الإسلام أن السيادة العليا على كل شعب لخالقه وحاكمه الحقيقى ، ومالكه الأصلى ، سبحانه وتعالى ، وأكد أن وصف الحاكمية خاص بالله وحده ، لا يشاركه فيه فرد ، ولا أسرة ، ولا طبقة « إن الحكم إلا لله » ، « له الحكم . . . » ، « الولاية لله الحق » وأوامر لله ، المالك الحاكم ، يجب على عباده تنفيذها من غير تردد ، أو تشكك فى مدى صلاحيتها ، ويقوم المؤمن بالتنفيذ ، تديناً ، بلا قيد ولا شرط ، ابتغاء مرضاة الله ، والوصول إلى مرتبة علميا من الكمال والجمال . « ذلك أمر الله أنزله إليكم » ، « إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله » ، « فأما الذين آمنوا فزادهم إيمانا » .

٣ — الانسجام بين الفردية والجماعية : لم يلغ الإسلام شخصية الفرد ، أو يهدر حرمته ، لصالح الجماعة (الدولة) مثلما ألغيت شخصيته ، وأهدرت حرمته فى الاشتراكية والشيوعية والنازية والفاشية ! وكذلك لم يهدر الإسلام « شخصية الجماعة لصالح الفرد ، كما تفعل الديمقراطية الرأسمالية الغربية . لم يفعل الإسلام هذا ، أو ذاك ، فلم يسلط الجماعة على الفرد تسخره وتستغله وتستعبده ، ولو كان ذلك على حساب صحته ومعيشته وكرامته ، وتحطيم معنويته ، ولم تسلط الفرد

على الجماعة (الدولة) يسخرها لنزواته ، ويستغلها لصالح شهواته ، ولو فنيت الجماعة! بل جاء الإسلام بنظامه وسطاً بين الرذيلتين ، فأنشأ تضامناً بين الفرد والجماعة فى سبيل تحقيق الخير العام للجميع ؛ فأعطى الفرد حرماته الفطرية ، وجعل له حق التمتع بها بشرط ألا يعطل حريات غيره ، أو يعتدى عليها ، وضمن له كل ما من شأنه حفظ كرامة الإنسانية ، وكلف كل فرد بالحفاظ على حياته وحياة غيره ، وعرضه وعرض غيره ، وماله ومال غيره ، وألزمه بالعمل لصالحه وصالح غيره من الأفراد ، وصالح المجموعة ، وجعله مسئولا عن ذلك كله أمام الحاكم الحقيقى جل شأنه ، والأمة التى تتألف من أمثال هذا الفرد الكامل ، هى أمة مكلفة مسئولة أمام حاكمها سبحانه ، عن صالح الأفراد ، والصالح المشترك للفرد والجماعة ، فهى مكلفة بحفظ حياة الفرد وعرضه وماله وحرياته ، وتمكينه من العمل الشريف ، ومساعدته على تنمية مواهبه ، وترقية أحواله ، وهكذا حرر الإسلام الفرد من كل قيود الاستعباد والاستغلال ، ومكنه من حرياته ، وألزمه مصلحة الجماعة ، كما حرر الجماعة من تسلط الفرد واستبداده ، وألزمها مصلحة الفرد ، وبهذا يلتقى الفرد والجماعة، وتمتزج مصالحهما ، ويتوجه نشاطهما لخير الجميع ، ويتضامن المؤمنون بهذا النظام ، ويتعاونون على البر والتقوى . لخير الجميع ، ويتواصون بالحق والصبر ، وتلتقى مسئولية الفرد بمسئولية الجماعة عن صالحهما فى نطاق التكليف الإلهى ، وهكذا تنسجم « الفردية » مع « الجماعية » ويتوجه نشاطها للعمل على الوصول إلى غاية واحدة ، وهدف مشترك ، هو صالح المؤمنين الفردى والجماعى ، وبتوافق الفردية والجماعية ، وامتزاجهما ، سلم النظام الإسلامى من تسلط « روح الفردية » التى تتحكم فى الديموقراطية الرأسماليه ، وتسخر الدولة لصالحها ، كما سلم من « هوس روح الجماعة » التى تتحكم فى النظم الشيوعية والاشتراكية ؛ والنازية والفاشية . حيث يلغى اعتبار الفرد وتهدر حرمته وحرياته ومصالحه . فى سبيل ما يسمى مصلحة الجماعة (الدولة) ؛ ولعلك بعد هذا تدرك مبلغ الجناية على الإسلام ونظامه ، ممن يصفونه بالديموقراطية أو الاشتراكية . « يتبع »

الاسلام والاشتراكية (١)

لحضرة الأستاذ سعيد زاير

ليس نظام الحكومة السائد فى انجلترا - من وجهة النظر الديمقراطية - كاملا بأى حال من الأحوال ، ومع ذلك فقد كان الإنجليز أسبق الناس إلى التنبيه إلى عدم دستورية نظام لجنة الاتحاد والترقى فى تركيا ، وإن الأسيويين الذين يبصرون بأعينهم استغلال الأغنياء للفقراء فى أوربا ، والسياسة الأتوقراطية التى تتخذها الحكومات إزاء العمال والاشتراكيين من اهل التجارة والنفقات الباهظة التى تجبى من أموال الشعب للإنفاق على مناطيد زبلن والمدمرات وغيرها والبطالة وجوائح الفقر والألم ، لايسعهم إلا أن يضحكوا من عجرفة أوربا إذ تحاول أن تعلن عن نجاحها تحت ستار النظام الدستورى للحكومة .

وفى وسع كل امرىء أن يدرك أنه إذا كان الأسيويون والمسلمون قد فشلوا فى تنفيذ منهاجهم الدستورى فإنما يرجع ذلك إلى الصعوبات التى وضعتها أوربا فى طريقهم .

فلم تكد إيران تنهض بنفسها وتنمى ماليتها حتى تلقت ضربة من دولة أوربية معتدية ، وكذلك الشأن مع تركيا إذ حينما أرادت أن تقيم سلطة دستورية استهدفت لهجوم من جيرانها الأوربيين ، واضطرت إلى أن تفقد أجزاء من ممتلكاتها وإلى أن تجتاز فترة تعرضت فيها الحياة لنضال عنيف مع إحدى الدول الأوربية التى شاركتها فى إثمها معظم الدول الأوربية التى لا تدع فى الوقت الحاضر لكل من تركيا أو إيران فرصة تتنفس فيها لكى يتسنى لهما تنفيذ برنامجهما فى الإصلاح ، ولم يؤذن لكل من تركيا وإيران بالإنفاق لحسين حال الشعب واستغلال موارد البلاد .

---

(١) المقال الرابع من ترجمة مقدمة كتاب Islam and Socialism للأستاذ الهندى مشير حسين كيدوى المنشور سنة ١٩١٠ .

ولهذا فقد اضطرت الدولتان إلى أن تنفقا الجزء الأكبر من دخلهما على الجيش دفاعا عن النفس ، ومع ذلك فإنهما تتهمان بأنهما عاجزتان عن إدارة شئون الحكم على أسس دستورية ، فعلى إيران أن تتخلص من رجل مالى شجاع أمين ، وعلى تركيا أن تحل تلك اللجنة التى تقف حجر عثرة فى سبيل الخطط العدوانية التى تحوكها أوربا ، إذ تعتبر دكتاتوريه لجنة كبرى تتألف من شعب مختلف الأجناس والألوان والعقائد - فى نظر الأوربيين - أقل نصيب فى الديمقراطية من وزارة أوتوقراطية صغيرة فى بلد يحكمها ملك واحد من ملوك أوربا .

ولن يساور الإسلام خوف من المسيحية أو أى عقيدة أخرى طالما روعيت المبادىء الأخلاقية والاجتماعية للحياة ، فقد تغلب الإسلام على المسيحية عندما كانت فى أوج سلطانها . أما الشىء الذى يخشاه الاسلام والمسلمون فهو المادية ، فعلى المسلمين أن يكونوا على استعداد لمواجهتها وصدها ، لا بالتخلى عن فضائلهم ، بل بتزويد أنفسهم بتلك الأسلحة التى اخترعتها المادية لحماية فضائلها من اعتداءات من هم أقل منها فضيلة .

وهناك مثل شرقى جدير بالذكر يقول ما معناه « الماس يقطع الماس » « Diamond cuts diamond » . ولعل هذا هو المثل العربى القائل « لا يفل الحديد إلا الحديد » . ويجب أن تكون الخطوة الأولى التى يخطوها المسلمون متجهة نحو « تأميم » Nationalisation الأمبراطورية التركية عامة والأماكن المقدسة بصفة خاصة . وينبغى أن تبدأ اشتراكيتهم فى الداخل مثل الايمان المسيحى، كما ينبغى إيقاظ روح الأخوة وروح المساواة القديمة بين المسلمين . وعلينا أن نكافح خلال نهضتنا الأخيرة الخرافات الدينية بعد أن توحدنا فى مناضلة المادية عدونا المشترك . ولقد تمسكنا يوما ما بمبادىء الاشتراكية السديدة والاتحاد الأخوى ، حتى صرنا أمة منظمة على جانب عظيم من التقدم . فإذا ما فعلنا ذلك فى هذه الآونة فلنستيقن من أننا سنمضى قدما رغم ما يحفنا من مخاطر . ومن سر تقدمنا فى الماضى خضوع الفردية للجماعية فلو أننا تغلبنا على النفس والأنانية مرة أخرى ووضعنا نصب أعيننا قضية مشتركة إذن لكسبنا معركة الحياة — رغم فقرنا فى السلاح — كما كسبنا حينذاك .

فقوتنا مركزة فى روحانيتنا التى لا تبلى ولا تقهر ، وفى شيوعيتنا التى لا تنهدم ولا يعتريها الانحلال ، وإذن فيجب أن تكون الاشتراكية الشيوعية أول خطواتنا نحو الاشتراكية العالمية . وستكون الأمتان الهندوكية والبوذية وكلتاهما منعمة بالروحية الثورية القوية من خيرة أحلافنا وشركائنا فى القضية المقدسة ، قضية الاشتراكية المطردة ، ومما يجدر ذكره أنه لا يسع المسلمين الهنود قتال الهندوكيين فصالحهم وصالح بلادهم رهن بحسن النية والتفاهم المتبادل بين الفريقين .

إنى أعجب من أن الساسة الانجليز قد نهجوا سياسة قصيرة النظر جدا ، ورغم ذلك فلا زلت أعتقد أن غريزة الدفاع عن النفس التى حملت انجلترا على أن تسعى لعقد حلف من اليابان ستحمل الشعب البريطانى أيضاً على أن يبذل جهداً جباراً ليخفف من حدة العواطف الثائرة عند ملايين المسلمين وستحملهم مرة أخرى على مصادقة الدول الإسلامية إبتغاء توطيد أركان أمبراطوريتهم الممتدة الأطراف . أما السياسة الحاضرة التى تنهجها انجلترا فإنها تتجافى إلى حد كبير عن عواطف المسلمين ولذا فهى ضارة بصوالح الأمبراطورية البريطانية .

ولقد يلوح أن مصير المسلمين والشعب الانجليزى واحد ، ولذا فإن من فائدتهما المتبادلة أن يعنى كلاهما بعواطف الآخر لا أن يضرب بها عرض الحائط ، وإذن فيجب أن تعنى بريطانيا العظمى فى سياستها الخار-ية عناية تامة بعواطف المسلمين .

« يتبع »

من توجيهات الاسلام

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص قائده الذى وجهه لفتح فارس :

« أما بعد — فأنى آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فأن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن عنايتهم قوة ، لأن عدونا ليس كعدوهم ، ولا عدتنا كعدتهم فان استوينا فى المعصية . كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا ، لم تغلبهم قوتنا »

الأزهـــــــريون

أساتذة شعراء العصر (١)

لحضرة الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقى

المدرس بكلية اللغة العربية

كان جل شعراء العصر ، الحاملين لواء الشعر ، المعبرين به عن معانى الحياة حسبما تواتى لهم من القرائح ، وتهيأ لهم من الأسباب . من الأزهر الذى رضعوا أفاويقه ، واغتذوا بثقافته العربية ، ومن الطبيعى أن يكونوا وهم بهذه المثابة قدوة الناشئين ، وأئمة المبتدئين ، يهتدون بتراثهم ، ويمضون على غرارهم ، وينزعون فى قوسهم ، ولو جهدوا فى المخالفة ، وجدّوا فى المجافاة .

وليس ينكر أثر المتابعة والاقتداء فى الأفكار والأساليب ، وشعراء الأزهر إذ ذاك زعماء يوجهون ، وقادة يُتبعون ، فليس بدعا أن يسايرهم غيرهم ، وأن يدرس أساليبهم ، ويمضى فى طريقهم صعداً .

وإذا ساغ لفريق من الشعراء المعاصرين أن يتخطوا الأجيال والعصور ، وأن يستشرفوا ويمدوا أعناقهم إلى شعراء الجاهلية فيقلدوهم فى طريقتهم ، وينزعوا إلى محاكاتهم ، ويديروا شعرهم على أسلوب العرب الضاربين فى الفلا والبيد ، فيتغنوا بالعيس ؛ ويخاطبوا النؤى ، ويسائلوا الدمن والأطلال ، ويتشمموا الشيح والعرار ، على طول الزمن ، وترامى الأمد .

إذا ساغت المتابعة على انقطاع ما بين التليد والطارف ، والماضى والحاضر ، فأولى بها أن تكون بين معاصر ومعاصر ، وأولى بالتأثر أن يكون بالشاعر الذى يُرى ويُشاهد ، ويقول فيسمع ، ويُغشى ناديه ويُتلقى أدبه بالمشافهة والاستماع .

وإن الأبصار لتتقلب فى دواوين القدامى ، وتغوص فى آثار الراحلين على انقطاع الصلة طلباً للاقتداء ، والتماساً للمحاذاة ، وأقل من ذلك عناء للشاعر أن يلبى داعى المسايرة لشعر يطرق سمعه بالرواية المعاصرة تصافح أذنيه من ألسنة قائليه ، ويتهادى إليه فى الصحف كلما سنحت فرصة أو واتت مناسبة .

ولقد كان فريق من فحول اللغة والأدب فى الأزهر أساتذة للرعيل الأول من نابهى الشعراء فى هذا العصر ، الرافعين علمه ، المقيضين له أسمى المكانات وأرفع المنازل ، أخذ هؤلاء الشعراء الذين تفاخر بهم العربية ، وتباهى بهم حواضر الأدب فى أزهى عصورها عن أساتذة من الأزهر فانتفعوا بعلمهم ، واسترشدوا بنقدهم ، وتملأوا من روايتهم ، ونزعوا منزعهم وجروا مجراهم فى تفهم الشعر ، واكتناه اللغة ، والتفطن لمواطن البلاغة ، تيسر لهم بهؤلاء الأساتذة ضروب من التوجيه ، وألوان من التشجيع ، بل وجدوا منهم ما خلق من ملكاتهم الحية الخصبة أسباب الخلود ، مما لولاه لظلوا مغمورين ، وعاشوا غير مجلين ، وسنبين فى هذا البحث كيف استمد هؤلاء من أساتذتهم الأزهريين حياتهم ، وكيف نهلوا من فضلهم وعلوا .

« ١ » المرصفى والبارودى

لم يكن الشيخ حسين المرصفى زعيما من زعماء السياسة يلتف حوله دعاتها ، ويغص بهم ناديه فيؤمه البارودى أول نشأته متابعة لرأيه ، أو انتفاعا بجاهه ، ولم يكن المرصفى من سراة مصر وذوى النعمة فيها فتقوم بينه وبين البارودى صلة اليسار والرفاهية ، ويجمعهما الترف ولذائذ الحياة .

ولم يكن المرصفى من ذوى الصبوات الذين يهيمون فى مسارح الغيد والطلا فيتأكد بذلك الود بينه وبين البارودى ، فهو الشيخ الضرير ، التقى الورع ، المتوفر على العلم والأدب ، الغائص على أسرار اللغة واكتناه خفاياها .

لم يكن الدافع للبارودى على معرفة المرصفى والاتصال به وتوثيق الصلة بينهما شيئا من ذلك ، ولكن الشيخ حسين المرصفى كان ذا شهرة بالعلم وصيت فى الأدب يؤمه كتاب وشعراء ، ويقصده علماء وأدباء ، ويعرض عليه أدبهم فحول الأدب والبيان ، وكانت الزعامة قد انعقدت له فى التوجيه والنقد وغزارة العلم والبيان والبارودى منذ نعومة أظفاره ممتلىء حبا للأدب وإيثارا للشعراء ، وهوى للفصحاء وما من شك فى أن هـواه هو الذى احتثه على المرصفى احتثاثا ، واجتذبه اليه اجتذابا . يجد فى درسه ونقده وتوجيهه ما ينقع غلته ، ويروى صداه .

ولقد جهدت فى تحديد الصلة التى كانت بين المرصفى والبارودى، وعنيت بها كيف نشأت، وعلى أى وجهة كانت، وأين كان الرجلان يلتقيان، ولكن جوابا عن شيء من ذلك لم يتيسر لى فيما قرأت واستقرأت، فقد يعرف كثير من الناس أن للبارودى صلة بالمرصفى وأن للأول بالثانى انتفاعا، فقد استفاض الحديث عن ذلك حتى تحدث الشاعر نفسه به، ولكن تحديد هذه الصلة من حيث بدؤها وكنهها غامض.

فلعل البارودى كان ليساره ونعمته قد سعى لاستقدام الشيخ فى منزله والانفراد به فى مكان هادىء يتوفر فيه التلميذ على الانتفاع بأستاذه، ويهىء له أسباب النفع والتوجيه، ويجد من أستاذه كلما وفد إليه معلماً يعلمه وهاديا يهديه، ومهذبا يصقل أدبه، ويجلو بيانه.

ويتحدث المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى عن صلة البارودى بالمرصفى فيقول «من عجيب أمره (البارودى) ما نراه فيما كتبه عنه الشيخ حسين المرصفى منذ ثلاثين سنة وهو أستاذه[1]».

ويقول الأستاذ عباس العقاد «إن المرصفى أستاذ البارودى وحافظ وقدوتهما فى الرأى والنقد وتذوق البيان[2]».

ويقول كتاب المفصل «وأخذ عن المرصفى كبار المتأدبين فى عصره من أمثال البارودى فصاحبوه ولازموه وعرضوا عليه بيانهم فهدى ونقح وهذب».

والمرصفى حين يتحدث عن البارودى يدل على أن البارودى تلقى عنه وتعلم منه فإنه يقول «إن البارودى لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله، فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسبما تقتضيه المعانى والتعلقات المختلفة، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن» ولم نعرف أن البارودى اتصل بغير المرصفى ممن له دراية أو قرأ بحضرته دواوين الشعر.

---

(١) المقتطف الصادر فى ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٣٢٢ هـ الموافق أول فبراير سنة ١٩٠٥ م.

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٢.

ويقول المرصفي « وسمعته مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين فقلت له فى ذلك فقال هو كذا فى قول فلان وأنشد شعراً لبعض العرب فقلت تلك ضرورة وقال علماء العربية إنها غير شاذة ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مدركا ما ينبغى وفق الكلام ومالا ينبغى[1] .

فالمرصفى يتحدث عنه حديث خبير به ، ويدل على أن البارودى كانت له معه دراسة وانتفاع ، وأن المرصفى كان يراجعه ويوجهه وينقده ، وما أظن أن البارودى قرأ هذه الدواوين الضخمة إلا عليه ، وأنه سمع منه نقده لها ، وتعليقه عليها ورأيه فيها .

والبارودى يقدر صلته بأستاذه ، ويفى حق الوفاء له ، يقول المرصفى ، وكان حرسه الله كتب لأبناء وده كتباً وهو فى حرب الروس ولم تصل إليهم وظن وصولها وتقصيرهم عن المبادرة بالإجابة ، وقد وصل إلى أحد كتابين كتبهما لى يوم قدومه إلى مصر بعد مدة طويلة من كتابه »[2] ومطلع هذه الأبيات .

ياناعس الطرف إلى كم تنام　　أسهرتنى فيك ونام الأنام

ويقول فيها .

طال النوى من بعدكم وانقضت　　بشاشة العيش وساء المقام
مولاى قد طال مرير النوى　　فكل يوم مرَّ بى ألف عام

إلى أن يقول فى ختامها .

فتلك حالى لارمتك النوى　　فكيف أنتم بعدنا ياهمام ؟

---

(١) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٧٤ .

(٢) الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٩٧ .

الدعوة المهاجرة

لفضيلة الأستاذ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

لم هـذه الأشباح تختلس خطاها بين دروب مكة وقد كساها جناح الليل كأن حدثا جسيما يوشك أن يقع فاختنقت الأنفاس ، وتحسس كل سار موطىء قدمه كأنما يسترق خطاه ؟ ولم ادرع هؤلاء الكماة من شجعان قريش وفتاكها وشحذوا السيوف والخناجر وثقفوا الرماح والحراب ، وراشوا السهام كأنما يتأهبون لصد غارة ما حقة ؟

ولم هجر هؤلاء الكهول فى الليل البهيم دورهم ، وساروا تتعثر أقدامهم وترتعش فرائصهم وتغلى بالوساوس والهواجس رؤوسهم ؟

ولمن هذه الدار الأسيرة تتطاول فوقها الرماح وتقوم حولها زرق الأسنة ، ويكاد يتطاير لهيب الغيظ ممن حولها ليلتهم من فيها ؟

ومن ذلك النائم الحالم تسبح روحه بين ألوان من الرؤى فلا يتيقظ ألا على حفيف أجنحة الرحمة تخفق حوله ؟

أن وراء كل هذا مؤامرة دبرتها الوثنية الحمقاء للحنيفة السمحاء ، عبأ الباطل لتنفيذها كل عات طاغية ممن أسلموا وجوههم إلى اللات والعزى ، ووقف الحق متحفزاً لحماية من أسلم وجهه إلى الله .

مؤامرة حشد فيهـا الشيطان كل ما يملك من الشر والغدر ليفتك بالدعوة وصاحب الدعوة ، وليعيد أولئك الذين مسحوا عن جباههم تراب الوثنية وسجدوا فى محاريب الحق إلى السجود بين يدى مناة وهبل .

لقـد دفعت معجزة القرآن رقة الشعر وسحر البيان ، وعجزت مغريات الملك والمـال عن أخضاع محمد لخـداعها ، فليكن الحكم للسـيوف يهـوى بها فتاك

القبائل ، فيتفرق دمه بينها وتموت الدعوة فى مكة قبل أن تتخذ لها سبيلا إلى بلد ينصرها أو قوم يعزونها ويعتزون بها .

ولمست همسات الوحى سمع محمد صلى الله عليه وسلم تؤذن بالهجرة ، فألقى بردته على أول فدائى عرفه الإسلام : على بن أبى طالب الذى اضطجع فى مخدعه ليتلقى عنه الطعن وليكون الضحية ، وإنه لحبيب إلى نفسه أن يفدى محمداً ودعوة محمد .

وتقدمت عناية الله بين يدى محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، تهز رؤوس الطغاة فيلعب بها دوار ليس بدوار النوم ولكنها الغشية ألقاها الله على رؤوسهم فهم لا ينهضون وهم لا يبصرون ، وضحك الحق من الشيطان ومما دبر الشيطان ، إنها ضحكات السخرية والاستهزاء ، فليعبىء الوجود كل قواه وليجند الشر شياطينه فأن كل ذلك لا تكترث به قوة السماء .

وخرج محمد صلى الله عليه وسلم فى كنف الملائكة يدلف إلى بيت أبى بكر ، ورفت على السحر همسة مطمئنة تناجى أبا بكر إلى الغار ، إلى الغار لتتخذ فيه إلى جوار الله ملاذا من تطفل العيون وحمى من مواطن الظنون .

لقد أقام فى غار ثور ثلاثة أيام صنعت فيها المعجزات خوارق تحدت قصاص الأثر وسخرت من كل كيد ومكر ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

وهاجر محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته مستهينا بما عسى أن يلقاه من قريش ومن عنت قريش ، مستعذبا هجير البيداء وحرها اللافح ، غير مكترث بذؤبانها أو عابىء بوحوشها .

لقد هجر الوطن الحبيب الذى تفتحت عينه على سمائه وليدا ودرج فوق رماله طفلا ، الوطن الذى كان يعيش فيه بين ذكريات حبيبة إلى نفسه ، ذكريات الأيمان والحب والصدق تضفيها على قلبه زوجته خديجة رضوان الله عليها .

لقد هجر كل ذلك ، وكل ذلك حبيب إلى روحه ، ليتخذ مكانا للدعوة خصيبا ، يزهو فيه غرسها ويطيب ثمرها .

وهكذا هاجرت الدعوة الإسلامية إلى المدينة يحملها قلب لاتلين جوانبه لعواصف الشرك ، ولا تتضعضع أمام حماقة الوثنية وطغيانها .

هاجرت الدعوة التى عاشت فى مكة غريبة لا ينصرها أو ينتصر لها غير نفر من سادات قريش وجماعة من المستضعفين والعبيد ، هؤلاء وأولئك قلة لا تذكر إلى جانب المشركين ، لتتخذ لها فى المدينة مكانا بل سلطانا .

هاجرت الدعوة الطريدة المحاربة ، لتدخل مكة بعد سنوات غازية تحطم الأصنام وتطيح بالأوثان .

هاجرت الدعوة التى أحبها الفقراء وحاربها الأغنياء ونصرها المملوك وآذاها أشباه الملوك ، لتعود إلى مكة فتمحو عتو الجاهلية ، وتذل كبرياء الأسياد وخيلائهم ، بفضل بلال وأمثال بلال ممن هاجروا مع الدعوة مغلوبين وعادوا غالبين ، تظللهم ألوية النصر والفتح المبين .

هاجرت الدعوة لتربى هنالك جيلا جديداً ، بل شعباً ، بل أمة تفنى ذوات أفرادها فى سبيلها ، لقد انتشلت النفوس من أمراض الجاهلية ، لتضعها فوق شواظ المكاره ، حتى إذا ما انتفى عنها خبثها وعادت صافية كفطرتها الأولى ، بنت منها الدعوة البناء الذى لا تهتز قواعده أمام بطش السلطان أو خداع الشيطان ، ولم يكد ينقضى نصف قرن من الزمن على هجرة الدعوة إلى المدينة ، حتى رفرفت ألويتها فوق ربوع الهند وفارس وما وراءها والشام ومصر والمغرب ، إنها دعوة تبنى الشعوب والأمم على دعائم من الأخلاق ، إنها دعوة تجمع الغنى والفقير ، والسيد والمسود ، والحاكم والمحكوم ، فى صف واحد بين يدى الله ، يعلنون جميعاً أنهم سواء فى الخضوع لصاحب العزة والجبروت ، فكيف لا تؤمن بها الشعوب التى قاست حكم الفرد وطغيان الفردية واستبداد القيصرية .

أيها المسلمون :

إن مئات من المسلمين هاجرت بهم وإليهم الدعوة استطاعوا بإيمانهم وعزائمهم وتفانيهم فيها ، أن يبتنوا مجداً لا تحميه اليوم مئات الملايين من المستضعفين والمستعبدين والذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، لأن المئات التى نصرتها كانت قلبا واحداً ، ونحن اليوم مئات الملايين من القلوب المتنافرة المنحلة .

أيها المسلمون

جاهدوا أنفسكم وحاربوا أهواءكم واستمدوا من كتاب الله وسنة رسول الله ، هادياً يضيىء لكم مستقبلكم ، ألا وإن سبيل المجد كله أشواك ولن يستطيع السير فيه منعم مترف متخم .

أيها المسلمون

هل تعود الكلمة للدعوة ، فيعتز المسلمون وتسود شعوبهم ، وتهاجر الدعوة من جديد لتغزو وتفتح وتقوض عروش الجبابرة ، وتؤذن فى العالم الله أكبر والمجد للاسلام ؟

أيها المسلمون

هاجروا إلى ما هاجرت إليه الدعوة ، إلى التضحية ، إلى التفانى ، إلى الكفاح فى سبيل الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

إفحــــام

وفد عقيل بن أبى طالب ، على معاوية بن أبى سفيان ، مغاضبا لأخيه أمير المؤمنين على ، فقال له معاوية : كيف تركت عليا ؟ قال عقيل : تركته مؤثراً لدينه على دنياه . قال معاوية : وكيف تجدنى ؟ قال عقيل : أجدك مؤثراً دنياك على آخرتك . قال معاوية : إنى أنفع لك من أخيك ، ولولا أنك وافد إلينا لأسمعتك ما يؤلمك ! ! قال عقيل : نعم ، أنت أنفع لى فى دنياى من أخى ، وأخى أنفع لنفسه فى أخراه ، ولقد تعلم يا معاوية أن المال غادٍ ورائح ، وأن فينا التمرى والرماح ، وأن الله يصرف القلوب ! فسكت معاوية ولم يجبه .

محاربة الاسلام للفقر

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

الأمم الآن تعمل جاهدة مجهودة للنهوض بالمستوى الاجتماعى بكل ما تملكه من الأساليب ، معتقدة أنها لاتصاب بالضعف الخلق ولا المادى إلا حين تنحط عن المستوى اللائق بها كدولة ، والجدير بها كشعب ، وبخاصة من يقع منها تحت نير الاستعمار ، وغائلة الاستعباد ، لأن ذلك يُقَـلِّم أظافرها ، ويجعلها دائماً أبداً فريسة الغاصب ، ومطمع المستبد ... وقد اختلفت الطرق المؤدية لذلك النهوض ، والوسائل التى يتخذونها لهذا كله . ولا تتعرض لها بعنوان كونها تصلح لأن تنفخ فى الأفراد والجماعات روح التوثب واليقظة ، والتقدم والعمران ، بأكثر من عقاقير مما وصل إليها العقل البشرى القاصر ، والفكر الإنسانى الكليل ، وهى من أجل هذا عرضة للمحو والإزالة ، والتغيير والتبديل ، والثورة والسخط والألم والغضب ، والكراهية والازدراء .. وصدق الله العظيم « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

والدول التى تتأجج بينها فى هذه الآونة نيران الشر ، وتحمى لديها وطيس النفور والبغضاء ، تدعى كل واحدة منها أنها تدعو إلى السلام ، وتعمل على الوصول بالبشرية إلى النظام والاستقرار ... وقد دل التاريخ الصادق على أن الإسلام كان أول الاديان علاجا لهذه الجرثومة الخلقية الحقيرة ، والديدن الآدمى المزدرى ، ويخطىء من يظن أن عنايته كانت تنحصر فى مديد المعونة للبائس المحتاج ليدفع عنه ألم الجوح ، ومرارة السغب ، فإن هذا أقل ما يعنى به ، ويحاول أن

يحول بين الناس وبينه ، وإذا كان قد جعل فيما جعله من تكاليف يلتزمها المسلمون ويقومون بها قياما مفروضاً أن يكون فى أموالهم « حق معلوم للسائل والمحروم » فإنه لم يقصد لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تعيش عيشة التكايا والملاجىء ، والعطل والتشرد ، لأننا نعلم أن أبغضه ما يبغض للدولة أن يكون فيها قاعدون عن السعى متخلفون عن الركب ، نائمون عن الواجب ، متغافلون عن أمور دنياهم . وفى السنة أحاديث عن بعض المتبتلين الذين أرادوا أن يتجردوا من الحياة كل التجرد تاركين لغيرهم من إخوانهم وذوى قرابتهم أمر معاشهم زاعمين أن ذلك منتهى الطاعة لرب الأرباب ، فلما تناهى خبرهم للرسول الأعظم صلوات الله وتسليماته عليه قال ومن يقوم بخدمته ويلاحظ شؤونه . . .فلما قالوا له نكفيه مؤنة ذلك يارسول الله ، قال كلكم خير منه .

ثم نصح للرجل أن يكون معتدلا فى تبتله بحيث لا يدع أموره لسواه ، لأن السعى فى طلب الرزق ، والدأب للقيام بحاجات أولاده لا يقل ثوابه عند الله يوم القيامة عن الصلاة والصوم ، والزكاة والحج . . وفى القرآن ما يفيد هذا المعنى ، فى مثل قوله « فإذا فرغت فانصب » وقوله « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » وقوله « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

على أن من خطل الرأى ، وأفن العقل ، أن يقال إن الدين يعطى هؤلاء ثم يقول لهم هذا مآلكم ، وتلك نهايتكم ، وذلك مصيركم ، ولا كرامة لآدميتكم التى كرمها الله ، ولا عزة لنفوسكم التى جعل سبحانه وتعالى لها العزة ، ولا بأس من أن تعيشوا على ضراعة السؤال ، وذلة الحاجة . . فإن الآية الكريمة حينما قالت « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم الخ » لم تقصد إلى أن تظل هذه الأنواع مدى العمر كله منقطعة السبح للأخذ من أوساخ غيرها دون أن تنهض للعمل ، وتتحضر للكسب ، وتتهيأ للغنى ، وتنشط لأن تحسن حالها ، وتتزاحم بمناكبها فى هذا المعترك الصاخب . . ونحن نعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكره السائلين ، ويستعيذ بالله من الفقر ، وكان كثيراً ما يقول لأصحابه رضوان الله عليهم حاساً لهم على أن يكونوا دائماً أبداً فى الطليعة

الأولى ترمقهم الأنظار ، وتشرئب إليهم الأعناق « اليد العليا خير من اليد السفلى » ولو أن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تدبروا معنى هذه الكلمة لكانوا سادة العالم ، وملوك المعمورة ، ولكنهم ارتضوا لأنفسهم من الشريعة القشور ، وتركوا اللباب ، وعمر بن الخطاب حينما كان يقول « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » كأنما كان يعلنها حربا شعواء على هؤلاء الكسالى الذين يرضون بفتات الموائد ، وفضلات الأطعمة ، من كل من سلبه الله ماء وجهه فهو لا يبالى ما يريقه منه .

والإسلام لما أراد معالجة الفقر لم يعالجه بإصلاح حال الفقراء والحث لهم على السعى ، وتنفيرهم من مذلة السؤال ، دون أن يوجه اللوم إلى الأغنياء ، والسخط على أصحاب الثروات ، الذين يضنون بمعروفهم ، أو يتقاعسون عن برهم « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وربما بالغ فى هذا فأفهمهم أنهم مستخلفون على هذه الأموال لا أكثر ولا أقل ، كما جاء فى الحديث القدسى « الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى فإن بخل وكلائى على عيالى أذقتهم وبالى ولا أبالى » .

ويخيل للمتفقه فى الدين الإسلامى إذ تصادفه أمثال هذه النصوص التى توصى بترابط المسلمين ، ومؤازرة بعضهم لبعض ، أنه أول شريعة فى الدنيا جاءت بما يسمونه فى هذه الأيام « التضامن الاجتماعى » .

وفى الحق إنه لكذلك .. لأنه قام على الأخوة ، وكل تعاليمه تنتهى إلى الأخوة ، والأخوة أن يكون المسلم أخاً للمسلم فلا يقصر عن معونته ، ولا يتخلف عن نصرته ، ولا يتوانى عن أن يجعله فى موضع الرضا والارتياح مهما كلفه ذلك ، وحمله من مشقة ، وأن يكون له ـ كما جاء فى الحديث ـ كالبنيان يشد بعضه بعضاً ؟

مجالات فى الأدب :

سهام ابليس ...!!

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل عجلان

المدرس بالأزهر

نتاج القرائح مَنخول تَحفظه أوعية الآثار الأدبية ، وهو أمشاج ابتلاها الصهر ، فجاءت مسواة على خلق صادق ، فيه ما يعرفه الخلق السوى فيرضاه ، وفيه ما يلمسه الورع فيتحاشاه ويتحاماه .

ولكنه على الرضى والكره من الأدب المفتن المنضوح بالجمال والمضمخ بفيض الأبداع . نلذه ونرويه .

« كما لذ على الكره كلام الله للشرك »

والرسول الكريم ينصح عليا سيف الله المسلول بقوله : « يا علىُّ ، اتق النظرةَ بعدَ النظرة ، فأنها سهم مسموم يورث الشهوة فى القلب » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نظر الرجل إلى محاسن المرأة سهم من سهام إبليس » .

وأبليس له سهام يرمى بها وتصيب من المغلوب الكلىَ والمفاصل وتودى وتخضع الرأى والعقل والقلب .

وهو مسلط سلاطته خفية تجرى من ابن آدم بين اللحم والدم ، وإن شئت فقل إنها تخالط حتى ذرات العظم .

والناس قديما وحديثاً تعرضوا لسهام العين ، وأمسكوا بجنوبهم على جراحات سال دمها أحمر قانيا ، وكانت سهام أبليس هى صاحبة الجريرة .

والقرآن الكريم جاء بأمر الله (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ...)

والسهم الأول فى أرساله الطبعى أنما هو نظرة أولى ووقعة إذا لم تتبع نجا صاحبها وتماثل ، ولم تسكن عليه .

وإذا برقت مياه أبليس وجعلت من سرابها الخلاب ومموهاتها الجذابة موجات لاعبة بحسب الظمآن فيها رياً وشفاء لحرمانه وحرقاته فأطاق أطماعه وراح يعيد النظرة ويدمنها ويكررها ، ثم تمزز لعابه حين يسيل على جنبات الأشعة المتناثرة من السراب ، فعند ذلك تنظر من النظرات خفقات القلوب واضطراب الأضالع ثم تسكاب الدموع الساخنات ، وأقم صريع السهام ما شئت من المآتم واذرف عليه ما جدت به من دمع العين التى تسعد أختها وتسعف أختها شبيهتها فما من عين إلا ونظرت ، وما من طرف إلا وارتمى ورنا ولكن الله سلم . .

ولعل العرب فى فطرتهم على البيان الموجز . كانت على بينة معجزة من أمر النظرة ، وعلى إلهام فى تصوير إحدى سهام إبليس الذى يزين ويمشى فى الناس ضاحكا من بكائهم هازئا من لوعتهم وشكاتهم .

قالت الأعراب : « اسرع من طرف العين والعين ترجمان القلب » ، « ورب عين أنمّ من لسان » و « لحظة أصدق من لفظة » وأخيرا وهو أول من الأول وأصدق من الصدق « من أطاع طرفه أصاب حتفه » .

وعرف الذين فلسفوا أسباب العشق أنه يتأكد بإدمان النظر ، وأنه لأول الحب ، كما أن أول الحريق الشرر .

* * *

وما أحسن ما وصف المخوفون (من أطلق طرفه أطال أسفه) (واللحظات تورث الحسرات أولها أسف ، وآخرها تلف ، فمن تابع طرفه تابع حتفه . .)

ويعجبنى المأثور عن أبى الفرج بن الجوزى « البصر صاحب خبر القلب . ينقل إليه أخبار المبصرات وينتمش فيه صورها ، فيجول الفكر فيها فيشغله عن الفكر فيما ينفعه من أمر الآخرة ، فاحذر من شر النظر فكم أهلك من عابد وفسخ عزم زاهد . وهو سبب الآفات إلا أن علاجه فى بدايته قريب فإذا كرر تمكن الشر فصعب علاجه » .

إلى أن يقول عن النظر .. ويخرج بصاحبه إلى المحن ويوجب ارتكاب المحظورات ويلقى فى التلف .

ويحضرنى من آثار تلك السهام الداميات من يصور ضجرات وصرخات وحسرات وآنات واعترافات وأخيرا ندامات تلقى التبعات على الأعين التى تمثل دور ابليس ، وأن العين الجامحة للشيطان (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم) .

* * *

وسهام إبليس كثيراً ماتتلفها الدموع وأنها أم البلايا ، وزادها من حصب الندم وحطب الأسف .

وهذا هو الفرزدق يبدأ بالزاد ويعترف بالتهامه دون أن يشعر ويعجب لتلك السهام ، وهذا السلاح الذى لم يلمسه ولم يشهد مقتله تشبه فى صرعاه ولا فى مسالكه .

تزود منهـــا نظـرة لم تدع له فؤاداً ولم يشعر بما قـد تزودَا
فــلم أر مقتولا ولم أر قاتلا بغـير سلاح مثلها حين أقصدا

* * *

وابرهيم بن العباس بن صول ، يصارحنا حين نجا من الهزيمة المجلوبة بالعداوة والحسد وأتى من النظرة والفكرة ، فيقول :

فمن كان يؤتى من عـدو وحاسد فأنى من عينى أتيت ومن قلبى
هما اعتورانى نظرة ثم فكـرة فما أبقيالى من رقاد ولا لب

* * *

وفى ساعة العسرة الضائقة يصرخ الشاعر وينحرف به اليأس وتشط الحيرة فى ظلام البلاء بالمعشوق كمثل اللوعة المبثوثة من اسماعيل بن عمار الأعرابى .

عينـان مشئومتان ، ويحهما القلب حـــيران مبتلى بهما
عرفتـاه الهـــوى يظلمهما يا ليتنى قبـــله عدمتهما

وأكثر الشعراء على أن حبهم الفاشل ودلال من دل عليهم حتى أذلهم أو تركهم أحياء كالموتى أو قتلى يمشون فى الناس، إنما الجرم الأول كان من أعينهم أو من سهام إبليس حتى زعيم الشعراء أو ناظم حكمة الفلاسفة (المتنبى) :

وأنا الذى اجتلبت المنية طرفه فمن المطالب ؟ والقتيل القاتل

* * *

وتلك اللاحظات المسرفات اللاهيات التى تجنى على الأنفس وإن عفت وتدخل الأخبار على القلوب، إن كانت من زيف مدخول إنما هى آذنات خدعت الأجفان واستغفلت الحجاب فسولت وزينت وأنزلت بالقلوب الفواقر القواصم كما صور أبو منصور بن الفضل فى رقة وصدق :

لواحظنا تجنى ولا علم عندها وأنفسنا مأخوذة بالجرائر
ولم أر أغبى من نفوس عفائف تصدق أخبار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حجاب قلبه أذن على أحشائه بالفواقر

وأخيراً نضع أمام القارىء نقمة أبى شجاع الوزير وما توعد بها سهام إبليس من ترة وعذاب للتى سفكت دمه فجعل يسفك دمعها، والتى أوقعنه فى حبائل فراح يلومها ويجعل ذنبها من ذنوب موقد الفتنة والبادىء بالظلم وإنها لظلوم :

لأعذبن العين غير مفكر فيها، جرت بالدمع أم فاضت دماً
ولأهجرن من الرقاد لذيذه حتى يصير على الجفون محرماً
سفكت دمى فلأسفكن دموعها وهى التى بدأت فكانت أظلما
هى أوقعتنى فى حبائل فتنة لولم تكن نظرت، لكنت مسلما

* * *

هذه أيها القارىء قطرات من مسائل تلك السهام نوردها لتحذر شكاتها وتجتث مخاطرها، ومن يلق أسباب الشكاية واضحة كان عليه أن يباعد بينه وبينها ولا عليك من الهاتفين بأن الهوى قدر ومن المنسابين وراء القطرات .

أيها القارىء، تلمس وتحسس طرف النظرة ثم ردها طوعا أو كرها، وإلا حقت عليك الزفرة واللوعة وشقت لياليك من سهر الهوى والهوان، وكنت صريع سهام براها إبليس، ونامت عنها أعين الحفاظ والتوقى ؟

بغـــــداد

للأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

سأتناول فى بحثى هذا ، مدينة بغداد منذ أسسها جعفر المنصور إلى أن انحطت مكانتها ، بزوال الخلافة العباسية منها على أيدى التتار عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)

وأحب فى مستهل هذا البحث أن أذكر المهم من المصادر التاريخية التى تحدثت عن نشأة هذه المدينة . فمن هذه المصادر كتاب « بغداد أثناء الخلافة العباسية Bagdad Under the Abasid C. » لمؤلفه المستشرق لوسترانج Le Strange ، ومنها كتاب البلدان لليعقوبى ، وكتاب الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ، وكتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى .

ويحسن أن نشير إلى العواصم الإسلامية التى سبقت بغداد ، إذ جرت العادة على أن تتخذ كل أسرة إسلامية تلى الحكم ، حاضرة جديدة ، تلائم وجودها وحياتها ، فلقد اتخذ الرسول عليه السلام يثرب « المدينة » حاضرة له ، وظلت حاضرة الإسلام والمسلمين حتى جاء على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فنقلها إلى « الكوفة » التى كانت مهداً لتشيع متطرف ، بينما كانت المدينة مركز أهل السنة الذين ما فتئوا يذكرون أبا بكر وعمر وعثمان ، على أننا نستطيع أن نقرر هنا ، استناداً إلى ما جرت به الأحداث التاريخية فيما بعد ، أن علياً لم يكن موفقاً فى تفضيل الكوفة على المدينة ، إذ بذلك قد هدم التوازن الذى أقامه أسلافه بين القبائل العربية ، ووضح له فيما بعد ، أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن الا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

ولما انتقلت الخلافة إلى « معاوية بن أبى سفيان » اتخذ « دمشقاً » حاضرة للأمويين ، ولا غرابة فى ذلك ، فنحن نعلم أن الشام كان مركزاً لدعوته وأنصاره ، وهو بالإضافة إلى ذلك خصيب التربة ، مجاور للحجاز ، قريب من مواطن القبائل

العربية التى اعتمدت عليها الدولة الأموية ، ثم إن دمشقاً كانت بحكم قربها من الامبراطورية البيزنطية ، ذات موقع ملائم لحشد الجيوش ، التى ترد غارات هذه الدولة المجاورة المعادية .

ولما جاء العباسيون ، لم تعد دمشق ، تصلح لأن تكون مقراً لخلافتهم ، ذلك لأنها أموية النزعة ، ولأنها بعيدة عن فارس ، مصدر قوة العباسيين ، ومركز دعوتهم بخراسان ، لذا لم يطمئن العباسيون إلى وجود حاضرتهم بالقرب من الدولة البيزنطية ، وهى العدو التقليدى ، فى حين لم يكن لهم بين العرب عصبية تشد أزرهم ، ثم إن العباسيين أدركوا فيما بعد أن التوسع شرقاً أسهل منه فى الغرب ، حيث توجد الدولة البيزنطية ومن ورائها العالم المسيحى يشد أزرها .

من ذلك نستطيع أن نقول : إنه كان من المناسب إذاً أن يعدل العباسيون عن دمشق كحاضرة لخلافتهم ، وأن يستبدلوا بها مدينة تقع على مقربة من بلاد الفرس . ولقد أقام « أبو العباس السفاح » الخليفة العباسى الأول ، « بالأنبار » ، وهى مدينة فارسية قديمة تقع على الشاطىء الشرقى للفرات ، ولما جاء « أبو جعفر المنصور » الخليفة العباسى الثانى ، اتخذ مقر خلافته مبدئياً فيما بين الكوفة والحيرة ، غير أنه رأى أن هذا المكان الجديد لا يصلح مقراً للخلافة ، لقربه من الكوفة مهد التشيع العلوى ، ومقر القبائل العربية التى تثير الفتن والقلاقل ، ثم إن الكوفة وما يجاورها من البلدان تقع فى نهاية الصحراء العربية التى تهب رمالها على شاطىء الفرات الغربى . ومن هنا بدأ « أبو جعفر المنصور » يفكر فى حاضرة جديدة يتخذها مقراً لخلافة وطيدة الأركان .

واختار رواد المنصور مكاناً ملائماً لإنشاء الحاضرة الجديدة ، بالقرب من « بارما » جنوبى الموصل ، فى سهل ترويه مياه دجلة ، وجداول الفرات ، وكان مكان بغداد مزرعة يقال لها المباركة . ويقول « ياقوت » إن كلمة بغداد فارسية الأصل : « باغ » ومعناها بستان و « دار » اسم الرجل الذى كان يملكه ، ويقال : إن « باغ » اسم لصنم و « داد » تعنى أعطى ومنح ، ويقول « النسائى » : إن بغداد معناها « دار السلام » ، ويقال أيضاً : إن بغداد كانت سوقاً يقصده الصينيون للتجارة ، وكان لهم ملك اسمه « بغ » فإذا انصرفوا عائدين إلى بلادهم ، قالوا « بغداد »

أى أعطاهم الملك الربح . ومما يدل على فارسية هذا الاسم ، وجود الدال العجماء به ، وقيل : سميت بالسلام ، لأن السلام هو الله ، وقيل أيضاً : لأن نهر الدجلة يقال له وادى السلام .

شرع المنصور فى بناء حاضرته الجديدة ، فى موضع بغداد القديمة ، وجمع لذلك المهندسين والعمال وأدوات البناء ، ووضع بيده أول لبنة وقال : «باسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » . وخططت المدينة بالرماد أول الأمر ، ومكان هـذه الخطوط حفر أساس المدينة عام ١٤٥ هـ . واتخذ للمدينة شكلا دائرياً يتوسطه داره وجامعه ، وهـذا النظام فارسى الأصل ، وكان للمدينة أربعة أبواب هى : باب خراسان ، وباب الشـام ، وباب البصرة ، وباب الكوفة ، وأحاطها بسورين وخندق وكان قطرها ٢٢٠٠ ذراعا .

غير أن بغداداً هذه ، سرعان ما ازدحمت بالمبانى والعلماء والتجار والصناع ، الذين وفدوا عليها من جميع أرجاء الدولة العباسية ، ولذا فكر المنصور فى الإقامة خارج بغـداد ، فى مكان طليق ، فبنى عام ١٥٧ هـ قصر الخلد على شاطىء دجلة الغربى ، ولما تم بناء بغداد أقطع المنصور أعيان دولته قطائع من الأرض على غرار قطائع أحمد بن طولون فيما بعـد ، وذلك رغبة منه فى تخفيف الضغط عن بغداد من جهة ، ومكافأة لهم على ما قدموه للدولة من خـدمات من جهة أخرى . وبلغ عدد سكك بغداد ودروبها حوالى ٦٠٠٠ سكة ودرب ، كما بلغ عـدد حماماتها ١٠٠٠٠ ، وفى هذا القول مبالغة ظاهرة ، ويقال إن مساجدها بلغت ٣٠٠٠٠ مسجدا ، وقيل أيضاً أنه كان بها ٥٥ قنطرة ، ٤٠٠ رحى مائية ، ٤٠٠٠ معمل لصناعة الزجاج ، ٣٠٠٠٠ معمل لصنع الخزف ، كما كان لبغداد ضواحى سميت بالأرباض أشهرها أربعة ، جعل على كل منها موظف يشرف عليها .

هذه صورة مصغرة لمنشأ مدينة بغداد ، ولقد مرت عليها أحداث كانت ذات أثر كبير فيها : فهى قد تأثرت بالفتنة التى اندلعت بين الأمين والمأمون ، كما تأثرت بحصار بنى بويه ثم السلاجقة لها ، وأخيراً عندما حاصرها التتار بقيادة هولاكو فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

الحياة العقلية
فى صدر الدولة العباسية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

فى الصدر الأول من الدولة العباسية (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ازدهرت الحياة العقلية فى الحواضر الإسلامية ازدهاراً كبيراً ، وتلاقت فى بلاد العالم الإسلامى موجات الثقافة والتفكير . فكانت الدولة إبان ذلك العهد مزيجا من شعوب متعددة وكانت عقلية الأمة الإسلامية يبدو عليها أثر تلك الوراثات والثقافات واضحا .

كان النفوذ للفرس ، فانتشرت ثقافتهم على أيدى الوزراء والكتاب الفارسيين ؛ ونقل المثقفون : من الفرس الذين أجادوا العربية ، والعرب الذين أتقنوا الفارسية ؛ تراث الفرس القديم فى العلوم والآداب والسياسة والاجتماع ، وكان إنتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء وهؤلاء صادرا عن ثقافتين وعقليتين . وكانت عواصم فارس مراكز حية للنشاط العقلى فى ميادين الثقافة والتفكير ؛ ويقول ابن خلدون : إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم [١] .

ودخلت الثقافة اليونانية فى هذا العصر أيضا على الفكر الإسلامى ، بامتزاج الجنسين فى الحياة الاجتماعية ، وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ، وإذا كان خالد بن الوليد المتوفى عام ٨٩ هـ أول من ترجم — أو ترجمت له — كتب النجوم والطب والكيمياء [٢] ، فإن المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ قد عنى بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها . وبعث إلى أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من

---

(١) ٤٤٣ مقدمة ابن خلدون .

(٢) ٢١٣ / ١ البيان والتبيين ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

كتب الفلاسفة ، وتخير لها مهرة المترجمين ، وكلفهم بإحكام ترجمتها [١] . بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية [٢] . وكذلك فعل الرشيد؛ وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك [٣] ، وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج المترجمين .

وإذا كانت الدولة قد قبلت الثقافة الإيرانية فى أمور الدولة فقد أخذت، فى ساحة الحضارة والثقافة أمورا كثيرة من بيزنطة [٤] .

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامى ، مباشرة أو بواسطة الفرس أيضا . . أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية أو ثقافة ، ولم ينبغ منهم فى الأدب والشعر والعلم بعد أن تعلموا العربية إلا القليل : كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان ثم ابن جنى العالم المشهور .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة فى الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هى أهم شىء أثر فى الفكر الإسلامى ، وكانت المورد الأول للناس جميعا .

تجمعت هذه الثقافات فى العراق فى العصر العباسى الأول ، وأحدثت أثرها فى العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج هذه الثقافات [٥] وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب ، فقدموا معانى للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

— ٢ —

وفى العصر العباسى الثانى (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات ، بتطاول الزمن ، وتلاقح العقول ، وظهور آثار حركة الترجمة ، وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ؛ فكان أزهى عصور العلم فى البلاد الإسلامية .

---

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد .

(٢) ٢٤١ / ٤ المسعودى .

(٣) ٤٨٠ و ٤٨١ ابن خلدون .

(٤) ٣٨ تاريخ الحضارة الاسلامية لبار تولد .

(٥) ٣٨٠ ضحى الاسلام .

وإذا كان العصر الأول قد غلبت عليه نزعة الاعتزال التى أيدها المأمون بكل ما استطاع ؛ فإن العصر الثانى وهو عصر النفوذ التركى كان مصحوبا بمظاهر جديدة ؛ أهمها القضاء على سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل فى الدين والقرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة ، وقرب إليه أئمة المحدثين ، وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له [١] .

— ٣ —

وتعددت مراكز الحياة العقلية فى هذا العصر ؛ ونشطت الدراسات الدينية واللغوية فى مصر ، وتفوقت الشام فى الشعر والآداب واللغة [٢] ، وكان للعراق الصدارة فى العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم فى العراق ، واشتهرت بلخ وخوارزم وأصفهان فى ميدان التفكير والثقافة ، ونبغ منها أئمة العلماء .

ونبغ فى ألوان الثقافة الدينية والفكرية والعربية والأدبية الكثير من جلة العلماء والمفكرين والأدباء .

وأضحت فى هذا العصر معرفة العلوم المترجمة شرطا فى الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم وانتشر بين الناس والأدباء .

على أنه لم تكن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده فى العراق .. ويثور ابن قتيبة فى مقدمة كتابه «أدب الكاتب» [٣] على الحالة فى عصره ، حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بالفلسفة والمنطق ، وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية [٤] .

وكان جماعة من العلماء والأدباء يؤثرون البعد عن ضجيج الثقافة المترجمة ، ويسخرون منها ومن رجالاتها .

وكان عماد الثقافة فى هذا العصر هو الثقافة العربية وحدها من بين هذه الثقافات

وعلى الجملة فقد كان صدر الدولة العباسية أزهى العصور الإسلامية فى تاريخ الحركة العقلية فى الاسلام ؟

---

[١] ١/٤١ ظهر الاسلام [٢] ١/٨ اليتيمة للثعالبى ، ١/١٧٧ ظهر الاسلام

[٣] ص ٢ أدب الكاتب بهامش المثل السائر [٤] ٤٠٣ - ٤٠٦/٤ ضحى الاسلام

سلمت

وهل حي من الناس يسلم ؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

ابتلي المسلمون عامة والفقهاء خاصة بأن يكونوا أشد الناس تحاسداً وتباغضاً . فقديماً رمى غلاة الشيعة أبا بكر ، وعمر ، وغيرهما بالزندقة والعمل على تفريق المسلمين حتى قال شاعرهم :

صديقهم بعـــد النبي تزندقا وكذاك فاروق الصحابة فرقا
بين النبي وآله ووصيه والمسلمين درابذا من حققا [1]

ويروى الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد[2] أن سفيان الثورى لما جاءه نعي أبي حنيفة قال : الحمد لله الذى أراح المسلمين منه ، لقد كان ينقض عرى الإسلام عروة عروة . ما ولد فى الإسلام مولود أشأم على أهل الإسلام منه . ويروى عن مالك قوله : إن أبا حنيفة كاد للدين ، ومن كاد الدين فليس منه . وعن الشافعي يقول : أبو حنيفة يضع أول المسألة خطأ ثم يقيس الكتاب كله عليها . وعن عبد الله ابن المبارك قوله : من كان عنده كتاب حيل أبي حنيفة يستعمله أو يفتى به فقد بطل حجه ، وبانت منه امرأته . ويروى أن أبا بكر بن أبي داود السجستانى سمع وهو يقول لأصحابه : ما تقولون فى مسألة اتفق عليها مالك وأصحابه ، والشافعي وأصحابه ، والأوزاعي وأصحابه ، والحسن بن صالح وأصحابه ، وسفيان الثورى وأصحابه ، وأحمد بن حنبل وأصحابه ؟ فقالوا له : يا أبا بكر لا تكون مسألة أصح من هذه . فقال : هؤلاء كلهم اتفقوا على تضليل أبي حنيفة [3] .

---

(١) شرح الأخبار للقاضى أبي حنيفة النعمان ـ غير أبي حنيفة صاحب المذهب ـ مخطوط بالمكتبة الملكية تحت رقم ٧٠٦٢ .

(٢) ج ١٣ ص ٣٩٨ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ص (٨) .

ويقول تاج الدين بن تقى الدين السبكى فى كتابه طبقات الشافعية الكبرى[١] وكتابه - يريد ابن حزم - « الملل والنحل » من شر الكتب ، وما برح أصحابنا من المحققين ينهون عن النظر فيه لما فيه من الأزراء بأهل السنة ، ونسبة الأقوال السخيفة إليهم من غير تثبت عنهم ، والتشنيع عليهم بما لم يقولوه . وهذه ظاهرة خطيرة تفشت - وتتفشى - بين العلماء خاصة ، ويمتد لهبها إلى المسلمين عامة الأمر الذى جعل بعض العلماء يعقد باباً فى حكم « قول العلماء بعضهم فى بعض » يبدؤه بحديث « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء » . ثم يروى قول ابن عباس : استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض . وقول مالك بن دينار : تقبل شهادة القراء فى كل شىء إلا بعضهم على بعض . وهذه الظاهرة ، ما سببها ؟ فليس - كما يقول الجاحظ - فرع إلا له أصل ، ولا مولود إلا من مولد ، ولا نبات إلا بأرض ، ولا رضيع إلا له مرضع . سببها التعصب المذهبى واختلاف العقائد ، دينية كانت أم سياسية أم اجتماعية . والتعصب ينتج الغل ، والغل ينتج الحسد ، بل هو رضيعه وغصن من أغصانه ، أو إن شئت فقل بل هو عون من أعوانه ، وشعبة من شعبه ، وإذا كان التعصب المذهبى واختلاف العقائد يجر إلى هذه النتائج التى عانت وتعانى الإنسانية منها شر ألم وعذاب ، فأخطر حدث ينمى هذه الظاهرة إلى درجة الفتنة هو التكالب على المادة . ورحم الله حذيفة بن اليمان فقد كان يقول : من أحب منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا ؟ فلينظر : فإن كان يرى حراماً ما كان يراه حلالا ، أو يرى حلالا ما كان يراه حراماً فقد أصابته الفتنة . وهل نحن فى فتنة ؟ وأى فتنة وأنت تسمع وترى مقاييس الأمور تجرى لا كما يتطلب الحق والعدل ، بل كما يتطلب الهوى وتهوى الشهوة .

كان الناس يسألون رسول الله صلوات الله عليه عن الخير ، ومن بينهم من يسأله عن الشر مخافة أن يدركه ، فقال قائل من هؤلاء : يارسول الله ! إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير . فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ! فيعود السائل يسأل . وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ فيقول صلوات الله تعالى عليه

---

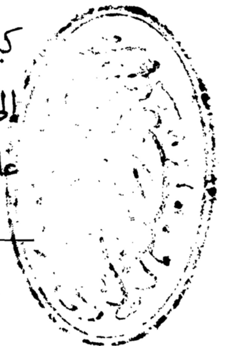
(١) ج ١ ص ٤١ .

نعم ! وفيه دخن . فيعود السائل يسأل عن هـذا الدخن . فيقول الرسول : قوم يستنون بغير سنتى . ويهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر . فيقول السائل . وهل بعد ذلك الخير من شر ؟ فيقول : نعم ! دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها . فيطلب السائل من رسول الله أن يصف له هؤلاء الدعاة فيقول : هم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا . قلت يا رسول الله ! فما تأمرنى إن أدركنى ذلك . قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فان لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال : اعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على جذل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك . هذا هو الدواء وهذا هو طريق النجاة . فاعرف نفسك فمعرفة النفس مبدأ كل علم وفضيلة . ومعرفة النفس مفتاح معرفة الله ، والله هو الحق المبين . وإن الله ليحمى المؤمن يومئذٍ مما فى الدنيا من شر كما يحمى أهل المريض مريضهم الطعام . واضطهاد أحرار الفكر أمر يلازم الإنسان فى تاريخه الطويل وقد يصل إلى القتل أحيانا ، وما تلك الفجائع التى يرويها التاريخ عنا ببعيدة ، ولست ترى فى هـذا الأمر أخطر على الأحرار من الفقهاء . ففى كل جيل تراهم يناهضونهم ويسخطون عليهم ويحرجونهم ويكفرونهم وقد يصل ذلك إلى القتل أحيانا . ففقهاء اليونان هم الذين أفتوا بقتل سقراط زعيم المقتولين الأحرار . وفقهاء العراق هم الذين أفتوا بقتل الحلاج . وفقهاء الشام هم الذين أفتوا بقتل السهروردى . وفقهاء المسلمين هم الذين قد سمعتهم — إذا صحت هذه الروايات — يقولون ما قالوا عن أبى حنيفة ، وما ذلك إلا لأنه إمام أهل الرأى . وإذا كان هؤلاء وأمثالهم قد دفعوا ثمن الحرية وهم جد عظماء فأنهم قد خطوا بالفكر خطوات فى أن يحمى نفسه بنفسه من هذه الظاهرة الخطيرة . وكم دفع الإنسان من ثمن إلى أن أعلنت الجمعية التأسيسية التى تمخضت بها الثورة الفرنسية « حقوق الإنسان » وإذا كانت هذه الجمعية تعلن أن الجهل بهذه الحقوق ونسيانها والسهو عنها ، تلك هى الأسباب الوحيدة للمصائب العامة . فهل محيت المصائب العامة ؟ وإذا كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أقرت حقوق الإنسان ، وأعلنت بذلك العالم حتى لا يكون على جهل بها ونسيان لها وسهو عنها فتتكرر المصائب العامة . فهل محيت

المصائب العامة وساد السلام ؟ إن المصائب العامة لا يمكن أن تمحى من الوجود ما دام الإنسان هو الإنسان . إنما يمكن أن تزول نسبيا . وليس سلام إلا بالرجوع إلى الدين ذلك الذى قد وصل إلى أن « كونوا عباد الله إخوانا » بينما التفكير السياسى ينطوى على الضغائن والأحقاد ، والغش والخداع ، والمكر والمكيدة .

ليس سلام ولا نصر إلا بالرجوع إلى الدين والإيمان بالله ، إن العرب لم يكونوا أهل علم يوم نصرهم الله ، بل كانوا على خلق متين وقوة أيمان بالله . ألم ترهم يوم دخلوا المدائن منتصرين ؟ دخلوا فرأوا قبابا تركية مملوءة سلالا مختومة برصاص فحسبوه طعاما فإذا فيها آنية الذهب والفضة ، وكان الرجل منهم يطوف يبيع الذهب بالفضة متماثلين . ورأوا كافورا كثيراً فحسبوه ملحاً فعجنوا به فوجدوه مراً [1] .

ومع ذلك دوخوا مملكتى الفرس والروم ، وكونوا لهم دولة عظيمة هى مضرب الأمثال فى التاريخ ، ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بالحق ويضحون فى سبيل الحق ويقدمونه على النفس والمال والولد . أنظر إلى فاطمة بنت محمد صلوات الله عليه تذهب إلى أبيها وهى حامل ، فتشكو إليه أنها إذا جلست تخبز أصاب حرف التنور بطنها ، وتسأله خادما . فيقول لها : « لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع » بهذا سلم الناس ، وبهذا عاشوا فى أمان بعيدين عن القلق والألم والاضطراب « وبعد » فهل من سبيل إلى محو هـذه الظاهرة الخطيرة التى تفشت وتتفشى بين العلماء خاصة ويمتد لهبها إلى المسلمين عامة والتى تركتهم يكيدون لبعضهم كيدا ، وتركت المسلمين من ورائهم يلعن بعضهم بعضا ؟ لا سبيل إلا أن نرجع إلى الحق ، والله هو الحق المبين . وإذا كان الحسدضار فى كل زمان ومكان فليس أضر علينا من حسد سببه المادة .



« ١ » ابن الأثير ح ٢ ص ١٥٣ طبعة المطبعة الأزهريه المصرية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الاشتراكية فى الاسلام

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود أبو العيون
السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية

تعتبر الاشتراكية من المذاهب المناقضة للفردية ، وهى مع تنوعها تتفق من الناحية السياسية على إعلاء المجتمع على الفرد ، ومن الناحية الاجتماعية على تحقيق المساواة بين الأفراد بإلغاء الفوارق بين الطبقات ، ومن الناحية الاقتصادية بالقضاء على الرأسمالية . وإلغاء الملكية الفردية لأموال الإنتاج واستبعاد المنافسة .

ولسنا فى حاجة إلى توضيح الشيوعية ، فما هى إلا اشتراكية متطرفة ، على أن الفارق الجوهرى بين الاشتراكية وبين الشيوعية هو الفارق بينهما فى الوسيلة لتحقيق الأهداف ، فوسيلة الشيوعية هى العمل المباشر للقضاء على الرأسمالية بعنف ، وإقامة الدكتاتورية العمالية ، فى حين أن الاشتراكية تعمل على تنفيذ مبادئها عن طريق استخدام القواعد الديمقراطية ، ولذلك نجد الشيوعيين أعداء لكل إصلاح لحال الفقراء والعمال حتى يستمروا فى بؤسهم ، ويثوروا على النظام القائم ، فتقع الكارثة الاجتماعية التى يعملون لها ، أما الاشتراكيون فإنهم يعنون بالإصلاحات المختلفة التى تقدم الطبقات الكادحة ولو خطوة إلى الأمام [1] .

وأبرز ما فى الحياة الغربية الآن نظامان : أولهما « اشتراكية رأس المال » وهى التى يقوم عليها النظام الشيوعى فى روسيا ، ويمتاز هـــذا النظام بأن الدولة تملك الصناعات الثقيلة ، وتتولى إدارتها جميعا ، فالأرض والمصانع والسكك الحديدية والسفن ، وخطوط الطيران ، والمتاجر والمصارف الكبرى ، مثلها هناك كمثل الشوارع ، والطرق الزراعية عندنا ، ليست ملكا خاصاً لأفراد أو شركات ، بل

---

[١] من مذكرات لكلية الحقوق بجامعة ابراهيم للدكتورين ـ الجمل وحلمى مراد

هى ملك للمجتمع كله ، ويديرها موظفون تعينهم الحكومة ، وتجرى عليهم الأرزاق وتسألهم عن تصرفاتهم ، وليس هناك من سبيل إلى الارتزاق إلا من العمل فى مصدر من مصادر الثروة المعروفة ، والقاعدة عندهم «من كل قدر طاقته وإلى كل حسب عمله» .

ويبيح القانون الروسى الآن إلى جانب النظام الاشتراكى السائد أن يقوم أفراد من الفلاحين ، ورجال الصناعات اليدوية ، والتجارة المتوسطة ، والأرض الزراعية الصغيرة بأعمال خاصة ضيقة النطاق ، تعتمد على مجهودهم الشخصى على ألا يستغلوا مجهوداً لغيرهم ، فلك أن تملك بيتا لتسكن فيه ، لا أن تستغله ، ولك أن تزرع أرضا ، أو تضع بعض الأجهزة للكهرباء للاستهلاك ، لا أن تستغلها ، وتتملك إنتاجها .

وثانيهما : اشتراكية الدولة ، وهو نظام اقتصادى يطبق الآن فى انجلترا وغيرها من الدول الاشتراكية ، وهذا النظام يقضى بإشراف الدولة على المصالح والشركات الكبرى إشرافا مباشرا ، ودخولها فى رأس المال بأسهم تزيد على النصف ، وتحكمها فى أنواع الإنتاج ووسائله ، وتوزيعها للأرباح على الأيدى العاملة توزيعاً ينتفى به الجور والحقد ، وتتقارب مستويات المعيشة بين الرؤساء والمرءوسين .

وهذا المنهج الاقتصادى وسط بين تعطيل مبدأ الملكية وبين إطلاقه ، وفيه عدالة اجتماعية بقدر [1] .

وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نبين بوجازة مذهب الرأسمالية المقابل للشيوعية والاشتراكية ، وذلك ليتسنى لنا توضيح المذهب الاقتصادى الإسلامى ، وأين يقع من تلك المذاهب الاقتصادية ؟

تقوم الرأسمالية ، أو الاقتصاد الرأسمالى ، على أساس حرية الفرد ، لأنه يُعنى بمصلحة الفرد ، ولا يُعنى بمصلحة المجتمع ، وهو يعتمد على أسس ثلاثة :

(١) المصلحة الشخصية كهدف . (٢) المزاحمة كوسيلة . (٣) الحرية كشرط . فالمصلحة الشخصية تملى عليه أن يعمل لتأمين حياته من أرباح تقوم بنفقاته ونفقات من يعوله ، وبتغطية حاجته فى حالة المرض والشيخوخة ، وتجديد ما خلق أو استهلك من وسائل عمله ، ويرى المزاحمة وسيلة للاستجابة للقوانين النفسية

[١] الاسلام ومناهج الاشتراكية للاستاذ محمد الغزالى

التى يسيطر عليها عالم العواطف ، لأنه يعمل بعاطفته أكثر مما يعمل بعقله وذكائه ، فهو فى حاجة إلى ما يسوقه نحو العمل والجد ، وليس من سبيل لذلك سوى انطلاقه فى جو من المزاحمة والمنافسة ، وكذلك يرى الحرية فى العمل كشرط ، لأنه بغيرها لا يستطيع المنافسة والمزاحمة الحرة . ولا العمل لمصلحته الشخصية .

تلك هى الأسس التى تقوم بها الرأسمالية ، ويدور دولاب العمل عليها ، وهى لم تفلح فى تحقيق العدالة الاجتماعية ، بل بالعكس كانت وبالا على المجتمع ، وأضحت هى التى تسيطر على الدول الرأسمالية وتقيمها وتقعدها ، فترى رجال الحكم إذا أقروا السلام ، أو أعلنوا الحرب ، كان ذلك منهم نزولا على أطماع البيوت الرأسمالية ، أو الشركات والمصارف التابعة لها .

والشيوعيون والاشتراكيون قد ناقشوا تلك الأسس مناقشة منطقية فقالوا :

إن الأساس الأول ، وهو المصلحة الشخصية ، يؤدى إلى حصر الثروات وتكديسها بيد أفراد قلائل ، وتسخير الأكثرية الكادحة لهؤلاء الأثرياء وإحداث تفاوت بين الناس يجعلهم طبقات يحارب بعضها بعضا حرب الطبقات والاستثمار .

وإن الأساس الثانى ، وهو المزاحمة الحرة ، يؤدى إلى مضاربة بين البيوت المالية ، والافلاس الاقتصادى بين المتزاحمين من أصحاب الانتاج الموحد ، وتآمر البيوت المالية الكبيرة على الإضرار بصغار الرأسماليين ، إذ لم تكن فى دخول السوق متكافئة فى المزاحمة الحرة ، وتكافؤ الفرص ضرورى اتقاء لشرور الرأسمالية وطغيانها .

والأساس الثالث ، وهو الحرية المطلقة ، يؤدى إلى عدم التوازن والانسجام ، ويجعل الرأسمالى حراً فى إنتاج ما يشاء ، دون نظام فى الانتاج نوعاً وكماً ، فهو ينتج كذا وغيره ينتجه ، ونتيجة ذلك أن إنتاجا يفيض عن الحاجة وإنتاجا يندر ، فتقع الأزمات الاقتصادية ، وتشيع الفوضى لعدم وضع منهاج ونظام للانتاج ، والمصلحة العامة لاحساب لها فى هذه الحالات ، إنما الهدف هو العمل للمصلحة الشخصية فحسب ، بغير رقابة ولا قيد .

هذه هى عيوب الأسس التى تعتمد عليها الرأسمالية فى نظر المذاهب الاقتصادية الحديثة ، فما موقف الإسلام من تلك المذاهب ؟ هل الإسلام يؤيد الملكية الفردية ؟ أم يساير القائلين بالغائها ، وهل يساوق الشيوعية فى « اشتراكية رأس المال » ؟ أو الاشتراكية فى « اشتراكية الدولة » ؟ ونقول :

لا ريب فى أن الإسلام يؤيد الملكية الفردية ، والاقتصاد الإسلامى اقتصاد رأسمالى ، له شأنه فى الإسلام ، بل هو يقوم على الأسس الثلاثة التى أسلفنا الكلام عليها ، وهى المصلحة الشخصية كهدف ، والمزاحمة كوسيلة ، والحرية كشرط ، ولكن قيام الملكية فى الإسلام على هذه الأسس ليس على إطلاقه ، بل يصاحبها فى كل اتجاهاتها العامل الأخلاقى ، فهو فى تلك الأركان الثلاثة عنصر جوهرى فيها لازم لها ؛ إن هدف الإسلام هو تكوين مجتمع مثالى ، فالعامل الأخلاقى يسير معه جنبا إلى جنب ، بل يكون رائده ، فإذا انحرف السلوك الاجتماعى رده العامل الأخلاقى بقوة إلى الاستقامة ليكون ضابطاً عاماً فى مصلحة المجتمع ، وعلى هذا الاعتبار نجد أن العيوب التى أخذت على الأسس الثلاثة فى الاقتصاد الفردى الشائع فى أمريكا وفى أوربا ليس لها أثر فى الاقتصاد الإسلامى ، إن المصلحة الشخصية فى الرأسمالية الفردية فى الغرب تجرف كل شىء يقف فى طريق الانتاج أو العبث به ، فهى لاتبالى بالعامل الأخلاقى ، ولا بمصلحة المجتمع ، بل هى تنكره ، ولا تتعرف عليه ، بخلاف الرأسمالية فى الإسلام ، فإن مصلحة المجتمع عنصر هام لا غنى عنه ، وإن الإسلام كدين له منهج ثابت هو تطهير المجتمع من عوامل الفساد ، ويمتاز بطابعه الذى يقرن الأعمال بالخلق والعقيدة « فلا ضرر ولا ضرار » ، وهو يناهض تكديس الثروات ، وجمعها فى يد فئة قليلة ، وحرمان الأكثرية من ضرورات العيش ، ورنق الحياة ، وما كانت الناحية الروحية فى القرآن الكريم ، إلا تهذيبا للأمم ليعيش الناس فى ظلال الأخوة والمساواة والمودة ، والأمن والاطمئنان ، ويكون التعاون بينهم على الجد ، والتفانى فى الصالح العام ، لذلك وضع دستوراً ثابتا واضحا يجعل الثروات رأسماليات متوسطة وصغيرة ، فحث المسلمين على الانفاق فى أكثر من سبعين آية ، وفرض الزكاة فى مال الأغنياء للترفيه عن الفقراء والمساكين ، ولقد قاتل الخليفة أبو بكر منكريها ومانعيها ،

« وجعل الإسلام إطعام الفقراء ، والتصدق على المساكين كفارة لكثير من الهفوات كما فى حنث اليمين ، وفى افطار رمضان عمداً أو لعذر ، وفى الظهار ، وفى محظورات الحج ، كما شرعه فى مناسبات كثيرة فى يومى عيد الفطر والأضحى ، وفى كل المواسم الدينية — فى كل هذه الأحوال وغيرها جعل الإسلام التخفيف من ويلات الفقراء ، والعطف على المساكين ، من سمات تلك المواسم والأحوال » .

أضف إلى ذلك النظام الإرثى فى الإسلام ، فإنه يحطم الثروة ويفتتها تفتيتاً لا مثيل له فى أى قانون آخر ، فالقانون الإنجليزى يحصر الثروة فى البكر من الأولاد ، ويحرم من عداه ، وبعض القوانين الأخرى تجيز الوصية لأى كائن بجميع المال ، سواء أكان وارثاً أم غير وارث حتى للكلاب والقطط ، وسائر الحيوان ، أما الإسلام فيوزع أنصباء الأرث توزيعاً واسعاً . فيعطى للقرابات أنصبة متفاوتة ، ولا يسمح لصاحب الثروة أن يتصرف فيها بالوصية إلا بالثلث ، والثلث كثير ، وهذا كله محافظة على التوازن الاقتصادى ، ويقول تعالى فى سورة الحشر : « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

فأنت ترى أن الإسلام قد نحا بالاقتصاد منحىً عادلا ، رعاية منه للمصلحة الاجتماعية ، واجتناباً لطغيان الأغنياء : « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » . وهكذا تجد الدين الإسلامى قد وقف موقفاً رائعاً فى توزيع الثروة وتجزئتها إلى ملكيات متوسطة وصغيرة من غير إكراه ولا اضطرار ، ليقى المجتمع شرور البطر من الأثرياء ، والحقد والبغضاء من الفقراء .

والمزاحمة التى هى وسيلة فى الاقتصاد الغربى ، وكانت عيبا من عيوبه ، هى أيضا وسيلة للاقتصاد الاسلامى ، وليست عيبا فيه ، فهى مختلفة فى النظامين ، فما قيل من أنها تؤدى الى دخول الرأسماليين فى السوق بغير أسلحة متكافئة ، وأن المنافسة فى معركة الحياة الاقتصادية ليست متساوية كما هو معروف فى الاقتصاد الغربى ، — هذا الذى قيل — منفى فى الاقتصاد الإسلامى ، فالإسلام قد قرب أصحاب الملكيات بعضهم من بعض بما شرعه فى نظام الوصية والإرث والزكاة ، وجعل الإرث أنصبة متعددة ، وشمول الزكاة ثمانية أصناف « إنما الصدقات للفقراء

والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل » .

ونضيف الى ما قدمنا تحريم الربا لكيلا يثرى أحد من عمل على حساب غيره وتحريم لعب الميسر لكيلا يثرى أحد بطريق الحظ ، هذه الاعتبارات كلها إذا روعيت كعهد المسلمين من قبل ، لاتدع أحدا محروما من سلاح يزاحم به فى مضمار الحياة ، ففى الإرث يدور دولاب تجزئة رأس المال باستمرار ، ولا يجىء عام جديد حتى يبدأ صندوق الزكاة ، ألا ترى المال يدور فى أيدى جميع الأصناف ، حتى من أثقلتهم الديون ، فإن صندوق الزكاة يدفع عنهم مغارمهم ، ويسلحهم من جديد ليدخلوا السوق آمنين مطمئنين ، فأى ضمان للناس بعد هذا ؟ وما عيب الرأسمالية فى الإسلام ؟

نأتى بعد هذا على بحث الحرية التى هى شرط فى الاقتصاد الرأسمالى الغربى ، وعدت عيبا من عيوبه ، ولكن هذا العيب منتف فى الاقتصاد الاسلامى ، فانه فى الاقتصاد الغربى تسير فيه الحرية مطلقة لا تقف عند حد ، حتى انقلبت تلك الحرية إلى فوضى ، مما اضطر أصحابها إلى إتلاف المحاصيل أحيانا للاحتفاظ بالأسعار العالية ، أما هذه الحرية فى الاقتصاد الإسلامى ، فمقيدة بقيدين ، هما العامل الأخلاقى ، والمصلحة الاجتماعية ، ويتدخل ولى الأمر فى السوق حين يرى تنكب التجار أصول التعامل ، ويضرب بيد من حديد على أيدى المحتكرين المتحكمين فى الأسواق ، والعازفين عن المصلحة العامة ، وكان عمر بن الخطاب يمشى فى الأسواق ، ومعه الدرة يؤدب بها ذوى الأثرة والطامعين فى الكسب الحرام ، والحسبة معروفة فى الإسلام ، وكان رجالها يقام لهم فى الأسواق وزن واعتبار[1] .

فأى نظام نجده نزيها وعادلا كنظام الاقتصاد فى الإسلام ؟ إن الإسلام قد امتاز فى نظامه عن الشيوعية والاشتراكية ، فالاقتصاد الإسلامى رأسمالى فردى من نوع خاص . قد جمع خير ما لدى الشيوعية والاشتراكية ، وتجنب عيوبهما ،

---

(١) من مقالة « مع تصرف » للاستاذ محمود اللبيدى فى مجلة رسالة الاسلام ، لدار التقريب - السنة الثالثة . العدد الثالث .

ولكن كثيراً ممن أخذوا بزيف المدنية الغربية ، يشيدون بالاشتراكية التى تضمنت المساواة فى لذة العيش ، وبسطة الحياة ، من غير تفرقة بين سوقة وسادة ، وأغنياء وفقراء !! وهى مذاهب وضعية خاضعة للتجارب والتعديل والتغيير ، كما هو حادث فعلا ، والاشتراكية الصحيحة المعقولة هى فى الإسلام الذى يضمن للعاجز العيش ، وللعامل الكسب ، وللفقير القوت ، وللمريض الصحة ، وللعالم كله أمنا وسعادة ، الاشتراكية الصحيحة المعقولة هى فى الإسلام الذى يشعر المسلمين بأنهم أسرة واحدة ، وأنهم جميعا كأسنان المشط ، وأنهم تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وأنهم كالجسد الواحد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

هذه هى الاشتراكية فى الاسلام ، فأين منها تلك المذاهب الحديثة المادية المتداعية الواهنة ؟ .

« هذا ومن خطل الرأى إذن ، أن ينعى امرؤ على الرأسمالية ، نظامها من فوق منبر الاشتراكية ، لأن المبدأين يحتويهما أصل واحد » .

(ولم يعد للاشتراكية فضل الانفراد بالدعوة إلى إزالة الفوارق فى دخول الناس ، لأن إزالة الفوارق لم تعد مسألة رأفة أو حنان أو عطف أو إحسان ، بل أصبحت من صميم الاقتصاد بوصفه علما ، وعندى أن إرجاع هذا الهدف إلى العدالة الاجتماعية ، فيه خطأ وإجحاف ، لأنه يوحى بأن رغبة المساواة منبعثة من عاطفة المروءة ، أو أنها مستمدة من واجب أدبى فى حكم فرض الكفاية ، مع أنها هدف مادى تفرضه ضرورة الانتاج)[1] .

أما الاشتراكية فى الإسلام فهى غير ذلك بالمرّة لأنها من قوانين السماء ، وهى صالحة لكل زمان ومكان ، وإزالة الفوارق ، ورغبة المساواة ، والعدالة الاجتماعية من قواعد الإسلام ، ومبعثها الرأفة والحنان ، والرحمة والإحسان ، وإنقاذ الإنسانية من ضراوة المجتمع وفوارق الطبقات ؟

---

(١) الأهرام ١٧ أغسطس لسنى اللقانى بك

ما يصادفه المجددون

فى جميع العصور

صادف المجددون الذين خدموا الإنسانية أجل الخدم ، والمكتشفون للمجهولات من سخرية العامة ، ومقاومة أهل العلم ما لا يمكن تحمله والصبر عليه لولا أن الله سبحانه وتعالى كان يمدهم بروح منه فيحتملوا ما يصيبهم من العنت بثبات عجيب ، واعتقاد راسخ . وقد ذكرهم العلامة الفلكى المشهور كاميل فلامريون فى كتابه المدعو (المجهول والمسائل النفسية) ألم فيها بتاريخ الجمود العلمى ، وتاريخ استعصائه عن قبول كل جديد ، وضرب لذلك أمثالا مما يندر وجوده فى المؤلفات فرأينا أن نتحف قراء مجلة الأزهر .

على أن فى ذكر تاريخ هذه الحالة العقلية فوائد لا تقدر من ناحية أنه يعلم تاليه التثبت ، فلا يعود يتعجل بالتكذيب بالحقائق الجديدة ، حتى لا يحرم من بركاتها ، وحتى يكون سببا فى توسيع نطاق العلم ، وزيادة مادته . قال الأستاذ فى مقدمة كتابه المدعو (المنكرون والمسائل النفسية) ما ترجمته الحرفية :

« عدد كبير من الناس مصابون بقصر نظر حقيقى فى العقل ، وقد صورهم (لومبير) أصدق تصوير بقوله : إنهم يتخيلون أن الأفق المحيط بهم هو نهاية العالم . فترى الحوادث الجديدة ، والآراء الحديثة تكسفهم وتذعرهم . فهم لا يريدون أن يتغير السير العادى للأشياء ، أما تاريخ تقدم العلوم الإنسانية فلديهم من الشئون التى يجب أن تهمل .

« وتظهر لهم جراءة الباحثين والمخترعين ومحدثى الانقلابات من الجرائم ، ويخيل اليهم بأن النوع الإنسانى كان دائماً على ما هو عليه الآن ، فلا يتذكرون عصر الحجر ، ولا عهد اكتشاف النار ، ولا زمن اختراع عمل البيوت والمركبات والسكك الحديدية ، ولا توالى الفتوحات العقلية ، ولا استكشافات العلم ، فترى فيهم للآن أثراً من وراثة أسلافهم الأسماك بل والحيوانات الرخوة ، ونجد هؤلاء السادة المحترمين يتمكنون من الجلوس على كراسيهم ويظلون على تلك الحالة فى راحة

لا يعتريها أقل اضطراب ، وهم ليسوا أهلا لقبول ما لا يفهمون ، ولا يطوف بخيالهم حالهم الحقيقى من أنهم لا يعلمون أقل شيء . ولا يعرفون بأن فى ثنى كل تعليل لأية ظاهرة من الظواهر الطبيعية مجهولا ، فيكتفون بتغيير الألفاظ ليس إلا . لماذا يسقط الحجر ؟ لأن الأرض تجذبه . مثل هذا الجواب الواضح يشبع مطامعهم العلمية ، فيتوهمون أنهم قد فهموا هذه المسألة ، والتلاعب بالتفسيرات المدرسية المقررة تفتنهم على نحو ما كانت عليه الحال فى عهد موليير .

فى كل عصر ، وفى جميع أدوار المدنية يصادف أمثال هؤلاء الرجال البسطاء وهم فى حالة هدوء وسكون ، ولكن ليس بغير زهو ، فينكرون بسلامة قلب جميع الأشياء التى لم يبحثوا فيها . ويزعمون أنهم يحكمون على النظام الكونى الذى لا يُسبر له غور . مثلهم كمثل نملتين فى حديقة تتكلمان فى تاريخ فرنسا ، أو فى بعد الشمس عن الأرض .

فلنعرض للقارىء حوادث من التاريخ ، ولنأت ببعض الشواهد على ما نقول :

تحررت مدرسة فيثاغوس من الآراء العامية على الطبيعة ، وارتقت إلى إدراك الحركة اليومية لكوكبنا الأرضى ، فنعت بذلك السماء التى لا نهاية لها من أن تتكلف الدوران حول نقطة تافهة فى كل أربع وعشرين ساعة . فلسنا فى حاجة لأن نقول بأن الرأى العام ثار على هذا الرأى الجليل ، فلا يمكن أن يطلب إلى الفيل أن يطير إلى وكر النسر . ولكن كانت قوة المعتقدات الراسخة بحيث منعت العقول الراقية من قبول هذا الرأى ، حتى عقلى أفلاطون وأرخميدس ، وهما العقلان اللذان يتألقان نورا . وكان من عداد المكذبين أيضا الفلكيان هيبارك وبطليموس . حتى أن هذا الأخير لم يتمالك نفسه من الاغراق فى القهقهة من مثل هذه الخزعبلة الفارغة . وقد وصف نظرية دوران الأرض بأنها مضحكة للغاية . هذا التعبير قارص جدا . وكأننا نرى من هنا بطن كاهن صالح من كهان ذلك العصر يضطرب ويتلوى من دعابة بتمثل هذه القوة وهو يقول : ما أكبر هذا السخف ! الأرض تدور ؟ لقد أصاب الفيثاغورسيين الخبل ، تلك أدمغتهم التى تدور » .

ثم أخذ الأستاذ كاميل فلامريون يسرد تاريخ الاستكشافات العلمية وما لقيه العلماء المكتشفون من المكافحات والاضطهادات . فذكر أن الفيلسوف الكبير

سقراط قبض عليه وقتل بالسم لأنه ترفع عن تصديق الخرافات التى كانت شائعة فى زمنه . وأن الفيلسوف أناجزاغور اضطهد وعذب لأنه زعم أن الشمس أكبر من شبه جزيرة بيلوبونيز ببلاد اليونان !!!

وجاء بعده غاليليه بألفى سنة فأحرق بالنار ، لأنه قال إن الأرض كرة حقيرة فى هذه اللانهاية السماوية . ثم قال ما ترجمته حرفيا :

وقد حضرت فى ١١ من مارس سنة (١٨٧٨) تقديم الفونوغراف الذى اخترعه اديسون إلى مجمع العلماء الفرنسى . فلما أدار مقدمة الآلة وتكلم الفونوغراف هب أحد العلماء الكبار وهو المسيو (بويو) من مكانه وأمسك بخناق الرجل ، وصاح فى وجهه تعساً لك ! اننا لا ننخدع لمشعوذ مثلك يتكلم من بطنه . وما هو أعجب من هذا أن هذا العالم أعلن بعد هذه الحادثة بستة أشهر أى فى جلسة ٣٠ سبتمبر لمجمع العلماء بأنه درس مسألة الفونوغراف (درساً مدققا) فرأى أن المسألة مسألة تدليس وأن الصوت الذى يرن منه ليس منبعثا من الفونوغراف ولكن من بطن مقدمه . ثم قال : (أى العلامة بويو) ولا يعقل أن يستطيع المعدن محاكاة الجهاز الصوتى الشريف للانسان ، ! فلم يكن الفونوغراف فى نظره إلا من الأوهام !

ولما حلل الكيماوى الكبير (لافوازييه) الهواء إلى عنصريه الأوكسيجين والأزوت ثار عليه أكثر من عالم عظيم . وانبرى له الكيماوى الأشهر (بوميه) أحد أعضاء المجمع العلمى ، ومخترع الأريومتر ورد عليه بقوله :

، إن العناصر أو الأصول المكونة للأجسام قد اعترف بها وتحقق منها الطبيعيون فى جميع العصور وفى كل الأمم . وليس من المحتمل أن توضع هذه العناصر التى عُرفت منذ ألفى سنة بأنها بسيطة ، فى عداد الأجسام المركبة ، كما أنه ليس من المحتمل أيضاً أن تعتبر حقيقية تلك الوسائل التى تقدم لنا لتحليل الماء والهواء ، ولا تلك الأدلة المستحيلة (ولا نقول أكثر من ذلك) ، الداعية إلى انكار وجود عنصرى النار والتراب . فان الخواص المعترف بها لهذه العناصر تعلق بجميع المعارف الطبيعية والكيماوية التى تحصلنا عليها إلى الآن . وقد صارت هذه العناصر قواعد لعدد لا يحصى من مكتشفات ونظريات تتبارى كلها فى الوضوح

والجلاء . وهذه المكتشفات والنظريات يجب أن ترفع منها كل ثقة إذا اعتبر أن النار والهواء والماء والتراب غير عناصر أصلية .

ثم قال كاميل فلاماريون عقب هذا :

« كل الناس يعلمون اليوم بأن هذه الأربعة العناصر ، التى دوفع عنها بهذه الروح العظيمة من التقوى ، لاوجود لها . وإن الحق فى جانب الكيماويين العصريين بتحليلهم الهواء والماء . أما عنصر النار الذى كان يقول عنه بوميه ومعاصروه بأنه الأصل المولد للطبيعة والحياة فلم يوجد إلا فى خيال أولئك الأساتذة .

والعالم لافوازييه نفسه ليس ببرىء من مثل هذا الجمود العلمى ، فقد كتب للجمعية العلمية بحثا مسهبا يثبت لها فيه استحالة سقوط الأحجار من السماء . وقد كانت تلك الأحجار وهى النيازك قد شوهدت فى أماكن متعددة ، ورؤيت وهى ملتهبة ، ومع هذا كله أعلنت الجمعية العلمية بأن ذلك من الأمور التى لايتصورها العقل . وفى سنة (١٦٢٧) سقط نيزك يزن ثلاثين كيلو غراما فى رائعة النهار ورآه العالم (غاساندى) بعينى رأسه ولمسه وفحصه ونسبه لثورة أرضية مجهولة ، مع أن النيازك عرفت بعد ذلك بأنها بقايا كواكب متحطمة ، تمر بها الأرض فتجذبها اليها ، فتسقط عليها من السماء .

« وقد كان الأساتذة الأرسطاليسيون يؤكدون فى عصر غاليليه أن الشمس لا يمكن أن يكون عليها كلف وقد ثبت ذلك بعد بالحس .

ولما رأى العالم (جالفانى) مكتشف الكهرباء بأن أرجل الضفادع التى كان علقها على قضبان الحديد فى بيته قد اضطربت ، انهمك فى درس سبب ذلك ونسبه للقوة الكهربائية ، هزىء به الناس وسموه أستاذ رقص الضفادع . فكتب يقول سنة ١٧٩٢ . « لقد هوجمت بطائفتين متعارضتين العلماء والجهلاء . كلتا الطائفتين تهزآن بى وتسميانى أستاذ رقص الضفادع . ومع هذا فانى متحقق من أنى قد اكتشفت إحدى القوى الطبيعية » .

« وفى هذا الوقت نفسه أنكر المجمع العلمى والمجمع الطبى المغناطيس الإنسانى إنكاراً مطلقاً وعلقا تصديقهما به على نجاح (جول كاوكيه) فى استئصال سرطان ثديى لامرأة بدون بنج ولكن بواسطة التنويم المغناطيسى وحده » .

« ولما اكتشف هارفى الدورة الدموية هزئت به جامعة الطب ، وسلقه بألسنة حداد» .

« ولما قدم الماركيز جوفروا سنة ١٧٧٦ مشروع عمل السفن البخارية رماه الناس بالعته ، وقالوا هل يتفق الماء والنار ؟ وعرضت الحكومة مشروعه على الجمعية العلمية لفحصه فقررت بأنه خيال ، فاشتد استهزاء الناس بالمخترع ونبذوه بالألقاب . فنبغ عقبه (فولتون) وعرض مشروعه على أولى الأمر ، فلم يصادف غير ما صادفه سابقه ، فرحل إلى أمريكا وهناك لقى بعض المساعدة بعد جهد جهيد .

« ولما اكتشف فيليب لوبون الاستصباح بالغاز ، نشر مشروعه فلم يأبه به أحد ، وسخر الناس منه ، ومات صاحبه ولم يجد لندائه ملبياً ، وكانوا يردون عليه باستحالة وجود مصباح بدون فتيل » .

« ولما اكتشفت السكة الحديدية لنقل المسافرين والبضائع ، ثار الناس على المخترع وعدوه ممخرقا ، وكتب المهندسون الفصول الطوال لإثبات أن العجلات تدور على نفسها ولا تسير على القضبان . وقام العالم الرياضى المشهور (اراغو) فى مجلس النواب سنة ١٨٣٨ ، فأثبت فساد هذا المشروع وأفاض فى بيان جمود المادة وصلابة المعادن ومقاومة الهواء . وزعم أن هذا المشروع لو نجح أفضى إلى تقليل إيرادات النقل على الحكومة فتخسر بذلك مالا طائلا . ثم ختم خطبته بقوله : « لنحذر من المضى مع الأوهام فإن مثلثين متوازيين من الحديد (بريد القضبان) لا يغيران طبيعة أراضى غاسكونيا البور » .

« وخطب السياسى الكبير (تييرس) فى هذا الموضوع فقال : « أنا أسلم بأن مشروع السكة الحديدية يكون من ورائه (بعض الفوائد) مثل نقل المسافرين إذا قصر ذلك على بعض الخطوط القصيرة جدا والمنتهية إلى بعض البلاد الكبيرة ، كباريس ولا يجوز عمل خطوط طويلة . . .

« وقال الاقتصادى الكبير (برودون) : « إن من الآراء الساذجة المضحكة الزعم بأن السكك الحديدية تخدم فى تسهيل تبادل الأفكار » .

« ولما استشيرت الجامعة الطبية الملكية فى أمر السكك الحديدية أجابت بأنها إن تحققت توجب المضار الشديدة على الصحة العامة فتسبب الدوار للركاب والمشاهدين فى الخارج ونصحت بعمل حواجز عالية خشبية تحيط بالسكك الحديدية حيثما مدت (حتى لا يرى القطار أحد وهو سائر)

محمد فريد وجدى

التفسير

« سورة البقرة »

لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

« ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

أما تلك الأحرف التى افتتح بها كثير من سور القرآن ، فسأفرد لها صحيفة مستقلة أبين فيها سر الافتتاح بهذه الحروف على وجه يساير القرآن الحكيم ، كتاب الله المجيد الذى لا تنتهى عجائبه ، ولا تنفد غرائبه ، بل كلما أطلت الفكرة فيه ازددت رشادا ، وازددت إعجابا ، وبدا لك ما يبهرك من بالغ الأساليب ودقيق المعانى . وبعيد المغازى والمقاصد فلنبدأ فى التفسير بقوله تعالى ذلك الكتاب الخ الآيات ، ونحن إذا نظرنا فى قوله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . نرى أنه بدأ بالإشارة إلى ما نزل على محمد بصيغة الإشارة للبعيد ، وأنه أبدل منه قوله الكتاب ، وأتبع ذلك بنفى الريب عنه ، وأنه هدى للمتقين .

أما الإشارة بصيغة البعد فلأنه سامى المنزلة أينما توجهت إليه ، فإن نظرت إليه من ناحية تراكيبه فهو معجز البلغاء ، وإن نظرت إليه من ناحية معانيه فهو فوق مدارك الحكماء ، وإن نظرت إليه من ناحية قصصه وتاريخه فهو أصدق محدث عن الماضين ، وأدق محدد لتاريخ الغابرين ، لهذا كان من الناظرين فيه فى مكان السمو للبعيد ، فكانت الإشارة إليه بتلك الصيغة ثم أبدل منه قوله الكتاب ولفظة (ا ل) من شأنها فى أسلوب اللغة العربية أن تعهد السامع مدخولها بعهد ذكرى

أو عهدى معنوى ، فقوله الكتاب أى ذلك النور المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم الذى عرفتموه بواضح إرشاده وواسع ضيائه ، وبالغ حكمته ، ومنبلج حجته ، فكان ذلك ما عهده الناس فيه .

(لا ريب فيه) وجىء بتلك الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، لغرض سام هو ألا يخبر عنه بأنه الهدى للمتقين ، حتى ينفى عن ساحة كونه كتابا غبار الريب وغيوم الشكوك ، فلا يحمل كونه هدى عليه إلا والنفوس مقتنعة به حتى يستقر فى النفوس وصفه ، وتطمئن القلوب لآثاره ومقاصده ، وإنما صح نفى الريبة عن المفرد ، والريبة إنما تنفى عن النسب ، والنسبة إنما تكون فى التركيب التام لأن هذا المفرد قد اكتملت فيه نسبة وصفية . وهو أنه الكتاب المعهود برشاده وهداه ، وبلاغته وحكمته ، لهذا صح نفى الشك عنه .

وأما قوله هدى للمتقين . فذلك خبر المبتدا ، ووقعت جملة لا ريب فيه حالا للاحتياط بتطهير ساحته قبل الحمل عليه . فيكون المعنى ذلك الكتاب المعهود لكم أيها الناس حال كونه نقى الساحة موفور الضياء ، لا تدانيه ريبة ولا ينزل بساحته شك ، فمن أية ناحية نظرت إليه لمع برهان صدقه ، وسطعت حجة حقه . هو هدى ورشاد للمتقين ، الذين قدروا ربهم حق قدره فخشوه ؛ وعرفوه حق معرفته فخافوه فنسجوا من عبادة ربهم الواقيات ، ومن عظمته الحائلات بينهم وبين غضبه وعذابه وبحق إنه لا يعبد الله حق عبادته ، ولا يطيعه أصدق طاعته إلا من عرفه فقدره فخافه . وهنا قد يسأل سائل إذا بلغ الإنسان حد التقوى والمخافة من الله ألا يكون قد بلغ إذ ذاك حد الهداية مما يشكل معه قوله (هدى للمتقين) ، إذ الذى يفهم لأول نظرة أن يكون الكتاب هدى للضالين ؟

وإنا جوابا على هذا نقول إن الهداية مراتب متفاوتة بتفاوت الناس ومراتبهم فى النظر والتفكير . فهداية المرء لأول إشراق الرشاد على قلبه ، غير هداية المرء بعد أن يمر فى النور مرحلة أو مرحلتين ، وهما غير هداية المرء حين يعمق فكره وتطهر نفسه ، ويبلغ غاية فى الرشاد تدوم بها مراقبته ويستمر بها من الله خوفه .

والذى أريد من الهداية ها هنا هو هدى من ساروا فى الرشاد مراحل وبلغوا حد مداومة الرقابة ، ولا شك أن المرء كلما زاد من الله خوفه ودامت له رقابته

زاد للقرآن إدراكه وعمق فيه فهمه وتواردت على نفسه دواع من الهدى لم يعهدها وأشرقت على قلبه مصابيح من الرشاد لم تسبق له من قبل. وتلك الهداية هى الهداية الواسعة العميقة التى من حقها أن تكون أول ما يعزى للقرآن وأما ما قبل تلك المراتب فهو بمثابة ضياء الفجر يتقدم الصباح وضياء الصباح يتقدم شروق الشمس. فصح أن يكون الكتاب هدى للذين اهتدوا واتقوا وعملوا الصالحات.

ولما كان خوف الله ورقابته مما يبعث فى العقول بالغ الأدراك، ويزيد فى النفوس واضح الأشراق مما يدق به النظر فى بدائع الكون، وما فيه من آيات بينات على عظمة الله، وبالغ حكمته ومحيط قدرته، لما كان كذلك تراه قد بين أوصاف المتقين بقوله الذين يؤمنون بالغيب الخ تلك الأوصاف، إذ أن معنى الأيمان بالغيب هو أن عقولهم اتسع إدراكها وتقشعت عنها غشاواتها، وامتد نظرها فى الكائنات فأدركت أن لتلك الآثار، وهذه الأكوان، وتلك الآيات البينات مبدعا حكيما وخالقا قادرا، واحدا لا شريك له، وإلا لما دام نظامها دواما أبديًّا، ولداناها حينا ّما اختلال أو ارتباك، أو وقفة أو اضطراب، بل لا ترى إلا آيات محكمات ونظاما مضطردا، كواكب تشرق وتغرب وسماء مرفوعة بغير عمد، وأرض راسية لا تميد ولا تضطرب، فكان من ذلك لتلك العقول براهين قاطعة وحجج ساطعة على وجود خالق جبار، وحكيم قدير ومبدع لا تأخذه سنة ولا نوم، فآمنت به حق الايمان، وامتلأت بعظمته وخضعت لكبريائه، واستتبع ذلك لديها أن تلك الآيات الواضحات التى أقيمت فى الآفاق وفى الأنفس، وتلك الرسل الداعية للهدى وتلك الكتب المشرقة بالرشاد، لم يكن كل ذلك لتنظيم تلك الحياة فحسب، بل للاستعداد لحياة أطهر، ونعيم أمدّ وأوسع، وقرب من الله يكون الناس به أشد إحساساً وأقرب منزلة، ذلك هو إيمان المتقين بالغيب، بالله واليوم الآخر نتيجة لرشادهم المفضى لرقابتهم، وتقواهم لله تعالى.

ذلك هو أول وصف تنتجه التقوى وهو الايمان بالغيب، وكذلك من آثار التقوى ونتائجها بعد اقتناع النفوس بعظمة ربها وبأنها راجعة اليه يحاسبها على صغير ما عملت وكبيره، ودقيقه وجليله من آثارها بعد ذلك هو الانبعاث أن تبدى من مظاهر العبودية وخوف الله ما يحس، فانها إذ بلغت ذلك الحد لا يكفيها

ذكرى العقول ، وخشعة القلوب ، بل لابد أن تقوم لربها بأخضاع الجوارح واستعمالها فى عبادته مما تتم به مظاهر عبوديته ، وليس هناك مظهر تتجلى فيه عبودية المرء وخشوعه لمولاه وأعظامه لخالقه أكثر من الصلاة ، فقال ويقيمون الصلاة فجعل إقامتها الأثر الثانى لتقوى الله ورقابته ، وبحق هى أوفى مظاهر العبادة بحقوق العبودية ، وواجب الشكر والاعظام للكبير المتعال ، الخالق الرازق الهادى الحكيم فأن العبد بالصلاة تراه بادئا لتلك العبادة بالاذعان بأن الله أكبر كل شىء وأعظم كل شىء ، فكل كائن إلى عظمته حقير ، وكل عال ومنخفض ، ومضىء ومظلم إلى كبريائه حقير ، ثم يثنى بعد ذلك بقراءة فاتحة الكتاب وفيها استذكار نعم الله على العبد مما يوجب حمده ، والاعتراف بالربوبية له ، والشعور برحمته ، واليقين بملكه للدنيا والآخرة ، مما يوجب قصر استمداد الاستعانة عليه تعالى ، وقصر الأعظام والإكبار عل المنعم عليه ، مما يدفعه إلى الشعور بقصر قوته عن أداء ما يجب لخالقه فيطلب منه الهداية لأقوم الطرق والإرشاد لاقتفاء آثار المنعم عليهم ، والبعد عن متابعة الغاوين الضالين ، وإذ تبلغ نفسه ذلك الحد من الاتصال ، فإنه لا يسعها أن تبقى على اعتدالها ، بل لابد أن تزيد فى الخضوع بالركوع ولا يكفيها ذلك إذ بلغ منها الأعظام أن تركع بل لابد أن تمس الأرض بأسمى مظهر فيها وهو الجبين خضوعاً لله ، وخوفاً منه وخشية له .

تلك هى الصلاة ، وتلك هى العبادة التى استتبعها الإيمان بالغيب .

ولما كان وصول العبد فى الاتصال بربه قد بلغ هذا الحد يرى العبد إذ ذاك أن مظاهر الاستجابة لله لا ينبغى أن تقصر على مظاهر العبودية ، بل لابد أن يكون لها من الأثر أوسع من ذلك وأظهر ، فلا بد أن يكون لشكره وحمده آثارٌ متعدية ، وذلك هو معونة الغير بما أعطى من مال شكراً لله على ما أنعم به عليه ، فكان أن ينفق مما رزق ، وأن يمد المحتاجين مما أعطى ، وإن فى رحمة الناس رضا من الله وفى معونة الناس إعانة من الله كبرى ، فالمنفق والمخلص الخائف المتقى ، إنما يستمد بالإنفاق على الناس رضا ربه ومعونته ، ذلك قوله ومما رزقناهم ينفقون .

(يتبع)

الربا

فى نظر القانون الإسلامى

تعريب المحاضرة الفرنسية التى ألقاها فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز عضو جماعة كبار العلماء
ومندوب الأزهر فى مؤتمر القانون الاسلامى المنعقد بباريس فى ٧ يوليو سنة ١٩٥١ م

حقيقة حكم الربا فى الاسلام

أخذاً من المصادر الأولى للتشريع

— ٢ —

هكذا نصل من طريق هذه النظرة التاريخية إلى صميم الموضوع القانونى .

ما حقيقة الأمر فى نظر الشريعة الإسلامية ؟ هل الإسلام يبيح الربا اليسير ؟

سأسرد على مسامعكم ، أيها السادة والسيدات ، نصوص الشريعة الإسلامية من منابعها الأولى ، تاركا لكم أن تستخلصوا منها الجواب بأنفسكم .

(١) القرآن :

ولقد يكون من المفيد فى صدر هذا البحث أن نذكر أنفسنا بطبيعة المنهج التعليمى فى القرآن ، حينما يكون بصدد محاربة بعض الرذائل التى تأصلت فى العرف العام ، والتى توارثتها الأجيال خلفاً عن سلف ، فى أحقاب متطاولة .

ذلك أن القرآن فى معالجته لهذه الأمراض المزمنة لا يأخذها بالعنف والمفاجأة ، بل يتلطف فى السير بها إلى الصلاح على مراحل متريثة ، متصاعدة ، حتى يصل بها إلى الغاية .

كلنا نعرف ما كان منه فى شأن الخمر ، وأنه لم يبطله بجرة قلم ، بل لم يحرمه تحريماً كلياً إلا فى المرحلة الرابعة من الوحى . أما المرحلة الأولى (التى نزلت فى مكة) فإنها رسمت الوجهة التى سيسير فيها التشريع . وأما المراحل الثلاث (التى نزلت بالمدينة) فكانت أشبه بسلم : أولى درجاته بيان مجرد لآثار الخمر وأن إثمه أكبر من نفعه ، والدرجة الثانية تحريم جزئى له ، والثالثة تحريمه التحريم الكلى القاطع .

فهل يطيب لكم أن تدرسوا معى المنهج التدريجى الذى سلكه القرآن فى مسألة الربا ؟

إنه لمن جليل الفائدة أن نتابع هذا السير لنرى انطباقه التام على مسلكه فى شأن الخمر ، لا فى عدد مراحله فحسب ، بل حتى فى أماكن نزول الوحى ، وفى الطابع الذى تتسم به كل مرحلة منها .

نعم ، فقد تناول القرآن حديث الربا فى أربعة مواضع أيضاً ، وكان أول موضع منها وحياً مكياً والثلاثة الباقية مدنية . وكان كل واحد من هذه التشريعات الأربعة مشابهاً تمام المشابهة لمقابله فى حديث الخمر .

ففى الآية المكية يقول الله جلت حكمته : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (سورة ٣٠ — آية ٣٩) هذه كما ترون موعظة سلبية : إن الربا لا ثواب له عند الله . نعم ، ولكنه لم يقل إن الله ادخر لآكله عقابا . وهذا بالضبط نظير صنيعه فى آية الخمر المكية (١٦ / ٦٧) حيث أومأ برفق إلى أن ما يتخذ سكراً ليس من الرزق الحسن ، دون أن يقول إنه رجس واجب الاجتناب . ومع ذلك فان هذا التفريق فى الأسلوب كان كافيا وحده فى ايقاظ النفوس الحية ، وتنبيهها إلى الجهة التى سيقع عليها اختيار المشرع الحكيم .

أما الموضع الثانى فكان درساً وعبرة قصها علينا القرآن من سيرة اليهود الذين حرم عليهم الربا فأكلوه وعاقبهم الله بمعصيتهم . وواضح أن هذه العبرة لا تقع موقعها إلا إذا كان من ورائها ضرب من تحريم الربا على المسلمين ، ولكنه حتى الآن تحريم بالتلويح والتعريض لا بالنص الصريح . ومهما يكن من أمر فان هذا الأسلوب كان من شأنه أن يدع المسلمين فى موقف ترقب وانتظار لنهى يوجه اليهم قصدا فى هذا الشأن ؛ نظير ما وقع بعد المرحلة الثانية فى الخمر (٢/٢١٩) حيث استشرفت النفوس إذ ذاك إلى ورود نهى صريح فيه ؛ وقد جاء هذا النهى بالفعل فى المرحلة الثالثة ولكنه لم يكن إلا نهياً جزئيا : فى أوقات الصلوات (٤/٤٣) .

وكذلك لم يجىء النهى الصريح عن الربا إلا فى المرتبة الثالثة ، وكذلك لم يكن إلا نهياً جزئياً ، عن الربا الفاحش : الربا الذى يتزايد حتى يصير « أضعافا مضاعفة [1] » (٣ / ١٣٠) .

---

(١) هذا هو النص الذى اعتمد عليه أصحاب نظرية الرخصة فى الربا اليسير . وسترى تفسيره قريبا .

وأخيراً وردت الحلقة الرابعة التى ختم بها التشريع فى الربا (بل ختم بها التشريع القرآنى كله على ما صح عن ابن عباس) وفيها النهى الحاسم عن كل ما يزيد عن رأس مال الدَّين حيث يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . **وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٢ / ٢٧٨ — ٢٨١) .

هذه أيها السادة والسيدات نصوص التشريع القرآنى فى الربا مرتبة على حسب تسلسلها التاريخى .

وإنكم لترون الآن أن الفئة التى تزعم أن الإسلام يفرق بين الربا الفاحش وغيره (وهى فئة من المتعلمين الذين ليس لهم رسوخ قدم فى علوم القرآن) لم تكتف بأنها خالفت إجماع علماء المسلمين فى كل العصور ، ولا بأنها عكست الوضع المنطقى المعقول حيث جعلت التشريع الإسلامى بعد أن تقدم إلى نهاية الطريق فى إتمام مكارم الأخلاق يرجع على أعقابه ويتدلى الى وضع غير كريم ؛ بل إنها قلبت الوضع التاريخى ، إذ اعتبرت النص الثالث مرحلة نهائية ، بينما هو لم يكن إلا خطوة انتقالية فى التشريع : لم يختلف فى ذلك محدث ولا مفسر ولا فقيه .

على أننا لو فرضنا المحال ووقفنا معهم عند هذا النص الثالث فهل نجد فيه ربحاً لقضيتهم فى التفرقة بين الربا الذى يقل عن رأس المال ، والربا الذى يزيد عليه أو يساويه ؟

كلا ، فإنه قبل كل شىء لا دليل فى الآية على أن كلمة الأضعاف شرط لا بد منه فى التحريم ، إذ من الجائز أن يكون ذلك عناية بذم نوع من الربا الفاحش الذى بلغ مبلغاً فاضحاً فى الشذوذ عن المعاملات الإنسانية من غير قصد إلى تسويغ الأحوال المسكوت عنها التى تقل عنه فى هذا الشذوذ ، ومن جهة أخرى فان قواعد

العربية تجعل كلمة « أضعافا » فى الآية وصفا للربا لا لرأس المال كما قد يفهم من تفسير هؤلاء الباحثين . ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن لا يحرم من الربا إلا ما بلغ ٦٠٠ ٪ [١] من رأس المال . بينما لو طبقنا القاعدة العربية على وجهها لتغير المعنى تغيراً تاما ، بحيث لو افترضنا ربحاً قدره واحد فى الألف أو المليون لصار بذلك عملا محظوراً غير مشروع بمقتضى النص الذى يتمسكون به .

أما القول بأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون إلا الربا الفاحش الذى يساوى رأس المال أو يزيد عليه فانه لا يصح إلا إذا أغمضنا أعيننا عما لا يحصى من الشواهد التى نقلها أقدم المفسرين وأجدرهم بالثقة . ولقد كان الشعب العبرانى - الذى يعيش والشعب العربى فى صلة دائمة منذ القدم - يفهم من كلمة الربا كل زيادة على رأس المال ، قلّت أو كثرت . وهذا هو المعنى الحقيقى والاشتقاقى للكلمة ، أما تخصيصها بالربا الفاحش فهو اصطلاح أوربى حادث ، يعرف ذلك كل مطلع على تاريخ التشريع .

وبعد فإننا لا نستطيع أن نطيل الوقوف عند هذا النص الانتقالى ، لأن الذى يعنى رجل القانون فى تطبيق الشرائع إنما هو دورها الأخير . وقد بينا أن الدور الأخير فى موضوعنا إنما تمثله الآيات التى تلوناها آنفاً من سورة البقرة . كما رأينا أن الشريعة القرآنية تتجه كلها منذ البداية إلى استنكار كل تعويض يطلب من المقترض . أفلا يكون من التناقض أن هذه الشريعة التى تضع الإحسان إلى الفقير فى أبرز موضع من قانونها والتى تحث على إنظار المعسر ، أو على ترك الدّين له ، تعود فتأخذ منه بالشمال ما منحته باليمين ، إذ تأذن للغنى بأن يطالبه ببعض الزيادة على الدين ؟

---

(١) ذلك لأن الربا الذى يكون أضعاف رأس المال [بصيغة الجمع] لابد أن يصل إلى ثلاثة أمثال رأس المال . فاذا ضوعفت هذه الأضعاف الثلاثة كان ستة أمثاله . وذلك مالم نره فى معاملة أجشع المرابين ، ولم نسمع به فى تشريع سابق ولا لاحق ، فيكون القرآن على رأيهم متخلفاً عن جميع القوانين فى هذا الشأن .

(ب) السنة :

إلى جانب هـذه النصوص القرآنية . نجد فى بيان السنة النبوية ما هو أكثر تفصيلا وأشد صرامة . فإن الرسول صلوات الله عليه لم يكتف بتحريم الربا على آكله كما ورد فى القرآن الكريم ، ولم يكتف بجعل المعطى والآخذ والكاتب والشاهد سواء فى اللعن والإجرام ، بل إنه أحاط هذه الجريمة بنطاق من الذرائع والملابسات جعلها حمى محرما تحريم الوسائل الممهدة إلى الحرمة الأصلية .

والطريف فى أمر هذه الإضافة أنه جعل التحريم فيها على مراتب متفاوتة فى تدرج حكيم يتنقل من الحظر الكلى إلى الإباحة التامة رويداً رويداً مارا بكل المراتب المتوسطة بينهما .

هـذه القاعدة الجديدة ليس موضوعها القروض ، ولا الديون المتقررة ، بل عقود البيع أو بالأحرى المقايضات . فبعض هـذه المقايضات حظر الرسول الحكيم أن تكون مؤجلة ، ولو بدون ربح ؛ وأن يؤخذ فيها ربح [1] ولو كانت يداً بيد . وبعضها منع التأجيل فيها دون التفاضل ؛ وبعضها لم يمنع فيها واحدا منهما .

وإليكم نص التشريع المذكور فى شأن المقايضات .

يقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، [2] والقمح بالقمح ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، يداً بيد ، سواء بسواء . فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد » .

وقف أهل الظاهر بهذا الحظر عند الأنواع الواردة فى الحديث . وذهبت

(١) هذا المحظور [الذى يسميه الفقهاء ربا الفضل ، ويسميه ابن القيم الربا الخفى] كان موضع اختلاف بين الصحابة وكان جمهورهم على القول بحرمته . أما بعض الباحثين العصريين الذين ظنوا أن هذا الاختلاف كان فى شأن الربا القليل فقد انتقل نظرهم والتبس عليهم الأمر التباسا يؤسف له .

(٢) وفى رواية أخرى : « الدرهم بالدرهم والدينار بالدينار الخ » ويلوح أن هذه الرواية هى التى اعتمد عليها معاوية فى فتواه . انظر الحاشية الآتية قريبا .

سائر المدارس الفقهية الى اعتبار هذه الأنواع أمثلة من قاعدة عامة تنطبق على سائر المواد التى تقوم عليها الحياة والتى مردها ـ فى الرأى الراجح عند الفقهاء ـ الى نوعين : الأثمان والمطعومات .

ومهما يكن من أمر فى شأن هذا الاختلاف الفرعى ، فإن هذه القاعدة تقضى بتقسيم الأشياء التى يراد تبادلها إلى ثلاثة أضرب : « الضرب الأول » أن يكون البدلان من نوع واحد ، كالذهب بالذهب ؛ فهاهنا يخضع التبادل لشرطين اثنين : التساوى فى الكم ، والفورية فى التبادل ، أعنى عدم تأجيل شىء من البدلين . « الضرب الثانى » أن يكونا من نوعين مختلفين من جنس واحد ، كالذهب بالفضة وكالقمح بالشعير ؛ فهنا يشترط شرط واحد ، وهو الفورية ، فلا يضر اختلاف الكم . « الضرب الثالث » أن يكونا من جنسين مختلفين كالفضة والطعام ، فلا يشترط فى هذا شىء من القيدين المذكورين ، بل يكون التقايض فيهما حراً .

هكذا كلما كان البدلان من طبيعتين مختلفتين تمام الاختلاف ، بحيث لا توجد شبهة القصد إلى القرض بفائدة ، فإن الشريعة لا تضع أمام حرية التبادل حداً من الحدود ، اللهم إلا المبدأ العام فى المعاملة ، وهو تحرى الصدق والأمانة . فإذا ما أخذت طبيعة البدلين تتقارب ، بدون أن تتحد ، نرى عند المشرّع شيئاً من الحذر المعقول ، المبنى على احتمال أن يكون المتعاملان يقصدان إلى معاملة ربوية ؛ ولذلك نجده مع ترخيصه لها بتفاوت البدلين فى الكم يحظر عليهما تأجيل أحد العوضين ، سدًّا للطريق أمام فكرة القرض المحرم تحت ستار البيع . أما إذا اتحدت طبيعة البدلين (مع التفاوت فى الأوصاف والقيم طبعاً ، وإلا لما كان هناك معنى للتبادل) فإنه من السهل أن نفهم الحكمة التى من أجلها منع تأجيل البدل ، وذلك أن من شأن هذا التأجيل أن يحمل فى طيه فكرة محظورة ، وأن يكون القصد هو القرض باسم البيع .

ولكن الذى يصعب فهمه هنا هو إلزام المتبادلين فى حال الدفع على الفور بأن تتساوى الكميتان المتبادلتان بينهما . فهل معنى ذلك أن الشريعة تتجاهل إلى هذا الحد فروق الكيفيات التى فى كل من العوضين ؟

إن الجواب على هذا السؤال نجد مفتاحه فى الحديث الذى رواه مسلم فى جامعه

الصحيح . يروى لنا هذا الإمام أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء من التمر . فقال له النبى : « ما هذا من تمرنا » فقال الرجل : يا رسول الله بعنا تمرنا : صاعين بصاع . فقال صلى الله عليه وسلم : « ذلك الربا . رُدُّوه ، ثم بيعوا تمرنا ، ثم اشتروا لنا من هذا » .

ها هنا نلمح الهدف الذى ترمى اليه القاعدة ، ونطمئن إلى أنه ليس من شأنها أن تفرض على المتبادلين ـ اعتباطا أو تعنتا ـ تساوى الكمية بين صنفين مختلفين من نوع واحد ، بل أنها على العكس من ذلك فتحت لهما باب الاختيار بين أمرين يمتنع معهما كل قهر وإلزام ؛ ذلك أنها خيرتهما بين أن يتغاضيا عن الفروق الطفيفة التى بين الصنفين ، أو أن يلجآ فى تقدير تلك الفروق إلى حكم القيمة النقدية .

ونحن إذا تأملنا فى هذا الوضع نجده ينطوى على حكمة عميقة ويقوم على مبدأ سليم من مبادئ التشريعين المدنى والاقتصادى . ذلك أنه حيث يكون هناك كميتان متساويتان من نوع واحد ولكن أحداهما تمتاز بجودة أوصافها ، لا يكون هناك مجال للتردد : أىّ المتبايعين أوفر حظا ؟ فالذى يقبل الصنف الأقل جودة يقبله بملء حريته عن سماحة نفس وكرم طبع ، وهو عالم بما يفعل . وليس الأمر كذلك فى الحال التى تكون فيها الجودة من ناحية يقابلها وفرة فى الكمّ من الناحية الأخرى ؛ إذ نرى هاهنا تقابلا بين أمرين ليس بين طبيعتيهما مقياس مشترك ثابت ، صالح لتقويم كل منهما بالنسبة إلى هذا الحد المشترك ، ثم بالنسبة إلى الطرف المقابل . والواقع أنه فى هذا النوع من التبادل يلجأ كل من المتعاملين فى نفسه إلى فكرة غامضة ، وهى إرادة التضحية بما هو أدنى فى سبيل ما هو خير منه . وهكذا يصبح قبولها الظاهرى للصفقة قبولا زائفا ، وقد ينكشف عن خيبة أمل . ولا مخرج من هذا اللبس إلا بالرجوع إلى القيمة الثمنية لكل بضاعة على حدة ، ثم إلى المقارنة بينهما على ضوء هذا المقياس الثابت . وهذا (الرجوع إلى المقياس الثابت) هو المعنى الذى قصد التشريع الإسلامى إبرازه حتى يكون كل من طرفى العقد على بينة فى معاملته المالية ، وحتى يجتنبا التدليس ، ويتطهرا من السحت المأخوذ بالحيلة والمكر .

فإذا صح ما ذهبنا إليه فى تفهم مقاصد الشريعة من هذا الحكم لم يبق هناك

حرج قط ـ كما أوضحه ابن القيم [١] فى أعلام الموقعين ج ٢ ص ٢٧٣ ـ فى أن تباع المصوغات الذهبية بأكثر من وزنها ذهباً ، أو المصوغات الفضية بأكثر من وزنها فضة . ذلك لأن قيمة الصنعة قد قدرت هنا بمعيارها الواضح المحدد ، الذى لا يدع مجالا لتزييف تراضى المتبايعين .

على أن هذه الرخصة فى المبادلة بين الصياغة والنقد لا ينبغى أن تسرى على التبادل بين نقدين من نوع واحد مع اختلافهما فى الأوصاف ؛ بل الاعتماد فى النقدين على تساوى العوضين وزناً (بدون اعتبار لجمال الضرب أو جدته أو عدد قطعه أو غير ذلك) هو الحل العادل ، أو هو أعدل الحلول ؛ إذ لو اعتبرت هذه الصفات ونحوها فى النقود مبررة لزيادة قيمتها فى المبادلة ، إذاً لأصبحت النقود نفسها بضاعة ، وصارت معرضاً للمضاربة وتقلب الأسواق ، وعادت محتاجة إلى معيار آخر لتقدير قيمتها ، بدل أن تكون هى المعيار لغيرها .

ولكى نلخص فكرتنا عن القواعد التى وضعها التشريع النبوى فى باب التبادل والتقايض ، نقول : إن هذه القواعد تهدف إلى غرض مزدوج :

فهى من إحدى الجهتين تريد أن تحمى النقود والأطعمة ، وهما أهم حاجات الجماعة وأعظم مقومات حياتها ، وذلك بمنع وسائل احتكارهما أو إخفائهما من الأسواق ، أو تعريضهما للتقلبات الثمنية المفاجئة . .

وهى من الجهة الأخرى تحرص على حماية الفقراء والأغرار من طرق الغبن والاستغلال التى يتبعها بعض التجار الجشعين .

وواضح أن تسمية الربح المجتلب من طريق هذا التبادل الذى تنقصه الصراحة والأمانة باسم « الربا » إنما هى تسمية مجازية قصد منها إلى إبراز ما فيه من مخالفة لقانون الأخلاق ، ومجافاة لقواعد الرحمة الإنسانية . وذلك بتشبيهه بالربا الحقيقى الذى هو مثل فى السحت وأكل المال بالباطل .

[للبحث تكملة]

---

(١) سلفه فى هذه الفتوى معاوية بن أبى سفيان . ويخالفه فيها عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبو الدرداء . راجع الموطأ فى كتاب البيوع ، باب بيع الذهب والفضة . ويرى ابن القيم أن هذا الاختلاف إنما هو فى الصياغة المحرمة كصياغة الآنية . وعلى هذا تكون الصياغة المباحة محل اتفاق على جواز الفضل فيها نقداً .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

وما بتا ألف قد جمعا　　　يكسر فى الجرّ وفى النصب معاً

قد يأخذ قارىء اللغويات العجب أن يكتب بيت من الألفية فى هذا الموطن . وما شأن الألفية باللغويّات ! وللألفيّة مجال فى مواطن الدرس ، وخُطوة فيها جليلة ، ولعل كتاباً لم يحظ بما حظيت به الألفية فى الانتشار والإقبال ، وخدمة العلماء لها بالشروح والحواشى . وليطمئن القارى ، فما كان من همى هنا أن أتناول بيت الألفية بالشرح والتقرير ، والإيضاح والإبانة . وإنما حدانى على إيراده هنا أنه وقع بحث وجدل طويل الذيل حول قراءة « بتا » فى البيت . فهل يقرأ بتنوين « تا » أو يقرأ دون تنوين . والتنوين فى هذه الكلمة وأمثالها يكاد لا يعرفه الناس ، فقد درجوا على قراءة أمثال هذا دون تنوين . ويماثل هذا البيت قول ابن مالك أيضاً :

واقرن بفا حتما جوابا لو جعل　　　شرطاً لإن أوغيرها لم ينجعل

وكذلك قوله :

طا تا افتعال رد إثر مطبق .

والنظر هنا إلى « طا » لا إلى « تا افتعال » فإن « تا » فيه مضاف ، فهو غير منون .

والخلاف فى قراءة هذه الكلمات قديم ، فقد عرض له الراعى النحوى الأندلسى الذى نقلنا [1] عنه فى إحدى اللغويات السالفة . فنراه يقول فى المسألة السابعة والعشرين من كتابه « الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية :

« سمعت كثيراً من صدور الطلبة بمصر يحذفون التنوين من « بتا » فى قول ابن مالك :

---

(1) أنظر ص ٧٢٠ من مجلة الأزهر فى السنة المنصرمة سنة ١٣٧٠ .

وما بتا وألف قد جمعا .

ومثله قوله فى آخر الألفية :

ذو اللين فاتا فى افتعال أبد لا

فقرأته على بعضهم ، وسألتهم عن « طا » فى قوله :

طا تا افتعال ...

فنونوه ، فطلبتهم بالفرق فانقطعوا ، ولم يعرفوا أصل المسألة ، وبلغنى أن بعض كبار الشيوخ سئل عن ذلك فتوقف . وسألنى بعضهم عن ذلك .

وسأعرض لهذه المسألة بشيء من البسط :

إن الكلمات التى هى موضوع الحديث فى الأصل حروف هجائية . وهى من بين الحروف الهجائية ، ثنائية ثانيها ألِف . والكلمات الهجائية عامّة لها حالتان :

١ — الحالة الأولى أن تستعمل للتهجى وتعليم الصبيان . وهى فى هذه الحالة موقوفة ، أى ساكنة غير منونة . ولا يدخل عليها عامل فى هذه الحالة . ويرى « سيبويه » أنها مثبتة ؛ لأنها تشبه الأصوات . ويرى فريق أنها موقوفة لا معربة ولا مبنية ، وللنحويين خلاف طويل فى هذا لا يعنينا فى هذا المكان .

٢ — الحالة الثانية أن تخرج عن حالة التهجى وتجعل أسماء ، وتدخل فى التراكيب ، ويتسلط عليها العامل النحوى . فتقول مثلا : كتبت باء وفاء ، وهكذا .

ويرى سيبويه فى هذه الكلمات الثنائية إذا انقلبت إلى طور الأسماء أن تحور ثلاثية ، وتهجر الثنائية التى كانت عليها . وذلك بإضافة همزة إليها ، فيقال : باء ، وتاء ، وفاء ، وراء ، وهكذا . وهذه الهمزة جاءت بدلا من الألف التى لحقت الكلمة تضعيفاً لآخرها ، وهو الألف ؛ كما لو سميت بلا وما ، فتقول : لاء ، وماء ، ونحن فى هذا نتبع العرب إذا سمت بالأداة الثنائية التى ثانيها حرف لين ، فقد قالت فى (لَوْ) إذا جعل اسما (لوّا) بالتشديد ؛ كما قال :

ألام على لوّ ولو كنت عالما   بأذناب لوّ لم تفتنى أوائله

وهذه الكلمات فى هذه الحالة وقد صارت ثلاثية معربة منوّنة ؛ إذ ليس

ما يوجب بناءها ولا حرمانها تنوين الصرف . وهى ممـــدودة لا تقصر إلا لضرورة الشعر .

وهاك قول سيبويه [١] : « وأمّا البا ، والتا ، والثا ، واليا ، والخا ، والحا ، والرا ، والطا ، والفا ، فإذا صرن أسماء مُددن كما مُدَّت لا » ويريد بجعلها أسماء أن تخرج عن التهجى وتدخلها فى التراكيب . وقوله : « كما مُدَّت لا » أى إنك تضعف الحرف الثانى ـ وهو الألف ـ فيجتمع ألفان ، فتبدل من الثانى همزة ، كما تفعل فى لا إذا سميت بها ، فتقول : لاء . ويقول السيرافى فى كتابته على هذا الموضع من الكتاب : « وهـذه الحروف التى ذكرها ـ من الباء إلى الفاء ـ إذا بنيناها ، فكل واحد منها على حرفين الثانى منهما ألف . فهى بمنزلة لا وما . فإذا جعلناها أسماء مددنا ، فقلنا : باء ، وتاء ؛ كما تقول : لاء ، وماء ، إذا جنحنا إلى جعلها أسماء » .

ويقول ابن جنى فى سر الصناعة : [٢] « اعلم أن هذه الحروف ما دامت حروف هجاء سواكنُ الأواخر فى الدَرْج والوقف ؛ لأنها أصوات بمنزلة صَهْ ومَهْ . فإن وقعت موقع الأسماء أعربت » ويقول أيضا : « [٣] فأما ما كان نحو با ، تا ، حا ، طا ، فإنك متى أعربته لزمك ألى تمده ، وذلك أنه على حرفين الثانى منهما حرف لين ، والتنوين يدرك الكلمة ، فيحذف الألف لالتقاء الساكنين . فيلزمك أن تقول : هـذه ظاً يا فتى ، ورأيت طاً حسنة ، ونظرت إلى طاً حسنة ، فيبقى الاسم على حرف واحد ... فإذا كان الأمر كذلك زدت على ألف با ، تا ، طا ، حا ، ونحو ذلك ألفاً أخرى ؛ كما رأيت العرب فعلت لما أعربت ، فقالوا :

ليت شعرى وأين مِنىَ ليت   إن ليتاً وإن لوّاً عناء

فكما زادت العرب على هذه الواو واواً أخرى ، وجعلت الثانى من لفظ الأول لأنه لا أصل له فترجع إليه عند الحاجة إليه كذلك زدت على الألف من با ، تا ، ألفاً أخرى ... فصار التقدير با ا ، تا ا ، طا ا ، ها ا . فلما التقت ألفان ساكنتان

---

[١] الكتاب ٢/٣٤   [٢] انظر الخزانة فى الشاهد التاسع   [٣] انظر أواخر سر الصناعة .

لم يكن من حذف إحداهما أو حركتها بُدّ ، فلم يَسُغْ حذف إحداهما لئلا تعود إلى القصر الذى منه هربت ، فلم يبق إلا أن تحرك إحداهما . فلما وجب التحريك لالتقاء الساكنين كانت الألف الثانية بذلك أحرى ؛ لأنك عندها ارتدعت ؛ إذ كنت إليها تناهيت . فلما حركت الثانية قلبتها همزة » .

وكذلك صنع أيضاً المرضى [1] فى شرحه للكافية .

وعلى ما أبديناه من رأى سيبويه ومن تبعه تكون هذه الكلمات الثنائية فى الأصل إذا دخلت فى التركيب ممدودة معربة منونة عند عدم الإضافة وأداة التعريف ، ولا يجوز قصرها فى الاختيار ، وإنما تُقصر فى ضرورة الشعر ، فإذا قصرت فى الشعر نونت وبقيت الكلمة على حرف واحد ، وهذا ورد منه حرف شاذ حكاه الكسائى ، وهو شربت ما يا فتى .

وعلى هذا يقرأ بيت أبى مالك الذى صدرنا به الحديث :

وما بتا وألف قد جمعا .

وهكذا ما ماثله .

وعلى هذا مشى الشاطبى فى شرحه للألفية ، فهو يقول عند قول ابن مالك :

بتا فعلت وأتت ويا افعلى ونون أقبلن فعل ينجلى

« وقصر (تافعلت) و (يا افعلى) ضرورة . وكان الأصل أن يقول : بتاء فعلت ، ويا افعلى . وقد جاء مثله فى الكلام شاذاً ؛ حكى الكسائى : شربت ماً يافتى ، ويقول عند قول ابن مالك :

وماضى الأفعال بالتا مِزْ وسم .

« وقصر التاء ضرورة كما تقدم ، وهذه عادته فى أمثال ذلك ، لا يتحاشى عنه ولا عن غيره من الضرورات الشعرية واللغات النادرة لداعية الوزن والقافية » .

وكذلك يفعل المعرب الشيخ خالد ، فهو فى إعراب الألفية يحمل أمثال ما نحن فيه على الضرورة ، ويقول الصبان عند البيت الذى هو فى صدر البحث :

---

(١) ح ٣ ص ١٤١

« (قوله بتا) بالتنوين ؛ لأنه مقصور للضرورة على ما مر ، والمقصور إذا لم تدخل عليه أل ولم يضف ولم يوقف عليه ينون » .

وبذلك يجيب الراعى ، فهو يقول : « والجواب أن حذف التنوين منها غلط ؛ لأن تا ، وفا ، وطا ، ونحوها من أسماء الحروف ثلاثية الحروف ولامها همزة ؛ لأن أصلها تاء وفاء وطاء ونحو ذلك بهمزة فى الآخر ، فلما اضطر الشاعر حذف الهمزة ضرورة على غير قياس ؛ كما حذفت لام يد ودم فى الفصيح على غير قياس أيضاً ، فعاد الإعراب لذلك ، وعاد التنوين لما قبل الألف فنوّن ، كما كان ذلك فى عصا وفتى ؛ لأن أسماء الحروف لا موجب لمنع صرفها ؛ لأنها نكرات ، ولذا يصح دخول أل عليها ، ولابد لها من تنوين التمكين ، والتنوين لا يصحب ساكناً وإنما يصحب المتحرك ، فيتبع آخر حركة الإسم ، فصار مقصوراً كما مر . وإنما غرّ الجماعة فيه حذف التنوين من (تا) فى قوله : بتا فعلت وأنت ويا افعلى ، وسيأتى أنه مضاف لفعلت » .

وقد أحسن الراعى ما شاء له الإحسان فى هذا البيان والإيضاح . غير أن قوله : « لأن تا وفا وطا ونحوها من أسماء الحروف ثلاثية الحروف » لم يعجب بعض الناظرين فى كتابه ، فكتب فى هامشه : « قوله : ثلاثية الحروف ممنوع ، بل هى ثنائية » ثم ساق كلاما للرضى فحواه أنها ثنائية الحروف وضعا . والراعى لم يدع أنها وضعت ثلاثية ، وإنما يذكر أنها وهى أسماء ثلاثية ، وهذا لا نكير . فقد علمت أنه رأى الرضى نفسه ، ومن قبله سيبويه وابن جنى .

وبعد فلن يعجز الباحث أن يجد لما درج عليه الناس من ترك التنوين فى (بتا) فى البيت الذى صدرنا به البحث وفى مماثله مخرجا ووجها .

فنرى السيوطى فى الهمع[1] يقول : « (وأسماء الحروف) ألف ، با ، تا ، ثا ، إلى آخرها (وقف) كما جاءت فى القرآن ألم (إلا مع عامل فالأجود) حينئذ فيها (الإعراب ومد المقصور) منها ؛ نحو كتبت باء وتاء . ويجوز فيها الحكاية كحالها بلا عامل ؛ نحو كتبت با ، وتا ، وجيم ، وحاء . ويجوز ترك المد بأن يعرب مقصورا منونا ؛ نحو كتبت « با » .

---

(١) ١٥٥/٢ .

فنرى أن السيوطى يجيز أن يقال : كتبت حا دون تنوين ، كما يجوز ذلك بالتنوين فى الاختيار ، ولا يختص هذا عنده بالشعر . وعلى ذلك يقرأ قول ابن مالك : وماتبا وألف قد جمعا .

بترك تنوين (تا) وبتنوينه . فالتنوين ليس ضربة لازم ، وترك التنوين يكون بحكاية الكلمة ومراعاة حالها قبل أن تكون اسما .

وقد ترسم السجاعى خطا السيوطى ، فهو يقول فى كتاتبه على قول ابن مالك بتا فعلت وأتت ويا افعلى .

« (قوله بتا فعلت (بقصرتا ؛ لأن ما كان من حروف الهجاء مختوما بألف يجوز قصره ومده بالاجماع ؛ كما قاله الحافظ فى الهمع ، فقس على هذا ما ياتى من أمثاله ، ولا تقلد المعرب وغيره ممن يقول بالضرورة فى نحو ذلك » .

ومن الجلى أنه يريد بالحافظ السيوطى . وتراه يدعى على السيوطى الاجماع على ما ذكر ، وليس هذا فى الهمع كما رأيت ، وكأنه فهمه من أن السيوطى لم يذكر فى المسألة خلاف . وقد علمت أن سيبويه وجمهور النحويين على خلافه .

وكأن السيوطى أخذ كلامه من الارتشاف ، فقد ذكر أبو حيان فيه أن الفراء حكى فى الحروف الهجائية إذا جعلت أسماء الحكاية لحالها قبل أن يدخل عليها عامل ، فيقال : كتبت با وتا دون تنوين . ثم قال : « وقد يقال : هذا با ، وكتبت با . وهذا شاذ » .

ونرى الرضى لايقر الحكاية ويشتد فى النكير عليها . فهو يقول : «[1] ولاتجوز الحكاية فى أسماء حروف المعجم مع التركيب مع عاملها ، فلا تقول : كتبت باحسنة ، كما جاز فى نحو مِنْ وما ، وليت إذا جعلت أعلاما للفظ ؛ لأنها موضوعة لتستعمل فى الكلام المركب مع البناء ، فجاز لك حكاية تلك الحال فى التركيب ، بخلاف أسماء حروف المعجم ، فإنها لم توضع إلا لتستعمل مفردات لتعليم الصبيان ومن يجرى مجراهم موقوفا عليها ، فإذا استعملت مركبة مع عاملها فقد خرجت عن حالها الموضوعة لها فلا تحكى .

---

(٢) شرح الكافية ٢ / ١٤١ .

على أن الرد على الرضى ليس بالعسير . فإن أبا حيان حكى عن الفراء أنه حكى الحكاية . ومعنى ذلك أن الفراء سمع هذا عن العرب ، والفراء ثقة فيما يروى . وهذه الكلمات تشبه الأدوات كمن وما وليت ، فهذا الشبه سوغ فيها الحكاية . ولا نظر إلى قول ابى حيان بعد إيراده كلام الفراء : « والذى عليه كلام العرب والإعراب » .

هذا ، ويرى بعض الباحثين أن هذه الحروف الثنائية فى الأصل بعد أن تجعل أسماء يجوز قصرها فى الاختيار ، وهى حينئذ مبنية ، غير منونة ، وهو يوجه بناءها بأنها وضعت على حرفين ثانيهما حرف لين ، وهذه حجة داحضة . ذلك أن لهذه الكلمات طورين مختلفين ، كما أسلفت ذلك ، فهى حين تجعل أسماء يجب أن تكون ثلاثية . وهذا طور غير طورها الأول الذى كانت فيه للتهجى ، ونرى هذا الرأى فى كتابة السجاعى على ابن عقيل إذ يقول : « واعلم أن الشاطبى ذكر أن مالم يضف من أسماء هذه الحروف منون ، على حد « شربت ما » بالقصر . ورد عليه بأن فيه إجحافا . فالصواب ـ كما قال الأستاذ أبو عبد الله الصغير ـ عدم تنوينها ؛ لأنها مبنية ؛ لوضعها وضع الحروف » .

وهناك احتمال آخر فى توجيه ترك تنوينها . وهو أن يدعى فى قوله : « وما بتا وألف . . . » أن (تا) علم وهو مؤنث ـ فى أحد وجهيه ـ فيمنع الصرف لذلك . ويبطل هذا الاحتمال ، أن هذه الأسماء نكرات تعرف بأل ، كما هو معروف ، تقول : هذه باء حسنه ، وكتبت الباء التى تراها . ويقول فى ذلك الراعى : « فإن قلت : الحروف كلها تذكر وتؤنث ، فلم لم يدع فيها منع الصرف عند تأنيثها ؟ قلت : أسماء الحروف نكرات ؛ كرجل وفرس ، فلا تعرف إلا بأل أو الإضافة » .

وقد بقى رأى أخير فى تسويغ ترك تنوينها ، مع استحقاقها له . وهو معاملتها معاملة الموقوف عليه ، وإن كانت فى الوصل ؛ إجراء للوصل مجرى الوقف ، وفى بيان هذا الرأى يقول الصبان فى بيت جمع المؤنث السالم : « ويجوز ترك تنوينه للوصل بنية الوقف ، وإجراء الوصل مجرى الوقف يجرى فى الشعر كثيرا ، كقول الراجز :

لما رأى أن لا دعه ولا شبع   مال إلى أرطاة حقف فالطجع

فتراه يقول : « دعهُ » بالها ساكنة ، أو هي في الوصل دعه بالتاء المفتوحة . وجاءفي قراءة حمزة في سورة فاطر : (استكبارا في الأرض ومكر السيء) بسكون الهمزة في السيء في الوصل ، وخرجب هذه القراءة على إجراء الوصل مجرى الوقف وفي ذلك يقول أبو على الفارسي في الحجة : « فأما قراءة حمزة (ومكر السيء) وإسكانه الهمزفي الإدراج فإن ذلك يكون على إجرائها في الوصل مجراها في الوقف فهو مثل (سبسبتبا) و(عيهل) و (القصبا) و (حدبا) . وهو في الشعر كثير . ومما يؤيد ذلك أن قوما قالوا في الوقف : أفعى وأفعو ، أبدلوا من الألف الواو والياء ، ثم أجروها في الوصل مجراها في الوقف ، فقالوا : هذا أفعو ياهذا :

غيرأن إجراء الوصل مجرى الوقف ليس سبيلا معبدة في الكلام ؛ إذ لواتبعت لبطل الإعراب ، وإنما سبيله الوقوف عندما سمع ـ وهو نادر جداً ـ أو عند ضرورة الشعر ، وليس في البيت ضرورة ، فإن البيت يصلح على الوجهين : « وما بتاء » و « ما بتا » . والله الموفق للصواب ؟

الهيبة

أحسن ما قيل في الهيبة قول العلامة أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد قال :

يا من يجرد من بصيرته تحت الحوادث صارم العزم
رعت العدو فما مثلت له إلا تفريح منك في الحلم
اضحى لك التدبير مطرداً مثل اطراد الفعل للاسم
رفع الحسود إليك ناظره فرآك مضطلعاً مع النجم

وقال الأخطل :

تسمو العيون إلى إمام عادل معطى المهابة نافع ضرار
وترى العيون عليه إذ لمحته سيم الحليم وهيبة الجبار

قضيـــــة البعث

بين العقل والنقل

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى

خلق الله الخلق ، وقضى بإفنائهم بعد استيفاء آجالهم ، حسبما قدر وقضى ، بأن يبعثهم لحياة أخرى يجزون فيها على ما عملوا جزاء أساسه العدل المطلق الذى تطمئن اليه النفس .

كل ذلك لحكمة وبتدبير من عليم حكيم « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » . والذى يخلق الإنسان مستعداً لما لا يتناهى من الكمال بما وهبه من العقل الذى لا يقف عند حد فى العلم وإرسال أشعة الفهم إلى أسرار الكائنات . ودقائق الموجودات ، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته غاية سائر الحيوان مما لم يعط استعداده ولم يمد أمداده ، بل تقضى حكمته فى هذا الخلق العظيم أنه يجعل له حياة بعد هذه الحياة يستثمر فيها أعماله ، ويوافى فيها كماله ، ولو أنه أسدى إلى الإنسان من المواهب ما أسدى ثم تركه بعد ذلك سدى ، لم يكن ذلك إلا من العمل الجزاف الخالى من البصر والحكمة . بل من العدل والإنصاف » .

اضطر العقل البشرى بعد أنه وجد نفسه ووجد عوالم بعيدة عنه وقريبة اليه حقائق ثابتة تأخذ بسمعه وبصره إلى التسليم بالخلق والموجودات ، ولكنه شك فى البعث ، أى فى إعادة الخلق مرة أخرى للجزاء ، ولج فى الشك ، بل أنكر ذلك وبالغ فى الانكار . وقد حكى القرآن إنكاره فى صور شتى ، « أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد » « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » . « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » إلى أمثال هـــذه الصور والعبارات ، وهى كثيرة فى القرآن .

وكان مبعث الشك والإنكار أن تعود الرفات والرمم أجساماً تنفخ فيها الروح وتدب فيها الحياة ، وتسمع وتفهم ، وتجيب كما يجيب الأحياء ، بعد أن ألح عليها البلى ، وتفرقت أجزاؤها ، وقد تحللت عناصرها . وتوزعتها الأجسام ، وتبادلتها الأبدان عن طريق الغذاء أو الهواء .

وقد وقف الناس من قضية البعث فريقين : فريق الفلاسفة ، وفريق رجال الدين ، ومن تبع الفريقين ، أما الفلاسفة فقد ركنوا إلى عقولهم ، وإلى أدلتهم فى إثبات البعث أو إنكاره ، فأعيوا أنفسهم ، ومن نهج نهجم وتنكب الجادة معهم ، ثم خرجوا أو خرج كثير منهم من الموضوع ، كما دخل فيه بعد طول الشقة والمعاناة فى الاستدلال ، وجعلوا من تلك القضية مهامه تكتنفها الشبهات ، وتزيغ فيها الأبصار ، وتضل فيها العقول ، ولا تنتهى إلى غاية ، ويؤثر العاقل أن يسلم بعقله ودينه ، فلا يطرقها ولا يخوض فيها .

أجل : أعيا الفلاسفة أنفسهم ، وأعيوا غيرهم فى ذلك السبيل ؛ ذلك لأنهم لم يقفوا به عند حد الإجمال والتسليم ، كما أراد الله لعقولهم وعقول البشر عامة ، رحمة بهم وإشفاقاً عليهم ، ولكنهم آثروا التفصيل فيه وحاولوا أن يكيفوه ويصوروه ، ويكيفوا شئون البرزخ والآخرة كلها ، ويصوروها كما يكيفون شئون الدنيا ، وغفلوا عن أن للآخرة شئوناً من جرأة العقل ، بل ومن جهله بقدره أنه يطرقها ، بل وأن يحوم حول حماها . وفى عالم الدنيا الضيق شئون لم يكشف العلم أستارها ، ولم يزل يعترف بعجزه عن حلها واكتناه أسرارها .

على أن لنا أن نتهم الفلاسفة : وكيف ساغ أن يفرقوا بين الخلق أولا والخلق ثانياً للجزاء ، وما مبعث التفريق والخلقات ، سواء فى مكان القدرة الإلهية ، بل إن الخلق الثانى لأهون فى نظر العقل ، ومجرى الإلف والعادة كما قال تعالى : « وهو يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .

أما رجل الدين والمؤمنون عامة من جميع الأديان فقد آمنوا بالبعث كما أمروا أن يؤمنوا به ، واقتنعوا بما جاء فى الأديان من الأدلة عليه ، وإنها لأدلة مجملة ، ولكنها قاطعة ، وموجزة ولكنها دامغة . وقد قاس الله إعادة الخلق على بدئه فقال « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » وقال : « من يحيي العظام

وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . وضرب له مثلا إحياء الأرض بالخضرة والنبات بعد أن كانت مجدبة هامدة ميتة فقال : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج .

ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير .

بهذه الأقيسة المجملة القاطعة ، وتلك الأمثلة الواضحة الظاهرة أقام الله الحجة على إمكان البعث لذوى العقول السليمة والفطر المستقيمة . والنفوس المستعدة لسماع الحق وقبوله والانتفاع به ، ومن رحمة الله بعباده ، أن أقالهم من تكييف البعث وتصويره وجعل ذلك شأناً من شئونه ، وما أكثر شئونه الخاصة به . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

وقد جعل علماء الكلام شأن البعث وشئونا أخرى من شئون الآخرة من الأمور السمعية ، أى التى يجب الإيمان بها عن طريق السمع لا العقل ، وأن الناظر فيما أورد فى القرآن من الأدلة ليرى مجال العقل فى بعضها واسعاً بل واضحاً كقضية البعث فهى قضية العقل لا السمع وبالتالى فهى قضية عقلية لا سمعية ، ولعل وجهتهم فى ذلك أن الذى أرشد العقل إلى ذلك هو القرآن ، فهو الذى قاس إعادة الخلق على بدئه ، وهو الذى ضرب المثل ، إحياء الموتى بإحياء الأرض ولولاه ما اهتدى العقل ولا وصل إلى طريق الحق فيه .

وقد اختلف المتكلمون فى البعث أيكون جسمانيا فحسب أم يكون جسمانيا وروحانيا معاً ، وأكثرهم على الأول ، ولكل منهم دليله ووجهته كما يعلم من كتب الكلام ؟

فيثاغورس . . .

حيـــــــاته

للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

مدرس الفلسفة بالجامعة

اشتهر فيثاغورس فى تاريخ الفلسفة شهرة واسعة ، حتى لقد ذهبوا إلى أن اسم الفلسفة من وضعه ، وكان الناس قبل ذلك يؤلهون الحكماء ، فأنزلهم إلى مرتبة البشر وقال « لست حكيما ، ولكنى أوثر الحكمة » والمؤثر للحكمة هو باليونانية الفيلسوف ، كما فصل ذلك الفارابى ، من « فيلا » بمعنى محب ، و « سوفوس » بمعنى الحكمة .

وعندما تحدث الفارابى عن فرق الفلاسفة وقسمها سبعة أقسام ، جعل أول قسم منها تلك الفرقة المشتقة من اسم الرجل المعلم للفلسفة ، وهذه الفرقة هى أصحاب فيثاغورس .

وعقد الشهرزورى فى كتابه « نزهة الأرواح » فصلا فى ابتداء أحوال الفلاسفة ، وحدثنا عن طاليس فقال « ذكروا أن أول من ظهر منهم بالفلسفة وعُرِف بالحكمة على اختلاف بينهم فى ذلك طاليس الملطى . . . » وبعد أن عرض فى إيجاز آراء الفلاسفة الذين تأثروا خطى طاليس ، قال : « وقيل إن للفلسفة مبدأ آخر هو من فيثاغورس بن منسارخوس من أهل سامِنا (يريد ساموس) وهو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم . . . »

وهذا يطابق ما أورده ابن النديم فى الفهرست فى فصل بعنوان « أول من تكلم فى الفلسفة » قال « قال لى أبو الخير بن الخمار بحضرة أبى القاسم عيسى بن على ، وقد سألته عن أول من تكلم فى الفلسفة فقال : زعم فرفريوس الصورى فى كتابه التاريخ — وهو سريانى — أن أول الفلاسفة السبعة طاليس . . . . وقال آخرون : إن أول من تكلم فى الفلسفة « بوثاغورس » وهو بوثاغورس بن ميسارخوس

من أهل سامينا . وقال فلوطرخس إن بوثاغورس أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم ، وله رسائل تعرف بالذهبيات ، وإنما سميت بهذا الاسم لأن جالينوس كان يكتبها بالذهب إعظاما لها وإجلالا . والذى رأينا لبوثاغورس من الكتب : رسالته فى السياسة العقلية ، ورسالته إلى متمردى صقلية ، ورسالته إلى سيفانس فى استيفاء المعانى » .

أما الذى حكاه القفطى فى أخبار الحكماء ففيه خلط وابتعاد عن التحقيق واعتقاد فى الأساطير . قال عنه « الفيلسوف المشهور المذكور من فلاسفة يونان وحكمائهم ، كان بعد أبيذقليس الحكيم بزمان ، وأخذ الحكمة عن أصحاب سليمان ابن داود بمصر حين دخلوا اليها من بلاد الشام .... » وسوف نرجع إلى هذه الرواية عند الحديث عن رحلات فيثاغورس .

من هذا نرى أن المسلمين عرفوا فيثاغورس ، وعرفوا منزلته من الفلسفة ، ونقلوا أخباره عن مؤرخى الفلسفة اليونانية الذين دونوها ، ولكن فى عصر متأخر مثل فرفريوس الصورى صاحب كتاب « تاريخ الفلاسفة » ، وفلوطرخس المؤرخ المشهور ، كما نص ابن النديم على ذلك .

وقد لعبت آراء فيثاغورس ، أو على الأصح المدرسة الفيثاغورية أو الفيثاغوريين ، دوراً عظيما فى تاريخ الفلسفة الإسلامية . ويكفى أن تلقى نظرة إلى رسائل إخوان الصفا ، فتجد فى أولها رسائل العدد ، وهى التى ثبت أنها منقولة عن فيثاغورس . وليس غرضنا الآن أن نتحدث عن آراء فيثاغورس وعن أثرها فى الفلسفة الإسلامية ، وموعدنا عن ذلك فى القريب بعد أن نتم الحديث عن سيرته ، ثم عن مدرسته ، ثم عن آرائه .

ولنعد إلى الكلام عن حياته محاولين الترجمة له ترجمة علمية . وأول ما يجب أن نفعله هو أن ننظر فى المصادر التى نستقى منها هذه الترجمة مع بيان قيمتها .

وقد نظر المؤرخون المحدثون فى الفيثاغورية ، ورجعوا إلى مختلف المصادر فى أصولها اليونانية ، ثم رتبوا هذه المصادر من حيث زمنها ثلاثة أقسام :

الأول : ما جاء من إشارات إلى فيثاغورس عند المعاصرين له من الفلاسفة .

وهى إشارات قليلة جداً ، من ذلك ما ذكره زينوفان ، الذى زها حول ٥٣٠ ق.م فى جنوب إيطاليا ، وكان فيما يقال رأس المدرسة الإيلية ، وحكى عن فيثاغورس أنه سمع ذات يوم نباح كلب ورأى صاحبه يهم بضربه فتوسل إليه ألا يفعل ذلك لأنه عرف فى نباح الكلب صوت صديق له توفى من زمن . وتدل هذه القصة على أن فيثاغورس كان يعتقد فى التناسخ .

وحكى هرقليطس الذى زها حول ٥٠٤ ق . م فى كتابه الذى بقيت منه بعض أجزاء أن « فيثاغورس ابن فيسارخوس اشتغل بالبحث العلمى أكثر من أى شخص آخر ، واختار من بين هذه الكتابات نخبة ، فنسب إلى حكمته الخاصة ما هو إلا المعرفة بكثير من الأشياء » . والذى يقصده هرقليطس من البحث العلمى هو الاطلاع على آراء الآخرين ، وبذلك لا يعد فيثاغورس مبتكراً للفلسفة .

ويروى عنه هيرودوت « أنه من أعظم حكماء اليونان » ويضيف إلى ذلك أنه سمع من يونان هلسبونت أن « سالومكس » Salmox كان عبدا لفيثاغورس فى ساموس ، وأكبر الظن أن هيرودوت لم يصدق هذه الرواية لأنه كان يعرف أن سالومكس عاش قبل فيثاغورس بزمن طويل . مهما يكن من شىء فالرواية تدل على شهرة فيثاغورس فى القرن الخامس .

وكان أفلاطون شديد الإعجاب بالفيثاغوريين ، ولم يصرح باسم فيثاغورس إلا مرة واحدة ، وذلك فى كتاب الجمهورية حيث يروى أنه نال محبة أتباعه وظفر بقلوبهم إذ كان يعلمهم طريقا يسلكونه فى الحياة ، وكانت تلك الطريقة لا تزال معروفة فى ذلك الوقت باسم الفيثاغورية . ولا يصرح أفلاطون باسم الفيثاغوريين إلا مرة واحدة أيضا ، حين جاء على لسان سقراط فى الجمهورية أنهم يعدون الموسيقى والفلك علمين شقيقين . غير أن أفلاطون قد حكى كثيرا من آرائهم ، ولو أنه لم يصرح باسمهم ، وقد اتضح لنا عن المصادر الأخرى أنهم الفيثاغوريون.

القسم الثانى من المصادر ، أرسطو والمشاءون .

أما أرسطو فقد ذهب مذهب أستاذه ولم يصرح باسم فيثاغورس فى كتبه الكثيرة إلا مرتين ، إحداهما ما جاء فى كتاب ما بعد الطبيعة أن القمايون كان شابا صغيراً عندما كانت الفيثاغورية فى شيخوختها .

والرواية الثانية وردت فى كتاب الخطابة حيث نقل أرسطو على لسان ألقيداماس « أن أهل إيطاليا كانوا يمجدون فيثاغورس » . ومما يلفت النظر وصف أرسطو للفيثاغورية ، فهو يقول عنهم « أهل إيطاليا الذين يسمون بالفيثاغوريين » وهذه العبارة تحمل الشك فى ثناياها عن حقيقة تلك الجماعة .

وقد كتب أرسطو كتابا عن الفيثاغوريين لم يصل مع الأسف إلينا ، ولكن بعض المتأخرين اقتبسوا منه أقوالا فيما يختص بمذهبهم الدينى .

ثم نجد بعد ذلك اثنين من المشائين كتبا عن الفيثاغوريين ، الأول ارستكسينوس الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان فيلسوفا وموسيقياً من أتباع أرسطو ، وقد اتصل بالجيل الأخير من الجماعة الفيثاغورية ، وأبرز لنا فيثاغورس من رجال العلم ، وأبى أن يصوره رجل دين . أما ثانى المصدرين فهو ديقارخوس من أهل مسينا فى صقلية عاش فى القرن الرابع ، وكان من تلامذة أرسطو ، وثافراسطس اشتغل بالفلسفة والجغرافيا والتاريخ . وكتب كتابا عن تاريخ اليونان ، وقد أظهر لنا فيثاغورس فى كتاباته رجل سياسة وإصلاح .

وهناك مصدر ثالث ولو أنه ليس من المشائين ، ونعنى به تيماوس الصقلى [٣٥٢ - ٢٥٦] وقد كتب تاريخاً عن صقلية ساق فيه الحوادث حتى زمانه . وعن هذا المصدر استقى يامبليخوس معلوماته عن فيثاغورس .

وننتقل الآن إلى الحديث عن القسم الثالث من المصادر ، وهم المتأخرون الذين كانوا بعيدين كل البعد عن فيثاغورس وشيعته . وهم ثلاثة : فرفريوس الصورى ، ويامبليخوس ، وديوجين لايرس . وقد امتلأت رواياتهم جميعاً بالأساطير ، ولا يمكن أن تحمل إلا على محمل الريبة . وقد نسبوا إلى فيثاغورس كثيراً من الخوارق .

عاش فرفريوس الصورى فى القرن الثالث بعد الميلاد ، وكان تلميذاً لأفلوطين ، وشرح أرسطو ، وعرفه العرب بوجه خاص من كتابه أيساغوجى . أى المدخل إلى مقولات أرسطو . وله كتاب عن تاريخ الفلاسفة ضاع ولم يبق منه إلا الجزء الخاص بحياة فيثاغورس ، وهو الذى حدثنا عنه ابن النديم فى الفهرست .

أما يامبليخوس الذى عاش فى القرن الرابع بعد الميلاد ، فكان من فلاسفة

الأفلاطونية الحديثة ، وله كتاب عن حياة فيثاغورس وأتباعه المتقدمين والمتأخرين .

أما ديوجين لايرس فهو صاحب تاريخ الفلاسفة ، وهو مرجع هام ومصدر من مصادر الفلسفة اليونانية عامة .

هؤلاء جميعاً ساقوا كثيراً من القصص الخرافية حول حياة فيثاغورس . من ذلك أنه عض ثعباناً ساماً فقتله . وأنه شوهد فى مدينتى كرتون وميتابونثيوم فى آن واحد . وأنه كشف فى أوليمب عن ساقه الذهبية . وأنه كان يعبر نهر كاراس فسمع صوتاً إلهياً يأمره بالتوقف ، وحكوا أنه كان يسحر الحيوانات .

* * *

ونحسب بعد ذلك أننا فى غير حاجة إلى القول بأن حياة فيثاغورس يكتنفها كثير من الغموض ، وتلفها الخرافات بغلاف ثقيل ، حتى إن بعض المؤرخين مثل فريمان فى كتابه « الفلاسفة قبل سقراط » . لم يتحدث عن فيثاغورس ، بل عن فرقة الفيثاغورية .

وتنقسم حياة فيثاغورس قسمين : الأول فى ساموس ، والثانى فى كروتون ، ويضاف إلى ذلك رحلاته التى قام بها .

أمضى فيثاغورس شبابه فى جزيرة ساموس إحدى جزر بحر أيونية بالقرب من ملطية مهد الفلاسفة الطبيعيين . وزها فيثاغورس فى حياة الطاغية بوليقراطيس حاكم ساموس عام ٥٣٢ ق . م . ويقول ارستكسينوس إن السبب الذى من أجله هجر فيثاغورس ساموس هو مقته حكم بوليقراطيس ، فذهب إلى كروتون فى جنوب إيطاليا ، وهى مدينة كانت لها بساموس علاقات حسنة ، واشتهرت بالرياضة البدنية والطب . ويحدثنا تيماوس أنه وفد إلى كروتون عام ٥٢٩ ق . م ، وبقى فيها عشرين عاما . وقد تأسست كروتون عام ٧١٠ ق . م . وهى ميناء تجارى وصناعى ، وزادت ثروتها من التجارة فعاش أهلها رغدا ، واشتهر سكانها بالرياضة البدنية والطب . وأكبر الظن أن اعتدال جوها هو الذى اجتذب إليها فيثاغورس .

ولا نستطيع أن نقبل ما ذكره المؤرخون المتأخرون عن رحلات فيثاغورس على أنه حقيقة لا يرتقى إليها الشك . يقال إنه زار مصر ، وأن قمبيز أسره حين غزاها . ونحن لا نستبعد هذه القصة وبخاصة إذا عرفنا ما كان بين بوليقراطيس وأحمس [أمازيس] من علاقات وثيقة . ولاحظ هيرودوت ما بين شعائر النحلة الأورفيئه المستقاة عن المصريين ، وبين الفيثاغوريين من مشابهة . ويروى هيرودوت كذلك أن عقيدة التناسخ الموجودة عند الفيثاغوريين جاءت عن اتصال فيثاغورس بمصر ، وهذا خطأ لأن قدماء المصريين لم يعتنقوا مذهب التناسخ .

ويقال كذلك إنه زار بابل حيث نقل عن الشرق المذاهب الصوفية .

ولما استقر المقام بفيثاغورس فى كروتون اشتغل بالسياسة واشتهر أمره ، ولجأ بعض أشراف سيبارس Sybaris إلى كروتون طالبين الحماية ، فأشار فيثاغورس على أهل كروتون بحمايتهم وإعلان الحرب على سيبارس ، فلما انتصرت كروتون تولى فيثاغورس وحزبه الحكم .

وبعد بضع سنوات قامت حركة تعارض هذا الحكم الاستبدادى بقيادة سيلون وهو شريف غنى ، كان فيثاغورس قد أساء إليه ، وقبل أن يشتد لهيب الحركة هاجر فيثاغورس إلى ميثابونتيوم بالقرب من كروتون ، حيث توفى . وبعد موته كرس أهل ميثابونتيوم داره معبداً للإله ديمتر .

أما أتباعه الذين بقوا فى كروتون فقد كانوا ضحية مؤامرة حبك أطرافها سيلون وحزبه إذ فاجئوهم وهم مجتمعون فى منزل ميلو Milo الرياضى وحرقوهم أحياء ، فماتوا جميعا ماعدا أرخيبوس وليسيس التارنتى الذى عاد إلى موطنه فى تارنتا . أما أتباعه الذين كانوا غائبين عن كروتون فقد اجتمعوا فى مدينة ريجيوم ، حيث تابعوا السير على النظام الذى وضعه فيثاغورس ، غير أنهم لم يستعيدوا نفوذهم السياسى .

وسوف نتحدث عن مدرسة فيثاغورس فيما بعد .

خـــــواطر

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

الكاتب يهمه — دائماً أبداً — أن يكون موضوعه الذى يَعرُضه على القارئ فيه من الطرافة والجدّة ، والظرف فى التصوير ، واللباقة فى الأداء ، ما يُغرى بقراءته ، ويحمل على الاسترسال فيه ، والانسياق معه ؛ لأن حسن المقال ، وجمال الهدف ، ورَوْعةَ التفكير ، بذلك الأثر الذى يتبقى فى الذهن ، ويتركز فى المخيلة ، بعد كدح الخاطر ، وإتعاب النظر ، وقطع الوقت ، وطى المسافة ، فى التحصيل والبحث ، والتنقيب والاضطلاع . . سواء أكان ذلك الأثر من ناحية اللفظ والأسلوب ، أم من ناحية الغرض والمعنى ؛ ولسنا هنا بصدد التفاضل بين الصورة الخارجية ، والسريرة الداخلية ، وتحقيق الخلاف فيما يجب أن يكون مناط الرفعة ، ومحل التفاوت ؛ فذلك أمر يرجع إلى البلاغة أكثر منه رجوعاً إلى فن القول الذى هو أشمل وأعم .

ويهمنى أوّلاً أن يكون هنالك فائدة يعود بها الناظر ، ويُضيفها إلى ما يعلمه الباحث ، وإلا كان أشْبه بمن يرضى من الغنيمة بالإياب .

وقد تعود العلماء فى الأمم الناهضة أن يُسجلوا للأجيال تجاربهم فى الحياة ، وكيف استفادوا منها ، وانتفعوا بها ، ولهذه « المذكرات » صدًى بعيد ، وصيتٌ ذائع ، وجلال واحترام ، لأنها نتيجة دراسة وتأمل ، وبحث وفلسفة ، يتلقفها المتلقفون بالرضا والارتياح ، وتتملك منهم مواضع الغرابة والإعجاب .

ولكم وَدَّ كثير منا — الآن — لو يعرفون ما الذى كان يهيج أسلافنا من قادة الفكر . وسادة الرأى ، من خاصة عُلمائهم ، وخيار المصلحين منهم ، لأن هذه هى أبرز نواحيهم العقلية ، وأوضح ميولهم العلمية .

والذى يبلغه قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « يعجبنى الرجل إذا سيم خُطة خسفٍ أن يقول لا ، بملء فيه » يتمنى لو أنه أفاض فى هذا الإعجاب ، وأكثر

من ذكر تلك الألوان النفسية الرائعة ، التى يستشف منها المستشف حُكمه على الأشياء ، وتمديره للأمور .

وإذا كان لكل عبقرى ضابط خاص لما يستولى على مشاعره ، أو يثير أحاسيسه ، ويجعله من إكباره لها يسبح فى جو يفوح بالعطر ، ويضوع بالمسك ، ثم لا يجد ما يسعفه عند التعبير عنها أكثر من قوله « يعجبنى » فإن الأجدر بالأديب الأريب ألا يرمى بهذه الكلمة دون تبصر ونظر ، وإمعان وتدبر .

ولمناسبة الجملة التى وردت — على سبيل الاستطراد — من كلام عمر لا أخفى حبى له ، وشغفى به ، وولوعى بما يتصل بتاريخه من ذكريات ، لأنه صحائف من المجد الخالد فى حياة الإسلام والمسلمين .

وكلما مر بخاطرى طيفه أخذت أفكر بينى وبين نفسى قائلا : كيف كانت الخسارة لو لم يكن هذا الرجل من الصحابة الذين أحدثوا هذا النشاط ، وخلفوا فى الدين تلك الثروة ، ورسموا للمسلمين هـذه المبادىء فى الاجتهاد والقضاء ، والحكومة العادلة الرشيدة .؟ وآمنت بقول النبى صلى الله عليه وسلم فيه « لو كان فى هذه الأمة مُحدَّثون لكان عمر » ،

وإذا عرض بذهنى مراجعته للرسول ومناقشته وجدله ، إن لم يطمئن إلى الحكم ، ولم يسترح لكونه تشريعاً تترتب عليه مصلحة عاجلة أو آجلة ... أقول هكذا الإسلام . أما الجمود الغاشم ، والانقياد الأعمى ، وأخذ الأمور قضايا مسلمة خالية من النظر ، عارية عن الفهم ، مجردة من التذوق ، فإنها أبعد ما تكون عن الدين . وكأنما كان سبحانه وتعالى يعد عمر وأمثاله ليكونوا زعماء يترك الناس زمامهم بأيديهم ، ويلقون على كاهلهم مسئولية سياستهم ، والنهوض بأعباء السلطان فيهم .

وحين يسترسل بى الحديث فى عمر يعجبنى من قواده خالد بن الوليد ، إذ عزله عن قيادة الجيش ، فلم يؤثر ذلك فى نفسه ، ولم يثر فيه نزوات الشيطان ، ويحمله على أن يتخلى عن الجماعة ، ويتقاعس عن صفوف المحاربين ، ولكنه دخل فى الميدان وقاتل كالجندى المجهول ، لا يهمه إلا أن ينتصر الحق ، وتسود كلمة الله ، وتعلو راية المؤمنين . وذلك لأن الرياسة لم تكن عنده ولا عند غيره مظهراً من

مظاهر الكبرياء، ولا لونا من ألوان السيادة، ولا معنى من معانى العظمة، ولا أسلوبا من أساليب التحكم والاستبداد، بل كانت تبعة ثقيلة، وعبئاً فادحاً، وامتحانا من الله يتبين به العدل بين العالمين.

وأتخيله رضى الله عنه وقد حضرته الوفاة، فجاء إليه بعض قومه وعشيرته ليقولوا له: اجعل ولاية العهد لابنك عبد الله، حتى لا تعاود الناس بعدك فتنة اختيار الخليفة، وهم لا يزالون يتحفزون إلى الفرقة، ويتأهبون للنزاع، ويتوثبون للخلاف. وكانت مكانة عبد الله من الورع والتقوى، والعلم والفقه، والصلاح والزهد، والعدل والاستقامة، لا يتطاول إليه بعد أبيه أحد. لأنه كان ملازما للنبي صلى الله عليه وسلم ومحبوبا لديه. شديد التتبع لآثاره، والسير على نهجه.. فلم يقبل أن يقيمه بعده خليفة، وقال: حسب آل الخطاب أن يحاسب الله واحداً منهم عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة.

وأظل — هكذا — تمضى بى الخواطر والتأملات، وتطوف بى الأوهام والأحلام، كما تحلق بالشاعر خيالاته العلوية، فلا يسعنى إلا أن أقول: أين نحن من أولئك الذين نتحدث عن ذكرياتهم، ونقلب صحائفهم، ونردد فضائلهم، والدين — عندنا — لم يتجاوز أن يكون نصوصاً وأحكاما نستظهرها ونحفظها، ثم لا نزيد عن ذلك كله شيئاً!!

البلاغة فى الاجابة

دخل معن بن زائدة على أبى جعفر المنصور فقال له: كبرت يا معن. قال فى طاعتك يا أمير المؤمنين، قال وإنك لتتجلد. قال على أعدائك يا أمير المؤمنين. وإن فيك لبقية. قال هى لك يا أمير المؤمنين.

وقال هرون الرشيد لعبد الملك بن صالح، هذا منزلك. قال هو لأمير المؤمنين ولى به. قال كيف ماؤه؟ قال أطيبت ماء، فكيف هواؤه؟ قال أفصح هواء.

وقال المأمون لطاهر بن الحسين. صف لى ابنك عبد الله. قال يا أمير المؤمنين إن مدحته عبته. وإن ذممته أغتبته. ولكنه. قدح (بكسر فسكون أى سهل) فى كف مثقف ليوم نضال فى خدمة أمير المؤمنين.

أمن المجتمع واستقراره
فى نظر الاسلام (*)

لحضرة الدكتور محمود فياض

مدرس التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

---

٤ — المالك الحقيقى: يحرص الإسلام فى كل مناسبة، سيما عندما يتحدث عن الشئون المالية للمسلمين، على تذكيرهم بأن الله هو الخالق، وهو المالك لكل ما خلق؛ فكل مال فى يد فرد، فهو فى الحقيقة مال الله، وتملك الفرد له تملك نسبى يقوم على النيابة أو الاستخلاف، فقد أناب الله الناس واستخلفهم على ماله لتنميته والإشراف على إنفاقه فى الوجوه التى أمر الله المؤمنين بالإنفاق فيها «وأنفقوا من مال الله الذى آتاكم»، «وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه»؛ فمن بخل بمال الله وحبسه عن العمل فيما شرع الله، فقد خان أمانته، وظلم نفسه والناس، وخرج من عهدته، ومن حق المالك أن يعزله أو يسلبه ما فى يديه، وتارة يسمى القرآن ما ينفقه الإنسان من مال الله قرضاً حسناً لله «من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً». وتارة يسميه حقاً للفقير فى مال الغنى: «وفى أموالهم حق معلوم». فالفقير عند ما يأخذ شيئاً يأخذه من مال الله، ثم هو يأخذ حقاً له فرضه الله الذى يمنح المال لمن يشاء من عباده، وهو حق يكاد يكون من حقوق العاجزين الفطرية. يأخذ الفقير غير ذليل النفس، ولا مهدر الكرامة، ولا يمكن أن يكون ما جعله الله حقاً فى مال الله - أوساخ الناس، والله يسميه حقاً هو ما نحه!! وليس معنى أن الزكاة أو الصدقة تطهر النفس وتزكيها أنها «أوساخ الناس»، وإنما القصد من ذلك أنه سبيل إلى رياضة النفس الشحيحة على الإيثار، وتخليصها من طغيان الأثرة، وتمرينها على السمو والتعلق بالكمال باستمرار عملية التخلص من ضغط المادة،

(*) تتمة لما نشر بالعدد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٧٠

هى طهرة لنفس الغنى من الشح ، ولنفس الفقير من الحقد والبغضاء ، فكيف صح ما رواه بعض الفقراء من أنها « أوساخ الناس » ؟ ومن أين كان يأخذ أهل البيت النبوى الكريم أعطياتهم على الأقل فى عهد أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » ؟ أليس من مال « بيت المال » ؟ ولقد كانت الزكاة والصدقة من أهم موارده ! ! ألم يسم الصحابة « خزانة المال » بيت مال المسلمين ؟ والمسلمون يعنى الأمة النائبة من الله فى ملكه . فالمال مال الله ، لا مال الناس ! ! والقرآن الكريم عند ما تحدث عن مصارف الزكاة « إنما الصدقات للفقراء » . جعل الفقراء أهل حق فى مال الله ، فكل فقير محتاج له فى هذا المال حق وهبه الله له ، لا فضل لأحد من الناس عليه فيه ، فليتقدم إلى أخذه عزيزاً كريماً ، ولم يستثن القرآن أهل البيت من « الفقراء » بل ذكر الفقراء عامة ، ومن الظلم للقرآن أن يقال : إنه يقر الارستقراطية النسبية والطبقية ويمايز بالاحساب ، والشيعة - فيما أعلم - يأخذون بذلك . ولا يرون فى مال الله هذا أنه « أوساخ الناس » ، كما يزعم ذلك على الرسول بعض الفقهاء ، وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرم على أهله ما أحله الله لهم ! ! وإن ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم منعهم مال الصدقة ، فحتى لا يقول مفتون : لقد حابى محمد ، أهله وأطعمهم أموال المسلمين ؟ ألم يقل له بعضهم - والرسول يفاضل فى العطاء للناس من غير أهله - اعدل يا محمد ! فيرد عليه الرسول : ويحك من يعدل إذا لم أعدل ؟ فكيف لو كان قد أعطى ذلك لأهله ؟ !

٥ — النظر إلى المستقبل : ينظر الإسلام فى تشريعه إلى المستقبل لا إلى الحاضر فحسب . فكل مالا يملكه فرد ، فهو ملك الجماعة : الدولة ، أى أنه على أصله ، تصرفه الدولة حسبما يجد من حالاتها ، وما يحصل عليه المؤمنون من أملاك أعدائهم بلا حرب فهو لله وصالح الدولة ، وكذلك الأراضى التى يحصل عليها المسلمون بالفتح ، فهى ملك عام للمسلمين : للدولة . ويذكر لنا القاضى « أبو يوسف » [1] أن « عمر بن الخطاب » لما طلب إليه بعض زعماء المسلمين أن يقسم أرض العراق بعد فتحها بين المجاهدين ، اهتم هماً شديداً . وكان يقوم فى هذا الأمر ويقعد ، حتى اهتدى

---

(١) كتاب الخراج - سواد العراق .

إلى حل جميل فى قوله تعالى فى سوة الحشر [١] : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » ، إلى أن قال : « والذين جاءوا من بعدهم » . واستناداً إلى هذه الآيات منع عمر - ووافقه الصحابة - قسمة أرض العراق ، حتى يكون المال والتملك فى متناول المسلمين جميعاً فى حاضرهم ومستقبلهم ، وحتى لا يحبس المال فى أيد قليلة فيتداول بين الأغنياء فى أضيق دائرة ، فتتركز الثروات فى يد أفراد من الناس ، وتحرم الكثرة الساحقة ، وقد حبسها لصالح المسلمين ولذوى الحاجات والفقراء من المهاجرين والأنصار ، ولمن يأتى بعد هؤلاء من المحتاجين فى العصور التالية قال عمر : كيف أقسمها فتملكونها فلا يجد المسلمون الذين يأتون بعدكم ، ما يملكونه أو ينتفعون به ؟ فانظر رعاك الله إلى أى حد يهتم الإسلام بمصالح الفقراء إهتماماً يتعدى حاضرهم إلى مستقبلهم المكنون !! ولعلك تلحظ بعد ذلك أن الخليفة أبقى الأرض ملكا للدولة ، وأعطاها للزرع يفلحونها ، فينتفعون فى نظير جعل خاص لبيت مال المسلمين ، ولعلك تلحظ أيضاً أن الإسلام الذى أقر تملك الأفراد ، يقر أيضاً تملك الدولة لبعض المرافق ، ضماناً لحاجاتها ، وليس معنى هذا إطلاقاً أنه يفتح باب التأميم على مصاريعه لتتلاشى الملكية الفردية ، فقد عرفت رأيه فيها ؛ وفى هذا يقول سيدنا عمر : والله ما من أحد إلا وله فى هذا المال حق ، يعنى مال بيت المال .

٦ - وسائل التوازن فى المجتمع : أطلق الإسلام للفرد حرية التملك ، ولم يشأ أن يقيد ملكيته تمشيا مع الفطرة كما أسلفنا ، ولكنه من ناحية أخرى عمل على تجزئة الملكيات حتى لا تتضخم تضخما يؤدى إلى الاحتكار وتركيز الثروة فى أيدى أفراد قلائل ، قد تكون إساءة التصرف هى طابعهم ، وقد يكون جلهم من ذوى الضمائر العفنة التى لا يزعها قرآن ولا سلطان ، فيختل نظام المجتمع ، وتفسد أحواله ، ويموج بالحقد والثورات ، ولهذا وضع نظاما لتمليك الضعفاء الذين لا قدرة لهم على العمل والكسب والتملك ، وهو نظام دائم مستمر ، يخرج كل عام فئة جديدة من صغار الملاك ، وقد لا يمضى عليهم عام حتى يساهموا فى عملية التمليك بالقدر

---

(١) الآيات ٣ - ١٠ .

الذى يستطيعونه ، وهو نظام تعاونى مثالى ، يوجهه الدين والخلق ، وأما طرق تمليك الفقراء ، وتجزئة الملكيات فإنى أحدثكم عنها بإيجاز :

(١) الزكاة : وهى نسبة مئوية بسيطة (٢/٥ ٠/٠) تؤخذ من المالك على قدر معين من ماله النقدى أو المقوم بالنقد ، وقد تؤخذ عينا ـ تقريبا وفق هذه النسبة ـ مما يملكه الفرد من حيوان ، أو زروع أو تجارة ، بشروط خاصة ، وهى نسبة لا تضر الغنى ، ولكنها تسعف الفقير بالعلاج ، وقد جعل الإسلام ذلك فرضا لازما للمسلم ، وعده ركنا من أركان العقيدة لا تصح إلا به ، ولا يسمى مسلما من يجحدها أو يمنعها ، أو يحتال على التخلص منها ، وعلى جماعة المؤمنين أن تأخذها بالقوة ممن يمنعها ، وعليها أن تحارب من يجحدها أو يعلن عدم الالتزام بها ، محافظة على أركان الإسلام وكيانه ، وشخصيته المعنوية التى لاتستقيم إلا بهذا الغرض ، فإذا تهاونت الجماعة فى ذلك فقد تهاونت فى شخصيتها ، وإذا قصر المؤمنون . فقد عصوا ربهم ، وخرجوا عن دينه ، وليأذنوا ـــ عندئذ ـــ بحرب من الله ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » والظالمون والفاسقون .

(٢) الانفاق : أمر الإسلام المسلم بالانفاق فى سبيل الله وحاجات الدولة وسمى ذلك صدقة مرة ـ كما أسلفت ـ ومرة سماه قرضا حسنا « خذ من أموالهم صدقة . . . » « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا . . » وقد كثرت أوامر الانفاق فى القرآن الكريم ، كثرة تلفت النظر . بل نأخذ بعنق ذوى اليسار ، فقد لا تجد سورة من سوره خالية من أمر ، أو أمرين ، أو أكثر ، وهى أوامر صريحة مغايرة مغايرة تامة لأوامر الزكاة ، وتلمس ذلك بوضوح فى آية البر « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب . وأقام الصلاة وآتى الزكاة . . » فأنت تجد الانفاق « وآتى المال على حبه » يتقدم فى الذكر بعد الإيمان . على الزكاة . أتدرى لماذا ؟ لأن المشرع لم يحدد فى الانفاق نسبة كالتى حددها وألزم المؤمن بها فى الزكاة . بل فرض على المؤمن أن ينفق فى سبيل الله ، وصالح المسلمين ، وترك

له تقدير ما ينفقه حسب ما تمليه عليه درجة إيمانه وأمانته . امتحانا لإيمان المؤمن وأمانته ، وقد جاء الوعد بالنعيم المقيم للمحسنين ، الذين يؤثرون على أنفسهم ، ويتقون شح أنفسهم « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » كما جاء الوعيد بالعذاب الأليم ، للذين يكتنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، وجدية الأمر بالانفاق . وعظم الوعيد للبخلاء والمحتكرين الذين يضنون بمال على عباده ، ويمنعون الفقراء حقوقهم ، هذا . هو بعينه الذى دفع الصحابى الجليل « أبا ذر الغفارى رضى الله عنه » إلى القول : بوجوب تخلص المؤمن من كل ماله ، وانفاقه فى سبيل الله ، مكتفيا بما يقيم أوده ، أو بضروريات الحياة ، وهى الدعوة التى أزعجت أمير الشام معاوية ، والخليفة الثالث عثمان بن عفان .

ومن الملاحظ أن الخلافة وأميرها فى الشام ، وصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينكروا على أبى ذر أصل المبدأ وهو وجوب الانفاق على الأغنياء ، زيادة على ما يلزمهم من الزكاة ، وإنما أنكروا عليه أن يحدد قدراً ، بعضا . أو كلا ! أما المبدأ فسليم ومتفق عليه ؛ ويتضح هذا من قول الخليفة لأبى ذر : أنا لا أحمل الناس على الورع ولكن دع المؤمن كما تركه الله ، بلا تحديد ولا تقييد . يحدد بنفسه لنفسه ما يمليه عليه إيمانه وأمانته ، وحبه للخير ، فإذا كانت نفوس الأغنياء قد فسدت ، وثقل عليها أمر الله ، وتحللت من تشريع الله ، فلم تخرج . أو جحدت الزكاة ، فمن واجب الدولة وجماعة المؤمنين أن يقهروهم على أدائها ، حرصا على سلامتهم وسلامة الجميع ، وإذا كانت قلوب ذوى اليسار قد تحجرت . فلم تسمع أنين المحرومين ، ولم تر الانفاق فى سبيل حاجات المجتمع واجبا ، فإن الفقهاء قد أعطوا الحاكم سلطة فرض الضرائب التى يراها لمصلحة الجماعة ، وقد طبق عمر عام المجاعة نظاما يشبه « نظام الضرائب التصاعدية » فقد ألزم كل غنى بإطعام عدد خاص ، من الفقراء . حسب ما رآى من قدرته ويساره ، وهذا مبدأ للترقى بالضريبة حسب اليسار ، حتى تستغرق معظم الدخل ، وإذا كنا اليوم نرى موازين المجتمعات الإسلامية قد اختلت ، وفسدت أحوالها إلى حد بعيد . فإنما جاء ذلك نتيجة لهجر النظام الإسلامى العام . من الحكام والمحكومين ، « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين

نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا » « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

تجزئة الملكيات : قلت إن الإسلام يشجع الملكيات الصغيرة ، ويعمل على تكثيرها بما وضعه من نظام لتمليك الفقراء ، وتمشيا مع هذا المبدأ جاء نظره إلى التوريث ، فلم يجعل مال الرجل الميت ، وقفا على الذكور فحسب ، ولا على الذكر البكر فحسب . كما فى غيره من الشرائع ، ولكنه عمد إلى تجزئة التركة ، وتقسيمها إلى سهام أشرك فيها الأصول والفروع ، وهو نظام فذ لتجزئة الملكيات عن رضا واختيار ، وقد ورث كلا الزوجين من صاحبه ، وقد يكون الزوج أو الزوجة من أسرة أجنبية عن عائلة المورث وفى مكان سحيق عن مكانها ، وبذلك تنقل الملكية من أسرة إلى أسرة بلا اعتراض أو تردد ، وفى هذا حد من شرور تضخم الملكيات ، الذى يؤدى غالبا إلى انحطاط مستوى المعيشة بين أغلبية السكان ، ويساعد على ارتفاع الأسعار ، وقيام نظم الاحتكار ، هذا فإذا لم يكن للميت وارث ورثته الدولة ، وهكذا ترث الجماعة الإسلامية الفرد ، وتساهم بما ترثه عنه فى عمليات التمليك التى تقوم بها بواسطة الموارد السابقة ، كذلك أباح الإسلام الوصية بثلث المال لغير الورثة ، كما شرع الوقف على مصالح المسلمين العامة ، وفى هذا مجال كبير لاخلاص المؤمن الذى يرجو الله والدار الآخرة .

بهذا الذى قدمته لك ياسيدى . يضمن الإسلام أمن المجتمع واستقراره ، فهو يقر الملكية الفردية ، ليرضى فطرة الإنسان ويدفعه إلى النشاط والعمل ، ثم يضع موازين لحفظ التوازن ، الأمن بما شرعه وسيلة للتمليك وتوزيع الملكيات ، أو تجزئة الملكيات ، ليعيش الغنى والفقير جنباً إلى جنب أحبة متوادين ، لا متربصين حانقين أو حاقدين . وليس هنالك حل لمشكلة الفقر والغنى إلا بتطبيق هذا النظام بدقة وجدية ، ولا سبيل إلى أمن المجتمع واستقراره ، إلا بمسالمة الفقير وقناعته ، ولن يسالم حتى يعطى حقه تحت لواء الإسلام ، لهذا فليسلم المسلمون من جديد « فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل . فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

البابية والبهائية

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

— ٢ —

ليس المهدى المنتظر إنسانا « ما » تأتى به المصادفة ، وإنما هو شخص مقدر ظهوره ، يجب أن تتوافر فيه شروط خاصة وصفات معينة وعلامات مميزة ، وبهذه كلها يمكننا أن نعرفه ، وأن نتبينه ، أما أهم هذه الصفات فهى كونه (١) معلما للإنسانية ، (٢) وتعاليمه عامة ، (٣) وعلمه فطرى إشراقى غير مكتسب ، (٤) لا يقف أمام مشكلة ولا يستعصى عليه الرد على سؤال ، (٥) كما أنه سيواجه صعابا شتى وآلاما جمة يتحملها فى صبر وسكون ، (٦) تساعده قوة شخصيته ونفاذ كلمته وقوة إيمانه ، (٧) عاملا على توحيد الدين ، حاملا للواء السلام ، ورمزا لأنبل الفضائل البشرية وأسماها .

هذه أهم الصفات التى أعلنها الشيخ الإحسائى [1] ، وزاد عليها أن الرسالة الجديدة — رسالة المهدى المنتظر — ستكون مزدوجة . ومات الشيخ وهو فى طريقه الى مكة سنة ١٢٤٢ هـ [١٨٢٦ م] ودفن بالبقيع .

وخلف الشيخ بعد موته السيد كاظم الرشتى ، ولد ببلدة رشت سنة ١٢٠٥ هـ ، ودرس على الشيخ الإحسائى ، فكان أنبغ تلامذته ، فلم يكن غريبا أن يوصى به خليفة له ، وتولى التدريس والمحاضرة مكانه . وكان يتحفظ فى حديثه ، مرددا قول الامام جعفر الصادق : « ما كل مايعلم يقال ، ولا كل ما يقال حان وقته ، ولا كل ماحان وقته حضر أهله » . وكتب فى أحد كتبه : « الحمد لله الذى طرز ديباج الكينونة بسر البينونة ، بطراز النقطة البارزة عنها الهاء بالألف ، بلا أشباع ولا انشقاق » .

وقد أول البهائيون هذا القول تأويلين : الأول المعنى المستخرج منه كلمة « بهاء » وهى — كما يزعمون — بيت القصيد ، والمغزى الوحيد للمؤلف ، والتى صرح بها فى موضع آخر من نفس الكتاب ، مستدلا بكلام الإمام الباقر : « الباء بهاء الله » .

---

(١) سنرى الى أى حد حاول البابيون تطبيق هذه الصفات على الباب .

أما التأويل الثانى فهو أن الحروف الثلاثة تشير الى أشخاص ثلاثة مقدسة هم النقطة الأولى ، وجمال الأبهى ثم عبد البهاء . وقد مات الرشتى عام ١٨٤٣ م .

انقسم أتباع الرشتى بعد موته فريقين : فريق استمر فى الدرس والتحصيل ، وفريق جاب البلاد يبحث عن المهدى المنتظر . كان على رأس الفريق الأول سيدة يقال لها أم سلمى ، ولقبها الرشتى بقرة العين ، ثم لقبها الباب فيما بعد — حين شاعت عنها الشائعات — بالطاهرة . أما الفريق الثانى فقد رأسه ملا حسين البشروئى وهو المعروف بباب الباب . انطلق هذا الفريق الثانى نحو الكوفة وقضى بمسجدها أربعين يوما فى الصلاة والعبادة والتضرع الى الله ليرسل المهدى المنتظر ، ثم أخذوا يطوفون بالقرى والمدن حتى انتهوا الى مدينة شيراز .

وفى شيراز لقى البشروئى شابا فى الخامسة والعشرين ، الميرزا محمد على ، أعلن له أنه هو المهدى المنتظر ، ودعاه الى الإيمان به فآمن البشروئى ! ! ودعا الناس الى الإيمان به ! ! وكان ذلك فى ٢٣ مايو سنة ١٨٤٤ م .

أما ميرزا محمد على ، فقد ولد بمدينة شيراز سنة ١٨١٩ ، من عائلة تنتهى فى نسبها الى الحسين ، توفى والده وهو صغير فكفله خاله ، وهو تاجر ، فاشتغل المرزا محمد على بالتجارة معه ، وتلقى علوما أولية فى كتاب الشيخ عابد ، واشتغل فوق ذلك بالعبادة والرياضة وتسخير روحانيات الكواكب ، حتى كان يقضى النهار كله تحت أشعة الشمس المحرقة تاليا للاوراد، منهمكا فى الأذكار . وحين بلغ الخامسة والعشرين زاره البشروئى ، كما سبق ، فأعلن المرزا محمد على أنه هو المهدى المنتظر ، ومنذ ذلك الوقت عرف بأسماء مختلفة منها : سيد الذكر ، باب الله ، النقطة الأولى ، طلعة الأعلى ، ولكنه اشتهر باسم : الباب .

كان البشروئى هو أول من « آمن » بالباب ، ثم تبعه آخرون ، بلغ مجموعهم ثمانية عشر شخصا ، عرفوا — مع الباب — باسم « حروف الحى » وكان ١٧ منهم يقيمون بشيراز ، أما الثامنة عشر ، فهى قرة العين ، وكانت تقيم فى كربلاء .

أراد الباب أن يذيع « رسالته » فوجد أن فى موسم الحج بمكة فرصة كبيرة نظرا لاجتماع عدد عظيم من الخلق للحج ، فتوجه نحوها ، ويقول البابيون إنه دخل مكة ووقف فى الناس خطيبا « أنا القائم الذى كنتم به تنتظرون » . ولكن رواية

أخرى تؤكد أن الباب لم يطأ الأرض المقدسة بقدمه ، ولم يدنسها بدعوته الكافرة فإن المركب الذى كان به غرق ، ولكنه نجا ولما يتم رحلته .

ومهما يكن من أمر ، فإن خبره ذاع ، ولم يصدق أهل السنة أمره ، إذ كانوا يرون فى الشيعة قوما لا أثر للحقائق الدينية فى معتقدهم الذى بنى على الوهم والخيال الأمر الذى يجعل قيام المهدى من بينهم مستحيلا .

أما علماء الشيعة فقد رأوا فى ذلك فتنة ، فحضوا عامل شيراز على وأدها فى مهدها ، فأمر بإحضار الباب وهدده ، وأخذ على خاله المواثيق بأن يجعله يعتزل الناس ، وأمر الباب بالصعود إلى المنبر وإنكار دعوته ففعل . ولم يبر الباب بوعده بل أخذ يتصل بالناس سرا ، كما انتشر « حروف الحى » يدعون لأمره ، وظل الباب بشيراز كالسجين ، حتى حل بها وباء ، فتركها أهلها خوفا وجزعا ، وخرج الباب منها إلى أصفهان حيث كان يحكمها حاكم أرمنى اسمه « منوجهر خان » أوى الباب وآمن به ، ولكنه لم يلبث حتى مات بعد أربعين يوما ، ففقد الباب بفقده ناصرا وحاميا . ثم نقل الباب من أصفهان إلى تبريز ثم إلى سجن قلعة ماكو حيث قضى به تسعه أشهر ، ثم نقل منه إلى قلعة جهريق واستقدم منها إلى تبريز حيث مثل أمام لجنة من العلماء انتهت إلى تكفيره ، فجلد أمام الناس ثم سجن ثانيا . وأخذت فتوى من العلماء بقتله ، فعلق هو وأحد أتباعه ، وأطلق عليهما الرصاص فلم يصبهما أول مرة ، ولكن ما لبث رصاص فرقة أخرى من الجند حتى مزق جسديهما فى صباح يوم ٩ يولية سنة ١٨٥٠ واختطف البابيون الجثتين ، ودفنت جثة الباب على سفح جبل الكرمل بجوار حيفا ، وإن كانت توجد رواية قوية تؤكد أن الجثتين قد أكلتهما السباع .

وقد أخذ الباب اسمه من الحديث الشريف : « أنا مدينة العلم ، وعلى بابها » . والمراد بكلمة باب فى هذه الدعوة المزعومة كان : أولا أنه الواسطة بين « المنتظر » وبين الخلق ، كما ظن أنه يبشر بظهور محمد بن حسن العسكرى ، أو المهدى ، حسب اصطلاحى السنة والشيعة ، ثم أعلن أن « الرسالة » التى « كلف » الله بها الباب ، فى زعمهم ، كانت أن يعد الطريق ويفتح قلوب الناس لمن سيأتى بعده .

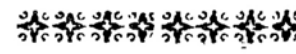
وكتب الباب عدة كتب أهمها « البيان » و « تفسيرات لبعض سور القرآن » وعدد من « الألواح » ، وقد حاول فى كتاباته أن ينهج نهج القرآن الكريم ، ومن كتاباته :

« بسم الله الأبهى الأبهى . بالله البهى البهى . الله لا إله إلا هو الأبهى البهى . الله لا إله إلا هو المبتهى المبتهى . . . وإن هؤلاء لا يتبعون ، وإن اتبعونى لآمنوا بموسى قبل عيسى ثم بمحمد بعد عيسى ثم بنقطة البيان يوم القيامة ثم بمن يظهره الله ، ثم إلى ما شاء الله أن يعرفن عباده نفسه على أنه لا إله إلا أنا المهيمن القيوم » .

وفى هذا النص نجد القول بتتابع الرسل ، وعدم انتهاء عصر النبوة ، وسنعرض له فيما بعد .

وحين عرف الباب بدنو نهايته ، أخذ يرتب كتاب البيان ، فكتبه من تسعة عشر فصلا ، ينتظم كل فصل تسعة عشر بابا ، وكتب منه ثمانية فصول كاملة ، وفصلا واحدا من الباب التاسع ، وترك باقى الكتاب ليكتبه « من يظهره الله » ، وقد تناول الباب فى كتابه نظريات اعتقادية ومشكلات أصولية ، ستتكلم عنها فيما بعد .

وقد أطلقت على كتابات الباب اسم التوقيعات ، والتوقيع فى الأصل هو الخطاب الذى يعزى لصاحب الزمان وحجة الوقت ، ثم تطور فصار هو كتابات النواب الأربعة عن الإمام الحى الغائب ، وكانت التوقيعات مقدسة واجبة الطاعة . وانتهت التوقيعات إلى أن صارت كتابات الباب ! !



يردد الشيعة وقت السحر ، فى شهر رمضان دعاء يقولون فيه : « اللهم إنى أسألك من بهائك بأبهاه ، وكل بهائك بهى » ، ومن هذا الدعاء اتخذ « الميرزا حسين على بن الميرزا عباس بزرج النورى » من بلدة مازندران - اسمه . وقد ولد فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٧ [١٢٣٣ هـ] فى طهران ، وكان أبوه يشغل مركزا هاما فى بلاد الشاه ، وتلقى الميرزا حسين العلوم المتداولة فى ذلك العصر ، غير أنه كلف بالتصوف ، فأكثر من مخالطة الصوفية ، حتى أصبح معدودا من كبارهم . وقد التقى بالباب لأول مرة بين مدينتى قم وقزوين ، والباب مساق إلى قلعة جهريق ، فآمن به الميرزا حسين على ، الذى عرف بعد ذلك باسم « البهاء » .

وقبض عليه بعد مقتل الباب ، وزج به فى السجن ، ويقول البهاء إن « الوحى » جاءه فى السجن : أنه هو « من يظهره الله » ، أى أنه هو من بشر به الباب . ثم نفى البهاء إلى بغداد ، وفيها انقسم البابيون الى قسمين : قسم مع البهاء ، وقسم مع « صبح الأزل » وهو أخ غير شقيق للبهاء ، دعا لنفسه كخليفة للباب أيضا .

وإلى المقال التالى لنروى قصة الخلاف ، ونكمل الحديث .

المادية حرب على الأديان

للأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

المادية أخطر المذاهب الحديثة ، وأشدها حربا لفكرة التدين فى الانسان ، ولفطرة العقيدة التى فطر الله البشر عليها ، وقد شنّ دعاتها فى الغرب الحرب على الأديان : وأقاموا حكومات تؤيد مذهبهم الالحادى ، وتحمل الناس عليه بقوة القانون ، وتطارد دعاة الأديان والمؤمنين بها أينما كانوا .

والمادية فى جملتها تذهب إلى أن المادة فى كافة صورها هى المؤثرة فى كل شىء وإلى أنها فى الوجود أسبق ، وأن لها « لا للمعنويّات » القدح المعلى فى مصائر الشعوب والانسانية .

وكان للمادية دعاتها فى القديم ؛ وممن آمن بها الفلاسفة « هير قليطس » ، وليوسيس ، وديمقريطس . . وممن دعا إليها فى الحديث : بيكون ، وهوبز ؛ وقد ذهب الأخير إلى أن المادة والحركة هما وحدهما الحقيقتان المطلقتان ، وأن المعرفة الانسانية تأتى عن طريق الاحساس ، وقد أيده فى ذلك تولاند الذى رأى أن المادة هى القوة ، والحركة والحياة والعقل بعض خواصها ، وأن التفكير هو وظيفة العقل . وكذلك نهج بريستلى ، وهارتلى ، وداروِن ، وبلا ما ترى ، وسواهم ممن استغنوا عن الروح واطرحوها وفسروا الحياة تفسيرا ميكانيكيا ماديا محضا . وألف « بختر » كتابه « القوة والمادة » ، الذى ظل حينا دعامة المذهب المادى [١] . وأعظم الماديين هو كارل ماركس اليهودى المادى المتطرف ، وقدورث الروح المادى عن أستاذه انجلز الذى كان يقول : « إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الأدراك والتفكير إلا نتاجا

---

(١) راجع ص ٢٦ وما بعدها من كتاب نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨

لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ؛ فليست المادة من إنتاج العقل ، بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة . وتفسير ماركس للمادية هو الأساس الأول الذى يبنى عليه الشيوعيون مذهبهم ؛ فنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية ، خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه ؛ والمادة تأتى فى الصدارة ، ويتلوها العقل . ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لها السيادة على الحياة الروحية التى هى انعكاس للمادة ؛ كما يقرران أن العالم بطبيعته مادى ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وأن ارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة (١) . وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله وكان إنجلز يرجع كل شىء حتى الدين ، والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية (٢) ، ويفسر هو وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيرا ماديا ، وهذا التفسير الاقتصادى للتاريخ ينكر الدين ، وكان ماركس شيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين بالمحسوسات ، ويؤثر عنه قوله : « لا إله والحياة مادة » ، وقوله : « الدين مخدر الشعوب » ، وقوله : « رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين والداعين إليه » . وكان « هوبز » يقول : « إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا . فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئا عن وجود الله ؛ ووجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه » . وكان بها إنجلز يقول : « لا محل مطلقا لوجود خالق » (٣) .

كل هذا قطرة من بحر من آراء الماديين فى إنكار الروحيات ، وجحد وجود الله ، ونبذ فكرة الدين ، وحربهم الخطرة على الأديان .

---

(١) راجع ٨٣ المذاهب السياسية المعاصرة ، ١٤٣ الدستور السوفيتى ، ٥٢ الشيوعية فى الميزان .

(٢) راجع ٣٠ و ٣١ الدستور السوفيتى - طبع النهضة ١٩٤٩ .

(٣) ١٧ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية لفردريك إنجلز .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادى على ضلال مبين ، وهو لا يحارب بآرائه الإسلام وحده ، وإنما يشرك معه جميع الأديان . والذين يؤمنون بهذا الإلحاد هم فى رأى الإسلام مرتدون ، يقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله وإلى الحق .

إن الدين عنصر من العناصر التى لا تتم الحياة بدونها ؛ وهو رسالة الله إلى الإنسانية ، حملها الأنبياء والمرسلون ، وأدُّوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة . . والفلاسفة والمفكرون الذين لهم خطرهم فى الحياة الفكرية فى العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة إلى فكرة الدين والإيمان بالله ورسله ؛ وكان تولستوى يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة » ، ويقول : « إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد . عش باحثا عن الله وإذًا فلن تعيش بدونه ، وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخلقى وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة » .

ويقول شوبنهور : « إن فكرة الإله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ؛ وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة البقاء بغيرها » . ويقول رينان : « من الممكن أن يتلاشى كل شىء نحبه إلا التدين ، فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى » ، ويثبت « كريسى موريسون » الرئيس السابق لأكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتابه « الإنسان ليس وحيدا » وجود الله بأدلة علمية لا تقبل الجدل ، وينتهى إلى أن الله فى كل مكان وكل شىء ولكنه أدنى ما يكون إلى قلوبنا ، وأن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعا [١] وأكد عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ، ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى

---

(١) راجع مجلة المختار عدد فبراير ١٩٤٧ - مقالة عنوانها : « سبعة أسباب لايمان عالم بالله » .

لا حد له ، ويقول الدكتور « راين » إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل أن فى الجسم البشرى روحا أو جسما آخر غير منظور ، وقال عالم آخر إنه لا يشك فى أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الأديان السماوية « الله » هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود [1] .

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمداً والرسل قبله صادقون فيما يحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان ، وأن علينا واجب الإيمان بها وبخاتمة هذه الرسالات وهى « دين الإسلام » ، وبالكتاب الخالد « القرآن » معجزة هذه الرسالة .

وصدق الله العظيم فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ » .

كلمات بليغة مأثورة

مدح خالد بن صفوان رجلا فقال . فريع المنطق . جذل الألفاظ . عربى اللسان . قليل الحركات حسن الإشارات ، حلو الشمائل . كثير الطلاوة . صموت قؤول . لم يكن بالبرم فى مروءته ولا بالهذر فى منطقه . متبوع غير تابع ، كأنه علم فى رأسه نار .

ودخل سهل بن هرون على الرشيد . فوجده يضاحك ابنه المأمون . فقال : اللهم زده من الخيرات ، وابسط له فى البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه . مقصرا على غده فقال له الرشيد . يا سهل . من روى من الشعر أحسنه وأجوده . ومن الحديث أصحه وأبلغه ، ومن البيان أفصحه وأوضحه . إذا رام أن يقول لم يعجزه . فقال سهل يا أمير المؤمنين ما ظننت أحدا تقدمنى الى هذا المعنى . فقال هرون . بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتك أمس خير بنى لؤى وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذلك تزيد سادة عبد شمس

---

(١) راجع عدد ٢٣ / ٨ / ١٩٥١ من جريدة المصرى الغراء .

المسلمون والتصوير

للأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس فى الآداب ـ دبلوم فى الآثار

— ٤ —

آثار القول بتحريم التصوير :

لا جدال فى أن الفن الإسلامى قد تأثر بأقوال الفقهاء عن حرمة التصوير ، كما حالت تلك الأقوال دون حرية الفنان فى عمل الصور الآدمية والحيوانية ، وبدا على ما رسمه منها الجمود والجفاف والبعد عن محاكاة الطبيعة .

غير أن الطاقة الفنية عند الفنان المسلم تحولت إلى موضوعات زخرفية قوامها الرسوم النباتية والهندسية وبرع المسلمون فى هذين النوعين من الزخرفة وزينوا بهما المساجد والقصور والثياب والستور والأثاث والمخطوطات والمصاحف وكل ما صنعه المسلمون مما يحتاج إلى زخرفة ، وانتشرت تلك الزخارف فى جميع العالم الإسلامى وعرفها الغربيون عنهم ونسبوها إلى مبدعيها العرب وسموها « الأرابسك » .

وكان من نتائج انصراف غالبية الفنانين عن رسم الصور الآدمية والحيوانية بسبب القول بالتحريم ، أن اتسم ما أنتجه المسلمون من هذين النوعين بالضعف أو المسخ لانعدام الخبرة الطويلة والدراسة الصحيحة للموضوع المرسوم .

ولكن الفقهاء الذين وضعوا بأقوالهم من شأن الصور والمصورين ، رفعوا بأقوالهم أيضا من شأن الخط والخطاطين ، ولم يعوزهم دليل على ذلك لأن الخطاطين هم الذين يسطرون كلمات الله وآياته البينات . ولأن الله قد أقسم فى كتابه العزيز بالقلم ، ولأنه قد علم بالقلم ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح الخط .

وقال عنه إنه مفتاح من مفاتيح الرزق .

وهذه الأقوال المأثورة عن فضل الخط الحسن وكاتبيه جعلت لأهله شأنا عظيما وقربتهم من الملوك والأمراء، وتنافس هؤلاء فى جمع نتف من خطوطهم، واستخدموهم فى زخرفة القصور والمساجد وغيرها بأنواع الخط الجميل، كما اهتم الكتاب بالترجمة لهم والكتابة عن فنهم، وعن الأعلام منهم أمثال ابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصمى وغيرهم. وبينما ندرت إمضاءات الفنانين على ما أنتجوه من تحف وآثار، فإن إمضاءات الخطاطين كانت تذيل جميع ما كتبوا لأنهم أدركوا من مجتمعهم الإسلامى أنهم يقومون بعمل كريم مشرف مرضى عنه من الله والناس، على عكس إخوانهم المصورين.

مزاولة المسلمين للتصوير :

ولسائل أن يسأل : وهل أدى القول بتحريم التصوير إلى عزوف المسلمين عن ذلك الفن، واستجابتهم التامة إلى أقوال الفقهاء ؟ ونجيب على ذلك من واقع التاريخ وقائم الآثار بما يدل على أن الاستجابة لأقوال الفقهاء بتحريم التصوير لم تكن صادقة ولا قوية.

وإنما زاولها العارفون بها فى غير تحرج ولا خوف، لأن انتاجهم الفنى نال ما يستحقه من تقدير الناس وعلى رأسهم أولى الأمر، بل كثيراً ما جند خلفاء المسلمين وأمراؤهم الصناع والفنانين لعمل الصور والتماثيل ليزينوا بها قصورهم وحدائقهم وأماكن لهوهم. ونحن إذا عرضنا الآن أمثلة مما أنتجه الفنانون المسلمون من الصور والتماثيل فى مختلف العصور والبلدان، فإننا لا نقصد أن نتخذ من ذلك الدليل على حل التصوير واباحته، وإنما نسوق تلك الأدلة لنظهر أن إيمان المسلمين بأقوال الفقهاء عن حرمة التصوير لم يأخذ مكانه من قلوب المسلمين، حيث لم يكن لتلك الأقوال ما يؤيدها من نص منقول أو برهان معقول ونورد فيما يلى أمثلة لما صنعه الفنانون المسلمون، أو لما صنع لبعض سادتهم وأمرائهم منذ فجر الإسلام.

١ — يبدو من الرسوم التى تزين «قصير عمرة» الذى ينسب إلى الوليد الأول [٩٢ - ٩٦ هـ]، أن المسلمين السابقين لم يفزعوا من التصاوير، بدليل أن الفنانين

قد زينوا ذلك القصر الصغير - الذى كان بمثابة استراحة صحراوية للخليفة وبعض رجال حاشيته - بكثير من الصور الآدمية ، بل بصور راقصات ونساء عاريات .

٢ — يظهر من رسوم واجهة « قصر المشتى » - الذى يختلف حول نسبته ليزيد الثانى أو الوليد الأموى الثانى - أنها تضم صوراً آدمية وحيوانية ، وهذه الصور إما أن تكون رسمت مخالفة للدين ، وهذا ما نستبعده من خلفاء المسلمين الأول ، وأما أن تكون رسمت حيث لم يكن لديهم نص واضح يمنع من عملها لكراهية أو تحريم . ونعتقد أنه لو كان القول بالتحريم موجوداً لمنع المشرفون على ذلك العمل الفنانين من رسم كل ذى روح لحرمته .

٣ — وضع أبو جعفر المنصور تمثال فارس ذى رمح على صهوة جواد فوق قبة قصره الجديد بعاصمته بغداد ، فهل يا ترى كان أبو جعفر جريئا على الدين أم أن أسطورة « التحريم » لم تكن قد ظهرت للوجود ؟! نعتقد أيضاً أن أبا جعفر لو عرف أو وجد ما يدل عل التحريم ، لعطل استخدام ذلك التمثال ، ولمنع من تزيين قبة قصره به ، لا سيا ونحن نعلم أن عصر أبا جعفر كان حافلا بأعلام الفقهاء وفى مقدمتهم أبو حنيفة .

٤ — والذى يستعرض كتاب « التصوير عند العرب لتيمور باشا » [نشره الدكتور زكى محمد حسن بك] يرى أن المسلمين رسموا الصور وصنعوا التماثيل وزينوا بها البسط والأثاث والأقداح والكؤس والبنود والأعلام ، وزاولوها على الخشب والحجر ، والزجاج والسلاح والعاج والنحاس والخزف والجص ، وسائر المواد الأخرى . ولا يسمح المجال هنا بإعطاء ثبت بكل أو ببعض ما صُنع لخلفاء المسلمين وأمرائهم وعامتهم من الصور والتماثيل التى زوقوا بها كافة ما استخدموه فى حياتهم العملية ، ولكننا نحيل القارىء على كتب التاريخ والآثار وسوف يعلم منها ما صنع لخلفاء الأمويين بقصورهم بصحراء الشام ، وما صنع لخلفاء العباسيين من تحف وطرائف ، وما صنع لخلفاء الفاطميين على أيدى مصورى عصرهم أمثال : القصير ، وابن عزيز ، وبنى العلم ، وغيرهم ، وما صنع لخلفاء الأندلسيين ، أمثال قصر الحمراء ، وما تزينت به قصور أمرائهم من تماثيل الطيور والفيلة والسباع ، نعم سيعلم القارىء من كتب التاريخ والآثار أن المسلمين مارسوا

على مر السنين وفى مختلف البلدان ، ما يقول الفقهاء بحرمته ، فهل خرج جميع المسلمين على أصول دينهم ، أم أنهم فهموا من النصوص الموجودة غير ما فهمه الفقهاء فى العصور المتأخرة !؟ يخيل لى أن عامة المسلمين عاشوا بمعزل عن أقوال أو سروح فقهاء المسلمين ، لأن هؤلاء الفقهاء جمدوا عند النص ، فى حين اضطر المسلمون إلى الحركة ، خاضعين فى ذلك لقانون الحياة العام الذى يجرف من لا يسايره .

الشيخ محمد عبده والتصوير :

نسجل هنا رأى علم من أعلام الإسلام فى العصر الحديث ، وإمام مشهود له بالعلم والاستقامة ، وأزهرى مستنير واسع الثقافة هو المرحوم خالد الذكر الإمام الشيخ محمد عبده ؛ قال رأيه هذا بمناسبة زيارته لأحد متاحف صقلية وجاء فيه :

« إذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر وضبطه فى دواوينه ، والمبالغة فى تحريره ، خصوصا شعر الجاهلية ، وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات والرسوم (والتماثيل) فإن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولايرى ، إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيآت والأحوال البشرية . لحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها . إن كنت فهمت من هذا شيئاً فذلك بغيتى ، أما إذا لم تفهم فليس عندى وقت لتفهيمك بأطول من هذا . وربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهى : ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية ، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية ، وأوضاعهم الجسمانية ، هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ .. فأقول لك إن الرسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان » .

وفى هذا المقال الذى أعلن فيه الإمام الشيخ محمد عبده عن رأيه فى موضوع التصوير ، عرض كذلك لمناقشة بعض النصوص الواردة فى التحريم ، وتناول بالشرح والتعليق حديث : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » فقال :

« إن الحديث قد جاء فى أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العصر لسببين : الأول اللهو ، والثانى التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين ، والثانى مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به . فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر ... ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فإنى أظن أنه يقول لك أن لسانك أيضا مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ !

وبالجملة إنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين ، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل .

هذا هو رأى الأستاذ الإمام وهو فهم واضح لمعنى الإيمان وإدراك قوى لمقتضيات الأحوال ، وهو ما فطن إليه المستنيرون السابقون من المسلمين . ولا شك أن أحدا لا يقدر أن يتهم السلف الصالح بأنه كان متهاونا بأحكام دينه أو مستخفا بعقيدة الإسلام حين عمد إلى عمل الصور والتماثيل لتزيين كل ما أبدعته يد الإنسان . وإن المخطوطات العربية المصورة التى تزخر بها دور الكتب فى العالم دليل — يضاف إلى سابق ما ذكرناه من أدلة — على أن المسلمين قد زاولوا هذا الفن دون حرج أو خوف ؛ ولم يدر بخلدهم مضاهاة خلق الله ، عنادا أو مكابرة ، ولم يتطرق إلى نفوسهم أنهم يصنعون بأيديهم صوراً أو تماثيل تعبد من دون الله ، وإنما رسموا ما رسموا لأنهم أدركوا أن الدولة الإسلامية إنما تستكمل مقومات حضارتها بالإسهام فى ميدان الصناعة والفن ، فأعلوا البناء وأبدعوا التحف وزوقوا الكتب وسخروا ذلك كله لخدمة الدين . وقد تخلف عما أبدعته أيديهم تراث حضارى ضخم أصبح هو والعقيدة الإسلامية شيئين متلازمين ، وساعد كل منهما الآخر على التوسع والانتشار ، فهل يصح أن يأتى شخص منا الآن فيناقش ما ثبت نفعه على مر العصور وما لم يظهر منه أدنى خطر على العقيدة ؟ !

أعتقد أن السابقين من أهل الإسلام كانوا أوسع فهما لمعنى الإسلام من متأخرى المسلمين وإن فهمهم العلمى لمنطق الحياة هو سر نجاحهم وسيادتهم . [يتبع]

موازين الأقلام

للأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر

عندما نتلفت إلى ماضى الأدب العربى ، ونقف على مفاخر القرائح التى أقامت معالم خالدة فى متايه التراث الفنى الزاخر بالألوان النفسية ، والظلال البيانية ، والزخرف المجمل من محسن معنوى ، أو طلاء لفظى ، نجد القدامى على سبق ربما أعجز المحدثين أو أسلمهم إلى التسليم ، حتى إذا طالبناهم بالاقتداء وحسن المتابعة ، لاذوا باعتذار العاجز ، وحجة المتخلف القاعد عن التدبر والتحصيل

ولن يعدم المحدث أن يقول : صناعة خلت أيامها ثم يتعلل بمطالب العصر من سرعة إلى يسر ؛ إلى إفهام ، إلى تخفف من أعباء البلاغة المغرقة فى الاستجابة ، إلى قوة البداوة (الأموية) أو الحضارة (العباسية) .

ولو أنصفنا واقع عجزنا لقلنا — معترفين — إن تقصير الأديب فى المحصول ، وتهالك الأقلام على سرعة الشهرة ، وخضوع الكتاب لعامية القراء الذهنية وضيقنا بتكاليف التمرس ، وعناء المحاولة ؛ كل أولئك وغير أولئك مما نعرف ، ونمسك عن التصريح به حياء أو كبرا — أليهم يرد سر الإباق من ميادين وضعت لها الموازين الحقة لفن القلم من رسالة أو مقامة ، أو مقالة أو أقصوصة ، وغير ذلك من صور التعبير عن الخوالج الإنسانية فى القديم المعرق فى القدم ، أو الجديد الممسك بعصم الأبداع العربى الطواف حول العمود البلاغى الموروث والمكتسب .

وسوف تثوب الأقلام — ونراه قريبا — إلى رشدها ضنا بجهدها ، وحرصا من أصحابها على أن تترك أثراً يدنيها من الخلود ؛ وإلا كانت كالتى نقضت غزلها وماتت آثارها القلمية قبل أن يخرج صاحبها من حياته الدنيوية المحدودة بعمر مهما طال أمده ، فهو أقصر من عمر الظل .

وإنى لرائح بك إلى صيرفى خلاق ، وناقد مفتن دبر وأدار الرأى فى صنعة القلم ، إبّان العصر الذهبى العباسى ، ذلك هو « ابن المدبر » صاحب الرسالة العذراء التى وصفها — فى كثير من الاعتداد — بأنها بكر معان لم تفترعها بلاغة الناطقين ، ولا لمستها أكف المفوهين ، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين ، ثم طلب أن تكون مثالا ومصورة ومسامرة فى ليل الكاتب ونهاره .

فإذا قلبت مطارح ميزانه ، وجدت الكاتب المستحق اسم الكتابة ، والبليغ المحكوم له بالبلاغة « من إذا حاول صيغة كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها ، وظهرت من معادنها ، وندرت من مواطنها عن غير استكراه ، ولا اغتصاب » .

ومن كان على هذا المهيع عد فى الصفوف التى نالت إعجاب « الجاحظ » : « ما رأيت قوما أمثل طريقة فى البلاغة من هؤلاء الكتاب فأنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا » وقال خالد بن صفوان « أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلى كلام ، وأحسنه ما لم يكن بالبدوى المغرب ، ولا القروى المخدج ، الذى صحت مبانيه ، وحسنت معانيه ، ودار على ألسن القائلين ، وخف على آذان السامعين ، ويزداد حسنا على مر السنين بتجلية الرواة وتنقية السراة » .

وصاحب العذراء يحذرنا مزالق التهجم والعجب مما يدفع الشداة فى الصناعة القلمية ويدعوا الذى منى بحب الكتابة وصناعتها ، إلى أن يعرض نتاجه على البلغاء والشعراء والخطباء ، ممزوجاً بغيره ، فإن طلب ، كان له أن يكشف عن نفسه ، وإن رأى القلوب ذاهبة عنه استدل به على التخلف والتقاصر عن أهل الأدب والبلاغة وصناع الجمال الخالد .

ووصاة (ابن المدبر) للمحاولين والمزاولين يزجيها مشرقة صريحة (إن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب ، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت ، وعاير الكلمة بمعياره إذا سنحت إلى أن يقول : وأدر الألفاظ على أعكانها وأعرضها على معانيها ، وقلبها على جميع وجوهها . ولا تجعل اللفظة قلقة فى موضعها نافرة عن مكانها) .

وإنه بذلك يتحاشى النسج المهجن ، كما يتجنب الثوب المرّقعْ .

وصاحب العذراء مع غيره فى أسس الصناعة التى لا تقوم بدونها ، مهما كان استعداد رب الموهبة .

من ذلك ، تصفح فن المتقدمين ، ونوادر ما يستعان به ، يستوى الشعر والخبر والسير ، والسمر والمقامة ، والخطبة والمحاورة . وما توافد وترافد من الثقافات الداخلة على العرب .

وفى الطليعة بعد علوم الوسائل : التمهر فى نزع آى القرآن واجتلاب الأمثال ، واختراع الألفاظ الجزلة إلى غير هذا مما يحلى ويزين ثمرات اليراعة الفارعة البارعة بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة ، حلو الشمائل عذب الألفاظ ، دقيق الفهم ، حاذق الحس ، محنكا بالتجربة ، عالماً بحلال الكتاب والسنة وحرامهما ، مع براعة الأدب وتأليف الأوصاف .

والتفاوت فى العلاج البيانى على قدر المقامات والأوضاع التى يهدف إليها الكاتب مطلوب ابتداء « فلا يعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظاً جزلا لائقاً بمن كاتبته ، ومشابهاً لمن راسلته ، فإن الباسك المعنى ـ وإن شرف وصلح ـ لفظا مختلفاً عن قدر المكتوب إليه ، لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى وإخلال بقدره ، وظلم لحق المكتوب إليه ، ونقص مما يجب له » .

ولا خلاف على شرف القلم ، وإنما الخلاف على كيفية البلاغة ، ولسنا بصدد إحصاء الاتجاهات ، ولكننا مع خالد بن صفوان نؤثر موجز تعبيره (ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها إصابة المعنى والقرع بالحجة) .

وليس هنا مكان سرد المثل ، وجمع الآراء والأقوال ، لأن مرادنا التذكير بالموازين التى تعصم ولا تقيد ، وترتفع بالذوق دون أن ترد الخلاقين المبتكرين إلى نكسة التقليد .

وبحسبى أن نؤسس أدبنا المحدث من أول درس إنشائى على قوة من الماضى وتقوى من الأدب الرفيع ، لنتمكن من القضاء على الليونة والترهل والإسفاف ، والنزول بالتعبير عن الخوالج والآراء إلى درك هزيل يولد وجه النهار ، ويموت إذا مالت الشمس للغروب .

العــــربية

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

أستاذ بكلية اللغة العربية

العربية ، اسم كتاب ألفه المستشرق الألمانى : يوهان فيج ؛ وعرّبه الدكتور عبد الحليم النجار ، عضو البعثة الفهمية إلى المانيا ، وأحد مدرسى كلية الآداب فى جامعة فؤاد ، ومبعوث الأزهر إلى فرنسسكو .

وبنو النجار : الأستاذ محمد فى كلية اللغة العربية ، والدكتور عبد الحليم ؛ من القوى التى تعمل كثيرا ، ولا تتكلم كثيرا ، ولا قليلا . عرفت أولهما ، معرفة خلاط ومشاركة ، وزمالة ؛ فعرفت : نبالة الخلق ، وتواضع العلماء ، وإخلاص المؤمنين ، وأمانة الثقات الأثبات ، ورسوخ الجبال الراسيات .

وعرفت الآخر عن طريق الأول ، فعرفت الكثير ، فى الزمن اليسير ؛ وأدركت تشابه الغرارين ، وتماثل الشقيقين .

ولا غرو ؛ فأنهما ينزعان فى ذلك إلى عِرْق ؛ فلقد عرفت المغفور له والدهما الكريم : الشيخ على النجار من كبار علماء الأزهر ؛ وتلقيت عنه حاشية السمرقندية فى البيان ؛ وكان صورة مكبرة من ولديه ، لا يفترق عنهما ، إلا فى أنه ـ رحمه الله ـ كان حسن التقاطيع ، جميل العينين ، مليح الوجه ؛ فأما هذان ، فأنهما ـ ولا حياء فى الحق ـ من الخناشير !

* * *

وكتاب « العربية » يمتاز بأن مؤلفه ، قد نخل كتب العربية فى أرقى عصورها ، نخلا دقيقاً كل الدقيق ، ثم طرح الفضول والحواشى ، وأودع كتابه الجوهر المتخير ، واللباب المتنخل ! فإذا قرأته وكنت مطلعا ضليعا ، استذكرت كل ما درست ، وصححت كثيرا مما علمت ؛ وإذا قرأته خفيف الإلمام بكتب اللغة

العربية ، حملك حملا ، على المراجعة والدرس والبحث ؛ فهو ليس مؤلف عالم تنتهى غايته عند حدود كتابه ، ولكنه مؤلف سياسى واسع الأفق ، يضع البذرة موضع الشجرة ، والذرّة موضع الدرة ؛ ثم يترك للقارئ فرصة التنمية والاستكمال ؛ خدمة للعلم ، وتطلبا لإدراك الكمال .

* * *

والدكتور عبد الحليم النجار ، دل بهذا الكتاب على أنه ليس عالما حسب ، بل على أنه ـ مع ذلك ـ داهية أريب ! فموضوع الكتاب ، من صميم موضوعات اللغة العربية ؛ وتعريبه فى هـــذا العهد ، الذى كثر فيه الكلام حول اللغة بين المحافظين والمجددين ، يضع أمام الباحثين شهادة حاسمة من شاهد غير متهم ، لايسع المجمع اللغوى ولا غيره من مؤسسات اللغة ، استنكارها ، ولا الغض من شأنها . فالأمر ليس فى بدع اختيار الدكتور لتعريب هذا الكتاب بالذات ؛ بل إن انتهاز الفرصة فى إخراجه اليوم أبدع وأبرع . وقديماً قيل : اختيار الرجل قطعة من عقله . وإذا أضفنا إلى ما سبق ، أن الدكتور قد ترجم هـذا الكتاب ، ترجمة الدارس الهاضم المطمئن ، الذى تسعفه مُدّخراته اللغوية بكل ما يطلب ، ويجد ما يقوله فى كل موقف ، ولا يخفى على قارىء أنه مستكمل الأداة ـ أقول : إذا أضفنا هـذا إلى ما سبق ، عرفنا كيف مهد الدكتور عبد الحليم النجار لجلال مستقبله ، وأدركنا مدى الجهود التى بذلهـا ، فى مطلع هذا الأساس الرصين ، لذلك البناء الشامخ الرفيع إن شاء الله ! .

* * *

ولعل أهم ما عرض له هذا الكتاب ، ممـا لم أره فى غيره من كتب العربية : عربية ومعربة ، وكرره عند كل مناسبة :

صلة العربية بالإسلام :

فهو يقول فى مقدمته :

« لم يحدث حدث فى تاريخ اللغة العربية أبعد أثراً فى تقرير مصيرها من ظهور الاسلام ؛ ففى ذلك العهد ـ قبل أكثر من ١٣٠٠ عام ـ عند ما رتل محمد صلى الله

عليه وسلم القرآن على بنى وطنه بلسان عربى مبين ، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد ، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج فى مستقبل هذه اللغة » .

ويقول فى ص ٥٠ :

« لم تهوِ اللغة العربية فى هوة السقوط الذى حاق بالدولة العربية ، على الرغم من أن جزيرة العرب وسورية بالذات ، أى الأقليمين الوحيدين اللذين لم يكن اللسان العربى فيهما قلة تجاه ألسنة أصيلة الديار ، هما اللتان أصابهما هذا الانقلاب السياسى بشدة وطأته فى الصميم ، ولماذا لم تنزل عن المسرح مع طبقة السادة العرب الذين كانوا – حتى ذلك الوقت ، ولا يزالون ممسكين بزمام القيادة والتوجيه – لغتهم كذلك ؟ ربما كان سبب ذلك ، هو أن لغة القرآن قد صارت فى شعور كل مسلم ، أيا كانت لغته الأصلية ، جزءاً لا ينفصل من حقيقة الإسلام ، حتى إن الفرس الذين باشروا الحكم إذ ذاك ، لم يكونوا يستطيعون التفكير فى رفع إحدى اللهجات الإيرانية لتكون لغة الدولة ؛ بل حتى فى فارس ، كان يجب أن يمضى قرن بعد لتحتفل اللغة الحديثة للأدب الفارسى ببعث حياتها » .

ثم يقول فى ص ٢٠٩ :

« وإذا نسب إلى ابن محمود هذا – السلطان محمود ٥١١ – ٥٢٨ هـ – أنه كان جيد الدراية بالعربية ، فلا يقصد من ذلك إلا أنه تلقى تعليما مؤسساً ، لأن العربية قد حفظت مكانتها الفذة من حيث هى لغة القرآن ، والعبادة ، والفقه القانونى ؛ ووجدت من أثر السياسة الدينية الشديدة المحافظة ، التى سار عليها السلجوقيون عناية أكثر من أى عهد سابق » .

ثم يختم مطافه بهذه الأحكام الدامغة الحاسمة ، فيقول فى ص ٢٣٣ ، وهى آخر الكتاب :

« وقد ظهر أخيراً أثر آخر من آثار التأثر بالغرب ، حيث علت أصوات فى دوائر بعض دعاة الإصلاح فى مصر ، تنحى بالنقد على العربية الفصيحة نفسها ، وتتحدث عن صبغ التعليم اللغوى بصبغة جديدة ، توائم قواعد التربية اللغوية الحديثة .

وقد كان لزاماً على العربية الفصيحة أن تقضى على تلك الحركة؛ لا لأن انتصارها قد لا يبقى أثراً للنحو العربى، بل لما هو أهم من ذلك، وهو أن الحركة المذكورة تراعى اللهجة المحلية رعاية قوية، يتعسر، أو يتعذر معها استخدام اللغة الجديدة رباطاً عاماً لكل البلدان الناطقة بالعربية؛ وبهذا يمتد الإشكال، ويخرج من الدوائر اللغوية الضيقة، إلى دوائر الثقافة الإسلامية عامة.

وإن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمى أساسيا لهذه الحقيقة الثابتة: وهى أنها قد قامت فى جميع البلدان العربية، وما عداها من الأقاليم الداخلة فى المحيط الإسلامى، رمزا لغويا لوحدة عالم الإسلام فى الثقافة والمدنية.

ولقد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد، على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها الى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر.

وإذا صدقت البوادر، ولم تخطىء الدلائل، فستحتفظ أيضا بهذا المقام العتيد من حيث هى لغة المدنية الإسلامية ما بقيت هناك مدنية إسلامية »!.

* * *

ومن أهم ما عرض له كتاب « العربية » حجية القرآن الكريم، والحديث الشريف، فى أمور اللغة.

فهل يقول فى ص ٢٢٦ بعد كلام طويل:

« ويقال: إن أول من اعتمد على الأحاديث من حيث هى حجة فى أمور اللغة، هو النحوى ابن خروف الأندلسى الذى اختل فى آخر عمره، ومات فى حلب فى أوائل القرن السابع الهجرى، والذى نال شرحه على « الكتاب » لسيبويه، و « الجمل » للزجاج، حظوة كبيرة.

وتبعه فى ذلك أشهر نحاة القرن السابع: ابن مالك؛ وقد كان عظيم الاعتداد والاهتمام بالحديث؛ حتى إنه عاون « اليونينى » على تصحيح نسخة من البخارى، وألف مصنفا خاصا فى تفسير بعض النصوص الصعبة من الحديث. وهو يرى أن

القرآن هو أوثق المصادر وأصحها فى أمور اللغة ، وتجىء أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك مباشرة ، فى المرتبة الثانية ؛ على حين أن كلام البدويين من الأعراب فى المرتبة الثالثة » .

أقول : وقد سبق لى أن نشرت فى مجلة الأزهر رأيا يخالف هذا الرأى .

وفى الكتاب ، غير ما ذكرت ، ما لايؤديه بأمانة إلا الاطلاع والدرس ؛ ويسعدنى أنى قد اخترته فى مقدمة الكتب الثقافية لكلية اللغة العربية ، مُصاص الجامعة الأزهرية ، ودرة تاجها الكريم .

* * *

أما بعد ، فأنه يلذّ لى أن أساور الدكتور النجار : ذلك العملاق الجبار ؛ سوارا أكرمَ غاياته بى ، أن أعرّفه عن عِيان ، أنى درست كتابه ، من : تمهيد ، إلى : أبى نخيلة السعدى . أى من أول حرف لآخر حرف .

ذلك أنى فى أثناء قراءتى لكتابه الكريم ، وقفت عند المواضع الآتية :

ص ١٧ س ٤ — كانت توجد فى البصرة جالية .
وحذف « توجد » هنا واجب .

ص ٥٧ س ٣ — فكثير من صيغ الأسماء فى العربية القديمة .
يقل عنده أو ينعدم تماما .

والفعل « ينعدم » لا تعرفه اللغة .

ص ٥٩ س ٦ — وبما أن الشعوب والأقوام فى المدن العظمى

وهو تعبير فيه عامية .

ص ٨٢ س ١٥ — كانت سائدة فى الوديان والسهول .

واللغة تعترف بالأودية ولا تعرف الوديان .

ص ٨٣ س ٢ — فى هذا الموضع وفى غيره وضعت همزة فوق ألف : أفريقية .

والذى فى القاموس : إفريقية كجليقية ، بكسر الأول ، وتشديد الياء الأخيرة .

ص ٨٩ س ٢ — فعلى رأى ابن سناء الملك ، ينبغى أن تكون « الخرجة » فيما عدا المديح ، لأنها تتضمن اسم الممدوح فى هذه الحالة بعيدة عن أسلوب السخف الحجّاجى ، وأن تكون صيغتها على قالب ابن قزمان ، أى فى أسلوب ملحون .

ونص عبارة ابن سناء الملك فى دار الطراز : والشرط فيها (الخرجة) أن تكون حجاجية مِن قِبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة ، من ألفاظ العامة ، ولغات الخاصة الخ .

ص ١٩٣ س ٧ — طالما استحي (كذا) من اللحن اللغوى . والصواب أن ترسم « استحيا » بالألف .

ص ٢٠١ س ٧ — وأحسن ما تراهم يتكلمون بالفارسية ، حتى ينتقلوا إلى العربية .

وهو تعبير غير مفهوم .

والكمال المطلق ليس من صفات البشر ؛ بل هو لله وحده ؟

سـياسة الحزم

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

رسم الدستور الإسلامى للمسلمين سياسة الحزم والقوة والإقدام والصراحة بعبارته المحكمة الخالدة « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » . وقد نفذت هذه السياسة فى غير خوف أو تردد ، رغم ما لقى دعاتها وناشروا لوائها بادىء الأمر من ضيق وعنت وقسوة وظلم . حتى آتت ثمارها طيبة موفورة بما أفاضه الله على المسلمين من نصر مؤزر بفضل تمسكهم بعقيدتهم وتفانيهم فى حقهم . وإيمانهم بأن القلة الصابرة لا تثبت أمامها الكثرة الباغية . مما جعل المشركين يدخلون فى دين الله أفواجا . نابذين وراءهم تلك النعرة الجاهلية المرذولة التى دفعتهم فترة من الزمن . أن يشمخوا بأنوفهم عن الإصاخة لما يدعو إليه الدين الجديد الذى قدس المساواة ودعا إليها . وحث على التمسك بها فى قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقول رسوله « كلكم لآدم وآدم من تراب » . لتبقى لهم منازلهم الموروثة ومجدهم القديم . كما أنزل اليهود من صياصيهم وأخرجهم من معاقلهم وآطامهم . ودفعهم إلى أن يمدوا أيديهم يبتغون من رسول الله المودة والأمن بعد أن قصرت بهم عن الوصول إلى مآربهم وسائل الكيد المتنوعة التى اقترفوها . وقد كانوا يكيدون للإسلام والمسلمين مرة بالدس والإرجاف . ثم بالمراء والجدل فيما يعلمون وما لا يعلمون . وأخرى بتحريف الكلم عن مواضعه . وإلباس الحق بالباطل مدفوعين إلى ذلك . بكراهتهم للرسول حيث قد رأوا فى دينه منافسا يوشك أن يقضى على نفوذهم وينتزع منهم لواء الزعامة ، لأنه عربى من أكرم بيوتات قريش . فهو لذلك أقرب إلى نفوس المدنيين منهم . وقد تمسك المسلمون بتنفيذ هذه السياسة بعد رسول الله . ويتجلى ذلك فيما افتتح به أبو بكر رضى الله عنه خلافته ، حينما بدأت القبائل تخرج عن الطاعة تنتحل لصنيعها المعاذير التى تتفق ومآربها . فقد أرسل إلى الخارجين أحد عشر قائداً . وأمر كل قائد بالسير إلى ناحية من نواحى بلاد العرب . بعد أن كتب له عهدا يأمره فيه بالجد فى أمر الله

ومجاهدة من تولى عنه . ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان . وأمره ألا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . ولا يقاتل إلا من كفر بالله ورسوله . ثم نصحه بأن لا يدخل فى المسلمين حشواً حتى يعرفهم . ويعلم ما هم . لئلا يكونوا عيونا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وقد كللت كل هذه الحملات بالظفر واستؤصلت شأفة المرتدين من الجزيرة العربية بفضل الروح القوية الوثابة التى غرسها رسول الله فى نفوس صحابته وأتباعه ، فلم يهنوا ولم يستكينوا . ولو أنهم قد ترددوا أو ضعفوا لاندلع لهيب الفتنة قويا مدمراً وأحرق لهبها ذلك التراث المجيد . وأتت على أناس دفعهم المغرضون إليها وهم حسنوا النية لم يقصدوا إلى غاية . شأن سائر الفتن والثورات الحاقدة ينهض بها ذوو الأغراض السيئة . والمقاصد الوضيعة . إن ضعف القادة والمصلحون عن مناهضتها . أشاعت الذعر فى النفوس . والقلق فى القرى والأمصار . وبذلك يتهيأ لمثيريها ما يهدفون إليه من تدمير وإفساد.

ولكن الله قيض لهذا الدين رجالا عاهدوه على نصرة دينه . وبذل مايستطيعون من تضحيات جسيمة لتبقى كلمته قوية مهيبة . كما نزلها الرسول . وفى سبيل هذه الغاية استهانوا بما يقدمون من جهد وبذل . وبذلك تم لهم النصر بإذلال البغاة المعاندين. وتأمين الضعفاء الخائفين .

وساد الحزم فى غير عنف وقسوة ، سياسة أبى بكر رضى الله عنه . كما هو واضح فى عهده إلى ولاته . حتى تلقى العهد منه عمر بن الخطاب . فأعلى شأن هذه السياسة ، ونفذها على صورة صريحة انتظمت جميع مرافق الدولة . فأشعرت الجميع بعظم التبعة ، وثقل المسئولية ، وأن كل فرد حسابه وجزاؤه على ما عمل ، ليس له من شفيع إلا أن يكون قوياً فى إخلاصه ، صادقاً فى وفائه . وتنفيذاً لذلك ، كان إذا أمر بشيء أو نهى عنه بدأ بأهله ، فجمعهم وقال لهم : « إنى نهيت عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير . وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا ضاعفت عليه العقوبة ، وكان يتحرى فى عماله طهارة الذمة وأصالة الرأى ومضاء العزيمة ، وشرف المقصد . ثم يكتب لكل عهداً ، ويشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار . ويشترط عليه ألا يركب برذوناً ، ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يتخذ باباً دون حاجات الناس ، ويتوعد من يجترىء على سلطان المسلمين ، بل ينزل به العقاب مهما سما قدره ، ونبه شأنه . وطاب فى الخالقين ذكره . وقد

تجمع له مال فجعل يتسمه بين الناس فازدحموا عليه . فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه ، فعلاه عمر بالدرة . وقال إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لن يهابك .

وقد ملأت هذه السياسة القلوب هيبة لم يشبها مقت . ووداً لم يشبه جرأة ، ولما تهاونوا بعد ذلك فى التمسك بها ، وكان لابد منها لإدارة الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها ، وترامت أطرافها . وجنحوا إلى سياسة جديدة أباحت لبعض الطبقات تملك الضياع . واقتناء القصور ، والاستمتاع بحياة مترفة ناعمة . وتركت للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون . كانت نتيجة هـذا التهاون تلك الفتن الهوجاء ، والثورات الدامية التى أصابت كيان الدولة فى شبابها بالوهن والضعف . وأقعدتها عن السير قدما إلى الأمام . واستمرت حقبة من الزمن تعانى آثار هذا التخاذل إلى أن فيض الله لها من أخذ بيدها ، وآسى جراحها .

وما أحرى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ـ وقد وضحت لهم نتائج السياستين ـ أن يأتسوا بسلفهم فيتمسكوا ـ فى عزم وقوة ، ويقين وإيمان ـ بسياسة الحزم مع أعدائهم ، ويعملوا متكاتفين متساندين .

وها هى ذى مصر الشقيقة الكبرى لدول العرب تنتهج هذه السياسة ، لها من سيرة زعيمها رسول الله أول من ألقى على سمع الزمن دروس الشجاعة والكفاح . ومن ثقتها بعدالة قضيتها ، وتصميمها على البذل والتضحية . واعتزازها بتأييد شقيقاتها ، ما يجعلها تؤمن إيماناً لا يخامره شك ، بأن على الباغى تدور الدوائر ، مهما تمادى فى طغيانه ، واشتط فى بغضائه ، وإن النصر للمجاهدين الصابرين : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وصفحات التاريخ القديم والحديث ، حافلة بما لقيته فى جهادها الأمم التى تطلعت إلى الحياة الكريمة من إسفاف فى العداوة ، وإمعان فى التنكيل والإيذاء ثم كانت عاقبة أمرها الحصول على حقها فى الحرية كاملا غير منقوص . تلك سنة الله « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

والله يهدى العاملين المخلصين إلى الخير والرشد ، ويكتب لهم التوفيق والسداد إنه سميع مجيب .

السلاح ، التعبئة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليفة
المدرس بالأزهر

هذا هتاف صارخ جاوز الحناجر الى الجو ، فكاد يهز البروج ، وتردد فى الشرق صداه فأيقظه من سكرة الأحلام وغفوة الأوهام وضجعة الاستسلام ، وإنه لهتاف صادق ، ولكننا نريد ثورة جديدة وسلاحا جديدا وتعبئة جديدة .

نريد ثورة لا يقع غرمها على خزينة الدولة ، ثورة لا تعرف تحطيم المعاهد والمدارس ، ثورة نختزن فيها قوة الشباب ورجال الأمن لليوم الفصل . لا ثورة يصطرع فيها مصرى مع مصرى ، قد تراق فيها الدماء ومصر أحوج ما تكون الى قطرة منها .

نريدها ثورة لإيقاظ الوعى وتنبيه المشاعر ، نريدها ثورة تجمع القلوب وتوحد الصفوف . نريدها ثورة تعلن أن استعباد الشعوب جور لا يقبله أحط الشعوب .

ولا يقيم على ضيم يراد به ألا الأذلان : عير الحى والوتد

نريدها ثورة داخلية على الأخلاق التى انحلت ففقدنا الشعور بالواجب والإحساس بالمسئولية ، والاكتراث بالخطر فى أعنف مواقفه لاعن شجاعة ولكنه الاستهتار الأثيم .

نريدها ثورة من الرجل الدافق بالوطنية ، على الرجل الخامل المسالم المستسلم الذى يلوك أحاديث الضعف والخور .

نريدها ثورة من الشباب المؤمن بربه ووطنه ، على الشباب الذى لايعرف شيئا غير الحياة بين أحضان الشهوات .

نريدها ثورة من المرأة التى عرضت فى سنة ١٩١٩ صدرها لرصاص الجبارين الغاصبين وخاضت مع الرجل معارك الحرية ، على المرأة التى فتحت اليوم صدرها لنظرات الشياطين وعاشت ، لزينتها لا لبيتها ووطنها .

هذه هى الثورة التى تريدها مصر من أبناء مصر .

أما السلاح الجديد فهو ذلك السلاح الذى تسلحت به جيوش الغزاة الذين حطموا أنف الكسروية وأذلوا خيلاء القيصرية ، ذلك السلاح الذى أقام به الحفاة وأشباه العراة ملكا خضع كله لرسالة الصحراء .

إنه سلاح الإيمان القوى الذى لا تزعزعه أهوال الموت ولا يلين قناته الحديد والنار .

إنه سلاح التضحية الصادقة لله وللوطن ، التضحية بالمال والولد ثم بالروح كلما دعا الداعى للبذل فى سبيل الله .

إنه سلاح القناعة التى تملأ قلب المؤمن ، فيحارب يومه دون أن يطعم سوى تمرات تزوده بحرارة الحياة ، وبين جنبيه حرارة الإيمان تخلق منه صاعقة تبيد وتهلك ، إنه سلاح الزهد الذى كان يدفع أثرياء المسلمين إلى النزول عن أكثر ما لهم بل عن كل مالهم للدولة تعد به الكتائب وتنفق منه على الجيوش المحاربة .

إنه سلاح التواضع من القواد المظفرين الذين يدكون القلاع ، ويزلزلون الحصون ، ثم هم لا تنتفخ أوداجهم ولا يشمخون بأنوفهم على محارب وهب حياته لله ، ثم هم لا تأخذهم العزة إذا عزلوا عن القيادة فأصبحوا جنودا كغيرهم ، بل إنهم المحاربون البواسل فى القيادة والجندية على السواء .

إنه سلاح الأخوة فى الله التى فرضت على كل مسلم ألا يترك مسلما أسيراً ، أو صريعا ، وإنما يضحى بحياته فى سبيل فك أغلال الأسر عن أخيه أو الثأر لدمه .

هذه هى الأسلحة التى فتح بها المسلمون الأولون فتوحاتهم ، وهى التى يجب أن نتسلح بها قبل أن نخوض معارك الحرية والخلاص .

إن المدفع والطائرة والغواصة والأسطول ، أسلحة لا تجدى إذا لم تحركها قوى مؤمنة مضحية قانعة ، زاهدة متواضعة متآخية متفانية فى الله وفى سبيل الوطن . وأما التعبئة الجديدة ، فهى تعبئة الناس والقوى والمال لحياة وادى النيل . تعبئة الأمير وابن الأمير والوزير وابن الوزير والأغنياء وأبناء الأغنياء ، قبل أن يعبأ الفقراء وأبناء الفقراء ، إنها ضريبة الدم فرضت على أبناء الوادى ، فيجب أن يساهم كل بيت ، بل يجب أن تكون ضريبة الدم تصاعدية لا فى الأموال بل فى الأنفس

قبل الأموال، فالقصور يجب أن تدفع ضريبة نعيمها الماضى ولهذا الوطن أن قبل تقدم الأكواخ.

ويجب أن تعبأ قوى العقول والافكار والأيدى والأجسام لحياة الوادى وخيره، فالمهندس والصانع والعامل والكاتب والشاعر والعالم كل أولئك يجب أن تعبأ قواهم لمصر قبل الجندى والقائد.

وتعبئة الأموال أعظم ما تحتاجه مصر فى كفاحها المرير، فمال الدولة لا يكاد ينهض بنفقاتها، فلتعبأ الأموال التى تعج بها المصارف والخزائن لخير مصر التى أغدقت على الأغنياء هذه الأموال، وإن الضرائب - وإن جلت - لا تنشىء مصانع حربية ولا تشيد طائرات ولا أساطيل، فليتنا نسمع ببذل كبذل أبى بكر حين يجود بكل ماله للتعبئة، فيقول له الرسول صلوات الله وسلامه عليه: وماذا تركت لأولادك يا أبا بكر؟ فيجيبه فى ثقة واطمئنان ورضا: تركت لهم الله ورسوله.

وهنا يجب على المرأة أن تساهم فى هذه التعبئة، فتتبرع بنفقات زينتها، وإنها لكثيرة، لكتائب الجهاد. وكم موقف من مواقف البذل جادت فيه المسلمات الأوليات بزينتهن للعتاد الحربى، فألقين بأقراطهن وخلاخيلهن ودما لجهن فى حجر بلال بعد أن دعاهن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البذل للجيوش الإسلامية فجدن بما يملكن ونفوسهن راضية... أيها الثائرون.

إن الثورة المطلقة تقوض أكثر مما تبنى وتخرب ما قد يعجز الزمن عن تعميره وربما تحكمت فيها الفوضى فنزعت بها الى التحلل من الأخلاق فاستباحت كل شىء وأتت على كل شىء.

أيها المطالبون بالسلاح.

سلحوا أنفسكم بالأخلاق أولا، فليس من الرأى أن تحمل كف سلاحا لا تجيد استعماله، فقد تشهره فى وجه مواطن مخالف فى رأى، أو غريم ينافس فى امرأة أو مقامر رابح، قبل أن تسدده إلى صدور الأعداء، فلنتسلح بالأخلاق قبل أن يدوى النفير لحمل السلاح.

أيها الداعون الى التعبئة.

طالبوا بتجنيد العظماء وتعبئة أموالهم وجميع قوى الأمة لخير مصر والسودان فإن فعلتم، فالنصر لمصر والإسلام، والمجد لهما.

الشفاعة في الحدود

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم أحمد الوقفى

المدرس بمعهد القاهرة

الحدود ، إذا لم ترفع إلى الحاكم وقبل أن تصل إليه ، فالشفاعة فيها مشروعة ، دعا إليها الشرع وحبب فيها ، فقد أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وصححه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه (تعافوا الحدود فيما بينكم ، فما بلغنى من حد فقد وجب) وأخرج الطبرانى عن عروة بن الزبير قال : لقى الزبير سارقا فشفع فيه فقيل له : حتى يبلغ الإمام ، قال : إذا بلغ الإمام فلعن الله الشافع والمشفع . وروى مرفوعا : اشفعوا ما لم يصل إلى الوالى ، فإذا وصل إلى الوالى فعفا فلا عفا الله عنه ، وقد روى أن صفوان بن أمية طاف بالمسجد فصلى ثم لف رداء له فى برده فوضعه تحت رأسه فنام ، فأتاه لص فاستله من تحت رأسه فأخذه فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن هـذا سرق ردائى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أسرقت رداء هـذا ؟ قال : نعم ، فقال : إذهبا به فاقطعا يده ، قال صفوان : ما كنت أريد أن تقطع يده فى ردائى ! ! قال : فهلا كان هذا قبل أن تأتينى به ؟ ويعجبنى فى هـذا المقام ما روى عن الإمام مالك رضى الله عنه أنه فرق بين من عرف بأذية الناس واعتبار المنكر ، وبين غيره ممن لم يعرف بالقبيح ولم تجر له عادة بمزاولة المنكرات وإنما زلت به القدم فقال : لا يشفع فى الأول مطلقا ردعا له وفى الثانى تحسن الشفاعة له ، قبل رفع أمره إلى الحاكم لا بعده . وتحمل الأحاديث الواردة فى الترغيب فى الستر على المسلم على من لم يعرف بأذية الناس .

وإذا رفعت الحدود إلى الإمام فالشفاعة فيها حرام إجماعا ، ويجب على الحاكم رفضها وعدم النظر إليها وتعزير من يشفع فيها ، فقد روى أحمد وأبو داود عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فهو مضاد الله فى أمره .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا » ولأن تنفيذ الحدود مما ينتفع به ، لما فيه من طاعة الله بتنفيذ أحكامه وعدم الرأفة بالعصاة وردعهم عن هتك حرم المسين ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة فى صحيحى البخارى ومسلم أنه خطب فقال : أيها الناس إنما هلك الذين من قبلكم أنه كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا الحد عليه . فإذا كان ترك الحدود والمداهنة فيها وإسقاطها عن العظماء موجب للهلاك وسخط الله كانت إقامتها على الجميع من غير فرق بين شريف ووضيع من أسباب الحياة والسعادة فيها وتطهير المجتمع من الرزايا والوهن .

وحديث ابن عمر المذكور فيه دليل على تحريم الشفاعة فى الحدود والترهيب لفاعلها ووصفه بأنه مضاد لله ومحارب له ومعطل لحدوده .

هذا هو حكم الإسلام فى الشفاعة والوساطة أبلج ناصعا ، وهو أنجع دواء شرعه رب الناس للناس لقطع دابر الوساطة وصيانة الحقوق وتقييد الحكام والحد من سلطانهم وجورهم ، وتحذير لهم من قبول الشفاعات فى الأقارب والمحاسيب ، بالتجاوز عن مفاسدهم والتغاضى عن جرائمهم ، مما يغريهم على التهام حقوق الضعفاء والتجارؤ على حرماتهم ، ومن الكيل للناس بكيلين ، واعتبار القانون حقاً واجب التنفيذ إذا زل فقير أو ضعيف .

وهل هناك أشد من هذا التحذير والوعيد للعافين عن حدود الله ، وحقوق الناس بعد تقررها من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فهو مضاد الله فى أمره) . وقد بلغ به الغضب أقسى غاياته حينما توسط أحب الناس إليه « أسامة بن زيد » ليعفو عن فاطمة بنت الأسود المخزومية عند ما أراد قطع يدها ونهره فى عنف وقسوة وقال : يا أسامة ، لا أراك تشفع فى حد من حدود الله عز وجل ، ثم قام خطيباً وقال : أيها الناس ، إنما هلك من كان قبلكم بأنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه والذى نفسى بيده ، لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها .

فأين نحن من هذه التعاليم السامية ؟ وفى أى جاهلية نعيش ؟ إننا حين نسمع هذا ثم ننظر إلى أحوالنا التى نصطلى بها تمتلىء قلوبنا غما وكمدا ، ونهوى من شاهق السماء إلى أرض طينية وأوحال آسنة ، وننحدر من دنيا الإنسانية فى أسمى معانيها إلى دنيا الغابة وما فيها من وحوش ضارية وبهيمية مهلكة ! !

ننظر فلا نجد حولنا إلا أشباحا تتشح بلباس الملائكة ، وتخفى أنياب الذئاب ومكر الثعالب ، ولا نجد إلا قلوبا خوت من الإيمان والكرامة ، وتملكها سعار الشهوات والولوغ فى الجيف ، تبيع دينها بعرض الدنيا ، وتعرض أوطانها وأرواح المجاهدين للخراب والفناء لقاء دريهمات معدودة ، وتصلى أبناء الوطن سعير الغلاء وتطحن كواهلهم بنفقات العيش ، وهم العيال ، وتسكين صراخ الأمعاء بالتحكم فى الأسعار واحتكار السلع ، والاستيراد والتصدير ، وهم آمنون سيف القانون متحصنون منه بجاههم وسلطان أموالهم ، لا يبالون بعقاب الآخرة ووخز الضمير وبارك الله فى قرارات حظر النشر بحجة المحافظة على سرية التحقيق ، والويل والثبور للصحف التى تتجارأ على مخالفتها لترسل ضوءاً يكشف مخازيهم ويمكن العدالة من رقابهم ، فإن التعطيل والمصادرة والغرامات الباهظة فى انتظارها ، ثم ينافس التحقيق أهل الكهف فى نومهم ، والأيام وتغير الظروف كفيلة بنسيانه وقبره ، حتى إذا بعث لعامل ما فإنه قد يختم بالعبارة المألوفة : يحفظ التحقيق لعدم كفاية الأدلة ، وما علينا إلا السمع والطاعة والهتاف بعدالة القانون الأرضى .

إن العفو بعد تقرير العقوبة نظام لا يعترف به الإسلام ، ولا يقره الدين ، وحقوق الناس لا يملكها إلا أهلوها ، وحق العفو عنها غير مشروع لغير أصحابها ، فمن عفا فى غير حقه وملكه فعفوه باطل ، وعرض نفسه لغضب الله وسخطه وحملها وزر الخطيئة وإثمها ، ويوم القيامة يتعلق المظلوم برقبته يستوفى منه مظلمته (وما ربك بظلام للعبيد) ؟

تَرَفٌ وَصَلَفٌ

لحضرة صاحب السمو: « السيد »

تَرِفٌ شَمَائِلُهُ تَرِفْ حَرْبٌ عَلَى شِيَمِ الصَّلِفْ
شَرَفُ التَّجِلَّةِ سَيِّدٌ خَجِلٌ بِمَوْكِبِهَا دَنِفْ
أَدَبٌ يَشِفُّ عُدَاتُهُ حَسَداً وَيُوشِكُ أَنْ يَشِفْ
لله مُقْتَبَـلُ الحِلَى وَالزَّهْرُ مُبْتَسِمٌ يَجِفْ
حُرٌّ تَعَطَّفَ حِلْيَةً كَحِلَى الأَسَاوِرِ تَنْعَطِفْ

* * *

عَكَفَ الجَلَالُ عَلَى فَتًى كَلِفٍ بِعِصْمَةِ مُعْتَكِفْ
الحُرُّ تَجَمَّلُ وَجْهَهُ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عُرِفْ
شِيَمٌ قُطِفْنَ مَلَاحَةً كَأَخِي الأَزَاهِرِ يَقْتَطِفْ
الحَمْدُ بَسْمَتُهُ مُحْتَفٍ وَالسِّحْرُ لَثْمَةُ مُقْتَطِفْ

عيد الحرية

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

يومٌ من المجد شاقتنا بواكره — وهزت الشرقَ والدنيا بشائرهُ
لاح الصباح به جذلانَ مبتسماً — يشعشع النور فى الآفاقَ سافره
ضجت له جنبات النيل هاتفةً — وصفقت فوق شطيه أزاهره
والشعب أضناه ذل الصمت فانفجرت — نشوى تجلجل بالبشرى حناجره
شقت بها حجب الآفاق صادعةً — بالحق والله فى علياه ناصره
ثارت على ظلمه العاتى فوارسه — وحطمت قيده المضنى قساوره
ليل المظالم والطغيان قد نفرت — غربانه السود وانجابت دياجره
ولَّت خفافيشه عشواً يشتتها — صبحٌ تشع على الدنيا منائره
واستعلن النور فارتد الدجى خجلا — يئن من لطمات الخزى عاكره

* * *

فل المدل بسيف الظلم : فارسنا — فى كفه سمهرىُّ الحق باترهُ
ليث الكنانة لما صاح فزعه — زئيره الحر فارتاعت خواطره
وعلّم السادر المغرورَ أن له — يوماً يطيح به فى الحظ عاثره
مَن لم ينل حقه باللين أسعفه — بأس تثور على الدنيا ثوائره
والنصر للحق والعقبى لصاحبه — مهما علا الظلم واشتطت عشائره

* * *

لبيك يا بطل الوادى ومنقذه — وأنت مهجتُه الحرّى وناظرهُ
على هداك قد استهدت مناهجه — وفى يمينك قد قرت مصائره
ما ضل فى الليل سار أنت رائده — ولم يَضع قط حق أنت ذاكره
صرختَ فى جنبات الظلم فانصدعت — وزلزلت فى مهاويها قياصرهُ

أحـــــداث الهجرة

بين التاريخ والعبرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد ابراهيم الحفناوى
وكيل معهد سمنود الدينى

يمجد الزمن بأحداثه ، ويلفت إليه ما يسعد من تراثه . وللأيام مجد تخلد به وتاريخ تكرم عليه ، فحين تمر تخبر . وحين تدور تذكر . ولمجد الأيام عمر تحدده ما تحمله من الخير . ولبعضها سيادة على سواها تملأ النفوس هيبة ووقارا . ويسجد لها التاريخ إعظاما وإكباراً . وليست الأيام الخالدة فى أعمال الأمم إلا تمجيداً للعزائم وتخليداً للهمم . وعلى مقدار ما يكون للأيام من أثر . تكون روعة الاستقبال

آبو خزايا بيوم الفصل وانكفأوا ... فى هوة الظلم لما انفض سامره
لا كان عهد لهم ساموا البلاد به ... خسفا ودارت على الوادى دوائره
اليوم راحوا ليسقى بعضهم ندما ... بعضا وباءوا بشؤم طار طائره
لا يخدعنّك ساعٍ فى محالفة ... فكلهم خائس بالعهد غادره
يستأسدون على الوادى إذا أمنوا ... وهم إذا راعهم بأسٌ جآذره

* * *

يهنيك نصرٌ مبين أنت فارسه ... وأنت يوم الجهاد الحق ظافره
عيدٌ لحرية الوادى يطالعنا ... وموعدٌ للمنى عزت نظائره
إذا بقيت له جلداً فليس له ... من حادثات الليالى ما يحاذره
الأزهر اليوم قد ماست مآذنه ... نشوى بمجدك واهتزت منابره
مواكب النصر هزته فراح بها ... تهفو إليك شجيات خواطره
لا زلت فينا زعيم النيل يرفعه ... ماضيه فى خدمة الوادى وحاضره
فى ظل فاروقه سباقِ نهضته ... ومَن على تاجه تحيا مفاخره

وحفاوة البشر . أشرف الأيام ما اتسع نطاق بره . وامتد سلطان خيره ـ وما وضع للناس دستور السعادة والكرامة . وما هدى إلى طريق الحق والاستقامة فخلص العالم من قيود الذلة والضيم . وفك عنه أغلال الطغيان والظلم . وغرس فيه المثل الكريمة العليا . التى تضمن للناس خير الآخرة والدنيا . أيام الإسلام الغر كثيرة . وأحداثها الخالدة ظاهرة وثيرة . وفى هذه الأيام أعياد مشرقة الطلعة . عالية القدر . مخصبة الأثر . خالدة الذكر . فيها وضع للعالم أكمل نظام . وظهر الحق وتمكن الإسلام .

فهذا يوم شرف فيه الوجود بمولد النبى . وآخر بعث فيه الرسول بالهدى الإلهى . . وذلك يوم رد الله فيه على الكفر مكره . . ووجه رسوله إلى المنبت المخصب للمكرة فصدع النبى بأمر ربه . وكانت الهجرة . . .

والهجرة حدث إسلامى خطير فرغ التاريخ من تقديره . وأجمعت الآراء على حكمته وحسب الباحث على إكباره ما أفاده الإسلام من آثاره ففيه شاعت الدعوة . . وبلغت أسمى مراتب القوة . وفيه يتجلى جلال العقائد . ويبدو عزم الجند . وحزم القائد . وفيه جاهدت جنود خفية . تدير خططها سياسة علوية . أما جلال العقائد . فيتمثل فى الفدائية الإسلامية . التى يروعك منظرها القوى فى موقف علىّ . فأى يقين عمر قلبه وغمره . وأى إيمان دفعه . لا يشك الباحث أنها فتوة عقيدة . وشجاعة بصيرة رشيدة . تفتدى القائد إن حزب الأمر . وتحمل عنه ما يبيت له من الشر . ولا تبالى حين ينجو النبى ويسلم ، أن ينالها من البلاء ما تعلم وما لا تعلم ... وهل كانت حياة على فى حسابه حين خلف النبى على فراشه : يشغل عدو الله ، ويلهيه من تتبع رسول الله فما أثبت جنانه ، وما أرسخ إيمانه ، وما أحكمها من حيلة دبرها القدر . . .

تهزأ بالرصد . وتسخر من الخطر . وما أبلغها من عظة كريمة . يلقيها على أنصار المبادىء القويمة . تعلمهم كيف تهون التضحية الغالية ، فى سبيل نصرة المبادىء العالية وهنا يجب أن يتنبه العصر الحديث ، إلى هذه العبرة من الهجرة ، ليأخذ منها ما يعينه على بغيته ، ويقرب سبيله إلى طلبته ، وكل صاحب رسالة لا بد له من أنصار كعلى يجرى فى عروقهم هذا الدم الفدائى . فيحافظون على صاحب الدعوة ليسلم لدعوته

ويفتدونه بنفوسهم ليبغى لرسالته . فخصوم الدعوات الصالحة يحاولون التخلص من أصحابها بأخس الوسائل ، ويتفانون فى هدم حصونها بأدنى المعاول . فإذا فطن الأنصار إلى شرهم . ردوهم على أعقابهم وغلبوهم على أمرهم . ففى الهجرة من جلال العقائد . . ما يمثل مع الفداء الوفاء ، ويضرب أروع المثل للمآخاة والسخاء وحسبك دليلا على السماحة والطهر ما تحكيه الهجرة من صنيع أبى بكر . فكما كان فى الدعوة الصديق ، كذلك كان فى الهجرة الرفيق ، جهز وسائلها بماله ، وجعل فى خدمتها ذات الخفر من آله . فهذه ابنته أسماء . . تبلى فى خدمة الهجرة أحسن البلاء فكم قطعت البيد ، واحتملت الأخطار لتحمل إلى الرسول وصاحبه خطة الكفار ، وما أنبلها حين تجعل من نطاقها وكاءين ، وحينئذ يتجلى جزاء الله ، فيكرم ثمنه ويبدلها به نطاقين فى الجنة .

ولقد كان أبو بكر مصدر حنان يتدفق على النبى ، فكم نسى نفسه وذكر هاويه ، وكم تحمل الإيذاء بنفس راضية ، وقد احتال حتى لا يهاج سيد الأنبياء فما أبره من وفى يتقاطر منه الولاء ، وكم حزن أبو بكر إشفاقا على النبى فنم عليه دمعه ، وهنا يغمره النبى راحة وأمنا . حين يقول له : لا تحزن إن الله معنا .

وهكذا يكون الإخلاص والوفاء ، وبمثل هذا تزيد الدعوات . . ويتفانى معتنقوها ، ويعدون لها كل ما فى مكنتهم من معونة . ويمدونها بما يقدرون عليه من مساعدة :

وهذه عظة سامية من عظات الهجرة تلقن الناس كيف يخدمون المبادىء ويظاهرون رجالها ليحققوا مراميها . ويجنوا ثمارها . فليجعلها العصر الحديث قدوة حسنة . وأسوة كريمة تجعل النفوس للمبادىء . ولا تجعل المبادىء للنفوس ...

وفى الهجرة من جلال العقائد ما يتفجر شجاعة وبسالة . ويعلن للإسلام عزته وجلاله .

فهذا عمر بن الخطاب يعلن أمره . ويهاجر جهرة . ويتحدى المشركين ، ويقول فى عزة المؤمنين : من أراد أن تثكله أمه . أو يوتم ولده . أو ترمل زوجه فليتبعنى وراء هذا الوادى . وهنا يقف التاريخ وقفة الدرس والبحث . ويقارن بين هجرة وهجرة . وينتهى إلى أفراد هذه الخطة الحكيمة التى سلكتها المبادىء القويمة . فكما

كان جهر عمر بالهجرة شجاعة . كذلك كان استخفاء النبى وصاحبه براعة . فالحازم يحارب بالسلاح الذى ينصره والعدة التى لا تخذله . وكما تكون مجاهرة الخصم عزما فكذلك تكون مغافلته حزما فإذا تم النصر بالمجاهرة فهى الرجولة وإذا تم بالمغافلة فهى الحيلة . . وفى كلا المسلكين سددا يعين على المراد . وفى المهاجرة لون من المضاء وفى المغافلة لون آخر من السخرية والاستهزاء . . .

وفى الهجرة تتجلى عزيمة المؤمنين . حين يفارقون وطنهم ليصاحبوا إيمانهم فهذا صهيب يخير بين تمكينه من الهجرة . وبين ماله . فيضحى بماله . ويفر بآماله وهذه صاحبة أبى سلمة يخيرها الجبابرة بين خروجها وبين طفلها . فيتغلب فيها الإيمان على الحنان . . وينتصر عندها اليقين على الحنين . فتترك طفلها وديعة بين يدى الله . وتفر بدينها وإسلامها من وجوه الطغاة . ومثل هذا كثير يضيق المقام عن حصره ، ويعجز الزمن عن عده . وبمثل هذا ساد الإسلام . وبلغ الذروة من مجده.

وفيها تجلت سماحة الأنصار ، وضربوا أنضر المثل فى الإيثار . فكانوا للمهاجرين خيراً من أهلهم ، وأحنى عليهم من أوطانهم ، فجزاهم الله أحسن الجزاء . وجمعهم على الأخوة بعد أن كانوا أعداء . وهكذا يجزى الله المتقين ، ويحسن عاقبة الصابرين . . وفى الهجرة من العجائب ما يشهد بجنود الله الخفية ، التى جندها الله لنصر الدعوة المحمدية . يستهلها الله بالغشاوة تضرب على أبصار الكفار ، وبالسد الذى يستر « النبى » عن الأنظار حتى يخرج هازءاً من الرصد . ساخراً من العدة والعدد .

وهكذا عنكبوت ينسج بيته فى لمح البصر . ويصنع درعاً يقى الرسول من الخطر وذلك حمام يرد الله به الكيد ، ويجعله رمز السلام والأمان ، وحماية للدين ، وصيانة للإيمان . وتلك أرض صلبة تغوص فيها قوائم سراقة . فسبحان من خذله عن اللحاق وعاقه . .

هذه بعض أحداث الهجرة . ينشرها التاريخ ذكرى . وترددها الألسنه فخراً . فيها ما يهيب بالمسلمين أن يلتفوا إلى جلال الدين . ويتمسكوا بحبل الله المتين . فثمرة الخير أن يستثمر . وأن يهتدى به حين يذكر . فليجدد المسلمون لهم أملا ، وليعملوا لاسترداد مجدهم عملا . وحينئذ تدين لهم الحياة ، ويصبحون أهلا لنصر الله .

الموطأ

لامام الأئمة وعالم المدينة مالك بن أنس رضى الله عنه

لحضرة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى

خير كتاب أخرج للناس فى عهده . ثم ما خايره نخاره كتاب أخرج من بعده .

ولأمر ما قال فيه إمامنا الشافعى (محمد بن إدريس) رضى الله عنه قولته المشهورة:

ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك وفى رواية :

ما وضع على الأرض كتاب هو أقرب للقرآن من كتاب مالك . وفى رواية :

ما فى الأرض بعد كتاب الله ، أكثر صواباً من موطأ مالك . وفى رواية :

ما بعد كتاب الله أنفع من الوطأ .

والشافعى هذا ، هو الذى قال فيه الإمام أحمد بن حنبل :

كنت سمعت الموطأ من بضعة عشر رجلا من حفاظ أصحاب مالك . فأعدته على الشافعى لأنى وجدته أقومهم .

ولا مر ما قال الإمام البخارى ، وهو من هو : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى ، فى شرح الترمذى :

الموطأ هو الأصل الأول واللباب . وكتاب البخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب . وعليها بنى الجميع . كمسلم والترمذى .

وأول من صنف فى الحديث ورتبه على الأبواب :

مالك بالمدينة . وابن جريج بمكة . والربيع بن صبيح ، أو سعيد بن أبى عروبة ، أو حماد بن سلمة ، بالبصرة . وسفيان الثورى ، بالكوفة . والأوزاعى ، بالشام . وهشيم ، بواسط . ومعمر ، باليمن . وجرير بن حميد ، بالرى . وابن المبارك ، بخراسان .

وقال الحافظان ابن حجر والعراقى :

كان هؤلاء فى عصر واحد . فلا يُدرَى أيهم سبق . وذلك فى سنة بضع وأربعين ومائة .

وقد صنف الإمام مالك الموطأ ، وتوخى فيه القوى من أحاديث أهل الحجاز ، ومزجه بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقد وضع مالك الموطأ على نحو عشرة آلاف حديث . فلم يزل ينظر فيه ، فى كل سنة ، ويسقط منه ، حتى بقى هذا .

وقد أخرج ابن عبد البر ، عن عمر بن عبد الواحد ، صاحب الاوزاعى ، قال : عرضنا على مالك الموطأ ، فى أربعين يوما . فقال : كتاب الفقه فى أربعين سنة ، أخذتموه فى أربعين يوما ! ما أقل ما تفقهون فيه ! وقال مالك : عرضت كتابى هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة . فكلهم واطأنى عليه ، فسميته (الموطأ) .

وقال الجلال السيوطى : وما من مرسل فى الموطأ إلا وله عاضد أو عواضد .

فالصواب إن الموطأ صحيح كله ، لا يستثنى منه شىء .

وقد صنف ابن عبد البر كتابا فى وصل مافى الموطأ من المرسل والمنقطع والمفصل . قال : ما فيه من قوله (بلغنى) ومن قوله (عن الثقة) عنده . مما لم يسنده ، أحد وستون حديثا .

كلها مسندة عن غير طريق مالك . إلا أربعة لا تعرف .

أحدها : إنى لا أُنسى ولكن أُنَسى لأنسى (أخرجه فى : ٤ - كتاب السهو ، حديث ٢) .

والثانى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الناس قبل . أو ماشاء الله من ذلك ، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر . فأعطاه الله ليلة القدر (خير من ألف شهر) . (أخرجه فى : ١٩ - كتاب الاعتكاف ، حديث ١٥) .

والثالث : ان معاذ بن جبل قال : آخر ما أوصانى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين وضعتُ رجلى فى الفرز ، أن قال : « أحسن خلقك للناس ، يا معاذ بن جبل » (أخرجه فى : ٤٧ - كتاب حسن الخلق ، حديث ١) .

والرابع : إذا أنشأت بحرية ، ثم تشاءمت ، فتلك عن غُديقة . (أخرجه فى : ١٣ - كتاب الاستسقاء ، حديث ٥) .

هذا وقد نقل خاتمة المحدثين شيخنا المرحوم محمد حبيب الله الشنقيطى فى كتابه (دليل السالك إلى موطأ الامام مالك ، عن الشيخ صالح الفلاَّنِى ، فى حواشيه على شرح زكريا الأنصارى على ألفية العراقى ، قوله :

وقد وصل ابن الصلاح الأربعة الأحاديث المذكورة فى تأليف مستقل ، وهو عندى ، وعليه خطه . وقد روى الموطأ عن مالك :

من أهل المدينة سبعة عشر

ومن أهل مكة إثنا عشر

ومن أهل مصر عشرة

ومن أهل العراق وغيرهم سبعة وعشرون

ومن أهل الأندلس ثلاثة عشر

ومن القيروان إثنان

ومن تونس إثنان

وفى أهل الشام سبعة

قال القاضى عياض ، بعد سرد أسماءهم ، هؤلاء الذين حققنا أنهم رووا عنه الموطأ ونص على ذلك المتكلمون فى الرجال .

وقد ذكروا أيضا أن محمد بن عبد الله الأنصارى البصرى أخذ الموطأ عنه كتابة وإسماعيل بن إسحاق أخذه عنه ، مناولة . أما أبو يوسف فرواه عن رجل ، عنه .

وقد ذكر عن المهدى والهادى أنهما سمعا منه ، ورويا عنه ، وأنه كتب الموطأ للمهدى .

وذكروا أيضا أن الرشيد وبنيه ، الأمين والمأمون والمؤتمن أخذوا عنه الموطأ.

ولا مرية أن رواة الموطأ أكثر من هؤلاء . ولكن إنما ذكرنا منهم من بلغنا نصا ، سماعه له منه ، وأخذه له عنه ، أو من اتصل إسنادنا فيه عنه .

والذى اشتهر من نسخ الموطأ ، مما رويته عنه ، أو وقفت عليه ، أو كان فى روايات شيوخنا ، أو نقل عنه أصحاب اختلاف الموطآت ، نحو عشرين نسخة . وقد ذكر بعضهم أنهم ثلاثون نسخة .

وقد رأيت الموطأ رواية محمد بن عبد الرحيم بن شروس الصنعانى ، عن مالك ، وهو غريب ، ولم يقع لأصحاب اختلاف الموطآت فلهذا لم يذكروا عنه شيئا . اﻫ.
هذا كله كلام القاضى عياض .

وقال الجلال السيوطى : وقد ذكر الخطيب ، ممن روى الموطأ عن مالك ، إسحاق بن موسى الموصلى ، مولى بنى مخزوم .

وقال بعض الفضلاء :

اختار أحمد بن حنبل فى مسنده رواية : عبد الرحمن بن مهدى .

والبخارى رواية : عبد الله بن يوسف التنسى .

ومسلم رواية : يحي بن يحي التميمى النيسابورى .

وأبو داود رواية : القعنبى .

والنسائى رواية : قتيبة بن سعيد .

قال الإمام الزرقانى : وهذا كله أغلبى : وإلا فقد روى كلٌّ ممن ذكر عن غير من عينه .

وقد عقب على ذلك المرحوم الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى بقوله :

ومن هنا يعلم بالضرورة ، أن أصحاب كتب الحديث المعتبرة ، كلهم عالة على مالك وأصحابه . وهو شيخ الجميع ، لأن مدار الحديث اليوم على الكتب الستة ، ومسند الإمام أحمد . وقد رأيت تعويل الجميع على روايات مالك والسماع من أصحابه.

وقال الشيخ ولىّ الدين الدهلوى وطنا ، العمرى نسبا : كتاب الموطأ أصح الكتب وأشهرها . وأقدمها وأجمعها ، وقد اتفق السواد الأعظم من الملة على العمل به ، والاجتهاد فى روايته ودرايته ، والاعتناء بشرح مشكلاته ومعضلاته والاهتمام باستنباط معانيه وتشييد مبانيه . ومن تتبع مذاهبهم ، ورزق الانصاف

الأدب العربى
فى عهد الأمويين

للأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
الأستاذ بكلية اللغة العربية

ازدهر الأدب العربى فى عهد الأمويين وتفتحت أزهاره ، وأينعت ثماره ، وتضوع عبيره ، وأشرق ضياؤه بما حفل من رائع القول وبديع الفكر وجيد المعانى وعبقرى الخيال .

ولا تزال صفحة العربية لامعة بذلك التراث الخالد الذى سجل صور الحياة ومظاهر التاريخ ، وأحداث العصر ، وما تعاور على الأمة من خير وشر ، وحلو ومر ، وشدة ورخاء ، وهدوء وسلام ، وجلاد وخصام .

فى نفسه ، علم لا محالته ، أن الموطأ عدة مذهب مالك وأساسه . وعمدة مذهب الشافعى وأحمد وراسه . ومصباح مذهب أبى حنيفة وصاحبيه ونبراسه .

وهذه المذاهب بالنسبة للموطأ كالشروح للمتون ، وهو منها بمنزلة الدوحة فى الغصون .

وإن الناس وإن كانوا فى فتاوى مالك فى رد وتسليم ، ما صفى لهم المشرب ، ولا تأتى لهم المذهب إلا بما سعى فى ترتيبه ، واجتهد فى تهذيبه .

وقال الشافعى لذلك : ليس أحداً مَنَّ على فى دين الله من مالك .

قال الإمام المحدث المرحوم الشنقيطى :

ومما هو ضرورى عند المحدثين أن مشايخ أصحاب الكتب السته ، ومن عاصرهم كالإمام أحمد فى مسنده ، أغلبهم تلامذة الإمام مالك ، الذين رووا عنه الموطأ بروايات عديدة . قل أن تخلو واحدة منها عن زيادة تتفرد بها . ولم يتركوا شيئاً فى أحاديث الموطأ بل أخرجوها فى مصنفاتهم .

وإن الذى يجتلى أسراره ، ويستعرض آثاره ، ويكتنه ظواهره وأغواره ، ليرى العربية فى شبابها وقوتها ، وعنفوانها وفورتها ، واستجابتها الطيعة لما استجد للعرب من حياة ، وما تهيأ لهم من ملك واسع وجاه عريض .

على أنه لا بد لدارس الأدب وما اعتراه من تطورات فى عهد الأمويين أن يمر بالأسباب التى كونت هذا العهد والعوامل التى أنشأت، هذا الملك حتى تتضح له الميزات ، وتستبين لديه الخصائص والسمات .

فقد قام هذا العصر على أنقاض كفاح مرير بين على ومعاوية . أزهقت فيه أرواح ، وسفكت دماء ، واستبيحت حرمات ، وهتكت أستار .

ثم هو عصر كله كفاح وجلاد وحرب وخصام ومعارك حامية ، شهرت فيها السيوف ، وشرعت الرماح ، وتقارعت الألسنة . فإن قتل الخليفة الثالث عثمان ابن عفان كان كسراً لباب الفتنة ، وفتحاً لمغاليق الشر على هذه الدولة الإسلامية الناشئة . إذ تكاثرت عليها الأحداث والخطوب ، وعصفت بوحدتها وقوتها نوائب الدهر وأحداث الزمان ، وكان أول الشر أن ظل على ومعاوية يتصارعان على الخلافة ويحشد كل منهما لأخيه ما يملك من عدة وقوة ، وما يدخر من حيلة أو وسيلة ، وقد كان اعتماد على ، مايؤمن به من حقه وأولويته لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن بلائه فى الإسلام ، وصدق جهاده فى سبيل الله ، وتأييد أئمة المسلمين له وأكثر أهل الحل والعقد فى هذه الأمة .

أما معاوية فكان يدفعه إلى ذلك ما وقر فى نفسه وهجع فى أعماقه من رغبة فى السيادة قديمة ، وحب فى الرياسة أصيل . ومن هنا راح يعمل للملك وأخذ يمهد للولاية على المسلمين متخذاً المطالبة بدم عثمان ستراً وتقية .

ولقد توفر لديه من الوسائل واجتمع له من الأسباب ما مكنه من المضى إلى وجهته والإسراع إلى غايته . فقد كان واليا على الشام وأقام على ذلك قرابة العشرين عاما ظل فيها يؤلف القلوب ويجتذب إليه النفوس ويتخذ لدى الناس من الأيدى ما يجعلهم ينفرون إلى نصرته ويخفون فى الأحداث والملمات إلى مساعدته ولقد رأى الفرصة سانحة للملك فاهتبلها والزمان مواتيا فلم يضيعه ، ذلك أن عليا حين آلت أمور المسلمين إليه وجد أن الذى ألب النفوس وأضغن القلوب على

عثمان وأشعل الثورة ضده فى كل مكان ، هم أقرباؤه الذين آثرهم بالسلطان وجعل منهم أمناءه وجباته وولاته على الأمصار ، فرأى على لكى يستتب الأمر وتطمئن النفوس وتسكن الثورة الجامحة أنه لابد من عزل ولاة عثمان وهنا تسنح الفرصة لمعاوية وينفتح له الباب الذى ينفذ منه إلى أغراضه وأطماعه . فإنه حين جاءه كتاب على بالعزل تمرد عليه ولم يخضع له وقال : لا خلافة إلا بعد قتل قتلة عثمان ووجد من أهل الشام المعين والنصير . فنهض للثورة على على ومحاربته . وقوى من ساعده وشد فى عضده أن طلحة والزبير ثارا كذلك على على واستنفرا عائشة أم المؤمنين لقتاله فحاربته حتى هزم جيشها فى موقعة الجمل .

وظلت أمور المسلمين هكذا تفتاشها الفتن وتنال منها الثورات وتلعب بها العواطف حتى انتهت هـذه الحال الشنيعة بقتل على وتنازل ابنه الحسن عن حقه فى الخلافة بعد قتله بستة أشهر حقنا لدماء المسلمين .

وهـكذا تم لمعاوية الأمر وانفرد بالولاية على شئون المسلمين سنة ٤١ ﻫ وبذلك قامت دولة بنى أمية فى هذا العام الذى يعرف بعام الجماعة . على أن معاوية لم ينهض بأمر الملك إلا والمجتمع الإسلامى تسوده ثلاث جماعات متباينة المنزع متنابذة الرأى متخالفة الفكرة وهى .

١ — جماعة الأمويين ، الذين ناصروا معاوية وشايعوه فى فكرته وآزروه فى مهمته وحاولوا جاهدين أن يتم له الأمر وتجتمع لديه أسباب الملك . وكان يدفع هؤلاء إلى العمل الدائب ما ورثوا من أطماع قديمة ومآرب سرت فى النفس والدم واختلطت باللحم والعظم وأصبحت فى حياتهم حلم النوم ومطرح الخيال فى اليقظة .

كان هـذا الفريق منبثا فى بلاد الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية وخاصة مصر .

٢ — شيعة على بن أبى طالب وهم الذين أحبوه وناصروه وآمنوا به وعزروه وقاموا يناضلون عن حقه ويكافحون معه فى سبيل استقرار خلافته وكانوا يؤمنون إيمانا قويا أنه أحق بولاية أمر المسلمين من معاوية . وأكثر هؤلاء كان فى بلاد العراق وقليل منهم كان فى مصر .

٣ — الخوارج ، وهؤلاء الذين خرجوا على علىّ وكفروه حين قبل التحكيم وكانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ما دامت فيه كفاية للحكم وأهلية للخلافة لا فرق فى ذلك بين قرشى وغيره . وكان فيهم عصبية طاغية لما يعتقدون من رأى ويدينون به من مذهب الى عداوة حامية وبغضاء شديدة للفريقين ، فهم يستحلون دماءهم وأموالهم ويرونهم إذ خالفوهم فى الرأى جارجين على الدين مارقين من الملة .

أما شيعة على فقد سكتوا عن الخلافة حينا قصيرا عقب تنازل الحسن وفى النفوس غضب وتحفز وفيها تربص وانتظار ، ثم بدأ معاوية ينقض ميثاقه ويخلف عهده وأخذ يعقد البيعة لولده يزيد ، وكان العهد أن تكون للحسين بعد معاوية . فعادت الثورة من جديد جذعة وجعلت تتفاقم وتشتد وبدأ الغيظ المكتوم والغضب المكظوم يبعث على الثورة ويدعو الى التمرد ، وكان ما شهده التاريخ من دماء زكية تجمدت على صفحته ومآس بشعة لا تزال تدمع لها العيون وترتعد الفرائص وتجزع النفوس .

وأما الخوارج فلم يهدأوا الخطة ولم يدعوا الحكام يستريحون برهة . فقد كانوا فى كل مكان شوكة فى جنوبهم وقذى فى عيونهم وشجى فى حلوقهم لا يغاربهم هدوء الطبع ولا سكون النفس ولا يمر بهم طائف من التسامح .

ولهؤلاء أدب يصور آراءهم ويعبر عن عقائدهم ويحكى ما تنطوى عليه نفوسهم من مذاهب يعد من أروع وأخلد ما خلفه العرب من تراث وما تركوا من آثار .

وقد نشأ الى جانب هذه الأحزاب المتعادية المتشاكسة فيما بعد حزب آخر هو حزب عبد الله بن الزبير ، وكان معاوية يعرف خطره على خلافته فأوصى ابنه أن يحترس منه وأن يتخذ من الأسباب والواقيات ما يبعده عن شره ومن قوله فى ذلك له (لست أخاف عليك إلا ثلاثة ، الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن عمر . أما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله ، وأما ابن الزبير فإنه خب ضب (١) فإن ظفرت به فقطعه إربا إربا وأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذه الورع (٢) فخل بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك) .

---

(١) الخب بالفتح والكسر هو الرجل الخداع والارب بالكسر العضو .

(٢) وقذه : سكنه وغلبه وتركه عليلا .

مجتمع تسوده هـــذه الطوائف التى لا تعرف الضعف ولا التراخى . هـذه الطوائف التى لا يهن عودها ولا يسلس قيادها ولا تهدأ ثورتها ولا يسكن جموحها ، هـذه الطوائف التى تتراشق فى السر والعلن وتتصاءل بالسنان وتتعازف باللسان . مجتمع تصطرع فى ساحته هذه القوى الهادرة الثائرة ، تعوزه حكمة فى قيادته وحنكة فى ولايته ومراس قوى وعقلية ناضجة فى تدبير أمره ، وكذلك كان معاوية . آتاه الله حلما على خصومه مهما خاشنوه القول وجفوا فى الخطاب ومنحه دهاء وبراعة حيلة وتأتيا إلى الأمور من أيسر سبيل . يصفه صاحب الفخرى بقوله (كان معاوية عاقلا فى دنياه ، لبيبا عالما حليما ملكا قويا جيد السياسة ، حسن التدبير ، لأمور الدنيا عاقلا حكيما فصيحا بليغا ، يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه . وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسة مشغوفا بها كان يفضل على أشراف رعيته كثيرا . فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر . وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الرحمن بن أبى بكر وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبى طالب رضى الله عنهم يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، ويجبهونه أقبح الجبه وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية .

والصلات الجمة . قال يوما لقيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنه وهـو رجل من الأنصار يا قيس ، والله ما كنت أود أن تنكشف الحـروب التى كانت بينى وبين على (عليه السلام) وأنت حى فقال قيس . والله إنى كنت أكره أن تنكشف تلك الحـروب ، وأنت أمير المؤمنين . فلم يقل له شيئا وهـذا من أجمل ما كانوا يخاطبونه به) .

ونكتفى الآن بهذه اللمحة العابرة لنتحدث فى المقـال التالى عن سياسة معاوية فى حكمه وأثرها فى إنعاش الأدب وتجويد الشعراء وإبداع الأدباء؟

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير

سورة البقرة

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محيسن
رئيس التفتيش

قد انتهينا فيما كتبناه بمقالنا السابق إلى قوله تعالى: « ومما رزقناهم ينفقون »، وإنا نستأنف القول فى تفسير ما يلى: ذلك من آيات القرآن الحكيم قال الله تعالى: « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون »

إن أول ما يلفت الذهن فى تلك الآية، هو إعادة الموصول معطوفا بالواو على الموصول الأول مما يُفهم التغاير بين الموصولين كما هو مقتضى العطف، مع أن ما جرت عليه الأوصاف الأولى هو ما جرى عليه الأوصاف الثانية، مع أن موصوف الأوصاف الأولى هو موصوف الأوصاف الثانية، وإنما سلك هذا السبيل لما فيه من بلاغة وحكمة: أما أولا: فلإن إعادة الموصول بعد ذكره الأول ليُعيد إلى الذهن صورته موصوفا بتلك الطائفة من الأوصاف بعد ما مثله موصوفا بالأوصاف السابقة حتى يدانى بين الصفات والذات التى اتصفت بها، ليصور مجرى تلك الأوصاف إلى السامع بصورة جديدة غير الصورة السابقة التى مثلتها الطائفة الأولى من الأوصاف، وأما ثانياً: فلإن إعادة الموصول مما يتعدد به صورة الموصوف، وكأن كل طائفة من الأوصاف تكون موصوفا مستقلا.

هذا هو السر فى إعادة الموصول مع اتحاده مع الأول ذاتا وصفات.

وأما ثالثاً: فلإن الأوصاف الأولى التى أجريت على المتقين قد أقيم بها أصل من أصول الايمان، وبنى بها ركن من أركان الإسلام وأما الأوصاف الثانية التى أعيد لها الموصول فقد أقيم بها أصل ثان من أصول الايمان، وبنى بها ركن آخر من أركان الإسلام. فالأولى « لا إله إلا الله »، والثانية « محمد رسول الله »؛

إذ الأيمان بالغيب هو الايمان بالله ، والايمان بما أنزل على محمد إيمان برسول الله إذ هو مستلزم له حتما ، وبذلك قام الأصلان ، وشيد الركنان .

بقى هنا سؤال واستيضاح ؛ إذ يقال : إن الأيمان بالله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة مما يدخل فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فهو لا محالة داخل فى الأيمان بما أنزل إليه فلم قدم عليه ، وأخرج منه ، وجعل أصلا مستقلا وإنا لبيان ذلك نقول :

إنه إنما قدم الايمان بالله ، ولم يدخله فى الايمان بما أنزل على محمد إيذانا بقوة ما أقام الله فى الآفاق وفى الأنفس من آيات بينات ، وبراهين واضحات على وجوده تعالى وعظمته ، وسائر صفاته ، وأن هذه الآيات وتلك البراهين هادية للفطرة إلى خالق جبار عظيم قدير ، لا تتوقف الهداية إليه على رسل أو كتب ، وترى ذلك واضحا فى فطر الناس فإنك إذا بحثت شئون الأمم فى قديم التاريخ وحديثه ممن أرسل اليهم ، وممن لم يرسل إليهم من أصناف الوثنيين وغيرهم وجدتهم - وان عبدوا غير الله - يجعلون المآل الأخير والمرجع النهائى الله سبحانه وتعالى - تراهم يستعينون بما عبدوا من أحجار وأشجار وكواكب وحيوان ما داموا فى سعتهم ورخائهم ؛ حتى إذا ملكتهم شدة ، واستولى عليهم من الكروب عظيمها رجعوا إلى ربهم مخلصين له الدين ودعوه ليكشف عنهم ما انتابهم من شدة وأهوال وأقرأ إن شئت قوله تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » .

ألا ترى أن ذلك واضح فى أن ما قام فى الكون من آيات قوى الدلالة على وجوده تعالى ، ووحدته وكبرياءه وعظمته ؛ كما أنه واضح فى أن الفطرة التى فطر الناس عليها قد أعدت إعداداً قوياً لفهم تلك الآيات .

هذا هو السر فى أن جاء الأصل الأول مستقلا عن الأصل الثانى ، ليؤذن بأنه غير متوقف على إرسال رسل أو إنزال كتب . فما أوضح براهين وجوده تعالى ، وما أصفى آيات وحدانيته ودلائل عظمته ، ففى السماء آيات وفى الأرض

آيات ، وفى الأنفس آيات ، وكم هدت تلك الآيات فطراً إلى خالقها دون أن تسمع إلى رسول ، ودون أن تقرأ فى ذلك كتاباً منزلا .

بقى أن هذا ظاهر فى توجيه الإيمان بالغيب ، وسبقها على الإيمان بما أنزل على محمد . لكن يبقى السؤال قائماً فى سبق إقام الصلاة على قوله « يؤمنون بما أنزل إليك » لأن إقام الصلاة مما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك يتوجه هذا السؤال عينه فى قوله : « ومما رزقناهم ينفقون » .

وإنا جوابا على هذا نقول : إن الصلاة بعموم معناها ترجع إلى تعظيم الله واللجوء إليه والاستعانة به دون سواه ، ودعائه كلما حزب المرء شدة ، ولا ريب فى أن كل تلك المعانى من مقتضيات الإيمان بالله ، والاقتناع بما له من سامى الصفات وأنه الواحد لا شريك له ، والخالق لكل شىء ، والمهيمن على كل شىء ، والمالك لكل شىء . لهذا جعل إقام الصلاة من الصفات المعطوفة على الإيمان بالله إيذاناً بأن الصلاة ـ وهذا هو معناها ـ من مستتبعات الإيمان بالله الخالق الرازق الكبير المتعال . وأما إنفاق العبد مما رزقه الله ، فهو فى عموم آثاره ارتباط بمن حوله من الناس ، وتوثيق للعلاقات بينه وبينهم ، وتغذية بالمودة للقلوب وتصفية للنفوس ولا ريب أنه من مستتبعات الإيمان بالله ، والإيمان بصفاته ، وأنه الرحمن الرحيم . والرازق الكريم ، والعليم بما دق من الأعمال وجل ، والمحصى على كل امرىء عمله من خير أو شر ، ليجزى كلا بما عمل . لذلك جعل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من مستتبعات الإيمان الحق بالله القائم على الدليل والبرهان المدفوع إليه العبد وإن لم يدعه رسول أو يهده كتاب .

تلك هى مستتبعات الأصل الأول « لا إله إلا الله » وأما مستتبعات الأصل الثانى وهو الإيمان بالكتب المنزلة قبل القرآن من التوراة والإنجيل وغيرها . وبالرسل الذين أنزل عليهم تلك الكتب . والإيمان الحق باليوم الآخر . أما تلك المستتبعات فلأنها لما كانت لا سبيل إلى التصديق بها ، واليقين بصدقها إلا عن طريق إخبار الرسول ، فقد جعلت من مستتبعات الأصل الثانى . فكان للأصل العقلى مستتبعات ، وللأصل النقلى مستتبعات ، وبكليهما قام ركنا الإيمان ، وشيد أصلا الإسلام . فسبحانك اللهم مبدع كل شىء ، ما أبلغ ما أنزلت على رسولك الكريم ، وما أحكم ما أيدت به نبيك محمداً سيد الأولين والآخرين .

الربا

فى نظر القانون الإسلامى

تعريب المحاضرة الفرنسية التى ألقاها فضيلة الأستاذ الدكتور « محمد عبد الله دراز »
مندوب الأزهر فى مؤتمر القانون الاسلامى المنعقد بباريس فى ٧ من يوليو سنة ١٩٥١ م

— ٣ —

وجاهة التشريع القرآنى

من النواحى الثلاث : الأخلاقية ، والاجتماعية ، والاقتصادية

ونعود الآن الى موضوعنا الأصلى ، وهو الربا الحقيق ، لنعالج فيه الجواب عن سؤالين مهمين :

« أحدهما » : ما هى الأسباب المعقولة لهذا التحريم الصارم للمعاملة الربوية ؟

« الثانى » : هل الحياة الاقتصادية فى حالتها الحاضرة تعد ظرفا استثنائيا يترخص فيه بمخالفة هذا القانون ؟

أما مسألة معقولية النهى أو عدم معقوليته ، فإنها قد أثيرت فى عهد النبوة على لسان العرب أنفسهم فقد استنكروا هذه التفرقة بين البيع والربا قائلين : إذا أنتم منعتم ربح القرض ، فامنعوا كذلك كل ربح يجتلب من طريق البيع ، إذ هما سواء.

وكان رد القرآن على ذلك بتلك الكلمة الحاسمة ، التى لا تقبل مراء ولا جدالا : كلا ، ليس البيع مثل الربا ؛ فقد « أحل الله البيع وحرم الربا » (٢/٢٧٥) . على أنه لا يمكن أن يفهم من هذا الأسلوب أن أمر التشريع هنا يصدر عن إرادة جبروتية تقضى أحكامها تحكما وتعنتاً ؛ فقد علمنا القرآن فى غير موضع أن الأوامر الالهية أنزه شىء عن هذا الحرج والعنت : « قل إنما حرم ربى الفواحش » (٧/٣٣) « قل أحل لكم الطيبات » (٥/٤) « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٥/٦) .

يجب إذن أن تكون لهذا النهى دعائم قوية وأسباب معقولة تجعله فى محزه من الصواب والحكمة . فما تلك الدعائم ؟

١ ـــ الدعامة الأخلاقية :

أول ما يكشفه الباحث من أسرار التشريع فى هذا الباب هو بواعثه الأدبية الخلقية .

إن الضمير الإنسانى ليدرك بنوع من الحدس المباشر مدى الفرق بين الربح من طريق المعاملة (البيع) والربح من طريق المجاملة (القرض) . إنه ليدرك ذلك ويحسُّه حتى فى الوقت الذى لا يستطيع فيه التعبير عن هذا الفرق . فان لم ندركه فى آن ما فانما هى غشاوة الهوى وحب الأثرة ، أو الغفلة وعدم التدبر ، هى التى تخفيه عن أعيننا . على أن الأمر يبلغ من الوضوح إلى حد تحسه كل الضمائر والوجدانات فى عملية « الإعارة » (للأشياء التى ترد بأنفسها إلى معيرها) . أليس كل واحد منا يستنكف حقيقة من أن يطالب بتعويض مالىٍّ عن ماعون يعيره لمن يحتاج اليه ، أو عن مساعدة أدبية كائنة ما كانت يقدمها للغير ، عملاً بقواعد حسن الجوار وأدب الاجتماع ؟ فلماذا يختلف النظر فى الأمر حينما تكون المعاونة على وجه « القرض » (للأشياء التى يمكن أن تردَّ بمثلها) ؟ مع أن الشأن فى الحالين واحد ، وهو أنهما يختلفان عن البيع اختلافا جوهريا ؛ ذلك أن الأمر فى البيع يتعلق بمالين مختلفين لكل منهما قيمته التى قد تزيد أو تنقص عن قيمة الآخر إما بسبب اختلاف الرغبات ، وإما بحسب قانون العرض والطلب . بينما المقصود فى القرض كما فى الإعارة هو استرداد الشىء نفسه ، إما بعينه أو بشىء مماثل له تماماً من جنسه . فليس هاهنا أدنى قصد للمبادلة بين مالين ؛ ولذلك ليس للمقرض أن يرفض قبول شيئه نفسه إذا أعاده له المقترض عند الأجل بحالته التى تسلمه عليها .

سيقول قائل : سلمنا بوجود هذا الفرق الجوهرى بين الوضعين . ولكن أليس كل صنيعٍ جميلٍ « له حق » فى المكافأة ؟

نقول : بلى ! ولكن لا ينبغى أن يلتبس علينا الأمر بين سلطان « الحق » وسلطان « الواجب » . إن سلطان الواجب أعلى ؛ وإن له لحقاً فى معارضة حقوقنا الطبيعية وفى تحديد مداها . وأى شىء أدخل فى باب الحقوق الطبيعية من حقنا فى المحافظة على حياتنا ؟ ومع ذلك فإن الواجب قد يفرض علينا أن نتنازل عن هذا الحق وأن نضحى بأنفسنا تضحية تامة فى سبيل قضية نبيلة : أدبية أو وطنية أو دينية أو غيرها .

سيمضى السائل فى اعتراضه قائلا : إن هذه كلها اعتبارات أخلاقية . وقضيتنا قضية حق وقانون .

أما أنا فأجيب بأن كل مشرِّع له الحق كل الحق فى أن يجعل من القانون الأخلاقى قانونا مدنيا ، بل قانونا جنائيا إن شاء . وهذا بالضبط هو ما صنعه القرآن حين أعلن حرباً حقيقية على آكلى الربا .

٢ — الدعامة الاجتماعية :

ولو أننا نظرنا إلى القضية من ناحيتها الاجتماعية لظهرت لنا حكمة هذا التشريع وسداده فى أجلى مظاهرهما .

لا أقول فقط إن حياة المجتمع تصبح حياة لا تطاق لو أن كل فرد تمسك بحقه فى أدق حدوده ، ولم يجعل على نفسه سلطانا لفكرة البر والتعاون والتضامن والتراحم ؛ بل أقول إن مجرد تقرير ربح مضمون لرب المال ، بدون أن يكون فى مقابل ذلك ضمان ربح للمقترض ، — أقول إن هذا الوضع وحده فيه ما فيه من محاباة للمال ، وإيثار له على العمل ؛ وإن الضرر الذى ينجم عن ذلك ليس من نوع الأضرار الأدبية أو الأغلاط النظرية فحسب . (وأعنى بها قلب موازين الأشياء بوضع القيم الإنسانية موضعاً نازلاً وتفضيل القيم المادية عليها) ؛ بل إنه يمس بناء الجماعة مساً عنيفاً عميقاً . ذلك أننا بهذه الوسيلة نزيد فى توسيع المسافة وتعميق الهوة بين طبقات الشعب بتحويل مجرى الثروة وتوجيهها إلى جهة واحدة معينة ، بدلا من أن نشجع المساواة فى الفرص بين الجميع ، وأن نقارب بين مستوى الأمة حتى يكون أميل إلى التجانس وأقرب إلى الوحدة .

إن اللمحة البارزة فى التشريع القرآنى ، وكذلك فى كل تشريع اجتماعى جدير بهذا الإسم ، هى الحيلولة دون هذه المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح ، والسعى لتحقيق نوع من التجانس والمساواة بين أفراد الأمة .

إنها لكلمات قصيرة ولكنها ذات مدى بعيد ، تلك التى يرسم فيها القرآن دستور هذه السياسة ، حيث يقول : « ... كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

٣ — الدعامة الاقتصادية :

وأخيرا هلم بنا لننظر إلى القضية من وجهة العدالة الاقتصادية البحتة .

يقول لنا أنصار مشروعية الربا — ولهم بعض الحق فيما يقولون — : إن الربح الذى يحصل عليه المقترض من عمله فى المال الذى اقترضه إنما ينشأ وليداً من التزاوج بين العمل ورأس المال ؛ فكيف تخولون للعمل حقاً فى الربح ، ولا تخولون للمال حقه فيه . مع أنه زوجه وشريكه فى هذا النتاج ؟

ها هو ذا - فيما أرى - جواب هذه الشبهة :

أما أن الربح ليس ثمرة عنصر واحد بل ثمرة عنصرين متزاوجين فذلك حق لا شبهة فيه ، وليس لنا أن نتلكأ فى قبوله . غير أن المعارضين قد فاتهم شىء جوهرى ، وهو أنه بمجرد عقد القرض أصبح العمل ورأس المال فى يد شخص واحد ، ولم يبق للمقرض علاقة ما بذلك المال ، بل صار المقترض هو الذى يتولى تدبيره تحت مسئوليته التامة ، لربحه أو لخسره . حتى إن المال إذا هلك أو تلف فإنما يهلك أو يتلف على ملكه . فإذا أصررنا على إشراك المقرض فى الربح الناشىء وجب علينا فى الوقت نفسه أن نشركه فى الخسارة النازلة ؛ إذ كل حق يقابله واجب أو كما تقول الحكمة النبوية : « الخراج بالضمان » . أما أن نجعل الميزان يتحرك من جانب واحد فذلك معاندة للطبيعة ... ومتى قبلنا اشتراك رب المال فى الربح والخسر معا انتقلت المسألة من موضوع القرض إلى صورة معاملة أخرى ، وهى الشركة التضامنية الحقيقية بين رأس المال والعمل . وهذه الشركة لم يغفلها القانون الإسلامى . بل أساغها ونظمها تحت عنوان « المضاربة » أو « القراض » . غير أنه لكى يقبل رب المال الخضوع لهذا النوع من التعامل يجب أن يكون لديه من الشجاعة الأدبية ما يواجه به المستقبل فى كل احتمالاته . وهذه فضيلة لا يملكها المرابون ؛ لأنهم يريدون ربحا بغير مخاطرة ؛ وذلك هو ما يسمى تحريف قواعد الحياة ومحاولة تبديل نظمها .

هكذا إذا سرنا وفقا للأصول والمبادىء الإقتصادية فى أدق حدودها كانت لنا الخيرة بين نظامين اثنين لا ثالث : فأما نظام يتضامن فيه رب المال والعامل

فى الربح والخسر ؛ وإما نظام لا يشترك فيـه معه فى ربح ولا خسر . ولا ثالث لهما إلا أن يكون تلفيقا من الجور والمحاباة .

هذه — فيما أرى — هى الأسس الأدبية والاجتماعية والاقتصادية التى قامت عليها وجهة نظر الإسلام فى قضية الربا .

وأما المسألة الثانية وهى حكم الربا فى وقتنا هـذا فإنها ليست قضية « مبدأ » وإنمـا هى قضية « تطبيق » . وإنى أخشى أن أطيل فيها فأعتدى على موضوع زميلى وصـديق الدكتور الدواليبى رئيس مجلس النواب السورى . وهى فوق ذلك ليست فيما أرى من الشئون التى يقضى فيها فرد أو بضعة أفـراد ، بل ينبغى أن يتداعى لها طوائف من الخـبراء فى القانون والسياسة والاقتصاد من كل جانب ، وأن يدرسوها دراسة دقيقـة مستفيضة من جميع نواحيها الحـاضرة والمستقبلة .

وكل ما أريد أن أقوله الآن يتخلص فى جملتين صغيرتين ، أرجو أن يتخذا أساسا للبحث فى التفاصيل .

« الأولى » هى أن الاسلام قد وضع الى جانب كل قانون ، بل فوق كل قانون قانوناً أعلى يقوم على الضرورة التى تبيح كل محظور « وقد فصل لـكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » (٦/١١٩) .

« الثانية » هى أنه لأجل أن يكون تطبيق قانون الضرورة على مسألة ما تطبيقا مشروعا لا يكفى أن يكون المرء عالمـا بقواعد الشريعة ، بل يجب أن يكون له من الورع والتقوى ، ما يحجزه عن التوسع أو عن التسرع فى تطبيق الرخصة على غير موضعها ، كما يجب أن يبدأ باستنفاد كل الحلول الممكنة المشروعة فى الإسلام ؛ فإنه إن فعل ذلك عسى ألا يجد حاجة للترخص ولا للاستثناء ، كما هى سنة الله فى أهل العزائم من المؤمنين « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » (٦٥ / ٢ — ٣) .

بيـان ديني

للهيئة العربية العليا لفلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الهادى الى الحق وإلى صراط مستقيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الى إخواننا المسلمين فى السودان أعزهم الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فإنا نعرف حميتكم الدينية ، وتمسككم بأوامر شريعتكم الإسلامية ، ورغبتكم فى العمل مع إخوانكم المؤمنين العاملين ، على رفعة شأن الإسلام والمسلمين ، وتطهير بلاد الإسلام من رجس الاستعمار الأجنبي لتكون كلمة الله هى العليا ويكون المسلمون أحرارا فى بلادهم ، وتتحقق لهم العزة التى جعلها الله لعباده المؤمنين الصادقين .

ولما كان موقف البغى والعدوان الذى يقفه الإنجليز المستعمرون من مصر والسودان ، يحتم جمع الصفوف وتوحيد الكلمة ، فإننا نهيب بكم أن تعملوا يدا واحدة وصفا واحدا فى سبيل الله ، هيئاتكم وجمعياتكم وأحزابكم ، متعاونين مع إخوانكم أهل مصر فى إخراج العدو المستعمر من بلادكم ، يؤيدكم فى ذلك جميع المسلمين ، وإنا نعيذكم بالله ونعيذ بصائركم النيرة وإيمانكم المتين ، من أن تنخدعوا بألاعيب الإنجليز السياسية ، وزعمهم أنهم يريدون بكم خيرا ، بينما يبتغون من وراء ذلك شق صفوفكم ، وتفريق جمعكم ليضمنوا لحكمهم الإستعمارى البقاء فى دياركم وبقاءكم تحت نير العبودية والذلة . فلا تركنوا إليهم واحذروهم كل الحذر فإنهم أعداء وطنكم ودينكم ، ولله سبحانه وتعالى حذر المؤمنين من ذلك بقوله سبحانه « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

وإنا نناشد إخواننا السودانيين عامة ، وحزب الأمة خاصة ، ألا ينخدع منهم أحد فيتولى العدو المستعمر ، يقول بقوله ، ويعمل بإيعازه ، وينفذ خططه وسياسته ويتخذه وليا ونصيرا من دون المؤمنين ، والله تعالى يحذر من ذلك بقوله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » .

إن هؤلاء الإنجليز الذين يظهرون لكم المودة إنما يفعلون ذلك ليخدعوكم (يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم) وهم لا يرضوا عنكم حتى تتبعوا ملتهم وأنتم تعلمون ما يصنعون مع إخوانكم أهل جنوب السودان الذى فصلوه عن شماله ليضلوا أهله ويبعدوهم عن هدى الإسلام ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » .

ثم لا يخفى عليكم حكم الشريعة الإسلامية بوجوب دفع العدوان عن بلاد المسلمين ، وإجماع جميع المذاهب الإسلامية على أن الجهاد فى مثل هذه الحالة فرض محتم على المسلمين كافة ما دام للعدو موطىء قدم فى البلاد ، وإن الواجب فى الدرجة الأولى على أهل الديار التى نزلها العدو ثم على من يليهم الى أن يتم دفع العدوان .

وإن من يتهاون فى دفع العدو ، أو يخذل المسلمين بتخلفه عن العمل مع إخوانه المؤمنين ، أو بتعاونه مع العدو على أى شكل ، وأن من يرضى بحكم الأجنبى أو يفضله على حكم المسلمين أو يأتى بأى قول أو عمل من شأنه أن يمكن للعدو من حكم المسلمين ، واحتلال أى جزء من بلاده ، والاستقرار فى أو طانهم فهو خارج عن الاسلام ، مفارق لجماعة المسلمين ، ليس من الله ولا رسوله ولا المؤمنين فى شيء ، يقول الله تعالى فى ذلك « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أو لياء من دون المومنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء » .

أن العدو الذى يحتل مصر والسودان هو الذى كاد للمسلمين واعتدى على ديارهم منذ زمن بعيد ، وطوح بخلافتهم الاسلامية ، ودولتهم وممالكهم ، وهو

لا يزال يكيد لهم فى كل مكان . وهو الذى عمل على إخراج المسلمين من ديارهم وظاهر على إخراجهم كما صنع بإخوتكم أهل فلسطين وغيرها ، فلا يجوز توليهم وفقا لقوله تعالى « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وعلى إخواننا السودانيين والمصريين أن يوقنوا أن قضيتهم هذه ليست قضية وادى النيل وحده ، ولكنها قضية جميع المسلمين ، وأن معركتهم هذه ضد الاستعمار الغاشم هى معركة حاسمة لا يقتصر أثرها عليهم وحدهم ، بل تؤثر أيضا على مصير الاستعمار فى سائر أقطار الإسلام ، ولذلك فأن أى تقصير أو عمل فى هذه المعركة الحاسمة من قبل الأفراد أو الجماعات أو الأحزاب والهيئات ، يوطد للعدو استمرار إحتلاله وعدوانه على أى جزء من أراضى مصر أو السودان إنما هو فى حقيقته نصر وتأييد لعدو الإسلام الغاشم ، وتعضيد له على الاستمرار فى إستعماره أقطار الإسلام الأخرى .

والنتيجة فأن كل من يخذل المسلمين فى دفعهم هذا العدو عن مصر والسودان ، أو يعقد عن نصرتهم ، أو يأتى بقول أو عمل ، من شأنه أن يساعد العدو ويمكن له من بقاء سيطرته فى مصر والسودان ، أو يفضل حكم هذا العدو على حكم المسلمين يعتبر مظاهرا لعدو الاسلام ضد المسلمين متخذا إياه وليا من دون المؤمنين وينطبق عليه الوعيد الشديد الذى جاء فى قول الله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا » . ويقول تعالى : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » ويقول تعالى : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » .

وقد قال الأئمة المفسرون أن معنى قوله تعالى « فإنه منهم » أى من جملتهم وحكمه حكمهم . هذا حكم الله وهذه حدوده « ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » : « يا أيها الذين آمنو إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

السيد الحميرى

للأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

إذا أنا حاولت أن أعرِّف القارئ الكريم بشاعر كالسيد له ناحية من نواحى الشذوذ فى بعض عقيدته فإننى فى الوقت نفسه أحاول أن أزف إليه من طرائف الأدب العربى عرائس تهديها قريحته الصافية وعروبته الصادقة وطبعه السليم أحاول أن أقدم له شاعرا مغمورا ، وكنزاً مستورا ، شاعراً حلو الشعر عذب الديباجة ، جذل العبارة . يستهويك نظمه ، ويقتحم على فؤادك أسره ، ويعمل فى نفسك عمل السحر لايواتيه فى الشعراء إلا أمثال أبى نواس وبشار وأبى العتاهية ممن طبعوا بطابع يضم جزالة إلى حلاولة . وسُموّاً إلى دنو قد أقاموا عمود الشعر العربى مشرق الديباجة وضاح المحيا ولئن كان السيد الحميرى ممن زلت بهم القدم فما كان زلله إلا غلوا فى حب دين سرى إليه من بيئة مضللة ولعل جانبه أقرب إلى الأمن من أمثال بشار وأبى نواس وغيرهم ممن نوهوا بالخلاعة ، وروجوا للدعارة ، وما طعن ذلك فى نواحيهم الفنية ولا حال دون الايمان بأدبهم ووضعهم فى مراتب الفحول ، وبعد فهل درس الناس شاعرا يوما على أنه صديق أو ناسك أو قديس إذ الوضع فى قائمة الصوفية والحنفاء . ولم يكن جدير أن يكون من الشعراء .

* * *

هذا الشاعر — إسماعيل بن محمد بن يزيد — من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية نشأ والشعر العربى فذ قوى لم يتسرب إليه وهن ولا ضعف فى أخريات أيام بنى أمية الذين أسلموا زمام اللغة العربية إلى البهاليل من بنى العباس فزادوها روعة . وصقلوها صقلا . وباركوا أدبها ، فأحفلوه خصوبة . ولد فى سنة ١٠٥ للهجرة فهو ناشىء منذ عهد هشام بن عبد الملك ذلك العهد الذى اشتدت فيه الدعوة الهاشمية وبدأ محمد بن على بن عبد الله بن عباس يطلب الخلافة لنفسه . ويحتج بأن

أبا هاشم بن محمد بن الحنفية أوصى بها له قبل وفاته ثم هو من البيت الهاشمى الذى هو أحق من بنى أمية بهذا الأمر وهـذا مبدأ معروف من قبل وله شيعة وأنصار حتى فى الشعراء من أمثال العزوق والـكميت وكثير وغـيرهم من شعراء الشيعة العلوية قبل أن يتحول الأمر إلى بنى العباس .

صادف هـذا المذهب هوى فى نفوس الناس وقامت له دعايات فصلها التاريخ فى كتبه وهفت إليه نفوس كثير من الشباب المولعين بكل جديد طريف . والثائرين على كل قديم سخيف ، ولا سيما إذا كان ذلك القديم شيئا طال أمده كعهد بنى أمية ، وحف به بعض المـكاره ومظاهر الشر كما كان فى خلافتهم أيضا ، وكان من أولئك الشباب المولعين بالدعاية الهاشمية والمصفقين لهـا والمجروفين بتيارها . شاعرنا الشاب الألمعى إسماعيل بن محمد (السيد الحميرى) وكان قد اتصل بمذهب الـكيسانية وهم قوم ينتسبون إلى المختار بن أبى عبيد الثقفى من الرافضة الذين ينصرون الابن الثالث من أبناء على ، محمد بن الحنفية وكانوا يدينون بأنه لم يمت وإنما تغيب عن الناس واحتجب عنهم حينا وسيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . وكانوا يقولون إنه فى الجبل بين أسد ونمر يحرسانه وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل وكان السيد الحميرى إذا سئل عن مذهبه أنشد :

سمى نبينـا لم يبـق منهم ... سـواه فعنده حصل الرجاء
تغيب غيبة من غـير موت ... ولا قتـل وسار به القضاء
وبين الوحش يرعى فى رياض ... من الآفاق مرتعها خـلاء
فحـل قبابها بشر سـواء ... بعقوتها له عسل وماء (١)
إلى وقت ومدة كل وقت ... وإن طالت عليه لها انقضاء
فقل للناصب الهادى ضلالا ... تقوم وليس عنـدهم غنـاء
فـداء لابن خولة كل ندل ... يطيف به وأنت له فـداء

وإن تعجب أيها القارئ الـكريم فعجب تلك العقائد المدخولة ، والمذاهب المرذولة وفى الحق إنها أفـكار بثها اليهود والمجوس فى الأمة الإسلامية ليردوهم

(١) العقوة ما حول الدار والعقوه شجر .

وليلبسوا عليهم ودينهم وهو مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلو جحر ضب لدخلتموه ، وقد عرف من عقائد اليهود أنهم كانوا يقولون إن الياس صعد إلى السماء وسيعود فيعيد الدين والحديث حول هذا الشاعر من هماته الناحية يطول . ولكن هذا أصل تعرف به كيف كان شعره فى هذا الموضع وحده من بين أغراض الشعر (١) وأنه كان أحيانا ينكر المدح المنبعث عن مطلب دنيوى وينعى على صاحبه .

روى صاحب الأغانى وصاحب غوات الوفيات أن السيد الحميرى وقف على بشار وهو ينشد شعرا فأقبل عليه وقال :

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج نفع المنزل العواد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه وتسم البخيل باسم الجواد

فقال بشار من هذا ؟ فأخبر به ، فقال لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بنى هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا فى مذهبنا لتعبنا ، وهى لعمر الله شهادة عظيمة من شاعر فحل ، ولو أن السيد كان قد قصر شعره على مدح بنى هاشم فقط لهان أمره ، ولكن عصبيته المقيتة دفعت به فى تيار من الإثم كان يسجله فى شعره ، وكانت الرواة تتحامى روايته تأثماً أحيانا ، وتقية أحيانا . فقد أظهر فى شعره خلطا دينيا ، وخبطا اعتقاديا ، وسب بعض الصحابة ، وبعض أمهات المؤمنين ، لخلافهم على على كرم الله وجهه ، ولولا ذلك الخبط لكان لنا ثمر شهى كثير وأدب رائع وفير من آثاره ، فانظر ما يقول صاحب الأغانى فى شأنه (٢) «كان شاعراً متفوقا مطبوعا يقال : إن أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والإسلام ثلاثة ، بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد ، فانه لا يعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر واحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب الصحابة وأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعره ، ويستعمله من قذفهم والطعن

(١) هو الاختصاص بمدح بنى هاشم والعصبية لهم .
(٢) ٧ - ٢٣٢ .

عليهم فتحومى شعره من هـذا الجنس وغيره لذلك ، وهجره الناس تخوفا وتراقبا ، وله طراز من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقاربه » .

كان السيد الحميرى إذاً من شعراء الشيعة يمثل نوعا من العصبية الدينية السياسية وكان السيد الحميرى يضم إلى تلك الناحية ناحية أخرى بغيضة من السلوك تلك هى استباحته ضروبا من اللهو والمجون ومعاقرة الخمر ، وحجته فى ذلك أوهى من حجته فى عقيدته ، فقد كان يفعل ذلك بحكم الدالة على محمد وآله ويقول إنهم شفعاء له ، وإن حبهم يمحو كل خطيئة ، يفعل ذلك وهو أمين بدينه فى زعمه ، ويفعل ذلك وهو آمن فى دنياه من سخط الولاة وإقامة الحد عليه لأن الولاة فى حاجة إلى مرضاة شاعر فحل ، فهم لا يهجونه ولا يتبحثون مساخطه ، وبخاصة أنه يجاملهم ويمدحهم لأنهم بنو هاشم ، ولأن الإمام المختبىء لم يظهر بعد ، وهؤلاء العباسيون وصية إبنة أبى هاشم ، على أننى أعتقد أنه لم يكن خالص الحب لبنى العباس ، وأنه كان ربما جاراهم وداراهم خلا أن بعض المتزمتين من أهل العلم والمروءة كانوا يكرهون ذلك المجون منه ، ويمقتونه أشد المقت ، ويحاولون إغراء الخلفاء به .

وكان سوار بن عبد الله قاضى البصرة للمنصور من هؤلاء وله معه أحاديث وحوادث يطول سردها ، ولكننى أذكر منها حادثة تلقى ضوءاً على بعض شعره فى الجملة مع ما تصوره من رأى القاضى فيه .

روى صاحب الأغانى بسنده قال : قال الحارث بن عبد المطلب :

كنت فى مجلس المنصور بالجسر وهو قاعد مع جماعة على دجلة بالبصرة ، وسوّار قاضى قضاة البصرة جالس والسيد بن محمد بين يديه ينشده :

إن الإله الذى لا شىء يشبهه أعطاكم الملك للدنيا وللدين
أعطاكم الله ملكا لا زوال له حتى يقال إليكم صاحب الصين
وصاحب الهند مأخوذاً برمته وصاحب الترك محبوسا على هون

والمنصور يضحك سروراً بما ينشده ، فحانت منه التفاتة فرأى وجه سوار يتربد غيظا ، ويسودّ حنقا ويدلك إحدى يديه بالأخرى ويتحرق فقال له المنصور مالك ؟ أرابك شىء ؟ قال : نعم هذا الرجل يعطيك بلسانه ما ليس فى قلبه ، والله

يا أمير المؤمنين ما صدقك ما فى نفسه وإن الذين يواليهم لغيركم . فقال المنصور مهلا هذا شاعرنا وولينا وما عرفت منه إلا صدق محبة وإخلاص نية ، فقال له السيد : يا أمير المؤمنين والله ما تحملت غضكم لأحد ، وما وجدت أبوى عليه فافتتنت بهما وما زلت مشهوراً بموالاتكم فى أيام عدوكم ، فقال صدقت . قال : لكن هذا وأهلوه أعداء الله ورسوله قديماً . والذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات فنزلت فيهم آية من القرآن (أكثرهم لا يعقلون)[١] وجرى بينهما خطاب طويل فقال السيد قصيدته التى منها :

يا أمين الله يا منصور يا خير الولاة
إن سوّار بن عبد الله من شر القضاة
نعثلى[٢] جملى من لكم غير مواة
جده سارق عنز فجرة من فجرات
لرسول الله والقا ذف بالمنكرات
وأمين من كان ينادى من وراء الحجرات
يا هناه أخرج إلينا إننا أهل هنات[٣]
مدحنا المدح ومن نر م يصب بالزفرات
فاكفيته لا كفاه الله شر الطارقات

واشتدت الخصومة بينهما ، وتكرر الشعر من هذا النوع ، حتى عزل المنصور سوّار عن القضاء على السيد ، ولم ينفعه احتياله فى اقصائه .

---

[١] هم قوم من تميم منهم عتيفه بن حصن والأقرع بن جابس .

[٢] نعثلى نسنة إلى نعتل كان يلنب يه عثمان هجاء له وجملى بسبة إلى الجل جمل عائشة .

[٣] يا هناه يا فلان وهنات كناية عما يستقبح - يهددون رسول الله .

السياسة الخارجية للإسلام

لحضرة الأستاذ الدكتور محمود فياض
مدرس التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

تحدثت إليك أيها القارىء الكريم فيما سلف ، عن مبادىء الإسلام السياسية والدستورية ، والاجتماعية والاقتصادية وأظهرت لك أنها أسمى النظم ، وأن كل النظم الحديثة ـ سواء منها الديموقراطية الرأسمالية ، أو الديموقراطية الاشتراكية ـ لا يمكن عن أن تصل مهما حاولت ، الى قريب مما تكفله المبادىء الإسلامية من سعادة للانسانية ، وخلصنا مما قدمته من بحوث الى أن الإسلام قد أقام دولة . لها كيانها وشخصيتها ، ولها دستورها العام ، وتشريعاتها لمواجهة الجزئيات والمستجدات ولها نظام خاص (هو النظام الإسلامى) تتميز به عن غيرها ، فى جميع أمور السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ثم حدثتك عن غاية الدولة الإسلامية ، وعن هدفها الأول . وهو الدعوة الى توحيد الله ، ونشر هدايته بين خلقه ، وتحقيق السلام والرخاء ، فى ظل الأخوة والمحبة . للبشرية كلها ؛ فإذا عرفت هذا فاعلم أيضا ، أن الإسلام دين عام للناس كافة ، ومن حق الناس الذين لم يعرفوه ، وحتم على عارفيه أن يبلغوه الى جاهلية ، ومن هنا تدرك معى بوضوح ، أنه لا بد من وجود صلات بين المسلم وغير المسلم ، ولا بد من قيام علاقات بين جماعة المسلمين « الدولة الإسلامية » وبين غيرها من الجماعات والدول فى بقاع الأرض ، فعلى أى أساس تقوم هذه الصلات ، وكيف تنظم تلك العلاقات ، وهل الأصل فيها الحرب أو السلام ؟ ؟ وهذا ما سنحاول الكشف عنه ، راجين التوفيق من الله ، وإليك هذه الكلمات !

أولا ـــ السلام طابع الدعوة : عرفت أن المسلمين قد ورثوا نبيهم عليه السلام ، وخلفوه على رسالته والحفاظ عليها ، وأن الأمة الإسلامية أمة مكلفة مسئولة ، وقد نيط بها تبليغ رسالة الرسول الكريم بعد أن لحق بالرفيق الأعلى ، الى جميع الخلق ، وأوجب الإسلام على المؤمنين دعوة الأمم الى الإسلام ، وإرشادهم

الى هداية الله ، والدعوة الى الإسلام — في عهد الرسول وبعده — دعوة مسالمه هينة لينة ، ليس فيها عنف ولا إكراه ، أتدرى لماذا ؟ لأن مبادىء الإسلام سهلة ميسرة للأفهام ، لا غموض فيها ولا أسرار ، مبادىء فطرية تتجاوب معها النفوس الفطرية ، وتهش لها العقول الزكية ، ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ؟ » والايمان بمثل هذه الدعوة يجب أن يكون إيمانا خالصا قائما على الاقتناع والاطمئنان القلبي ، وما لم يكن القلب مطمئنا الى الدعوة ومبادئها ، فمحال أن يحل فيه إيمان بها ، وهذا شأن العقيدة الدينية دائما ، بل شأن العقيدة مطلقا ، لا بد أن يتفتح لها القلب ليتركز فيه الايمان ، بعد الاقتناع البرهانى بمقرراتها ، وإذن فدعوة الاسلام يجب أن تسلك الطريق الطبعى الى القلوب والعواطف ، وطريق الوصول الى القلوب والعواطف ، طريق سلام وبرهان وحكمة ، ولم يكن يوما طريق حرب وإكراه وتعسف ، والناس أمام الدعوة أصناف ، صنف العلماء والحكماء ، وطريق دعوتهم « الحكمة » ومقتضياتها ، وصنف العامة وهؤلاء تستهويهم الموعظة الحسنة ، وضرب الأمثال ، والوصول بهما الى عقولهم وقلوبهم ، وصنف مجادل مكابر ، يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » ويعرفون الدعوة وصاحبها كما يعرفون أبناءهم ، وهم مع ذلك يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، وهؤلاء طريق دعوتهم حسن الجدل ، وهذا هو ما رسمه الله لرسوله عليه السلام إذ يقول له : « أدع الى سبيل ربك . بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » وهى خير الطرق الموصلة الى القلوب والعقول ، والتى تضمن الاقتناع والرضى وحسن الايمان ؛ وفى ذلك دلالة على أن السيف لا يبنى فى القلوب دينا ، ولا يؤسس عقيدة ، إذ لاسبيل للسيف الى القلوب ، لأن العقائد يبنيها القلب عن رضى واطمئنان لاعن جبر وقهر وإكراه ، وهكذا الدين الحق ، السليم المبادىء ، لا يحتاج فى توغله فى القلوب الى القهر والطغيان ! !

« لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى . . » « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ولقد أثبتت التجارب فشل كل المبادىء والدعوات التى اعتمدت على الإكراه والعنت ، وما كان لدين يطمئن الى قدسيته أن يتخذ القهر والعنف والإكراه وسيلة لإرغام الناس على قبوله ،

لأن مثل هذا لا يمكن أن تتقبله القلوب ولا تؤمن به ، وكفى أن يكون القهر وسيلته لتنفر منه القلوب ، لأنه بذلك يعلن عدم حقيقة ، وعدم صلاحيته ، ومن هنا تدرك مبلغ التجنى على الإسلام ، من أولئك الذين يزعمون : « إنه قام بالسيف ، واعتمد عليه ، واحتمى به » وهم يعلمون أنهم كاذبون ؛ وسأزيدك اقتناعا بكذبهم فيما سأعرضه عليك فيما بعد إن شاء الله ، ومن هنا أيضا تدرك أن الصلة أو العلاقة التى تكون بين المسلمين وغيرهم ، إنما تقوم على أساس هذه الدعوة ، دعوة المسلمين غيرهم الى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن ، والوسائل المادية التى تحمل الدعوة الى غير المسلمين هى . الكتب والرسل والوفود ؛ وقد تقبل الدعوة ، وقد ترفض رفضا سلبيا ، وقد ترفض رفضا مصحوبا بالأذى للرسل والوفود ، أو مصحوبا بحملة حربية ولكل حالة حكمها ، ووسيلة مجابهتها .

ثانياً — تأمين الدعوة والدفاع عنها : قد رأيت أن الإسلام ، يقرر الحرية الفكرية . حرية الرأى والاعتقاد ، وحرية التدين والعبادة ، وأنه جعل ذلك حقا فطر بالكل إنسان فى كل زمان ومكان ، يجب تمكينه من التمتع به دائما ، غير باغ ولا عاد ، ولا معطل لحق من حقوق الآخرين ، وإذا كان الاسلام يعطى هذه الحقوق لغير نبيه ، فبدهى أنه لا يحرم نفسه وأتباعه منها !! وإذن فمن حق المسلم أن يدعو الناس إلى الإسلام ، دعوة هادية رشيدة بالطرق السلمية التى تحدثنا عنها . ولكن ماذا يفعل المسلم إذا صودرت حقوقه وحرياته ، ومُنع من ممارسة ما وهبه الله له من حريات ، وصد عن الدعوة إلى الله بمختلف الوسائل ؟ أيستكين ويسلم لعدوه صغيرا ذليلا ، أم يحرص على مباشرة حقوقه ، ودفع العدوان عن دعوته وعن نفسه ؟ لقد حتم الإسلام على المؤمن أن يكون قويا عزيزا كريما ، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وألا يقبل الذلة والدنية ، لأن المسلم الذى يقبل الضيم لم يخالط الإيمان بالله قلبه ، أو ليس فى مصادرة حريات المسلم فى الدعوة إلى عقيدته استهانة به وبها ، واحتقار له ولها ؟ وكيف يقبل المؤمن الاستهانة والاحتقار ؟ ! وإذن فلا بد من تأمين الدعوة ، وحماية أصحابها والدفاع عنها !

أقام الرسول عليه السلام بمكة زمنا طويلا يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل المكيين بالتى هى أحسن ، ولقى الرسول والمؤمنون من المكيين أذى

كثيرا ، وكان المؤمنون يستأذنونه عليه السلام فى دفع أذى المشركين بسيوفهم ، فكان يقول لهم : « لم أومر بقتال . لم أومر بقتال » لأن الدعوة حينئذ فى طورها الأول لم تستنفد بعد كل الوسائل السلمية ، ويجب أن تستنفدها ، حتى تقيم الحجة على المعاندين ، وتقطع التعلل على المكابرين ، الذين ألفوا الشرك وورثوه كابرا عن كابر ، سيما والأذى لم يصل بعد مرحلة سفك دماء المسلمين ، وهو لهذا يمكن أن يحتمل رجاء أن يثوب القوم إلى رشدهم ، فلما عظم الأذى ، وفكر المكيون فى سفك دماء الرسول الكريم والمؤمنين به ، خرجوا من ديارهم مهاجرين ، ولكن المكيين تعسفوا وتعقبوا المسلمين وترصدوهم فى مهجرهم ، وقصدوهم بالعدوان ، ولم يعد البرهان صالحا لملاقاة السيوف ودفع شرورها ، وهنا « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير » . وهكذا قرر القرآن أن المسلمين قد ظلموا بمصادرة حرياتهم ، والعدوان عليهم ، وصدهم عن الدعوة إلى الله ، وأن المظلوم من حقه أن يدفع الظلم عن نفسه بالسيف والسنان ، إذا لم يسعفه اللسان والبرهان وبهذا يقرر الاسلام مشروعية الحرب ، دفعا للظلم ، وردا للعدوان ، وتأمينا للحريات ، وتمكينا لحرية التدين والاعتقاد ، ودفاعا عن الدعوة وأصحابها ؛ ويؤكد لك هذا المعنى قوله تعالى : « قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم . ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم . وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل . ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فأن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فأن انتهوا . فأن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة . ويكون الدين لله . فأن انتهوا . فلا عدوان إلا على الظالمين » . « الشهر الحرام بالشهر الحرام . بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم . فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله » . وأنت ترى فى هذه الأوامر الصريحة أن القرآن يحرم الحرب العدوانية التى لا يدفع إليها إلا فساد الفطر ، والطغيان ، والرغبة الآثمة فى استغلال الناس ، ومصادرة حرياتهم وحقوقهم الفطرية . واتخاذهم عبيد للطغاة كحروب الاستعمار فى هذه العصور ؛ بل إن تحريم العدوان مصحوب بإنذار المعتدين بغضب الله ، وهذا أمر يدفع المسلم دفعا جبارا إلى تجنب العدوان حرصا على حب الله ورضاه « ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين » .

وفى السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول عليه السلام كتبا ورسلا إلى كسرى وقيصر والنجاشي ومقوقس مصر والأمراء المجاورين لجزيرة العرب . فأما كسرى الفرسى فمزق الكتاب وأهان الرسول وحبسه ، وبعث إلى عامله على اليمن يأمره بإحضار هذا العربى الذى تجرأ على دعوته إلى دين يجهله ، وأما غيره — باستثناء النجاشى والمقوقس — فقد مزقوا الكتب ومنهم من عذب الرسل ، ومنهم من قتل الرسل وبالجملة قد قوبلت كتب الرسول ورسله مقابلة شاذة لم يتعود مثلها أهل الشرف والكرامة ، وقد توفى عليه السلام قبل أن يعاود دعوتهم إلى الله ، أو يغسل هذه الإهانة . وكان ذلك واجبا على خلفائه من بعده ، وقد قاموا بهذا الواجب ؛ واتصلوا بالفرس والروم والشعوب المجاورة للعرب ، واتبعوا فى صلاتهم بهم المنهج السلمى الذى سار عليه الرسول ، ثم المنهج العسكرى الذى قررت قواعده الأصلية بالوحى فى عهد الرسول ، ونحن نجمل ذلك فيما يلى :

يجب على المسلمين أن يعرفوا الناس بالإسلام ، ويبلغوهم رسالة الله . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وحينئذ يجاوزهم المسلمون إلى غيرهم ، فإذا اعتدى غير المسلمين ، أو صدهم عن الدعوة إلى الله ، فعلى المسلمين أن يردوا العدوان ، ويزيلوا العقبات التى تصدهم عن مباشرة حقوقهم فى الدعوة السلمية إلى عقيدتهم ، فإذا انتصر المسلمون ، ورفض العدو الدخول فى الإسلام ، وآثروا البقاء على عقائدهم . فلهم ما اختاروه ، ولكن عليهم الإذعان ، والخضوع للدولة الإسلامية ، وعليهم أن يشاركوا فى أعبائها « بالأموال المناسبة » وعلى الدولة حماية دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وضمان حرياتهم الشخصية والدينية « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » .

وإذا دعى المسلمون غيرهم إلى الاسلام ، فرفضوا الدخول فيه ، غير معتدين ولا محاربين ، ولا يحاولون فتنة المسلمين عن دينهم ، ولا يظاهرون أعداء المسلمين فهؤلاء موضع الرعاية والبر من المسلمين ، يدفعون الجزية مختارين غير مضارين

« لا ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

ولما كانت الدعوة الإسلامية دائمة خالدة ، وواجب المسلمين نحوها دائم مستمر ، أمر الله سبحانه بالاستعداد الدائم لحماية الدعوة ورد العدوان عن الإسلام وأهله ، وأمر المسلم أن يحمل القرآن فى يد والسيف فى أخرى داعيا إلى الله ، مجاهدا فى سبيل إعلاء كلمة الله « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » . . وعلى المسلم أن يكون دائما مسلما مستعدا البذل والتضحية ، ابتغاء وجه الله وصالح الإنسانية ، وليتذرع لذلك بكل أسباب القوة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وأنت ترى الدعوة إلى الجهاد ، والاستعداد الحربى الدائم ، مبعثه عدوان الأعداء علينا ومصادرتهم لحرياتنا ، وصدهم عن سبيل الله . ولو أنهم تركونا وشأننا ، لما رأوا سيفا مصلتا ، ولا جيشا محاربا ، ولكنهم قد عودونا الغدر والعدوان ، فأمرنا الله أن نكون لهم يقظين ، أقوياء مستعدين للنزال عند داعيه ، وما الفرق بين موقف الإسلام من الدعوة الى الجهاد والاستعداد الحربى الدائم ، وبين ما يسمونه اليوم : السلام المسلح ، أو التسلح من أجل إقرار السلام ؟ إن يكن ثمت فرق ، فهو أن سلامنا المسلح لا يقر الاعتداء على الضعفاء ، ولا المبادءة بالعدوان على الأقوياء ، ولا الغدر ولا الخيانة ، وإن السلام المسلح الحديث » يقر العدوان والطغيان والغدر ، على الضعفاء والأقوياء على حد سواء .

وإلى هنا يتضح لنا أن السياسة الخارجية للاسلام ، تقوم على أساس الدعوة إلى الإسلام ، وإلى الجهاد فى سبيل حماية العقيدة ودفع الظلم ورد العدوان ، وهذا الأساس هو الذى يحدد العلاقات الدولية وينظمها بين المسلمين وغير المسلمين ، أما كيف ينظم الإسلام العلاقات الدولية على هذا الأساس ؟ فهذا ما أحدثك عنه فى كلمة تالية بإذن الله ، والله يهدينا الى الحق ، ويوفقنا لخدمة الإسلام وإيقاظ المسلمين ؟

قصــــــة

لفضيلة الشيخ ابراهيم أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

الحديث فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متعة روحية ، وغذاء نفسى وجلاء للقلوب من صدأ الجهالة ، ودنس الجحود ، ووضر الغفلة والنسيان ، لأنهم أمثلة من الإيمان النقى ، والعقيدة القوية ، والدين الصحيح ، والعزيمة التى لا تعرف التردد ، ولا تألف النكوص ، ولا تستسيغ التخاذل والضعف .

وقد كان النبى الأمين ـ هدانا الله بهديه ، ورزقنا حسن الاقتداء به ـ لا يترك مناسبة من المناسبات دون أن يشيد بقدرهم ، وينوّه بذكرهم ، ويعلن عن حبه لهم ، ورضاه عنهم ، واعتزازه بهم ، من غير تفضيل لواحد على الآخر « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

ولعل السر فى ذلك أنهم لم يكونوا مؤمنين به ليدفعوا عن أنفسهم تهمة الكفر ومسبة المروق ، ووصمة التمرد على الله سبحانه وتعالى . ولكنهم كانوا مؤمنين بكل ما تحتمله كلمة الإيمان من معنى الإذعان والخضوع ، والانقياد والطاعة ، والبذل والفداء ، والجهاد والتضحية ، والإخلاص للدين ، والذود عن راية الإسلام ، ولهذا دوّت بهم صيحة الحق ، وزلزلت عروش الباطل ، وطارت تيجان الظلم ، ومادت صروح العسف والطغيان ، وجعل الله لهم المهابة فى أفئدة العدو الغاشم .

وكان الرجل منهم لا يعتبر نفسه فرداً منكوراً فى سواد الإنسانية ، يزيد فى حسابها ، ويخط الكاتبون اسمه فى ديوانها ، لمعرفة العدد ، وترتيب الجماعة ، إنما كان يجعل جوارحه وإحساسه ، وجهده وتفكيره ، وحبه وميله ، وعطفه ووده ، مصروفة كلها إلى العمل على أن تدرك الأسرة البشرية ممن تربطه بهم الروابط ، وتصله بهم الوشائج ، أنه يكمل نقصها ، ويدعم بناءها ، ويؤدى وإياها رسالة للنهوض والعمران ، والرقى والتقدم ، والحضارة والتمدن ، والسياسة والإصلاح .

وبذلك حققوا الأخوة التى أرادتهم عليها الشريعة ، وساقتهم اليها التكاليف ، وهذبتهم بها تربية السماء .

وهذه حادثة جرت المناوشة فيها بين اثنين منهما ، ثم لم تزد على أن تجلت عن أدب جم ، وحرص على دوام الصلة ، ورغبة أكيدة فى نمو الحب ، وازدهار شجرة المؤاخاة .. مع أن الظروف التى أحاطت بها ، والملابسات التى اكتنفتها ، كان الشأن فيها ألا يجد المتلمس فيها سبيلا إلى الصفو ، ولا مرتعاً إلى الرضا والصفح ، والعفو والتسامح

وتفصيل ذلك أن عثمان رضى الله عنه ماتت زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان حزنه عليها شديدا ، وأسفه لفراقها أليما ، وهمه بفقدها بالغا ، وبثه من جراء ما حل بها يتجاوز غاية الاحتمال ، لا لأنها كانت تواسيه فى الشدائد ، وتعينه على المصائب ، وتؤازره لدى المحن ، وتمسح عليه حين تعركه خطوب الأيام والليالى ، وهنالك يزول ما أصابه ، ويهون ما غشيه ، ويخف وقع الضربات التى تسددها نحوه المقادير .

بل كان حزنه إلى جوار ذلك وذلك أنها ابنة ذلك الرجل الذى وضع الله مصير العرب والعجم بيده ، وجعل حديثه على الأفواه ، وشريعته ناسخة للشرائع ، وكتابه معجزاً للناس ، ومكانته لا يتسامى إليها متطلع ، ولا يشرئب إليها عنق ، ولا يدانيها متوثبٌ طموح ، وإن شرف الانتساب إليه توفيق من الله الذى يهيمن على ملكوت السموات والأرض ، وما كانت تخطر بخياله الداهية بموتها إلا ثارت فيه نوازى الغضب ، وبراكين الحسرة ، وعواصف الكآبة العميقة .

وكان كل كلام يخرج عن نطاق العزاء أو المجاملة فى إبداء الأسف لا يجد الأذن التى تسمع ، ولا القلب الذى يسعى ، وبينما عثمان فى غمرته هذه جاء إليه عمر يعرض عليه ابنته حفصة ، وربما كانت هذه شنشنة كثير من العرب فى زواج بناتهم ، وليس من العيب أن يختار الأب لابنته ، أو يذكرها للكفء من ذوى الأحساب العظيمة ، والأنساب الشريفة ، والأعراض الطاهرة ، والسلوك الحميد .

ولذلك لم يكن فى صنيع عمر من الغضاضة ما يستأهل معه الإعراض والإنصراف .

فلما قابله صاحبه بالإغضاء ، وجازاه على عنايته به ، واهتمامه لأمره ، هـذا الجزاء كانت دهشته داهشة ، وذهوله كبيراً ، وأخذ الألم يحز فى نفسه حزّ السكين فى قلب المذبوح ، ولم يسعه إلا أن يذهب إلى الرسول الكريم يقص عليه قصته وقصة عثمان معه ذلك الذى أنساه هول المصاب أن الذى يكلمه عمر بن الخطاب ، وأنه لا يكلمه كلاما وكفى .

وكيف يكون كذلك وهو يعرض عليه أن يجعل ابنته « حفصة » فى مكان رقية التى فرق الله بينه وبينها ، وقطع أسبابه عن أسبابها ، فلم يعد له منها سوى الذكرى الممضه ، واللوعة المقضه ، والحزن الحار .

وكان عليه أن يعلم أن عمر لم يقصد إلى حاجة ابنته بمقدار ما قصد إليه هو من العزاء والسلوى ، والمجاملة والتصبر .

ومثلَ الفاروق بين يدى النبى صلى الله عليـه وسلم يشكو له مُرّ الشكوى ما لاقاه من عثمان .

وجاء عثمان ــ كذلك ــ يشكو عمر ، وجعل الرسول يقلّب القضية على وجوهها ، وينظر إلى الخصمين فى معنى من الاشفاق والعطف ، قائلا لكل واحد منهما إن المسألة أقل مما يخلع كلاكما عليها من الأشكال والألوان ، ولما ذهب ما بهما من حدة الغضب ، وثورة الألم .

قال ياعثمان ليست زوجتك أول حى يموت ، والناس كلهم للفناء ، لأنهم بدؤا من التراب ولابد أن يعودوا إليه .

فلا تذهل هذا الذهول وتنسى ما يجب عليك لله والناس .

وهنالك اختنقت العبرة عثمان وقال له بصوت منقطع : والله يارسول الله ما فعلت ما فعلت إلا لخوفى أن تزول وشيجتى بك ، وآصرتى منك .

وحينئذ ساد الصمت المجلس كله ، وانطلق صوت القاضى يقول يا عمر سيزوج الله ابنتك خيراً من عثمان وسيزوج عثمان خيراً من ابنتك .

وانصرف الرجلان تبدو نواجذهما من الرضا والارتياح ، والسرور والبشر .

ثم تكشفت الأيام فيما بعد عن زواج النبى بحفصة ، وزواج عثمان بأم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

مدرسة فيثاغورس

للأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد

اشتهرت المدرسة الفيثاغورية فى التاريخ شهرة واسعة ، ولو أن معلوماتنا عنها يسيرة ، لأن كل ما يتعلق بفيثاغورس وحياته يكتنفه الغموض ، ويضيف إليه المتأخرون كثيراً من المبالغات ، التى تخرج عن حد التأريخ الصحيح الذى يرتفع إلى مرتبة اليقين .

وهى أول مدرسة فلسفية فى اليونان ، لأن المدرسة الملطية التى قامت فى ملطية من أعمال آسيا الصغرى ، والتى بدأت بطاليس ثم بأنكسمندر ، ثم بأنكسمانس ، لم تكن مدرسة بمعنى الكلمة ، لها مكان خاص ، وفيها تلاميذ متعددون . كل ما فى الأمر أن أنكسمندر « صاحب » طاليس ، وكذلك أنكسمانس « صاحب » أنكسمندر ، عنه أخذ العلم والفلسفة ، وإنما نقول إنه كان تلميذه تجوزا .

أما مدرسة فيثاغورس التى أنشأها فى كريتون ، فهى مدرسة على الحقيقة : إذ تضم بين جدرانها مئات من الطلاب ، اجتذبتهم شخصيته القوية ، وتعاليمه المنوعة ، واستعداده لاستقبال النساء والرجال على حد سواء . وبذلك وضع فيثاغورس ، قبل أفلاطون بقرنين من الزمان ، مبدأ شيوعية النساء ؛ ولم يعلن ذلك نظراً ، بل عملا . ومع ذلك فإنه كان يميز بين الجنسين تبعا للاختلاف الطبيعى بينهما ، فكان يعلم المرأة الفلسفة والآداب ، كما كان يعلمها تدبير المنزل والأمومة ، حتى لقد اشتهرت المرأة الفيثاغورية فى الزمن القديم بأنها أفضل نساء الإغريق .

ولقد تأسست مدارس فلسفية فيما بعد ، مثل أكاديمية أفلاطون ، ومدرسة المشائين لأرسطو ، ومع ذلك لم نسمع أنها كانت تتسع لهذا العدد الكبير من الطلاب ، أو كانت تضم الذكور والإناث . اللهم إلا مدرسة أفلوطين التى أنشأها فى روما ، فقد ذكر المؤرخون أسماء بعض النساء ممن كن يحضرن دروس الأستاذ .

ووضع فيثاغورس قواعد للطلبة تجعل من المدرسة كأنها دير أو معبد : فهم يقسمون يمين الولاء للأستاذ ، وكانوا يقتسمون كل شيء فى أثناء الطلب ، ويمتنعون عن أكل اللحم والبيض والفول . ولم يكن الخمر ممنوعاً ، ولكن المندوب شرب الماء القراح . وكان محرما على الطالب أن يقتل الحيوانات التى لا تؤذى الإنسان ، أو أن يقطع شجرة نامية . وكانوا يلبسون ملابس بسيطة ، ومما يؤثر أنهم كانوا يلبسون البياض ، ويتصفون بالتواضع ، ويعتدلون فى مظهرهم ، فلا يكثرون من الضحك أو يظهرون بمظهر العبوس . ولا يحلفون بالآلهة « لأن واجب المرء أن يكون صادقا بغير قسم » . وفى آخر كل يوم ، كانوا يحاسبون أنفسهم ، فيسألونها ما الشر الذى ارتكبه الواحد منهم ، وما الواجب الذى أهمله ، وما الحسن الذى قام به .

وكانت سيرة فيثاغورس هى القدوة للتلاميذ ، فكان يطبق هذه المبادئ على نفسه بغاية الدقة ، حتى ذاعت سيرته فى الناس ، وأقبل عليه الطلاب أفواجا بدافع من الحب والإجلال . ويروى أنه لم يشرب خمراً فى النهار ، وكان يعيش على الخبز والعسل والخضر ، وكان لباسه أبيض نظيفاً ، ولم يسرف أبداً فى تناول الطعام ، ولم يكثر من الضحك أو الإشارة أو الثرثرة . ولم يعاقب أحداً حتى لو كان من طبقة العبيد .

ويروى أنه لم يتزوج قط ، على أن بعض الروايات التاريخية تحدثنا أنه صاهر أحد تلاميذه ، وهو « بروتينوس » Brotinus ، فيقال إنه تزوج ابنته « ثيانو » Theano . وتحدثنا بعض الروايات الأخرى أن ثيانو كانت زوجة بروتينوس ، وأنهما معاً كانا من تلامذة فيثاغورس ، وتحدثنا رواية ثالثة أن زوجة بروتينوس هى « دينونو » Deinono ، وكانت امرأة موهوبة مفرطة فى الذكاء ، ومن جملة تلاميذ المدرسة . وقيل إن دينونو هى ابنة فيثاغورس .

ويشترط فيمن يرغب الالتحاق بمدرسة فيثاغورس ، أو فرقته عدة شروط ، منها طهارة البدن وذلك بالامتناع عن أكل اللحم ، وطهارة النفس وتصفيتها بدرس العلم . وكان التلميذ مطالباً « بالصمت » خمس سنين ، وأن يتعود الطاعة فيقبل التعاليم بدون أسئلة أو جدال ، ثم يصبح له بعد ذلك الحق فى عضوية الجماعة ، وأن يتلقى

العلم عن فيثاغورس شخصيا . ذلك أن القرب من المعلم حظوة لا ينالها إلا الصفوة من التلاميذ أو الأتباع .

وكان التلاميذ على ضربين : مريدون Mathematikoi ، ومستمعون Akonsmatikoi . أما المريدون ، فعددهم قليل ، وهم خاصة الفرقة الذين يعرفون أسرار تعاليم فيثاغورس . على حين أن المستمعين ، وهم أغلب الجماعة ، فكانوا حلقة واسعة لا يسمح لهم إلا باستماع القشور من التعاليم بغير تفسير دقيق .

والمنهج نوعان : علمى ودينى ، أما العلمى فيتكون من أربعة مواد هى : الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . أما الدينى فيتعلق بعقيدة فيثاغورس فى التناسخ .

ومن المبادىء المفروضة على الأتباع الاحتفاظُ بسرية التعاليم ، وكان عقاب من يفشى الأسرار هو الطرد ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه السرية كانت متبعة بدقة إلى حد أننا لم نعرف شيئا عن أسرارهم إلا فى عصر أفلاطون . عند ما كتب « فيلولاوس » وهم من الفيثاغوريين ، تحت سلطان الحاجة إلى المال ، كتابا فى ثلاثة مجلدات . اشتراه منه « ديون » حاكم سراقوسة ، حسب طلب أفلاطون ، ويذهب آخرون إلى أن العلم بالنظريات الهندسية تسرب فى حياة فيثاغورس نفسه بخيانة بعض الأعضاء أو بسبب آخر ، ويروى أن « إيباسوس » Hippasos ، وهو من تلاميذ فيثاغورس ، عوقب بالطرد لخيانة من هذا القبيل ، ولأنه أفشى طقوسهم بغرض الإساءة اليهم .

وكما كان فيثاغورس شديداً فى نظامه الخاص بتعاليم المدرسة ، كان كذلك شديداً فى القبول بها ، حتى لقد رفض التحاق « سيلون » Cylon ، وهو نبيل غنى لسوء أخلاقه ، فأسرها سيلون فى نفسه ، وحارب فيثاغورس حتى قضى عليه فى كروتون .

كانت طريقة التعليم سماعية ، بالتلقين والرواية ، وكان التلاميذ يرجعون دائماً إلى العبارات التى ينطق بها ويحفظونها ، ومع ذلك فنحن لا نجد بين أيدينا شيئاً من هذه العبارات .

ومع ذلك يروى أنه ألف ودون ، ويذكرون له عبارة وردت فى بعض كتبه

هذا نصها « أقسم بالهواء الذى أتنفسه ، وبالماء الذى أشربه ، أنى لن أعدل عن هذا المذهب » . ويروى كذلك أن فيثاغورس كتب كتباً عزاها إلى « أورفيوس » وهذا دليل على أن بعض الكتابات الأورنية من عمل فيثاغورس .

أما الذين يذهبو ن إلى أن فيثاغورس لم يدون كتبا ، فيقولون إن ما ظهر من كتب تتعلق بمذهبه ، فهى من قلم بعض أتباعه ، مثل ايباسوس ، وليسيس Lysis وأستون Aston .

وتفرعت عن المدرسة بعد موت صاحبها فرقتان ، فرقة أخذت بالجانب العلمى والرياضى ، وأخرى عنيت بالمذهب الدينى ، ويرجع ذلك إلى الميل الطبيعى لا إلى تمييز فيثاغورس .

وسوف نتحدث فيما بعد عن هذين الجانبين للمدرسة ، نعنى الرياضة والدين

التنزيه الخالص

قال الله تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم) .

وقال على كرم الله وجهه ورضى عنه : (كل ما يتصور فى الأوهام فالله بخلافه) .

وقال الشافعى رضى الله عنه : (من انتهض لطلب مدبِّره فان اطمأن إلى موجود ينتهى اليه فكره فهو مشبه : وإن اطمأن إلى نفى محض ، فهو معطل ؛ وإن اطمأن إلى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحِّد) .

الأدب العربى

فى عهد الأمويين

للأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت

الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٢ —

تولى معاوية بن أبى سفيان أمور المسلمين والأمة طوائف متعادية وفرق متنابذة وجماعات متنافرة متشاكسة. ولكنه لم يترك سبيلا لتوطيد عرشه وتأييد ملكه إلا سلكها. فأحيانا تكون وسيلته إلى ذلك المال. فهو يسخو فى بذله ويخف لمنحه حين يكون المنح والإعطاء مدعاة إلى تأليف القلوب وتسكين الأحقاد. وقد جعل عطاء الحسن والحسين ألف ألف درهم بعد أن كان خمسة آلاف أيام عمر بن الخطاب كما أغدق هو وخلفاؤه على أبناء الأنصار والمهاجرين ليشغلهم بالدنيا ومتاعها والحياة ولهوها ومفاتنها عن المطالبة بالخلافة حتى صار الحجاز مباءة الترف والفساد وانتشر فيه الغناء وشغل الكثير ممن ضعف وقارهم وخفت موازين الدين فى أنفسهم بما دفع إليه الترف من إقبال على اللذات وإيثار للشهوات يقول السعودى فى مروج الذهب (كان معاوية يجلس فى مجلسه ويقول: إرفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا فيقوم الرجل فيقول استشهد فلان. فيقول افرضوا لولده ويقول آخر: غاب فلان عن أهله فيقول تعاهدوهم. أعطوهم. اقضوا حوائجهم. أخدموهم.

وعمد معاوية إلى الشعراء فقربهم وأثار شاعريتهم ودفعهم إلى الإحسان والتجويد دفعا بما أفسح لهم فى قلبه ومنحهم من سمعه وخلع عليهم من عطايا وأغدق من هبات ومنح حتى جعل لهم نصيباً فى بيت المال. وكذلك اتبع خلفاؤه من بنى أمية سنته وآثروا طريقته ليشتروا ألسنتهم ويرضوا رغائبهم بما تفيض به قرائحهم من جيد المدح ورائع القول ومتخير القصائد.

فهذا عامل أثار عواطف الشعراء وجعل للأدب سوقا رائجة وبضاعة نافقة وجعل الحياة تزخر بهذا التراث العبقرى الخالد الذى نطالعه فلا ينتهى إعجابنا ولا يتضاءل تقديرنا وإكبارنا . ولقد ظل الشعراء يأخذون عطاياهم من بيت المال حتى أبطل ذلك الخليفة الصالح الورع عمر بن عبد العزيز فى عهده ثم لم تلبث هذه الحال أن عادت بعد موته إلى ما كانت عليه . ومما يؤثر عنه أن الشعراء وقفوا ببابه بعد توليه الخلافة حتى طال بهم الوقوف . فكلمه عدى بن أرطاة وكان أثيراً عنده فقال له إن الشعراء ببابك وأقوالهم باقية وأسنهم مسنونة . فقال يا عدى مالى وللشعراء . قال يا أمير المؤمنين إن النبى صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى وفيه أسوة لكل مسلم . فسأله عمن بالباب من الشعراء فجعل عدى كلما ذكر له شاعراً عد عليه من قوله ما يفسقه به أو يكفره ولم يأذن إلا لجرير فلما مثل بين يديه قال له : اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقاً فأنشأ يقول :

كم باليمامة من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
ممن يعدك تكفى فقد والده ... كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلا من الجن أو مسا من البشر
خليفة الله ماذا تأمرن بنا ... لسنا إليكم ولا فى دار مُنتَظَرِ (١)
ما زلت بعدك فى هم يؤرقنى ... قد طال فى الحى إصعادى ومنحدرى
ما ينفع الحاضر المجهودُ بادينا ... ولا يعود لنا باد على حَضِرِ (٢)
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
أتى الخلافة إذ كانت له قدرا ... كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

فقال يا جرير والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلاثمائة فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله . يا غلام أعطه المائة الباقية فقال يا أمير المؤمنين أنها لأحب مال كسبته إلى ثم خرج وهو يقول خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وإنى عنه لراض ثم أنشأ يقول .

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطانى من الجن راقيا

---

(١) لسنا إليكم . أى لسنا واصلين . ومنتظر أى انتظار . (٢) الحضر ضد البادى .

وكان من سياسة الخلفاء الأمويين إغراء الشعراء ببعضهم ودفعهم إلى التهاجى ليُشْغل الناس بمهاتراتهم وأهاجيهم عن الشغب عليهم وتتبع أخطائهم كما كانوا يغضون عن زلاتهم ويتغافلون عن هفواتهم ويحلمون إزاء سيئاتهم حتى يستلُّوا من نفوسهم النقمة وينتزعوا منها الحقد والغضب .

يروى صاحب الأغانى (١) أن عبد الرحمن بن حسان شبب بأخت معاوية فغضب يزيد ودخل على معاوية فقال يا أمير المؤمنين أقتل عبد الرحمن بن حسان قال ولم قال إنه شبب بعمتى قال وماذا قال : قال إنه يقول :

طال ليلى وبت كالمحزون ومللت الثواء فى جيرون

فقال معاوية وما علينا من طول ليله وحزنه أبعده الله قال إنه يقول :

فلذاك اغتربت بالشام حتى ظنّ أهلى مرجمات الظنون

قال يا بنى وما علينا من ظن أهله قال إنه يقول :

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغو اص ميزت من جوهر مكنون

قال صدق يا بنى . إنها لكذلك قال إنه يقول :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضرا ء تمشى فى مرمر مسنون

قال لقد كذب فى هذا يا بنى . ثم استنشده القصيدة فأنشده . فقال يا بنى ليس يجب القتل فى هذا والعقوبة دون القتل . ولكننا نكفه بالصلة والتجاوز وقيل إن هذا الغزل كان فى بنت معاوية وإن عبد الرحمن قد استمر يشبب بها ومن ذلك قوله .

رمل هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى

إذ تقولين عمرك الله هل شيء وإن جل سوف يسليك عنى

وكلما ألح يزيد على أبيه بقتله قال له ليست العقوبة من أحد أقبح منها من ذوى القدرة . ولما قدم عبد الرحمن على معاوية وكان يدخل فى أخريات الناس أجلسه على سريره وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال له : إن ابنتى الأخرى عاتبة عليك . قال فى أى شيء قال لأنك مدحت أختها وتركتها . قال فلها العتبى أنا ذاكرها . فلما فعل علم الناس أنه كاذب فى غزله ببنت معاوية لأنه ليست له إلا بنت واحدة .

---

(١) حـ ١٣ صـ ١٤٩ .

وكذلك كان من أساليب الخلفاء أن يشغلوا الناس عن خلافتهم ويصرفوهم عن ملكهم بإثارة العصبيات وبعث الحزازات وذكر الخصومات الجاهلية التى أماتها الإسلام وقضى عليها فاستحييت بينهم المفاخرات وقويت المنافسات الحاقدة وانقسم المسلمون إلى أحزاب وشيع . وطوائف وفرق . وعناصر متحفزة ثائرة . كل عنصر يناصب أخاه العداء ويضمر له البغض والكراهية ويخلق له من المثالب والنقائص ما يثير حفيظته ويهيج ضغنه . ظهرت فيهم اليمنية والمضرية . وكانت المضرية تؤيد معاوية وتسنده . وقد استطاع أن يستند كذلك على اليمنية إذ كان متزوجا ميسون بنت بحدل أم يزيد وهى من قبيلة كلب من اليمنية .

وقد لعبت هذه العصبيات دورها فى التمكين لهذه الدولة وتقوية أسباب بقائها . على أنها من ناحية أخرى كانت من أسباب سقوطها وزوال حكمها . فقد عمدت اليمنية جاهدة فيما بعد لانتصار العباسيين والتمكين لقيام دولتهم .

ولعل من أوضح الأمثلة على اضطرام العصبيات وإثارة الحزازات ما يرويه المبرد (١) من أن يزيد بن معاوية لما غضب على الأنصار حاول أن يدفع كعب ابن جعيل التغلبى إلى هجائهم . فقال له كعب أأهجو الأنصار أرادى أنت إلى الكفر بعد الإسلام ولكن أدلك على غلام من الحى كأن لسانه لسان ثور (يعنى الأخطل) فأغرى يزيد الأخطل بهم فقال يهجوهم :

لعن الإله من اليهود عصابة ... بالجزع بين صليصل وصرار (٢)
قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمرا عيونهم من المسطار (٣)
خلو المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بنى النجار (٤)
ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

ولما سمع النعمان بن بشير الأنصارى هذا الهجاء دخل على معاوية فحسر عمامته

(١) رغبة الآمال جـ ٢ ص ٢٠٧ .
(٢) صليصل : موضع على سبعة أميال من المدينة . وصرار بكسر الصاد موضع على ثلاثة أميال .
(٣) المسطار : الخمرة المتخذة من أبكار العنب حديثاً .
(٤) المساحى : جمع مسحاة وهى مجرفة من حديد .

عن رأسه . ثم قال يا معاوية أترى لؤماً ، فقال ما أرى إلا كرماً . فقال النعمان يتهدده ويتوعده :

معادى إلا تعطنا الحق تعترف لحى الأزد مسدولا عليها العمائم [١]
أيشتمنا عبد الأراقم ضلة فما الذى تجدى عليك الأراقم [٢]
فما لى ثأر دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنك الدراهم

فلما سمع معاوية هذه القصيدة أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه ، فاستجار بيزيد فمنعه وأرضى النعمان حتى كف عنه .

وكان بنو أمية لشدة حرصهم على ملكهم ، ورغبتهم فى رفع الخطر ورد عدوان الطامعين لا يترددون فى القضاء على منافسيهم . وتشريد من تحدثه نفسه بالوثوب على ملكهم . حاربوا الخوارج ، وقعدوا لهم كل مرصد ، وتعقبوهم فى كل مكان ونكلوا بمن وقع منهم فى قبضة أيديهم أشد تنكيل ، وتتبعوا العلويين فسفكوا دماءهم ، ومثلوا بهم فى عنف . كما كان حكامهم وولاتهم يزدلفون إليهم بالقضاء على الخوارج وقتلهم وتشريدهم . كانوا كذلك يتقربون إليهم بالعدوان الغاشم على العلويين .

ولقد رثى شعراء الخوارج والعلويين قتلاهم ، وصوروا فى قصائدهم وأشعارهم بما حل بهم من ظلم ، وما لاقوا من عسف ، واستطاعوا بما صدر عنهم من قول رائع مؤثر أن يكتسبوا قلوب الناس ، وأن يبعثوا فيها السخط والضغينة على هؤلاء الظالمين .

على أن الحق أن معاوية كان يسع بحلمه وصفحه من يجهل عليه بلفظ أو يخاشنه فى قول ، وهو الذى كان يقول : لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل له : وكيف ذلك فقال إن هم شدوا أرخيت ، وإن أرخوا شددت . وإن لم تكن إلا كلمة يشتفى بها قائلها لجعلتها دبر أذنى وتحت قدمى . ويقول فى إحدى مقالاته (إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس

---

[١] تعترف : تصبر . لحى الأزد : أى لشيوخ الأزد .
[٢] الأراقم : حى من تغلب منهم الأخطل وجعله عبيدهم تحقيراً له .

فأحمل ذلك وأصفح . وبمثل هذه المعاملة اللينة استقر الأمر لبنى أمية ، وتوطدت أركان ملكهم ورست دعائم حكمهم . على أن هذه الدولة كانت كما يقول الجاحظ عربية أعرابية يحرص خلفاؤها على الصبغة العربية فى منطقهم ، وفى مظاهر حياتهم فحافظوا على الأساليب الرفيعة ، وبعثوا بأبنائهم إلى البادية رغبة فى تقويم ألسنتهم وتصحيح سلائقهم وخطرهم ، وتعهدوهم برواة الشعر وحفظته . ولقنوهم غرائب القصائد ، واستقدموا لهم المربين والمؤدبين حتى نفقت سوق الأدب ، وراجت بضاعته ، وأصبح الخلفاء مقصد الشعراء ، ومثابة الرواة من كل فج . بل إن الخلفاء أنفسهم كانوا يجمعون الشعراء فى مجالسهم ، ويستنشدونهم وينقدونهم ، ويسألون بعضهم رأيهم فى معانى الآخرين ، ويعقبون على هذه الآراء بالموافقة أو المراجعة . ومجالس عبد الملك بن مروان وتقريبه للشعراء ، وكثرة سؤاله من أشعر الناس ، ومن أغزل الناس ، أو أمدح الناس ، وأى بيت أهجى أو أفخر أو أغزل ، مشهورة معروفة .

قال شيخ لابنه يشكو عقوقه

غذوتكَ مولوداً ومنْتك يافعاً ... تعلُّ[1] بما أجنى[2] عليك وتنهلُ[3]

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبتْ ... لسقمك إلا ساهراً أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طُرِقتَ به دونى فعينى تهمل

تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيها أؤمل

جعلت جزائى غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترعَ حقَّ أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

---

(١) عل شرب مرة بعد مرة (٢) أجلبه وأحضره إليك (٣) نهل شرب المرة الأولى حتى روى . والمراد تتغذى بما أجلبه إليك من المأكول والمشروب بقدر ما تحتاج وتشتهى .

لغويات

لفضيلة الأستاذ محمد على النجار

الأستاذ بكلية اللغة العربية

السُّبحة ، التسابيح ، المِسْبَحَة ..

تستحب الشريعة الإسلاميّة للمؤمن فى بعض المواطن عددا من التسبيح ، والتحميد ، والتكبير . وتطلب أيضا من المؤمن عددا من الذكريأتى به رغبة فى الثواب والعلى من الدرجات .

ففى صحيحى البخارى ومسلم من حديث طويل : « تسبّحون وتحمّدون وتكبّرون خلف كل صلاة ، ثلاثا وثلاثين » وفى صحيح مسلم : « من سبح الله دُبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . غفرت له خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر » وفى صحيح مسلم أيضا : « من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة . غفرت له ذنوبه وإن كانت أكثر من زبد البحر » .

وقد كان المسلمون فى مبدأ الأمر يستعينون على عد هذه الأذكار بعقد الأصابع ، وما يزال هذا مألوفا عند كثير من الناس ، وهو أدنى إلى يسر الدين ، وأنأى عن مظاهر الرياء .

ولقد روى أبو داود والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح بيده . وروى أبو داود أيضا عن بسيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أمرهن أن يراعين بالتكبير والتقديس والتسبيح والتهليل ، وأن يعقدن بالأنامل فإنهن مسئولات مستنطقات . وظاهر أن الأمر ليس مقصورا على التسبيح وحده ، بل يراد التسبيح وقريناه التحميد ،

والتكبير . وإنما اقتصر على التسبيح لأنه المبدوء به فى أكثر الروايات . ويقول ابن حجر فى فتح[١] البارى : « وقع فى أكثر الأحاديث تقديم التسبيح على التحميد وتأخير التكبير . وفى رواية ابن عجلان تقديم التكبير على التحميد خاصة . . . وهذا الاختلاف دال على أن لا ترتيب فيها » فقد صار التسبيح فى هذه المواطن يعنى به الأذكار الثلاثة ، بل يعنى به غير ذلك من أنواع الذكر ؛ قال فى النهاية : « وقد يطلق التسبيح على غيره من أنواع الذكر مجازا ؛ كالتحميد والتمجيد وغيرهما » .

وقـــد كان بعضهم يستعين فى العد بالنوى ، وبعضهم بالحصى . روى الترمذى والنسائى عن صفية قالت : دخل على رسول الله صـــلى الله عليه وسلم وبين يدى أربعة آلاف نواة أسبح بهن . وروى أبو دادود الترمذى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه دخـل مع النبى صلى الله عليه وسلم على امرأة وبين يديها نوًى أو حصى تسبح به . وفى طبقات ابن سعد أن سعد بن وقاص كان يسبح بالحصى . وفى طبقات ابن سعد أيضا عن أبى هريرة أنه كان له خيط فيه ألفا عقدة ، فلا ينام حتى يسبح بها .

وهذا هو الأصل فى اتخاذ السبحة . وقد استبدل بالعقد الخرزات تنظم فى خيط ويعد بها .

وجاء فى الأخبار تسمية الأداة التى يعد بها الذكر تسابيح وسبحة . وفى مسند الفردوس للديلمى عن على مرفوعا : نعم المذكر السبحة . وفى ابن أبى شيبة عن زادان قال : أخذت من أم يعقور تسابيح لها ، فلما أتيت عليا قال : اردد على أم يعقور تسابيحها .

وترى أنهم جعلوا لها اسمين من التسبيح : إذ كان التسبيح أول الأذكار وأظهرها فقالوا تسابيح وسبحة .

وظاهر الأمر أن الآلة تسمى تسابيح بصيغة الجمع ؛ إذ كانت كل نواة أو خرزة أو عقدة تسبيحة أى تعد بها التسبيحة بمعناها العام ، فهى عدة تسبيحات . ويرى الشهاب الخفاجى أن الآلة تسمى التسبيح ، وتجمع على التسابيح . وهو يقول فى

(١) أبواب الامامة من كتاب الصلاة .

شفاء الغليل فى حرف التاء : « تسبيح مصدر سبح بمعنى قال : سبحان الله ، وبمعنى المسبحة — ويقال لها السبحة — » وهو يستشهد يقول أبى نواس :

التسابيح فى ذراعى والمصـ حف فى لبتى مكان القلادة

والمألوف أن يحمل المتعبد سبحة واحدة لا سبحات ، وكذلك ما جاء فى خبر أم يعقور السابق ، فالظاهر أنه أخذ منها سبحة واحدة . وسيمر بك كلام فى بيت أبى نواس .

والسبحة صيغت من التسبيح ، كالسخرة من التسخير ، فأصلها التسبيح ثم سمى بها الآلة التى يعد بها التسبيح . وقد درجت المعاجم على إثبات هذه الكلمة والتعريف بها ، وأهملت الكلمة الأخرى « التسابيح » وإنما أثبتها الخفاجى كما رأيت .

وهاك نصوص المعاجم فى السبحة :

فى اللسان : « والسبحة : الخرزات التى يعد المسبح بها تسبيحه » . وفى القاموس وشرحه : « (والسبحة) بالضم (خرزات) ينظمن فى خيط (للتسبيح تعد) » وفى المصباح : « والسبحة : خرزات منظومة » . وكأن إهمال المعاجم للتسابيح لأن هذا استعمال مجازى ، يتوقف على القرينة التى تصرف عن المعنى الحقيقى ، ولم يشتهر هذا المعنى فى الكلمة حتى يكون من معانيها .

وترى السبحة كثيرا فى مجارى الاستعمال . وقد أورد السيوطى فى رسالته « المنحة فى السبحة » حديثا مسلسلا بالسبحة ، ينتهى بالحسن البصرى ويقول عمر المالكى الذى أخذ عنه : كذلك رأيت أستاذى الحسن البصرى يحدث ومعه سبحة ، فقلت يا أستاذ ، مع عظم شأنك وحسن عبادتك وأنت الآن مع السبحة ؟ فقال : شيء كنا استعملناه فى البدايات ما كنا نتركه فى النهايات ، وفى مطالع البدور (١٣٩/٢) : « وأخذ يوسف بن تاشفين من عبيد بن المسكين الصنهاجى — وكان ملك إفريقية — لما قبض عليه سبحة فيها أربعمائة حبة جوهر ، كل حبة قومت بمائة دينار » .

وتطلق السبحة أيضا على صلاة التطوع ، وذلك أن الصلاة تشتمل على التسبيح . وهذا أيضا مجاز . فكأن السبحة تطلق على الآلة التى يعد بها التسبيح مجازا من

إطلاق الشيء على سببه ، وعلى الصلاة مجازا أيضا من إطلاق الجزء على الكل ، وكلاهما مجاز مرسل . ويقول ابن الأثير فى النهاية : « ويقال للذكر ولصلاة النافلة سبحة ؛ يقال قضيت سبحتى . والسبحة من التسبيح كالسخرة من التسخير . وإنما خصت النافلة بالسبحة وإن شاركتها الفريضة لأنها نافلة كالتسبيحات والأذكار فى أنها غير واجبة » .

وإذا صح ما أسلفت من الأخبار التى فيها ذكر التسابيح والسبحة وأنهما يرجعان الى الصدر الأول ، وإلى عصر على رضى الله عنه كانت هاتان الكلمتان عربيتين ، إذ صيغتا فى عصر الاحتجاج قبل فساد اللسان . ولا يغض من عربيتهما أنهما لم تعرفا فى الجاهلية ؛ فيحسب الكلمة وثوقا بها أن تقع ممن يوثق بعربيتهم وممن لم يتسرب اللحن إليهم ، ويمتد هذا دهرا بعد الإسلام . وقال فى المصباح : « قال الفارابى — وتبعه الجوهرى — : السبحة : التى يسبح بها ، وهو يقتضى كونها عربية » . وفى الحق أن هذا هو ما ينبغى التعويل عليه ، والركون إليه .

وقد وقع من الأزهرى أن قضى بأن السبحة مولدة . ففى المصباح : « وقال الأزهرى : هى كلمة مولدة » وفى التاج : « وهى كلمة مولدة ، قاله الأزهرى » . وأكبر الظن أن الأزهرى يريد بتوليد السبحة أنها حدثت فى الإسلام ولم تعرف فى الجاهلية ؛ إذ كانت مقرونة بعبادة حادثة فى الإسلام ، ولا يريد بذلك ما اصطلح عليه المتأخرون . فعندهم أن المولد : « ما أحدثه [1] المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم » وعلى هذا فمن الإسراف فى القول ما نقله صاحب التاج عن شيخه فى السبحة : « وقال شيخنا . ليست من اللغة فى شىء ، ولا تعرفها العرب . وإنما حدثت فى الصدر الأول إعانة على الذكر وتذكيرا وتنشيطا » . وقوله « لا تعرفها العرب » إن أراد عرب الجاهلية فصحيح ، ولكن هل كل ما لم يكن جاهليا منكر فى اللغة ورد على قائله وخلف من القول ! وإذا عرفت السبحة فى الصدر الاول فهل يقال : إنها ليست من اللغة فى شىء ! ونرى نصا معزوا لكتاب « الدرر المنتخبات المنثورة فى الأغلاط المشهورة » على ما أثبت فى هامش التاج ولم يتيسر لى الإطلاع على هذا

---

١ ـ المزهر : النوع الحادى والعشرون .

الكتاب ، وهاك النص : « والسبحة مولدة ، وإطلاق التسبيح عليها غلط » . وهذا أيضا مما لا يستحق أن يعاج عليه .

ويقول الشهاب فى التسابيح إنه أيضا مولّد ، وتارة يقول : إنه عامّى . وقد عرض لهذا فى موضعين من كتابه « شفاء الغليل » . فى حرفى التاء والسين . وتبعه الشيخ مصطفى المدنى فى كتابه فى المعربات . وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية ، وقد كان الشيخ مصطفى المدنى من تلاميذ البغدادى صاحب الخزانة . ويجعل الشهاب اسم الآلة التسبيح لا التسابيح ، فإن التسابيح عنده الجمع ، فالتسبيح عنده يرادف السبحة . وهو يقول فى حرف السين : « والمسبحة : ما يسبح به . والعامّة تقول له تسبيح » . وقد علمت مما سلف لك فى حديث زادان وأم يعفور ذكر التسابيح على أنه اسم للآلة مفرد ، وأن ذلك كان فى زمن على رضى الله عنه ، فهو عربى صحيح .

وبعد هذا أعرض لحديث « المسبحة » . فقد درج الناس على استعمالها فى عصرنا وتراها فى الصحف والمجلات ، ولا تكاد غيرها . وقد أنكرها بعض الباحثين ، ونفاها من عداد المفردات العربية . وكانت الحجة فى هذا أنا لا تراها فى المعاجم ؛ فقد أغفلتها ؛ كما أسلفت آنفا .

والبحث فى « المسبحة » يعود إلى مسألتين :

الأولى : ما أوليتها ، وما تاريخ نشوئها ؟

والثانية : ما ضبطها ، وما شأنها فى القبول والإنكار ؟

فأمّا أوليتها فليس لدينا عليها سند قويم . وفى ديوان أبى نواس من أبيات يخاطب فيها الفضل بن الربيع .

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسك وعودتنيه والخير عادة
فارعوى باطلى وأقصر جهلى وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت بى الحسن البصرى فى حسن سمعته أوقتاده
المسابيح فى ذراعى والمصحف فى لبّتى مكان القلادة

« يتبع »

الاتحاد خلق اجتماعى . ومجد وطنى

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد ابراهيم الحفناوى
وكيل معهد سمنود الدينى

إن نور الله يتجلى على الناس ديناً سمحاً . وتشريعاً كريماً . يضع للناس هداية مشرقة . وطريقاً مستقيما . ولهذا الدين استقصاء فى وضع أصول الخير الجامعة . التى تضمن للبشر حياة سعيدة وادعة . وفيما شرع الله ضمان أكيد لبناية المجتمع الفاضل الرشيد . فكل أمر من أوامر الله يشيد كمالا . وكل نهى من نواهيه يدفع اختلالا . وما الدين فى كل أطواره إلا مجموعة من الأخلاق الفاضلة السامية . ترسم للناس الحياة المثالية العالية .

وإذا نظرنا إلى الأخلاق . وجدنا إصلاحها أساس النهوض الأول . وفيها الرجاء . وعليها المعول . وكل رقى مقفر من الأخلاق . رقى زائف لابد أن ينهار . ويكون مآله حتما إلى الهدم والدمار . . .

وللأخلاق مظاهر فردية تقوِّم الفرد وتصقله . وتجمل صفاته وتكمله . وتغرس فيه المحامد والسمو . وتحبب اليه الترقى والعلو . وبذلك يكون فرداً صالحاً يرتبط بأفراد صالحين . . يكوِّنون مجتمعا موفق الدنيا . سعيد الدين .

وحينئذ يبدو للأخلاق مجال آخر قوى . يتمثل فى الخلق الاجتماعى . الذى يربط المجتمع برباط من الصفاء الساطع . وينظم علاقات الناس على أساس من الحب الجامع . والخلق الاجتماعى فى كل صوره وألوانه يهدف إلى وحدة المجتمع وتماسك بنيانه . . . حتى يصبح كالجسد الواحد . الذى يجرى فيه روح واحد . ويسعى إلى هدف واحد . . .

لهذا كان جماع هذا الخلق ما يتمثل فى الاتحاد والتآزر . وما يتجلى فى التكاتف والتضافر . وحسبنا حثا على الاتحاد أن يجعله الله فى دينه أصلا رفيعاً . حيث يقول فى كتابه (واعتصموا بحبل الله جميعاً) ويكفى الناس به بركة فيما يعتزمون . وتوفيقاً فيما يقصدون . أن يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم « يد الله مع الجماعة » .

وما أكرم يد الله . وما أقواها حين يلتمسها الناس لاتحادهم . وحين يستعينون

بها على مرادهم . إنها القوة التى تتضاءل أمامها قوى البشر . وإذا أعانت أهلها فلا تبقى على خصمهم ولا تزر ، . . ويد الله هذه . عدد الضعيف وعُدده . وينبوع معنويته ومدده . .

فإذا تآلفت القلوب واتحدت . وألقت ما فيها من أسباب الخلاف وتخلت . فهذا بشير النصر . والتمهيد الموفق لنجح الأمر . . .

وإنا لنمس يد الله تبارك حركة التحرير فى مصر . ونؤيد موقف الحزم الذى أعلنه أولو الأمر . فقد اجتمعت الأمة على كلمة الحق . التى تحطم أغلال العبودية وقيود الرق . وقد استقبلت الأمة غضب رجالها على غريمها . استقبالا يسيل نبالة ويقطر بسالة . ويجلى مجد أمة كريمة . ويعلن صيحة وطنية صميمة يعبر عنها روح ثائر ودم فائر . وأصبح الوادى كله نشيداً واحداً مدويا بالثبور والويل . على الغاصب المستمسك بأساليب الحمق والجهل . وهكذا يتكتل الوادى كله . لينال من التحرير ما هو أهله . وكأن الله قد أراد لهذا المستعمر نهاية أليمة . تناسب ما جرعه للعالم من سياسة خسيسة لئيمة . . . فكل شر فى العالم من صنعهم . وكل خداع وتدليس لا يصدر إلا عن طبعهم . والويل لهم وقد تحركت مصر . لتخلص العالم كله من هذا الشر . فمصر كنانة الله . من أرادها بسوء قصمه الله . . وإن هذا الاجماع الرائع ليملؤنا أملا . ويجعلنا بعون الله للنصر أهلا . . .

لقد تجلى مظهر الاتحاد فى مصر جباراً . . وانطلق الحماس الشعبى مجلجلا هداراً . وهنا يقف التاريخ موقف الاعجاب . ويحيى هذا الشعور الزاخر العباب . ويحمل إلى آذان العدو الرهبة والإرهاب . وبقى أن يأخذ الاتحاد ألوانه الحكيمة . وتسلك الأمة فيه مسالكه الجدية القويمة . فالاتحاد يتطلب التعاون على البر . والاخلاص للقضية فى الجهر والسر . ويستدعى أن يبذل كل فرد ما يدخل فى طاقته . ولا يدخر وسعاً فى الجود على الدولة بكل قوته . . وليتخذ كل فرد لنفسه ميدان النضال الذى يحسنه . وليوجه نفسه إلى العمل الذى يتقنه . . فللشجاعة ميدان يهرع إليه الأقوياء والفتيان . فهذا سبيل الله ينادى قصاده . ويفتح أبواب الجنة ليدخل رواده . وإن النفوس المؤمنة تتعشق الجهاد . وتولع بالجلاء . ولها إحدى الحسنيين . إما النصر . وإما الاستشهاد . . ولن يدخر الجبن عمر الجبان . ولن تعجل الشجاعة بموت الشجعان . فلكل أجل كتاب . . لا تمنعه الحصون . ولا تجلبه الحراب . . .

وهذا سيف الإسلام خالد بن الوليد . يقول لكل جبان رعديد . لقد شهدت

مائة زحف أو زهاءها. وما فى جسدى شبر إلا طعنه رمح أو ضربة سيف. وهأنذا أموت، على فراشى كما يموت البعير.. فلا نامت أعين الجبناء...

وميدان الشجاعة إذا ازدحم بالعدد.. فقد بقى دور السخاء لتزويده بالعتاد والعدد. وفى هـذا ميدان فسيح لأريحية الأغنياء. ليؤدوا حق الله أكرم الأداء، وقد حدثنا التاريخ الإسلامى عن قوم خرجوا من أموالهم لنصرة دينهم.. وجهزوا لقتال المشركين على قدر ما يتسع لهم الإيمان واليقين...

وبهذا تعان الدولة على التزاماتها. ويحمل عنها بعض العبء فى تحقيق غاياتها.. حتى يشعر الجميع أن مال الأغنياء فى خدمة أغراضهم.. يساهم بالنصيب الوافر فى الذود عن حياضهم.. والاتحاد لا يؤتى أكله.. إلا إذا تضافرت كل القوى على تمكينه. وأدى كل مواطن رسالته تحت رقابة ضميره ودينه. فليفرغ كل واحد لعمله.. وليجعل كل مواهبه فى خدمة أمله. فأهل الرأى يخدمون بالخطط والأفكار. والأغنياء بالبذل والإيثار. والعمال بالاتقان والجد. وأصحاب الفنون المختلفة. والمهن المتباينة لكل منهم رسالة تتطلب بطولته وإقباله... وعلى رأس هذه التعبئة العامة يكون التنظيم. وتقدير الأمور على نمط سليم حكيم. لتواجه الأمة الموقف الراهن كتلة واحدة.. تتولى قيادتها حكومة مخلصة راشدة...

فليس أضر على الحركات الثورية من الخطط الفردية. التى تخضع للارتجال.. ولا يكون منها إلا تعويق الآمال...

وهكذا تمر بمصر فترة كريمة مشرفة.. تظهر فيها كل العناصر متحدة متآلفة.. فليبارك الله هذا الاتحاد. وليذك فى دماء الشعب حرارة الجهاد. وليرع الله هذه الحركة المباركة. التى تؤتى أكلها مرتين فتخلصنا من الأعداء. وتديم فينا هـذا الاتحاد والصفاء...

وبذلك يصل الوادى إلى أمله ومبتغاه. فى ظلال الفاروق العظيم حفظه الله ورعاه... وجعله رمز الكرامة والأمان لمصر والسودان.. وأبقاه مصدراً للغيرة الوطنية وموجهاً للسياسة الأبية. للنيل من فتوته عزم.. وللشرق من كياسته حزم وكما كان ميلاده مقترناً بالثورة.. سيكون عهده المبارك مقروناً بالثمرة..

وبهذا ينال الإسلام على يده ما يتمناه...

ويومئـذ يفرح المؤمنون بنصر الله...؟

في منزل الوحى

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد خليفة

المدرس بمعهد القاهرة

الليل موحش مخيف ترعش وحشته قلوب الفتاك ، والجبال جاثمة على صدر الصحراء يثير وجومها الرعب فى نفوس الداجين ، والناس خلدوا فى دورهم وبين خيامهم الضاربة عند سفوح الجبال وبين بطون الأودية ، ومجالس السمر جر عليها الليل أذياله فمحاها .

كأن لم يكن بين الحجون ألى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وخبت المشاعل ونامت ذبالاتها فنام كل صوت إلا غطيط الحالمين ، وليس فى مكة عين يقظى إلا عين خديجة بنت خويلد إنها تنزع بخيالها إلى البطحاء يتجاوز التلاع ويتسلق الجبال إلى حراء يرفرف ويحوم حول أمل الروح وبسمة الحياة محمد بن عبد الله إن قلبها يضطرب بين جنبيها خوفا على محمد من ذؤبان الصحراء وأفاعى الأخاديد ، فتمسك بقلبها خشية أن ينخلع ، فلقد خرج محمد منذ أيام إلى حراء ليعيش مع روحه وأفكاره أياما وليالى بعيداً عن صخب مكة وما تزخر به لياليها من لهو الشباب والغناء ،أما محمد ، فقد جلس على باب حراء هانئا بوحدته،له من أفكاره العميقة ما يشغله عن وحشة الليل ، وعواء الذئاب ، وهرير الكلاب .

لقد بعث خياله وراء الأفق الداكن يلج الكعبة ، وينتقل بين ضواحى مكة يرى صور الجباه المطبوعة على الثرى بين يدى اللات والعزى ومناه ثم يكر راجعا تفزعه هذه الوثنية الحمقاء فيصيح : ليست هذه آلهة ولا أنصاف آلهة ولا همزات الوصل بين الناس والآلهة إنها لا تنفع ولا تضر ، إنها لا تحيي ولا تميت ، إنها لا تطفىء ثورة الجائع ، ولا تروى غلة الظامىء إنها لا تجيب نداء الملهوف ولا تستجيب لدعاء البائس لا . لا . فلم تعنو لها الوجوه ، وتخر عندها الهامات ، وتعفر من ثراها الجباه ، وتقاد لها القرابين ، وتساق السوائم ؟

أواه . . إنه الشيطان أغرى ناحت الصخر فنحته وصوره ثم نفض يديه من ترابه وخر له ساجدا يكبر الصنعة التي أتقنها والفن الذي جوَّده ورآه الناس فخروا من ورائه سجدا والتفوا حوله يساومونه على بيع الإله فباعه . هذه أول صفحة من صفحات الضلال العقلي حللت غامضها .

ثم رفع بصره إلى السماء فرأى تلك النجوم المتناثرة على صفحتها الزرقاء تلمع وترتعش أضواؤها فهتف : إنها نجوم الأمس وأموس مضت فمالها لا تغرق في أمواج الظلام ، وما لها لا تهوى إلى الأرض وليست هنالك أسباب تمسكها ؟ إن قوة جبارة هي التي أرسلتها تسبح وأمسكتها أن تهوى ، ومدتها بالنور ليهتدي بها كل مساء يخبط في ظلمات الليالي .

وذلك هو القمر انبعث من المشرق يطارد الظلمات فتعشو الى أضوائه عيون النجوم ، إنه يشق الطريق الى كبد السماء فأين تلك القوة التي تحركه وتدرج به في معارج السماء وتنير صفحته فينير بها المشرق والمغرب إنها قوة خارقة أرى أثرها ولا أراها .

وتلك هي الأرض جثت من فوقها الجبال كأنها الأوتاد حتى لا تميد فتميد معها قلوب العابرين وقد صلب ظهر الأرض فلا تلين فتغوص فيها أقدام المختالين إن القوة القادرة هي التي صنعت الأرض وأرست فوقها الجبال .

والبحر لقد رأيت صفحته تموج وتصطخب وتمتد ثائرة ترغو وتزيد ثم تعود ثورته الى جوفه ولا يمتد تمردها الى الشواطىء فتكسرها وتنطلق صاخبة تزيل التلال وتطيح بالجبال فأين تلك القوة التي سخرت صفحة البحر للسفن تمخر عبابها رغم الثورة الطاغية .

أواه : أيتها القوة الجبارة التي تمسك السماء نجومها وأقمارها والأرض تلالها وجبالها وشطآنها هل تستطيع نفس إنسانية أن تمد أسبابها بعالمك العظيم .

أيتها النورانية ، التي مدت الشمس بقوتها فغمرت العالم بنورها : مدى الى روحي شعاعا يكشف له أسرار هذا الوجود ، كأني بهذه القوة مسكنها السماء لا . بل هي أرفع وأعظم من الأرض والسماء .

أيتها القوة التى هى أعظم من الوجود أرضه وسمائه ، وما غاب غير أرضه وسمائه . عنك أتلقى المعرفة ومنك يصل الى روحى شعاع الحقيقة ، وفى ظل تأييدك وعونك أحمل المشعل وأهتف للعالم الحائر فى ظلمات الحياة المتعثر بين الشكوك والريب :

هذه هى الحقيقة علمتها وآمنت بها فهلموا هلموا لتعلموها وتؤمنوا بها .

أيتها القوة التى ترانى وتدرى مكانى وتدرك كيانى ولا أراها ولا أدرى مكانها ولا أدرك كيانها وإن كنت أدرك آثارها : لقد عركتنى الأفكار ، وأنهكتنى الحيرة ، وتلمست سبيل الوصول الى ما لا أعلم فتشعبت على المذاهب وتنوعت السبل فازدادت حيرتى ولكننى لم أقنط فمتى تنجاب عن نفسى تلك الحجب وتنقشع تلك الأستار وتزول السدود التى وقفت بينى وبين الحقيقة .

ليت اليد الخفية التى خلقت هذا الوجود وبعثت فيه الحياة تمسك بيدى فتقودنى الى محرابها المقدس أتمسح به وأقبل أركانه وأسجد فيه متبتلا خاشعا ثم أصيح فى الناس :

هذا هو المحراب الحق الذى نسجد فيه لمن فطر السموات والأرض .

ليتنى أعلم هذه القوة التى خلقتنى ، وصورتنى بشرا سويا ، ورعتنى جنينا ، وسقتنى وليدا وأطعمتنى شابا ، ومنحتنى القوة ، ووهبتنى البصر فأشكر لها نعماءها وآلاءها .

إنى لأحس بقبس من النور يكاد يربط قلبى بعالمها العظيم . إنه نور قوى كنور الشمس بل أعظم وأجل من نور الشمس يهز جوانحى ويرتعش بين أمواجه قلبى .

وعاد محمد يستعرض الصور التى مرت به ثم انتقل إلى نفسه يتبصر فيها . « إن له عينين ولسانا وشفتين » وفكر وأوغل فى التفكير حتى أثقلت رأسه الأفكار فأطرق وألقى جسده المكدود على صخر الغار ، فأخذته سنة أو ما يشبه السنة رأى فيها أن قوة ليست من قوة البشر ، وإنما هى فوق قوة البشر تضمه بين أحضانها ثم تهمس : أقرأ . فيقول وقد ضاق صدره بمالا قبل له به : ما أنا بقارىء

تُرَاثُ القُوَّة . . . . ! !

للأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر

معارض الأدب العربى حافلة مزدانة بالمعانى القوية الثائرة على القيود والمحفزة لرد الطغيان و رَدْع المتحَـيِّف .

وتاريخ الأدب القديم لا يعتز بنتاج الترف ولا يعتمد على نضحات الاستسلام وإنما تجرى صفحاته تقلب لدى الدارس أفانين البطولة وصرخات الدفاع وبدائع الانهاض وطرائف التحرر سواء فى ذلك المروى عن المتبدين والمسطور من المتحضرين فى الجاهلية والإسلام .

فتطلقه ثم تعود فتضمه فى شدة وتقول : إقرأ فيعود إلى ضيقه فيقول : ما أنا بقارىء ، فتطلقه ثم تعود فتضمه فى شدة وترسله هاتفة :

« إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . فينتفض مزعورا ، ويفتح عينيه ليرى ما ألم به فلم يجد شيئاً . وهنا أخذ محمد يقلب الطرف حواليه ، ويتنبه ليفكر فيما كان ، ويرجع ما سمع ، وما قال ولكن الخوف جدّ به فخشى أن يكون مس من الجن قد أصابه من هـذه الوحشة المفزعة ، فانطلق يأخذ الطريق إلى مكة إلى خديجة البارة يشكو إليها ما لقيه لعل فى أحضان عطفها وحنوها ما ينسيه شدة الوجل ، ولكن صوتا ناداه من السماء يسمعه ولا يراه :

يا محمد أنا رسـول الله إليك أنا جبريل أنا السبيل الى الحقيقة التى تنشدها غدا سأحمل إليك كتاب الله مشعلا خالدا على الزمن يهدى الناس الى الإيمان برب النا س ؟

والعربى ثم العربى المسلم َتخذَ البيان عدة يحرص عليها كما يحرص على سلاحه وكانت الكلمة القوية فى فمه كالضربة المسددة فى يمينه وربما كانت الطعنة البيانية أصمى فى جِرَاحَاتها من رمية السهم وأقسى من وقع النبل .

وقد تمضى الموقعة وينفض الاحتراب ثم لا تجد فى أطواء التاريخ غير غبار الذكرى الخافته ولكن البيان الصادق فى خطبة أو قصيدة يأبى إلا أن يخلد الحادثة فى جملتها بما يهز العاطفة ويلهب الشعور وكلما مَرَرَتَ عابراً أو متأملا استوقفك الأثر فهفت نفسك وتنمرت فيك الغيرة واستبدت بك الحميه واندفعت وراء حقك السليب بفضل المأثور من الحماس والمروى من البيان القوى والافصاح السليم والتدفق الهدار .

وهكذا أحسن البيان ويحسن الينا حين يتخطى َغوارِبَ الزمن ليمشى حادِياً الخلف آتِياً من أرواح السلف فى حرارة قوية ونبرات حية مسعفة مسعدة .

وأينا فى مأزمة الشدائد لا يسترد منته إن أراد الوهن تخطفها حين يُرَدِّدُ قول الناصح الحكيم ، استقبال الموت خير من استدباره ، ثم يُرَدِّدُ قول شاعر الرسول حسان بن ثابت (١) .

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أعقابنا تقطر الدما

وقول العلوى :

محرمة أكفال خيلى على القنا ودامية لباتها ونحورها
حرام على أرماحنا طعن مدبر وتندق منها فى الصدور صدورها

* * *

وفى أسلافنا من كان يتحامى الشر ولا يتمنى يومه ولكنه متى حمل عليه كان له بالمرصاد يحمى حماه ويدفعه بالقوة المكافحة من أمثال هدبة العذرى .

ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب
ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب

* * *

(١) روى هذا البيت فى الحماسة للحصين بن الحمام المرى من شعراء الجاهلية .

وإنى حين أدعو فى مجالاتى إلى معارض الأدب والأدب القوى لا أغفل ما يجنح اليه الكثير من أن الصولة لم تعد للقلم وعلى الرغم من طغيان الجلبة المادية وأن حياة العالم أسكتت بحديدها ونارها صريخ البيان فأنى مع الجانب الخالد والسحر الباقى ولست بذلك مستخفاً ولا منكراً خطر العدة المادية كما قال شاعرنا العربى العباسى .

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

لأن الذى حرك السواعد لحمل السيوف والاستخفاف بالمخاوف والترهات لم يكن إلا البيان وإلا من استل الجبن من حنايا القادة قبل الاقدام فى الموقعة التى عناها الشاعر وفى الحادثة عينها وما شابهها .

* * *

والشعر العربى كان - ولا يزال - مصدر تحميس وتشجيع وملاذ إرهاف يجمع الأفراد والجماعات والقبائل والشعوب على الآمال والآلام ويدوى فى آذانهم ويذكرهم بالماضى ويحمل لهم المستقبل ويثبتهم على النصر ويقومهم على الفوز ثم يهزهم بنشوة الغلب وراحة الوفاء على الغاية المنشودة .

وهو هجيرا القاعد والمقدم وأنشودة الصغير والكبير وتسبيحة الخائف المتراجع حتى يندفع وتميمة المحارب حتى ينتصر .

فاذا نحن تلفتنا إلى شعر العرب ونقبنا فى أهازيجه شفينا النفس وصدقنا بضروبه وتفاعلت فى جوانحنا أفاعيله .

وسأعرض بين يدى القارىء لمعا عارية سافرة كاشفة عن قوة عالجت وخامرت وتعالج وتخامر وتمازج من يشدو بها مما قال ابن بدر التيمى مثبتاً نفسه مهونا عليها أمر المخاوف .

وقل للفؤاد ان نزابك نزوة   من الورع أفرخ أكثر الروع باطله

وهذا عنترة الفوارس يقول :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى   أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها أن المنيـــة منهل لابد أن أسقى بكاس المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى أنى أمرؤ سأموت ان لم أقتل

وأصدق ما يكون الشعر حين يثير النخوة ويحث ويقوى على الأخذ بثأر المضيمة وليس العار فى أن تغلب ولكن العار كل العار أن تنام عن دفع العادى وتستكين على هوان ومذلة .

من هذا اللون الباقى على الأيام فى كل عصر يردد للنفرة والثأر قول عبد الرحمن ابن دارة الغزارى .

لئن أنتم لم تثأروا بأخيـــكم فكونوا نساء للخلوق وللكحل
وبيعوا الردينيات بالحكى واقعدوا عن الحرب وابتاعوا المغازل بالنبل

* * *

لمثل هذا ومن هذا النبع جرى شعر الحماس وانتفعت الحياة العربية والإسلامية بالشعر وأدى رسالته وأينع وكان حصادة قويا فى شعوب قوية هزهم واهتزوا للبيان كما اهتزت أعالى المران .

حتى إذا انطمست جداول الفطر وتطامنت القرائح السليمة وانبسطت قوى الأعاجم على الأمبراطورية الإسلامية تخلف سلطان البلاغة وخفتت أغاريد البيان وراح الشعراء صناع حلية رخيصة ورصاف محسنات ضحلة لها بريق الزيف وخدع السراب .

* * *

ثم كان عصر النهضة الحديثة وكانت فيه يقظة شاعرة لم تكد تنهض حتى أثقلتها (عامية) الأغانى و (ميوعة) الأنين والحنين .

وجدت بنا الأحداث الحاضرة ومشقات الاستعمار فاذا الأسف يعض بنابه وإذا الدعوة صارخة تنادى بأدب القوة وأغانى القوة وأناشيد القوة .

إذا بكل هذا ونحن فى حاجة إلى أكثر منه فهل إلى رجعه من سبيل ؟؟!

ذلك ما ندعو اليه وتلك معارض الأدب القوى وهى زعيمة بالانقاذ فإليها ... وعليها أن تمسح كل غوائل الضعف فى النتاج الشاعرى .

التسابق الي الجهـــاد

لفضيلة الأستاذ الشيخ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

لقد ضرب رسول الله وصحابته أعظم المثل فى التضحية والإيثار . والشجاعة والإقدام ورسموا للشعوب أقوم السبل إلى الحياة الكريمة . حياة العزة والأنفة . والعدالة والمساواة . والحرية والإباء . ورصدوا للحفاظ على هذه المبادىء الإنسانية القويمة أثمن ما عندهم . وأغلى ما تقع عليه نواظرهم . لهم من صدق إيمانهم . ونبل هدفهم وسمو غايتهم قوة ومنعة . وجرأة وصلابة . لا يعرفون معها إلا أن يظفروا بالنصر . أو يكرموا بالاستشهاد .

وكان لهذه العقيدة أثرها فى تسابقهم إلى مواطن البذل . وميادين الجهاد . تراهم إذا ما جدّ الجد . وحان وقت العمل . ودنت ساعة الكفاح . يتزاحمون بالمناكب وهم معشر خُشُن لا تلين لها قناة . ولا تهن منهم عزيمة . وما استكانوا وما ضعفوا . وكانت على أقدامهم تسقط دماء كلومهم . وما أصابت يوما أعقابهم . لأنهم لا يعرفون الهزيمة . ولا يركنون إلى الفرار . ولا تحفظ أفهامهم . وتعى أذهانهم إلا أن يعيشوا كرماء . أو يموتوا شهداء . كذلك علمهم القائد المسدد محمد بن عبد الله . ونشّأهم على أسمى السجايا . ورفيع الخلال . ولقنهم دروس الصبر عند الشدة . وكظم الغيظ . والعفو عند المقدره . وأن يكونوا أباة للضيم . وأن تحرك أريحيتهم الدعوة إلى البر والسخاء . وفاءً بحق الدين والوطن عليهم ولقد تمثل كل ذلك حينما دعا رسول الله إلى غزوه تبوك لما بلغه أن الروم تهيىء جيوشا لغزو حدود العرب الشمالية . حتى تُوقف سلطان المسلمين الزاحف فى كل مكان . ليتاخم سلطان الروم فى الشام . وسلطان فارس فى الحيره . وكان فى الصيف بقية . ثم إن المسافة بين المدينة والشام طويلة شاقة . تتطلب شدة الجلد . وقوة الاحتمال . وتحتاج إلى مزيد من المؤونة ووفر من الماء .

وكان الناس إذ ذاك يشعرون بعسرة وضيق . وجدب ومحل ، إذاً لا مناص للنبي من أن يطالع القوم بعزمه السير إلى الروم . وعقده النية على قتالهم إذا التقى الجمعان . حتى يأخذوا لذلك الأمر عدته . وقد خالف بهذا تقاليده فى سابق غزواته إذ كان يسير بجيشه فى غير الجهة التى يقصدها تضليلا لعدوه . وإخفاءً للخطة التى يزمع اتباعها حتى لا يفشو أمرها . وتذاع أسرارها .

وقد بعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم للجهاد . فاستجاب لهـذا النداء أولئك الذين أقبلوا على الدين بقلوب تفيض هدى ونورا . ونفوس تمتلىء عزما وإخلاصا . ولم يصدف عن هذه الدعوة إلا أناس نفعيون دخلوا فى الدين رغبة فى المغانم التى تدفقت على المسلمين ممن رضوا أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . أو دخلوه خوفا من القوة التى أذلت الطغاة المتجبرين . وأخضعت السادة المفتونين . هؤلاء تثاقلوا والتمسوا الأعذار لتخلفهم [وقالوا لا تنفروا فى الحر . قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا . وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون] وتتابعت الأعذار تترى على رسول الله من الذين فى قلوبهم مرض . وكان من بينهم الجد بن قيس أحد بنى سلمة إذ يقول يا رسول الله . أو تأذن لى . ولا تفتنىّ . فوالله لقد عرف قومى إنه ما من رجل أشد منى عجبا بالنساء وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر . يقصد ببنى الأصفر . الروم وفيه نزل قوله تعالى . [ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى . ألا فى الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين] .

واستأذن كذلك كثير من المنافقين فأذن لهم وفيهم يقول تعالى « إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » . وقد كشف الله مستورهم وبين أنهم كاذبون فيما يعتذرون به إذ يقول « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره انبعاثهم ، فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » . وقد ظاهر هؤلاء جماعة تنطوى نفوسهم على بغضاء الرسول . ساروا بين الناس يحرضونهم على التخلف عن القتال . ويذيعون بينهم إذاعات مغرضة . تهدف إلى إشاعة التخاذل والتفكك . والخوف والذعر فى صفوفهم ، واتخذوا بيت سويلم

اليهودى نادياً لهم . ولما رأى رسول الله خطر إرجافهم ، أخذهم بالشدة ، فبعث إليهم طلحة بن عبد الله فى نفر من أصحابه لحرق بيت سويلم عليهم . وقد أصيب أحدهم ، واقتحم الباقون النار فأفلتوا ، ثم لم يعودوا بعدها إلى مثل عملهم . وكانوا عبرة لغيرهم ، فلم يجرأ أحد على اقتراف هذا الإثم بعدهم حذراً مما حاق بهم .

ثم أخذ الرسول بعد أن طهر صفوف الأمة من دعاة الهزيمة . يعد جيشاً قوياً يستطيع أن يواجه جيوش الروم . وحينما رأى أن موارد بيت المال لا تفى بالغرض المرموق . أشرك سراة المسلمين فى تجهيزه . وقد دعاهم إلى المساهمة بأموالهم فى سبيل الله ، فلبوا مسرعين . وكان أول من جاء أبو بكر الصديق ، قدم أربعة آلاف درهم. فقال له الرسول هل أبقيت لأهلك شيئاً:قال أبقيت لهم الله ورسوله . وجاء عمر بنصف ماله . فسأله هل أبقيت لأهلك شيئاً . قال نعم نصف مالى . وحمل العباس وطلحة . وسعد بن عباده مالا كثيراً . وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية . وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقاً من تمر . وأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار . وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، وخمسين فرساً . وتقدم كل قادر على نفقة نفسه ، بعدته ونفقته .

وبهذه المساهمة السمحة ، تم إعداد جيش قوى ، بلغت عدته أكثر من ثلاثين ألفاً . ولولا ما اقترن به خروج الجيش من عسرة وشدة ، لبلغت عدته آلافاً مؤلفة لكثرة الراغبين فى الجهاد ، الطامعين فى شرف الاستشهاد . وحين قال الرسول لجمهرة منهم ، لا أجد ما أحملكم عليه . تألموا ألماً بالغاً ، وفاضت أعينهم بالبكاء . وفيهم نزل قوله سبحانه « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ، ألا يجدوا ما ينفقون » .

وخرج هذا الجيش الجرار مخترقا الصحراء ، صوب الشام ، مستهينا بما يلقى من حر وظمأ ومسغبة . ولما بلغ تبوك وجد أن الروم آثرت الانسحاب لتتحصن داخل البلاد بحصونها ، ومكث المسلمون بتبوك قرابة عشرين يوماً . يناجزون من شاء أن يناجزهم . ثم قفل راجعاً إلى المدينة بعد أن أمن الحدود . وأقر الهدوء والنظام . وترك خالد بن الوليد ليعيد أمير دومة الجندل إلى الطاعة . وكان يريد

الانتقاض . فأسره وأتى به إلى المدينة ومعه ما حمل من إبل وشاء ، ودروع وبر . وقد فرح المسلمون بنصر الله العزيز الحكيم . وذلك جزاء الصادقين الصابرين .

وإن حال المصريين اليوم مع عدوهم الظالم المغتصب ، لهى قريبة الشبه بحال المسلمين الأولين فى غزوة بتوك مع عدوهم القوى المغرور . تستدعى من القائمين على الأمر أن يضربوا على أيدى العابثين الذين يحاولون أن يخرجوا على ما عقدت عليه الأمة عزمها : من مقاطعة العدو ، والتضييق عليه ، وأن يأخذوا بالشدة البالغة كل داعية إلى التردد والتراجع ، وكل من يثير الشكوك فى قدرة الشعب على الثبات والاحتمال ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المرجفين من المنافقين .

والظروف الراهنة تدعو المجاهدين من أبناء النيل إلى القدوة الحسنة بأسلافهم الذين هبوا إلى الجهاد سراعاً يتسابقون . حتى إذا قال النبى لبعضهم لا أجد ما أحملكم عليه ، حزّ ذلك فى نفوسهم ، وفاضت مآقيهم بالبكاء حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . لأنهم كانوا يأملون أن يتسنى لهم أداء الواجب المقدس عليهم لدينهم ووطنهم رجاء أن تكون لهم إحدى الحسنيين . وبوادر الإقبال الزائد على كتائب الكفاح الشعبى مما يملأ الجوانح رضى وإعجابا ، وثقة بالفوز القريب ، والنصر المبين . ويقينا بأن بنى الوادى خير خلف لخير سلف . والحاجة إلى المال الآن تعدل حاجة المسلمين إذا ذاك إليه . وحبذا لو أسرع الموسرون إلى الخروج عن بعض ما يملكون ، لا عن كل الذى يملكون كما فعل السابقون الأخيار ، ليساهموا فى معركة التحرير التى تدعو إلى مقت العيش تحت نير الذل والاستعباد ، وتقديس الحياة فى ظل العزة والاستقلال . حتى يغرسوا بصنيعهم فى القلوب حبّاً لهم وتقديرا وإخلاصاً ووفاءً ، ويستحقون من الله أجزل الجزاء ، وأوفى الأجر . والباخلون فضلا عما لإمساكهم من أثر سيء يملأ القلوب بغضاً لهم . وحقداً عليهم وتربصاً بهم فسيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . والشعب يرقب أعمالهم ، ولن ينسى إحسان المحسن ، أو إساءة المسيء « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » .

والله خير مسئول أن يوفق أبناء الوطن جميعاً للعمل على رفعته وإعزازه ، وأن يهديهم سواء السبيل .

مولد النور الأعظم

بدايه عهد جديد فى تاريخ الانسانية

لفضيلة الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

ذلك النور السماوى العظيم ، الذى كان يظهر بين الحين والحين ، مبشراً برسالة سماوية جديدة ، فيها خير الحياة والوجود ، لابد أن يظهر مرة أخرى على الأرض ليبدد الظلمات ، ويحارب الأوهام والضلالات ، ويمحو ما ران على قلوب الناس من أباطيل وأساطير ، وجمود وجهل ، وعصبية أثيمة كاذبة .

وذلك الناموس الذى كان ينزل على إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء من قبل ، لا بد أن ينزل على رسول كريم من جديد : ليدعو الناس إلى أمثل الأخلاق ، وأكرم الآداب ، وأفضل الشرائع .

بهذا كان أهل الكتاب يتحدثون ، وبه كانوا يؤمنون ، تصديقاً لبشارة الأنبياء والكتب السماوية بظهور إمام الأنبياء وخاتم المرسلين .

ومرت الأيام بطيئة مسرفة فى بطئها ، والظلام يشتد ، والظلم والاستبداد والطغيان ينتشر ، والوثنية والشرك يصبحان عقيدة الناس فى الحياة ؛ وتوالت البشارات تجدد الأمل ، وتحيي الرجاء ، وتؤمن الناس على مستقبل الإنسانية ، وتنبئهم بقرب بزوغ نور الفجر الجديد .

لا بد أن ينهار ملك كسرى وقيصر ، لأنه يقوم على أسوأ النظم والشرائع والعقائد ؛ ولأن عهد استعمارهما للعالم لا بد أن ينقرض ؛ والحرية الكبرى منذا يصد تيارها الزاخر القوى المندفع بقوة الله ؟

وهؤلاء الباحثون عن الحقيقة الكبرى : ورقة بن نوفل الأسدى ، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، وعثمان بن الحويرث الأسدى ، وعبيد الله بن جحش ؛ يجتمعون فى الجزيرة العربية فى يوم عيد لهم ، فيقول بعضهم لبعض : تعلمن والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . . . وذهبوا يطوفون فى البلاد يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم . . .

وكان زيد يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر قريش : والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى : ثم يقول : والله لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحلته .

وفى مكة فى صباح يوم خالد ميمون ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، تسبقه إرهاصات ، وتحف بمولده الكريم معجزات وكرامات ، وتسير معه يوما بعد يوم بشريات وأى بشريات ؛ ويحفظ الناس ما ذاع من ذكريات مولده ونشأته الكريمة المعطرة . وبدأ النور الألهى يظهر فى الأفق ، وأخذ الناموس السماوى يستعد لآخر رحلة له إلى الأرض .

وشب الغلام ونما ، نبيلاً شريفا وسيدا سريا ، وفتى زكيا ، ولقى قومه وقوم مرضعته النماء والخير على وجهه الأغر . وقدمت به حليمة السعدية على أمه بعد فصاله ، ترجو أن تطيل لبث فتاها عندها ، متعللة بوباء مكة ، فقبلت آمنة بنت وهب ، ورجعت به حليمة فرحة مستبشرة .

وبعد شهور كان محمد الغلام يلعب ومعه ابن حليمة خلف الرحال ، وبعد قليل جاء أخوه يشتدُّ ، وهو يقول : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه ؛ فخرجت حليمة وزوجها نحوه ، فوجدته قائما منتقعا وجهه فالتزمته هى وزوجها ، وقالت : مالك يا بنى ؟ قال : جاءنى رجلان ، عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئا لا أدرى ما هو . فتخوفت عليه حليمة ، وقدمت به على أمه ، وقصت عليها القصص ، فقالت آمنة : إن لبنى لشأنا أفلا أخبرك خبره ؟ قالت حليمة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى به قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله

ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ؛ دعيه عنك وانطلق راشدة . . وما أصدق مايقول محمد بعد ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى .

ورأى بحيرا الراهب محمداً الغلام ، فى بصرى بأرض الشام ، مع عمه أبى طالب ، فرأى المعجزة الكبرى قريبة منه ، فأخذ يحدث محمداً ويسأله ، ثم قال لعمه : اذهب بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه فإن له لشأناً عظيما .

وسمع ورقة بن نوفل ما كانت تتحدث به خديجة بنت خويلد عن محمد وشأنه ، وكان عالما بالديانات والكتب السماوية ، فقال لها : لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا زمانه . . وجعل ورقة يستبطئ مرور الأيام ، ويقول : حتى متى رسالة الله ؟

— ٢ —

وبينما كان محمد يتعبد بغار حراء ، جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله ، يبلغه رسالة الله ، ويحمله أمانته .

ورأى محمد ما رأى من الآيات الكبرى ، وسمع الصوت الإلهى يناديه من كل مكان : يا محمد أنت رسول الله وهذا جبريل . ورجع إلى خديجة ينبئها النبأ ، فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ؛ ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه القصص ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبي هذه الأمة . . ولقيه ورقة فى الكعبة وهو يطوف بها فقال : يا ابن أخى والذى نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى .

ونزل القرآن الكريم دستور هذه الرسالة المحمدية العظمى ، وجاهد الرسول ومن آمن معه جهاد الأبطال ليبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، وليحمى حرية الدعوة إلى الدين من أذى المشركين وطغيانهم .

وقبيل الهجرة ، بينما رسول الله صلوات الله عليه نائم فى بيت أم هانئ عمته ،

إذ جاء جبريل وملائكة معه ، فأضجع محمداً وشق صدره ، وأسرى به إلى بيت المقدس فصلى بالأنبياء والرسل إماما ، ثم أتى بثلاثة آنية : من لبن وخمر وماء ، فأخذ إناء اللبن فشرب منه ، فقال له جبريل : هديتَ وهديتْ أمتك يا محمد ، ثم عرج إلى السماء ، فاستقبلته الملائكة والرسل والنبيون ؛ حتى إذا كان بالأفق الأعلى ، وقف أمام ربه يناجيه ، وثبته الله بالقول الصادق ، والإيمان الحق ، واليقين النبوى العظيم .

وهاجر محمد إلى المدينة ، وأنقذ الدعوة من خطر المشركين وأذاهم وصدهم ، فذاعت فى كل مكان ، ودعا إليها الناس كافة ، وأرسل بنبئها الرسل إلى الأمراء والملوك والأقيال .

ثم اختاره الله إلى جواره الكريم ، بعد أن أنشأ أمة ، وأسس دولة ، ونشر شريعة الله ودينه الحق فى العالم كله .

صلوات الله وسلامه عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ، وصلوات الله عليه كلما ذكره الذاكرون وحمده الحامدون .

— ٣ —

وخفقت أعلام الإسلام وبنوده فى كل مكان ، وانطلق هداته ودعاته فى كل قطر ، يبشرون الإنسانية بهدى الله ، ويحررون العقول من جمود التقليد والجهل والخرافات ... يبشرون بحريات الناس والشعوب ، ويطلقون الأمم من إسارها ؛ ويرفعون عنها الأغلال التى قيدها بها الملوك المستبدون ، والقياصرة المتكبرون ، ويمحون ظلال الاستعمار والاستعباد والاضطهاد من الأرض ؛ ويبطلون ما تعارفت عليه الأجيال من آراء زائفة ، وأفكار باطلة ، وتقاليد ضالة ، فليس الحاكم ظل الله فى الأرض ، وليست الأمم ملكا لملك ، وليس الحكم مغنما لأمير ، وليست هناك وصاية على أمة ، ولا حجر على جماعة . ولا استغلال أو نهب لمرافق طائفة من الناس لحساب طائفة أخرى .. الحكم شورى ، ولا يجوز أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .. العدالة والانصاف والمساواة والإخاء والحرية حق لكل إنسان فى الحياة .

— ٤ —

وبعد قليل كانت الجامعات الإسلامية فى قرطبة ، وطليطلة ، وغرناطة ، وفى القيروان والمهدية ، وفى الفسطاط والقاهرة ، وفى دمشق وحلب ، وفى بغداد والبصرة والكوفة ، وفى بخارى وخوارزم وقزوين ، وفى كل مكان ... كانت تعج بالطلاب والأساتذة ، وتنشر العلم والثقافة والنور فى كل ناحية ، وتقوم على حرية البحث والفكر والرأى ، وعلى الإخلاص فى خدمة الحقيقة ، وعلى التعاون الإنسانى بين شتى العناصر والألوان والأجناس والشعوب لخدمة الإنسانية والرقى بالحياة .

بينما كانت أوربا تنام فى الظلام ، وتعيش على الأوهام ، وتحيا على الجهل والجمود والقذارة والحجر على الحريات ؛ وتنتقل من عصور الرق البائدة إلى عهود الأقطاع القاسية المستبدة .

فمن مثل محمد فى عظمته وجليل أثره على الدنيا ، وعظيم أياديه على الحياة ؟ ومن مثله من الدعاة والمصلحين والزعماء والفاتحين ، نجح فى رسالته ذلك النجاح المنقطع النظير ؟ ، ومن مثله كان يعمل لأغراض إنسانية عالية ، فينسى نفسه وأهله وقومه ، ويجاهد لتحطيم رءوس الضلال ، وشياطين الظلام فى كل مكان ؟ ومن مثله كان مع هذا السلطان العظيم ، والنفوذ الضخم ، يعيش مع الفقراء ، ويحيا مع المساكين ، ويعمل فى مهنة أهله ، ويأكل التمر ، ويقنع بالخبز ، مع حسن العشرة والأدب والتواضع والرحمة والرأفة والوفاء وحسن العهد ، وصلة الرحم والعدل والعفة ، والأمانة والصدق ، والإخلاص لله رب العالمين ؟ ومن مثله حطم رءوس الاستعمار فى كل مكان ، وهدم الاستبداد فى شتى صوره وأشكاله ، وأقام للحرية مناراً عاليا يفيء إلى ظله كل إنسان ؟ .

إنه لرسول الله إلى الناس كافة ، ونبى البشرية الذى أنقذ الدنيا من ظلمات الجاهلية الأولى ، وقائد العالم إلى النور والعدالة والخير والمساواة . وخاتم الأنبياء والمرسلين . . وصدق الله العظيم : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » ؟

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى

المدرس بمعهد القاهرة

نقتصر فى بحثنا هذا على خمس طرائف تتعلق بتشابه النظم فى قصص القرآن الكريم حيث يكون المعنى الأصلى واحد أو كالواحد يحكى فى أكثر من موضع بعبارات تختلف تقديما وتأخيراً وذكراً وحذفا ونحو ذلك .

نكشف عن سر ذلك بطريقة تفصيلية بعد ما هو مفروغ منه من أن ذلك فى جملته مرده إلى التفنن والتنويع ومناسبة المقام لمقتضى الحال من غير مناقضة للواقع خارجا ومن غير مدعاة إلى أن نرد ذلك إلى ما يسميه بعض الباحثين بالفن القصصى فى القرآن (١) .

الطريفة الأولى : فى قول قوم صالح له فى سورة « هود » : « أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وأننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » مع قول قوم نوح وعاد وثمود لرسلهم : « إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » فإن المعنى واحد فما الذى أوجب فى القول الأول أننا لفى شك بنونين وأوجب فى القول الثانى إنا لفى شك بنون واحدة ؟ ؟

والجواب أن المخاطب فى الآية الأولى واحد فكان « تدعونا » بنون واحدة لا يصلح إلا ذلك والمخاطب فى الآية الثانية جمع فكان « تدعوننا » بنونين الأولى نون الرفع والثانية نون الضمير لا يصلح إلا ذلك .

فإذا كان ذلك كذلك وكان من الجائز عربية أن يقال فى صدر كل من الجملتين أنا أو أننا لفى شك كان من الحسن والتعادل أن يقال أننا فيما كان فيه تدعونا

---

(١) راجع كتاب الفن القصصى فى القرآن تجده ـ غفر الله لصاحبه ـ قد عزا هذه الظاهرة إلى أن القصص فى القرآن صنيع أدبى فنى من الضرورى أن يلتزم فيه الصدق والمطابقة للواقع فى الخارج .

وأنا فيما كان فيه تدعوننا وهكذا كان الصنيع الأول برمته فى الآية الأولى والثانى برمته فى الآية الثانية .

على أننا لو أردنا أن ندقق النظر أكثر لوجدنا أن كل صنيع فى موضعه مشابه لسابقه فى نفس الآية فالصنيع الأول تقدمه فى نفس الآية ضمير نصب متصل بالفعل لا يحدث فى آخر الفعل تغيير من أجله وذلك فى قولهم : « أتنهانا أن نعبد » فلحقه ما لا تغيير فيه فقيل على الأصل أننا دون حذف بينما كان الصنيع الثانى قدتقدمه ضمير رفع متصل بالفعل يتغير له آخر الفعل من الفتح إلى السكون وذلك فى قولهم : « كفرنا بما أرسلتم به » فلحقه ما فيه التغيير بحذف النون فقيل أنا بدلا من أننا . . .

الطريقة الثانيه : فى قول قوم صالح له فى سورة « الشعراء » : « أنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا » مع قول قوم شعيب له فى سورة الشعراء : « أنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا » : فإن المعنى واحد فما الذى أوجب حرف العطف بين الجملتين فى قصة دون أخرى ؟؟

والجواب أن الحرف دال على المغايرة والتعدد والذهاب بالجملتين مذهب الشيئين كونه بشراً مثلهم وكونه مسحوراً معللا بالطعام والشراب أو أن السحر جعله يهذى ويخلط وحذف الحرف دال على أن الثانى بيان للأول فالجملتان كشىء واحد ففى طريقة الوصل والعطف بالواو من الضراوة فى الجدال والكفر ما ليس فى طريقة الفصل وترك الواو فإذا علمنا أن قوم صالح كان لهم فى كفرهم هوادة لأنهم كانوا عادا الثانية قريبى عهد بعاد الأولى وما نزل بها من الهلاك وأن قوم شعيب كانوا أكثر منهم جدلا وأعنف كفراً علمنا لماذا كانت طريقة الوصل فى قصة شعيب وطريقة الفصل فى قصة صالح . ألا يرى كيف استرسل قوم صالح فى الهوادة فطلبوا آية فى قولهم لصالح : « فأت بآية إن كنت من الصادقين » فأجابهم « هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » . على حين أيقن قوم شعيب فى عتو ونفور فقالوا : « فاسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » ؟ ؟

ولو قيل إن صالحا دعا قومه بالقليل فأجيب منهم بالقليل وشعيبا دعا قومه بالكثير فأجيب منهم بالكثير لم يكن بعيدا [١] .

الطريقة الثالثة : فى قوله تعالى فى سورة « المؤمنون » فى قصة نوح من قول قومه له : « إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين » . مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة هود من قول قومه فيه : « إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين » .

ما السر فى اختلاف ما رمى به كل قوم رسولهم ؟ ؟

كان نوح أمهر الناس فى الدعوة إلى الله يدعو قومه ليلا ونهارا ، اعلانا واسراراً ، وقد شرع فى أخريات دعوته الطويلة المدى يصنع السفينة فى برية لا ماء فيها ، فلا يحلو والحالة هذه لقومه وصف يخلعونه عليه إلا وصف الجنون ، كما قال تعالى عنهم فى سورة القمر « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » أما هود وقومه فلم يكونوا بهذه المثابة والملابسات ، فاكتفوا بوصفه بأنه « رجل افترى الكذب على الله » .

الطريقة الرابعة : فى قوله تعالى فى سورة « هود » فى قصة ابراهيم من قول الملائكة له « لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط » وفى سورة الحجر نفس القصة والمقالة « [٢] لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم » وفى سورة الذاريات نفس القصة والمقالة « لا تخف وبشروه بغلام عليم » ، مع قوله تعالى فى سورة العنكبوت فى قصة لوط من قول الملائكة له « لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك » فإن المذكور فى قصة إبراهيم فى جميع مواضعها هو النهى عن الخوف ، بينما المذكور فى قصة لوط هو النهى عن الخوف والحزن ، فهل من سر لهذه الزيادة ؟ ؟ السر ـ والله أعلم ـ أن الخوف غم يصيب الإنسان لأمر يتوقعه مستقبلا ، والحزن غم يصيبه لأمر وقع ، فإذا علمنا أنه لم يكن فى حال إبراهيم مع الملائكة ما يدعو إلى الحزن ، إنما هو الخوف حين

---

(١) راجع القصتين فى السورة الكريمة وغيرها من السور .

(٢) الوجل . الخوف . وأسرار اختلاف العبارات فى قصة ابراهيم مبينة فى مفارقات قصته على حدتها

علم من امتناعهم عن الطعام أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا لأمر يخيف ، علمنا وجه الاختصار على ذكر الخوف فى هذا الموطن ، ونظيره قول شعيب لموسى حين جاءه وقص عليه القصص « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » وقول الله لموسى حين ولى مدبرا عن العصا « يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين » . وإذا علمنا كذلك أن لوطا كان فى حالة خوف من قومه أن يعتدوا على ضيوفه الملائكة وفى حالة حزن على ما أظهروه من ارادة هذا الاعتداء ومراودته على مرآى ومسمع من ضيفه ، علمنا وجه ذكر كل من الخوف والحزن فى هـــذا الموطن ، ونظيره قول الله لأم موسى « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى » فانها خافت عثور فرعون عليه وحزنت لفراقه ،

الطريفة الخامسة : فى قوله تعالى فى سورة القمر فى سائر قصص السورة « فكيف كان عذابى ونذر » فان هذه الجملة بهذا النص قد ذكرت فى قصتى نوح وشعيب مرة واحدة ، وفى قصة هود بهذا النص أيضاً مرتين ، وفى قصة لوط كذلك مرتين ولكن بلفظ « فذوقوا عذابى ونذر » ، فالمسؤول عنه ها هنا شيئان اثنينيتها فى قصة هود خاصة ، واثنينيتها فى قصة لوط مع التعبير بالذوق بدلا من الاستفهام ؟؟

أما الأول : فجوابه أن عاداً قوم هود خاصة كان لعذابها الأخروى فى القرآن ذكر مع عذابها الدنيوى ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة فصلت « فأرسلنا عليهم صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » فاختصت بالتنويه بالعذاب والنذر مرتين ، أولاهما لعذاب الدنيا ، وأخراهما لعذاب الأخرى ، وهذا عندى ضعيف ، لأن قوم نوح كذلك نوه القرآن بالعذابين لهم الدنيوى والأخروى فى قوله تعالى فى سورة نوح «أغرقوا فأدخلوا نارا » فأظهر منه أن يقال أن عاداً هذه الأولى قد كانت ضربت فى النعيم والترف والقوة والمكنة فى الأرض بسهم أوفر ، فكان ذلك مدعاة اغترار واستبعاد أن تقدر قدرة ما على قلعهم منه ، فكان التكرار فى هـذا المقام لتوكيد حصول ما كان يستبعد حصوله من إصابة المحز بمكان . ألا يرى كيف قالوا من أشد منا قوة ؟ وكيف رد الله عليهم بقوله « أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد

منهم قوة »؟ وكيف قال لهم نبيهم (أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) ؟ وكيف قال لهم فى مقام آخر (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) ؟ وكيف قال الله فيهم « ألم تر كيف فعل ربك بعاد أرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد » ؟؟

أما الثانى : فجوابه أن أولى هاتين العبارتين فى قصة لوط إنما كانت فى عذاب المعتدين على ضيف لوط الذين راودوه عنهم « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر » وثانية هاتين العبارتين إنما كانت فى عذاب القوم عامة « ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابى ونذر » . أما التعبير بالذوق خاصة فى هذه القصة بدلا من طريقة الاستفهام السابقة فى سائر القصص فلعله لأن هذه القصة كانت آخر هذه القصص ، فكانت أقرب إلى ما ذكر فيه الذوق فى نهاية السورة الكريمة من عذاب الكافرين فى قوله تعالى « إن المجرمين فى ضلال وسعر يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » ولعله لمراعاة نوع الجريمة التى كان يحترفها قوم لوط فان فيها بالنسبة لجرائم الآخرين نوع ذوق للذة حسية آثمة ، فليذوقوا مر العذاب آخرا لأنهم ذاقوا حلاوة الفاحشة أولا .

الرأى السديد

أشار حكيم على حكيم برأى ، فقال : لقد قلت بما يقول به الناصح الشفيق الذى يخلط حلو كلامه بمره ، وسهله بوعره ، ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره ؛ وقد وعيت النصح وقياسه ، إذ كان مصدره من عند من لا يشك فى مودته ، وصفاء غيبه ، ونصح حبه ، ومازلت بحمد الله الى الخير طريقا واضحا ، ومنارا بينا .

قال العتبى : قيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم ! قال : نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ، فنحن نشاوره فكأنا ألف حازم .

من ذكرى المولد :

الحيرة فى شباب محمد

مظهر النضوج العقلى وطريقه إلى الحق

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على شعوط
المدرس بكلية اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم :

كانت الأمور فى مكة تسير سيرها العادى الرتيب ، وعكف السمار والندامى إلى حاناتهم يديرون بنت الحان ، من عتيق الدنان ؛ وتسلل الشباب المفتون إلى شعاب الجبال ومنعطفات التلال ليلتقوا بالخليلات اللاتى اعتدن أن يكن مع الفتيان فى هذه الأماكن على ميعاد .

وفريق آخر من الموسرين قد نصبوا للميسر ساحات واسعات ! لا تخلوا من الفتن والنزاعات ، ويسمع فى جنباتها أيمان مغلظات بالعزى وباللات .

وقد انصرف الشيوخ والجمهور إلى ضرب من العبادة ، تلتمس فيه كل قبيلة عبادتها لإله تعمل على تقدسه وتقدم له القربات .

وفريق اتخذ نوعا من تجارة الأعراض وسيلة للغنى ، فأكرهوا على البغاء الفتيات ؛ حتى هانت منزلة الأنثى عندهم فلجأوا إلى وأد البنات وعاش كثير من القبائل على السلب والنهب والغارات .

كل ذلك كان يجرى فى دجى الليل أو فى ضحى النهار فى مكة وفى غيرها ، من بلاد العرب .

وكان الفتى عبد الله بن عبد المطلب قد بلغ مبلغ الرجال فاختار له والده العظيم فتاة من أكرم السلالات لتكون له زوجا حتى تقر عينه بولده الذى نجا من الذبح بأعجوبة رضى عنها الآلهة وأقرها الكهان .

هذه الفتاة هى آمنة بنت وهب كريمة العنصر طيبة المنحدر .

لم يحقق زواج عبد الله من آمنة ما كان يصبو إليه الزوجان من متاع نفسى أو جنسى رغم أنهما كانا فى ريعان الشباب وميعة الصبا .

وكان المولى سبحانه وتعالى لم يجعل هذا الزواج سوى وسيلة لإيجاد محمد عليه السلام . فلم تطل إقامة عبد الله مع آمنه إلا ريثما تم حملها فيه عليه السلام ثم اختفى عبد الله من الوجود بعد أن قام بدوره المقدور فى علم الله .

وإن الفتاة آمنة بنت وهب التى نكبها الدهر بفقد زوجها الحبيب وهى فى عنفوان قوتها وسطوع شبابها لتشعر بمرارة الحزن وضراوة الوحده لولا ما كان يتحرك فى أحشائها من أمل وما ينتظره من سلوى فى وضعها هذا الجنين .

والشيخ عبد المطلب ! قد لفه الحزن بثوبه الأسود وانعكست سحب الهموم على وجهه الضاحى الطروب ، فاختفت وراء هـذه السحب بسماته الوضاءة الجميلة وهو يعد ــ بفارغ الصبر أيام آمنة فى حملها ويعد نفسه ليوم سعيد .

ومضت فترة الحمل واستكملت آمنة أيامها فى منتصف العام السبعين بعـد الخمسمائة من ميلاد المسيح عليه السلام حيث كان عام الفيل .

وتحققت الآمال بوضع هـذا الوليد ليخلف أباه ويملأ الفراغ الذى تركه . فعادت إشراقة الوجه إلى آمنة وانبسطت أسارير عبد المطلب .

وهناك بين خيام بنى سعد وعلى رمال أرضهم نمـا محمد ونضج مبكرا وبدت نجابته على كل أقرانه من أطفال بنى سعد .

رجع محمد إلى أمه ليراها وتراه بعد فترة قضاها فى مدرسة البدو التى ظهر واضحا فى خلقه وفى خلقه .

عاد متلهفا على أمه ولكن المقادير كانت قد أعدته للصدمة الأولى فى وفاتها وهو فى سن يحتاج فيه للحنان الدافق من قلب الأم التى ليس لها سواه .

ووجد عزاءه فى جـده عبد المطلب الذى أعطى حفيده كل قلبه ولكن لم يكد يطمئن إلى هـذه الرعاية حتى فجعه الموت فى كافله العظيم بعد أن أوصى به عمه أبا طالب .

فكانت حياته عليه السلام قاسية لا استقرار فيها فمن، خيام بنى سعد السوداء إلى دار الأم المتواضعة إلى جنان يثرب إلى بيت جده المريح إلى كنف عمه أبى طالب حيث وجد نفسه فى أسرة تجارية كادحة يؤدى كل عضو فيها لو قصر فيه للحقه الجهد وأدركه شظف العيش وشدته .

مرت أيام الصبا سراعا ومحمد يكبر فى عقله وجسمه ، وأحداث الزمان تزيده فى الدرس والتحصيل وتساعده على تكوينه خير تكوين . ثم أدرك أن عمه أبا طالب رقيق الحال كثير العيال يجهد نفسه إجهاداً مضنيا فى سبيل الحصول على قوتهم .

ولم يكن محمد ذا مال يضعه فى صفوف الأغنياء إذ كل ما تركه له أبوه إنما هو قطيع من الغنم وخمسة من الأبل وجاريته أم أيمن التى حضنته بعد وفاة أمه .

فلعل محمداً اضطر أن يقوم بعمل ؛ وماذا عسى أن يكون هذا العمل لطفل فى سن محمد إلا أن يرعى الغنم لحساب غيره على تلال مكة ؟

الراعى والرعية — أول الحيرة

كان رعيه للغنم من العوامل المهمة التى فتحت فى ذهنه آفاقا شتى للتفكير والتأمل . فأخذ يعلق على كل حركة وهمسة تمر على سمعه وبصره ، واستغرق فى الكون استغراقا عميقا للدرس والتفهم .

« أليست أشعة الشمس تحييه ، ويغمره ضياء القمر ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعا ؟ [لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون] .

وإذا كان نظام القطيع من الغنم أمام محمد يقتضى انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضل إحداها فى مهامه البادية ؛ فأى انتباه وأية قوة تحفظ على نظام العالم كل أحكامه ؟ » .

وظلت هذه الأفكار تعتمل فى صدره وهو مجد فى البحث عن طريق الهدى فيما بينه وبين نفسه .

واستمر على إطراقه وتفكيره حتى عرف بين قومه باتجاه جديد فى حياته ؛ فلم تغمره البيئة بتقاليدها ، ولم تطغ عليه العشيرة بعاداتها وطباعها فلم يلاحظ عليه أيام طفولته أنه قلد القائمين على أمره فى تقديس اللات والعزى ، ولا ورث الهيبة التى كانت لهبل فى نفوس قريش . ولم يحدثنا التاريخ أن محمداً حضر موسم الحج منذ عرف أن قومه يعبدون الأصنام ويقدمون لها القرابين فى هذا الموسم من كل عام ، وعرف عنه عليه السلام أنه رفض أكل ما ذبح على النصب .

وبقى نظيفا طاهراً لم يلوث بدنه كما لم تلوث عقيدته ؛ قال عن نفسه [ما عبدت صنما قط ، وما شربت خمراً قط ، وما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر]

فلم تحمله ميعة الصبا على معاقرة الخمر ومنادمة الرفاق فى مجالس اللهو التى كانت منتشرة إذ ذاك فى نواحى مكة وطبقاتها المختلفة بل إن اللهو البرىء لم يتخذ طريقه إلى نفس محمد عليه السلام .

والسر فى ذلك أن دور الشباب اقترن عنده بمرحلة التفكير والحيرة ؛ فكان كلما هم بمحاولة المتاع واللهو كما يصنع أقرانه وأهمته أفكار وتأملات ملأت جوانب نفسه ، وشغلت قلبه ، وبدا له البيت العتيق وقد تكدست فى ساحاته المعتمة ثلاثمائة وستون صنما جلبت من أنحاء البلاد لتحظى بالتقديس والعبادة ، فى هذا المكان تبدت سخافة هذا الأمر كله لعين محمد كما يبدو الفجر الوليد ، فكان من المحال أن يوفق بين ما يعتمل فى عقله من أفكار وبين عبادة هذه الأصنام الضخمة . وراح محمد يفكر فلم يجد حلا . وكان كلما قلب الأمر ازداد حيرة وقلقاً ، كل هذا كان بينه وبين نفسه وربه .

أما فيما بينه وبين الناس فكان أفضل قومه مروءة وأكملهم خلقاً وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جواراً وأصدقهم حديثا . وأبعدهم عن الفحش وأعظمهم حلماً وأكثرهم أمانة حتى كان يلقب فيما بينهم بالأمين ، يدعون عنده ودائعهم ويحكمونه فيما شجر بينهم .

عرفته خديجة بنت خويلد الأسدية بهذه الصفات وكانت ذات تجارة واسعة فما كادت تسمع من أبى طالب أنه يرغب فى أن يكون محمد هو الأمين على هذه التجارة حتى وافقته فيما اقترح من أجر قائلة لأبى طالب : لو سألت ذلك لبعيد بغيض لفعلنا فكيف وقد سألته لحبيب قريب ؟

وبورك لخديجة فى مالها وتجارتها . وكان الربح الذى لقيته من تجارتها وحسن الطالع الذى رافق محمداً عليه السلام فى رحلته إلى الشام ذا أثر كبير فى تصديق خديجة كل ما بلغها عن محمد من أمانة وصدق ووفاء ومروءة وشهامة ونبل فارتفعت منزلته عندها ثم أيد هـذا المعنى فى نفسها حديث ميسرة غلامها عن محمد وكرم أخلاقه ولين جانبه مما فعل فى قلبها ما يفعل السحر فراحت رغبتها فى التجارة تتضاءل على مر الأيام وبدأت تتمنى فى نفسها أن ترتبط به ارتباطا دائما غير رباط التجارة .

ولقد أحست خديجة لأول مرة أنها تحبه وتتمنى الزواج به فعملت من جانبها على أن يكون هـذا الزواج ؛ وتم لها ما أرادت لأمر يريده الله سبحانه وتعالى من إتمام الخطى التى رسمت فى لوح الغيب لتهيئة محمد بن عبد الله للرسالة العظمى والانتقال بالعالم جميعه إلى حياة أسعد فى الدنيا والآخرة باختيار خديجة زوجا وسنداً له فى أول أمره حتى تثبّت فؤاده ؛ وتذهب عنه الوحشة والروع من الطارق الجديد الذى لم يكن يتصوره .

وكان محمد عليه السلام بعد أن تزوج بأم المؤمنين خديجة بنت خويلد قد وجد فى نصيبه من تجارتها ما جعله يزهد فى العمل التجارى . وعاوده التفكير والاطراق للبحث عن الحقيقة التى يرتاح اليها فى مصير هذا العالم .

ومن قبل ذلك كان قد سمع أن قريشاً كانت قد اجتمعت يوما بوادى نخلة لتقديس العزى وتقديم القرابين اليها فخلص منهم أربعة رجال نجيا ، هم زيد بن عمرو ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وورقة بن نوفل فقال بعضهم لبعض [تعلموا والله ما قومكم على شىء ، وأنهم لفى ضلال مبين ؛ فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ومن فوقه يجرى دم النحور ؟ يا قوم التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه] .

فكان هذا التذمر من عقلاء قريش مؤيداً لما يجول فى خاطره ويعتمل فى عقله من مقت وكراهة لما عليه قومه . فلم يكن بعد هذا فى حاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشر قومه من شئون الحياة وما يتقربون به إلى آلهتهم ليس حقا . فما هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن أحد غائلة شر يصيبه ؟ .

« وهبل واللات والعزى » وكل هـذه الأنصاب والأصنام القائمة فى جوف الكعبة أو حولها لم تخلق يوما ذبابا ولا جادت، مكة بخير.

ولكن : أين الحق إذا ؟ أين الحق فى هـذا الكون الفسيح بأرضه وسماواته ونجومه ؟

أهو فى هذه الكواكب المضيئة التى تبعث إلى الناس الدفء والنور ومن عندها ينحدر ماء المطر فيكون للناس ولأهل الأرض كافة من خلائق حياة بالماء والنور والدفء كلا ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء.

أهو فيما وراء هذه الأفلاك من أثير لا حد له ولا نهاية ؟ ولكن ما الأثير ؟ وما هذه الحياة التى نحيا ثم تنقضى غدا ؟ ما أصلها ما مصدرها وهل بعدها من حياة فيها حساب وعقاب ؟ .

لعل كل ذلك أو مثل هـذه الخواطر كانت تجول فى خاطر محمد وهو يمعن فى أطراقه وتفكيره فيشغله نشدان الحقيقـة حتى ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كل ما فى الحياة.

وهو بعد لم تلح له بارقة من أمل فتنير له مفترق الطرق فيختار أكثرها ضياء وأوضحها مسلكا.

وكان كلما اشتد به الوجد لجأ إلى غار حراء ينقطع فيه عن الناس والحياة لعله يستشعر ما يثلج صدره ويطفىء غلته.

كان هذا شأنه فى رمضان من كل عام فإذا فرغ من رمضان عاد إلى خديجة يلقى عندها حمله، ويتخفف قليلا من عناء الوحدة وسقم الصيام.

ولم يعرف عن رسول الله فى هـذه الفترة طريقة تعبده ولا على أى شرع كان يقوم بالعبادة فى حراء لأنه لم يحدثنا عليه السلام عن نفسه وخطته فى هـذه الفترة ولم يكن معه من يعلم كيف كان يتصل بربه فى ذلك الحين.

أمضى عليه السلام فى هـذه الحال سنوات لم تعرف بعد بالتحديد ولكنها طالت عليه وطال فيها شغله بالحقيقة التى ينشدها وصارت نفسه تسبح فى ملكوت السموات والأوض وتحلق فى الملأ الأعلى عساها تظفر بالسر من مولاها وتهتدى

إلى طريق هداها فرجعت روحه من مسارحها العلوية فى جوانب الكون المختلفة وبدا يلوح له الخيط الذى يهديه .

وابتدأت مراحل اليقين من هذا الخيط وكان أول ذلك إحساسه بالراحة النفسيه للطريقة التى كان يسلكها فى التفكير والعبادة وظهر فيض النور يملأ قلبه وينير جوانب نفسه .

ثم صارت صلته بربه تتضح وتتبلج فانتقلت من الراحة النفسية إلى مرحلة أقوى وأروع وهى مرحلة الرؤيا الصادقة .

فصار يرى فى نومه الرؤيا الصادقة تتبلج أمام باصرته بأنوار الحقيقة التى ينشد ويرى معها باطل الحياة وزخرفها .

إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى وان حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوثان وأصنام لاتملك لهم ضراً ولا نفعا وليس فيما يذكر اليهود والنصارى ما ينقذ قومه من ضلالهم .

ولكن ما هى وسائل الانقاذ التى يقدمها إلى قومه حتى يسعد بإنقاذهم مما هم فيه من ضلال إلى الهدى والخير فى دينهم ودنياهم ؟

ولكنه فى انتظار الخطوة التالية من الفيض الإلهى الذى يرشده فيه إلى تفصيل الهدى وتوضيح الطريق الحق للخير والاسعاد .

كانت الخطوة التالية هى الخطوة الكبرى والحد الفاصل بين الحيرة التى انتابته سنوات متتالية وبين اليقين الذى ألقى فى روعه عن طريق الوحى من ربه تلقاه من جبريل عليه السلام بقوله [اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم]

ومن هنا ابتدأ محمد رسول الله أخطر دور فى حياته وفى حياة البشر كافة .

في ميدان الجهاد :

لَبَّيْكِ يا مصر

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

داعي الجهاد لمجد مصر دعاني   لبيك أين من الصفوف مكاني
لا يستحق حياته متخلف   لا يستجيب لدعوة الأوطان
عار على الأحرار في أوطانهم   أن يخضعوا لمذلة وهوان
دعني أشق إلى الطغاة كتائباً   صماً تدك كتائب الطغيان
لا ساغ ماء النيل يوماً في فمي   إن لم أطهره من (القرصان)
ابن الجهاد أنا سقاني ورده   وطن على حب الجهاد نماني
هذا الدم المسفوح من شهدائه   قد هاج إحساسي وهز كياني
دعني أريق على نواجذه دماً   بين العروق يثور كالبركان
غضبان يزأر مستشيطاً حانقاً   متأججاً كمشاعر النيران
ليست تظلل أهلها حرية   حتى تروى بالنجيع القاني
ودم الضحايا شعلة قدسية   تذكي فؤاد الخامل الوسنان
إن لا مست قلب الجبان شرارة   منها غداً من أشجع الشجعان

* * *

قل للطغاة الإنجليز ترصدوا   للوادعين ترصد الذؤبان
وتنمروا كيف استطعتم واحشدوا   عند القنال كتائب العدوان
سدوا الفضاء بوارحاً وبوارجاً   وارموا بكل قذيفة وسنان
واستأسدوا للآمنين ، وفي الوغى   أنتم نعام كريهة وطعان
وتجهموا لذوي الحقوق وأرعدوا   وتنكروا للفضل والإحسان
وانسوا لمصر جميلها في موقف   ضقتم به حرجاً مع الألمان

هذى بطولتكم ، وذلك بأسكم ضربت به الأمثال فى إيران
صفعتكمو عبدانها فجلوتموا عنها كأسراب من الجرذان
صولوا كما شئتم فإن مصيركم لليأس والتسليم والخذلان
وليزأر الأسد العجوز بغابكم فزئيره ضرب من الهذيان
إنا غضبنا غضبة مصرية خلعت قلوب الأسد فى الغيلان
ولقد عقدنا عزمنا لجلائكم عنا ووحدة مصر والسودان
إيماننا بالحق يفرى بأسكم والحق نعم السيف فى الإيمان
من راح يزهى بالسلاح فإنما أقوى السلاح حراة الإيمان

* * *

يا مصر فجر النصر لاح فأبشرى وانشت شمل نواعب الغربان
أم الحضارة أنت يا مهد العلا والمجد أجمع من قديم زمان
قد كنت فى جيد المشارق درة ومنارة للعلم والعرفان
أيام كان الغرب جيران الخطا متخبطا فى ليله المدجان
يعشو إلى أضواء مجدك مثلما يتلمس السارى شعاع أمان
مجد بناه الأولون ثكلتنا إن لم نزد فى ذلك البنيان
وثرى خصيب لأطعمنا خيره إن لم يخضبه دم الشبان
لم تبق فى قوس التجلد منزعاً سبعون فى كبت وفى حرمان
حتى إذا ما ضاق صدرك بالعدا وبدت وعودهمو سراب أمانى
ثارت على الأغلال آساد الحمى ونبت بقيد الذل والأذعان
والصبر فى بعض الأمور تواكل والحلم أحياناً تعلة وان
والحق لا يعطى بذلة طالب لكن ينال بصولة وتفان
ما إن يسيغ الذئب منطق واقع فى الحق من فم وادع الحملان

* * *

يا من دعوتم للسلام بموثق أكدتموه بأغلظ الأيمان
أين السلام وأنتمو حراسه ؟ وئد السلام ولف فى الأكفان
شيعتموه وكلكم سفاحه بئس المشيع للقتيل . . . الجانى

وبكيتموه بأعين خـــداعة فيها بريق الزور والبهتان
لا تغترر بالسيف فى لمعانه فالفتك كل الفتك فى اللمعان
أو تخدعنك من الصلال ملاسة فالسم تحت ملاسة الثعبان
شر البرية فى الخلائق فاتك تبدو عليه مسحة الرهبان

* * *

دينوا بشرع الغاب فتكا واهدموا بالعلم ما تبنى يد العمران
والووا عن الحق المسالم جيدكم واستسلدوا لقيادة الشيطان
الشرق ثار على القيود وهب من نوم ليحطم صولة الأوثان
بعث السلام على يديه فأذنوا منه بحرب للسلام عوان
من صم عن داعى السلام أصمه فى الروع قصف المدفع الرنان
خذوا من الشرق الهدى وتعلموا خلق الوفاء وخلة العرفان
خلق الشعوب أعز ما تبنى به ملكا وترفع راية السلطان
والنصر للشرق العتيد ، وإنه دان ، وكل مقدر بأوان

المبالاة بالعدو

خرج بعض أهل خراسان على قتيبة بن مسلم ، فأهمه ذلك. فقيل له : ما يهمك منهم ! وجه إليهم وكيع بن أبى صرد ، فإنه يكفيكهم . فقال : لا ، إن وكيعاً رجل به كبر يتحاقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلت مبالاته بأعدائه ، فلم يحترس منهم ، فيجد عدوه غرة منه .

ومن نصائح على بن أبى طالب فى نهز الحرب : انتهزوا الفرصة فإنها تمر مر السحاب ، ولا تطلبوا أثراً بعد عين .

رثـــاء ..

« أبو العيون »

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى

والمنايا رَصَدٌ للفتى حيث سلكْ
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك

إلى جوار الله الكريم مضى الشيخ أبو العيون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وعزيز على وعلى كل أزهرى ، بل على كل مصرى ومسلم أن يبكيك ، فقد عظم مصاب هؤلاء جميعاً فيك . لقد جل خطب الأزهريين فيك ، فقد كنت مدى حياتك حامل اللواء فى معارك الإصلاح بالأزهر ، والمحامى عنه ، الغيور عليه ، المجاهد فى سبيله بلسانك وقلمك ، ولسانك سيف بتار ، وقلمك سنان نافذ .

لك القلم الذى بشباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل

كنت فى تلك المعارك القائد والمفاوض ، لك شجاعة القائد ودهاء المفاوض ، فحالفك النصر فى أكثرها ، ونالك ما ينال القائد فى الميدان ، فما لانت لك قناة وما باليت بتهديد ولا وعيد ، واشتركت فى أكثر الجماعات واللجان التى ألفت لإصلاح الأزهر ، وكان لك فيها الرأى السديد والإشارة النافذة ، وستحتل مكانك فى أكثر من صفحة من تاريخ إصلاحه ، وحملت عبأ فى رسالة الأزهر الدينية ، وحملت أعظم الأعباء فى رسالته الاجتماعية ، وللأزهر كما ترى رسالات فى شتى النواحى ، وكنت أليفاً مألوفاً بطبيعتك ، ومواهبك وتجاربك ، فكنت قريباً إلى نفوس المصلحين ، وذوى الغيرة بمصر وغيرها من الأمم الشرقية ترنوا إليك أبصارهم ، وتتطلع نفوسهم ، ويستصرخونك فتجيبهم ، ويدعونك فتلبى النداء ، فجاهدت فى ميدان الإصلاح الاجتماعى حتى كنت زعيم هذا الميدان ، ورمزاً للجهاد فى سبيل الفضيلة والكرامة ، عرفت بذلك وخصصت به ، لا فى مصر وحدها ، بل فى غيرها من الأمم الإسلامية . ولن ننسى لك ما كنت تستقبل به رؤساء

الحكومات من كتب رائعة تذكرهم فيها برعاية الدين والمحافظة على تقاليده ، ووجوب البذل فى النهوض بمعاهده ، والعناية بتدريسه فى المدارس الحكومية ، ولن ننسى لك جهادك ثلاثين عاماً أو تزيد فى محاربة البغاء فى البلاد لدى الحكومات وعلى صفحات الجرائد والمجلات ، ومكافحته بكل وسيلة ، وقد سخر قوم بدعوتك كما سخر قوم نوح منه ، فما ضعفت ولا يئست ، وتابعت كفاحك ونضالك حتى نصرك الله على أعدائك أعداء الفضيلة ، وكلل جهودك وجهادك بالنجاح ، وأزلت عن مصر الإسلامية ، بل زعيمة الدول الإسلامية أكبر وصمة فى جبينها وجبين الإنسانية عامة ، ولا زال كتابك «مذابح الأعراض» سجل تاريخك ، ورمز جهادك فى هذا السبيل ، ولن ننسى لك ثورتك الصيفية على اختلاط الجنسين فى الشواطىء بالمصايف ، والخروج فيها على تقاليدنا الإسلامية ، حتى كنت الرقيب المهيب ، يخشى رقابتك الحكام والمحكومون على السواء ، ولن ننسى ثورتك على المستهترين بالفضيلة فى الحفلات العامة ، وبخاصة حفلات الطبقة العليا ، لا يرهبك فى هذا الشأن سلطان ولا يثنيك عن محاربتها وعيد ، وأعرف أنك هددت أحياناً بما يمسك فى منصبك ومعاشك ، فما باليت وما هادنت .

وجل مصاب الوطن ، وفدحت خسارته فيك ، فلقد كنت فى الرعيل الأول من المجاهدين لحريته واستقلاله ، وجهادك صفحة خالدة فى تاريخك يعرفها المجاهدون الأحرار ويقدرونها لك ويضعونك بها فى الصف الأول من المجاهدين الصادقين . لقد كنت فى طليعة العاملين فى فجر النهضة الوطنية ، عرفتك المنابر العامة فى الأزهر وغيره خطيباً مبرزاً من خطباء الثورة ، واستضافتك السجون كما استضافت غيرك من قادة الثورة ومحركيها ، وشاركت فى المظاهرات بشخصك ، وعرضت نفسك للحراب والرصاص ، ولقيت ما يلقى الأحرار من نفى وتشريد ، وكسب تجار الوطنية ما كسبوا من مال وجاه ، ولم تكسب إلا ما ادخره الله لأمثالك من المجاهدين المخلصين . وكنت بين الأدباء من مواطنيك أديباً ممتازاً ، واضح الأسلوب مشرق الديباجة ، جزل العبارة تصل إلى غرضك فى لباقة وكياسة ، عفاً فى عبارتك وخصومتك لم تدنس قلمك بما لا ترضى عنه أصول المناظرة وقواعد الآداب . وها هى ذى جولاتك فى مجلات الأدب الراقية ، وأنديته الوفيعة تشهد بطول باعك فى الأدب وتبريزك فى فنونه ، وتضعك فى الطليعة من أدباء العربية ، ولن ننسى لك

جزالة أسلوبك وقوة روحك وشخصيتك فى مؤلفاتك التاريخية لطلاب المعاهد الدينية ، وفى مقالاتك بمجلة الأزهر والهلال وغيرهما من المجلات الراقية ذات الطابع الأدبى الخاص .

أما علاقتك بأصدقائك وبالناس عامة فقد كان لك فيها منهج خاص ، كان لك مع رؤسائك ومرءوسيك منهج يسوده التسامح والرفق ، وكنت تعتقد أنهما أهم ما يعتمد عليه الرئيس فى حل مشكلاته وأنجح الوسائل لسرعة القضاء فيها ويسوءك أنه يبدو الرئيس متفطرساً متعالياً ، بل كنت ومن معك من الموظفين كبيرهم وصغيرهم ، هدفك إنجاز الأمور وتيسير الأعمال ، وما كنت تقيم لما يقيم له غيرك من الشكليات وزناً ، فظللت محبوباً من الجميع فى كل أمر وليته يذكر لك هذا النهج إخوانك من العلماء وغيرهم فى المعاهد التى توليت شئونها ، وفى الإدارة العامة للأزهر ويرون لك اللطائف والطرائف فى حسن المعاملة ،ورقة المعاشرة. حدثنى أحد الإخوان أن جفوة وقعت بينك وبين موظف من مرءوسيك ولفتك إليها بعض إخوانك ، فما لبثت حتى أسرعت إليه فى مكتبه فصافيته وأزلت جفوته وشكر لك سعيك كل من ترامى إليهم هذا الصنيع من موظفى الديوان .

وهكذا كان منهجك فى المعاملة مع من عرفت ،وما أكثر من عرفت وعرفوك وعقدت بينك وبينهم أواصر المعرفة والصداقة ، حتى كان لك بكل طبقة صداقة تقوم على أساس قوى من الود والتقدير ، وكان من رواد مكتبك ومنزلك العالم والأديب والسياسى والتاجر والفلاح يبادلونك الرأى فى مشكلاتهم ، ولا يتحرجون ثقة بخالص نصحك ، وسديد رأيك ووافر أمانتك ، وكنت فى ألسر ملاذ البائسين وطلاب الحاجات يستعينون بما وهبك الله من جاه وما كنت به ضنينا .

هذه لمحات من سيرتك العطرة وسيرتك سجل حافل بالمآثر سيذكرها لك التاريخ وسيكشف مرور الزمن منها ما كان خافيا شأنه مع عظماء الرجال تنكر آثارهم أحياء وتقدر وتشكر أمواتا على أنك قد أنصفت سريعا أيها الراحل الكريم فقد وفى لك الشعب ، وقدر عظم المصاب بفقدك وقدر لك أعمالك وأفضالك ، فاحتشد لتكريمك وتشييع جثمانك بسائر طبقاته وما كان دافعه الى ذلك إلا الوفاء وحسن التقدير وشارك مصر العزاء فيك أقطاب الأمم الإسلامية .

وإذا بكاك الشعب فإنما يبكى فيك مجاهدا من قدماء المجاهدين الذين قام على جهادهم أساس نهضته وأورقت بجهودهم شجرة حريته وهو اليوم أحوج ما يكون الى القادة والجنود ليكتبوا الفصل الأخير فى كتاب مجده وتحريره .

وإذا بكاك الأزهر فإنما يبكى فيك علما من أعلامه وقطبا من أقطابه كان يسفر له فى جهات كثيرة على الأزهر أن يكون له فى كل منها من يمثله ويرنو ببصره الى من يسد الفراغ وعسى أن يظفر به ، وإذا بكتك أسرة مجلة الأزهر فإنما تبكى بفقدك المشرف الوقور والربان الماهر الذى جنبها بكياسته وسياسته الأعاصير ووجهها وجهة الخير فى أداء رسالتها ، وتبكى كاتبا من أعلام كتابها وأنداهم صوتا وأهداهم الى مواطن الأدواء وأعرفهم بوسائل العلاج .

رحمك الله يا أبا العيون ، وعوض الله فيك الأزهر والإسلام ، وأنزلك منازل الأبرار من جناته مع الصديقين والشهداء والصالحين ؟

عدل الولاة

قال ابن أبى الزناد عن هشام بن عروة قال : استعمل ابن عامر عمرو بن عروة أصبغ على الأهواز ، فلما عزله قال له : ما جئت به ؟ قال له : ما معى إلا مائة درهم وأثواب . قال ابن عامر : كيف ذلك ؟ قال أصبغ : أرسلتنى إلى بلد أهله رجلان : رجل له مالى وعليه ما علىّ ، ورجل له ذمة الله ورسوله . فوالله ما دريت أين أضع يدى . فأعطاه ابن عامر عشرين ألفا مكافأة له على أمانته .

وقال معاوية : إنى لا أستحيي أن أظلم من لا يجد علىّ ناصرا إلا الله .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

الشيخ أبو العيون

ألقيت فى الازهر الشريف يوم وفاته رحمة الله عليه

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

شيعوا كواكب التقى والرشاد وطووا راية الهدى والجهاد
حين قالوا : أبو العيون تردى لجعت أعين العلا فى السواد
قائد مات ، والبلاد جنود ثائرات ، ترنو إلى القواد
حرة تنشد الحياة ، وتدعو من بنيها ، بكل حر مفادى

* * *

يا قريع الخطوب فى كل هول يا لواء الكفاح فى كل عادى
كيف طاح اللواء ، قل لى ، متى طحت ، وما طحت فى زحام الجلاد
كم تدرعته عزيزاً كريما خضبت وجهه دماء الأعادى
واقتحمت الصفوف تزخر بالمو ت ، مشيحا ، تصيح : تحيا بلادى
فى الرعيل السباق من حاملى العبء ، ومن كل أريحى جواد
نزلت مصر منهمو فى السويداء ، فهزت نفوسهم للطراد
رفعوا راية الجهاد وهبوا حين نادى الجهاد كالآساد
لا يبالون بالحديد وبالنار ، وبالموت ، فى سبيل المراد

* * *

لهف نفسى عليك ، فارقت مرما ك ، إلى غير رجعة أو معاد
الهدى والجهاد فى يوم منعا ك ، توارى سناهما فى الحداد
فعزاء لمصر فيك ، إذا أغنى عزاء لدى الكبود الصوادى
وسلام عليك فى جنة الخلد ، مجيدا ، من عترة أمجاد

زفرة الشعر

على فقيد مصر والاسلام «أبو العيون»

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض هلال
المدرس بكلية اللغة العربية

على مثله فليبك من كان باكيا ... ومن هو أولى بالدموع هواميا؟
دهاه الردى والنيل يرنو تطلعا ... إليه فيلفيه على الأرض جاثيا
سل الثورة الكبرى فكم خاض نارها ... ومتديداً للموت أحمر قانيا
وسل منبر (المعمور) عن خطب له ... دعت مصر للجلى فدكت رواسيا
وسل ظلمات السجن عن خير زائر ... قضى دهره فى السجن جذلان راضيا
وسل ثورة الاصلاح عن كلم له ... دعت وهدت للخير من كان آبيا
مواقف لن يمحى مدى الدهر ذكرها ... ولسن على مر الزمان خوافيا
عرفناه سباقا إلى كل غاية ... أخاهمة شماء تدنى الأقاصيا
له صولة فى الحق كالرعد صاخبا ... وكالسيف بتاراً وكالليث ضاريا
وكان لدين الله خير مناصر ... فكم ذاد عنه كل يوم أعاديا
تطالع منه حين تلقاه بسمة ... تريك سنا القلب الكبير مناديا
وترتع منه فى خلال حميدة ... يحوطك منه العطف والبر حانيا
كأنى إذا أرعيت سمعى بيانه ... أنمق فى طاق من الزهر جانيا
أنست به دهراً فأشربت حبه ... وألفيت منه الفضل والنبل ساميا
وفاء، وفهم للحياة، وفطنة ... له الرأى فى ليل الحوادث هاديا
تحمل عنى البشر إذ قيل قد قضى ... وأجفل منى العقل إذ خر ثاويا
مضى ونفوس القوم ترأم نعشه ... وترمقه الآمال حسرى عوانيا
وخلفنا فى ليلة نابغية ... (كأن على الأعناق فيها أفاعيا)
ونهنهت دمعى أن يكف فلم يزد ... على أن توالى هامياً من شئونيا
سألت إلهى أن يجود ترابه ... سحائب تزجيها الرياح غواديا
تهنأ «أبا العيون» وامرح بجنة ... ونم فى جوار الله تنعم هانيا
رسالتك الكبرى وفيت بحقها ... وكنت شجاعا فى جهادك غاليا
بكيت وما يجدى البكاء على امرىء؟ ... بنفسى من ودعت أسوان باكيا

فى جنازة البطل الشهيد

أستاذنا (أبو العيون)

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد شفيع السيد

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

طويت صحيفة عالم موهوب ... قاد الطلائع وهو غير هيوب
وبجاهد فى الله حق جهاده ... لم يخش من سجن ولا تعذيب
الثورة الكبرى ذكت نيرانها ... بيراعه وبيانه المشبوب
فلو استمعت اليه فى عزائها ... لرأيت أى مناضل وخطيب
كم ذا يجلجل صوته فيهزنا ... كالعاصفات تهز كل قضيب
وتخالها من عجب نمير بيانه ... ناراً تلظى فى نهى وقلوب
فى كل مجتمع وكل صحيفة ... ذوب البراعة من بنان أريب

❊❊❊❊❊❊❊❊

هو واحد حرس الفضيلة جاهدا ... لم يلف من ندٍّ له وضريب
يا مذكى العزمات فى أبنائه ... ومواصل الارشادَ بالتهذيب
مترفقا فى كل ما يبديه من ... نصح بلا لوم ولا تثريب
وشعاره (فى حكمة) لا تغضبن ... لكنه للحق جد غضوب
فى كل ناحيـة ترى آثاره ... كالغيث شؤبوبا على شؤبوب
أوفى على السبعين وهو مجاهد ... بذ الشباب بعزمة ودءوب
الدين أول ناكل بمكافح ... قد كان عدته لكل عصيب
لو كان فى الأعلام مثلك داعياً ... هان المصاب لثاكل محروب

❊❊❊❊❊❊❊❊

يا من رأى بطل الجلاد مجندلا ... فى غير ميدان وغير حروب
واها لحدثان الحياة فإنه ... يأتى من الأهوال كل غريب
يا يوم نعى « أبى العيون » تركتنا ... ريع النهار بحالك غربيب
فالليل ممدود الرواق مخيم ... والصبح آذن ضوءه بمغيب
وترى العنادل أمسكت لهواتها ... شجناً وللغربان شرنعيب
لله أى شهادة كتبت له ... حين الجهاد فنال خير نصيب
أدى رسالة ربه حتى إذا ... هتف الحمام أجاب خير مجيب
هبنى يراعك أقض حق مآثر ... كالشمس لكن غير ذات غروب

رثـــاء

فقيد الازهر والشرق

فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ « محمود أبو العيون »

لفضيلة الأستاذ الشيخ السباعى الشناوى

المراقب بكلية الشريعة

فريداً كنت فى نهج الحياة ... كذلك كنت فى جَلل المات
تحديث الحوادث غادرات ... إلى أن رحت نهب الحادثات
وخضت من المعارك داميات ... فكنت غضنفراً صلب القناة
وكنت إذا ادلهم الخطب شمساً ... تنير لنا دياجير الحياة
نفخت الروح فى الأشبال حتى ... رأيناهم أسوداً ضاريات
إذا ذكر الجهاد ذكرت فرداً ... يقود الشعب فى كل الجهات
خطيب هز فى الوادى شعوراً ... فأيقظهم وكانوا فى سبات
فلم يرهب للاستعمار بطشاً ... ولم يخش المعاقل موحشات
وما لانت له أبداً قناة ... ولم ترعبه أهوال الطغاة

* * *

بعثت رسائل الإصلاح تترى ... فألغيت « الخنا والساقطات »
وكانت وصمة بجبين مصر ... فأضحت مصر خير الطاهرات
فيالك مصلحاً فذاً تقياً ... ويالك فى النصائح والعظات
رفعت الأزهر المعمور حتى ... تبوأ منزلا فى النيرات
وكم لك صيحة دوت فكانت ... فخار الأزهريين الأباة

* * *

لنعيك غاض ماء النيل حزناً ... وغاض معين دجلة والفرات
وروعت العروبة فى نهاها ... وريع الشرق فى نخر اللدات
طواك الموت أحوج ما نكون ... إليك فأنت رمز التضحيات
ولو كان الفداء يفيد كنا ... فدينا بالألوف وبالمئات
عليك سحائب الرضوان تهمى ... وفى الفردوس يا خير الهداة

الأزهريون أساتذة شعراء العصر

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقى

المدرس بكلية اللغة العربية

- ٣ -

لم نكن لنؤيد هـذه الدعوى معتسفين فى الدليل ، ولا مبالغين فى الفهم والاستنباط ، ولا مستوحين عصبية لمعهد أشرق فى عقولنا وقلوبنا ، ولكننا توخينا دقة البحث ، ونزاهة المنحى ، وقد سقنا فيما نؤيد به هـذه القضية حديثا عن صلة « البارودى » الشاعر الفحل « بالمرصفى » العالم الأديب النقاد ، وأثبتنا أن الشيخ حسين المرصفى وجه البارودى وعلمه ، وهداه وأخذ بيده حتى صح أن يكون هدية منه .

ونحن فى مقالنا هذا نسوق حلقة جديدة بهذا الصدد نكشف فيها القناع عن صلة زعيم الشعراء المغفور له أحمد شوقى بك بمن هو كالأستاذ له من علماء الأزهر وأدبائه ، وهو المرحوم الشيخ محمد البسيونى .

(٣) الشيخ البسيونى وشوقى :

وقبل أن نتكلم عن انتفاع أمير الشعراء « أحمد شوقى بك » والأخذ من بعض أساتذته نقدم بكلمة عن « الشيخ محمد البسيونى » أستاذه فإن الحديث يدور عليه .

من هو البسيونى ؟ الشيخ محمد البسيونى البيبانى ، ينسب إلى « بيبان » قرية من قرى البحيرة ، ولد بها فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى تقريبا ، وبعد أن حفظ القرآن أشخص إلى القاهرة لطلب العلم فى الأزهر ، وما أن استقر به المقام بين جدرانه حتى طفق يدرس على أساتذته مختلف العلوم العقلية والنقلية ، ولازم شيوخه بالأزهر سنين يقرأ عليهم أمهات الكتب فى الفنون التى كانت تدرس إذ ذاك حتى حذقها ، ولما نضجت كفايته ، واكتملت مقدرته تصدّر للتدريس

فكان معدوداً من جلة الأساتذة ، وامتاز الشيخ بنوع خاص فى دراسة العلوم العربية ، فكانت له طريقة لم تكن معهودة فى ذلك العصر ، إذ يعمد إلى جوهر الموضوع فيبرزه فى أبهى حلة ، ويجليه للطلاب غاية التجلية ، باحثاً فى سره دون التعرض للضجة اللفظية ولغط الكاتبين .

وقد ظهر أثر هذه الطريقة فى كتابه « حسن الصنيع » الذى ألّفه فى المعانى والبيان والبديع ، وكتبه بأسلوب أدبى رقيق ، وجاوزت شهرته العلمية والأدبية المحيط الأزهرى إلى أفق غير الأزهر فأسندت اليه « نظارة المعارف » تدريس علوم اللغة العربية بالمدرسة التجهيزية « الخديوية » .

واختاره الجالس على العرش « الخديو توفيق » إماما لحضرته ومدرساً لأنجاله فقام بما عهد إليه خير قيام .

ثم أسند إليه مع عمله هذا تدريس اللغة العربية بمدرسة الإدارة التى سميت فيما بعد « مدرسة الحقوق » وكان من بين تلامذته النابهين فى هذه المدرسة المرحوم « أحمد زكى » والمرحوم « أحمد شوقى » وكان يدرس علوم البلاغة لأمثال هؤلاء

ثم عين الشيخ « البسيونى » مفتياً للمعية السنية وظل فى وظيفته هذه إلى أن جاور ربه فى ليلة الخميس ١٣ من ربيع الآخر سنة ١٣١٠ هـ الموافقة ٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٢ م فى عهد الخديو عباس الثانى رحمه الله تعالى .

شعره والعوامل المحيطة به :

فى أثناء هذه الحقبة التى قضاها « البسيونى » فى خدمة بيت الملك كان يقرض الشعر فى مدح الخديوى كلما حل موسم أو أهل عيد ، أو بدت فرصة ، وقلما نظم الشعر فى غير هذه الأغراض .

ولم يكن من الميسور له وهو من رجال الملك وخلصائه أن يتعرض فى شعره إلى السياسة إلا بقدر يسير جدا ، كما لم يكن من المستطاع له وهو من رجال الدين أن يتحدث إلا قليلا عن اللهو والخمر والنساء وما لا يتفق مع جلال الدين ووقار العلم ، لذلك جاء شعره محدود الغرض يدور فى أفق ضيق ومدى قريب ، فلم نعثر

له على شعر إلا فى المدائح والتهانى وغيرها مما تنشره له الوقائع المصرية مما كان يزجيه لصاحب العرش .

وفيما وقفنا عليه قصيدة يهنئ بها الخديوى « توفيق » بعودته من الاسكندرية إلى العاصمة بعد إخفاق الثورة العرابية ووقوع الثوار فى قبضته .

وفى هذه القصيدة يؤرخ العودة بسنة (١٢٩٩) هجرية ، ويضفى على وليه حللا من الثناء ، ثم يعرض إلى الثوار فينال منهم ، ويسفه أحلامهم ، وإلى الثورة فيصف مآسيها وشرها ، وأخيراً يكل أمر هؤلاء الخارجين على طاعة ولى الأمر فى أسلوب جيد بالنسبة لعصره ، ويقول فى مطلعها :

رجوعك يا توفيق مصر هناؤها ... وشمس بهاها دائما وضياؤها
فأنت خديويها ، وأنت مليكها ... وأنت لها من كل سقم شفاؤها
وأنت لها حصن على رغم حسّد ... وأنت لها بدر وأنت سماؤها
وما هى إلا روضة وفكاهة ... وما أنت إلا حسنها وازدهاؤها
وأنت لها إنسان عين حياتها ... ولولا تلاقيها لخيف عناؤها
وما هى إلا جثة أنت روحها ... وما أنت إلا مجدها وعلاؤها
وما مثلها إلا لملك ينتمى ... فيسمو بها بين الأنام انتماؤها
لبعدك كم قاست لعمرى شدائدا ... فأفضت إلى أن تستباح دماؤها
ولولا تلافيها لأصبح تالفاً ... بقية أهليها وعز نماؤها
وأضحت لأرواح الرياح ملاعبا ... وما طاب فيها للمقيم هواؤها

ومنها :

على عصبته البهتان لا تأس إذ هوى ... بها فى مهاوى الموبقات افتراؤها
فقدخلعت ثوب النجاة مذ اكتست ... ثياب الردى جهلا وبئس اكتساؤها
وحيث أبت إلا هواها سفاهة ... وساق لها الأخذ الوبيل شقاؤها
رأيت لها رأى الملوك فأصبحت ... وقد ساءها إصباحها ومساؤها
فإن شئت فاصفح أو إذا شئت فانتقم ... فمنك بقاها لو تشاء فناؤها

شوقى ثمرة البسيونى

حين تولى الشيخ البسيونى تدريس اللغة العربية بمدرسة الإدارة (الحقوق) كان من بين تلامذتها أحمد شوقى (بك) وأحمد زكى (باشا) كما قلنا فانتفعا بعلمه، واغتذيا بثقافته، وتفطن الأستاذ إلى الموهبة الشابة فى نفس شوقى فأقبل عليها بالتوجيه، ويحدثنا أحمد زكى باشا فى حفل تأبين شوقى الذى أقامته وزارة المعارف فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ م بأن الشيخ البسيونى أستاذهما فى فنون البلاغة وكان لا تخطئه النكتة البارعة اللاذعة، أو الساحرة الساخرة، وما لبث أن رأى فى تلميذه شوقى بواكير العبقرية، وبوادر المواهب الربانية فأنشأ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها إلى المعية السنية، وإلى جريدة الوقائع المصرية، وغيرها من الصحف العربية، وكان شوقى ببساطة التلميذ الناشئ يشير بمحو هذه الكلمة، وتصحيح تلك القافية، وحذف هذا البيت، وتعديل ذياك الشطر، والأستاذ يغتبط بقوله، وينزل على رأيه.

ويقول أحمد زكى باشا: وأحسن ما أذكر لأستاذى البسيونى رحمه الله: أنه كان يتحدث بذلك إلينا وإلى الفرق المتقدمة علينا (وفيها أصحاب السعادة عثمان باشا مرتضى، وأبو بكر يحيى باشا، وعلى ثاقب باشا، وشاكر بك أحمد) دون أن تأخذه العزة بالإثم، وأن يغريه الكبرياء اللازم للمدرس بإنكار الفضل الذى منحه الله للدارس. فهذه أول سعادة أحرزها «شوقى».

أجل هذه أول سعادة أحرزها، فما من شك فى أن إقبال الشيخ البسيونى على شوقى وتنزله معه إلى هذا الحد قد ملأ نفسه بشاعريته، وإيمانا بموهبته، وكان أول ما أخذ بيده إلى النهوض وشجعه على المضى فى سبيل مجده صعدا، فما شىء يدنى الأمل من نفس التلميذ، ويوطىء له أسباب المجد والسعادة، مثلما تفعله رعاية أستاذه البار الكريم، الطيب النفس، النزيه المسلك، الخبير بأسلوب التربية وطرق التشجيع.

على أن الأستاذ البسيونى تحدث بهذا النبوغ الباكر إلى صاحب العرش، وأفهمه أن بين أثواب هذا الفتى الناشىء براعة نادرة وذكاء فذا، وأنه خليق

هدى الاسلام فى اصلاح ذات البين

لفضيلة الأستاذ الشيخ المنشاوى عبود الخولى

المدرس بمعهد القاهرة

كما تعرض للأجسام العلل والأسقام فتمس الحاجة إلى طبيب فاحص يشخص الداء ويصف العلاج الحاسم الذى يجتث جذور المرض ويستأصل شأفته . ويصرعه فى مهده قبل أن يزعج أثره ويشتد خطره . كذلك ينتاب الصلات والروابط الوهن والانحلال . وهذا هو المعول الهدام لبناء الأسر والجماعات الذى يقوض دعائمها ويأتى على صرحها من القواعد فيجعله أنقاضا . فهو أسرع فتكاد أقسى لجيعة من مرض الأجسام . لذا كانت الصلات المريضة أحق بالرعاية الفائقة والعلاج الناجع الذى يرسمه أطباء القلوب لإنقاذها من مخالب الفتنة . وصيانتها من نار

بالرعاية العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت هذه الشهادة من أكبر الأسباب التى حفزت الخديو « توفيق » فى سنة ١٨٨٧ م إلى إيفاد شوقى إلى باريس ليتم دراسته العلمية على نفقته الخاصة ، ولتتغذى مواهبه بروائع الغرب وبدائعه ، وقد تحققت به وفيه الآمال فكانت هذه ثانية السعادات .

ومن هنا نرى أن الأزهر ممثلا فى شخص الأستاذ البسيونى هو الذى كشف عن هذه القوة الكامنة فى نفس شوقى وهو الذى تهدّى بشاعرية أحد أبنائه وفراسته إلى عبقرية أمير الشعراء فوجهها التوجيه الصالح ، وتعهدها حتى نمت وأزهرت ، وأنبتت نباتا حسنا وأثمرت ثمرا لايفنى ولا يبيد ، وجميل حقا أن يتفطن شيخ أزهرى لم ير مفاتن الغرب ، ولم يكتمل بمشاهده ومجاليه ، إلى ما يجب لشوقى أن يطلع عليه من روائع باريس وحضارتها ، ومباهجها ومفاتنها ، فيشير على ولى الأمر بإرساله إليها ليتسع أفقه ويخصب خياله ، ويمتلىء ناظره بأسباب القول ودواعى الشعر

فلا عجب إذن أن يكون شوقى أمير الشعراء من أفق الأزهر ، وثمرة من ثماره أو فكرة من أفكاره ؟

العداوة . وتطهير النفوس من الأحقاد المثيرة . والضغائن المدمية والقضاء على أسباب الفرقة والانقسام . وغرس بذور المودة والوئام لترجع للأواصر قوتها وللأخوة توقفها.

ولما كان الإسلام هو دين البشرية الخالد والترياق الشافى من أمراضها الاجتماعية فقد عنى بإصلاح ذات البين عناية لم تظفر بها فى تشريع ما ، فسن لها قانونا حازما لو أقيم على وجهه الصحيح لجعل من الناس كافة أمة واحدة متماسكة العرا رفيعة الذرا . بل جسما واحدا تتعاون أعضاؤه فى توفير قوته وهناءته :

كفل الإسلام هذا الخلق القيم فى مراحله المختلفة فتعهده فى الأسرة بين الزوجين . وتعهده فى نزاع الأقارب . وأوصى به فى الخصومة بين طائفتين من المؤمنين . وحث عليه عند الشقاق وبين جماعتين من الناس مطلقا أيا كان شعارهم الدينى .

الصلح فى الأسرة : وجه الإسلام اهتماما بالغا إلى إصلاح ذات البين فى الأسرة لأنها لبنة فى بناء الأمة . فما الأمة إلا مجموعة من الأسر فإذا كانت متماسكة متناصرة استمدت الأمة من ذلك بأسها وسلطانها وهيبتها فى نفوس أعدائها وإن كانت متنازعة متخاذلة تراءت هذه الأشباح فى مرآتها فبدت تلك الأمة هزيلة خانعة ذهبت ريحها وانكمش سلطانها وهان أمرها على أقرانها وعندئذ تخط قبرها بيدها . وتقذف بنفسها فى هاوية الذل والدمار . ولذا أمر الإسلام بالإصلاح بين الزوجين ووضع لذلك خطة رشيدة لو استوى المصلحون على صراطها لظفروا بالتوفيق فى مهمتهم فحسموا مادة النزاع وأعادوا للحياة الزوجية صفاءها وبهجتها . قال جلت حكمته (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا) .

أرأيت أسرع فى تحقيق هذه الغاية السامية من الوصية بجعل الصلح بين الزوجين عن طريق الحكمين من أرقاربهما ؟

إنما كان مباشرة الأقارب له أتم وأكمل لأنهم أعرف بخبايا الأمور . وأحرص على إزالة الشحناء . وللزوجين ثقة بهم . وإذا وجدت الثقة انفتح باب الأمل فى الوئام والوفاق أضف إلى ذلك أن الله تعالى ملأ قلب الحكمين مراقبة له وخشية منه فبين لهما أنه إن صلحت نيتهما بإرادة الخير تبع ذلك حتما التوفيق بين الزوجين . وإن لم يتم التوفيق كان هذا أمارة على عدم إخلاص الحكمين فى مهمتهما وخبث طويتهما وخيانتهما للأمانة التى فى أعناقهما .

فهل سمع الناس بمثل هـذا فى إذكاء روح الحماس عند المصلحين وحفزهم إلى التفانى فى القيام بواجبهم ؟

الصلح بين المؤمنين : قال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنين إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون)

وكما حض الإسلام أقارب الزوجين على الصلح بينهما أشعر المومنين عامة أنهم بعد أن استظلوا بلواء الإسلام قد أصبحوا بنعمة الله إخوانا . وأن بينهم من الروابط ما يفوق قرابة النسب قوة وإحكاما . فأهاب بهم إذا وقع نزاع بين طائفتين من المؤمنين أن يبادروا إلى الصلح بينهما . فإن أسرفت إحداهما فى الخصومة والعدوان فعلينا أن نقاتلها حتى ترجع إلى صوابها وتسكن إلى ما أمر الله به من الصلح وإخماد نزعة الفساد وبعد ذلك نصلح بينهما بالقسطاس المستقيم لا يدفعنا حب طائفة إلى محاباتها ولا يحملنا شنآنها على ظلمها . وبذا نظفر بما وعد الله به المقسطين من محبة وأجر جزيل . وتشريف ومقام كريم . ورحمة سابغة وفضل عميم . وما نال المصلحون هذا كله إلا لأنهم بذلوا جهدهم فى إطفاء نار العداوة بين المتخاصمين وإقامة صلح كان بردا وسلاما على قلوبهم . فرحموهم من فتنة تسرى فى الصلات سريان النار فى الهشيم . لهذا كان المقسطون جديرين بجزاء من جنس عملهم قال عليه الصلاة والسلام (وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)

الصلح بين الناس مطلقا : قال الله تعالى (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما) .

لما كان الإسلام رحمة مهداة إلى البشر جميعا لا فرق فى ذلك بين من انضوى تحت لوائه ، ومن حرم شرف الانتساب إليه حث أتباعه عل أن ينهضوا للإصلاح عند النزاع بين جماعتين من الناس أيا كان لونهم الدينى إنقاذاً للإنسانية ، وحرصاً على إسعادها وهناءتها . ولا يقع هذا الصنيع من الله موقع القبول إذا كان الباعث عليه طلب السمعة الزائفة والرياء الآثم فيلزم أن يكون احتساباً لوجه الله الكريم

وتوسلا إلى رحمته بالإحسان فى طاعته حيث قال عظمت منته « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وهذا النوع من الصلح ، رفع الله به قدر المسلمين وأعلى شأنهم ، إذ مكن لهم فى الأرض وشرفهم بالخلافة عنه والولاية على عباده جميعاً ينشرون بينهم السلام الدائم والصفاء الشامل فتمت عليهم كلمة ربك الحسنى بما أصلحوا وأنجز لهم وعده الكريم الوارد فى قوله « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . لم يقف أمر الإسلام فى علاج النزاع عند هذا الحد ، بل سلك أساليب أخرى تسرع بتطهير النفوس من أدرانه ، ونجمل ذلك فيما يأتى :

(١) وجه المسلمين إلى عناية بعضهم ببعض وبين لهم أن الاشتغال بالصلح أحمد عاقبة عند الله ، وأجزل ثواباً من الصيام والصلاة والصدقة ، وذلك لأن الإصلاح حماية للعداوة والأخلاق من أن تلتهمها نار العداوة والشقاق . روى أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين . وفساد ذات البين الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) .

(٢) حرم الكذب فى جميع الحالات وأباحه للقائم بالإصلاح وجعله مثاباً على صنعه لأنه قصد جمع القلوب . ووصل ما أمر الله به أن يوصل . روى البخارى وأبو داود عن أم كلثوم بنت عقبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ليس بالكاذب من أصلح بين الناس فقال خيراً أو نمى خيراً) .

(٣) ذم الفاجر فى خصومته وجعل ذلك آية النفاق ، وأخبر بأن المسرف فى الخصومة المكثر منها أكثر الناس تعرضاً لمقت الله وسخطه . روى الشيخان والنسائى عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (أبغض الرجال إلى الله الألد [١] الخصم [٢]) .

(٤) مدح العفو عن المسىء وتفضل تعالى بإيجاب حق عليه للعافى يقدمه إليه يوم الجزاء على رءوس الأشهاد تكريماً له وتشريفاً . فقد روى أن النبى عليه

---

(١) الألد : شديد الخصومة . (٢) الخصومة : كثير الخصومة .

الصلاة والسلام قال : (إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله من كان له حق على الله فليقم فلا يقوم إلا إنسان عفا) .

وأورع من هذا ما أرشد إليه الدين من مقابلة الإساءة بالإحسان كى يتحول العنيف فى خصومته إلى وفى لصداقته « إدفع بالتى هى أحسن السيئة فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . هذا ولم يقتصر منهج الإسلام فى موضوع النزاع على علاجه ، بل لجأ أيضاً إلى الوقاية منه ، فحرم اقتراف الأسباب التى يترتب عليها منعاً لوقوعه وسمواً بالعلاقات من أن يدنو منها شبحه البغيض وإليك الأمثلة :

أولا : بالغ الرسول عليه الصلاة والسلام فى الوصية بترك الغضب ، وحكم بأن خير الرجال من كان بطىء الغضب سريع الرضا . وشر الرجال من كان سريع الغضب بطىء الرضا .

ثانياً : حرم ظلم الإنسان لغيره لأنه لا شىء يثير الحفائظ ويبعث الحزازات كانتقاص الحقوق والاعتداء على الحريات .

ثالثاً : حذر من النميمة ولو كان ما يقال صدقا وأخبر بأن أبواب الجنة موصدة فى وجه النمام ، ونهى عن الاستماع إلى الوشاية خيفة أن تعكر سماء المودة . روى عن الرسول الحكيم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال (لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) إلى غير ذلك من الوصايا الحازمة والتوجيهات الرائعة .

أيها المسلمون : هذه تعاليم دينكم الذى تنسبون إليه ، ولكن يحز فى نفسى وفى نفس كل غيور أنى أجد المسلمين قد أغفلوا إصلاح ذات بينهم ، فباءوا فقط بإثم التفريط ولكنى أجد بعضهم مشعلا لجذوة الفتنة يجمع لها حطبها ، ويؤجج نارها ، ويسره أن تقطع الأوصال وتمزق العلاقات .

حسب هؤلاء أن يذكروا قول رب العزة (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) اللهم إنا نسألك للمسلمين عامة فقها فى دينك واعتصاما بحبلك واستمساكا بهدى نبيك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم ؟

باب الأسئلة والفتاوى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي : —

تحدث عدد من نظار القبائل السودانية فى مؤتمر صحفى عقد بالخرطوم حديثا نشرته جريدة الأهرام بتاريخ ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥١ مرفقا بهذا الطلب .

وأنى أرجو أن تتكرموا فتقرروا مشكورين حكم الدين الحنيف فى هؤلاء النظار الذين أعلنوا تعاونهم مع غير المسلمين

توفيق أحمد البكرى
بالجامعة العربية

الجواب :

الحمد لله رب العالمين : والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وعلى ما ورد فى جريدة الأهرام مما أشير إليه فى السؤال . وتفيد بما يأتى :

قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وقال تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أمانا تكم وأنتم تعلمون » وقال تعالى « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .

أوجب الله بهذه الآيات وغيرها من القرآن الكريم على المؤمنين أن يعتصموا بحبله المتين ، وأن يتحدوا فيما بينهم على حفظ دينهم وتركيز سلطانه وإقرار كلمته ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرق وحذرهم عاقبة ذلك من الفشل ، وذهاب الريح وتلاشى السلطان .

ولما كانت موالاة بعض المؤمنين لأعداء الدين وتعاونهم معهم سبيلا للتفرق وخروجا على وحدة المسلمين وسببا للفتنة عنى القرآن فى غير آية بنهى المؤمنين عن اتخاذهم أولياء من الكافرين يلقون إليهم بالمودة ويعملون معهم على ما يمكنهم من تحقيق أغراضهم فى التسلط على المسلمين وإضعاف شوكتهم فى بلادهم ، وقرر أن هذا الصنيع خيانة لله وللرسول ، وخيانة للأمانات التى ناط الله رعايتها بالمؤمنين

وأنه لا يمكن أن يوجد مع الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأن دعوى الإيمان ممن يخرج على أمته ويعاون من حاد الله ورسوله دعوى كاذبة لا قيمة لها عند الله ولا وزن لها عند جماعة المؤمنين .

هذا ما تدل عليه هذه الآيات الواضحة ، ولا ريب أن دعوة بعض المسلمين إلى التعاون مع غير المسلمين الذين يعادونهم ويحتلون بلادهم ظلما وعدونا واستنادا إلى ما لهم من قوة غاشمة خيانة ومحادة لله وللرسول ، وخيانة للأمانات التى أوجب الله رعايتها على المؤمنين ، وخروج على الوحدة الإسلامية وتمكين للعدو من التسلط على المسلمين وسلب حريتهم وزلزلة سلطانهم ، وقضاء على دينهم وقوميتهم ، وكل ذلك من مظاهر الكفر التى لا تصدّق معها دعوى الإيمان .

وقد صرح القرآن بأن أمثال هؤلاء الذين يخرجون على أمتهم لا ينجيهم من الوعيد الشديد ما يدّعونه من أنهم يتحامون بذلك شرا قد ينزل بهم ، أو يتوخون مصلحة تصل إليهم ، وقرر أن ذلك ليس إلا انتحالا لأعذار موهومة ، وركونا إلى شبهة باطلة يزينها ضعف الإيمان وابتغاء عرض الحياة الدنيا ويقول فى شأنهم - بعد النهى عن اتخاذ الأعداء أولياء وبعد تقرير أن من يتولاهم ملحق بهم ومعدود منهم - يقول « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » .
هذا هو حكم هؤلاء المسئول عنهم عند الله وفى نظر الدين : وترى اللجنة أن الدين يوجب على المسلمين أن يكافحوا هذا الصنف من الناس الذين منيت به الشعوب الاسلامية فزعزع سلطانها ، وأطمع الأعداء فيها ، فأخذوا ينتقصون أرضهم من أطرافها ويدخلون عليهم من كل باب حتى صارت بلاد المسلمين طعمة للآكلين وغرضا للمستعمرين .

ولو أن المسلمين تنبهوا إلى هذا الواجب وكافحوا هذا الوباء الاجتماعى الذى نبت فيما بينهم وطهروا بلادهم من جراثيمه لاحتفظوا بعزتهم وسلطانهم ولتمتعوا بحريتهم وسيادتهم ولكان لهم ذلك المجد الذى تقلص عنهم بموقف أمثال هؤلاء الخونة الآثمين « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » والسلام على من اتبع الهدى ؟

كيف ندرس الادب (١)

للاستاذ الشيخ أحمد محمد صقر

خريج كلية اللغة العربية

للأزهر فى قديمه وحديثه طابع يمتاز به فى درسه بما يعطى من حرية المناقشة لطلابه . فللطالب أن يناقش الأستاذ فى كل ما يقول . وعلى الأستاذ أن يتقبل ملاحظات تلميذه بصدر رحب . ولكن لا أدرى : أمن طوابع الأزهر ألا يعالج طلابه مشاكل الآداب والعلوم بأقلامهم على صفحات المجلات العلمية أم أن لهم الحرية فى الكتابة والنشر دون تعرض لسخط أو انتقام . ؟

أعتقد أن للطالب الحق فى علاج المشاكل العلمية والأدبية كتابة ومحاضرة ومناقشة سواء أكان كل ذلك فى قاعة الدرس أم خارجها . وسواء أكان فى محيطه أم فى محيط آخر . لأنه مسئول عن كل ما يصدر عنه فلا حرج عليه إذا كتب معبرا عن رأى يخالج نفسه أو معالجا لمشكلة يراها تتصل به . ولكن يظهر لى أن الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان يرى غير ذلك فهو يقول فى كلمة نشرها على صفحات مجلة الأزهر ردا على مقالى السابق : « إنى أعتب عليك - ياولدى الأستاذ أحمد محمد صقر - عتبا رفيقا أبويا لأنك تخطيت أساتذتك مدرسى الأدب فى كليتك الكريمة . . . » مع أنى لم أكتب عن طريقة دراسة الأدب فى كلية اللغة العربية وحدها بل كنت أتحدث حديثا عاماً لأن الشكوى عامة من جميع طلاب الأدب فى مختلف معاهده . فليس فى ذلك تخطٍ لأساتذتى ولا تجن على الحقيقة فدراسة الأدب فى حاجة قصوى إلى تنظيم بل فى حاجة إلى انقلاب شامل .

ولم يقف فضيلة الأستاذ عند هذا الحد بل حرض مجلة الأزهر على إغلاق بابها فى وجه مقالاتى واتهمها بمجاملتى حين كتبت فى أول مقالى « هذا رأى

---

(١) بهذا العنوان « كيف ندرس الأدب » نشرت مجلة الأزهر مقالين أحدهما لى فى عدد ربيع الأول سنة ١٣٧٠هـ والثانى للأستاذ عبد الجواد رمضان فى عدد جمادى الأول سنة ١٣٧٠ ، فليرجع إليهما

فى دراسة الأدب للكاتب ، وحين ختمته بقولها « نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها » .

ولكن المجلة لم تستجب له عاملة بحقها فى حرية النشر مفسحة صدرها لأبناء الأزهر الذين يعملون على رفعته إذ هى لسانهم وميدان تباريهم . فشكر الله لها وزادها رفعة . أما أن فضيلته « من أقدم مدرسى الأدب فى كلية اللغة العربية ، وأنا « أحد طلابها » كما يقول فليس فى ذلك ما يحول بينى وبين خدمة العلم الذى وقفت شبابى عليه وليس أمام الحق إلا باحث عنه سواء أكان أحد الطلاب أم أقدم المدرسين .

ويبرر فضيلته مسلكه بقوله : « إنه يحتم على الكلام واجب العمل الذى آكل به خبزى » . وأنا أربأ بفضيلته أن يكون فى هذا الوضع لأن أكل الخبز لا يحرك قلم كاتب حر يتوخى الحقيقة ويطلب الإنصاف ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، وليس أكل الخبز أمل العلماء فى الحياة . بل إن نصرة الحق وكشف اللثام عن الصواب أدعى للكتابة وأقوى تحريكا عليها . وأؤكد لفضيلة الأستاذ أن الذى دعانى للتعقيب على ما كتب حب للإصلاح لا طمع فى أكل خبز . لأن الخبز لا يؤكد مؤتدما بدماء الحقيقة .

والذى بعثنى على فتح هذا الباب ما أراه فى طرق دراسة الأدب من نقص ظاهر ، وما أحسه عند طلاب الأدب من سأم وكلال على أن الأدب من الفنون الجميلة التى تسترعى الانتباه ، وتدعو إلى الاستزادة . وكنت أحسب أن الأستاذ عبد الجواد قصد بمقاله وجه الحق ، ولكنى رأيته لا يرد على الفكرة بالفكرة ، بل يعمد إلى نوع من التهكم والسخرية ملأبه ثلث مقاله ، ولست أبيح لنفسى أن أساجل فضيلته فى هذا النوع إجلالا له واحتراماً لأستاذيته . وملأ الثلث الثانى بإرشادات ونصائح ضمنها نتفاً أدبية أعلن بها عن مقدرته التى لا تنكر ، وسأعود إليها فى مقال آخر - إن شاء الله - أما الثلث الثالث فقد عاب فيه مقالى من الناحية اللفظية وهو الذى يعنينى الآن .

يقول الأستاذ : « إن أول شرط فى هجائية النقد الأدبى الذى حبرت مقالك فيها سلامة الأسلوب وقوته » . . . « ولا أكتمك أنه قد جرح شعورى (المعهدى)

ما يشيع فى أسلوبك من تخاذل وتفكك واضطراب ، وهنا أسأل فضيلته أن يبين معنى ، الأسلوب ، ومعنى ، التخاذل .. والتفكك .. والاضطراب ، . وإذا كان فضيلته يرى أن هذه مهمة معلم الإنشاء لا مدرس الأدب ، فأنا أرى أن أول واجبات مدرس الأدب أن يحدد معانى الاصطلاحات التى تدور على ألسنة النقاد فإنك تجد كثيراً من الكتب النقدية حينما تمدح بيت الشعر تقول : « وهذا البيت كثير الماء حسن الرونق » . وحينما تعيبه تقول : « وهذا البيت غث بارد مستكره » عبارات معينة لا تتغير ولا تدل بوضوح على المقصود .

وإذا جاز لأصحاب هذه الكتب أن يبهموا فى عباراتهم فإنه لايجوز لنا فى عصر الوضوح أن نلجأ إلى الإبهام . فماذا يقصد الأستاذ من « الأسلوب » - وهو أستاذ الأدب ، ورب القلم ، وصاحب المذكرات التى نرجوا أن تتاح لنا فرصة نقدها فيما بعد - ؟ إن تمثيله يدل على مراده فقد مثل لتخاذل الأسلوب وتفككه واضطرابه بألفاظ مفردة صحيحة لغة وذوقاً ، ولكنه يعيب علىّ اختيارى لها وتركى ألفاظاً أحسن منها . فهل معنى ذلك أن فضيلته يسمى اللفظ المفرد أسلوباً ، وعلى هذا يكون هذا اللفظ متخاذلا مفككا مضطرباً ؟ إن أراد الأستاذ ذلك فإنه عجب .. وأنا لا أعلم أن اللفظ يسمى أسلوباً ، إذ أن الأسلوب هو نظم الكلام ونسق التركيبات ، ولا يسمى اللفظ المفرد متخاذلا .. ولا مفككا مضطرباً . ولم يمثل فضيلته للأسلوب بغير تلك الألفاظ . قال فضيلته - أمد الله فى عمره - ليبرهن على فساد الأسلوب ، وتخاذله وتفككه واضطرابه : « فالناقد الأديب - يا بنى - لا يقول - مُساغاً - كما قلت . وإنما يتهدى بالأسلوب القرآنى : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » .

وأقول لفضيلته : إن الذوق الرهيف يحتم استعمال كلمته « مساغا » اقتداء بالقرآن الكريم حيث يقول : « يتجرعه ولا يكاد يسيغه » ، فإن « يسيغ » مضارع « أساغ » الرباعى والمفعول منه « مساغ » ، وفى الإساغة معنى العسر والمشقة وهو مقصودى حين قلت : ولم يعد مساغا ذلك الشيوع فى الفكرة .. ، أما سائغ فهو وصف من ساغ الشىء إذا ارتاحت إليه النفس وليس ذلك ما أقصده . وإذا كان الذوق يهدى إلى ترجيح استعمال « مساغا » ، واللغة لا تمنع مع وجود اقتداء بالقرآن فمن أين يأتى العيب وفساد « الأسلوب » الذى هو اللفظ كما يرى الأستاذ ؟

ربيع آخر سنة ١٣٧١ — المجلد الثالث والعشرون

مجلة الأزهر

تصدر شهريا عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

احتفـــال الأزهر

بذكرى المولد النبوى الشريف

أقامت مشيخة الأزهر فى عصر يوم الثلاثاء ١٢ من ربيع الأول ١٣٧١ الموافق ١١ من ديسمبر سنة ١٩٥١ بالرواق العباسى بالجامع الأزهر حفلا رائعاً لذكرى مولد الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم أمه كثير من رجالات الأزهر وعلية القوم .

وقد تبارى فيه الخطباء والشعراء وعلى رأسهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فالقى كلمة بليغة جامعة ننشرها فيما يلى :

كلما جاءت ذكرى مولد محمد صلى الله عليه وسلم يتذكر المسلمون تلك الحوادث العظيمة التى كان لها الأثر الكبير فى ظهور الإسلام وانتشاره فى المشرق والمغرب وفى تكوين الدولة الإسلامية التى اتسعت أطرافها وتعددت أقطارها .

ولا ينسى المسلمون تلك الحوادث وإن طال الزمان وتتابعت الأحقاب لأن حاضرهم وما هم فيه من نعمة وهداية متصل بتلك الحوادث لأنه أثرها الخالد ونتيجتها الباقية على مر الأيام وكر الدهور .

ولد صلى الله عليه وسلم يتيما فقيراً ، ولما كبر كان أحسن الناس خلقاً وأكرمهم عشرة ، فصدق وأمانة وكرم وشجاعة وحلم ووفاء ولين عريكة وحسن معاشرة ونفور مما كان يفعله أترابه ويحبه أقرانه من اللهو واللعب وبعد عن النقائص فما شرب خمراً ولا أكل ما ذبح على النصب ولا حضر احتفالا بصنم ولا عيداً لوثن ، وبالجملة فقد تحلى بالفضائل والأخلاق الحميدة وقد كان لهذه الأخلاق أثر فى قبول رسالته وتصديق دعوته ، فإن بعض عارفيه لم يحتاجوا فى قبول الدعوة إلى دليل يذكر ولا حجة تقام .

وقد اختاره رب العالمين ، لحمل أمانته . وتبليغ رسالته ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ويضع أمانته ، ولما دعى الناس إلى الدين الحق وترك ما هم عليه من شرك وضلال آمن نفر قليل وكذبه مترفو قومه ، وأرباب الجاه والثروة وقالوا .

(إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وخافوا أن يكثر أعوانه وأتباعه فبالغوا فى إيذائه صلى الله عليه وسلم وإيذاء من اتبعه ، فكان عليه السلام يلتمس الأعوان والأنصار للقيام معه على أعدائه لنصرة دين الله وإعلاء كلمته ، ولاقى من المصاعب والمشاق ما لا يحتمله إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد هاجر إلى الطائف وبها بطون ثقيف وعمد إلى أشرافهم وذوى الرياسة فيهم ، وهم أخوة ثلاثة ، عبد ياليل . ومسعود . وحبيب . أبناء عمرو بن عمير الثقفيون ، فجلس اليهم ودعاهم إلى الإيمان بالله والدين الحق ، وكلمهم فيما جاء به من نصرة الإسلام ومعاونته على من خالفهم من قومه فردوا عليه رداً قبيحا . فيئس منهم وعاد عنهم ، فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به . حتى اجتمع عليه الناس . وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ورجع عنه من كان يتبعه من السفهاء ، فلما اطمأن قال : اللهم اليك أشكو ضعف قوتى . وقلة حيلتى . وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى . إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك .

ولما عاد عليه السلام إلى مكة . أرسل إلى مطعم بن عدى انه يريد دخول مكة فى جواره فقبل . وتسلح هو وأهله . وتوجه إلى المسجد . فرآه أبو جهل فقال له : أمجير أم متابع فقال مجير . فقال أجرنا من أجرت ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل المسجد فطاف بالبيت ، وصلى عنده وانصرف إلى منزله وفى ذلك يقول حسان بن ثابت فى رثاء مطعم .

أجرت رسول الله منهم فأصبحوا عبيدك ما لبى مهل وأحرما

وهذه الحادثة تصور لك بعض المصاعب والمشاق التى لاقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصبر الجميل والرضى التام بما كان يقاسيه عليه السلام فى سبيل تبليغ رسالته .

وأخيراً منّ الله على رسوله بما يريده ، وقيض له ما يبتغيه . وأنعم على خزرج

يثرب بالإسلام ووفقهم للدخول فى الدين ، فبايعوه على القيام معه ومنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، فأمر المسلمون بمكة بالهجرة ، وهاجر إلى المدينة فتضامت صفوف الأنصار والمهاجرين ، وتآخوا فى مساعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإظهار الدين وانتشاره ، وحاربوا مع رسول الله أعداءه أعداء الدين فكانوا نواة دولة إسلامية كانت أقوى دولة بين الدول . وأعدلها وأرحمها ، وظل عليه السلام مثابراً على الدعوة والناس يدخلون فى دين الله زرافات ووحدانا حتى أكمل الله الدين ، وأتم نعمته على المسلمين فكان هذا الدين ، أقوى دين وأحكم نظام ، غير أحوالهم وبدل أوضاعهم ، هداهم إلى الحق بعد الضلال ، فأتلفوا بعد اختلاف واجتمعوا بعد تفريق .

وقرر هذا الدين المساواة بين الأفراد فى الحقوق ، قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال عليه السلام : « يا أيها الناس كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فألغى بذلك الفوارق الجنسية والقبيلية وغير ذلك من مظاهر الحياة . فلا فضل لجنس على جنس ، ولا لقبيلة على أخرى ولا لفرد على فرد بنسب ولا حسب وحولهم إلى الأعمال الصالحة ، والتى تنفعهم فى الدنيا ويجعل لهم الفضل عند الله ، والكرامة لديه . وبذلك جعل الأعمال الصالحة ميدان التسابق فى القرب منه تعالى ، وهذه الأعمال مقدرة للأفراد وتقع باختيارهم وبذلك يشعر الأفراد الذين لم يكن لهم حظ من نسب ولا نصيب من جاه بسمو النفس والكرامة ، ويتقارب الجميع ويدنو بعضهم من بعض وتنتشر المحبة والألفة .

ووجه هذا الدين الأمة إلى ما يعلى قدرها ، ويرفع شأنها بين الأمم . طالب الأمة باعداد ما تقدر عليه من قوة . وباتخاذ ما تستطيعه من عتاد ، وطالبها بجهاد الأعداء ، الذين يحاولون لها كيدا ، ويريدون بها شراً ونوه بفضل الجهاد وعظيم ثوابه ، وجزيل ما يلقاه المجاهد من النعيم المقيم ، والرضوان العظيم ، قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » وقال عليه السلام « لغدوة فى سبيل الله أو روحه خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب » إلى غير ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى تجعل الأمة تجود بالنفس وتسخو بالمال ابتغاء العزة والكرامة والدرجة السامية . والمرتبة العظيمة ، وحرصا على ما أعده الله للمجاهدين من ثواب فى الآخرة .

وقد سارت الأمة على هذا الهدى وعلى هذه المبادىء القيمة ، فحاربت الأعداء بشجاعة وبسالة نادرتين ، وجادت بالمال فى سبيل الله وقد أثنى الله تعالى على بعض من المؤمنين ، نذروا إذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يثبتوا ويقاتلوا حتى يستشهدوا ، فقال تعالى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

وهذا محارب على فرسه وبيده تمرات يأكل منها ، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض القوم على القتال ويقول لهم ، سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض فقال المجاهد ، ما بينى وبينها يا رسول الله فقال له : أن تقتل فى سبيل الله فرمى بالتمرات وقال . إن أكملت هذه التمرات فإنها لحياة طويلة ودفع فرسه وقاتل حتى قتل . ويقول أحدهم .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

نسأل الله تعالى ، أن يقوى الإيمان فى نفوس المسلمين ، ليعملوا مثل سلفهم الصالح ، وأن يؤلف بينهم ويجمع كلمتهم ويرفع شأنهم ، كما نسأله جلت قدرته ، بمناسبة هذه الذكرى العظيمة أن يحفظ حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان وأن يبقيه ذخراً للبلاد والمسلمين ، وأن ينيل شعب وادى النيل مصره وسودانه ما يصبو اليه من عزة ، وما يبتغيه من سؤدد فى عهـده السعيد وأن يوفق رجال حكومته لتحقيق ما بدأوه لخير البلاد .

التفسير

عن

البقرة

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محيسن
رئيس التفتيش وعضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم :

يقول الله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » استئناف جعل أساس الجملة فيه اسم الاشارة دون أى نوع آخر من الأسماء ، وإنما سُلك هذا المسلك ليبرز به للذهن موضع تلك الأوصاف ، وهى التمكن من الهدى مع صفة الإفلاح حتى إذا أجرى الوصف عليهم أجرى عليهم وهم فى حلية من عقائدهم وأعمالهم ، وحُلـَل من صالحاتهم وحسناتهم ، فى حلى وحلل من إيمان بالغيب ، وإقام للصلاة ، وإنفاق مما رزقوا ، وإيمان برسول الله وما أنزل عليه من أحكام وإرشادات ، وإيمان بمن قبله من الرسل ، وما أنزل عليهم من كتب وشرائع ، إذ فى ذلك تصوير وتنبيه إلى مناط استحقاقهم لتلك العاقبة ، عاقبة التمكن من الهدى وعاقبة الفلاح جزاء لهم حسناً ، وعلى العموم فالاستئناف على ذلك الوجه إنما هو جواب سؤال نشأ من تعديد كريم الأوصاف والعقائد التى وصفوا بها مما يدفع السائل أن يسأل إذا كانوا على هذا الجانب من صلاح فى عقائدهم ، وصلاح فى أعمالهم ، فما هو المدّخر لهم من جزاء ؟؟ وما هو ما سيصلون إليه من حسن العواقب ؟؟ فكان الجواب أنهم قد صاروا من الهدى فى سنامه ، فتمكنوا منه أى تمكن ، وذلك هو المعنى المفاد بالتعبير بعلى هُدًى بدل التعبير بأداة أخرى من أدوات الربط ، تلك الأداة التى قد صورتهم فى حال هى أتم الأحوال فى الانتفاع بالهدى .

وإنما نكّر الهدى فقال : « على هدًى من ربهم » إيذاناً بأن ذلك الهدى الذى هم عليه هدى بلغ فى كفايته وجميل آثاره أن تجاوز حد العهد فلا يجاء معه (بأل) التى تجعله معهوداً ومحدوداً . بل أطلق منكراً حتى لا تحده حدود ، ولا تحيط به حوائط . ثم زاد فى بلاغة آثاره ببيان مصدره وبدايته فقال من ربهم

التعبير الذى يملأ النفوس ثقة بآثار ذلك الهدى ما دام من الله تعالى ، فهو الهدى الذى لا يحيد فيه المهتدى به عن الجادة ، وهو الهدى الذى لا يتعرج معه الطريق بمن سايره ، وزاد فى الثقة به أنه عبر بلفظ الرب ، وفى التعبير بالرب إشعار برحمة الهادى والعناية بمن يمنحهم ذلك الهدَى .

ألا فلتعدْ فى بهجة وتقدير مرة ثانية قوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم » لتمتلىء نفسك إعجاباً ، وليلتهب شعورك تقديراً ، ولتثير فى قلبك نواحى الإعجاز فى ذلك الكتاب المبين . هذه أول فائدة لما اعتنقه المتقون من عقائد صحيحة ، وما أتوه من أعمال صالحة ، أما ثانية الفوائد لذلك ، وهى مع الأولى فى ترتيب طبعى تلك التى عبر عنها بقوله ، وأولئك هم المفلحون ، وأنه ليثير إعجابك إن لم يكتف بذكر اسم الاشارة مع النتيجة الأولى ، بل كررها مع الثانية ، حتى يكون الاتصال بين الوصف والموصوف فى الثانية كما هو فى الأولى ، فكلما أجرى عليهم وصف هو عاقبة أو جزاء صوّرهم للذهن بالإشارة إليهم ليبرزهم فى حليهم وحُللهم مما صاغوه ونسجوه من عقائدهم وأعمالهم .

وإلى تلك الفاصلة تمت آيات تحديد المتقين وأوصافهم ، وما لهم من جزاء وما لهم من عاقبة ، ومجمل ذلك إن هذا الكتاب المعهود ببلاغته المعجزة ، وحكمته الصادقة ، وإشراقه الواسع المديد ، إنما هو هدى ونور للذين بعثتهم فطرهم إلى النظر فيما سطرته يد القدرة فى الآفاق وفى الأنفس من بيّن الآيات . وواضح البراهين على عظمة خالقهم القدير ، والمبدع الحكيم لتلك الكائنات ، فآمنوا به وقدروه حق قدره ، فكان عن إيمانهم الصادق ، ويقينهم الذى ملأ نفوسهم نوراً ، وقلوبهم ثقة كان عند ذلك أن عبدوه ، وخشعوا له وعظموه ، وسارعوا إلى كل عمل يرضيه فأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقهم الله ، وآمنوا برسوله وما جاء به من شرائع ، وآمنوا بمن قبله من الرسل وما أنزل عليهم من ربهم .

هؤلاء الذين صدق إيمانهم ، واستنارت بالإيمان قلوبهم ووثقوا بيوم الحساب العادل والجزاء الحق . هؤلاء إنما عاقبتهم تمكن من الهدى ، وسير بنوره على الجادة إلى ساحة الفلاح والفوز بحسن الجزاء وما جزاء الإحسان من الله إلا الإحسان .

يقول الله تعالى « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » لما انتهى بيان شأن الكتاب وأثره فى الهداية والارشاد ، وتصوير

حال المتقين الذين اهتدوا به وما اكتسبوه بالهداية من أوصاف سامية ، وما كان لهم على ذلك من خير العاقبة وحسن الجزاء — لما انتهى بيان ذلك شرع فى بيان حال الكافرين ، وما حاطهم من سوء الحال وقبيح الأوصاف .

وإنه ليبهرك ويملأ نفسك إعجاباً ما تراه من استئناف الحديث عن الكافرين بترك العاطف ، ومن قطع الصلة بينه وبين الحديث عن المؤمنين ، وما للكتاب فيهم من حسن الأثر ، وما تراه من المغايرة بين الأسلوبين إذ جعل موضوع الحديث فى الطائفة الأولى من الآيات هو الكتاب وما له من جميل الآثار فى نفوس المتقين ، وما كان عن ذلك من حسن العاقبة والجزاء . وجعل موضوع الحديث فى الطائفة الثانية من الآيات هم الكافرين مع أن الكافرين بالقياس إلى الواقع على النقيض من المتقين فى أن هؤلاء لم يؤثر فيهم الكتاب ، فكان عن ذلك ما لبّسوه من ذميم الصفات وسوء العواقب أما الاستئناف وترك العاطف فللبعد بالكتاب عن أن يكون له وصف عدم التأثير فيمن يخاطب به هداية وإرشاداً ، لأنه لو عطف الكافرون على المتقين لاقتضى ذلك المقابلة فى الآثار للمقابلة فى الأوصاف ، وذلك مايترفع بالكتاب عنه ، هذا ومن ناحية ثانية فللمبالغة فى تجنيب الكتاب ذلك الوصف جاء التغاير فى الأسلوب فعبر عن المتقين بالاسم الذى يقتضى ثبوت الوصف للذات ودوامه إذ قال هدى للمتقين ، وعُبر عن الكفار بالفعل الذى يقتضى حدوثاً وتجددا ، وكما ترى فإن هــذه المغايرة باعدت بين الكافرين والكتاب إذ الأسلوب يقتضى تصويرهم فى الذهن بأوصافهم دون تعرض للعلاقة بينهم وبين الكتاب ليكون ذلك مفيداً فى قوة أن المانع من تأثير الكتاب فيهم هداية ورشاداً إنما هو من جانبهم لما لبّسوه من ذميم الصفات ، ولما غرقوا فيه من غفلة وبعد عن الاعتبار والتدبر لآيات الله .

هذا وهناك نكته أخرى لاختلاف التعبير ، وأن عُبّر بصيغة الاسم عن المتقين وبصيغة الفعل عن الكافرين . ذلك أن التقوى وخوف الله أساسه الإيمان ، والإيمان إنما يقوم على الدليل والبرهان المستنبط من آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ومن طبيعة ما قام على البرهان ثبوته واستقراره فى النفوس ودوامه فيها وارتكازه ، أما الكفر فهو قائم على شبه وخيالات وأباطيل وأوهام ، ومن طبيعة ما يقوم على ذلك القلقلة والاضطراب فلا ثبوت له ولا دوام إذ الشبه تراها فى نفوس

الضالين متلاحقة متناسخة ففى كل حال لهم خيال ، وفى كل حال لهم شبهة ، وما يبنى على ذلك من شأنه أن يكون مضطرباً ، فالكفر ومبناه هذا يكون كأنه حادث متجدد . هذا هو السر الآخر فى اختلاف التعبير .

ولما كانت طبيعة الأشياء ومقتضى الأحوال ألا يستوى إنذار وتخويف بالنسبة للمنذرين مع عدم الإنذار ، لما كان كذلك كانت قضية التسوية بينهما من شأنها ألا تأخذ فى النفوس مكاناً مطمئناً لأول وهلة ولا تستقر منه فى مكان الإذعان — لهذا جىء بالتأكيد فى قوله تعالى « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذهم » إذ أن المسند إليه فى القضية هو الموصول والخبر هو قوله « سواء عليهم » والمصدر المؤول من الفعل الواقع بعد همزة التسوية مرفوع بالوصف ، إذ معنى الجملة إن الذين كفروا مستو عندهم إنذارهم وعدم إنذارهم ، وإنما استوى لدى هؤلاء الانذار وعدم الانذار مع أن الانذار إنما يواجههم به قوى أمين مصدق مؤيد فى أسلوب أعجز البشر من أهل اللغة وأساطين البلاغة . من المشتدين فى المعارضة والعناد . إنما استوى لديهم هذا لأن القوم لما كفروا فجحدوا نعم الله ولم يشكروها وعموا عن آيات الله فلم يتدبروها فهم لا محالة ينزلون إلى حضيض يخمد فيه شعورهم ويبرد فيه احساسهم فلا تؤثر فيهم موجعات القول ولا تنفذ إلى قلوبهم بالغات الحجج إذاهم قد وصلوا إلى ذلك المنحدر فقد صاروا كما شبههم القرآن كالأنعام بل أضل سبيلا ،ولهذا تراهم كما بينا آنفاً قد تُرُفع بالكتاب عن ربطه بحال هؤلاء وسلك المسلك الذى بينا سره فهم كما قال الأول .

لقد اسمعت إذ ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى

وهكذا من غرقوا فى غفلاتهم وملئوا بشهواتهم وأخذ عليهم العناد جميع نواحيهم لا بد أن تصم آذانهم وتظلم قلوبهم فلا يصل صوت النذير ، وأن أفزع الكواكب إلى أسماعهم ولا يؤثر أبلغ الحجج وأضوأ البراهين فى قلوبهم .

ولما كان قوله تعالى « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » مما يستدعى تردد السامع بين ناحيتى الاستواء ، استواء فى الإيمان أم استواء فى عدم الإيمان كان لا بد أن يدفع ذلك التردد بجواب سائل فجاء قوله « لا يؤمنون » ليفيد أن استواء النذر وعدمها إنما هو فى ناحية عدم إيمانهم وسيوضح ذلك أكثر فى مقال آت .

ذكرى المولد الشريف

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
أستاذ الأدب فى كلية اللغة العربية

تهفت بفؤاده الذكرى فهاما ... ولاح لعينه وردٌ فحاما
مشوقٌ كادَ أن يفنى غراما ... فهل أملٌ يبلغه المراما ؟

* * *

صبا - بعد المشيب - وما تصابى ... وشبب بعد أن زعموه ثابا
إذا غنت مطوقة أجابا ... يساجل فى أغانيه الحماما

* * *

إلى مهوى القلوب ، إلى شمام ... سما شوقى ، وأزعجنى هيامى
إلى البطحاء ، والهضب السوامى ... على أعطافها ضربوا الخياما

* * *

هناك ، هناك ، فى الأفق البعيد ... شعاع قد أطل على الوجود
وقال لمكة الفيحاء : سودى ... بدا النور الذى يمحو الظلاما

* * *

تجلى بيت آمنة منارا ... أحل بدارة الشمس الديارا
وأصبح فى محلته مزاراً ... قد ارتهن الملائكة الكراما

* * *

ثرى بفنائه فرع الثريا ... وعرف أخمل المسك الذكيا
وهمس طبق الدنيا دويا ... طوى الآكام ، وانتظم الأناما

* * *

ترنحت الجزيرة منه سكرى تفيض شعابها بشراً وبشرى
تسنحت الذرا دنيا وأخرى تصرف فى الحياتين الزماما

* * *

سلوا نوحا : أأرضاه دعاه سلوا داود : هل أغنى غناه !
سلوا موسى : أأجدته عصاه سلوا الإنجيل : هل خدم السلاما ؟!

* * *

سلوا تلك المهامة والموامى تخب بها المؤججاة الظوامى
على الأنساع والدَبر الدوامى حطام ناخر يزجى حطاما

* * *

فما أجرى بها ماء الحياة وبدل بالمساوى الصالحات
وخرج من زعانفها الجفاة هداة ، علموا الأمم النظاما !

* * *

سرت فى أفقها أنفاس طه فحى مواتها ، وزهت رباها
وأقشع عن مجاهلها دجاها وصاح الحق ، فانطلقوا أماما

* * *

سهام سددت شرقا وغربا تشع نصالها ، حبا وحربا
جنى آثارها المفتون كربا وراجى الحق غنما واعتصاما

* * *

دعوا التاريخ ، فالتاريخ ذكرى وهبوا هبة للمجد أخرى
طلاب المجد بالأحرار أحرى وخير المجد مانيل اقتحاما

* * *

لقد مهد الرسول لنا المعالى وكان صحابه أسد الصيال
نفوسهمو تسيل على العوالى إذا الرعديد يوم الروع خاما

* * *

غزا بالحق والقرآن ، يتلى فتقطر آيه سحراً ونبلا
فلما أمعنوا فى الكفر جهلا طوى القرآن ، وامتشق الحساما

* * *

دعا بالرفق والحسنى ففروا وعاودهم فصدوا واشمخروا
فلما قعقع الصمصام خروا جثيا ، تحت رحمته ، لثاما

* * *

كذاك الحق يسعده الحديد وتدعمه الضحايا والجهود
تذل أمام سطوته الأسود ويمضى فى جلالته إماما

* * *

هو الإسلام ! ما أغنى وأهنا وما أجلى مناهجه وأسنى !
فمن لم ينتهجه فما اطمأنا لدعوته ، وإن صلى وصاما

* * *

وقفت على أبى الزهراء فنى كأنى حين أمدحه أغنى !
ليرويها لسان الدهر عنى فرادى - كالقلائد ، أو توأما

* * *

شعور فاض جائشه قريضا سرى لبياض إخلاصى وميضا
حويت بمجده فخراً عريضا إذا أكدت بى الأحساب قاما

* * *

مزجت بنفحة الذكرى دعائى ليدرج فى معارجها رجائى
ويسمو فى جلالتها ثنائى على المختار ، بدءاً واختتاما

لغويات

بقية للبحث المدرج بالجزء الثالث

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار

الأستاذ بكلية اللغة

ونرى « المسابيح » فى نسخة الديوان المطبوعة فى المطبعة العمومية فى مصر سنة ١٨٩٨ م ص ١٠٨ ، وهو أيضا فى مخطوطة الديوان المحفوظة فى دار الكتب تحت رقم ٢٥ م أدب .

ونرى فى نسخة الديوان المطبوعة على الحجر فى مصر سنة ١٢٨٣ ﻫ : « التسابيح » بدل « المسابيح » . وهذا ما أثبته الشهاب الخفاجى ، كما ذكرت فيما سلف . وإذا صح ما فى النسختين السالفتين ، « المسابيح » كان ذلك إثباتا للمسبحة . وذلك أن المسابيح جمع المسبحة ، بزيادة الياء ، وقد جاء هذا فى بعض الكلمات ، كالصياريف فى جمع الصيرف ، فى قول الشاعر :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة   نفى الدراهم تنقاد الصياريف

ونرى المسبحة فى كتابات القرن التاسع الهجرى . فقد جاء فى شرح بحرق للامية الأفعال التمثيل للمفعلة بالمسبحة ، والمعهود عند من تقدمه التمثيل بالمكسحة وبحرق لقب محمد بن عمر بن المبارك الحميرى الحضرمى . ولد سنة ٨٦٩ ﻫ وله ترجمة فى الضوء اللامع . وقد لقيه السخاوى وأثنى عليه . وفى رسالة السيوطى فى السبحة فى سياق قصة ساقها : « أخبرنى من أثق بقوله أنه كان مع قافلة فى درب بيت المقدس فقام عليهم سرية عرب وجردوا القافلة جميعهم وجردونى معهم ، فلما أخذوا عمامتى سقطت مسبحة من رأسى » . والسيوطى كان يعيش أيضا فى القرن التاسع .

ونرى الشهاب الخفاجى بعد هذا يذكر المسبحة . وظاهر كلامه أنها عربية عنده فقد ذكرها فى الكلام على التسبيح ولم يذكر أنها مولدة ، بل نراه فى حرف السين

من شفاء الغليل يذكر المسبحة ولا يذكر السبحة ، كأن المسبحة أعرف من السبحة عنده . والشهاب الخفاجى هو أحمد بن محمد بن عمر ، توفى سنة ١٠٦٩ هـ .

وأما ضبطها فالأمر فيها لا يخرج عن صيغتين : المسبحة على صيغة اسم الفاعل من سبح ، والمسبحة على صيغة اسم الآلة .

فالضبط الأول يوجه بأنها لما كانت تعين على التسبيح أسند التسبيح إليها مجازا غير أن المعروف فى المسَبّحة أنها الإصبع التى تلى الإبهام . قال فى المصباح : « والمسبّحة اسم فاعل من ذلك مجازا . وهى الإصبع التى بين الإبهام والوسطى » وقال فى النهاية : « والمسبّحة : الإصبع التى تلى الإبهام . سميت بذلك لأنها يشار بها عند التسبيح » فمن الخير أن ينأى بها عن هذا الإشتراك .

والذى تركن إليه النفس أن تضبط « المسْبَحة » على صيغة اسم الآلة . وقد علمت قبيل هذا أن يحرقا مثل بها للآلة .

وإذا كانت المسبحة اسم آلة فإن قبولها يتوقف على سماعها من العرب ، أو ورودها على قياس صحيح .

فأما السماع فلا تبل أيدينا به فى هذا المضمار .

وأما القياس فإن اسم الآلة إنما ينقاس من الثلاثى . فهل ورد للتسبيح فعل ثلاثى ؟

وهذا موضع نزاع طويل الذيل .

فنرى ابن يعيش فى شرح المفصل (١/١٢٠) فى الكلام على « سبحان » يقول : « وهو من المصادر التى لا تستعمل أفعالها ، كأنه قال : سبح سبحانا ـ بتخفيف الباء ؛ كقولك : كفر كفرانا ، وشكر شكرانا » ونرى مثل هذا فى الإتقان نقلا عن الكرمانى ، ففيه (فى النوع الأربعين) فى الكلام على « سبحان » : « وهو مما أميت فعله » يريد فعله الثلاثى . وحاصل هذا الرأى أنه لم يرد فى معنى سبّح سبَح ثلاثيا .

وهناك فريق يثبت سبَحَ فى معنى سبّح لغة . وهذا الفعل يتصرف عندهم هكذا : سَبحَ ، يَسْبح ، سبْحانا . ونرى فى اللسان : « وسبحَ لغة » ، وفى القاموس

« وسبحَ ـ كمنع ـ سُبحانا . . قال سبحان الله » وزاد الشارح بعد قوله : « سبحانا » « كشكر شكرانا . وهو لغة ذكرها ابن سيده وغيره . قال شيخنا : فلا اعتداد بقول ابن يعيش وغيره من شراح المفصل ، وقول الكرمانى فى العجائب : « إنه أميت الفعل منه » .

وقد أنشد بعضهم فى إثبات سَبحَ الثلاثىّ قول الشاعر :

قبح الإله وجوه تغلب كلما سَبَحَ الحجيج وكبروا إهلالا

فظاهر « سبح الحجيج » أن المراد : قالوا سبحان الله ، إذ كان ذلك قرين التكبير . وهذا الاستدلال ليس بالقوى . فمن القريب أن يراد بالسبْح فى البيت الإبعاد فى السير والسرعة ، وهذا من معانى سبَح الثلاثى التى لا نزاع فيها . وسرعة الحجيج وسيرهم لا ينبو عن أن يقرن بالتكبير والتلبية . وإن كان المألوف عندهم ذكر سير الإبل عليها الحجيج ، كما قال الشاعر :

حلفت برب الراقصات إلى منى يغول الفيافى نصها وذميلها

وإذا ثبت « سبَح » ثلاثياً فى معنى قال سبحان الله كان صياغة اسم الآلة منه قياسية ، كما هو معروف . ولا نظر إلى قصر بعضهم قياس الآلة على مِفعَل ومفعال ؛ فجمهور الصرفيين على خلاف ذلك وأن من المطرد المنقاس مِفعلة ويقول ابن مالك فى لاميته الأفعال :

كمفعل وكمفعال ومفعلة من الثلاثى صغ اسم به مابه عملا

ونرى للشيخ نظام الدين أحد شراح شافية ابن الحاجب رأيا غريبا فى قياسية اسم الآلة يهدم القياس ولا يتفق معه . فهو يقول : « هذه الأوزان الثلاثة قياسية لا من حيث إنه يجوز أن يشتق كل منها من أى فعل اتفق وإن لم يسمع ، بل من حيث إن كلا منها إن كان قد ورد به السماع فى فعل معين أمكن أن يطلق على كل ما يمكن أن يستعان به فى ذلك الفعل ؛ كالمفتاح فإن كل ما يمكن أن يفتح به البيت يسمى مفتاحا وإن لم تكن الآلة المعروفة بذلك »

وأقف عند هذا القدر من القول ، والله المستعان ؟

الأزهـــر

الجامعة القديمة ـ الحديثة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

وهو تعريب للمقال الفرنسى أنشأه فضيلته إجابة لرغبة وزارة الخارجية المصرية ، لنشره فى جريدة « الموند » الباريسية فى عددها الخاص بمصر ، بمناسبة انعقاد جمعية الأمم المتحدة فى دورتها السادسة بباريس (١٩٥١ — ١٩٥٢) .

إذا حق لجزيرة العرب أن تفخر بأنها هى مبعث الشعاع الأول للنور الإسلامى وأنها هى الحارسة لرمزه الروحى فى الكعبة المشرفة ، فإن الفخر يعود فى المرتبة الثانية إلى «مصر» التى اقتبست هذا الضوء فى باكورته ، ثم احتفظت بسراجه دائم التوقد فى تلك المشكاة العلمية الدينية التى اسمها « الأزهر » والتى هى اليوم أقدم جامعة فى العالم على الإطلاق .

وفى الحق إن هذه البنية المعظمة فى « القاهرة » تعد فى نظر المسلمين شبه كعبة ثانية . فهذا المعهد هو قبل كل شىء مثابة المتفقهين فى الدين ، يحج إليه فى كل عام ألوف من الطلاب من كل فج ليتزودوا منه غذاء عقولهم وأرواحهم . وهو من وراء ذلك قبلة المسلمين الذين تتباعد بهم الديار ، ويشق عليهم المزار - لا أقول إنهم يولون وجوههم شطره فى صلاتهم ، كما هو الشأن فى الكعبة المكرمة . ولكنى أقول إن أربعمائة مليون من المؤمنين يتجهون إليه بقلوبهم وعقولهم ، ينتظرون إشارته فى المهمات ، ويستنيرون برأيه فى الشبهات ؛ إذ هو أكبر المجمع الذى يضم أكبر عدد من أهل العلم بهدى الإسلام .

هذا الدور المزدوج الذى يقوم به الأزهر فى تثقيفه للشباب الإسلامى ، وفى قيادته الروحية للشعوب الإسلامية ، يفسر لنا لماذا أحاطه الخلفاء والملوك والأمراء والمحسنون فى كل العصور بذلك الاهتمام البليغ وتلك العناية الصالحة فى السهر على شؤونه المادية والأدبية .

— ١ —

لمحة عن التاريخ المعمارى للأزهر

ذلكم البيت المعمور الذى أرسيت قواعده فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله على يد قائده جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) كان يتألف فى أول إنشائه من قسمين : « فناء » فسيح يحيط به نطاق من الأعمدة المعقودة ؛ و « مقصورة » أو « مصلى » ، لا تقل عنه اتساعا ، يشقها « مجاز » ممتد من بابها إلى المحراب .

ولا تزال معالم القسمين قائمة إلى يومنا هذا لم ينلها تغيير جوهرى .

نعم إن بعض أجزاء المقصورة قد تناولها شىء من الترميم استجابة لضرورة حفظها وصيانتها . ولكن سائر أجزائها لا تزال كما وضعت أول يوم ؛ ولا سيما « المحراب » الذى نراه الآن بنقوشه ورسومه العتيدة ، و « المجاز » الذى نشاهد أعمدته بنقوشها ورسومها الأولى . وكذلك نرى الأعمدة المضروبة حول الفناء قائمة على حالها لم تتسنه ، وإنما أضيف إليها فى مبدأ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) نطاق آخر من الأعمدة من أمامها .

هذا ولقد بقى الأزهر قرونا عدة مكتفياً بحدوده الأولى هذه ؛ حتى كانت بداية القرن الثامن الهجرى ، فهنالك أخذت تضاف إليه فى عصور مختلفة زيادات كثيرة أصبحت فى مجموعها أشبه بصوان يحيط به من كل جانب ، حتى صار « فناؤه » الخارجى « صحنا » داخليا ، وحتى بلغت مساحة المسجد الآن ١١٣٨٠ مترا مربعا ، لا يدخل فيها حساب الملحقات .

أولى هذه الإضافات تستقبلنا بمجرد ما نضع أقدامنا فى المسجد عند دخولنا

من الباب الكبير الشمالى الغربى المطل على الميدان. ذلك أننا نجد أنفسنا فى دهليز متوسط الاتساع، فاصل بين جناحين من الأبنية عن يمين وشمال؛ ونجد أمامنا باباً كبيراً آخر داخليا يفتح على صحن المسجد. فهذا الباب الداخلى الذى يفتح على الصحن هو أول حدود المسجد التاريخى. أما كل هذه الأبنية عن اليمين والشمال فيما بين البابين، وكذلك الأرض التى أقيمت عليها هذه الأبنية، فإنها من الزيادات التى ضمت إلى الجامع فى القرن الثامن الهجرى وما بعده.

فالجناح الأيمن (ما عدا منارتيه) أنشأه الأمير طيبرس فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) والجناح الأيسر بمنارته أقامه الأمير أقبغا فى سنة ٧٤٠هـ (١٣٤٠م). والباب الداخلى والمنارة الرشيقة التى فوقه إلى يمين الداخل من عمل السلطان قايتباى فى سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) والمنارة العظيمة ذات البرجين التوأمين وهى التى تلى هذه على اليمين أيضا من صنع السلطان الغورى فى سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠ م).

لقد كان الجناحان فى نظر مؤسسيهما مدرستين؛ ولكن التثقيف العقلى فى رأيهما (وكذلك هو دائما فى نظر كل سياسة رشيدة) لم يكن لينفصل عن التهذيب الروحى؛ ولذلك أقام كل منهما فى مدرسته محرابا [١] أنيقا دقيقاً من الرخام والذهب، لا يزال يتحدى الزمان بنضارته وجدته، كأنما صنع أمس.

والجناحان [٢] اليوم مشغول معظمهما بالمكتبة الأزهرية التى تعد من أنفس المكتبات فى العالم، بما فيها من المخطوطات النادرة، والمجلدات التى تبلغ زهاء مائة ألف مجلد.

فلنغادر الآن هذه الزيادات، ولنعبر «الصحن» فى خط مستقيم، ولندخل المقصورة مجتازيها إلى المحراب... هنالك سنشعر بشىء من الدهشة؛ إذ نجد المحراب غير مستند إلى جدار القبلة كما هو شأن المحاريب، بل نراه منعزلا تمام

---

(١) بل إن مدرسة أقبغا تحتوى محرابين اثنين.

(٢) الجناح الأيسر حول إلى مكتبة منذ سنة ١١١٤ هـ (١٨٩٦ م). والجناح الأيمن شغل جانب منه ببعض القناطر فى عهد قريب.

العزلة فى وسط المصلى ؛ ونلاحظ فوق ذلك أن الأرض التى تمتد من خلف هذا المحراب ، والتى تكاد تعادل مساحة الأرض التى أمامه ، مرتفعة عن هذه بحيث يصعد إليها بدرجتين ؛ ونرى أخيراً أن هناك محرابا ثانيا مستنداً كالعادة إلى الجدار الجنوبى الشرقى ، الذى هو جدار القبلة .

غير أن هذه الدهشة ستزايلنا متى عرفنا أن هـذا الإيوان المرتفع قليلا ، والمحراب الذى عليه ، المتصل بالجدار ، (وكذلك البابان اللذان فى هـذا الجدار ، والمنارتان المقامتان فوقهما) كل هذه زيادات، جديدة فى المقصورة أضيفت إليها أخيراً على يد الأمير [1] عبد الرحمن كتخدا فى سنة ١١٦٧ ﻫ (١٧٥٣ م) . ومن السهل حينئذ أن نعرف إلى أى حد بلغ ورع هذا الأمير وتقواه فى المحافظة على تراث سلفه الصالح ، وعدم الجرأة على تغيير شىء من معالمه بغير ضرورة مادية . . وهـذا هو ما يسمى فى لغـة العصر الحاضر : احترام الماضى وصيانة آثار القـدماء .

قبل أن نتأهب للانصراف من هذه المقصورة يجمل بنا أن نقترب من جدارها الشمالى الشرقى . . . فسنجد فيه بابا صغيراً ننفذ منه إلى مبنى جميل أقامه الأمير جوهر قانقباى المتوفى سنة ٨٤٤ ﻫ (١٤٤٠ م) . لقد بناه هـذا الأمير ليكون مدرسة صغيرة ، ولكنه جمع فيها كل عناصر المسجد الكبير مع جمال التنسيق ودقة الفن . وفيها قبة تقوم على قبر بانيها .

ولقد جدد الخديوى اسماعيل فى سنة ١٢٨٢ ﻫ (١٨٦٥ م) بناء أحد البابين اللذين فى جدار القبلة ؛ كما أن الخديوى توفيقاً جدد فى سنة ١٣٠٦ ﻫ (١٨٨٨ م) بناء الإيوان الذى ينتهى بهذا الجدار ؛ وهاتان المنشأتان المجددتان كانتا من عمل الأمير كتخدا كما يعلم مما أسلفناه .

٭ ٭ ٭

---

(١) إلى هـذا الأمير يرجع الفضل أيضا فى بناء الباب الكبير الذى فى المدخل على الميدان ، وفى تجديد واجهته اليمنى ، وهى جدار المدرسة الطيبرسية .

على أن أحدث الزيادات وأفخمها هى المنشآت التى أقيمت بأمر المغفور له الملك فؤاد الأول وتم بعضها فى عهده ، ولا يزال العمل جاريا فى تكميل باقيها تحت رعاية شبله وخليفته جلالة الملك فاروق الأول . وهى مجموعات قائمة خارج نطاق المسجد ولكنها تشرف عليه من الشمال والشمال الشرقى ، ومن الشرق والجنوب الشرقى ـ فأما فى عهد فؤاد فقد برز الى الوجود فى سنتى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ م أربع عمارات كبيرة خصصت واحدة منها لإدارة الجامعة ، والثلاثة الباقية لسكنى الطلاب . وأما فى عهد فاروق فقد تم حتى اليوم : (١) مدرج فخم على أحدث طراز يتسع لألفى مستمع . (٢) كلية للشريعة الإسلامية . (٣) كلية للغة العربية ، والكلية الباقية وهى كلية أصول الدين فى دور الإنشاء ، وإن للتصميم بعد لتكملة ستأخذ دورها فى التنفيذ تباعاً : (١) مكتبة فسيحة تتسع لنصف مليون مجلد . (٢) معهد ابتدائى وثانوى يحضر للكليات الأزهرية . (٣) مستشفى . (٤) حديقة .

ولما كانت أزمة المساكن لا تزال فى حدتها فإنه ينظر الآن فى مشروع لبناء عدة بيوت أخرى لسكنى الطلاب ، ولا سيما الوافدين منهم من الأقطار الخارجية الإسلامية ، بحيث يتألف منها ومن المساكن القائمة الآن مدينة جامعية [١] حقيقية تتصل بحرم المسجد ومنشآته . « يتبع »

---

(١) هذا المشروع ، الذى كان عند كتابة هذه الكلمات أمس لايزال فى دور التفكير والتروى ، أصبح الآن له قوام ملموس . فقد أذاعت الصحف اليوم نبأ الأمر الكريم الصادر من جلالة الملك فاروق بالمساهمة فى هذا العمل المبرور بمبلغ عشرة آلاف جنيه من الجيب الملكى الخاص ـ وهكذا يضيف جلالته مأثرة أخرى الى مآثره السابقة فى رعاية ضيوف الأزهر من طلاب الأمم الاسلامية .

مصر حصن العروبة والاسلام

بقلم الأستاذ محمد صبرى عابدين
أمين سر ديوان الهيئة العربية العليا

« نبذة موجزة عن جيش مصر فى مواقفه الحاسمة فى الذود عن بلاد العروبة والإسلام وفضل مضر والأزهر على الشريعة الإسلامية الغراء » .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد النبى الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن كان بسنته وهديه من العاملين .

أيها السادة :

إن الهيئات الإسلامية والعربية التى تقيم هذا الاحتفال الكبير بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة من أجل مؤازرة مصر العزيزة وتأييدها فى موقفها من مقاومة الاستعمار الأجنبى الغاشم إنما تؤدى هذه الهيئات بعض ما يجب عليها نحو مصر شعبا وملكا وحكومة : فمصر أيها السادة هى حصن العروبة والإسلام وقضيتها قضية المسلمين والعرب جميعاً وقوتها قوة لهم جميعا وان مصر لتتبوأ عن حق وجدارة مكان الزعامة والقيادة للعرب والمسلمين وإنى لأقول بأعلى صوتى إنه لن يتحقق لبلاد العروبة والإسلام استقرار ولا خلاص من المطامع الاستعمارية الأجنبية إلا إذا تم استقلال مصر وتم جلاء الانجليز عن وادى النيل مصره وسودانه واستعادت مصر قوتها الحقيقية وعادت للجيش المصرى الباسل عظمته التاريخية المسطرة أخبارها ومفاخرها فى سجلات التاريخ العسكرى بحروف من نور .

ويكفيكم فى وصف مكانة جيش مصر ومنزلته الجليلة القدر قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال أبو بكر ولم يا رسول الله قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة » أخرجه شيخ الإسلام الشرقاوى فى تحفة الناظرين .

أجل أيها السادة لقد كان جيش مصر كما وصفه الرسول الكريم من خير الجيوش وأقواها فكان حمى لبلاد العروبة والإسلام مؤيدا بالانتصارات التاريخية الحاسمة فى مواقع ومعارك كانت نقاط تحول فى تاريخ الحروب والمعارك العالمية فكان السلطان صلاح الدين الأيوبى على رأس جيش مصر فى معركة حطين بفلسطين سنة ٥٨٣ ﻫ تلك المعركة الحاسمة التى انهزمت فيها أوروبا وجيوشها أمام بأس جيش مصر ومن معه من جيوش المسلمين ووقع ملوك الصليبيين وكبار أمرائهم وقادة جيوشهم أسرى أذلة بأيدى المسلمين المنتصرين وأثمرت تلك المعركة فتح القدس وتطهيرها وسائر بلاد فلسطين وجانب من بلاد سوريا واستخلاصها من الاحتلال الصليبي .

وفى الحملة الصليبية التى شنتها أوروبا على مصر سنة ٦٤٨ ﻫ وفى معركة المنصورة صمد الجيش المصرى أمام جيوش المعتدين وقاومهم أشد المقاومة وأسفرت المعركة عن هزيمة جحافل الفرنسيين ومن معهم من الصليبيين ووقع لويس التاسع ملك فرنسا وكثير من كبار قواد الجيش الصليبي أسرى بأيدى المصريين وقد سجن الملك الفرنسى بدار ابن لقمان فى مدينة المنصورة المصرية وما زالت هذه الدار قائمة إلى الآن شاهدة على قوة جيش مصر وبسالته وشدة سطوته التى حطمت جيوش المعتدين وألقت بفلولهم إلى البحر مهزومين مطرودين على أعقابهم ناكصين وقد ذكر الأمير حيدر الشهابى فى حوادث سنة ٦٤٨ ﻫ من تاريخه « إن الفرنج خسروا فى معركة المنصورة ثلاثين ألف قتيل وما يزيد عن مئة ألف أسير » .

وفى سنة ٦٥٨ ﻫ لما كانت جيوش التتار تجتاح الممالك وتدك العروش وتتساقط أمامها العواصم والأقطار تساقط أوراق الأشجار وقف جيش مصر وحده ليصد التتار عن مصر الأبية وعن سائر بلاد العرب وكانت معركة عين جالوت « بين بيسان وحيفا بفلسطين وفى ذلك السهل المنبسط تحت أقدام الجبال الشامخة نشبت المعركة بين جيش مصر بقيادة الملك المظفر قطز والأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى « الملك الظاهر بيبرس » وبين جيش التتار وقد استمات التتار بقيادة كتبغانوين فى القتال وصمد لهم الجيش المصرى وجالدهم أشد المجالدة وأسفرت المعركة عن هزيمة التتار وقتل قائدهم كتبغانوين .

وبانتصار جيش مصر على التتار فى عين جالوت سلمت مصر وسلمت بلاد العرب من كارثة دامية كانت محققة الوقوع لو انعكست الحال وانتصر الغزاة التتار وكانت هذه المعركة الحاسمة نقطة تحول وبها بدأ نجم التتار فى الأفول وكان الفضل فى ذلك لمصر وجيش مصر. وقد أورد الحافظ بن كثير الدمشقى تفصيلات هذه المعركة فى تاريخه البداية والنهاية ج ١٣ : ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٣ . منوها بما أداه جيش مصر من دفاع جليل القدر ذودا عن بلاد الإسلام والعرب.

وفى سنة ٥٧٦ هـ لما جهز البرنس أرناط الصليبي حاكم الكرك والشوبك بشرقى الأردن فى ذلك الحين حملة برية وبحرية بقصد فتح الحجاز وإيذاء المسلمين وجهز لهذه الغاية أسطولا نقله قطعا على ظهور الجمال إلى خليج العقبة وحاصر فريق من جيشه المسلمين فى قلعة العقبة وأخذت سفنه الحربية تجوس خلال البحر الأحمر مهاجمة بلاد المسلمين فى الشاطئين الآسيوى والأفريقى وأمسى الطريق إلى الحج تحت سيطرة الصليبيين فى البحر والبر، ولما وصل الخبر إلى السلطان صلاح الدين أمر نائبه بمصر أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب بانشاء أسطول نقله إلى خليج السويس قطعا على ظهور الدواب وسلم قيادته للأمير حسام الدين لؤلؤ فسارع إلى فتح مدينة العقبة ومطاردة الفرنجة حتى أوقع بهم وهزمهم شر هزيمة بعد أن أمضوا شهوراً يجوبون أرجاء البحر الأحمر إلى عدن حتى أنزلوا فريقا من مقاتليهم إلى ساحل الحجاز وذكر بعض المؤرخين أنهم توجهوا إلى المدينة المنورة النبوية الشريفة فلم يبق بينهم وبينها سوى مسيرة يوم واحد : ولكن عزيمة جيش مصر الماضية وشجاعة جنده وخبرة قادته وشدة شكيمتهم وقوة إيمانهم قد قضت على حملة البرنس أرناط فى البر وأغرقت سفنه فى البحر وحمت الحجاز وشواطىء البحر الأحمر من الغزو الصليبي.

وبهذه المناسبة فإنى أوجه أنظار قادة المسلمين والعرب وحكوماتهم داعياً الجميع إلى الاستعداد العسكرى السريع لدفع الخطر اليهودى الجاثم الآن فى خليج العقبة مما يعيد إلى الأذهان حملة البرنس أرناط وأسطوله فى البحر الأحمر فان اليهود الذين يحتلون الآن ميناء العقبة « أيلة » ويقيمون فيها القلاع والحصون ويشحنونها بالسلاح والمراكب الحربية والجنود الهائلة إنما هم يعملون بكل قوتهم لإعادة

تمثيل الدور الذى قام به فى القرون الأولى البرنس أرناط وأسطوله الصليبى فى محاربة العروبة والإسلام والكيد لهما وإذا لم يجد اليهود أمامهم القوة الساحقة الماحقة التى تعيدهم إلى الصواب وتضرب على أيديهم بشدة وبدون هوادة فإنهم من غير شك سيقومون بعدواتهم على أراضى مصر والحجاز والأردن وسواها إن عاجلا أو آجلا لتحقيق أهدافهم الاستعمارية فى البلاد الإسلامية والعربية. اللهم ألهم قادتنا الصواب حتى يتنبهوا لهذا الخطر الداهم فيعملوا على صده كما عمل جدودهم المجاهدون الأمجاد فى مختلف عصور التاريخ.

ولما احتل الفرنسيون مصر وثارت الأمة المصرية ضد جيش نابليون سنة ١٢١٣ هـ وقاومت الغواة المعتدين أشد المقاومة اشترك فى تلك الثورة طائفة من علماء المسلمين وطلاب العلم بالأزهر الشريف من أهل الشام والمغاربة وغيرهم من وفود الأقطار الإسلامية وقفوا إلى جانب أخوانهم من علماء مصر وطلبتها ومجاهديها وفى قضية مقتل الجنرال كليبر نائب نابليون بمصر اتهم سليمان الحلبى وجماعة من علماء رواق الشوام بالأزهر الشريف وقد حاكمهم الفرنسيون ونفذوا فيهم حكم الاعدام بالقاهرة كما فى تاريخ الجبرتى وغيره.

وقد ذكر الجيوش أيضاً أن السيد بدر الدين النقيب الحسينى المقدسى الذى كان مدرساً فى جامع سيدنا الحسين بالقاهرة كان على رأس الثائرين من أهل حى الحسينية ضد جيوش نابليون.

وأن الفرنسيين بعد تمكن جيشهم من إخماد الثورة طاردوا السيد بدر الدين للقبض عليه ومحاكمته ففر إلى فلسطين، فهدم الفرنسيون داره، وجامع أخيه السيد على وضريحه بالحسينية بالقاهرة، ولبث السيد بدر الدين فى القدس حتى تم جلاء الفرنسيين عن مصر، فعاد إليها برفقة الجيش العثمانى، وعاد للتدريس فى جامع سيدنا الحسين رضى الله عنه، وجدير بالذكر أن السيد بدر الدين الحسينى الذى قاوم الفرنسيين مع إخوانه مجاهدى مصر هو ابن عم سماحة السيد محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين وهو وأخوه السيد على النقيب الحسينى المقدسى من علماء الأسرة الحسينية المقدسية الذين سكنوا مصر وتولوا تدريس العلوم فى مساجدها.

وفى عهد محمد على باشا الكبير كان جيش مصر أقوى الجيوش فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان مؤلفاً من نحو ربع مليون جندى ، وله أسطول بحرى قوى البأس ، شديد المراس ، تحسب له الدول الكبرى كل الحساب ، وقد انتصرت جيوش مصر بقيادة إبراهيم باشا وغيره من القادة انتصارات باهرة وتمكن من دق أبواق القسطنطينية . وبعد أن فتح فلسطين وسوريا والحجاز والجزيرة العربية ، واستولى على الأقاليم الشاسعة فى السودان وأوغندا والإريتريا والصومال وزيلع وهرر وسواها من أرجاء شرق أفريقيا ، ولا تزال قلاع جيش مصر وحصونه قائمة إلى الآن فى تلك الأقطار ، شاهدة على قوة مصر وجيشها العظيم . ولولا تدخل الدول الاستعمارية ووقوفها فى وجه مصر لحرمانها من ثمرة انتصاراتها لكان الحال غير الحال ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وأن جيش مصر فى عهد محمد على هو الذى هزم جيش انكلترا فى معركة رشيد التاريخية ، وأجلاهم عن مصر مطرودين مدحورين . وهذا الجيش نفسه هو الذى سيطردهم بإذن الله مرة أخرى ، وهو الذى سيحمى قناة السويس ويحمى مصر وبلاد العروبة جميعها من كل معتد أثيم ، ويحقق لمصر الجلاء العاجل ووحدة وادى النيل تحت تاج الفاروق العظيم قريباً إن شاء الله .

أيها السادة : لقد هبت مصر حكومة وشعباً لنجدة فلسطين بكل قوتها ، وبكل إمكانياتها وبذلت من مالها ودمائها . وكاد الجيش الباسل المصرى أن يقذف باليهود إلى البحر لولا مؤامرة انكلترا وأمريكا ومن معهما من أعداء العروبة والإسلام . ولولا دسائس وأعوان الأجانب فى بلاد العرب ، ومسارعتهم إلى نجدة اليهود بالهدنة ، فكانت النكسة التى منيت بها الأمة العربية والإسلامية بخسرانها معركة فلسطين أمام عصابات اليهود الصهيونيين .

قد كانت مصر كريمة فى نجدتها لسوريا ولبنان ، وكان لها الفضل الكبير فى تحقيق استقلالهما . ولقد كانت مصر تنسى نفسها وقضيتها فى سبيل قضايا العروبة والإسلام ، والذود عن حرية الشعوب العربية والإسلامية . وكان صوت مندوبى مصر وممثليها يدوى فى المحافل الدولية بالحجج الدامغه القوية ،

مؤيداً كل قضية عربية أو إسلامية ، مناصراً لشعوبها فى حقهم فى الاستقلال . وكم من مؤتمرات عقدت فى مصر من أجل قضايا فلسطين وسوريا ولبنان والمغرب العربى وليبيا وأندونيسيا وباكستان وكشمير وكم من وفود بعثت بها مصر إلى الهيئات الدولية من أجل نصرة تلك القضايا ومؤازرة الشعوب الشقيقة فى مطالبها والعمل على خلاصها من براثن الاستعمار الأجنبى الغاشم ، فلمصر دين كبير فى أعناق المسلمين والعرب كافة عليهم أن يفوا لها به وأن يقفوا شعوبا وحكومات إلى جانبها فى المحافل الدولية ويؤيدوها بكل الوسائل حتى تتحقق وحدة مصر والسودان ويتم جلاء الانجليز عن وادى النيل جميعه قريبا بعون الله .

وإن مصر التى قام فيها الأزهر الشريف منذ ألف عام منارة للدين ومثابة لعلماء المسلمين ومنهلا ضافيا وحصنا لعلوم الشريعة الغراء ، وكعبة يؤمها طلاب العلوم الدينية والعربية من جميع بلاد الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، فيجدون كل رعاية وعناية ثم يعودون إلى أقوامهم وشعوبهم حاملين اليهم ما تعلموا من علم وهدى ، ونور وأخلاق وثقافة ، ذاكرين بالشكر والثناء الجزيل مصر الكريمة المضيافة منوهين بعلوم علمائها الأبرار الأخيار وما يبذلونه من جهود كريمة فى سبيل نشر الدين . حقا أيها السادة إن جهاد علماء الأزهر فى نشر علوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية والدفاع عنها قرونا طويلة لا يقل أثره عن جهاد جيش مصر وانتصاراته العسكرية . فللأزهر المعمور ولعلمائه العاملين المخلصين أصدق التحية ، جعلنا الله وإياهم من الذين يعملون لاعلاء كلمة الدين ورفعة شأن المسلمين ، وأن يحقق سبحانه لمصر العزيزة تمام استقلالها ويصونها من عدوان المعتدين ، وأن يكلأ بعين عنايته الصمدانية مليكها وقادتها المجاهدين ، وأن يحقق على أيديهم آمالها فى العزة والقوة فى القريب العاجل إنه سميع مجيب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

سبيل الظفر فى المحنة والمنحة

لفضيلة الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ العام بالأزهر

يقول الله جل شأنه « الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » إن آية الصدق فى القون ، وغاية الرشد فى القصد ، وقوة اليقين فى العقيدة ، معان تجليها وتبسطها فى نواحى الحياة نفوس المؤمنين المطمئنة الراضية ، فتنبض بها قلوبهم ، وتستروح منها مشاعرهم ، وتحلق فى آفاقها عزائمهم ، متدافعة إلى المجد تستهدفه ، وإلى الذروة تجاوزها ، وإلى العظائم والمكرمات تمسك بها وتهفو إليها ، ودعاوى الناس متناثرة بين الناس ، تلوكها الألسنة ، وتتسمعها الآذان ، وتتجاوب أصداؤها بين متصايح بها ، ومردد لها ، فإذا لم تقم هذه الدعاوى على سناد من الحق ، وإذا لم يدعمها برهان من الواقع ، تهاوت وبطلت وخسر مدعوها وانطفأ مصباح أملهم وعملهم :

والدعاوى إن لم يقيموا عليها ... بينات ، أصحابها أدعياء

وإن هذه الآية الكريمة من كتاب الله لتلفت الناس الذين هم بصدد دعوى الإيمان : أنهم لن يتركوا وما يدعون ، دون أن يمحص الله دعواهم ، ودون أن يفتنهم بألوان من الأحداث ، وصنوف من المحن ، ليتكشفوا عن صبر جميل أو عن جزع أليم ، ودون أن يفتنهم بسابغات من النعم ، تتغاير طعومها ، وتترادف محاسنها ليتكشفوا كذلك عن شكر جميل ، أو عن بطر آثم . ونكران ذميم ، قال الله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » .

وإن الله جلت قدرته ، وتعالت حكمته ، لا يجزى الناس بالثواب والعقاب على ما يعلم عنهم ، بل يجزيهم على ما يبدو منهم ، قال عز شأنه « ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ،

الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

يفتن الناس بنعمة المال فتنفتح لهم أبواب الثروة ، وتتشعب بهم طرق إنمائها ويذهبون فى غمرتها فرحين ممتعين ، والدين يحفزهم إلى هـذا الكسب حلالا ، ويدعوهم اليه طيبا ، ويبصرهم به مشروعا ، ويريدهم أن يكونوا فى الدنيا أعزة ، أصحاب سيادة ومجد ، على أن يكونوا شاكرين لأنعم الله ، فيقومون عزتهم وسيادتهم على بر ومرحمة وبذل يسعدون به أمتهم ووطنهم وعشيرتهم ، فإن التوى بهم القصد ، وساء منهم العمل ، وطغوا بالنعمة فكفروها ، وجحدوها ، وحبسوا المال حتى عن المكروبين والملهوفين ، فقد قوضوا صروح مجدهم بأيديهم ، وشيعتهم قلوب الفقراء بلعنة البغضاء ، واستعجال نقمة السماء ...

ومالهم الذى اكتنزوه وجمعوه وحبسوه ، يصبح بعدهم طليقا تنحسر عنه ظلمة خزائنه ، وتنفرج عنه ضوائق سجنه ، فتلعب به الأيدى ، أيدى الأهل والعشيرة فى غير تحفظ ولا احتشام ، وصاحب المال فى قبره مقبور مقهور ، تبدل عزه ذلا ، وأنسه وحشة ، ونعيمه عذابا .

يقول الله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . وقال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وما أجل قول الشاعر :

تمتع بمالك قبل الممات وإلا فلا مال إن أنت متا
شقيت به ثم خلفته لغيرك ، بعداً وسحقاً ومقتا

فجادوا عليك بزور البكاء وجدت عليهم بما قد ملكتا
وأرهنتهم كل ما فى يديك وخلوك رهناً بما قد كسبتا

* * *

ويفتن الناس فى أوطانهم بأعداء مستعمرين ، يحطمون كيان الأمة ، ويهدمون من صروحها دعائم الفضيلة والألفة ، ويوهنون أسباب المقاومة والأعداد ، لتتكشف الأمة بعد ذلك عن تخاذل واستسلام ، فتعيش واهنة ضعيفة ، وتفنى متكسرة ذليلة ، أو تتكشف عن عزة تأبى الضيم ، وحمية تحطم قيود الأسر ، وتبرز إلى ميدان الجهاد تفتدى الوطن بالنفس ، والمال ، والجاه ، والمنصب ، لتحيا حياة العزة والكرامة ، فتصافح المجد فى ذروته ، وتُطَوف حول الشمس فى علاها ، ولتستجيب إلى أمر القرآن العزيز : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

* * *

ويفتن الناس فى أخلاقهم ، فتقوم طائفة ممن تحللت فيهم عناصر الفضيلة ، وانهارت معنوياتهم لينفثوا فى المجتمع الإنسانى سموم الإثم والدنس ، دون إبقاء على عرض ، ولا كرامة ، ولا خلق ، وهؤلاء قد طوعت لهم نفوسهم العابثة ، إشاعة المجون والخلاعة ، والمضى بالتهتك إلى أبعد مداه ، نخلع الشبان ثوب الطهر والشرف ، وكشف النساء عن مظاهر الفتنة والإغراء ، ولعب الشيطان ، فألف بين الخطيئة والإثم ، ليقذف الأمة بالعار والدمار ، فإذا لم تقم تجاه هذه الفتنة ، وإزاء هذا الداء ، مناعة الأمة ، وقوة تحصينها ، وصمود مقاومتها ، والضرب على أيدى العابثين والعابثات ، لا بيد الحكومة فحسب ، بل وبغضبة الشعب ، الحريص على شرفه ، المستمسك بعفافه ، البصير بشئون مقوماته الأدبية والخلقية ، حتى يبرأ المريض ، ويقوم العابث ، ويوجه الضال ، إذا لم تقم الأمة بذلك ساء الحال والمآل .

وإذا نحن أهبنا بالشباب ، وهم عدة الأمة ، وعتادها ، وأملها ، وأجنادها أن استردوا ما فقدتم وفقدنا ، واسكبوا من فتوة الشباب فى غراس المجد لأمتكم ، وانهضوا بعزيمة الشباب فى رفع لوائكم أمام نهضة الفضيلة والشرف والأخلاق ،

إذا نحن أملنا لخليق بهم تحقيق رجائنا فإنما نبنى لهم ، ونفخر بهم ، ونعتز وإياهم بكرامة الوطن ، وسلامة بنيانه ، وتطهير نواحيه .

* * *

وقد يفتن المرء ويبتلى فى نفسه بمرض أو ضيق ، وقد يبتلى فى ماله بنقص أو عسرة ، وقد يبتلى فى أهله وولده ، وقد يبتلى فيمن يحيط به من عشراء وخلطاء وسبيل الظفر فى ذلك كله اصطبار ، وتجلد ، وسكينة ، ثم استمساك بأسباب التقوى واعتصام بعوامل الخير . ذلكم قول الله تعالى :

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

يا معشر الناس :

إن الله ليمحص فى هذه الحياة أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم ، فإن كنتم تريدون لأنفسكم خيرا ولدينكم خيرا ، ولأمتكم خيرا ، فاصبروا فى محنة الاختبار ، واذكروا فى إخلاص القول والعمل كرامة أنفسكم ، وكرامة أمتكم ، وكرامة دينكم ودنياكم .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

الاخاء

قال حكيم : الإخاء جوهرة رقيقة وهى ما لم ترقها وتحرسها معرضة للآفات ، فَرُض الأنى بالحُداء له حتى تصل إلى قربه ، وبالكظم حتى يعتذر إليك من ظلمك ، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك بالفضل ، ولا من أخيك بالتقصير .

قال عبد الصمد بن المعدل :

من لم يردك ولم ترده ... لم يستفدك ولم تفده
قرب صديقك ما نأى ... ورد التقارب واسترده
وإذا وهت أركانه ... ومن أخى ثقة فسده

السيد الحميرى

شعره

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى

المفتش بالأزهر

شعر السيد الحميرى يكثر جداً فى غرض واحد ، وهو شرح عقيدة العلويين والكيسانيين والدفاع عنها والنعى على من خالفها أو حال دون تحققها من السلف الاولين . ولو كان من كبار الصحابة أو التابعين . وإن شاء قائل أن يقول إن السيد الحميرى قصر شعره ـ فيما عدا قليلا قاله على الراجح يتكسب به ـ أو يابى داعى القريحة والاستعداد قصر شعره على هذا النمط ، وإن قال فى غيره فليكون ذريعة إلى تحقيق غرضه فيه . أو إنماء شعره وطبعه بطابع القبول ، فإذا نسب فى صدور بعض قصائده (١) فلأن ذلك كان مما يحسن الشعر فى نظر الدهماء وقد جرى فيه تقليد عربى شعرى كما فى قوله فى مفتتح قصيدة يذكر فيها ابن الحنفية منوها به :

أشاقتك المنازل بعد هند ... وتربيها وذات الدل دعد
منازل أقفرت منهن محت ... معالمهن من سيل ورعد (٢)

وإذا هجا كما فى هجائه لسوار القاضى فى قوله للمنصور

ولا تستعن بخبيث الرأى ذى صلف ... جم العيوب عظيم الكبر جبار
قضحى الخصوم لديه من تجبره ... لا يرفعون اليه لحظ أبصار
تيها وكبرا ولولا ما رفعت له ... من ضبعه كان عين الجائع العارى

إذا قال ذلك فلأن القاضى يعاديه فى مسلكه ولا يقبل شهادته لا لأنه خبيث الرأى ذو صلف ولا لأنه جم العيوب عظيم الكبر . ولا لأن الخصوم لا يرفعون

---

(١) نسب بالمرأة نسب ونسيبا شبب بها فى شعره

(٢) محت عفت والسيل المطر

إليه لحظ إبصار ولكنه داعى العقيدة وحكم الدفاع وربما لم يكن لسوار شىء مما قال أو كثير مما قال ، وإذا مدح غير العلوية ولو متكسبا فلانتسابهم اليهم واجتماعهم معهم فى أقرب النسب كبنى العباس ، فانه يمدح المنصور ويقول إننى أمدح بنى هاشم الذين كان المنصور من بينهم فله ولعشيرته حق الوفاء والولاء .

أليت لا أمدح ذا نائل ... من معشر غير بنى هاشم
أولتهم عنـدى يد المصطفى ... ذى الفضل والمن أبى القاسم

وهكذا يجده الدارس لشعره يحوم حول هـذه الناحية حتى لا يكاد يعودها إلا ليعود إليها ، ولهذا حدث الموصلى عن عمه أنه جمع ألفين وثلثمائة قصيدة للسيد الحميرى فى بنى هاشم حتى جاس اليه يوما رجل ذو أطمار رثة فسمعه ينشد شيئاً من شعره فأنشده ثلاث قصائد لم تكن عنده ولهذا أيضاً قال بشار لولا أن هـذا الرجل قد شغل عنا بمدح بنى هاشم لشغلنا .

وقد بلغ من أمر تغلغله فى هاته الناحية من الشعر أنه يذكرها فى أدق مواقف حياته وأشدها حروجة مفتخرا معجبا . أو مدلا مستشفعا .

فمن الأول : ما يروى أنه اجتمع فى طريقه بامرأة تميمية إباضية [1] فأعجبها فقالت إنى أريد أن أتزوج بك ونحن على ظهر الطريق ، قال : يكون كنكاح أم خارجة قبل حضور ولى وشهود [2] فاستضحكت ثم قالت ننظر فى هـذا . وعلى ذلك فمن أنت . فقال :

إن تسأليني بقومى تسألى رجلا ... فى ذروة العز من أحياء ذى يمن

حتى قال :

لى منزلان بلحج منزل وسط ... منها ولى منزل للعز فى عدن
ثم الولاء الذى أرجو النجاة به ... من كبة النار للهادى أبى حسن

(١) الأباضية طائفة من الخوارج تنسب إلى ابن أباض والخوارج يتبرءون بعد عثمان وعلى .

(٢) نكاح أم خارجة يضرب به المثل فى السرعة كان يأتيها الخاطب فيقول خطب فتقول نكح .

وللقصة بقية طريفة وهى فى كتاب الأغانى (١) .

وإنما قصدت إلى أن السيد كان غارقاً فى هذا الباب يكاد لا ينساه أبداً حتى فى أدق ظروفه .

ومن الثانى : أن بعض الولاة كان قد سجنه بسكرة ، فكتب أبياتاً يقول فى بعضها :

قل للأمير إذا ظفرت بخلوة   منه ولم يك عنده من يسمع
هب للذى أحببته فى أحمد   وبنيه إنك حاصد ما تزرع
يختص آل محمد بمحبة   فى الصدر قد طويت عليها الأضلع

هذا وقد أشرت فى صدر هذا المقال إلى أنه ربما لبى بالشعر داعية الاستعداد الفطرى فإن الشعراء ولا سيما المكثرين منهم تغلب عليهم ناحية النظم ، وتغلب على أقوالهم فى بعض الظروف الاتجاه بها إلى الوزن مع أن الخيال الغالب هو الخيال الشعرى فينشأ من ذلك شعر لطيف مقبول ، وبخاصة عند المقدمين من الشعراء ، ولهذا يقول أبو العتاهية لو شئت أن أجعل كلامى شعراً لفعلت ، وقد رأينا شيئاً من ذلك فى بعض إخواننا من الأدباء المعاصرين ، وربما كان منه فى هذا الشعر بعض الارتجالات فى المناسبات التى أشرت إلى بعض صورها كأبيات الخطوبة السابقة .

وإذ قد علمت الأمر من شأن الحميرى فى أغراض الشعر فهذه مناسبة يستطيع أن تعلم فيها أن له نظراء من الشعراء ، ويختلف شبهه بهم فى ناحية الجود الكلى أو الجزئى وما إلى ذلك . ومن هؤلاء الكميت الأسدى أشبهه فى الولوع ببنى هاشم وآل النبى ، وله قصائد بليغة مطولة تسمى بالهاشميات ، منها بائيته المشهورة :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

ولكنه لزم مذهب التقية فى أخريات حياته ، فقد وشى الوشاة به إلى هشام ابن عبد الملك ، وألحوا عليه فى أمره حتى أمر بقتله ، ولكنه احتال حتى خرج من السجن ، وتاب عن التشيع ، ومدح بنى أمية ، على أنه له بعض أنواع من الشعر أهمها المديح .

---

(١) ج ٧ ص ٢٦٤ طبع دار الكتب .

ومن أشبهه فى التأثر بغرض واحد ، والإسراف فيه ، وإن كان له نصيب من غيره عمر بن أبى ربيعة الذى أكثر من الغزل والنوادر والوقائع والمجون ، وهو معروف مشهور .

ومن اختص بنوع واحد لم يقل فى غيره العباس بن الاحنف العباسى صاحب الرشيد ، فإنه كان متوفراً على الغزل لا يقول فى غيره لأنه كان مترفاً فارغ البال للحب والعاطفة ، ولولا خشية الخروج عن الغرض لبسطت هاته الناحية ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

وأما أسلوب السيد الحميرى ومسلكه فى الألفاظ ، فقد كان يذهب مذهب فحول المقدمين الذين جمعوا بين مظاهر القوة والجزالة ومظاهر النعومة والحضارة ، ومما يفلت نظر الأديب والشاعر فيه أنه تحامى الغريب العصرى تحاميا وجافاه الى حد البغضاء حتى كان يعترض عليه كثير من الناس ويقولون مالك لاتستعمل فى شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل ذلك الشعراء فأجاب بجواب الغنى الماهر المعتد بصناعته . لأن أقول شعرا قريبا من القلوب يلذ من سمعه خير من أن أقول شيئا معقدا تضل فيه الأوهام ، وهذا المذهب من التخير عند التحقيق مجهود جبار يقدره أهل الفن قدره ، ولهذا كان فحول الشعراء والمتقدمون على من عداهم من أمثال بشار يقفون من شعره موقف الخشوع والإخبات والغبطة وقد مر بك صورة من ذلك فى المقال الأول .

تحاسد الأقارب

وقف أمية بن أبى الأشكر على ابن عم له فقال :

نشدتك بالبيت الذى طاف حوله　　رجال بنوه من لؤى بن غالب
فإنك قد جربتنى فوجدتنى　　أعينك فى الجلى وأكفيك جانبى
وإن دب من قوم إليك عداوة　　عقاربهم دبت إليهم عقاربى

قال نعم كذلك أنت ، فما بال مثبرك لا يزال إلىّ دسيسا ؟ قال لا أعود . قال قد رضيت وعفا الله عما سلف .

من أدب القـوة :

« الشعر والحروب الصليبية »

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض هلال
المدرس بكلية اللغة العربية

تقـدمة تاريخية :

إن الباحث عن الأسباب الدافعة الى هذه الحملات الدينية المنظمة التى قامت بها « أوربة » مدة من الزمان لتخليص الأراضى المقـدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين ولإيجاد كنيسة وحكومة « لاتينية » فى الشرق يجدها سلسلة متلاحقة سبقت العهد الأيوبى بكثير وإن كانت لم تأخذ شكلها الواضح ومظهرها السافر إلا فى تلك الحقبة ، ذلك بأنه كان لانتصارات العباسيين ونقصهم من أطراف الدولة الرومانية وضياعها شيئًا فشيئًا أثر سيء فى نفوس الفرنجة جعلهم يتحينون الفـرص للوثوب على دولة العباسيين ومحاولة رجع مجدهم ودولتهم ، فلما كانت دولة البويهيين وضعفت الخلافة العباسية حاربهم الرومانيون وأرهبوهم ، ولـكن السلاجقة الأتراك أعادوا الأمور الى نصابها لما عرف عنهم من شجاعة وبسالة ، حتى إذا مات ملك شاه [1] السلجوقى تبددت دولته فأرسل « الكسيوس » الى « أوربة » يستنجدها لتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وصور المسلمين بصورة ظالمة فيها كثير من الإفتراء والطغيان . عندئذ ثارت « أوربة » وتمردت وأعلنت حـربا دينية على الشرق الإسلامى فأرسلت جنودها فى سنتى ٤٨٩ ، ٤٩٠ ﻫ واحتدم القتال فى الأناضول وهـزم المسلمون وبلغ الفرنجة الشـام فأقاموا دولهم الأربع فى الرها وأنطاكية وطرابلس ، وبيت المقدس ، وبذلك تم للفرنجة ما أرادوا من القضـاء على شوكة

---

(١) ركن الدين ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقى المتوفى سنة ٤٨٥ ﻫ

المسلمين حتى انحسرت موجة الفتح الإسلامى عن القسطنطينية بتلك الضربة القاصمة ، ويجب أن يلاحظ أن انقسام الدولة الإسلامية المترامية الأطراف الى دويلات صغيرة وظهورها بمظهر التفكك مما أدى الى هذه النتيجة السيئة ، فالأندلسيون فى الغرب والعباسيون فى الشرق والفاطميون فى مصر والشام وكل يكيد بعضه لبعض ، والحق أن هذا الضعف كان ضعفا عارضا وليس انكسارا عاما وموتا للروح المعنوى عند المسلمين فما كاد البطل الإسلامى عماد الدين [1] زنكى يظهر حتى هبت ريح النصر على المسلمين من جديد .

وبدأت العقيدة الإسلامية تأخذ فى الظهور والوضوح بشكل يسترعى النظر والانتباه ، فكانت حرب بين الصليبيين والمسلمين انتهت بهزيمة الصليبيين واستيلاء عماد الدين على أمرها فى عام ٥٣٩ هـ . وحينئذ فزعت أوربا ثانية بيد أن نيران الحماسة فى هذه المرة كانت فاترة ، فلم يستطيعوا أن يستعيدوا ما أخذ منهم ، وما زال المسلمون جاهدين فى تخليص الشرق من أيدى الأجانب حتى ظهر رجل الجهاد الأكبر « نور الدين محمود زنكى » فنصب نفسه لإظهار العقلية الإسلامية والذود عنها ، وكان « أسد الدين شيركوه » وأخوه « نجم الدين أيوب » ونجله « صلاح الدين أيوب » من أقوى دعائمه وأسناده فى ذلك .

وليس ببدع أن ينشأ زعيم فى حجر زعيم آخر ، ثم تتوافر أسباب الشهرة والنبوغ للتابع حتى يغطى على المتبوع ويخمله ، فذلك ما كان من أمر صلاح الدين الأيوبى مع نور الدين محمود ، وحينئذ أخذ الفرنجة يتجهون إلى مصر ، لأنهم يعرفونها بلداً غنياً خصباً وليس به أمثال نور الدين ممن يخشون بأسهم ، ويهربون من لقائهم ، فكانت منافسة بين الصليبيين ونور الدين وأعوانه فى دخول مصر فى وقت كانت الخلافة الفاطمية فيه فى أخريات حياتها ، ونهاية مراحل الضعف ، وكانت جولات حربية انتهت بانفراد صلاح الدين بمصر واستقلاله بها ، وكانت له هو مع الصليبيين مواقف خالدات لن ينساها له التاريخ على كثرة أحداثه ، ولم تنقطع هذه الحروب الإسلامية بموت صلاح الدين بل اتصلت بعده بين أبنائه وخلفائه من جهة ، والفرنجة من جهة أخرى حتى كان آخر هؤلاء وهو توران شاه

---

(١) والد نور الدين محمود قتله أحد مماليكه سنة ٥٤١ هـ

ابن الملك الصالح فهزمهم هزيمة حاسمة ، وأسر ملكهم لويس التاسع [١] . ولما جاء السلطان بيبرس من المماليك جدد عهد صلاح الدين الأيوبى فى غرب آسيا ، وأخذ يخضع ممتلكات الفرنجة الواحدة تلو الأخرى ، فاستولى على يافا وأخذ أنطاكية ، ثم سقطت طرابلس فى زمن السلطان قلاوون ، وأخيراً سقطت عكة فى عهد ابنه خليل[٢] وبذلك انتهى عهد الصليبيين فى الشرقية [٣] . وليس مما يهم باحث الأدب فى شىء أن يعلم تفاصيل هذه الحروب وما لابسها من ظواهر حربية ، فتلك صناعة المؤرخ السياسى ، وإنما يهم الأديب أن يعرف هذه الظاهرة بوجه عام ، ويعلم مركز الشاعر وأثره فيها وتأثيرها فيه مما سجل فى شعره من نصر لملك أو أهاب بعزائم الرجال ، وشد من أعضادهم حتى أحمسهم فخاضوا غمرات القتال وأحرزوا النصر مؤزرا ، وذلك ما سنحاوله فى هذا البحث إن شاء الله .

كرم

مدح ربيعة الراقى يزيد بن حاتم الأزدى وهو والى مصر ، فاستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال :

أرانى ولا كفران لله راجعاً بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم الأزدى ، فأرسل فى طلبه فرد إليه ، فلما دخل عليه قال له أنت القائل : (أرانى ولا كفران لله راجعاً) ، قال نعم ، فقال له هل قلت غير هذا ؟ قال لا والله . قال لترجعن بخفى حنين مملوءة مالا . فأمر بخلع نعليه وملئتا له مالا . فقال فيه لما عزل عن مصر وولى بدله يزيد بن حاتم القيسى ، فقال ربيعة من أبيات :

فشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم
فهم الفتى الأزدى إنفاق ماله وهم الفتى القيسى جمع الدراهم

(١) هو الفرنسيس عند العرب كما فى شعر ابن مطروح .
(٢) صلاح الدين خليل بن قلاوون كان للشعراء فيه أماديح توفى سنة ٦٩٣ ﻫ .
(٣) كان ذلك مما يقال ولكنه بدأ مرة أخرى قوياً شديد المراس فهل من صلاح الدين آخر ؟

نفحات من عبقرية الرسول

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد ابراهيم الحفناوى
وكيل معهد سمنود

لم يعرف التاريخ - على كثرة ما وعى من الشخصيات الفذة - شخصية توفرت لهـا نواحى العبقرية ، وتجمعت لها مقومات العظمة ، واكتملت لها دواعى السمو الإنسانى ، كمحمد بن عبد الله ، ذلك الإنسان الكامل الذى ألهمه طبعه السليم ، وهدته فطرته الخالصة . أن حياة الجاهلية ضلال فى ضلال ، وأن السير فى طريقها وبال ونكال ، فهجر الأصنام وسفه عابديها ، وقاطع المنكرات وتجنب مريديها ، ووجد أنس نفسه فى البعد عن الشهوات ، وشفاء قلبه فى العزلة والخلوات ، وطرب روحه فى التفكير فى ملكوت الأرض والسموات ، وهو بعد لم يتصل بالسماء ، ولم يدر بخلده أنه من الأنبياء ، ولكنها عصمة الله وحياطته ، وعنايته بأكرم خلقه ورعايته ، أدبه فأحسن تأديبه ، وخصه بأكرم ما يخص به حبيب حبيبه ، فسبحان الذى قومه أحسن تقويم ، وشهد له فى محكم كتابه بالخلق العظيم ، كذلك لم تعرف البشرية - على كثرة ما توارد عليها من الأنبياء والمرسلين ، وما تتابع على أجيالها من الهداة المصلحين ، - رسالة بلغت من شمول الإصلاح ، وتوفر لها من عوامل الفوز والفلاح ، وبلغت فى فترة وجيزة أقصى ما يمكن من النجاح ، ما بلغته الدعوة الإسلامية التى شملت بخيرها كل نواحى البشرية ، وأطلقت العقول من عقالها ، وساعدت البشرية على تحطيم أغلالها ونقلت العالم من الظلمات إلى النور ، وطهرت جنباته من الأرجاس والشرور ، وتلفتت أول ما تلفتت إلى العرب فوجدتهم متنافرين متناحرين ، وإلى أذقانهم فى الضلال غارقين ، فطهرتهم من الأرجاس والأدران ، وغمرت قلوبهم بطهر العقيدة ونور الإيمان ، فبدلتهم من الجفاء إخاء ، ومن الغدر وفاء ، فحملوا مشاعل الهداية إلى جميع الأقطار ، وأخلصوا لله فى الاعلان والإسرار ، ضاربين أكرم المثل فى التضحية والإيثار ، حتى ملؤ القلوب إعجابا بهم ، والنفوس إكباراً لهم ، ودانت لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وانقاد لهم كل صعب ، وأسلس لهم كل معاند ، وما ذلك إلا لقوة روحهم ، وثبات يقينهم ، وسمو عقيدتهم ، وسيرهم على تعاليم قائدهم الأول ، خير الهداة وإمام المصلحين

محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، فقد ظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر وقوة الحزم فى كل ما صدر عنه من قول أو فعل ، وتفجرت منه ينابيع العلم والمعرفة ، وآيات البلاغة التى طأطأ لها البلغاء هاماتهم إجلالا وهيبة ، جمع إلى فصاحة اللسان . فصاحة اللغة ، كما كان ذا قدرة على تأليف القلوب ، واجتذاب النفوس ، حدثت عائشة رضى الله عنها قالت (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا . ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه) .

هذا إلى ما اشتهر به عليه السلام قبل النبوة من الصدق فى قوله والإخلاص فى عمله ، والسيرة المحمودة والأمانة النادرة ، كان السر أبلغ السر فى نشر دعوته ، وبث رسالته ، وحسبك أنه فرد غير مجرى التاريخ ، وبدل عقائد وعبادات ، فى قوم غلاظ جفاة ، ليس من السهل أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، ولا من الهين أن يذروا ما كانوا عليه من عادات وأخلاق تغلغلت فى نفوسهم ، وتمكنت من قلوبهم ، وما ذلك إلا لأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، ورزق من قوة العقيدة ورجاحة العقل ، ما جعله يمحو بنور الإيمان الباهر ، ظلام الليل الدامس .

ولقد كان عليه السلام عبقريا فى فنون الحرب ، فذا فى أحوالها وأساليبها ، ومع ذلك لم يبدأ بقتال ، ولم يسبق إلى اعتداء ، بل دعا قومه بالحجج الداحضات ، والآيات البينات ، مما جعل السابقين الأولين يتهافتون على دعوته ، ويستجيبون لرسالته ، اللهم إلا قوما أكل الحقد قلوبهم ، وقطع الحسد أكبادهم ، حسدوا الرسول على ما حباه به ربه ، فأصروا على عنادهم ، ولم يستمعوا لدعوته ، بل جدوا فى إحباط رسالته ، وناصبوه العداء ، ولم يتركوا بابا من أبواب الايذاء إلا ولجوه ، ولا طريقا من طرق العنت إلا سلكوه ، فكانوا هم البادئين بالعدوان وظلوا كذلك حتى نزلت الآية الكريمة (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) فكان عليه السلام قائد حرب لا يشق له غبار ، يرسم الخطط ويحدد الأماكن ، ويتخذ لكل حال ما يناسبها ، وها هى ذى حروبه المتنوعة ، لم تكن على وتيرة واحدة ، وكثيرا ما كان فى مقدمة الجيش قدما مقداما فهذا على بن أبى طالب يقول كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو ، وتتجلى عبقريته فى الأخذ بآراء أصحابه الناضجة ، والنزول على إرادتهم غير مستبد برأيه ، ولا مستهين بأفكار صحابته ، ـ أنظر إليه فى غزوة بدر يستمع إلى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذى نزل فيه

قائلا يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال يارسول الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته ، فننزله ونعور ما عداه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه فنشرب ولا يشربون ، فقال الرسول عليه السلام قد أشرت بالرأى .

وفى غزوة الخندق وقد أجمعت العرب أمرها ، وأتو المسلمين بما لا قبل لهم به من عدة وعديد لم يسبق لها مثيل من قبل فلما هال المسلمين أمرهم وأخذوا يفكرون فى التحصن فى المدينة ، إذا بسلمان الفارسى وكان يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفا عند العرب ، يشير بحفر الخندق حول المدينة فتهلل وجه النبى فرحا بهذا الرأى وأشار به وشارك المسلمين فى حفره بيده الكريمة ، وأى عبقرية أظهر من أنه كان يختار الموقع الملائم له ، ويتحين الفرصة ، ويعاجل العدو قبل تمام استعداده إلا أن يكون الهجوم ليس من مصلحته كما حدث فى غزوة الخندق ، وكانت قوة الإيمان هى السر أبلغ السر فى انتصاراته الرائعة ، والقوة المعنوية تتضاءل أمامها جحافل الجيوش ، وتندحر أمامها قوة الأساطيل ، ووفرة العدد والعدد (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً) وإن جيشاً تقوى روحه المعنوية فيتقدم جنوده للقاء العدو بنفوس لا تخشى الموت ولا ترهب الفناء مقبلين غير مدبرين ، منكرين ذواتهم ، مضحين بنفوسهم فى سبيل وطنهم لابد أن ينتصر هذا الجيش قل أعداؤه أو كثروا فالمستميت لا يموت والمستقتل لا يقتل ، ولا سيما إذا كان هذا الجيش يدافع عن وطن مغصوب ، وحق مسلوب ومال منهوب وكرامة مهينة ويقاتل غاصبا استمرأ العدوان والحق بوطنه الدمار والخسران ، ولم يرقب فيه إلا ولاذمه ، ولم يرع له وفاء ولا حرمه ، هنا تتجلى القوة المعنوية ، ويتسابق الجميع إلى خوض المعركة، واهبين أنفسهم وأموالهم فداء لوطنهم ، مضحين بالغالى والرخيص فى سبيل استرداد كرامتهم ، والذود عن حياضهم ، فما استحق الحياة من دعاة الوطن فتنكر ، ومن هتف به الداعى فقدم رجلا وأخر ، ولا معنى لحياة يحياها المرء تحت نير الاستعباد ، وربقة الذل والعبودية ، والموت خير من مقام على الأذى .

ألا نفوس أبيات لها همم تستعذب الموت فى تحرير أوطان
ألا نفوس تودى بعض ما ملكت لتمحو العار عن مصر وسودان

أول اللحن في لغة العرب

لفضيلة الشيخ عبد الحميد المسلوت

المدرس بكلية اللغة العربية

عاش العرب فى جزيرتهم قبل الإسلام محصورين بين جنباتها متنقلين فى ربوعها وأرجائها لا يعدو عليهم دخيل ولا يختلط بهم أجنبى - ومن هنا ظلت سلائقهم سليمة لا يتسرب إليها زيف وبقيت ألسنتهم فصيحة لا يساورها هجنة ولا ضعف لأنهم نشأوا نشأة عربية خالصة، وارتضعوا أفاويق الإعراب من قديم الزمن، وورثوا سلامة المنطق عن آبائهم وأجدادهم على تقادم العصور وتطاول الحقب .

فلما جاء الإسلام وبعث محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين إلى الناس يهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم . واقتضى عموم دعوته وشمول رسالته أن يدعو إلى دينه أقوام ما ليسوا من أهل لغته ولا يستطيعون التكلم بلسانه، كان لابد أن يختلط بهم العرب، وأن يداخلوهم ويتحدثوا إليهم ويفهموهم الدعوة ويبلغوهم الرسالة .

ثم بعد الجهاذ الشاق والكفاح الطويل كان الملك الإسلامى والدولة الجديدة واتساع رقعتها وامتداد أطرافها، وتبع هذا اختلاط الغالبين بالمغلوبين وارتباط الحاكمين بالمحكومين، واتخذ الفاتحون من الأعاجم عبيدا وخدما وحاضنات ومربيات أشرفن على تربية أبنائهم وتنشئتهم، إذ أقبلت عليهم الدنيا وأسرع إليهم ترفها، وتكاثر لديهم زخرفها وزينتها، فنشأ عن ذلك بعض الخلل فى النطق والاضطراب فى الألسنة .

ولقد راق لكثير من العرب جمال البلاد المفتوحة وكثرة خيراتها، ووفرة أرزاقها فنزحوا إليها واستوطنوها وعاملوا أهلها وعاشروهم، إذ آخى بينهم الإسلام وجعلهم الدين سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، فأصهروا إليهم وأعقبوا منهم وامتلكوا منهم كذلك بحكم الفتح والغلبة . ولذلك

نشأ فى الأمصار الإسلامية جيل من الناس جديد ، التاثت لهجته واضطربت ملكته وتسرب الفساد إلى منطقه . ووجدت له لغة تخاطب هى مزيج من العربى والأعجمى الذى يختلف باختلاف البيئات ، فلون الفساد فى العراق يجىء من الفارسية لغة أهل البلاد ، وفى الشام من الرومية ، وفى مصر من القبطية .

أما العرب الأصليون فقد ظلت ألسنتهم سليمة لم يشبها تحريف وبقيت لغتهم صحيحة لم يطرأ عليها فساد ، وحتى هؤلاء المحدثون الذين كانت نشأتهم وليدة الاختلاط والامتزاج كانت محادثتهم فى مجموعها عربية ، وإن سرى إليها اللحن وفشت فيها العجمة .

ولا يظنن ظان أن التحريف لم يتمكن من الألسنة ، وأن اللحن لم توجد له مظاهر إلا فى العصر الأموى حيث اتسعت الدولة وامتد ظلها وفشت الخلطة وتم الامتزاج ، فإن من طبائع الألسنة أن يتبوبها القصد ويلتوى عليها النهج فى بعض الأحيان . وهذا يحدث فى كل عصر وفى كل زمان حتى ليروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن رجلا لحن بحضرته فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضل ، ولكن ذلك كان يقابل بالازدراء والامتعاض ، ويجد من الاستهجان والاستفظاع ما يقضى عليه لوقته . ولقد قيل إن عمر بن الخطاب مر بقوم يتناضلون ورمى بعضهم فأخطأ فقال له عمر أخطأت ، فقال يا أمير المؤمنين (نحن متعلمين) فقال له عمر : والله لخطؤك فى كلامك أشد علينا من خطئك فى نضالك ، ثم قال : احفظوا القرآن وتفقهوا فى الدين وتعلموا اللحن [١] .

ويروى أن كاتب أبى موسى الأشعرى كتب عنه كتابا إلى عمر بن الخطاب فلحن فيه وقال (من أبو موسى) فأرسل إليه عمر يقول (قنع كاتبك سوطا) .

ثم إن من شأن الدخيل على لغة غير لغته ، والطارىء على لسان غير لسانه أن يتعثر نطقه وتلتوى لهجته ويترنح لسانه ، وما يزال كذلك حتى يستطيع بمضى الزمن وتتابع الأيام أن يندمج فى اللغة الجديدة وتصبح سليقة فيه وطبيعة له أو أشبه بسليقته وطبيعته ، ولذلك قيل إن بلالا كان يرتضخ لكنة حبشية ، وسلمان كان

---

[١] أى تعلموا اتقاء اللحن أو اللغة المجودة .

يميل لسانه إلى الفارسية ، وصهيب كانت فيه لكنة رومية . لكن هذا فى صدر الإسلام كان قليلا لقلة من خالط العرب من الأعاجم .

أما فى عصر بنى أمية فقد شاع الاختلاط وامتزج العرب بغيرهم ، ورحل كثير منهم الى الأمصار المفتوحة فسكنوها وعاشروا أهلها وأصهروا إليهم وخالطوهم خلطة القرابة القريبة ، وشب وأيفع ذلك الجيل الذى كان وليد الاختلاط . ومن هنا تمكن الفساد من الألسنة وعلق الخلل بالسلائق وجثم الضعف على الملكات . ووجد الخاصة والحراص على اللغة والكلفون بالعروبة أنه لا بد من توجيه العناية الى أبنائهم وناشئتهم فجلبوا لهم الرواة والمؤدبين ليشبوا على الفصيح ، وينشأوا على الإعراب ، على أن تيار العجمة لم يلبث أن جرف ما أمامه من مقاومة وطغى على الخاصة والعامة ، حتى أصبح الفصيح المنطيق يخشى أن يتسرب إليه من اللحن ما لم يكن يتوقعه حتى كان عبد الملك بن مروان وهو المعروف بقوة بيانه ، وفصاحة لسانه يقول « شيبنى صعود المنابر وتوقع اللحن » . وبعد أن كان اللحانون فى غير هذا العصر يعدون قلة قليلة ، أصبح الناس يعدون على أصابع اليد من لا يلحن فى إعرابه .

وقد روى عن الأصمعى (أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل : الشعبى وعبد الملك ابن مروان والحجاج بن يوسف الثقفى وابن القِرِّية . والحجاج أفصحهم) .

وحتى هؤلاء الأربعة لم يسلم بعضهم من هجنة اللحن فإن أفصحهم وهو الحجاج أثر عنه أنه قال مرة للشعبى كم عطاءك (بنصب عطاء) فقال ألفين (بالنصب) فأدرك الحجاج خطأه وأعاد السؤال مصححاً ، وقال : كم عطاؤك (بالرفع) فقال الشعبى ألفان (وصحح كلامه) فقال الحجاج فلم لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك ؟ فقال : لحن الأمير فلحنت وأعرب فأعربت ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول .

ويروى ابن سلام فى طبقات الشعراء أنه قال ليحيى بن يعمر أتسمعنى ألحن . قال فى حرف واحد ، قال فى أى قال فى القرآن . قال ذلك أشنع فما هو قال تقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . . . الى قوله أحب فتقرؤها بالرفع) فقال لا جرم لا تسمع لى لحنا . ثم ألحقه بخراسان غاضبا عليه .

واللحن دائما كان يقابل بالاستنكار والتجهم ، وكان عبد الملك بن مروان يقول (الإعراب جمال للوضيع واللحن هجنة للشريف) وكان يستسقط من يلحن حتى يروى عنه أن رجلا من علية أهل الشام استأذن عليه وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : يا غلام غطها ، ودخل الرجل فلما تكلم لحن فقال عبد الملك يا غلام : اكشف عنها الغطاء فليس للاحن حرمة ، ومن وصاياه : أصلحوا من ألسنتكم فإن المرء تنوبه النائبة فيستعير الثوب والدابة ولا يمكنه أن يستعير اللسان .

وقيل أول لحن سمع بالبادية هذه عصاتى وأول لحن سمع بالعراق حى على الفلاح (بكسر الياء) وهى مفتوحة وكان هناك لحن آخر دفع إليه ضعف الملكة والقصور فى التعبير عما تنطوى عليه النفس من أفكار وآراء أو يجلبه اضطراب الفؤاد حين مباغتة حادث أو مفاجأة أمر جلل ، كهذا الذى يروى عن عبيد الله بن زياد حين قال للجند وهو يخطب فيهم (افتحوا لى سيوفكم) وقد عيره بذلك يزيد بن مفرغ بقوله :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضياع

وقد عد على خالد بن عبد الله القسرى أنه قال مرة وهو على المنبر أطعمونى ماء وقد عيره بذلك يحيى ابن نوفل إذ يقول :

بل المنابر من خوف ومن وهل[1] واستطعم الماء لما جد فى الهرب
وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق فى الخطب

يقول المبرد إن خالداً كان متقدماً فى الخطابة متناهياً فى البلاغة ، فخرج عليه المغيرة بن شعبة بالكوفة فى عشرين رجلا فعطعطوا به [2] . فقال خالد وهو على المنبر أطعمونى ماء فعير بذلك .

على أن هذا اللحن مع شيوعه وكثرته ، ومع استشرائه وتغلغله كان يقاوم بشدة ويقابل دائماً باستهجان واستنكار ، لأن القوم إذ ذاك عرب يزدهيهم جمال الفصحى وتستهويهم روعة الإعراب ، ولأنهم شديدوا الحفاظ على كتابهم الكريم

[١] الوهل : الضعف والفزع .

[٢] العطعطة : تتابع الأصوات واختلاطها فى الحرب وغيرها . وعطعطوا به أى صاحوا .

ومن هنا أنفو من اللحن وحاربوه وعابوا على أصحابه ما مسهم من ضره أو لحقهم من شره ووزره حتى ليروى أن رجلا دخل على زياد فقال : « إن أبونا هلك ، وإن أخينا غصبنا ميراثنا من أبانا فقال ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك فلا رحم الله أباك حين ترك ولداً مثلك .

واختصم رجلان إلى عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان فقال الحاجب (قما فقد آذيتما أمير المؤمنين) فقالى عمر أنت والله أشد إيذاء لى منهما .

وتكلم رجل فسبق إلى لسانه ما لم يرد فلحن فقال : حسبى الله والله لقد وجدت حرارتها فى حلقى قبل أن أتكلم بها . ودخل أعرابى السوق فسمع الناس يلحنون فقال : يا سبحان الله يلحنون ويربحون . وكان يحيى بن نوفل يقول : اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه . وقال أبان بن سعيد اللحن فى الرجل ذى الهيبة كالدنس فى الثوب الجديد .

هذه المقاومة العنيفة لمظاهر اللحن إنما دعا إليها الحرص على احترام السلائق وتقديس الفطر التى طبعوا عليها .

وكانت مظاهر المقاومة تتمثل فى استنكار اللحن كما رأينا التشنيع على اللحانين ، وفى الاحتراس بتلقى اللغة عن الأعراب الخلص والعلماء والمؤدبين .

فلما ضعفت الألسنة أمام تياره الجارف وطوفانه الطاغى نهض العلماء لوضع النحو والشكل والأعجام .

الحلم

قال قيس بن عاصم المنقرى وكان مشهورا بالسيادة والحلم :

أنى امرؤ لا بطيء حسبي دنس يهجنه ولا أفن
من منقر فى بيت مكرمة والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم بيض الوجوه أعفة لُسُنُ
لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فُطُن

محمـــــــد

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لم تبلغ كلمة من الذيوع والاشتهار — بعد لفظ الجلالة — ما بلغته تلك الكلمة التى ترددها ألسنة الملايين من المسلمين فى بقاع الأرض ، تيمنا بها ، وتلذذا بذكرها وارتياحا لنغمتها ، وسرورا بخطورها على البال ، ومرورها بالذهن . . .

ولقد سجل التاريخ للإنسانية مراحل مختلفة للنضوج الفكرى ، والنهوض الأدبى ، والعمران والإصلاح ، والرقى والتقدم ، والدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم يكن بين ذلك كله من الأسماء ما وصلت به نباهة الشأن ، وطنين الصيت ، ودوى الجرس ، ما كان « لمحمد » بين الكلمات . . وكلنا نعلم أنه نشأ فى مهود الفقر ، وخطائد اليتم ، والمألوف فى الأطفال الذين تتلقاهم هذه الحياة وتتولاهم تلك الظروف ، أن يموت فيهم النزوع الى المجد ، والتوثب للمعالى ، والرغبة فى الكمال ، والتطلع نحو الغايات البعيدة ، والأهداف السامية . . ولكنه صلى الله عليه وسلم على الرغم من أن المقادير رمته بهاتين الداهيتين ، لم يؤثر ذلك فى طموحه وعلو نفسه ، ودأبه على الخير ، ورغبته فى البر ، وحبه للسلام ، وميله دائما أبدا الى التى هى أقوم . وكأن الذى كان يقدر له فى الغيب خوارق العادات ، وتأييد هذه المعجزات ، أبى إلا أن يجعله هو فى ذاته معجزة تحار الأفكار فى فهم سننها ، وكشف المستور من طريق الحياة معها ، ليعنى العلماء والفلاسفة بدراستها ، والاشتغال بها ، والحديث عنها ، عنايتهم بشريعته ، التى تضمنت من الدستور ، ورسمت من المناهج ، ما لا يبقى بعده عذر لمتخلف ، ولا حجة لمقصر ، أو رأى لعاقل ، أو نظر لحصيف . .

وإن سلوكه منذ نعومة أظفاره ، وسمته من لدن طفولته ، وحزمه وكياسته من أول يوم ارتاد فيه مجالس قومه ، ومجالى عشيرته ، وحديثه إليهم بالفصل ،

وحكمه بينهم بالعدل ، وشهادتهم له بالصدق ، ونظرتهم إليه بالاحترام ، وتوسمهم فيه الجلال ، وترقبهم أن مستقبلا باسما ينتظره ، ويسعى نحوه . . . أشياء أخرى كانت كلها تجعله الشغل الشاغل الذى لا يستطيعون فهمه ، ولا يدركون غايته ، ولا يعلمون متى تتكشف سحائبه ، ويتجلى غيمه ، فلما بلغ مبلغ الرجال ، وكان يقرى الضيف ، ويحمل الكل ، ويعين على الحق ، ويكسب المعدوم — كما شهد له ورقة بن نوفل — هالهم أمره ، وعناهم شأنه وظنوا أن الأيام سوف تتمخض منه عن كسرى أو قيصر ، ولم يزالوا هكذا يتوهمون حتى سفه أحلامهم ، وعاب آلهتهم وأظهرهم فى ترهاتهم الباطلة ، وأفكارهم النازلة ، بمظهر الحمقى المأفونين ، وهنالك قالوا لعمه أبى طالب كن لنا عند ابن أخيك شفيعا ، لأنه جاوز فى النكاية بنا الغاية ، ووصل من تحقيرنا الى النهاية ، وأصبحت معبوداتنا بعد تعرضه لها تتهاوى كبرياؤها ، وتتضاءل عظمتها ، وله علينا أن نملكه ، وأن نبذل له من المال ما يريده . . . وما كانوا يترقبون أن الرجل الفقير المعدم سيرد عليهم هذا الرد . . . « والله يا عمى لو أنهم وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما رجعت عن هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » لذلك تحولت حربهم الباردة الى التفكير فى قتله ، وكان هذا اتجاها جديدا اتجهت إليه الدعوة المباركة .

ولا يعنينا من هذا العنوان أن نسترسل مع الحوادث ، وأن نرجع بالقارىء إلى ما عساه أن يكون قد حفظه من بطون الكتب ، إنما الذى يعنينا أن نقوله إن جوانب العظمة فى هذا النبى الأمى أدهشت الناس ، وبخاصة فيما يتناول تلك السرعة فى انتشال العرب مما كانوا يتورطون فيه من السفاسف التى كانت تسيطر على عقولهم سيطرة ما كان يظن إقلاعهم عنها ، وتركهم لها ، أو نسيانهم إياها .

ويخيل إلى أن هذا بعض ما حمل جماعة من المؤلفين القدامى لكتب السيرة أن يضفوا عليه صلى الله عليه وسلم من النعوت والخلال ما يتجاوز به حدود البشرية ، زاعمين أن ذلك يجعلهم منه فى موضع الرضى والزلفى ، مع أنه كان لا يفتأ فى مناسبات مختلفة يصرح بأنه بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، دفعاً لهذه التزيدات التى يفتريها المبطلون .

وقد كنا نحمد لأولئك المجددين أساليبهم فى الكتابة التى يكتبونها عنه ، لأنهم

يحاولون أن يؤرخوا له من الحوادث والأخبار ، وأن يجعلوا سلوكه مع أصحابه ، وتواضعه لأهله ، ورحمته بالبائسين ، وحدبه على المعوزين ، وإيثاره لغيره ، وإشاعته الأمن بين الناس ، ومحاولته القضاء على عناصر الفساد فى البسيطة ، صدى لهمته الكبيرة ، وضميره النقى ، ودخيلته الطاهرة ، وبخبرته الشريفة ، ورغبته الخالصة من شوائب الفضول ، وهو نمط لا غبار عليه فى البحث ، ولا عيب فيه من حيث الدراسة ، لأنه يجرى على طريقة علم النفس ، لولا أنهم فى كثير من الأحايين يبالغون فى هذه البحوث فيظهرون الرسول الكريم فى صورة البطل الفاتح أو صورة الحاكم المسلط ، أو صورة العبقرى النابغة ، أو صورة القائد المظفر ، وتلك ألفاظ من حقنا أن ننخدع بها فى محيطنا الذى نعيش فيه ، ودنيانا التى نملؤها بالزهو والخيلاء ، إلا أنها لا تخلو من المزالق ، ولا لنأى عن المآخذ ، ولا تفرغ من السقطات ، وإن غطت عليها فضيلة من الفضائل فبمقدار ماتعمى أعين الناظرين إلى رذائل ورذائل .

وعلى العقلاء ألا يغريهم هذا السراب اللماح ، وأن يعتقدون أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، فوق مستوى الإنسانية كلها ، وأعظم مما يظن كاتب مجدد ، أو فيلسوف باحث ، لأن الذى اختاره من البشر تحداهم به ، وجعله أبعد من خيالهم الواهم ، وشعورهم الواسع ، ونظرهم المحدود . . وسيظل تاريخ الحياة والأحياء آهلا بتقليب صفحاته إلى يوم يبعثون .

حـكم

لعيسى عليه السلام فى كتبنا حكم كثيرة منها قوله للحواريين .

« اتخذوا المساجد بيوتا والبيوت منازل ، وكلوا بقل البرية ، واشربوا الماء القراح ، وانجوا من الدنيا سالمين » .

وقال عليه السلام : « لا تنظروا فى أعمال الناس كأنكم أرباب ، وانظروا فى أعمالكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية » .

مولد النـــــور

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

شاق الوجود صباحه المتألق ... يوم بمولد نور طـه يشرق
سر حوته من السماء سريرة ... نشوى بأنوار النبوة تفهق
ينساب فى الأصلاب وهى مجامر ... طيباً يفوح به الزمان ويعبق
الله أودعه بها من نوره ... قبساً سرى من آدم يترقرق
تتساءل الدنيـا : متى ميعاده ... وبعضها شوق اليـه مؤرق
وتبيت تحسد يومه أيامها ... وتود لو عجلت إليـه فتلحق
والكون مشبوب الضرام مفزّع ... قد لفه ليـل الضلال المطبق
والحقد يوغل فى النفوس ضراوة ... والشر يغلى فى الصدور ويمرق
والنـاس فوضى لا ترى من بينهم ... إلا عبيـد حجارة لا تنطق
جهـل وظلم عارم وسفاهة ... وتنابز وتحلل وتفرق
ضلوا عن الحق القويم وصدهم ... داع إلى عصبية يتمشدق
وإذا ادلهم الليل واعتكر الدجى ... لم يستبن نورَ السماء محدِّق

* * *

حتى أراد الله رحمـة خلقه ... والله يلطف بالعباد ويرفق
فى ليـلة نشر الربيع لواءه ... وسرى النسيم بها عبيراً ينشق
والأفق عطرى الفضاء كأنما ... فى كل ناحية بخور يحرق
وازينت قبب السماء بموكب ... فيـه الملائكة الكرام تحلقوا
وتقلد الحور النجوم قلائداً ... غراً ينسقها لهن منسق
والأرض عرس والربا مجلوة ... فاح العرار بها ورف الزنبق
والرمل نشوان المنى متهامس ... والليل هـيمان الرؤى متشوق
والشرك لهفان السؤال وقيصر ... حيران مبهور وكسرى مطرق
شقت من الأبد الفضاءَ وجلجلت ... بشرى تهز المشركين وتصعق
طارت بألباب الحـداة فوقفوا ... وتلفتت طرباً إليها الأينق

وهوت لروعتها الغرانيق العلا واندك إيوان وزُلزل جوسق
والنور يهزم فى الشعاب ظلامها ويغير منه على البطائح فيلق
وأشاع فى الدنيا بهاء جلاله فجر عليه من النبوة رونق
ولد الهدى والنور فيه بمولد الهـ ـادى وطالعها الصباح المشرق

* * *

يا من أعدت إلى الوجود شبابه فكأن مولدك الربيع المونق
وجرى على فمك البيان وهديه نبعاً تفجر أو حيـاً يتدفق
ألفت ما بين القلوب فلم يعد باغ يصاول أو مغيظ يحنق
وفتحت إسعاداً ، وكم من فاتح فى فتحه حل الشقاء المحدق
ما كان إلا للسعادة والهدى رمح يسدد أو حسام يمشق
وبنيت ملكاً باذخاً بشريعة تسع الحياة جديدها لا يخلق
الحق والسلم الموطد أسها والعدل خفاق عليها يسمق
لا جاه إلا الصالحات ولا غنى إلا أصاب الحق فيه المملق
إن الذين تنكبوا دستورها ضلوا الطريق إلى السلام وأخفقوا
وإذا استبدت بالسلام مطامع كان البشير به غراباً ينعق
الأمة العزلاء أين مكانها مما يصول به القوى الأحمق
فاطرح أمانى السلام فإنما خدع الشعوبَ سرابهن الديسق
ماذا جنينا فى القتال بسلمنا إلا دماً يجرى وروحا يزهق
أمل الكنانة فى لهيب صراعها أبداً بغير السيف لا يتحقق

* * *

يارب هذا الغرب فى غلوائه غاض الوفاء به وضاع الموثق
والشرق من أخلاقه فى محنة تودى بآمال الشعوب وتوبق
الجاه فيه قرابة وشفاعة والكفء فيه مهرج ومصفق
وبه يضيع العبقرى ترفعاً ويفوز فيه الجاهل المتملق
يارب إن طم الفساد فلم يزل يومى إليك مغرب ومشرق
طهر رحاب الأرض من أرجاسها وأعد لواء العدل فيها يخفق
والطف لأجل محمد بشعوبه واكشف بفضلك ما يعانى المشرق
من يعتصم بك يقو جانبه ومن تهديه ينجح سعيه ويوفق

صـــــفحة خالدة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليفة
المدرس بمعهد القاهرة

من ذلك الواقف على شاطىء البحر تتكسر الأمواج تحت قدميه ويتناثر الزبد حواليه وكأنه غائب عن عالمه ؟

من ذلك الذى يجاهد أنفاسه فيعلو صدره ويهبط كأن براثن الحيرة تنهب ما بين ضلوعه وتنهش ما بين جانبيه ، فيرسل النظر وراء الأمواج لعل بين طياتها بشراً أو بشرى ؟

من ذلك الذى تلتهم ثورة البحر ما تحت رجليه من رمال فيغوص ساقه ولا يفيق إلا على لطمات الأمواج لفخذيه وهو ذاهل لا يفكر إلا فيما وراء البحر ؟

من ذلك الذى انطبعت على وجهه غضبة البحر وثورته فتجعد وجهه يحكى صورة البحر أو ثورة أفكاره ؟

من ذلك المشمخر الذى يشرئب ويطول كأنما يراقب وراء الآفاق النائية أهوالا طاحنة ؟

إنه موسى بن نصير . إنه البطل الذى أقام فى أوروبا للإسلام ملكا ودام ثمانية قرون للإسلام .

لقد وقف ذاهلا يستطلع خبرا عن جيشه الذى بعثه تحت إمرة طارق لفتح الأندلس ، يراه الليل وهو على سيف البحر يصيخ لعل صوتا من وراء الأفق يهتف به ، ويطالعه الفجر وعينه بين معارك الرياح والأمواج تنقب عن يد تلوح له وتشهده الظهيرة وهوهو الماثل على الضفاف .

إنه يخشى أن تكون هذه البلاد قد أصبحت مقبرة لاثنى عشر ألفاً من المسلمين اتخذوا منها سبيلهم إلى الجنة .

إنه يخشى أن تحقق الأيام رأى الخليفة الوليد بن عبد الملك فى خوفه على المسلمين حين يفصل بينه وبينهم البحر ، وليس لدى العرب أسطول يحمى ظهور الفاتحين .

لقد مضت الأيام وكأنها الأعوام وانقضت الأسابيع وكأنها القرون وهو الحائر المبلبل .

لقد اصطرعت فى نفسه الوساوس وأدمت الهواجس خواطره ولكن قبسا من نور الإيمان بنصر الله كان يشع حيناً بعد حين على ظلمات حيرته فتأنس نفسه بالثقة بالله وبتأييد الله الذى يقول : «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين» وليس بين جنوده الذين عبروا البحر غير صابر يستعذب كل شىء حتى الموت فى سبيل الله . فما له يستسلم لثرثرة الآلام أو يخشى مجالدة الأخطار على رجال أسعد أيامهم تلك التى يقضونها بين الضرب والطعن تحت ظلال السيوف وبين اشتجار الأسنة ، واستروح يوما رائحة الاطمئنان فوقف على الصخرة التى ودع عليها جنوده يعرض على خياله صورة أولئك الأبطال فى عزماتهم الفتية ونفوسهم القوية ونظر فإذا صفحة البحر تتفتح عن زورق صغير تؤرجحه الأمواج كأنه الريشة فى مهب العواصف . ودلف الزورق رويدا رويدا إلى الشاطىء فأمعن موسى النظر فى الزورق ومن فيه ، وأصاخ فإذا الصدى يجلجل : الله أكبر الله أكبر .

وإذا بشائر المنى تبدل هدأة الشاطىء المهجور إلى أفراح وأعياد إنها أفراح النصر تدق بشائرها وأعراس الفتح تزخر مواكبها .

وما كان موسى بالرجل الذى تغره ألوان النصر فتصرفه عن التفكير البعيد العميق ، إنه كقائد حربى يخشى أن يكون ذلك النصر خداعا وأن الجيش الذى ظهر فى صورة المهزوم المرتد وعدده يربى على المائة ألف وقد يفتح جناحيه فيبتلع اثنى عشر ألفاً يقودهم طارق . وفى وسط أغاريد الفوز ، وأهازيج الانتصار دوى نفير الجهاد وصاح موسى : إلى الأندلس إلى الأندلس ، فإذا بأعماق الصحراء تجاوب ذلك الصدى وتتجمع حشودها المتعطشة إلى الفتح على الشاطىء فيثب بهم موسى إلى السفن والزوارق ويجتاز المضيق وتتلقف الأندلس قائدا من أعظم ما عرف العرب من قواد ويتقدم ويتقدم حتى يلتقى بطارق فيقسم الجيش الإسلامى إلى فرق تزحف فتفتح وتطهر البلاد من بقايا القوط الذين حكموا فى البلاد فأكثروا فيها

الفساد . لقد كانت الأندلس من أغنى البلاد بأنهارها وجناتها وقصورها ولكن كل ذلك لأمراء القوط وحكامهم ، أما سواد الشعب فحسبه من الحياة ثوب مزقته يد الأعوام ولقمة تعافها كلاب القصور ولكنها أجر لما تغله أيديهم وجهودهم لهؤلاء السادة ، ولكن موسى جاءهم بجديد إنه يحكم بحكم الله ولا يريد المال ولا الجاه إنما يريد إنقاذ الضعفاء من استغلال الأقوياء ، إنه يريد للمستعبدين الحياة التى يريدها الإسلام ، حياة الحرية والإخاء والمساواة ، إنه يريد أن يحول هؤلاء الذين سخرهم القوط لشهواتهم ومآربهم كما تسخر الحيوانات إلى نفوس إنسانية تجمعها كلمة التوحيد ولا حكم لأحد عليها بعد ذلك .

وفر أمراء القوط وحكامهم أمام ذلك الجيش الذى يطارد عشرة أمثاله ، ويمزقهم فى الأرض شر ممزق ، فروا من مدينة ليتحصنوا بمدينة ، ولكن لم تكد طلائع المسلمين تدق أبواب تلك الحصون حتى يهجروها إلى غيرها ، وهكذا وهكذا حتى تسلقوا جبال البرانس ليتخذوا من أغوارها وأحجارها ملاذا لهم ، ولكن همة موسى تسلقت وراءهم الجبال لتطهر حدود الأندلس من آثار البغى ، وصعد وصعد حتى وقف على القمة وعركها بقدميه فتطاير الصخر شررا روع قلوب الفرنسيين وراء هذه الجبال ، وأطل موسى من تلك القمة على الشرق البعيد على بلاد الشام ، وفيها خليفة الإسلام ، ففكر وأطال التفكير ، ثم نظر إلى جيوشه تتواثب هممها إلى المزيد من الفتح ، فكتب إلى الخليفة يستأذنه فى أن يتجه بجيشه إلى الشرق ، غازياً شمال « البحر الأبيض » ليجعل منه بحيرة إسلامية تدين جميع دولها بالإسلام إنه يريد أن يحول كنائس روما وأديرتها وصوامعها إلى مساجد تناطح السماء مآذنها ، ويدوى من فوقها أذان الفجر : الله أكبر الله أكبر فتردد صدى الآذان القيروان والإسكندرية ودمشق . ليت أحلام موسى تحققت ، وليت الأخوة الإسلامية ربطت بين دول البحر الأبيض جميعاً برباطها فعاشوا فى كنف الإسلام لا سيد ولا مسود .

لقد وصل كتاب موسى إلى خليفة المسلمين فخاف أن تتوغل جيوش المسلمين على قلتها فى هذه البلاد ، فتؤخذ عليها السبل ، ويضيق الخناق فتهلك كلها ، وبعث

الخليفة بكتابه يثنى موسى عن ذلك العزم ، ويطلبه إلى دمشق . وتحرك موسى إلى الشرق ونفسه بين خواطر متباينة بين فرح بذلك الفتح ، وبين ألم لانهيار الخطة التى رسمها لذلك التوسع الذى أراده وأراد الخليفة غير ما يريده .

تحرك إلى الشرق يسوق مئات الأسرى من أمراء القوط وقوادهم وإلى جانبه القوافل تضج بها الصحراء تحمل الغنائم والأسلاب التى لم يحلم بها الشرق من قبل . إنها غنائم قصور غصت بكنوز لم يحوها إيوان كسرى ولا ضم مثلها قصر قيصر .

قصور لفظت المتجبرين من الرعاة لتستقبل رحماء الولاة ، قصور كانت تمرح بين أبنائها الغيد الحسان من بنات الرومان الرافلات فى الدر والمرجان ، وهنّ بين نشوة الخمر والغناء ، قلبها الإسلام حيناً إلى محاريب يتبتل فيها العابدون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله .

أيها المسلمون . هل من رجعة إلى ذلك التاريخ لنتخذ من سطوره قبساً يضىء لنا ليالى هذه الأحداث التى أناخت على الشرق الإسلامى ؟

هل من إيمان كإيمان أولئك الحفاة الذين فتحوا الأندلس . يحول المسلمين الذين سلبوا اليوم حريتهم ، وهبوا يدافعون عن حياتهم إلى غزاة فاتحين ؟

هل من أيد باسلة قوية تبنى للإسلام ما تهدم من مجده وما تحطم من أركانه لتعيده على الوجود شامخاً عزيزاً كما خلفه السابقون الأولون من المؤمنين ؟

ياشباب الشرق ، إذا عز عليكم السلاح فليس الإيمان بعزيز ، وإنه نعم السلاح إنه هو الذى فتح البلاد ، وهو الذى ملكها ، وهو الذى يطهر الشرق من عنت الغرب وعدوانه .

ليت فى قلب كل مسلم همة كهمة موسى بن نصير نستعيد بها مكانتنا فى الوجود .

من أحداث التاريخ الاسلامى

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى

المدرس فى كلية اللغة العربية

قل اللهم مالكَ الملك ، تُؤْتى الملك من تشاء ، وتنزعُ الملكَ ممن تشاء ، وتعزُّ من تشاء ، وتُذلُّ من تشاء ... وهكذا أراد ولا راد لمشيئته ، أن تنتهى حياة دولة ، وتُفتتَح صفحاتُ دولة جديدة .

فى يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول عام ١٣٢ ه‍ (٣٠ أكتوبر عام ٧٤٩ م) : صعد أبو العباس السفاح منبر الكوفة مهيباً جليلا ، ووقف بين أعوانه وجنده ودعاته ، المؤمنين بحق آل البيت فى الخلافة ، الناقمين على بنى أمية جورهم واضطهادهم لآل محمد ؛ وجمهور المسلمين يهللون ويكبرون ، وأبو العباس فى أعلا المنبر ، وعمه داود بن علىّ قائم على المنبر دونه . ثم أخذ أبو العباس يخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وفخر بقرابته من رسوله ، وذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ، ونعى على بنى حرب وبنى مروان أثرتهم وظلمهم ، وكان فيما قال : « وزعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، وأدحض الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً . وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ؛ وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا . . ثم وعدهم وأوعدهم إلى أن قال : « فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير » . . وبهذا لقب السفاح . وكان مريضا فاشتد به المرض فجلس على المنبر . وقام عمه داود بن على فخطب ، فقال فيما قال : « الحمد لله شكراً شكراً ؛ الذى أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس : الآن طلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ

القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها ، ورجع الحق إلى نصابه ، فى أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة ، والرحمة بكم ، والعطف عليكم » . ثم ذكر سياسة بنى أمية الخرقاء ، وقال : « أيها الناس : « لكم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ثم أثنى على أهل الكوفة ، ومدح جند خراسان ، وقال فى آخر خطبته : « ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبى العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ، ليس بخارج منا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا » .

ونزل أبو العباس ، وداود بن على أمامه ، حتى دخل القصر ؛ وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد ، فلم يزل كذلك حتى صلى بهم العصر ثم المغرب ، وجنهم الليل فدخل .

وبذلك بدأت دولة جديدة ، وقامت خلافة بنى العباس .. التى كان قيامها حدثا عجيبا فى تاريخ الأمة الإسلامية .

ونحن نعلم أن الأمويين اضطهدوا آل النبى وشردوهم ، ونفوا بعضهم واعتقلوا البعض الآخر فى قرى قريبة من عاصمتهم « دمشق » .. وشمل هذا الاضطهاد : البيت العلوى ممن ينسبون إلى ابن عم النبى على بن أبى طالب ، والبيت العباسى « الذين ينسبون إلى العباس [1] بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان العلويون منذ قامت الدولة الأموية عام ٤١ هـ ، يطالبون بخلافة المسلمين ، وأخذت شيعتهم تدعو لهم فى العراق ، ورشحوا للإمامة من ذرية على كرم الله وجهه سيدا بعد سيد .

---

(١) ولد العباس قبل مولد الرسول بعامين ، ومات بالمدينة عام ٣٢ هـ ، وكان شاعرا مفلقا ، وكان يستسقى به فى الجدب - وابنه عبد الله بن العباس حبر الأمة ، وولد قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وتوفى عام ٦٨ هـ .

فكانوا يدعون للحسن ، فلما توفى عام ٥٠ هـ دعوا للحسين ، فلما قتل بكربلاء عام ٦٣ هـ دعوا لأخيهما الأصغر : «محمد بن الحنفية» ، فلما مات محمد ذهب جمهورهم إلى إمامة ابنه أبى هاشم بن محمد .

وكان أبو هاشم العلوى مقيما فى « الحميمة [1] » بالقرب من بادية الشام ، حيث أقام على بن عبد الله بن العباس (٤١ - ١١٨ هـ) هو وأولاده ، منفيا فيها ، بأمر الوليد بن عبد الملك خليفة « بنى أمية » .. ولما حانت منية أبى هاشم فى « الحميمة » ، ولم يكن له أبناء يرثونه ، رشح لإمامة الشيعة بعده ابن عمه « على [2] ابن عبد الله بن العباس » ، وأدلى بنصيبه من الخلافة إليه وإلى أولاده ، وأوصى أولياءه باتباعه ، فصارت الشيعة مع بنى العباس .

وورث محمد بن على (٦٢ - ١٢٥ هـ) بعد أبيه هذا الشرف ، فأصبح الإمام المختار ، وقام أتباعه بالدعوة لولاية أهل البيت ، وألفوا الجماعات السرية فى الكوفة وخراسان ، لنشر مذهبهم السياسى ، والدعوة إلى عودة الخلافة لآل محمد ، وإلى أحقية ساداتهم بها ، وإلى القضاء على دولة بنى أمية ، لأنها اغتصبت خلافة المسلمين من بيت الرسول ، واضطهدت آله وعترته ، وقتلت الحسين فى كربلاء ، وارتكبت من الآثام والمنكرات ما لا يعيه العد .. وكان محمد بن على يبصر دعاته بأساليب الدعوة ، والبلاد التى يبثون فيها مذهبهم ، وكان يوصيهم بالتوجه إلى خراسان ، حيث « المشرق ومطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق» ، وحيث ضعف سلطان بنى أمية ، وسلامة القلوب والصدور ، والبعد عن العصبيات والأحزاب السياسية ، والحب لآل النبى وسلالته .

ومات محمد بن على بعد أن أوصى إلى ابنه ابراهيم ، فقام بأمر الدعوة بعده [3] ؛ ولكن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حبس ابراهيم حتى مات فى الحبس ، وكان قد أوصى بالأمر بعده إلى أخيه أبى العباس .

---

(١) هى قرية بالشراة من أرض الشام على طريق المدينة من دمشق .

(٢) ويرى بعض المؤرخين أن أبا هاشم تنازل لمحمد بن على بن عبد الله بن العباس ، لا لوالده على

(٣) ١١٦ / ٣ العقد الفريد .

ونجح الدعاة فى جمع الأنصار ، وتكوين الكتائب ، وغزو البلاد . . وأنزلوا بجيش الأمويين أفدح الخسائر ، وطردوا ولاتهم فى خراسان وفارس ، وكان والى خراسان من قبل بنى أمية نصر بن سيار يستغيث بهم فلا يغيثونه ، كتب مرة إلى مروان بن محمد يقول له :

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيـــام ؟
فإن يك قومنا أضحوا نياما فقل : قوموا فقد حان القيام
فقرى عن رحالك ثم قولى على الإسلام والعرب السلام

فرد عليه مروان - وكان مشغولا بحرب الخوارج فى الجزيرة - يقول : « إن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب ، فاحسم أنت هذا الداء الذى قد ظهر عندك » . . وكان قائد جيش الشيعة هو أبو مسلم الخراسانى الذى هزم عمال بنى أمية ، وفتح خراسان كلها ، ثم انطلق يغزو العراق ، فدخلت جيوشه مدينة «واسط» ، ثم دخل أبو سلمة الخلال أحد قواده « الكوفة » فى صفر عام ١٣٢ هـ ، فأنزل أهل البيت فى إحدى دور الكوفة ، وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة ، وكان «أبو سلمة» يلقب بوزير أهل البيت ؛ وفوجىء الناس - بعد أن استتب الأمر للعباسيين فى خراسان والعراق - بصعود أبى العباس منبر الكوفة فى ١٣ ربيع الأول عام ١٣٢ هـ ، معلنا بدء الخلافة العباسية الجديدة .

وكان لابد لجيوش بنى العباس المتدفقة كالسيل أن تصطدم بجيش بنى أمية ؛ وحدث ذلك ، فلاقوا مروان وجنده على نهر الزاب [1] الأعلى ، وانتصروا عليهم انتصاراً ساحقا ، وقضوا على ١٢٠ ألفاً من نخبة أهل الشام وجنود بنى أمية ، فى ١١ جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ ؛ وفر مروان إلى حران ثم قنسرين فحمص فدمشق ، والعباسيون فى طلبه ، ثم خرج إلى الأردن وفلسطين ، حتى أتى الفسطاط ،

---

(١) أحد روافد دجلة .

ونزل بقرية « بوصير » النائية من قرى الواسطى ببنى سويف ، فتبعه العباسيون حتى قبضوا عليه فيها ، وقتلوه فى ٢٧ ذى الحجة عام ١٣٢ هـ .

وأخذ العباسيون يقتلون آل أمية ، ويتبعونهم فى كل مكان ، ويقبضون على رجال دولتهم ، ويقضون على فلول جيوشهم ؛ دخل سديف الشاعر مولى بنى العباس على السفاح ، فألفى بمجلسه سليمان بن هشام هادئا مطمئنا ، لتأمين أبى العباس إياه ، فأنشد :

لا يغرنك ما ترى من رجال إن بين الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بعهد أمانه .. ودخل شبل ن عبد الله مولى بنى هاشم عليه ، أو على عمه ، وعنده من بنى أمية نحو المائة ، فأنشد :

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وغراس
ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كحز المواسى
ولقد ساءنى وساء قبيلى قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس

فأمر بهم جميعاً فقتلوا ... وكان ممن قبض عليه كاتب بنى أمية البليغ عبد الحميد بن يحيي الكاتب ، الذى أخذ فى البحرين وهو عند صديقه ابن المقفع ، فقتل عام ١٣٢ هـ . ولم يستطع النجاة من بنى أمية إلا عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك الذى فر إلى الأندلس ، وأقام بها دولة أموية عام ١٣٨ هـ ، وكان المسودة قتلوا أهل بيته ، واتبعوه فنجا منهم .. وبهذا انتهت دولة بنى أمية ، وقامت دولة بنى العباس ، وصدق قول محمد بن على : « إن أمرنا هذا شرقى لا غربى ، ومقبل لا مدبر ، يطلع كطلوع الشمس ، ويمتد على الآفاق امتداد النهار » ؟

الخطر اليهودى

لحضرة الأستاذ عز الدين اسماعيل

مدرس اللغة العربية بكلية الآداب

بجامعة إبراهيم باشا

أهدى إلى منذ قليل صديقى الكريم الأستاذ محمد خليفة التونسى نسخة من ترجمته لكتاب يعد أخطر كتاب فى العالم دون منازع هو كتاب « الخطر اليهودى أو بروتوكولات حكماء صهيون » . وخطورة هذا الكتاب لا تأتى من حيث ندرته فى العالم ؛ حيث يعد الأصل الذى نقل عنه المترجم أحد نسخ ثلاث فى العالم ، وإنما تأتى خطورته من حيث المادة التى يعرضها . والحق يقال إن هذه الوثائق التى يعرضها هذا الكتاب لا تكاد تعدلها فى تاريخ البشرية كله أية وثيقة ، لأنها الوثائق التى تكشف للعالم أجمع تفاصيل المؤامرة المدبرة لخرابه وانهياره ، تلك المؤامرة التى حبك خططها حكماء صهيون وكبراؤهم فى فن الخداع والحيلة .

وقارىء هذا الكتاب لا يستطيع أن يمر به مراً عابرا ؛ فإن كل صفحة بل كل سطر منه يستوقفه مليا ليكشف له فى أجلى بيان وأتم وضوح عن خيط من خيوط تلك المؤامرة المدبرة ، والتى بدأ تنفيذها منذ أكثر من نصف قرن دون أن يشعر بها إلا من كان له حظ الاطلاع على تلك البروتوكولات بعد أن سرقت من حرزها الحريز وطبعت طبعات مختلفة ، وقليل من أتيح لهم هذا الحظ ، لأن كل هذه الطبعات كانت تختفى من الأسواق بمجرد ظهورها ، وكلما خطا الإنسان فيه خطوة أحس بما تم من مراحل هذه المؤامرة المدبرة للعالم أجمع ، كما أحس بما هو واقع فى الوقت الحاضر من قلاقل واضطرابات وعدم توازن بين القوى المختلفة ، واتجاه العالم إلى التجمع والتكتل تحت ألوان سياسية مختلفة الاتجاه والمشرب ، كما هو واقع الآن بين الكتلة الديمقراطية والشيوعية ، كما يعرف تماما أن هذا التكتل مدبر وأن ما يتهدد العالم الآن من حروب بين أقوى الكتل فيه إنما هو أمر مدبر وله مكانه من المؤامرة اليهودية المدبرة .

ونحن - مع ما نعرفه من تاريخ اليهود ، ومع الوصمات الشنيعة التى وصمهم بها القرآن الكريم ، وحذر المسلمين منهم أكثر مما حذرهم من الكفار ، ومع ما نعرفه تماما من محاولاتهم لهدم الإسلام ، وما ملأوا به كتب الدين كالتفاسير وكتب الحديث من أخبار وتفاسير هى بمثابة السم فى العسل ، ونجاحهم فى تفتيت الوحدة العقيدية التى جمعت المسلمين إلى فرق ومذاهب ... الخ ما يمكن أن نعرفه - فإننا لن نكون على جلية من الأمر ، وإدراك كامل للسياسة اليهودية ما لم نقرأ ونتدبر تفاصيل هذه المؤامرة التى تفترس العالم عضوا فعضوا .

وسيعرف قارىء هذا الكتاب أن الدولة اليهودية فى غاية أمرها لا تبغى لنفسها رقعة من الأرض تستكن فيها كأى دولة من دول العالم ، لأنها بذلك ستكون ضعيفة الجانب ، تستهدف لكثير من الضربات الخارجية ، وإنما هى فى طريقها إلى حكم العالم أجمع ، والسيطرة على كل موارده ، وعندئذ يعلنون فى كل صراحة احتقارهم وبغضهم الموروث للعالم وشعوب العالم على اختلافهم ، لأنهم هم الجنس المختار المميز عند الله وسائر البشر كالبهائم إن لم يكونوا — فى رأيهم — بهائم بغير تشبيه .

فإذا رأينا اليهود يحاولون أن يقيموا لهم دولة فى فلسطين فليس معنى ذلك أنهم سيجتمعون فيها من أنحاء العالم ، فإن ذلك ما تأباه طبيعتهم (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) كما أن الخطة المدبرة تقضى بهذا التشتت فى أنحاء البلاد ، وليس تمسكهم بهذه الرقعة من أرض فلسطين إلا ليتحكموا فى تجارة العالم بين الشرق والغرب فى تلك البقعة التى تلتقى عندها أوروبا وإفريقيه وآسيا ، وليستغلوا هذه المنطقة الغنية ببترولها وخاماتها . أما نفوذ الدولة فيمتد ليشمل العالم متخذين وسيلة إلى ذلك جمعياتهم الدينية والسياسية السرية منها والعلنية ، المنبثة فى أنحاء العالم ، معتمدين على الصحافة ودور النشر التى يملكون أزمتها ، وغيرها من الوسائل الناجعة . وانتشارهم فى العالم هو الذى يمكنهم من التسلط على اقتصاديات الدول الكبرى كأمريكا وروسيا ، وامتلاكهم لأزمة هذه الاقتصاديات فى الدول الصغرى .

وفيما يختص بريطانيا فإننا نلاحظ أنها تنفذ لليهود كل رغباتهم لأنها لم تعد تستطيع العيش إلا بالمعونة الأمريكية ، وأمريكا فى واقع الأمر أيدى اليهود . ولذا تجدها تعترف بدولتهم فى فلسطين ، وربما كان فى نيتها « أن تمكن لهم من قناة السويس إذا اضطرت إلى الجلاء عنها وهى مصرية ، فتبقى جيوشها فيها على

أن القناة يهودية ، كما يقول المترجم الفاضل فى مقدمته ص ٣٠ .

ويعجب الإنسان كيف يستطيع اليهود — وعددهم فى العالم أجمع فى حدود العشرين مليونا — أن يوجهوا السياسة العالمية الوجهة التى يبغونها ، وأن ينفذوا خططهم بكل إحكام . والواقع أن العدد هنا لا قيمة له إذا عرفنا أن الرءوس والأيادى المحركة فى سائر الدول رءوس وأياد يهودية . ويكفى أن نعرف أن ترومان يهودى ومستشار البيت الأبيض يهودى وكثيراً من الوزراء وأعضاء الكونجرس من اليهود . وإن لم يكن هؤلاء الروس فى بلد آخر يهود الأصل فإنهم يكونون عادة من صنائع اليهود المشترون بالمال والنساء .

وفى انجلترا نجد لويد جورج رئيس الوزارة بعد الحرب الأولى معروفا بعطفه الشديد عليهم . وكان فى وزارته وزيران يهوديان . وكان للملك ستة مستشارين كلهم يهود . والمكتب السوفييتى فى روسيا يتكون الآن من سبعة عشر عضوا منهم أربعة عشر يهود صرحاء والباقون يهود الأصل أو صنائع لليهود ، على أن زوجات الثلاثة يهوديات .

وهكذا تملك هذه القلة المبعثرة فى العالم الأزمة وتوجه الناس فى طريق الخراب والدمار ، تلك الوجهة التى رسمها لهم حكماؤهم ووضحت جلية فى بوتوكولاتهم التى ترجمها الصديق الفاضل الأستاذ التونسى إلى العربية .

وقد كان بودى أن أضع إصبع القارئ الكريم على تفاصيل هذه المؤامرة اليهودية العالمية ، كما هى مصورة فى البروتوكولات . غير أن هذه البروتوكولات من التركيز بحيث لا يمكن استيعابها فى مقال . ولابد من رجوع القارئ إليها والتأمل العميق فيها فإنه واجد فيها ما يجد الواقع على السر الدفين والدسيسة المحبوكة . وحسبى هنا أن أعرض للقارئ الكريم نماذج يدرك منها قيمة هذا الكنز الذى كشف .

فى البروتوكول الأول نقرأ : «إن العنف الحقود وحده هو العامل الرئيسى فى قوة الدولة فيجب أن نتمسك بخطة العنف والخديعة لا من أجل المصلحة فحسب ، بل من أجل الواجب والنصر أيضاً » . وهذا معناه أنهم لا يجدون أى مانع فى اتخاذ كل وسيلة لتنفيذ خططهم مهما كانت هذه الخطة منافية للأخلاق هادرة للكرامة الإنسانية .

ومن أعجب العجب أن يهدف اليهود إلى الاعتماد على الطبقة المتعلمة فى نشر وسائلها الفعالة . يقول البروتوكول الثانى : « إن الطبقات المتعلمة ستختال زهوا

أما أنفسها بعلمها ، وستأخذ جزافا فى مزاولة المعرفة التى حصلتها من العلم الذى قدمه إليها وكلاؤنا رغبة فى تربية عقولها حسب الاتجاه الذى توخيناه » . ونجد تكملة هذه الخطة فى البروتوكول السادس عشر حيث يقول : « رغبة فى تدمير أى نوع من المشروعات الجمعية غير مشروعنا — سنبيد العمل الجمعى فى مرحلته التمهيدية ، أى أننا سنغير الجامعات ، ونعيد إنشاءها حسب خططنا الخاصة . وسيكون رؤساء الجامعات وأساتذتها معدين إعداداً خاصاً وسيلته برنامج عملى سرى متقن سيهذبون ويشكلون بحسبه ... الخ » .

ثم لننظر كيف هم يدبرون الثورات حيث يقول البروتوكول الرابع : « يؤمن الجمهور فى جهله إيمانا أعمى بالكلمات المطبوعة وبالأوهام الخاطئة التى أوحينا بها إليه كما يجب ، وهو يحمل البغضاء لكل الطبقات التى يظن أنها أعلى منه لأنه لايفهم أهمية كل فئة . وإن هذه البغضاء ستصير أشد مضاء حيث تكون الأزمات الاقتصادية مستحكمة ، لأنها ستوقف الأسواق والإنتاج وستخلق أزمة اقتصادية عالمية بكل الوسائل الممكنة التى فى قبضتنا ، وبمساعدة الذهب الذى هو كله فى أيدينا . ولسوف نقذف دفعة واحدة إلى الشوارع بجموع جرارة من العمال فى أوربا . ولسوف تقذف هذه الكتل عندئذ بأنفسها إلينا فى ابتهاج ، وتسفك دماء أولئك الذين تحسدهم — لغفلتها — منذ الطفولة ، وستكون قادرة يومئذ على انتهاب مالهم من أملاك ... الخ » .

ونقرأ فى البروتوكول العاشر : « من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت . وهذا التشتت الذى يبدو ضعفا فينا أمام العالم قد ثبت أنه كل قوتنا التى وصلت بنا إلى عتبة السلطة العالمية » .

وفى البروتوكول العشرين : « إن الضرائب التصاعدية المفروضة على نصيب الفرد ستجبى دخلا أكبر من نظام الضرائب الحاضر (١٩٠١) الذى يستوى فيه كل الناس . وهذا النظام فى الوقت الحاضر ضرورى لنا لأنه يخلق النقمة والسخط بين الأمميين [غير اليهود] » . وهذا ما صار إليه الآن نظام الضرائب .

وهكذا نرى من خلال هذه الاقتباسات أن المؤامرة تقتضى سيطرة اليهود على النواحى السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية فى العالم أجمع للصيرورة به إلى الحكم اليهودى العالمى المطلق .

نقـــد أدبى

السرقات الشعرية ، أدبيات أو (ديبيات) !!

ذكريات عن الشاعر الديب

كتبت فى حياته جدلا وملحمة ، وهى بعده صلاةٌ ومرحمة

بقلم سماحة الأديب الكبير الأستاذ (السيد)

لا تكاد تعجبنى تهمة الأقلام للشعراء بالسرقات الشعرية ، ، ذلك أنها حكايةٌ مَكرُورَةٌ ، بل ممضوغة متبذِّلة ، على أن السرقات لهذا العهد ، أيسر مافى الشعر من هجنة ومعابة .

إن جمهرة ضخمة من الأدباء الناقدين ، لا يحسنون أن يتعرفوا كيف تكون السرقات ، ويحسبونها تكون فى هذه الغاديات الرائحات من القول ، وفى كل مسحة من اللفظ تشبهُ مسحةً ، حتى لو أن جليساً ، قال لجليسه : أسعد الله صباحك ، فرَدَّدَها أو حكاها جليس آخر ، صاحُوا بشرطة الأدب والبيان : تعالى ، نخذى اللص ، ومن يقتص ؟؟

كلاً ، ليست سرقة هذه السوقيات من المعانى الممتضغة ، فى شىء من السرقة الأدبية ، وإنما السرقة ، هى سرقة المعانى الخاِّميَّة ، كالجواهر الكريمة ، والأغراض المتفردة ، أما السوقيات فهى طوع كل خاطرة ، ملك لكل قائل ، ليس لشاعر فيها مزية على شاعر ، بل تمرُّ على أسنة الأقلام والأثلات ، مرَّ الهواء على الرئات .

بيد أنه لا يكاد يعجبنى على ذلك تنزُّلُ بعض شعرائنا ، ولا سيما الكبار منهم ـ وفيهم بعض من لا أسميه ـ إلى الأغارة على عيون الشعر ، وعلى الأبكار من معانى الشاعرية خصيصاً ، فقد لهج بعضهم بهذا حتى عرف ، ولم يعترف !! .

لقد كنت أحسب أن أديباً كالأستاذ « عبد الحميد الديب » الشاعر الفاجع ، شاعر البائسين ، وأديب المتفكهين ، من أعف شعرائنا عن السرقات الأدبية ، لمكان الاسترسال واطراح الكلفة فى سجيته النفسية ، لولا أن لجأتنى فى شعره أشياء

من السرقات أصبتها عفواً - على غير تطلب ولا اعتماد - سأجلوا أثارة منها على القراء ، مذاكرة للأدب ، لا للصخب والمحاضرة ، لا المهاترة .

إنه لا موجدة بين الموتى وبين الأحياء ، وقد استوفى الشاعر الديب أنفاسه ، وقضى نحبه ، ومضى بشعره الباكى ، وثغره الباسم ، فذهبا معاً ، فقداً على فقد ! ! ! .

لقد كنت فى طليعة النشأة الأدبية للأستاذ الديب ، أغمس قلمى فى شعره بالإصلاح ، والنقد ، فلا يتعاصى على ، ولا يأنف ، لأنه لم يكن يومئذ فى النظراء ، ولا من الأكفاء ، فلست أعتذر اليوم من غمس قلمى فى شعره ، إذ هو فى قبره ! ! ! .

أنشد صاحب « كتاب الكشكول » هذه الأبيات للقاضى عبد الوهاب ، قال :

أطال بين الديار ترحالى قصور مالى وطول آمالى ! ! !
إن بت فى بلدة مشيت إلى أخرى فما تستقر أحوالى
كأننى « فكرة الموسوس » لا تبقى له على حال ! ! !

استمع الشاعر الديب إلى هذه الأبيات لا محالة ، ولمح بخاطره المتجسس ، « فكرة الموسوس » فاستهوته ، فقال :

كأننى « فكرة المجنون » يرسلها فى غير قصد فلا تصغى لها أذن

أليست « فكرة الموسوس » المفتون ، هى (فكرة المجنون ؟؟؟) أجل .

وقال شاعر قديم : - لا أذكره - من كلمة فى صفة شعر عليها مسحة من المجانة ، لا أذكر منها إلا هذا البيت وحده ، على اضطراب تأليفه .

« وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق »

معنى يكاد اللفظ يعشقه ويكاد يؤكل بالضمير ويشرب

فقال الأستاذ الديب من التغزل المذكر بجميل من الأحباء ، لا الخريدة الحسناء

به شحوب يكاد الصب يأكله أكلا ويشربه دون الطلا كاسا

أما أن المعنى الجميل يكاد يؤكل بالضمير ، لا بالفم ويشرب ، فذلك طيب عذب ، يرضى الخيال ، ولا يشبه المحال ، وأما أن المحب يأكل الشحوب أكلا وكيف ؟؟؟ ، ويشربه كأساً ومتى ؟؟؟ ، فذلك من مشابه المحال ، لا الخيال ، نضر الله قبر الصديق المحسن الأستاذ الديب ، ولقاه بديلا من شدته فى حياته ، نعيم جناته ، فقد استمع إلى الشاعر الماجن الخليع « أبى الشمقمق » حيث يقول :

أترانى أرى من الدهر يوماً   لى فيه مطية غير رجلى !!!
كلما كنت فى جميع فقالوا   قربوا للرحيل قربت نعلى !!!
حيثما كنت لا أخلّف رجلا   من رآنى فقد رآنى ورجلى !!!

وسمعه ينشد قوله :

الحمـــد لله ليس لى نشب   خف ظهرى وقل أوزارى
من نظرت عينه إلى فقد   أحاط علماً بما حوت دارى
خبرى فى البيت كامن وعلى   مدرجة الرائحين أسرارى !!!

فقال وهو يصف حجرة الشاعر ، وهى حجرته :

أرانى بها كل الأثاث فمعطفى   غطائى ملتى أو وقائى من البرد

وهذا البيت فى البؤس هو وشعر « أبى الشمقمق » سواء ، على حكم النقل ، حذوك النعل بالنعل ، أما وقد جرى حديث صفينا القديم ، الأستاذ « عبد الحميد الديب » ، وهو ناهيك فى طيبة النفس ، وطلاوة السيرة ، فإن بنا أن نسوق عنه هذه الطرفة الساحرة .

شكا الأستاذ الديب إلى أديب كبير ، كان الديب يجلس إليه ، أن حسناء فاتنة تتعرض له بدلها وكيف ؟ ، وتحنو عليه بحسنها ! ، ومتى ؟ ، ولكنه ـ زعم ـ يتعفف ، فلا يتعطف ! ؛ بل يتصلف ، وأقبل يسائل جليسه : ماذا يصنع بفاتنته هذه ؟ أيعف ؟ ، أم يسعف فيخف ؟ ، وهل يحتشم ؟ ، أم يغتنم ؟ ، فقال له الأديب الكبير هذين البيتين ، كالراضى عن إقدامه ، يأساً من صلاح المجان ، من شبيبة البيان ، وبعض الرضى إباء ! ، واللوم إغراء ، قال :

بكرت تصوغ لك الشكاة فأسعف ودنت إليك بوردتيها فأقطف
يا ديب غادة يوسف فى خلوة فاغسل عن لفتاك عفة يوسف !!!

لست أدرى بعد هذا ماذا كان جواب الديب ؟ ، أما أكبر اليقين لا الظن ، فذاك أن الأديب الديب قد تعفف أجل ، ولكن عن العفاف !!! ، وكان ـ لا كيوسف ـ قدوة للفُتاك ! ، لا النساك ، تحنن وزير أديب ، على الديب ، فأجازه بعمل فى وزارة كما يحب المحسنون ، فلما استقر فى ديوانه زاره صديقه الأديب الكبير ، فحياه تحية الزميل المتلطف ، للزميل المتخلف ، ثم هنأه بمنصبه الطريف ، بل محله المنيف ! .

ثم قال الأديب الكبير للديب يمازحه : يا سيد عبد الحميد ، هنيئاً لك ، ها أنت ذا قد استويت على كرسيك موظفا فخما ، وسيداً ضخما ! ، أفلا تذكر تلك الورقات النقدية ، والورقات المالية التى كنت أحشدها ولا من عليك ، فى راحتيك ، ساعة العسرة ، خمساً ، أو عشراً ؟ ، وأنت العليم الحر أية وصية كان أوصى بها فى إخوان الصفاء ، وعشيرة الوفاء ، سلفك الحكيم ، أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، حيث يقول حبيب :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى الموطن الخشن

فصاح بغلام الديوان : ياغلام ، القهوة ، للسيد الصفوة ، قال الأديب الكبير : هاتها على العلات ، إنه لخير من تلك القهوة النشوى التى يتجرعها الشارب حتى يجن ، قهوة البن ! ، فقد رضينا منك بهذه الجائزة ! ، إذ كانت جائزة ! ، ثم افترقا فلم يلتقيا !!! .

قد سألنا متى اللقاء فقيل الحشـ ـر قلنا صبراً إليه وحزنا

برد الله فى الأديب الديب لجيعة الأدب والبيان ، ولقاه النضرة والرضوان .

المرأة المسلمة

لفضيلة الأستاذ الشيخ سيد شريف
المدرس بمعهد القاهرة

اعترف الإسلام بوجود المرأة بعد أن مرت بها حقب طويلة ، لا تعرف لها حقوق ولا تحفظ لها أقدار ، وقد نحيت عن المجتمع ، وأبعدت عن معترك الحياة ، وعوملت معاملة فيها مهانة واستخفاف ، وزراية واحتقار ينظرون إليها كما ينظرون إلى المتاع ، حرية مسلوبة ، وكرامة مهدرة ، تؤمر فتطيع ، لا تملك لنفسها نفعاً ولا تدفع عنها ضراً ، ولا تعرف لما ينزل بها من سبب .

وكان أول اعتراف رسمى بها فى بيعة العقبة الثانية ، إذ شارك الرجال فى البيعة امرأتان تكفلتا بما تكفل به الرجال أمام رسول الله . ثم قفلوا جميعاً عائدين إلى يثرب ، كل ينشر دعوته بين أبناء جنسه ، وأخذت المرأة بعد ذلك تساهم فى ميادين العمل المتنوعة التى بدت إذ ذاك حرة فسيحة ، تدعو إلى تضافر القوى ، واستغلال الأفهام ، والانتفاع بنتاج العقول ، وبرزت نتيجة لهذه السياسة إلى مجالس العلم ، وترشف من مناهله ، وتنهل من سلسله ، ثم تعمل جاهدة على نشر ما تعلمت بين النساء تبصرهن بشئون الدين ، وتقرئهن كتاب الله وسنة رسوله ، وتغرس فيهن حميد الخلال ، ورفيع الصفات . وتحبب إليهن البحث والتأمل فيما يحيط بهن من أمور حتى نبغ منهن عدد يشار إليه بالبنان ، تعمق فى المعرفة ، وعنى بالتفكير ، واتسع أفقه فى القياس والاستنباط مع ذاكرة واعية وقريحة ناقدة ، تنقل ما سمعت عن رسول الله ، أمينة فى النقل ، حريصة على الوفاء بما حفظت .

وها هى ذى السيدة عائشة تعتبر مصدراً من مصادر السنة ، ومرجعاً من مراجع الفتيا فيما يعرض للأمة من شئون ، تعقد فهمها ، وخفى حلها ، وبادلت ذوى الرأى فيها حتى قال الرسول اعترافاً بأثرها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . وقال عطاء بن رباح بعد أن تبين فضلها فى خدمة الدين ، ونشر تعاليمه :

كانت عائشة أفقه الناس ، وأعلم الناس وأحسنهم رأياً فى العامة . ويقول عروة : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ، ولا بشعر من عائشة .

واشترك بنات السابقين الأولين بقيادة السيدة عائشة فى تلك النهضة المباركة التى أخذت تنمو شيئا فشيئا حتى سايرت الدعوة الإسلامية فى الذيوع والانتشار . يعضدها الرسول ويتعهدها بعده الخلفاء والولاة . وبعد فترة وجيزة انتظمت كثرة من النساء ، فكان منهن الفقيهة الشاعرة ، والخطيبة البارعة ، ومن خاضت الميادين لحفز الهمم ، وشحذ العزائم ، وتمريض الجرحى ونقل القتلى ، ومن اشتركت اشتراكا فعليا فى المعارك ، فضربت بالسيف ، ورمت بالسهم ، تبارز الأبطال . وتقاوم الأجناد غير وجلة ولا هيابة ، تحمل قلبا كبيرا ، ونفسا مؤمنة بأن الحياة جهاد فى سبيل العقيدة ، وجلاد عن الحق ، وذود عن الرأى ، وبعد عن مفاتن الحياة .

وقد ضربت السيدة أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه ، أحسن المثل للأم الصالحة التى تنشىء للأمة جيلا قويا ، يأبى الضيم . ويلبى نداء الوطن ، ويسترخص البذل ، ويستهين بالتضحية دفاعا عن رأيه وبلده إذ تقول لابنها عبد الله بن الزبير فى لهجة حازمة حينما قال لها يا أماه خذلنى الناس حتى أهلى وولدى ، ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا قالت : أنت أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعوا فامض له . فقد قتل عليه أصحابك . ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية تلعب بها ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن معك ، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت . فهذا ليس فعل الأحرار من أهل الدين ، فقال : يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى . قالت : يا بنى إن الشاة لا تتألم بالسلخ . فامض على بصيرتك واستعن بالله ، فقبل رأسها وانصرف .

وتلك سيدة أخرى تقول ماتعتقد . غير عابئة بما يثيره قولها من آثار . ما دامت قد أرضت ربها وبرأت ذمتها ، وأذاعت رأيها ، تتناقله الألسن ، وتتفتح له الأسماع ، وتتحدث به الركبان وهى أم الخير بنت الحريش بن سراقة ، قالت من خطبة طويلة لها : فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأبى سبطية صلى والناس مشركون . وأطاع والناس كارهون ،

قتل الله به أهل خيبر وفرق به جمع أهوائهم ، فقال معاوية : يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك ، قالت والله ما يسوؤنى أن يجرى قتلى على يد من يسعدنى الله بشقائه ، وقد أعجب معاوية بصراحتها وجرأتها وأمر لها بجائزة وقد حمد عمر رضى الله عنه لإمرأة من قريش صراحتها ونزل عند رأيها حينما وقف ينهى عن المغالاة فى المهور على أربعمائة درهم فاعترضته بقولها أما سمعت ما أنزل الله « وآتيتم إحداهن قنطارا » فقال : اللهم غفرا كل الناس أفقه منك يا عمر ورجع عن نهيه .

وأن هـذا النهج الواضح فى التربية الإسلامية للمرأة لخليق بأن يخرج رجالا يدينون بالشجاعة والإقدام ولا يعرفون الحياة الهازلة ولا العيش الناعم ولا النظر الساخر ولا الترف الآثم ، وإنما تراهم إذا الشر أبدى ناجزيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا .

وفى ميادين الغزو وساحات الوغى سجل التاريخ عددا منهن حضر المعامع وقام بنصيب موفور فى الأعمال الإنسانية التى تتفق وطبيعة المرأة . وتلائم ما فطرها الله عليه من عطف ورحمة وبر وشفقة وعناية ورعاية تأسو الجراح وتخفف الآلام وتيسر الصعاب ، وحسبي أن أذكر على سبيل المثال أميمة بنت قيس والغفارية فقد اشتهرت برواية الحديث وكانت مع ذلك تحضر الوقائع وتداوى الجرحى وتدور بين القتلى وتحث الناس على ذلك فقالت يوما لرسول الله وقد جاءت فى نسوة من غفار إنا نريد أن نخرج معك فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال الرسول : على بركة الله وكان ذاهبا إلى خيبر ، ومنهن خزانة ابنة خالد بن جعفر كانت على جانب عظيم من الفروسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبى وقاص وخاضت المعارك والمعامع وحضرت فتوح الحره حينما استشهد خمسمائة وثلاثون فارسا وحمل بعضهن السيف والتحم بالفرسان وأظهر من البراعة والمهارة ما كان موضع الإعجاب والتقدير أمثال خوله بنت الأزور خرجت مع أخيها إلى الشام فى خلافة أبى بكر الصديق وكانت تفوق الرجال بالفروسية والبسالة ولها وقائع مشهورة وقد عملت فى جيش خالد بن الوليد وكانت ملثمة الوجه لا يظهر منه

خير مولود؟

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدني

المدرس بالأزهر

في مهامه شتيتة من الجهل والضلال ، وأردية ملتوية من العقائد والآراء . وأنماط متباينة من الطبائع والعادات ، وحال من العصبية والصلف ، وأشتات من الفجور والشرك والإنحلال .

منه إلا الحدق وكأنها شعلة نار تجول يمينا وشمالا تعمل فى جيش الروم قتلا وأسرا حتى تخضبت ثيابها بالدماء وقد أعجب بها خالد أيما إعجاب .

واستمرت المرأة بفضل تشجيع الإسلام تتدرج نحو الكمال فى رزانة وحذر وعفة وتصون تحمل العبء المنوط بها فى أمانة وإخلاص بعيدة عن ضجيج الأندية العابثة والمجتمعات اللاهية مستمسكة بحياة الجد والعمل تقطع جل وقتها فى تلقين النشىء تعاليم الحرية والكرامة . ومبادئ الوفاء والقناعة . وبذلك توفر للأمة الإسلامية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . بروا بدينهم ووطنهم . فكانوا قادة الأمم . وسادة الشعوب . ساسوهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

ولما غفت المرأة عن الأسوة بسلفها ، واندفعت فى تيار التقليد ، وعنيت بالمظاهر الزائفة ، وغدت تقطع جل وقتها فى أعمال لا تمت لاستعدادها بصلة ، وهن بناء الأسرة ، وأصيب المجتمع بالتفكك والانحلال ، فلعبت به الأعاصير ، وتجاذبته التيارات وسار على غير هدى .

وأغلب الظن أن ما نشهده من ضعف وهوان تغلغل بين شعوب الإسلام ، فأضاع هيبتها ، وعصف بكيانها ، ليس له من سبب قوى يبوء بإثمه ، كانصراف المرأة المسلمة فى حاضرها عن واجبها المقدس نحو بنيها ، واهتمامها بولوج ميادين لا تتفق وطبيعتها .

والأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

كانت قريش وغير قريش من أبناء الصحراء، يعيشون قبل مولد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

البنات يوءدون فى مهودهن ، والضعاف تؤكل حقوقها . والنعرة الجاهلية تقضى على الود وأسباب الحياة ، وكلمة الحق تنحبس عنها الشفاه ، والحجارة الصماء آلهة تعبد من دون الله ، والدنيا تضيق بأسباب الرزق ، والشمس محرقة تقذف الآهلين لهبا يستعر ، والأرض مجدبة فلا زهر ولا ثمر ، والأخلاق متداعية بالفقراء حقد وبالأغنياء بطر ، فشاء الله أن تنقذهم يد القدر ، فكان منهم محمد سيد البشر .

كان العالم يقاسى قبل مولده صلى الله عليه وسلم تفكك الخلق وتحلل الرجولة . فكان من أظهر صفاته خلق كريم سما على الترهات ، وارتفع عن الدنايا والصغائر والمنكرات ، ورجولة عالية دانت لها الدنيا ، وأكبرها العالم ، وخلدت على الأيام وكلما مر بها الزمن تفتحت عن معنى من الرجولة جديد ، ذلك محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم نشأ يتيما يتما يتمناه ذووا الآباء ، فقيرا فقرا يرجوه السراة والأغنياء وحيدا وحدة يبتغيها من يعيشون فى صحبة من الأصفياء والأصدقاء ، أفرغ الله فى وجوده الوجود الإنسانى كله ، كأن الله قد بعثه آدم جديداً ، تبدأ به الحياة طورا جديدا ، فإن كان آدم سر وجود البشرية فإن فى محمد سر كمالها .

نزهه الله وليدا ففطيما فطفلا يتيما فشابا فرجلا كريما فنبيا ورسولا فكان سيد الخلق جميعا .

أدبه ربه بأدب سماوى روحى عال فأحسن تأديبه . جرد نفسه من صغائر الحياة لتظل على الزمن كبيرة ، وسما بروحه عن إغراء المادة ليظل على الدنيا نبيلا ، وارتفع بإنسانيته عن الدنايا لتكون الإنسانية العليا ، وأفرغ فيه الفضائل كلها ليكون الرجل ـ الكامل ذلك محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . كان فقيراً وهكذا أراده الله ليعمل ويجتهد ويكدح ليعيش ، ويجوع يوماً ويشبع يوماً . لم يقلب يديه فى تليد من المال يرثه . ولم يجمع طارفاً من المال يورثه ، ليسمو بالإنسانية فلا يتخذ الغنى من الفقير عبداً ذليلا . ولم يكن فى الواقع ـ صلى الله عليه وسلم فقيراً بالمعنى الذى نفهمه وبالمعنى الذى يلجئه إلى رهن درعه عند اليهودى . كلا فقد خير أن يكون له جبل من الذهب كجبل أحد فقال « لا يا رب أجوع يوماً فأدعوك وأشبع يوماً فأحمدك » .

إذاً فلقد كان فقره درساً يتعلمه العالم وتتناقله الأجيال ليقدم دليلا ثابتاً ملموساً على أن الحياة ليست بالمال والثراء ، بل بالصبر والكفاح والمعاناة . ولم يكن صلى الله عليه وسلم يريد بذلك أن يضن الواحد منا على نفسه وعياله ، أو أن ينقطع لله والدين . وينسى أهله ونفسه ودنياه . كلا فلقد رأى صلى الله عليه وسلم عابداً انقطع للعبادة ، ونسى الدنيا وما فيها ، وامتدحه الناس واثنى عليه الجميع . فقال صلى الله عليه وسلم من يعوله ؟ فقال القوم : كلنا يعوله يا رسول الله . فقال كلكم خير منه . ذلك محمد وتلك نظرته فى الحياة . فأى غنى لا يرجو أن يكون فقيراً .

إنه درس فليحفظه الناس وليفهمه الأغنياء فيحمدون الله وينفقون فى سبيل الله ما يزيد عن الحاجة فيقرضون بذلك الله قرضاً حسناً ، يرد لهم يوم القيامة مضاعفاً وليفهمه الفقراء فيدعون الله ويذكرونه ويتأسون برسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لهم فيه أسوة حسنة .

وكان سيدنا محمد صلوات الله عليه رجلا كامل الرجولة ، تحمل الأذى فلم تفتر له عزيمة ، وأصابه الضيم فلم يضعف له إيمان ، وعذب فى نفسه ، وكذب وأهين ، ورجف به الناس ، ونابذه أهله وانفض من حوله الناس جميعاً إلا من آمن . فكان يتيما فى كبره من أهله ، كما كان يتيما فى صغره من أبويه ، فما زاده ذلك إلا إيماناً برسالته ، فسار بها إلى الغاية قدماً لا ينحرف ولا يتعثر .

ولقد كان أميناً فلم يخن ، صادقاً فلم يكذب ، أبياً فلم يهن ، عادلا فلم يظلم . استطاع بفضل الله عليه أن يوطد دعائم الرسالة التى بعثه الله بها ، فدان له أشتات الملوك وانتظم تحت لوائه مختلف القياصرة ، ونظم للعالم على شتى دوله ، واستطاع فى أقل من ربع قرن أن يغير العقيدة البشرية ، ويسمو بالنواحى الإنسانية ، ويترك للعالم من بعده تراثاً خالداً يجدون فيه الرشاد إن ضلوا السبيل ، والهادى إن أعوزه الدليل .

سما صلى الله عليه وسلم بالعقل إلى أسمى درجاته ، وانتشل العالم من جاهلية حمقاء ، تعبد الحجارة والأجرام والحيوان إلى إنسانية عالية بالغة المدى فى الرقى والتمدن تعبد الله ولا تشرك بربها أحداً .

هذا أيها القراء شيء عن سيد الكونين صلوات الله عليه وسلامه .

فأما أصحاب محمد فكانوا فى الذروة من الإيثار والتضحية والوفاء والعزة والحمية كان الواحد منهم يضرب فى سبيل الله ، وتقرع جسمه الضربات فتمزقه فما يحسها إلا فى المعنى الخالد ، وإلا أنها تحيات الملائكة له يوم القيامة ، حتى كتب لهم النصر وخفقت راية الإسلام فى الخافقين ، وجلجلت كلمة الدين مدوية فى العالم مؤذنة بانتشار تعاليم السماء بين البشرية كلها واستساغتها النفوس الطيبة ، وحقت كلمة الله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

إلا أنه قد ران على قلوب المسلمين ما جعلهم ينسون الله فنسيهم حتى حل بالمسلمين ما غير من سطوتهم وبدل من مكانتهم ، فأغار الغرب على تراث المسلمين وكانت حقبة كلها آلام وآمال .

والآن وقد صحت الأمة من نومتها ، وفكر الشرق فى ماضيه السعيد وحاضره المؤلم ، وهب يدافع عن كرامته ، وينافح عن عزته ودينه حتى أدرك الغرب أن تلك القومة لن تهدأ حتى تقر الأوضاع السليمة ويرجع للإسلام عزه ومجده وسؤدده ، ونعتبر بما مضى وبما حوى التاريخ من عبر وعظات ، وعندئذ نقول للمسلمين ابشروا بالحاضر السعيد والغد الباسم . أبشروا بالجنة التى كنتم توعدون وإنى أثق خيراً فى أمة محمد ، لأن العقيدة الصحيحة تملأ القلوب ، والإيمان الحق يغمر النفوس ، وما حالتنا الراهنة إلا غفوة ستعقبها الصيحة ، وهدأة تحتقب الدوى الذى يمسح عن النفوس الغشاء الأسود الرقيق الذى نشره عليها أدب الغرب ، وسياسة الغرب .

ستعلن العقيدة عن نفسها ، ويثبت الإسلام مكانه ، ويغير أهله ما بأنفسهم ، ويعودون إلى القرآن الدستور الصحيح فيه لكل نقص إتمامه ولكل عجز كماله .

وأنت يا رسول أنها نجواى يهتف بها قلبي صاحيا وغافيا فى السر والعلانية وهادئا وصاخبا ، أناجيك بها فى سماء عليائك ، وأتوسل إليك أن تشفع لنا يوم القيامة ، فإن أمتك وإن تخلفت فى الطريق وتعثرت فى الميدان ، فإن نظرة رحيمة منك وإلهاما مسددا من روحك وتوفيقا من ربك ينقذها من ضلالها ويفتح لها أبواب المجد ، يا رسول الله اشفع لنا يوم القيامة فإنك أنت رحمة مهداة .

مجالات فى الأدب :

الزاد الادبى

لحضرة الأستاذ كامل محمد عجلان

من يهم بالرحلة يعد ما يعينه على وعثاء السفر ومشقات المخاوف حتى لا يعيا .

ومن يقرع باب الكفاح يسعى الى جمع السلاح وإلا راح إلى الهيجاء كأنه فاقد الساعدين يلاقى الهيعة بالبصر الزائغ والحسرة المرتعشة والزفرة الناكصة .

وحياة الأديب مشحونة بالمآزم التى لا تنفرج بيسر ولا تتقشع غياهبها فى سهولة لكنها دنيا من الآمال والآلام .

والناشئة تقلد وتستعجل الشهرة فى عصر خضعت فيه الناشئه لفن (الإعلان) التجارى حتى إذا فتشت وراء الجعجعة قلبت كفك ندماً على العودة بغير طحن .

وكثير من الذين يعيبون أدبنا العربى ، وزادنا الموروث يصدرون فى رأيهم عن آفة الجهل أو الخدع الجليبة من الطلاء الغربى .

وأنهم ليعيبون أدبنا والعيب فيهم وليس علينا إلا أن نكشف للناشئة المتأدبة المتشوفة عن الزاد المعتق والفن البديع الخالد ، والنتاج المشرق فى ماضى العرب العميق وحياتهم التى امتزجت بالأحداث ، فكانت نواطق بالتعبير الصادق ، والتصوير الساحر مما يشده الذواق ويخلب الحساس ، ويروى غلة الوارد الظمآن .

والتراث الذى تخلف على مائدة الأسلاف فيه غذاء وتقوى ، وفيه ما يسعد الواغل فى الخير والشره المتكالب على احتقاب النافع المثمر والصالح المشرف .

ولست برائح الى بعد ، ولا مغرب على القارئ وإنما أوجه الى سجل الحروب وقصيد الكفاح وما تخلف عن وقائع البسوس بين بكر وتغلب أو بين قبيل وقبيل لحروب اليمن وعدنان .

ولدينا منشور المعلقات مما دبج عنترة الفوارس ، وما صور ابن ظالم المرى ، والحصين بن الحمام وابن الطفيل العامرى وابن الأسلت والأنصارى وغيرهم من القدامى والمحدثين . مهذبا ميسرا بالحماس المنثور ولو كان لى فى أسر لأدب شيء لأطلت الوقوف بأبنائنا عند مقامات البطولة من كل سباق إلى النجدة وهمام إلى الجلاد والكفاح .

حتى إذا أوفيت على بعض الغايات زحفت إلى الشعر الإسلامى الذى صور ميادين الحرب من الصين إلى بحر الظلمات ، ثم صاحبت القادة والملوك الطامحين الظافرين من كل عباسى أو أموى أو مسلم أندلسى أو فاطمى ، شامى أو عراقى أو مصرى .

وما أظن إنسانا يخالفنى فى حاجتنا اليوم إلى التزود من شعر صاحب الليل والخيل والبيداء (أبى الطيب) الذى خلد مآثر (سيف الدولة) فى كفاح الروم .

إنك إن صاحبت شعره لمست النقع المثار ، وطربت لسليل السيوف ، وأخذت بنشوة الصراع والضراب ، وامتلأت نفسك بعزة العربى المسلم فى نضاله المصمم وعزمه الذى يفل الحديد .

ومنتهى ما يتمنى محب العروبة والإسلام أن نقبل على الزاد القوى الذى يكافح الليونة ، وفى أدبنا معارض مشرفة وإنها لحقائق ماثلة جلاها الشعراء والكتاب إذا ضقنا عندها بقسوة الحروب ، فإننا نفتفع بما فيها من تحميس وتشجيع وتصوير وتأريخ وتسجيل لأحداث كان المتنبى قد شغل عبقريته بفنها وسحرها تسع سنين حتى رحل إلى كافور بعد أن نزغ الشيطان بين الشاعر وسيف الدولة .

* * *

وسوف أضع لدى القارىء مثلا من شعر المتنبى كمقطوعات للزاد الأدبى الذى أدعو إلى التزود منه بكثرة والاقبال عليه بنهم .

وأقتبس من لقاء المتنبى لسيف الدولة عقب انتصاراته وتأمين الثغور بالقضاء على أعدائه الروم وطرد (الدمستق) :

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم وأنك حزب الله صرت لهم حزبا

فيوما بخيل تطرد الروم عنهم ... ويوما بجود يطرد الفقر والجدبا
سراياك تترى و «الدمستق» هارب ... وأصحابه قتلى وأمواله نهبى
مضى بعد ما التف الرماحان ساعة ... كما يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة ... إذا ذكرته نفسه لمس الجنبا

* * *

وإنى لمعجب بتصوير المتنبي لسيف الدولة فى اجتياح أعدائه ، وتهكم الشاعر بكثرة الجيش المولى حين واجهه القائد العربى والمحارب العبقرى .

فودع قتلاهم وشيع فلهم ... بضرب حزون البيض فيه سهول
على قلب (قسطنطين) منه تعجب ... وإن كان فى ساقيه منه كبول
لعلك يوما يا (دمستق) عائد ... فكم هارب مما إليه يؤول
أتسلم للخطية ابنك هاربا ... ويسكن فى الدنيا إليك خليل
أغركم طول الجيوش وعرضها ... (عليٌّ) شروب للجيوش أكول

ولست بناس فارس بنى حمدان (أبا فراس) ولا فارس مصر (البارودى) وإنما أنا مذكر يدعو الناشئة ومن على توجيههم إلى مائدة زادها القوة وعتادها الأدبى تحميس ، وانهاض وتقويم فى أيام ركدت فيها ريح الأدب القوى بأم شرواع سفينتها .

وما ينبغى والعواصف تطير بنا أن نخلف أكبادنا التى تتلق الأدب وتدرس فنه ، تتناهبها مغريات الاسفاف والتدنى حتى إذا جدت الحرب بها لم تجد لسانا ناطقا ، ولا حاديا مفصحا ولا مصورا صادقا ولا معبراً مجيدا .

فإلى الزاد القوى ، وإلى الأدب الحى الخالد ، والإبداع المفصح الناضج .

الازهريون أساتذة شعراء العصر

لفضيلة الشيخ محمد كامل الفقى

— ٤ —

شكر واعتذار : على أثر المقالات المتتابعة التى تناولت فيها بيان كثير من فضل الأزهر على النهضة الأدبية فى هذا العصر ، وخاصة بعد ما تحدثت فيه عن أن الأزهريين فى صدر النهضة وقريبا من اليوم كانوا نجوما اهتدى بها فحول الشعراء ، وفدت إلىّ عدة كتب من أزهريين وجامعيين وأدباء يحمدون جهدى الذى كشف عن كنز دفين — كما يقولون — وهم يعتبون علينا فى لطف حينا ، وفى عنف حينا آخر ، أننا لم نخرج هذا الجهد فى كتاب ، ولم نعرضه للناس كافة .

ولست أجد رداً على شكر هؤلاء إلا عرفانى بفضلهم ، واعتدادى بتقديرهم ، وصرفى ذلك آخرا إلى كلفهم بالبحث ، وشغفهم بالتنقيب والدرس ، ورغبتهم الواضحة فى توفية الرعيل الأول من أدباء هذه النهضة حقهم من التجلية والخلود .

أما اعتذارى لهؤلاء فإنه مزيج من العجز والتواكل ، فقد كان طبع أمثال هذه البحوث فوق طاقتى إذا نازعتنى مع ذلك عوامل التواكل ، فقد كان شيطانى يقهرنى على القعود عن إخراج هذه البحوث ، لاويا عزمى عن المضى فى إخراجها ، مبررا لى ذلك بأن الحديث المضنى المعنىّ كان بصدد الأزهر ، والابانة عن فضله ، وليس أجدر بأولى الأمر فيه من النهوض بتجليته للناس ، وقد كانت حجة الشيطان مفحمة لى ، وطالما عدت على الأزهر نفسه باللوم والتثريب قائلا ، أهان الأزهر على نفسه إلى هذا الحد حتى يضن بنشر هذا الذى يعتبر دليلا وحده على حياته الأدبية ، أليس بحق هذا جديرا بمثل الرعاية التى تولت بحوثاً وكتبا كان كثيراً عليها الورق الذى طبعت فيه ... ؟

وأخيراً فالرجاء معقود بالأستاذ الأكبر فإن للأدب فيه أملا ، وقد كنا من غراسه ...

عود على بدء :

دل السياق الذى سقناه على انتفاع «أمير الشعراء أحمد شوقى بك» بالأزهر، وأنه كان هدية للدنيا من أستاذه الأزهرى «الشيخ محمد البسيونى» هداه وعلمه، ووجهه وشجعه، ولفت إليه نظر الخديوى فأسبغ عليه من ضروب العطف وظلال الرعاية ما كان أسباب مجد، ومراقى نهوض.

وفى مقالنا هـــذا ندعم البحث الدال على فضل الأزهر على أمير الشعر باعترافه نفسه.

اعتراف شوقى :

لشوقى رحمه الله حديث بصدد الأزهر يشهد بحسن تقديره لهذا المعهد العظيم وإجلاله لمهبط أساتذته، فقد أقيم حفل لتأبين المرحوم «عاطف بركات باشا» بمدرسة المعلمين العليا فى الخميس الثالث عشر من صفر سنة ١٣٤٣ هـ، الموافق الحادى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤، وأرسل أمير الشعراء قصيدته لتلقى فى الحفل، وكان مما قاله فيها :

وحارب دونها صرعى قديم كأن بهم على الزمن انقطاعا
إذا لمح الجديد لهم تولوا كذى رمد على الضوء امتناعا

وكان فى الحفل صفوة من رجال مصر وجمهرة من شيوخ الأزهر، منهم فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وفضيلة مفتى الديار المصرية إذ ذاك، فعدوا ذلك جرحا لكرامتهم، مطعنة فى صدورهم، وكتب المغفور له الأستاذ الشيخ محمود الغمراوى طيب الله ثراه مقالا بعنوان «أمير الشعراء ورجال الأزهر للحقيقة والتاريخ» نشرته جريدة الأخبار بتاريخ ١٧ من صفر سنة ١٣٤٣ هـ الموافق ٦ من سبتمبر سنة ١٩٢٤ م، وقد كانت يراعته رمحاً رُدَيْنِياً شَكّ أمير الشعراء الذى نفى عنه الكاتب أن يكون كنادبة المسَجىّ التى تجامل الحاضرين بذكر شىء من محاسن موتاهم.

وقد ظهرت جريدة الأخبار بعد هذا المقال بيوم واحد وفى صدرها حديث

لأمير الشعراء ينفى ما فهمه صاحب المقال من تنكر شوقى للأزهر ورجاله، فكان مما قاله :

« وما أنا من ينسى أن معظم أساتذة مدرسة القضاء نفسها فى العلوم الشرعية بوجه خاص كانوا من شيوخ الأزهر ورجاله ، وليس من المعقول أن يكون هؤلاء الأفاضل حربا عليها وهم فى النهوض بها شركاء.

إن للأزهر عندى حرمة لا أحب أن يتشكك فيها الأستاذ ، وأعتقد أن الأزهر قد سدّ فراغا كبيرا كان التعليم فى مصر والبلاد الشرقية جميعاً لا يرجى له بدون الأزهر من سداد .

وسأظل فخوراً دائما بأن من أساتذتى شيوخا من صميم الأزهر الشريف وكبار علمائه » .

ذلك هو ما قاله شوقى تلافيا لما عساه أن يكون قد فهم من قصيدة التأبين ، وإفصاحا عن تقديره الأزهر الذى يفخر أمير الشعراء بأن فيه أساتذة من شيوخه .

على أن أمير الشعراء أراد أن يزيد فى تأكيده تقدير الأزهر وينفى عنه مظنة النيل من أبنائه فالتمس إصلاح الأزهر فى أقرب فرصة ، ونظم آيته الكبرى التى قالها فى نفس العام الذى أدلى فيه بحديثه عن الأزهر ويقول فيها : —

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر إن فصلته ... فى مدحه خرز السماء النيّرا
واذكره بعد المسجدين معظما ... لمساجد الله الثلاثة مُكبرا [١]
واخشع مليا واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرا وما جوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانا وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرم الأمان وكان حصنهم الذرا [٢]
من كل بحر فى الشريعة زاخر ... ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

ثم يقول :

يا معهدا أفنى القرون جداره ... وطوى الليالى ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره ... وأضاء أبيض لجها والأحمرا

(١) المسجد الحرام والمسجد الأقصى . (٢) الذرا : الملجأ .

إلى أن يقول :

عين من الفرقان فاض نميرها وحياً من الفصحى جرى وتحدرا
ما ضرنى أن أليس أفقك مطلعى وعلى كواكبه تعلمت السرى

وهو يشير فى هـذا البيت إلى أنه وإن لم يكن طالع فى أفقه ودرج فى رحابه ، فقد اهتدى بأساتذته وتعلم السرى على كواكبه ، وهو أيضا الذى يقول :ــ

لا والذى وكل البيان إليك لم أك دون غايات البيان مقصرا

شوقى وكتاب الوسيلة الأدبية :

وما دمنا بصدد انتفاع أعلام الشعر بأساتذة الأزهر وجهودهم الأدبية فى هذا العصر ، فقد يطيب الحديث عن هذا الكتاب الذى نهل منه « شوقى » و « حافظ » . وكان الكتاب الأول الذى راض خيال شوقى وصقل طبعه وصحح نشأته الأدبية ، كما كانت منه بصيرة « حافظ » .

ذلكم الكتاب الذى ألفه العالم الأديب الناقد المغفور له « الشيخ حسين المرصفى » ، وليس سر هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ، ومختارات الشعر والكتابة ، فقد كان ذلك فى مصر قديما ، ولم يخرج لها شاعر مثل شوقى ، ولكن السر هو ما فى هذا الكتاب من شعر « البارودى » لأنه معاصر والمعاصرة اقتداء ومتابعة ، وقد تقضت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبى وغيره ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ، ولا يخلد الجيل منهم إلا لما رأى فى عصره ، ولا يستفتح غير الباب الذى فتح له إلى أن كان البارودى فجاء بذلك الشعر الجزل الذى نقله « المرصفى » بإلهام من الله تعالى ليخرج للعربية « شوقى وحافظاً » وغيرهما .

فكل ما فى الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ فتبعثه هذه الروح على التميز وصحة الاقتداء ، فإذا هو على ميزة وبصيرة . وإذا هو على الطريق التى تنتهى به إلى ما فى قوة نفسه ما فيه ذكاء وطبع . وبهذا ابتدأ « شوقى » « وحافظ » من موضع واحد ، وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر [1] ؟

---

(١) من مقال للمرحوم مصطفى صادق الرافعى فى المقتطف الصادر فى ٢ من رجب سنة ١٣٥١هـ الموافق أول نوفمبر سنة ١٩٣٢م .

نكاح المتعة

لحضرة الأستاذ ابراهيم أحمد الوقفى

مدرس بالأزهر

إذا نظرنا الى أقوال الأئمة فى تعريف نكاح المتعة فإننا لا نستطيع أن نعده نكاحا شرعيا ولا زنا صريحا بل هو وسط بين هذا وهذا ونوع ثالث يختلف عن كليهما ولا يخرج عنهما ، فهو يشبه النكاح الشرعى فى وجود العقد والمال الذى يسمى مهرا أو أجرة واختصاص المرأة برجل واحد فى مدة معينة وشبهته بالزنا أقوى وأظهر ، فما هو إلا تمتع مؤقت بالمرأة ليلة أو ليلتين أو أسبوعا أو أكثر وحدد بعض العلماء له أجلا غايته خمسة وأربعون يوما ليقضى منها وطرا ثم يتركها ولا يثبت به إرث ولا نسب ولا تجب نفقة على المتمتع وليس على المرأة عدة بعد الفراق ولا يشترط فى صحته وجود شاهدين .

ولولا وجود العقد وتسمية المال لانتفت شبهته بالنكاح الشرعى ولكن مع هذا نرى أن تلك الشبهة واهية متداعية لا تكاد تقف على رجليها عند البحث والتمحيص فالزانى لا يواقع زانية إلا بعد تفاهم بينهما ورغبة منه تقابلها استجابة منها ورضا بالمال المعروض عليها فى مقابل هذا التمتع وهذا التفاهم والرضا بينهما هو العقد بعينه .

وإذا أردنا تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقة الصريحة من غير غموض أو تأويل فإننا لا نجد مانعا شرعيا يحول دون تسمية هذا النوع من التمتع زنا .

وحجتنا فى ذلك أن الزنا كان أكثر انتشارا فى الجاهلية من شرب الخمر ، بل كانت تنصب له البيوت وترفع عليها الرايات الحمراء لتعرف منازل البغايا ، وكان بعض زعماء الجاهلية لايرون فى ذلك غضاضة . ويقتنون الإماء لهذا الغرض ، ويتخذون منه حرفة ومرتزقا ، وهؤلاء أنزل الله فيهم قوله « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم »

فأراد الله أن يكون تحريم الزنا تدريجيا كما حرمت الخمر بالتدريج فأباح ما نسميه المتعة عند الإضطرار الشديد كما أباح الخمر — فى أول الأمر — فى غير أوقات الصلاة قال عطاء : سمعت ابن عباس رضى الله عنه يقول : ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلولا نهيه عنها ما احتاج الى الزنا أحد إلا شقى .

وما هذا النوع من الاتصال الجنسى إلا رخصة للمضطر عند اشتداد العزبة وفرط الشبق وخوف الوقوع فى الزنا فكان من قبيل ارتكاب أخف الضررين واختصاص رجل بامرأة بعد عقده عليها نكاحا مؤقتا أهون من تصديه للزنا بأية امرأة يمكنه أن يستميلها . روى عن ابن مسعود قال (كنا نغزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس معنا نساء فقلنا : ألا نختصى ؟ فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب الى أجل . ثم قرأ عبد الله : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » الآية متفق عليه .

وفى الترمذى . عن محمد بن كعب عن ابن عباس قال : (إنما كانت المتعة فى أول الإسلام كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه يقيم فتحفظ له متاعه وتصلح له شأنه حتى نزلت هذه الآية : إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم . قال ابن عباس : فكل فرج سواهما حرام .

ثم نسخت هذه الرخصة بعد تمكن الإيمان فى قلوب المسلمين وتهيؤهم لقبول أحكامه والإقلاع عما ألفوه فى جاهليتهم .

وعلى هذا انعقد إجماع جماهير العلماء من السلف والخلف ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا الروافض وبعض الشيعة مستدلين بقراءة شاذة رويت عن أبى وابن مسعود فى قوله تعالى « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » فقد زادا بعد قوله : منهن . الى أجل مسمى .

وذكر الزجاج (١) أن هذه الآية غلط فيها قوم غلطا عظيما لجهلهم باللغة وذلك أنهم ذهبوا الى قوله : فى استمتعتم به منهن . من المتعة التى قد أجمع أهل العلم أنها

(١) لسان العرب ج ١٠ ص ٢٠٥ .

حرام ، وإنما معنى فما استمتعتم به منهن : فما نكحتم منهن على الشريطة التى جرى فى الآية أنه الإحصان . أن تبتغوا بأموالكم محصنين أى عاقدين التزويج أى فما استمتعتم به منهن على عقد التزويج الذى جرى ذكره فآتوهن أجورهن فريضة أى مهورهن فإن استمتع بالدخول بها آتى المهر تاما وإن استمتع بعقد النكاح آتى نصف المهر .

وبعد بيان فساد المعنى الذى فهموه من الآية الكريمة وشذوذ القراءة المروية لم يبق لهم حجة أقوى مما رووه عن ابن عباس أنه كان يراها حلالا ولم تنسخ إباحتها .

وقد كثرت الروايات التى تحكى رجوع ابن عباس عن القول بإباحتها ، فروى الخطابى بإسناده إلى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : قد سارت بفتياك الركبان وقال فيها الشعراء . قال : وما قالوا ؟ قلت قالوا :

قد قلت للشيخ لما طال محبسه   يا صاح هل لك فى فتوى ابن عباس
وهل ترى رخصة الأطراف آنسة   تكون مثواك حتى مصدر الناس

فقال ابن عباس : سبحان الله والله ما بهذا أفتيت وما هى إلا كالميتة والدم ولحم الخنزير لا تحل إلا للمضطر :

ومع كثرة روايات رجوعه فإننا نرجح أن ابن عباس مات وهو مصمم على إباحة هذه الرخصة ، ولا نسلم أن الاضطرار إلى الزنا كالاضطرار إلى أكل الميتة فإن الامتناع عن الأكل منها مفض إلى الموت والهلاك ، ولا سبيل إلى الإبقاء على النفس إلا الأكل منها ، أما الزنا فهناك وسائل أخرى تصرف عنه وترفع الإضطرار إليه ومن هذه الوسائل ما دلنا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : (يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أحصن للفرج وأغض للبصر ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) وإذا لم يكن الصوم علاجا سريعاً للتخلص من هذا الاضطرار فقد أباح الإمام أحمد بن حنبل الاستمناء بالكف إن فعله خوفا من الوقوع فى الزنا أو خوفا على بدنه وجعله كالفصد والحجامة ، واحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فيجوز عند الحاجة الشديدة وعن العلاء بن زياد عن أبيه أنهم كانوا يفعلون الاستمناء فى المغازى .

وأجمع غيره من الأئمة على أنه معصية يعاقب عليها بالتعزير لا بالحد .

وقول ابن عباس على فرض ضعف ما روى من رجوعه عنه لا يقاوم الإجماع ولا يصلح حجة يحتج بها عاقل ولا يصلح الارتكان إليه وترك إجماع الأمة على تحريم نكاح المتعة ، فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن على كرم الله وجهه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن لحوم الحمر الإنسية .

وعن سبرة الجهنى : أنه غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم فتح مكة قال : فأقمنا بها خمسة عشر يوما فأذن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى متعة النساء . وذكر الحديث إلى أن قال : فلم أخرج منها حتى حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) رواه أحمد ومسلم .

قال عمر بن الخطاب : لا أوتى برجل تزوج متعة إلا غيبته تحت الحجارة [1]

وقال ابن المنذر : جاء عن الأوائل الرخصة فيها ولا أعلم اليوم أحدا يجيزها إلا بعض الرافضة ولا معنى لقول يخالف كتاب الله وسنة رسوله .

ولولا قول ابن عباس لأجمع العلماء على وجوب إقامة الحد على ناكح المتعة ولما جعلوا هذا النوع من النكاح شبهة يدرأ بها الحد وما اقتصروا على تعزير من يفعلها .

وقد حصر القرآن حل التمتع بالمرأة فى حالتين لا ثالث لهما : الزواج وملك اليمين والمرأة المتمتع بها ليست زوجة ولا ملك يمين والشيعة أنفسهم لا يعدونها زوجة فإنه يحل للرجل عندهم أن يتمتع بالكثير من النساء من غير تحديد ولا يقولون برجم الزانى المتمتع إذ لا يعدونه محصنا وليس بعد هذا تناقض ولا تخبط وضلال .

نسأل الله لنا ولهم الهداية والرشد والوقاية من الفتن والشبه والأهواء (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ١٣٢ .

شيوخ الجامع الأزهر

فى القرن الثانى عشر الهجرى

هذا بحث مستخرج من مجلة الجمعية الملكية للدراسات التاريخية وضعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ زكى محمد غيث المدرس فى كلية اللغة العربية بالأزهر أتى فيه على اسم أول من ولى مشيخة الجامع الأزهر ثم أسماء من خلفوه من كبار الشيوخ الذين اختيروا لشغل هذا المنصب الخطير قال :

تقديم :

الجامع الأزهر أول مسجد شيد فى القاهرة المعزية ، وثالث مسجد أسس بالديار المصرية بعد الفتح الإسلامى لها ، وهو اليوم أكبر معهد دينى علمى إسلامى فى الشرق ، وأقدم جامعة علمية فى العالم قامت على حفظ علوم الشريعة الإسلامية الغراء أصولها وفروعها ، واللغة العربية وآدابها ، وعلى نشرها ، وتخريج علماء يوكل إليهم تعليم علوم الدين واللغة فى مختلف المعاهد والمدارس ، ويلون الوظائف الشرعية فى المملكة المصرية .

وللجامع الأزهر شخصية معنوية مصرية الجنس ، وهو من ناحية النظام الإدارى للمملكة المصرية يمثل إحدى الوزارات الحكومية ، وإن لم يكن له إسم الوزارة ولا لرئيسه هذا الوصف رسمياً .

« وشيخ الجامع الأزهر » : هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين ، والمشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلى أهل العلم ، وحملة القرآن الشريف ، سواء أكانوا منتمين إلى الأزهر ، أم غير منتمين إليه .

وهو المنفذ الفعلى العام لجميع القوانين ، والمراسيم ، والأوامر الملكية ، واللوائح ، والقرارات المختصة بالجامع الأزهر [1] .

وهو الذى يمثل الجامع الأزهر فى كل ما يتصل بشئونه قبل الغير من المصالح الحكومية ، والهيئات الأهلية ، والأفراد .

---

[١] المادتان رقم ١ ، ٥ من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ باعادة تنظيم الجامع الأزهر .

ويختار « شيخ الجامع الأزهر » من بين جماعة كبار العلماء ، أو ممن تتوافر فيهم الشروط الآتية : أن تكون سنه خمساً وأربعين سنة على الأقل ، وأن يكون معروفاً بالورع والتقوى فى ماضيه وحاضره ، وحائزاً لشهادة العالمية منذ خمس عشرة سنة على الأقل ، وأن يكون قد اشتغل بالتدريس مدة خمس سنوات على الأقل فى إحدى كليات الجامع الأزهر ، أو بالقسم العالى المقرر بالقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ م ، أو بإحدى الكليات بجامعتى فؤاد الأول وفاروق الأول ، أو يكون قد شغل منصب مفتى الديار المصرية ، أو عضو بالمحكمة العليا الشرعية .

ويعين « شيخ الجامع الأزهر » بأمر ملكى ، ويصير من يعين شيخاً للجامع الأزهر من غير جماعة كبار العلماء عضواً فى هذه الجماعة بحكم القانون [١] .

هذا هو الوضع الذى صار إليه أمر الجامع الأزهر ، ومشيخته فى العصر الحاضر ، أما قديماً فلم يكن له شيخ يتولى رياسته الدينية ، ويدير شئونه الإدارية ، بل كان يتولاه الولاية العامة سلاطين مصر وأمراؤها ، كباقى المساجد الجامعة بالديار المصرية ، ويباشر شئونه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة ، ومشايخ الأروقة ، يعاونهم خطيب المسجد ، والمشرف ومعاونوه من العمال والخدم .

بقى هذا النظام متبعاً فى الجامع الأزهر غالباً مدة حكم الفاطميين والأيوبيين ، والمماليك الأولى (البحرية) ، وفى عهد سلطنة الملك الظاهر برقوق ، أول سلاطين المماليك الثانية (البرجية) عين للأزهر : « ناظر » سنة ٧٨٤ ﻫ (١٣٨٢ م) ، وكان « ناظر الأزهر » يختار من بين كبار موظفى الدولة ، وكان هذا « الناظر » هو الأمير « بهادر » الطواشى كبير المماليك السلطانية ، وكان « ناظر الجامع الأزهر » ينوب عن سلطان مصر ، أو حاكمها فى الإشراف على شئون الأزهر ، والقيام على تنفيذ الأوامر والأحكام السلطانية ، والسهر على رعاية مصالح الجامع الأزهر ، ومصالح أهله من علماء وطلاب .

وقد عرف من « نظار » هذا العهد المملوكى أيضاً الأمير : « سودوب »

---

(١) المادتان رقم ٦ ، ٧ من القانون ٢٦ لسنة ١٩٣٦ ، باعادة تنظيم الجامع الأزهر ، والمرسوم الملكى المعدل (٧) من هذا القانون الصادر فى ١٩٤٥/١٢/٢٦ .

القاضى ، وحاجب الحجاب ، ولى « نظارة الجامع الأزهر » سنة ٨١٨ ﻫ (١٤١٥ م)[١] .

ولما استولى الأتراك العثمانيون على مصر سنة ٩٢٣ ﻫ (١٥١٧ م) ساروا على نهج من سبقهم من سلاطين مصر وأمرائها ، فحافظوا على الأوضاع المرعية فى الأزهر ، واهتموا برعاية شئونه ، والسهر على مصالح أهله ، واقتدى الولاة العثمانيون بسلاطين آل عثمان فعرفوا لهذا المعهد العلمى الدينى الإسلامى حقه من الرعاية والتقدير ، وجددوا به كل دارس ، وزادوا فى عمارته ، ووسعوا من رقعته ، وأوقف الأمراء ، والولاة ، وكبار رجال الدولة ، والأعيان الكثير من الأموال ، والأملاك ، والعقارات على علمائه وطلبته . فاتسعت إدارته ، وتشعبت مصالح أهله ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى وجود شخص يتفرغ للإشراف على شئون هذا المعهد الدينية والإدارية معا ، ويكون رئيساً لشيوخ المذاهب والأروقة ، وسائر علماء الأزهر وطلابه ، ومسئولا مباشرة أمام الولاة والسلاطين ، وحلقة اتصال بين الحكومة وأقسام الأزهر المختلفة ، فاستحسنت « الدولة العلية » قبيل نهاية القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) أن يعين للأزهر : « شيخ عموم » يدير شئونه ، ويراقب أموره من تعاليم وغيرها ويلقب : « بشيخ الجامع الأزهر » .

ومنذ العهد (التركى العثمانى) والجامع الأزهر يحتفظ بهذه الوظيفة التى تطورت مظاهرها ، واتسعت اختصاصاتها على حسب تطورات الزمن ، ومقتضيات الظروف والأحوال حتى آلت إلى ما هى عليه الآن .

وقد حفظ لنا الجبرتى فى تاريخه المسمى : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ثبتاً بأسماء « شيوخ الجامع الأزهر » لأكثر من قرنين من الزمان .

والجبرتى أسبق مصدر فيما أعلم تناول ذكر شيوخ الجامع الأزهر خلال هذه الحقبة التى نؤرخها ، وهم عنده أحد عشر شيخا .

وقد أوردت دائرة المعارف الإسلامية أسماء : « اثنى عشر شيخا » خلال

---

[١] الخطط التوفيقية ، ج ٤ ص ١١ ؛ كنز الجوهرى فى تاريخ الأزهر ، للشيخ سليمان رصد ص ٥١ ، ٥٦ ؛ كتاب « الأزهر » ، لمحب الدين الخطيب ، ص ١٧ ، ١٨ ؛ كتاب : « الأزهر » ، للأستاذ عبد الله عنان ، ص ١٢٩ [ينقل عن خطط المقريزى ، ج ٤ ، ص ٥٤] .

هذا القرن الذى نؤرخه ليس منهم الشيخ : « إبراهيم البرماوى » الذى عده الجبرتى من بين شيوخ الجامع الأزهر[١] ، ولا الشيخ : «محمد المنير» الذى ذكر « المرادى » أنه كان شيخا للجامع الأزهر [٢] .

والمعروف فى الدوائر الأزهرية أنه لم يل مشيخة الجامع الأزهر خلال هذه الفترة غير عشرة ليس منهم :

١ — الشيخ إبراهيم البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ ﻫ (١٦٩٥ م) .
٢ — الشيخ أحمد النفراوى المتوفى سنة ١١٢٥ ﻫ (١٧١٣م) .
٣ — الشيخ عبد الرحمن العريشى المتوفى سنة ١١٩٣ ﻫ (١٧٧٩ م) .
٤ — الشيخ محمد السمنودى الشهير بالمنيّر المتوفى سنة ١١٩٩ ﻫ (١٧٨٣ م) .

وسنقصر بحثنا على : « شيوخ الجامع الأزهر » الذين ذكرهم الجبرتى فى تاريخه خلال القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) وهم المشايخ :

الخرشى ، البرماوى ، النشرتى ، القلينى ، شنن ، الفيومى ، الشبراوى ، الحفنى ، السجينى ، الدمنهورى ، العروسى .

وسيلاحظ القارىء أننا لم نستطع تحديد الزمن الذى أنشىء فيه منصب « مشيخة الجامع الأزهر » بالدقة ، وبصورة قاطعة . وأن أول شيوخ الجامع الأزهر لم نعرف على وجه الدقة مبدأ توليه المشيخة ، وسبب ذلك قصور المراجع التى تحت أيدينا ، كما أنه سيلاحظ اقتضابا فى بعض التراجم يجعل البحث قاصرا ومرجع ذلك ما ذكرناه آنفا أيضا ، ومع شعورنا بأن البحث فى صورته يعتبر ناقصا فإنا آثرنا نشره راجين أن تتاح لنا فرصة أوسع لاستكماله ، وسد هذا الفراغ الذى أشرنا إليه حتى يجىء محققاً لأمل الكثير من الباحثين .

وبعد : فهذا جهد المقل أرجو أن يكون مساهمة عملية منا فى تحية الأزهر لمناسبة مرور نيف وألف سنة على تأسيسه ، ذلكم المعهد الخالد الذى فيه تعلمت ، ومنه تخرجت ، وبه أعمل الآن مدرساً فى كلية اللغة العربية ، إحدى كلياته الثلاث .

---

[١] عجائب الآثار للجبرتى ، ج ١ ص ٧٠ [المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٢ ﻫ] .

[٢] سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، ج ٤ ، ص ١٢٢ . [المطبعة الأميرية ، بولاق سنة ١٣٠١ ﻫ] .

وفـــــاء ...؟

فى ذكرى الاربعين

لوفاة الأستاذ الجليل فضيلة الشيخ محمود أبو العيون
السكرتير العام للأزهر والمعاهد الدينية

للأستاذ عبد الحميد محمد الفضالى
المدرس بالسعيدية

قد عاش فى دنيا الجهاد حميدا وثوى بدار الخـالدين شهيدا
يا أيها الثّـاوى بدار إقامة قد نلت فى فرد وسك الموعودا
ما كنت فى دنياك غير مجاهد حفظ الكرامة سيدا ومسودا
فرفعت قدر العـلم ، فهو مكرمٌ كم قد وقفت الموقف المشهودا

* * *

لهفى عليك أبا العيون مضرجاً وتصيحُ : مهلاً ، يا قطارُ ، وئيدا
أشفق علينا ، لا تكن متجنياً وارفق بشيخ فى الدنا مكدودا
قيدتنى بالثوب ، مهلا ، إننى قد عشت حرًّا ما خشيت قيودا
أنا يا قطار قضيت عمرى منصفا أنا ما بغيت ، وما ظلمت عبيدا
أنا لست إلا مخلصا ومسالما أَترى لمثلى يستحق وعيدا ؟ !
قطعت أنفاسى ، ومزقت الحشا وفعلت فعـلا قاسيا وشـديدا
إنى انتهيت كما قضى لى خالقى ولقد رضيت بأن أكون شهيدا

* * *

ماذا دهاك ، وكنت تمتلك الخطا وتسير سيرا صالحا وحميدا ؟ !
لكنه القـدر المتاح إذا أرا د إماتة ، ترك الحياة همودا
لاشىء ينفع حين ينزل بامرىء مهما بدا متماسكا وجليـدا
أمقطع الآمال ويحك قد سطو ت على العلا متجنيا ، ومبيدا
إن المنـايا إن أرادت زلزلت وحمت من الغاب المنيع أسودا

---

(١) آثرت كلمة القطار وإن كان الحادث « بالترام » لعربية الأولى وأعجمية الثانية .

يأيها الثاوى بدار سعادة أرسل نداءك مسعداً وسعيدا
الناس مشتاقون بعد لقولكم فهب الصحائف من لدنك جديدا
محمودُ عشت مدى حياتك مفردا ورحلت عن دار الفناء فريدا
كم صرخة لك فى الضلالة حطمت وكر الضلال ، فصيرته صعيدا
إنى رأيتك قبل فقدك قوّةً مأمولة ترجى لمصر خلودا
وتذيع فى الآفاق أكرم صيحة كانت لمصر معاقلا وجنودا
وتزيح عن أرض الكنانة لوثة كم ضيعت فى عهد مصر عهودا

* * *

محمود والإصلاح نكس بنده لما رحلت فما أقام بنودا
كنا وأنت تجوب آفاق العلا نرنو بأعيننا لكم تمجيدا
لهفى عليك وأنت أسمح من مشى فى ساحة الإحسان ينضح جودا
لهفى عليك وأنت خير محدث صاغ الحديث لآلئاً وعقودا
لهفى عليك وأنت خير محلق يبغى لأمته سناً وسعودا
فلكم حصدت من الفساد بمنجل عودا تمادى فى الضلال فعودا
ولكم أخفت البحر عند شواطىء خوفاً ، فعاد جبانة رعديدا
أمن الشباب على كريم شبابه وبدت فتاة الجيل أنضر عودا
إن العفاف كمال كل جميلة وأرى العفاف تسامياً وصعودا

* * *

محمود والآمال صار جميعها بدداً ، وكنت مؤملا محمودا
فيض من الإصلاح ، أنت ذخيرة للمصلحين تزيدهم تأييدا
هل من سبيل أن تعود إليهم فالكل يطلب من هداك مزيدا
ما كنت تعرف فى الجهاد مطامعاً أو يعرف الإصلاح منك حدودا
نم فى جوار الله ، واهنأ بالذى أعطاك ، طبت مكفناً ملحودا

العقل العلمى

(العلم أثبت وجود العالم الروحانى)

قال العلامة الفلكى المشهور كاميل فلامريون :

يوجد فى الحياة الأرضية خصائص لم يكتشفها الإنسان للآن وحواس لا تزال مجهولة لديه . فكيف يجد الحمام السياح والسنونو أعشاشها التى تركتها ؟ وكيف يعود الكلب إلى بيته بعد أن يبعد عنه عدة مئات من الكيلومترات فى طريق لم يعهده من قبل ؟ وكيف تستهوى الحية العصفور إلى فمها ؟ وكيف يجذب البرص إليه الفراش بعد أن يوقعه فى خدر الخ الخ ؟ وقد بينت فى كتاب غير هذا أن سكان الدنياوات الأخرى يجب أن يكونوا ممتعين بحواس مخالفة لحواسنا .

« ليس لنا علم مطلق بشىء من الأشياء فكل معارفنا نسبية أى ناقصة وقاصرة » .

« فالعقل العلمى يوجب علينا أن نتحفظ فى إنكاراتنا ، ولنا الحق فى أن نكون متواضعين ، ولنقل مع أراغو أن الشك دليل على التواضع وما أضر بتقدم العلم إلا نادرا ، ولكننا لا نستطيع أن نقول مثل هذا القول عن الإنكار المطلق » .

ويوجد كذلك عدد عظيم من الحوادث لا تزال بعيدة عن التفسير تختص بالعالم المجهول ، ومن هذا الباب الحوادث التى سنتكلم عنها فى هذا الكتاب . فالتلبائيا أى الشعور عن بعد ، وظهور أشباح الموتى ، وانتقال الأفكار ، والرؤى فى النوم ، وفى حالة الانتقال النومى بدون استخدام الأعين لقرى ومدن وآثار ، ومعرفة المستقبل من حادثة قريبة ، والشعور بما هو آت ، والانذارات الخارقة للعادة ، والحس بحوادث مستقبلة ، والاملاء بواسطة الطرق على الأخونة (الترابيزات) ، وحدوث ضوضاء لا يمكن تعليلها ، وظهور أرواح فى بعض البيوت ، ونقل الأشياء من أمكنتها ورفعها إلى فوق ضد نواميس الثقل ، وحركة الأشياء وانتقالها بدون مس أو حوادث تشبه تجسد القوى (وهو ما يظهر محالا لأول وهلة) والظهور الوهمى أو الحقيقى للأرواح ، أو لنفوس من جميع الرتب ، وظواهر أخرى غريبة لا تزال بعيدة عن التفسير للآن كلها نستحق أن نطلع عليها وأن نوجه إليها اهتمامنا العلمى .

ثم قال :

والذين يقولون : حاشانا أن نصدق هذه المستحيلات . لا لا ، نحن لا نصدق إلا نواميس الطبيعة ، وهذه النواميس معروفة ، هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين السذج الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عند ما يصلون فى رسمهم إلى جبل طارق هذه العبارة (هنا تنتهى الدنيا) ولم يعرفوا أن فى تلك الشقة القريبة المجهولة يوجد من الأرض ضعف ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجسورون فى ذلك الحين .

« كل ما نعرفه من العلوم الإنسانية يمكن أن يشبه بجزيرة صغيرة ، صغيرة للغاية محاطة بأوقيانوس لا سائل له » .

وقال فى صفحة ٧٥٠ .

« المشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحانى محقق كتحقق العالم المادى المدرك بحواسنا الخمس » .

* * *

وقال هذا العالم الكبير أيضا فى صفحة ٨ من كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) :

أنا لا أخفى عن نفسى أن كتابى هذا سيثير ثائرة مناقشات واعتراضات أصولية ، ولا يستطيع أن يقنع غير الباحثين المستقلين . ولكن ما أقل العقول المستقلة الحرة على سطح كوكبنا هذا ، وما أقل الميل الصحيح للاطلاع مجردا عن كل مصلحة ذاتية . كأنى بجمهور قرائى يقولون : أى شىء فى هذه المسئلة يوجب الاهتمام : أخونة (أى ترابيزات) ترفع عن الأرض ومناضد تتحرك ، وكراسى تنتقل عن مواضعها ، وبيانات تقفز ، وستائر تضطرب ، وطرقات تحدث بلا سبب معروف ، وأجوبة توجه إلى أسئلة عقلية ، وجمل تملى عكسا ، وأيدى ورؤوس وأشباح تظهر ، كل هذا من الأمور التافهة أو الهذيان الذى لا يصح أن يلفت نظر عالم من العلماء .

أجل من الناس من قد تسقط السماء على رؤسهم فلا يتأثرون .

« أما أنا فأجيبهم قائلا : ماذا تقولون ألا يجدى شئا فى نظركم أن نعلم ونشاهد ونعترف بأنه توجد حولنا قوى لا تزال مجهولة ؟ ألا يعد شيأ يؤبه له عندكم أن ندرس طبيعتنا الخاصة وخصائصنا الذاتية ؟ ألا تستحق مثل هذه المسائل أن تكتب فى برنامج المباحث ، وأن يخصص لها ساعات من العناية ؟

فى رثاء

المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون

لمناسبة ذكرى الأربعين

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد النبي دياب
من علماء الأزهر

لم يبق منى على طول النوى رمق ... يكاد جسمى من الأحزان يحترق
أمر بالدار علىّ أن أراك بها ... فيستبد بعينى الدمع والأرق
لولا بنوك بها ما جزت ساحتها ... أن الوفاء لهم من بعدكم خلق
يا من رآنى على ضراء مضنية ... يساور الصدر منها اليأس والفرق
وصد كل خليل كنت أرقبه ... لمثلها وتخلى من به أثق
أعارنى حاله حتى به انفرجت ... غماؤها وأتانى اليمن يستبق

« إنى كلما أفكر فى هذا الأمر أدهش من أن دهماء الناس لا يزالون يجهلون هذه المسائل كل الجهل بينما قد عرفها ودرسها وقدرها حق تقديرها وسجلها من منذ مدة مديدة جميع الذين تتبعوا حركتها بكل نزاهة فى مدى هذه السنين الأخيرة » انتهى.

وقال العلامة الإنجليزى الكبير السير وليم كروكس أحد رؤساء المجمع العلمى البريطانى الحاصل على أكبر الألقاب العلمية، وهو مكتشف أشعاع المادة، قال من خطبة ألقاها فى جمعية المباحث النفسية فى ٢٩ يناير سنة ١٨٩٧ وكان إذ ذاك رئيسا لها (أنظر مجموعة خطبه) قال :

إنى لأستطيع أن أؤكد لكم بأن أعمال ومنشورات جمعيتنا هذه فيما يختص بالتدوين الدقيق للمشاهدات الجديدة الهامة، أو بالفائدة التى تنتج من هذه المشاهدات تؤلف مقدمة لا تقدر قيمتها لعلم هو أبعد غورا من أى علم ظهر على سطح الأرض (تأمل) سواء فى كشفه عن حقيقة الإنسان أو عن حقيقة الطبيعة، وعوالم أخرى ليس لنا عليها الى الآن أقل إثارة من علم ».

من لى بمثلك من أخرى تعاودنى فأننى شاعر من دهره قلق
لجيعة فيك أنستنا فواجعنا فيها تجمع ما فى الناس مفترق
وغيرت سجعات اللحن فى أذنى وليس فى العين يبدو منظر أنق
فكل ساجعة فى الورق باكية وكل شادية خنساء تختنق
تنصل الدهر من كبرى جنايته بأنه خطأ قد جره الغسق
ألم تروا نعيه ما صاغه وضح من النهار ولكن صاغه السفق
وحسب أسرته منى وأمته أن الزمان على عادى الدجى حنق
أبو العيون رمسناه وما فتئت عيون إحسانه بالفضل تنبثق
فى ظاهر الأرض نفاح وباطنها فى البيت فى القبر يهدى نشره العبق
نور من العلم لم يطفأ ولاح به لعالم آخر من بعدنا فلق
طود اجتماع يلوذ المصلحون به فى سفحه حمة أو منهل غدق
مجاهد من طراز غير متهم ومن رجال إذا ما عاهدوا صدقوا
مهند شهرته مصر فى يدها حتى تكسرت الأغلال والربق
ما غيب الموت فى إنسانه علما إلا ليعرفه من قبله سبقوا
فى ملة الحق هاد غير مبتدع وإن يكن وجديد العصر يتفق
والشرع كالدهر لا تفنى عجائبه وإنما كل نظار له أفق
والعالم الندب من يملى مشيئته على الزمان ولا تعيا به الطرق
فيم التكلم والآثار ماتركت لقائل من مجال فيه ينطلق
حتى الدماء التى من جسمه سفحت فى كل صبح بها الأيام تأتلق
هى الشهادة فى أعلى منازلها ثانى الحسين بها فى مصر يرتفق
أقول للسحب إن سحت بوابلها هل هذه منن أم هذه حرق
إن كنت باكية فلتذرفى أبدا ولتكتحل ببروق الهاطل الحدق
فليس من منن الإحسان منهمر فى البحر فهو مزيد منه يندفق
سقياً ورعياً وبقياً للضريح وما حوى الضريح من الرحمن تنثق

جمادى الأولى سنة ١٣٧١ المجلد الثالث والعشرون

مجلة الأزهر

تصدر شهريا عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الشبيبة تطالبنا بالمعرفة

ورد إلينا الكتاب التالى خلوا من التوقيع إلا الأحرف م . ع . ع . وهو يكشف عما يكنه صدر الشبيبة المتعلمة فى هذا العصر من الشبهات فى الدين ، فكان حقا علينا أن ننشره ، وأن نعلق عليه بما يجب علينا نحو هذه الصفوة من الأبناء فإننا مسئولون عنها الى حد بعيد ، فإليك :

بسم الله الرحمن الرحيم : سيدى العزيز الأستاذ محمد فريد وجدى بك .

السلام عليكم ورحمة الله : وبعد :

أنا يا سيدى طالب بإحدى المدارس الثانوية وبالسنة الرابعة ... وكما تعلم ياسيدى ـ كما هو الحال فى جميع المدارس ـ أننا لا نعرف عن أمور ديننا شيئا ، وتكاد الناحية الدينية فى المدارس وعند الطلبة ، أن تكون معدومة . وما تلك الحصة التى تسمى حصة الدين إلا وقت ضحك وسرور ومرح ، ننال فيها قسطا من الراحة والحرية . فالطلبة المسلمون حقا لا ينطبق عليهم هذا اللفظ ، إلا عددا قليلا منهم يؤدى الصلاة ، وهؤلاء قلة ، وهذه القلة يؤدون صلواتهم بدون تمعن ولا تفكير ، ناهيك عن جهلهم المطبق بأمور الدين ، وكأنهم لا يعرفون الإسلام إلا ركعات وسجدات ... وإننا فى عصر تشيع فيه العقائد والنظريات التى تناقض الدين فى كل شىء ، بل تشكك فى وجود الله ...

ولكننى ـ والحمد لله ـ أصلى صلاة أقل ما يقال عنها أننى أفهمها ، وقد قيض لى أصدقاء من الأزهر الشريف ، واستطعت أن أحصل منهم على بعض أعداد من مجلة الأزهر ، وقرأت لك ياسيدى عدة مقالات ، إن جردناها عما تتصف به من جمال

وروعة وإبداع وفهم للإسلام واعتزاز به ودفاع عنه مجيد ، فإنها تجارى روح العصر الحديث فى تسليطها نور العلم على الإسلام ، فتكشف عما يحتويه هذا الدين من مبادىء سامية ، وبأنه استحق أن يكون « دينا عاما خالدا » وإننى ياسيدى لأدين لك بشىء كثير من إيمانى . . .

سيدى العزيز : لقد قرأت أخيرا شيئا عن هؤلاء المتشككين فى وجود الله فكانت كعاصفة من الشك أخاف أن تقتلع إيمانى . وحاولت أن أجد بغيتى فى كتب الفلسفة ، فكنت كمن يرمى بنفسه فى بحر خضم وهو لا يجيد السباحة ، فما ازددت إلا حيرة وشكا - ولى العذر فى هذا فأنا لا أعلم عن أمر دينى إلا شيئا قليلا ، شأنى كشأن التلاميذ جميعا طلبة العلم فى المدارس . حاولت ياسيدى أن أعرف دينى فلم أجد لى هاديا يهدينى ، ولا ناصحا ينصحنى ، ولا أحدا يُيسِّرُ لى السبيل . فأنا يا سيدى فى حاجة إلى ما أوقن به من وجود الله سبحانه وتعالى ، وأنى لأومن بذلك لولا هذا العقل الذى خدع هؤلاء المتشككين ، وفى حاجة إلى ما تثبت لى بطريقة لا تحتمل الشك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول - فقد سألنى طالب قبطى عن ذلك فلم أستطع أن أجيبه بجواب مقنع . وفى حاجة إلى أن أعرف الإسلام - دينى - الذى يترتب على إيمانى بالله ورسوله ، فأرجو ياسيدى أن ترشدنى وتدلنى على ما أرجع إليه من الكتب فى بحثى ، فهل أنت مجيب رغبتى وفاعل هذا من أجل شاب مسلم يبحث عن الحقيقة وسط هذا العالم المليء بالباطل فتستحق شكرى . وإن كنت فى غنى عنه . وتستحق ثواب الله إذ كنت سببا فى هدى إنسان حائر ؟

م . ع . ع

إن ما ذكره الطالب النجيب يعترى جميع الذين يقبلون على الثقافة العلمية ، فإن العلوم الطبيعية التى تطلعهم على ما وصل إليه العلم من أصل المادة وأسرار تطوراتها ، وما هو مسلط عليها من النواميس التى تحدث بتأثير تلك التطورات فيها ، وما تتأدى إليه من أدوار وجودها ، وما ثبت لهم من أن تلك التطورات ثابتة لا تتغير ، توحى إلى عقولهم أنها آلية محضة ، وملازمة للمادة لا تزايلها فى أية

حال من أحوالها ، وما دامت على هذه الحال منذ وجدت فأية حاجة تدعو إلى إلى افتراض وجود عقل مستقل عنها يدبر تطوراتها ؟

ونحن لا نخالف الطبيعيين فى وجود النواميس التى تتولى المادة بالتطور والترقى فى أدوار وجودها ، ولكننا لا نقتنع بالانتهاء إلى هذه المرحلة ، لأنها فى العقل لا تصلح لأن تكون حداً نهائياً للبحث فيها ، وذلك لأن منطق البحث يرمى بنا إلى ضرورة فهم نوع العوامل القائدة لتلك النواميس لتنتج آثارها المعقولة ، بل إلى إنتاج ما تعجز العقول عن فهم إبداعه ، والتى تدل على مقاصد غاية فى السمو تناسب عقلية راقية للدرجة القصوى . اليس هذا يدل دلالة قاطعة على أن وراء هذه النواميس عقلا علويا لا حد لمدركاته ، ولا نهاية لابداعاته ، يمد العقول الجزئية بالقوى الفكرية ، والإبداعات المعنوية والصورية التى ترقى بالانسانية إلى مستوى من الوجود لا يتخيل سموه تخيلا ، فضلا عن تحديده تحديداً آليا ؟ .

إذا أطلق الإنسان لعقله العنان فى الشك ، ودفعه إلى المبالغة فيه إلى أقصى حد ، فلا يستطيع أن ينكر أن الكائنات الحية من نباتات وحيوانات وجدت بتدبير عقل لا حد لسموه ، وسعة تصوره . ولا أستطيع أن أتخيل أن يكون فى العقلاء من يستطيع أن يتصور أن كل هذه الابداعات النباتية والحيوانية وجدت بدون تدبير عقل ، أى بمجرد الاتفاق المجرد عن القصد !

هذا مالا سبيل إليه مهما جرد الإنسان نفسه من الميول الاعتقادية .

فإذا كان الإنسان إذا رأى شيئاً يحتاج فى وجوده إلى قوة عقلية تنتجه ، وليس فى وسعه بوجه من الوجوه ، أن يعزوه للاتفاق المجرد عن القصد ، بادر فعزاه إلى فاعل ذى عقل أوجده ؛ فهل يكون فى وسعه أن يتصور أن هذا الوجود كله على ما فيه مما هدتنا إليه قوانا البصرية الضعيفة . قد وجد من أزل الآزال بنفسه بدون موجد يوجده ؟

أليس العقل الجزئى الذى نتمتع به ، ونستهدى بنوره فى كشف المجاهيل لا يستطيع أن يتخيل وجود حصاة صغيرة بدون عامل أوجدها ، فهل يستطيع

هذا العقل نفسه أن يدرك أن هـذا الوجود كله على ما فيه من شموس وأقمار ، وما على تلك الـكواكب من أحياء : إنسانية وحيوانية ونباتية قد وجدت اتفاقا (أى مصادفة) بدون قصد ولا تدبير ولا حكمة ولا تدبير حكيم ؟ إذا كان يوجد إنسان فى هذا العالم يسوغ لنفسه أن يرتـكب هـذه الغباوة وجب عليه أن يبكى على نفسه أسفا ، وأن يندب عقله ندبا ، وأن لا يعد نفسه رجلا ذا رأى حصيف ، بل أن لا يحسب إنـكاره هذا إلا انحرافا فى الإدراك لا يعقل أن يتصف به إلا ذو تصور سخيف . ومما يدهش أن كثيراً من الناس يعدون الرجال الذين يلتاثون بمثل هذا القصور العقلى من ذوى العقول القوية . وهو فى الحقيقة انحطاط فى الإدراك ليس يفترق عن الهذيان إلا فى صدوره من غـير محموم . وإلا فـكيف يسوغ لأحدنا أن لا يعقل أن الذرة قـد تنتقل من مكانها بدون قوة تدفعها عنه ، وفى نفسه يعقل أن هـذا الـكون كله بمـا اشتمل عليه من الأجرام السماوية التى لا تحصى ، وما عليها من الـكائنات التى لا تقف فى تنوعها عنـــد حد ، قد نشأ اتفاقا بدون قصد ، وأن كل ما فيه من إبداع يتعالى عن الادراك قد وجد بذاته بغير عوامل عقلية راقية رقيا لا يدرك مداه الفـكر . إن هـذا التناقض بعيـد المدى لا يرضاه لنفسه إلا من لا يحترمها الاحترام الذى يحفظ عليه كرامة الإنسانية .

لقـد عزى بعض الناظرين بنـكران الخالق وهى سقطة عقلية كانت جديرة بالذين لا منطق لديهم ، أما ومصدرها حماة المنطق ، وقادة الآراء الركيكة عن العلم والفلسفة ، فهو من أعجب ما تبلى به الفلسفة ، ويلتاث به العلم . ولا بد من مجىء عهد ينعكس فيه هذا الوضع ، فيتنزه أصحاب الآراء عن مثل هذه السقطة الشائنة ، ويتصف بها عميان القلوب لا الأبصار .

محمد فريد وجدى

التفسير

من

البقرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن
رئيس التفتيش وعضو جماعة كبار العلماء

يقول الله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . ولهم عذاب عظيم » .

لما بين فى الآية السابقة أن هؤلاء الكافرين لنعم الله الجاحدين لآياته لا تؤثر فيهم النذر ولا توقظهم الحجج بل هم على كلا الحالين أنذروا وخوفوا أم لم ينذروا ليسوا بمؤمنين ولا بتاركين عنادهم — ذكر فى هذه الآية علة غرقهم فى غفلتهم واستجابتهم لشهوتهم وأن صوت النذير لا ينفذ فى آذانهم ونور الحق لا يسطع فى قلوبهم فقال : ختم الله على قلوبهم (الخ) ولهذا جاءت الآية بغير عاطف لتمام الصلة بينها وبين ما قبلها .

ولما كان الختم معناه فى جملته الاستيثاق من إغلاق الشيء بحيث لا ينفذ إليه شيء كصنيعنا فى ذلك من وضع أداة ذات نقش خاص على قابل للتأثر يوضع على منفذ ما أردت أن تثق بعدم نفاذ شيء إليه — لما كان الختم كذلك فقد أريد بذلك الكناية عن أن سمعهم لا يصل إليه صوت الحق وقلوبهم لا ينفذ إليها نور الهدى . وليس من أسلوب أدل على صممهم نحو الحق وغفلة قلوبهم عن الهدى من ذلك الأسلوب المفيد أن حواجز حصينة وأقفالا متينة قد ضربت على أسماعهم وعلى قلوبهم فلا يفزعهم نذير ولا يرغبهم بشير .

وإنما عبر فى جانب السمع والقلب بالختم . وعبر فى جانب البصر بالغشاوة لمعنى سام وحكمة رائعة . ذلك أن آفة البصر معروفة مدركة إذ غشاوة العين

معلومة لنا . فالتعبير فى جانب العين بالغشاوة مما يحدد لنا مدى عجزهم عن إدراك آيات الله بتلك الجارحة فإن من غشى بصره ليس له مطمع أن يحاول إدراك آيات الله وحججه مما أقام فى خلقه ، وأما القلب والسمع فإنهما لما كان لا يدرك آفتهما فقد صور لنا حواجزها عن سماع الحق وفهم الحجة بصورة الختم والاستيثاق من عدم نفاذ ذلك إليهما حتى يبلغ بذلك التصوير حقيقة ما هم عليه من بعد عن الحق وعزلة عن الرشاد . لذا تراه قد عبر فى جانب القلب والسمع بالختم وفى جانب العين بالغشاوة .

هذا وإنما عبر فى جانب القلب والسمع بجملة فعلية مما يفيد الحدوث والتجدد وفى جانب البصر بجملة إسمية مما يفيد ثبوتا واستقرارا ذلك بأنهم قبل الرسالة ما كانوا يسمعون صوت نذير ولا يواجهون بحجة . وإنما كان صوت النذير وصياغة البراهين بعد رسالة الرسول فكان بذلك صممهم عن صوت النذير وتغليف قلوبهم عن فهم الحجة حادثا بعد ما أرسل الله رسوله وأنزل كتابه ودعاهم إلى الهدى وبصرهم بدلائل عظمة الله وآيات رسالته .

وأما ما يدرك بالبصر من دلائل وجود الله وآيات قدرته فقد كان قائما فى السموات وفى الأرض وفى الأنفس يصح أن يدرك قبل الرسالة وأن يستدل به المتبصرون المتدبرون على وجود ربهم وحكمته وبالغ تدبيره وعظيم قدرته فلم يكن عماهم عن آيات الله القائمة الواضحة حادثا متجددا بل هم قد صحبهم العمى عما فى السموات وما فى الأرض من آيات بينات من بدء وجودهم وأول خلقتهم إلى أن دعوا إلى التبصر والتدبر فبقوا على ما كانوا عليه . فلم يكن العمى والغشاوة الحاجبة لأبصارهم حادثة متجددة . ذلك هو السر فى اختلاف التعبير فى جانب السمع والقلب عن التعبير فى جانب البصر .

وتراه فى هذه الآية . قد قدم القلب فى الذكر على السمع . وفى آية أخرى فى سورة الجاثية وهى قول تعالى « أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون »

فى هذه الآية قدم السمع فى الذكر على القلب . ذلك أنه فى آية الجاثية قد ذكر الختم معطوفا على قوله اتخذ آلهه هواه . وأن من اتخذ إلهه هواه يكون أول ما يبدو منه للناس ويعرف هو إعراضه عن النصح وَلىُّ رأسه عن استماع الحجة ، فكان مظهر عدم السماع أول ما يبدو للناظرين وإعراض القلب عن الحجة والفهم إنما يدرك منه بعد إدراك إعراضه وعدم سماعه . فلذلك قدم السمع على القلب .

وأما فى آيتنا تلك فقد جاءت تلك الآية إثر الآية المختومة بقوله لا يؤمنون . والإيمان تصديق يقوم على الحجة والبرهان . وإدراك الحجة والبرهان إنما هو بالقلب . فكان التعليل المتصل الواضح لنفى الإيمان أن قلوبهم مغلقة لا ينفذ إليها ريح الحجة ولا نور البرهان . لذلك قدم القلب على السمع وجىء بالختم على القلب قطعا واستئصالا لمنابع الحجة وحجبا لصدى البرهان ليتم بذلك تصوير حالهم التى هم عليها وأنهم أمسوا وليس بمجديهم حجة قارعة ولا نذر صارخة وتراه فى هذه الآية أيضا ، قد عبر فى جانب الأبصار بجملة إسميه مما يفيد الثبوت . ولم ينسب إحداثها له تعالى ولا لهم هم . بل أخبر عن وجودها . وتراه فى آية الجاثية قد عبر فى جانب البصر بجملة فعلية . ونسب الإحداث لنفسه تعالى . ذلك أنه فى آية الجاثية يتحدث عمن اتخذ إلهه هواه وأن سننه اقتضت إضلاله بعد علم فكان الختم محدثا والغشاوة محدثة لأنها سيقت بعد الإضلال على علم مما يفيد تجددا وإحداثا .

وأما فى تلك الآية . فإنه لم يذكر فيها إضلالا على علم وإنما ذكر حالهم الحادث وغير الحادث إزاء دعوة الداعى فبين ما كان منهم بعد صوت النذير وما كانوا عليه قبل الدعوة وبعدها .

وتراه أيضا قد جمع فى هذه الآية القلوب والأبصار وأفرد السمع فقال : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » . وما ذاك ـ والله أعلم ـ إلا لأن القلب يختلف باختلاف مقدار ما يفهمه مما يلقى إليه من إنذار أو تبشير ومن حجة أو دليل . فكان عن ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم وكذلك شأن الناس فيما تنتظمه أبصارهم من آيات الله فى الكون فإن أنظارهم تختلف فى عمق تدبرها وضحولته . فكان من ذلك تعدد المبصرين بتعدد

مقادير ما يستنبطون من آيات الله فى الآفاق . وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعا شيء واحد هى الحجة يناديهم بها المرسلون . والدليل يوضحه لهم النبيون . ليس به اختلاف باختلاف الناس ، فما يسمعونه للدعوين أولا وآخرا هو شيء واحد . فهذا كتاب الله ـ القرآن ـ هو هو للأولين والآخرين . لذلك كان الناس جميعا كأنهم على سمع واحد إذ هم لا يسمعون إلا شيئا واحدا . فكان إفراد السمع إيذانا من الله بأن حجته واحدة ودليله واحد إذ الحق واحد لا يتعدد ، فسبحان من أعجز البشر بذلك الكتاب الذى أنزل على محمد الأمى يدعو به هؤلاء الذين كم أقاموا للبلاغة من ميادين ، وكم تسابق فيها منهم فرسان ، وأساطين ولكنهم لم يبلغوا فى تنافسهم ذلك الحد الذى بعد عن مدى قواهم ، ونأى عن نهاية أشواطهم .

وبعد فإن حكمة الله قد قضت أن يكون لكل شيء سبب ، وأن يربط بين الأسباب والمسببات برباط وثيق لن تجد معه لسنة الله تبديلا ، ولن تجد معه لسنة الله تحويلا ، فمن باشر من الناس سببا ، حصل عنه بلا تخلف مسببه ، حيث تتم المقتضيات وتنتفى جميع الموانع ، وعلى هذا فإنا إن نظرنا إلى أن الربط بين السبب والمسبب إنما هو بتكوين الله وخلقه وعن ربطه الوثيق بين الأسباب والمسببات نسبنا الأشياء لله تعالى غير تاركين النظر إلى أن قدرة الله فوق ذلك كله ، وأن فى نطاق القدرة أن يتخلف المسبب عن السبب ، غير أن حكمة الله لكمال نظام الكون ، وتتميمه جعلت استتباع السبب لمسببه نظاما مطردا وسنة لا تتخلف .

وإن نظرنا إلى مباشرة المخلوق للسبب وأنه الفاعل المختار صحت النسبة للعبد ، وعلى ذلك فإنه لما كانت نتيجة الهوى الجامح ، والإعراض النائى عن الحق ، ومتابعة التقاليد الباطلة ، ومسايرة الجاهلية الأولى الداعية إلى الكبر والمفاخرة ، لما كان كل ذلك مما ينتج ألا يصيخ الغارق فيه والمستغشى بحواجزه إلى صوت حق فيسمعه أو يتبصر نور هدى فيلمحه ، أو يتفهم برهانا فيفهمه ـ لما كان كذلك كان الذين ضلوا هم الذين أضلوا أنفسهم والذين حادوا عن الجادة ، وعموا عن نور الحق هم الذين حادوا بأنفسهم ، وهم الذين أعموا أبصارهم بأيديهم وهم الذين أصموا آذانهم ، فعليهم جزاء ما اكتسبوا من شر ولهم جزاء ما كسبوا من خير .

وبهذا تجد القرآن مرة يجيء فيه نسبة الإضلال إلى الله ومرة تجد فيه نسبة

الضلال إلى الناس ، فيقول مرة « يضل به كثيرا » وأخرى يقول « وضلوا عن سواء السبيل » هذا وذاك إنما نظر فيهما إلى الناحيتين المبينتين آنفا ، وفى الآية التى نحن بصددها قد نسب الختم على القلوب والسمع والتغشية على البصر إلى الله تعالى بناء على ما لله من سنة مطردة بالربط بين الأسباب والمسببات . فالناس هم الذين باشروا من فاسد الأعمال ومتابعة الهوى ما نسج على قلوبهم الأغلفة السمكية وأصم إلى ذلك آذانهم وأعمى أبصارهم فما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

ولما كان الذين وصلوا فى متابعة الهوى والتعمق فى الشرور إلى ذلك الحد الذى جمد معه إحساسهم ومات فيه شعورهم وتبلدت منه عواطفهم - لما كان هؤلاء قد لا يفزعهم وعيد بالحرمان من الأدبيات ، ولا يقلق بالهم العقوبات المعنوية ، قد لا يتأثرون بأن يواجهوا بأنهم قد أمسوا مظلمة قلوبهم لا يشع فيها نور للرشاد ، وصمت آذانهم لا ينفذ فيها صوت للحق ، وغشيت أبصارهم لا يلوح لها ضياء للهدى - أتبع هذا الوعيد وذلك الحرمان بالعقوبة المادية ، إذ قد أصبحوا جسمانيين غير روحانيين ، فلا يتألمون إلا بما يؤلم أجسامهم ويوجع أجرامهم فقال ولهم عذاب عظيم . لذلك تراه وصف العذاب بالعظم ولم يصفه بالإيلام فقال ولهم عذاب عظيم ، ولم يقل ولهم عذاب أليم ، لأنهم ماديون لا يدركون الكيفيات وإنما يدركون الكميات .

وعليه فهؤلاء الذين كفروا نعمة الله فلم يشكروها ، وجحدوا آيات الله فلم يتدبروها قد استحقوا من الله العقوبتين : المعنوية والمادية . وليس أسوأ من جزاء يحرم فيه العبد من كل ما يزينه من أدبيات وما يرفعه من معنويات ، وإلى ذلك يهان بالعذاب والتنكيل ، وما أوفر عدل الله إذ يجازى كل امرىء على مقدار ما يستحقه جزاء وفاقا « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

فيا أيها الناس : اشكروا نعمة ربكم ، وتدبروا آيات الله تستنير قلوبكم ، وترهف للحق أسماعكم ، وتجتلى آيات أبصاركم ، وتحلون بذلك من الله ساحة الرضا وتجزون أحسن الجزاء ، والله لا يضيع أجر المحسنين ؟

الهدى النبوى

نظرة الاسلام إلى الجهاد

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية . ولو وددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل .

أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود واللفظ من البخارى .

هـذا الحديث الجليل فى موضوع الجهاد فى سبيل الله وبيان منزلته الخطيرة فى الإسلام وما يستتبعه من كفالة الجنة لمن قتل مصداقا لقول الله عز اسمه .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » أما من لم يقتل فإن له أجر الجهاد العظيم . وثواب الدفاع عن حوزة الدين ، مع الجائزة الدينوية من الغنيمة الهنيئة الطيبة إن غنم المجاهدون ، فالمجاهد فائز فى كل أمره وعلى كل وجه يتصل به مبشر من الله ورسوله كما تقرر ذلك الآية الكريمة « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » وهكذا يحث النبى صلى الله عليه وسلم على الجهاد ويبين أنه كان حريصا على أن يخرج مع أصحابه فى كل جماعة تجاهد لولا خشيته أن يشق على المسلمين وأنه كان يود لو يغزو فيقتل ثم يبعث ثم يغزو فيقتل ثم يبعث أيضا ثم يغزو فيقتل وذلك لما يعلم من فضل الجهاد وما يحمله من سعادة فى الدارين .

شرح الحديث

انتدب فى الأصل بمعنى أجاب ومن شأن الإجابة أن تكون أثرا لطلب ودعاء وليس هنا طلب حقيقى ولا دعاء ، فلهذا التعبير نكتة لطيفة وهى أن الجهاد فى سبيل الله بمثابة الطلب من الله سبحانه ، والمطمع فى ساحة إحسانه وأن المجاهد طالب بلسان حاله يتولاه الله سبحانه بخير ما يتولى به عباده المؤمنين وهو إشارة عظيمة الى أن الجهاد لا يكون إلا فى نفوس كريمة قد صفت من الرعونات واتجهت بصادق النية الى بارىء المسموات إننا يا رب قد أسلمنا وجوهنا لك وضحينا بنفوسنا نرجو رحمتك ونخشى عذابك فأجرنا عليك وعوننا منك ولهذا يقول الله سبحانه « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » وقد أورد صاحب القاموس عبارة الحديث الشريف وشرحها فقال ، وانتدب الله لمن خرج فى سبيله أجابه الى غفرانه أو ضمن وتكفل أو سارع بثوابه وحسن جزائه أو أوجب تفضلا أى حقق وأحكم أن ينجز له ذلك .

والتفسير الأول فى كلامه تفسير بالمعنى الحقيقى وأما ما بعده فهو محاولة للوصول الى مراد الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر ما يلزم الإجابة ويتصل بها اتصالا قويا كما هو شأن المعانى المجازية فإن كل هذه المعانى من الضمان والتكفل والمسارعة والإيجاب والتحقيق يتصل بالإجابة التى تفهمها كلمة انتدب فى أصل وضعها .

وقد جاء الحديث فى روايتين لمسلم على المعنى المقصود بلفظه الحقيقى . فنى رواية له تضمن الله وفى أخرى تكفل الله ، وقوله لمن خرج فى سبيله . متعلق بانتدب لما فيه من معنى الضمان والكفالة . وفى سبيله متعلق بخرج . وكلمة فى تفيد التعليل كما يسلك العرب فى تعبيرهم بها أحيانا وهى فى حديث « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها » كذلك ، وهى مستعملة فى هذا المعنى نفسه فى الكتاب والسنة .

قال الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله . وتجاهدون فى سبيل الله » . وأمثاله كثير وفسرها النبى صلى الله عليه وسلم للسائل فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا . فهو فى سبيل الله وإذا فمعنى لمن خرج فى سبيله لمن خرج لإعلاء كلمته ونصرة دينه وإظهار هدايته وإتمام نوره ولو كره الكافرون .

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين أن هذا الجهاد الذى يستحق صاحبه كل ذلك الأجر المبين فى الحديث الكريم مشروط بإخلاص النية لله سبحانه فقال (لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى) ولعلك ترى أن ذلك إطناب فى القول لزيادة العناية وقوة التوجيه ، فإن الأمور العظيمة لا يكتفى فيها بملزوم عن لازم ولا بمعقول عن ملفوظ وإلا فان المجاهد لتكون كلمة الله هى العليا ، لا يكون كذلك إلا إذا كان خالص النية لله وكان خروجه إيمانا بالله سبحانه وتصديقا برسله وفى الحق إن كل شعائر الإسلام لا يقبل الله سبحانه منها إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه . وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك . « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » .

وإنك لواجد أيها القارىء الكريم إطنابا أيضا فى قوله وتصديق برسلى فإن الإيمان الصحيح بالله لا يكون إلا عند مصدق برسله ولذلك قالوا إنه عطف لازم على ملزوم والسر فى هـــذا الإطناب أيضا التوجيه إلى ناحية القدوة الصحيحة فى ذروة سنام الإسلام الجهاد ، فإن الأنبياء بعثوا بالهداية والدعوة الصالحة ولا بد للدعوة من حماية وحصانة والجهاد دعامة الحماية والسلاح ردع لكل جبار .

ويقولون إن فى الحديث التفاتاً ونحن نرى الالتفات من مسالك العرب فى الفصيح من كلامها ، وأنه يجرى كثيراً فى الكتاب الكريم كقوله « إياك نعبد » بعد قوله « لحمد الله » .

فهو التفات من الغيبة إلى الخطاب وكقوله حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم . وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة . وهو تلوين جميل وسر من أسرار اللغة القوية ، ولكننى أفهم فى الحديث أن الجملة الثانية وهى لا يخرجه إلا إيمان بى ، وتصديق برسلى محكية عن الله سبحانه ، وأرى فيها تقدير القول كأنه يقول انتدب الله عز وجل .. قائلا لا يخرجه إلا إيمان بى والكلام على هذا جار على الظاهر المترقب ، وأما الأول فهو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم إخباراً عن ما صنع الله سبحانه للمجاهد ، فالمتكلم مختلف والكلام فى وضعه الذى لا ينتظر السامع غيره فلا التفات فى الحديث ، وعلى ذلك تكون جملة لا يخرجه الخ حال من فاعل انتدب على تقدير هذا المحذوف ، ذلك ما ظهر لى والله العلم .

وأما قوله (أن أرجعه بما نال الخ) فإن أرجع بمعنى أرد مفتوح الهزة أو مضمومها رجعه وأرجعه وفى القرآن الكريم ، فإن رجعك الله إلى طائفة وهو مؤول بمصدر مجرور بالباء كأنه قال تكفل الله عز وجل المجاهد أن يرجعه بما نال ثم إنه بين الذى نال بقوله من أجر أو غنيمة ،

وأما قوله أو أدخله الجنة فهذا بيان للقسم الثانى الذى لم يعد إلى وطنه ، والمجاهدون قسمان راجع إلى أهله ناج من القتل وجزاؤه الأجر أو الغنم . وقتيل ميت بأجله وجزاؤه الجنة قد باعها الله سبحانه له ، وتكفل بالإحسان بها إليه كما فى قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

ثم بين النبى صلى الله عليه وسلم شدة حرصه على هذه الفريضة العظمية ووجه العذر له فى تخلفه عن بعض السرايا بأنه يخاف المشقة على الأمة الكريمة ، لأن خروجه يؤكد خروج المستطيع ، فإنه لا يقعد خلاف رسول الله بغير عذر إلا منافق .

وقد يحرص من لا استعداد له فيقع فى الحرج ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية[1] ، وقد بين فى حديث آخر رواه مسلم جهة المشقة فقال (لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى) . فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتخلف عن سرية واحدة إلا رحمة بالأمة ، وتخفيفاً عليها ، ولولا ذلك لم تفته واحدة إذا كان ذلك كان الجهاد فى منزلة لا تتسامى إليها منزلة بعد الصلاة والصوم والزكاة والحج ، بل إن الجهاد يرخص فى هذه الأركان بنقص أو تأجيل أو إعفاء إذا اقتضى ذلك الأمر ، كما فصل فى كتب الفقه . وقد زاد النبى صلى الله عليه وسلم أمر الجهاد تأكيداً وترغيباً فقال (ولو ددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أحيا ثم أقتل) . وهذه هى الجملة الثالثة من جمل الحديث الشريف :

وأما إيثار (ثم) فى العطف فإنه من باب التراخى فى الرتبة وليس للتراخى

---

(١) السرية : القطعة من الجيش من خمسة أنفس إلى أربعمائة .

فى الزمان بدليل رواية مسلم المذكورة فهى بالفاء وتكرار القتل ثلاث مرات جرى على العادة فى التكرار والتأكيد لبيان شدة الحرص وليس للتحديد .

بقى مما يخطر بالذهن من مباحث الحديث الشريف أن دخول الجنة مكفول لكل مؤمن فما مزية الشهيد ؟ وللجواب على هذا نقول إن هذا ضمان من الله سبحانه للمجاهد أن يموت على إيمانه وطهره وأن خاتمته خير وأنه ليس ممن يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الإذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار .

ويقول النووى فى شرح مسلم نقلا عن القاضى إن المجاهد يدخل الجنة عند موته كما قال تعالى فى الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ويحتمل أن المراد دخوله الجنة عند دخول السابقين والمقربين بلا حساب . وتكون الشهادة مكفرة للذنوب كما فى الحديث الصحيح . اﻫ وهذا كلام مقبول وهو مؤيد بالآية الكريمة التى جعلت الشهيد فى صحبة النبيين والصديقين « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقا » .

وأما ما يستفاد من الحديث فكثير وعلى رأسه فضل الشهادة والغزو فى سبيل الله . وأن الجهاد لابد أن يكون لاعلاء الحق والنضال دونه وكذلك رفق النبى صلى الله عليه وسلم بأمته وإيثاره الرفق بهم على ما يجب من الخير . وكذلك تقديم بعض المصالح على بعض عند التعارض . وكذلك القسم عند العناية والتأكيد وفيه جواز تمنى الخير ولو كان غير ممكن فى العادة كالأحياء بعد الموت وفيه أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين . قال الفقهاء إن الجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين إلا إذا هجم العدو فإنه يكون فرض عين فتخرج المرأة بدون إذن زوجها والعبد بدون إذن سيده . وبعد فإن نواحى الترغيب فى الجهاد والترهيب من إهماله تحتل فراغا كبيرا جدا من الكتاب الكريم والسنة النبوية ولا غرو فهو ذروة سنام الإسلام وحامى حمى المجد وحارس الشرع الكريم ، وما يحمله من سلام ووئام ومودة بين الناس ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

الأزهـــــــر

الجامعة القديمة ـ الحديثة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

تعريب المقال الفرنسى الذى أنشأه فضيلته إجابة لرغبة وزارة الخارجية المصرية ، لنشره فى جريدة « الموند » الباريسية فى عددها الخاص بمصر ، بمناسبة انعقاد الدورة السادسة لجمعية الأمم المتحدة فى باريس (ديسمبر ١٩٥١ — يناير ١٩٥٢) .

— ٢ —

لمحة عن تاريخ الأزهر الثقافى

يقوم الأزهر منذ افتتح (فى يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ ٢٢ يونيو سنة ٩٧٢ م) بوظيفتين فى وقت واحد : وظيفة روحيـة ووظيفة عملية . فهو بيت تحيا فيه القلوب بإقامة الشعائر والعبادات ، وتستنير فيه العقول بالتعلم والتعليم .

لا أقول إنه كان من أول يوم مسجدا ومدرسة فحسب ، بل أقول إنه من أول يوم مسجد وجامعة ، بأدق وأحدث معانى كلمة « الجامعة » .

وبحسبنا أن نشير إلى ألقاب بعض العلماء الذين عهد اليهم بالتدريس فيه غداة إنشائه لنعرف سعة ميـدان نشاطهم وتشعب وجوه بحثهم فى مختلف العلوم : فقد كان منهم رجال القانون الشرعى أمثال القاضى على بن ميمون المتوفى فى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) وأخيه القاضى محمد المتوفى فى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٨ م) والمؤرخون أمثال الحسن بن زولاق المتوفى فى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) والفلكيون أمثال المسبِّحى المتوفى فى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) والنحويون أمثال الحوفى المتوفى فى السنة نفسها . . وهكذا . .

وكانا نعلم مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الرياضية والطبيــــة والفلكية والجغرافية ، تلك العلوم التى أنشؤا لهـا فى عهد الحاكم سنة ٣٩٥ ﻫ مؤسسة خاصة أسموها دار الحكمة . وهذا ممـا يرجح فى نظرنا أن هذه العلوم كانت موضوع دراسة فى الأزهر أيضاً ، بالاضافة إلى العلوم المشار اليها آنفا . غير أنه ليس من شك فى أن الصدارة والشطر الأكبر من العناية كانتا للعلوم النقلية الدينية ولا سيما علم قانون الشريعة .

نعم إنه فى عهد الدولة الفاطمية ـ أعنى فى غضون قرنين كاملين ـ اقتصر التعليم الدينى على المذهب الشيعى فأصبح هو المذهب السائد فى التطبيقات العملية والأحكام القضائية ، وصارت مذاهب أهل السنة مجهولة ، بل كانت كتبهم تصادر فى بعض الأحيان . على أنه لم ينته العصر الفاطمى حتى انعكست الآية وصارت الدولة فى مصر لتلك المذاهب التى كانت مطاردة من قبل . ذلك أنه منذ استولى الأيوبيون على الحكم ٥٦٧ ﻫ (١١٧١ م) أدخلوا فقه أهل السنة بمذاهبه الأربعة المعروفة [١] ومنعوا تدريس المذهب الشيعى فانقرض من الأزهر ومن مصر كلها [٢] .

وقد شملت هذه المقاطعة مكان التعليم نفسه ، فهجر الأزهر أو كاد ، ومنعت منه خطبة الجمعة ، وانصرفت العناية إلى المساجد الأخرى التى أنشئت من قبل ، كمسجد عمرو بن العاص ومسجد ابن طولون ، وأنشئت عشرات من المدارس خصصت كل واحدة منهـا بطائفة من العلوم ، فلم تقم واحدة منها بأداء الرسالة الجامعية التى كانت للأزهر .

فلمـا أقبلت دولة المماليك الأولى وولى السلطان الظاهر بيبرس أعاد للأزهر مكانته فى سنه ٦٦٥ ﻫ (١٢٦٧ م) بل صار اسم الأزهر أعظم وألمع منه فى أى

---

(١) كان أول المذاهب التى استوطنت مصر فى عهد الأيوبيين مذهب الشافعى ثم تتابعت المذاهب الثلاثة الأخرى من بعد ذلك .

(٢) حتى أصبحت كتب الشيعة مجهولة فى مصر ، وبالعكس . وصار هذا التناكر مدعاة للفرقة العصبية بين أهل العلم . وهذا هو ما تسعى الآن لازالته « جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية » التى أنشئت فى مصر منذ أعوام قليلة .

وقت سبق ؛ ذلك أن مصر كانت يومئذ ملجأ لآخر الخلفاء العباسيين ، ودارا للخلافة الإسلامية ، بعد وقوع بغداد فى أيدى التتار[١] سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) ، ونال الأزهر قسطه من هذا الشرف ، فضاعف من جهده وقوة إشعاعه ، ووفرة نتاجه العلمى . وكان ذلك العهد على حد تعبير بعض المستشرقين ، هو العصر الذهبي للجامعة الأزهرية .

بيد أن هذه الحقبة من الإشراق والازدهار ، تلتها حقبة من الركود والانحدار منذ استولى العثمانيون على مصر فى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) إذ كان فتحهم لها فتحا حربيا مجردا ، لم يزيدوا به شيئا فى ثروتها المادية أو الأدبية — وكذلك كان شأنهم فى سائر البلاد التى حكموها — بل إنهم ، بشهادة واليهم « محمد على » مؤسس الأسرة المالكة الآن فى مصر ، تركوا هذه الثروات تضمحل من جميع الوجوه ؛ ونضيف نحن أن هذا الاضمحلال فى الميدان الثقافى كان أفدح مصابا ؛ لأن قلة عنايتهم بالتعليم فى مصر جعلتهم يهملون المدارس التى أنشئت فى العهود السابقة ؛ كما أن جهلهم باللغة العربية جعلهم يقررون اللغة التركية لغة للحكومة .

هنالك بقى الأزهر وحيداً ، منطويا على نفسه ، منقطعا عن تيار الحضارة والعلوم التى بدأت تزدهر فى أوربا إذ ذاك ؛ واستمر الأزهر مدى القرون الثلاثة التى حكم العثمانيون فيها مصر يجاهد لحفظ البقية الباقية من اللغة العربية والعلوم القرآنية التى أصبحت فى حال ذبول أو شبه جفاف ؛ وكان له الفضل على كل حال فى الابقاء على حشاشة هذا التراث الإسلامى ، على الرغم من العوامل الكثيرة التى كانت تتعاون على فنائه .

ثم كانت ولاية (محمد على) لمصر منذ سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) بداية

---

(١) يشهد التاريخ أن العالم الاسلامى مدين دينا مزدوجا لسلاطين مصر فى صد غارات الأعداء الذين انقضوا على بلاد الاسلام من الغرب تارة ومن الشرق تارة أخرى . فهو مدين أولا للأيوبيين الذين كان لهم الفضل فى وقف هجوم دول الغرب الصليبية عند بلدة « حطين » فى فلسطين ؛ ومدين ثانيا للماليك الذين صدوا تيار الغزوات الشرقية التتارية عند بلدة « عين جالوت » فى فلسطين أيضا . ويمتاز عصر الماليك هذا بأن مصر كانت فى عهدهم هى قبلة أنظار المسلمين باعتبارها مركز خلافتهم .

مبعث حقيقى لمصر جعل الحياة تدب فى جميع أوصالها ، بعد أن خيم عليها السكون والعقم قروناً .

ولئن كانت مراعاة هذا الأمير العبقرى لشعور بعض الشيوخ الأزهريين - الذى كانوا سيىء الظن بكل علم غير مألوف إذ ذاك فى دائرتهم الضيقة - قد حالت بينه وبين إلزام الأزهر بضروب من الإصلاح الجوهرى الذى أدخله فى كل مكان ، لقد فكر هذا النابغة فى أسلوب آخر من الانتفاع بالأزهر ؛ إذ أوفد عدداً من شباب علمائه فى بعوث علمية ، للدراسة فى أوربا ، وفى فرنسا على وجه أخص وإن أشهر الأسماء فى قائمة هؤلاء الأزهريين الذين نالوا حظاً من الثقافة الغربية ، هو اسم رفاعة الطحطاوى ، الذى أصبح بعد عودته من فرنسا ناظراً لمدرسة الألسن .

ولكن الأزهر نفسه بقى حيناً من الدهر مقاوماً لفكرة تعديل مناهج دراسته وإمدادها ببعض العلوم التى كان يسميها « العلوم الحديثة » مع أنها فى الحقيقة جد قديمة ، وأنها بدخولها فى بلاد الشرق إنما عادت إلى موطنها الأصيل الذى منه خرجت .

وكانت أول خطوة متواضعة فى سبيل إدخال هذه العلوم — أو على الأصح إعادتها — فى الحظيرة الأزهرية هى الخطوة التى قام بها الخديوى عباس بطلب المرحوم الشيخ محمد عبده (قانون الجامع الأزهر الصادر فى ٢٠ من المحرم سنة ١٣١٤ هـ أول يوليو سنة ١٨٩٦ م) . فقد جاء فى هذا القانون أن بعض العلوم الرياضية كالحساب والجبر تعد مواد إجبارية (مادة ١٧) ، وبعضها كالهندسة والجغرافيا والتاريخ تعد اختيارية ، ويكون بها الترجيح والإيثار (مادة ١٨) .

وفى عهد الخديوى نفسه تقدمت المناهج خطوة ثانية ، وفقاً للقانون المسمى بقانون الجامع الأزهر وما شاكله من المدارس الدينية العلمية الإسلامية (وهو القانون رقم ١ لسنة ١٩٠٨ م الصادر فى ٢ صفر سنة ١٣٢٦ هـ - ٥ مارس سنة ١٩٠٨ م) وطبقا للائحته الداخلية المصدق عليها فى المجلس العالى المنعقد بالاسكندرية تحت رياسة الخديوى فى ٢٠ من رمضان سنة ١٣٢٦ هـ (١٥ أكتوبر

سنة ١٩٠٨م) . فقد أدخل هذا القانون فى المناهج مجموعة « العلوم الرياضية والعقلية التى لا تنافى الدين » ، وحددت اللائحة الداخلية هذه العلوم فلم تكتف بجعل المواد الاختيارية فى القانون السابق إجبارية ، بل أضافت إليها علوما أخرى كخواص الأجسام ، وقواعد الصحة ، والتربية العملية ، والهيئة والميقات ، فى سبع وثلاثين مادة كلها إجبارية . بدل خمس عشرة مادة فى القانون السابق .

إلا أن هذا المنهاج الجديد لم يستطع أن يفرض نفسه على الجمهور الأزهرى إلا بعد مراحل من المقاومة تارة ، ومن التردد تارة ، ومن التجربة الجزئية تارة أخرى ، وإلا بعد أن آتت تجربته ثماراً طيبة فى المعاهد التابعة للأزهر فى الأقاليم .

فإذا بحثنا عن سر هذه المقاومة الجامحة التى قوبل بها التنظيم الجديد فى أول الأمر ، ربما ظننا أن مردها إلى أن هذه المواد كانت جديدة كل الجدة فى أعين الأزهريين جميعاً . ولكن الواقع أنه لم تمض فترة واحدة فى التاريخ كانت فيها هذه العلوم غريبة بالكلية عن الأزهر ؛ فقد رأينا فى كل العصور عدداً من الطلاب الأزهريين كانوا يعنون قليلا أو كثيراً بالدراسات العلمية إلى جانب دراساتهم الأدبية أو الشرعية . وإن أسماء حسن الجبرتى ، قبل محمد على ؛ وحسن العطار ، الذى صار شيخاً للأزهر فى عهد محمد على ؛ ورفاعة الطحطاوى ، فى عهدى محمد على وإسماعيل ، ومحمد عبده ، فى عهدى توفيق وعباس الثانى ، لهى أمثلة بارزة تقرر لنا هذه الحقيقة . وسنكون بها أشد اقتناعا إذا نحن اطلعنا على بيان العلوم الواردة فى الإجازة التى نالها الشيخ أحمد الدمنهورى ، الذى صار شيخاً للأزهر فى سنة ١١٨٢هـ (١٧٦٨م) . فهذه الاجازة تعد فى أثناء سياقها للعلوم التى تلقاها فى الأزهر علوم الحساب والجبر والهندسة ، وعلوم المواليد الثلاثة ، وهو المسمى الآن بالتاريخ الطبيعى ، وعلم استنباط المياه ، وعلم التشريح ، وعلمى الهيئة والميقات إلى غير ذلك .

ولدينا وثيقة أخرى أعجب من هذه . تلك هى المذكرة التى وضعتها مشيخة الأزهر فى عهد اسماعيل وبعثت بها على يد الحكومة المصرية إلى لجنة معرض باريس فى سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٤ م) . فقد جاء فى هذه الوثيقة ذكر مادة يدهش

لها المحافظون ، ويصفق لها أنصار التقدم والتوسع فى العـــلوم . تلك هى مادة الموسيقا [١] التى كانت تدرس فى ذلك العهد لنفر من الطلاب الأزهريين .

والنتيجة التى نخلص إليها من ذلك كله هو أن سر المقاومة الأولى لم يكن هو الغرابة التامة لهذه العلوم ، ولا مجرد ورود أسمائها فى المنهاج ، ولكن طابع الإلزام بجميع هذه المواد لجميع الطلاب هو الذى نفر جمهورهم منها فى بادئ الرأى ، ثم استسلموا لها بالتدريج ، وكأننا بها وقد نالت فى آخرة الأمر رضاهم واستحسانهم .

* * *

هذه الخطوة الواسعة فى تطور مناهج التعليم فى الأزهر ستبدو لنا ضيقة النطاق قليلة العمق ، إذا نحن قارنا بينها وبين الإصلاحات الحديثة التى تحققت بأمر الملك فؤاد الأول إجابة لالتماس شيخين متعاقبين من شيوخ الأزهر ، وهما المرحومان الشيخ الظواهرى والشيخ المراغى .

فمن قبل كان المفروض فيمن يحمل شهادة العالمية الأزهرية أن يكون أهلا للإجابة عن كل سؤال يوجه إليه فى أمر العقيدة أو الشريعة أو اللغة أو غيرها .

غير أنه لما كان التشعب المطرد والتنوع المتزايد فى كل مجموعة من العلوم سببا فى عجز المتعلمين عن الجمع بين التعمق والاستيعاب لجميع موادها ، فضلا عن المجاميع الأخرى، أصبح الحل الوحيد للمشكلة فى عصرنا هذا هو الالتجاء الى فكرة التوزيع والتخصيص . وهى الفكرة التى أخذت بها جميع المؤسسات الثقافية الحاضرة ؛ وجاء الأزهر فى آخر الأمر فاعتنقها بدوره ، وسار الى تحقيقها بخطوات بطيئة ولكنها ثابتة متصاعدة ، حتى أتمها فى مرحلتين اثنتين .

ففى المرحلة الأولى (قانون ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م) كانت أقسام التخصص إنما تبدأ بعد الاجازة العامة المسماة بشهادة العالمية . أما فى المرحلة الثانية (قانون

---

(١) هكذا وصلت سعة الأفق فى البحث العلمى إذ ذاك الى حد ربما يتورع الأزهر فى أوج نهضته الحاضرة أن يفكر فى الوصول إليه .

١٣٤٩ هـ ـــ ١٩٣٠ م) فإن هذا التوزيع قد أخذ به فى صميم التعليم العالى نفسه ، فانقسمت العلوم عقب الشهادة الثانوية إلى ثلاث شعب ، لكل شعبة منها كلية (١) وترك الباب مفتوحا لتنويع التخصص (٢) بعد إجازة التعليم العالى ، كما ترك مفتوحا لإنشاء كليات أخرى .

هذا هو أول الجوانب الجديدة فى التنظيم الأزهرى الذى استحدث فى عهد فؤاد .

وسنرى أن الجانب الثانى منها أبين جدّة وأعظم ابتكارا : فقد كان الأزهر منذ أنشئ لا يعرف فى دروسه وكتبه إلا اللغة العربية ولم تكن هناك لغة أخرى تدرس به فى أقسام عامة أو خاصة ، حتى صدر القانون المشار إليه آنفاً وهو قانون ١٣٤٩ هـ ـــ ١٩٣٠ م فأدخل لأول مرة فى التاريخ تعليم لغة أجنبية فى منهاج التخصص لكلية أصول الدين ؛ ثم جاء القانون الذى بعده فى العهد نفسه (قانون ٣ من المحرم سنة ١٣٥٥ هـ ـــ ٢٦ مارس ١٩٣٦ م رقم ٢٦) فعمم ذلك فى سائر الكليات حيث أدخل فيها تعليم جملة من اللغات الأجنبية ، غربية وشرقية ، اجبارية أو اختيارية .

ولا حاجة بنا إلى الخوض فى تفاصيل المواد الأخرى التى زودت بها المناهج لأول مرة فى عهد فؤاد ، مثل تاريخ الملل والنحل ، وتاريخ التشريع ، وتاريخ القضاء والقضاة ، ومقارنة المذاهب ، والقانون الدولى ، والآداب المقارنة وغيرها ...

ولكنه لا ينبغى لنا أن نختم الحديث عن هذا العهد ، دون أن نذكر من بين التنظيمات الأزهرية عملا جليلا ثالثا توج به المغفور له الملك فؤاد حياته ؛ وأعنى به نظام البعوث الأزهرية للدراسات العليا فى أوربا ؛ ذلك العمل المبرور الذى جدد به ذكرى سلفه العظيم مؤسس الأسرة العلوية . فإن فؤاداً رحمه الله

---

(١) كان الافتتاح الرسمى للكليات الثلاث بحضور الملك فؤاد فى يومى ١ ، ٢ من ذى الحجة ١٣٥١ هـ (٢٧ ، ٢٨ مارس سنة ١٩٣٣م) أما الافتتاح الفعلى فكان قبل ذلك فى سبتمبر ١٩٣٠م أى فى نفس العام الذى صدر فيه القانون .

(٢) وصدر القانون فعلا بتنظيم هذا التخصص الثانى فى ٥ صفر ١٣٥٢هـ ٢٩ مايو ١٩٣٣ برقم ٣٧ .

شرف باسمه الكريم فى سنة ١٩٣٦ م قبل وفاته بقليل بعثة أزهرية — هى أولى البعثات فى هذا القرن إلى جامعات أوربا — مؤلفة من سبعة من شباب الأساتذة المدرسين فى الكليات ، أوفد أحدهم إلى ألمانيا ، واثنين منهم إلى انجلترا ، وأربعة إلى فرنسا ، وكان لكاتب هذه السطور شرف عضوية هذه البعثة الفرنسية .

* * *

بقيت حلقتان أخريان فى هذه السلسلة من التشريعات المنظمة للجامعة الأزهرية تحققت كلتاهما فى عهد جلالة الملك فاروق . وإنهما لجديرتان بالإشارة إليهما لما فيهما من الدلالة على مبلغ عناية جلالته بنشر الثقافة الدينية بأوسع قدر ممكن بين الجمهور المصرى وبين الشعوب الإسلامية .

أما الأولى فإنه لما رأى أن هذه الرغبة السامية لا تسدها الأقسام النظامية التى يقصدها الطامحون فى الشهادات والألقاب أصدر تشريعا منظما لأقسام عامة يؤمها عشاق المعرفة لذاتها ، بغير قيد من سن ولا ثقافة معينة (قانون ١٣٦٠هـ — ١٩٤١ م) .

وأما الثانية فإنه تشجيعاً لطلاب الوفود الاسلامية من البلاد التى لا تحسن التكلم باللغة العربية أمر بإنشاء أقسام إعدادية تمكنهم بعد إتقان هذه اللغة من دخول ما يشاءون من الأقسام النظامية أو العامة (قانون ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م) .

وهكذا أصبحت الجامعة الأزهرية مجهزة — من حيث المناهج والنظم — بكل الأدوات والوسائل التى تجعلها فى مستوى أحدث الجامعات ، مع المحافظة فى الوقت نفسه على طابعها الجوهرى وهو حراسة لغة القرآن وعلومه .

ومهما يكن من أمر ، ومهما نغض نظرنا عن هذا التطور فى النظم والمناهج ، فإن هذه الجامعة تعد فيما نعلم مثالا فذا فى عالم الجامعات ، بفضل هذا الدور المزدوج الذى تقوم به دائماً فى تثقيف العقول وتهذيب النفوس ، بحيث لم ينفصل طابعها الروحى عن طابعها الزمنى فى عصر ما من عصور التاريخ ، وإن اختلف مقدار العناية بهما باختلاف تلك العصور .

العدل والمساواة

لفضيلة الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ العام بالأزهر

قال تعالى فى محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

فى تعاليم هذا الدين الإسلامى الذى ختم الله به الأديان السماوية ، وأكمل به نعمه على الإنسانية ، ورضيه دينا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفى أسسه القائمة على دعامات من الحق والهدى ، أمر الله بالعدل ، وهو واسطة عقد الفضائل وسبيل سعادة الأمم والأفراد وعنوان قوة النفس ، ورجاحة الرأى ، وسلامة التفكير .

فالعادل الذى يزن الأمور بالقسطاس الذى لا رجحان فيه للهوى ، ولا امالة به عن الحق ، إنما ينصب نفسه لحمد الناس له ، وتقديرهم لنصفته ، وتكريمهم لهذا الخلق الذى يملأ الدنيا كرامة وسلامة وأمنا ، ثم هو ينصب نفسه لحب الله قال عز شأنه :

« وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ، وحب الله يستتبع فى هذه الحياة طيب العيش ، ومتعة الرضا ، ويستتبع فيما بعد هذه الحياة أكرم الجزاء قال تعالى « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وروى مسلم والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا) .

إن العدل وضع للأمور فى نصابها وعدم التجاوز بها حدودها ، فإن التجاوز بغى وإثم وطغيان . وأعلى مراتب العدل هو عدل العقيدة فى الاعتراف بوحدانية الله ، وأحقيته بأن يعبد فلا يجحد ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ،

لأنه الواحد المتفرد بالألوهية فى قدرة لا يعجزها شىء ، وفى علم لايعزب عنه شىء ، وفى حكمة قام على أساسها ملك السموات والأرض ، فمن لم يعدل فى عقيدته فقد ظلم نفسه ، وباء بغضب من الله ، قال تعالى : « والكافرون هم الظالمون » .

أما العدل فى المعاملة ، فعلى نظامه يعمر هذا الكون حين يتجلى فى الناس جلال الحق فيتخذونه هدفا ، ويتملك نفوسهم حب النصفة فيجعلونها غاية ، هنالك يسمو بالناس عدلهم ويجمل منهم صنيعهم :

يعدل التاجر فلا يبخس الكيل،ولا يخسر الميزان، ولا ينفق سلعته باليمين الفاجرة.

ويعدل الموظف فيما يقوم عليه من شئون فيؤدى واجبه فى مراقبة للحق ، وفى غير شطط ولا اعنات .

ويعدل الرئيس ، فلا يميل به الهوى ، ولا تجنح به الزلفى ، فيهدر الكفايات ... للشفاعات .

ويعدل الحاكم فلا يظلم بريئاً ولا يبرىء ظالماً ، ولا يقهر ضعيفا ولا ينصر آثما .

ويعدل الرجل فى بيته بالقوامة الراشدة ، والاشراف الحازم ، والحب الكريم .

وتعدل المرأة فيما يحيط بها ، فى مراعاة حقوق التربية ، وفى الحفاظ على صيانة العرض والمال والولد ، فلا تبذل ولا تضييع ولا إسراف .

يعدل هؤلاء وأولئك فلا تسمع إلا قولة الحق ، ولا تُرى إلا وثبة العزة ، ولا تسود إلا صيحة القرآن فى أمة القرآن : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

* * *

يا معشر الناس :

تعالوا لنوازن بين هذه التعاليم الإسلامية السامية ، وبين هذا الشذوذ الصارخ والتجاوز الآثم فى رعاية الحقوق والعدل بين الطبقات . جاء الإسلام فانتصف لكل مظلوم ، وكفل لأصحاب الحقوق حقوقهم ، فأخذ بيد الضعيف ، وواتاه حقه المضيع ، وضرب على يد الآثم المتطاول ، حتى أرجعه وأقعده ورشده ، وهد من كيان الظلم والظالمين ، فإذا بالمسلمين تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم عون على من سواهم ، وإذا بسياسة العدل تؤمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وتعطى كل ذى حق حقه .

أفسمعتم ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لأبى مريم السلولى ، وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب ، والله أنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ، قال : أفيمنعنى ذلك حقاً ؟ قال : لا ضير ، إنما يأسى على الحب النساء . . .

نعم لم تحمل كراهية عمر لقاتل أخيه على أن يمنعه حقاً ، وكيف يظلمه ؟ وهو الذى تلقى فى المدرسة الأولى عن معلم الإنسانية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلسا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر » .

* * *

أما هؤلاء الطغاة العتاه ، المتشدقون باسم المدنية والإخاء والمساواة ، فهذه مدنيتهم الطاغية تسئ إلى الآمنين ، وتستعمر فى عدوان وطغيان بلاد الوادعين .

وهذا أخاؤهم الكاذب يحفزهم حتى فيما بينهم إلى حروب مستعرة ، ونيران متأججة ، وإعداد ما يقوضون به البلاد والعباد .

وهذه مساواتهم المزعومة ، ينقضون بها على الشعوب المهضومة ، ليسلبوا أعراضهم وأموالهم ويسفكوا دماءهم ، ثم يتصايحون بالحرية والإخاء والمساواة .

فأينا أهدى سبيلا ؟

عدل الإسلام وكفالة الحقوق بين الناس ، أم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان فى سفك دمه وسلب ماله وهتك عرضه ؟

ألا فليبؤ الظالمون بغضب الله ، وليرتقب المظلومون نصر الله ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ثلاثة لا ترد دعوتهم . الصائم حتى يفطر والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء . ويقول الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

أما بعد فإن رسول البشرية سيدنا محمد بن عبد الله أقام صرح العدل على أمتن أساس ، وجاهد فى سبيل الحق أهل الهوى فظفر بنصر الله ، وهذه ذكرى رسالته الخالدة تتجدد فتحمل معها فى جمال وعزة تعاليم الحق والعدل ومكارم الأخلاق .

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

الثُّرَيَّا ، الثُّرَيَّيَات ، الثُّرَيَّات

الثريا عند العرب فى وضعها الأصلى اسم لعدة نجوم مجتمعة تبدو نجما واحدا . ويذكر كثير من العلماء أن الثريا كوكب يجمع عدة نجوم ، ولا يرضى هذا الشهاب الخفاجى فى كتابته [1] على الشفا للقاضى عياض ، وإنما هى عنده منزل من منازل القمر تكون عنده النجوم ، وهو يقول : « وهى منزل من منازل القمر ، به نجوم مجتمعة ، جعلت علامة . فقول بعض الشراح : إنها كوكب وهم منه » . ويبدو أن إنكار الشهاب للقول بأنها كوكب لأن الكواكب محصورة معينة فى السبعة المنظومة فى قوله :

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

وما عدا هذه السبعة نجوم ، فالثريا من النجوم لا من الكواكب ، وفى الواقع أن العرب تسميها النجم إسما غالبا عليها ، وقد فسر بها بعضهم النجم فى قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » .

والثريا فيما يقال — سبعة أنجم ، ستة ظاهرة ، وواحد خفى يمتحن الناس به أبصارهم . وفى الشفا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى فى الثريا أحد عشر نجما ، ولكن قال [2] السيوطى فى مناهل الصفا : هذا لم يوجد فى شىء من كتب الحديث.

وقد كانت كثرة نجوم الثريا سببا فى تسميتها بهذا الاسم ؛ إذ أخذ من الثروة وهى الكثرة . والثريا - فى الأصل - تصغير الثَّرْوى ، وكان التصغير للتعظيم . والثروى مؤنث الثَّرْوان ، وبه سمى الرجل .

---

(١) ج ١ ص ٤٧٠ من طبعة استامبول . (٢) انظر شرح الشهاب للشفا .

ولا نرى فى المعاجم ولا فيما وقفنا عليه من كلام العرب جمعا للثريا ولا تثنية لها . والسبب فى هذا واضح جلى . فإنهم إنمـا يعرفون منها النجم المؤلف من عدة نجوم ، فالثريا علم له . وليس عندهم من داع لطلب تثنيته وجمعه .

ولقد سمى العرب بالثريا من النساء . وهـذا على التشبيه بالنجم . وكان عمر بن أبى ربيعة ينسب بالثريا ، ومن قوله فيها :

من رسـولى إلى الثريا فإنى ضقت ذرعا بهجرها والـكتاب

وهذا ممـا يدعو إلى تثنيتها وجمعها .

والثريا أيضا تطلق على شىء شبيه بالنجم ، وهو أداة تجمع عـدة مصابيح وسرج إذا أضيئت معا كان لها لألاء وضياء شديد . وجاء التنويه بهـذا المعنى فى اللسان ففيه : « والثريا من السرج على التشبيه بالثريا من النجوم » .

وتسمى الثريا ـ فى معناها الأخير ـ عند العامة بالنجفة . ولا أدرى مأتى هذا الاسم ومجازه .

وكانت الثريا ـ بهذا المعنى ـ معروفة متداولة فى المغرب والأندلس ، وكانت تتخذ فى المساجـد الجـامعة الـكبيرة . وكان يرادفها عند المشارقة التنور ، وهو فى الأصل الموقد الذى يختبز فيه أو الفرن ، وكأنما سمى بذلك الثريا لـكثرة ما يوقد فيها من السرج ، فـكأنما تنقلب تنورا .

وهاك بعض النصوص فى ذلك .

ففى كتاب « الأنيس المطرب بروضة القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » المطبوع فى أوربة فى الـكلام على جامع القرويين إذ يتحدث عن سيدة محسنة انفقت عليه [1] : « وجعلت محرابه فى موضع الثريا الـكبرى الآن » وفيه أيضا : « [2] وفيها علقت الثريا بالجامع الجديد من فاس ، ووزنها سبعة قناطير وخمسة عشر رطلا » .

---

(١) ص ٣٠ (٢) ص ٣٢٧ نفخ الطيب ١ / ٣٤١ من طبعة أوربة .

وفى الكامل لابن الأثير فى حوادث سنة ٤٩٢ حيث يتكلم على ملك الفرنج لبيت المقدس : « وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم . وأخذوا تنورا من فضة ، وزنه أربعون رطلا بالشامى . وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا » ، وفى نفح الطيب فى الكلام على جامع قرطبة : « وقال صاحب نشق الأزهار : إن فى جامع قرطبة تنورا من نحاس أصفر ، يحمل ألف مصباح . وفيه أشياء غريبة من الصنائع العجيبة » ، وصاحب نشق الأزهار هو ابن إياس المصرى ، فهو مشرقى كابن الأثير .

وأعود الى الثريا فأقول : إن الثريا فى معنى العلم للمرأة أوفى معنى جماع المصابيح يحتاج الأمر الى تثنيتها وجمعها ، فكيف تجمع وتثنى ؟

إن الجمع الجارى على ألسنة الناس قديماً وحديثاً هو الثريات ، وتثنيتها قياساً على ذلك الثريان .

ونرى فى صحيفة المصرى الصادرة فى يوم ٢ / ١ / ١٩٥٢ بصدد عرض تجارى (إعلان) لصنف من الثريا - فى معنى المصابيح - : « ثريات رائعة الجمال ، من إيطاليا وتشيكوسلوفاكيا ، تتلألأ كأحجار الماس فى صالات بيتك وغرفه » .

وفى نفح الطيب فى الكلام على جامع قرطبة (١) : « وثريات المقصورة فضة محضة » ، وفيه أيضاً : « وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة ٢٨٠ ثريا » . وفيه أيضاً : « وذكر أن عدد ثريات الجامع التى تسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصة سوى ما منها على الأبواب ٢٢٤ ثريا » .

وقد جرى بحث طويل الذيل فى هذا الجمع المتعارف : « الثريات » فأنكره بعض الباحثين ، ووسموه بالخطأ واللحن ، ومجافاة المعروف من قواعد العربية .

ذلك أن الواجب أن يقال : الثريَّيات ، كما يقال الحبليات والكبريات والصغريات والدرجات العليبيات . وهذا على ما هو المقرر فى أمثاله أن تبدل ألف التأنيث المقصورة ياء .

---

(١) ١ / ٣٦٠ وما بعدها .

وهذا كلام صحيح لا غبار عليه . لولا أن (الثريات) قد ذاعت وشاعت ، وأصبح من العسير صرف الناس عنها وتجنيبهم إياها .

وقد وجدت لها تخريجاً من مذهب الكوفيين : فهم يجيزون حذف الألف إذا كانت خامسة فصاعدا ، فى التثنية والجمع ، ويجعلون ذلك مقيساً مطردا . ويقول الرضى فى شرح الكافية [1] : « وقد يحذف الألف الزائدة خامسة فصاعدا فى التثنية والجمع بالألف والتاء ؛ كما فى زبعرى وقبعثرى . ولا يقاس عليه خلافاً للكوفيين » . وفى اللسان (قهقر) : « ابن الأنبارى : إذا ثنيت القهقرى والخوزلى ثنيته بإسقاط الياء ، فقلت : القهقران ، والخوزلان ؛ استثقالا للياء مع ألف التثنية وياء التثنية » .

وقد بدأ خاطر فى تخريج (الثريات) ، وهو قياسها على التصغير . ذلك أنك لو صغرت عليّة قلت : عُلية بحذف إحدى الياءات الثلاث نسبيا ، وأصلها عليية ، وكذلك لو صغرت عطاء قلت : عطى ، وأصله عطيي ، بثلاث ياءات . فكذلك الثرييات تحذف إحدى ياءاتها الثلاث فتحور إلى الثريات ، وهو ما ينطق به الناس .

ولكن هذا الخاطر لا يستمر لصاحبه ، وهو لا يلبث أن يرتدع وينقطع . ذلك أن صيغة التصغير لازمة للمصغر ، مستقلة ، لها أحكامها الخاصة ، واشتهر عنهم أن التصغير يهدم صيغة المكبر . فأما التثنية وجمع التصحيح فهما مبنيان على صيغة المفرد ، ومن شأنهما ألا يتغيرا عن بناء الواحد ، فإن حدث فيهما تغيير كما فى قلب الألف واوا أو ياء فهذا أمر تدعو إليه الضرورة . والعبرة فى هذا أن الثقل فى (الثرييات) الناشىء من اجتماع الياءات الثلاث أمر غير لازم ، فلا يستوجب الحذف لتخفيف هذا الثقل .

وهنا يخطر بالبال سؤال . فقد يقول قائل : هلا جرى الحذف فى المحيي والمحيية واجتماع الأمثال هنا لازم لا مفر منه ؟

والجواب [2] عن هذا أن المحيي والمحيية جاريان على الفعل إذ هما إسما فاعل لحيا ، والفعل لا يجرى فيه الحذف لاجتماع الأمثال . تقول : هو يحيي وأريد أن

(١) ٢ / ١٧٤ . (٢) راجع فى هذا شرح الرضى للشافية ٢ - ١٨٦ وما بعدها .

أحييك ، ولا تحذف لأن الحذف يغير صيغة الفعل ، وهى مما يجب المحافظة عليه لئلا تلتبس صيغة بصيغة ، وحكم الفعل فى هـذا يسرى الى الجارى عليه من الأوصاف .

هذا وقد رأيت فى كتاب الأنيس المطرب الذى سبق التنويه به كتابة الثريا فى صورة (الثرية) . وقد ذكر هـذه الصورة فى كتابة الثريا دوزى فى معجمه ، وهـذا كما ينطق به العامة اليوم . وهـو جار على أصل سرى فى لسانهم . فقد يستبدلون بألف التأنيث تاء التأنيث ، يقولون فى الحبلى : الحبلة ، وفى الحمراء بعـد قصرها الحمرة .

وهنا يخطر بالذهن أن (الثريا) جمع للثرية . وهذا صحيح إذا كان هذا الجمع لم يستعمل إلا بعد أن استعملت هذه الصيغة الملحونة .

ويحاول بعض الباحثين أن يجعل الثرية تصغير ترخيم للثروى . وعلى هـذا فالثريات جمع صحيح .

وبعد فهذه آراء عرضتها فى هـذا الموطن ، وعلى القارىء أن يختار ما يحلى فى عينيه ، والله الموفق للصواب ؟

تصحيح

سقط من المجلد الثالث والعشرين لشهر ربيع الآخر سنة ١٣٧١ هـ من المقال (الأزهر الجامعة القديمة الحديثة) لفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز عضو جماعة كبار العلماء من الصفحة ٣٠٠ سطران بعد قوله « كما يعلم مما أسلفناه » وهما :

ثم أقام الخديوى عباس الثانى فى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) بجوار المدرسة الطيبرسية قاعة جميلة للمحاضرات وزودها أيضا بمحراب رشيق . فلزم التنبيه ؟

من أدب القوة :

الشعر والحروب الصليبية

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض هلال
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

ما يزال الأديب والشاعر فى الحروب أداة تستنهض الهمم الوانية ، وتحفز بها العزائم الواهنة ، وتسترد بها الشجاعة الذاهبة ، وتسجل بها مواقف الرجال فى غمرات القتال وميادين النزال . نعم فليس أفعل فى النفس ولا أمعن فى التأثير ولا أهيج للشعور ولا أحمس للعاطفة من بيت شعر ينشد فى وسط المعمعة وفى ساحات النزال . ذكروا أن المتنبى لما أحدق به عدوه حاول الهرب فقال له خادمه ألست القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟

فثقلت رجله عن الفرار وثبت فى مكانه يدافع عن نفسه . وكان صلاح الدين الأيوبى يقول : « ما فتحت البلاد بالعساكر . إنما فتحتها بكلام القاضى الفاضل » ولو ذهبنا نتعرف أثر الشعر والشعراء فى الحروب الصليبية ومقدار ما أغنوا فيها وشدوا من عزائم المقاتلين وأشادوا بكفاحهم لوجدنا من ذلك مددا لا ينفد من الشعر الجهادى الذى يصف فيه الشعراء مواقف الملوك من الأيوبيين وقوادهم فى الذود عن الإسلام والدفاع عن بلدانه ومعاهده فقد دأب الشعراء على أن يحببوا إلى الملوك والأمراء حياة الحروب وقعقعة السيوف وأصوات المعامع ويطالبوهم بالعزم المصمم والجد الغلاب والاستشهاد فى سبيل الله . تجد مثل هذا فى قول بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجارى فى المنصور بن العزيز الأيوبى لما هزم الفرنجة :

ما لذة العيش إلا وسط معمعة تنال فيها المنى بالبيض والأسل
يأيها الملك المنصور نصح فتى لم يلوه عن وفاء كثرة العذل
إعزم ولا تترك الدنيا بلا ملك وجد فالملك محتاج إلى رجل
يا أوحد الناس ياخير الملوك ومن فاق البرية من حاف ومنتعل[1]

وقد نجد بعض الشعراء يضربون الأمثال تهكما وسخرية بمن لا يبلون فى الجهاد ويرمونهم بأشد أنواع السباب على ما فرطوا فى جنب الله وأضاعوا من فريضة الجهاد .

استمع إلى أحد الشعراء يسخر من سامة صاحب بيروت حين أخذها منه الفرنجة بدون قتال أو نزال فيقول :

سلم الحصن ما عليك ملامه ما يلام الأولى يرون السلامه
إن أخذ الحصون من غير حرب سنة سنها ببيروت سامة

وأى إنسان يسمع هذا التندر الساخر ثم لا يجود بنفسه ليتقى ألسنة الشعراء ولو كان جبانا رعديدا ؟ والحق أن الروح الذى كان يسيطر على الشاعر فى هذا العهد روح إسلامى عال يتيح له أن يحاسب الأمراء والقواد على تقصيرهم دون تهيب أو مبالاة .

ولقد كان الشاعر يقول القصيدة فى بلد منكوب أو قلعة محاصرة مصورا شدة اللهفة ووقع المصاب ليهيج الدم فى العروق ويبعث الحرارة فى النفوس فتخف إلى الحرب على ساق وقدم لتفك ذلك البلد العانى وتدفع عنه غائلة العدوان . من ذلك قول جمال الدين الكنانى فى دمياط لما حاصرها الفرنجة مستنجدا بالملك الكامل ومصورا له كيف تهدمت شرفات ذلك الثغر وكيف أحدق به العدو حتى شخصت عيناه وتطلع إلى الكامل لولا أن سدت دونه الطرق ثم يدعوه أن يحقق الرجاء فيه ويذخر بذلك لنفسه عملا صالحا لا يضيع أجره عند ربه . قال :

يا مالكى دمياط ثغر هدمت شرفاته وكأن تجث أصوله
يأيها الملك الذى ما إن يرى بين الملوك شبيهه وعديله

---

[١] عقد الجمان مخطوط

أشكو إليك عدو سوء أحدقت بجميعه [1] فرسانه وخيوله
ولو استطاع لأم بابك لائذا لكنه سدت عليه سبيله
وبقى له رمق يسير يرتجى أن يشتفى لما دعاك عليله
ولئن قعدت عن القيام بنصره جفت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت صلبانه وتلى به أنجيله
هذا وحقك وصف صورة حاله حقاً وجملته وذا تفصيله
حقق رجاه فيك يا من لم يخب أبدا لراجى جوده تأميله
وإذخر ليوم البعث فعلا صالحا الله ضامن أجره وكفيله

تلك صرخة مدوية وصوت دام باك عسىّ أن يخترق حجب الأسماع حتى يصل إلى شغاف القلوب فيفعل فيها فعل السحر ويستثير العواطف ويستدر الدموع على ما أصاب بلدا من بلدان المسلمين وثغرا من ثغور الإسلام على أيدى الكفر الباغى من عنت وبغى وطغيان ، وما ظنك وقد وهت به راية القرآن ، ورفعت رايات الصلبان ، وارتفعت الحناجر بتلاوة الانجيل . بهذا التصوير الباكى الحزين استطاع الكنانى أن يحمس الكامل ويبعثه على الجهاد حتى أمر أهل مصر بالخروج إلى المنصورة فخرجوا إليها وكتب إلى أخيه المعظم يستنجده ويقول :

يا مسعفى إن كنت حقاً مسعفى فارحل بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا بتجشم فى سيرها وتعسف
واطوالمنازل ما استطعت ولا تنخ إلا على باب المليك الأشرف
وإذا وصلت إلى حماة فقل له عنى بحسن توصل وتلطف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه بك فى القيامة فى عراص الموقف

وكان من أثر هذه الشكوى وذلك الاستنجاد أن أقبل الملك المعظم وأخوه الأشرف لنجدة أخيهما الملك الكامل وتخليص دمياط من أيدى الكفرة حتى انتهى الأمر بانتصار المسلمين وأخذ المدينة وانحسار ظل الكفر عنها ، فجلس

---

[١] يقصد جميع الثغر .

الكامل فى خيمة عظيمة وقد مد سماطا ، وأحضر ملوك الفرنجة ووقف المعظم والأشرف والملوك فى خدمته ، وقام الشاعر شرف الدين راجح الحلى فأنشد يهنىء الكامل بهذا النصر العظيم ، ويصور الدهر وقد تهلل بشرا بهذا النصر بعد عبوس وتقطيب حتى انتهى إلى هذه التورية الرائعة الجميلة . قال :

هنيئاً فإن السعد راح مخلدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا مبينا وإنعاما وعزاً مؤيدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهل الط غاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل سيفه صقيلا كما سل الحسام مهندا
فلم ينج إلا كل شلو مجدل ثوى منهمو أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعُبَّادَ عيسى إن عيسى وحزبه وموسى جميعا ينصران محمدا

قال صاحب النجوم الزاهرة : قلت : صح للشاعر ما قصده من التورية فى المعظم عيسى والأشرف موسى لما وقفا فى خدمة الكامل محمد فلله دره لقد أجاد فيما قال .

لفت نظر

نشر بعدد ربيع الأول سنة ١٣٧١ بمجلة الأزهر بيان نسب صدوره إلى الهيئة العربية العليا . وقد كتب إلينا حضرة الأستاذ محمد صبرى عابدين أمين سر الهيئة العربية العليا لفلسطين ينبهنا إلى أن هذا البيان هو باسم حضرات موقعيه وهم حضرات أصحاب السماحة والفضيلة مصطفى صبرى شيخ الإسلام بالدولة العثمانية سابقا ، محمد الكوثرى وكيل مشيخة الإسلام بالدولة العثمانية سابقا ، محمد أمين الحسنى مفتى فلسطين ، صالح مفتى مفتى البانيا ، يعقوب شينكوفتش مفتى مسلمى بولونيا ، محمد علال الفاسى المراكشى ، محمد الخضر حسين من كبار العلماء ، السيد مبشر الطرازى التركستانى البخارى ، عبد الله بن عبد الكريم الجرافى اليمانى ، ابراهيم طفيلش الجزائرى .

لهذا لزم التنويه بتصحيح الوضع وشكر سماحتهم على مشاركتهم مصر فى شعورها القومى .

صولة الحق

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

لا تجد لذة يتهيأ للإنسان أن ينعم بها ، ويقر بعيفيه العيش فى جوارها ، والحياة فى ظلالها ، تساوى ما يتمتع به من « صولة الحق » الذى يتمسك بأهدابه ، ويجد نفسه مؤمنة به ، عامرة بنوره ، آهلة بعظمته ، ناعمة بهيله وهيلمانه ، قوية بما يبعثه فيها من أمل باسم ، وأمان متفتحة الأسارير ، وبخاصة حين يكون له من خلقه الطاهر ، وأدبه الجم ، وسلوكه الطيب ، وتاريخه المجيد ، وماضيه الناصع ، ما يجعله من هؤلاء الذين تعنو لهم الأرض هيبة واحتراماً ، وتخضع لهم جباه المتكبرين إجلالا وإعظاما .. لأنهم لا يميلون إلى الإسفاف ، ولا ينحدرون للباطل ، ولا يمشون إلا على السنن السوى ، والصراط المستقيم .. ويحدثنا الزمن الماضى ، والفلك الذاهب ، والقرون المنطوية ، عن قوم لم يكن لهم من جدهم ، ولم يحصلوا من حظوظهم ، على عنجهية المختالين ، ولا غطرسة المتكبرين ، إلا أنهم كان فيهم من الإباء والشمم ، والكرامة والعزة ما لا يصل إلى مثله أرباب التيجان فى الفرس ، ولا أصحاب الصولجان فى الروم ، ولا أدعياء الألوهية فى « منف » .. وذلك لأنهم كانوا محقين صادقين ، وكانوا منصفين عادلين ، يدافعون عن الواجب ، وينتصرون للصواب ، ولا يبالون فى سبيل وضع الأمور فى نصابها أزلزلت الأرض أم مادت الجبال ، ولاقوا الشدائد والأهوال ، أم واتاهم ما يشاءون من بلهنية ونعيم .. وشىَ إلى الخليفة المنصور أن رجلا من ذيول بنى أمية عنده أشياء مما خلفوه من أموال وأعلاق ، وكان هذا الرجل من أولئك الذين يبالغون إلى حد بعيد فى السمو بنفوسهم ، والتعالى بكرامتهم ، وكان إلى جانب هذا يتيه على الناس بأنه أقوم من السيف ، يغار على الحق غيرته على حرماته ، ويهاب الباطل أكثر من هيبته للموت فلما قادوه إليه ، ووقفوا به بين يديه ، وواجهه بالجريمة ، لم ترتعد فرائصه ، ولم تتغير ملامحه ، ولم يزد نبض قلبه ، وقابل التهمة بإغضاء الغافل ، وتهاون اللاهى ، وزراية

الساخر ، ولم يشأ أن يرد بادىء ذى بدىء بما يشعر أنه فى موقف المتورط الذى يعنيه أن يسلم ، أو المرتبك الذى يهمه أن ينجو ، أو المأخوذ الذى يعمل جاهداً للخلاص مما هو فيه . وظل ساكتاً يخيل لمن يراه على حاله من الوجوم والخرس أنه يزور إجابة يتلمس فيها الاعتذار عن الذنب ، ثم انطلق انطلاق السهم يقول لأمير المؤمنين ، وبأى وجه أرد إليك ما معى من أموال وودائع ، ولست وارثاً لبنى أمية يطالب بنصيبه من التركة ، ولا دائناً يقتضى دينه مما أعقبوه ، ولا وصياً على ذريتهم يريد أن يصون لهم تراث الآباء والأجداد ، والشأن فيمن يحاسبنى أن يكون واحداً من هؤلاء الثلاثة ، وأنا لا أعدو أن أكون من رعية الخليفة أدين بالولاء ، وله على السمع والطاعة فى حدود ما أملكه وأقدر على بذله له .

وهنالك أخذت رأس بنى العباس رعدةُ المحموم ، وود لو أنه لم يرم بنفسه فى هذا المأزق الذى صير الهزيمة تلاحقه ، والضعف يحيط به ، والتخاذل يستولى عليه ، ولم يجد إلا أن يقول له إن بنى أمية ظلموا الشعب ظلم المستبد ، واغتصبوا حقوقه اغتصاب المستهتر ، ونكلوا به تنكيل المستخف ، ونحن حينما نأخذ منك هذا المال إنما نأخذ منك حقاً كان مضيعاً ، ونسترد شيئاً كان مسلوباً .

فقال الرجل ولكنك يا أمير المؤمنين لم تقم البينة علىّ ، ويمنعنى حيائى أن أذكرك بقوله تعالى « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة » ومثلك لا يأخذ بالظنة ، ولا يعاقب على غير جريرة ، ولا يستمع للباطل ، ولا يتأثر بقول الواشى الكذاب ... وكان المنصور لا يخفى إعجابه بمنطق خصمه ، ولا يدارى إكباره لهذا الجدل اللبق ، والبيان الخصب ، والنسج القوى ، والدفاع المحكم ، وبَشّ فى وجه « المظلوم » إيذانا بأنه لا يرى للريبة سبيلا إليه ، ولا للجريمة طريقا إلى ساحته ، وأراد أن يتبسط معه فى الحديث فقال له اقترح علينا ما شئت فإن قلوبنا قد تفتحت لك ، ونفوسنا قد هفت إليك ، وإعجابنا بك قد بلغ أقصى غاياته ، وسوف تجد حاجتك مقضية ، ورجاءك مجابا ، ورغبتك حاضرة ، وكان هم المتهم - حينئذ - أن يعرف « الواشى » فقال أرجو يا مولاى أن تجمع بينى وبين من سعى بى هذه السعاية لأعمل على أن أتجنبه وأتقيه ... فلما فاجأه به رأى أنه غلامه الذى أبق منه بثلاثة آلاف درهم ، وقد صنع ما صنع لينجو بما أخذه ويفلت

بالذى خان فيه ، ثم لم يلبث أن عفى عنه ، وترك له ما غله ، وكان هذا مثار إعجاب آخر تملك الخليفة ، وأخذ كلما جلس إلى أحد من خاصته يقص عليه هذا الحديث لا على أنه مقال نادر من الصفح الجميل ، والحلم الواسع ، والتسامح الكريم ، والأدب العالى ، والخلق العظيم ، فربما كان على ظهر الأرض ، أو فى بطنها من لا يقل عنه فى تلك السجايا النبيلة ، والمزايا الجليلة ، ولكن لأنه أيقن أن نشوة الإحساس بالحق وحدها هى التى ألهمته أن ينطق بهذا الكلام ، وحملته على أن يقف هذا الموقف . وبعثت فى نفسه تلك الشجاعة النادرة ، والصرامة البالغة ، والصراحة القوية ، حتى لقد ضحى بغلامه الآبق ، وماله الضائع وهو لم يكن من الأثرياء الذين لا يرهقهم هذا البذل ، ولا يؤودهم ذلك الإنفاق ، وخيل إليه أن الغبطة لا تصل بمخلوق ظفر بضالته ، ولا بإنسان حصل على غايته ، أكثر مما وصلت به .

وهذا هو الحق الذى جعله سبحانه إسمه ، وأقام على دعائمه الكون ، وملأ به الدنيا خيراً وبركة ، وجعل السعادة نفحة منه ، ولمحة من ضيائه ، ورغبنا فيه ، وطلب إلينا أن نتعاون عليه ، ونذود عنه ، ونحرص دائماً أبداً على أن نكون من جنوده المتفانين فى الوقوف بجانبه والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

حكم

وقال الشاعر الحكيم :

ألا أيها المستظرف الذنب جاهرا   هو الله لا تخفى عليه السرائرُ
فإن كنت لم تعرفه حين عصيته   فإن الذى لا يعرف الله كافر
وإن كنت عن علم ومعرفة به   عصيت فأنت المستهين المجاهر
فأية حاليك اعتقدت فأنه   عليم بما تطوى عليه الضمائر

موازنات أدبية :

نونية ابن زيدون

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن جاد

المدرس بكلية اللغة العربية

لم تنل قصيدة من قصائد ابن زيدون شاعر الأندلس ، من ذيوع الشهرة ، وبعد الصيت ، ما نالته قصيدته النونية ؛ تلك القصيدة التي كانت صدى لبعده عن ولادة ، وذكرياتها الجميلة ، وما فجعه به الدهر من بين وغربة ، وما سعى به الوشاة حتى انحل المعقود ، وانبت الموصول . ولو لم يكن لابن زيدون إلا هذه القصيدة لأغنته بهذا الدوى العظيم الذي أحدثته فى البيئات الأدبية ، وتلك المدرسة التي خلقتها من الشعراء الكثيرين الذين أعجبوا بها وعارضوها فى كل زمان ومكان .

وترجع شهرة هذه القصيدة - كما يقول الفتح بن خاقان - إلى أنها « ضربت فى الإبداع بسهم ، وطلعت فى كل خاطر ووهم ، ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم » .

ومن الطريف أن يجعلها بعض الأدباء عنواناً على الظرف ، ويعد حفظها وروايتها شرطاً من شروطه ، ومظهراً من مظاهره ، ويلزها فى قرن مع التفقه فى الدين ، والقراءة لنبغاء الكاتبين ، وأناقة اللباس ، ولباقة الحديث . يحدثنا الصفدى أن بعض الأدباء قال : « من لبس البياض ، وتختم بالعقيق ، وقرأ لأبى عمرو ، وتفقه للشافعى ، وروى قصيدة ابن زيدون فقد استكمل الظرف » .

وأبعد من هذا طرافة وغرابة أن يتخذ بعضهم من موضوعها ، وهو يدور حول البين والغربة والفراق ، مادة للخرافة أو الطرافة ، تخرفاً أو تظرفاً . يقول الصفدى : « ومن ذلك قصيدته النونية التي سارت فى البلاد ، وطارت فى العباد ، وقد اشتهرت حتى صارت محدودة ، فيقال إنه ما حفظها أحد إلا مات غريباً » !!
وأظنه عارض بها البحترى فى قوله :

يكاد عاذلنا فى الحب يغرينا   فما لجاجك فى لوم المحبينا

ومهما يكن من شأن هـذا الظن فإن البحترى لم يقصد فى قصيدته إلى تصوير حالة من حالاته ، أو عاطفة من عواطفه ، على نحو ما قصد ابن زيدون . وإنما قدم غزله هذا بين يدى مدحه على عادته ، ومن ثم لم يلتفت إليها الشعراء ، أو يفكروا فى معارضتها ؛ وإنما كانت وجهتهم فى المعارضة قصيدة ابن زيدون ، بدليل أن كل المعارضين أو جلهم كان يصرح بذلك ، أو يشير بما يغنى عن التصريح من استعمال كثير من ألفاظ القصيدة ومعانيها .

وقد عارض هذه القصيدة الزيدونية كثير من الشعراء منذ عصر ابن زيدون إلى الآن ، فهذا أبو بكر بن الملح الأندلسى يقول :

هل يسمع الربع شكوانا فيشكينا   أو يرجع القول مغناه فيغنينا
يا باخلين علينا أن نودعكم   وقد بعدتم عن اللقيا لحيونا
قفوا نزركم وإن كانت فوائدكم   نزرا ومنتكمو بالوصل ممنونا

ينظر بهذا إلى قول ابن زيدون :

أبكى وفاء وإن لم تبذلى صلة   فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا

ثم يقول أبو بكر :

سرى من المسك عن مسراكمو خبر   يعيد عهد هـواكم نشره فينا
أيام بدركمو يحيى ليالينا   قربا وظبيكمو يرعى بوادينا

متأثراً بابن زيدون فى قوله :

حالت لفقدكمو أيامنا فغدت   سوداً وكانت بكم بيضا ليالينا
ليسق عهدكموا عهد السرور فما   كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

ويمضى أبو بكر على هـذا النحو والنظر إلى معانى ابن زيدون ، ولكن شتان بين الصوغ والصوغ ، وبين الإحساس والإحساس ، فهو وإن كان قد نازعه فيها الراية ، فقد قصر عن الغاية ، كما يقول ابن بسام .

ويقول ابن زيدون فى نونيته :

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهمو حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
إن الزمان الذى ما زال يضحكنا أنسا بقربهموا قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر : آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبت ما كان موصولا بأيدينا
فيا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حياً كان يحيينا

فيجىء شاعر واعظ هو شمس الدين محمود الكوفى ، فيقول :

ملابس الصـــبر نبليها وتبلينا ومدة الهجر نفنيها وتفنينا
شوقاً إلى أوجه متنا بفرقتها حزناً وكانت تحيينا فتحيينا
كنا جميعاً وكان الدهر يسعدنا والكائنات بكأس الأمن تسقينا
فالآن قرت عيون الحاسدين بنا بما جرى واشتفت منا أعادينا

وهكذا تجد معانى ابن زيدون وروحه تسرى فى القصيدة ، ولكنك بعد هذا تجد (مدة الهجر) و (الكائنات بكأس الأمن) و (ملابس الصبر) ونحو ذلك مما تسمو عنه لغة الشعر . ومع هذا يجب أن تذكر أن الشاعر كان فقيهاً واعظاً .

ويذكر الصفدى أن الشيخ صفى الدين الحلى قد خمس قصيدة ابن زيدون ، وجعلها مرثية فى الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه ، ونحن نعلم أن لهذا الشاعر قصيدة أخرى فى الفخر يعارض بها تلك النونية ومطلعها :

سلى الرماح العوالى عن معالينا واستشهدى البيض هل خاب الرجا فينا

والصفدى نفسه يعارض ابن زيدون راثياً فيقول :

تحكمت بعدكم أيدى النوى فينا وقد أقامت بنادينا تنادينا
وقد أناخت بنا من بعدكم محن عدت علينا بما يرضى أعادينا
كأنهم لم يكونوا للعيون سنا أنس وللأنفس الحرى رياحينا
يا دهرنا إذ دعا الداعى بفرقتنا كيف انخدعت إلى أن قلت : آمينا

هي هي معاني ابن زيدون ، لوعة أذكاها البين ، وحرقة أورثها البعد ، وأعداء يشمتون ، ودهر يستجيب لما يدعون به . ولكن أين فن ابن زيدون ؟ .

أما صدر الدين بن الوكيل المتوفى بالقاهرة سنة ٧٠٦ هـ ، فينسج على هذه الزيدونية موشحة ، نجدها على هذا النحو :

غـدآ مناديـنا محكما فينـا (يقضى علينا الأسى لولا تأسينا)
بحر الهوى يغرق من فيه جهدا عام
وناره تحـرق من هم أوقد هام
وربمـا تقلق فتى عليـه نام
قد غير الأجسام وصير الأيام (سودا وكانت بكم بيضا ليالينا)
من هـام بالغيد لاقى بهم هما
بذلت مجهـودى لأحـور ألمى
بهم بالجـود ورد ما هما
وعند ما قد جاد بالوصل أو قد كاد (أضحى التنائى بديلا من تدانينا)

وهكذا لا ينتهى بنا المطاف ، إذا نحن وقفنا مع كل شاعر عارض قصيدة ابن زيدون . تلك القصيدة الخالدة ، التى هزت كل شاعر فى كل جيل ، فراح يساجلها ، ويطارح صاحبها ، وإن كبا دون الغاية ، وعثر دون الشوط .

فيحسن بنا أن نبحث عن صادح آخر استطاع أن يقف مع ابن زيدون على فنن أو يحلق فوقه على ذروة . إلى متى يستبد ابن زيدون بالسبق والفن ؟ وإلى متى يستولى على أمد الخصل ، ويستأثر بخطر السباق ؟ أليس هناك من أنجبه واد كواديه ودوح كدوحه ، وأفق كأفقه ؟ أجل ! على ضفاف النيل ، ذى الماء السلسبيل ، وفى جنة الدنيا مصر ، صدح شاعر ، على فننها الزاهر ، فأطرقت الأندلس ، وأنصت ابن زيدون ، إنه شوقى . .

خلفاء بنى أمية
وعنايتهم بالأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

لم يشهد الأدب من عناية الحاكمين به ورعايتهم له وإعظامهم لشأنه ما شهده من عناية الخلفاء الأمويين. فقد أفاضوا عليه من ألوان التشجيع وعوامل النهوض ما مكنه من أداء رسالته، والاتجاه إلى هدفه وتحقيق غايته.

ولو شئنا أن نضرب الأمثال ونستقصى الأخبار ونستعرض الوقائع عن عنايتهم هذه واحتفالهم بما تجود به القرائح وتتفتق عنه الأذهان من صور بارعة ومعان رائعة وأخيلة نادرة. واهتمامهم بالمظاهر التى ترفع من شأن الأدب وتعلى من قدره وتمكن له فى البقاء والخلود. لو حاولنا أن نحصى كل ذلك لما وسعتنا مئات الصحف.

ولعل من أهم الدوافع إلى ذلك أن خلفاء بنى أمية كانوا عربا يطربهم المعنى الرائق واللفظ الفائق ويعجبهم الأسلوب الناضج والتعبير البديع والتصوير الجميل. لما فطروا عليه من ذوق حساس، وسليقة مرهفة، وبصيرة ناقدة، وذكاء متوقد، وعلم غزير، ومعرفة بأنساب القبائل وأحسابها، ومفاخرها ومثالبها.

فلا عجب إذا أن تزداد عنايتهم بكل مظهر يعلى من شأن الأدب ويرفع من مكانته، وأن تعظم رغبتهم فى تشجيع الأدباء ورعاية الشعراء وصيانة التراث الأدبى بكل ما فيهم من رغبة مستعرة وإقبال دافق على نحو ما سجلته كتب الأدب ووعته صحائف التاريخ ونقله الرواة والثقاة.

ثم كان من وسائل هؤلاء الخلفاء إلى حفظ ملكهم وتأثيل عروشهم والإبقاء على سلطانهم حتى لا يشغب عليه طامع أن عمدوا إلى إثارة العصبيات وبعث

الخصومات وإحياء ما اندثر من منافسات الجاهلية وأحقادها ليشغلوا الناس بذلك عن موائبتهم على الملك ومساورتهم على السلطان ، ومنازعتهم فيما استقر لهم من أمور الخلافة . فعاد الشعراء إلى تسجيل ذلك فى أشعارهم وتصويره فى قصائدهم وشغلوا عن سياسة الدولة بالحديث عن أمجاد القبائل ومخازيها رغبة فى مدح أو شفاء لحقد أو طمعا فى عطاء .

ولعل المفاخرات والمنافرات والخصومات التى كانت قائمة منصوبة بين جرير والفرزدق والأخطل وأمثالها مثل من أمثلة ذلك وصورة حية من آثاره .

وإلى ذلك كله كان الخلفاء والأمراء فى هذه الدولة نقدة كلام وأمراء بلاغة ، وفرسان فصاحة ، وألباء أدباء يميزون جيد الأدب من رديئه ويعرفون صحيحه من زائفه ويقدرون منازل الشعراء ويزنون الكلام بمعيار صحيح فيقبلون الجيد ويثيبون عليه ، ويستنكرون الضعيف الزائف ويدلون على موضع نقصه ومكان عيبه . ذلك لأن لهم من سلائقهم العربية وفطرهم الأدبية وعلمهم بشوارد الخواطر وغرائب الأشعار ما يعينهم على صدق الحكومة ويدفعهم إلى حسن التقدير وجمال المثوبة . فمن أجاد من الشعراء وأحسن . أفضلوا عليه وأثابوه فى سخاء وأريحية . ومن تخلف عن السبق وقصر فطنوا فى سرعة إلى مكان تخلفه وموضع قصوره وتجهموا له وقطعوا عنه المثوبة وربما أسرعوا إلى بذل العقوبة لأن معنى من المعانى لم يصادف من نفوسهم هوى أو لم يجد من قلوبهم محلا مقبولا .

وهل هناك أدل على صفاء الذوق وقوة الملاحظة ودقة النقد وصادق التمييز مما يؤثر عن عبد الملك بن مروان الخليفة الأديب الأريب إذ دخل عليه ابن قيس الرقيات وقد أمنه بعد خروجه عليه فمدحه بقوله :

إن الأغر الذى أبوه العا صى عليه الوقار والحجب

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال عبد الملك : يا ابن قيس ، تمدحنى بالتاج كأنى من ملوك العجم ، وتقول فى مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من اللـــــه تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن لا تأخذ فى المسلمين عطاء أبدا .

ومما يدل على شدة ملاحظتهم وحضور بديهتهم وألمعيتهم فى النقد أن أبا زيد الأسلمى دخل على ابراهيم بن هشام ، فأنشده : « يا ابن هشام يا أخا الكرام » فغضب ابراهيم وقال : إنما أنا أخوهم وكأنى لست منهم . ثم أمر به فضرب بالسياط .

فهذه حالة تدل أبلغ دلالة على ما كان يلقى الشعراء المتخلفون من إغضاء ، أو يصل إليهم من سوء جزاء .

ولما أدرك الشعراء أن الخلفاء والأمراء يمنحون جيد الأشعار ومتخير القصائد ، منزلة عالية ، ويثيبون عليه مثوبة طائلة ، وأنهم يتجهمون لموطن الغيب ، ويفطنون فى سرعة ، عجيبة لمكان النقص وموضع الزلل ، وأنهم قد يعاقبون على ذلك عقوبة أقلها حبس العطاء ، وقبض الصلة ، لما أيقن الشعراء من ذلك حرصوا أشد الحرص على التجويد والتهذيب ، وبالغوا أعظم المبالغة فى تنقيح بنات أفكارهم وتهذيب قصائدهم ، لتفتح لهم القلوب المغلقة ، وتلين النفوس العصية ، وتستدر العطايا السنية ، وتستل ما فى النفس من حقد دفين ، وغل مكين ، وغضب مقيم .

وكان الخلفاء والأمراء يطربون أيما طرب لسماع الجيد من المدح والبليغ من الثناء ، وكانوا فى نشوة هذا الطرب ، وفى غمرة تلك الأريحية ، يصفحون عن المسيء ، ويعفون عن المذنب ، ويقبلون شفاعة الشعر فيه .

يروى أن يزيد بن عبد الملك رد الأحوص الشاعر من منفاه لبيت شعر له غنته فيه (جميلة) المغنية وهو قوله :

كريم قريش حين ينسب والذى أقرت له بالملك كهلا وأمردا

فطرب يزيد وقال : ويحك من كريم قريش هذا ؟ قالت : أنت ، وقد قاله الأحوص المنفى ، فكتب من فوره برده ، وأنفذ له حللا سنية ، وأدناه وقربه ، وقال له يوما : لو لم تمت إلينا بحق ولا صهر ولا رحم إلا بقولك :

عبيد المال

لحضرة الأستاذ الشيخ أحمد شفيع السيد
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

فى هذه الأيام ترى تهالك الناس على المادة ، وتهافتهم فى طلبها ، ويروعك أن ترى كثيراً من العقلاء يجعلونها نهاية آمالهم ، ومعقد رجائهم ، حتى هانت الفضائل فى سبيل المال ، وذلت نفوس — كانت أبية — لتحصيله فإلى أولئك المتهالكين المتهافتين أوجه قالتى لعلها تبلغ من نفوسهم ما أحب فترشد من عقولهم ما غوى ، وترفع من أقدارهم ما اتضع .

وإنى لأستحييكمو أن يقودنى   إلى غيركم من سائر الناس مطمع

لكفاك ذلك عندنا .

ويؤثر كذلك أن الحجاج طلب العديل الشاعر ، ليوقع به عقوبة ، وضيق عليه الخناق حتى لم يجد منه مهربا ، وآثر أن يصير إليه ويسلم له نفسه ، فلما دخل عليه أنشد بين يديه :

خليل أمير المؤمنين وسيفه   لكل إمام صاحب وخليل
به نصر الله الخليفة منهمو   وثبت ملكا كاد عنه يزول
فأنت كسيف الله فى الأرض خالد   تصول بعون الله حين تصول

فلما استمع الحجاج إلى هذا الشعر أخذته نشوته ، وتملكته روعته ، وطرب لحسن وقعه وقوة جرسه ، وقال للشاعر : أولى لك [1] قد نجوت ، وفرض له وأعطاه عطاءه .

فهذه صور تدل على ما كان للشعر فى النفوس من منزلة ، وما يحتل فى القلوب من مكانة ، وفى المقال التالى سنعرض صورا أخرى من عناية الخلفاء بالأدب فى هذا العصر ؟

---

(١) أولى لك كلمة : تهديد ووعيد أى قاربك ما يهلكك ، والمراد هنا الاستحسان والاستجادة .

أيها الموقضون فى جمع مال قد أضعتم حياتكم فى ضلال
لا تبالون إن عثرتم عليه بحرام عثرتمُ أم حلال ؟ ؟
لمن المال تجمعون ؟ ؟ وأنتم فى حياة قد آذنت بزوال .
كم نصبتم حبائل المكر للما ل وغالبتمُ شديد المحال .
رازق الذَّرِّ فى مساربه الجو ن ومجرى الأنهار بين الجبال
ومعز العبيد بعد هوان ومذل الملوك بعد صيال .
ومنجى الظباء من ربقة الأسرِ ومُرْدى الآساد والأوعال
لم يساو الإنسان فى رشده الوحـ ش فأضحى للمال فى أوجال
فضعاف الطيور أهدأ بالا وسراة الأنام فى بلبال
إن مجد الحياة بالعلم والديـ ن وأنتم عن ذاك فى أشغال
ليس من بات ساهراً يحرس الما ل كمن بات ساهراً للمعالى

* * *

كم غبى وعاجز مجدود غمرته الحياة بالأنفال
وذكى وحوّل محدود ناء فيها بفادح الأثقال
حكمة لا تحار فيها عقول غير عقل عن الهدى فى عقال
أى وزن للمال إن قيس بالعقـ ل أو العلم أو كريم الخلال ؟ ؟
غلبت شقوةُ الورى حين ظنوا قيمة المرء ما زوى من مال
تركوا العلم والمحامد طرا ثم آلوا بالمال شر مآل
غفل الناس عن مواهب شتى لم تقيض لسادتى الأموال

* * *

ما لقومى عفا المهيمن عنهم جعلوا المال ذروة الآمال ؟ ؟
فتراهم إذا طلبت يسيرا لفقير تسوقهم للنكال
كم جهول من أوفر الناس مالا هو بين الأمجاد ومْضةُ آل
وعليم من أتعس الناس جداً هو بين الأنام بدر ليال
إن فقر النفوس يا قومنا دا ءٌ دوىٌّ يميتُ حىَّ الفعَال
كل ما فى الحياة للحر عبد والغنى البخيل عبد المال

الازهريون أساتذة شعراء العصر

الشيخ محمد عبده وحافظ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ٥ —

« حافظ » غفر الله له أحد الشعراء الذين تفخر بهم العربية فى هذا العصر ، ولواء من ألوية الشعر الخفاقة فى هذا الجيل .

وقد كان هدية الإمام محمد عبده الى الحياة ، وغرسه الذى نما فى رعايته .

لحين عاد « حافظ » من السودان إلى مصر واستقال من الجيش ، اتصل بالشيخ محمد عبده ، وفرغ للأدب ، وتوفر عليه ، فبدأ من ثم تكوينه الأدبى المندمج المحكم ، وقد كان شعره من قبل ظاهر التكلف ، واهن المنسج ، مضطرب الفكرة ، لم تشرق عبقريته ، ولم تنضج موهبته .

درس فى مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ م إلى سنة ١٩٠٥ م وهذا الإمام رحمه الله كان من كل نواحيه رجلا فذا ، وكأنه نبى متأخر عن زمنه فأعطى الشريعة ولكن فى عزيمته ، ووهب له الوحى ولكن فى عقله ، واتصل بالسر القدسى ولكن من قلبه . ولولا هو ولولا أنه بهذه الخصائص لكان حافظ شاعرا من الطبقة الثانية ، فإنه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التى جعلته يصيب الإلهام من كل عظيم يعرفه ، وكان له من أثرها هذا الشعر المتين فى وصف العظماء والعظائم إلا أن حافظا وجد فى الإمام ما هو أسمى من ذلك فى النفس والجاذبية ، وبهره منه ما هو عليه من ذوق الأدب والبلاغة ، وحضر دروس الإمام فى المنطق وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز فنضج منها أسلوبه التمكن وذوقه الدقيق ، ولازمه وحضر مجالسه فكانت مادة موضوعاته الاجتماعية وأغراضه الوثابة ، وكشف له من الشيخ عن آراء فى الفكر والسياسة والمسائل التى تشغل مصر والشرق فطبع عليها متأثرا بها .

« وحضر نظرات عينيه ، وخرج منها بروحانية قوية هى التى تتضرم فى شعره إلى الأبد ، لحافظ إحدى حسنات الشيخ على العالم العربى ، وهو خطة من خططه فى عمله للإصلاح الشرقى الإسلامى والنهضة المصرية الوطنية ، وإحياء العربية وآدابها وإذا ذكرت حسنات الشيخ أو عدت للتاريخ وجب أن يقال أصلح وفعل وفسر القرآن وأنشأ حافظ ابراهيم [1] » .

على أن أذن الإمام هى التى أنمت ملكة الشعر فى حافظ ، فقد ألف أن يسمعه شعره ، واعتاد أن يعرض على ذوقه الأدبى المصقول كل ما يقرضه ، وصار ذلك طبعا فى حافظ حتى إنه ليتحسس مواطن الأدباء والشعراء فى المجالس والأندية كى يسمعهم نظمه .

وكان المرحوم « مصطفى صادق الرافعى » قد نظم أول عهده بالشعر قصيدة فى مدح الإمام وأنفذها إليه ثم لقى حافظا فقال حافظ إنه تلاها على الإمام وإنه استحسنها ، فقال له الرافعى ، فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال لا بأس بها ، فاضطرب شيطان الرافعى من الغضب وقال إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس لرأيه فى الشعر كبير معنى . فقال له حافظ ويحك . إن هذا مبلغ الاستحسان عنده . قال الرافعى : « قلت لحافظ وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال أعلا من ذلك قليلا . فأرضانى والله أن يكون بينى وبين حافظ (قليل) وطمعت من يومئذ ، وأنا أرى أن حافظ ابراهيم إن هو إلا ديوان الشيخ محمد عبده لولا أن هذا هذا لما كان ذلك ذلك [2] » .

قراءة وعبد المطلب

فضل الأزهر على المرحوم « محمد المطلب » الشاعر معروف لا يجحد ، فقد اغتذى بثقافته فى الصبا سبع سنين قضاها بين طلابه ، وهى فترة ليست قصيرة فى حساب ذوى الملكات والموهوبين ، ثم التحق بمدرسة دار العلوم العليا فدرس كتب الأزهر فيها ، وتلقى العلم والأدب على أساتذة الأزهر بها . كالشيخ حسن

---

[١] نقلنا ذلك من بحث للمرحوم مصطفى صادق الرافعى فى المقتطف ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٤٣ هـ الموافق أو يونية سنة ١٩٢٦ م .

(٢) مجلة الرسالة المجلد الثانى ص ١٨٨٢ .

الطويل والشيخ حسونة النواوى والشيخ سليمان العبد وغيرهم من العلماء والأدباء الذين أمدوا هذه المدرسة بالحياة ولولا أننا قصرنا حديث دراستنا على الأزهريين بدءا ونهاية لكان عبد المطلب أحد الذين نتناول حياتهم بالإسهاب ، وشعرهم بالدراسة والتحليل ، ولكننا نلمع إلى اغتذائه بثقافة الأزهر وانتفاعه بعد مرحلة الطلب بعلم من شعرائه الأفذاذ وهو المرحوم « الشيخ محمد قراعة » .

حين تخرج محمد عبد المطلب فى مدرسة دار العلوم أصبح مدرسا بمدرسة « سوهاج » الابتدائية حيث قضى بها بضع سنين : ذاع صيته فيها بين كبار الحكام والأعيان وتعطرت مجالسهم بخطبه وقصائده « واختصه منهم بصداقته علامتنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن قراعة ، فاقتبس كثيرا من علمه وأدبه وطيب أخلاقه وسجاياه » [1] .

انعقدت الصداقة بين الرجلين ، والمرحوم الشيخ قراعة أديب فحل وعالم فذ وشاعر ضخم فكان ذلك قادحا فكر عبد المطلب ، باعثا على نمو قريحته وبسط أفقه ، وتنشيط موهبته ، ولا شك أن قراعة كان أسبق منه قرضا للشعر ، وأكثر منه دراية بالعلم وبالأدب وفنونه ، وهو بهذه المثابة أولى بتوجيه عبد المطلب وتهذيب فكره وتقويم شعره ، ولعلنا لا ننسى أثر المرحوم « إسماعيل صبرى باشا » فى ترويج الشعر وتهذيبه وصقله فقد كانت داره منتدى للشعراء يعرضون شعرهم على أذنه الموسيقية التى يؤذيها نبو الوتر ، وكذلك كان قراعة اتخذ من بيته كلما حل ناديا للأدباء والشعراء ، وكان عبد المطلب ألصق الناس به وأكثرهم ملازمة له ، وهو يحدث بذلك فى ديوانه إذ يقول ! « وكانت بينى وبين الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن قراعة صداقة انعقدت بيننا منذ سنة ١٨٩٧ م وكنت من الذين يعرفون فضله فى العلم والأدب فلا غرو أن ترى لى فيه قصائد عدة » أهديت إليه خلعه تشريف العلماء فقلت أهنئه :

أجدٌ عهدك فى التشبيب بالغيد ... وْجد يجد بتحنان الأغاريد

ويقول فى هذ القصيدة مادحا قراعة :

---

(١) من كلمة المرحوم الأستاذ السكندرى فى تأبين عبد المطلب وهى فى مقدمة ديوانه .

وللفصاحة من ألفاظه درر — تعلو فرائدها من غير تنضيد [1]
تجلو المعانى للأسماع صافية — تروى النفوس بمحلول ومعقود [2]
وللبلاغة فى أسلوبه نغم — يغنى الأديب بها عن نغمة العود
بكل معنى جرى حسن البيان به — مع البلاغة جرى الماء فى العود

ويقول « وكان صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن قراعة جاراً لى بسوهاج فلما نقل إلى أسوان ونازعنى الشوق إلى رؤيته كتبت إليه مشطرا البيتين :

« أمر على الديار ديار سلمى الخ » : وقد رد عليه قراعة بشعر رقيق لطيف :

وفى ديوان عبد المطلب كثير من شعره الذى نظمه فى صديقه قراعة . ومن الطريف أن أول قصيدة تطالعك فى ديوان عبد المطلب فى حرف الألف وجهها إلى قراعة رداً على كتاب ورد منه . وأن الديوان يكاد يختم بقصيدة قالها عبد المطلب فى توديع الشيخ قراعة يوم نقل من سوهاج إلى أسوان فى فبراير سنة ١٩٠٥ م . ومما جاء فيها .

فيا قاضيا بالدين تجرى فعاله — ويرضاه فى أحكامه العمران
ويا نائبا فى دينه عن نبيه — نيابة فضل لا تشان لشانى
ويا أيها البحران كيف افترقتما — « وقد مرج البحرين يلتقيان »
تقاسمتما منا قلوبا قد اغتذت — بسوهاج من آدابكم بلبان

أما بعد ، فليس هؤلاء وحدهم هم الذين انتفعوا من أدباء الأزهر وكانوا تلامذة وأشباههم لهم . فغير هؤلاء كثير وكثير ، راض شعراء الأزهر وأدباؤه بيانهم ، وصقلوا شعرهم وهذبوا فكرهم ووجهوهم الى الأدب الناصح والبيان الكريم ، من أمثال محمود صفوت الساعاتى وحفنى بك ناصف وغيرهما فقد وجد هؤلاء من فحول البيان فى الأزهر معينا لا ينضب ، وهدى لا يضل ؟

---

(١) الفرائد الجوهرية النفيسة وإحداها فريدة وتنضيدها ضم بعضها إلى بعض فى اتساق .

(٢) المحلول من الشراب الرقيق ، والمعقود الغليظ الثخين .

الاسلام
يدعو إلى عزة الفرد والجماعة

لحضرة الاستاذ الشيخ محمد ابراهيم الحفناوى
وكيل معهد سمنود الدينى

نظرة عابرة إلى الشريعة الإسلامية وما اشتملت عليه من المثل العالية والحكم السامية تدلنا بوضوح على سعة مداها فى إصلاح العالم . وكفالة تعاليمها بانقاذ البشرية الضالة وتطهيرها من الأدران المتأصلة ، والأوباء المستعصية . التى شملتها وسدت مسالكها وطرقاتها ، حتى لقد غيرت مجرى التاريخ ونظمت سير المؤمن - وفتحت للناس عالما جديدا ملؤه الهدى والنور . بفيض بالأمل ويزخر بالرجاء ويحقق سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ويبث الطمأنينة فى النفوس المضطربة الحائرة . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . على أن أبرز الخطوط فى الشريعة الاسلامية وأوضح المعالم فى هدايتها السماوية هدفها إلى عزة الفرد وحرصها على كرامة المجتمع . بوضع الأسس الثابته القويمة إلى الحياة الحرة الكريمة فأطلقت العقول من قيود الجهل وحررت النفوس من سجون الوهم وطهرت النفوس من أرجاس الشرك ، وأنقذت الناس من ذل العبودية للأحجار إلى عزة العبادة للواحد القهار ، فعزت عقائدهم بعد ذله ، وسمت نفوسهم بعد ضعة واهتدت قلوبهم بعد ضلال هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، ألغى الاسلام الفوارق الاجتماعية . وقضى على نزعات العصبية ، فليس هناك عظيم وحقير . وصعلوك وأمير ، فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فأكرم الناس أتقاهم وأفضلهم ماعم فضله وأنفعهم ما شمل بذله ولقد شعر الناس بعزة الاسلام أصدق شعور وأحسوا به أعمق الاحساس وأدركوه غاية الإدراك . حتى لقد كان الغليظ الجافى من جفاة الأعراب يقدم على الرسول وهو جالس بين صحابته فيقول له يا محمد أعطنى من مال الله الذى استخلفك فيه

لا من مال أبيك وجدك - فلا يخرج النبي صلى الله عليه وسلم من وقاره - ولا يضرب عنه صفحه ، بل يبتسم فى صفاء ويأمر له بإجابة طلبه ويحميه مما يهم به الصحابة من تأديبه على إساءته القول وغلظته فى التعبير ، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يتألم غاية الألم حينما يرى مسلما أذل نفسه وامتهن كرامته وطاف يسأل الناس . لما فى ذلك من إهدار الشخصية وفقدان الثقة بالنفس ، ويقول عليه السلام لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس ، والزكاة المفروضة إنما شرعها الله لسد حاجة المحتاجين وإقامة أود المعوزين ولكن بطريقة تحفظ للفقراء عزتهم ، وتبقى لهم كرامتهم وتصون لهم ماء وجههم .

والإسلام هو الذى جاء فوجد المرأة منبوذة فى المجتمع ، يستقبل ميلادها بالأسى والحزن ، وتدفن حية فى التراب ، وتورث كما يورث المتاع ، وتلاحقها الذلة فى كل نواحى حياتها - فأعلى من شأنها ، وأغلى من قيمتها ، وبين للناس قدرها وأنزل فى الكتاب قدسيتها فأشعرها العزة ، وكساها ثياب الكرامة حتى علا شأنها ونافست الرجل فى طريق العلا ، وساهمته مغانم المجد وخلدت اسمها بجانب الرجل بفضل ما أفسح لها الإسلام من مجال ، وأخذ بيدها إلى مراقى القوة ، ومدارج الكمال ، وهكذا نجد العزة ، تشيع فى المجتمع الإسلامى ، ونلمح الكرامة فى كل مظاهر الإسلام ، فالمسلم عزيز فى عقيدته ، عزيز فى نفسه ، عزيز فى بيته ، عزيز فى مجتمعه ، وما كانت حروب النبي صلى الله عليه وسلم فى الأعم الأغلب إلا دفاعاً عن كرامة الإسلام ، وحفاظاً على هيبة المسلمين ، وإبقاءاً على حرمة المجتمع الإسلامى من أن تنالها يد الطغيان أو يعبث بها ذو البغى والعدوان ، ولقد عرف المسلمون الأولون ذلك الهدى من شريعتهم ، فعملوا له بإخلاص ، وفنوا فيه بصدق حتى تغلغل فى نفوسهم وتمكن من قلوبهم ، وسيطر على عواطفهم ، وظهر فيما صدر من أعمالهم وأقوالهم مهما كلفهم من مجهود وتقاضاهم من متاعب .

والناظر إلى حروب النبي وأصحابه يجدها حافلة بأسمى مواقف العزة ، فياضة بشتى معالى الكرامة ، جياشة بكل معنى كريم وموقف حكيم ، وها هو التاريخ يحدثنا عن غزوة الخندق التى تجمعت فيها الجموع ، واتحدت كل أحزاب الشر ، وتكتلت كل أحلاف الشيطان لتقضى على محمد وأصحابه - فقد علا صيته ، وارتفع

شأنه ، وصار خطرا على كيانهم ، ومعولا يهدم فى بنيانهم ، وسيفا مصلتا على ظلمهم وطغيانهم ، ونظر محمد بعد أن ثبط المثبطون ، وتهرب المنافقون - وثبت المؤمنون الصادقون - فشرع فى تجربة يكشف بها مدى ثبات المؤمنين - ويعرف قوة احتمالهم ومبلغ يقينهم ، فأرسل إلى الأعداء يصالحم على ثلث ثمار المدينة ، ويرجعوا دون قتال - فقبلوا وكتبوا وثيقة بذلك ، وأرسلوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم لإتمامها وإمضائها - فجمع النبى عليه السلام أصحابه ليعرف رأيهم ، واتجاههم فقام السعدان بن معاذ وابن عبادة وقالا يا رسول الله أمراً تحبه فتصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ، فأجاب عليه السلام : بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم من قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما - فقال سعد بن معاذ يا رسول الله : قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان - لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة ألا قرى أو بيعاً . أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ، والله ما لنا بهذا من حاجة ، لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فاستبشر النبى صلى الله عليه وسلم وتهلل وجهه وقال : (فأنت وذاك) ، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها ورفض المسلمون فى عزة وإباء ، ذلك الصلح الذى رأوا فيه ما ينال من كرامتهم ، ويحط من عزتهم واستمروا على موقفهم العزيز الكريم حتى هزم الله الأحزاب . « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا » .

وها هى ذى مصر تثب وثبتها الكريمة وتسلك طريقها القويمة وتتجه فى عزة وإيمان إلى طرد غاصبها ، واستخلاص حريتها واستعادة مجدها وعزتها وقد خطت بحمد الله خطوات موفقة قربتها إلى الغاية وأدنتها من الهدف .

ستجنى فى القريب العاجل إن شاء الله ثمرة جهادها وثمن ما قدمت من دماء أبنائها هنالك يخسر المبطلون ويندم المتخاذلون المثبطون ويفرح بنصر الله المجاهدون الثابتون ، فقد دنت ساعة النصر ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

من أحداث التاريخ

الاسلام لا يغلب

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على شعوط

المدرس بكلية اللغة العربية

وهل رأيت فى وقائع الزمن ، وروائع الحادثات أن هدفا وجهت إليه المدمرات ليبيد ، وصوبت إليه السيوف ليقطع ، والحراب ليخرق ويمزق حتى يهلك : ثم إذا مرت ليال وأيام ، وكشف عنه غطاء الأحداث وجد سليما معافى لم يمر البلى بأجزائه ، ولم يتسرب الفساد إلى شىء من مقوماته ؟

هل رأيت أمرا محيرا كهذا الأمر ؟ يذهب بالفكر مذاهب التيه والحيرة ؛ ويضرب بالخيال فى مهامه ليس لها منتهى ، ولا إلى الخروج منها سبيل ؟

هذا هو حال الإسلام كعقيدة يعتدى عليه فى شخص المسلمين كدول وجماعات وذلك سر من أسرار الشريعة الإسلامية لم يدرك للآن تعليله ، ولم تظهر للناس حكمته ؛ وإن برهن التاريخ على أن ذلك كان .

فقد امتحن الإسلام فى قلوب المسلمين ، وابتلى بهزات عنيفة أدركته فى كل عصر من حياته ، فخرج منها ظافرا متجاهلا ما أصابه ، ساخراً من عقلية المعتدين عليه .

ولم يكن غريبا على الإسلام أن يعتدى عليه ؛ فقد نشأ بين قوم معتدين ، وترعرع فى بيئة كانت تحاربه وتحرص على القضاء عليه ، فلم يكد يتم أمره ، ويقوى عوده ، ويذوق المسلمون حلاوته حتى انتقضت الجزيرة كلها بعد وفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ ووقف أبو بكر رضى الله عنه يقلب الأمر على وجوهه ، وقد اضطرمت الأرض نارا من حوله ، وخلع العرب الثوب الذى ألبسهم إياه

رسول الله ، متعللين بالتخلص من ضريبة الزكاة التى كانوا يرون أنها من حق رسول الله وحده ، ثم صارت فى نظرهم الآن تحمل وصمة الضريبة ، وذلة الأتاوة .

وكشف القناع قوم آخرون ، وارتدوا عن الإسلام فى وضح النهار غير مبالين بقوة الخلافة ، وشعور المسلمين ، واستمرت حركة التذمر تزداد فى صورة مفزعة حتى تشجع الجبان ، واجترأ الضعيف ؛ فعادت الجزيرة جاهلية كما كانت تعلن عداءها للإسلام والمسلمين .

ولم يبق فى ظل الإسلام سوى المدينة وبعض ضواحيها ، وشعرت طائفة المسلمين أول الأمر أن الزمام كاد يفلت من أيديهم ، وأنهم لا قبل لهم بالجموع التى ارتدت ، أو أعلنت عصيانها ثم أدركوا أنهم ما زالوا على الحق ، وأن قومهم قد ضلوا ، ورجعوا عن الأمر الذى حاربهم من أجله محمد عليه السلام ، فاستمسكوا بحبل الله ، وأخلصوا دينهم لله ، وجندوا أنفسهم فى سبيل الله ، فزلزلت أركان الكفر ، وتصدعت صفوف المرتدين ؛ وما زالوا بهم حتى رجعوا إلى الإسلام صاغرين ، فكتب النصر لهذا الدين . [إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم] .

وهكذا شأن الإسلام الذى يخالط القلوب ، ويمتزج بالدم ، وتؤمن به الروح شأنه ألا يغلب أبدا لأن عناصر القوة كامنة فيه ، وعلاج أمراض الجماعات مستمد منه ، ومقومات الأمم ، وصلاح البشر لب تعاليمه .

فإن رأيت مجموعة مسلمة فى أى زمان أو مكان ذليلة حقيرة ، أو مستضعفة مظلومة أو متخاذلة متدابرة ليست على قلب رجل واحد ، فاعلم أنهم ليسوا مع الإسلام على وفاق ؛ ولا لتعاليمه عندهم وضوح ؛ وإنما صاروا مسلمين بالوراثة والبيئة التى لم تعطهم من الإسلام سوى الإسم والمظهر ؛ فقيدوا فى دفاتر المواليد مسلمين ، واتخذت بيوت عبادتهم الصورة التى كانت للمسلمين الصادقين .

لم توجد إلى الآن دولة فى الأرض مسلمة تتخذ الإسلام دينا وهى مستذلة مستعبدة بأى حال . لأن الإسلام بمعنى العقيدة لا يوجد أبداً مع الضعف والذل ، والخضوع والتفرق والتباغض ، والخيانة ، والغدر ، وموالاة الأعداء .

ومن الظلم البين أن تحسب تلك الدول الذليلة المنحلة على الإسلام إلا إذا كان

الإسلام لحية ترسل ، ومسبحة تستغرق وقت صاحبها ، وألفاظا من طرف اللسان تصدر بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ومساجد تعج بذوى العمائم ، وتدوى بالتكبير والتهليل .

وكيف يعيش الإسلام فى دول أو جماعات يكون شأن القادة والزعماء فيها أن يقولوا دائماً ولا يفعلوا ، وأن يغنموا حتما ولا يغرموا ، لم يقوموا على أمور الناس بما أمر الإسلام من سهر الراعى على رعيته ، ودفع ثمن الزعامة والرعاية من ماله وصحته وراحته ؟

إستعرض التاريخ وقلب صفحاته تجد فيها ظاهرة عجيبة يراها الفاحص بعقله وقلبه ، وهى أنه إذا دب الخلاف بين المسلمين ، وانحلت روابطهم ، وانحطت أقدارهم ، وهانت منزلتهم ، يكون الإسلام فى هذه الحالة قد جانبهم ، وانتزع تعاليمه من قلوبهم .

فإن رأيت أن فريقا منهم عدا على فريق ، أو رأيتم جميعاً غلبوا من عدو دينهم فلا تظنن أن الإسلام قد غلب ، لأنه لم يكن هناك ؛ وإنما غلب المسلمون الذين لم يعملوا بالإسلام [ولله العزة ولرسوله والمؤمنين] .

مرت بالإسلام محن وكوارث فى أزمنة متفاوتة ، فكان كلما استمسك المسلمون بالإسلام ، وتعلقوا بأهدابه ، ونزلوا بقوانينهم ونظمهم على نظمه وأحكامه كتب لهم الفوز والنصر ، واحتفظوا لأنفسهم ولدينهم بالعزة والكرامة . وأما إذا أهملوا أمره وضعف إيمانهم به تركهم الإسلام لأعدائهم ينوشونهم بالسيوف ، ويطأونهم بالأقدام وذهب عنهم بعيداً غير مغلوب ؛ وأنهم لهم المغلوبون .

ومن أهم ما ابتلى الإسلام به من محن فى نهاية القرن السادس الهجرى حيث كانت الدولة الفاطمية قد انتهت على يد صلاح الدين الأيوبى . وشغل المسلمون بالخلافات وتدبير المؤامرات من رؤساء الإمارات ، وصار كل أمير يكيد لجاره ومنافسه ؛ فتحركت جموع أوربا المسيحية بتحريض رجال الدين فيها إلى غزو بلاد المسلمين والاستيلاء على بيت المقدس ، ونشطت الدعايات الدينية ، وقذفت أوربا بجحافل المغيرين ، وظلت توالى غاراتها على آسيا الصغرى وبلاد الشام حتى كونت هناك إمارات ، وأقامت معاقل وحصونا فى غفلة من المسلمين أو فى ذلة منهم حين تخاذلوا واختلفوا .

ولكنهم رأوا أن إسلامهم لا يقر التخاذل ولا يرضاه ؛ فنادوا باسم الإسلام من كان فى قلبه ذرة منه ، وتنادوا بالجهاد فى سبيل الله ، وهو أعز أركانه ، وأقوى بنيانه . فلما وجد الإسلام أنهم يتنادون باسمه ولبه وتعاليمه عاد فملأ القلوب الفارغة ، وزود الأرواح بالإيمان فأحبت الشهادة فى سبيل الله ؛ فلما تاقت إلى الموت وهبت لها الحياة .

فما هى إلا جولات لمعت فيها سيوف تعلقت بها أرواح أصحابها ، والتفت حول صلاح الدين الأيوبى ، ونبذت الخلافات ، وطرحت العداوات . فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ونالوا من عدوهم كل منال ، وضربوا له فى الشجاعة الأمثال .

ولم يكد يمضى بعد ذلك زمن على ظهور أمر المسلمين واجتماعهم تحت راية واحدة هى راية الإسلام حتى تورطوا فى خلافات وعداوات وأصبح بأسهم بينهم فتقلص ظل الإسلام من القلوب فى الشرق وفى الغرب مقدمة لزوال دولة المسلمين .

ففى الشرق فى بلاد ما وراء النهر وخراسان كانت دولة خوارزم شاه قد بلغت قمة مجدها ثم أخذت طريقها إلى الانحدار فظهر فيها الفساد حيث أخذ السادة بالترف والنعيم واللهو واللعب والانغماس فى الشهوات والموبقات فاختل ميزان العدل ومال ، وتبوأ الظلم مقاعده فى قلوب الرجال ، وانتزع الأمن والإيمان من الأقوياء والضعفاء .

وفى العراق شغل الخلفاء بمظاهر الأبهه ، وشكليات الخلافة فأهملوا شئون الرعية حتى عم الظلم والاضطراب .

وفى بلاد الشام ومصر أصبح فى كل بلدة أمير من أعقاب الأيوبيين ، وفى كل شبر من الأرض ملك يدعى لنفسه قوة السالفين . فنشطت المؤامرات حتى كشفوا للصليبيين عن عوراتهم واستعانوا ببعضهم على بعض حتى تحطمت قوى الجميع على صخرة هذه الخلافات .

ولكن ما هو السر الحقيقى فى تردد حال المسلمين فى دولهم وجماعاتهم بين القوة الجارفة التى كان لهم فيها العز والمجد ، وبين الذل والاستكانة والخنوع لعدو لهم ولدينهم ؟

السر فى ذلك أنه حين تعمر القلوب بالإيمان ، ويشيع نوره فى جوانبها تسمو النفوس وتقوّم الأخلاق ، ويحلو للمسلم أن يضحى بكل شىء فى سبيل دينه ؛ فتحقر الحياة فى نظره ، ويتوق إلى الشهادة فى تحقيق غاياته .

هنالك تسمو دولة المسلمين ، ويعز الإسلام فى حواشيها ، وينشأ سباق جميل بين الإسلام والمسلمين ؛ فكلما حقق المسلمون هدفا من أهداف الإسلام بدا لهم الهدف الذى يليه قريب المنال ، سهل التحقيق . وتظل الأمور هكذا طالما كان الإسلام والمسلمون على وفاق .

أما إذا انخذل المسلمون عن ركب الإسلام ، وأعشاهم نوره ، وبعدت بين الإثنين المسافات ، ترك الإسلام جماعته ، وطوى عنهم بضاعته فلا يزالون ينحدرون ، وتنحدر بهم الأخلاق حتى يصبحوا وليس بينهم وبينه نسب أو سبب ، ويعود الإسلام غريبا بين المسلمين فيضيق بهم ذرعا حتى يصيروا أبغض أهل الأرض إلى هذه العقيدة ؛ فيبحث الإسلام عن درع يحميه ، وفصيلة تؤويه .

ولا يزال يبحث حتى يصادف قلوبا ضجت من الفساد ، وملت الموبقات ، وضاقت بالحياة الفاجرة ذرعا فراحت تبحث من جانبها عن طريق الهدى والإنقاذ فتؤمن بألا منجا من الهلاك فى الدنيا والآخرة إلا بالرجوع إلى تعاليم الإسلام كما كانت فى فجره . فيظهر المصباح فى الدجى الحالك ، ويبدو المشعل الهادى فى يمين الدعاة المخلصين ؛ وقد تقدموا الركب الحائر يوقعون الأنغام للحادى ، وينشدون نشيد الخلاص . فإذا جوانب الأرض تهتز ، وبراكين الثورات المكبوتة تتفجر فى كل ناحية .

ثورة على الفساد والنفاق والكذب والجبن والتفرق والتواكل وحب الشهوات هذه الثورة هى دعوة الحق التى دعا بها محمد بن عبد الله ؛ فإذا أسلحة العدو مفلولة ، وأياديه مغلولة ، وجموعه الكثيرة ذليلة أمام إيمان يقصم الحديد ويزلزل الجبال .

ويبدو الإسلام باسما وضاح الجبين ، نا صعاً كما كان بيد داعيه وراعيه محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام . فهل يغلب الإسلام ؟ لا وإنما يغلب المسلمون .

(يتبع)

تنظيم الحرب والسلام

للأستاذ الدكتور محمود فياض

المدرس بكلية أصول الدين

تقوم سياسة الإسلام الخارجية - كما عرفنا فيما سلف - على أساس الدعوة إلى الله بالتي هي أحسن ، وأن الظروف التي تحيط بالدعوة ، تحتم أن تكون مصحوبة بقوة عسكرية لحمايتها ، وتأمين القائمين بها ، ومن هنا كان « الجهاد » من لوازم الدعوة ، على نمط ما يسمى في العرف الدولي اليوم « بالسلام المسلح » ، وأن هذه الدعوة قد تقبل ، وقد ترفض رفضاً سلميا ، أو رفضاً مصحوبا بتهديد الدعوة وأصحابها ، ولكل حالة حكمها .

ومعنى هذا الذي قلته : أن ردود غير المسلمين على الدعوة ، هي التي تحدد نوع العلاقات بينهم وبين المسلمين ، سلما وحربا ؛ فمن قبل الإسلام دينا فهو مسلم مكلف بما يكلف به المسلمون ، لا سيادة لأحد عليه إلا لله ، ومن ابتغى السلام مع البقاء على دينه ، سالمناه وعاهدناه ، لأن السلام هو أنشودة الإسلام . « ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان » ، « ادفع بالتي هي أحسن » ، ومن أراد الحرب ، دافعنا عن كياننا مضطرين ، ونحن نؤمن بأن الحرب خطوة من خطوات الشيطان ، ولا نخوضها إلا مكرهين ؛

منهج الدعوة : وقد جرت التقاليد الاسلامية منذ عهد الرسول الكريم وخلفائه ، على اتباع منهج السلام في الدعوة إلى الله . ألم تر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، يأمرون قواد جيوشهم بأمر لا تكاد ألفاظه تختلف إلا قليلا رغم صدوره إلى الجند آلاف المرات ؛ « إذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى إحدى ثلاث ، الاسلام ولهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ثم جزتهم إلى غيرهم ، أو الجزية ، فإن أجابوك إليها فكف عنهم ، وهم في ذمة المسلمين ، أو الحرب واستعن بالله عليهم » ولهذا قال الفقهاء ، « إننا بهذه الدعوة نعلمهم أننا لا نقاتلهم

على أخذ أموالهم وسبي عيالهم ، فربما يجيبون إلى المقصود من غير قتال ، وقتالهم قبل الدعوة إثم يستوجب غضب الله .

ولتعلم مبلغ اصرار الإسـلام على التزام السلام ، ونفوره من العدوان ، أقول لك : إن الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب رضى الله عنه » كان يحتم على قواده عرض الاسلام من جديد على كل من بلغته الدعوة ، وردها زمن النبي عليه السلام وخليفته الصديق ، عرضاً فكرياً أساسه الحجة والبرهان توصلا إلى إقناعهم ، ونفوراً من القتال ، وقد أمر « سعد بن أبي وقاص » قبل موقعـة القادسية أن يرسل وفداً من علماء المسلمين إلى كسرى فارس « يزدجرد » يدعوه من جديد إلى الإسلام ، مع أنه قـد وصله كتاب من الرسول فمزقه ، واعتدى على الرسل ، ثم دعى مرات بعدها إلى الله بوساطة جنده وقواده قبل كل اشتباك بينهم فى عهد أبي بكر ، فأرسل « سعد » إلى « يزدجرد » وفداً فيه « النعمان بن مُقرّن ، والأشعث ابن قيس ، والمغيرة بن شعبة ، وعاصم بن عمر » فعرضوا الاسلام على كسرى عرضاً جميلا . فأبى . فخيروه بين الجزية مع السلام . فغضب ولم يدع لهم فرصة . وقال : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم » ثم أمر بطردهم شر طردة ، وأن يحمل أشرفهم وقرا من تراب ، وتطوع عاصم بن عمر فادعى أنه أشرف القوم فحملوه التراب . ثم قال لهم كسرى : « إرجعوا إلى صاحبكم وأعلموه أني مرسل إليه « رُستم » حتى يدفنكم وإياه فى خندق سابور وينكل بكم وبه » وإذن فهى الحرب ، وقد أعلنها كسرى على المسلمين الذين تشبثوا بالسلم ، ورأوا أن يعرضوا دعوتهم قبل المعركة على القائد العظيم رستم صاحب النفوذ الكبير فى فارس فعساه يجيبهم إلى خطة سليمة رشيدة ، فعرضوا عليه الاسلام ، وناقشهم كثيراً ، وكان مما قاله للمسلمين : فإن أسلمنا فماذا ؟ قالوا : لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وجزناكم إلى من ورائكم ، ليس لنا عليكم من سبيل » ومع هـذا اختار الفرس الحرب ، وانتصر عليهم المسلمون . وهـذا الذى حدث مع الفرس ـ وهم أكبر دولة شغلت قوات المسلمين حتى تحطمت على أيديهم نهائيا ـ حدث مع غيرهم من الشعوب التى دعيت إلى الاسلام فى كل مكان ، وكانت ردود القوم الذين حاربهم المسلمون ، ردوداً نارية كما رأيت فى رد كسرى ، وتستطيع أن تتبع أسباب المعارك الاسلامية كلها

وستجدها راجعة إلى هذا الذى ذكرته لك (١) . ونحن نتحدى أن يدلنا أحد على مرة واحدة بدأ فيها المسلمون غيرهم بالعدوان ، ولم تفرض عليهم الحرب ، رغم تعلقهم بالسلام فخاضوها مرغمين !! وكيف يطلب خصوم الاسلام من المسلمين ، أن يقيموا وحدهم على السلام حتى تجتاحهم قوات الأعداء ؟ إنهم إن قبلوا ذلك . كانوا أذلة . وتخلوا عن رسالتهم إلى الأبد !! وهكذا ترى أن غير المسلمين الذين رفضوا الدعوة هم الذين هددوا المسلمين ، وأعانوا عليهم ، وحددوا بأجوبتهم نوع العلاقات مع المسلمين ، وأنهم اختاروا حالة الحرب ، وسنتحدث عنها لكثرة ما يتعلق بها فيما بعد .

حالة السلام : والسلام هو الأصلى فى العلاقات الدولية فى نظر الاسلام ، وهو إما سلام طبعى دائم ، وذلك فى حالة اسلام الذين يدعون إلى الاسلام ، فيصبحون أعضاء فى الأمة الاسلامية أفراداً وشعوبا ، وأما أن يكون سلاما هو امتداد للسلام وهو إما دائم تنظمه معاهدات دائمة . وذلك فى حالة ما إذا قبل شعب دفع الجزية للمسلمين مع البقاء على دينه . كما حدث بين الرسول عليه السلام وبين نصارى نجران ، وأمير دومة الجندل والقبائل المسيحية واليهودية على البحر الأحمر ، مع خضوعهم الكامل لسيادة المسلمين ، أو مع استقلال ذاتى ، كما فى معاهدة أمير دومة الجندل (٢) ، ومعاهدة عمير (٣) بن سعد بن عبيد الأنصارى لأهل بلدة عربسوس . ومعاهدة معاوية لأهل أرمينيا وأهل قبرص (٤) ، وقد يكون السلام ناشئا بعد حرب وذلك بعد هزيمة الأعداء فيصبح سلاما دائماً تحكمه معاهدات خاصة تقتضيها الظروف ، وإما سلام مؤقت بعد حرب لم ينهزم فيها العدو وهى الهدنة أو الموادعة ، كما فعل الرسول عليه السلام مع قريش فى صلح الحديبية الذى جعلت مدته عشر سنين ، وتحديد التوقيت متروك لقيادة المسلمين على الأصح حسب ما يرون من مصالحهم ، قلت المدة عن عشر سنين أو كثرت ، وأن تشبث بعض الفقهاء بعدم الزيادة فى الموادعات (الهدنة) عن عشر سنين .

---

(١) راجع أخبار المعارك فى الطبرى وابن الأثير وطبقات ابن سعد والبخارى . الجهاد .

(٢) اقرأ نص المعاهدة فى سيرة ابن هشام « غزوة تبوك » (٣) أمير حمص من قبل عمر بن الخطاب (٤) الفتوح للبلاذرى ص ١٢٩ - ١٦٤ والمراجع التاريخية الأخرى .

فمن اختار السلام، وأخلى الطريق أمام المسلمين، ودفع الجزية. عاهده المسلمون وهم فى ذمة المسلمين. يحمون دماءهم وأعراضهم وعقائدهم وأموالهم، ويخضعون لحكم الإسلام « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ». غير أن الإسلام يشترط أن تكون رغبة القوم فى السلام رغبة حقة لا تشوبها حيلة، أو خداع، أو تغرير بالمسلمين، فإن دلت الظروف على أن القوم قد اختاروا السلام والجزية خدعة يراد بها الخلاص مؤقتا من خطر الحرب للاستعداد والتقوى مثلا — كما رأيناه فى هدنة أرباب المدنية الحديثة — فعلى المسلمين أن يرفضوا خدعتهم، وحسب المسلمين نصر الله وقوتهم « وإن يريدوا أن يخدعوك. فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ». وإذا لم يظهر للمسلمين قبل المعاهدة ما يدل على نية الغدر من القوم فعاهدوهم وسالموهم، ثم ظهرت بعد عقد المعاهدة أمارات يتوقع المسلمون بها غدر المعاهدين، وجب على المسلمين إعلان فسخ المعاهدة، إعلانا واضحا لا لبس فيه ولا غموض، ولا خنوع. « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين » وهكذا يأمر القرآن الكريم المسلمين فى حالة توقعهم غدر المعاهدين، بنبذ معاهدتهم نبذا قويا واضحا، وفى نفس الوقت يحرم على المسلمين أن يتخذوا من توقعهم غدر الخصوم سببا للغدر بهم. كأن يهاجموهم بمجرد التوقع من غير إعلان فسخ المعاهدة، وعد ذلك خيانة لا تقبل من المسلمين لأن الله لا يحب الخائنين، ولا يهدى كيد الخائنين.

والإسلام لا يقصد من المعاهدات إلا إقرار السلام ليتفرغ الدعاة للهداية والإرشاد، ويحتم الوفاء بها ما وفى بها المعاهدون، « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ». ولا يبغى الاسلام من وراء المعاهدات سيطرة ولا تملكا، ولا استعمارا، ولا يتخذها وسيلة للتنكيل بالطوائف والشعوب وإذلالهم، واستغلال مواردهم، بل يحرم كل معاهدة تهدف الى شىء من هذا الطغيان، رجاء أن تكون أمة هى أقوى من أمة « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم. ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها. وقد جعلتم الله عليكم كفيلا. إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا. تتخذون أيمانكم دخلا [1] بينكم

[1] غشا وخديعة.

أن تكون أمة هى أربى [1] من أمة ، وهكذا لا يقر الإسلام معاهدة تمليها القوة والطغيان ، وتتخذ وسيلة لغش الشعوب وخداعها ، واستعبادها واستغلالها ، ويحرم على المسلمين قبول أحكامها ، كما يحرم عليهم إملاء مثلها ، حتى قال الفقهاء : لو أن أمير بلد عاهد المسلمين على أن يدفع لهم الجزية ويسالمهم ويعاونهم على عدوهم ، بشرط أن يتركوا له التجبر على رعيته وإذلالهم ، فإنه لا يحل للمسلمين معاهدته على ذلك ، وتجد كثيرا مما يثير دهشتك فى كتب الفقه فى بابى الجهاد والمعاهدات ، مما يقطع بأن المسلمين كانوا حقا مبلغين عن الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى :

وقد أمر القرآن بالوفاء بالعهد ، ولو أدى ذلك الى عدم نجدة إخواننا المسلمين الذين يقيمون فى بلد غير إسلامى معاهد للمسلمين « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق . . » مع أن القرآن يعتبر المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلادهم أمة واحدة ، ومقتضى هذا أن كل عدوان يقع على طائفة أو شعب من المسلمين فهو عدوان على الأمة الإسلامية كلها يجب عليها أن تتعاون على دفعة « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ، إنما المؤمنون إخوة ، ولكن القرآن فى مثل هذه الحالة يأمر المسلمين بعدم نجدة إخوانهم حتى لا يوصف المسلمون بالخيانة ، ونقض العهود ، وهو وصف يصد الناس عن الإسلام ، « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم .

فإذا أخل المعاهدون بشروط المعاهدات . كلا . أو بعضا . فقد نقضوا المعاهدة ، ووجب على المسلمين قتالهم ، واعتبر هذا النقض عدوانا وإعلانا للحرب على المسلمين ، وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم . وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم ، . « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول . وهم بدءوكم أول مرة » ؟

(١) أنوى .

ومن هنا تدرك أن حالة السلام بين المسلمين وغيرهم . تنظمها معاهدات خاصة ، يجب على طرفى التعاقد التزام شروطها والوفاء بها ، واحترامها ، ولا يحل نقضها ، وللمعاهدات شروط يجب تحققها لتكون محترمة فى نظر الإسلام ، والوفاء بها ، أو عدم اعتبارها منوطان بتحقق هذه الشروط التى أجمل لك الحديث عنها فى العبارات الآتية :

شروط الوفاء بالمعاهدات :

(١) يجب أن تكون المعاهدة متفقة تماما مع المبادئ والأوضاع الإسلامية التى اختارها المشرع سبحانه للمسلمين . فإذا ناقضت نصاً ، أو تشريعاً إسلامياً . كأن تحل حراما أو تحرم حلالا فهى باطلة ، وكمعاهدة تجعل لغير المسلم سلطانا على المسلمين لأن الله يقول : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » .

(٢) يجب أن تتفق المعاهدة مع ما قرره الله من السيادة للإسلام ، وسلطان المسلمين عل بلادهم ، فإذا تضمنت المعاهدة نصاً يناقض ذلك فهى باطلة . كمعاهدة تعطى غير المسلمين وغير الذميين حقوقا فى بلاد المسلمين لا تكون إلا للمسلمين . كحق وضع جيش أو قوة عسكرية رمزية فى أرض المسلمين ، أو حق الارتفاق بمرفق إسلامى ، أو حق احتكار شىء يضر احتكاره بالمسلمين ، أو حق المرور بأرض المسلمين ، وتسخير مرافقهم بأى شكل من الأشكال ، لأن ذلك ، يناقض ما كتب للإسلام وللمؤمنين من السيادة والعزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وعلى هذا فكل معاهدة لا تتضمن عزة المسلمين ، وعلو كلمتهم ، وصيانة دينهم ، وحفظ جميع صوالحهم فهى باطلة . وبعبارة أخرى . كل معاهدة تتنافى مع سيادة الإسلام وأهله فى أرضهم ، أو تقيدها أو تحد من سيادتهم فهى باطلة .

(يتبع)

تهنئة بالعيد

رأى العيد وجهك عيداً له ... وإن كنت زدت عليه جمالا
وكبر حين رآك الهلال ... كفعلك حين رأيت الهلالا
رأى منك ما منه أبصرته ... هلالا أضاء ووجها تلالا

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى
المدرس بالأزهر

نقتصر فى بحثنا هذا على ست طرائف تتعلق بتشابه النظم فى قصص القرآن الكريم حيث يكون المعنى الأصلى واحدا يحكى فى أكثر من موضع بعبارات تختلف تقديما وتأخيرا وذكرا وحذفا ونحو ذلك نكشف عن سر ذلك تفصيلا بعد أن عرف أجمالا ومناسبة المقامات المختلفة لمقتضيات أحوالها المختلفة .

الطريقة الأولى : فى قوله تعالى . فى سورة هود . قصة . ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا . . . مع قوله تعالى فى نفس السورة قصة شعيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة . . . مع قوله تعالى فى نفس السورة قصة لوط . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مع قوله تعالى فى نفس السورة قصة صالح فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا . فأن آيتى هود وشعيب نسقتا بحرف الواو بينما آيتا لوط وصالح نسقتا بحرف الفاء ففى الأولين : « ولما جاء أمرنا » وفى الآخرين « فلما جاء أمرنا » فهل من سر لهذه التفرقة ؟ الجواب نعم ، وسر عظيم . فأنه حيث يتقدم فى نفس القصة وعيد بالعذاب مقرون بالدلالة على قرب وقوعه يكون حرف الفاء ، وحيث لا يتقدم ذلك يكون حرف الواو ، وذلك لما فى طبيعة الحرف الأول من الدلالة على التعاقب دون الثانى ، ففى قصة لوط تقدم تقدما مباشرا قول الملائكة للوط : إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟ وفى قصة صالح كذلك تقدم تقدما مباشرا قوله لقومه : « تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » أما فى قصتى هود وشعيب فلم يتقدم فى الأولى إلا قوله لقومه : « فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ » ولم يتقدم فى الثانية إلا قوله لقومه : « سوف تعلمون من يأتيه عذاب تخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا أنى معكم رقيب » .

فهذان وان كان فيهما إبعاد وتهديد بمجيء بأس الله وأمره إلا أن ذلك عار عن توقيته والدلالة على قرب وقوعه .

هذا جانب من جانبي هذه الطريقة ، أما الجانب الآخر فهو أن قصص هود وشعيب وصالح يذكر فيه بعد مجيء أمر الله نجاة النبي والذين آمنوا معه ثم يتلوه هلاك الأقوام ، وفى قصة لوط خاصة لا تذكر نجاته عقب ذكر مجيء الأمر بل الذى يذكر مباشرة هلاك قومه . . والسر فى ذلك أن لوطا لم يكن حين مجيء أمر الله بين قومه حتى ينص على نجاته بل أنه غادرهم قبل ذلك حيث قيل له فأسر بأهلك بقطع من الليل ، فأذعن للأمر . . ثم صبحهم العذاب . . أما الأنبياء الآخرون فلم يكونوا قد فارقوا أقوامهم قبل مجيء هذا الأمر [1] .

الطريقة الثانية : فى قوله تعالى فى سورة هود ، قصة هود ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، مع قوله تعالى فى نفس السورة ، قصة شعيب ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فالفعل فى الأولى مذكر وفى الثانية مؤنث والفاعل واحد والتركيب واحد فما سر ذلك ؟ الفعل جائز التذكير فى هذا التركيب على أرادة الصوت من الصيحة ، كما أريدت الصيحة من الصوت فى قول القائل :

يا أيها الراكب المزجى مطيته سائل بنى أسد ما هذه الصوت

وجائز التذكير لوجود الفاصل بينه وبين فاعله ،حتى لو كان فاعله حقيقى التأنيث ، فكيف وهو مجازيه ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان التأنيث هو الآخر جائزا ، وكان التأنيث فرع التذكير على ما هو مقرر فى علوم العربية ، ولتقدم الذكر على الأنثى كان من وضع الأول فى الأول والثانى فى الثانى التذكير أولا والتأنيث ثانيا ، فيرد القرآن بالطريقتين بيانا لجوازهما فهو كتاب العربية الأكبر وديوان تراكيبها وقاموس عباراتها .

الطريقة الثالثة : فى قوله تعالى فى سورة هود قصة هود « واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . . . » مع قوله تعالى فى نفس السورة قصة موسى « واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » فالتركيبان وإن كانا فى قصتين

---

(١) مراجعة الآيات ودراسة القصص تعين على سرعة ادراك هذه الطرائف .

مختلفتين إلا أنهما فى سورة واحدة ومعنى واحد ، وحيث كان فى أولهما اتباع اسم الأشارة بما يبينه وهو لفظ « الدنيا » ، كان فى ثانيهما الاستغناء عن ذكره . ولهذا لم يقع هذا الاستغناء عن هـذا البيان حيث وقعت هذه العبارة واحدة فى سورة القصص قصة موسى أيضاً . . هذا لو لم تكن قضية المقابلة بين يوم القيامة وما قبله من الأشارة معنية على بيان هـذه الأشارة عند حذف هذا البيان ، فكيف وهى كذلك ؟؟.

الطريقة الرابعة : الذين ذكر الله نجاتهم مع الرسل اضطرد التعبير عنهم بالأهل فى سائر مواضع قصة لوط « فنجيناه وأهله أجمعين » ، « فأنجيناه وأهله إلا امرأته » ، « إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين » ، ويعبر عنهم بالأهل تارة وبغير الأهل أخرى فى قصة نوح « فنجيناه وأهله من الكرب العظيم » ، « فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون » ، « ونجنى ومن معى من المؤمنين » ، « احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن » . ويطرد التعبير عنهم بغير الأهل فى قصص هود وصالح وشعيب « نجينا هودا والذين آمنوا معه » ، « نجينا صالحا والذين آمنوا معه » ، « نجينا شعيبا والذين آمنوا معه » . ولعل ذلك - والله أعلم - لأن قوم لوط كان فيهم إطباق على الكفر ، فلم يؤمن إلا إبنتاه وإحدى زوجتيه . وكان ذلك هو كل الناجين معه حين خرج بهم ليلا قبل نزول العذاب ، ولا شك أنهم محض أهله . ويتلوه فى هذا المعنى نوح فقد آمن معه قليل ، اختلفت الروايات فى بيانه من ثمانية إلى ثمانين ، وكان من هذا القليل من هم محض أهله من أولاده ونسائه ونسائهم ، فتردد التعبير فى قصته بين التعبير عنهم بالأهل تارة وبغيره أخرى وبالجمع بين الأهل ومن آمن تارة ثالثة ، أما أقوام الأنبياء الآخرين فكان فى مؤمنيهم كثرة كثيرة ، فحسن التعبير عنهم فى معرض نجاتهم بما كان سبباً فى هذه النجاة وهو الإيمان .

الطريقة الخامسة : فى قوله تعالى فى سورة المؤمنون قصة هود « فبعداً للقوم الظالمين » مع قوله تعالى فى نفس السورة فى أقوام رسل أخرى كثيرة « فبعداً لقوم لا يؤمنون » . لماذا - والمعنى واحد والتركيب واحد - عرف القوم الأول ووصفه بالظلم ، ونكّر الثانى ووصفه بنفى الايمان ؟ . عرف القوم الأول لأن

المراد به قوم مخصوص معين هو قوم هود ، ونكر الثانى لأن المراد به أقوام كثيرة لم يقع تعيينهم فى الحكاية ، ألا يرى إلى قوله تعالى عقب قصة نوح فى نفس السورة « ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » فإنه تعيين لقوم هود ؟ وإلى قوله تعالى فى نفس السورة بعد قصة هود « ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين » فانه إبهام لهذه القرون ؟ . ووصف القوم الأول بالظلم لما ذكر فى مطاوى قصتهم فى هذا الموضع من الاطناب فى بيان كفرهم وعنادهم وظلمهم لرسولهم الذى أرسل إليهم ولنفوسهم التى تكمن بين جنبيهم ، مما كان له مدخل فى تعيينهم وتعريفهم ووصفهم بهذه الصفة . أما القوم الثانى فلأنهم لم تحك أمورهم إلا على سبيل الاجمال ، اكتفى بالوصف الاجمالى الذى هو عدم الايمان ، وأريد كل من لم يؤمن منهم ومن غيرهم .

الطريقة السادسة : فى قوله تعالى فى سورة الحجر قصة لوط « فأخذتهم الصيحة مشرقين » مع قوله تعالى فى نفس السورة قصة صالح « فأخذتهم الصيحة مصبحين » . هل من سر للمغايرة بين « مشرقين » ، « مصبحين » ؟ الوقتان المذكوران الصباح والشروق كوقت واحد من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فأيما كان التعبير بمشرقين أو مصبحين فهو صحيح بحسب مبدأ الوقت ونهايته . فقوم صالح نزل عليهم العذاب صباحا ، ولم تبين الحكاية امتداده إلى الشروق سواء كان فى المحكى ممتدا إلى الشروق أم لا . وقوم لوط بينت الحكاية امتداد نزول العذاب عليهم إلى الشروق ، ولا شك أنه بدأ صباحا على ما هو مذكور فى مواضع أخرى . « أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » . « ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » .

فيؤول السؤال إلى أن قوم لوط مبين فى عذابهم إمتداده من الصبح إلى الشروق دون قوم صالح الذين اكتفى فيهم ببيان أنه نزل عليهم صباحا . فإذا علمنا أن قوم لوط كانوا فى كفرهم وجرمهم أبشع وأشنع من قوم صالح الذين كان لهم فى كفرهم هوادة على ما سبق بيانه فى مباحث ماضية ، علمنا لماذا كان كل صنيع فى موضعه . حيث كان بيان امتداد العذاب وتطاول مدته فى صدد الحديث عن الأطغى الأظلم . وكان الاكتفاء ببيان مجرد نزول العذاب فى مبدأ وقت نزوله بصدد الحديث عن الأقل ظلما وطغيانا ؟

العصامى المنصور

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

تتسع جوانب التاريخ الإسلامى لعشرات من العصاميين الذين سودتهم نفوسهم وبنت لهم سواعدهم بروجاً تتطامن عندها هامات المتوجين ، أو شادت لهم عبقرياتهم مجداً شامخاً تعنو لديه رؤوس المالكين ، وبين جوانب التاريخ صفحة براقة العنوان وضاءة السطور للعصامى المنصور « المنصور بن أبى عامر المعافرى العربى » الذى وثب جده « عبد الملك » مع الواثبين من جند « طارق » إلى بلاد الأندلس ففتحوها وظل أبناء عبد الملك وأحفاده يتناسلون فى بلاد الأندلس ، حتى ولد المنصور فى قرية « تركش » ، ونشأ بها نشأته الأولى ، ثم نزح إلى « قرطبة » عاصمة الملك ومحط النازحين من علماء الشرق وأدبائه ؛ فتنقل بين مساجدها ومدارسها ومكاتبها ينهل من العلم والأدب ما راق له ، وقرطبة فى ذلك التاريخ تنافس « بغداد » فى علمها وحضارتها ، بل تبزها فى فنها وعمارتها ومجدها وسياستها ؛ ونضجت عقلية المنصور فى ذلك الجو الزاخر بالعلم والأدب والسياسة ، وهيأ له قلمه مكانة فى الكتابة بعد أن بحث أحوال ذلك المجتمع ، ثم أرسل نفثات قلمه تصور ما عن له من مشاكل .

وقد اتخذ لنفسه مكاناً على مقربة من قصر الخليفة « الحكم المستنصر » ؛ يكتب للمظلومين شكاياتهم التى يرفعونها إلى الخليفة وعلمت (صبح) زوجة الحكم بمكانة المنصور فى الكتابة ، فطلبت من الحكم أن يعينه كاتباً لها ، ومن ثم نبُهَ شأنه ، وتجلت كفايته ، فولاه الحكم قضاء بعض الأقاليم ، فظهر عدله وكياسته ، وقد تمكن فى قلبه (صبح) بما قدم لها من هدايا وتحف .

ولما توفى الحكم وخلفه ابنه « هشام المؤيد » وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، تمرد الروم على الدولة ، ونقضوا عهودهم مع المسلمين ، فخرجت الجيوش الإسلامية بقيادة « المنصور بن أبى عامر » وهزمت الروم شر هزيمة ، ومن هنا ظهر نجم المنصور وازدهر .

دهاء المنصور :

فى قرطبة شخصيات جبارة ، وطوائف وأحزاب تتنازع السلطان ، ففيها الصقالبة الذين يؤلفون قوة لها فى قصر الخليفة منزلة ، وفيها « غالب » صاحب مدينة سالم وهو رجل له بأسه وسلطانه ، وفيها « جعفر بن الأندلسى » قائد الشيعة وزعيمهم ، « وممدوح بن هانىء » ، وفيها « عبد الرحمن بن هشام » التجيبى وهو رجل له قوة وله أعوان ، وأخيراً فى الأندلس جنود ، فكيف يستطيع المنصور أن يتغلب على كل ذلك وهو الطامح إلى أن يصبح إسمه الثانى بعد الخليفة فى الأندلس ، بل الطامع فى استلاب كل شىء من يد الخليفة ، وأن يصبح هو الخليفة غير المتوج ؟ فأعمل الحيلة والدهاء ، واستغل المصحفى فى القضاء على الصقالبة حتى قضى عليهم وتخلص من نفوذهم ، ثم استعمل دهاءه فى استحالة الوزراء إليه وتظاهر بحبهم وأعمل دسائسه حتى ملأ قلوبهم حقدا على المصحفى ، ثم استعان بغالب صاحب مدينة سالم فى القضاء على المصحفى ، فقضى عليه وتزوج عندئذ ابنة غالب ، ولكن هذه المصاهرة لم تحـــل بينه وبين التفكير فى القضاء على غالب حيث اتصل بقائد الشيعة ، ومكن له من القضاء على غالب واستعان بعد ذلك بعبد الرحمن التجيبى فى القضاء على قائد الشيعة ، وأخيرا خشى تآمر الجنود الأندلسيين وأن يتنبهوا له بعد أن رأوا هذه الشخصيات التى تطيح الأقدار برؤوسها نتيجة تدبير المنصور ، فمد يده إلى أفريقية واستقدم جنودا من زناته وبرابرة المغرب ومكن لهم الأندلس فقضى بهم على صولة الجنود الأندلسيين .

وهكذا أخذ المنصور بدهائه وحسن سياسته يستعين بزعيم فى القضاء على زعيم ويضرب هؤلاء بأولئك حتى قضى على الجميع ، وأصبح هو وحده كل شىء فى الدولة .

حروب المنصور :

ابتدأت حياة المنصور الحربية بتلك المعركة التى انتصر فيها على الروم ثم توالت غزواته حتى بلغت ستا وخمسين غزوة لم يهزم له فيها جيش ولم تنكس له راية . وقـــد أنشأ للدولة أسطولا عظيما ساعده غزو الثغور ولم تخنع له همة أمام الحصون الجبارة التى تحصن بها أولئك النصارى وأعظم تلك الغزوات غزوة

(شنت ياقب) وكانت هذه المدينة حصنا للنصارى وبها كنيسة هى عندهم بمنزلة الكعبة عند المسلمين يحجون إليها من أقصى البلاد ، ولم يستطع أحد من ملوك الأندلس المسلمين فتحها لصعوبة مداخلها وبعد شقتها ووعورة مسالكها وتقدم المنصور بجيوشه يغزو ويفتح حتى خضعت له هذه المنطقة التى استعصت على الغزاة قبله ، وقد جمع المنصور من تلك الغزوات العظيمة التى غزاها ما علق به من الغبار ووضعه فى صرة لتوضع فى كفنه عند موته .

دين المنصور :

لقد كان المنصور منذ شغلته الغزوات الخارجية دينا ورعا ، وقد كتب مصحفا بخط يده ، وحمله معه فى أسفاره وغزواته ويدرس فيه ويتبرك به .

مكانة المنصور :

لقد تمكن المنصور بعد كل هذا فى الدولة وتمكن من كل شىء فيها فبنى لنفسه مدينة الزاهرة لينافس بها مدينة الزهراء التى ابتناها عبد الرحمن الناصر ونقل المنصور الى الزاهرة خزائن الدولة وأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر بعد الخليفة وأنفذ الكتب الى الولاة باسمه كما كتب اسمه على الأعلام والنقود . وهكذا تحققت له أحلامه التى أرادها ،أصبح المنصور هو الملك المتصرف فى الأندلس ، أما الخليفة هشام المؤيد فليس له من الحكم إلا مظهر الخلافة فحسب .

أخلاق المنصور :

استطاع المنصور أن يحتل قلوب المسلمين بحسن سياسته وبره وسهره على الرعية وكان يحب ألا يظلم أحد ولو لحساب الدولة فقد روى أنه أمر ببناء قنطرة على نهر قرطبة وتطلب البناء الاستيلاء على قطعة أرض الرجل من العامة فأرسل الأمناء لشرائها فطلب منهم صاحبها عشرة دنانير ، وكان ساذجا فنقدوه ما طلب وكانت القطعة تساوى أكثر من ذلك فلما أخبروا المنصور ضحك لغفلة الرجل وأمر بإعطائه عشرة أمثال ما طلب وكاد الرجل يجن فرحا حينما سمع بأمر المنصور .

ومن إنصافه للناس أن كبير خدمه اعتصم بمنزلته عند المنصور ، فظلم تاجراً مغربياً فاستصرخ التاجر بالمنصور وهو فى طريقه إلى المسجد ، فأمر بإحضار التاجر ولما وقف منه على ظلامته أنصفه من كبير خدمه ، وأقصاه عن خدمته كما رووا أن المنصور طلب قصاده يوماً فقيل إنه فى السجن لحيف ظهر منه على امرأته فطلب إحضاره من السجن ، حتى إذا ما أتم مهمته اشتكى القصاد إلى الخليفة ما ناله من القاضى فقال له المنصور : إنه القاضى وهو فى عدله لو أخذنى بالحق ما أطقت الامتناع ، فعد إلى محبسك . وسمع القاضى بالقصة فأصلح بين القصاد وزوجته ، ومما يدل على حسن رعايته لرعيته أن تاجراً من تجار الشرق عرض على المنصور جواهر نفيسة ، فاشترى المنصور منها ما شاء ونقده الثمن فوضعه التاجر فى صرة من القطيفة الحمراء ، وكان اليوم قائظاً فانصرف إلى النهر ، وخلع ملابسه ، ووضع الصرة ونزل يستحم ، فحامت حدأة واختطفت الصرة وطارت بها ، فتتبع التاجر اتجاه طيرانها عساها سقطت منها ، فلم يقف على أثر واتجه إلى المنصور فأمر الشرطة بالبحث ، وبعد أيام بعث إلى المزارعين فى هذه المنطقة يسألهم عمن ظهرت عليه بوادر النعمة فعلم أن فقيراً معدماً من بينهم اشترى له حماراً ، وظهرت عليه آثار نعمة جديدة ، فاستدعاه المنصور وصرخ فيه أين صرة القطيفة ، فأخرجها الرجل من حجزة سراويله ، وقال يا مولاى لقد دعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل منها فدفعها المنصور إلى التاجر ، وأكمل له ما فقد منها ، وأعطى الفقير عشرة دنانير وقال له لو جئتنا بها قبل ذلك لأجزلنا لك العطاء ، وانصرف التاجر وهو يقول : لأملأن الأقطار أنك تملك طير أعمالك كما تملك أنفسها .

وبعد فهل كان المنصور إلى جانب عدله وإنصافه وحسن رعايته ، ملهماً أو هى الجاسوسية اليقظة هذا ما تكشف عنه القصة الآتية : فقد حدث ابن حيان أن المنصور كان جالساً فى بعض الليالى الشديدة البرد والمطر والريح ، فدعا أحد الفرسان وقال له : انهض الآن إلى فج طيالس وأقم فيه ، فأول خاطر يخطر عليك سقه إلىّ ، فنهض الفارس وبات واقفا حيث أمر فرأى فى الهزيع الأخير من الليالى شيخاً هرما على حمار ومعه آلة الحطب فقال الفارس هذا شيخ مسكين ، فماذا عسى يريد المنصور منه ، فتركه ثم فكر فى أمر المنصور ، فنهض إلى الشيخ وقاده إلى

الشعر الحماسي في العصر الجاهلي

لفضيلة الأستاذ عز الدين إسماعيل

المدرس بكلية الآداب بجامعة إبراهيم باشا

الشعر العربى شعر غنائى كله ، بمعنى أنه فيض الشعور ولغة الوجدان ، ونظام القصيدة أو صورتها الفنية هى صورة القصيدة الغنائية ، وهى صورة ثابتة الأصول تقريباً فى الشعر العربى ، ولم يطرأ على جوهرها تغيير ملموس ، وإن ظهر بعض التطور والتجديد فى الشكل الظاهر وفى ترتيب أجزائها . فالشعر العربى يمثل لوناً أدبياً واحداً ، أو - كما يقولون فى مجال الدراسات المقارنة - يمثل نوعاً أدبياً واحداً من الأنواع الشعرية ، وهذا النوع الشعرى هو النوع الذى ينفس فيه الشاعر عن

المنصور ففتشه الجند فلم يعثروا معه على شىء وفتشوا برذعة حماره فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا يخدمون عند المنصور إلى أصحابهم من النصارى ليضربوا ويقتلوا المسلمين فى إحدى النواحى .

فلما انبلج الصبح أخرج الرجل وأخرج النصارى من القصر ، وضربت أعناق الجميع على باب قصر الزاهرة .

وبعد حياة هـذا العصامى الحافلة بأجل الأعمال ، وأحسن السير ، وأعظم الفتوحات ، مات وقد امتلأ فم الدنيا بأخباره ، وحفظ له التاريخ بين أسفاره صحائف خالدة ، مات المنصور ودفن ونقش على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تا الله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

هذه لمعات من جوانب تاريخ المنصور ، وآيات من أخلاقه ، فهل اتخذ الشباب الإسلامى من حياة ذلك الرجل مثلا ينير لهم الحياة ، وهل اتخذ الرعاة والحكام من أخلاقه قبساً يضىء تاريخهم لتكون أسماؤهم وحياتهم أنشودة الأجيال ؟

إحساس خالجه أو تجربة شعورية مر بها . والمقصود بالتجربة الشعورية هو أن يعانى الشاعر لوناً من المعاناة النفسية . هذه المعاناة قد تكون معاناة لشيء محبب إلى النفس أو لشيء تضيق به النفس ، ويثير اضطرابها وقلقها ، على أن التجربة الشعورية قد لا تستغرق من الزمن أكثر من لحظة واحدة . ولكنها تكون لحظة زاخرة بالحياة ، ويكون إحساس الشاعر فيها إحساساً كاملا . . هى لحظة التأمل التى يجتمع فيها الماضى والمستقبل ليصبا فى الحاضر ، أو قل هى لحظة الإلهام . والشعر فى تعبيره عن كل حالة من هذه الحالات ينقل إلى نفوسنا شعوراً هادئاً تارة وثائراً تارة أخرى . ولكنه فى الحالين ينقل إلينا شعوراً كاملا ، أو على الأقل هو ينقل إلينا شعوراً راقياً .

أما اليوم فنود أن نجتلى صورة ذلك الشعور عند ما يكون ثائراً ، فربما كان صدق التعبير عن ذلك الشعور أوضح منه فى حالة التعبير عن الشعور الهادىء . وربما كان التكلف نتيجة للحاجة إلى التعبير عن ذلك الشعور الهادىء . أما التجربة القاسية حين تولد شعوراً ثائراً ، فإن مجال تكلف التعبير عندئذ يكون ضيقاً إن لم ينعدم .

ونريد مما مضى أن نقول : إنه ربما كان أصدق جانب من جوانب الشعر العربى تعبيراً عن النفس ، ونقلا لإحساس الشاعر هو جانب الشعر الثائر ، وأريد أن أسميه الآن بتسميته التى اختارها له منذ القدم أبو تمام وهى : الشعر الحماسى . ولأمر ما سمى أبو تمام مجموعته التى اختارها من الشعر العربى القديم بديوان الحماسة . وكلنا يعرف أن أبا تمام ، فضلا عن أنه الشاعر المجدد ، كان ناقداً ذواقة . وهو حينما يختار هذا الاسم عنواناً لمجموعة الأشعار التى اختارها إنما يدل دلالة كافيه على أن جانباً من جوانب الشعر العربى لم يستأثر بلبه ، ولم يكن فيه من صدق الشعور والتعبير معاً ، ما يستأهل معه إطلاقه على المجموعة كلها إلا الشعر الحماسى . ولهذا كان الباب الأول من ديوان الحماسة فى الشعر الحماسى يكاد يشغل وحده نصف الديوان .

ولعل كثرة الشعر الحماسى بخاصة فى العصر الجاهلى مردها إلى ما كان يسود

الحياة العربية من مثل أخلاقية واجتماعية . وقد تكون هناك أسباب أخرى بيولوجية ، أو وراثية أو غيرها من مكونات الشخصية . ولكن البحث - فيما أعتقد - يكون على أرض ممهدة لينة ، إذا نحن اعتبرنا المثل الأخلاقية والاجتماعية فى البيئة العربية .

وإذا كانت الفردية ظاهرة واضحة فى حياة العربى الجاهلى كانت مثله الأخلاقية مُثلَ الفرد الذى لا بد له من تحصين نفسه بما يجعلها على أهبة فى كل حالة لدفع الأذى ، ومقابلة الشر بالشر ، وإباء الخسف والضيم . إن التنازع صريح على الوجود ، ولكنه الوجود الكريم الذى لا سيد فيه ولا مسود . وكم كان يشعر العربى بعزة النفس عند ما يلجأ إليه لاجىء أو يحتمى فى كنفه محتم . هذا هو مثله الأعلى الذى يسعى لتحقيقه سواء أكان منفرداً أم كان فى قبيلته . أما عن علاقة القبائل بعضها ببعض ، فإنها صورة من علاقة الأفراد أنفسهم بالآخرين ، ومثل القبيلة فى رأيى هى مثل الفرد ؛ لأنها كانت أولا وآخر الأمر هى مثل شيخ القبيلة . ولذلك لا تخطىء إذا قلت إن شخصية القبيلة تبلورت فى شخصية الفرد أو العكس . ومن هنا كان هذا التساند العجيب بين أفراد القبيلة الواحدة ، لأنهم ينصرفون كفرد واحد ، ويهدفون إلى تحقيق مثل واحد . وهذا شاعر بنى العنبر يقول :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة هانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

وهم لا يسألونه البرهان فقد يعوزه البرهان . وإذا كانوا هم يؤوون الأجنبى ويدافعون عنه عند ما يسألهم ذلك ، فإن أخاهم أحق بذلك وأولى . فهم لا ينصبون حلقة للنقاش يجادلون فيها أخاهم فيما ندبهم له ، ولا يطلبون منه الحجة الدالة والبرهان القاطع ، وإلا لم يأخذوا بناصره ، وإنما هم يفكرون بعقلية الفرد ذاته . وقد يكون متجنياً فيكونون ولا ضير ، وإنما الضير فى أن يناقشوه ، وأن ينفضوا عنه إذا لم يقم الدليل . وطبيعى أن النقاش يدل على اختلاف الأفراد من حيث

وجهة نظرهم إلى المثل الأعلى . فإذا توحد هـذا المثل الأعلى عند سائر الأفراد كان النقاش مضيعة للوقت ، ودليلا على النكوص والجبن ، الأمر الذى تأباه طبيعة العربى . ولذا يقول الشاعر نفسه بعد هذه الأبيات :

لـكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسو من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

فالشاعر يحزنه ويؤسفه أن قومه لا يركبون الشر ويتجنبونه ، ويتحملون الظلم ويغتفرونه كما يتحملون الإساءة ويجزون عنها الإحسان . لا يرضى الشاعر عن قومه لأن تصرفهم يجافى المثل الأعلى بل يناقضه ، ويود لو كان قومه مثل مازن ، يقومون بنصره إن ذو لوثة وضعف جبن عن دفع الضيم والذود عن حقيقته . وهذا المثل الأعلى الذى يتمناه الشاعر لقومه هو بوجه عام المثل الأعلى الذى يصوره لنا الشعر الحماسى فى ذلك العصر الجاهلى بخاصة ، وهـذا هو الفند الزمانى يقول فى حرب البسوس :

صفحنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ ـن قوما كالذى كانوا
فلمـا صرح الشر فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
يضرب فيه توهين وتقطيع وإقران
وطعن كفم الزق غدا والزق ملآن
وبعض الحلم عند الجهـ ـل للذلة إذ عان
وفى الشر نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسان

وهو يعطينا صورة واضحة للمبادىء التى سبق أن رأيناها ؛ فقومه لم يقبلوا العدوان من بنى ذهل عندما صرح الشر عن ناجذيه بل قابلوا العدوان بعدوان مثله . وإذا كان الحلم محمودا فإن التحلم إزاء الجهل والاعتداء ليس إلا إذعانا ورضوخا

للذلة والعار . ولا بأس فى هــذه الحال أن تكون شريرا فإن شرك ينجيك من العدوان ، بينما تجرك ملاقاة الشر بالإحسان إلى البوار والخذلان . أكرمنى أكرمك ، وإن تعتد على أعتد عليك . وبهذا تفسر قول أبى الفول الطهوى :

ولا يجزون من حسن بسىء ... ولا يجزون من غلظ بلين

وتفسر أيضا قول الشميذر الحارثى :

فلسنا كمن كنتم تصيبون سَلّةً ... فنقبلَ ضيما أو نحكّمَ قاضيا

ولكن حكم السيف فيكم مسلط ... فنرضى إذا ما أصبح السيف راضيا

إن الدم لا يشفيه إلا الدم . ولذلك كان الأخذ بالثأر أكرم عند العربى من قبول الدية . ولعل هـذا المبدأ هو الذى جعل الحروب تمتد إلى سنين عدة بين الفريقين من المتحاربين . ولكنه على كل حال هو المبدأ الذى يتفق وإحساس المرء المعتز الكريم على نفسه . وفى ذلك قالت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب على لسان أخيها عبد الله ، وكان مر براع للمحزم بن سلمة من بنى مالك بن مازن فاستسقاه لبنا فأبى واعتل عليه فشتمه فقتله عبد الله فثأرت بنو مازن بعبد الله فقتلوه وجاءوا إلى عمرو أخيه يتشفعون إليه أن يأخذ الدية إلى أن كاد فقالت :

فإن أنتم لم تثأروا واتديتم ... فمشوا بآذان النعــام المصلم

ولا تردوا إلا فضول نسائكم ... إذا ارتملت أعقابهن من الدم

أى أنكم إن لم تثأروا وقبلتم الدية فستمشون كما يمشى النعام المقطوع الأذن ، لا تسمعون ما يقال فيكم من العار ، كما أنكم لا تردون المـاء إلا بعد أن تغتسل نساؤكم من حيضهن . وفى ذلك ذلة ومهانة . وإذن فلا شرف مع قبول الدية وإنمـا الدم هو الذى يغسل الدم .

ويستطيع كل من يتتبع الشعر الحماسى فى العصر الجاهلى بالدرس أن يجد فيه الصورة المعبرة الصادقة التعبير عن المثل العالية السائدة عند العربى فى ذلك العصر ، ويرى إلى أى حد كلفتهم هذه المثل من بذل وتضحية ، وإلى أى حد لعب الشعر الحماسى دوراها ما فى حياتهم . أما عن قيمة هذا الشعر الحماسى من الناحية الفنيـة فأرجو أن تتاح له فرصة أخرى .

ورقة بن نوفل

الداعية إلى التوحيد فى أرض الوثنية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس فى كلية اللغة العربية

— ١ —

كان ورقة بن نوفل القرشىُّ حكيما متديِّنا موحدا، وشاعرا بليغا مجيدا، وسيدا شريفا سريا فى قومه؛ عاش يلتمس دين التوحيد فى عصر الوثنية الجاهلية، ويبشر بقرب ظهور نبى العرب، وخاتم الرسل، ويولى وجهه شطر السماء ينشد الهداية والنور. حتى أدرك بعثة سيد الأنبياء محمد صلوات الله عليه.

وكان العرب قبل البعثة المحمدية فى حيرة وضلال، لا يجمعون على دين، ولا يتفقون على عبادة؛ عبد جمهورُهم الأوثان والأصنام، وفريق منهم عبدوا الشمس أو القمر أو الكواكب، وآخرون دانوا بالنصرانية أو اليهودية؛ وجماعة منهم اعترفوا بوجود الله ووحدانيته، وظلوا على فطرة التوحيد الخالص، وعبدوا الله على دين ابراهيم وإسماعيل، يعظمون الشعائر، ويؤدون المناسك، ويقدسون البيت الحرام، ويلتزمون الحج والعمرة والطواف والوقوف بعرفة ونحر الذبائح والأضاحى، وسوى ذلك من ألوان العبادات والطاعات، ومنهم: ورقة، وأمية بن أبى الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل، وكعب بن لؤى، وقصى، وعبد مناف، وهاشم، وعبد المطلب...

فى هذه الحيرة والضلال، ونحو عام ٥٢١ ميلادية، قبل ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم بنصف قرن، ولد فى مكة ورقة القرشىّ بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن قصى.. من بيت عرف بالسيادة وكرم المحتد.. وأى مجد ومحتد يبلغان ما بلغته منهما قريش سادة العرب، وسدنة البيت العتيق؟

وإلى قصى أيضا يرجع نسب أم ورقة هند بنت أبى كثير بن عبد بن قصى . . وقصى هو الأب الخامس لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب . . وقد انقسمت قريش عند قصى قبائل شتى ، منها : عبد مناف بن قصى ، وسوى هؤلاء من مخزوم وتيم وزهرة بن كلاب . وكان قصى فى القرن الخامس الميلادى ، وهو الذى جمع شتات قريش ، ووحد كلمتهم ، واستبد بالرياسة والسيادة على مكة ، وجدد الكعبة ، وبنى دار الندوة التى كان له رياستها ، وكان فى يده حجابة الكعبة ، وسقاية الحاج ، ولواء الحرب ؛ وهو أول من فرض الرفادة على قريش ، وقال لهم : « يا معشر قريش إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل حرمه ، وإن الحاج ضيف الله ، وزوار بيته ، وهم أحق الأضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم » .

ذلك هو نسب ورقة وحسبه . . ولقد نشأ وشب فى هذه السيادة الفاخرة ، وتلك المآثر القرشية الخالدة ، وعاش فى مكة مع قومه ، يعمل فى التجارة كما يعملون ويلهو كما يلهون ، وشهد مواطن قريش ، وشارك فى مفاخرها ؛ وأصبح بعد قليل رجل صدق وحزم وعزم وإقدام ورحلة . ويصف ورقة جده ولهوه فى هذه الفترة فيقول :

ولقد ركبتُ على السفين مُلجِّجاً أذَرُ الصديقَ وأنتحِى دارَ العدَى
ولقد دخلتَ البيتَ يُخشَى أهلُه بعد الهدوء وبعد ما سقط الندى
فوجدت فيه حرة قد زُيِّنَتْ بالحَلْى تحسبُه بها جَمْر الغضا
فنعمتُ بالاً إذ أتيتُ فراشَها وسَقطت منها حين جئتُ على هوى
فَلتَبلُكَ لذّاتُ الشباب قضيَّتها عنى فسائلْ بعضَهم ماذا قضى ؟

* * *

وخالط ورقة فى رحلاته للتجارة أهل الكتاب ، واستمع إليهم ، ومال قلبه إلى ما يؤمنون به من فطرة التوحيد وعبادة الله ، فأنكر ما كانت عليه قريش من باطل وجهل ، وما كانت تمعن فيه من وثنية وشرك ؛ وأعرض عن غيها وباطلها ؛ فاعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ما يذبح باسم الأصنام ، وآمن أن قومه أخطأوا دين أبيهم إبرهيم وإسماعيل ، فأخذ ينشد الحنيفية البيضاء ،

ويسأل عنها الأحبار والرهبان . . يروى أن قريشا اجتمعت يوما فى عيد لهم عند صنم يعظمونه وينحرون له ويعكفون عليه ؛ فخلص منهم أربعة نفر نجيا : هم ورقة بن نوفل القرشى ، وابن عمه عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ابن قصى ، وزيد بن عمرو بن نفيل بن كعب بن لؤى ، وعبيد الله بن جحش الأسدى وهو ابن أميمة بنت عبد المطلب ؛ فقال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل ، فقال قائلهم : تَعْـلَمُنَّ والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ، يا قوم : التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شىء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبرهيم :

فأما عبيد الله بن جحش ، فأقام على ما هو عليه ، حتى بعث الرسول فأسلم ، وهاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومات فيها بعد أن اعتنق المسيحية وارتد عن الإسلام ... وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ، وآمن بالمسيحية ، وعاش فى القسطنطينية . وأما زيد فأقام على الحنيفية ، يعظم شعائرها ، ويقول : أعبد رب إبراهيم ، وعاب على قومه ما هم عليه ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويرفع صوته : (يا معشر قريش والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ؛ ثم يقول : والله لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته ؛ ويستقبل الكعبة داخل المسجد قائلا : لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقا ، عذت بما عاذ به إبراهيم ؛ ويصيح فى الناس : يا معشر قريش ، والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيرى ؛ وكان يعيب على قريش ذبائحها ويقول : (الشاة خلقها الله ، وأنزل من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض نباتا ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟) ؛ وآذته قريش فخرج يطلب دين إبراهيم . ويسأل الأحبار فى الشام ، حتى انتهى إلى راهب من شيوخ الرهبان ، فسأل عن الحنيفية ، فقال له : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالحق بها فإنه مبعوث الآن هذا زمانه ؛ فرجع إلى مكة ، ولما اشتد إيذاء قريش له ، كان يخرج إلى « حراء » يتعبد فيه ، ولقيه

عامر بن ربيعة فى طريقه إلى حراء ، فقال له زيد : (يا عامر إنى فارقت قومى ، واتبعت ملة إبراهيم ، وما كان يعبد إسماعيل بعده ، وأنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل وما أرانى أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه) ؛ وقتل زيد قبل البعثة بخمس سنين ، وقال فيه الرسول الأكرم : (يأتى زيد يوم القيامة أمة وحده) ... ورثاه ورقة ابن نوفل بقصيدة منها :

رشدت وأنعمت بن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جبارا إلى النار هاويا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ... ولو كان تحت الأرض سبعين واديا
أقول إذا ما زرت أرضاً مخوفة ... حنانيك لا تظهر على الأعاديا
حنانيك إن الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهى ربنا ورجائيا
أدين لرب يستجيب ولا أرى ... أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا
أقول إذا صليت فى كل سبعة ... تباركت قد أكثرت باسمك داعيا

هذا شأن هؤلاء الثلاثة الباحثين عن الحقيقة الكبرى ؛ فأما ورقة فرحل إلى الشام يلتمس الدين الصحيح ، ويتحدث إلى الأحبار والرهبان ، ويسمع منهم ، حتى مال قلبه إلى دين المسيح ، ورآه إنقاذاً لقلبه من الحيرة ، فاتبعه وعمل به ، وقال لزيد : (أنا أستمر على نصرانيتى إلى أن يأتى النبى الذى تبشرنا به الأحبار) . وأخذ يحفظ من النصرانية ما يحفظ ، ويعى من الرهبان ما شاء الله أن يعى ؛ وعاد إلى مكة ، فأقام فيها آمنا وادعا ، عاكفا على دينه ونفسه ، لا يعرض لأحد ولا يحب أن يعرض له أحد . وازداد مكانة فى قريش ، فكان مستشارها فى الأزمات ومرجعها فى الخطوب ، والحكيم الذى تسترشد برأيه كلما دجت الظلمات ... وقرأ ورقة الكتب السماوية ، وكان يعرف العبرية ، وينقل من الإنجيل إلى العربية ما شاء ، ويأخذ عن أهل التوراة والإنجيل ما يأخذ ؟

« يتبع »

من تعاليم القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى
المدرس بالأزهر

لقد أراد الله للعالم الخير والهناءة حين أتم رسالته إلى هذا الوجود ببعثه خير الأنام ، ليقرر مبادىء العدل والسلام فى الأرض ، وليبعث المحبة فى نفوس الناس بعضهم لبعض بعد إحن اجتاحت العالم من ظلم وطغيان ، وعسف وجبروت ، وأحكام جائرة متعنتة ، يجريها كهنة محاكم التفتيش تصيب العلماء والمفكرين ، حتى كانت البعثة : المحمدية فطمأنت الناس على حياتهم وحريتهم وتفكيرهم وأبحاثهم .

ووضعت نظم الحياة المثالية التى تقوم على العقيدة الصحيحة والخلق القويم ، والعمل الصالح المنتج المثمر الذى يجعل كل إنسان له حق الحياة والبقاء والعيش الوادع فى ظل حكامه العادلين المنصفين الذين يسهرون على صالح الرعية ويدعمون بنيان مجده وعزه وهناءه ، ويفرح ولى الأمر حين يقوم إليه أعرابى ليقول له « والله يا عمر لو وجدنا فيك أعوجاجا لقومناه بسيوفنا » فيحمد الله عمر ويقول « الحمد لله الذى وجد عمر من يقوم إعواجاجه » .

هذه هى الحكومات المثالية التى وضع قواعدها الإسلام ، ودعمها بالخلق المستقيم والعمل القوى المثمر .

فالإسلام ليس دين تعصب ولا همجية وإنما هو دين عدل وحرية وإنصاف دين محبة وألفة يربط بين الناس بعضهم ببعض لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ذلكم الدين الحنيف الذى جعل عمر حين مر فى الطريق فرأى يهوديا أعمى يمد يده للناس طالبا الإحسان منهم فأمر عمر أن يصرف له من بيت مال المسلمين ما يدفع عنه حاجة المسألة ، وقال لقد أخذنا منه الجزية فى صحته فلا يليق بنا أن نحوجه فى شيخوخته .

هذه التعاليم الحقة التى دعا إليها المصطفى ، هى دعائم الملك السليم ، والمجد التالد والعز الخالد التى لو سار على هديها المسلمون لاستقامت الأمور وصلحت الأحوال

وكتب لهم النصر فى قضية التحرير وصدق فيهم قول الله عز وجل « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهن فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » .

هذه النظم التى رسم الإسلام حدودها هى التى ترشد الى العزة والإباء وعدم الرضا بالدون من الأوضاع إذ يقول المصطفى « إن الله يحب المؤمن القوى ويبغض المؤمن الضعيف » .

ونحن الآن فى محنة استعمارية ومحنة خلقية نقاتل المستعمر ونحارب الرذيلة فليس لنا والله إلا أن نكون جادين فى جهادنا بالقدوة الحسنة ، والفداء الحق والتضحية والبذل عن طواعية واختيار إذ أننا إنما ندعم دينا ونبنى مجداً ونؤسس مملكة سداها المحبة ولحمتها الإخلاص « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وهذه المحنة التى تقاسيها مصر الآن إنما تهدف الى إسعاد العالم الإسلامى كله ، لأنها معركة تحرير العقيدة الصحيحة من طغيان الإباحية والفوضى الاستعمارية التى لا تمت إلى الخلق بوشيجه ، ولا إلى العدل بسبب إذ هى محنة ابتلى الله بها الاسلام فى شتى بقاع العالم ، ليرى المسلمين أن التعلق بالمال والجاه والسلطان مآله الدمار والانهيار ، وأن الله جلت قدرته « لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

وإننا إن شاء الله مدركون حقنا منتصرون على عدونا ، وما نصاب به فى هذا المضمار ، إنما هو صهر لذنوبنا وتذكير لقلوبنا بأن نرجع الى الخالق نلتمس منه العون والنصر « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن لا يحب كل خوان كفور » .

هدى الله المسلمين إلى تبصر أمور دينهم والعمل بأحكامه حتى يكتب لهم النصر والظفر فى هذا المضمار الدولى المضطرب والذى يرقص على بركان من لهب إذا انفجر قضى على كل حضارة وأنهى كل مدنية ، وما موقف المسلمين عند تمسكهم بأوامر ربهم إلا موقف الحاكم المنصف الذى يرجح كفة السلم على الكفة الأخرى والله ولى التوفيق ؟

عبد الرحمن الداخل

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف
المدرس بالأزهر

ولد فى بيت الخلافة بدمشق . وعاش صدر حياته فى خلافة جده هشام بعد وفاة أبيه معاوية بن هشام . وقد حباه الله منذ صغره بخلال تجعل الناظر إليه لأول لقاء به . يحس إحساساً قويا بما ينتظر هـذا الفتى الساهم فى تفكيره . المسترسل فى تأمله . المستمسك بجده . من أحداث وتبعات . جعل يهيئ نفسه للقائها ، ويعد قلبه للصمود لها . حتى يتحقق الأمل المعقود عليه . بعد أن طرقت أذنيه كلمات جده مسلمة بن عبد الملك التى وجهها إلى أخيه الخليفة هشام حينما رآه يأمر بأن ينحى عنه هذا الفتى إذ يقول : يا أمير المؤمنين هـذا صاحب بنى أمية وَوَزَرهم عند زوال ملكهم فاستوصى به خيرا .

تركت هذه الكلمات بأذن فتى قريش عبد الرحمن بن معاوية بن هشام دويا قويا مجلجلا . دفعه إلى أن ينصرف عما يحيط به من شواغل . ويتجه بقلبه وحسه . وكل إدراكه . يقدر ويفكر فى الأعباء الجسيمة التى ترقبه بعد أن لاحت الدعوة الجديدة . دعوة العباسيين فى الأفق البعيد . ثم أخذت تقترب منه مسرعة حتى بلغ دعاتها دمشق . وقتل عبد الله بن على مروان بن الحكم سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وتتبع بنى مروان بالقتل والتنكيل .

ولما وصل ذلك إلى سمعه لم يجد مناصا من الفرار متنقلا بأهله وولده إلى أن حل بقرية على الفرات ، ذات شجر وغياض وبينما هو يجلس فى بيته إذ دخل عليه ابن له صغير فازعا باكيا ، فأهوى إلى حجره وأبى إلا التعلق به . وهو يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع .

وقد خرج عبد الرحمن يستطلع النبأ . فإذا بكوكبة من الجند قد عقدت على رءوسها الألوية السود شعار العباسيين ، تدخل القرية . فخرج مسرعا وكمن

فى موضع ناء منها . وما هى إلا ساعة حتى أقبل الفرسان فأحاطوا بالدار ولكنهم لم يقفوا له على أثر . فجدوا فى طلبه ، وبثوا العيون والأرصاد تبحث عنه . فلما أحس بقربهم منه ، واصل فراره إلى أن نزل الفرات واجتازه سابحا . وجعل وجهته بلاد المغرب ، ومكث مدة يتنقل بين ربوعها . ثم نزل على أخواله نفزة من برابرة طرابلس .

ولما شعر بن عبد الرحمن بن حبيب والى العباسيين رحل إلى زناته فأحسنوا قبوله ، واطمأن عندهم حينا ، ثم لحق بمليله وبعث فى تلك الفترة مولاه بدرا إلى موالى المروانيين وأشياعهم ببلاد الأندلس . فاجتمع بهم ، وبثوا له فى البلاد دعوة ونشروا له ذكرا ، واصفقت اليمينة على أمره ، تدعو بدعوته ، وتعقد الخناصر على حمايته والذود عنه ، لأنه كانت بينهم وبين المضرية قوم يوسف بن حبيب أحقاد وإحن . فرقتهم أيدى سبأ ، وأحيت فيهم دعوة العصبية البغيضة ، ودفعتهم إلى أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر ، ويتحين الوقت الذى يسدد فيه إلى خصمه الضربة القاصمة .

ولما صادف بدرا هذا النجاح عاد إلى سيده ، ودعاه إلى الأرض الخضراء فاجتاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة فى خلافة أبى جعفر المنصور . ونزل بساحل المنكب ، وجاء القوم من أهل اشبيليه . فبايعوه . ثم انتقل إلى كورة رية فبايعه عاملها عيسى بن مساور ثم إلى شذونه فبايعه عتاب بن علقمة اللخمى ثم إلى مورور فبايعه بن الصباح ، ونهد إلى قرطبة ، فاجتمعت إليه اليمنية ونمى خبره إلى والى الأندلس يوسف بن حبيب ، وكان غازيا بجليقيه . فعاد مسرعا إلى قرطبة وبعد حرب لم يطل أمدها تم النصر لعبد الرحمن . ودخل قرطبة فى جحفل لجب من أهلها خرجوا للحفاوة به . تفيض جوانحهم بالبهجة والسرور ، وتعلو قسمات وجوههم أمارات الرضى والارتياح . لما فطره الله عليه من صفات نادرة . إذ كان راجح الحلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم نافذ العزم ، شجاعا مقداما ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، حتى كان أبو جعفر المنصور يسميه صقر قريش حين بلغه ما صنع بالأندلس .

وقد ذهب إليها من أنأى بلاد المشرق من غير عصابة ولا أنصار . فانقادت

له القلوب الجامحة ، وخضعت لحكمه النفوس العصية ، وعقد بها الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، وأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، وقد أثنى عليه . فقال : لا تعجبوا لامتداد أمرنا ، مع طول مراسه ، وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى ، الفذ فى جميع شؤونه ، ببعد همته ، ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك ، لا بتناء مجده ، واقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، قمع بعضهم ببعض ، لقوة حيلته حتى انقاد عصيهم ، وذل له أبيتهم ، فاستولى فيها على أريكته ، قاهرا لأعدائه ، حاميا لذماره ، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه . إن ذلك لهو الفتى كل الفتى . لا يكذب مادحه .

ومع ذلك فقد خالط ود أبى جعفر بغضا له وحقدا عليه وتربصا به ، لأنه رغم أنه كان يحكم باسمه ، ويخضع لسلطانه بدمشق ، فعبد الرحمن أموى . وأبو جعفر عباسى . وبينهما تراث دون نسيانها خرط القتاد ، وهيهات أن يغيب عن آل البيت ما حاق بهم من عسف الأمويين واضطهادهم أيام دولتهم . لهذا فقد كان ودهما يشوبه دخل يترقب كل منهما لصاحبه الفرصة المواتية للإيقاع به ، وأن صنيع المنصور مع صقر قريش يعد أن مدحه وأطرى عليه ليدل على ذلك أصدق دلالة . إذ أرسل فى سنة ست وأربعين ومائة العلاء بن مغيث اليحصبى من إفريقية إلى الأندلس ، داعيا له حينما وجد أن عبد الرحمن قد اشتغل بتأمين أطراف البلاد ، فسار إليه عبد الرحمن بنواحى إشبيلية . فقاتله أياما ، وأخيرا هُزم العلاء ، وقتل فى سبعة من أصحابه . وأرسلت رؤوسهم إلى القيروان ومكة ، وألقيت فى أسواقها سرا ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء . فارتاع المنصور لذلك .

وقال ما هذا إلا شيطان . الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر ، ثم قطع عبد الرحمن الصلة بينه وبين خلافة المشرق . واستقل ببلاد الأندلس . وأورثها من بعده عقبه . وقد أحسن إلى البلاد أيما إحسان ، فقد أمن أطرافها ، وأقر النظام فى أنحائها . وجعل سلطان المسلمين بها قويا مهيبا . وكان مظفرا على أعدائه حتى قيل إن الراية التى عقدت له حين دخل الأندلس لم تهزم قط ، ومع شدته البالغة ، فقد كان حييا . يخجله المدح . ويؤلمه الثناء ، ولما مثل بين يديه رجل من

جند قنسرين . فقال له يا ابن الخلائف الراشدين والسادة الأكرمين . إليك فررت وبك عزت . من زمن ظلوم . ودهر غشوم . قل المال . وكثر العيال . فصير إلى نداك المآل . وأنت ولى الحمد والمجد . والمرجو للرفد . فقال مسرعا . قد سمعنا مقالتك . وقضينا حاجتك . وأمرنا بعونك على دهرك على كرهنا لسوء مقامك . فلا تعودن ولا سواك لمثله . وإذا ألم بك خطب . أو حزبك أمر . فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك ، كيما نستر عليك خلتك ، ونكف شمات العدو عنك .

وكان شاعرا مجيدا قال الشعر وبرع فيه . ومن شعره يتشوق إلى معاهد الشام

أيها الراكب الميمم أرضى   أقر منى بعض السلام لبعضى
أن جسمى كما علمت بأرض   وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا   وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضى

وقد شيد بقرطبة عاصمته المسجد الجامع . وأفرغ جهده فى تنسيقه وتنظيمه فكان قطعة فنية نادرة . وعَمَده وبعض قبابه لا زالت باقية إلى اليوم . لسان صدق بما بلغه المسلمون فى غابرهم من عظمة ومجد . وفيه يقول .

وأبرز فى ذات الإله ووجهه   ثمانين ألفا من لجين وعسجد
وأنفقها فى مسجد زانه التقى   وقر به دين النبى محمد
ترى الذهب الوهاج بين سموكه   يلوح كلمح البارق المتوقد

ويرى نخلة برصافته فتحرك فيه لواعج الحنين الى بلاد درج على أديمها . وروى صداه بعذب مائها ، وما لبث يهفو قلبه الى مغانيها ، ويرنو ببصره الى مشاهدها فيقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى   وطول اكتئابى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة   فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى   يصح ويستمرى المساكين بالوبل

وتوفى لست بقين من ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة وهو ابن سبع وخمسين سنة وأربعة أشهر ، ودفن بقرطبة . رحمه الله . وجزاه عن الإسلام خير الجزاء ؟

تحت ظلال السيوف

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

من مَرْوِى الأدب فى الأحداث المصارعة ، أن عبد الله بن الزبير قال حين بلغه قتل أخيه مصعب : إن يُقتلْ فقد قتل أخوه وأبوه وعمه ، إنّا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصاً بأطراف الرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف .

ويقول السموءل بن عادياء :

وما مات منا سيد فى فراشه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

* * *

وفى ملتقى هذه الوجهة :

وانا لنستحلى المنـــايا نفوسنا ونترك أخرى مرّة ما تذوقها

* * *

ومن رد للإمام على كرم الله وجهه على مخوف له ومشفق عليه : أبا لموت تخوفنى ؟ فو الله ما أبالى ، أسقطت على الموت ، أم سقط الموتُ علىَّ .

ومن الآيات الكريمة (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصرُكم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين وقول الله تعالت كلمته (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

وأجمع كلمة فى الصبر قولهم : الصبر مطية النصر وفى الاقدام يجمل أن نترسم الأبطال الذين يمثلهم المهلب بن أبى صفرة الذى قيل له : إنك لتلقى نفسك فى المهالك ، فقال : إن لم آتِ الموت، مسترسلا أتانى مستعجلا ، إنى لست آتى الموت من حبه وإنما آتيه من بغضه .

وهو فى ذلك يقتدى ويتمثل الصورة التى رسمها الحصين ابن الحمُام

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ومن عيون قصيدته فى سمو الصبر وحمل النفس على الحزم والنهوض إلى الحياة الكريمة وإن كان طريقها الموت المخلد .

صبرنا وكان الصبر منا سجية بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما
ولما رأيت الود ليس بنافعى عمدت إلى الأمر الذى كان أحزما
فلست بمبتاع الحياة بسُبة ولا مرتقٍ من خشية الموت سلما

وهو فى هذا يجرى فى حضر عبدته العرب ، وآمنت بأن الشجاعة وقاية ، والجبن مقتلة ، ورأت أن استقبال الموت خير من استدباره ، واستجاب لدعوة كان صداها فى تصميم « الصديق » ومبدئه وتوجيهه لخالد بن الوليد : (احرص على الموت توهب لك الحياة) .

وما كانت العرب إلا على التمدح بالموت قعصاً ، والنفرة من الموت حتف الأنف . وإنهم عند الحروب ليقتحمونها كأنما يلقونها بنفوس أعدائهم .

وأصدق وصف للنفوس المقدامة قول أبى تمام :

إذا رأو للمنايا عارضا لبسوا من اليقين دروعا ما لها زرد
نأوا عن المصرخ الأدنى فليس لهم إلا السيوف على أعدائهم مدد

* * *

وكلهم فى إقدامهم وإقبالهم كما قال العلوى :

محرمة أكفال خيلى على القنا ودامية لباتها ونحورها
حرام على أرماحنا طعن مدبر وتندق منها فى الصدور صدورها

* * *

وعبقرية العرب فى الحرب ومواقفهم فى لقاء الأعداء وبلاؤهم فى الأحن وصراعهم فى الكوارث ونزالهم فى المناخة والزياد دفع القرائح الشاعرة إلى ميادين من القول صادقة التصوير بديعة الافصاح تحمل القارىء بل تجمع حماسه وتشد أزره وتنفث فى روعه وتنفخ فيه من روحها فتسويه قويا وتمسح عنه لغوب الرعدة والتهيب من لقاء المآزم .

المسلمون والتصوير

– خاتمة البحث –

لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى
أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

آراء المحدثين فى التحريم :

انتهى المقال السابق بعرض رأى المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى جاء فيه أن الشريعة الإسلامية لا ترى مانعاً فى إباحة التصوير ، بينما لا تزال لجنة الفتوى بالأزهر – وهى تمثل آراء المحدثين – تنشر فى هذه المجلة ، منذ صدورها إلى الآن ، آراء لكبار علمائها لا تخرج فى جملتها عما قال به النووى والشوكانى وغيرهم من علماء القرون السابقة ، دون مراعاة لتغير الأحوال والظروف ، واختلاف الزمان والمكان ، ومن غير دراسة استقلالية مقارنة للمصادر الأولى لهذا الموضوع .

وقديما قادت أبيات من الشعر فارسا وردته عن الأدبار فاندفع إلى النصر فكون من ورائها دولة وشيد مجدا .

أبت لى شيمتى وأبى بلائى ... واخذى الحمد بالثمن الربيح
واقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تُحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات ... واحمى بعد عن عرض صحيح

* * *

وأختم حديثى بما عدته النقاد أشجع بيت وما نال الإعجاب إلاّ لأنه وافق ما يبغون لأشبال العروبة ونجباء الإسلام .

أشد على الكتيبة لا أبالى ... أحتفى كان فيها أمْ سواها

ولم تخرج اللجنة فى فتاواها عن أن التصوير حرام فى حرام - كما يرى السلف - وإن ذهب بعض العلماء إلى إباحة « الصور الفوتوغرافية لفائدة » .] ومعنى اعتماد تلك الفتاوى على النقل مما جاء فى كتب السابقين من رجال الفقه والحديث ، أننا لا نزال بحاجة إلى فتوى تعتمد فى جوهرها على المعقول لا على المنقول ، ولا سيما وأن الوارد من أحاديث عن التصوير ، به كثير من التعارض والاختلاف يجعل البعض يتردد فى كونها صريحة فى القول بالتحريم .

ويدور بالأذهان سؤال يبدو معقدا هو : - ما موقف المسلم الذى يريد أن يطمئن إلى حكم الله فى مشكلة التصوير ، أيؤمن برأى الإمام الشيخ محمد عبده ، وهو من هو فى عالم التشريع والفتيا أم يؤمن برأى اللجنة ؟ ! الحق أن للإنسان أن يحتار فى أى الرأيين يختار .

لاشك أن الإنسان يرتاح إلى ما ذهب إليه الأستاذ الإمام ، فهو لم ير إباحة التصوير إلا بعد دراسة وإعمال فكر وتبصر وإمعان . ولا يخفى على من فى مثل علمه ومركزه و « أزهريته » أن يصدر فتواه إلا عن إيمان صادق بأن الإسلام عقيدة راسخة لاتزعزعها صورة ولا ينقضها تمثال .

وألفت النظر هنا إلى رأى فى المشكلة ينشر لأول مرة ، وقد هدانى إليه صديق الأستاذ فؤاد السيد بدار الكتب . أما هذا النص فقد جاء فى الجزء الثانى من مخطوطة « كتاب الحجة للقراء » تأليف أبى على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسى النحوى ، المتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

قال المؤلف عند كلامه عن الآية الكريمة : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ...... إن التقدير فى ذلك كله : اتخذوه إلهاً ، فحذف المفعول الثانى . الدليل على ذلك أن الكلام لا يخلو أن يكون على ظاهره كقوله : كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . . . أو يكون على إرادة المفعول ، فلا يجوز أن يكون على ظاهره دون إرادة المفعول الثانى لقوله : إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا . ومن صاغ عجلا أو نجره أو عمله بضرب من الأعمال ، لم يستحق الغضب من الله والوعيد عند المسلمين . فإذا كان كذلك علم أنه على ما وصفنا من إرادة المفعول الثانى المحذوف فى هذه

الآية . فإن قال قائل : فقد جاء فى الحديث : يعذب المصورون يوم القيامة ، وفى بعض الحديث : فيقال لهم أحيوا ما خلقتم . قيل : يعذب المصورون ، يكون على من صور الله تصوير الأجسام . وأما الزيادة فمن أحاديث الآحاد التى لا توجب العلم . . . . »

هذا رأى فى الموضوع لعالم من علماء القرن الرابع الهجرى ، وهو رأى وجيه ، لأن تصوير الله تصوير الأجسام مما يقبل العقل حرمته تنزيها لله سبحانه وتعالى عن أخطاء البشر فى تصور ذاته العلية . أما تصوير صورة خلقه اقتداء به ومحاكاة له فى كمال صنعه وحسن إتقانه فما لا يقبل عقلا القول بتحريمها .

الإسلام والفنون الجميلة :

لا يشك أحد فى أن الشعر والغناء والموسيقى والتصوير كلها من الفنون الجميلة ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الشعر والغناء والموسيقى قد ترعرعت فى قصور الخلفاء والسلاطين ، واكتسب المشتغلون بها الكثير من الثروة والمجد ، وتمتعوا بقسط وافر من الاجلال والتقدير من كل الطبقات . وكلنا يعلم أن النبى قرب إليه حسان بن ثابت ، ممجدا الشعر فى شخصه ، ومستعينا به فى الرد على شعراء الكفار ، بل إنه صلى الله عليه وسلم عفا عن كعب بن زهير وقبل توبته واستمع فى المسجد إلى شعره وسر منه وأعجب به وخلع عليه . كذلك كان الخلفاء والأمراء من بعد الرسول ، يجيزون الشعراء على إجادتهم وتفننهم ، ولم نسمع فقيها من الفقهاء ثار على شاعر من الشعراء ـ مع ما نعلمه من تعريض القرآن بالشعراء ـ أو على ضرب خاص من الشعر ، لا سيما وأن بأبواب الهجاء والغزل والخمريات من دواعى المجون والفساد أكثر مما فى الصورة أو التمثال .

وإذا قال بعض الفقهاء إن التصوير ملهاة ومن أجل ذلك حرم ، فإنى أعتقد أن الغناء ملهاة أكثر ، ومع ذلك لم يقولوا فى حقه ما قالوه فى حق التصوير ، بل إن مجالس اللهو والغناء التى شهدتها قصور الأمويين والعباسيين وغيرهم من أمراء المسلمين فى الشرق والغرب ، لم تجد من العلماء والفقهاء معارضة مثلما لقى موضوع التصوير .

فإذا كان الإسلام قد ضم إلى رحابه الشعر بما فيه ، ولم يحكم على المغنين

والموسيقيين بالنار والعذاب الشديد ، وإذا كان النبي لم يظهر استياءه لجماعة مر بهم وكانوا يرقصون ؛ بل قال لهم : « جدّوا يا بنى أرفدة ، حتى يعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فسحة » . إذا كان هذا كله قد اتسع له صدر الإسلام والمسلمين ، أفتضيق رحبته حين يهم التصوير أن يدخل إليها ، وحيث يكون فى رعاية الإسلام وخدمته ، لا مناهضا له ؟ !

أعتقد أن الإسلام والمسلمين الذين رعوا تلك الفنون الجميلة لا يعجزهم أن يرعوا التصوير كذلك ، وأعتقد أن الخطر الذى كان يخشاه المسلمون السابقون من إباحة الصور والتماثيل قد زال الآن من الأذهان ، كما يقول الأستاذ الإمام .

الكلمة الأخيرة :

إن المستعرض للآيات التى وردت فى القرآن خاصة بالأصنام وعبادتها ، يجد أن التحريم منصب على عبادتها واتخاذها آلهة من دون الله ، وذلك ظاهر فى قوله تعالى : « وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر ، أتتخذ أصناما آلهة » . وقوله حكاية عن ابراهيم : « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » . فإبراهيم عليه السلام ينكر على الناس تعطيل عقولهم ويعيب عليهم ما أصابها من فساد جعل الناس ينصرفون إلى تعظيم أحجار لا تنفع ولا تضر ولا تغنى عنهم من الحق شيئا . فالتماثيل ليست بذات أثر فى إفساد العقيدة ، ولكن فساد العقل وضعفه هو الذى جعل من هذه التماثيل أصناما تعبد من دون الله .

ثم إن سليمان كان نبيا ورسولا ؛ بعث بعقيدة التوحيد ودعا إليها ، وأنكر على من يسجدون للشمس فعلهم ، ومع ذلك كانت الجن تصنع له التماثيل ، وكان ذلك منة من الله طاب إليه الشكر عليها . ولم ينقل عن سليمان ولا حكى الله عنه أنه ظن أن هذه التماثيل ستكون سببا فى إفساد العقيدة ولوى الناس عن تعظيم الله والاعتراف بوحدانيته . ففساد العقيدة إذن لم يكن ناشئا عن إقامة التماثيل أو عمل التصاوير ، وإنما كان ناشئا عن شىء واحد هو فساد العقلية فسادا جعلها تتصور معنى الألوهية فى مصادر الخير المحسوسة ، ومن ثم عبدت الشمس لأنها ترسل النور ، والقمر لأنه يبعث الضوء ، والماء لأنه سبب الحياة ، والنار لأنها مصدر الحرارة ، وهكذا . . .

وما زالت العقلية البشرية تتدلى حتى عبد الناس الأصنام متوهمين حلول القوة الإلهية فيها ، ومدعين أنها تقربهم إلى الله زلفى ، فلما بعث الله محمدا كان من واجبه القضاء على الأصنام وما يمت إليها بسبب ، لا لأنها صور وتماثيل ولكن لأنها دليل على انحطاط العقلية البشرية . ومن ثم قرر قبح عبادات كثيرة لأنه لا فرق فى فساد العقلية بين عبادة حجر صلد أو كوكب سيار ، أو ملك مقرب .

وقد ظل النبى يحارب تلك النزعة ليرد العقل إلى طبيعته ، ويصلح منه ما فسد ، حتى إذا لمح فيه اتجاها إلى طريق الصواب ، أخذ يخفف من بعض القيود التى وضعها فى سبيل التصوير والتمثيل ، فأباح ما كان رقما فى ثوب وما كان لعبة لتسلية الأطفال . ومن يدرى ! فلو أن مشكلة التصوير لم تكن ذات صلة بأصنام الكعبة وما قام حولها من صراع بين أهل الإسلام وأهل الشرك ، لأباحها النبى صلى الله عليه وسلم صراحة ، ولكان لها فى شريعته مثلما كان لها فى شريعة سليمان . ثم بعد هذا كله أليس من الأمور المقررة عند الفقهاء أن كثيرا من الأحكام كان لخصوص الظروف والبيئات ، وبناء على ذلك يتحتم علاج مشكلة التصوير تحت ضوء إعتبارات زمنية ومكانية جديدة مغايرة لما كانت عليه الحال فيما مضى ؟

بعد هذا كله ، لا يساورنى شك فى أن الصور والتماثيل لا يتعلق بذاتها حل ولا حرمة من هذه الوجهة التى يثيرها بعض الفقهاء ، وإنما هى صناعة من الصناعات التى يسمو بها العقل ، وفن من الفنون التى يرقى بها الفكر ، وحاجة من الحاجات التى لا يستغنى الناس عنها فى عصرنا الحاضر ، ولم يقل أحد إن الإسلام يناهض ما يسمو به العقل أو يرقى به الفكر ، أو يرغب فى السير بالناس بعيدا عن ركب الحضارة والمدنية .

تصحيح خطأ

وقع خطأ فى مقال ، الجامعة القديمة ـ الحديثة .

ص	س	خطأ	صواب
٣٩٣	١٠	ميمون	النعمان
٣٩٣	١٣	٤٣٠هـ (١٠٣٨م)	٤٢٠هـ (١٠٢٩م)
٣٩٣	١٤	السنة نفسها	سنة ٤٣٠هـ (١٠٣٨م)

جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ المجلد الثالث والعشرون

مجلة الأزهر

تصدر شهريا عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين مطمأن النفس

لما كان العالم الإنساني فى القرنين الثامن والتاسع عشر ، كان الجو العلمى على ما يزينه من شموس وأقمار يأخذ لألاؤها بالأبصار ، مشوبا بغيوم كثيفة من الشبهات فى العقائد التى فيها سلوة الإنسان وعزاؤه على ما يصيبه من قوارع الحدثان فكان كلما أصابته قارعة استقبلها بقلب يعمره الإيمان بأن كل هذه النوازل الحيوية من لوازم الحياة المادية ، فإذا ما انتهى دورها ، وانتقل منها الإنسان الى حياته الروحية ، ارتقى الى عالم منزه من الشوائب ، كله روح وريحان ، وأمن واطمئنان ، لا يزال يرتقى فيه بروحه وشعوره حتى يبلغ من كرامة الوجود مالا يخطر ببال ، ولا يمكن بيانه بالأقوال .

هذه كانت عقيدة العالم كافة الى ما قبل قرنين من الزمان ، فلما انتشر العلم بين الناس بانتشار المدارس ، وتولدت الشكوك والشبهات بتأثير الاكتشافات العلمية ، طرأت زعزعة فى العقائد الدينية ، فكانت كارثة إن استمرت سائدة فى العقول أثرت فى أخلاق الإنسان وأطواره تأثيرا ليس من مصلحة النوع البشرى إهماله ، بل قذفت به الى حالة نفسية ليس من فائدته الإبقاء عليها ، إن لم يكن بسبب تأثيرها فى شخصيته ، فبما تولده من فلسفة ليس مما يسمح به الخضوع لها .

نعم إن هنالك فرقا كبيرا بين نفسية من يعتقد أنه حيوان كسائر الحيوانات ، يعيش راتعا فى المأكل والمشرب ، ثم يموت كما يموت حصانه وبعيره ويستحيل الى تراب تطأه الأقدام ، وتذروه الرياح الى كل اتجاه ، وبين نفسية من يعتقد أن حياته وإن كانت قصيرة الأمد لا تتجاوز بضع عشرات من السنين إلا أنه خالد بروحه فى وجود أرفع من الذى يعيش فيه سينتهى إليه ويجد فيه جزاء ما عمل من بر ، وثواب ما بذل من جهد ، أو نشر من علم ، أو هذب من أخلاق ، أو أمات من بدع ، أو أحيا من سنن .

لا شك أن الفارق عظيم بين هاتين النفسيتين ، وتأثيرهما فى توجيه الإنسان لا يخفى على أحد . فقد يعيش عشرات كثيرة من السنين حتى يبلغ أرذل العمر ،

ويقل مطعمه ومشربه ، وتضمحل قواه ، وتذبل نضرته ، ويكاد لا يستطيع الحركة ، وتجافيه لذاته ومحابه ، بل قد تساوره الأمراض من كل ناحية ، وتؤلمه حركاته الجسدية ، ومع ذلك يفضل أن يبقى فريسة لهذه المنغصات على أن يموت وتنصب على قبره القباب ، ويحيط به الناس من كل جناب . ذلك لأنه ذاق لذة الحياة وأدرك قيمتها ، ويخشى أن يرد بعدها الى العدم ! ! !

وقد شوهد أن الهلع الذى يعترى النفس من الضعف الذى آلت إليه عقيدة خلود الروح ، كان يشتد لدى بعض الناس حتى ليكاد يقعدهم عن العمل ، ويشل حركتهم الحيوية ، بل ويفضى بهم إلى الموت كمدا . وقد استند كثير من الفلاسفة على هذا الشعور واعتبروه من أدل الأدلة على خلود الروح بعد انحلال الجسد . وصرح رجالات من العبّاد أنهم رأوا الأرواح وحادثوهم كما يتحادث الأحياء سواء بسواء . وجاء العلم أخيرا فصرح بأنه أثبت وجود الروح إثباتا حسيا باستحضارها والتحادث معها ؛ فكان هذا انتصارا حاسما للدين ليس بعده مرمى ، فقد كان العلم الغربى قد اشتد فى إنكار وجود الروح حتى عد القول بذلك خرافة لا يصح أن تبقى إلا عند صغار العقول .

ولم يقف من إثبات وجود الروح عند الحد الذى وقفت عنده الفلسفة ، فتوسع فى مناحيه حتى صرح بأنه توصل الى تجريدها من سلطان الجسد ، والتخاطب معها مباشرة ، وهى الحالة التى تتجلى بها فيما سموه بالتنويم المغناطيسى . وزاد فى فتوحاته العلمية المتعلقة بها حتى أعلن أنه توصل بواسطة التنويم أيضا إلى إخراجها من الجسم فيصير ذلك الجسم فى تلك الحالة كما يكون فى حالة الموت ، مجردا من الحركة ومن التنفس أيضاً ، وتكون هى على بعد منه ، وتثبت وجودها لمتولى هذا البحث بوسائل توجب اليقين لابتنائها على الحس ، على أنها خارج الجسد ، فترى وتسمع وتفهم ، وتأتى من الأعمال المادية بما يثبت وجودها خارج جثمانها اثباتا لا يشوبه شك . وقد أثرت هذه الفتوحات العلمية أعظم تأثير فى العقول فانكسرت شوكة الملحدين ، وخفتت أصواتهم ، وأصبحوا بعد أن كانوا يصيحون هل من مجادل ، يلزمون الصمت حتى ولو دعاهم إلى الكلام داع ، خشية أن يتصدى لهم خصم قوى الحجة ، فيظهر ضعفهم ، ويكشف مستورهم . ولماذا يتحاشى هؤلاء الجدال وقد كانوا من أكثر الناس ولوعاً به واعتماداً عليه ؟ لأن العلم فى تقدمه زاد فى عداد العقد

التى لا تحل إلا بافتراض وجود خالق حكيم خلق الخلق على ما هو عليه ، وأقامه على ما اقتضته حكمته من الأصول ، ووجهه التوجيه الملائم له إلى الغايات البعيدة والابداعات التى لا تقف عند حد .

إن من أعجب ما ولدته العقول المريضة من أوهام ووساوس تخيل بعض الناس إمكان قيام هذا الكون بدون قيوم أوجده من العدم ، فيكون الحال أن العقل لا يستطيع أن يدرك أن أية مادة حقيرة يمكن أن توجد بذاتها ، والأستاذ المادى يريد أن يوهم الناس ويجعلهم يصدقون أن العالم كله على ما هو عليه من جلال يقوم بنفسه بدون عقل ينظمه وأنه متع بجميع ما فيه من ابداعات وقوى ونواميس بدون وجود مدبر عليم تولى ايجادها وتدبيرها ؟ أليس من حقنا أن نعجب من هذا التناقض العجيب ، بل الضعف العقلى المعيب . وإننا لنسميه ضعفا عقليا لأن سخفه يكاد ينطق باستحالته ، فكيف يتأتى لشبهة هذا مبلغها من الضعف أن تدحض ما تقضى الخاصة الرئيسية للإنسان بضرورة وجوده ، وأن أى عمل إنسانى مهما صغر وحقر لا يتأتى أن يقوم ويثمر ثمرته المقصودة منه إلا تحت قيادته وتدبيره؟

نعم إن الأمر جلل ، والعقل الإنسانى لا يستطيع أن يجول إلا فى الممكنات الجزئية التى يعملها بيده ، فلذلك هو يطلق على ما يتعاصى عن إمكانه ، والخضوع لسلطانه من الموجودات صفة المثل الأعلى ، وهو توجيه إلهى ليستطيع تحت حوافزه الأدبية أن يترقى فى أعماله ، وأن يتحرى فى حدود إمكان السبل التى يجب عليه أن يسلكها للوصول من أقرب الطرق إلى أغراضه ، ولهذه الشئون كلها ثمرة جليلة أخرى هى من أرقى مميزاته ، وهى سرعة الإلف للشىء ثم التبرم منه ، والنزوع لتغييره نزوعا لاهوادة فيه ، فتتوافر له تحت هذه العوامل النفسية القوى التى تدفعه للعمل ، والمثل التى تتراءى له ليتخير منها ما يتفق واندفاعه لاختيار الأكمل . فأنت ترى أن حياة الإنسان الأدبية سلسلة تطورات نفسية تبدأ بسيطة ثم تتركب وتتعقد لأجل أن تحال بتفكير المشتغل بها إلى أجزائها خالصة من التعقد ، كاشفة فى الوقت نفسه عن وجوه شتى للأفضل والأكمل .

هذه سيرة الإنسان ، وهذه طريقه إلى مثله العليا ، سائقا العالم معه إلى حياة إنسانية لا سبيل لأى عمل على إدراك حقيقة عواملها ، ومدى شوطها .

محمد فريد وجدى

تفسير
سورة البقرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين »

سبق الكلام على طائفة المتقين وما هم عليه من أوصاف قد جعل الله جزاءها استقامتهم على الجادة وإفلاحهم إفلاحا سيجزون عليه عنده تعالى بالرضى والنعيم .

ثم ثنى بالكلام على الكافرين وما تعمقوا فيه من اعوجاج وضلال حتى استوى عندهم الإنذار وعدم الإنذار . ثم ثلث بالكلام على فريق آخر لا هم بالمؤمنين ولا هم بالكافرين ، بل هم فريق المنافقين الذين أبطنوا كفراً وأظهروا إيمانا ...

ولما كانت تلك الحال المضطربة لا تطمئن فيها حياة ، ولا يستقر فيها عيش ولا يهدأ فيها لأحد بال ، كان الذين يتخذون تلك الحياة القلقة قليلين . ولهذا نرى القرآن قد عبر به عن المتقين وعن الكافرين ، إذ عبر عنهم بما يفيد أنهما فريقان فى المجتمع واضحان معهودان سلك كل سبيله فى الحياة واضحا .

فقوله ومن الناس أى وبعض الناس مما يسترعى النظر ويقف بك مواقف الإعجاب بما ارتقى إليه الكتاب من بلاغة ، فما البلاغة إلا تحديد المراد تحديدا لا يزيد فيه عما أردت شيئا ولا ينقص فيه عما أردت شيئا فإنك إذا قارنت الفريقين الأولين بالفريق الثالث وجدت القرآن قد حدد ببالغ أسلوبه واقع الأمر تحديدا دقيقا . فإن هذا الفريق لم يبلغوا إلا أن يكونوا بعض الناس .

هذا ولما كان المنافقون قد أظهروا إيمانا وأبطنوا كفرا فلم يكونوا بحسب ظاهر الأمر مع الكافرين ولا بحسب باطنه مع المؤمنين رأيت القرآن يجردهم

من الوصفين فلا يعبر عنهم بالكافرين . ولا يعبر عنهم بالمؤمنين . بل عبر عنهم بالناس لينطبق التعبير على ما حاولوه لأنفسهم من أنهم لا هم مؤمنون ولا هم كافرون . فانظر كيف قال فى الحديث عنهم « ومن الناس » .

ولما كان هذا المسلك الذى سلكوه لأنفسهم فى الحياة مسلكا مكروها داعيا لحذر الفريقين لهم مما يلفت الفريقين لهم لفتا قويا ، كانوا على قلتهم كالمعهودين المعروفين بذلك المسلك الشائن المحذور . فقال « من يقول آمنا » من التى هى اسم موصول والاسم الموصول يفيد معهودية مدلوله وأن للنفوس شعوراً خاصاً به .

ولما كانوا غير صادقين فى دعوى الإيمان ولم يكن الإيمان قد حل قلوبهم ، ولم يكن الإيمان قد استنارت به نفوسهم ، ترى القرآن قد عبر بقوله « يقول » مما يفيد أنه مجرد قول باللسان لا استيقان بالقلوب ولا اطمئنان للنفوس بل هم إنما يقولون بأفواههم ما لا أثر له فى قلوبهم ، ولما كان القرآن كما قلنا لا يترك ما يقصد إليه من معنى دون تحديد لا يدع منفذا يخرج منه شىء مما أريد أو يدخل منه شىء مما لم يرد ، تراه أتبع قوله « يقول آمنا » ما يؤكد أنه قول لم يمس قلوبهم ولم يحل نفوسهم ، وهو ما نفى به عنهم الإيمان ، أى قوله « وما هم بمؤمنين » ولزيادة التأكيد فى أنهم كاذبون فيما يدعون عبر عن نفى الإيمان بجملة إسمية مؤكدة بزيادة الباء فى خبر (ما) مبالغة فى أنهم ليسوا من الإيمان فى ورد ولا صدر .

وإليك لافتة أخرى فى تلك الآية مما يدل على دقة القرآن فى تحديد المعانى تحديداً دقيقا هو مثار الإعجاب ومناط الإعجاز ، فإن هذا الفريق فريق المنافقين الذى يتحدث عنه القرآن لم يستطيعوا لشدة بغضهم لرسول الله أن يخادعوا المؤمنين فى شأنه ، وكل ما غلبوا فيه خبث نفوسهم ، أن خدعوا المؤمنين فى شأن الله واليوم الآخر ، فاقتصروا فى مزاعمهم على أن قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر ، وتعاصت عليهم ألسنتهم أن يقولوا آمنا بالرسول ولو كذبا وزوراً ، وبهذا أبرز القرآن نفسيتهم نحو الرسول الكريم حتى يعرف المؤمنون مبلغ بغضهم لرسول الله .

هذا ويصح فى لفظة (مَنْ) التى فى الآية أن تكون نكرة موصوفة ، وعليه يكون المعنى ، وبعض الناس ناس يقولون آمنا وإن كان جعلها موصولة أدل على أنهم مع قلتهم قد جعلهم ماهم عليه من خبيث الصفات أولى لون خاص ومظهر محدد يستدعى شعور الفريقين بهم شعورا حادا ، فهم إلى العهد الذى يدل عليه الموصول أقرب منهم إلى التنكير ، وبهذا يكون تفسير (من) بالموصولية أرجح منه بالموصوفية .

يا لله ولعجائب القرآن : المنافقون على الحقيقة كافرون فهم فريق من الكفار والكفار ناس كغيرهم ، فالمنافقون بهذا الاعتبار فريق من الكفار ، ولما كان حالهم أن أخفوا كفرهم وجردوا أنفسهم ظاهراً من الوصف الذى يجمعهم بطائفة الكافرين ، عبر القرآن عنهم بأنهم بعض من الناس فقط لا هم بالكافرين ولا هم بالمؤمنين ، وفى ذلك مبالغة فى الحط من شأنهم والاحتقار لوضعهم ، فهم لم يخرجوا عن كونهم ناسا فقط ، لم يخرجوا بأوصاف أهل اليمين إلى اليمين ولا بأوصاف أهل الشمال إلى الشمال ، بل بقوا فى منحدر لا يمر بهم سالك الجادة ولا سالك المعوج من الطرق .

وإنما قال : وما هم بمؤمنين ، ولم يقل وما آمنوا ، تعبيراً بالماضى ، ولا لا يؤمنون ، تعبيرا بالمضارع ، بل ترك التعبير بالفعل جانبا ، لأن الذى يحدد المراد هو التعبير بالوصف لأنه للحال ، والذى يراد إنما هو نفى الإيمان عنهم حالا ، أى حال قولهم كذبا (آمنا بالله وباليوم الآخر) . حتى يوافق التعبير بالوصف الجملة التى نفى بها عنهم الإيمان فإنها قد بدئت بواو الحال .

وعلى هذا فأى أسلوب يبلغ مبلغ هذا الأسلوب فى تصغير شأنهم وتحقير أمرهم إذ يعبر عنهم بأنهم بعض وبعض من الناس المجردين عن كل وصف حسن أو قبيح والمنعزلين عن كل طائفة مؤمنين أو كافرين . فلا يعرفون إلا بأنهم الذين عهدتم منهم محاولة إخفاء شأنهم وما هم عليه مخادعين الأقوياء بظاهرهم مصادقين الضعفاء بباطنهم لم يستطيعوا اطمئنانا من نفوسهم للرذيلة وارتكانا من قلوبهم للحقارة أن يكونوا إلى هؤلاء أو إلى هؤلاء ، بل كانوا مذبذبين بين ذلك ، وبهذا كان جزاؤهم من الله شر جزاء ، لم يرض لهم ما سيحيق بهم من عذاب أن يكونوا معه فى مستوى فريق الكافرين ، بل سينزلهم بما يستحقون فى الدرك الأسفل من النار حتى يكونوا وقت عذابهم فى مثل ما اختاروا لأنفسهم من أمكنة الخفاء والالتواء ، وما أعظم عدل الله إذ خصهم بشر أنواع العذاب ، فليس أضر بالمجتمع من هذا الفريق من الناس فهم الفاصلون لعرى المودة بين أفراد المجتمع وهم المشعلون لنار الفتنة بين الناس

هم على الجملة المفسدون للعلاقات ، المؤذون دون اتخاذ الاحتياط ، فاللهم احفظ المجتمع شر هؤلاء ، وطهره من أمثالهم حتى يستقيم الحال ويطمئن البال .

الأزهـــــر

الجامعة القديمة ـ الحديثة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

تعريب المقال الفرنسى الذى أنشأه فضيلته إجابة لرغبة وزارة الخارجية المصرية ، لنشره فى جريدة « الموند » الباريسية فى عددها الخاص بمصر ، بمناسبة انعقاد الدورة السادسة لجمعية الأمم المتحدة فى باريس (ديسمبر ١٩٥١ — يناير ١٩٥٢) .

— ٣ —

رسالة الأزهر خارج النطاق المدرسى

أما بعد ، فإن أبدع طابع تمتاز به الجامعة الأزهرية ، ليس هو أنها قد جمعت فى تعليمها بين هذين العنصرين الروحى والزمنى ، اللذين نراهما منفصلين فى سائر الجامعات ؛ بل ميزتها الكبرى هى أن الميدان الذى تتدفق فيه حيويتها يتجاوز كل حدود التعليم والتثقيف ، ويرتقى إلى دور من أهم الأدوار فى توجيه حياة الجماعة .

إن رسالة الأزهر على الجملة ، إنما هى امتداد لرسالة الإسلام ؛ ألا وإن الإسلام ليس بمجموعة مبادىء نظرية تغرس فى الأذهان وحسب ، وإنما هو قوة دافعة خلاقة ، غايتها أن تنظم السلوك الإنسانى تنظيما فعليا ، طبقاً لأسمى المثل وأسلسها قياداً على التنفيذ العملى . فليس يكفيه إذاً أن يبين هذه المبادىء دون أن يسهر على تطبيقها ... وهذا التطبيق لا يخص سلوك الفرد فى نفسه ، أو فى أماكن عبادته وكفى ؛ لأن قانون الإسلام ، الذى هو موضوع التطبيق ، لا يعرف هذا الفصل بين الدين وشؤون الحياة ، بل إن قواعده العملية تمتد إلى جميع ميادين النشاط الاقتصادى والأخلاقى ، فى حياة الفرد ، والأسرة ، والأمة ؛ بل فى حياة الجماعة الإنسانية كلها .

غير أن هاهنا سؤالا يثيره هذا البيان :

ترى هل فى الإمكان أن يوضع جهاز لتنفيذ هـــذا القانون الشامل فى ذلك

الميدان اللانهائى ؟ هل يستطيع أحد أن يتصور هذا الرقم الخيالى لذلك العدد من جنود الفضيلة (بوليس الآداب) اللازم للسهر على تحقيق هذه المبادىء فى كل مكان ؟

لقد حل الإسلام هذه المشكلة من أقرب الطرق وأيسرها . ذلك أنه عهد إلى جميع أفراد الجماعة بمهمة هذه الرقابة ، وجعلها فى الوقت نفسه رقابة متبادلة ؛ إذ خوّل لكل فرد حقاً ـ بل ألزمه فرضاً ـ أن يبذل نصحه للآخرين ، وأن يعارض ويقاوم بقوله وفعله كل من سولت له نفسه أن يرتكب ظلما ، ولو كان هو الرئيس الأعلى .

غير أنه ضماناً لنجاح هذا التدخل ، ومنعاً لاحتمالات اللبس وللأخطاء الضارة فى تطبيقه ، جعل هذا السلطان الأدبى ـ المخوّل مبدئياً للجميع ـ حقاً بالأولوية لأولئك الذين نالوا قسطا كافيا من المعارف النظرية والعملية ، وكانت لهم بذلك أهلية خاصة لاستعمال هذا السلطان .

من أجل ذلك عنى الأزهر ـ إلى جانب تكوينه لأسرة التدريس ـ بتخريج جماعة من المصلحين الاجتماعيين ، ليكونوا فى صلة دائمة بالشعب ، ويتجهوا إليه بإرشاداتهم فى كل مناسبة . ولدى الأزهر منهم الآن أكثر من ٢٨٠ واعظا ، موزعون توزيعا متناسبا بين العاصمة وسائر الأقاليم . وإن « العدالة » و « الأمن » لمدينان أعظم الدين لجميل نصائحهم التى يوجهونها إلى الجماهير ، وإلى الأسوة الحسنة التى يقدمونها لهم فى سيرتهم الشخصية ، وإلى طرق الإصلاح التى يمهدونها لهم فى المنازعات ، كما تشهد بذلك السجلات الرسمية .

وفى الوقت نفسه نجد فى الأزهر لجنة دائمة من العلماء تتلقى المكاتبات من كل سائل ، عما أشكل عليه من أحوال السلوك وشؤون المعاملات ، وتجيبه بما يزيل شبهته ، وينير له السبيل السوى .

* * *

ومن وراء ذلك كله ـ وفوق كل هذه الخدمات الجليلة ـ يتمتع الأزهر بسلطة معنوية أكثر عمقا ، وأبعد حدودا ، يستعملها فى توجيه السياسة العامة ، لا فى مصر وحدها ، بل فى سائر البلاد الإسلامية . وها هنا أيضا لا تعوزنا الشواهد لإبراز هذه الحقيقة . فلقد أتى على عرش مصر لحظة من الزمن ، فى سنة ١٨٠٥ م ، كان

فيها يبدو متردداً بين « خورشيد » و « محمد على » . فكان الثقل الذى وضعه نفوذ الأزهر هو الذى رجح كفة الميزان فى جانب محمد على ، ووضع الباب العالى أمام الأمر الواقع فى اختياره والياً على مصر . وفى سنة ١٩١٩ كان الأزهر هو المنبر الذى ارتفع منه أقوى صوت فى المطالبة بالغاء الحماية الانجليزية ، وكان حرم الأزهر هو المهد الذى ولدت فيه الوحدة التى لا تنفصم عراها بين أقباط مصر ومسلميها ، لإحباط الدسائس البريطانية التى حيكت للتفريق بين العنصرين .

أما نفوذ الأزهر فى الأقطار الإسلامية فليس من نوع ذلك النفوذ الغامض البعيد ، الذى يتمتع به الأزهر بفضل مهابة اسمه وجلال مركزه فحسب؛ بل إن له فى تحقيقه وسائل حية ، وأدوات ناطقة . نعم ؛ أليس للأزهر ممثلوه فى أقطار الإسلام ، ولتلك الأقطار ممثلوها فيه ؟ أو ليس هؤلاء الممثلون من الجانبين هم حلقة الاتصال المتبادل الذى يحفظ وينمى هذه العلاقات الوثيقة بين الطرفين فى مختلف النواحى الثقافية والأدبية والروحية ؟

فأما من أحد الجانبين ، فإن الدول الإسلامية (العربية منها وغير العربية) لا تفتأ تلتمس من الأزهر فى كل عام ، عددا من علمائه ليبصروا شعوبها بحقائق الإسلام ، أو ليكونوا أعضاء فى هيئات التدريس فى جامعاتها ومعاهدها ، ولا يسع الأزهر إلا أن يرحب دائما بندائهم فلا يرد لهم ملتمساً . وقد بلغ الآن عدد المندوبين من علماء الأزهر فى خارج القطر ٧٥ مدرسا فى الأقطار الممتدة من جزائر الفيليبين إلى مملكة ليبيا . بل إن الدول الغربية قد أفادت من نظام الانتداب المذكور ، سواء لتغذية جامعاتها ، أو لإدارة مراكز الاسلام الثقافية فيها . وها نحن أولاء نرى من أساتذة الأزهر مندوبين بالفعل فى « لوندره » و « واشنطن » و « سان فرانسيسكو » وقد نرى قريبا وصول هذا المدد إلى « باريس » أيضاً ... لم لا ؟

ونعود الى الأقطار الإسلامية فنقول : إن صلتها الوثيقة بالأزهر تقوم — من جهة أخرى — على تلك الألوف من شباب المتعلمين الوافدين منها ، والذين يتبناهم الأزهر فيطبعهم بطابعه ، ويصنعهم على طرازه . وإن الحفاوة التى يقدمها لهم لمفعمة بأنواع الكرم والضيافة . فهو يؤويهم بالمجان ، ويمنح كلا منهم شهريا مقدارا من المال كافيا لمعيشته ؛ وعلى الرغم من زيادة عددهم عاما بعد عام ، فإن هذه المرتبات يجدونها مكفولة لهم على الدوام ، بفضل المكارم السامية التى يتحلى بها الفاروق ،

حيث يكمل كل عجز فى ميزانيتهم بما يمنحه جلالته من جيبه الخاص ؛ وفضلا عن ذلك فإنه يدعوهم الى موائده الملكية لتناول طعام الإفطار فى شهر رمضان . كما أن الجامعة تهيء لهم فى أثناء العام رحلات مدرسية بالمجان الى الأماكن الأثرية ومعالم السياحة ، وتعد لهم فى الصيف مقاما هادئا على شواطىء البحر فى الإسكندرية . وفى نهاية دراستهم تمنحهم شهادات ينتفعون بها عند عودتهم ، لا فى التدريس فحسب ، بل فى مختلف المناصب فى بلادهم . ولقد بلغ عدد هؤلاء الضيوف فى هذا العام أكثر من ثلاثة آلاف طالب ، هم سفراء الأزهر غداً الى بلادهم . فإذا سارت الأمور على هذا المنوال لم تمض بضع عشرات من السنين حتى يكون الأزهر قد جعل من جميع الشعوب الإسلامية أمة واحدة متجانسة فى ثقافتها ، كما هى متجانسة فى عقيدتها وآدابها .

* * *

على أن الرسالة الحقيقية للأزهر لن تتحقق على وجهها الأكمل إلا إذا تجاوزت حدودها الإقليمية فى الشرق الإسلامى ، وأسمعت صوتها من وراء تلك الحدود .

نعم إننا اليوم – وقد تنازعت العالم قوى متناحرة ، وآراء متنافرة ، قد عجزت أطرافها أن تلتقى عند حد وسط يوفق بينها . وقد أخذت فى صراعها تسرع بنا الخطا نحو الكارثة الكبرى – أقول إننا اليوم لفى أمس الحاجة إلى قوة ثالثة تتسم بطابع التعادل والتوازن ، لا عن طريق التلفيق بين عناصر متناكرة ، بل عن طريق وحدة طبيعية متماسكة ، يأتلف فيها عنصرا المادة والروح ، وتتساند فيها مطامح المنفعة وعواطف الإيثار ، وتتعانق فيها حرية الفرد وسلطان الدولة ، وتتدرج بها المصالح القومية فى نطاق الرحمة الإنسانية العالمية ؛ وبالجملة فإننا اليوم فى أشد الحاجة إلى تلك الحكمة الشرقية الإسلامية ، التى يعد الأزهر خير ممثل لآدابها .

ويوم يتمكن الأزهر من أن يصوغ هذه السياسة الرشيدة فى أسلوب واضح سائغ محدّد ، ويتيسر له من الوسائل ما ينشر به هذه المبادىء فى الميدان العالمىّ ، ويبدى فيه المعسكران المتصارعان فى الوقت نفسه من حسن النية وقوة العزيمة ما يجعلهما يصغيان إلى ندائه الحكيم – يومئذ يكون لنا أن نتحدث بحق وصدق عن « السلام الشامل » و « الأمن العالمى الكامل » لا حلماً من نسج الأوهام ، ولكن حقيقة حية صالحة للبقاء ؟

مركز المسلمين فى العالم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

المفتش بالأزهر

إن العالم تتنازعه الآن قوتان عظيمتان ، كلتاهما تعمل على توطيد سلطانها ، وتمكين مبادئها وأفكارها فى ربوعه ، ولم يعد خفياً على أحد أن هذه الأحوال المضطربة ، وهذه الظلمات التى تغشى الناس ، وهذه المخاوف التى تملأ نفوسهم ، وتحير عقولهم ، وتفسد عليهم أمورهم ؛ إنما ترجع إلى هذا التنازع العنيف بين هاتين القوتين ، وحرص كل منهما على أن يكون لها السلطان فى الأرض ، والأمر النافذ الذى لا مرد له فى مختلف شئونها .

وقد سخرت موارد العالم كلها وجميع قواه المادية والمعنوية لإذكاء نيران هذا التنازع الخطير الذى يكاد يودى بالبشر ، ويعصف بجميع الحضارات والمدنيات ، فعبئت الجيوش والأموال ، والصناعات والزراعات ، والمواهب والأفكار وسائر الجهود فى كلا المعسكرين ، وصار العالم فى كل ناحية من نواحيه موطناً للشقاء والبؤس والحرمان ، والخوف والفزع ، وبدت فيه مشاكل لم تكن من قبل ، وهددته أخطار كان فى أمن منها ، وأصبح قادته ومفكروه وعلماؤه فى حيرة من أمرهم ، يدركون وخامة العواقب ، وينادون إخوانهم محذرين ، ولكن أحداً لم يستمع إليهم ، ولا يعبأ بهم ، والمسلمون فى مختلف شعوبهم وأوطانهم يقفون من هذه الأحداث والأخطار موقف الحائر الوجل الذى لا يدرى ماذا يفعل ، ويرى فى كلتا الجهتين خطراً يهدده ، وشراً يوشك أن ينزل به .

وحُقّ للمسلمين أن يخافوا ويتوجسوا فقد وقفوا أنفسهم فى العصور الأخيرة عصور الضعف والتخلف والتقاطع والتخاذل ـ موقف من لا رسالة له ، ولا فكرة لديه ، فقد جعلهم الله أمة وسطاً بأن آتاهم شريعة سمحة لا ترمى إلى استخلاص

الإنسان لحياة الرهبنة والانقطاع ، ولا تسمح له بأن يكون مادياً بحتاً لا ينظر إلى الأمور إلا بين الأثرة والشهوة الخاصة ، وجعلهم هكذا ليكونوا شهداء على الناس ، أي قوة عاملة مؤثرة في توازن العالم بين هاتين النزعتين . ولكنهم بدل أن يكونوا هذه القوة العاملة المؤثرة ، رضوا لأنفسهم أن يعيشوا موجّهين ترسم لهم خططهم ، ويلقى إليهم بها كي ينفذوها ، ويسيروا على منهاجها ، وبهذا صاروا ذيولا لا رءوساً ، وخيمت عليهم الذلة بعد أن كانت لهم العزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

يقول الله عز وجل « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . ويقول عز اسمه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقد أسند في هاتين الآيتين فلاح الأمة وخيريتها إلى كونها موجّهة إلى الخير والحق ، عاملة على تركيزهما في العالم ، داعية إلى المعروف ، ناهية عن المنكر ، فإذا كان هذا هو شأن الأمة وواقع أمرها في حياتها ، كان لها أن تطمئن إلى أنها خير أمة ، وأن تطمئن إلى « الفلاح » الذي وعدها الله به في الدنيا والآخرة ، وإن كانت الأخرى فهي أمة ضئيلة لا وزن لها ولا مكان في العالم ، وهي من الخاسرين .

إن العالم كله وحدة متشابكة المصالح والمنافع ، مثله كمثل حوض مليء بالماء تسبح فيه أنواع من الأسماك ، فإذا تغير هذا الماء بالتعطن أو الفساد أو عرضت له برودة أو سخونة أو غير ذلك ، فإن هذا لا يعرض لفريق من الأسماك دون فريق ولكنه يعرض للجميع ، ويؤثر في الجميع ، وقد أرسل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بدين عام هو نور وهدى للناس أجمعين ، ولم يكن مما جرت به سنة الله أن يحفظ بشراً فيؤتيه الخلد حتى يخلد محمدا ليدعو إلى دينه جميع الأجناس في جميع الأجيال « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » ، ولهذا كان المسلمون خلفاءه على هذا الدين العام الخالد ، عليهم أن يبلغوه ، وأن يؤدوا أمانته في كل عصر ؛ ولكل قوم وأن يجعلوه فكرتهم ومنهاجهم ، ودعوتهم التي يدعون إليها أرباب العقول ، ويعملون على صبغ الحياة بلونها ، وإجرائها على نسقها ، فإن هم قصروا في ذلك

أو نكصوا عنه ، فقد خانوا أمانة الله ورسوله ، وخانوا أمانة التكافل الإنسانى الذى يعتبر عهدا فطرياً بين أبناء آدم ، وقد عرّضوا أنفسهم لألوان النكبات والمصائب التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، ولكن تصيب الساكتين عليها كما تصيب مقترفيها « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) . « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » .

* * *

بيد أن الداعى إلى الهدى والرشاد يجب أن يكون مهديا راشدا ، فقد ألف الناس أن ينظروا إلى أشخاص القائمين بالدعوات قبل أن يستمعوا إلى ما يقولون ، فان رأوهم مؤمنين بها إيمانا عمليا يبدو فى أعمالهم قبل أن يبدو فى أقوالهم كانوا سراعا إلى إجابتهم وتلبية دعوتهم ، وان رأوا فى مظهرهم وأحوالهم ما ينافى دعوتهم قالوا : لو كانوا صادقين لكانوا عاملين ، أو قالوا : لو كانت مبادؤهم تفضى إلى الخير والسعادة والصلاح لكانوا أخياراً سعداء صالحين ، وبهذا تنصرف النفوس عنهم ، أو على الأقل تصعب عليهم مسالك الإقناع بدعوتهم فيحتاجون إلى أن يقولوا - كما يقول المسلمون الآن - : لا تنظروا إلى أعمالنا وأحوالنا ، ولكن انظروا إلى شرعتنا وديننا ، كأن العالم كله مؤلف من فلاسفة منصفين ممحصين يستطيعون أن يفرقوا بين القول والقائل ، والدعوة والداعى .

لهذا يجب أن يبدأ المسلمون بإصلاح أنفسهم ، وأن يعودوا إلى حياتهم الأولى حين كانوا أمة واحدة مؤمنة عاملة ناصبة تقول الحق وتهدى بإذن الله إلى صراطه المستقيم .

تقطعت الأمة الإسلامية شعوبا ، وصار كل شعب يفكر فى أحواله الخاصة ، ويرسم سياسته فى معزل عن سائر الشعوب الإسلامية الأخرى ، بل صار الشعب الواحد أحزابا مختلفة متناحرة يضرب بعضهم بعضا ، ويتبادلون التهم والظنون ،

حتى أهل الدين والعلم نراهم متقاطعين متباعدين ، ترى أحدهم يحل شيئاً والآخر يحرمه ، وترى كل واحد منهم يزعم لنفسه ولمن اتبعه أنه هو الذى يفهم الإسلام فهما صحيحاً ، وأن فلانا وأتباع فلان ضالون أو مضلون إلى غير ذلك مما صورنا أمام الأمم بهذه الصورة التى جعلت أحد المستشرقين الأوربيين يقول لأحد شيوخ الأزهر : أى المبادىء الإسلامية التى تدعون إليها ؟ أهى المبادىء التى كان يدعو إليها الشيخ محمد عبده ؟ أو هى المبادىء التى يدعو اليها الشيخ يوسف الدجوى ، أو هى مبادىء الشيخ الظواهرى أو مبادىء الشيخ المراغى أو مبادىء الأخوان المسلمين ، أو مبادىء أنصار السنة .. الخ

نعم إن هذه مغالطة ومجادلة ، لأن الدعوة إلى الاسلام إنما هى الدعوة إلى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتاب والسنة وأصول التشريع الصحيحة ، وما هؤلاء الرجال إلا علماء ومفكرون فى دائرة هذه الشريعة ، لهم أن يختلفوا أو يتفقوا ولا يدل اختلافهم على اختلاف الحق وما شرعه الله ، ثم إنهم لم يختلفوا على الأصول التى بها صلاح العالم ، ولكن لكل منهم وجهة هو موليها فيما لا يضر فيه الاختلاف ، ولا يؤثر فى الصلاح والاصلاح . فقول هذا المستشرق مغالطة ومغالبة بالباطل ، ولكنى أنظر اليه من ناحية واحدة هى أنه استعان على مغالطته بما رآه بيننا من عنف وحدة فى الخلاف جعلا كثيراً من أهل العلم يتقاذفون ويتنابزون بالألقاب ، ويسرفون فى تجريح بعضهم بعضا ، وقد كان الخلاف بين العلماء من قبل هادئا عفا لا يخرج بالمختلفين عن دائرة الحجة والبرهان فحولناه إلى عصبيات وأحزاب ذات أنصار وأعداء ، لا همّ لهم إلا أن يحتربوا ويتبارَوْا فى خوض معركة التجهيل والتضليل ، بل التفكير أحيانا ، فكانت النتيجة الحتمية لذلك أن يزهد الناس فى علم الدين ، وظنوا بعلمائه الظنون ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ومجال القول فى حاجة المسلمين وأهل العلم منهم إلى الاصلاح فسيح ، وأسباب ذلك وآثاره معروفة واضحة ، وإنما ينقصنا العمل والتآزر فيه ، والتعاون الذى أمرنا الله به ، وأن نكون قوامين بالقسط شهداء لله ، فمتى نكون كذلك .

أبو زيد الدبوسى

المتوفى سنة ٤٣٠ هـ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى
مدير المساجد بوزارة الأوقاف

يهتم الباحثون فى تاريخ المجتمعات البشرية بدراسة الأشخاص البارزين والأفذاذ المصلحين الذين ربطوا حياة المجتمع بحياتهم ، وبثوا فيه من روحهم وعزمهم وتفكيرهم وقوتهم ونشاطهم . وهم يقولون إن من أفراد المجتمع ، من يعدون كالأصفار الموضوعة على يسار الأعداد ، فهى لا تفيدها زيادة ولا نقصا ولا تؤثر فيها ارتفاعا ولا انخفاضا ، وهذه النظرية التى دعم قواعدها علماء الاجتماع ، وعلماء التاريخ والتطور والارتقاء ، يمكننا أن نجعلها أساسا فى تاريخ العلوم والفنون والمخترعات والمكتشفات ، بل يمكن اعتبارها أساسا فى كل مرفق من مرافق الحياة فكل ناحية من نواحى بناء المجتمع ينبت فيها أفراد يؤثرون تأثيرا واضحا فى علم من العلوم أو فى مخترع من المخترعات فينسب ذلك العلم إليهم ويشتهر بهم .

وقد اخترت أحد هؤلاء الأفراد النابهين تنطبق عليه تلك القاعدة إذ نسب إليه علم من العلوم نشأ على يديه وأعنى بذلك علم الخلاف والجدل الذى ابتكره أبو زيد الدبوسى . فهو أبو عبيد الله بن عمر بن عيسى القاضى الدبوسى نسبة الى دبوسية بفتح الدال المهملة وضم الباء الموحدة وبعدها واو ساكنة وسين مهملة . وهى بلدة بين بخارى وسمرقند وإليها نسب جماعة من العلماء .

وقد تفقه على أبى جعفر الأستروشنى ، وله فى الأصول كتاب الأسرار وكتاب تقويم الأدلة ، وكتاب الأمد الأقصى ، وكان آية فى النظر واستخراج الحجج ، وقد ضرب به المثل فى شدة عارضته وإفحامه لخصومه فقد روى أنه ناظر يوما بعض الفقهاء فكان كلما ألزمه أبو زيد إلزاما ، وأفحمه إفحاما ، وأعجزه إعجازا ، تبسم

أو ضحك مكتفيا من إقامة الحجة ، وإظهار قوة الجنان وحضور البديهة بتلك الحركة الآلية اللسانية . فأنشد أبو زيد فى ذلك :

مالى إذا ألزمته حجة قابلنى بالضحك والقهقهة
إن كان ضحك المرء من فقهه فالدب فى الصحراء ما أفقهه

وما جاء ابتكاره عن طريق المصادفة وعفو الخاطر ، ولكن ابتكاره جاء نتيجة للظروف العلمية والجدل المنطق الذى نشأ فى العصرين الرابع والخامس من التاريخ الهجرى . فى الوقت الذى قام فيه كل فريق يدافع عن مذهب إمام من الأئمة ؛ وقد حمى وطيس الجدل واشتد إواره على الأخص بين الحنفية والشافعية ، ففتح ذلك الجدل بابا لهذا العالم الجليل . فأخذ يضع القواعد ويؤسس الأسس ويقيم الدعائم لعلم الخلاف . ولا بد لنا هنا من الرجوع إلى الوراء قليلا لنرى كيف نشأ علم أصول الفقه . وكيف احتاج هذا العلم إلى علم الخلاف ليكون حارسا أمينا على قواعد أئمة المذاهب التى استندوا إليها فى استنباط الأحكام الفقهية . فما لا خلاف فيه بين العلماء أن الإمام الشافعى واضع علم الأصول ، ونسبته إليه كنسبة علم المنطق إلى ارسطاطاليس وكنسبة علم العروض إلى الخليل بن أحمد . فقد أملى الشافعى رسالته التى جعلت كمقدمة لما أملاه من كتاب (الأم) .

وافتتح الرسالة بذكر البيان وتعريفه ثم قسمه إلى بيان قرآن وبيان سنة وبيان اجتهاد . (وهو القياس) ثم ذكر العام والخاص فى القرآن وبين العام الباقى على عمومه والعام الذى دخله الخصوص ثم تعرض لبيان منزلة السنة من الكتاب ثم تعرض للناسخ والمنسوخ ، وتعرض لأبحاث تتعلق بالأحاديث المروية وبيان درجاتها فى الاحتجاج كما تعرض للاجماع والاستحسان ، وغير ذلك من الابحاث التى جعلت كحجر الزاوية لهذا الفن . وقد أخذ العلماء يشرحون رسالة الشافعى ، فشرحها أبو بكر محمد بن عبد الله الشيبانى الجوزقى النيسابورى المتوفى سنة ٣٨٨ ﻫ والإمام محمد بن على القفال الكبير الشاشى المتوفى سنة ٣٦٥ ﻫ وأبو الوليد حسان ابن محمد النيسابورى القرشى الأموى المتوفى سنة ٣٤٩ ﻫ وأبو بكر محمد بن عبد الله الصيرفى المتوفى سنة ٣٣٠ ﻫ كما شرحها غير هؤلاء .

وقد كان لهذه الشروح مشربان مختلفان ومسلكان متباينان : مسلك المتكلمين ومسلك الفقهاء ، فنزع كل فريق منهم المنزع المناسب لفنه ، فعنى الفقهاء بجانب الاستنباط والتفريع وعنى المتكلمون بما توحى به مباحث علم الكلام من التقعيد للقواعد والتأصيل للأصول . ويحدثنا فى ذلك ابن خلدون فى مقدمة تاريخه فى باب أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات . فيقول وكان أول من كتب فيه أى فى علم أصول الفقه الشافعى رضى الله تعالى عنه أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها فى الأوامر والنواهى والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد ، وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك إلا أن كتابة الفقهاء أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة والشواهد فيها وبناء المسائل على النكت الفقهية والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون إلى الاستدلال العقلى ما أمكن لأنه غالب فنونهم ومقتضى طريقتهم . وكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن وجاء أبو زيد الدبوسى من أئمتهم فكتب فى القياس بأوسع من جميعهم وتمم الأبحاث والشروط التى يحتاج إليها فيه . وقد فصل ابن خلدون طريقة المتكلمين وبين المؤلفين الذين نهجوا هذه الطريقة .

ونكتفى فى هذا المقال بما ذكرناه عن ابن خلدون متصلا بطريقة الحنفية فى الابحاث الأصولية وينفسح أمامنا المجال لبيان فضل أبى زيد الدبوسى فى تأسيس علم الخلاف الذى جمع زبدة أفكاره فى هذا العلم فى كتاب سماه « تأسيس النظر فى اختلاف الأئمة فى علم الجدل والخلافيات » .

وبالرجوع الى خطبة هذا المؤلف نتبين منها الباعث الذى حدا بأبى زيد الى أن ينصب نفسه منشئا لهذا العلم ومبتكرا له إذ يقول : لما رأيت تصعب الأمر فى تحفظ مسائل الخلاف على المتفقهة . وفقهم الله تعالى لمرضاته وتعسر طرق استنباطها عليهم وقصور معرفتهم عن الاطلاع على حقيقة مآخذها واشتباه مواضع الكلام عند التناظر فيها جمعت فى كتابى هذا أحرفا إذا تدبر الناظر فيها وتأملها عرف مجال التنازع ومدار التناطح عند التخاصم فيصرف عنايته الى ترتيب الكلام

وتقوية الحجج فى المواضع التى عرف أنها مدار القول ومجال التنازع فى موضع النزاع فيسهل عليهم تحفظها ويتيسر لهم سبيل الوصول الى عرفان مآخذها . فأمكنهم قياس غيرها عليها وذلك أنى لما نظرت فى المسائل التى اختلف فيها الفقهاء وجدتها منقسمة الى أقسام ثمانية ، ثم ذكر الأقسام ، ويظهر فضل أبى زيد واضحا جليا فى كتبه الأصولية كما يظهر فى فتاواه وغيرها من الأبحاث الفقهية وحيث تعرضنا فى هذا المقال لواضع علم الخلاف والجدل ، فيجمل بنا أن نلم إلمامة عاجلة بهذا العلم فنرى فى مقدمة ابن خلدون تعريفا لعلم الجدل إذ يقول : هو معرفة آداب المناظرة التى تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم .

فإنه لما كان باب المناظرة فى الرد والقبول متسعا وكل واحد من المناظرين فى الاستدلال والجواب يرسل عنانه فى الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة الى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها فى الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وحين يكون معترضا ومعارضا وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ، ولذلك قيل فيه أنه معرفة القواعد من الحدود والآداب فى الاستدلال التى يتوصل بها الى حفظ رأى أو هدمه سواء أكان ذلك الرأى من الفقه أم من غيره ، ثم ذكر مسلك الفقهاء ومسلك المنطقيين وبين حدود وآداب كل من المسلكين .

وبهذه الصورة المصغرة لنشأة علم الخلاف وبيان آثاره فى العلوم الفقهية ، وغيرها من أنواع الجدل يتبين فضل مترجمنا . ويتبين أنه علم من أعلام فقهاء الاسلام الذين كان لهم رأى ينافحون عنه ويبرهنون على إثباته بجنان ثابت وعقيدة راسخة وحجة دامغة . وقد كانت وفاة أبى زيد ببخارى سنة ثلاثين وأربعمائة من الهجرة ؟

الجهــــــاد خير كله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب
المفتش العام للوعظ بالأزهر

قال الله تعالى فى محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا . وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما . فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » . إن العزة الغالبة ، والمجد العتيد ، هدفان ، تهفو اليهما كل أمة تحرص على وجودها ، وتستمسك بكرامتها ، وتوثق من عراها :

تحرص على وجودها فى حيوية مشبوبة ، وفتوة مرهوبة ، ومعنوية مدعمة البنيان ، صادقة الوجدان .

وتستمسك بكرامتها فى لغة السيف والقلم ، حاملة علم الحق ، ومدوية بدعوة الحق .

وتوثق من عراها برأب الصدع ، وجمع الشمل ، والتكتل فى ميدان الجهاد ، موحدة الصفوف ، قوية الجبهة ، ناصعة الغرض .

والله جل جلاله ، الذى يريد المؤمنين أعزة فى صولة الحق ، أقوياء فى ظفر الجهاد ، يناديهم ليتخذوا الأهبة ، وليكونوا على حذر ، وليتبصروا أسباب الظفر ، فيكون نفيرهم للجهاد حسب ما تقتضيه عوامل النصر والغلب ، فإن رأوا أن يكون الغزو فى جماعات ، وهو المعروف فى لغة الحروب ، بحرب العصابات ، كان نفيرهم كتائب موزعة بين الأمكنة والأزمنة ، فى ساعات من ليل أو نهار ، فإن فى ذلك اقلاقا للعدو ، وتوزيعا لجبهته ، وتوهينا لقوته .

وإن رأوا أن يكون الغزو فى جمع حاشد ، وجند كثير ، وعدة قاهرة ، فلينفروا كذلك ليشتد الأزر ، ويقوى الساعد ، ويرهب العدو ، ذلكم نداؤه عز شأنه : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات » يعنى جماعات متفرقة سرية بعد سرية « أو انفروا جميعا » يعنى مجتمعين حشدا واحدا ، وبنيانا مرصوصا . فالقرآن يهتف بالمؤمنين : أن يلبسوا لكل حالة لبوسها ، وأن يعدوا لكل ظرف ما يناسبه .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يخرجون لملاقاة العدو فى كتائب ، كما كانوا يخرجون فى جيوش عامرة زاخرة ، ومن أمثلة خروج الكتائب ما حدثنا به التاريخ الإسلامى عن خروج عبد الله ابن عتيك وأصحابه لقتل أبى رافع اليهودى ، وكان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه ، وهو الذى حزب الأحزاب يوم الخندق وكان ممن أعان غطفان وغيرهم من بطون العرب بالمال الكثير على رسول الله .

روى البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى أبى رافع اليهودى رجالا من الأنصار ، فأمّر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان فى حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا من الحصن ، وقد غربت الشمس . وراح الناس بسرحهم ـ يعنى رجعوا بمواشيهم ، فقال عبد الله لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فانى منطلق إلى الحصن ، ومتلطف للبواب ، لعلى أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : ان كنت تريد أن تدخل فادخل فانى أريد أن أغلق الباب ، وقد ظن البواب أنه من أهل الحصن ، قال عبد الله : فدخلت فكمنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق ـ المفاتيح ـ على وتد ، قال : فقمت إلى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده وكان فى علالى ، يعنى كان الناس يجلسون معه فى المساء للحديث والمسامرة ، وكان فى غرفة من داخل غرف الحصن فى أعلاه ، فلما ذهب عنه أهل سمره ، صعدت اليه ، فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل قلت : ان القوم نذروا بى ـ علموا بى ـ لم يخلصوا إلى حتى أقتله ، فانتهيت اليه فاذا هو فى بيت مظلم لا أدرى أين مكانه . فقلت : أنادى ... فاذا أجاب النداء ، عرفت

موضع الصوت ، فأضرب بسيفى ، فناديت يا أبا رافع ، فقال : من هذا ؟ فأهويت بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئاً . . وصاح ، فخرجت فمكثت غير بعيد . . ثم دخلت اليه فقلت ما هذا الصوت يا أبا رافع ، فقال لأمك الويل أن رجلا بالبيت ضربنى قبل بالسيف ، فقال فأضربه ضربة أثخنته ، ولم أقتله ، ثم وضعت ظبة السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره فعرفت أنى قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض فوقعت فى ليلة مقمرة ، فانكسرت ساقى ، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته أم لا . فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت إلى أصحابى ، فقلت النجاء فقد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال لى أبسط رجلك فبسطت رجلى فمسحها ، فكأنها لم أشتكها قط .

أفرأيتم أيها المسلمون هذا المثل الرائع فى الاقدام الحازم ، وفى براعة الحيلة ، وفى الظفر بالعدو لمرضاة الله ورسوله .

ولقد يكون بين المقاتلين جند يتثاقلون ويتباطؤون ويتخلفون عن الصفوف رهبة وخوفا أن تراق دماؤهم وتزهق أرواحهم ، فإن أصاب المسلمين هزيمة أو قتل فرحوا أن لم يكونوا معهم ، وإن فتح الله على المقاتلين بالنصر والغلب ، وأفاء عليهم من فضله بالأسلاب والغنائم تمنوا أن لو كانوا فى صفوفهم ظافرين غانمين ، فذلكم قول الله تعالى : « وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما » .

وهؤلاء ليسوا من صدق الجهاد ، ولا من قوة العقيدة ، ولا من سلامة الإيمان فى شىء . ولعل آية التحذير السابقة فى قوله تعالى « خذو حذركم » توقظ فى المؤمنين قوة الانتباه لهؤلاء ليحذروهم كما يحذرون الأعداء .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » ليقاتل فى سبيل الله المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة . ولا يكن منهم تردد ولا بطء ولا استرخاء ، فإذا تردد المذبذبون أو تباطأ المضطربون مرضى القلوب ، وضعاف

النفوس . أو استرخى فى الكفاح حفنة من الناس مدخولة ضمائرهم ، زائغة عقائدهم ، زائفة إرادتهم ، فليقبل الثابتون ، وليقدم المخلصون ، وليظفر بنصر الله الأعزة الغالبون ، ففى سبيل الله ما يبذلون من أنفس ودماء وفى سبيل الله ما يلاقون من تضحية وابتلاء ، وفى سبيل الوطن ما يقدمون وما يفتدون . وما يجادلون ويجاهدون « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

هذا وعد الله الصادق الذى لا يتخلف للمجاهدين المخلصين فإنهم إن قتلوا فلهم الشهادة ، وما يتبعها من حياة عند الله ، فيها عزة وفيها رضوان ، وفيها رزق طيب كريم .

« ولا يحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم « أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وإن عادوا ظافرين ، فلهم عزة الغلب ، ونصرة الوطن ، وإعلاء كلمة الله .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مثل المجاهد فى سبيل الله ـ والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله ـ كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه سالماً مع أجر وغنيمة » وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« والذى نفسى بيده لا يكلم أحد فى سبيل الله ـ والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ـ (يعنى يجرح) إلا جاء يوم القيامة واللون لون دم ، والريح ريح المسك » وعن النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس رضى الله عنه قال « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » .

أما بعد ، فإن هذا التوجيه الحكيم من العزيز الحكيم ، ومن المجاهد الأول سيدنا رسول الله ، ليهيب بالمؤمنين أن لا يضعفوا ولا يستكينوا ، وأن ينتصروا لدينهم ولوطنهم بالبذل والتضحية ، فذلك أسمى كرامة ، وأهدى سبيلا .

والله الموفق . . والمستعان .

الشعر والحروب الصليبية

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض هلال
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٣ —

ويقول صاحب النجوم الزاهرة أيضاً « ويعجبنى قول البارع كمال الدين على ابن النبيه فى مدح مخدومه الملك الأشرف لما حضر مع أخيه المعظم إلى دمياط :

للذة العيش أفراح وأوقات ... فانشر لواء له بالنصر عادات
دمياط طور ونار الحرب موقدة ... وأنت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ... ولا تخف ما حبال القوم حيات

ونجد ابن النبيه قد استغل قصة موسى فى حديثه عن نصر الأشرف موسى أعظم استغلال ، فتحدث عن الطور والنار والميقات ، كما تحدث عن العصا والحبال والحيات ، وهذا اهتبال من الشاعر للفرصة السانحة من تسمية الممدوح موسى وحربه للكفرة وانتصاره عليهم ، وتلك عادة شعراء هذا العهد وهجّيراهم ، ونجده عاد بذاكرته إلى يوم صفين وفصّل ما ألحق ممدوحه بأعدائه من صنوف التعذيب وألوان الخذلان من قتل وسلب وسبى وغير ذلك مما كان ناراً محرقة على الكفر وهى على الإسلام جنات قال :

تذكروا يوم صفين وما لقيت ... من حد سيفك عرفا والقليعات
قتلا وسبياً وأسراً وانتهاب ثرى ... لله كم أحسنت تلك الإساءات
شننتها غارة كالنار محـــرقة ... للكفر وهى على الإسلام جنات
لله من ثغر دمياط وبرزخها ... فتح له تفتح السبع السموات

وقد سجل ابن عنين الشاعر الهجاء فى هذا العهد ذلك النصر الرائع حين امتدح الأشرف أيضاً وذكر بلاءه فيه حين قال :

قسما بما ضمت أباطح مكة ... وبمن حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى بنصر محمد ... لرقى على درج الخطيب الأسقف

ويردد هذا المعنى نفسه فى قصيدة أخرى فيقول :

لولاك لانتقضت عرا الإسلام فى ... مصر وأخمل ذكره وتبدلا
وتحكمت فيها الفرنج وغادرت ... أعلاجها محراب عمرو هيكلا
لقد اتقيت الله حق تقاته ... ونهجت للناس الطريق الأمثلا

ولا يكتفى ابن عنين بالحديث عن يوم دمياط فى مديحه للأشرف موسى غير مرة بل يعود فيبرزه فى رثائه للمعظم عيسى ويقول :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا ... عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو ونت عزماته ... عن نصرها لتحكمت فيها العدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة ... تجتاب ما بين البقيع إلى كدا

وأى نصر هذا الذى لو ونى عنه المعظم عيسى وهو فى مصر لأغارت خيل الفرنج ما بين البقيع إلى كدا وهما فى مدينة الرسول عليه السلام ؟ ثم أى نصر هذا الذى يشغل ابن عنين عما انطبعت عليه نفسه من حب للهجاء وإيثار له ؟ والحق أنه كان لبنى أيوب مواقف إسلامية تلهج ألسنة الشعراء بالثناء والمدح ولو كانوا لا يسيرون فى ركابهم ولا يدينون بملكهم وليس أدل على ذلك من حديث عمارة اليمنى وهو الشاعر الفاطمى الذى يذكر من أسباب قتله رثاؤه للفاطميين بقصيدته التى يقول فيها :

رميت ياموت كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حلى الحسن بالعطل

يذكر لبنى أيوب هذه المنقبة ويسجلها لهم فيقول :

من شاكر والله أعظم شاكر ... ما كان من نعمى بنى أيوب
طلب الهدى نصرا فقال وقد أتوا ... حسبى فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارها ... عز القوى وذلة المغلوب
وجلوا عن الإسلام فيها كربة ... لو لم يجلّوها أتت بكروب

وهكذا نجد الشعراء تفاسحوا فى الحديث عن يوم دمياط ودفع الكفر عنها وما كان يدفعهم إلى ذلك إلا العاطفة الدينية التى أخذت شكلا واضحا عنيفا فى عهد الأيوبيين .

* * *

ولعل بيت المقدس قد لقى من عناية الشعراء حظا وافرا لا يقل عن حظ دمياط إن لم يرب عليه لأنه كان ـ وما يزال ـ محط أنظار الفرنجة ومهوى أفئدتهم ، ولعلى مستطيع أن أعرض للقارىء الكريم ، صورة واضحة عن هذا الاحتفال العظيم من الشعراء بفتح بيت المقدس ، والذود عن القبلة الثانية للمسلمين فأقول : لما فتح صلاح الدين بيت المقدس فى سنة ٥٨٣ هـ فرح المسلمون فرحا عظيما كاد ينسيهم كل شىء . وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء ولقاء الأكابر والعظماء ، وأخذ الشعراء ينشدون ويستنشدون وهم وقوف ، فمن ذلك ما قاله ابن الساعاتى مهيبا بالشعراء أن يتقاولوا فلا عذر لهم ، وقد أصبح مكان القول ذا سعة بعد فتح بيت المقدس وترى الشاعر يرجع بذاكرته الى عهد عمر بن الخطاب ، فيتمنى لو شهد خليفته صلاح الدين كيف أبلى فى سبيل الله . قال :

أعيا وقد عاينتم الآية العظمى ؟   لأية حال تذخر النظم والنثرا
وقد ساغ فتح القدس فى كل منطق   وشاع الى أن أسمع الأسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب   وأطرب ذياك الضريح وما ضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها   فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أعيا دواؤه   وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما   وألسنة الاغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشى عن سطواته   فما كان إلا ساحلا صادف أليما

وترى ابن الساعاتى يعيد الحديث عن بيت المقدس ويذكر فضل صلاح الدين فى الذياد عنه واستجابته الى شكايته التى طال عليها الأمد دون أن يجد من تدفعه نفسه المؤمنة الى الأخذ بناصره غير صلاح الدين . استمع إليه يقول :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا فلقين طودا لا تخف أناته
هو منقذ البيت المقدس بعدما طالت - فما وجد الشفاء - شكاته
بيت تأسس بالكون وإنما عند الزحاف تحركت سكناته

ونجد الشاعر أبا على الجوينى المقيم بمصر يردد هذه الشكوى فى قصيدة له اشتملت على ذكر ملوك الإسلام وإهمالهم بيت المقدس تسعين عاما حتى تجرد له صلاح الدين وفتحه ، وجاء فى أول هذه القصيدة قوله :

جند السماء لهذا الملك أعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا

وبعد أن عرض لكثير من الملوك الذين أصموا آذانهم فلم يستمعوا إلى هذه الشكاية ، مضى إلى غرضه من تلبية صلاح الدين لهذه الدعوة ، وغلا فذكر أن هذا الفتح لو كان فى عهد النبي صلوات الله عليه لكان له الشرف الأسنى بنزول القرآن فيه فقال :

فالآن لبى صلاح الدين دعوته بأمر من هو للمعوان معوان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبي لقد تنزلت فيه آيات وقرآن

ولم يقف حديث الشعر عن فتح بيت المقدس عند الشعراء المصريين والشاميين بل تجاوزهم إلى شعراء الأندلس ، فلابن جبير الأندلسى شعر فى صلاح الدين يهنئه فيه بهذا النصر فيقول من قصيدة مطلعها :

أطلت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر

ومنها :

كسرت صليبهمو عنوة فلله درك من كاسر
وأدبر ملكهمو بالشآم وولى كأمسهم الدابر
فتحت المقدّس من أرضه فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الدائر

فأما العماد الأصفهانى كاتب صلاح الدين وشاعره والذى حضر معه أكثر حروبه ، فله فى وصف غزواته قصائد كثيرة ، وقد كان لفتح بيت المقدس منها نصيب وافر وحظ عظيم ، من ذلك قصيدته التى بدأها بقوله :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا ... وتعتاض من ذكراكمو وحشتى أنسا

وفيها :

فلا يستحق القدس غيرك فى الورى ... فأنت الذى من دونهم فتح القدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم ... فطهرت بالرجس الذى ذهب الرجسا

وهى قصيدة طال فيها نفس العماد وأطاف فيها بكثير من فتوح صلاح فى طبرية وعكا وصيدا وغيرها ، وأشعار العماد فى بيت المقدس وغيره من فتوح صلاح الدين كثيرة كثرة مدائحه له ولأبنائه . للبحث تكملة

ذخائر وذكرى

أوصت امرأة عون بن محلّم الشيبانى ابنتها حين احتملها زوجها الحارث بن عمرو فقالت :

أى بنية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا .

يا بنية : احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرا ، الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح والكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود والتعهد لوقت طعامه والهـــدوء عنه عند منامه فإن حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة ، والاحتفاظ ببيته وماله والإرعاء على حشمه وعياله فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره وإن عصيت أمره أوغرت صدره . ثم اتقى - مع ذلك - الفرح إن كان ترحا والاكتئاب عنده إن كان فرحا فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير .

تنظيم الحرب والسلام

للأستاذ الدكتور محمود فياض

المدرس فى كلية أصول الدين

— ٢ —

٣ — يجب أن تعقد المعاهدة عن رضى واطمئنان ، واختيار تام من طرفى العقد ، وألا يصحب عقدها ضغط ، أو يشوبها إكراه مادى أو معنوى ، فإذا جدت ظروف ساعدت غير المسلمين على فرض معاهدة على المسلمين ، تحت ضغط السلاح أو فى ظل قهر الظروف المحيطة بالمسلمين مثلا ، وأرغم المسلمون على قبولها لذلك . فمن حقهم إذا زالت الظروف القاهرة ، بل من واجب المسلمين إذا أنسوا من قوتهم أن يفسخوا هذه المعاهدة . كما حدث بين أمير المؤمنين معاوية والروم، إبان الحرب الأهلية بين أمير المؤمنين على وأمير الشام معاوية ، وضغط ظروف الحرب الأهلية على معاوية ، الأمر الذى حمله على أن يصالح الروم على مال سنوى يدفعه إليهم ، فلما خلص الأمر لمعاوية ، واستقامت أموره ، والتفت حوله الأمة ، ألقى الى الروم بعهدهم ، وجالدهم على السيادة ، وذلك لأن هذا العهد مع ما شرطه للروم من جزية على المسلمين يناقض أصلا من أصول الإسلام ، وهو العزة والسيادة التى أوجبها الله للمؤمنين ، وإذا كانت الضرورة قد أكرهت معاوية على قبول هذه الذلة ، فالضرورة تقدر بقدرها ، وإذ لا ضرورة فلا رخصة ، وقد وجب الرجوع الى الأصل ، ويلحق بهذا أمر آخر وهو إذا انتهز العدو فرصة ضعف للمسلمين فهاجمهم واحتل أرضهم ، وأملى عليهم شروطا تحت ضغط السلاح ، وأكرههم على قبولها بأسنة الحراب ، فمن واجب المسلمين متى شعروا بقوتهم ، أن ينبذوا هذه المعاهدة ، لأن الرضى والاختيار ، ضروريان لصحة المعاهدة ، وشرطان للوفاء بالتزاماتها ، فإذا انعدما وقعت باطلة ، وعلى هذا فكل معاهدة تكون نتيجة لقسوة ظروف المسلمين ، أو التى تمليها قوة عسكرية على المسلمين ، تقع باطلة غير واجبة

الاحترام ، والوفاء بها مؤقت وفسخها واجب عند تقوى المسلمين ، وتقدير ذلك يرجع الى أهل الحل والعقد من المسلمين .

٤ — يجب أن تكون المعاهدة واضحة النصوص فى تحديد التزامات كل من المتعاقدين ، وأن تكون ألفاظها مفهومة للطرفين محددة المعانى باتفاقهما ، حتى لا يكون هناك مجال للخديعة بالتأويل والتخريج فيذهب كل منهما فى ذلك المذهب الملائم لمصالحه فحسب ، وعلى هذا فكل معاهدة يشوبها غموض ، يفسره كل طرف تفسيرا مغايرا لتفسير الآخر ، تقع باطلة ، فإذا جاء نص أو كلمة غير محددة المعنى والمفهوم ، وأمكن فهمها على غير وجه واحد ، كالألفاظ المرنة التى نسمعها اليوم مثل « توقع الخطر . توقع حرب مفاجئة . خطر الحرب . حالة حرب محتملة ، دفاع مشترك ، ترقية المتأخرين أو المساعدة على التمدن ، والوصاية للنضج والتأهل لحكم نفسه » وغير ذلك من العبارات التى لا يضبط معناها ضابط ، ولا تخضع لمفهوم واحد محدد عند الجميع - إذا جاء نص أو كلمة من هذا القبيل فى معاهدة أبطلها ، لأن النص فى المعاهدة يوجب التزاما ويرتب أحكاما ، ولا يمكن فرض الالتزام ، وترتيب الأحكام ، على نص محتمل (مرن) يذهب الناس فى معناه كل مذهب .

٥ — إذا عاون المعاهد عدوا للمسلمين ضدهم ، بأى نوع من المعونة مادية ، كانت أو أدبية ، فقد نقض المعاهدة ، وذلك كما إذا قدم المعاهد لعدو المسلمين سلاحا أو رجالا ، أو سهل له المرور إلى أرض المسلمين ، أو شجعه بالقول ، أو حرضه أو حسن له العدوان على المسلمين ، أو أمده بمعلومات عن المسلمين وعن قوتهم ، أو أطلعه على عورة من عوراتهم أو اطلعه على أمر ، أى أمر لا يعرفه العدو ، من الأمور التى يمكن للمعاهد معرفتها عن المسلمين بمقتضى معاهدته ، وأمن جانبه . كل فعل من هذه الأفعال نقض للمعاهدة ، والمسلمون بعد ذلك فى حل من حرمته ، وقد أفتى الامام الأوزاعى رضى الله عنه والإمام الليث بن سعد رضى الله عنه بذلك استنادا إلى صريح القرآن وفتوى لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد سئل الإمام الأوزاعى عن حكم الله تعالى : « فى قوم صالحوا المسلمين . ثم أخبروا المشركين بعورتهم ، ودلوهم عليها » فقال : « إنهم . إن كانوا أهل ذمة فقد نقضوا عهدهم ، وخرجوا من ذمتهم فأن شاء الوالى قتل وصلب . وإن كانوا صلحا

(معاهدين) لم يدخلوا فى ذمة المسلمين نبذ إليهم الوالى على سواء . « فأن الله لا يحب الخائنين » . ولما اشتكى أمير حمص عمير بن سعد بن عبيد الأنصارى لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أن أهل عربسوس - وهى بلدة كانت بين المسلمين والروم فى الشام - يطلعون الروم على عوارت المسلمين ، ولا يظهرون المسلمين على شيء من عوارت الروم (يتجسسون لحساب الروم على المسلمين) وأنه لا يدرى ما يفعل بهم وقد عاهدهم . فأمره عمر أن يعرض عليهم أخذ ضعف ممتلكاتهم فيها ويرحلون عنها . فإذا رفضوا أمهلهم سنة ثم أجلاهم عن بلدتهم وخربها وعرضهم بعد ذلك(١).

وأنه ليعجبنا ويطربنا الفقيه المصرى الامام الليث بن سعد عندما استفتى فى أمر أهل قبرص الذين يوادون الروم ، ولا يتوقع المسلمون منهم الوفاء بالعهد . فقد أفى بنبذ العهد وطرحه طرح النواة من الفم بقوة إعلانا لقوة المسلمين بمجرد الاتهام وتوقع الغدر لأن الله يقول : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » ولم يقل لا تنبذ إليهم حتى تستيقن خيانتهم وغدرهم ، مع عدم مبادرتهم بالحرب قبل إعلان النبذ وفسخ المعاهدة ، والسر الذى حمل الإمام المصرى على الفتوى بإعلان فسخ المعاهدة لمجرد اتهام المعاهد . هو أن المعاهد بحكم الأمان وما تفرضه المعاهدة قد يطلع على مالا يمكن للعدو أن يطلع عليه عن أسرار المسلمين ، فإذا حامت الريبة حوله ، أو بدى منه التودد لعدو المسلمين ، فأنه حينئذ يصبح غير مأمون ، وبالتالى يصبح المسلمون معرضين لخطر أفشاء أسرارهم لأعدائهم ، ولهذا وجب عليهم فسخ هذه المعاهدة التى تجر عليهم الأخطار ، دفعا للخطر عنهم ، وحرصا على كيانهم ، والأخذ فى إعداد ما يواجه الظروف المحتملة (٢) ، أى مجرد التشكك فى نوايا المعاهد وسلوكه موجب لفسخ عهده .

ويقول الفقهاء بعد ذلك : إننا إذا نبذنا عهد الخائنين أو المتوقع خيانتهم ، وجب علينا إمهالهم من غير هجوم أو مدا همة حتى يبلغهم نبأ الفسخ ويتمكن رئيسهم من إبلاغ ذلك إلى أطراف مملكته إن أوجب الفسخ حربا ، والغرض من ذلك الترفع بالمسلمين عن الغدر والخيانة وأخذ العدو على غرة وهو آمن لمعاهدته ، ثم إعطاؤه فرصة كافية يتمكن فيها من التروى والمشاورة عسى أن يثوب ويتوب ،

(١ ، ٢) فتوح البلاذرى ص ١٦٠ - ١٦٤

ويجنح إلى السلام ، أو يلق المسلمين وهو عالم بانكشاف أمره وخيانته ، فيكون ذلك من أسباب ضعفه فى الميدان ، ومن عوامل النصر للمسلمين .

هذه شروط يجب تحققها فى كل معاهدة ، ولا تكون المعاهدة ملزمة للمسلمين ولا يجب الوفاء بها واحترامها إلا إذا تحققت فيها هذه الشروط ، وسواء فى ذلك . أكانت المعاهدة منشئة لحالة السلام كأن تكون بعد هزيمة العدو فى حرب مع المسلمين ، أو مع عدو لم ينهزم فى الحرب ولكن طلب منا السلام ، أو أجابنا إليه أو كانت المعاهدة امتدادا لحالة السلام . كان تكون مع قوم لم يحاربوا المسلمين ، ورغبوا فى السلام مع البقاء على دينهم ودفعهم الجزية ، والأصل فى هذه الشروط النصوص القرآنية التى أشرنا إليها عند كل مناسبة ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم « كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل » .

وبعد ، فقد رأيت أيها القارىء كيف يعنى الاسلام بالدعوة الى السلام ، وكيف أنه لم يدع بابا يوصل الى السلام ، والمحبة بين بنى الانسان . إلا وقف به ، ودعا الناس إليه ، ثم رأيت كيف نظم حالة السلام وأقامها على أسس قويمة تضمن للمسلمين سيادتهم وعزتهم فى بلادهم ، وعرفت رأيه فى المعاهدات التى تنظم السلام كما عرفت غايته منها ، والشروط التى يراها واجبة للوفاء بالمعاهدات ، وفى الكلمة الآتية أحدثك عن حالة الحرب ، وأصولها ونظمها فى نظر الاسلام ، والله يهدينا الى سواء الصراط وبه نستعين ؟

من كلامه صلى الله عليه وسلم

من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . نعم الرجل الفقيه فى الدين : إن احتيج اليه نفع ، وإن استغنى عنه أغنى نفسه .

لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

من جهادنا الماضى :

الفـــدائيون (١)
والمشاكل الدولية

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على شعوط
المدرس بكلية اللغة العربية

كانت عجلات الزمان تقطع أشواطا بعيدة فى مسيرها ، والليالى تمضى سراعا ، وأحداث التاريخ تتدافع تدافع السيول من قنن الجبال حتى تلبد شعور الناس ، وخمد إحساسهم بما هم فيه من مكروه .

واستيقظ أهل بغداد فى مستهل عام ٦٥٦ ﻫ ليجدوا حصارا محكما ضرب حول ديارهم وقد أصدر « هولاكو » زعيم المغول أوامره باستعمال العنف والقسوة للإرهاب والتخويف ليحقق لأهل العراق ما عرفوه عنهم من بأس وشدة ، ووحشية صارخة فى القضاء على الأمم والشعوب .

ولم تكن إلا ليال حتى سقط الخليفة المستعصم العباسى قتيلا بأيدى البغاة ، ومرت يد الزمن بالممحاة لتطمس اسم بغداد من حواضر العالم الإسلامى ؛ فأصبحت عاصمة دولة وثنية قبضت على زمام الأمور فى العراق بأيد من حديد ، وعفى الزمان على تاريخها المجيد . ولمع اسم « هولاكو » حاكم دولة المغول فى العراق على صفحات التاريخ ؛ وقد أطل على العالم الإسلامى من هضاب أرمينية فوقع فى نفسه أن يفتح هذه البلاد مبتدئا بالشام ومصر حتى يفرغ من جميع القوى الإسلامية الموجودة فى ذلك الحين .

وكانت مصر والشام تحت سلطان المماليك الذين أثبتوا لأنفسهم بطولة فذة ، وخلدوا على صفحات التاريخ أنهم أول من استطاع هزيمة المغول فى الشرق والغرب ، وأظهروا لأوربا أنه من الممكن التغلب على تلك الوحوش الضارية بعد أن سبقها الرعب هناك فمهد لها تسلم البلاد من السكان المذعورين .

---

(١) راجع رسالة كاتب المقال وموضوعها (علاقة المماليك فى مصر بالمغول فى فارس)

وبعد أن أصبح للمغول دولة وثنية فى العراق تاخمت حدود الدولة المصرية فى أراضى الشام كان لابد من وقوع نضال دام مرير فى حرب ضروس تكمن فى نتائجها الحاسمة الغلبة لأى الفريقين وافتتح عهد النضال فتكسرت النصال على النصال فى مواقع « عين جالوت » بين « كتبغانوين » قائد جيوش المغول من قبل « هولاكو » وسيف الدين « قطز » سلطان المماليك ، « وأبلستين » بين « البغا » ملك المغول فى العراق والسلطان الظاهر « بيبرس » ثم « مرج الصفر » بين « غازان » والناصر محمد بن قلاوون .

وكل هذه المواقع كانت فى جانب المماليك على المغول ، وكانت تحدث أحيانا مواقع تظهر فيها قوة مغول العراق على سلاطين مصر مثل موقعة « وادى الخزندار »

واستمر النضال عنيفا بين الدولتين نيفا وستين عاما دون أن تحدث الموقعة الحاسمة فيقضى على أحد الخصمين ؛ ومل الفريقان طول العداء والبغضاء ، واستنفد كل منهما جميع الأساليب ، وضروب الحيل فى إلحاق الهزيمة بغريمه حتى لقد دخل المغول فى الإسلام ليكسبوا عطف المسلمين فى العراق فلا يكون هواهم دائما مع المصريين . ثم حاولوا أن يجعلوها حربا دينية لينتصروا على سلاطين مصر والشام .

ولكن كل ذلك لم يحقق الهدف الذى قصدوا إليه ، وطال الزمن بالعداء والبغضاء بين الدولتين ، وبذل المصريون ما فى وسعهم لتوجيه الضربة القاضية ليطردوا هؤلاء القوم من أرض العراق فطال بهم الزمن كما طال بالمغول ، وكان لا بد من عمل حاسم يكفل النصر ويؤدى إلى الهدف المقصود ؛ فلم يكن هذا العمل مما يحدث فى ميادين القتال من اعداد العدة ، والاحتفال بالحشود الجرارة فى لقاء الأعداء ، وإنما كان عملا يهدف إلى القضاء على الرءوس المدبرة ، وقتل الرجال الأكفاء الذين لهم شأن فى دولة المغول اغتيالا بأيدى الفدائيين الذين وطنوا أنفسهم على الاستشهاد فى سبيل هذه الغاية .

وإنما عرف الفدائيون بهذه التسمية لأن كل واحد منهم جعل حياته فداء لفكرة اختمرت فى ذهنه فآمن بها إيمانا يسعده الموت فى سبيلها ، سواء كانت فكرة وطنية أو دينية أو اجتماعية .

وقد جرت العادة فى الأمم القديمة والحديثة أن يلجأ إلى نظام الفدائيين بعد استنفاد جميع الوسائل فى التغلب على الخصوم ، أو العجز عن الحصول على الحقوق المهضومة .

وذلك لأن الفدائى وحده إذا وفق فى مهمته يفعل ما لا يفعله جيش جرار بعتاده وأسلحته ، لأن الجيش يمكن الاحتراس منه بدفعه ومقاومته ، ويمكن العلم بتحركاته وتجمعاته فيتخذ الاحتياط بما يفسد على العدو خططه ، ويحبط تدبيره ولكن تحركات الفدائيين خفية ويمكن كتمانها ، ومن السهل أن تظل سراً مكتوما لا يصل إلى الأعداء مهما طال الزمن لأن قلة العدد والتفانى فى سبيل الفكرة ، وبذل الحياة رخيصة للقضاء على العـــدو ، كل ذلك يجعل فتك الفدائيين بالأعداء لا يحتمل .

والفدائية ذات أساليب شتى لا تكاد تحصى لأنها ترجع إلى النهج الذى يضعه الفدائى لنفسه فى خدمة القضية التى يعمل لها ، فتارة يجد الفدائى أن طريق الفتنة والتفريق بين صفوف الأعداء هو أنجع ضروب الفدائية ، كما فعل نعيم بن مسعود رضى الله عنه حين اتخذ أسلوب الإيقاع بين قبائل العرب فى موقعة الأحزاب ، فكان بعمله هذا فدائيا بارعا ، وتارة يبدو للفدائى أن طريقه الوحيد هو المغامرة بحياته دون سلاح كما فعل الزبير بن العوام فى فتح مصر حين ألقى بنفسه من سور حصن بابليون على حامية فى الداخل ليوقع الذعر فى نفوس الحراس فيحملهم على التسليم فكان بهذا من أبرع الفدائيين .

والتاريخ الإسلامى غنى بهذه المثل ممن باعوا أنفسهم فى سبيل الله ليخلدوا تاريخهم على صفحات الزمن .

وفى العصور الحديثة نجد أن الدول الصغيرة المستضعفة التى كانت هدفاً للاستعمار والاستغلال حين عجزت عن مقارعة الجيوش ومنازلها فى ميادين الحرب المنظمة لجأت إلى حرب العصابات ونظام الفدائيين ، ووجدت أن هذا النوع من المقاومة والمناضلة هو ما ينبغى أن يلجأ إليه ضعيف عاجز أمام قوى غاشم ، وأدركت أن سر نجاح الفدائيين فى تقريب آماد الخلاف بين الدول المتحاربة هو أن يعمد إلى تهديد الرءوس المدبرة والقادة الذين بيدهم مصاير الأمور فى حياتهم وتعقبهم فى حصونهم ومخابئهم ، والوصول إليهم من وراء الحجب الغليظة ، والعيون الساهرة ، والحراس شاكى السلاح ، وهم بيدهم وحدهم إعطاء الحق لذويه ، فطالما كانوا فى حرز من سهام الفدائيين وفى مأمن من العدوان على حياتهم ، فهم يقذفون

بالجنود فرقا وكتائب إلى ميادين القتال لتقضى على حركات المقاومة وتقتل الروح الوطنية فى مهدها كلما حاولت عن نفسها دفاعا .

ولقد عرفت مصر فى القرون الوسطى نظام الفدائيين ، واستغلته فى حروبها مع المغول رغم انتصار جيوشها فى كثير من المعارك الحربية حينذاك ، ولكنها ملت التمادى فى الحروب وسئمت التعبئة العامة فى كل حين فعمدت إلى أسلوب الفدائية باستخدام جماعة من الفدائيين لتحقيق الهدف والوصول إلى الغاية .

ونظام الفدائيين فى تلك العصور كان محصورا فى جماعة الأسماعيلية الذين كانوا يدربون على هذا النوع من الحروب فى حصن الموت ، وقلعة مصياف فى شمال العراق وأرمينيه ، ويعرضون أنفسهم بعد ذلك على الدول المتحاربة لتقديم الخدمات والقيام بأدوار هامة فى الأحداث التاريخية فى تلك العصور .

ورغم انتصار المماليك انتصارا باهرا فى معركة « تل شقحب » المعروفة « بمرج الصفر » فى مطلع القرن الثامن الهجرى فان هذا النصر لم يحمل حكام المغول فى العراق وفارس على مسالمة المصريين ، والخضوع للأمر الواقع فأخذوا يعدون أنفسهم للقاء جديد ، ويستقبلون بالتكريم كل متمرد على الدولة المصرية من أمراء المماليك ، أو من عرب آل مهنا وآل فضل المتاخمين للشام والعراق .

وتعقدت الأمور ، واشتدت المشاكل ، وبدت فى الأفق البعيد عقبات كأداء فى طريق الصلح بين الدولتين ، فكان لابد لسلاطين مصر من تقصير هذا الطريق بإلقاء الرعب والفزع فى قلوب المدبرين لدولة أبى سعيد بالعراق وتهديدهم فى حياتهم داخل قصورهم وبين يدى حراسهم الأقوياء .

ونحن ننقل عن كتاب السلوك للمقريزى (١) أن الناصر محمد بن قلاوون أرسل فى عام ٧٢٠ هـ ثلاثين فدائيا ممن دربوا تدريبا كاملا على إصابة الهدف فى الهجوم الخاطف بالخناجر والسيوف ، وأجادوا فنون التنكر فى أزياء مختلفة إلى العراق لاغتيال الأمراء الفارين من مصر والقضاء على حياة السلطان أبى سعيد بن خدابندا ونواب الدوله وكبرائها ليحملهم على تحقيق أغراضه . فلما اشتهر أمر الفدائيين فى عاصمة العراق ، وعرف أنهم حضروا من مصر لقتل السلطان أبى سعيد ونائبه الأمير جوبان ووزيره « على شاه » والأمير قراسنقر الذى فر من مصر وكان عينا على

(١) السلوك ج ٢ - ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

المصريين فى العراق . وقع الرعب والذعر فى قلوب القوم واضطربت أعصابهم فكلما أمعنوا فى الاحتياط ، وبالغوا فى التحفظ داهمتهم الوساوس والهواجس [يحسبون كل صيحة عليهم] . ويشكون فى المخلصين حولهم حتى اختبأ السلطان فى قصره أحد عشر يوما لا يكاد يقترب من نافذة ولا يمر أمام باب ، ولا يدخل عليه أحد إلا بعد امتحان واختبار .

اضطربت أعصاب السلطان والأمراء والوزراء وأيقنوا أنهم مقتولون لا محالة بأيدى الفدائيين الذين أرسلهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فأرسل الى تاجر مصرى كان يتردد على العراق كثيرا ، وبذل جهدا كبيرا فى الصلح بين الدولتين يسمى [مجد الدين إسماعيل بن محمد السلامى] وكان يلى وظيفة تاجر الخاص فى دولة الناصر محمد بن قلاوون .

أرسل إليه أبو سعيد بن خدابندا سلطان المغول فى العراق ، وشدد عليه النكير وقال له : [والك ! أنت كل قليل تحضر إلينا هدية وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحب مصر لتمكر بنا حتى تقتلنا الفداوية والاسماعيلية وأمر بالقبض عليه] [1] ثم انتشر بعد ذلك خبر فدائيين جدد قاموا بحركات اغتيال فى بغداد فوقع المغول فى أمر مريج ، وأخذت عليهم الطرق فلم يستطيعوا حماية أنفسهم ولجأوا الى هذا السلاح يستعملونه ضد سلطان مصر وأمرائها .

ولسنا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن هؤلاء الفدائيين وما قاموا به من أحداث أقلقت بال المسئولين كانوا عاملا مهما فى تقريب وجهات النظر بين الدولتين ، والتعجيل بإبرام الصلح حتى يأمن الخائفون ويطمئن المذعورون .

ويبدو هــذا واضحا فى شروط الصلح التى قدمت من السلطان أبى سعيد ابن خدابندا سلطان المغول بالعراق حيث جعل المادة الأولى من مواد هذا الصلح [ألا يدخل الفدائيون أرض العراق بأى حال]

وهكذا كان شأن الفدائيين وما يزال شأنهم فى العصور القديمة والحديثة أنهم يصلون من أقرب الطرق الى حل المشاكل الدولية التى استعصى حلها وعجزت القوات المتحاربة فى ميادين القتال عن تذليلها والتغلب عليها ؟

---

(١) راجع السلوك حـ ٢ ص ٢٠٨ .

الصدق والكذب

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لعل من الكلمات المبتذلة فى النطق ، السوقية فى الاستعمال ، كلمتا الصدق والكذب ، والحديث عنهما أشبه بالحديث المعاد ، يمجه السمع ، وينفر منه الطبع ، ويأباه الذوق ، والكاتب فيهما أو فى واحدة منهما يعرض نفسه - من غير شك - لسخط الساخطين من القراء ، لأنه يضيع عليهم من الوقت الكثير ، ويدخل على قلوبهم من الكآبة والألم ، ما لم يمكن نسيانه على تطاول الأيام والليالى ، وأنا شديد الحرص كلما أردت أن أتقدم بمقال إلى مجلة « الأزهر » على أن يكون فيه من الطرافة ما يجعل الناظر يستروح من بين سطوره الراحة والإطمئنان للوقت الذى قطعه فيه ، والدقائق اليسيرة التى أمضاها معه ، وليس ذلك مناً واستطالة ، ولكنى أعتقد أن الأديب يبنى بكل فكرة يبديها ، أو مقال ينشره ، لبنةً فى مجده ، ويضيف شيئا إلى تراث فخاره وعظمته ، فإن أخطأه القصد ، أو خانه التوفيق ، فعذره أنه لم يكن يرجو ذلك ، أو يتجه إليه « وإنما لكل امرء ما نوى » .

ولهذا فإنى لا أعود بهذا العنوان إلى بطون الكتب ، أو إلى اصطلاح اللغويين ، أو مذاهب الفلاسفة فيهما ، أو أثرهما فى حياة الأفراد والجماعات ، ومدى ما يمكن للمصلح أن يستفيد منهما ليسمو بالبيئة التى يحاول أن ينهض بها ، ويرسم من الأمانى والآمال ما يتناسب مع استعدادها وفطرتها ، فكل هذا لا يعدو أن يكون دخولا عليهما من الباب الذى لا أحب الدخول منه . .

وقد لفت ذهنى أن الدين الإسلامى قامت قضاياه كلها على هاتين الكلمتين « الصدق والكذب » فهو لا يكتفى من الناس أن يرددوا ألفاظا تجرى على اللسان دون أن تكون مستقرة فى القلب ، ويرى أثرها عليهم فيما يصدرون من أفعال ، ويأتون من أعمال ، ولهذا نعى سبحانه على المنافقين سلوكهم الذى يسلكونه ،

وبهتانهم الذى يفترونه ، لأنهم يلبسون على المجتمع الذى يعيشون فيه ، والبيئة التى يروحون ويغدون بين ظهرانيها ، ويحدث من ذلك كله أثره السيء فى المعاملات والمعاشرة ... وكان أعنف ما لا قاه صلى الله عليه وسلم وهو يدعو إلى سبيل الله عدم الصراحة والوضوح من أمثال أولئك الذين تحدث القرآن عنهم بقوله « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » . وإنما كان ذلك أعنف ما لا قاه لأن الذى يكون ملتويا فى سلوكه معك ، مبهما فى معاملته لك غامضا فى أهدافه التى يرمى إليها فيما تراه ، غير واضح المعالم بحسب ما يظهر لعينيك يكون المنهج الذى تقضى به الظروف ، والمهيع الذى تحتم المناسبات اتخاذه من أجله بعيداً عن الصواب ، مجانبا للحق ، مجانبا للمصلحة العامة ، لأنك ربما تعامله بمقتضى الظاهر ، ثم تكشف الأيام السود — أو البيض — أن الأشياء موضوعة وضعا لا يليق ، أو مترتبة ترتيبا لا يصح أن يكون ، أموجهة توجيها تختل معه الموازين .

والذى يتتبع السنة المطهرة ، ويستقصى ما كان يدور بين النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين أصحابه رضوان الله عليهم من حوار يعلمون منه فقه هذا الدين ، وضرورة السلوك على مقتضى ما يأمر به من خير ، وينهى عنه من ضر ، يصادفه فيما يصادفه من حديث شهى ، وسمر لذيذ ، ومناقشة لطيفة ، وجدل مهذب ، قول بعضهم له « أيكون المؤمن بخيلا قال نعم . أفيكون جبانا قال نعم . أفيكون كاذبا قال لا . ! » وليس بعد هذا تنفيرا من الكذب ، وكراهية له ، واحتقارا لأصحابه ، ووضعا فى أحط الدرجات ، وأقبح المنازل ... فإن البخل والجبن وهما من الصفات التى تتنافى مع المروءة ، وتتعارض وكمال الرجولة ، وتأباها الإنسانية ، قد يكونان فى المؤمن المسف ، والمسلم الذى تضعف نفسه ، وتخور عزيمته ، وتنحدر همته ... ولكنه لا يصل به التدلى الى درجة أن يكذب ، لأنه لا يستسيغ ذلك ، ولا يرضاه لطبعه ، أو يوافقه عليه ضميره إلا وقد مات إحساسه ، وجمدت روحه ، وبردت فيه نوازع الفضيلة كلها ، وهنالك لا يرجى منه ما يرجى من المؤمن من البر ، ولا يكون أمثاله إلا وبالا على المجتمع ، وفسادا فى الأرض ، وشرا للدنيا ، وفوضى تنتشر جذورها هاهنا وهنالك ...

وإذا صح لنا أن ندير رحي الحديث الى « علم النفس » فإننا لا نشك فى أن هذا الضعف الخلق من الأمراض الخبيثة . . وقد كانت مهمة الإسلام محاربتها بكل وسيلة من وسائل الحرب ، ومقاومتها بأقصى أنواع المقاومة ، ولم يعلم أن هذه الخاصة كانت متفشية إلا حيث كان الناس لا يقيمون وزنا للشجاعة ، ولا يحسبون حسابا للنبل ، ولا يجعلون لمكارم الأخلاق تقديرا بينهم . . وما أظننا ننسى تلك الجملة التى قابلت العرب بها محمدا — هدانا الله بهديه — يوم صعد الصفا والمروة وناداها لكلمة سواء « والله ما جربنا عليك كذبا » ولا ننسى كذلك أن هذا الخلق كان له الأثر الطيب فى نجاح الدعوة . وقد ظل المسلمون فى الصدر الأول يقدسون الصدق ، ويجعلونه عنوان أفعالهم وأقوالهم ، ويباهى أحدهم إذا نبا النبوة . أو فرطت منه الكبوة ، أن يعترف بها ، ويعلن الى الخليفة أو الوالى جريمته فيها ، ليقتص منه ، ويقيم الحد عليه ، حتى لا يجمع بين الإثم بارتكابها وبين الكذب بالتدليس والنفاق فى القلب ، والتمويه فى العقيدة . . .

وفى منثور الحكم « الكذاب لص » . والأريب العاقل يتبين معنى هذه « اللصوصية » فى بعض الزعماء ، وبعض القادة ، الذين يجرون على سنن خاص من السياسة ، ونمط بعينه من الحكم ، لا يمت للصدق ، ولا يتصل بالحقيقة ، ولا ينتسب الى الصالح العام ، غير أنهم يكسونه بطلاء وزخرف يخيل إليك أنهم يتحرون الصواب ، ويتوخون النفع ، ولا يقصدون إلا الجادة المستقيمة ، ثم يظهر لك فيما بعد أنهم كانوا يهدفون الى الغنم الذاتى ، أشبه بالذى يتملق الرئيس أو صاحب النفوذ رجاء أن يحصل على زلفى عنده ، أو درجة لديه . فإذا ذهبت السكرة وجاءت الفكرة بأن اللص والمسروق ؟

من معاملة الخدم فى الاسلام

قال عبد الله بن عمر : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ثم قال : اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة .

سورة الأنفال

لفضيلة الأستاذ محمود جميلة

المدرس بكلية اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم :

هى سورة مدنية ، مدنية فى نزولها ، ومدنية فى أحداثها ، ومدنية فى مرماها ومغزاها ، ومدنية فيما تناولته من أهداف ، ولم يكن لها مع مكة سوى آيات العبرة والتذكير بالماضى الحافل بكل ما يؤلم النفوس ويستفز المشاعر ويحرض النفس الأبية على الثورة العنيفة والصرخة المدوية فى وجه الظلم السافر والجور المتأصل : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس (١) فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » . « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين ، وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ، وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ، ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٢) » .

* * *

لقد بذل الرسول الكريم من عمر رسالته ثلاث عشرة سنة يدعو مكة المعاندة ، ويتقدم إليها بكل وسيلة من وسائل الإقناع عسى أن تفىء إلى أمر الله ، فتقلع عن

---

(١) ٢٦ سورة الأنفال .

(٢) ٣١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٤ ، ١٥ سورة الأنفال .

عنادها وترجع إلى ربها ، ولكن القلوب قد أقفلت دون هذا الحق حتى مال ميزان عمر الرسالة إلى ناحية الانتهاء ولم تتقرر العقيدة ولم يثبت الدين ولم تنتشر الدعوة .

وحمل أريج الحق مع الوافدين من طيبه وتضوع هنالك وتفتحت له نفوس أهلها ، وعلم الرسول أن نبتته التى قست عليها صخور مكة فحرمتها التربة والماء ، حتى عجزت عن قيامها وأذبلت نضرتها ـ قد آن لها أن تغرس بأرض طيبة ، تفرع فيها وتثمر وتؤتى أكلها بإذن ربها . وانتقل الرسول الكريم من دار العدوان إلى دار الإيمان وتعهد غرسته فكان البقاء وكان النماء .

أمنت كلمة الله بانتقالها إلى قاعدة الدولة الجديدة ، ووجدت دعوة الحق حرية فى اعتناقها وحرية فى تحملها وتبليغها ، وتدافع الأنصار عليها ينهلون من منهلها ، ويرشفون من رضابها ، وهى فى كل يوم تزداد بالمؤمنين قوة ومنعة ، حقا لقد وجدت الدعوة فى المدينة مؤازرة ومتابعة وحماية ومناصرة ولكن ... !! أيضرب عن أهل مكة صفحا وتولى الدعوة شطرها عنه فتقصد لغيرهم وتربو فى غير نفوسهم ، ويتركون وماهم عليه من ضلال وظلام ، والمكيون برغم صلابة ورثوها من صخور أرضهم ، وانحراف عن الجادة تطاير إليهم من مجاوريهم ، قد امتازوا بالشجاعة والصراحة فيما يقولون ويعتقدون ، لا يعرفون النفاق ، ولا يعرفهم النفاق ، وهذا النوع من الناس أرجى للحق وأنفع للعقيدة وأقدر على حمل اللواء .

وماذا يفعل المؤمنون بقوم تولوا وأعرضوا واستدبروا واستكبروا ، إنه لا بد من قرعة موقظة ، وضربة مرهبة تحول العيون إلى القلوب ، فترى الحق فى قداسته وعلوه ، والباطل فى نذالته ودنوه ، وعند ذلك يكون الفتح المبين ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، أما أن الحق يتخذ العزلة طريقه والبعد سلاحه فهيهات أن يشع له نور أو يبدو له ضياء .

إذن لا بد من مناوشة أهل مكة وقرع الباب عليهم ، ليكون ردهم إلى الحق عن طريق العنف الذى عرفوه والغلبة التى مرنوا عليها ، ولم يكن يخطر ببال أن تكون لغيرهم من خصومهم ، والمغرور بقوته لا تقنعه حجة العدالة ولا دليل الانصاف ولا وخزة الضمير ، وإنما ترده القوة الغالبة والصدمة المطيحة .

وأعلمَ اللهُ رسوله على لسان أمين الوحى ، أن عيرا لقريش من الشام قد كثر مالها وقل رجالها . وأعلم الرسول المؤمنين ، فاشرأبت نفوسهم للقائها وتدافعوا إلى الخروج إليها . رغبة فى الغنم وحبا فى الغلبة مع قلة المؤنة . وهم إذ ذاك لا يجهلون مغبة صنيعهم وعاقبة أمرهم ، وأنهم إن تغلبوا على العير ستخلف هذه الغلبة إحناً لا يَمحي أثرها إلا عمل السيوف وفتك الهام . وما كانت رغبة الظفر بالمال وميل النفس للربح العاجل أن تنسى هذه الحقيقة أو تطمسها أمام هذه العيون المبصرة والقلوب الباصرة . فإذن هو خروج للمال يتعجلون به الرجال ، وأنهم سئموا حياة الدعة والاستكانة ورغبوا فى حياة المجالدة والمجاهدة ، إعلاء لكلمة الله ورغبة فى إنهاض الحق وكبت الباطل ونصرة الإيمان وخذلان الكفر .

وخرجوا للقاء العير وجدّوا فى السير ، والبشر يتلألأ على وجوههم والأمل المحبوب يجلو نفوسهم بهذه النفحة القريبة التى بدأوا بها جهادهم ففيها المال وفيها الامتثال ولم تكن هذه الملاقاة على وزان ملاقاة اللصوص وقطاع الطريق على أبناء السبيل ولكن هو تعرض من جانب الحق لجانب الباطل ليدحضه ، ولفتة من عزة الإيمان إلى ذلة الكفر قد أذن الله فيها لأوليائه أن يتعرضوا لأعدائه ، حتى يبدد نور الحق ظلمة الباطل ، وتعلو كلمة الله وتسفل كلمة الجاحدين .

وتراءت لهم العير وتطلعت نفوسهم إليها . كما جاءهم النذير بتجمع مكة على كل صعب وذلول وخروجها إلى بدر لتنقذ العير وتقضى على من أرادوا أن يقطعوا طريقها ويسلبوا تجارتها ، بعد أن جرحوا دينها وخالفوا عقائدها وشنعوا على آلهتها وتقاليدها . وقبل أن يتسرب إلى النفوس يأس معوق أو خوف مهلك من تردد النفس بين العير والنفير ، نزل وعد الله بإحدى الطائفتين فكانت بشارة سكنت من فزعهم ، كما مدت لهم فى أملهم وكانت حصنا يرجعون إليه إذا ما حزبهم الأمر وضاق أمامهم المسلك ، واشتبك الحق الأعزل بالباطل المدجج ، ووقف الجندى المسلم أمام ثلاثة من أعدائه أو يزيدون ، واهتزت قلوب المؤمنين من لقاء أعداد وعدد ، على حين أنهم قلة عزل فكرهوا الخروج وجادلوا ، وأنساهم الهول أن نصرهم قد تعهد به الله ، وأن فى غلبتهم على قريش رفع لأعلام الحق ونشر لدين الله وتثبيت للمؤمنين وتثبيط للكافرين .

* * *

والتقى الجمعان ، وأمد الله المؤمنين بملائكة مردفين ومنزلين ،وأنزل فى قلوب أعدائه الفزع والهلع وانجلت الواقعة بنصر القلة المؤمنة على الكثرة الجاحدة ، ولما سكنت الهوجاء ودارت رحى الحرب على أعداء الله ووقعت الأسلاب والغنائم فى أيدى المؤمنين ، هنالك غفلوا عن تأييد الله لهم وظنوا أن ما اكتسبوه كان بنضالهم وقتالهم ونسوا أنهم قلة مستضعفة سيقت للخروج كما تساق إلى الله ، وأن أسباب النصر الظاهرية لم يكن لهم منها حظ يؤبه له ، فلقد نصرهم الله ببدر وهم أذلة وقاتل عنهم بأيديهم ورمى عنهم وثبت قلوبهم وأقدامهم وكان عليهم أمام هذا الفضل من الله أن يكلوا إليه جميع أمورهم ومنها أمور الغنائم فى قسمتها أو تمييزها أو فى حلها أو حرمتها ، فقد كانت لا تحل للأمم السابقة وأحلها الله لهذه الأمة .

فى هذا العرس الذى أقامه الله لدعوته وهذا المأتم الذى جعله الله لأعدائه ، تتلفت نفوس مجاهدة إلى عبرة هذا النصر فتدرك أن الحق لا يعجزه إقلال ولا قلة ، وأن الباطل لا ينفعه عدد ولا عدة ، وأن عشرين صابرين شديدى الإيمان بحقهم يغلبون مائتين ، وأن مائة ضعيفة مؤمنة يغلبون مائتين فالحق غالب إذا ما وجد رفقة تحميه وأصحابا تأويه ، أما الباطل فهو هزيل بنفسه وهزيل بصحبه ، براق خداع يتجمع عليه المبطلون يأنسون به ويرفهون بجواره ومتابعته لا تقوم قيامته ولا تنشر أعلامه ولا يصول ولا يجول إلا إذا كان انكسار الحق وانكماشه وزهد أصحابه فيه ورغبتهم عنه فالحق عدد وعدة مع أصحابه لا ينهزم أخوه إلا عن وهن يصاب فيه ؛ أو ضعف يعترى الإيمان به ، وما كان الحق بحاجة إلى من يقيم أمره ويدفع عن حوزته وهو الثابت بتثبيت الله والعزيز بإعزاز الله ، ولكن الله أراد أن يكرم أحبابه فنصره بأيديهم وكشفه بجهادهم ، ونضالهم لتكون لهم الحسنى باشتغالهم بقضيته وبذلهم فى سبيل ذلك أنفسهم وأموالهم .

فى هذه الظروف وبين تلك الملابسات تأخذ سورة الأنفال ، أو سورة بدر طريقها إلى النزول بالمدينة حامله فى آياتها النيف والسبعين ما يكشف عن حقيقة الجند فى الله وما تقتضيه الجندية الإسلامية من حزم وتفويض وطاعة حتى تكون مهبطا للرحمة وموضعاً للمدد والعناية ؟

أبو محجن

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد خليفة
المدرس بالأزهر

بين صليل القيد ووحشة السجن وظلمته ، زفر أبو محجن زفرة كادت تصعق لها روحه ، وتحترق فيها نفسه ، حين حملت إليه الأصداء البعيدة صهيل الخيول ، وصليل السيوف ، وهتاف الفوارس وانتماءهم إلى العشائر والآباء

ومن فوق حصن العذيب ، الذى سجن فيه أبو محجن ، جلس القائد العظيم سعد ابن أبى وقاص موعوكا ينتفض ويشرف على المعركة ، فيرى عدوه وقد حشد كل قواه ليدحر المسلمين ويردهم عن فتح القادسية ، ويرى سعد مع هذا صمود الأعداء أمام الهجمات الجبارة التى يشنها المسلمون فيود ، وهو الموعوك ، لو استطاع النزول إلى المعركة ليصرع عزائم العدو ويدمر قواه وأنى له ذلك ؟

لقد زاغ بصر سعد بين الملحمة الدائرة ، فرأى لجأً من الدم تسبح فيها الجيوش المقاتلة ، فرد الطرف ثم أرسله إلى السماء يسأل ربه النجدة لهؤلاء الجنود الذين وهبوا الحياة لدين السماء ، ونبهه صليل القيود وراءه فالتفت فإذا أبو محجن يثب فى قيده يسأله الفكاك من الأغلال ليخرج مجاهداً فى سبيل الله .

ترى ما هذه الجريمة التى سجن فيها أبو محجن ؟

لقد نشأ أبو محجن فى بيت مترف من بيوت ثقيف ، ترفرف عليه ظلال النعم ويدرج مع لداته الثقفيين بين أعطاف النعيم ، يتنسم أنسام الحرية المطلقة التى تعاف القيود ، ووجد من المال الجم الذى تضفيه عليه جناته ما يحقق لنفسه لذاتها ، فشرب وأسرف فى الشراب ولذَّ له ذلك الإسراف ، وانطلق لسانه بالشعر يصور به مجالس اللهو ، ويصف الخمر وسقاتها ، ويركض مع الراكضين فى ميادين الخلاعة والشباب .

وأسلم أبو محجن ولكنه بعد إسلامه لم ينس ذكر الخمر ، ولم يهجر لسانه ترديد ما قال فيها ، بل ظلت تعاوده ذكريات الشباب ، ومجالس الراح فيهتف بما قال فى جاهليته ، وأخيراً ضاق به عمر ذرعا فضيق الخناق على تلك العاطفة اللاهية ، ولكن أبا محجن لم يكن الضعيف الذى يخشى درة عمر أو يهاب سياطه ، فتسلمه سعد ابن أبى وقاص وأودعه ظلمات سجن العذيب فى بلاد فارس . وطالت ليالى

السجن على أبي محجن ، واخترق جرس الحديد وصليل السيوف جدران السجن إلى سمع أبي محجن ، فاصطكت أنيابه ، وكيف يهجع إلى السكون والمسلمون أحوج ما يكونون إلى رجل له شجاعة أبي محجن لخبا في قيوده ، ووثب حتى طلع فوق الحصن ودلف إلى سعد يستشفعه في حسرة تذيب القلوب : إنه لا يريد الفرار من القيد ولكنه يريد الجهاد في سبيل الله .

ولكن سعداً الذي امتلأ قلبه ضغناً على لهو أبي محجن لم يخضع لاستشفاعه ، فقفل راجعاً يتلوى عليه القيد كالأفعوان وخواطره تهتف :

قد كان كالثعبان رمحك في الوغى ... فغدا عليك القيد كالثعبان
قلبي إلى الرحمن يشكو بثه ... ما خاب من يشكو إلى الرحمن

وانحدر في قيده إلى سجنه ونفسه تتمزق حسرات ، فالتقى بسلمى بنت حفصة ، زوجة سعد بن أبي وقاص ، فهتف بها : يا بنت حفصة هل لك في خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عني وتعيريني البلقاء (فرس سعد) ولله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في القيد فقالت : وما أنا وذلك ، فوثب في قيده وهو يقول :

كفى حزنا أن ترتدي الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عناني في الحديد فأغلقت ... مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وثروة ... فقد تركوني واحداً لا أخاليا
فلله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

فنادته سلمى : إني استخرت الله ورضيت بعهدك وأطلقته وأسلمته البلقاء ، فخرج بها من الباب الذي يلي الخندق وعدا إلى المعركة والتفت المسلمون على صيحة مجلجلة : الله أكبر الله أكبر .

فإذا بذلك الفاتك الملثم يحمل على ميسرة العدو حملة جبارة ، فيزعزع أركانها والمسلمون يرمقونه بأبصارهم ثم يغوص ذلك الفارس في المسلمين حتى يحازي ميمنة القوم فيطلع كالسهم المارق يقد الأعناق ويطيح بالهامات ، فلا يبدو له فارس يخب في صلفه من فوارس الأعداء حتى يهتكه ، وهكذا حتى مزق ميمنة العدو ثم غاص في المسلمين حتى حازى قلب العدو فبرز وأعمل السيف حتى تلاشت عزائم القلب .

وهنا عجب الناس وقالوا من هذا الفارس الذي لم نر أصدق من حملاته ؟ فقال بعضهم : هو من جند الشام الذين قدموا تحت لواء هاشم بن عتبة . وقال بعضهم : إن كان الخضر عليه السلام يشهد الحروب فذلك هو الخضر .

وقال بعضهم : لولا أن الملائكة لا تباشر الحروب لقلنا إنه ملك .

وبهر القواد جميعا وفيهم عمرو بن معد يكرب والقعقاع وطلحة بن خويله .

أما سعد فقد علق بصره بذلك الفارس منذ نزل المعركة وأمسك قلبه بيده . حتى لا يثب فرحا لذلك النصر الذى يكلل به ذلك الفارس تاريخ المعركة وقال : والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء .

وفى ظلمة الليل وقد نكص الفرس على أعقابهم واحتل المسلمون مواقعهم الجديدة ، رجع أبو محجن إلى حصن العذيب فدخله من حيث خرج ورد البلقاء إلى مربطها ووضع رجله فى القيد وهو يقول :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكرمهم دروعا سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الحتوفا
وليلة فارس لم يشعروا بى ولم أشعر بمخرجى الزحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائى وإن أترك أذيقهم الحتوفا

وجاءت سلمى فقالت : يا أبا محجن فيم حبسك سعد ؟ قال : والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته ، ولكننى كنت صاحب شراب فى الجاهلية وأنا امرؤ شاعر ، يدب الشعر على لسانى ، فأصف القهوة وتداخلنى أريحية ، فألتذ بمدحى إياها فلذلك حبسنى لأنى قلت فيها :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

وانطلقت سلمى إلى سعد تقص عليه قصة ذلك البطل العظيم وتتحدث عن جهاده وحسن بلائه فدعا به سعد . وأطلق سراحه وقال : إذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله .

قال : لا جرم والله لا أجبت لسانى إلى صفة قبيح أبدا ، وحرم على لسانه ما كان يهتف به من شعر الخمر .

أيها المتطلعون إلى الحياة الحرة الكريمة التمسوا من هذه الصفحة المشرقة قبسا يضيء لكم سبيل الحرية التى تنشدونها ، واطلبوا الموت كما طلبه أبو محجن توهب لكم الحياة كما وهبها .

واستعيدوا للإسلام ذلك المجد الشامخ الذى شيده أسلافكم بعزائم فلت الحديد ولا يفل حديد الطغيان إلا عزائم تسخر من كل طغيان .

من طرائف القرآن الكريم

لحضرة الأستاذ عبد الغنى عوض الراجحى

هى فى بحثنا هـذا طريقة واحدة ، من هذه الطرائف التى تتعلق بالنظم المتشابه فى القصص القرآنى ، حيث يكون المعنى الأصلى واحدا ، يحكى فى أكثر من موضع ، بعبارات تختلف تقديماً وتأخيراً وذكراً وحذفا ونحو ذلك . فذلك وإن كان يعرف إجمالا ، أن مرده إلى التفنن والتنويع والاختلاف بغير تناقض ، تبعاً لمقامات الكلام المختلفة ، سيما والمعمود إليه حكاية المعانى لا خصوص الألفاظ ، فيغتفر فى الأولى من التصرف ما لا يغتفر فى الثانية . إلا أننا فى هذه المباحث نعرض لذلك تفصيلا جزئية جزئية ، بما لا يدع مجالا للمكابرة ، حتى نجهز على هذه الفرية التى تشدق بها بعض الباحثين ، الذين يردون هذه الظاهرة فى القصص القرآنى إلى أنه عمل أدبى وحبك فنى ، يعتمد على السبك والإخراج ، أكثر مما يعتمد على الصدق والتزام الحاصل فى الخارج .

الطريقة : فى قوله تعالى فى سورة الشعراء فى سائر قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب فى حكاية ما يقوله كل رسول لقومه : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » ، مع قوله تعالى فى سورة يونس قصة نوح فى حكاية قوله لقومه : « فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الذى فطرنى » ؛ مع قوله تعالى فى سورة هود قصة هود « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله » ، فإنه يسأل فى هذه المجموعة من الآيات عما يأتى :

أولا : الذى نفى الرسل أن يسألوه على تبليغ الرسالة كان بلفظ الأجر فى جميع المواضع ، ما عدا قصة نوح فى سورة هود فإنه بلفظ المال ؟ وجوابه : أن لفظ الأجر أشمل وأعم ، وهو الأصل فى مثل هذا المقام ، حتى فيما كان من خاتم الرسل لقومه العرب : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى [1] » ، « قل ما أسألكم

---

(١) سورة الشورى

عليه من أجر وما أنا من المتكلفين [1] » وخصوص التعبير بالمال فى هذا الموضع ، خاصة من قصة نوح ، إنما كان لمناسبة ما فى هذا المقام خاصة من تعبير قوم نوح له باتباع الأراذل الفقراء له . . « ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل » . مع رده عليهم فى قوله : « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » . وقوله « ولا أقول لكم عندى خزائن الله » . يعنى حتى يكون الفقراء اتبعوه ليعطيهم منها الرزق والمال . فكان لفظ المال ، لا الأجر بهذا المقام أمس وأنسب .

ثانيا : فى بعض المواضع من قول الرسل لأقوامهم « أن أجرى إلا على الله » وفى بعضها « رب العالمين » وفى بعضها « الذى فطرنى » ، وجوابه أن لفظ الجلالة هو الأصل لا يسأل عن علته ، أما « رب العالمين » فإنها اطردت فى سائر قصص سورة الشعراء ، ولها امتداد إلى ما فى السورة من غير القصص ، فكان آخذا بعضه بحجز بعض ، وكان سمة بارزة من هذه السمات التى تتسم بها بعض السور القرآنية والتى أطنبنا فى شرحها وتعليلها فى أبحاث سابقة أما « الذى فطرنى » فكانت فى سورة هود خاصة لما سبقها من قوله لقومه « إن أنتم إلا مفترون » فافتراؤهم على الله يقتضى نسبته إلى العجز الذى منه العجز عن كونه فاطراً فيقابله إثبات ذلك .

ثالثا : كان لفظ الأجر فى بعض المواضع منصوبا وفى بعضها الآخر مجروراً بمن الزائدة ، ولا فرق بين الطريقتين إلا ما يقولونه من أن الطريقة الثانية مفيدة لتأكيد العموم ، فإذا علمنا أن سورة الشعراء من أبرز مقاماتها بيان ملاينة الرسل لأقوامهم والحرص على نصحهم مع الإمعان فى ذلك ، علمنا لماذا كانت هذه الطريقة الثانية مطردة فى سائر قصص سورة الشعراء ثم فى قصة نوح خاصة فى سورة يونس [2] ، بله ما فى اطراد التماثل وترادف الصنيع الموحد فى السورة الواحدة من حسن الاتساق وجمال الأداء .

رابعا : فى كل المواضع كان لفظ الأجر مسبوقا بالجار والمجرور « عليه » ، إلا ما كان فى سورة يونس قصة نوح من عدم ذلك الجار والمجرور وذلك لورودها

---

(١) سورة ص

(٢) بينا فى أبحاث سابقة ما كان يمتاز به نوح من شدة الحرص على هداية قومه أكثر من غيره

مورد الاختصار والأعراض والمتاركة « يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله » . القصة .

خامساً : فى كل المواضع « أسألكم » بصيغة المضارع إلا ما كان فى قصة نوح سورة يونس فإنه بلفظ الماضى « سألتكم » ، وذلك لأنه وقع جوابا لشرط بصيغة الماضى « فإن توليتم » ، والماضى بالماضى أشكل .

سادساً : يقع نفى السؤال أحيانا بما ، وأخرى بلا ، ففى بعض المواضع « وما أسألكم عليه » ، وفى بعضها الآخر « لا أسألكم عليه » ، فهل من سر لذلك ؟ الجواب : نعم ، وسر عظيم ، فإن جمهور أهل العربية يقولون « ما » للنفى فى الحال و « لا » للنفى فى الاستقبال ، وخالف فى ذلك وسوى بينهما ابن مالك ، ومهما يكن من هذا أو ذاك ، فإن الطريقة الأولى اطردت فى سائر قصص سورة الشعراء ، والطريقة الثانية اضطردت فى قصتى هود ونوح المتجاورتين فى سورة هود ، وذلك جار على عادة القرآن فى مراعاة الجوار وإعطاء سمات موحدة فى الموضع بعد الموضع . ولو أردنا أن ندقق النظر ونستقصى فى البحث لعلمنا أن الحرف الأول أنص فى النفى من الحرف الثانى ، لخروج الثانى دون الأول من النفى إلى النهى ، وما كان أنص كان أقوى وأدل ، فإذا ذهبنا نتتبع مواقع الاستعمال وجدنا أن ما كان فيه الجر بمن الزائدة المفيدة لتأكيد العموم فى النفى كان مسبوقا بالحرف الأول « ما » ، وما ليس فيه هذا الجارّ الزائد ، كان مسبوقا بالحرف الثانى « لا » ، يطرد هذا بشقيه وجوداً وعدما ، فيكون التركيب الأول برمته آخذا بعضه بحجز بعض فى قوة افادة النفى وعمومه ، ويكون التركيب الثانى كذلك آخذا بعضه بحجز بعض ، فى كونه أدون من الأول فى إفادة ذلك : وإذا كان ذلك كذلك فقد كان الصنيع الأول برمته فى سائر قصص سورة الشعراء وقصة نوح سورة يونس ، كله بما النافية ومن الزائدة ، وكان الصنيع الثانى برمته فى قصتى نوح وهود المتجاورتين فى سورة هود بـ : لا النافية ونصب الأجر بدلا من جره ، حتى ما كان فى مقالة خاتم المرسلين لقومه العرب ، ما كان فيه الجار الزائد كان نفيه بما النافية « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » . وما لم يكن فيه هذا الجار الزائد كان نفيه بلا النافية « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » .

مطالعات

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

قال الأستاذ مشير حسين كيدوى فى مقدمة كتابه الإسلام والاشتراكية Islam and Socialism المنشور فى الهند سنة ١٩١٠ باللغة الانجليزية ما يأتى :

« لا ينبغى أن يعوق ما يتراءى أمام المسلمين من مستقبل مظلم عن إحياء قوميتهم وتدعيم مركزهم عن طريق التمسك بمبادىء الاشتراكية المحمدية فى جميع مناحى الحياة الإنسانية ، فهذه المبادىء تهب الحياة ، وتبعث البهجة فى حين أن المادية الغربية متى تتعارض معها قد تأصلت فيها بعض العناصر التى تحطم النفس . وتعد الحالة الراهنة فى إيران مثلا يثبت ما ذكرناه . فالطغيان الروسى مسيطر ـ كما يلوح فى الوقت الحاضر ـ على البلاد لأنه مؤيد من قبل القوة المادية . ولكن إذا لم تستطع هذه القوة المادية أن تقتل العواطف الروحية القائمة على الأخوة المشتركة بين المسلمين ، وإذا ظلت هذه العواطف والقوى مصممة على أن تجابه قوة العدو المادية بقوتها المستمدة من العزيمة المتحدة لتصون حريتها واستقلالها ، فسيثبت المسلمون أنفسهم فى هذا الشوط الطويل من النضال ، وسيكره الطغيان الروسى بريطانيا العظمى إن عاجلا أو آجلا على أن تشتبك معه فى قتال إذا كانت فى الشعب البريطانى بقية من غريزة الدفاع عن النفس ، وإذا كانت عواطف مسلمى الهند نحو إخوانهم فى إيران تجعلهم يواصلون مطالبة الحكومة البريطانية بتعديل حقوقهم كما أن روح الاستقلال عند الإيرانيين إذا هى ظلت قائمة فستتاح لها فرصة لتؤكد نفسها ، هذا وإن المرء ليجد هذه الروح المعنوية فى حرب طرابلس ، فلو لم يكن للعرب قواد مدربون على أساليب الحرب الحديثة لاستطاع الحماسى الدينى البالغ الحد أن يثبت وجوده ، وأن يكون قوة مدمرة كما كان الشأن فى موقعة أم درمان وحيث إن العرب الآن قد تلقوا بعض المساعدة المادية ، ففى وسعهم أن يجابهوا جيشاً أوربياً جراراً مزوداً بجميع الأسلحة الحديثة لا لشىء إلا لأن قوتهم المادية تعززها قوة روحية ودينية ، وهو الأمر الذى يعوز أعداءهم . وإن الانسجام

العاطفى ، والترابط الاجتماعى فى أمة كالأمة الإسلامية لجدير بأن يزودهم بقوة كفيلة بأن يتغلبوا بها على أية جماعة تعتمد على القوة المادية الأوربية . ومن الممكن أن تفل المادية مادية أقوى منها ، ومن الميسور أن يقضى على المادية ولكن ليس من الميسور القضاء على الروحية والعاطفية ، وقد يمكن إفناء الجسد المادى أما روح الأمة وعواطفها فلا سبيل إلى استئصالها ، ومن المتعذر قتل فكرة ما بالحراب والقنابل ، ومن الممكن تقويض دعائم الحضارة المادية التى تقوم على السكك الحديدية والتلغراف والمدرعات والطائرات ، إلا أن النظام الروحى القائم والتميز الخلق للإنسان ، وإيثار المصلحة الذاتية فى سبيل خير الآخرين ، لا سبيل إلى تقويض دعائمه . وتمتاز آسيا فى الناحية الروحية بقوة عظمى ممتازة ، ولكن وا أسفاه لقد نسيت شعوبها قيمة هذه القوة ... دعهم يصبغوا قارتهم بالصبغة القومية ، ويستفيدوا من تجارب الماضى ، ويتمسكوا بمبادىء الانسجام المتبادل والاشتراكية فى جميع مناحى حياتهم ، فسوف لا يحملون خصومهم على الاعتراف بهم فحسب بل سينقذون العالم من الكارثة الرهيبة كارثة المادية . وإن ارتفاع مستوى المعيشة فى أوربا التى تجثم على صدر الفقير ، وترف الحياة التى يسيطر عليها الرأسمال لم يأت إلا عن طريق الاستغلال الدنىء للجماهير الضعيفة . وقد تيقظ لهذه الحال عمال أوربا فراحوا يقومون بالإضرابات التى لا شك أنها ستعيد إلى الرأسماليين انتباههم ، وما هذه الإضرابات إلا من نتائج هذا الوضع . ومع ذلك فلا تزال شعوب آسيا تغط فى نومها ، بالرغم من أنها وهى الشعوب السقيمة الهزيلة ـ التى لا يكاد الفرد فيها يظفر بأكلتين فى اليوم ، ويغطى نفسه بأخشن الثياب ، ويسكن أكثر الأكواخ تواضعاً ـ هى التى تمد الأوربيين الرأسماليين بأشهر الأطعمة فى أبهى القصور .

وكما أن الساسة الأوربيين لا يقرءون العصر الأول من تاريخ الإسلام ويجهلون أن الإسلام ينطوى على ديموقراطية حقه واشتراكية عميقة واسعة المدى فإن المفكرين والمشترعين لا يدرسون مراحل الحياة الإسلامية بل يمرون بحقائق متفرقة ، فهم عادة يتناولون مسائل متصلا بعضها ببعض كالزواج وتعدد الزوجات والمهر والطلاق ويوجهون نقدهم المتحامل إلى الجانب الاجتماعى من الحياة

الإسلامية ، وقد رأى قضاة مجلس الملك البريطانى أن ما يوقفه الرجل على ذريته (وقف الأولاد) تعرف ليس له سند قانونى ، وما ذلك إلا لأنهم تناولوا مسألة الوقف وحدها دون أن يعيروا الانتباه الكافى للموضوعات المتصلة بقوانين الإسلام من ميراث وهبة وبيع وصدقة ، وخطأ آخر يرتكبه النقاد الأوربيون عامة هو أنهم يعيشون الآخرين بالمقياس الغالب فى أوربا . والفوضوية الأخلاقية أو الزنا أقل شراً عند الأوربيين من تعدد الزوجات الذى تحرمه أوربا بالقانون . ووقف الأولاد يعتبر من الأمور التى ليس لها سند قانونى لأنه لا يتسق مع التصور المسيحى للصدقة والقانون الأوربى الخاص بالهبة . والطريق الطبيعى لفك رابطة الزواج كما أباح الإسلام مما يعترض عليه الأوربيون لأنهم قوم يميلون إلى غسل الثياب القذرة للحياة الزوجية فى المحاكم العامة ، أو يودون أن يتلظى الزوج الذى لديه من الأسباب ما يجعله يكره امرأته فى حياة الشقاء أو يريدون أن يورثوا الزوجة التى لا يسعها أن تنفصل عن زوجها حزنا وألما . ويسوء أوربا أن ترى امرأة شرقية دون جوارب ولكنها تأذن للجنس اللطيف بأن يعرض مباذله فى المراقص العامة وغيرها فى ثوب نصف عار . وأوربا تحبذ حياة الأثرة التى يحياها المرء فى بيته حيث لا يكون أكثر من حيوان إذ لا يعنى بغير زوجه وأطفاله وحين لا تسمو غرائزه الاجتماعية إلى ذلك المستوى الرفيع من الحياة الذهنية الإنسانية المتحضرة وهى الحياة التى يعيشها الشرقى ويعمل فيها بنخوة ليعول الآخرين ولينفق على عدد كبير من الأفراد من المال الذى يكسبه بعرق جبينه . وحتى فى تلك الأمور الصغيرة مثل الملبس والطهى تزعم أوربا تفوقها وترى أن كل نظام آسيوى دونها فى هذا الشأن . والحقيقة أن أوربا شديدة التعصب فى إدراك تميزها ، إلى حد أن المسئولين من رجالها يحتقرون الآسيويين ويتندرون بلغتهم غير أن الأسيويين قد أصبحوا أشد حساسية لمثل هذه الاهانات وستدفع أوربا إن قريبا أو بعيدا ثمن خيلائها كما اضطر الآسيويون مرات كثيرة إلى أن يدفعوا ثمن حماسهم الدينى ... نحن لا نستسيغ أن يقال عنا إننا خراف لا راعى لها أو شعب لا يقدر المعاملة الإنسانية المحترمة حق قدرها أو أننا

لسنا اهلا للإدارة الحرة الدستورية . فالحق أن الآسيو بين أعظم عاطفة ومن هنا صاروا أكثر حساسية .

وكثيراً ما يعجز النقاد الاوربيون عن تقدير عالمية الإسلام وعن فهم البطولة الوطنية التى يتسم بها المسلمون ويخالونها تعصبا دينيا . وثمت كثير من المغرضين الذين يرجعون ضعف المسلمين اليوم إلى الإسلام رغم أنهم يعزون الضعف الخلق الذى يعانيه المسيحيون أقباطا وإغريق إلى الظروف السيئة التى اكتنفتهم أجيالا طوالا بدلا من أن ينسبوها إلى المسيحية ، وينسون أنه حينما بلغ كل من الإسلام والمسيحية ذروة المجد انتصر الإسلام على المسيحية خلقيا واجتماعيا وسياسيا ، ولكن عندما ولت المسيحية وجهها شطر المادية وافتقد المسلمون المبادىء السامية من إيمانهم استطاعت أوربا بفضل غلبتها المادية أن تجعل المسلم الشرقى الذى تخلى عن روحانيته فى موطىء قدميها . فالمسيحية لم تهزم الإسلام قط ولن تفعل ذلك ، إلا أن المادية بما لديها من كتائب قوية قد تغلبت حينا من الدهر على الأمم الإسلامية التى بددت كثيراً من قوتها الأزلية الروحية بسبب إهمالها وبسبب افتقار من يسمون بزعمائها إلى الإخلاص والتضحية .

فالإسلام ذاته لا يمكن أن يغلب على أمره ، وكذلك المسلمون الذين وقرت فى نفوسهم روح الإسلام ، وإذا كان المسلمون قد عجزوا عن مجابهة المادية فليس ذلك مما جناه الإسلام عليهم فهو ـ من ناحية أخرى ـ الدين الأوحد الذى جمع بين الروحية والدنيوية . فكما وضع قواعد ليهتدى بها المرء فى حياته الروحية نظم للناس الشئون الاجتماعية والسياسية والمدنية والعسكرية والقضائية والتجارية ؛ فهو على نقيض المسيحية لم يطرح الروحية تحت ضغط المادية ، ولكن نظراً إلى أن أوربا المسيحية قد كرست طاقتها كلها للعمل على تقدم المادية فقد ديست الممتلكات الإسلامية . ومع ذلك فخضوع المسلمين هذا موقوت ولو أن المسلمين لم يضيعوا اتصالهم بروح الإسلام ولو أنهم لم يتجاوزوا السبل التى اختطها لهم الإسلام لصار من المتعذر احراز هذا النصر المادى الموقوت .

ولكن فمن حق المسلمين والأمور تجرى على النحو التى تجرى عليه الآن أن يطلبوا إلى هؤلاء النقاد الذين ألقوا عليه تبعة بلوغ المسلمين هذه الحال دراسة

الإسلام وقراءة تاريخ المسلمين عند ما كانوا شديدى التمسك بعقيدتهم . إنهم إن فعلوا فسيعترفون بأن الإسلام قد نجح فيما عجزت عنه المسيحية فحسب بل اليهودية وغيرها من الأديان فى أوج قوتها من النهوض وتمدين شعب متحلل الأخلاق مفكك الأوصال شرير سيء الخلق ، وسيقرون بأن ما ساهم به الإسلام من الناحيتين الثقافية والأخلاقية لرقى الإنسانية لا نظير له فى العالم وسيكونون حينئذ أحكم فى نقدهم للإسلام .

ولعل النقاد الذين يرون أن الفوضى مرحلة من مراحل الاشتراكية لا يعوزهم أن يروا وصفاً مفصلا لها . والإسلام لم يشجع الفوضى قط رغم أن المسلمين تعرضوا له فى وقت ما . وقد تعمدت عدم الإشارة إلى تلك الهيئة الفوضوية التى أنجبتها شر العبقريات الإنسانية المعروفة والتى قامت بفضلها حكومة ظلت ما يزيد على مائة وخمسة وعشرين عاماً على يد حسن بن صباح وهو رجل قبيح الشهرة وأحد رفاق الشاعر المعروف عمر الخيام . وكان أتباع حسن صباح يعرفون بالحشاشين أو السفاحين .

والجامعة الإسلامية (والإسلام معناه السلام والأمن) هى مثلى الأعلى . وفى رأيى أن مثل هذه الاشتراكية التى تجنح إلى العنف والفوضى ينبغى ألا تلقى أدنى تشجيع واعتراف من الشعب المتحضر . ويجب ألا يفرق بين الفوضى والقتل بالرغم من أن الأولى بريئة من أعمال الشر أو الطغيان . فينبغى ألا تكون للاشتراكية علاقة بالفوضى التى تهدف إلى القضاء على الحياة الإنسانية . بل على العكس أرى أن تكون الاشتراكية عاملا من عوامل الانسجام والاتحاد بدلا من أن تكون من عوامل التدابر والانفصال » .

وبعد ، فقد انتهى كلام الأستاذ وهو مكتوب سنة عشر وتسعمائة وألف ميلادية ، ولعل فيه ما يصح أن يكون من مشاكل اليوم وما يحتاج فيه إلى تعليق لا يخفى على فطنة القارىء .

نقيصتان

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

يقاوم الدين الإسلامى (وهو دين الإصلاح الشامل والمثل الأعلى للاجتماع الصحيح) نقيصتين هما أفتك الصفات بالأمة وأسوأها أثراً فى تكوينها ، كلتاهما مفرق لكلمة الجماعة ، مقطع لروابط الإخاء ، ماحق للبركة ، مضعف للشوكة ، وكلتاهما مؤسس على إيثار الدنيا ، وهى رأس كل خطيئة وأس كل مأثمة ، وكلتاهما ضعف فى الإيمان بالله وفى قدره حق قدره ، وجهل بحق هذا الخالق الرازق العظيم ، وحق عباده : الظلم والشح ، والظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو كالطبع لا يفارق الإنسان إلا رياضة وجهادا ، إن الإنسان لظلوم كفار !

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهو على ذلك قبيح بشع ، لو تمثل للناس لها لهم منظره ، ولخروا صرعى أمام شدة قبحه ، وفظاعة وحشته ، وهو مع العدل كالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، فبقدر ما فى العدل من محاسن تتجلى فى الحب والصفاء ، والتناصر والولاء ، وفى العمران والقرار ، وراحة ضمائر الأحرار ، واستدرار رحمات السماء وبركاتها ، يكون مقدار ما فى الظلم من مقابح تتمثل فى العداوة والبغضاء ، وفى التقاطع والالتواء ، وفى التخريب والتدمير ، وفى تعب القلب وحرج الضمير ، والاستهداف للعنات السماء وبلائها ؛ ... لو علم الظالم أنه باستباحته أن يظلم أخاه فى ماله أو عرضه أو دمه قد أساء إساءة بليغة إلى عدة نواح كانت جديرة منه بالإنصاف كل الإنصاف ، لما لها من حقوق تتطلب إحسانا لا إساءة ، وإفضالا لا بخسا ؛ لو علم ذلك لفر من الظلم فراره من الأسد حتى لا يفتك به .

أما إحدى تلك النواحى ، بل هى أولاها ، فإنها نفسه التى بين جنبيه ، فقد رضى لها بصفة الظلم ، ووضعها فى تلك الخسيسة التى كان ينبغى أن يكرم نفسه عنها ، ولا يجعل لنفسه سبيلا إليها .

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأعمال نفسك فاجعل

ولكن الظالم ضحى بكرامته ، وتعرض لتلك الخسيسة فى سبيل شهوة كاذبة ، أو ثورة طائشة ، أو نزوة جامحة ، أو فتنة خادعة ، أو أية باعثة متضعة ، فكان من الخاسرين . ومن تلك النواحى التى أساء إليها الظالم أخوه المظلوم الذى أمره الدين والاجتماع والعرف بالإحسان إليه ، ونهى عن العدوان عليه ، وقد شددت الأديان السماوية فى ذلك إلى أبعد حد ومدى ، فقال الله سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخوا المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ، كل هذا يضحى به الظالم فلا يبالى أن يسىء إلى من أمر الله بالإحسان إليه ، ودعت الشرائع إلى تكريمه والحدب عليه ؛ ثم هو بعد يعرض نفسه لخصومة أخيه ، وما كان أحوجه أن يجعلها تعاونا ومودة ونصحا ومحبة .

فياعم مهــلا واتخذنى لنوبة تنوب فإن الدهر جم نوائبه

لقد أساء الظالم إلى الجماعة التى يعيش فيها ؛ لأنه أساء إلى عضو منها ، والجماعة يغار بعضها لحرمة بعض ، وأساء اليها ؛ لأنه قرر جريان الظلم بين ظهرانيها وشجع عليه ، ودعا بفعله إليه ، فهو عامل هدام فى المجتمع ، شريك فى كل مأثمة تجرى من هذا النوع ؛ وإلى ذلك تشير الآية الكريمة : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . » ، والأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . » ولهذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « مامن نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها ؛ لأنه أول من سَنَّ القتل . » ، ثم إنه أساء إلى خالق هذا الكون ؛ لأنه عصاه فى أهم ما يدعو إلى تركه والإعراض عنه ؛ ولأن الله أراد الوئام ولكنه آثر عليه الخصام ؛ وأن الله دعا إلى المحبة والألفة ، لكنه آثر فى سبيل بغيه العداوة والفرقة ، فويل للظالمين .

الظلم شؤم فى الدنيا على صاحبه ؛ وعلى من يحف بصاحبه ، وعلى ما يحل به صاحبه من منزل أو قرية ، أو محلة ، قال الله سبحانه : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب . » « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا . » ، وقال كعب الأحبار يوما لأبى هريرة مكتوب فى التوراة : « من يظلم يخرب بيته . » فقال أبو هريرة : « تلك فى كتاب الله تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

إذا كان للظلم عقاب مؤجل إلى يوم تشخص فيه الأبصار ، فإن له عقابا فى الدنيا معجلا يراه الظالم فى نفسه ، ويراه الناس فى عقبه شماتة وتشفيا ، وقد قال النبى صلوات الله عليه : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . » ، ثم تلى الآية الكريمة : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . » ، وفى الحديث : « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما » .

أما عقوبة الظالم يوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، فإنك تستطيع أن تتمثلها فى قول النبى : « إنّ الظلم ظلمات يوم القيامة . » ، وماذا عسى أن تكون الظلمات إلا تلك الشدائد والأهوال فى يوم الحساب ، يوم يظهر إفلاس الظالم ويلقى به فى نار جهنم ، ويحبط عمله مهما قدم من خير ، قال النبى صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : « إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم قذف فى النار » .

وأما الشح : فإنه البخل بالمال والحرص عليه ، وهو يدعو إلى الظلم ويهتف به ، بل هو عند التحقيق باب من أبوابه ، فمن حبس المال عن حقه ، وبخل على أخيه عند حاجته فهو من الظالمين فى أفحش أنواع الظلم وأشدها فتكا برابطة الجماعة ، وإيقاعا فى استباحة الدماء والمحارم ؛ لهذا قرن بينهما النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى أخرجه مسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ،

واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الضن بالمال يوجب التمادى فى حبه وإيثاره وكثيرا ما يجر ذلك إلى التعادى والتمادى فى الباطل فيقع الهرج والمرج وتستباح المحارم ويتجر فى الأعراض وإن التاريخ لشاهد صدق على ما فعل المال وإيثاره بالأفراد والجماعات مما جمع شمله بيان النبوة الكريم (إن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .

ولهذا يقول الله سبحانه « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » والآية الكريمة تفيد أنهم المختصون بالفلاح وأن أهل الشح من الخاسرين .

وقد صور النبي صلى الله عليه وسلم كلا من السخى الكريم والبخيل اللئيم فى صورتين متعاديتين أحداهما محبوبة مطلوبة ينشدها كل من له بصر ليجد منها كل سعادة وظفر والأخرى بغيضة كريهة يفر منها كل من ذاق الإيمان فآمن بالله ورسوله واليوم الآخر عن يقين صادق وذلك فى حديث أخرجه الترمذى عن أبى هريرة والبيهقى عن جابر « السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار » فقد جمع للسخاء الخير كله ووجه إليه كل ذى طبع سليم .

فمن ذا الذى يرى طريقا إلى قربه من الله فلا يسلكه وهو مالك النواصى . ومالك الخير ومالك يوم الدين وهو على كل شىء قدير .

ومن ذا الذى يجد السبيل إلى حب الناس ورضاهم ثم لا يطرقه وهو الكنز الثمين والربح فى الدارين للرابحين .

من ذا الذى يرغب بشراه جنات تجرى من تحتها الأنهار أعدت للمتقين خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ثم يعرض عنها وينقلب عن سبيلها .

لقد ظفر السخى الكريم بكل تلك المزايا الكريمة . وكان البخل فى نقائضها وأضدادها وإن ما ثبت لأحد الضدين جدير أن ينتفى عن الضد الآخر لا محاله فقل لأولئك الجماعين إن كنتم تقدرون عاقبة الجمع والادخار فقد ساء تقديركم ووجب أن تحولوا دفتكم قبل أن تسجلوا الخسران هنا وهنالك على أنفسكم وإن كنتم لا تقدرون العاقبة إنكم لأغرار حمقى تعملون فى غير تفكير .

هل قرأتم فى الكتاب الكريم « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى » فأنتم أيها البخلاء ميسرون للعسرى وهى أعمال الشر التى تودى لأنكم عناصر خبيثة مالم يرحمكم الله ويهدكم سبيل الرشاد .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » لقد جمع الله البخل مع القسوة العارمة والتكذيب بيوم الدين فى جهنم وبئس المصير « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » . « إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين » فهذه هى صفات أهل جهنم فالمرء وما اختار لنفسه — إن الشح مدعاة إلى الشره مضيعة للشرف دفاع بصاحبه إلى جمع المال من حله أو غير حله لمن ينفقه فى حله أو غير حله من الوارثين فأنتم تجمعون بشهوة الجمع ما لا تأكلون . فإذا كشف الغطاء فإنكم نادمون .

قال النبي صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله قالوا ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال : فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر : إنكم أيها الأغنياء وكلاء الله فى التوزيع على عياله الفقراء فأحسنوا الوكالة وإلا قصم الله ظهوركم وفتك بكم أو بأعقابكم وما كان ربك نسيا « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفيين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كريم » .

إنه ما أمن بالله من بات شبعان وجاره جائع . ولا شكر نعمة الله من سار مزهوا بثيابه وجاره عريان ، وإن البخل ماهو إلا شك وسوء ظن بالقدر وما هو إلا فتنة من الشيطان ليوقع بين الناس العداوة والبغضاء والبطش والفتك واستباحة الدماء واستحلال المحارم وإلا فإن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا واتقوا الله وآتوا المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » اللهم اهد هؤلاء الناس حتى تعمر الأرض ويستقر السلام والوئام ؟

تقـــــدير ورجاء

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن حسن حنبل
المدرس بمعهد القاهرة

إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر :

شاءت إرادة الله العلى القدير أن يكون حب المسلمين لك ، وميلهم اليك . ورضاهم عنك . مؤيدا بأدلة قاطعة وحجج ساطعة ، لا تدع للشك سبيلا ، ولا للريب مجالا ، فامتحنك فيما أبديت من حب للأزهر وأهله ، وأبرزك فى صورة تجلى فيها أيمانك . وشعت منها أنوار عقيدتك ، فأقصاك عن الأزهر فترة لتسكون قلوب الأزهريين لك . وأفئدتهم معك ، بعد أن تبينوا اخلاصك وتأكدوا من حسن نياتك ، وتكشف لهم ما استتر عنهم ، حتى إذا أقبلوا عليك كانوا مخلصين ، وإذا وضعت أمورهم بين يديك كانوا مؤمنين بك آمنين .

واليوم وقد حقق الله للأزهر أمله . واستأنف الشيخ الأبى عمله ، واستعيدت للأزهر كرامته ، يفرح الأزهريون خاصة ، والعالم الإسلامى عامة . بتقلدك مشيخة الأزهر فقد أدرك الكل أسمى غاياته ، وأجل مطالبه ، وأعز أمانيه بعودة إمام المسلمين إلى رياسة الأزهر ، وقيادة الأزهريين .

ولا عجب فقد ناضلت من أجل الأزهر . وكافحت فى سبيله . راجيا أن يحتل الأزهر مكانته ويتبوأ بين الجامعات منزلته ، مستهينا بالصعاب . غير مكترث بالشدائد والعقبات . ولا مبال بغضب بعض الناس . ما دمت تعتقد أنك ترضى خالق الأرض والسموات . وكأنى بك تردد .

فياليت ما بينى وبينك عامر   وبينى وبين العالمين خراب

ولا غرو فحياتك كلها بطولة . وتاريخك كله جهاد وتضحية . وذكريات عاطرة . فهذا بيانك الرائع ـ المعبر عن طيب النفس . وسلامة الضمير . ونقاء السريرة ـ لا زال يدوى فى أرجاء الدنيا . ويرن فى آذان المعمورة . يبين فى صراحة تامة . ووضوح لا يعتوره خفاء . وجلاء لا يشوبه ابهام أنك لا تخشى سوى ربك

ولا تخاف غير خالقك ، وكيف يخشى الناس من يرى أن المسجد قبلته . والطاعة غايته . فيقول فى بيانه (ما دام قول الحق لا يمنعنى من التردد بين دارى والمسجد فلا خوف) وصدق الله حيث يقول (أنما يخشى الله من عباده العلماء) .

وما لنا نذهب بعيداً والأمس القريب يحدثنا يوم أن جاءك الأزهريون . يشكون اليك الكرامة الضائعة . والعزة المفقودة . والحقوق المهضومة . فوقفت إلى جانبهم . وباركت حركتهم . وقلت كلماتك المأثورة (أنا لا أستطيع تكليف المظلوم كما لا أستطيع أن أجلس على هذا الكرسى وفى الأزهريين من لا يأكل أكلى ولا يشرب شربى) فلقيت ما يلقاه المصلحون . وما يتعرض له القادة العاملون ، فأبعدت عن الأزهر ولكنه ما نسيك . وتركته ولكنه ما تركك . ثم جاء بك اليوم اخلاصك وإيمانك لإتمام ما بدأت . وجنى ثمرة ما غرست وقد مكن الله لك (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) .

مولاى صاحب الفضيلة :

إن العالم جرفته المدنية وبهرته النواحى الشكلية . فاتجه إلى المادية . وانصرف عن الحياة الروحية . وقطع شوطا بعيداً فى البعد عن الحق . والتجافى عن الصدق . وقد أدرك اليوم خطأه . واستيقظ من سباته . وأخذ يتلمس الهدى فى الأرض عله يرى من يأخذ بيده فيقيله من عثرته . وينهضه من كبوته . وليس أمامه إلا الأزهر . وان يكون الأزهر معقد الأمل وموضع الرجاء . إلا إذا أصلح . وإصلاحه بإصلاح أبنائه وتقويم معوجهم وتهذيب نفوسهم . وتطهير أفئدتهم . وتربيتهم تربية دينية سليمة بعيدة عن الدنايا . حينئذ يحقق الأزهر للعالم ما يرجوه وللدنيا ما تؤمله (فاثنان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس العلماء والأمراء) كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولنا فى بيانك الذى أذعته . وفى برنامجك الذى وضعته . ما يزيل ألمنا ويحقق أملنا . بارك الله فيك . وحقق للدنيا الخير على أياديك فى ظل حامى الأزهر فاروق الأول ملك مصر والسودان .

تحيـــة

للأستاذ الامام الشيخ عبد المجيد سليم

بمناسبة اختياره شيخاً للأزهر بعد إعفائه منها فى سبتمبر سنة ١٩٥١

لفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف النجار

لمثلك أيها الشهم الأبى ... يصوغ الدر حـــر أزهرى
فأنت أبو المكارم والمعالى ... وأنت العالم الثبت الرضى
سمت بك عزة فى النفس تاهت ... بمثلك أيها الفطن الذكى
أتتك إمامـة الإسلام تسعى ... فوافاها الأريب الألمعى

***

وقد كنا نسائل كل يوم ... لمـاذا أعفى الشيخ الوفى ؟
فقيل وشاية حيكت ولـكن ... سينصر ذلك الورع التقى
ونصر الله مكفول لقوم ... به اعتزوا فعـــزهم العلى
وجاءتنا البشائر هاتفات ... أتاكم للرياســـة عبقرى

***

فيا عبد المجيـد ـ ولا أغالى ـ ... إذا ما قلت : إنك تابعى
ويا عبد المجيد ـ عداك ذم ـ ... وأنت لدى المحامد أريحى
وأنت « سليم » مأمول الأيادى ... فأنت بكل مكـرمة سخى
فسر بالسادة العلماء قدماً ... رعاك الله ذو العرش القوى
فهم نجب وأنت لهم إمام ... إذا ما سرت سار بك الكمى

***

يعيش الناس فى دنيا ضلال ... إذا لم يأتهم هاد تقى
ومن ذا يبتغى يوماً إماماً ... سواك ؟ (وقلبك الورع الرضى)
فهنىء منصباً يزهى بشيخ ... هو الشيخ الإمام « الأشعرى »
وما قلت القريض لغـير شهم ... فشعرى حين أذكـره أبى
فعش فى ظل « فاروق » مرجى ... فأنت صفيه وهو الولى
حمى الله المليك وشبل مصر ... « فؤاداً » إنه أمـل بهى

موازنات أدبية :

نونية ابن زيدون

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن جاد حسن

المدرس بكلية الشريعة

— ٢ —

نونية شوقى :

ها هو ذا شوقى يحج إلى الأندلس ، وينزل فى ضيافة ابن زيدون ؛ وكلاهما ربيب نعمة ومجد ؛ وكلاهما شاعر نكبته الأيام ، وأضناه النفى والتشريد ؛ وكلاهما أحب ، وفجعه البين فيمن أحب . أما ابن زيدون فقد أحب ولادة ، فكانت وحى قصيده ؛ وأما شوقى فقد أحب مصر ، وحنّ إليها ، وقد أقصى عنها أشد ما يكون كلفاً بها وصبوة إليها . وقد أثارت نونية ابن زيدون خواطره ، وذكرته بما أوحى بها من عوادى الزمن ، وفوادح الخطوب ، فأخذ يساجله لوعة بلوعة ، وشجناً بشجن . وكأنما قصد شوقى بنائح الطلح المفزع عن وكره ، المشرد عن ألفه ، ابن زيدون ، فكلاهما مظلوم يشكو إلى مظلوم ، ومصاب يحن إلى مصاب .
قال شوقى مستهلا قصيدته بهذا المطلع الرائع :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا … نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ما ذا تقص علينا غير أن يداً … قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا … أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى : ريش الفراق لنا … سهماً وسلّ عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع … من الجناحين عى لا يلبينا

ألا تحس أنه يخاطب ابن زيدون ويساجله الأسى واللوعة ؟ إنه ليخيل إلينا ذلك ، ولولا أنه يقول :

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا … إن المصائب يجمعن المصابينا

لكان هذا التخيل حقيقة واقعة ثم يصور حنين الطائر ، ويبكى جراح جسمه وروحه ، فيبكى جراحه هو ، ويصور حنينه :

لم تأل ماءك تحناناً ولا ظمأ ولا ادكاراً ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ساقا إلى فنن وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم فمن لروحك بالنطس المداوينا

ولكن أليس فى هذا الفردوس الأندلسى ما يهدهد من أشجانه ، ويطامن من لواعجه ، ويكفكف من دموعه ؟ أليس لأهله حق عليه ؟ نعم إن سحر هذا الأفق يستهديه فيسليه ، وإنه ليبالل بدمعه ثرى أهله الراحلين ، أولئك العرب الذى عمروا هذا الأفق ، وكان لهم فيه مجد وصولة :

آهاً لنا نازحىْ أيك بأندلس وإن حللنا رفيقاً من روابينا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته تماثل الورد خيرياً ونسرينا
نسقى ثراهم ثناء كلما نثرت دموعنا نظمت منها مراثينا

ومهما تبلغ الأندلس من جمال الطبيعة ، وروعة الحضارة ، وجلال الآثار ، وسحر الأفق ، ومهما طاولت الخلد ، ونابت عن الجنان ، فإن مصر وطنه الحبيب ، لا يشغله عنها شاغل ، ولا يسليه عنها منظر ، ولا ينسيه جمالها جمال . أليس هو الذى يقول :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

إنه ليحن إليها ، ويشيد بها ، مهما أغضت عنه ، ونبت به ، فإن أغضاءها على حب ، وإن نبوها لخوف عليه من أعاديه :

لكن مصر وإن أغضت على مقة عين من الخلد بالكافور تسقينا

على جوانبها رقت تمائمنا　　وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا　　وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا　　ومغرب لجدود من أوالينا
بنّا فلم نخل من روح يراوحنا　　من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا　　وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

ويمضى على هذا النحو من الحنين إلى مصر كحنين ابن زيدون إلى قرطبة ، حتى يستنجد بالبرق ، ويحمله هذه الرسالة الوطنية :

بالله إن جبت ظلماء العباب على　　نجائب النور محدوا بجبرينا
حتى حوتك سماء النيل عالية　　على الغيوث وإن كانت ميامينا
وأحرزتك شفوف اللازورد على　　وشى الزبرجد من أفواف وادينا
فقف إلى النيل واهتف فى خمائله　　وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس مابات يذوى من منازلنا　　بالحادثات ويضوى من مغانينا

كما يحمل الريح ما حملها ابن زيدون ، من زفرات البين ، وأنفاس اللوعة ، ووهج الأشواق :

هل من ذيولك مكىّ نحمله　　غرائب الشوق وشيا من أمالينا

ثم يصور حنينه ، وما يقاسيه فى ليله النابغى الطويل من لوعة ، وما يعانيه فى نهاره الحائل من وجد وتجلد :

ناب الحنين إليكم فى خواطرنا　　عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا　　فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
ونابغىّ كأن الحشر آخره　　تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاه بجرح من فراقكمو　　يكاد فى غلس الأسحار يطوينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا　　للشامتين ويأسوه تأسينا

ثم يصف زمان الأنس ، وليالى الصفو ، وأيام المسرة ، على نحو ما وصف ابن زيدون . إلا أنه يستطرد من ذلك إلى الفخر بمصر والمصريين ، بعد أن يشيد بنيلها وأهرامها ورمالها وكنوزها ومفاخرها :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق إذا تلوَّن كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزانا ولا صعدت فى ملكها الضخم عرشا مثل وادينا
ألم تؤله على حافاته ورأت عليه أبناءها الغر الميامينا
إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبساً خمائل السندس الموشية الغينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبل قبل القياصر دناها فراعينا
ولم يضع حجرا بان على حجر فى الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت به يد الدهر لا بنيان فانينـــا

ثم يغلو به الحنين ، ويستبد به الشوق إلى أميه : مصر ووالدته بحلوان :

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة والبر نار وغى والبحر غسلينا
سعيا إلى مصر نقضى حق ذاكرنا فيها إذا نسى الوافى وباكينا
كنز بحلوان عنـــد الله نطلبه خير الودائع من خير المؤدينـا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأته الشوق إلا من نواحينا
إذا حملنا لمصر أوله شجنا لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

وهكذا يطول نفس شوقى ، وتتجلى عبقريته ، وتتفتح شاعريته ، فينساب فى كل جدول ، ويخوض فى كل يم ، ويحلق فى كل أفق ، ويسرح فى كل فضاء ؛ فهو لا يتناول المعنى كما يتناوله ابن زيدون فيمسه مساً رفيقا ، وإنما يحلله ويتعمقه ، ويستوفى عناصره ، ويستطرد إلى ما يتصل به ، ويخلع عليه من حلل الألفاظ ووشى الصنعة ، ما يختال به بهجة وترفا . وتلك ميزات العبقرية الفذة ، والشاعرية المتفتحة ، والاحساس الواعى ، والعقل المثقف بألوان المعارف . ومن هنا تدفق خياله وتنوعت معانيه ، وامتد أفقه الرحب ، حتى قاربت قصيدته التسعين بيتاً ، على حين لم تتجاوز قصيدة ابن زيدون الخمسين .

ومهما يكن من شىء هذا الطول ، وبالرغم من أن مرده من غير شك إلى توالى الصور ، وتتابع المعانى ، وتحليلها وتفصيلها ؛ فإن الذى يعنينا قبل كل شىء هو الاجادة

وصدق الشعور ، وبراعة التصوير ، وجمال الخيال . فليس طول النفس وحده بالأمر الذى يدعو إلى المفاضلة بين الشاعرين ، ويسرع بنا إلى الوقوف بجانب شوقى ، والهتاف له ، واستحسان قصيدته . وليس كل تفصيل للمعنى بالشيء الذى يسيغه الذوق الأدبى عند النقاد .

وإلا فحسبك أن تقرأ مطلع ابن زيدون :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

إنه مطلع ضحل المعنى ، يكرر بعضه بعضا ، فالشطر الثانى هو نفس الشطر الأول ، وليس فيه من جديد على المعنى الأول . بينما تجد المطلع عند شوقى من أروع المطالع ، وألصقها بخيال الشعراء .

أما ما نقصد إليه فهو الموازنة بين تلك المعانى التى اشترك فيها الشاعران ، لنعرف أيهما أوسع مدى ، وأرحب أفقا ، وأتم شاعرية ، وأكمل عبقرية . فإلى مقالنا التالى ؟

تفسير جزء تبارك

ألف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد القادر المغربى نائب رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بمصر كتاباً على أحدث الآراء العلمية فى تفسير جزء تبارك .

والأستاذ المؤلف غنى بمادته ، وسعة اطلاعه ، وحسن أسلوبه ، وبروزه فى ميادين العلم فى أنحاء كثيرة من العالم الإسلامى ، فلا غرو إذا جاء تفسيره آية فى علو الفهم ، وحسن الأداء .

خلفاء بنى أمية
ورعايتهم للأدب

لفضيلة الأستاذ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

الأدب نسب : يؤلف بين المتناقدين ، ويجمع بين المتباعدين ، ويربط شاعر أهله برباط قوى من العطف والتراحم ، حتى ليشعروا أنهم إخوة وإن تباعدت الأنساب وتناءت الأرحام .

لقد كان فى خلفاء بنى أمية حرص بالغ على الأدب ورعاية سامية للأدباء ، ذلك لما فطروا عليه من أذواق مرهفة ونفوس حساسة ، وما أوتوا من بصر نافذ وعقول ناضجة وأفهام متزنة ، وعروبة مطبوعة تميز من غير جهد ولا تكلف .

ومن هنا عرفوا للشعراء أقدارهم وفطنوا لقيمهم وحاولوا الإستئثار بمدائحهم ، والاستمتاع بما تفيض به قرائحهم من قول بارع وقصيد رائع ، ولقد كان الخلفاء يحرصون أشد الحرص على أن يتقرب الشعراء إليهم بقصائد الثناء ، وأن يخصوهم بها فلا يتجاوزوهم الى غيرهم من الولاة والعظماء ، حتى إن عبد الملك كان يحس فى نفسه موجدة على جرير لانقطاعه لمدح الحجاج ، وكلما حاول جرير أن ينشده منعه وقال له : إنما أنت شاعر الحجاج .

ولقد أراد الحجاج أن يقدم الى شاعره يدا بإنشاده بين يدى أمير المؤمنين فأوفده مع ابنه محمد إليه . فلما دخل عليه قال له أنشدنى ما قلت فى الحجاج فأنشده :

صبرت النفس يا ابن أبى عقيل ... محافظه فكيف ترى الثوابا
ولو لم يرض ربك لم ينزل ... مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سعر الخليفة نار حرب ... رأى الحجاج أثقبها شهابا

قال : صدقت ، هات ، فأنشده :

طربت لعهد هيجته المنازل ... وكيف تصابى المرء والشيب شامل

يقول جرير : فما فرغت منها حتى خيلت الغضب فى وجه أمير المؤمنين . ثم قال هات ما قلت فى الحجاج ، فأنشدته :

هاج الهوى لفؤادك المهتاج　　فانظر بتوضح باكر الأحداج

* * *

من سد مطلع النفاق عليهم　　أم من يصول كصولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة　　إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا　　ماضى البصيرة واضح المنهاج

فلما سمع عبد الملك بن مروان هذا الشعر القوى الرائع أخذه الغضب وملكه الغيظ ، أن يمدح واليه بهذه المدح التى يتوق إليها ويتمناها ، فما زال يقدم الشعراء ويؤخر جريرا لذلك ، إلى أن توسل إليه محمد بن الحجاج فأذن لجرير فى مدحه ، فأنشده قصيدته :

أتصحو أم فؤادك غير صاح　　عشية هم صحبك بالرواح
يقول العاذلون علاك شيب　　أهذا الشيب يمنعنى مراحى

ثم قال :

تعزت أم حزرة ثم قالت　　رأيت الواردين ذوى امتناع (١)
تعلل وهى ساغبة بنيها　　بأنفاس من الشبم القراح (٢)
سأمتاح البحور فجنبينى　　أذاة اللوم وانتظرى امتياحى
ثقى بالله ليس له شريك　　ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثنى يافداك أبى وأمى　　بسيب منك إنك ذو ارتياح
فإنى قد رأيت على حقا　　زيارتى الخليفة وامتداحى
سأشكر إن رددت الى ريشى　　وأنبت القوادم فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا　　وأندى العالمين بطون راح

فطرب عبد الملك وجعل يقول : نحن كذلك وما زلنا كذلك . ثم قال له : أترى أم حزرة ترويها مائة ناقة ؟ فقال : إن لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله .

---

(١) امتنح : أخذ العطاء .　(٢) ساغبة : جائعة أو عطشى والأنفاس : الجرعات جمع نفس أى جرعة الشبم البارد والقراح : الماء الخالص .

وبما يدل على سلامة أذواق الخلفاء ورغبتهم فى أثارة السبق والمنافسة بين الشعراء، ما يؤثر من أن الفرزدق وجريرا اجتمعا عند عبد الملك ، فقال الفرزدق: النوار طالق ثلاثا إن لم أقل شعرا لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه ولا يجد فى الزيادة عليه مذهبا فقال عبد الملك ما هو ؟ قال :

فإنى أنا الموت الذى هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله
وما أحد يا ابن الأتان بوائل من الموت إن الموت لا شك نائله

فأطرق جرير ثم قال : أم حزرة طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت عليه ، فقال عبد الملك هات ، فقد والله طلق أحدكما لا محالة . فأنشد :

أنا البدر يغشى نور عينيك فالتمس بكفيك يا ابن القين هل أنت نائله
أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجيئنى بمثل الدهر شيئا يطاوله

فقال عبد الملك للفرزدق : فضلك والله يا أبا فراس ، وطلق عليك .

وكانت هبات الخلفاء وعطايا تجيء أحيانا فى صورة جوائز تمنح للسابق وتعطى للمبرز ، لأثارة عوامل المنافسه وغريزة السبق والغلبة ... يروى أن جريرا والفرزدق والأخطل اجتمعوا فى مجلس عبد الملك ، فأحضر بين يديه كيسا فيه خمسمائة دينار ، وقال : ليقل كل منكم بيتا فى مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس ، فقال الفرزدق :

أنا القطران والشعراء جربى وفى القطران للجربى شفاء

وقال الأخطل :

فأن تلك زق زاملة فإنى أنا الطاعون ليس له شفاء

فقال جريرى :

أنا الموت الذى آتى عليكم فليس لهارب منى نجاء

فقال عبد الملك : لعمرى إن الموت يأتى على كل شيء ، وحكم بالجائزة لجرير .

فهل بعد هذا إثارة الشياطين الشعر وتهييج لألوانه وبعث لجيده .

فهذا الإغداق إنما دعا إليه ما طبعوا عليه من دقة الفهم وسمو الذوق وصدق المعرفة لمواطن البلاغة وسحر البيان .

ومن أمثلة ذلك ما يروى من أن عبد الملك وصفت له جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه فيها فامتنع وامتنعت ، ثم أضعف لصاحبها الثمن وأخذها على كره منها ، فأعجب بها عبد الملك وأمرها بلزوم مجلسه والقيام على رأسه ، فبينما

هى عنده ومعه ابناه الوليد وسليمان ، وقد أخلاها للمذاكرة إذ أقبل عليهما فقال : أى بيت قالته العرب أمدح فقال الوليد قول جرير فيك :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقال سليمان بل قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقادلهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

فقالت الجارية : بل قول حسان :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

فأطرق عبد الملك ثم قال وأى بيت قالته العرب أرق ، فقال الوليد قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فقال سليمان ، بل قول عمر بن ربيعة :

حبذا رجعها إليها يديها من يدى درعها تحل الأزارا

فقالت الجارية : بل بيت حسان :

لو يدب الحولى من ولد الذ ر عليها لأندبتها الكلوم

ثم قال عبد الملك : أى بيت قالته العرب أشجع فقال الوليد قول عنترة :

إذ يتقون بى الأسنة لم أخم عنها ولكن تضايق مقدمى

فقال سليمان : بل قوله :

وأنا المنية فى المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

فقالت الجارية بل بيت كعب بن مالك .

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدما فيلحقها إذا لم تلحق

فقال عبد الملك للجارية : أحسنت ، وما نرى شيئا من الإحسان إليك أبلغ من ردك الى أهلك ، فأجمل كسوتها وأحسن صلتها وردها الى أهلها .

ومن شدة بصرهم بالشعر وألمعيتهم فى إدراك أسراره والوصول الى أغواره وتتبع خوافيه ، أن عبد الملك حين بلغه قول جرير يهجو الأخطل :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم الى قطينا

قال ما زاد ابن المراغة على أن جعلنى شرطيا له ، أما والله لو قال : لو شاء ساقكم الى قطينا ، لسقتهم إليه كما قال ؟

البابية والبهائية

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

— ٣ —

بعد أن دب الخلاف فى صفوف البابيين ، رأى البهاء أن يترك الميدان فترة من الوقت ، فاختفى فى ضيعة سركاو بمدينة السليمانية [أو شهرزور] فى كردستان ، ولبث معتزلا العالم عامين ، رجع بعدهما إلى بغداد .

وللخلاف بين الأخين قصة ، فكل منهما يدعى أنه « من يظهره الله » ، فيقول أصحاب ـ صبح الأزل ـ إن البهاء قد خدعه وحجبه عن الناس ، وظهر هو بمظهر « من يظهره الله » . أما أصحاب البهاء فيقولون إن البهاء كان صاحب مقام خاص عرفه الجميع ، ولذلك كانت تحيط به أخطار كثيرة ، فكتب بعض البابيين يطلبون من الباب تحويل الأنظار عن بهاء الله ، فأجابهم إلى ذلك فى أواخر أيامه ، فاتخذ « ميرزا يحيى » ستاراً يختفى وراءه البهاء ، ولقبه بألقاب الأزل والوحيد والمرآة . ثم أمر بعض الصحاب أن يشهروا اسمه بين عامة « الأحباب » حتى تتحول إليه الأنظار .

وقد اتخذ الباب حيطته حتى لا يتمكن ميرزا يحيى من الادعاء لمقام الأصالة ، فلم يعطه ألقابا صريحة مثل « الشمسية والمظهرية والمختارية » وإنما لقبه ألقابا ذات معنيين ، فكلمة وحيد تفيد : الوحيد فى الإيمان أو الوحيد فى الطغيان ، كما أبان فى « البيان » وفى كثير من « التوقيعات » عن لقب المرأة ، فقال : « لا يمكن للمرأة التجلى إلا فى ظل من يظهره الله » .

تلك هى روايات الفريقين ، وهى وحدها كافية للتدليل على بطلان هذه « الدعوة » الزائفة ، أما قصة « النبيين » فتستمر ، ولنا إليها عود .

* * *

رجع البهاء من منفاه الاختيارى ، فأخذ الناس يتوافدون إلى بغداد ، سواء

يدفعهم حب الاستطلاع ، أو الرغبة فى الاستماع إليه . وعلى شاطىء الدجلة ، كتب بعض الكتب والأشعار والأدعية ، وأشهر ما كتبه إذ ذاك « الكلمات الخفية » و « الأودية السبعة » . ولم يلبث البهاء طويلا حتى نقل إلى استامبول ، بعد أن اتفق سلطان تركيا وشاه إيران على ذلك . وقضى البهاء قبل مبارحته بغداد اثنى عشر يوما فى حديقة ، سماها البهائيون فيما بعد « حديقة الرضوان » ، وفيها أعلن لأخصائه سنة ١٨٦٣ م أنه هو الذى بشر به الباب . ويحتفل البهائيون بهذه الأيام احتفالا كبيراً . ولم يمكث البهاء فى استامبول طويلا ، فقد نفى منها إلى أدرنة ، وفيها جهر « برسالته » ، ومن ذلك الحين عرف أغلب البابيين باسم البهائيين .

وفى أدرنة كتب البهاء « خطاباته إلى الملوك » يحثهم فيها على اعتناق « الدين الجديد » والإيمان به ، وكان يصاحبه فى منفاه أخوه صبح الأزل ، الذى جاهر « بنبوته » أيضا ، فوجدت الحكومة التركية نفسها أمام جمعين يتطاحنان ، فأرادت حسم النزاع ، بأن تفرق بين « النبيين » فنفت أحدهما إلى جزيرة قبرص ، والآخر إلى عكاء . وكان اختيار مكان المنفى مصادفة محضة ، ولكن ما ترتب عليها من نتائج كان عظيما ، فإن صبح الأزل كان هو الذاهب إلى قبرص ، وكان نصيب البهاء عكاء . ومن هذا التاريخ نجد ثلاث فرق بابية : بابية خالصة لم تتبع أى الاثنين ، وبابية بهائية ، وبابية أزلية ، وقد حابى القدر الفرقة الثانية ، فبقيت وذاع أمرها بينما فنيت الفرقتان الأخريان .

وفى عكاء قاسى البهاء كثيراً ، وتوفى بها فى مايو سنة ١٨٩٢ عن خمسة وسبعين عاما ، ودفن فى قبر سمى « بيت البهجة » على سفح جبل الكرمل ، وترك وصية أعلن فيها تعيين ابنه عباس المعروف بعبد البهاء خليفة له ومفسراً لكلماته .

وأشهر كتب بهاء الله هى « الأقدس » ، وقد نهج فيه منهج القرآن فى ترتيب السور والآيات ، دون فيه « شريعته وأحكامه » ، وهو يتحدث فيه على درجتين : كلام على لسانه ، وكلام على لسان الله ـ جل وعلا ـ وسنذكر بعض « آياته » فيما بعد . وكتاب « ايقان » فى تفسير بعض آيات القرآن وبعض الألواح .

خلف عباس عبد البهاء أباه ، وقد ولد فى ٢٣ مايو سنة ١٨٤٤ ، أى نفس اليوم الذى أعلن الباب فيه دعوته الكاذبة . وصحب أباه فى سجنه وتنقل معه بين بغداد واستانبول وأدرنة وعكا أخيرا . وظل سجينا بها مع أبيه حتى سنة ١٩٠٨ ،

حين أعلن الدستور العثمانى ، وأطلق سراح السجناء السياسيين والدينيين . وكان عبد البهاء ذكيا ، تلقى معرفة وعلماء كثيرا ، كما كان هو الرأس المفكر للبهائية ، فهو الذى جعل من أبيه شخصية فذة لها خطرها ، وهو الذى جعل البهائية تنتشر وتذيع فى العالم .

ولعلنا لا نغالى إذ نقول إنه لولا عبد البهاء ، لكان مصير البهائية البابية هو نفس مصير البهائية والأزلية ، إلا أنه نفخ فيها من عزيمته قوة ، ومن روحه مضاء ، فأخذ ينظم الاجتماعات بين أبيه البهاء وبين الرحالة من الأجانب ، مصطنعا فى ذلك أقوى طرق التأثير النفسانى . فكان الزائر يعالج أول الأمر بقصص عن البهاء وقداسته تهيئة للجو ، ثم يدخل ليقابل البهاء ، فيخلع نعليه ويسير على طنافس فى حجرات خافتة الضياء ، وفى نهاية صالة طويلة يجد شخصاً وقورا يعامله الجميع باحترام - إن لم نقل بتقديس - وهو البهاء ، لا يتكلم مع الزائر إلا كلمات معدودات ، بينما يأخذ عبد البهاء على كاهله العبء كله ، ويخرج الزائر ، وكله دهشة ، وقد تشبعت نفسه ولا ريب بهذا التأثير البسيكولوجى المهيأ ، فيكتب عن البهاء كتابة تزيد من قدره . كما حدث فعلا فى هذه الأوقات .

وسافر عبد البهاء ، بعد أن أطلق سراحه ، إلى مصر وأوربا وأمريكا يدعو للدين الجديد . ولم يدّع النبوة ، ولكنه كان يتصرف ويفسر كلمات الباب والبهاء حسب مقتضيات الأحوال . كما أنه وضع نظاما إداريا للبهائية ، وعين لرئاسة الدين من بعده حفيده (لابنته) شوقى أفندى وهو الرئيس الحالى . وبنى فى أيام عبد البهاء المعبد الثانى للبهائية فى مدينة ويلمت بجانب شيكاغو بأمريكا ، على طراز المعبد الأول فى مدينة عشق أباد بتركستان الروسية .

ومات عبد البهاء فى نوفمبر سنة ١٩٢١ ، وقد قارب الثمانين ، وسار وراء جثته خلق كثير من مختلف الأديان ، خاصة وقد أسبغت عليه الحكومة البريطانية أحد ألقابها ومنحته بعض نياشينها تقديرا لمجهودات بذلها فى الحرب العالمية الأولى . ولعل فى هذا ما يفسر التسهيلات الكبيرة التى كان يلقاها عبد البهاء منذ سنة ١٩١٧ إلى مماته .

وبهذا نكون قد أرخنا لأهم شخصيات البابية والبهائية ، وبقى أن نتناول « الدين البابى البهائى » نفسه فى مقالاتنا التالية .

أثر التفرق فى الاندلس

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف

المدرس بالأزهر

أتم عبد الرحمن الداخل توحيد بلاد الأندلس . وأمن أطرافها . وأعلى شأنها وأرسى قواعدها ، ودفعها إلى الأمام تضرب فى ميادين التقدم والنهوض بخطى واسعة وهمة فتية ، وعزم قوى ، ونشاط بالغ ، وتعهد هذه النهضة خلفاؤه من بعده فى جد ومثابرة ، لتبلغ الغاية التى يرقبونها ، والهدف الذى يقصدون إليه . حتى ازدهرت بقاع بلادهم الخصيبة بمجهود الفاتحين ، وتقدمت بأرجائها العلوم والآداب والفنون . وأينعت بها علوم الرياضة والفلك والنبات والتاريخ والفلسفة والتشريح . وعنوا عناية كبيرة بكل ما يؤدى إلى رقى باهر ، وحضارة سامية . جعلت أسبانيا المسلمة مطمح الأنظار ، ومعقد الرجاء ، ومحط الرحال .

وكانت تمتاز مع هذا بطيب هوائها ، ووفرة خيراتها ، ورقة أهلها ، وما طبعوا عليه من حس مرهف ، وكرم وأريحة ، وخلق يأبى الضيم ، ويسرع إلى النجدة ، ويرعى الجار ، ويفى بالعهد ، ويدين بالوفاء ، ويقدس التسامح ، ويستعذب البذل دفاعا عن الدين ، وزيادا عن الوطن ، حتى قيل إنهم جمعوا بين حكمة اليونان ، وفروسية الرومان ، وهمة العرب وصبرهم . وقد تعلقوا بحب بلادهم ، وكانوا معجبين بها أيما إعجاب ، ولا يبغون عنها بديلا مهما نالهم فى غيرها من حفاوة وجده .

وقد روى أن أديبا من أهلها وهو أبو عمران موسى بن سعيد كتب إليه أحد الوزراء يرغبه فى النقلة إلى مراكش فأبى وكتب إليه كيف أفارق الأندلس . وقد علم سيدى أنها جنة الدنيا بما حباها الله من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وكثافة الأفياء ، وأطنب فى كتابه يعدد محاسنها . وبقيت قبلة أهل المشرق تهفوا إليها العقول المتعطشة إلى الرى بالمصفى من علومها وآدابها . ويتعشق حب

الرحيل إلى حواضرها وقراها ذووا النفوس التى تبتغى الاستمتاع بجمالها الذى دبجته يد الطبيعة من مروج وبساتين ، ومياه متدفقة ، وأشجار باسقة ، وخمائل جميلة . إلى أن تسلل إليها فى نهاية القرن الخامس الهجرى .

ذلك الداء الوبيل الذى تمكن منها بعد فترة وجيزه ، فأنهك قواها وفت فى عضدها ، وأقعدها عن السير ، وصرفها عن التفكير فى ربط الحاضر بالغابر ، وهو داء التفرق والخلاف ، حينما تقطعت أوصال الدولة إلى ولايات ، كل ولاية عليها أمير . وتأصلت فيهم رغبة ملحة فى أن يبسط كل منهم رقعة إمارته على أنقاض غيره ، مستهينا بما يتحمل فى سبيل تحقيق رغبته من محن وآلام ، وبما يأتيه من عمل لا يتفق ، وما يوحى به واجب الجوار وبسبب هذا قد تأرثت بينهم العداوة والبغضاء ، وطويت جنوبهم على الغل والحقد ، وجرت على ألسنتهم عبارات الخديعة والرياء ، وعاشوا فى جو من عدم الثقة والاطمئنان .

وكان المعتمد بن عباد يعمل على إثارة الحروب الأهلية بين الأمراء ، فيحرض بعضهم على بعض ، إضعافا لهم ، وخضدا لشوكتهم ، ولم تسلم من اضطرام لظاها سائر جنبات الأندلس ، تحمل إلى مروجها الجميلة صنوف التخريب والتدمير ، وكانت قرطبة ، وأشبيلية ، وطليطلة ، أطراف هذه المحنة الخطيرة التى قضت فيما بعد على مستقبل الإسلام ، ولقد بلغ ببعض الولاة فى سبيل تنفيذ أمله ، وتحقيق مقصده والبلوغ إلى هدفه أن يستنصر بملك النصارى كما فعل ابن ذى النون ملك طليطلة مع فرديناند الأول ملك قشتاله ، فقد حالفه ليأمن جانبه حين أزمع الهجوم على ابن جهور بقرطبه ، ولكن فرديناند خاس بعهده فى النهاية واستولى على طليطلة بتحريض من ملك أشبيلية مدبر هذه النكبة الجسيمة التى كان لها وقع هائل فى الأندلس ، وفى العالم الإسلامى بأسره ، وكذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطه لذريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية ، فحاصرها ولكن الفقيه القاضى بن جحاف عقد معه هدنة خاس فيها أيضا ، ثم أحرقه بالنار ، وعاث فى بلنسية فساداً . وفيها يقول ابن خفاجة :

عاثت بساحتك الظبا يا دار   ومحا محاسنك البلى والنار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار
فإذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار

ويقول أبو عبد الله بن الآبار القضاعى يستنهض صاحب إفريقية للدفاع عنها حينما حاصرها ملك برشلونه النصرانى . من سينيته الفريدة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
ما للجزيرة أضحى أهلها جزرا للحادثات وأضحى جدها تعسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

وكشف سقوط طليطلة واستذلال بلنسية ثم سقوطها ، وسقوط بعض الإمارات عن ضعف أمراء الطوائف نتيجة لتفرقهم ، وصور لهم أشباح العبودية والموت تتعانق فى مستقبل مشئوم يتطلب ضم الصفوف ، ونسيان الأحقاد ، واجتماع القلوب على التضحية والبذل والإيثار ونكران الذات لوقف تيار البغى والعدوان ، وقد دعا ذلك عقلاءهم إلى أن يفكروا فى الأمر مدفوعين بالأثر الأليم الذى أحدثه سقوط طليطلة أولا أحدى قواعد الأندلس ، والحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية ، وسقوطه إنما هو نذير بانهيار الصرح كله .

ونهض تحقيقاً لتلك السياسة أبو الوليد قاضى باجه وكان شيخاً ذا نفوذ ومكانة . فطاف بالولايات والمدن ، وتجول فى ماردة وغرناطة واشبيلية صائحاً منذرا . ومحذراً من عواقب التفرق ، مؤكداً أن ملك قشتالة سيهلك ملوك الطوائف كلها . إذا لم تسارع إلى الاتحاد والتعاون ، ولكن جهوده وجهود أمثاله من الرسل العقلاء الذين كانوا يستشفون ببصرهم الثاقب ما يضمره المستقبل من ويل وهول ذهبت جميعها أدراج الرياح ، وعلت الأطماع والأهواء الشخصية على كل مبدأ حكيم ، واندفعوا فى شقاقهم ـ آفة الأمم منذ بدء الخليقة ـ وكان له فى أمم الإسلام أسوأ الآثار ، وأقسى التجارب فى بلاد المشرق والمغرب ، ذاقوا مرارته ، وتحملوا ويلاته ، ولم يستبينوا النصح إلا بعد أن كشف لهم الفونسو ملك قشتالة عن نياته . ولم تقف أطماعه عند أمد ، وجاوزت رغباته كل مدى ، وأخذ يثب على الإمارات واحدة تلو الأخرى . ثم طلب أخيراً من ابن عباد أقوى أمراء المسلمين أن يسلم

إليه بعض قلاعه ، فهاله ذلك وطرد رسله ، ونبذ فكرة التغلب التي كان يدين بها ، وكانت سبباً فى إشاعة روح الحقد والشحناء بينهم ، ومن أقوى العوامل التي دفعتهم إلى التنافس فى سبيل التحالف مع ملوك النصارى مما أدى إلى ذهاب ريحهم ، وتيسير أسباب التسلط عليهم باستجابتهم لكل ما طلبه العدو فى إماراتهم من قلاع وحصون ومال وعتاد . نبذ ابن عباد فكرة التسلط ودعا إلى مؤتمر عام حضره الأمراء ، وبحثوا فى صراحة لا تعرف المواربة الأسباب التي أدت إلى خذلانهم ، وانتصار عدوهم ، وإلى ضعف قوتهم ، وتماسك خصومهم ، وقد تكشف لهم الداء ووضح لجميعهم أن الدواء الذى يشفى علتهم ، ويبرىء سقمهم ، ويرأب صدعهم ، إنما هو اتحاد كلمتهم تنفيذاً للمبدأ الإسلامى الذى يجعل من المؤمنين أخوة تجرى المودة والمحبة فى عروقهم ، وتؤمن بالوفاء والإيثار قلوبهم ، وتنأى عن الأغراض والمآرب هممهم إذ ذاك أجمعوا أمرهم ، ولموا شعثهم ، واتفق رأيهم على أن يتجهوا إلى « يوسف بن تاشفين » ملك بلاد الغرب ليعبر إليهم البحر فاستجاب إلى رغبتهم تدفعه النخوة الإسلامية إلى المساهمة فى الدفاع عن الإسلام ، وإنقاذ المسلمين مما جره عليهم تنازعهم ، وتشعب أهوائهم من مهانة واستذلال ، وليحقق أمله المرجى الذى طالما تاقت نفسه لتحقيقه ، وهو أن تمتد فتوحه إلى بلاد الجزيرة التي سمع عن حضارتها وعمرانها الكثير من الأخبار ، ثم جمع جموعه ودخل الأندلس وحالفه النصر على ملوك النصارى فى موقعة الزلاقة ، وبعد مدة أمضاها بالأندلس قفل راجعا إلى بلاده ، وترك الجزيرة تلعب بها الأهواء مرة أخرى ، وتفرخ فى أرضها الفتن ، وتثور بها القلاقل من جديد ، وانحدرت نتيجة لذلك فى وهاد من الضعف والانحلال ، وأخيراً انحصر هذا الملك المترامى الأطراف وانكمشت رقعته وتمثل تاريخه المجيد وعظمته الخالدة ، وحضارته التالدة فى مدينة غرناطة التي مدت فى عمر المسلمين بهذه الديار نحو أربعة قرون ، ثم كانت النهاية المحتومة ، وسلم المسلمون آخر معاقلهم إلى العدو الغادر بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع وقطع فرديناند الخامس على نفسه للمسلمين كل العهود التي تضمن لهم الأمن والطمأنينة على حياتهم وأموالهم وأعراضهم وشعائرهم فى ظل الحكم الجديد . وسنبحث فى الكلمة القادمة قيمة هذه العهود ؟

الاســــــتحياء من الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد ابراهيم الحفناوى
وكيل معهد سمنود الدينى

الحياء شعبة من الإيمان ومن لا حياء فيه لا خير فيه . به كمال الإنسانية وسمو البشرية . لا يصدر إلا عن طبع رقيق . يدفع إلى طاعة الله ويمنع عن عصيانه ، وينظم سلوك الناس بما يسعد المجتمع ويرفع من بنيانه فإذا اتخذه المؤمن شعاره ، وجعله فى تقربه إلى الله مناره فقد هدى إلى صراط مستقيم ، وظفر فى دينه ودنياه بالخير العميم . . ولهذا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه . وحث المؤمنين جميعا عليه ؛ وبين أسبابه ومقوماته وفصل وسائله وأوضح غاياته . حيث قال فى جوامع كلمه . استحيوا من الله حق الحياء . قيل وكيف ذلك يا رسول الله . قال : من حفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وذكر الموت والبلى . وترك زينة الحياة الدنيا . وآثر الآخرة على الأولى فقد استحيا من الله حق الحياء . صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فما الإنسان إلا رأسه وبطنه . يجتمع فيهما حواسه وشهواته ؛ وتنفجر منهما ميوله وخطراته . ففى رأسه عقله وسمعه وبصره وفمه ولسانه ، وفى بطنه أوعية شرابه وطعامه وأجن غرائزه وأخطر جوارحه . فإذا حفظ هذه الأشياء وصانها عن العبث ووجهها إلى الدين والخير وابتعد بها عن طريق الضلال والشر . فقد أرضى الله ووقف بها عند حكمته . وأحسن شكره على نعمته . . وحفظ العقل يكون بإبعاده عن وساوس الشيطان ومنعه عن البحث فى ذات الرحمن . . ويكون بالتفكير فى جلال الله وعظمته وإدراك أسراره وحكمته وإعطائه ما تستحقه الربوبية من إخلاص العبادة وصدق العبودية . . . وحفظ السمع يكون بإعراضه عن اللغو وعزوفه عن الهجر وبذلك يكون أصم عن الشر . سمّاعا للخير .

وحفظ البصر يكون بتوجيهه إلى آيات الله فى الكون ليعتبر ، ويغضه عن محارم الله حتى لا تستهوى النفوس .

وحفظ الفم يكون بكمه عما حرم الله ؛ والقصد فيما أحله .

وحفظ اللسان يكون بألا ينطق إلا بالحق ولا يتكلم إلا بالصدق .

وحفظ البطن يكون بحل ما يستقر فيها من الطعام والشراب ؛ بالقدر الذى يمسك الأود ويقيم الأصلاب وبهذا تحفظ الغريزة البهيمية من حق يدفعها إلى الفاحشة ويزين لها المواقف الطائشة .

ولقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الشريف ما يعين المؤمن على حفظ هذه الأشياء ويسهل له السيطرة عليها ليتحلى بالحياء فدعا المؤمن إلى ذكر الموت وفى ذكره تبصير بالمصير الذى ينتظر كل العالم . وتنبيه إلى الغاية التى يسير الله اليها كل مخلوق . . فمتى أيقن الإنسان بمحتوم الأجل زود نفسه بالتقوى وتدرع بصالح العمل . ومتى جعل الإنسان نصب عينيه أن كل نعيم لا محالة زائل وأن كل شىء ما خلا الله باطل . فقد سخر من الدنيا وزهرتها وآثر الآخرة على الأولى وزينتها . وجعل همه من دنياه أن تكون مزرعة لأخراه فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء وفاز من رحمة ربه بأحسن الجزاء . . هذا خلق قويم من أخلاق الإسلام يكبح جماح النفس ويبطل كيد الشيطان . . ويحرس كل الفضائل ويطهر عبودية الإنسان .

وإذا كان الاستحياء من البشر يمنعنا من التبجح فيهم ويدفعنا إلى اتيان ما يرضيهم ويوقفنا منهم موقف الأدب والخشوع ويطبع جوارحنا بطابع من الانكسار والخضوع . فكيف لا نستحي من الله حين نجعل حياءنا منه أقل من حيائنا ممن سواه وكيف نجعل حياءنا من المخلوق أكثر من حيائنا من الخالق وكيف لا نستحي من المعبود فوق ما نستحي من العابد ومن أحق بالاستحياء منه من الله . فمنه البدء وإليه المرجع وله الخلق والأمر وبيده النفع والضر وإذا كنا نستحي من المخلوق وهو لا يرى منا إلا ما ظهر فكيف لا نستحي من اللطيف الخبير الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

لهذا يقول الله فى الحديث القدسى يا بنى آدم إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين اليكم .

وفقنا الله إلى الاستحياء منه ونزهنا عن الخضوع إلا إليه وهدانا جميعاً إلى معرفة حقه من الطاعة والامتثال .

ومكن للمسلمين فى الأرض وحقق لهم الآمال ؟

من تاريخ ما قبل البعثة :

ورقة بن نوفل

الداعية إلى التوحيد فى أرض الوثنية

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

شاء الله أن ينقذ الإنسانية ، ويهدى البشرية ، إلى النور والخير والتوحيد ؛ فولد رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه واستبشر بميلاده الكون ، وعم الفرح والبشر كل مكان .. وشب رسول الله ونما ، سيدا شريفا ، ونبيلا سريا ، وفتى زكيا ؛ حتى كان فى الثالثة عشرة من عمره ، فخرج به عمه أبو طالب إلى الشام فى تجارة ، وفى بصرى قصبة حوران والبلاد العربية الخاضعة لحكم الروم رآه بحيرا الراهب ، فرأى الآية الكبرى ، والمعجزات الناطقات ، فأخذ يحدث محمدا ويسأله ، ثم قال لعمه : اذهب بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فإن له لشأناً ؛ وتحدث من كانوا مع أبى طالب بهذا فى مكة ، وسمعه ورقة ، فآمن بقرب ظهور النبى المرتقب ، والرسول الأمى الذى يخرج من بلاد العرب لهداية الدنيا وإنقاذ العالم من الشرك والضلال .

وخرج محمد بن عبد الله ، وقد تخطى العشرين عاما ، إلى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، ابنة عم ورقة « أمينا حفيظا عليها . وكانت خديجة سيدة جليلة ذات يسار وتجارة ؛ وكان مع محمد فى رحلته غلامها ميسرة ، فذهبا إلى الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عادا إلى مكة ، وأخبر « ميسرة » سيدته بما شاهد من مخايل الاصطفاء المحمدى ، وإظلال الملائكة والغمام له ، وأحاديث الأحبار عنه . فذهبت خديجة إلى ورقة تذكر ذلك له ، فقال : « لئن كان هذا حقا ياخديجة إن محمدا لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة ينتظر هذا زمانه .

وصار ورقة حكيم العرب وشيخها، وعالمها وقطبها، وحبرها الخبير بأحداث الدهر وتجارب الأيام . وازداد مكانة فى قومه، وازداد قومه له إجلالا وتقديرا؛ فكانوا يصدرون عن رأيه، ويستهدون بمشورته، ويتفاءلون بنصائحه وفراسته وصدق إلهامه .. وكان فى الخامسة والسبعين من عمره، ومحمد بن عبد الله صلوات الله عليه فى الخامسة والعشرين .

وكان ورقة يتفاءل بمستقبل حافل عظيم لمحمد، ويتطلع إلى ما سوف تظهره عناية الله على يديه من هدى ونور ورحمة وخير للانسانية .

واستشارته خديجة بنت خويلد، ابنة عمه، فى الزواج بمحمد؛ فهنأها من أعماق قلبه بهذا الجَدّ السعيد، والزوج الكريم، محمد بن عبد الله، الأمين المؤتمن، والصادق الصدوق .

وأخذ ورقة يبشر الناس بأن محمدا سيكون نبي العرب، والرسول المرتقب، الذى يختاره الله من بين الخلق لإبلاغ رسالته إلى الناس كافة .. وجعل يتلهف أن يرى أيام بعثته، وأن يظهر نور الله، وينزل ناموسه إلى الأرض، وهو حى ليؤمن به ويصدقه ويؤازره وينصره ... وأخذ يستبطىء الأمر، ويقول : حتى متى أمر الله ! !.

وكانت خديجة تقص عليه ماتشاهد من كرامات زوجها محمد بن عبد الله؛ وورقة يزداد إيمانا بأن محمداً هو النبي المدخر لهداية الناس والدنيا ... ومن قوله فى ذلك :

لججتَ وكنتَ فى الذكرى لجوُجا ... لهمٍّ طالما بعث النشيجا (١)
ووصف من خديجة بعد وصْف ... فقد طال انتظارى ياخديجا
بأنّ محمداً سيسود يوماً ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويُظهر فى البلاد ضياء نور ... يُقيم به البرية أن تموجا

وصار ورقة يستزيد ابنة عمه خديجة من أخبار بعلها وفتاها، ويسأل عن محمد ليل نهار ... ويعلن فى الناس أن محمداً مدخر لأمر عظيم . ويقول :

وأخبار صدق خُبّرتْ عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصح

(١) اللجاجة : التمادى فى الأمر . النشيج : مثل بكاء الصبي يردده فى صدره

غزوة الحديبية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى
المدرس بالأزهر

— ١ —

جاءت الدعوة المحمدية فحاولت قريش أن تخنقها فى مهدها بما أقامت فى طريقها من عراقيل وأشواك ، وبما أقدموا عليه من حرب طاغية ، تارة بالنيل من نفسه ، وأخرى بإيقاع الأذى بمتبعيه حتى فرضت عليه الحصار فى شعاب الجبال ، وقطعت عنه الزاد ، وحرمت المسلمين من إقامة شعائر دينهم ، وهم يتزايدون على مر الأيام ويكثرون ، ولا يزيدهم هذا العنت فى الخصومة واللجاجة فى العناد إلا إصراراً على التمسك بدينهم ، والفناء فيه ، واستعذاب الموت فى سبيله ، والتلذذ بالألم ، وتقبله بنفوس مطمئنة إلى نصر الله ، وحادث تعذيب بلال وعمار بن ياسر وأبيه وأمه ، ترينا أكبر صورة عن مدى الثقة فى الله ، والاطمئنان إلى دعوة الحق

فتاكِ الذى وَجَّهتِ يا خير حُرَّة ... بغور وفى النجدين حيث الصحاصح[1]
إلى سوق بصرى فى الركاب التى غدت ... وهن مع الأحمال قُعْصٌ دوالح[2]
يخبرُنا عن كل حبرٍ بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتح
بأن (ابن عبد الله أحمد) مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظنى به أن سوف يبعث صادقا ... كما أرسل العبدان : هود وصالح

وكان ورقة ينشد الشعر يتشوق فيه إلى إنجاز وعد الله ، وكريم رحمته ، وعظيم رعايته للحياة والإنسانية ، بإرسال رسول من العرب إلى الناس ليهديهم سواء السبيل ... وكان يمنى نفسه بأن يرى بعثته ليؤمن به ويصدقه وينصره

وهكذا عاش ورقة كريما مبجلا ، سيدا شريفا سريا ، حكيما متدينا ، متطلعا إلى التوحيد ، إلى أن بعث محمد بن عبد الله ؟

---

(١) جمع صحصح : ما استوى من الأرض . وأرض صحاصح : ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء

(٢) قعص من قعصه إذا قتله قتلا سريعا . دوالح من دلح البعير إذا مر بحمله مثقلا

والقوة ، دعوة الرسول لدين الله ، وما كان يقوله هؤلاء المعذبون حين يشتد بهم الكرب أحد أحد ، ومرحباً بالجنة فإنا إليها مشتاقون .

دام ذلك الصراع القوى الجبار بين كفار قريش والمصطفى صلى الله عليه وسلم يسير بدعوته قدماً لا يلويه عنها تهديدهم ، ولا يثنيه جبروتهم ولا إجرامهم الذى بلغ مداه فى العمل على إيقاف الدعوة الدينية .

ولما رأى المصطفى أن قريشاً تمعن فى تحديها للمستضعفين من المسلمين أمرهم بالفرار بدينهم إلى أرض يتمكنون فيها من القيام بواجبهم الدينى من غير أن يلحقهم عنت أو إرهاق ، ويبقى هو يجالد قريشاً ويسمعهم زواجر القرآن وروادعه ، ويقرع باطلهم بحق الله القوى ، وآياته الباهرة التى تقهرهم ، وتدحض حججهم ، ولكن القلوب التى ران عليها الجهل ، وطمس الله عليها ، فلا تحس ما حولها من دلائل قدرته لأنها قد عميت الدلائل المشرقة التى تسفر عن جلال الله وعظمته سفور الشمس فى اليوم الصحو .

ومع ذلك فيمعنون فى عدوانهم ، ويصمون آذانهم عن سماع الحقيقة المدوية التى تقرع أدمغتهم فيحنون رؤسهم أمام عظمتها ، ولكنهم لضلالهم يزيدهم ذلك إسفافاً ليس وراءه حد ، وفى النهاية هم الفاشلون . والدعوة سائرة فى طريقها بخطى وئيدة ، وكلما بهرتهم الحجة ورأوا نجمه يظهر كلما أخذتهم لوثة الحمى ، فازدادوا فى أذاهم حتى أذن الله للدعوة أن تتطور فيمم المصطفى وجهه إلى يثرب ليجد جواً أوفق يصلح لنشر دعوته ، وتبليغ رسالته بصورة أوسع ، وقدر أن يكون ذلك المكان فى طريق قريش حين صعودها بتجارتها أو بنزولها بها .

وقد استقر به المقام فى يثرب ، عربها كلهم مؤمنون عن يقين ، ويهودها قد أخذ عليهم العهد فأخذ ينظم شؤن أتباعه ومعيشتهم ، والله ساهر عليه يرعاه ، فأرسل له قريشاً فى صورة العير ليقتل أساطينهم ، ويأسر فحولهم ، وتتناقل الأخبار بذلك الانتصار انتصار العقيدة الثابتة ، يسندها اليقين القوى بأن الله ينصر من ينصر دينه ويقابل المصطفى شرذمة الكفر مع جبروتها ، وكثرة عددها ، واستكمال عدتها فى رجاله الذين باعوا أرواحهم بيع السماح فى سبيل نصرة دينهم اقتداء بقوله تعالى « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . وبذلك يكتب التاريخ أن الباطل فى ظاهر

القوى الجبار لا يلبث أمام نور الحق إلا أن تخمد ناره ، ويخبو أواره ، ويغنم المسلمون العز والسؤدد مع الأسلاب والأشياخ من قريش ورقة المصطفى تقضى بقبول الفدية من غنيهم والعفو عن فقيرهم مع شدة العداوة ، ولم لا يكون كذلك ومن يعفو إذا لم يعف هو صلى الله عليه وسلم .

إلا أن عناد قريش لم يقعدها أمام تلك الهزيمة المنكرة ، بل تركب رأسها ، وتنازل المصطفى المرة والثانية ، وفى كل مرة تؤلب عليه ما حولها من الذين ينزلون على رأيهم حتى كتب عليهم الذل فى غزوة الأحزاب بعد أن ظنت أنها بما جمعت فى الخارج ، وما دسته عليه مع اليهود من الداخل أنها واصلة إليه ، وأنها ستضربه الضربة التى لا قيامة له بعدها ، وأن تخنق الدعوة فى مهدها هى ترسم والعناية تحف به ويأبى الله لدينه إلا أن يشع نوره حتى يعم الآفاق ، ففرق جمعهم وأشاع الخلاف فى صفوفهم ، وأدخل الرعب والفزع فى قلوبهم حتى جعل الواحد منهم يفر لا يلوى على شىء حتى صدق عليهم المثل « انج سعد فقد هلك سعيد » .

هنالك بدأ الإسلام يأخذ طريقه إلى القلوب ، وينفذ إلى الأسماع ، وأخذ نجمه يتألق فى أطراف الجزيرة العربية ، بل ويتجاوزها إلى الأقطار الأخرى حتى كانت السنة السادسة من الهجرة إذ رأى المصطفى فى منامه أنه دخل الكعبة معتمراً ، فلما أصبح حدث أصحابه برؤيته صلى الله عليه وسلم وأمرهم بالاستعداد للحج والاعتمار ، وأحضر البدن وقلدها ودعا أصحابه إلى أن يقلدوا بدنهم وأعلن للغادين والرائحين أنه خارج للحج والعمرة ، وأمر من معه وهم قرابة الألف والخمسمائة ألا يحملوا غير السيوف فى قرابها على عادة العرب فى تنقلاتهم السلمية ، وسار حتى كان بينه وبين مكة مسيرة يوم ، وإذا بقريش رغم علمهم بأنهم لم ينتصروا عليه فى حرب تأخذها العزة بالإثم ، وتأبى إلا أن تمنعه بالقوة ، فتعلن التعبئة فيرسل لهم النبى بديل بن ورقاء ومعه رجال من خزاعة ، وكانوا قد جاءوا ليسألوه عن سر مقدمه فيطلعهم على نيته فيرجعون إلى قريش ليبلغوها وجهة نظره صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يصد قاصدا للحرم فتأبى أن تصيخ لصوت الحق والنصفة ، فضلا عن أنهم سيأمنون على تجارتهم بعد أن فشلوا فى حروبهم كلها ، وعجزوا عن الوقوف فى سبيل الدعوة .

كل ذلك والنبي يحلم عليهم ويصانعهم فتوفد له قريش «عودة بن مسعود الثقفي» وهو من حكمائها الذين تأنس برأيهم وتعمل بمشورتهم فقال له يا محمد « إن مكة بيضتك وإنك إن تفضضها بأهلك المقيمين بها بمن جمعت من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنك كان العار الخالد ، لا ترضاه يامحمد وان اتصلت الحرب بينك وبين قريش ما اتصلت » فصاح أبو بكر فى عروة منكرا أن ينصرف الناس عنه وباءت المفاوضة بالفشل ، وانصرف عروة وهو يعجب من مكانة المصطفى بين صحابته حتى حدث بذلك حيث يقول : لقد رأيت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه .

لم يكتف الرسول بذلك بل أوفد لقريش رسولا آخر ليدخل الأمن إلى قلوبهم والطمأنينة إلى نفوسهم ولكنها أساءت استقباله وعقلت جمله ، وأخرجت سرية لتباغت المسلمين وتأخذهم على غرة ولكن القائد العظيم لا تغفل عينه عن غدر قريش فتقع السريه كلها فى الأسر ويعفو عنها المصطفى رغبة فى السلم وإفصاحا عن حسن نيته وأنه إنما جاء معتمراً .

ثم أرسل عثمان بن عفان رضى الله عنه ليفاوض قريشا حتى تمكنه من أداء شعائر الله فتعتقله قريش ويشيع بين صفوف المسلمين بأنه قد قتل .

عند ذلك ينفد صبر الحليم ويعلم أن قريشا لم تتعظ بالسوابق وأنها تأبى إلا أن تثيرها حربا عليه فيعقد مؤتمراً لأصحابه فيبايعونه على الموت فى سبيل الله وأنهم سيقتحمون على قريش دورها أو لا يبقى منهم رجل على ظهر الأرض وكانت البيعة تحت الشجرة التى سميت بشجرة الرضوان لما قارنها من خير كثير وفضل عظيم كان سببه تلك البيعة المباركة فى المكان المبارك عند الحديبية .

ولما أحست قريش بخطورة الموقف وأن محمداً وصحابته رغم أنهم لا يحملون من عدة القتال غير السيوف فى قرابها ولم ترهبها قريش فى ديارها وخافوا السوابق التى ذاقوا فيها القتل والأسر على يد هؤلاء الأطهار الابرار فى غير موقعه هلعت قلوبها ثانية وثابت إلى رشدها وأفرجت عن عثمان وأرسلت سهيل بن عمرو ليفاوض النبي على الصلح .

سماحة الاسلام مع مخالفيه

لفضيلة الأستاذ الشيخ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

إذا نظرت الى القانون الإسلامى نظرة فاحصة ملؤها العظة والاعتبار، وجدت أنه أحكم القوانين وضعاً، وأنبلها قصدا، وأجلها أثرا، وأجفلها سماحة ويسرا، وفى كل قاعدة من قواعده تجد الحكمة والرفق تسيران فيها جنبا الى جنب. وكلما زدته نظرا زادك إعجابا بحسنه وإكبارا لشأنه وإيمانا بأنه غذاء للأرواح وطب للقلوب والأجسام فى كل زمان ومكان، ولا غرو فهو تشريع العليم الحكيم الذى أحاط بكل شيء علما، وما من مخلوق إلا نفذت فيه إرادته، وقبضت عليه قدرته، وأحاط به قهره وسلطانه، وتصرف فيه على مقتضى علمه المحيط وحكمته البالغة فليس بدعا أن يكون أعلم بما يصلح الأفئدة ويهذبها ويزكى الأرواح ويطهرها (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

ونحن الآن بصدد مادة من مواد هذا القانون تعرض لمعاملتنا مع قوم خالفونا فى الدين ولكنهم رضوا بالإقامة فى ظل الإسلام وحمايته على أن يلتزموا معنا خطة المسالمة فلا يعلنوا علينا حربا، ولا يظاهروا عدوا يقاتلنا ونتعاون نحن وهم على جلب الخير ودفع العدوان، وأخذ كل فريق منا على صاحبه بذلك عهدا مؤكدا وميثاقا غليظا.

ولبيان حق هؤلاء علينا نتلو المادة المقدسة الواردة فى قوله تعالى: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . فقد أرشدت الآية الكريمة إلى فضيلة البر بهم والتزام العدل معهم، وختمت ذلك بما يجعل النفوس مسارعة إلى الإمتثال، تواقة إلى تحقيق تلك الأهداف الرشيدة، حيث جعلت العدل مع هذه الطائفة معراجا للظفر

بمحبة الله وجميل رعايته ، وليس أروع من هذا فى إثارة الشوق إلى القيام بالواجبات والإحسان فى أدائها وضمان الحقوق وصيانتها .

والحكمة فى أن الواجب علينا نحو تلك الفئة ورد التعبير عنه فى الآية بعدم النهى ، هى أنه ربما يطوف بالأذهان أن مخالفة هؤلاء لنا فى الدين تحظر البر بهم ، وتسوغ الاستخفاف بحقوقهم . فجاءت الآية الحكيمة على هذا الأسلوب للرد على ما عساه يخطر بالبال مبينة حيثية الحكم علينا بوجوب برهم والعدل معهم .

وما أوسع ما تدل عليه كلمة البر والعدل من صور شاملة ومظاهر رائعة .

لذلك قرر نبى الإسلام وصحابته لهذه الطائفة حقوقا تجعلها لبنات قوية فى بناء الأمة الإسلامية وترتبط بأفرادها ارتباط ألفة وتواد وتعاون وتآزر . فصاروا بهذا متمتعين بحريتهم الدينية آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . وإليك نص عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأهل إيليا (أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم وسائر ملتهم لا تسكن كنائسهم ، ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم .

وقد بلغ من رعاية الإسلام لأمرهم أن اشتهروا بين المسلمين « بأهل الذمة » والذمة المراد بها العهد ليكون ذلك بمثابة التزكية لكل مسلم أن يصون عهدهم ويرعى حقوقهم . وعلى أساس رعاية هذه الحقوق استنبط الفقهاء أحكاما كان الذمى فيها مساوياً للمسلم وإليك الأمثلة .

(١) قوله عليه الصلاة والسلام (لايبع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه) قالوا البيع على بيع غير المسلم الداخل فى ذمة الإسلام كالبيع على بيع المسلم ، والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم كلاهما حرام .

(٢) قوله صلوات الله وسلامه عليه) جار الدار أحق بشفقة الدار) ومعنى ذلك أن الجار إذا بيعت دار تلاصق داره ، وكان البيع لشخص آخر فللجار حق الشفعة فى هذه الدار ، ويطلب تملكها لنفسه ، والحكمة فى هذا أنه ربما يلحق الجار ضرر من المالك الجديد فثبت حق الشفعة للجار دفعا لهذا الضرر . قال الفقهاء إن حق الشفعة كما يثبت للجار المسلم يثبت أيضاً للجار الذمى لأنها سواء

فى سبب الاستحقاق وهو الجوار ، وسواء أيضاً فى حاجة كل منهما إلى دفع الضرر عن نفسه .

(٣) قوله تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » أخذ بعض الأئمة من عمومها وأن نفس الذمى مساوية لنفس المسلم ، فكما يقتص من المسلم إذا قتل مسلما ، كذلك يقتل المسلم إذا قتل ذميا ، واستدلوا على ذلك أيضا بما روى أنه عليه السلام قتل مسلما بذمى وقال (أنا أحق من وفى بذمته) .

الى غير هـــذا من الوصايا الحازمة التى تطلب الرفق بهم وعيادة مرضاهم ، واحتمال الأذى فى جوارهم وصد الأيدى التى تحاول أن تمتد بالسوء إليهم .

ولقد أخذ أمراء الإسلام العادلون أنفسهم بهذه الآية الكريمة ، فكانوا ينصحون لولاتهم بالعدل بين جميع الخاضعين لسلطانهم ويخصون بالذكر فى النصيحة أهل الذمة ، وأجل مثال لهذا ما ورد فى كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو يومئذ وال على مصر حيث قال له (وإن معك أهل ذمة وعهد وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم) وجاء فيه أيضا (وقد قال صلى الله عليه وسلم من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة . أحذر يا عمرو أن يكون رسول الله لك خصما فإن من خاصمه خصمه) .

لم تقف رعاية الإسلام لأهل الذمة بالعدل معهم بل وصل بهم الى منزلة رفيعة من العطف السابغ والعناية الفائقة ، رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يهوديا تبدو عليه مراسيم الحزن والكآبة ، فسأله عن سبب ذلك فقال الفقر يا أمير المؤمنين فرق له عمر وشعر بعظيم حقه عليه والتفت الى أصحابه وقال (ما أنصفتموه تأخذون منه الجزية فى أيام شبابه وقوته وتضيعونه فى أيام عجزه وشيخوخته اجعلوا له نصيبا فى بيت مال المسلمين) فجعلوا له نصيبا يقتات منه الى أن مات .

فهل بعد هذا سمو وجمال وروعة وجلال ؟ وهل خطر على عقول البشرية فى أرقى عهودها مثل هذه المعاملة الباهرة ؟

وهل ظفر المخالفون من السعادة بمثل ما ظفر به المقيمون فى ظلال الإسلام ؟

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

هذا هو قيمة العهد فى نظر الإسلام فأين منه ما يصدر الآن من الدول الغاشمة التى تعاهد أيما مغلوبا على أمرها لمآرب آثمة ورغبات فاجرة فإذا قضت وطرها، تنكرت لها وماطلت فى حقوقها وعبثت بمصالحها وأموالها وأرواحها ونفضت من العهد يدها، فإذا ذكرت به وقفت على ربوة الاستهتار وقالت فى لهجة الماجن الفاجر. المعاهدات قصاصات ورق يتمسك بها الضعفاء.

ومن عجيب أمر هذه الدول العاتية أنها قد تحرص على بقاء معاهدة جائرة تعلم أنها وقعت من الدولة الضعيفة تحت تأثير الضعف والإرهاب، وتكون هى من جانبها قد أسرفت فى الغدر بها وأمعنت فى انتهاك حرمتها، ولكنها تسعى جاهدة لبقاء شبحها حيث تبغى من ورائها احتلالا مستورا واستعمارا مقنعا.

ألا تباً لهؤلاء وتعسا فإنه مهما اشتد بأسهم. واستحكم سلطانهم، فلا بد أن يصرعهم بغيهم وتدور الدائرة عليهم، «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون».

لكن المعاملة العادلة الرحيمة الحازمة متى أوصى بها الإسلام مع مخالفيه قد أثمرت ثمارا طيبة مباركة فمكنت بعض الأفراد من دراسته، والوقوف على سماحته فبهرهم نوره. وراعهم جماله ففتحوا له قلوبهم فصار يغزو النفوس متحكما فيها. والضمائر مهيمنا عليها وأصبحوا له أعوانا مخلصين وجنودا باسلين.

أيها المسلمون: استمسكوا بهدى أسلافكم فى رعاية هذه الطائفة التى تقيم فى ديارنا وتربطنا بهم أواصر التعاون على النهوض بالوطن ودفع الأيدى الأثيمة التى تحاول أن تنقضه من أطرافه فافطنوا لهذا، واعلموا أن الاعتداء على هذه الطائفة المسالمة يعتبر نقضا لعهد الله ورسوله وغدرا وبغيا يوهى عزمنا ويفل حدنا ويظهرنا أمام عدونا المشترك متخاذلين متناحرين، فتذهب من نفسه هيبتنا ويهون عليه أمرنا ويطمعه انقسامنا فيبنى حصن الاستعمار بأنقاض فرقتنا، إذ هو جد حريص على أن يجد ثغرة بين صفوفنا لينفذ منها إلى حيث يريد، فعلينا أن نقف أمامه صفا واحدا كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا ليرهب جانبنا، ويذعن لحقنا. وعندئذ نبتهج بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم؟

المتشائمون ...!

لحضرة الأستاذ عبد الحميد محمد الفضالى
المدرس بالمدرسة السعيدية

الناس فى هذه الحياة فريقان : فريق ذو مزاج منقبض ، وآخر ذو مزاج منبسط ، فريق متشائم ، وآخر متفائل ، فريق يرى ورد الحياة شوكا ، وآخر يرى شوكها وردا .

فأما الفريق الأول ، فهو ذلك الذى ينظر إلى الحياة بمنظار أسود يرى من خلاله كل ما فى الوجود بشعاً منظره ، سيئاً مخبره ، مخيفة رؤيته ، مفزعة طلعته .

هو ذلك الذى يرى فى البسمة بكاء ، وفى النعيم شقاء ، وفى الراحة عناء ، وفى الرحاب الواسعة ضيقا ، وفى جنات الدنيا جهنم وبئس القرار ، ومن يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ، فهو من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهو من الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، فهم المتعبون الأشقياء ، وهم الأموات فى ثوب الأحياء .

ليس من مات فاستراح بميت　　إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا　　كاسفا باله قليل الرجا

وهذا الفريق يبعد عليه تحقيق مأمل ، أو نجاح فى مهمة ، أو وصول إلى إدراك غاية ؛ لأن تحقيق الآمال ، والنجاح فى المهام العظام ، والوصول إلى إدراك الغايات ــ يحتاج إلى ثبات وصبر ، ودأب وسعى لا يعرف الضجر والملل ، ولا يلوذ بالخمول والكسل ، ولا يخلد إلى الراحة والدعة والقنوع . والمتشائم قلق لا يثبت على حال ، ولا يصبر على عمل ، ولا يثابر على نشاط ، ولا يستمر فى سعى محمود .

كريشة فى مهب الريح طائرة　　لا تستقر على حال من القلق

فهذا الفريق من الناس ليس من شأنه أن يفيد العالم فى نواحى الحياة العاملة المنتجة السامية العظيمة القدر الجليلة الأثر ، فليس فيه من ابتكر طائرة أو اخترع

مذياعا ، أو اهتدى إلى دواء ناجع لداء عضال ، أو كشف أرضا مجهولة ، أو أظهر آثارا مطمورة ، وليس منه من كان مصدر علم نافع أو معارف فاضلة أو هداية وإرشاد ، وليس منه من تزعم أمة فأعاد إليها حرية سلبت وكرامة انتهبت ، وعزة بادت وسيادة ضاعت ؛ فليس منه إلا من يقدم رجلا فى عمل ويؤخر أخرى إحجاما عن ذلك العمل ، وقد يعيش طول حياته كلاًّ على وطنه وعالة على بلاده ، وخطرا يتهدد أمته بشر المصائب وفادح الخطوب .

أليس المتشائم المتطير يائسا من رحمة الله ؟ ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ؛ فكيف نطلب الحياة من فاقدها وفاقد الشىء لا يعطيه ؟ ! أم كيف ننتظر المجد ممن لا يفقه له معنى ولا يقيم له وزنا ؟

إن شر النفوس نفس قنوط تتمنى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك فى الورد وتعمى أن ترى فوقها الندى إكليلا
هو عبء على الحياة ثقيل من يظن الحياة عبئا ثقيلا
والذى نفسه بغير جمال لا يرى فى الوجود شيئا جميلا

إن فقد التفاؤل والأمل يقعد المتشائم اليائس عن العمل ، فلا يصيب نجاحا فى دنيا العاملين ، ولا ينال انتصارا فى دار المجدين ، وتراه إذا فشل فى أمر قد لا يتحول إلى غيره ، لأن الأمور قد انسدت مسالكها فى وجهه ، وليس لديه صبر يفتح ماغلق من أبوابها ، والدنيا على رحبها أضيق فى عينه من سم الخياط ، ومن أجل ذلك لا يحرك نفسه فيها ، فيخسرها ، ويقعد بعد ذلك ملوما محسورا ساخطا على الأيام والليالى وليس للأيام والليالى ذنب ولكن الذنب لمن ظلم نفسه فيها فحرمها الخير وكان هو علة الفساد والتقصير والانحطاط والتأخير والإفراط والتفريط ؛ فوت على نفسه الفرصة حتى عادت عليه غصه ، وضيع أوائل الأمور فالتوت عليه أعجازها :

إذا ضيعت أول أى أمر أبت أعجازه إلا التواء

وحسب المتطير المتشائم ما يصيبه من عنت ، وما يناله من تعب ، وما يلقاه من آلام ، بتخلفه عن قافلة الحياة التى تجد السير وتسرع الخطا فى قطع الطريق ، فيبقى وحده متخلفاً يائساً بائساً يعيش فى دنيا الهموم والأحزان ؛ وقد يصير

أضحوكة الضاحكين ، وسخرية الساخرين ، وهزأة الهازئين ، وتلطمه من ليست ذات سوار ، وينفر منه الصحاب والخلان ، وينفض عنه الأصدقاء والأعوان ، حتى لا يعديهم ، وإن من النفوس ما يعدى ؛

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... كالنار توضع فى الرماد فيخمد

إن التشاؤم يجر على المتشائمين آلاما لا تطاق ، ويجلب عليهم متاعب لا تحتمل ويوقد فى نفوسهم نيرانا تأكل القلوب وتشيب النواصى وتخترم الأجسام ، ويحول الأعواد الناضرة الزاهية ، والزهرات المتفتحة الباسمة ، إلى أخرى ذابلة محطمة عابسة تذروها الرياح ؛ ولا ينفع المتشائمين ذكاء متوقد ، ما دامت الإرادة منحلة ، والنفس مشتتة ، والقلب حزينا ، والصدر منقبضا .

ومن الذين جنى عليهم تشاؤمهم ونغص عليهم حياتهم ، وكدر عليهم صفوهم وحطم أعصابهم ابن الرومى الشاعر المشهور ، فقد بلغ من تشاؤمه أن كان القبح عنده شراً أو نذيراً بالشر ، فلا يرى الأحدب أو غيره من الخارجين عن سواء الخلقة إلا انقبضت نفسه ، وأسرع إليه مايلازم الانقباض من التوجس والحذر والوجوم :

واسم (جعفر) قد يذكره بالجوع والفرار ، و (الخان) قد يذكره بالخيانة فتنقبض لذلك نفسه ، وينغص عليه عيشه ، وهكذا حتى صارت عيشته ضنكا ، وحياته جحيما .

وقد بلغ من تشاؤمه أن عزف عن الناس جميعا ، وساء ظنه بهم ، وآثر العزلة عنهم ، والبعد عن أخيارهم وأشرارهم ؛ لأن الأخيار والأشرار أصبحوا سواء عنده فى قلة الإنصاف ، وما كان يدنو منهم إلا مضطراً :

ذقت الطعوم فما التذذت براحة ... من صحبة الأخيار والأشرار
أما الصديق فلا أحب لقاءه ... حذرا لقلى وكراهة الإعوار
وأرى العدو قذى فأكره قربه ... فكرهت هذا الخلق عن أعذار
أأحب قوما لم يحبوا ربهم ... إلا لفردوس لديه ونار

وما عسى أن تكون الحياة بعد ذلك عند رجل بعد عن الأصدقاء وبعد عنه الأصدقاء ، وقعدت به عزلته وتشاءمه وقلة حيلته ، فسبقه من هم دونه ذكاء وعلما وفهما وأدبا ممن لازمهم حسن الطالع وسعد الحظوظ .

وقد تختل أعصاب المرء من هؤلاء المتشائمين ، فإذا هو جسور عنيد معتسف للأخطار ، هجام على المصاعب ، لا يبالى العظائم ولا يحذر العواقب ، وهذا طراز من المتشائمين عجيب ، فيؤدى بهم تشاؤمهم وتطيرهم وانقباضهم وفرط إحساسهم الى الثورة والإندفاع ، وركوب متن الشطط والورود بأنفسهم موارد الهلاك والخسران ، كما يفعل الشباب الطائش فى زماننا ، وفى كل زمان ومكان ، فيحاول أن يفرض سلطانه الجائر على الناس فرضا رضى الناس أم كرهوا ويتحكم فى مصائر الناس قبل الناس أم سخطوا ؛ وقد تمتد يده الآثمة الى قتل الزعماء وقادة الرأى ، وأبطال السياسة والفكر ؛ لأنهم يخالفونه فى الرأى والعقيدة ، أو النزعة والسعى ، أو الفكر والعمل . وهذا اختلال فى الأعصاب مريب واستبداد عجيب وحمق غريب ؛ فليس لكائن من كان أن يتحكم فى آراء الناس وعقائدهم ونفوسهم ومبادئهم وأرواحهم وأفكارهم ، فينفعل لتغييرها ووأدها ، أو محوها وإزالتها بدون أن يكون له فى ذلك حجة وبرهان :

حرام على الأفكار فى عصرنا الحجر أما كل إنسان بآرائه حر

ومن هذا اللون من التشاؤم العنيف ثورات الأمم والجماعات ، فهى حين تثور قد اختلت أعصابها هذا النوع من الاختلال الثائر المجتاح ، وقد تكون ثوراتها من أجل مطالب خاصة أو عامة لا يقرها عقل ولا يؤازرها دليل ولا يسندها منطق صحيح .

وقد حدثنا التاريخ أن الحاكم بأمر الله الفاطمى أصيب به فأرداه . . . كما أصيب به الوليد الأموى من قبل فجنى عليه وأهلكه : حدث له مرة أن فتح المصحف الشريف ، فوقعت عينه على قوله تعالى : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . » فما كاد يقرؤها حتى غلا دمه وطغى عليه تطيره واستبد به فرط إحساسه المتحفز المندفع الذى لا يخشى عاقبة ولا يخاف نهاية - فمزق المصحف وأهان كتاب الله ، وقال بيتيه المشهورين :

تهددنى بجبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقنى الوليد

رجب سنة ١٣٧١ المجلد الثالث والعشرون

مجلة الأزهر

تصدر شهرياً عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير

من

البقرة

لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

« يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ،

فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »

جاءت الآية هكذا بدون عاطف لأنها جواب سؤال نشأ من الآية السابقة ، إذ ذكر حال المنافقين وأن يقولوا آمنا وما هم بمؤمنين يثير فى نفس السامعين استفهاما عما يدعو هؤلاء لمثل تلك الحال المضطربة والحياة القلقة المقامة على الكذب والمحاولة فكان جواب هذا السؤال أنهم إنما يحاولون بذلك مخادعة الله والمؤمنين جهلا منهم بشأن ربهم وصفات خالقهم . وجيء بالفعل من باب المفاعلة ، إشارة إلى أنهم ظنوا بجهالتهم أن الله ليس عليما بذات صدورهم ، ولا بما تنطوى عليه نفوسهم من كفر وسوء نية وانتظار للفرص التى تمكنهم من إساءة رسول الله ومن معه من المؤمنين ، ولكن الله العليم بالسر وأخفى ، قد علم طوياتهم وخفى نواياهم ، وإنما أمهلهم ولم يعجل مؤاخذتهم لتتم حكمة الله وما أراد للمؤمنين من تعرف الاحتياطات وأخذ الحذر من هؤلاء ، إذ فى ذلك تمرين على الدوران

مع شئون المجتمع اللازم لإحكام سياسة الناس وتدبير شئونهم فهم يخدعون الله جهلا وهو خادعهم علما وحكمة .

هذا سر المجيء بصيغة المفاعلة فى جانب الله ، أما سره فى جانب المؤمنين إذ أنهم فى الآية معطوفون على لفظ الجلالة ، فذلك لأن المؤمنين كانوا هم الآخرون يعلمون من شأن المنافقين ما عرفوا به أنهم كاذبون فيما يزعمون ، وإنما يقولون بألسنتهم الإيمان ويخفون فى أنفسهم الكفر تقية من المؤمنين ومحافظة على أنفسهم وتحصيلا لأغراضهم فى الحياة .

فى هذه القراءة التى جيء فيها بصيغة المفاعلة تطمين للمؤمنين وتهدئة لخواطرهم حين يعلمون أن الله محيط بشأن هؤلاء سرهم وعلانيتهم ، وإن كان المؤمنون على يقين من أن الله عليم بما يبدون وما يخفون ، إلا أن فى التصريح بذلك تطمينا لهم كما جاء فى شأن إبراهيم حين طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى فقال له : أو لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي .

وجاءت الآية فى قراءة أخرى بصيغة الفعل المجرد فقرئت يخدعون لتصوير ما هم عليه من جهالة مع تصوير مبلغ مكر الله بهم ، وألا يكون هناك لفت لهم إلى واقع الأمر مما قد ينبههم إلى إبداء كفرهم وإظهاره ، الأمر الذى قد يكثر مظهر الكافرين فى أعين المؤمنين ، فقد يكون فى تقليل مظهرهم حكمة هى تشجيع المؤمنين على بناء دولة الإسلام فى قوة ، حتى يكثر عدد المسلمين وتقوى شوكتهم ، وإذ ذاك يصارحونهم بحقيقة أمرهم ويدفعونهم إلى الشقة الأخرى — شقة الكافرين — .

وقد جاء على كلتا القراءتين يخادعون ، ويخدعون — وما يخدعون إلا أنفسهم إيذانا بأن هؤلاء قد اشتد ظلام نفوسهم وقوى تغليف قلوبهم ، حتى جهلوا أنهم فيما يحاولون من ضرر إنما يلحقون الضرر بأنفسهم ، يظنون أنهم يخدعون غيرهم ولا يدرون أنهم يخدعون أنفسهم .

وإذا أنت نظرت إلى عطف قوله وما يشعرون على قوله وما يخدعون إلا أنفسهم وضح لك تصوير ما هم فيه من عمى وصمم ، إذ أن نفى الشعور عنهم تصوير لما نزلوا إليه من جهالة ، إذ فقدان الشعور إنما يكون بفقدان الحواس .

وإذا عمى الشخص وصمت أذناه وانعقد لسانه — إذا فقد وسائل الإحساس لا محالة يتضاعف جهله وتعمق غفلته ويبعد عن الجادة .

ألا ترى أن المرء إذا لم يسمع قولة حق ولم يبصر آية ولم يناقش بلسانه شبهة — ألا ترى أنه يكون حجرا أصم خلا عن مظاهر الإنسانية ولبس أثواب الحيوانية المشقية والذاهبة به إلى أسفل الدركات وأحلك الظلمات فلا حجة تقنعه ولا برهان عن غيه يرجعه بل هو أصم أبكم أعمى لا يعقل .

بقى أنه فى الآية لم يجئ بالمخادعة إلا فى جانب الله والذين آمنوا ولم يجئ فى الآية ذكر الرسول كأن يقول يخادعون الله والرسول والذين آمنوا . ولعل الحكمة فى ذلك أن مخادعة الله مخادعة لرسول الله لأنه هو الذى بعثه إليهم وهو المبلغ عن الله أحكامه وتشريعه وإرشاده ؛ يؤيد هذا مثل قوله تعالى « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » وقوله « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وقد يكون السر فى ذلك أن المنافقين إنما دفعهم إلى كذبهم ومخادعتهم هو اتقاء المؤاخذة ، وهم يعلمون أن الرسول وحده قد لا يلحق بهم أذى فهم إنما يرتقبون الأذى من مجموعة المؤمنين والرسول أول المؤمنين ، فيكون ذلك تصويرا لمثار خوفهم وناحية اتقائهم ، وإلى ذلك تصوير وحدة الرسول ومن تبعه ، وأنها وحدة رباطها الإيمان , ليس فيها حاكم ولا محكوم ، وإنما الجميع يعتصمون بحبل الله ، فهم فى نظر غيرهم مستوون ، وفى ذلك إيذان ببطلان ما هم عليه من شرعة التفاوت بين الأفراد .

من هذا يفهم من الآية تصوير ما هم عليه من جهل بلغوا به حد أن يخادعوا ربهم وبلغوا به حد أن يخادعوا مخالطيهم ومن هم بمسمع منهم ومرأى ، يعلمون من قسمات وجوههم حين يلقونهم ومن لىّ ألسنتهم حين يخاطبونهم ومن إشاحة وجوههم حين ينطقون بحق أمامهم — يعلمون من ذلك كله بعض ما هم عليه من مزاعم وافتراءات . إن لم يعلموا جميعها — وذلك أحط ما ينزل إليه المرء من دركات الجهالة ، الأمر الذى سيجزون عليه أن يكونوا فى أسفل درك من النار ، ولو كانوا

يشعرون بعض الشعور لأدركوا أنهم يؤذون أنفسهم . ولكن نسج عليهم عمى قلوبهم وظلام نفوسهم حوائط سميكة لا ينفذ منها نور الحق إلى قلوبهم ولا نسيم الرشاد إلى نفوسهم فصاروا يؤذون أنفسهم ثم لا يشعرون بأذاها ولا يتألمون لكلمها بأيديهم . وهكذا كل من أعماه هواه وغرق فى أمواج الباطل ، وحاطه الغرض من كل نواحيه ، يسير على غير الجادة ، ويتجه إلى باطل الغاية ، يرتطم فى وهاد الأوحال ، ويصطدم فى هضاب المخاوف ، ولكن قسوة قلبه جعلته لا يرده اصطدام ولا يرجعه ارتطام . ولن ترى آفة للمجتمع أضر به من آفة النفاق ، فالمنافقون حشرات المجتمع ، وهم تحت الأبصار ، وذنابه حين يغيبون عن الأنظار ، ولو أتيح لمجتمع أن يطهر من أقذار المنافقين وأوساخ المخادعين لرأيت أفراده هادئين وادعين كأنما هم فى جنات النعيم .

ويقول تعالى بعد هذه الآية « فى قلوبهم مرض الخ » هكذا بدون عطف لصلتها بالآية قبلها ، فإنك حين تسمع قوله تعالى « وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » تثور نفسك نحو السؤال عن حال أناس يلحقون الضرر بأنفسهم غير شاعرين ، وتعجب كيف يلحق إنسان بنفسه الضرر ثم هو لا يشعر به ، ويكون الجواب المهدىء لثورة السامعين والذاهب بعجب السائلين ، أن يقال إن هؤلاء لا يشعرون بأذى أنفسهم بأنفسهم ، قد مرضت قلوبهم ، فقيل : فى قلوبهم مرض ، وترى الأسلوب قد صور مرض قلوبهم تصويراً لا يكون معه إلى قلوبهم سبيل لحق ، أو طريق لرشاد ، فقال (فى قلوبهم) وجعل القلوب ظرفا للمرض ، كناية عن تمكن المرض من قلوبهم ، والمرض وإن كان حقيقة فيما يعرض للأجسام مما يعييها أو يعجزها أو يختل معه نظامها ، إلا أنه هنا مستعمل على طريقة المجاز ، مراد به ما اختلت به قلوبهم من فساد العقيدة ، ومتابعة الباطل من التقاليد ، وظلمة الفتنة المحيطة بقلوبهم ، مما يعييها أو يتحول بها عن التفكير الصحيح ، والتعقل المنتج ، مما حاد بهم عن الجادة ، لا تنبههم أشواك ما فى

اعوجاجهم ، ولا أوحال ما فى طريقهم ، فكان ما أصاب قلوبهم شبيها بما يعرض للأجسام من أمراض ، وإذا مرضت القلوب فإن مشاعر المرء تصبح عديمة الفائدة فإنه إن سمع حقاً فقلبه المريض لا يفقهه ، وإن رأى آية فقلبه المريض لا يفهمها ، وإن سمع حجة فلسانه الأبكم لا يحاول جدلا فيها حتى يفهمها . لذا حكم عليهم بأنهم لا يشعرون ، لأن مشاعر المرء هى الوسائل الموصلة إلى القلوب قضايا الحق ، ومقدمات العلم ؛ فإذا تعطلت أداة الاستنتاج وآلة الفهم والتفكير فلا جرم تكون الحواس ، وهى وسائل وصول المقدمات وأسباب العلم إلى القلوب ، معطلة ، وهم غير شاعرين .

وهكذا كل قلب تولاه الهوى ، وحاطه الغرض ، وأظلم أفقه بليالى الفتنة ، لا يمكن أن تقنعه ببرهان ، أو ترده عن غيه بحجة ، أو تلويه عن اعوجاجه بدليل ، يسمع وكأنه لا يسمع ، ويبصر وكأنه لم يبصر ، ويتكلم وكأنه لم ينطق . ولن ترى داء للمجتمع وآفة للبيئات أفتك من هذا الفريق ، فريق المنافقين ، يطفئون نور الحجة من المحتجين ، ويشوهون جمال البرهان من المستدلين . فكم قصر صاحب حق بنفاق هؤلاء عن إقامة حجته ، وتقشيع السحاب عن برهانه وآيته .

ومن ذلك نعلم أن مرض القلوب أضر من مرض الأجسام ، فقد يؤدى مريض الجسم للمجتمع فوائد ومنافع . أما هؤلاء فإنهم الهدامون لما بنى المصلحون والمطفئون لما أنار المرشدون . فاللهم طهر منهم المجتمع ليعيش الناس هادئين مطمئنين .

ولما كان لله فى كونه وخلقه سنن لا تتبدل ، وكان من سننه أن المريض إذا لم يعالج مرضه ، أو استمر فى أسباب مرضه دون أن يتنحى عنها زاد لا محالة مرضه ، كذلك مرضى القلوب . فإنهم إذا لم يبعدوا بأنفسهم عن الهوى ، ولم يكبحوا جماحها عن الفتنة ، ولم يرفعوا أنفسهم عن مهاوى الغرض ، فإن قلوبهم لا محالة تتضاعف ظلماتها ، وتتكاثر قسوتها ، وتسمك حوائط منع نفاذ الحق إليها ؛ فلا جرم إذا لم تعالج القلوب زاد مرضها ، وهى بمقتضى ما وضع الله من سنن زيادة من الله لمرضها . لذا قال : « فزادهم الله مرضاً » بنسبة الزيادة إلى الله .

ولما كان قوله « فزادهم الله مرضا » أسلوباً بذكر الفاء قد يفهم منه أن ذلك هو جزاؤهم ، وفهم ذلك لا يردهم عن غى ، ولا يفزع لهم قلوباً ، ولا يقرع لهم نفوساً ، عطف عليه قوله « ولهم عذاب أليم » ليبين أن ليس جزاء صنيعهم أن يزداد مرض قلوبهم فحسب ، بل إن لهم بعد ذلك عذاباً أليما . وإنما وصف العذاب بالألم ولم يصفه بالعظم كما سبق فى شأن الكافرين ، لأن هؤلاء قد حاطوا أنفسهم بظلام حالك ، ونزلوا بها عن مستوى الحياة المعتادة إلى درك فقدوا فيه مشاعرهم ، فلا تردعهم الكميات ، ولكن قد توقظهم الكيفيات ، لذلك وصف العذاب بكونه أليماً دون أن يصفه بكونه عظيما أو كثيراً .

ثم بين أن سبب ذلك الجزاء إنما هو كونهم كاذبين ، لأن هذا الفريق - فريق المنافقين - أخص صفاته وأكبر جرائمه هو الكذب ، يقولون آمنا وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم ، فحياتهم حياة مضطربة دون حياة الكافرين الذين جهروا بكفرهم ، ولم يخفوا ما انطوت عليه قلوبهم ، فعاشوا فى الحياة صفاً بارزاً يقابل صف المؤمنين ؛ أما هؤلاء المنافقون فما أتعب حياتهم ، وما أشقاهم فى معيشتهم ، وما أذلهم إذ يترددون بين الفريقين ، يبدون لهؤلاء أنهم معهم ، ولهؤلاء أنهم معهم : عيش مضطرب ، وحياة ذليلة ، ونزول إلى الظلمات وسافل الأمكنة ، مما جزاهم الله عليه جزاء عدل ، أن يكونوا فى الآخرة كما اختاروا لأنفسهم فى الدنيا ، فى الدرك الأسفل من النار .

وما أحقهم أن يخصوا بأعنف جزاء ، وأن يلحق بهم أفظع العذاب ، وأن يكونوا حتى وهم معذبون أسفل من الناس الذين معهم فى النار .

فالمنافقون يأيها الناس ؛ أذل الناس فى الدنيا ، وأذلهم فى الآخرة . ألا فلتكرموا أنفسكم ، ولتلبسوها أثواب العزة ، ومعاطف الكرامة بإبعادها عن تلك الصفة الرّذيلة . صفة النفاق .

اللهم وفقنا لتطهير أنفسنا ، وإعزازها بالإيمان الصادق ، فأنت ذو الفضل العظيم .

مبادىء القانون الدولى العام

فى الاسلام

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

تعريب البحث الذى وضعه فضيلته باللغة الفرنسية ، تلبية لطلب الجمعية المصرية للقانون الدولى

يكاد يتفق علماء التشريع فى الغرب ، ويتابعهم كثير من الشرقيين ، على أن فكرة « القانون الدولى العام » فكرة حديثة العهد ، ابتدعتها أوروبا فى العصر الأخير .

هذا الحكم صحيح فى الجملة ، ويلوح لنا أنه غير قابل للجدل والمناقشة ، ما دمنا نبعد بموضوعه عن محيط التاريخ الإسلامى ؛ فالنظام الدولى فى الحقيقة لم يكن معروفا خارج هذا المحيط ، لا فى العصر القديم اليونانى والرومانى ، ولا فى العصور الدينية الأولى فى اليهودية والمسيحية .

أما العصور الدينية المذكورة فمن الميسور أن نتبين فيها هذا الفراغ ، وأن ندرك أسبابه ؛ ذلك أنه حين تأسيس هاتين الديانتين لم يكن أمامهما علاقات دولية تتطلب هذا التشريع ، فكان كل نشاطهما مركزا فى بث الدعوة الدينية فى نطاق محلى محدود ، نعم إن نشر الدعوة الموسوية فى بنى إسرائيل ، لم يلبث أن حمل هذا الشعب على الهجرة ، وجعله يتصل بأمة مجاورة . غير أن هذه الصلة الوقتية لم تكن إلا صراعا خاطفا ، انتهى إلى استئصال شأفة تلك الأمة وحلوله محلها ، ولم يترك لنا التاريخ بيان القواعد التى بنى عليها هذا الصراع والتحول .

وأما العصور اليونانية والرومانية القديمة فإن خلوها من هذا التشريع مرده إلى أسباب تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليست المسألة مسألة انقطاع الصلة بين هاتين الدولتين وبين العالم الخارجى ؛ إذ أن تلك العلاقات الخارجية لم تعوز

هاتين الدولتين يوماً ما ، ولكن نظرتهما نفسها إلى الحياة لم تكن لتسمح لهما بوضع تشريع كهذا ؛ ذلك أن فكرة القانون الدولى تفترض قبل كل شيء الاعتراف بضرب من المساواة ، واشتراك المصالح ، وتبادل الحقوق والواجبات بين مختلف الأمم ؛ وهذا لم يكن ليتفق والنظريات اليونانية والرومانية . فأما قدماء اليونان فإنهم ، وإن كانوا يتعاملون فيما بينهم على قدم المساواة أو يكادون - على رغم الصراع الدائم بين مملكتى أسبارطة وأثينا - كانوا ينظرون إلى الشعوب غير اليونانية نظرتهم إلى كائنات حقيرة دنيئة ؛ حتى إن أرسطو كان يرى أن البرابرة (ويعنى بهم الأجانب) ما خلقوا إلا ليقرعوا بالعصا ويسلبوا ويستعبدوا ، وكذلك كان الأمر فى التشريع الرومانى ، فإنه لم يكتف بأن وضع نوعين متباينين من القوانين ، أحدهما : القانون المدنى للمواطنين ؛ والآخر قانون الشعوب لسكان البلاد الممتلكة ، بل إنه لم يكن يعرف فى الصلات الخارجية إلا قانون القوة الباطشة ، فلم يجعل للأمم الأخرى حقاً فى دفاعها عن نفسها ، ولا فى أمنها ودعتها ، وإنما كان دستورها فى نظره : « العبودية أو الفناء » وإذا كان قد اتفق لروما فى بعض الأحيان أن وضعت معاهدات سلمية على وجه دون وجه ، فلم يكن ذلك راجعا إلى أن هناك قانونا يقضى بهذا الشرط المعين أو ذاك ، بل كان مصدره محض التفضل ، أو السعى وراء الأغراض والمنافع .

ولو أننا بحثنا فكرة القانون الدولى فى أوربا فى العصور الحديثة ما وجدنا كبير فرق بينها وبين تلك العصور الأولى ، على رغم التقدم الفعلى فى تدوين قواعد هذا التشريع العام ؛ ذلك أن فكرة تساوى الناس أمام القانون - تلك الفكرة التى طالما طالبت بها الشعوب وتشدقت بها الحكومات - لم تتخذ بعد فى نظر الغربيين صبغة القانون العام الشامل ، ألم يقل : « استورات ميل » باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية ؟ أو لم يحدد « لوريمير » على وجه الأرض مناطق ثلاثا تخضع كل منها لقانون مختلف ؟ فالعالم المتمدين يجب أن يتمتع فى نظره بحقوق سياسية كاملة ، والعالم نصف المتمدين يكفى أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية ، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزاما قانونيا ، وجاء ميثاق « عصبة الأمم » بعد الحرب العالمية الأولى ، فأقر هذا التقسيم الثلاثى وأكسبه سلطة القانون ، بل لقد فرق فى قلب المدنيات الأوربية نفسها بين الحقوق

السياسية للدول الكبرى والدول الصغرى . وأيا ما كان فإن منظمة السلام هذه لم تحظر غزو منشوريا ، ولا فتح بلاد الحبشة . وأخيراً شكلت (جمعية الأمم المتحدة) بعد الحرب العالمية الثانية . فماذا رأينا ؟ أليس روح التفريق وعدم المساواة لا يزال مسيطراً فيها على عقول السادة الذين يتحكمون فى مصير الإنسانية؟ إنه لا حاجة بنا إلى محاولة إقامة البرهان على ذلك ؛ فهذه الحوادث التى تجرى تحت سمعنا وبصرنا وهذه الحلول العوجاء التى تطبق عليها فى أحضان هذه الجمعية الحديثة ، تنطق ـ بأفصح بيان ـ بأن الضعفاء والمظلومين الذين كانوا يبنون آمالهم على مثل هذه المؤسسات لم ينلهم حتى الآن إلا حسرات تتلوها حسرات .

* * *

إذا أردنا أن نظفر بتشريع دولى عام يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية ، فعلينا أن نصعد بذاكرتنا إلى عصر رسول الإسلام .

كلنا نعرف أن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث زهاء عشر سنين فى اتصال دائم بأمم وديانات مختلفة ، معادية طورا ، ومسالمة طورا . وطبيعى أن هذه الظروف الخاصة التى جعلت الإسلام سلطانا زمنيا وحكما عالميا ـ إلى جانب كونه عقيدة روحية ، ومبدأ أخلاقياً ـ كانت تتقاضاه أن يضع تشريعا لقانون السلم والحرب بين الأمم . فماذا فعل ؟ وهل كانت إجابته لهذه الحاجة الملحة شافية لغلة المتشرعين ، مرضية للضمائر السليمة لدى الحكماء وذوى الخلق الكريم ؟

لا شك أن دراسة مستوعبة لهذه الناحية من التشريع الإسلامى تتطلب بحثا عميقا لا للعهود والأقضية النبوية وحدها ، بل للمعاهدات التى وضعها الخلفاء والملوك الإسلاميون أيضا فى غضون التاريخ ؛ ولكنه ليس من غرضنا فى هذا المقال أن نجعل مجال بحثنا بهذه المثابة من السعة والاستقصاء ؛ وكل ما يعنينا الآن هو أن نستخلص ما فى القرآن والسنة النبوية من المبادىء الأساسية ، والخطوط الرئيسية فى هذا الشأن .

— ١ —

تصحيح خطأ مشهور

وقبل كل شىء يجب أن نصحح خطأ ذائعاً فى الأوساط الأوربية ، وهو زعم أن الشعوب الإسلامية يباح لها — بل يجب عليها امتثالا لدستورها الدينى —

أن تحمل السلاح لإكراه الناس على الإسلام ، وسحق الشعوب الأخرى التى لا تعتنق هذا الدين .

لئن كان هذا الرأى حقا ، لقد وجب أن تمحى كلمة « القانون الدولى » من التشريع الإسلامى ؛ إذ لا يبقى لها فيه مدلول تشير إليه ، ولا يبقى لغير المسلمين أمامه حق يطالبون فيه بحرياتهم ولا بحياتهم .

ولكن الرجوع إلى نصوص القرآن الكريم ، يكشف لنا عن الحقيقة التى تخالف هذا الزعم على خط مستقيم ، فالقرآن لا يكتفى بأن يحظر حظراً أدبياً كل محاولة لإكراه الناس على الإيمان : « لا إكراه فى الدين » (سورة ٢ آية ٢٥٦) بل يتمرر أنه من المستحيل وقوعياً أن يسيطر على العالم دين واحد : « ولا يزالون مختلفين » (١١ : ١١٨) « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (١٢ : ١٠٣) ألا تكون محاولة فرض عقيدة واحدة على الناس — والحالة هذه — ضربا من التناقض والإحالة الظاهرة ؟ إن القرآن لم يفته أن يبرز ما فى هذه الغاية الطموحة من غرور خداع ، وذلك حيث يقول : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (١٠ : ٩٩) .

ومن هنا نرى كتاب الإسلام المطهر يحدد رسالة نبيه بأدق ما يكون من عبارات الحصر والتحديد ، مبينا أن مهمته إنما هى الموعظة والتذكير : « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » (٨٨ : ٢١ ، ٢٢) ؛ بل إن هذه الدعوة السليمة نفسها لم يتركها القرآن حتى رسم حدودها وطريقتها ، وأوجب أن تؤدى بأكرم أسلوب ، ومن ألطف طريق « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٦ : ١٢٥) « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » (٦ : ١٠٨) « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » (٢٩ : ٤٦) .

سيقول قائل : سلمنا أن كل إكراه دينى يجب أن يستبعد من أهداف الإسلام ، فما الذى يمنع أن يكون من بين هذه الأهداف فكرة الفتح والتوسع ،

السنة :

ورع المتقين

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب
المفتش العام للوعظ بالأزهر

عن عطية بن عروة السعدى الصحابى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس » رواه الترمذى وقال حديث حسن ...

لرسول هذه الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من جمال التوجيه ، وبالغ الحكمة ، فى روعة المعنى ، وجزالة اللفظ ، نواح اختصه الله بها ، فآتاه من هداه

التى يكون المسلمون قد دفعوا إليها بسبب من الأسباب الأخرى : كداعية الثروة الاقتصادية أو الاستعلاء السياسى ، أو غير ذلك ؟

فلندع القرآن يقدم لنا الجواب عن هذا السؤال ، وها هو ذا يقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً » (٢٨ : ٨٢) .

هكذا يقضى القرآن فى حزم على تلك الروح الاستعمارية الجبروتية ، وبوجه عام على تلك النزعة المادية المتطرفة ، التى انتشرت انتشاراً وبائياً فى عصرنا هذا ، والتى هى المنبع الأول لكل ما نشكو منه الآن .

ولكن هل نأخذ من كل ما تقدم أن الحروب ليس لها وجود قانونى فى نظر الإسلام ؟

هيهات ، فها هى ذى نصوص القرآن ، لا تجعل الجهاد عملا فاضلا فحسب ، بل تعده غالباً من الواجبات الأولية .

فالسؤال الذى يجب وضعه الآن هو هذا : ما الأحوال والشروط التى يبرر بها الإسلام اتخاذ تلك المواقف الحربية ، ويجعلها حقاً مشروعا ؟

[للبحث بقية]

ورشاده ما يهدى به أمة، ويعمر به دنيا، ويسعد به أخرى، فى أسلوب من روائع الحكم، وجوا مع الكلم، «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى».

* * *

وصف المتقين فى القرآن الكريم، وفى السنة المطهرة، وفيما ينجلى للناس جيلا بعد جيل، بمجموعة من الفضائل والمكرمات، مظهرها سلامة العقيدة، وقوة اليقين، وتقويم العبادة، وتنظيم المعاملة، فى سياج من مراقبة الله ومحبة الناس. «الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون»، «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون» ذلكم هو وصف القرآن الكريم للمتقين.

أما السنة المطهرة، فإنها تنظم هذا العقد الكريم فى أوامرها الرشيدة، فيقول الصادق الكريم، إمام المتقين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

وتبصر الناس، فى رشد الرأى، وسلامة الفطرة، وتحذرهم فتنة الدنيا وإغراءها، فقد روى عن عمرو بن عوف الانصارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين، يأتى بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين، فقالوا أجل يا رسول الله، فقال: «أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)... متفق عليه.

* * *

ولقد يعلم الناس جميعاً أن من وصف المتقين صفاء النفس ، وزكاء الخلق ، وحب الخير ، والاستمساك بكل ما يكسب المرء حمدا ورضوانا ، حمد الناس لما يلمسونه من بر وفضل ، ورضوان الله لما يتقرب به المتقون من طاعة وعمل .

أما جزاء المتقين فى محكم التنزيل ، وأما جزاؤهم فى صحيح السنة ، وأما جزاؤهم فيما يقع بين أسماع الناس وأبصارهم ، فهذا ما ينطق به القرآن الكريم فى قوله تعالى بعد أن ذكر أوصاف المتقين فى سورة آل عمران « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

وفى أول سورة البقرة « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » وفى سورة النبأ « إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأساً دهاقا ، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاء من ربك عطاء حسابا » .

وهذا ما تعد به السنة الشريفة فى جزاء المتقين ، فى قول صاحب السنة صلى الله عليه وسلم « اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، ثم أدوا الأمانة إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » .

وهذا ما يشهده الناس فى جماعة المتقين : إجماع على محبتهم ، وإكبار لدعوتهم ، وتكريم شمائلهم بالقدوة والاتباع .

نخلص من ذلك كله إلى أن للمتقين فى أعمالهم وأوصافهم ، وفى مجازاتهم شأنا وأى شأن .

وفى الحديث الذى نحن بصدده يبين الرسول صلى الله عليه وسلم أن العبد لا يبلغ هذه المكانة إلا إذا كان له من ورعه حاجز وحجاب ، لا يحول دون المآثم فحسب ، بل ويحجبه عن فعل ما لا بأس فى فعله ، أو قول ما لا بأس فى قوله ، خشية أن يجره ذلك إلى ما يؤاخذ عليه ، أو يساء به ، أو يشك فيه ، ولا غرو . . فالتقى الورع يكف نفسه وجوارحه عن الشبهات ، ويتطلب السمو والكمالات فى المأمورات ، قال عز وجل « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » ، وقال تعالى : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

* * *

التقى الورع يكف نفسه حتى عن النظرة الأولى خشية أن تؤدى إلى رجع البصر ، أو استدامة النظرة فيقع فيما يحظره الدين .

التقى الورع يمسك لسانه عن فضول القول حتى لا ينزلق لسانه فيرديه .

التقى الورع لا يتسمع إلى اللهو والمجون حتى لا يصل إلى قلبه الطاهر اخلاط غثة ممجوجة ، تكدر نوره ، وتغشى صفاءه ،

التقى الورع يترك المال الذى لا يستوثق من حله خشية أن يكون فيه غش أو دخل .

التقى الورع أمين فى دينه كريم فى دنياه ، عظيم فى نفسه ، بصير فى حزمه ، متطلع إلى محبة الله وهداه .

التقى الورع يتخذ القدوة من نبل الفضائل ، وحسن الشمائل متمثلا قول القائل :

إذا أعجبتك خصال امرىء فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على الفضل والمكرمات إذا رمتها حاجب يحجبك

* * *

وبعد ، فليهنأ المتقون الأبرار بورعهم الأبى ، وحزمهم الرضى .

وليتربعوا فى قلوب الناس مكان الحب والولاء .

وليبلغوا عند الله وعند رسوله ساحة الرضا ومنازل الرضوان .

« إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وفق الله إلى الخير لسعادة الدنيا والآخرة .

والسلام على من اتبع الهدى ؟

بهــــــاء الدين السبكى

٧٠٧ / ٧٧٧ هـ — ١٣٠٧ / ١٣٧٥ م

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى
مدير المساجد بوزارة الأوقاف

نختم بهذا المقال تراجم السبكيين المصريين الذين شغلت بهم مناصب القضاء حقبة طويلة من الزمن وطلبتهم مناصب الفتيا والقضاء المصرية والشامية فأثبتوا كفاءة ممتازة وكان عندهم معين صاف من العلم يرد الظامئون المتعطشون للإفادة الطالبون لحكم الدين فيما يعرض لهم من حوادث الزمن وما هم فى حاجة إليه من حكم الشريعة الغراء .

وهذا بهاء الدين رابع الثلاثة السبكيين واسمه محمد بن عبد البر بن يحي بن على ابن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد السبكى المكنى بأبى البقاء كانت ولادته سنة سبع وسبعمائة من الهجرة وتمذهب بمذهب الشافعى كعلماء أسرته .

وأظهر شيخ له نال العلم منه هو ابن عم أبيه تقى الدين السبكى الذى لازمه ملازمة طويلة فى أيام صباه حتى تخرج عليه . ومن شيوخه أيضاً الحجار والدبوسى وعبد الله بن على الصنهاجى والمزى والبرزالى والجزرى وعلاء الدين القونوى والقطب السنباطى .

وقد مهر فى اللغة العربية والفقه والتفسير وأصول الفقه وعلم الكلام .

ولما ثبتت قدمه وتم نضجه العلمى واستولى على زمام العلوم الشرعية وعرف بين أهلها وذويها بالنبوغ واعترف له أقرانه بالتفوق وكمال التحصيل تصدر

- على عادة الشيوخ - للتدريس والافتاء فكان ينبوعا عذبا فراتا ينهل منه كل من أراد من طلاب العلم والمعرفة. قال صاحب الدرر الكامنة «وذكر لى الشيخ شمس الدين بن القطان أنه كان ممن أخذ عنه وأنه كان يضج إذا توجه عليه البحث وغالب من لقيناه كان يبالغ فى وصفه بالتحقيق والحذق»، وكانت له رحلات فى سبيل العلم وخدمة المصلحة العامة فقد دخل الشام مع الشيخ تقى الدين السبكى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وناب عنه فى قضاء الشام. ثم تولى قضاء طرابلس ثم عاد إلى القاهرة وتولى فيها مناصب جليلة فى القضاء فقد ناب عن القاضى عز الدين بن جماعة فى منصبه ثم أضيف اليه قضاء العسكر والنظر فى الأوقاف ثم خلف عز الدين فى وظيفته سنة ست وستين وسبعمائة وظل يباشر شئون منصبه بما عرف عنه من دربة وحذق وكياسة مع إحاطة بشئون الحياة الاجتماعية والدينية ثم فوض اليه بعد ذلك قضاء الشام وظل قاضيا بدمشق إلى حين وفاته.

وقد اعترف له بالفضل العلماء الأفاضل من أهل زمانه فكان الاسنوى يقدمه ويفضله على أهل عصره. وكان العماد الحسبانى يشهد أنه يحفظ الروضة. وكان هو يقول عن نفسه أعرف عشرين علماً لم يسألنى عنها بالقاهرة أحد.

وقد أثنى عليه الذهبى ووصفه بأوصاف المبرزين فى العلم الحاذقين لدقائق المسائل الغائصين فى بحار العلوم والمعارف.

وقال عنه ابن حبيب: شيخ الإسلام وبهاؤه ومصباح أفق الحكم وضياؤه وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها كان إماما فى المذهب طرازا لردائه المذهب رأساً لذوى الرياسة والرتب حجة فى التفسير واللغة والنحو والأدب ثقة فى الأصول والفروع قدوة لأرباب السجود والركوع مشهورا فى البلاد والأمصار سالكا طريق من سلف من سالفة الأنصار درس وأفاد وهدى بفتاويه إلى سبيل الرشاد.

وهذه شهادة من ثقة تدل دلالة لاريب فيها على أن مترجمنا قد حاز الأوصاف التى تليق بالأئمة العلماء العاملين الذين يزكون عن علمهم ويطهرون أنفسهم ويسخون بما وهبهم الله تعالى من تفقه فى الدين فهم يجودون بما حوته قلوبهم من معارف وإرشاد لكل من قرع بابهم وطلب منهم النوال من أحكام شرعية وتوجيهات دينية. وأن تنقله بين الشام ومصر وتعدد وظائفه فى القضاء لدليل واضح على صلاحيته لأعباء الحياة ومشاركته لمجتمعه مشاركة البصير المستنير وذلك شأن العلماء الذين يشعرون من قرارة نفوسهم بأن واجبهم فى الحياة التوجيه والإرشاد والاندماج فى المجتمعات وتولى الشئون التى لا تستقيم أمور الأمة إلا بها .

وقد اختلفت كتب التراجم فى ذكر مصنفات له فيقول صاحب شذرات الذهب فى أخبار من ذهب طبعة مكتبة القدس فى الجزء السادس صحيفة أربع وخمسين ومائتين ما نصه : « ومع سعة علمه لم يصنف شيئاً » .

ويقول صاحب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة مطبعة دائرة المعارف العثمانية ببلدة حيدر آباد بالهند فى الجزء الثالث صحيفة تسعين واربعمائة وما بعدها ما نصه : « ولم يظهر له من التصانيف شىء مع أنه كتب على الروضة وعلى مختصر ابن الحاجب الأصلى وعلى المطلب لابن الرفعة » .

توفى رحمه الله بدمشق فى جمادى الأولى سنة ٧٧٧ هـ ودفن بسفح قاسيون بتربة السبكيين .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد النجار

الأستاذ بكلية اللغة العربية

استراح من عناء التعب

يشيع هذا التأليف بين الناس . وينكره بعض الكتاب . ويقول صديقى الأستاذ محمد عبد العظيم افندى المدرس الأول للغة العربية بالمدرسة السعيدية فى مصنفه « سلسلة عثرات الأقلام » - وهو من المعنيين بهذا الشأن والحريصين على تنقية اللغة العربية مما شابها - : « ولا يقال : استرحت من عناء التعب ، وإنما يقال : استرحت من عناء العمل » .

ووجه الإنكار فى هذا أن العناء هو التعب ، فلا معنى لإضافته إليه وهما مترادفان . وإنما يضاف العناء إلى مبعثه ومصدره ، وهو العمل . غير أن الأمر فى هذا مبنى على التشدد والتضييق فى اللغة . وقد ورد مثل هذا التأليف فى فصيح الكلام وما لا ينكر من القول وكانت هذه المسألة لهذا مثار جدل بين علماء العربية .

وتدخل هذه المسألة تحت عنوان « إضافة اللفظ إلى نفسه » ومنها إضافة الموصوف إلى صفته ؛ نحو مسجد الجامع ، ودار الآخرة ، وإضافة اللفظ إلى مرادفه كالذى نحن فيه .

وقد جاء من هذه المسألة قوله تعالى فى سورة ق : ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، وقوله تعالى فى سورة الواقعة : إن هذا لهو حق اليقين . فالحب هو الحصيد ، والحق هو اليقين . ويقول الطبرى فى تفسيره : « وكان بعض أهل العربية يقول فى قوله (وحب الحصيد) : الحب هو الحصيد ، وهو مما أضيف إلى نفسه ، مثل قوله : (إن هذا لهو حق اليقين) .

ومما جاء من هذا قول الشاعر :

فقلت أنجوا عنها نجا الجلد إنه سيرضيكما منه سنام وغاربه

فقد أضاف النجا الى الجلد ، والنجا هو الجلد :

وقال يزيد بن الحكم الثقفى :

تفاوض من أطوى طوى الكشح دونه ومن دون من صافيته أنت منطو

فتراه أضاف الطوى إلى الكشح ، والطوى هو الكشح .

ونرى فريقا من النحويين يعمد إلى التأويل فيما أورد من الشواهد وغيرها ، ويتكلف المغايرة بين معنيي اللفظين المتضايفين . فيقول فى حب الحصيد : حب الزرع الحصيد .

ويقول فى حق اليقين : حق الأمر اليقين ، وهكذا يمضى هذا الفريق فى تأوله .

ولا يرضى فريق منهم هذا التكلف ، ويجيز هذا النوع من الإضافة .

وفى الإنصاف ١٨١ : « ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز إضافة الشىء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان ، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز » .

ويقول الرضى فى شرح الكافية ١ / ٢٨٨ بعد أن تكلم على إضافة اللفظ إلى نفسه ، وعرض للخلاف فيه : « والإنصاف أن مثله كثير لا يمكن دفعه ؛ كما فى نهج البلاغة : لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم ، وقوله : ورخاء الدعة ، وسكائك الهواء ... ولو قلنا إن بين الإسمين فى كل موضع فرقا لاحتجنا إلى تعسفات كثيرة » .

وقد ورد الشاهد الأول من نهج البلاغة فى خطبة الإمام المعروفة بخطبة الأشباح ففيها : « ولم يستعظموا ما مضى من أعمالهم . ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم شفقات وجلهم » وفى شرح الشيخ محمد عبده : « الشفقات : تارات الخوف وأطواره . وهو فاعل نسخ . والرجاء مفعول . والوجل : الخوف أيضا » .

والشاهد الثالث ورد فى أول ما ذكر من خطب الإمام فى النهج ، وفيها : « سبحانه فتق الأجواء ، وشق الأرجاء ، وسكائك الهواء » والسكائك جمع السكاكة وفى شرح الشيخ الإمام : « السكاكة - بالضم - الهواء الملاقى عنان السماء » .

والشاهد الثانى « رخاء الدعة » أقرب الشواهد إلى ما نحن بصدد بحثه . فعناء التعب كرخاء الدعة . وهذا خير ما نصحح به هذا التأليف .

ولو سلك الباحث فى هذا منهج التأويل لم يعىَ به ، ولكان له فيه منهج وسبيل . فقد يزعم امرؤ أن العناء غير التعب . فالتعب فتور الجسم من فرط العمل . والعناء المشقة والضيق الذى يكون من التعب وغيره . فتصح الإضافة على هذا عند البصريين الذين لا يجيزون إضافة اللفظ إلى نفسه بحال .

ويحسن هنا إيراد بعض شعر للحطيئة فيه لفظ العناء ، ويبدو فيه أن العناء غير التعب . قال فى الحديث عن ود الإنسان طول الحياة وامتداد العمر :

يصب إلى الحياة ويشتهيها وفى طول الحياة له عناء
فمنها أن يقاد له بعير ذلول حين تهترش الضراء

يقول إذا صار المرء شيخا لا يضبط بعيره الذلول فيحتاج إلى من يقوده وهو راكبه ، خوف أن ينفر به عند اهتراش الضراء أى عند نباح الكلاب وتعرضها ، فجعل هذا عناء له ؛ إذ تضيق بذلك نفسه . ولا يحسن هنا أن يجعل هذا تعبا له .

ثم قال :

ومنها أن ينوء على يديه وينهض فى تراقيه انحناء
ويأخذه الهداج إذا هداه وليد الحى فى يده الرداء

الهداج : مشى سريع فى تقارب خطو . يقول إنه إذا أسن قارب فى خطوه ، ويحمل له الغلام الرداء لأنه يثقل عليه .

ثم قال :

وينظر حوله فيرى بنيه حواء من ورائهم حواء

الحواء : أبيات مجتمعة نحو الخمسين . يريد أن بنيه قد تناسلوا فصارت لهم بيوت كثيرة . فجعل هذا من العناء . وظاهر أن هذا لا يقال له تعب .

الوحيد . الوحيدة . الوحدة

الوحيد وصف فى معنى المنفرد . تقول : هذا هو الرجل الوحيد فى علمه وفنه . واشتهر على ألسنة الناس فى مؤنثه الوحيدة . ولكن المعنيين بتنقية اللغة يحرصون على إنكار هذه الصيغة (الوحيدة) ، ويوجبون فى مكانها (الوحدة) . ولا يطيب لهم أن يسمعوا ما كان يتغنى به بمصر فى دهر مضى وانصرم .

مصر الجديدة هى الوحيدة

وفى مصنف سلسلة عثرات الأقلام الذى نوهت به آنفاً : « ولا يقال : هذه المسألة الوحيدة التى تشغل أذهاننا . وإنما يقال : هذه المسألة الوحدة التى تشغل أذهاننا » . وهؤلاء المنكرون يأوون فى إنكارهم إلى ركن شديد ، ويُزْرُون [1] إلى متكأ

(١) أزرى إلى الشيء : استند إليه .

عتيد . فقد ذكرت المعاجم اللغوية فى صيغ وصف المذكر صيغتى وحيد ووحد ، واقتصرت فى وصف المؤنث على وحدة . وصرح شارح القاموس بما لا يدع مجالا للشك فى إنكار (الوحيدة) . فقد قال فى القاموس : « ورجل وحد وحدو أحد محركتين ووحد ، ووحيد ، ومتوحد : منفرد . وهى وحدة » وقال الشارح : « قوله (وحدة) بفتح فكسر فقط . ولذا عدل عن اصطلاحه وهو قوله : (وهى بهاء) لأنه لو قال ذلك لاحتمل أو تعين أن يرجع للألفاظ التى تطلق على المذكر مطلقاً . قاله شيخنا . قلت : وهذا حكاه أبو على فى التذكرة ، وأنشد : . . كالبيدانة الوحدة قال الأزهرى : وكذلك فريد وفرد وفرد » وفى اللسان نحو ما فى القاموس وشرحه .

غير أنى أرى أن لا وجه لإنكار (الوحيدة) . ذلك أن الوحيد وصف من وُحد ؛ فإنه يقال : وحد ، يوحد ، وحادة ، فهو وحيد . فوحيد من وحد كشريف من شرف ، وكريم من كرم ، فهى أوصاف جاءت على فعل فى معنى فاعل . والوصف القياسى للمؤنث من هذه الأوصاف بالتاء كما تقول : شريفة وكريمة من غير نكير . ولم يذكر أصحاب المعاجم صيغة المؤنث من وحيد استغناء بعلمها عن طريق القياس . وقد عنوا بذكر الوحدة والاستشهاد عليها لما كانت صيغة غريبة كمذكرها (الوحد) .

ومما يشذ من هذا أن فى البلدان موضعاً يقال له الوحيدة . ويقول فيه ياقوت « الوحيدة مؤنث الذى قبله ، من أعراض المدينة ، بينها وبين مكة ، قال ابن هرمة :

أدار سليمى بالوحيدة فالغمر أبينى سقاك القطر من منزل قفر

ويريد ياقوت بالذى قبلها الوحيد . وهو مكان ذكره ذو الرمة فى قوله :

ألا يادار ميـة بالوحيـــد كأن رسـومها قطع البرود

ووجه الاستدلال أن الوحيده علم منقول من وصف المؤنث كما ذكر ياقوت ، وليس علماً مرتجلا .

وهنا نص من معجم فى اللغة للغوى فارسى متأخر اعتمد فيه على أمهات اللغة ، وهو معيار اللغـة . يقول فيه فى المـادة : « ورجل وحد ـ كسبب وكتف ـ ، ووحيد ـ كأمير ـ وهى وحدة ككلمة ، ووحيدة كسفينة » .

وقد يقنع القارىء مما سقته بصواب (الوحيدة) ، ويكون له سعة فى استعمالها .

من أدب القوة :

الشعر والحروب الصليبية

لفضيلة الأستاذ الشيخ رياض هلال

المدرس فى كلية اللغة العربية

— ٤ —

ونجد الرشيد النابلسى الشاعر : يلقى بدلوه فى الدلاء ويلهج بالحديث عن فتح القدس مصورا كيف أن آمال المسلمين ، قد انتهت إلى تلك الأمنية الكبرى التى ليس للآمال بعدها ما تنتظره من مسرات ، ونراه يصف حديث الناس عن هذا الفتح الأكبر وإفاضتهم فيه حتى ينفى أن فتحا قبله ظفر بمثل هذا الاحتفال فيقول :

هذا الذى كانت الآمال تنتظر ... فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت ... فى سالف الدهر أخبار ولا سير
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الإ ... سلام من بعد طى وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت ... بعد الصليب به الآيات والسور
الله أكبر صـــوت تقشعر له ... شم الذرا وتكاد الأرض تنفطر

ومنها لما أراد الفرنج أخذه من صلاح الدين ـ وتراه يسفه حلومهم إذ يحاولون عابثين ـ ذلك قوله :

ويح الفرنجة بل ويح أمهم أو ما ... فيهم لبيب على العلات يعتبر
إن يمموك فلا يدع لجهلهم ... تسعى إلى الأسد فى غاياتها الحمرُ
كم قد سقيتهمو ذلا فلا عجب ... إن عربدوا سفها فالقوم قد مكروا

هذا ـ ولم يزل بيت المقدس بأيدى المسلمين من عهد صلاح والشعراء يلهجون بفتحه ويفخرون بكسر الفرنجة إلى سنة ٦١٦ هـ فأنه خرب بسبب انتشار الفرنجة ورغبة الناس عن السكنى فيه ، فرثاه شهاب الدين أبو يوسف بقصيدة عارض فيها

قصيدة دعبل الخزاعى فى آل البيت ، ونراه فيها يستجدى عينيه البكاء ويطلب إليهما أن تصلا البكاء ، لعل سيول الدمع أن تطفى توقد الجمر فى القلوب على ما صار إليه المسجد الأقصى من دروس وإظلام بعد أن كان موطنا للإخبات ، والصلوات وموسما للبر والإحسان والقربات قال .

أعينى لا ترقى من العبرات صلى فى البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها توقد ما فى القلب من جمرات
على المسجد الأقصى الذى جل قدره على موطن الإخبات والصلوات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما وللبر والإحسان والقربات

إلى أن قال فى آخر قصيده :

فمن لى بنواح ينحن على الذى شجانى بأصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعى قاله يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

* * *

وإذا كان الشعراء قد صالوا وجالوا وأداروا القول فى فتح بيت المقدس فقد كان ليوم حطين[١] ـ وهو يوم من أيام صلاح الدين المشهودة ـ حظ وافر من عناية الشعراء ذلك بأنه يوم قد انتقم الله به من دولة الشرك ، وعلت فيه كلمة التوحيد ، وعزت الدولة الناصرية ، وخذلت الدولة الصليبية ، وشاعت فى الدنيا البشريات ومحاسن الأحاديث فوجد الشعراء مكان القول ذاسعة فافتنوا ما شاء لهم الافتنان فالعماد يهنىء صلاح الدين ويصور ملحمة حطين فيقول :

سميت على الأردن ردنا [٢] من القنا رديفية ملدا وخطية ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا

---

(١) بكسر الحاء والطاء المشددة قرية بين أرسوف وقيسارية بها قبر شعيب عليه السلام .
(٢) الردن صوت وقع السلاح بعضه على بعض .

ونعم مجال الخيل حطين لم تكن … معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا
غداة أسود الحرب معتقلوا القنا … أساود تبغى من نحور العدا نهسا [1]
طردتهم فى الملتقى وعكستهم … نجيدا بحكم العزم طردك والعكسا
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم … ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

وعلى ابن الساعاتى الشاعر يقول من قصيدة فى هذا المعنى وهو يصف هذا فتح بأنه فتح مبين بات منه المسلمون فى فرح قرت به عيونهم حين رد صلاح الدين خيذة الإسلام من الصليبيين :

جلت عزماتك الفتح المبينا … فقد قرت عيون المسلمينا
رددت أحيدة الإسلام لما … غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما … يعز على العوالى أن يهونا
وما طبرية إلا هدى … ترفع عن أكف اللامسينا

وفيها يشير إلى قيام صلاح الدين بفريضة الجهاد فيقول :

قضيت فريضة الإسلام منها … وصدقت الأمانى والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا … وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهاد يريد نطقا … لنادتك ادخلوها آمنينا

ويختمها بقوله :

أدرت على الفرنج - وقد تلاقت … جموعهمو عليك - رحى طحونا
ففى « بيسان » ذاقوا منك بأسا … وفى صفد أتوك مصفدينا
وخانهمو الزمان ولا ملام … فلست بمبغض زمنا خئونا

وترى ابن الساعاتى يحاول أن يجنس فى قوله بيسان وبأسا وقوله شعراء العهد لأيوبى ، وهو نوع من أنواع سد الفراغ فى صناعة الشعر فى هذه العهود المتأخرة .

ولا ننسى أن نذكر أن صاحب النجوم الزاهرة هو الذى ذكر هذه القصيدة

---

(١) نهس اللحم كمنع وسمع أخذه بمقدم أسنانه ونتفه .

فى فتح « حطين » على حين ذكرها صاحب « الروضتين » أبو شامة فى فتح طبرية [١] ويبدو أن الشاعر قالها فى فتوح صلاح الدين كما يفهم ذلك من الأسماء التى وردت فى القصيدة من بيسان وصفد وطبرية وغيرها ، ومن بينها حطين ويظاهر هذا أن أكثر فتوح صلاح الدين كان فى سنة كسرة حطين [٢] ، ولفتيان الشاغورى من شعراء هذا العهد فى يوم حطين من قصيدة يصور فيها تذامر المشركين وتحاضهم على القتال ومدافعة صلاح الدين لهم وغناءه فى حربهم ، ثم يخلص الى الدعاء له ألا يعدم المسلمون منه أيادى لم تجحد فقد أمن سربهم وصان حريمهم ودفع عنهم قواصم الظهور وعظائم الأمور :

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم ... يتذامرون [٣] على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم ... فولغن فى علق النجيع الأحمر
وعجمت عود صليبهم فكسرته ... وسواك ألقاه صليب المكسر
لا يعدم منك المسلمون فكم يد ... أوليتهم معروفها لم ينكر
آمنت سربهمو وصنت حريمهم ... ودرأت عنهم قاصمات الأظهر

ولو أننا أردنا أن نلم بكل ما قاله الشعراء فى فتوح صلاح الدين وغيره ، من ملوك الأيوبيين لطال بنا الحديث واعيا علينا الأمر ، فقد كان الشعراء لهذه الفتوح بالمرصاد يسجلونها - وهم كثرة ساحقة فى أشعارهم عظمت هذه الفتوح أم صغرت ، لأن المعنى الذى يحسه الشاعر من هـــذا الفتح معنى عاطفى دينى جدير أن يبعث فيه الحماسة والفخر فنرى لهؤلاء الشعراء شعرا فى موقعه مرج [٤] عيون كقول أبى على حسن الجوينى :

(١) بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهى فى طرف جبل مطل عليها ، وهى من أعمال الأردن بينها وبين دمشق ثلاثة أيام .

(٢) الروضتين حـ ٢ - ٧٥ .

(٣) التذامر التحاض على القتال .

(٤) بلد بسواحل الشام .

إن هـذا الفتح المبين شفـاء لصـدور وقرة لعيون
هو يوم أضحى كيـوم حنين سهل الله نصره فى الحزون

ولابن النعاويذى الشاعر فى هذه الموقعة أيضا قوله :

إن كان دينك فى الصيانة دينى فقف المطىّ برملتى يبرين
كاد الأعادى أن يصيبك كيدها لو لم تكدك برأيها المأفون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة فى الغيب تظهر من وراء كمين
قهرت نجوم سعودهم وقضى لهم بالنحس طائرهم بمرج عيون [1]

ونرى لهم شعراً فى حصن الطور كقول الأمير الحلبى الشاعر يخاطب العادل الأيوبى وينبهه إلى نزول الفرنج بحصن الطور وأن هذا الحصن فى تعلق المسلمين به وتطلعهم إليه لا يقل عن بغداد :

قل للخليفة لا زالت عساكره لها إلى النصر إصدار وإيراد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا لا تغفلن فحصن الطور بغـداد

ويقول ابن سناء الملك الشاعر المصرى فى تخليص « تبنين » من أيدى الأعداء مخاطباً صلاح الدين :

قدمت بالسـعد وبالمقتم كذا قدوم الملك المقـدّم
أغثت « تبنين » وخلصتها فريسة من ما ضغى ضيغم
قميصك الموروث عن يوسف ما جاء إلا صادقا فى الدم
شنشنة تعرف من يوسف فى النصر لا تعرف من أخزم

وإن كنا نجد تعبير الشعراء عن هذه الفتوح الصغيرة من اللمحات الخاطفة والتصويرات العابرة التى لا تصل إلى حد التجارب الشعرية المستفيضة التى عرفناها فى تلك الفتوح الكبرى وإن كان الشعراء على أى حال قد أدوا واجبهم ولم ينكصوا عنه ولم تشغلهم شواغل العيش والحياة ولم يلههم العكوف على المجانة والمعابثة شأنهم فى كل العهود .

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ١٠

النقد الادبى عند العرب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

تستقر فى الفطرة الإنسانية ، وتكمن فى الطبيعة البشرية غريزة أصيلة ، تؤدى رسالة سامية ، وتقوم بمهمة جليلة دقيقة ، تلك غريزة الرضى أو السخط ، والاستحسان أو الاستهجان لما يتردد أمامنا من مظاهر الكون أو يمر بنا من صور الحياة ، فكل إنسان مهما كان حظه من العلم ، ونصيبه من المعرفة خاضع لهذه الغريزة ، مستسلم لتلك الطبيعة ، يحب ويكره ويقبل ويدبر ، ويرضى ويغضب ويتأثر حتما بما يطوف به من أحداث الدنيا ومظاهر الوجود ، إرتياحا أو انقباضا ، ومعرفة أو إنكاراً ، وبهذه الغريزة استطاع الإنسان أن يتدرج فى مدارج الكمال ، وأن يصعد فى معارج الرقى لأنه حاول دائما أن يحتفظ بما يحب وأن يثور على ما يكره ويمقت فيغير وضعه ويزيل أثره ، وأصبحت تلازمه فطنته إلى مواطن الكمال وإحساسه بمواضع النقص ، وهذه هى التى تسمى فى عرف الناس بالنقد . فهو ليس إلا الإدراك والتمييز وقوة التمحيص حتى يتسنى اختيار الأكمل وانتقاء الأحسن واجتناب الفساد وتوخى الصلاح .

وعلى هذا قامت الحياة وتنقلت فى أطوارها المختلفة وتنوعت فى أدوارها المتباينة ، تستقيم أو تعوج ، وتسير على الجادة أو تنحرف على مقدار ما تستيقظ هذه الغريزة أو تغفو ، وتنشط فى رسالتها أو تفتر وتتبلد .

ونحن فى هذا البحث الموجز العابر لا يعنينا من جوانب النقد إلا ناحية واحدة ، هى التى تتصل بالكلام وتدل على مكان بلاغته وموضع قوته وتعلن عن سموه وإبداعه ، أو تجلى عيوبه وتبرز مثالبه ، وتوضح مظاهر ضعفه وتهافته .

فما هو هذا النقد أولا ؟ ومتى نشأ عند العرب ؟ وعلى أى أصل قامت دعائمه ونهض بناؤه ؟

كان العرب يطلقون النقد والتنقاد والانتقاد على تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها .

أنشد سيبويه فى وصف ناقة .

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة نفى الدراهيم تنقاد الصياريف [1]

ويقال عندهم : نقدت الدراهم وانتقدتها أى أخرجت الزيف منها .

وهذا المعنى هو أنسب المعانى وأوثقها صلة بما نريده من كلمة النقد الأدبى . فهى تمييز جيد الكلام من رديئه وساميه من سوقيه وبليغه من سفسافه . ولا يتأتى للمرء فى هذا أن يصل إلى حكم صحيح ، وميزان صائب إلا إذا كان ذا فهم ناضج ودراسة شاملة حتى يستطيع أن يقيس الأشباه بالأشباه ويضع النظير إلى جانب النظير ويوازن بين الأساليب المتحدة فى المنزع والفكرة .

وإن الناظر فى تاريخ النقد الأدبى عند العرب يرى أن مولد هذا الفن يقترن أشد الاقتران بمولد الشعر ، فهو استحسان لما أبدعوا من هذه الصور الفنية الخلابة ، أو استهجان لما يبدو فيها أحيانا من عدم استواء الخلق أو يتخللها من القصور فى العبارة أو الفساد فى المعنى أو الاضطراب فى أداء المراد .

ونحن لا نستطيع أن نعرف مولد النقد الأدبى كما لم نستطع أن نحدد بالضبط مولد الشعر العربى ولكن الشعر إذ وصل إلينا قبل الإسلام بنحو قرن من الزمان أو أكثر صحبه النقد كذلك فى صورة لا تخلو من دقة وألمعية ، وإن اعتمدت على الإجمال فى الإشاره إلى مواضع الحسن أو القبح ، وكان أكثر النقد يرجع كذلك إلى أحكام عامة مردها إشراق النفس وشدة إحساسها وسرعة إدراكها للقوة أو الضعف ، والجيد أو الرديء ، ويقينها بأنه لا يخفى منه شيء على ذوى الفطن وأهل البلاغة ومن يحسنون ذوق الكلام ويفرقون بين مختلف الأساليب .

فلم يكن يعنى الناقدين إذ ذاك أن يمعنوا فى بيان العلل وذكر الأسباب ، ولا أن يفيضوا ويطنبوا فى شرح المآخذ وتحليل العيوب ، إنما هى لمحات يستشعرها

---

(١) تنفى : تدفع الهاجرة : شدة الحر ، الصياريف : مفرده صيرفى وهو بياع النقود بغيرها من النقود . يشبه نثرها الحصى بنثر الصيرفى الدراهم .

الناقد ويتطامن إليهـا السامع لأول وهلة ، ولعل الذى دفعهم إلى ذلك أولا ما فطروا عليه ـ وهم أهل فصاحة وأمراء بلاغة ـ من قوة الحس وشدة الإدراك ويقظة الوعى البلاغى وسمو الفطنة لمـا يمر بهم من رائع القول وجزل الكلام .

ثم أغراهم ثانياً بهذا اللون من تمييز الكلام والدلالة على أقداره ما يكون بين الشعراء عادة من تنافس على السبق وتزاحم على أبواب الملوك والأمراء وذوى الجاه واليسار التماسا لعطائهم ، واستمناحا لبرهم ، فحاولوا الصقل والتجويد ورغبوا فى التنقيح والتهذيب ، حتى نشأ بينهم عبيد الشعر ومن عرفوا بأنهم أصحاب الحوليات . وليس ذلك إلا التماسا للكمال وتجنبا للنقص وبعداً عما عساه يتردد فى نفوس السامعين من تجهم لعيب أو استنكار لمغمز .

وكان العرب من أشد الناس احتفالا بالشعر ورغبة فى سماعه ، فكانوا يجتمعون فى الأسواق العامة والمحافل الجامعة ، ويتناشدون أشعارهم ويتطارحون قصائدهم ، وقد يدفعهم الإعجاب بالشعر والانتشاء برحيقه أن يعلنوا عن مظاهر سموه ومجالى إبداعه لمـا قد يغريهم الحقد والتحاسد إلى استعراض عيوبه واصطياد مساوئه ، وربمـا جرهم التلاحى فى ذلك والتمارى فى الحسن والقبح إلى الاختلاف إلى الحكام والذهاب إلى خبراء الفن ليحكموهم فيما شجر بينهم من خلاف ، حتى ليروى أن النابغة الذبيانى كانت تضرب له فى عكاظ قبة من أدم فيجلس فيهـا ويتحاكم إليه الشعراء ، وقد وفد عليه فيمن وفد حسان بن ثابت والخنساء ، فأنشده حسان قصيدته :

لنـا حاضر نعم وباد كأنه ... شماريخ رضوى عزة وتكرما

وأنشدته الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

قذى بعينيك أم بالعين عوّار ... أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

فقال للخنساء : لولا أن أبا بصير ـ يقصد الأعشى ـ سبقك لقلت إنك أشعر من بالسوق . وكان الأعشى قد سبق وأنشده قصيدته :

ما بكاء الـكبير بالأطلال ... وسؤالى وما ترد سؤالى ؟

وقال لحسان : إنك لشاعر ، فغضب حسان من ذلك أشد الغضب ، وقال والله إنى لأشعر منك ومنها فقال له النابغة إنك يا بنى لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويروى أنه نقده فى بيتيه

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا إبنا

فقال له : أضعفت فخرك وأقللت جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك .

فنحن نرى أن الرغبة فى السبق والطموح إلى علو المكانة وسمو المنزلة قد دفع إلى اصطياد المعايب وتلقف المغامز ، كما أغرى بالدلالة على مكان الحسن وسبب التفوق فى بيت النابغة .

وهناك عامل آخر مكن للنقد الأدبى ، وأرسى أساسه وأقام دعائمه ، ذلك هو عصبية كل قبيلة لشاعرها وفخرها بما صدر عنه من قول ، وما أثر له من شعر واعتزازها بما وفق إليه من بارع المعانى وروائع الأخيلة ودقيق الصور ، والتماسها لمعايب غيره من الشعراء حتى يخلص لهم مجال العظمة ويتوفر لديهم الإقرار بالسبق والغلبة .

هذه بعض العوامل التى هيأت للنقد أن يوجد ويقوم بدوره ويؤدى رسالته فى الحياة الفكرية للعرب وقد خلعت عليه من أسباب البقاء وعناصر الخلود ما جعلته يؤتى أكله شهيا طيباً وينهض بمهمته قويا دائبا .

وإن من يستعرض أمثلته ويستحضر وقائعه من لدن الجاهلية يدرك أنه كان يقوم دائما على البصيرة النيرة والذكاء النافذ والألمعية السريعة الطيعة دون إجهاد للفكر وكدّ للذاكرة واستغراق فى البحث والتنقيب .

سمع طرفة بن العبد وهو صبى منشداً ينشد قول المتلمس .

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم (١)

---

(١) الصيعرية : سمة تكون فى عنق النافة لا البعير . وناج : جمل سريع ويغلب هذا فى وصف النافة فيقال ناجية ، ومكدم : صلب .

فقال على الفور : استنوق الجمل ، وذلك لأن الشاعر وصف البعير بالصيعرية وهى من سمات الناقة لا البعير .

ويروى أن امرأ القيس [١] وعلقمة بن عبدة تحاكما إلى أم جندب الطائية زوج امرىء القيس فى أيهما أشعر ، فبعد أن استمعت إلى ما اختاره كل منهما من شعره وأنشده قالت لامرىء القيس : علقمة أشعر منك لأنك قلت فى وصف فرسك :

فللسوط ألهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع أخرج مهذب[٢]

فقد ضربت فرسك بسوطك وحركته بساقك وزجرته بصوتك ، وقال علقمة فى وصف فرسه :

فأدركهن ثانيـــاً من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب [٣]

فأدرك فرسه الصيد ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب . ولم يضربه بسوط ولم يتعبه .

ويروى أن النابغة كان يقوى فى شعره [٤] دون أن يلتفت إلى ما فى هذا من تشويه يغض من جمال الشعر ويزرى من قدره ، فقدم المدينة وأنشد أهلها قصيدته :

أمن آل مية رائح أو مغتدى ... عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غداً ... وبذاك خبرنا الغراب الأسود

وفيهـا :

سقط النصيف ولم ترد أسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليـــد
بمخضب رخص كأن بنانه ... عنم يكاد من اللطافة يعقد

---

(١) الموشح ص ٣٠

(٢) الأخرج : ذكر النعام والخرج بياض فى سواد . ومهذب أى مسرع فى عدوه . ومعنى للسوط ألهوب أى يلهب جريه حين يضرب به . وللساق درة : أى إذا غمز در بالجرى .

(٣) ثنى عنان فرسه : جذبه نحوه . والرائح : السحاب ، والمتحلب : المتساقط المتتابع .

(٤) ص ٣٩ الموشح .

فعيب عليه هذا الإقواء وقيل له : إنك تكفىء الشعر فلم يأبه له فقدموا إليه قينة تغنيه وتبين الياء فى (مغتدى ومزود) والضمة فى (الأسود ويعقد) ففطن لذلك وأدرك أن فى شعره نشازا وغيره بقوله (وبذاك تنعاب الغراب الأسود) ، (عنم على أغصانه لم يعقد) ولم يعد بعد ذلك يقوى فى شعره وقال : دخلت يثرب وفى شعرى عهدة وخرجت منها وأنا أشعر الناس .

وأنشد الأعشى قيس بن معد يكرب أحد أشراف اليمن مديحاً له ، فلما وصل إلى قوله :

ونبئت قيساً ولم آته   وقد زعموا ساد أهل اليمن

فعابه عليه ورده ولم ينفعه لديه إصلاحه له بقوله :

ونبئت قيساً ولم آته   على نأيه ساد أهل اليمن

ومن هذا نفهم أن النقد إبّان العصر الجاهلى كان قائما على الذوق والحس والإدراك العام وانفعال النفس وتأثرها لأول وهلة ، وأنه لم يكن يقوم على طول التفكير وعمق البحث وطول تردد النظر . فتلك خلال الباحث الدارس الذى يستجمع الشوارد ويستحضر النظائر ويديم الدرس ويطيل الموازنة بين هذا وذاك ويحتشد للتحليل والاستقصاء .

وليس النقد الأدبى عند الجاهليين فى مظهره ومخبره إلا تمشياً مع الفطرة وانقياداً للسليقة التى تعرف وتنكر ، وتستجيد وتستهجن ، وفقاً لما تتذوقه من أساليب وتألفه من صور .

على أن النقد بعد أن وضعت له القواعد ونصبت له الموازين لم يستطع أن ينقض شيئاً مما ساقته الفطر وبعثه انفعال النفس وتأثرها لأنه عمل الطبيعة المشرقة المستنيرة التى لم يفسدها تصنع ولم يداخلها كذب فى الحس والشعور .

الوسائل والغايات

لفضيلة الشيخ بدر المتولى عبد الباسط
المدرس فى كلية الشريعة

لكل إنسان فى هذه الحياة مقاصد يهدف إليها ، وغايات يسعى إلى تحقيقها . فمن الناس من يهدف الى الخير ، ومنهم من يهدف إلى الشر ، ولكل من هؤلاء وأولئكم وسائل لتحقيق أهدافه وغاياته ، فمن الناس من يسلك إلى الخير طريق الخير ، ومنهم من يسلك إليه طريقا معوجا مليئا بالشرور والآثام ، ومن الناس من يسلك إلى الشر طريق الشر والإثم ، ومنهم من يسلك إليه طريق الخير والبر ، وإنى ـ فى هذه الكلمة ـ أوحاول أن أبين ما هو المشروع من هذه الغايات وما هو المشروع من هذه الوسائل ، وهل الغاية تبرر الوسيلة ؟ وهل حسن النية ونبل الغايه يحسن القبيح من الأعمال ؟

قد يبدو لك ـ أيها القارىء الكريم ـ أن الجواب عن هذا السؤال سهل وأنه يكاد يكون معروفاً للجميع ، ولكنك ستعرف عند البسط والبحث أن الموضوع يحتاج إلى كثير من التفكير .

لا شك أنه إذا كانت الغاية شريفة والوسيلة إليها مشروعة كان العمل صحيحا مثابا عليه فى نظر الشرع ؛ وبالعكس إذا قبحت الغاية والوسيلة كان عملا مرذولا معاقبا عليه ؛ وأقبح من ذلك إذا ساءت الغاية وحسنت الوسيلة فإن ذلك هو النفاق والرياء واتخاذ الدين تجارة دنيوية وجعله سلعة فى سوق الشهوات ، وصدق من قال :

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها ... فتاركها عمدا إلى الله أقرب

يبقى ما إذا حسنت الغاية وقبحت الوسيلة ، فهل حسن الغاية يبرر الوسيلة ، وتكون العبرة بالمقاصد والنيات لا بالوسائل والمقدمات ؟ إن إطلاق القول بالتحسين أو التقبيح خطأ فاحش فإننا نعلم أن الشرع أباح الكذب ـ وهو قبيح ـ لإصلاح ذات البين بين متخاصمين أو إصلاح أمر الزوجة أو خداع الأعداء فى حال الحرب ، ونعلم كذلك أن الشرع اعتبر التقرب والعبادة لغير الله شركا وإن كان الغرض منها التقرب إلى الله والزلفى إليه سبحانه . . ومن هذا يتبين لنا أن حسن

الغاية قد يبرر الوسيلة أحيانا ، وقد لا يبررها أحياناً ، فوجب أن ننظر فى كل حادثة نظرة عميقة ، حتى تكون الفتيا فى كل مسألة صوابا أو قريبا من الصواب . ولا يحسن بنا أن نقول كما يقول بعض الناس تبريرا لأخطائهم « إنما الأعمال بالنيات » .

هناك جماعات من الناس يهدفون الى الخير ويسلكون إليه سبلا غير مشروعة لجمع التبرعات بطرق اللهو والفجور ، أو ببيع أوراق اليانصيب ، فهل حسن النية وشرف القصد يبيحان هذه الوسائل المنكرة ؟ كلا ، فقد بين الله سبحانه طرق البر وهى كافية لتحقيق أغراض الخير من المخلصين ؛ وأبطل الله أنواعاً من البر لما يشوبها من شر مستطير وإثم كبير ؛ فقد كان الميسر فى الجاهلية طريقا من طرق البر ، وكان ما يربحه اللاعبون ينفق على الفقير والمسكين ، ولكن لما غلب جانب الشر على جانب الخير حرمه وأخبر أنه من عمل الشيطان « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » .

وهذه سنته — سبحانه — فى تشريعه الحكيم إذا غلب جانب الخير على جانب الشر أباح الفعل وأثاب عليه ، وإذا غلب جانب الشر على جانب الخير حظره وعاقب عليه ؛ فإن الشر المحض والخير المحض لا يوجدان فى هذه الحياة ، ومن هنا ينزلق كثير من الناس فى الخطأ ، فإن أحبوا أمرا لم يبد لهم إلا محاسنه فذهبوا يطرونه ويدعون إليه ؛ وإن أبغضوا أمرا لم يبد لهم إلا جانب الشر ، فراحوا يعددون مساوئه ومثالبه ويدعون الى خطره وتحريمه ؛ وقد يكون فيما دعوا إليه شر لا يقادر قدره ، وفيما نهوا عنه خير كثير لا يدرك غوره . وقديما قالوا :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

نعم إن الشرع أباح الكذب فى أحوال ثلاث تقدم ذكرها ، وليس معنى هذا أن نقيس غير الكذب على الكذب أو أن نبيح الكذب فى تحقيق أغراض أخرى مهما كانت شريفة ونبيلة وإلا فتحنا بابا من الشر لا يمكن إغلاقه ، واقتحمنا حصن الدين بالأهواء والغايات الشخصية .

وإننا إذا أبحنا الكذب لغاية شريفة نبيلة غير الغايات الثلاث المذكورة آنفا أجزنا الكذب على الله ورسوله إذا خيل إلينا أن فى الكذب عليهما مصلحة دينية . ولا يقول بذلك عاقل فضلا عن مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر .

وهل يحل للمرأة المسلمة أن تعرض محاسنها على رجل أجنبي لتحمله على التبرع لمشروع خيرى؟ وصدق من قال « ليتها لم تزن ولم تتصدق » !

إن إباحة الكذب فى الأحوال السابقة إنما شرع على غير القياس - كما يقول الفقهاء - أو شرع على طريق الاستثناء كما يقول علماء القانون المحدثون - وما شرع كذلك لا يقاس عليه ، وإلا صار قاعدة وخرج عن كونه استثناء.

بقيت مسألة هامة تتردد فى النفس ، وهى أنه قد أصبحت الجاسوسية أساساً تقوم عليه الحروب وعاملاهامًّا من عوامل النصر والظفر ، وتعتمد الجاسوسية - غالبا - على النساء لمعرفة أسرار الأعداء ، فالرجل غالبا لا يفتح مغاليق قلبه إلا المرأة

فهل يباح للمرأة المسلمة أن تشتغل بالجاسوسية لمصلحة بلادها وقومها وأن تجعل من نفسها أداة لكشف أسرار أعدائها ولو أدى الأمر إلى ارتكاب الفاحشة والتسليم فى عرضها ، ولا سيما إن تعينت وسيلة لهـذه الغاية التى لا يشك أحد فى خطرها ونبلها ؟

والذى أطمئن إليه وأعتقد أن أحداً لا يخالفنى فيه أن انتهاك العرض محظور فى جميع الأحوال . وأن الله - سبحانه - يغار على الأعراض أكثر من غيرته على الأرواح ؛ فقد أباح إزهاق روح القاتل والزانى المحصن ، ولم يبح انتهاك العرض فى حالة من الحالات . ولهذا فلن يؤتى النصر قوما جعلوا أعراضهم وسيلة للغلبة على أعدائهم .

وقد أباح الشرع قتل المسلمين إذا تترس بهم المشركون ولم يمكن الوصول الى العدو إلا بقتلهم ، ولكنه لم يبح انتهاك أعراض الناس وإن كانوا أعداء للدين وحربا على المسلمين ، فكيف نبيح للمسلمين أن يسمحوا لامرأة مسلمة أن تبيع عرضها فى سبيل سر من الأسرار مهما كان خطيراً .

ولهذا فإن تاريخ المسلمين منذ نشأته الى اليوم لا يعرف هـذا اللون من الجاسوسية الحقيرة الدنيئة .

وبعد : فإن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وإن للحلال طرقا بينها الله ورسوله ، وليس لنا أن نستدرك عليهما وأن نأتى بوسائل من عند أنفسنا .

« يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ».

تعبئة الأمة الإسلامية

للأستاذ الدكتور محمود فياض
المدرس بكلية أصول الدين

---

١ — عرف القارئ الكريم مبلغ حرص الإسلام على تحقيق السلام فى المجتمع البشرى ، وأنه لم يدع وسيلة توصل إليه إلا لجأ إليها ، مستهدفا سعادة البشرية وهدايتها إلى ما شرع الله لها ، وأن الإسلام قد أقر الحريات العامة للفرد والجماعة بأوسع ما عرف من معانى الحريات ، ولا شك أن المسلمين كغيرهم من أرباب الملل والنحل والمبادئ ، لهم مطلق الحرية فى الدعوة إلى دينهم وعقائدهم ، فى غير ظلم ولا إكراه ، لأن طبيعة العقيدة تأبى ذلك ، وأن دعاة الإسلام قد قوبلوا بالعنف ، وصدوا عن الدعوة بالأذى والتنكيل والتقتيل ، وأن المسلمين قد وجدوا أنفسهم مكرهين على الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم ، وحرية العقيدة بصفة عامة ، فحملوا السلاح فى وجوه قوم لا يؤمنون بالحق ولا بالحريات ، ولقد فرَضت الحربَ على المسلمين تصرفاتُ خصومهم بردودهم على الدعوة . ولقد يعلم القارئ أن الحق ومبادئ الإصلاح والخير ، لابد لها من قوة تحميهما ، وتذب عنهما ، لأن الظالمين وأهل الفساد لا يحترمون دائما غير القوة ، وجميع رسالات الإصلاح الربانية ، والإنسانية ، قد عرفت القوة سياجا للحق ، والسلاح طريقا للتركز ودفع شرور المفسدين ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » ولم يكن الإسلام بدعا من الأديان وهو نهايته تشريع الرحمن للإنسان ، وما كان المسلمون بدعا من طلاب الصلاح والإصلاح ، فحملوا السيوف يجالدون بها قوى الشيطان والطغيان ، لإقرار الحريات والسلام ، ولهداية الناس فى غير ضعف ولا مذلة ، مبتغين العزة والكرامة غير ظالمين ولا متجبرين .

٢ — وأنت إذا تأملت مليا جميع مبادئ الإسلام ، وأوامره ونواهيه ، وشرائعه فى العبادات والمعاملات ، وشئون الاجتماع ، والجهاد وما يتعلق به ،

وجدت الإسلام قد عنى أولاً : بتعبئة جميع قوى الخير فى الأمة ، للقضاء على دوافع الشر فيها ، ليجرد منها لهداية الناس « خير أمة أخرجت للناس » داعية إلى الخير ، متعلقة بأسباب الحب والسلام ، وثانيا : بعد تصفية النفوس فى الأمة وتوجيهها للخير العام ، ينثنى فيعبئ جميع القوى المادية والمعنوية فى الأمة ، للحفاظ على التوجيه الخيّر ، ومواجهة تكاليف الدعوة ، والسير بها قدما إلى الهدف المنشود ، حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ؛ فالمسلمون أمة معبأة للدعوة والجهاد فى سبيل الله ، وقوة المسلمين شرط لتحقق عزتهم ، وعلو كلمتهم ، وسيادة دينهم ، وهم « فى رباط إلى يوم القيامة » ، واستعدادهم الحربى الدائم ، أمر واجب لمجابهة أحداث الزمان ، وحراسة الدين ، ومبادئ العدل والخير ، ولقد علم العقلاء أن العزة ، وعلو الكلمة ، والسيادة ، لا يستحوذ على شئ منها ضعيف ، ولا يحتفظ بها ذليل ، فإذا ترك المسلمون الاستعداد الدائم للجهاد أصبح الدين ومبادئه ، مجرد معنويات ، ومحفوظات ، ومرويات ، لا تحقق عزة ولا تدفع كيد عدو ، ولا تقيم سلطانا ، ولا تحفظ كيانا ، وفى ذلك جاءنا : « ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا ، وضرب بعضهم وجه بعض ، وأصبح بأسهم بينهم شديداً » ، ولقد صدق التاريخ هذا الأثر الشريف . فانظر أين شئت إلى المسلمين ، فهل تجد غير شعوب مستعبدة ، وأمة شعاعا فرطت فى جنب الله ، ونسيت ما شرع الله لها من أسباب القوة ، واستكانت إلى الدعة ، فضعفت الهمم ، وفترت العزائم ، وضل سعيهم فى الحياة الدنيا ؟ « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

٣ — ولقد كانت هذه التعبئة ضرورية جدا لتدعيم القومية الجديدة التى صنعها الإسلام (١) ، وهى القومية الإسلامية ، فقد جمع الإسلام شتات العرب إلى وحدة عامة ، يستوى فى ظلالها كل أفراد العرب ، وأثار بذلك فيهم الشعور بالقومية العربية ، والأخوة العربية ، ثم تناول الإسلام بالتغيير كثيراً من قواعد العرب الاجتماعية والخلقية ، وعدل كثيراً من نظمهم وعاداتهم ، وصقلهم صقلا روحيا خاصا ، ثم ربط بينهم بالأخوة الإسلامية ، وتعهد ذلك الرباط بالتنمية والتغذية ، حتى صفت نفوس العرب تماما ، وتخلصت من شوائب الجاهلية ،

---

(١) راجع كتابنا عصر الخلفاء الراشدين ص ١١٢ وما بعدها .

وسيطر عليهم وجدان دينى ، وهيام روحى ، وفدائية مثالية فى سبيل نصرة الإسلام ، ومن هنا تحولت القومية العربية إلى قومية إسلامية ، يشرف عليها الدين ، ويوجه نشاطها إلى الخير العام للمسلمين فى شتى نواحى النشاط الإنسانى ، ويكلفها حمل الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاتجهت إلى هدف واحد ، هو نشر الإسلام ، وحمايته ، وتيسير هداية الناس به إلى أقوم سبل السعادة والقرب من الله سبحانه وتعالى :

ومن هنا تدرك أن المقصد الأول من « الجهاد الإسلامى » ثم من الفتوح الإسلامية ، هو مقصد روحى ، دينى ، هو هداية الناس إلى الدين الحق ، ودعوتهم إلى القرب من الله رب العالمين ؛ ولم يكن هدف الجهاد هدفا ماديا ، كالتوسع السياسى أو الانتعاش الاقتصادى كما يزعم ذلك كثير من المستشرقين [١] ، وإلا فلماذا لم يتحرك العرب قبل إسلامهم ، للخروج من بلادهم إلى مثل هذا الغزو المنظم ، جريا وراء مصلحة اقتصادية أو توسع سياسى ؟ وإذا عرفنا أن العرب قد حبسوا قرونا طويلة فى بلادهم قبل الإسلام ، ثم أنهم لم يتحركوا إلى الفتح إلا بعد إسلامهم ، مع حبهم للديار وطول الألفة ، عرفنا أى سيطرة روحية دفعتهم إلى الخروج مجاهدين فى سبيل الله ، لا يبتغون إلا وجه الله والدار الآخرة !!

وإذا كانت حركات الجهاد فى سبيل نشر الإسلام ، قد جرّت إلى المسلمين مغانم كثيرة ، وبسطت سلطانهم على بلاد كثيرة ، فإن ذلك جاء تبعا ، ولم يكن هدفا ، أو لم تعلم أن الله قد عاقب المسلمين عامة يوم أحد بالهزيمة ، لأن بعضهم جرى وراء الكسب والمنفعة ، ونسى الهدف الأول ، وأهمل تعاليم القيادة ؟ ؟ ولم ينس المسلمون بعد هذا الدرس التأديبى الخالد ، وكذلك لم يكن التوسع السياسى هدفا مقصودا قصداً أوليا ، فقد ترك المسلمون كل الإدارات المحلية فى البلاد المفتوحة فى أيدى الوطنيين من أبنائها .

على أن العنصر الاقتصادى والسياسى اللذين صاحبا الجهاد ، لو كانا مقصودين مع الدعوة إلى نشر الإسلام ، الإسلام الذى يمزج بين جميع الأجناس والعناصر ، ويسوى بين المسلمين جميعا من كل لون وجنس ، ويحاول إرجاعهم أسرة واحدة ،

---

(١) اقرأ أسباب الفتوح فى كتاب الخلافة للسير وليم ميور الانجليزى .

لما جاز أن يكون ذلك القصد مأخذاً على الإسلام ، أو طعنا يوجه إليه ، فالإسلام لون جديد من ألوان الإصلاح يهدف إلى سعادة الإنسانية كلها فى ظلال الحرية ، والحق والعدل ، والبر والإحسان . وقد كان ذلك لازما للقضاء على الفساد المنتشر فى العالم كله ، والذى يعترف بوجوده قبل الإسلام جميع المؤرخين والمستشرقين !!

والمسلمون لا يحاربون غير أهل الكفر ، الذين يرفضون الدعوة إلى الله ، ويعتدون على المسلمين ، ويصدونهم عن سبيل الله ، ويحولون بينهم وبين دعوة الناس إلى دينهم ، ويرفضون السلام بدفع الجزية ، ويصرون على العناد وحرب المسلمين ، ويحاربهم المسلمون لإقرار السلام فى المجتمع البشرى ، وإقرار حرية الاعتقاد ، وحرية الدين والتدين ، وحماية الدعوة ، والمحافظة على الدعاة ، ورد كل عدوان يقع على وطن المسلمين أو أعراضهم أو أموالهم ، ودفع العدوان حق لكل إنسان بمقتضى قانون الفطرة ، ولو استنام المسلمون ، أو المصلحون فى أى عصر ، إلى كل اعتداء يقع عليهم ، لما تمت رسالة ، ولما تحقق إصلاح ، ولهذا كانت سنة الله أن يدفع الرسل والمصلحون كل عدوان على أنفسهم أو دعوتهم ، غير بادئين ولا ظالمين ، « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

٤ — لهذا يتجه الإسلام إلى إعداد المسلمين للجهاد إعدادا روحيا ، يملأ قلوبهم بالشجاعة والتضحية ، ويرفع معنويتهم حتى لا تضيق بالآلام ، ويسمو بنفوسهم حتى تستهين بالشدائد ، وتطيب بالبذل ، فقتال العدو ، جهاد فى سبيل الله وليس حربا من حروب البغى والعدوان ، والعدو هو عدو الله ، والمجاهد باذل نفسه وماله لله ودين الله ، وجزاؤه الجنة والقرب من الله ، و « الجنة تحت ظلال السيوف » ، والمقتول فى سبيل الله ، شهيد يحيا عند الله حياة طيبة أسمى وأرفع من هذه الحياة ، ثم هو فى درجة النبيين والصديقين عند الله ، وبهذا يثير عواطف المسلمين فتندفع للسباق إلى الجنة ، فى سبيل الله . وقد يحرك العواطف بتحريضهم على إنقاذ الضعفاء من الشيوخ والنساء والصبيان المسلمين الذين يستضعفهم العدو ، ويذيقهم مر العذاب ، اقرأ فى ذلك قوله تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما ، وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال

والنساء والولدان ، ثم يرتفع بالمجاهد إلى أرفع المنازل ، ويقرر له جزاء غير محدود حين يقول للمسلمين : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله . لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم » ثم اقرأ بعد هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة بقيام ليلها وصيام يومها » ، « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » « إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب[1] ، والرامى فى سبيل الله » ثم يذكر الله المسلمين بأنه قد قطع على نفسه عهدا للمجاهدين أن يدخلهم الجنة ، ويبرز هذا العهد فى صورة تعاقد[2] بين طرفين يوجب على كل طرف الوفاء بالتزاماته وهو عقد يقوم على البذل من المجاهد ، وضمان النصر والجنة له من الله ، « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » ثم يربط الله صدق الإيمان بالله ورسوله وحبهما بصدق الرغبة فى الجهاد ، ويطلب من المؤمن الصادق البذل والتضحية ، غير مستجيب للشيطان ، ولا ملق بالا إلى ما يقعد الجبناء من خوف على النفس أو الأهل أو المال ، فيقول : « قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » وبهذا الأسلوب القوى ينتزع الله أسباب الضعف والجبن والخوف من نفوس المؤمنين ، ويزرع فيها الشجاعة ، وحب البذل ، والاستهانة بزخارف الدنيا فى سبيل الحق ونصرة الله ، ويجعل ذلك التخلص من المثبطات دليل الإيمان الصادق ، والاستجابة لها دليل التردد والتشكك والإيمان المدخول « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

(١) الصانع (٢) القرآن والقتال للشيخ شلتوت ص ٣٩ وما بعدها .

فإذا حبب الأمة فى الجهاد رجاء القرب من الله ، وألهب عواطف المسلمين ، فأصبحت راغبة فى البذل ، راضية النفس مطمئنة ، عمد الى المجاهدين بالفعل فأخذهم بنوع من الإعداد أقوى ، وأغراهم بعدو الله وعدوهم ، ودفعهم بما ضمنه لهم إلى النصر دفعا ، « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال ؛ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، فإذا هون عليهم من شأن العدو وأغراهم به قص عليهم ما يطمئن نفوسهم إلى نصر الله ، بما يحكيه عن المؤمنين السابقين « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » لأن الكثرة المتراخية التى لا يدفعها إلى القتال دافع روحى ، أو هدف تؤمن به ، لابد من هزيمتها أمام القلة التى يلهبها الإيمان ، ويشعل فى نفوسها روح القتال ، والرغبة الصادقة فى الوصول إلى الهدف المنشود ، وإمداد الله للمؤمنين المجاهدين بجنده ، « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ليثبت فى قلوبهم الثقة بالفوز ، والإقدام ، « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » .

وهكذا يوجه المجاهدين إلى طلب الفوز ، ثم يعلمهم بأن الكثرة والقلة ، ليست إحداهما شرطا للنصر ، فالنصر بيد الله يعطيه لأحبائه « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » ، « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ثم يحرض المجاهدين على الاستمساك بالقوة ، والمثابرة على الجهاد فى سبيل الله ، لأنهم دعاة الله ، وألسنة الحق ، وهم الأعلون ، ويرجون من الله النصر والجنة ، وليس للعدو فى الله رجاء ، « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم » ، « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ... » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . والموت فى سبيل الله هو أسمى حياة « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وهكذا يتم الاعداد الروحى للأمة الإسلامية كلها ، ولرجال الجهاد بصفة خاصة ، ويقف المؤمنون على أهبة تامة للجهاد والبذل فى سبيل الله ، يرجون الله والدار الآخرة ، وما فيها من باقيات خالدات .

البابية والبهـــــائية

« الدين » البهائى

للأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ فى الآداب

— ٤ —

ظلت فارس ، بلاد زردشت ، الذى نافح الشر فى سبيل الخـير ، تعتنق دين المجوسية حتى غزاها الإسلام ، فأضحى الفرس مسلمين فيما عدا جماعات قليلة ظلت على مجوسيتها . وفى فارس ظهرت حركات أثرت على تاريخ الإسلام ، منهـا الحركات السياسية كثورة الخراسانى التى أثمرت الدولة العباسية ، أو حركات نهضة أدبية قومية أثمرت «حافظ ، والفردوسى ، والخيام» أو حركات تحريرية أخرجت فى دنيا الإسلام نظما لم تكن معروفة . وفارس ـ عدا ذلك ـ هى معقل الشيعة فى العالم الإسلامى ، وقد سار الشيعة قدما فى التفسير والتأويل ، بل والابتداع ، كما رأينا فى مقدمة هذا البحث .

ورأينا فى تاريخ الباب والبهاء أنهما أخـذا نفسيهما بالرياضات الروحية ، وأن البهاء ، على وجه الخصوص ، قد درس التصوف وغدا من أئمة عصره فيه . والتصوف ـ فيما يغلب الرأى ـ كان خلاصة الفلسفة اليونانية ممزوجة بآراء من الحكمة الشرقية ، فلم يعرف الإسلام الحلول والتناسخ والتشخيص إلا عن هذا الطريق .

فكأن حكمة الشرق ، وفلسفة الإغريق ، والأديان السماوية الثلاثة الكبرى ، كانت هى جميعاً المنبع الذى أخذ منه الباب ومن بعده البهاء ، وكانت هى التى أمدت هذه الحركة الجديدة بعناصرها ومبادئها .

أما مصدرها الأول ، فكان ولا ريب ، هو : الإسـلام ؛ نحا الباب والبهاء منحاه ، واختطا خطته ، وسارا فى حدوده ونطاقه ، أما إذا تعدت البهائية هذه الحدود أو هذا النطاق ، فإنمـا نجد أثراً للحكمة الشرقية أو للفلسفة اليونانية ،

كما شرحها فلاسفة العرب ، فإن لم يكن هذا ، ولا ذاك، فهناك غرض يهدفون اليه ، كما سنتبين فيما بعد .

* * *

أعلن الباب فى شهر مايو سنة ١٨٤٤ ، أنه نبي جاء بدين جديد ، ينسخ الأديان السالفة [١] ، وأن على كل فرد أن يؤمن برسالته ، فالباب إذن - فى نظر أتباعه - نبي من أنبياء الله ، والأنبياء هم - كما يقول البهاء - : « أهم الشخصيات فى تاريخ الإنسانية ، تبين رسالاتهم الغرض الكامل لإرادة الله ، وتحدد مسارح تقدم الإنسانية » ، وكل مؤسسى الديانات عند البهائيين هم « رسل من لدن الله ، لا يعلو أحدهم على الآخرين ، فكلهم تجسد [٢] للروح المقدس » ، وفى هذا يقول البهاء : « يعرف كل من أوتى قلباً خالصاً نقياً ، أن الله - الجوهر الذى لا تمكن معرفته - قد تعالى عن أفهام البشر ، لا يستطيع إنسان أن يفيه الثناء ، ولا قلب أن يفهم جلاله ، فإنه قد تحجب بأزلية جوهره القديمة ، وسيبقى فى حقيقته خافياً عن الأبصار » ثم يتمثل بهاء الله بالآية الكريمة « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » [٦ : ١٠٣] .

ورسالات الله [٣] ليست ، ولم تكن أبدا ، مختصة ببعض الأنبياء دون بعض ، فكل منهم حبيب الله ، ورسوله المختار ، وكلهم دون استثناء يحملون أسماءه ، وكلهم متجسد لروحه ، وهم إنما يختلفون فى كم الوحى وقوة النور الذى يأتون به ، فكما يقول الله فى كتابه الكريم : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» [٢ : ٢٥٣] ، ويؤول عبد البهاء هذا ، فيقول : « ليس من الضرورى أن نحط من قدر ابراهيم وأن نرفع من قدر المسيح ، وليس ضروريا أن نحط من قدر المسيح لننادى ببهاء الله ، بل واجبنا هو أن نقبل الحق من الله حيثما نجده » . وفى قول عبد البهاء تهرب من تفسير معنى الآية الكريمة ، فالبهائية « تعترف » بالإسلام ، وبأن القرآن من عند الله ، وهم فى محاولتهم التوفيق بين القرآن وبين آرائهم التى تخالفه ، يعمدون

---

(١) يلاحظ هنا تطور الحركة من المهدوية إلى رسالة جديدة .

(٢) يلاحظ الأثر المسيحى فى هذا النص

(٣) فى المذهب البهائى

إلى المغالطات ، وإلى اصطناع المعانى الضخمة يغطون بها مخالفاتهم ، فكأنهم أقرب إلى التلفيق منهم إلى التوفيق .

يقول عبد البهاء : « إن ما يهدف إليه بوذا وكريشنا ومحمد وموسى وغيرهم من مؤسسى الديانات الكبرى ، هو نفس ما يهدف إليه المسيح وبهاء الله . » ونرى من هذا أن البهائية هى أول من يقول بنبوة بوذا وكريشنا ، بل إن كل دين موجود فى العالم ، هو عندهم من عند الله ، وهم يأخذون به . ولكنهم يدعون أتباعه إلى اعتناق « دينهم » الجديد ، لأنه آخر « دين » حتى هـــذا التاريخ . وهم لا يقولون إن البهاء هو آخر الأنبياء ، لا ، بل سيظهر بعد موته بألف عام نبى آخر ، على المؤمنين (البهائيين) أن يتبعوه .

والبهائيون بهذا ، يحذقون فن الدعاية ، فهم يحاولون اكتساب الجميع ، خاصة وهم ينادون بأن الرسول ليس شخصا منفصلا ، وإنما هو نقطة فى خط المعلمين ، قد أرسله الله برسالة خاصة ، وهو يظهر تحقيقاً لوعد [إلهى] سابق . فكل نبى قد بشر بمن سيأتى بعده : تنبأ بوذا أنه سيظهر بعده بوذا آخر يدعى ميتيا ، كما أبان أنه هو يكمل عمل نبى آخر سبقه فى إحياء الدين وإعادة خلق نظام قديم ، فمثله كمثل رجل يتجول فى غابة ، فيكتشف طريقا طالما سار فيه غيره ، فيتبعه حتى يصل إلى مدينة قديمة فى موقع جميل ، فيرجع إلى الملك أو الحاكم مخبرا إياه بما استكشف ، فيعيد الحاكم بناء المدينة ، وتصبح عامرة مأهولة . وهكذا وجد بوذا هذا الطريق الذى طالما طرقه بوذوات آخرون فى غابر الزمان ، ولما تبعه ، تفهم الحياة ، ففهمها [1].

وقال كنفشيوس : « إن عملى هو أن أوضح لا أن أخلق »

وتنبأ موسى بمقـــدم المسيح فى كلامه إلى الاسرائيليين ، فجاء فى سفر التثنية ١٨:١٥ « يرسل اليكم الرب إلهكم ، من وسطكم نبياً منكم ، تستمعون إليه » ، وقال بطرس ٣ : ٢٤ Acts : « كل الأنبياء ابتداء من صموئيل ، وكل من يأتى بعده قد أنبى بهم من قبل . » وردد يوحنا المعمدان : ... « صوت شخص يصيح فى العراء أعدوا طريق الرب ، واجعلوا طرقه مستقيمة » ، بل إن المسيح نفسه ليقول :

---

(١) راجع كتاب البوذية : مسز رايس .

إذا كنتم قد آمنتم بموسى ، فيجب أن تؤمنوا بى أيضاً » . وجاء فى سفر التثنية « جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس » وسيناء هو الجبل الذى نبى عليه موسى ، وسعير نبى عليه عيسى ، وفاران من جبال مكة . أما ربوات القدس فإن أصحاب البهاء يرون أنها بشارة به ، وإن كان المسلمون يرون أنها محل نزول عيسى فى آخر الزمان .

وثمة آيات أخريات يأخذها البهائيون من التوراة والإنجيل ، يؤولونها ويصطنعون منها أدلة على صدق الباب ثم البهاء . وهم لا يقتصرون على ذلك ، بل يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اعترف بأن كل ما أتى به المسيح إنما هو من عند الله ، وقال بحق « أنا المسيح » وأتى برسالته على أنه آخر الأنبياء العظام الذين يأتون قبل ظهور الله للإنسان ، وقال أنا خاتم النبيين . ولا يعترف البهائيون بالطبع بالمعنى الحرفى لكلمة « خاتم النبيين ، وإلا لبطلت « رسالة » الباب فالبهاء . وقد فسر الباب معنى « خاتم النبيين » فى « البيان » فقال « قل هو الختم الذى ليس له ختم فى الإبداع ، ولا بدء له فى الاختراع ، إذن يامِلأ الأرض فى ظهورات البدء تجليات الختم تشهدون » ، بل ويحاول البهائيون الاستدلال ـ زورا ـ من القرآن على رسالتهم المزدوجة ، فيؤولون الآية الكريمة « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » فالنفخ فى الصور أول مرة هو شروق محمد صلى الله عليه وسلم ، أما النفخ فيه مرة ثانية فهو « ظهور » الباب والبهاء .

ولذلك كان الباب يؤكد أنه خليفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن محمداً عليه السلام قد بشر به ، وأن رسالته إنما تختص بالتبشير بأعظم بعث وأعظم رسالة .

وحين قال محمد صلى الله عليه وسلم « أنا خاتم النبيين » فإنه لم يكن يعنى بقوله هذا ـ فيما يزعمون ـ أن باب التعاقب قد أقفل إلى الأبد ، وأن أبواب الاتصال بين الله والناس لن تفتح بعده أبداً [1] ، بل لقد قال مراراً إنه سيرجع مرة أخرى ، وإذا ما قال نبى عظيم « سأعود مرة أخرى » فإنه يعنى استمرار الوحى وتعاقبه .

(١) المغالطة المنطقية هنا واضحة . وراجع مقالاتنا السابقة فى التصوف للرد على هذا الادعاء .

فإن الأنبياء لا يرجعون - بأنفسهم - مرة أخرى إلى الأرض يحملون رسالاتهم من جديد ، وهم وإن كانت صفاتهم العامة مشتركة إلا أن شخصياتهم تختلف وتتباين ، مثلهم مثل النهر ، فإنه واحد ، وإن تغيرت مياهه ، أو كمصباح مضاء ، فإن ذلك الضوء لا يتغير ما دامت صفاته ثابتة ، ولكنه يختلف من ناحية عناصره التكوينية ، ولا يتغير الوضع إذا أطفىء المصباح ثم أوقد من جديد .

والنبي - مهما كانت لغته - إنما ينبىء عن النظام التقدمي الدائم في سبيل الله ، سواء في المستقبل أو الماضي ، وقد لا يعترف أتباعه ، فيما بعد ، بهذه الحقيقة ، بل يذهبون إلى أنهم إنما احتكروا وحي الله ، وأن كل نبي ، خلا نبيهم ، ما هو إلا أفاق مغامر ، وليس ذلك إلا لأنهم لا يتبعون ، في حقيقة الأمر ، تعاليم دينهم .[١]

أما الصفات التي يتميز بها النبي فهي البساطة والرقة والتواضع ، وأن علمه الإنساني قليل ، ولا يتبع في رسالته طرق الملوك أو الغزاة الفاتحين ، ولا يستعين بنفوذ أسرته أو ثروته أو بالقوة والإجبار ، بل هو ضعيف بالنسبة لهؤلاء ، يبدو وكأنه لا حول له أمام القوة ، يتعرض كغيره ، من بني الإنسان ، للمرض والجوع والعطش والتعب وغير ذلك ، وهو عدو سهل لأعدائه ومضطهديه ،[٢] ولكن الأنبياء ، كما يقول البهاء في « الإيقان » : « جالسون في يدي القوة ، ويشرق عليهم نور خالد من بين ظلمات حياتهم ، ومن بين مظاهر ضعفهم تظهر علامات الملك العريض » .

فقوة الأنبياء قوة روحية وعقلية ، من نوع ليس في الإنسان ، بل وليس في استطاعة الإنسان أن يتفهمه ، إذ أنها فوق إدراكه البشري ؛ فهي قوة خالقة تعطي الإنسان قدرة جديدة : هي القدرة على التفكير والشعور . والنبي العظيم يأتي غالباً باسم جديد لله ، ليس عنوانا عليه ، وإنما يكون صلة إلهية ، إذ أنه يقدم للشعور الإنساني برهاناً جديداً ، يتحقق به البشر الله .

ذلك عرض للفكرة البابية البهائية في أمر النبوة ، وإلى المقال التالي نكمل الحديث ، ثم نعرض للغرض من « رسالتهم ! ! » .

---

(١) المغالطة المنطقية في هذا الحديث واضحة والغرض منها ايهام القارىء بأمرين ، أولهما أن الوحي الالهي لم ينته بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والثاني أن البهاء نبي ! !

(٢) يلاحظ الأثر البوذي والمسيحي في هذه الصفات .

لعيني اللغـــة :

يُفلَح - لا يَفلح

لفضيلة الأستاذ السيد حسن القاياتي
عضو المجمع اللغوى

استمعت إلى فضيلة صديقنا الأديب العالم الأستاذ إبراهيم أبو الخشب ، حيث كان يحاضر فى محطة الإذاعة ، لعهدٍ مقترب ، فجرى فى محاضرته ما يأتى ، قال : الحديد بالحديد يَفلح ! .

تمثل الأستاذ المحاضر بهـــذا المثل ، فقاله بفتح اليـاء واللام ، كأنه يحسبه من الأفلاح والنجح ، وليس المثل فى شيءٍ من هذا .

إن الصواب يتمثل بهذا المثل السائر المتعارف كما أَصِفُ : الحديد بالحديد يُفلَح ، بياء مضمومة ، ولام مفتوحة ، ومعنى يُفلح ، يشق ، ويُغلَلُ ، وبه سُمى الفـلاحُ فلاحاً ، لأنه يشـق الأرض بالحرائة ، وبالمسحـاة ، والأفلح ، مشقوق الشفة .

وبعد : فمعذرة إلى فضيلة الصديق من هذه العربدة الأدبية ، والشغب اللغوى ، فإن الأدب عزيز علينا مثله ، ولا بد من الصواب ، للشباب .

أنت عينى وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقـــذاء

دعبل الخزاعى

لحضرة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

شاعر من شعراء الدولة العباسية الماجنين المقذعين وإن كان من المتظاهرين بالحب للبيت العلوى الكريم فهو من ناحية العصبية للشيعة العلوية أشبه بالسيد الحميرى الذى تناولته من قبل على صفحات هذه المجلة . وهو من ناحية المجون والهجاء والاقذاع أشبه ببشار بن برد لم يسلم منه ملك ولا وزير ولا سوقة فى إقذاع وقحه .

وله مشابهة أخرى من ناحية أخرى فهو فى تلمذته لمسلم بن الوليد وأخذه عنه مع سلامة مذهبه وعدم تورطه فى البديع وقيوده أشبه شىء بالوليد البحترى مع أستاذه حبيب ، فكل من الأستاذين مسلم وأبى تمام كان يقسر طبعه أحيانا كثيرة على شىء مما يسمى الاستحسان ويعرضه شعره على تلك الصناعة تتصرف فيه بما تشاء فتفسد منه الشىء الكثير . وأما التلميذان دعبل والبحترى فقد سلم كل منهما فى الأعم الأكثر من الاستكراه وإنما كانا يعرضان تلك الصنعة على شعرهما فيأخذان منها ما يصلحه ويزيده جمالا وقبولا وعندى أن البحترى كان أقوم الجميع وأصفاهم ديباجة وأسلسهم أسلوبا (لقد أجاد فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى) وسأعرض للبحترى إن شاء الله فى مقال آخر يتجلى منه للقارىء الكريم فضله على غيره وتقدمه .

نشأة دعبل :

ولد دعبل بن على الخزاعى بالكوفة سنة ١٤٨ ودرس فى مدارسها مبادىء العربية والأدب ولكنه اتصل ببعض الشبان المتشطرين المفسدين فكان يطارد بها حتى خرج منها يضرب فى البلاد ويلتمس الشعر والأدب كما يتطلبه استعداده السليم وسترى طرفا من ذلك لقد أقام ببغداد مدة وهى مزدهرة بالعلم والأدب

والمدنية والحضارة يجبى إليها ثمرات كل شىء ويتدفق فيها المال والعلم والأدب والشعر . وكان عصره عصر المهدى والهادى والرشيد والمأمون والمعتصم وكانوا من التشجيع للشعر والأدب بحيث يشجعون كل أطراف الأرض للإنتاج والعرض فى سوقهم الرابح وتقديرهم البالغ وقد أتيح له أثناء مقامه ببغداد الاتصال بالشاعر العربى الفحل مسلم بن الوليد الانصارى الذى يعد أستاذ مدرسة الشعر الصناعى البديعى والذى سن سبيله للشعراء فأخذ عنه وتحفظ من الاسراف فى البديع الذى تورط فيه أستاذه فكان أشبه بالبحترى مع أستاذ أبى تمام كما قدمت لك من قبل ولكن أستاذه مسلما لم يتورط فيما تورط فيه دعبل من حنق على خلق الله وإساءة حتى إلى من يحسن إليه . وقد يرجع حب الهجاء والطعن على خلق الله إلى لؤم فى نفس صاحبه لا ينجع فيه تهذيب ولا تخفر عليه صناعة .

فهذا ما ورط أمثال بشار ودعبل فى الإساءة حتى إلى من أحسن إليهما . وقد وصفه صاحب الاغانى فقال لم يزل مرهوب اللسان وخائفا من هجائه للخلفاء فهو دهره كله هارب متوار . ولقد دعاه ذلك إلى أن هجا أهل بيته وإن كفر بأستاذه مسلم فى شعره الذى يقول فيه .

غششت الهوى حتى تداعت أصوله ... بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت من بين الجوانح والحشا ... ذخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تعذلنى ليس لى فيك مطمع ... تخرقت حتى لم أجد لك مرقعا
فهبك يمينى استأكلت فقطعتها ... وجشمت قلبى صبره فتشجعا

والواقع أن شعره فى الهجاء فى الأعم الأكثر منه قوى رصين تتجلى فيه رصانه مسلم بن الوليد صاحب الفضل الأول عليه ، وسترى تفصيلا لذلك فيما بعد عند الكلام على هجائه وشعره .

تقلبه فى البلاد :

قدمت لك أن دعبلا قضى شطراً من حياته فى الكوفة . وقد رأيت ما قاله أبو الفرج الأصبهانى من أنه قضى دهره هارباً متوارياً .

وكان من الحق الواجب أن أعرض لذلك بشىء من التفصيل والتصوير فأقول : قضى دعبل شطراً بالكوفة يتشطر ويصحب الشطار ، حتى خرج هو ورجل

من أشجع فيما بين العشاء والعتمة ، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة وكان يروح كل ليلة بكسبه إلى منزله ، فلما طلع مقبلا إليهما وثبا فجرحاه وأخذا ما فى كمه . ثم علم أهل الرجل ذلك ، وأبلغ الحاكم أيضاً ، فخرج أولياء الرجل فى طلبهما . وجدَّ السلطان فى ذلك أيضاً حتى طال على دعبل الاستشار ، واضطر إلى الهرب من الكوفة ، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد . ويروى صاحب الأغانى رواية أخرى تقول إن دعبلا جنى جناية بالكوفة وهو غلام ، فأخذه العلاء بن منصور الأسدى وهو على شرطة الكوفة يومئذ فحبسه فكلمه فيه عمه سليمان بن رزين فقال أضربه أنا خير من أن يأخذه غريب ، فيقطع يده ثم ضربه ثلثمائة سوط ، فخرج من الكوفة فلم يعد إليها إلا عزيزاً - والظاهر أن تلك الجناية كانت سرقة ما دام عمه قد خاف قطع يده وسواء أكان الحاكم قد أخذه أم لم يأخذه ، وكان عمه قد ضربه أم لم يضربه ، فقد ثبت أن دعبلا لم يقم بالكوفة ، ولم يستقر بها أكثر من باكورة صباه ، ثم سار يطوف فى بلاد الله إن لم يكن للجناية ، فللهرب من قوارص لسانه ، ومن جناية هجائه الفظيع ، على أن رواية ثالثة تقول إن دعبلا كان يتشطر وهو شاب ، وكانت له شعرة جعدة ، وكان يدهنها ويرجلها حتى تكاد تقطر دهنا ، وكان يسلط على الناس بالليل ، فقتل صيرفياً وظن أن كيسه معه ، فوجد فى كمه رماناً فهرب من الكوفة ، والكل كما ترى متفقون على أنه هرب من الكوفة .

وفى أخباره ما يدل على أنه كان مستقتلا ومقدراً لنفسه مصيراً سيئاً ، قال صاحب الأغانى حدث إبراهيم بن المدبر قال لقيت دعبل بن على فقلت له أنت أجسر الناس عندى وأقدمهم حيث تقول فى المأمون :

إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
رفعوا محلك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال له يا أبا إسحاق أنا أحمل خشبتى منذ أربعين سنة فلا أجد من يصلبنى عليها ولقد كذب دعبل فى هذا الزعم فقد كان جبانا فروقه .

إلا أن يكون قد قصد بالخشبة هذه الأهاجى المقذعة التى تحفز إلى التفتيش عنه ومحاولة الفتك به وإن كان فى بروج مشيدة .

فى تفسير القرآن الــــكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى

المدرس بالأزهر

فى باب التفسير فى هـذه المجلة الجليلة قرأت فى تفسير سورة البقرة مقالات متتابعة دفعنى إعجابى بها إلى متابعتها قراءة لهـا وإمعانا فيها . ثم ازداد إعجابى بها حين رأيت آخر هـذه المقالات فى تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » تتعرض للمقارنة بين العبارات المتشابهة مما يجلى به إحكام القرآن وإعجازه ، ثم دفعنى ذلك كله إلى التعقيب على بعض الآراء التى أعتقد أن فيها مجالا كبيراً للتعقيب ، والتى أحصرها فى ثلاث مسائل :

الأولى : لم كان التعبير بالختم على القلوب والسمع ، وبالغشاوة على الأبصار ؟

الثانية : لم كان القلب مقدما على السمع فى هذه الآية مؤخرا عنه فى آية الجاثية « أفرأيت من اتخـذ إلهـه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » ؟

الثـالثة : لم جمع القلوب والأبصار فى آية البقرة وأفرد السمع ؟

يقول الـكاتب الفاضل فى المسألة الأولى : إن آفة البصر معروفة مدركة إذ غشاوة العين معلومة لنـا ، وأما القلب والسمع فأنهما لمـا كانا لا تدرك آفتهما فقد صور لنـا حواجزهما عن سماع الحق بصورة الختم ؛ لذا نراه فى جانب القلب والسمع قد عبر بالختم ، وفى جانب العين بالغشاوة .

هذ كلامه . وأحب أن أعقب عليه بأن السمع كالبصر كلاهما حاسة من الحواس الظاهرة لها آفاتها التى تدرك وتعرف وتحول بينها وبين مدركاتها من المسموعات والمبصرات أيّا كانت هـذه الآفات وأيّا كانت طرق المعرفة والإدراك لهذه الآفات . ولئن صح القول بعدم إدراك آفة القلب لأنه حاسة باطنة وقوة مدركة عاقلة فلن يصح ذلك بالنسبة لجارحتى السمع والبصر .

وقد رأينا القرآن يستعمل بجوار السمع ماهو من قبيل الآفة فيه وهو الوقر، فنى السور : الأنعام، والإسراء، والكهف قوله تعالى : «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً. ويستعمل بجوار البصر الختم فيعبر بالطبع وهو كالختم فى سورة النحل فى قوله تعالى : «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون». ويستعمل بجوار القلب أشياء ليست من قبيل الختم كالرين والمرض فى قوله تعالى فى سورة المطففين : «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»، وقوله تعالى فى سورة البقرة : «فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا».

كما أنه يجوز أن يكون الوقف فى آية البقرة على قلوبهم ويستأنف وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فتكون الغشاوة بالنسبة للسمع مستعملة وهى ما يغشى ويغطى، بل إنها قد تكون بالنسبة للثلاثة القلب والسمع والبصر على قراءة نصبها بتضمين ختم معنى جعل.

فإذا كان ذلك كذلك وكان ما ذكر على أنه السر لا يصلح أن يكون السر لأنه غير سليم ولا مسلم ولا مطرد، فإن السر حق السر - فيما أرى - هو أن هذه الثلاثة القلب والسمع والبصر جاءت فى هذه الآية آية البقرة مع التعبير المجاور لها ثلاثتها على ترتيب أهميتها فى تحصيل الهدى والإيمان. فالقلب هو العمدة على سائر الجوارح وهو حوض الولاية والإيمان وهو بحيث يحصل الهدى والمعرفة مستقلا عن كثير من الجوارح والحواس الظاهرة. وهو إذا صلح صلح الأمر كله، وإذا فسد فسد الأمر كله...

والسمع يتلوه فى الأهمية، فهو منفذ الهدى والمعرفة إليه، والدعوة قائمة فى جوهرها قرآنها تبليغها تبشيرها وإنذارها على السمع؛ يأخذ القلب إيمانه ومعرفته عن طريقه دون حاجة إلى البصر ودون أن يغيب عن القلب بغياب البصر أمر خطير... ثم يتلوهما فى هذا الباب البصر[1].

وعلى ذلك فكم كان من إصابة المحز بمكان أن يبدأ فى مقام إثبات الضلال ووصفه بذكر القلب والختم عليه، ويثنى بالسمع والختم عليه، ويثلث بالبصر

---

(١) المقصود بالنظر فى أكثر الآيات التى تحبذ النظر وترفع درجته هو النظر العقلى

والغشاوة عليه . والختم أقوى من الغشاوة فى منع نفوذ المدركات إلى الحاسة . والختم على القلب والسمع أشد التصاقا بما سبقه فى الآيات مباشرة من أنهم لا يؤمنون ، وأنهم سواء عليهم أأنذرهم النبي أم لم ينذرهم ، وهو منه بمنزلة البيان من المبين (١) . أما أنهم على أبصارهم غشاوة فكالتتمة لبيان تمام ضلالهم ، وهو فى الأهمية وفى الالتصاق بالآية السابقة ثالث وأخير ، فلم ينتظم مع سابقيه فى سلك واحد لا فى الختم ولا فى إسناده إلى الله تعالى .

هذا هو الأصل فى أمثال هذه المقامات ، مقامات الضلال والحديث عن ضلالهم وعنادهم : منزلة القلب التقدم على أخويه ، ومنزلة السمع التقدم على البصر . فهذه هى آية البقرة التى معنا كانت على هذا النمط ، وتلك آية النحل التى سبق ذكرها جاءت على هذا النمط ، وفى سورة البقرة فى أكثر من آية قوله تعالى « صم بكم عمى » وفى سورة فصلت « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » وفى سورة الأنعام « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا » . وفى كل من الاسراء والكهف « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا » فإن خولف هذا الترتيب فى آية فهى إما فى غير هذا المقام من مقامات الكلام الاخرى فى القرآن أو فى مثل هذا المقام ، ولتغير الترتيب فيها سر زائد يقتضيه . من القبيل الأول قوله تعالى فى سورة الأنعام « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به » وقوله تعالى فى سورة الأسراء « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » فإن الآية الأولى فى مقام التهديد ، فتقدم ما المهدد له أفهم وأسرع إدراكا وتخوفا ، والآية الثانية فى مقام النهى عن تتبع الإنسان ماليس له أن يتتبعه ، فتقدم مابه التتبع أول وأظهر وأكثر ... ومن القبيل الثانى قوله تعالى فى سورة الأعراف « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » وقوله

(١) ولعله السر فى تقوية المعنى بذكر حرف الجر [على] قبل كل واحد من الثلاثة وقد اكتفى بذكره مرة واحدة قبل الثلاثة فى آية النحل .

تعالى فى سورة الجاثية « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » فقد تأخر السمع عن البصر فى الآية الأولى ليكون أقرب إلى ما ذكر عقبه من تشبيههم بالأنعام وغفلتهم ، فإن عدم السمع أدخل فى باب التشبيه بالأنعام من عدم البصر « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى [1] » وتقدم السمع على القلب فى الآية الثانية لأنها فى سياق التنديد بمن يسمع ولا ينتفع بما يسمع ، ولسياق السورة التى منها هذه الآية وهى سورة الجاثية مزيد اعتناء بابراز هذا المعنى من أول قوله تعالى فى مطلع السورة « ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا » فلا عجب والمقام مقام تنديد بسمع لا يجدى واستماع لا يفيد أن يتقدم السمع على القلب ، ألا يرى إلى قوله تعالى فى نفس الآية « وأضله الله على علم » فانه مشير إلى أنه يسمع ويعلم ثم يصر مستكبرا ويولى كافرا كأن لم يسمع ؟؟ .

إلى هذا الحد من الكلام وبهذا المقدار منه يكون ما أردت التعقيب به على المسألتين الأولى والثانية قد فرغ منه وبت فيه ، أما الثالثة فيقول فيها إنه أفرد السمع لأن القلوب تختلف باختلاف ما تفهمه ، وكذلك الأبصار تختلف فى عمق تدبرها ، أما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعا شىء واحد : الحجة . الدليل . القرآن . هذا كلامه ، وأحب أن أعقب عليه بأنه إذا كانت الأبصار تختلف باختلاف مقدار ما تدركه وتنتفع به من المبصرات ، وكذلك الأسماع تختلف باختلاف مقدار ما تدركه وتنتفع به من المسموعات ، وكما أن المسموع فى نفسه شىء واحد وكذلك المبصر فى نفسه شىء واحد هذا بذاك ما تدعيه فى أحدهما ثبت للآخر لا فرق بينهما فى هذا المعنى ... وإذا كان ذلك كذلك فإن السر فى إفراد السمع مع جمع أخويه القلب والبصر فى الآية الكريمة لا يعدو أن يكون كونه جاء بلفظ المصدر [2] والمصدر بالأفراد كاف لا يعدل عنه إلا بتكلف ، وعند ما ينتقل التعبير القرآنى من لفظ السمع إلى لفظ الأذن وهما واحد والمسموع واحد نراه يعمد إلى الجمع بدلا من الأفراد : فى آذاننا وقر ، فى آذانهم وقرا ، لهم آذان لا يسمعون بها .

انتهى ما أردت التعقيب به . والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه ؟

---

(١) الآية من سورة البقرة والتقدير - ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى - الخ

(٢) ارتضى القرطبى هذا الوجه قول الألوسى فيه إنه ليس بشىء - وليس بشىء ،

من كتائب النصر

كتيبـــــة الاهوال (١)

فى يوم الجراثيم

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على شعوط
المدرس بكلية اللغة العربية

فى الأمر المريج ، والليل البهيم ، وعند التباس الطرق تلتمس المخارج ، ويحتال على تفريج الكرب ، وسلوك الجادة حتى تبدو الغاية واضحة ، والهدف قريباً .

وليس لليل الذى نحن فيه من نهار ، ولا للحصول على الحق من سبيل بعد ما استنفدنا جميع وسائلنا ، ونضب معين الحجج فى ميدان الجدل العقيم ، وبان لذى عينين أننا أخطأنا الطريق ، وانحرفنا عن الجادة ، وفقدنا قوة الحق التى فى أيدينا .

وسبيلنا أن نرجع إلى ماضينا المجيد الذى يشع نوره بين ظلمات التاريخ لنستمد منه قبساً نهتدى به فى ظلمات حاضرنا المعتم ، ومستقبلنا المخيف .

وهذه صورة من قوة الإيمان ، وشدة اليقين ، وبذل المهج الغوالى فى سبيل الحق وركوب الأخطار ، ومقاساة الأهوال لجماعة من أسلافنا حطمت كل مقاومة . وأسكتت كل صوت ، وقضت على أكبر دولة فى عصرها وهى دولة الفرس وتركت كسرى يهيم على وجهه بعد ما دخلت بلاده فى حوزة المسلمين الذين رفعوا راية الحق ، وقاتلوا فى سبيل الحق حتى عرفوا بين الناس بنصرة الحق وتأييده .

حدث ذلك بصنع الكتائب ، وبسالة القواد ، وتفانى الجنود فى فتح المدائن عاصمة الدولة الفارسية وكرسى مملكتها ذى التاريخ المجيد .

كانت موقعة القادسية أشد ما لاقاه المسلمون فى أرض العراق من قوة الطعان

---

(١) راجع الطبرى ج ٣ ص ١١٩ وابن الأثير ج ٢ ص ٣٥٦ .

وقسوة النزال ، وتأهب الخصم واستبساله إلى حد الاستماتة حتى ترددت المعركة بين الفريقين وكانت سجالا بين الجيشين ؛ فيومها الأول يوم « أرماث » كان للفرس على العرب فباتوا على أحر من الجمر ثم تلاه يوم « أغواث » فاعتدل ميزان المعركة وأحس العرب بقوة فى جانبهم ثم كان يوم « عماس » وليلة « الهرير » التى تقرر فيها المصير فأصبحت منطقة القادسية كلها فى قبضة سعد بن أبى وقاص قائد المعركة . ثم أمر جنده بتتبع الفلول ، وتطهير الأرض من بقايا الفرس المحاربين .

صدرت أوامر سعد لجنده بالمسير فى ركاب النصر إلى الأمام فطوت خيولهم مسافات ومساحات دخلت كلها فى ملك أيديهم فأصبح حوض الفرات جميعه أرضاً مسلمة ، وأصبحت أرض الجزيرة بين دجلة والفرات من فتوحات المسلمين ، وما زالوا فى طريقهم نحو الشرق حتى وجدوا أنفسهم على شاطىء دجلة دون أن ينتهى الشوط أو تسقط العاصمة .

ولم يبق للفرس من أمل فى رد هذه الموجة الظافرة إلا من وراء دجلة وفى جانبها الشرقى حيث العاصمة وكرس الأكاسرة .

ومع هذا فإن العزيمة المنهارة ، والارتباك الذى حل بالقادة جعلهم يفكرون فى نقل عتاد كسرى وكنوزه وأمواله إلى حلوان التى تبعد كثيراً عن العاصمة . وقرروا أن تكون المدائن خط دفاعهم بعد القادسية عن المدن التى تليها من الشرق فحصنوا أنفسهم هناك وجمعوا السفن الماخرة فى دجلة وقطعوا الجسور حتى لا يصل اليهم جيش العرب الذى لم يعرف السباحة ، ولم يجد الملاحة .

والبحر عند العربى فى هذا الوقت شىء رهيب يعتبر خوضه أو ركوبه منتهى الخطر ؛ ولم تكن سفينة العربى سوى ناقته التى يقطع بها الصحراء المرملة ، ويواجه بها أعاصيرها .

لذلك لم يكن عجبا أن يقف العرب فى أول أمرهم على شاطىء دجلة مكتوفى الأيدى ، وعيونهم شاخصة إلى الأمواج المتلاطمة ، ونفوسهم حيرى أمام النهر الذى يتقذف بالزبد ، ويرمى بقطع كالجبال فى وجوه المتربصين بالعاصمة .

كان ذلك فى شهر صفر من عام ١٦ هـ وكانت العاصمة الفارسية ذات قسمين على ضفتى دجلة . القسم الشرقى منها يسمى المدائن وهو مقر الأكاسرة ومركز

الحكم فى الدولة والقسم الغربى يسمى [بهر سير] على الشاطىء الغربى من دجلة وهذا هو الذى نزل به سعد وجنده ومكثوا أياما يفكرون فى العبور إلى المدائن الكبرى حيث ايوان كسرى ومحتوياته .

ولكن أنى لهم ذلك والنهر هائج مضطرب يفور ويثور ويقذف بالزبد كهدير الجمال ؟ يطغيه المد فيخشى جانبه ثم يحسره الجزر فيفكر الجيش فى العبور .

وهنا تظهر بطولة الأبطال وتعلو قيم الرجال حين يخطب سعد فى رجاله قائلا [إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون اليه معه ويخلصون اليكم إذا شاؤا فى سفنهم يناوشونكم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه . قد كفاكموهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذواتهم . وقد رأيت من الرأى أن تجاهدوا العدو قبل أن تحصدكم الدنيا . ألا أنى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم] فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل .

وهنا ندب سعد جميع الناس إلى العبور . ولكن كيف يتم ذلك وفى الشاطىء الشرقى فراض ؟ وهى الأماكن التى يستقى منها وليس فى إمكان من يعبر النهر أن يخرج إلى الشاطىء إلا من هذه الأماكن فلا بد من حمايتها قبل عبور الجيشين حتى تضمن سلامة الجموع السابحة فى الماء . فنادى سعد بن أبى وقاص فى جماعة المسلمين قائلا : من يبدأ ويحمى لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعهم الفرس من العبور ؟

وهنا قام عاصم بن عمرو وقال : أنا أيها الأمير أول من يعبر النهر .

ليحمى الفراض حتى ينتهى الجيش من عبوره ، واختار معه ستين فارسا ، كون منهم كتيبة ، عرفت فيما بعد [بكتيبة الأهوال] وقام من ورائه القعقاع بن عمرو فى كتيبة ، عرفت بالكتيبة الخرساء (١) .

أما طريقة عاصم فى هذه المغامرة الخطيرة ، فكانت غاية فى العجب من ذكائه وأسلوبه ، ذلك أنه عمد إلى الخيل ففصل بين ذكورها وإناثها ، وأمر راكبى الإناث بالنزول أولا ثم أتبعهم بالخيل الذكور حتى يحدث الطراد بين الذكور والإناث فلا تؤخذ الخيل بشدة الأمواج وقسوة السباحة ، وتزيد سرعتها فتأتى على النهر فى وقت قريب .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١١٩ .

فتصور كيف تسبح الخيل فى طرادها وإن لها لصهيلا ، وصفيرا فى زفيرها وشهيقها تنفخ المـاء فى الهواء وتنفض أعرافها وهى تسبح فى لجة من عرقها وتشق العباب مذعورة من مطاردها . ثم تصور هذه الخيل فى نهاية شوطها ، وقد أنهكها السبح فى المـاء ، وتصور حال راكبيها وقد سالت أرواحهم على صفحة النهر ، وتلاشت أعمارهم فى عبابه وقد لاح لهم البر فتعلقت به آمالهم ، وبسمت لهم الحياة من بعيد .

وبينما هم يستنفدون بقايا جهدهم ، ويبذلون الرمق ليثبوا الوثبة الأخيرة إلى بر النجاة وساحل الحياة ؛ وإذا بجموع الفرس تخوض البحر بخيلها لترد الـكتيبة الباسلة إلى الشاطىء الآخر أو إلى أطباق الأمواج ، ولـكن صرخة من عاصم قائد السابحين صدرت من أعماق قلبه ، ومن مصدر إيمـانه ، فردد صداها النهر من جنباته حتى وضحت بين صهيل الخيل وعراكها مع الأمواج . هذه الصرخة كان عاصم يقول فيها لـكتيبته [الرماح الرماح أشرعوها وسددوها إلى عيون الأعداء ووجوههم] ففتحت هذه الجمل باب الأمل وبدأ النضال بالنبال فى مكان حساس فى القتال فسدد المسلمون سهامهم وشرعوا رماحهم وأرسلوا وابلا من النبال إلى عيون القوم ووجوهم ، فأصابت عيون القوم فى عيونهم حتى انقلب الضياء ظـلاما من العمى والعور ، فلم يجدوا سبيلا سوى الفرار من وجه كتيبة الأهوال إلى حيث يظنون النجاة .

خرجت خيول عاصم وكتيبته من لجة البحر تنفض أعرافها ، وتمد خصورها واتجه كل فريق الى فرضة فى النهر يحرسها ، وأصبح الشاطىء الشرقى من دجلة فى حراسة المسلمين .

أدرك سعد بن أبى وقاص القائد العام أن عاصما قد حمى الفراض ، وأن جموع الجيش المرابط على الشاطىء الغربى قد صار فى إمكانها أن تعبر النهر إلى إخوانهم فى أمان واطمئنان فأذن للناس فى الاقتحام .

وبينما سعد يرى اندفاع الفرسان والبحر فى هياج واضطراب وقعت فى قلبه الرهبة من دجلة الغاضبة ، وأدركه الخوف على الجند الذين ألقوا بأنفسهم إلى المـاء تنفيذا لأوامره فقال لهم قولوا جميعا [نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمن عدوه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم] .

« زهد الرعاه »

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليفة
المدرس بالأزهر

اللهم قبسا من نورك الذى وسع السموات والأرض ، يهدى النفوس الحائرة بين ظلمات المادية ، ويربطها بشعاع من روحانية السماء ، وينجب للحياة رجالا يعيشون للمجتمع لا لأنفسهم ، ويتفانون فى إسعاد أممهم لا ذواتهم رجالا تشرق فيهم روح عمر بن الخطاب فى تقشفه ، وحفيده عمر بن عبد العزيز فى زهده .

إنهما مثلان خالدان للتقشف والزهد تجردا من مادية الدنيا ومتاع الدنيا ، واستعذبا مرارة الحرمان ، واستمرآ خشونة العيش ، وإن روعة التقشف لا تتجلى فى معدم يقضم كسرة جافة أو يزدرد لقمة متعفنة ، ولكنها تتجلى فيمن يملك خزائن المال ، ويحرم نفسه منه ليحيي به غيره ، ويعيش بنفسه فى دنيا من الفاقة والبؤس فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى فتحت جيوشه بلاد فارس ، وأخضعت بلاد الشام وملكت مصر وعج بيت ماله بما حوى إيوان كسرى ، وما يغل دجلة والنيل والفرات عمر هذا يعيش بجمهرة الناس يلبس ما يلبس الناس ، ويركب ما يركب الناس ، ويفترش الثرى مع الناس ، إنه يؤمن بأن أمير المؤمنين مسئول بين يدى الله عن المؤمنين مسئول عن أخلاقهم ومعاشهم وأمنهم وراحتهم ، مسئول عن الداجين فى ظلمات البيد والهاجعين بين أفياء الحضر ، فيعيش بيته على خمسة دراهم فى اليوم تنفق فى طعامه وطعام أهله ليوفر لغيره من المسلمين ما يقيم أودهم ، وإنه يعس لعله يجد بين الأكواخ كهلا حطمته السنون ، لايستطيع الكدح فىطلب العيش أوعساه يلقى أرملة أقعدها الحياء عن السؤال ، إنه يرهب سؤال ربه عن أمثال هذين وغيرهما ، ويرى أن حساب الخليفة عسير ، ومن ثم فهو ينكر على من رشح ابنه عبد الله للخلافة قوله ويجيبه : حسب آل الخطاب أن يسأل واحد منهم عن أمة محمد .

لقد بنى عمر نفوسا صالحة للولاية والعمل ولغير الولاية والعمل .

يبنى الرجال وغيره يبنى القرى شتان بين قرى وبين رجال

لقد نشأ الأمة العربية نشأة تجلت فيها سياسته العظيمة الذى يكشف عنها كتابه إلى أبى موسى الأشعرى .

« وقد بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب ، فلم يكن لها هم إلى السمن ، وإنما حتفها فى السمن ، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام » .

وهكذا تشدد عمر على عماله ليعيشوا كما يعيش الناس منهم المثل يقتدى بها ، وكما يكون الراعى تكون الرعية .

دخل عمر منزل أبى عبيدة فلم ير إلا لبدا ، وإناء وقربة بالية وسأله عن طعامه فأخرج له من سلته كسيرات ، فبكى عمر وقال : غيرتنا الدنيا كانا غيرك يا أبا عبيدة

أى دنيا تلك التى غيرتك يا عمر ؟ ترى هى دنيا الحرمان التى عشت فيه تحاسب زوجتك على الخمسة دراهم التى أدخرتها من قوتها وصنعت لك بها حلوى فأبيت إلا أن تحرمها وتحرم نفسك وتحمل الحلوى إلى بيت المال ؟

ولم يكن عمر ولا أبو عبيدة وحدهما الذاهدين بين المسلمين ، ولكن بين المسلمين الكثير من أمثالها فمعاذ بن جبل يرسل إليه عمر بأربعمائة دينار ، وهو وال ليستعين بها على العيش ، فينفقها معاذ على الفقراء إلا قليلا طلبته امرأته منه لحاجتها ويعلم عمر بما صنع فيقول : الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا . وكيف لا يصنع هذا وأكثر من هذا فى عهد الخليفة الزاهد عمر . إن معاذ بن جبل لا يريد أن تنتعش نفسه بأربعمائة دينار ، وإلى جانبه فقراء قد لا يجدون لقيمات بل إن معاذا رأى سعادة نفسه فى إسعاد غيره .

وسعيد بن عامر عامل حمص يشتكيه أهلها إلى عمر ويطلبون منه عزله لأنه لايخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولأنه لا يجيب أحدا بليل ، ولأنه يعتزل الناس يوما فى الشهر لا يخرج فيه ويسأل عمر عنه فيعلم أن عامله يعجن كل يوم خبزه ويخبزه بنفسه ثم يخرج وأن ليله يقضيه فى العبادة وأنه يغسل ثيابه مرة كل شهر فيبعث إليه عمر بألف دينار ليستعين بها فيفرقها سعيد على جيوش المسلمين فأى نفس كانت نفس سعيد هذا ؟ إنها النفس الملائكية التى ارتفعت عن المادة وسمت

ففى الساعة التى يصل فيها إلى يده ألف دينار يقسمها على جيوشه ويعود إلى بيته كما كان يخدم نفسه ويغسل ثيابه .

وقد جاء سعيد هذا إلى المدينة فلم يجد عمر معه غير عكاز يحمل عليه زاده ، وقدح يأكل فيه فلما رآه عمر أكبر فيه زهده وورعه .

إنها السياسة الرشيدة من عمير : يجبى الخراج ثم يصلح به أحوال الناس فى الصقع الذى جبى منه ، ويقره الخليفة على هذه السياسة ، ثم هو بعد ذلك ينكر على عمر تجديد العهد له لأنه عرضه الى إيذاء نصرانى ! ألا فليسمع أولئك الذين يتهالكون على الحكم لا ليبنوا لأممهم مجدا ، وإنما هو السلطان أو حب المظهر أوحب الانتقام ! إن أولئك وهبوا حياتهم للشيطان فلا يشتهون الحكم إلا ليعذبوا البشرية المسكينة المظاومة .

وكما حاسب عمر نفسه وتشدد فى حسابها ، حاسب عماله ، وتشدد فى حسابهم ؛ فقد قيل : إنه مر ببنَّاء يبنى بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؟ فذكروا عاملا له بالبحرين ، فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ! وشاطره المال ؛ كما صادر أموال عمرو بن العاص ، وهو القائد العظيم الذى فتح مصر وحكمها ، وساعده خصبها على إنماء ثروته .

وصادر أموال أبى هريرة وهو من السابقين الأولين ، وصادر أموال سعد ابن أبى وقاص خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فما حابى ذلك النسب ، ولا تملق ذلك الحسب .

وصادر أموال خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، الذى نصر الله به المسلمين فى كثير من معاركهم ، فلم تمنعه مكانة خالد الحربية ، ولا منزلته القرشية من مصادرة أمواله لحساب المسلمين لا للهوى والغرض .

وقد تقبل منه هؤلاء المصادرة طيبة نفوسهم ؛ لأن عمر حرم التجارة واستثمار الأموال على ولاة الدولة وعمالها ليحبسوا جهودهم وعقولهم لخدمة المسلمين .

وأما أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فكانت خلافته كلها زهداً فى الدنيا وإعراضاً عن متاعها . فأول عمل بدأ به خلافته أنه نزل عن أملاكه التى ورثها عن أبيه ، لأن أباه لم يشترها بماله ، وأنما أقطعها كغير من أمراء بنى أمية ، فهى حق للمسلمين ، كما قطع عن بنى أمية جوائزهم وأرزاق حراسهم ، ورد ضياعهم إلى الخراج ، وأبطل قطائعهم ، وبذلك سوى بينهم وبين غيرهم من المسلمين .

وإنه لعظيم أن يبدأ بنفسه فيرد أمواله إلى بيت المال ، ثم يثنى بأهله فيقطع عنهم ما فرض لهم من جوائز ؛ فليس أبناء أبى سفيان أو مروان أعظم عند الله والناس من أحفاد رسول الله صلوات الله عليه أو غيرهم ، فالناس سواسية ، لا فضل بالإمارة وإنما الفضل بالتقوى وزينتها الزهد .

ولقد كانت غلة عمر بن عبد العزيز من أرضه حين بويع بالخلافة خمسين ألف دينار (٢٥ ألف جنيه) وما زال يرد إلى بيت المال أرضه حتى بلغ ما تغله الأرض التى يملكها عند وفاته مائتى دينار (١٠٠ جنيه) فى السنة .

وقد خصص لبيته درهمين نفقة فى اليوم ، فقيل له إن عمر بن الخطاب كان يأخذ من بيت المال خمسة دراهم فى اليوم ، فقال : إن ابن الخطاب لم يكن له ما ينفق منه أما أنا فلى من المال ما يعينى .

وما أتقى نفس الخليفة عمر بن عبد العزيز حين رأى زوجته فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان فى ثوب كان قد أهداه لها أبوها ، وقد نسج بالذهب ونظم بالدر ، فقال لها : اختارينى أو اختارى الثوب ، فإن اخترت عمر فسأجعل الثوب فى بيت مال المسلمين ، وإن اخترت الثوب فلست لك بصاحب ! فقالت : أعوذ بالله من فراقك يا أمير المؤمنين ! فضم الثوب إلى بيت المال .

وهكذا رأى عمر فى ذلك الثوب ما ينم عن البذخ والإسراف ، وكيف يضمه بيت مع امرأة ليس لها إحساس عمر ! .

حسبك يا عمر شهادة ملك القسطنطينية الذى بكاك حينما نعيت إليه وقال : « لم أعجب لهذا الراهب الذى ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكننى عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب »

أيها المسلمون الذين زخرت خزائنهم بكنوز الذهب وملكوا الضياع وشادوا العمائر ، ورفلوا فى نعيم الدنيا ، وعاشوا لشهواتهم وبطونهم : هذه صور من زهد الرعاة وتقشف الحاكمين وسياسة الراشدين ، لعل فيها ما يخلق فى المسلمين جيلا جديدا من الحكام والمحكومين يبنى للإسلام مجده ، ويخلد للتاريخ ألسنة شاكرة ، ويعمل للآخرة ، والآخرة خير وأبقى ؟

جامعة اسلامية

جريدة التيمس — الطبعة الأسبوعية
الصادرة فى يوم الأربعاء ٥/٨/٥١

مصر هى بلاد الآثار القديمة وجامعة القاهرة العظيمة « الأزهر » يرجع تاريخ بنائها إلى نحو ألف عام مضت فقد بناها فيما بين سنة ٩٧٠ ، ٩٧٢ من الميلاد أحد أرقاء الرومان المسيحيين الذى اعتنق الإسلام فى عهد الفاطميين إبان حكم الخليفة المعتز ، وكان المفروض فى أصل بنائها أن تكون مسجدا ، ولكنها منذ سنة ٩٨٨ ميلادية أصبحت جامعة ، وفى خلال القرن الثانى عشر أسس على أن يكون القوة التى تذود عن حوض الشريعة الحنيفة الإسلامية وحامى حمى اللغة العربية : لسان نبى الإسلام .

وإن أيام الأزهر العظيمة كانت من حساب عصرها الماضى ، ولكن بهاءها أخذ يعتم فى عهد الأتراك وحكم المماليك فى مصر ، عاكسة بذلك صورة تدهور تعاليم الإسلام والاهتمام الزائد بتكرار الدراسة العقيمة للعقائد ، تلك الدراسة التى اتسمت بها القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر .

وفى بداية القرن الحالى قصرت الدراسة فى معظمها على « دراسة العلوم التقليدية القديمة » المبنية على الوحى الإلهى ، وبالتالى المجرد عن كل نقد ، وقد كان هناك ميل إلى دراسة « العلوم العقلية » مثل النحو والإعراب والعروض والبلاغة والمنطق . ولكن العلوم التى نبغ فيها الإسلام وتصدر فيها مركز القيادة للعالم فى العالم مرة ـ وهى العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخ والجغرافيا والأدب والفلك ـ قد أصبحت هزيلة عاجزة عن التقدم وبقى جوها وطريقتها من طرق العصور الوسطى .

الاحتكاك بالغرب :

وقد كان الاحتكاك بالمدنية الغربية لا مفر منه فى مصر ، كما كان لا بد من أن يكون لهذا الاحتكاك أثر عميق على الأزهر . فأبطلت فيه دراسة المسائل الاعتقادية المعقدة التى كانت تشغل وقت الفراغ عند المسلمين ، وأصبح يشغل الآن بدراسة

العلوم الغربية فى السياسة والاقتصاد والأعمال ، وباستيعاب كثير من مباهى الحياة الدنيوية والترفيهات مثل المسارح والسينما والألعاب الرياضية والسباحة .

وبدأ الناس يتهمون الأزهر بأنه لا يتمشى مع الزمن ، وكانت حالة خريجى الأزهر — ككثير غيرها — هى التى لفتت النظر إلى الحاجة للإصلاح ، وقد نال هؤلاء الخريجون الكثير من الغبن كلما بحثوا وظيفة يساوون فيها مع خريجى المدارس ذات النظام الغربى .

وقد حاول محمد على باشا وإسماعيل باشا إدخال الإصلاح فى الأزهر ولكنهما قوبلا بمقاومة شديدة ، وكان لابد من الانتظار حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر لإحداث تغيير حقيقى فى الأزهر .

وكان الشيخ محمد عبده - وهو ابن الفلاح المتواضع - يعتقد أن إصلاح الأزهر أمر حيوى يجب أن يسبق كل إصلاح دينى واجتماعى فى الإسلام بصفة عامة .

ولا يمكن أن يحدث هذا الإصلاح الآن إذا جاء عن طريق التخلى عن التقاليد العتيقة وتركها تماما ، وتلقيح الجامعة الأزهرية ببساطة وسماحة الإسلام فى عهده الأول ، ولما رأى الشيخ محمد عبده ما كان هنالك من عدم الانسجام بين الدين والعلم أخذ يدعو إلى استساغة كل ما هو مفيد فى العلوم الغربية وأن البحث فى الطبيعة يجب أن يؤدى لا إلى الفائدة المادية فحسب ، بل إلى معرفة الله معرفة أغور عمقاً وأقوى إيماناً بها ، وكان تجديد اللغة العربية جزءاً من الأسس التى لابد منها لإحياء الإسلام .

وكانت العقبة الكؤود فى سبيل تحقيق برنامج الشيخ محمد عبده هى موقف علماء الأزهر منه . وقد كتب عنهم فى سنة ١٨٩٥ ما نصه :

« إن العلماء الذين هم روح هذه الأمة لم يروا حتى الآن فائدة فى هذه العلوم الحديثة ، إلا أنهم لا يزالون يشغلون أنفسهم بأمور ربما كانت أكثر تلاؤما مع الزمن الماضى الذى قد طويت سجلاته ، وقفلت أضابيره ، وهم لا يلقون أية نظرة إلى ما هو واقع فى العالم الجديد » .

وفيما بين سنة ١٨٩٤ ، ١٩٥٠ وضع مجلس إدارى تحت رئاسة الشيخ محمد عبده كثيراً من آرائه موضع التنفيذ ولكن كان ذلك دائما ضد مقاومة العلماء القوية ،

بل كذلك وضد الخديو عباس حلمى الذى طرد « جماعة المجددين » فى الأزهر . وقد أصلح الشيخ محمد عبده الإدارة وطرق التدريس ونظم المكتبات وأطال مدة السنة الدراسية ، وحسن حالة الطلبة وأحوالهم المعيشية ، وأنشأ كذلك دوراً لدراسة المنهج ، لكن عرقلة المحافظين العنيدة حملته على الاستقالة ، وعقب ذلك بقليل ، توفى إلى رحمة الله .

وبعد ذلك بثلاث سنوات أسست الجامعة المصرية العلمانية التى تسمى الآن جامعة فؤاد الأول — ولكن الأزهر بقى على ما هو عليه لم يتمدين .

أما المحاولة الجديدة التالية من أجل تحطيم حصون المحافظة على القديم ، فقد قام بها الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف الحالى الذى أدخل التعليم المجانى فى مصر سنة ١٩٥٠ - وقد سجل طه حسين فى تاريخ حياته إبان كان طالباً فى الأزهر ما صادفه فيه من خيبة الأمل المتزايدة ، لما لقى الدراسة فيه شاقة ومضنية إذا ما قيست بسهولة الدراسة مع التعمق عند القدماء ، وعبر عن مبلغ ازدرائه لعقم التعليم ، وقد طالب بشدة سنة ١٩٢٦ بإدخال طرق التعليم الغربية فى الأزهر .

وواجه العلماء بقوله « إن الحقائق الاعتقادية مختلفة كل الاختلاف عن الحقائق العلمية » وطالبهم بتطبيق فن النقد الأدبى العربى على القرآن ، وعلى الكتب السابقة للإسلام ، وأن يرفضوا كل شىء إلا ما يثبته النقد العلمى الصحيح ، وأن يتحرروا من قيود العهد القديم التى جعلت من الأدب العربى مادة صلبة جامدة . وقد أثار قوله عاصفة من الاحتجاج ، مما حدا بالأستاذ الأكبر إلى شراء هذا الكتاب ومصادرته وبعثرة حروفه المجموعة بينما ظهرت منه طبعات بعد ذلك مشتملة على كثير مما كان محظورا فيه .

الآراء الحديثة :

إن الإصلاحات الأولى التى أدخلت على منهاج التعليم وكانت ذات مغزى هى التى جاءت بالاهتمام الذى وجهه الملك الراحل فؤاد الأول إلى الأزهر فى سنة ١٩٣٠ حيث أضيف إلى المنهاج القديم دروس موضوعة على أسس الآراء الحديثة فى التربية فقد لوحظ أن أساتذة الأزهر لم يكونوا منشئين التنشئة الكافية لمثل ذلك ، ولأن كثيراً من الموضوعات الدراسية الجديدة وخصوصاً العلوم ، لابد من أن يقوم بتدريسها أساتذة علمانيون من خريجى المعاهد الحديثة .

وحتى هذا لم يعوق أو يقف الاتجاه نحو الجامعات الحديثة وكان على الأزهر أن يواجه مالا يستسيغه وهو أنه قد فقد كثيراً من سلطانه وسمعته القديمة ولايزال الأمر ذا مساس خطير بالتعليم الإسلامى ، وكم هنالك من الشكوى من أنه بينما تغدق الأموال الطائلة فى ميادين التعليم الأخرى نراهم يتجاهلون التعليم الدينى ، وإن الأزهر يئن من قلة المال .

ويرى أنه لابد من أن توجه الحكومة إلى التعليم الدينى اهتماما أكبر ، وأن تعمل على مساعدة البعثات الإسلامية فى الخارج ، ويشعرون بأن اللوائح وكادر هيئة التدريس أدنى منها فى الجامعات الحديثة ، وقد نجم هذا الشعور عن الدعوة التى وجهت لإعانة جميع البلاد المسلمة فى العالم .

إن مكانة الأزهر هى من مكانة المصرى ، والعالم الإسلامى فى خضم الحياة ولو أن المصريين يشعرون بالفخر الخاص لهذه المؤسسة القديمة إلا أن تأثيرها عليهم قد تضاءل بسبب انصرافهم الظاهر عن ملاحظة الشعائر الدينية ونمو المادية فى حياة المصريين .

ولا يدل هذا حتما على ضعف جوهرى فى العقيدة الدينية أو على أن المصريين أضعف إسلاما من ذى قبل وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على الرغبة الشديدة للشبيبة المصرية فى تعلم العلوم الحديثة ، وعلى اعتقادها أن الأزهر لم يعد صالحاً لإعداد الشبان لمواجهة الحياة المادية فى مستقبلهم .

إن اسم الأزهر لا يزال عظيما فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . إن الميول للوحدة الإسلامية — مقصودة كانت أم غير مقصودة — التى تحدو ، الرابطة العربية ، وبزوغ دولة الباكستان الإسلامية العظيمة المستقلة وتدخل إسرائيل فى البلاد العربية قد عجلت بإلهاب شعور المسلمين وشعور عشرين ألفاً من طلبة الأزهر الذين يفدون إليه من جميع أنحاء العالم ويزداد عددهم كل عام .

وقد أمكن الأزهر أن يكون مركزاً لتخريج العلماء ، وإن أهم عمل قام به الأزهر فى التجديد كان فى الواقع ما بذله فى ميدان البعوث ، بيد أنه رغم هذا التقدم الذى حدث فى خلال الخمسين عاما الماضية فإنه ليس من رأى كل علماء المسلمين أن الأزهر هو الذى يقود الفكرة الإسلامية ، أو حتى أنه يعتقد اعتقاداً كافياً فى رسالته .

ضوء على حياة الطالب بالأزهر

لفضيلة الشيخ محمد الغزالى
من علماء الوعظ والإرشاد

الطابع الخاص لحياة الطالب الأزهرى

للطالب الأزهرى حياة متميزة فريدة تستمد خصائصها من طبيعة الرسالة التى يقوم الأزهر بأدائها من قرون ومن ألوان الثقافة التى يقدمها ومناهج التربية المتشابهة التى يأخذ بها طلابه على اختلاف مواطنهم .

ووفود الطلاب المنتسبين إلى الأزهر يعتبر صورة دقيقة لما يسود الشرق الإسلامى من أحوال اجتماعية واقتصادية وغيرها . فان كثرتهم الكبرى - ان لم يكونوا جميعاً - من الأرياف البعيدة وبقيتهم من بيئات محافظة تقية .

ولعل الأسر التى تلحق أبناءها بالأزهر ترى فى ذلك ضربا من ضروب العبادة ، ومظهراً للتعلق بالدين والحرص على بقاء روحه وازدهار معالمه ، وإنك لترى الوالد يترك إبنه فى مقتبل العمر فى العاصمة التى يقع فيها معهده ويعود قافلا إلى بلده تاركا الطالب الجديد يواجه مصيره بنفسه ويخط مستقبله بيده ...

مسئولية الطالب الأزهرى

وعلى الطالب - وهو لما يزل بعد شابا صغيراً - أن يهمل الأعباء الملقاة على كاهله . فالى جانب الدراسة التى كرس حياته لها يجب أن يهتم بشئونه الخاصة كلها فعليه أن يعد طعامه وأن يهيء منامه وأن ينظف ملابسه وأن ينظم مسكنه .

رغبته فى التعاون

ولما كانت هذه الأعمال تتطلب تعاونا جماعيا لإنجازها وإتقانها فإنه يغلب أن تتكون وحدات متجانسة لتذليل هذه الصعاب وقد تمتد روح التعاون فى الأعمال المعيشية إلى النواحى العلمية إذا كان أولئك الأصدقاء فى صف دراسى واحد ومن ثم تراهم يتعاونون على تحضير الدروس وفهمها كما يتعاونون على إنضاج الأطعمة وطهيها .

العمل اليومى

ويوم الطالب الأزهرى الجاد يزدحم بالواجبات المادية والأدبية التى ارتبط بها

ولا يمكنه الفكاك منها فهو من مطلع الفجر إلى هزيع الليل يشتغل لمواجهة ضرورات الحاضر وأعمال المستقبل .

فراغ الطالب

وفترة الإجازة بعد انقضاء الدراسة تشبه أن تكون نوعا جديداً من العمل فالطالب الأزهرى - كما بينا - قادم من الريف الكادح ، والأزهريون كتلة شعبية محضة فما يكاد الطالب النازح يعود إلى قريته حتى يتحول إلى فرد عادى فى أسرته فهو مع أخيه الفلاح فلاح مثله ، أو مع أبيه التاجر تاجر مثله .

ومن المناظر المألوفة أن يخلع الطالب الأزهرى ثوبه العلمى ليرى وهو يضرب بالفأس فى حقل أو يرمى البذور فى الأرض أو يشمر عن ذراعيه وساقيه ليدير الطنبور فوق مياه النيل كى يسقى زراعته .

وليس فى مزاولة هذا النوع من الأعمال شىء من الفظاظة عليه أو الخدش لكرامته أو المنافاة لمقتضيات دراسته . بل إنه يراه من آيات الرجولة الصحيحة ثم إنه مشاركة واجبة فيما يبذله الأهل والأقربون من جهود متصلة لكسب الرزق .

وقد استفاد الأزهريون من هذه الحياة المشتركة خبرة فنية فى شئون عمرانية كثيرة تنضم إلى الرسالة العلمية التى يضطلعون بها كما أفادوا مناعة فى أجسامهم وقوة فى طاقتهم .

طابع التعليم فى الأزهر

والتعليم فى الأزهر متين الصلة بماضى الأمة وحاضرها والروافد التى تمده بالحياة وتعينه على البقاء نابعة من عقيدة الأمة وتاريخها وتقاليدها . ولذلك فالطالب الأزهرى مثال لحضارة وامتداد التاريخ .

وهذا لايعنى إنه تجديد لذكريات قديمة انتهت بتطور الزمان كلا ، فإن الأمة تستطيع أن تساير كل تقدم فى آفاق الفكر وميادين الإنتاج وهى فى الوقت نفسه حفيظة على مشخصاتها التى تفردها بطابعها الخاص وتعطيها ملامح معينة ثابتة .

والطالب الأزهرى لا يعد ليكون خزانة لطائفة من المعارف المجردة قديمة كانت أو حديثة بل الملحوظ فى أعداده أنه صاحب رسالة إسلامية واضحة فهو ينال من علوم الدين واللغة ومن علوم الكون والحياة ما يساعده على أداء هذه الرسالة العتيدة ومن الممكن اعتبار التعليم الأزهرى هو التعليم القومى لا لمصر وحدها بل لبلدان الشرق الإسلامى عامة .

الأستاذ فى التعليم الأزهرى

وأثر الأستاذ فى إعداد الطالب محدود فى نطاق التوجيه والارصاد الذى لا يطمس شخصيته فالمفروض فى الدراسة الأزهرية الأصيلة أن الطالب يعد فى مساء يومه درس الغد فى شتى العلوم التى سيتلقاها ثم يجىء الأستاذ ليشرح الدرس الذى يكون الطالب قد كون فكرة ما عن موضوعه فيكون هذا اللقاء بين الأستاذ والطالب فرصة لاستجلاء الغامض وحل المعقد ، وفرصة كذلك لمناقشات حرة طليقة من كل قيد تطرح فيها الآراء وتساق الفروض وتمحص الحقائق دون توجس أو تبرم .

— ٢ —

وقد شاعت هذه الطريقة فى دراسات الأزهر الدينية والقانونية واللغوية والأدبية حتى اعتبر البحث الدقيق من اللوازم فى العقلية الأزهرية .

ولا شك أن لهذا الأسلوب أثره فى تكوين الشخصية المستقلة وإنماء الموارد الذاتية وإن كان يسبب لهم أحيانا عادة الافتراض وكثرة الجدل .

الطلاب الوافدون

ويكوّن الطلاب المبعوثون إلى الأزهر من الأقطار الأخرى قسما كبيراً بين المنتسبين اليه ، وهم أفواج من أجناس شتى جاءوا من السنغال وتنجانيقا وكينا والحبشة والصومال والهند والباكستان والشام والتركستان وتركيا والبانيا الخ .

وقد أفرد الأزهر لهم مساكن خاصة وبذل فى تكوينهم عناية بالغة . والمناهج التى رسمها لتخريجهم يقصد بها تزويدهم بما يجعلهم رسلا للثقافة الإسلامية التى تمرسوا بها وأجادوا فنونها . وهى رسالة تعتمد على التربية والتهذيب إلى جانب ما تقوم به من دراسات لشتى المعارف الأدبية والكونية .

والناظر إلى هذه البعوث الوافدة من مشارق الأرض ومغاربها يروعه التقاؤها فى ساحة العلم الروحية وتحت ظلاله المورقة ، ويلحظ مظاهر الأخوة التى تؤلف بين قلوبهم وتجعل منهم وحدة متماسكة .

وإن فيما يبذله الأزهر من اهتمام بهذه الوفود ثم ما يحوطها من رعاية حضرة صاحب الجلالة المليك المعظم لدلالة على ما تلقاه الرسالة الجليلة التى يضطلع بها هذا المعهد العتيق .

آداب السلوك

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

للسلوك الإنسانى آداب أكثر من أن تأتى عليها كلمة عابرة ، أو تحيط بها مقالة قصيرة ، أو تتناولها صفحات محدودة تنشرها مجلة أو جريدة ، وقد تصدت لذلك كتب الأخلاق بعنوانات متنوّعة ، وألفاظ مختلفة ، وربما كانت من البداهة بحيث يكون الحديث فيها معاداً مكروراً ينفر منه السمع ، ويمل القارىء ترديده ، لهذا فإنى لا أقصد بتلك الكلمة أن أقلب شيئاً من تلك الصفحات المعهودة للناس . ولكنى أحب أن أنوه إلى أن القائلين « الذوق شيء ليس فى الكتب » فإنهم إن يقولوا ـ كذلك ـ إن الأخلاق لا تؤخذ من الكتب ، أو على الأصح إن الذى نجده فيها ، ونقرؤه من سطورها غير الذى نحتاجه فى آدابنا ، وتمس إليه ضرورة المعاشرة ، وتقضى به معانى السلوك ، لأن ما هنالك « نظرى » وما نفتقر إليه « عملى » وشتان ما بين اليزيدين ، وإن كان الثانى يتوقف على الأول إلا أنه يغايره كل المغايرة .

ولو أن الكتب وحدها هى كل ما يسمو بنا إلى الآفاق البعيدة ، ويصل بنا إلى الغاية المرجوة ، لكان أحفظنا لها ، وأكثرنا تحصيلا لما تضمنته ، أشدنا تمكننا فى الخير ، ورغبة فى الفضل ، وزاهداً فى السفساف ، وكراهية للانحدار . . ولذلك لا يعنى علماء التربية حينما يبسطون القول فى هذه الناحية بمقدار عنايتهم بالبيئة والقدوة الصالحة ، ويشنع بعض الفلاسفة على هؤلاء الذين يعتقدون أن الرذيلة والفضيلة يرجعان إلى المعرفة ، ويمتان بأسباب وثيقة إلى الشمول والاستقصاء ، لأن الواقع يناقض هذا الرأى ، وينادى بأنه لا يتلاقى مع ما يحدث

فى حقائق الأمور ، فكم شاهدنا من يعلمون أن الهلاك يتهددهم ، والويل يتوعدهم ثم لم يغن عنهم علمهم شيئاً .

وقد ترى رجلين يتساويان فى حفظ المسائل ، ويتفقان فى الإدراك ، ولا تكاد تميز بينهما فى فقه قضايا السلوك والآداب ، إلا أنك تجد التباين واضحاً ظاهراً ، فى تطبيق ذلك كله فى الحياة الاجتماعية التى يجرف تيارها البلاد والعباد ، ويكتسح الكبير والصغير ، والقوى والضعيف . وتجد أغرب ما تجده ، وأعجب ما تلحظه ، ذلك الذى يستمد أسلوب معاشرته للناس من الظروف نفسها ، فهو يصدقك الود ، ويخلص لك المحبة ، ويتفانى فى الزلفى إليك ، والدنو منك ، ومشاركتك البأساء والضراء ، والبلهنية والنعماء ، إذا وجد أن فى ذلك راحة له ، وسروراً لنفسه ، وغنما يعود عليه . . أورى أنه بهذا يمشى على سنن السواد الأعظم ، أو السلطان القائم ، فإذا ما أحس أن التيار قد تحول إلى غير ناحيتك ، أصبح من الحتم عليه ، أن ينظر إليك بعين أخرى ، ويقابلك بوجه سوى الوجه القديم . .

وكثير من المعارف والأصدقاء يجعلون صلتهم بمعارفهم وأصدقائهم أشبه شىء بسندات « البورصة » يصادفها الارتفاع والانخفاض ، والغلو والرخص ، والزيادة والنقص ، كما تقضى المناسبة ، وتوجب السوق . . . وربما كان الذين لا يثقون فى الصداقة ، ولا يؤمنون بدوام المودة ، نظروا إليها من هذه الزاوية ، وحكموا عليها بهذا المعيار ، فأفاضوا فى التشاؤم بها ، والنفور منها ، وعدم الركون إليها . . وإذا كان هنا لك من يقول إن الصداقة ضرورة اجتماعية ، فإنهم لا يذعنون بأنها الصداقة التى يشتقها علماء اللغة من الصدق ، ويشترطون فيها الإخلاص ، ويطلبون من أصحابها التعاون على البر والتقوى ، ولكن يقولون إنها صداقة الملق والرياء ، والنفاق والكذب ، والخداع والمراوغة ، والمكر واللف ، والكذب والادعاء ، والدهاء والاحتيال ، والحديث المعسول ، والوعود الخلابة ، بمقدار ما ينطلى على بلاهة الصديق ، ويجوز على غرارة الصاحب ، وكلما أتقن المرء هذه الأشياء كلما كان جديراً بالتقدير والاحترام . .

وليس يسرنا أن نسترسل فى سياق هذا الحديث الذى يدل على تلاشى الشخصيات وذهاب الكرامة ، وفقد المروءة ، وضعف الأخلاق ، وموت الضمائر . . إلا أننا نود أن نهمس فى آذان أولئك الذين يتجرون بسلوكهم هـذا الاتجار ، ويتخذون منه مطية لمـآربهم فى المناسبات الخاصة ، والأزمنة والأمكنة التى تتطلب ألواناً بعينها من الآداب والمعاملات ، إن الدين يأبى على صاحبه أن يؤمن وجه النهار ثم يكفر آخره . .

ومصطفى صادق الرافعى الذى عرف قراء العربية أنه كاتبها الفحل ، وباحثها الضليع ، وعالمها العليم ، وحارسها اليقظ ، كان له فى بعض الأحايين ، أبيات من الشعر تجرى مجرى الحـكمة ، وترد موارد الأمثال ، وله بيت فى هذا العنوان ، يوزن بألف دينار ، يوصى فيه أن يظل الرجل كالضرس يرسو مكانه لا يثنيه فيما يصادفه حلو ولا مر . . وكذلك يكون الإنسان الذى يرى أنه فـوق الأنواء والعواصف ، والآلام والخطوب ، والصحو والغيم ، والظروف والمناسبات ، لأن الخلق إذا تمكن فى نفس صاحبه كان له منه قوة لا تعبأ بالتقلبات الجوية ، والموازين المعنوية ، ولا تعول إلا على الحق فى ذاته غير منظور فيه الى أى اعتبار . .

وأغلب الظن أن شكايتنا من الآداب والسلوك ، والطباع والغرائز والعادات والأخلاق ، والمعاملات التى نبغضها ، والصفات التى لا نحب أن تسود معاشرتنا ، سوف يظل عهدنا بها هكذا ما دمنا لا نصلح ما بيننا وما بين الله ، لأن مما لا شك فيه أن ما بين الإنسان وبين ربه مقياس ما بينه وبين الناس ، وقد أدركنا كثيرا من آبائنا وأسلافنا ، ومشايخنا الذين ساروا على النهج القويم ، والصراط السوى ، فوجدنا أنهم حين قويت آصرتهم بالذى فطر السموات والأرض ، تهيأت لهم أسباب الفلاح والنجاح ، وتوفرت لهم دواعى السعادة ، وكفاهم الله شرور العالمين . ثم رأينا مع هذا وهذا قوما أفسدوا دينهم ففسدت دنياهم ، وأضاعوا آخرتهم فلم يغنموا من العيش إلا أوزارهم وأوزارا مع أوزارهم « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة » فاللهم أهدنا سبيلك ، وجنبنا سخطك ، وقنا عذابك . ولا تجعلنا من الذين يعرضون عن نهجك ، ويتنـكبون صراطك ، ويشترون طاعة الناس بمعصيتك إنك أنت العزيز الحـكيم ؟

المعاهدة الغادرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف
المدرس بالأزهر

تذرعت غرناطه آخر مدن المسلمين بالأندلس مدة بالصبر على الأذى ، وقوة الاحتمال ، والرضا بما تلقى من مكاره ، وقاتل حماتها فى سبيل الدفاع عنها قتال المستميت . حتى تخضبت أسوارها بدمائهم ، وامتلأت أرباضها بأشلائهم ، وتنافسوا فى ميدان التضحية ، راضية نفوسهم ، مطمئنة قلوبهم . علهم يستطيعون الإبقاء عليها بعد أن سلمت جميع الحصون التى تحيط بها ، ولكنهم بعد نضال مرير دب اليأس إلى نفوس العامة فيها نتيجة لما يعانونه من أهوال الجوع والمرض والحرمان بسبب الحصار الشديد الذى ضربه فرديناند الخامس حولها ، وأزمع جاهداً على ألا يدّخر وسعاً فى إرهاقها لتذعن لمشيئته وتدين بطاعته ، وقد رابطت سفنه فى مضيق جبل طارق لتحول دون وصول أى مدد إليها من مسلمى أفريقيا . وبذلك قطع علاقاتها مع البر والبحر من كل ناحية واقتلع من أذهان رجالها كل مطمع فى أمل أو رجاء .

وإذ ذاك دعا أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس مجلسا من كبار الجند والفقهاء والأعيان فاجتمعوا فى بهو الحمراء الكبير ، وبعد أن شرح لهم أبو القاسم عبد الملك حاكم المدينة ما انتهى إليه الأمر من تفاقم واضطراب ، وما ساد المدينة من خوف وفزع ، ونزل بها من فقر وفاقة قر رأيهم على التسليم إلا القائد العظيم موسى بن أبى الغسان ، فإنه أبى قائلا : فلنعمل على إثارة الشعب ولنضع فى يده السلاح ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة وإنه لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها ولكن كلماته لم تترك أثراً لأنه يخاطب رجالا نضب الأمل من قلوبهم وملأ اليأس جوانبهم وغاضت فيهم كل حماسة ووصلوا إلى حالة من الهوان لا تنجع فيها الإثارة ولا ينفع معها التذكير بمواطن الخلود ومواقف البطولة .

ثم أرسلوا أبا القاسم إلى ملك النصارى فرديناند ولبثت غرناطه ترتجف من أقصاها إلى أقصاها وتتحرق لهفة إلى معرفة ما تفصح عنه الرسالة حتى عاد يحمل الشروط التى رضيها فرديناند . وحين عرضها على مجلسهم قبلها لأنها أقصى ما تجود به نفس رجل محب للتسلط راغب فى العدوان حريص على أن يبيد من الوجود كل أثر لذلك التراث المجيد الذى أشاع فى البلاد العدالة والحرية والمساواة ، ولما هموا بتوقيع صك التسليم نهض البطل المؤمن موسى بن أبى الغسان وصاح فيهم : لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم . ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . إن الموت أقل ما نخشى . فأمامنا نهب مدينتنا وتدميرها وتدنيس مساجدنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشى ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق ، وهذا ما سوف تراه على الأقل هذه النفوس الوضيعة التى تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه . ثم انصرف حيث اختار لنفسه ميتة الأحرار المجاهدين .

وشروط التسليم كثيرة أهمها . تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال . وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم وإقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعته ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك وألا يدخل النصارى دار مسلم ولا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى وأن يطلق سراح جميع الأسرى وأن يجوز إلى إفريقيه من شاء من المسلمين فى سفن يقدمها ملك النصارى فى غضون ثلاثة أعوام ، وألا يقهر مسلم على التنصر وأن من تنصر يوقف أياما حتى يظهر حاله ويستحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فإن أبى الرجوع إلى الإسلام كان له ما أراد ولا يسترد ما أخذ من النصارى أيام العداوة ، وترفع عن المسلمين جميع المظالم والمغارم المحدثة ولا يحق لنصرانى أن يدخل مسجداً ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه وأن يوافق البابا على تلك الشروط واتفقوا أيضاً على أن يغادر أبو عبد الله غرناطة إلى البشرات حيث يقطع ضياعا يعيش فيها ، وأن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها رهينة للوفاء بالإخلاص والطاعة ، ثم احتل فرديناند المدينة وحمراءها وقصورها وحصونها

وخفق علم النصرانية فوق صرح الإسلام المنهار وطويت إلى الأبد تلك الصفحة الخالدة من حكم المسلمين لهذه الديار .

وبعد أعوام قلائل تحققت مخاوف المسلمين وصدقت نبوءة قائدهم موسى ابن أبي الغسان وكشفت الأحداث عن أصالة رأيه وبعد نظره ، حين بدأ العدو يحور المعاهدة ويفسرها وفق مطامعه وبوحي من مآربه . ثم أخذ ينقضها عروة عروة ويخيس بها نصا نصا ، فأغلق المساجد وانتهك العقائد وحظر إقامة الشعائر وصب على المسلمين صنوفا من العنت والاضطهاد وأفتن فى إيذائهم والتنكيل بهم فلم يسلم لهم الشرف ولا العرض ، وكان قبس من الحماسة ما زال يضطرم بين أهل المناطق الجبلية . بلفيق واندرش وغيرهما . فرفعوا أصواتهم بالتذمر والشكوى وثارت الأنفس وهاجت الخواطر وقد وجدها مجلس الدولة الذى أنشيء بغرناطة فرصة مواتية لإلغاء المعاهدة والنكث بالعهود جملة ، واعتزم تنفيذ فكرة مشئومة نهض بالدعاية لها رجال الكنيسة وهى تشريد المسلمين وإبادتهم إلا أن يتنصروا . وما كاد يذاع قرار المجلس حتى ذكا الهياج فى كل ناحية وحاول المسلمون المقاومة سيما فى المناطق الجبلية ولكنهم كانوا عزلا ، وكانت جنود النصارى صارمة شديدة الوطأة فمزقتهم بلا رحمة واستأصلتهم قتلا وسبياً .

وقد تنصر إثر هذه القسوة الأليمة من خار فى ميدان الجهاد . وآثر السلامة . وخاف الفاقة . وتعلق بالوطن . وهاجر من اختار التمسك بعقيدته . والحفاظ على كرامته . فغادر أسبانيا جموع كثيرة إلى فاس ووهران . وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها من ثغور إفريقية بعد أن أغرقوا بدمهم أرضها . وكتبوا بمقاومتهم أنصع الصفحات فى تاريخ الجهاد فى سبيل الله ، وقد تم جلاء آخر جماعة إسلامية أبت أن تفتدى نفسها ومالها بالنزول عن دينها وإبائها فى سنة (١٠١٧ هـ — ١٩٠٩ م)

وبذلك صارت أسبانيا كلها نصرانية كرها وقهراً . لا طواعية واختياراً . وجلجلت أصوات النواقيس فى صوامعها . وامتلأت مساجدها بالصور والصلبان . وأقفرت من ذكر الله وتلاوة القرآن . ورفع الصليب الفضى الكبير فوق أبراج الحمراء . وقد خفق فوقها أحقابا علم أولئك الأمجاد الميامين .

موازنات أدبية :

نونية ابن زيدون

للأستاذ الشيخ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٣ —

امتاز شوقى بمطلعه الشعرى الرائع الذى فاق مطلع ابن زيدون ، ذلك المطلع الضحل الذى يكرر بعضه بعضا ، فالشطر الثانى هو الشطر الأول :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ويقول ابن زيدون :

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

فنجد معنى أوليا : ضمير المحب يناجى المحبوب ، فيكاد الأسى يقضى عليه لهذه النجوى لولا التجلد والتأسى ، أما شوقى فإنه قد فرغ من هذه المناجاة ، وارتفع بحبه إلى المنزلة التى يغار فيها من ضميره حين يناجى من يحب :

يا من نغار عليهم من ضمائرنا ... ومن نصون هواهم فى تناجينا

ويقول ابن زيدون :

ليسق عهدكمو عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا

فنجد هذه الصورة عند شوقى على هذا النحو :

سقيا لعهد كأكناف الربا رفة ... أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذا الزمان بنا غيناء زاهية ... ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش فاغية ... والسعد حاشية والدهر ماشينا

فلا يقف بأحبابه عند جعلهم رياحين بل يتعدى ذلك إلى الزمن الذى يرف بهم ريحانا ، ويهفو بلقياهم نسيما عاطرا ، هـذا إلى تصويره عهدهم بأكناف الربا وأعطاف الصبا ، وتمثيله الزمان بالغيناء الزاهية ؛ ثم إلى التقسيم الموسيقى فى البيت الأخير ، وما استوفى فيه من ألوان التصوير ، وأفانين الصفو والدعة .

على أنه لم يكتف بذلك ، بل أخـذ يسترسل فى وصف مظاهر زمان الأنس وعهد الصفاء ، بمـا أمده به خياله المحلق من روائع التشبيه ، ممـا لا نجد مثله عند ابن زيدون . يقول شوقى فى استرساله :

والشمس تختال فى العقيان تحسبها ... بلقيس ترفل فى وشى اليمانينا
والنيل يقبل كالدنيـا إذا احتفلت ... لو كان فيهـا وفاء للمصافينا
ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا ... ماء لمسنا به الأكسير أو طينا

ويقول ابن زيدون :

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا ... إلفـا تذكره أمسى يعنينـا

فيأخذ شوقى هذا المعنى ويقلبه على وجوه مختلفة ، وينتزع منه صوراً متعددة ، فلا يقنع بمخاطبة البرق حتى يجعله يرمى عن جوانحه ، ويهمى عن مآقيه ، ويصف ترقرقه فى دمع السماء ، ويشهده على حاله التى أخذ يشرحها له . ثم يشيعه إلى آفاق النيل ، فيصور احتواءها له ، واحتفاء الريف به ، ونحو ذلك ممـا سبق بعضه ، وكما يقول :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لمـا ترقرق فى دمع السماء دما ... هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهـد لم تهتك دياجيه ... على نيـأم ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا على قدم ... قيام ليـل الهوى للعهد راعينا
كزفرة فى سماء الليـل حائرة ... مما نردد فيـــه حين يضوينا

وعلى هذا النحو يقول ابن زيدون :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنـا ... من لو على البعد حيا كان يحيينا

فيأخذ شوقى فى وصف الريح ، ويولد ما شاء من المعانى ، ويطلق خياله فى أذيالها العاطرة ، ويبالغ فى شكرها على تجشمها السرى ، وطيب مسراها ، ثم يوشى ذيولها المسكية بغرائب أشواقه وحنينه ، مما لم نشهده عند صاحبه :

ويا معطرة الوادى سرت سحرا ... فطاب كل طروح من مراميـنا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها ... قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا ... بالورد كتبا وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح غالية ... عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مسكى نحمله ... غرائب الشوق وشيا من أمالينا

وقال ابن زيدون :

لا غرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت ... عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى صوراً ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

تعليل فلسفى جميل : لا عجب فى أن نذكر الحزن وننسى الصبر ، لأن الحزن قد اشتد علينا ، حتى كأننا قرأناه سوراً مكتوبة لا تنسى ، أما الصبر فقد لقناه تلقينا ، فلم يمس شغاف قلوبنا كما مسها الحزن ؛ أما شوقى فقد اشتد به الحزن والوجد ، ولكنه لم ينس الصبر كما نسيه ابن زيدون ، بل دعاه ، وإن كان لم يأخذ بيده :

جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا ... فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جلد ... حتى أتتنا نواكم من صياصينا

ولا نفهم من هذا أن شوقى قد قصر فى تصوير نكبته بهذه الدعوة إلى الصبر ، فإنه يصور فداحة خطبه بطريق آخر غير طريق ابن زيدون ؛ فهو الذى يدعو الصبر فى كل نائبة فيستجيب له ، ولا تلين قناته للحوادث والخطوب . أما فى هذه المرة فإنه يغلب على صبره وجلده ودمعه ، ولا شك فى أن هذا التصوير أدل على فداحة المصاب من تصوير ابن زيدون ، فإن دمعة الشجاع الذى لم يعتد الهزيمة أحر وأبلغ فى الدلالة على عظم الكارثة من دموع من اعتاد الهزائم .

ويقوله ابن زيدون :

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغص فقال الدهر آمينا

فنرى (شوقى) عالة عليه فى هذا البيت. وإن امتاز بأنه جمل الدعاء من الليالى لأنه سلبها صفوها فدعت عليه:

ولم ندع لليالى صافيا فدعت ... بأن نغص فقال الدهر آمينا

وهكذا نجد أن شوقى هو الشاعر الوحيد الذى فاق ابن زيدون، واستطاع أن يغزوه فى وطنه وينتصر عليه، بما جدد من الأفكار، وولد من المعانى، واخترع من الصور، وزاد من الألوان، وابتدع من الخيال. وبنفسه الطويل الذى مد من شأوا لقصيدة حتى قاربت أن تكون ضعف قصيدة ابن زيدون.

ومع هذا يجب أن نعترف لابن زيدون بفضل السبق؛ ويكفى أن معانيه هى التى أوحت إلى شوقى، وبحسبه أن وزنها وقافيتها بل إن كثيراً من أوزانه وقوافيه كانت الفتح الأول لهذا الباب الذى ولجه شوقى. على أنه لا يزال ينفرد بمعنى لم يذكره شوقى، وهو أثر الراح والغناء فى نفسه بعد الفراق كما يقول:

لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

ومن يدرى لعلنا نظفر فيما بعد بشاعر يسبق هذين الجوادين، ويبزهما فى ميدان السبق، فما تزال قصيدة ابن زيدون، وما تزال قصيدة شوقى، وما يزال الباب مفتوحا، وما يزال فى الدنيا شعراء.

وها نحن أولاء نرى الجارم يعارضها بعد شوقى، وهو فى طريقه إلى السودان بقصيدة يقول فيها:

يا نسمة رنحت أعطاف وادينا ... قفى نحييك أو عوجى لحيينا
مرت مع الصبح نشوى فى تكسرها ... كأنما سقيت من كف ساقينا
أرخت عذائرها أخلاط نافجة ... وأرسلت ذيلها ورداً ونسرينا
كأنها روضة فى الأفق سابحة ... تمج أنفاس مسراها الرياحينا
هبت بنا من جنوب النيل ضاحكة ... فيها من الشوق والآمال ما فينا
إنا على العهد لا بعد يحوّلنا ... عن الوداد ولا الأيام تنسينا
أثرت يانسمة السودان لاعجة ... وهجت عش الهوى لو كنت تدرينا

من أمجاد الرسول :

الاسراء والمعراج

رجب سنة ١٣٧١ هـ

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد شفيع السيد
المدرس بكلية اللغة العربية

تبسمت الدنيا فناج القوافيا — وعاد صباحا ما بدا قبل داجيا
وأسفر نور الدين فى الكون كله — فأضحى به القطر الحجازى زاهيا
قفار ولكن أنبتت أطيب الورى — وجدب ولكن كان أخصب واديا
وما الجدب إلا فى النفوس رخيصة — وما الخصب إلا فى النفوس غواليا
ورب شعوب مجدها غرس واحد — وأخرى من الآلاف تشكو الدواهيا

* * *

هبات أتيحت للألى ظفروا بها — ومجد يلقاه النبيون عاليا
وما كان إسراء النبى محمد — سوى المجد من رب السموات ساميا
سرى فسراه كان للعين قرة — وللقلب من داء الضلالة شافيا
إلى المسجد الأقصى تنقل ركبه — تنقل نور الشمس فى الكون ساريا
عجبت لما يدعى (البراق) كأنه — سنا البرق يطوى صفحة الأفق ماضيا
فألفى هناك الرسل يرتقبونه — كما ارتقب الصادى من الماء صافيا
إمام ولكن النبيين خلفه — فياطيبها من نعمة هى ما هيا

* * *

وفى مثل رجع الطرف كان صعوده — لكل سماء فى الدجنة راقيا
وحسبكم جبريل للركب قائدا — وحسبكم الرحمن للركب راعيا
إلى الحضرة العليا تدانى مكانة — وزاد علاه واستطال أياديا
أياد من الله الجليل جليلة — بها زخر الشعر الثرى معانيا
فيا ليلة ما كان أنبه شأنها — تبز بسامى الفضل فيها اللياليا
ويا ليلة ذكراك فى القلب عذبة — تجب بذكراها القرون الخواليا

جامع الملك الظاهر بيبرس

لحضرة الأستاذ محمد صبرى عابدين
أمين سر الهيئة العربية العليا

جامع أثرى عظيم شاهق البنيان واسع الأركان ، ورغم الخراب الذى حل بقبته ومنارته فلا تزال جدرانه وأعمدته متينة قوية .

وهو يعد من أكبر الجوامع الأثرية بالقاهرة ، ذكر المقريزى فى خططه أن الملك الظاهر بيبرس أنشأ هـــذا الجامع فى ميدان قراقوش خارج باب الفتوح من القاهرة سنة ٦٦٥ هـ — ١٢٦٦ م ، ويسمى جامع العافية كما يسمى جامع الظاهر وقد أنفق بيبرس فى بنائه ما يزيد على ألف ألف درهم فوق مليون من الدراهم وهى تساوى حوالى مائة ألف دينار من الذهب ، ويقع هـذا الجامع فى ميدان الظاهر بين شارعى الظاهر والعباسية بالقاهرة ، يبلغ مسطحه ١١٨٨٠ متراً مربعاً ، وهو ما يقرب من ثلاثة أفدنة ، وقد ذكر الجبرتى فى تاريخه أن هذا الجامع جعل فى العهد العثمانى مخزنا للمهمات الحربية كالخيام والسروج وغيرها ، وفى أيام الفرنسيين بمصر جعلوه قلعة ومنارته برجا ووضعوا على أسواره المدافع وأسكنوا به جماعة من عسكرهم .

إلهى بعثت الرسل نوراً ورحمة ... وبرءا لآثار الكلوم دواميا
فأحيوا من الألباب ما كان ميتاً ... وأنجوا من الويلات من كان هاويا
ولاقوا من الدنيا العناء فما انثنوا ... ولا عرفوا حين الجهاد توانيا
وجاء رسول الله من بعد ناسخاً ... كما نسخت شمس النهار الدراريا
رسول لو ان الأرض تحمل مجده ... لمادت فلم تحمل عليه الرواسيا
تخير ذا مجـــد أثيل ومحتد ... أصيل وعن كل الدنيات نائيا
رءوف رحيم لم ير الناس مثله ... أبر بميثاق وأعلى معاليا
وأين قريض فى المسامع وقعه ... كوقع خرير الماء أسمع صاديا ؟؟
فلولا جلال للرسول مضاعف ... نشرت بمدحى للرسول الغواليا
ولكنه جهد المقل فلن يرى ... كفاء لهاتيك المفاخر كافيا

وفى عهد الاحتلال الانجليزى جعلوه مذبحا للجيش فكان الإنجليز يذبحون فيه الخنازير وسواها من الحيوانات منتهكين بذلك حرمته الدينية .

ومما يؤسف له أن العامة من أهل القاهرة لا يعرفون هذا الجامع إلا باسم « المذبح أو مذبح الإنجليز » وفى سنة ١٩١٥ قد أبطل الذبح فيه .

وفى سنة ١٩١٨ غرست مصلحة التنظيم أرض صحن الجامع وجعلته متنزها عاما وفى سنة ١٩٢٨ عمرت لجنة حفظ الآثار العربية الجزء الواقع عند المحراب وجعلته مصلى وهو مازال إلى الآن مصلى تقام فيه صلاة الجمعة والصلوات الخمس ، أما القسم الأكبر منه فلا يزال مستعملا حديقة عامة للنزهة .

وأذكر أن الحكومة المصرية كانت قبيل الحرب سنة ١٩٣٩ قد فكرت فى عمارة هذا الجامع وإعداده جميعه لعبادة الله وتطهيره من أرجاس الإنجليز وآثار مذبحهم وإزالة المتنزه القائم فيه ، وقد نشرت بعض صحف مصر فى ذلك الحين أن وزارة الأوقاف قدرت مبلغ مائة ألف جنيه لصرفها فى إصلاحه وتهيئته لإقامة الشعائر الدينية ، ولكن نشوب الحرب عطل المشروع وبقى هذا الجامع الأثرى التاريخى متنزها يؤمه سكان حى الظاهر وأكثرهم من غير المسلمين وهو حال لم يحدث مثله فى معابد أية ملة من الملل فى مصر .

من أجل ذلك أوجه الرجاء إلى المسئولين من رجالات مصر المخلصين أن يعيدوا النظر فى شأن عمارة هذا الجامع واتخاذ الأسباب الفعالة لإعداده كله للشعائر الإسلامية وإزالة ذلك الاسم البغيض « مذبح الإنجليز » اللاحق به ظلما وزورا .

وإنى لأهيب بحضرة صاحب المعالى الرجل المؤمن النبيل محمد المفتى باشا الجزايرلى وزير الأوقاف المصرية أن يولى هذا الجامع ما يستحق من العناية والاهتمام فيكون له فضل عمارته وتجديده وإنه لعامل إن شاء الله .

« إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » ؟

الرسول والقيادة

لفضيلة الأستاذ حسين حسن حنبل

المدرس بالأزهر

كان سكان الجزيرة العربية إحدى الفرق البشرية التى عمها الظلم وملأها الفساد فالقوم أحوالهم مضطربة ، ووحدتهم معدومة ، وقعوا فى جهالات مطبقة ، وشرور موبقة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات متواصلة لأتفه الأسباب ، فإذا أعوزتهم حرب القبائل المجاورة حارب بعضهم البعض :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

كانت المرأة فيهم إذا أرادت فرقت وإن شاءت جمعت ، فإن اتجهت عواطفها إلى السلام سعت إليه ونجحت فيه ، وإن وجهتها إرادة الانتقام إلى الشر أشعلتها بين الأحياء .

وقصارى القول كانت حالتهم سيئة ، لا تدعو إلى الهدوء ولا تدفع إلى الطمأنينة ، فكان لابد من مصلح حكيم وزعيم موفق ، وقائد مقدام ، وليس هناك من توفرت فيه الصفات المطلوبة سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اختاره الله لينقذ الجزيرة من وهدتها ، وينتشلها من كبوتها ، بل اختاره الله للعالم أجمع ليقوده ويسوسه . والمصلحون والقادة يوجدون عند عموم الضلالة ، ويظهرون عند طموم الجهالة .

وهنا تظهر حكمة الرسول ولباقته ، وجرأته وشجاعته ، ونظمه الحربية السليمة وكيف سار على مبادىء تعتبر حديثة فى نظر الحروب الحاضرة .

تلقى وحى الرسالة فبدأ يصلح قومه بها فى غسق الليل وجنح الظلام ، وبين طرفى النهار تحت ستار السر وراية الكتمان . ثم جهر بالدعوة حين تلقى أمر ربه « فاصدع بما تؤمر » فأخذ يجهر بها لا يخاف ألماً يصيبه ، أو بلاء يلحقه ، وسفه أحلام المشركين وعاب آلهتهم ، فعرضوا على عمه أبى طالب أن يسلمه أو يكف عن دعوته فأبى .

هذا عرض موجز وعجالة سريعة أردت عرضها لتظهر فى محمد القيادة بأجلى معانيها ، وليتبين للناظر أنه كان لا بد من الحرب والصراع بين الفكرتين ، وأن

القيادة الحقة هي التي ترغم هؤلاء على اتباع الجادة ، وسلوك الطريق السوى ، وهي التي تستطيع أن تردهم عن غوايتهم بعد أن استمرءوا الشر ، وحلا لديهم الفساد.

وما كان ذلك بالأمر الهين ، فقد استدعى حرباً شنها على أعدائه وأقامها على معانديه غير بادىء بالعدوان : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » .

ورغم أن محمداً لم يتلق مبادىء الحرب ونظمها ، وقواعد العسكرية وفنونها ، فى مدارس خاصة ، فإنه كان قائداً ماهراً ، نظم الجيوش وخاض بها المعارك ، وخرج منها ظافراً منتصراً ، بفضل ما سار عليه من مبادىء وما اتبعه من أساليب .

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

وسأذكر بعض وقائعه شارحا فيها المبادىء العسكرية ، مستنبطاً منها القواعد والفنون الحربية ، أو مطبقاً هذه المبادىء على تلك الوقائع ؛ وها هي ذى وقعة بدر الكبرى تظهر فيها المبادىء ناطقة :

مكث محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة يترقب أخبار عودة العير التى ذهب بها أبو سفيان إلى الشام ، فبعث بكشافين إلى الحوراء الواقعة على شاطىء البحر الأحمر التى لابد للعير من الوقوف بها ، ولا شك أن فى بعث الكشافين استطلاعا للعدو ومعرفة أخبار عنه ، ولما عزم الرسول على الخروج لهذه العير لم يلبث أن ذاع الخبر بين سكان المدينة فنقله البعض إلى أبى سفيان فجد فى السير بحذر ، وأرسل إلى قريش يعلمهم الخبر .

ويقال إن محمداً لم ينتظر عودة رسوليه بل قرر الخروج لملاقاة العدو خشية أن تفوته العير كما فاتته فى المرة الأولى ، وكأنه بهذا يريد أن يطبق مبدأ من المبادىء الحربية لها خطرها فى النصر وأثرها فى النجاح وهو مبدأ المباغتة والمفاجأة ؛ لذلك ندب المسلمين وقال لهم : هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها .

أما أبو سفيان فحين علم بخروج محمد لاعتراض قافلته ، استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وبعثه مسرعا إلى مكة ليستفز قريشاً إلى أموالهم ، ووصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادى ، وأشعل النار ، وألهب النفوس بما صنع .

فخرجت مكة وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها ، فكانت حملة أبي سفيان كبيرة العدد والعدد ، وخرج النبي كذلك بعد أن رتب أمور المدينة في قلة من العدد والعدد.

وهنا وقفة تتجلى فيها حكمة محمد إذ رأى أن يكشف عن روح جنوده المعنوية قبل أن تنشب المعركة ، ويعلو أوار الحرب ، فالقوم كثيرون وهم قلة - استشار الناس وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش . فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ثم قام المقداد ابن عمرو فقال يارسول الله « امض لما أراك الله فنحن معك » وقال سعد الأنصاري « فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ... » فأشرق وجه محمد وقال « سيروا وأبشروا والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم » .

نرى من هذا أن محمداً رأى أن يختبر جنده قبل أن يلقى عدوه ، فليست العبرة بكثرة العدد ولا بوفرة العدد ، وإنما الإيمان بالفكرة والثقة بالله هما سبب النصر وسبيل النجاح .

ارتحل محمد وقومه حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق محمد على بعيره حتى وقف على شيخ من العرب وسأله عن محمد وقريش ومنه عرف أن عير قريش منه قريب .

أراد الرسول زيادة معلومات عن العدو فبعث علي بن أبي طالب مع جماعة إلى ماء بدر يتلمسون له الخبر وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان عرف منهما أن قريشاً وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى ، ولما أن أجابا أنهما لا يعرفان عدة القوم سألهما محمد كم ينحرون كل يوم ؟ فأجابا يوما تسعاً ويوما عشرا ، فاستنبط النبي من ذلك أن القوم بين التسعمائة والألف وعرف كذلك أن أشراف قريش خرجوا لمنعه فقال لقومه « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » إذن فلا بد له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم في العدد ثلاثة أضعاف من أن يشحذوا عزائمهم وأن يوطنوا على الشدة أفئدتهم ونفوسهم ، وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الإيمان قلبه بالنصر .

وكتب الله النصر للمسلمين بعد قتال عنيف وفر المشركون فتعقبهم المسلمون وفي هذا تحقيق لمبدأ آخر وهو استمرار النجاح بمطاردة المنهزمين .

وبعد : فإن المتتبع لأحوال العرب وما كانوا عليه وغزوة بدر وما وقع فيها يرى أن القيادة بأسمى معانيها وأجلى صورها روحية أو عسكرية كانت لمحمد صلى الله عليه وسلم .

مجالات فى الأدب :

الشعر المسخر ... !

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل عجلان
المدرس بالأزهر

— ١ —

سخرت العصبية الأولى قرائح الشعراء وساقت الشعر والشعراء إلى ميادين خلقتها طبيعة البداوة .

فلما أشرقت الجزيرة بنور الإسلام تلفت الشعر يريد أن يأخذ مهيعه على هدى من الوحى الجديد والحياة المهذبة المجدية على المجتمع الإنسانى .

ولكن الحياة السياسية والصراع الذى نشب حول الملك العضود . وانتفاضة الجاهلية وتزاحم القبائل فيما فتح من زهرة البقاع الخصبة ، والتكالب على الغلب والسبق إلى مغانم كثيرة متناوحة ، كل ذلك وغيره من عوامل ، بلبل على الشعراء قرائحهم وأغراهم بالتمرد على مسالك الفن الخالص للفن ، والنتاج الصادر عن وحى لم تسخره الرغبة فى المال أو الرهبة من سطوة السلطان .

وعلقت حبائل الشعراء بعجلة السياسة كما نازعتهم دواليب المجتمعات فى الدولة الأموية ، ثم العباسية ، ثم ما بعدها من دويلات أقلمتها طبائع تخضع لها الدول من ضعف وقوة ، وتلك سنة الله فى خلقه .

وما أكثر الشعراء الذين نعدهم فى مختلف أعصر الأدب ممن سخروا فنهم للفردية المترفة التى اتخذت من الشاعر معبرا للترفيه عن نفسه والتعبير عن أهوائه على حين ضيق من الشاعر أو كره من القريحة .

ولا عذر يلتمس عند المتخلفين وراء تهالك الشعراء على موائد المنادمة العباسية أو المطاردة اللاهية أو العبث القاسى فى بغداد ودمشق والقاهرة وعواصم الأندلس وكل مرتع لاه فى الحدائق وعلى متون الحراقات وحواف الشطآن .

كما لا أنكر على الشعراء إجادتهم الفنية فيما عالجوا من تعبير عن حياتهم التى شاركوا فيها الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ومن جاراهم من الأندلسيين لأنهم صدقوا ما انطوت عليه حياتهم من مشاركة خالصة دفعتهم إلى تصوير القصور وما فيها وبدائع التحف ، وجميل الصور ، وبدائع الطبيعة ، ووريق المتع المبسوطة على كف الخصب المرقش والأمواج الدافقة الخلابة .

كما لا ينكر الأدب فنا كان ملاذا للغناء ومحورا للألحان التى خلدت أثر الشاعر كما طوفت على الأسماع ورددت صداها الأوتار ترديدا أشبع العواطف ورقق الطباع وأخضعها لروح الشعر العذب المصفى من جلافة البداوة .

ولن أتعرض للمادحين النظامين ممن اصطنعهم الساسة لقرض الثناء المبالغ والمديح الخارج عن حد الاعتدال فى صدق التقدير لأنه باب أتخم به الشعر العربى ولا يزال متصفح (الدواوين) يضيق بما تحمل فى طياتها من ملق وتذلل وتخاضع وإنها لصناعة خلت أيامها ، وأعتقد أن حرية الفرد وما تكفله الأيام للإنسانية لن تسمح لهذا النظم بالحياة ، أو على الأقل لن يتقبل على موائد الفن الخالد والزاد الأدبى الشهى .

* * *

والذى أتعرض له فى عجالتى ، هو الشعر المسخر ، أو القريحة التى حملت على أن تسمر بما لا تحس به أو تهتف بما لا تجد له أصداء فى حناياها ، وإنما أمرت أوقسرت على أن تستدنى نافراً ، أوتصف جميلا ، أوتعتذر لمتأبٍّ ، أو تسرف فى جانب تمتع به خليفة وحرم منه الشاعر .

وإنا لنجد فى مروى السمر وما بث فى كتب المحاضرات طرائف تضحك وتبكى .

عباسى وسع له الحكم ، تدللت عليه جارية أوتمنعت إحدى النساء ، فراح يستنزل رضاها ، وهو بعزة الحاكم ولكنها تراوغ وتباعد بينها وبين سيدها حتى إذا ضاقت به السبل كلف كبير حجابه (رئيس وزرائه) باقتياد الشاعر وحمله على أن يقول شعراً يسترضى به الجارية ويعيدها إلى مولاها .

وهنالك يطبع الشاعر ويحمل قريحته على أن تنظم ويسير الشعر وتتدفق الهبات وينال الشاعر الحظوة ولكن الشعر يظل بارداً خالياً من صدق العاطفة .

ولا أشك فى أن بعض الشعراء كان يضيق بهذا التكليف وكانت شاعريته لا تمد له فى حبل القوافى وأذكر من بينهم (عباسا بن الأحنف) الذى عاش ومات للغزل فى محبوبة لم يكشف عنها ولم تعرف إلا باسم (فوز) المستعار .

وكأنى بالندماء الساسة قد أرادوا بشاعريته المتأبية عليهم تسخيراً فوجهوا الخليفة العباسى إلى أن يكلفه فاستغلوا سلطانهم وراحوا ينتزعون ذلك العاكف على غزله فيمن أخلص لها وخلص هواه إلا لها .

ولقد ظفروا بما أرادوا وظفرت ليالى القصور بالسمر وبالشاعر ولكن الذى تمخضت عنه قريحة العباس بن الأحنف لم يزد عن نظم بارد لا إحساس فيه وسنتعرض لتحليله فى مقال تال .

ولمثل ما وقع للعباس نجد تبلبلا فى نسبة هذه الأبيات وتعدد مصادرها :

ملك الثلاث الآنسات عنانى — وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها — وأطيعهن وهن من عبدانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى — وبه قوين أعز من سلطانى

هذه الأبيات تقال وتنسب إلى بعض الخلفاء وفى المصادر الموثوق بها .

ولكن الذى لا خلاف عليه عندى أن مستوى هذه الأبيات لا تنهض اليه قرائح من نسبت اليهم ممن لم يوهبوا عبقرية خلابة ، وإحساساً شاعريا اللهم إلا متأخرى الفردوس المفقود وإلا من يجرون فى حضرة ابن المعتز والشريف الرضى وغيرهما ممن تسنموا الذروة فى القريض وعلو النسب وكرم الأرومة :

ولا شك فى أن الشعراء غنموا من وراء تسخير قرائحهم قربى من السلطان وزلفى ، بل وعطفا من الجوارى الحسان ومالا وضياعا ومتعاً استقرت بها حياتهم المادية وربما الأدبية .

* * *

وكان السلطان لا يقبل من الشاعر إذا أراد التخلى عن ميدان القسر الشاعرى وكان الشاعر لا يجد حتى من الشيخوخة وتقدم السن ما يلتمس به العذر والتنحى عن إمداد السمر ومجالسه بما يرضى السمار والندماء .

الطـــاعة والرزق

لفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف النجار
المدرس بالأزهر

فطر الإنسان على حب نفسه وامتداحها والزهو بما يقول أو يفعل وهو إلى جانب ذلك قد يخدعه الغرور بعمله ويسيطر عليه الإعجاب بما يأتى أو يذر والفخر بالوصول إلى غايته فيحمله كل ذلك إما على أن يدعى النبوغ والذكاء وسعة الحيلة وبعد النظر وصواب الفكر ويقول — كما قال قارون من قبل حين كثر ماله وعظم سلطانه وقوى شأنه — إنما أوتيته على علم عندى.

وإما أن يربط نجاحه فى هذه الحياة الدنيا وسعة رزقه ورواج تجارته واضطراد كسبه بتكريم الله تعالى له ورضاه عنه وحبه له وإيثاره على غيره. ويربط بوار التجارة وعسر الكسب وضيق الرزق وعدم النجاح بغضب المولى جل شأنه عليه وعدم رضاه عنه وبغضه له وإهانته أمام الناس « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ».

تلك طبيعة الإنسان وهذه فطرته. يدعى العلم والذكاء إن كان من الماديين. ويتوهم التكريم أو الإهانة من الإله إن كان من عامة المتدينين. وكلاهما قد باين الحق وترك الطريق القويم. وإنى لأتوجه بهذه الكلمة إلى ذوى الدين.

من المعلوم بداهة أن الله تعالى لم يجعل الدنيا للجزاء، وإنما هى دار العمل والابتلاء. فليس الغنى فيها لفضل صاحبه عند الله وليس الفقر لأن الفقير من العصاة، ولقد أيد الكتاب العزيز عدم الارتباط بين الطاعة والرزق فى قول الله تعالى من سورة البقرة « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ».

فهاهو ذا الكافر الجاحد يخبرنا المولى أنه سيمتعه فى هذه الدنيا التى ليست

للجزاء ثم يلجئه إلى عذاب النار « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً ... »

وهذه آية أخرى تؤيد كذلك ما قدمناه من عدم الصلة بين الطاعة والرزق هي قوله تعالى من سورة آل عمران « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » . روى أن طائفة من المؤمنين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع فنزلت تلك الآية وفى الحديث « يقول الله عز وجل كلا إنى لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا ولا أهين من أهنت بقلتها إنما أكرم من أكرمت بطاعتى وأهين من أهنت بمعصيتى » رواه القرطبي فى تفسيره وروى الترمذى « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » .

والمتأمل فى كتاب الله تعالى والباحث فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتردد فى الاطمئنان إلى أنه لا علاقة للرزق بالطاعة . فهذا هو القرآن يصور الإنسان حين تقبل عليه الدنيا وحين تدبر عنه الدنيا ويفرق فى تصويره بين الإنسان فى أدنى درجات الإنسانية وبين الإنسان فى أسمى درجات الإنسانية فيقول — من سورة المعارج —

« إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك فى جنات مكرمون » .

فليس الجزع عند الشر إلا نتيجة الألم الذى يحسه ضعيف الإيمان وليس المنع عند الخير إلا لأنه يتوهم أن الله تعالى خصه بهذا الخير ، ولكن المؤمن الصادق هو ما ذكره الله مبيناً أوصافه مخبرا عن جزائه فى الآخرة .

وقصارى القول إن الدنيا دار عمل وابتلاء والآخرة دار حساب وجزاء « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » .

فمن الخير إذا مقابلة النعمة بالشكر عليها وما شكر النعمة إلا بتوجيهها الوجهة التى تلائم الشرع ولاتتنافى مع ما أمر الله تعالى به . ومن الخير كذلك أن يصبر الإنسان إذا أصابه شر فتظل بذلك حال المؤمن بين شكر وصبر وإن له فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة .

ومن الخير أن يتأمل المرء إلى جانب ما تقدم قول الله الكريم « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جزراً » فهذه آية توضح فى إيجاز لذات الحياة ومتعها ، وتوضح نهايتها وأن كل ذلك ليس إلا للابتلاء « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ؛ وإن شئت بعد ذلك أن تقرأ حجة ساطعة فى هذا الموضوع وآية دامغة لمن يربط بين الرزق والطاعة وكلمات بينات تصور الحياة تصويراً لا لبس فيه ولا إبهام فاقرأ قوله تعالى من سورة الحديد « إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

فأنت ترى كيف أجمل الله تعالى شأن الحياة الدنيا فى أمور خمسة هى : اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر ، أما الآخرة فهى دار العذاب للأشقياء ، ودار النعيم للسعداء ثم ختم الآية بما يتناسب مع بدئها فقال « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

فالمصائب فى هذه الحياة والشدائد التى تلم بالناس ليست إلا سنة الله فى خلقه إذ أنه تعالى يبلوهم بالشر والخير فتنة وإليه يرجعون .

والآن وقد تبين لنا أنه لاارتباط بين الرزق والطاعة وأن زخرف هذه الحياة إلى نهاية لجدير بالعاقل أن يجعل همه مرضاة الله ولا يتخذ إلهه هواه وليتق الله مولاه وليجعل رائده ذلك القول الكريم من كتاب رب العالمين « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .؟

صلح الحديبية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

---

[٢]

لما علمت قريش بأن أصحاب محمد بايعوه عند الشجرة على القتال ، وأنهم بلوا حربهم فى المرات السابقة رغم قلة عددهم ، وذاقوا الموت على يديهم وأن ضآلة عديدهم لن تفت فى عضدهم فأطلقوا سراح عثمان بن عفان ، وأرسلوا للمصطفى سهيل ابن عمرو ليفاوضه فى الصلح ، ولما كانت الدعوة التى يشرف على نشرها وتدعيمها إنما تهدف إلى بث الطمأنينة فى النفوس ، رضى بالصلح وقال : لما رأى سهيلا مقبلا أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل ، فلما انتهى سهيل إلى الرسول جثا على ركبتيه بين يديه والمسلمون حوله جلوس ، فتكلم وأطال ، وقد قال له المصطفى « تخلو بيننا وبين البيت فنطوف به » فقال سهيل « والله لا تتحدث العرب بنا أنا أخذنا ضغطه ولكن ذلك من العام القابل » ثم التأم الأمر بينهما على الصلح ، واتفقا على ترك القتال بينهما لمدة عشر سنين ، وأن يعودا من قابل للحج والاعتمار على ألا يحملوا معهم من السلاح غير السيوف فى قرابها ، وأن من جاء من قريش إليهم من غير إذن وليه أرجعه المسلمون ، وأن من جاء من المسلمين إلى قريش لا تلزم برده ، وأن من دخل فى حلف المسلمين له ذلك ، ومن دخل فى حلف قريش له ذلك ، ولم يبق إلا الكتاب ، هنالك وثب سيدنا عمر إلى النبى فقال له يا رسول الله « ألست برسول الله وألسنا بالمسلمين ؟ فقال النبى « بلى » فقال عمر « فعلام نعطى الدنية فى ديننا » فقال النبى « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » فقال عمر « أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ فقال النبى « بلى أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام » فقال عمر « لا » فقال النبى « إنك آتيه ومطوف به » .

ثم نادى علياً ليكتب شروط الصلح ، فلما أخذ فى الكتابة أمره صلى الله عليه وسلم أن يكتب باسم الله الرحمٰن الرحيم فقال سهيل لا أعرف الرحمن الرحيم ،

أ كتب باسمك اللهم فوافق النبي ثم قال له ا كتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال سهيل أمسك لو كنت أعتقد أنك رسول الله ما قاتلتك ، ولكن ا كتب اسمك واسم أبيك فوافق النبي ، ولما لم يوافق المسلمون محاها بيده الشريفة وقال ا كتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلا لأن المصطفى كان لا يعير هذه التوافه من الأمور اهتماماً ، إذ هو داعية الخير ورسول الرحمة والداعية إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والذى وصفه رب العزة والجلال خير وصف « الرؤوف الرحيم » . وما كاد يجف مداد الكتابة حتى قدم أبو جندل بن سهيل فاراً من قريش ، ومن العذاب الواقع عليه بسبب إسلامه ، والمسلمون يضجون من شروط الصلح التى يرون أنها ليست فى صالحهم ، وقد زادهم ألماً وثورة - وإن كانت مكبوتة - رؤية آثار التعذيب على جسم أبى جندل ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً لأنهم يعلمون أنهم قد أعطوا الكلمة فما لهم ألا ينقضوا ما أبرموه ، ثم التفت النبي إلى أبى جندل وقال « يا أبا جندل أصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وأنا لا نغدر بهم » .

ونادى مناد من قبل الرسول بالتحلل من الإحرام بالذبح والحلق أو التقصير ، ولكن عمر كانت ثورته لم تخمد بعد ، فحدث أبا بكر بما حدث به المصطفى ، وبنفس الحمية التى عهدت عنه ، فأجابه أبو بكر يا عمر « إلزم مكانك فإنى أشهد أنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره استمسك بغرزه حتى تموت » . قال عمر « وأنا أشهد أنه رسول الله » . فتباطأ بعض الصحابة فى تنفيذ أمر التحلل لما كانوا يجدونه فى أنفسهم من غضاضة شروط الصلح ، فدخل المصطفى خباءه وهو غاضب ، فسألته أم سلمة رضى الله عنها عن غضبه فقال لها « هلك المسلمون أمرتهم فلم يطيعوا » فقالت له يا رسول الله أنك تعلم نفوس أصحابك ، وتشوفهم إلى إعلاء كلمة الله ولو ضاعت أرواحهم ، وإنهم ليستهينون بالموت فى سبيل نصرة دينك ، اخرج إليهم فاذبح واحلق وسيفعل الجميع . عند ذلك خرج المصطفى ومعه حربة فأهوى بها على البدن وهو يقول باسم الله الرحمن الرحيم ثم دخل إلى قبة له من أدم أحمر ، ودعا بخراش لحلق رأسه الشريفة ورمى بشعره فوق شجرة ، فأخذه الناس وتحاصوه وتحللوا من أحرامهم جميعاً ، وبذلك انتهى الأمر ورضى المصطفى .

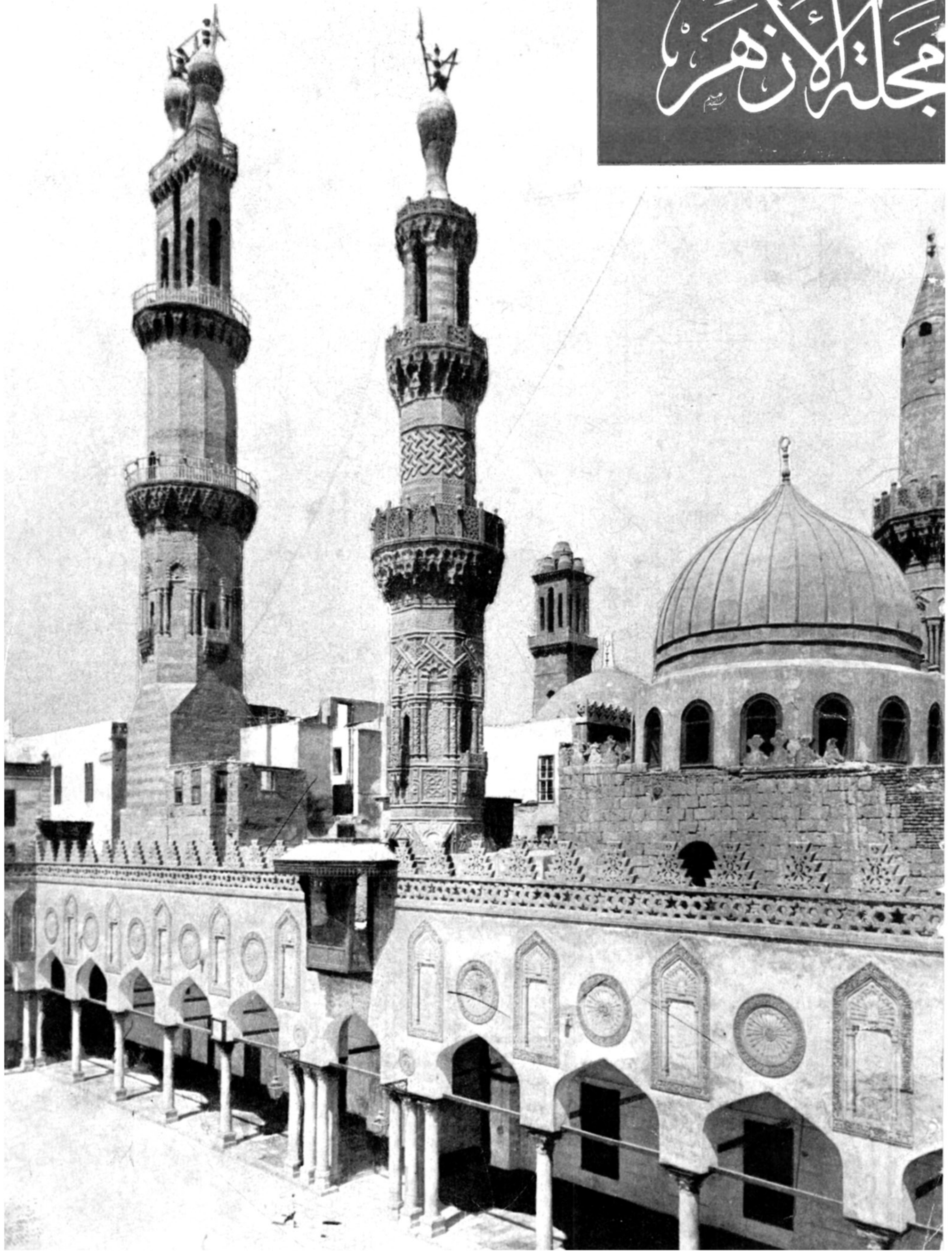
ثم دعا إلى الرحيل وبينا هم فى الطريق بين مكة والمدينة إذا بالوحى ينزل عليه بسورة الفتح .

فكان ما ظنه المسلمون صلحاً مهيناً نصراً مبيناً ، ودعا المصطفى عمر ليقرأ عليه ما نزل ويقول عمر لقد كنت خائفاً من أن يلومنى على موقفى ، فلما قدمت عليه قرأ على السورة ، ففرحت وأيقنت كما أيقن المسلمون جميعاً أن الله ناصر عبده وناشر دينه ، وأن من كان الله وليه فلن يخذله أحد ، وما النصر إلا من عند الله ، يعطيه المخلصين من عباده الصادقين فى دعوته ، الباذلين أرواحهم وما يملكون فى سبيل إعلاء كلمته ، وتحقيق شرعته ، ومن أحق بهذا النصر من حبيب الرحمن ، وعصبته الذين رضى الله عنهم حين بايعوه تحت الشجرة ، فأرضاهم وردهم إلى المدينة والعناية الربانية تحوطهم ، والرعاية الصمدانية تكلؤهم ؟

ولقد كان هذا الصلح فاتحة خير للمسلمين ، ونصراً ورعاية من رب العالمين . إذ ما كاد يشيع أمر وقف القتال بين القبائل العربية حتى كشفت خزاعة عن نيتها ودخلت فى حلف الرسول وزال الحاجز الذى كان يفصل بين المسلمين وكثير من القبائل فاختلطوا بهم ، ووقفوا على سماحة الإسلام وسمو أخلاق الصحابة ، وناقشوا تعاليم الإسلام فى هدوء واطمئنان ، وبهذا الاختلاط زالت غشاوة بغض النبى عن أعينهم ، وأيقنوا أنه ما جاء لقطع صلاتهم أو التفريق بينهم ولمسوا ما عليه المصطفى من خلق عظيم يرتفع إلى الذروة ، وأنهم كانوا ضحية دعاوى كاذبة مضللة ، وتكشفت تلك العظمة الإلهية التى جمل بها مصطفاه من تواضع جم وحب للخير ، وحدب ونبل وحلم يسع الجميع ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

هذه صورة صادقة لما فى الإسلام من سماحة تنفذ إلى القلوب بالرغم عنها وقد تنبه الناس إن طواعية أو كرهاً إلى أن تعاليم الإسلام هى التى يجب أن تسود العالم كله ، ولن تقف فى طريقها تلك العقبات التى يقيمها الغربيون ، وخصوصاً المستعمرين لأن هذه الإحن التى يجتازها العالم الآن من بلبلة الخواطر ، وتقلقل النفوس ، وعدم الاستقرار فى جميع مرافق الحياة ، كلها سترغم الكل على النظر فى تعاليم الإسلام نظرة تكشف لهم وجه الحقيقة ، وتسفر لهم عن حياة كلها دعة وسعادة ، وأمن واستقرار فى ظل تعاليمه السامية ، وتشريعاته الإلهية ، وذلك اليوم قريب إن شاء الله .

مجلة الأزهر





حضرة صاحب الجلالة مولانا « الفاروق » ملك مصر والسودان



حضرة صاحب الفضيلة الإمام الشيخ عبد المجيد سليم
شيخ الجامع الأزهر

بيان

تصدر المجلة اثنى عشر جزءاً فى اثنى عشر شهراً ، منها عشرة أجزاء باللغة العربية ، وجزءان باللغة الإنجليزية لا يوزعان إلا فى البلاد الأجنبية .

لطلاب العلم فى المدارس والمعاهد والجامعات الحق فى اشتراك مخفض قدره ثلاثون قرشاً على أن يدفع مرة واحدة .

يطلب الاشتراك من إدارة المجلة رأساً فى مصر والسودان . ومن المكتبات الكبيرة فى شمال إفريقية والمملكة السعودية وعدن والبحرين ، ومن وكالة فرج الله وفروعها فى بيروت ودمشق وبغداد .

نرجو أن يكون الطبع فى الأعداد التالية أجمل وأجود بعد أن نتلافى ما فى المطبعة من نقص

مدير المجلة ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات بك
العنوان : إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون : ٨٤٥٩٥

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٥٠ في مصر والسودان
٦٠ في الأقطار الإسلامية
٥ ثمن الجزء

الجزء التاسع - القاهرة في غرة شهر رمضان سنة ١٣٧١ هـ ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢ م - المجلد الثالث والعشرون

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد جديد

باسم الله جل اسمه، وعز حكمه، منزل كتابه هدى، ومرسل رسوله رحمة؛

وبهدى صاحب الرسالة محمد صلوات الله عليه، لسان الوحى، ومنهاج الشرع، ومعجزة البلاغة؛

وبعطف صاحب الجلالة الفاروق، ناصر الإسلام، ومؤيد العروبة، وحامى الأزهر، أعز الله نصره، وجمّل بالعلوم والآداب عصره؛

وبتوجيه صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر، الإمام عبد المجيد سليم، شيخ الجامع الأزهر، بقية المتقين من أهل الدنيا، وخاتمة المحققين من رجال الدين؛

تخطو هذه المجلة هذه الخطوة فى سبيل الله، مؤيدة بالحق، مسددة بالصواب، تدعو إلى الله بالدعاء البيّن، وتجادل عن دينه بالقول اللين، وترفع صوت الأزهر ندياً فوق هذه الأصوات المنكرة التى تتخاطب بالحديد، وتتجاوب بالوعيد، وتزعم أن الله مكن أصحابها فى الأرض ليبدلوا حكمه، ويعدلوا نظامه، ويقولوا بسلطان العديد وحجة العدّة: هذا حلال وهذا حرام، وهذا حر وذلك عبد!

وما نريد بالأزهر هذه البنايا ومن يعمرها من أساتذة وطلاب؛ إنما نريد به ذلك التراث النبوى الذى آل اليه واستقر فيه وحُفظ به واستفاض منه؛ ذلك التراث القدسى الذى ضمن الله له البقاء، لأنه ينمو من نفسه كالحى، ويضيء من ذاته كالشمس، ويتجدد من طبعه كالربيع، ويكفل لهذا العالم الذى ضللته الآراء ومزقته الأهواء وفرقته المذاهب، نظاما يجعل الكون كله أسرة، والناس جميعهم إخوة؛ تجد فيهم الفقير ولا تجد المحروم، وترى بينهم الضعيف ولا ترى المظلوم؛ لأن الإسلام جعل بين الغنى والفقير سبباً هو البر، وأنشأ بين القوى والضعيف نسباً هو الرحمة.

فالأزهر بهذا المعنى هو الإسلام تجمعت منابعه الثرة ومشارعه الصافية فى هذه البقعة المباركة من هذه الأرض الطيبة التى شرفها الله بالذكر فى كتابه، وأنذر من أرادها بالسوء شر عذابه. وفى إيثار مصر بهذا الفضل من الله دلالة على ما هيأ لها من أسباب القوة لحفظ دينه وبقاء ذكره. ومصداق ذلك أن القاهرة خلفت بغداد بعد أن دمّر المغولُ العراق، وورثت قرطبة بعد أن مزق الفرنج الأندلس، فكانت للشريعة موئلا، وللعربية معقلا، وللعلماء مثابة. وكان الأزهر يومئذ هو المنارة الهادية فى محيط مكفهر الآفاق بالضلالة والجهالة والعجمة، يرسل النور لامعاً

فى حين ، ومشرقا فى حين ، حتى أراد الله لنوره أن يتم ، ولدستوره أن يسود ، فكانت القاهرة فى العصر العلوى مظهر هذا النور ، وكان الأزهر فى العهد الحديث مبعث هذا الدستور !

ليس الأزهر إذن جامعاً للصلاة كجامع عمرو ، ولا جامعة للعلم كجامعة فؤاد ، وإنما هو فضلا عن التعبد فيه والتعلم به رسالة ودعوة .

هو رسالة ، لأن علماءه بما استُحفظوا من كتاب الله هم ورثة نبيه . ومعنى الوراثة أن تظل الرسالة المحمدية باقية على الدهر يتناقلها الخلف عن السلف لتكون رحمة للناس من كل جنس وفى كل عصر .

وهو دعوة ، لأن الرسالة تقتضى التفقيه فى الدين والإنذار به . وعلماء الأزهر هم الطوائف التى نفرت من كل فرقة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم . فإذا تفقهوا ولم ينذروا أنكروا ما خلقوا له ، وعصوا ما أمروا به .

والأستاذ الأكبر قد فصل هذا الإجمال فى بيانه الذى نشره على الناس ، وكان أول ما عُنى به من وجوه الإصلاح أن وجه همه إلى عملين عاملين : إنشاء مراقبةٍ للبحوث والثقافة ، تنشر أضواء الإسلام بين المسلمين ، وتعقد أسباب الأزهر بالعالم . وتقوية مجلة الأزهر لتكون لسان صدق لدعوته ، وبلاغ حق لرأيه . وذلك عهد جديد لم يكن للأزهر بمثله عهد قديم .

كان الأزهر فى عهوده الغابرة مصباحاً محصور الضوء فى مشكاة ؛ لا يجد الضالون فى بيداء الحياة هدى على نوره ولا أمناً على شعاعه . أما إشراق الهدى المحمدى فى البلاد النائية والأمم الغريبة ، فقد كان من عمل الله لا من عمل مبشر ولا منذر . كان ينتقل من قلب إلى قلب لأنه دين الفطرة ، وينسرب من شعب إلى شعب لأنه دين الحق .

لم يكن للإسلام ما للنصرانية من جماعات تبشر ، ومؤتمرات تقرر ، ومؤسسات تطبب وتعلم ، وحكومات تؤيد وتنظم . ولم يكن لعلمائه ما للقساوسة من المهاجرة فى سبيل الدعوة ، والمغامرة فى نشر العقيدة ، والتدسس إلى الضمائر والقلوب بالكلم الطيب والكرم الصيب والعمل المواسى . وإذا جازت للأزهر هذه العزلة فى عصر مضى ، فلا تجوز له فى هذا العصر الذى أظلم بالبدع حتى اشتبه الطريق ، وتورط فى الأباطيل حتى التاث الأمر ، وانقسم فيه المشرق والمغرب إلى عقيدتين اقتصاديتين تزعم كلتاهما أنها هى وحدها السبيل الواضحة المأمونة إلى سعادة الإنسان وعمارة الأرض . هاتان العقيدتان : الرأسمالية والشيوعية ، وضعهما ابن آدم المادى الصناعى الناقص ؛ فذكر فيهما الهوى ونسى الله ، وأراد بهما الجسد وأغفل الروح . ومن أجل ذلك غلا طغيان القوة ، وعلا سلطان المال ، وبغى شيطان الفرقة ، وآل الأمر بالناس إلى أن يلدوا للجيش ، وينتجوا للسلاح ، فغلب الجوع ، وعم الخوف ، وشاع القلق . وكأنما انتكس الزمان فارتد إلى أوائل القرن السابع للميلاد ؛ فالناس يعانون من عناد الروس والأمريكان ، ما كانوا يعانون من فساد الفرس والرومان .

والإسلام الذى أنقذ الخليقة من ضلال كسرى وقيصر ، حرىّ أن ينقذها مرة أخرى من غى الرئيس (الأبيض) وبغى الرفيق (الأحمر) !

والأزهر بحكم وراثته للنبوة وخلافته للرسالة مكتوب عليه أن يحاول هذا الإنقاذ . ولن تتهيأ له وسائله إلا إذا وصل علماؤه أسبابهم بأسباب الرسول ، ففهموا الكتاب كما أنزل عليه ، وفقهوا السنة كما صدرت عنه ، وتجملوا بما تجمل به من أخلاق العظمة ، وتحملوا ما تحمله من مكاره الدعوة ، واعتقدوا أنهم جنود الله يرمى بهم عدوه فى كل وقت ، وفى كل أرض ، وعلى أى صورة ، فيعيشون للموت كالجند ، ويعملون للحياة كالقادة ، ويعزفون عن الدنيا كالرسل .

على أن اختلاف الزمن ، واتساع الرقعة ، ونضوج العقل ، وتقدم العلم ، وتطور النظم ، وتعقد الاجتماع ، وتعدد المذاهب ، توجب أن تكون وسائل الدعوة اليوم أقوى وأنفذ منها بالأمس . وخطاب الناس على قدر عقولهم وعلومهم من أدب الرسول . واستعانة الجدليين الأقدمين بفلسفة الإغريق ، قدوة لعلمائنا المحدثين فى الاستعانة بعلوم الفرنج . وثقافة الأزهر مشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة ؛ فمتى تتصل بتيار الفكر الحديث تتفاعل هى وهو فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره .

إن العالم بعد أن كابد ما كابد من مادية العلم وآلية المدنية أخذ يرجع منسرق القوى منقطع الرجاء إلى أحضان الدين . ظهر ذلك ظهور الأمر العجيب فى أوربا وأمريكا ، فرأى الناس فى الأدب والفن والتعليم نزوعا إلى الروحية جرى على ألسنة الأبطال فى القصص ، وغلب على مصادر الالهام فى الشعر ؛ ووجدوا فى الأدباء الأحياء الذين أنغضوا رءوسهم إلى الدين من قبل ، من أناب إلى الله كالشاعر (توماس إليوت) والكاتب (جراهام جرين) ، فنشدوا العزاء فى الإيمان ، وعقدوا الرجاء فى الروح . وإنا لنجد هذا النزوع الروحى على أعمه وأتمه فى أدباء الشرق عامة ، وفى كتاب مصر خاصة . وحسب المراقب نظرة عجلى إلى هذه الجماعات التى تحمل اسم محمد ، وإلى هذه المجلات التى تدعو دعوة محمد ، وإلى هذه المؤلفات التى تشرح رسالة محمد ، وإلى هذه الأفلام التى تصور جهاد محمد ، ليرى أن الفلك قد استدار ، وأن الطريق قد استبصر ، وأن العقل قد اهتدى ، وأن الغيث الالهى الذى جاد النفوس بعد جفاف ، وأخصب القلوب بعد إمحال ، إنما هو إيذان من العليم الخبير الذى يعلم من خلق ، ويخبر ما أنشأ ، باتصال الأرض بالسماء ، واتحاد المادة بالروح . ويومئذ يتغير ما بالأنفس فيغير الله ما بالقوم ؛ ويتطهر ما بالقلوب فيطهر الله ما بالمجتمع .

وليس على الأزهر فى هذه الحال إلا أن يطلق النور من كواه ، ويدل العيون على منار الإسلام وصواه . أما الهداية فمن الله ، وأما النهاية فللحق . ولا بأس على الإسلام أن تطير النِّحل الفاسدة على جنباته ؛ فإن له من ديمقراطيته الأصيلة ، واشتراكيته المعتدلة ، وأخوته الشاملة ، مناعة من كل سوء ، وأمنة لكل جنس ، ومودة لكل دين . والله سبحانه كفيل أن يظهره على الدين كله ؛ فان انتصاره انتصار للعقل ، وانتشاره انتشار للعدل ، وسيادته سيادة للسلام

أحمد حسن الزيات

التقوى في القرآن

لصاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت

عضو جماعة كبار العلماء

هدى القرآن :

بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما » ١٠ - الإسراء .

يهدى للتى هى أقوم فيرشد فى العقيدة إلى ما يطهر القلب من الشرك والوثنية ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ويهدى للتى هى أقوم فى الأخلاق ، فيرشد إلى ما يزكى النفوس ويصلح من شأن الفرد والجماعة ، ويربط الناس برباط الرحم الإنسانى العام ، وذلك كالحلم ، والرحمة ، والصدق ، والصبر والوفاء ، والإحسان ، والجود ، وما إلى ذلك من الأخلاق التى لها الأثر الصالح فى تحقق الغرض السامى من جعل الإنسان خليفة فى الأرض يعمرها وينميها ، ويصل بها إلى الكمال المقدر لها فى نظام خالق الأرض والسموات .

ويهدى للتى هى أقوم فى تنظيم الأسرة والجماعة فيضع الأحكام العملية ، أو يضع أصولها ، ويكلف الناس اتباعها فى تنظيم علاقتهم به سبحانه وتنظيم ما بينهم من علائق وصلات ، ومن ذلك أن عرض القرآن الكريم لأصول العبادات التى يغذى العبد بها إيمانه ، ويكون له منها سبيل لمراقبة مولاه واستشعار عظمته . وعرض لأحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ، ونفقة ، ورضاع ، ونسب ، وعدة ، ووصية ، وإرث ، وما إلى ذلك مما يدخل فى دائرة الأحوال الشخصية وتنظيم الأسرة الإنسانية الفاضلة . وعرض لأحكام البيع ، والإجارة ، والرهن ، والمداينة ، والتجارة ، وما إلى ذلك مما يدخل فى دائرة المعاملات المالية التى هى عصب الحياة الاجتماعية القوية . وعرض لأحكام الجنايات كالقتل ، والسرقة ، والإفساد فى الأرض ، وهتك العرض ، والقذف وما إلى ذلك مما يدخل فى دائرة الجنايات ، ويقى المجتمع شرور المآثم ، ومعاول الهدم والفناء . وعرض لأحكام الحرب والسلم وما يتبعهما من غنائم ، وأسرى ، ومعاهدات ، مما يدخل فى دائرة الأحكام الدولية العامة ، وبه تحفظ الأمة عزتها ومكانتها بين الأمم . وعرض بعد ذلك كله لأصول الحكم ، ومصادر التشريع مما يدخل فى دائرة تنظيم إدارة الجماعة الإسلامية ، والتشريع لما تقتضيه أحوالها فى دائرة ما رسم الله من ذلك .

حثه على النظر فى الكائنات :

ويهدى للتى هى أقوم من وجـــوه العظة والاعتبار التى يترسمها الإنسان فى حياته ويجعلها مناراً يسترشد به كلما نزل به خطب ، أو انحرفت به سبيل ، وذلك بأمرين كثيراً ما عنى القرآن بهما ، ولفت الأنظار إليهما .

أولهما : الإرشاد إلى النظر والتدبر فى ملكوت السمٰوات والأرض وما خلق الله من شىء ، لتعرّف أسرار الله فى كونه ، وإبداعه فى خلقه ؛ فتمتلىء القلوب إيماناً بوجوده وعظمته ، عن نظر واستدلال ، لا عن تقليد واتباع . وقد نعى القرآن كثيراً على هؤلاء الذين أهملوا عقولهم ، وألغوا فى أنفسهم خاصة الإنسان ، خاصة النظر والفكر ، وراحوا يقلدون الآباء والأجداد ، فى عقائدهم ، وعباداتهم ، وعاداتهم ، ولوكان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

وبهذا الإرشاد فتح القرآن للناس باب البحث فى الكائنات ، والوصول إلى خواص الأجسام فى الأرض والسماء ، والماء والهواء ، لكى ينتفعوا بها فى حياتهم ، ويستخدموها فى التعمير والإنشاء ويكون ما يصلون إليه من ذلك وينتفعون به فى حياتهم الدنيوية مظهراً من مظاهر رحمة الله بالعباد .

القصص القرآنى والغرض منه :

وثانيهما : قصص الأولين ، أفراداً وأمماً ، محسنين ومسيئين . وقد أورد القرآن من ذلك ما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد إلى تعرّف سنن الله التى ارتبطت بها معاملته لعباده وما كان لهم من عاقبة .

ونبادر فنقرر هنا أن مقصد القرآن من ذكر قصص الماضين لا يعدو الإرشاد إلى موضع العظة والاعتبار ، وإلى أن سنة الله فى معاملة خلقه سنة واحدة ثابتة فى جميع الأجيال والعصور وفى جميع الأجناس والأقاليم ، وأنها تسير بالناس على النظام الذى قدر لها من يوم أن خلق الله السموات والأرض ، وهى فى ذلك لا تحابى جنسا على جنس ، ولا طائفة على طائفة ، فالكل عباد الله وهى سنة الله لعباد الله فمن شاء اتخذ إلى سنة الخير سبيلا ، ومن شاء اتخذ إلى سنة الضلال سبيلا .

ولم يذكر القرآن هذا القصص على أنه تاريخ يحدّد الزمان والمكان ، ويعيّن الأشخاص ، ويرتب الوقائع ، ويبين الأسباب والنتائج على نحو ما يألفه الناس من التاريخ وكتب التاريخ ، ولقد تكرر فى القرآن ذكر القصة الواحدة نزولا على ما يقضى به السياق من جانب إحدى العظات التى تضمنتها القصة أو تشير أحداثها إليها ، وتبع ذلك الاختلافَ شىء من الاختلاف فى التصوير والعبارة . وعلى الرغم من هذا ومن وضوحه فى القرآن الكريم قد شغل كثير من المفسرين أنفسهم ، وشغلوا الناس معهم بتحميل الآيات القصصية ما لم يرده الله منها ، وبذلك صرفوا الناس عن مقاصد العظة والاعتبار وبقيت الآيات تتلى ، لا ينتفع بها مؤرخ فى تحقيق

تاريخى ولا ينتفع بها مؤمن فى عظة نفسية أو اجتماعية، شأن المتكلمين، والفقهاء، والنحاة، والبلغاء فى تناولهم تفسير القرآن مع إهمالهم جوانب التزكية النفسية والإرشاد إلى ما تطلبه الحياة ويشير إليه القرآن من وسائل السعادة. شغلت كل طائفة من هذه الطوائف نفسها وشغلت الناس معها فى صرف القرآن عن هدايته العامة، الثابتة، المطردة، إلى وجوه من النظر والجدل، لا يبتغون من ورائها سوى أن القرآن يؤيد رأيهم، أو يشهد لمذهبهم أو أنه ينطبق على ما وضعوا للنحو والبلاغة من قواعد، وما إلى ذلك مما لا يدخل فى دائرة التى هى أقوم، التى يهدى إليها القرآن.

هذا وقد ضل فريق من الناس فحملوا القصص القرآنى على التخييل والتمثيل الذى لا واقع له فى الحياة، وزعموا أنه إنما قصد به غرس فكرة وراء ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة، أو مشايعة الواقع النفسى الذى كان سائداً عند الحاضرين استغلالا لمعلوماتهم — وإن لم تكن صحيحة - فى سبيل تأييد الدعوة التى جاء بها القرآن، وبذلك عرض هؤلاء القرآن لما تأباه قدسيته ويأباه صريح آياته.

عبارات القرآن عن هدى القرآن:

هذا الذى يهدى إليه القرآن فى ظاهر الحياة وباطنها، فى العقائد والعبادات، فى سنن الله الكونية، فى سننه الاجتماعية، ويطلب من عباد الله أن يتخذوه سبيلا لسعادتهم فى الدنيا والآخرة، فى أنفسهم ومجتمعهم - هو ما يعبر عنه القرآن كثيراً «بالإيمان والعمل الصالح». ويعبر عن امتثال الأمر فيه، والأخذ به، والتزامه، بكلمتى: «الإحسان والتقوى». ويعبر فى مقام التنويه بشأن القائمين به، العاملين عليه، فيما يختص بمكانتهم من عز الحياة وسعادة الآخرة بكلمات: «المؤمنين»، و«المحسنين»، و«المتقين» تنفرد الواحدة منها مرة، وتجتمع مع صاحبة لها أخرى، وذلك إشارة إلى ما بينها من تضامن وتعاون فى تقرير مبدأ السعادة التى رسمت سبلها هداية القرآن الكريم.

وإن من يتتبع هذه الكلمات ذات الأثر المادى والروحى فى العالم ليجد أوسعها شمولا، وأبعدها مرمى، وأعمقها فى سر الإصلاح كلمة «التقوى». يقيد بها الإيمان، ويؤكد بها الإحسان، وكأنها الأساس الذى يحفظ للإيمان كيانه، وللإحسان جوهره؛ فهى بمادتها، تصور الكمال الإنسانى فى قوتيه: العلمية والعملية، الذى ربطت به سعادة الإنسان فى دنياه وأخراه، ولا نجد كلمة تبعث فى القلوب معانى الخير، وتملأ النفوس سكينة وطمأنينة، وتجعل الإنسان فى حصن من عوامل الأذى والسوء، ومنابع الشرور والمآثم مثل كلمة «التقوى».

«التقوى» فى القرآن الكريم:

وقد رأيت أن يكون أول ما أطالع به قراء مجلة الأزهر فى عهدها الجديد، فى جانب الحدث عن موضوعات القرآن، وما يهدى إليه القرآن، هو موضوع «التقوى فى القرآن الكريم» راجياً من الله أن يجعل تقواه بمثابة عهد بيننا وبينهم

فيما نكتب وفيما يقرأون ، يتعاون به الفريقان على ما يحب الله لعباده من خير وسعادة ، وإخلاص وصفاء ، على أساس من البر والتقوى.

« التقوى » من الكلمات التي ظلمها الناس :

ويجدر بنا أن نشير قبل الكلام على « التقوى » في القرآن ، إلى أن كلمة التقوى مع مالها من المعنى المحقق لعوامل الخير . القاضي على عوامل الشر في جميع نواحي الحياة - من الكلمات التي ظلمها الناس فسلخوها عن معناها العظيم إلى معنى دونه يأبى كثير من الناس أن يضاف إليه أو يوصف به ، وقد قرر الغزالي رحمه الله أن كلمات : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة ، قد حرفت عن معانيها المحمودة ونقلت في عرف الناس إلى أخرى مذمومة ، وصارت القلوب تنفر ممن تطلق عليهم هذه الكلمات .

والفقه :

صارت كلمة « الفقه » فيما قرره الغزالي إلى « تفريعات الطلاق ، وصور الأيمان والعتق المفروضة ، ووجوه السلم ، وغير ذلك مما لا يحصل به إنذار ولا تخويف ؛ بل مما كان التجرد له ، والاستكثار منه ، وحفظ المقالات المتعلقة به يقسي القلب ، وينزع الخشية منه ، صارت إلى هذا بعد أن كانت عنوانا على معرفة دقائق آفات النفس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة مع امتلاء القلب بخوف الله ورجائه .

والعلم :

وصارت كلمة « العلم » فيما قرر إلى الاشتغال بمناظرة الخصوم في المسائل الفقهية والكلامية ، فيقال هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل في العلم لمن يتقن هذا النوع من المناظرة ، أما الذي لا يمارسه فإنه لا يعد في زمرة أهل العلم » .

صارت كلمة « علم » في عهد الغزالي إلى هذا بعد أن كانت خاصة بإدراك جلال الله وجماله ، عن طريق تفهم أسراره في الخلق ، واستشعار عظمته . وقد بعد التحريف لكلمة « العلم » في عرف الذين جاءوا من بعده ، وصارت الكلمة إلى الاشتغال بتحليل عبارات المؤلفين المعقدة ، والاستكثار من الأسئلة والأجوبة حول صحتها وفسادها ، ومنطوقها ومفهومها ، وصريحها وإشارتها ، وغير ذلك مما لا يمت بأوهى الأسباب إلى معنى كلمة « العلم » الذي عرفه الأوائل ، ودل عليه القرآن ، وأرشدت إليه درجات الذين أوتوه عند الله .

والتوحيد :

وصارت كلمة « التوحيد » اسماً « لصناعة الكلام ، ومعرفة طرق المجادلة ، والقدرة على التشدق بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات ، وتأليف الإلزامات ، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف شيء منه في العصر الأول ؛ بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والمماراة ، وكان التوحيد عندهم عبارة

عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به ، وهوأن ترد الأمور كلها لله ، وأن يُرى أنه الصمد المعبود الذى لا يعبد غيره ، ولا يستعان بسواه ؛ فالتوحيد منبعه القلب ، ومترجمه اللسان والعمل » .

والتذكير :

وصارت كلمة « التذكير » إلى « ما اعتاده أكثر الوعاظ فى هذا الزمان من القصص والأشعار والشطح بعد أن كان اسماً للتذكير بعيوب النفس وآفات الأعمال ، ومداخل الغرور والشيطان إلى القلب ، والتذكير بنعماء الله وآلائه .

والحكمة :

وصارت كلمة « الحكمة » إلى « الطب ، والشعر والتنجيم » ، والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها بقوله « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » .

تحدث الغزالى عن ذلك كله فى سياق حديثه عن تلبيس علماء السوء ، وجعل من وسائل هذا التلبيس نقلهم الألفاظ التى شرف معناها ، ونبلت غايتها ، إلى ما رأوا من المعانى التى تحقق لهم أغراضهم فى صرف الناس عن لب المعارف ، وجوهرها الصافى ، حتى لا يرونهم وهم يختفون خلفها فى الوصول إلى ما يبتغون .

التقوى أشدها ظلماً :

وإذا كان الغزالى قد رأى ذلك فى تلك الكلمات ، وأن الناس حرفوها بأغراضهم الفاسدة إلى معان ومدلولات ، هى دون ما عرف لها من معان ـ فإنى أرى أن ما أصاب هذه الكلمات فى رأى الغزالى وفى زمنه من هذا التحريف السقيم والتصوير الفاسد قد أصاب كلمة « التقوى » ؛ بل أقرر أن ما صارت إليه كلمة التقوى أبعد عن الحقيقة وأبعد فى الذم ، مما صارت إليه هذه الكلمات التى لم تقطع صلة معانيها الجديدة بمعانيها الأصلية ، والتى لم ترد فى القرآن على هذا النحو الكثير ، البيِّن ، الواضح الذى وردت به كلمة التقوى ، وحدّد سمو معناها ، وعظم آثارها ، وكانت به جديرة أن تظل فى حصنها المنيع ووقايتها القوية ، من أن ينالها تحريف أو تبديل ؛ ولكن يبدو أن موجة التحريف قد اشتدت وطغت حتى استطاعت نقل كلمة « التقوى » من حصنها المنيع ، إلى هذا الذى صارت إليه فى تقدير الناس وعرفهم ، صارت إلى مزيج كريه تتألف عناصره من همهمة ، وتسبيح ، وانحناء ، وتماوت فى المشية والكلام ، تصحبه نظرات خاصة ، وسمت خاص ، وكلمات معينة ، ترسل فى مناسبات معينة ، مع تكلف التحسّر والتباكى ، على الأخلاق ، وعلى الدين . ومع شدة اللوم والتقريع لكل من تحدثه نفسه بالخروج على هذا المزيج فى شىء من مظاهره التى حُدد بها معنى « التقوى » أو جعلت علامة عليها .

ظالموها :

صارت كلمة التقوى إلى هذا المزيج الكريه الذى ألف عناصره صنف من الناس ، يدعون لأنفسهم الاختصاص بالغيرة على دين الله ،

وعلى أحكام الله ، ويلوحون فى وجوه الناس بهذه الصورة الجافة ، الجامدة ، الرهيبة ، التى لا تسمح بتفكير ولا مناقشة ، ولا مخالفة ، فى شىء مما رسموا لأنفسهم . وقد أحدثوا بنزعتهم تلك ، انقساماً وتفرقاً فى صفوف المتدينين ، واحتكروا الحكم على عباد الله فى الدين ، وأخرجوا جميع من سواهم من صفوف المتقين ، حتى نفروا الناس من معنى الدين ، ومن معنى التقوى ، وصارت « التقوى » ، ذات الجلال والجمال من الكلمات التى يأنف كثير من الناس أن يوصف بها أو تطلق عليه . ولكن من حسن الحظ أن هذا التحريف الذى أصابها اقترن فى نفوس أربابه بما يدل على فساده ، اقترن بكثير من الخلال الفاسدة التى تأباها الإنسانية الفاضلة ، والصبغة النقية البريئة ، ويمقتها دين الله ؛ وتجعلهم فى منأى بعيد عنه فهم لا يعرفون التقوى ولا الحلم ولا الصفح ، ولا المودة ولا الرحمة ، ولا البذل ولا العطاء ، ولا التعاون فى بناء المجد وتقدم الأمة ، ولا غير ذلك من الأخلاق الفاضلة التى جاء الدين لتقويتها ، وتركيزها ، وإتمامها ، كعمد قوية للإصلاح البشرى فى فرده ومجتمعه .

ما أبعد « التقوى » عن هذه المظاهر التى يحاول أرباب الأغراض الفاسدة أن يضعوها بإزائها ، ويجعلوها عنوانا لها ودالة عليها ! إنها بعيدة عنها فى معناها ، فى بواعثها ، فى مظاهرها ، فى أثرها النفسى والقلبى ، فى أثرها المادى ، فى جزائها الأخروى عند الله .

مواطن الحديث عنها فى القرآن :

تحدث القرآن عنها هكذا فى معرض دعوة الخلق إلى الهداية الإلهية ، وفى معرض الهدى والفلاح ، وفى معرض البر والصدق ، وفى معرض النصر والتأييد ، وفى معرض الولاية بين الله وعباده ، وفى معرض حصانة النفس من نزغات الشيطان والهوى ، وفى معرض النفع والانتفاع ، وفى معرض تفريج الأزمات وحل المشكلات ، وفى معرض الرحمة الإلهية الخاصة ، وفى معرض السلامة من آثار الفتن العامة ، تطهر النفس من آثار السيئات ، وفى معرض التيسير للخير ، وفى معرض التمتع بخيرى الدنيا والآخرة ، وعلى الجملة تحدث عنها فى معرض السلامة من كل شر والحصول على كل خير . وموعدنا بتفصيل الشواهد القرآنية على كل ذلك العدد المقبل إن شاء الله ؟

محمود شلتوت

* وعظ مالك بن دينار عظة مؤثرة أبكت الحاضرين فلما فرغ افتقد مصحفه فلم يجده فأقبل عليهم يقول : كلكم تبكون فمن سرق المصحف !

---

* المتصل بمال السلطان كالسفينة فى البحر ، إذا أخذت منه فى جوفها أخذها فى جوفه .

---

* الدنيا كالماء الملح ، كلما ازددت منه شرباً ازددت منه عطشاً .

مناهج البحث عند المسلمين

للدكتور أحمد أمين بك

هناك منهجان مختلفان متعاندان : منهج الفقهاء ومنهج الصوفية . وذلك من ناحيتين : الأولى من ناحية العقيدة ، فعقيدة الفقهاء تقول : بإثنينية الوجود إن صح هذا التعبير : العالم والله ، أو المحكوم والحاكم ، أو المدبَر والمدبِّر . واجب الوجود وهو الله ، وجائز الوجود وهو العالم . والله فى العالم كإرادتنا فينا ، يسيره ويسخره . وأما عقيدة الصوفية غالباً فوحدة الوجود . ومن هنا قال بعض الصوفية : أنا الحق ، وما فى الجبة إلا الله . وقال الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتنى
وإذا أبصرتنى أبصرتنا

والعالم كله هو مظهر الله تعالى يتشكل حسب استعداده من جماد ونبات وحيوان وإنسان .

ومن ناحية أخرى منهج البحث مختلف ، فالفقهاء يعتمدون على المنطق من مقدمات ونتيجة وقياس الخ ، فإذا قرأت مثلا فى كتاب الزَيلعى أو البحر الرائق لابن نجيم ، رأيتهما يؤيدان مذهب إمامهما إما بالحديث أو بالحجج المنطقية . والعلم عندهم يعتمد على ما يدل عليه المنطق .

أما الصوفية فيعتمدون على الذوق والكشف والإلهام . فهم أرباب مشاعر ، لا أرباب عقل ومنطق .

ويسمى الفقهاء أرباب الشريعة والصوفية أصحاب الحقيقة . وعند الفقهاء يحصل العلم بالجد والبحث ، وعند الصوفية تحصل المعرفة برياضة النفس .

وقد كان نشاط الفقهاء كبيرا فى الاعتماد على الظواهر ، وقد فصلوا تفصيلا تاماً فى بيان أحكام الشعائر من الوضوء والصلاة والزكاة والصوم ، ومتى يكون كل منها صحيحاً ، ومتى يكون كل منها باطلا . على أنهم غلوا فى بعض الأشياء كدراسة كيفية الحيل للهروب من أدائها . وقد ألفوا الكتب المختلفة فى ذلك وسموها كتب الحيل .

أما الصوفية فقد غلوا فى المسائل النفسية من مقامات وأحوال ومحاسبة النفس على هواجسها والحب لله والفناء فيه ونحو ذلك . حتى لم يأبَه بعضهم بالشعائر الظاهرة .

ومن أجل غلو الطرفين فى منهجه كان بينهما العداء الشديد على اختلاف العصور ، وخصوصاً بين الحنابلة والصوفية . وقد ظهر ذلك على أشده فى العداء بين الفقهاء وغلام الخليل . وعُنى الصوفية بالزهد ، ولم يكن هناك بأس عند الفقهاء من الاهتمام بالدنيا وجمع المال من طريق القضاء وغيره . وبلغ العداء بين الفقهاء والصوفية منتهاه فى محنة الحلاج . والحلاج كان فارسىّ الأصل من بلدة فى فارس تسمى بيضاء ، نسب إليها البيضاوى المشهور صاحب التفسير . وقد ولد سنة ٢٤٤ ، ونشأ بواسط فى العراق . ويظهر أنه كان حادّ المزاج ، غريب الأطوار . يشبه من أصيب بما نسميه الآن « هستريا » ، بدأ فى التصوف وعمره ستة عشر عامًا ، وتتلمذ للتسترى ، ثم وصل إلى بغداد ، وأقام بها

ثمانية عشر شهراً. ثم تتلمذ على الجنيد، وأقام بمكة نحو سنة، واتهم فى مكة بأنه يعارض القرآن، ففر منها، ورحل إلى خراسان وماوراء النهر، وظل فى رحلته هذه نحو خمس سنين. ثم حج ثانية وعاد إلى بغداد وبنى له فيها داراً. ثم رحل إلى الهند، وتعلم فيها السحر الهندى، ثم حج للمرة الثالثة، وأقام بمكة سنتين، ثم عاد إلى بغداد، ثم زار فارس، وزار بها « قم » مركز الإمامية. وادعى أنه وكيل الإمام. وفى سنة ٢٩٧ أفتى ابن أبى داود الظاهرى بكفره لكلامه فى الحب الإلهى، ففر إلى الأهواز واختفى بها، واتهم فيها بدعوى الألوهية. ثم تنقل بين السجون المختلفة سبع سنوات. ومع ذلك استمر فى الدعوة وآمن به بعض الشخصيات البارزة فى البلاط. وأخيراً استجوب وحكم عليه بالإعدام والتمثيل به وإحراقه وإلقاء ما بقى من جسده من رماد فى نهر الفرات. فهو حيث حل كان يتهم بالزندقة، وكان يرحل رحلات كثيرة لبث دعوته، وأخيراً قبض عليه وحبس ولم يكن فى حبسه مضيقاً عليه، فكان يسمح له أن يزار، وأن يرسل الخطابات إلى من يشاء. وكانت محاكمته أمام مجلس من الفقهاء يرأسهم أبو عمر القاضى. وانعقدت الجلسة ونودى على المتهم، وسئل عما اتهم به من أنه إله، وأنه يحيى الموتى، وأن الجن تخدمه، وأنه يأتى بالمعجزات، فأنكر هذه التهم، وقال: أعوذ بالله أن أدعى الربوبية أو النبوة، وإنما أنا رجل أعبد الله وأكثر الصلاة والصوم وفعل الخير.

ونودى على الشهود فشهدوا عليه، فحكم القضاة عليه بحل دمه، ووقع على هذا الحكم الخليفة، وربما كان الشهود كاذبين، وربما كان قتله سياسة للعداء الشديد بين الخلفاء العباسيين والشيعة.

وعلى كل حال فقد كانت مقابلة الحلاج للعقوبات والاتهام مظهراً رائعاً من مظاهر الشجاعة، فقد ضرب مئات من الأسواط ولم يتأوه، وظهرت عليه علامات الفرح، وأنه سيتجرد من بدنه، ويلاقى ربه. ولئن مات فقد بقيت فكرته حية يعتنقها الناس على توالى العصور. فالفكرة إذا اضطهدت نمت.

* * *

وظهر الخلاف على المسرح ثالثة فى عهد صلاح الدين عند ظهور السهروردى فقد شنع الفقهاء على السهروردى، واستحثوا صلاح الدين على قتله فقتله. والظاهرة التى نراها تحيز الخلفاء للفقهاء ضد الصوفية المخلصين. وربما كان سبب ذلك أمرين: الأول أن الصوفية المخلصين لا يعرفون ملقا، ولا يؤمنون بسلطة إلا لله. والثانى أن الصوفية يزهدون فى الدنيا. ولو عم مذهبهم لوقفت الأعمال، وكلا السببين لا يحبه الخلفاء. فقد كان ابن تيمية الفقيه المشهور حربا على الصوفية ومذهبهم. ندد بهم فى كتبه كثيراً. وكان شديد اللهجة.

والذى حاول التوفيق بين الفقهاء والصوفية هو الغزالى. فقد كان فقيها وصوفيا معاً، وألف كتابه الإحياء على هذا الأساس، أى على أساس

الاحتفاظ بظواهر الشعائر ، كما يقول الفقهاء ، والعناية بالنفس وصفائها ومحاسبتها ودرجاتها ، وحب الله كما يقول الصوفية ، وربما كانت هذه المحاولة من الغزالى سبباً فى التقريب بين الطائفتين إلى اليوم .

* * *

وهناك منهجان مختلفان أيضا للمسلمين ، وهما منهج المتكلمين ومنهج الفلاسفة . فمنهج المتكلمين ، حين يتحدثون إلى العامة ، تأييد العقيدة بعد اعتناقها ، فهم يؤمنون بالإسلام أولا ثم يبحثون عن البراهين التى تؤيده . ولما رأوا أن المخالفين من يهود ونصارى ووثنيين قد تسلحوا بأسلحة جديدة من الفلسفة اليونانية وغيرها ، تسلحوا هم أيضاً بها . وكان أظهر هؤلاء المتكلمين هم المعتزلة ، وقليل منهم من أهل السنة ، وهؤلاء المتكلمون كانوا أول أمرهم يمزجون علم الكلام ببعض المسائل الفقهية ثم تجردوا من الفقه ، وبحثوا فى مسائل دنيوية لا تتصل بالعقيدة اتصالا مباشراً ، كبحث النظام فى الذرة والطفرة وشم الروائح والبصريات ونحو ذلك .

أما الفلاسفة ، فقد كانوا يرون الدخول على الموضوع من غير عقيدة سابقة ، بل يسيرون فيه حسبما يؤديهم إليه البحث ، فقد يؤدى إلى أسود أو أبيض حسب البرهان . نعم إن بعضهم كان يحاول التوفيق بين ما يظهر لهم أنه الحق ، وبين العقيدة الإسلامية ، ولكن هذا على خلاف المنهج الذى وصفوه .

ومن أجل هذا كان هناك عداء بين المتكلمين والفلاسفة ، كالذى تراه فى هجاء الجاحظ المتكلم للكندى الفيلسوف .

* * *

وكان هناك خلاف ثالث بين الفلاسفة والصوفية ، فالفلاسفة يعتمدون على العقل والبحث ، والصوفية يعتمدون على الذوق البحت . وواسعو النظر يرون أن الطريقين يوصلان إلى غاية واحدة ، وهى معرفة الله . كالذى يحكى أن ابن سينا الفيلسوف وابن أبى الخير المتصوف اجتمعا وانتظرهما تلاميذهما نحو ثلاثة أيام ، ثم انفصلا ، فسأل تلاميذ ابن سينا أستاذهم : ما رأيك فى ابن أبى الخير ؟ فقال ما أعرفه يراه . وسأل تلاميذ ابن أبى الخير أستاذهم : ما رأيك فى ابن سينا ، فقال : ما أراه يعرفه .

والقصة وإن كان يظهر عليها أنها موضوعة . تمثل الفرق بين المنهجين ، ومن أجل ذلك لم أستطع أن أفهم أن يجيد الرجل الفلسفة والتصوف معا ، فالقوة فى أحد المنهجين تضعف الآخر ، فما حكى عن ابن سينا من أنه كان له باع فى التصوف مع الفلسفة أشك فيه . فهو فى نظرى فيلسوف كبير ، ومتصوف فقير . وكالذى حكى عن ابن خلدون ، فقد ألف فى ناحية الاجتماع ، وكان فى ذلك كبيرا ، ثم قرأت له فى التصوف رسالة مخطوطة فرأيتها لا قيمة لها فى التصوف ، وكل ما فيها من جديد عندى هو البحث فى أن التصوف هل لابد له من شيخ يؤخذ عنه ، أم يمكن المريد أن يستمد التصوف من الكتب ، وقد بحث هذه المسألة بحثا عقليا لا صوفيا .

وهناك خلاف آخر يظهر على أتمه بين المتكلمين من المعتزلة والمحدثين. فالمتكلمون المعتزلة يقولون بسلطان العقل لا إلى حد، بعد اعترافهم بألوهية الله ورسالة رسله، حتى ما يروى من الأحاديث يحكم فيه العقل، ولا يؤمنون بشيء إلا عن تجربة ودلالة عقل.

ولذلك يفسرون آية «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»، بأن الرسول هو العقل، وينكرون كثيراً من الخرافات والأوهام. فهم يرون أن الجن لا ترى اعتمادا على قوله تعالى. «إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم»، وينكرون السحر والشعوذة ونحو ذلك، ولأبى هذيل العلاف والنظام والجاحظ جولان كبير فى هذا الميدان.

أما المحدثون فيعتمدون أكثر ما يعتمدون على صحة النقل وعدالة الراوى، فإن عبرنا عن منهجيهما فى كلمة، قلنا إن المعتزلة عقليون، والمحدثين نقليون.

وقد ساد منهج المحدثين من عهد المتوكل لما نكل بالمعتزلة وأعلى شأن المحدثين، مجاراة للرأى العام، ولذلك نرى أن العلوم الإسلامية على اختلاف أنواعها تعتمد على النقل أكثر مما تعتمد على الابتكار. ونرى احترام عبارات المؤلفين وتأويلها مهما ظهر خطؤها، وهذا ضد منهج المعتزلة.

* * *

هذه هى المناهج المختلفة للمسلمين: منهج منطق، ومنهج شعور، ومنهج متدين، ومنهج حر، ومنهج نقلى، ومنهج عقلى، وقد لعبت كلها فى المسلمين، وأثرت فى خلافاتهم واختلاف عقلياتهم مما أدى إلى كثرة تنازعهم.

وحتى أصحاب المنهج الواحد كان بينهم خلاف شديد، كالذى حدث بين الشافعية والحنفية، وبين الشافعية والحنبلية، فقد حكى لنا ياقوت فى معجم البلدان، أن كثيراً من البلدان خربت، ومن الأرواح أزهقت، بسبب العصبيات بين هذه المذاهب، فى الشرق والغرب، فى العراق والأندلس، فى مصر والشام.

* * *

وتسألنى بعد ذلك: أى هذه المناهج يناسب العصر الحاضر، وأيها يتفق وعقل الجامعات وطريقة بحثهم وتفكيرهم، فأقول ربما كان أقرب المناهج إليهم هو الذى يأخذ من هذه المناهج كلها أحسن ما فيها، ويكون أساسه عدم التسليم المطلق للقدماء مهما كانوا، فقد يخطئون. فمهما قال فلان المجتهد فكلامه محتمل للصحة والخطأ، ومهما قال أرسطو فكلامه محتمل للصدق والكذب، وكما قال الجاحظ: «قد يخطىء أرسطو ويصدق أعرابى بدوى، ذو ثياب مهلهلة». وذلك عكس ما كان يفعله أهل القرون الوسطى من تقديس أرسطو تقديسا لا حد له، حتى إنه قال: «إننا إذا رمينا شيئين مختلفى الوزن من مكان عال سقطا على الأرض فى وقت واحد، فصدقوه فى قوله»، وإن دلت التجارب على كذب ما يقول. والله يهدينا جميعا إلى الصواب ؟

أحمد أمين

حَدِيثُ الإِسْرَاء

لصاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن
وكيل الجامع الأزهر

« سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ »
« الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا »
« حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »

آية قصيرة من كتاب الله تعالى ، تجلت فيها عظمة الله ، ومظاهر إكرامه وتأييده لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، بما أفاض عليه من روحانيته ، وبما حباه بالقرب منه ، وأطلعه عليه من آياته الكبرى ، ودلائل قدرته فى هذا العالم ، مما لا يحيط به العقل ، ولا يدرك كنهه الفكر .

وسبحان : مصدر ، معناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله لا يصلح لغيره . وقد جاء تفسير ذلك فيما رواه طلحة بن عبد الله الفياض ، قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : تنزيه الله من كل سوء .

والمعنى : أننا نبرّئ الله عز وجل من كل نقص ، وننزهه عن أن تقصُر قدرته عن الإسراء بعبده الذى اصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فى قليل من الليل ، والرجوع به فى ليلته ، وهى مسافة يقطعها المسافر فى شهر ، ويعود منها فى شهر آخر .

والإسراء لا يكون إلا فى الليل خاصة . فمعنى قوله « ليلاً » بعد ذلك ، أن الإسراء كان فى قليل من الليل ؛ لأن الليل بصيغة التعريف اسم للمجموع ؛ أما ليلا بصيغة التنكير فيقع على البعض ؛ ولهذا كان الاتيان به مفيداً معنى زائداً ، وهو تقليل مدة الإسراء ، وهو أمعن فى الإعجاز .

وفى قوله تعالى « أسرَى بعبده » إضافة العبد إلى الله ، الدال على أنه العبد الحقيق لله ، إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ فى عبادة ربه غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، وأنه استحق تلك الرتبة السنية التى لم ينلها غيره من المرسلين ، وأن العناية به فى أقصى الدرجات . ولهذا جاء فى آخر هذه السورة « إنّ فضله كان عليك كبيرا » .

والمسجد الحرام هو كما قال ابن جرير الطبرى ؒ : ما يتعارفه الناس بينهم إذا ذكروه . فلا يعدل عن هذا إلى غيره من الأقاويل . والمسجد الأقصى هو مسجد بيت المقدس وقيل له الأقصى لأنه أبعد المساجد التى تزار ويُبتغَى فى زيارته الفضلُ بعد المسجد الحرام .

وقد بارك الله المسجد الأقصى ، وبارك ما حوله ، فجعل فيه بركة الدين والدنيا ؛ لأنه موطن الأنبياء ومتعبَّدهم ، وحوله الأنهار والأشجار وغالب الثمار .

والآية ظاهرة فى أن الإسراء كان يقظة ، وأنه كان بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم . وهو قول جمهور المحدّثين والفقهاء والمتكلمين ، والذى تواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة . ولا وجه لما نقله ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية

من أن الإسراء كان بروحه صلى الله عليه وسلم وأنه لم يفارق شخصه مضجعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق . ورؤيا الأنبياء حق ، ذلك لأن الثابت فى الصحيح وتضافرت عليه الروايات أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع إلى مكة من مسراه ، حدَّث قريشا بما رأى فى ليلته فكذبوه وأمعنوا فى الإنكار ، وقالوا : إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع ؟ هذا والله إنه الأمر البين ، وذهب ناس إلى أبى بكر وقالوا له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة ، فقال لهم : والله لئن كان قد قال ذلك لقد صدق ! إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، وجاء أبو بكر واستمع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصف لقريش بيت المقدس حتى أتم الوصف ، وكان أبو بكر قد رآه من قبل ، فقال له أبو بكر : صدقت ! أشهد أنك رسول الله ! فسمى الصِّديق .

فهذه الواقعة وما فيها من الإنكار والتكذيب والتشنيع ، آية بينة على أن وضع المسألة كان فى إسراء فى اليقظة ، بالروح والجسد . ولا يمكن أن تكون الرؤيا المنامية محل تكذيب أو تشنيع . فقد يرى الرائى أنه سار إلى مسافات شاسعة ، واخترق الحجب ، ورأى الأعاجيب ، فلا ينكر عليه أحد من أصحاب الفطر السليمة . وروى ابن سعد فى الطبقات أن النبى صلى الله عليه وسلم غاب فى ليلة الإسراء وبحث عنه بنو عبد المطلب فلم يجدوه ، فتفرقوا يلتمسونه فى كل مكان ، وأخيراً لقيه العباس بن عبد المطلب عند ذى طوًى فأخبره بما كان من أمره فى الإسراء ، وأنه آتٍ من بيت المقدس .

وبعد : فإن الله أخبر فى كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده ، والعبد عبارة عن مجموع الروح والجسد ، وليس جائزاً لأحد أن يتعدى ما قاله الله إلى غيره . ولهذا نشك فى صحة نسبة القول بأن الاسراء كان بالروح لا بالجسد إلى السيدة عائشة وإلى معاوية ، لهذا ولأن عائشة رضى الله عنها كانت وقت الإسراء صغيرة ، ولم تكن مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعاوية لم يكن قد أسلم بعد .

والخلاصة أن الإسراء بالنبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان فى اليقظة ليلا ، بالروح والجسد ، وقد توفرت الروايات الصحيحة على أنه صلوات الله عليه مُثِّل له الأنبياء ، فتقدمهم وصلى بهم إماماً ، إظهاراً لشرفه وفضله عليهم . وفى هذه الليلة أطلعه الله على ما فى هذا الكون من العظمة والجلال ، وأراه من آياته مما لا يعرف كنهه إلا هو ، وتقصر أفهامنا عنه ، وحباه بالتكريم والقرب منه ، وفرض عليه الصلوات الخمس ، وعاد من ليلته إلى مكة .

لم يبق مجال للريب ولا للتشكيك ولا للمكابرة فى أمر الإسراء ، اعتماداً على أن الحس يمنع من حصوله ، حيث لا يمكن قطع مسافة غُدوُّها شهر ورَواحها شهر فى قليل من الوقت ؛ لأن العلم أثبت قضايا أصبح مفروغاً منها ، وهى تقلب قضايا الحس رأساً على عقب . فقد توصل العلماء إلى نقل الصوت من أقاصى الأرض بالراديو ، ونقل الصور من الجهات النائية بالتلفزيون ، والعلم جعل الطائرات تطوى المسافات الشاسعة فى المحيطات ، ومن قارة إلى أخرى ، ومن قطر إلى آخر ، فى قليل من الوقت ، مما لو ذكر فى الماضى لعُدَّ ضرباً من الخيال . والعلم هو الذى سهل لماركونى أن يضىء مدينة سدنى باستراليا بشرارة كهربائية أطلقها من سفينته التى كانت راسية بالبندقية . والعالم بعد هذا يريد أن يصعد إلى السماء ويتصل بالكواكب ، ليعلم ما أودع فيها من الأسرار ، فالعلم إذاً يقر الإسراء ولا يجافيه .

والحقيقة التى لا مراء فيها : أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون ، مادته وأثيره ، وأودع فيه من النظام والأسرار ما لا يعلمه إلا هو ، « وخلق كلَّ شىء فقدَّره تقديراً » ، وما وصل إليه الإنسان بالعلم والمعرفة من ضروب الاختراعات ، ما هو إلا قبس من ذلك النظام الذى أودعه الله فى هذا الكون : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقّ ؛ أوَ لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

وإذا كان الإنسان قد توصل بالعلم إلى قطع المسافات البعيدة المدى بالطائرات فى القليل من الوقت ، وتوصل إلى نقل صور الأشياء المادية من الجهات النائية ، وأعلمنا القرآن فى قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام أنه بالعلم أمكن نقل عرشها من جنوب جزيرة العرب إلى مملكة سليمان فى فلسطين وما جاورها .

« قال يأيها الملأ أيُكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ..... قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى » ! إلى آخر الآية .

إذا كان الإنسان قد توصل إلى هذا بالعلم ، فأىّ عجب فى الإسراء بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد نسب الله هذا الإسراء إلى نفسه وهو القادر الذى خلق هذا الوجود ، ويعلم ما أودع فيه من أسرار ؟

لا عجب ، فالله وحده هو القادر ، علم الإنسان ما لم يعلم ، « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ونحن إذا قلنا إن العلم يقر الإسراء فإنما نقصد التقريب إلى الأذهان ، من باب قياس الغائب على الحاضر ، وإلا فالمعوَّل عليه إنما هو العقيدة فى الله ، وأنه هو القادر المتصرف فى هذا الوجود . ولهذا لما أنكرت قريش حديث الإسراء ردعليهم بالآية التى تلوناها ، والتى تأويلها الإسراء بمحمد صلى الله عليه وسلم من الله ، والله منزَّه عن كل نقص ، ومنزه عن أن تقصر قدرته عن الإتيان بهذا الإسراء ، فهو شأن من شئونه ليريه من آياته وعجائب أمره فى هذا الوجود ؟

عبد الرحمن حسن

موقف الإسلام من أهل الكتاب

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد محمد المدنى
السكرتير العام المساعد للجامع الأزهر

القضية الأولى التى جاءت بها الأديان كلها هى توحيد الله جل وعلا، والخضوع لحكمه، وإخلاص العبودية له إخلاصاً لا تشوبه شائبة من شوائب الشرك .

وهذه القضية محكمة غير قابلة للنسخ، لأنها تحديد لواقع الصلة بين الخالق والمخلوق، والواقع لا يختلف باختلاف الأزمان أو الأشخاص، ولهذا نجد القرآن الكريم حينما يتحدث عن الدين بمعنى الخضوع لله والدينونة له، يقرر أنه الشأن الدائم الذى لا يختلف ولا يأتى فيه رسول بغير ما أتى به رسول « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ونجده يقص علينا أن جميع الرسل كانوا يدعون أقوامهم أول ما يدعون إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، بل هناك عبارة واحدة فى هذا الشأن حكاها القرآن عن كثير من الرسل: « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »، قالها نوح لقومه، وقالها هود لعاد، وصالح لثمود، وشعيب لأهل مدين. ولا شك أن كل نبى وجهها إلى قومه بنصها أو معناها .

وقد اعتبر القرآن الكريم قبول هذه الدعوة والنزول على مقتضاها هو « الإسلام » فالإسلام هو الانقياد لأمر الله، وإخلاص العبادة له، من قولهم سلم الشىء لفلان أى خاصه، وسلم له الشىء أى خاص له، وقد أسند ذلك صريحاً فى القرآن الكريم إلى السابقين على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من رسل وغيرهم، فإبراهيم كان « حنيفاً مسلماً » وكان من دعائه هو وابنه إسماعيل « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »، « ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون »، والتوراة « فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا »، والحواريون من قوم عيسى قالوا « نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون »، وسليمان دعا أهل سبأ « أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين »، وملكة سبأ قالت حين آمنت « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » إلى غير ذلك، وقد جاءت فى هذا المعنى عبارات حاسمة صريحة مثل قوله تعالى « إن الدين عند الله الإسلام »، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه »، « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون » .

* * *

بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحنيفية البيضاء التى كان عليها جميع الأنبياء كما بينا، والناس فريقان: أهل شرك ووثنية يدعون مع الله آلهة أخرى، ويعكفون على أصنام لهم، وأهل دين يتمثل فى اليهودية أو النصرانية قد وقع التحريف والتبديل فى دينهم، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

فماذا كان موقف هـذا الدين الجديد من الفريقين ؟ لقد كان موقفاً منطقياً متفقاً مع الحقيقة التى قررها كتابه الكريم ، ملتزما لوازمها :

كان له من الشرك والوثنية موقف ، وكان له من اليهودية والنصرانية موقف :

فأما موقفه من الشرك والوثنية فكان موقف النقيض من النقيض : يبطل عقائدهم ، ويسفه أحلامهم ، وينكر آلهتهم ، ويحاربهم بكل ألوان الحرب التى لا غاية لها إلا استئصالهم ، وتطهير الدنيا منهم . كانت العداوة بينه وبينهم عداوة أصلية أساسية ، لأنها فى الجوهر ، فى القضية الأولى التى جاء بها كل الأنبياء ، قضية التوحيد والإسلام لله ، وقد أيأسهم من أن يقبل فى هذه القضية أى تهاون ، أو يقرب منهم فى شأنها أى نوع من القرب فقال : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وحرم ذبائحهم ومصاهرتهم والإصهار إليهم ، ولم يسمح لهم بأن يقيموا شعائرهم فى البيت أو حوله ، ولا بأن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، ولم يقبل منهم الجزية ليحميهم فى بلاده على عقائدهم ، وآذنهم يوم الحج الأكبر بأن الله برىء منهم ورسوله ، وجعل لهم مدة يقتلون بعدها حيث يوجدون ، ويؤخذون ويحصرون ويُقعد لهم كل مرصد ، وأبان للمسلمين أنهم نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وأنه لا تجوز لهم موالاتهم ولو كانوا آباء أو إخواناً ، « ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » .

هكذا وقف الإسلام من الشرك حتى هدمه وقوّض أركانه ، وطهر الأرض المقدسة منه ، وما زالت لوحة يوم الفتح مرتسمة على صفحات القلوب حين جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعنون الأصنام ويلقون بها من فوق الكعبة ، مهينة ذليلة ، والمشركون ينظرون إليها باهتين ، يعجبون من ذلها واستكانتها ، وكيف لا تدفع عن نفسها ، وإنه ليوم فى تاريخ الإنسانية عظيم .

وأما موقفه مع أهل الدين من اليهود والنصارى فكان موقفاً آخر : كان موقف الأخ من أخيه ، فرقت بينهما الأيام ، وداخلتهما من هذه الفرقة وحشة واختلاف فى النظر ، مع أنهما يصدران عن منبع واحد ، ويرميان إلى هدف واحد ، فكان الإسلام هو أوفى الأخوين لأخيه ، يقول له : « أنا منك وأنت منى ، أما هؤلاء المشركون الوثنيون فأعداء لنا جميعاً ، فامدد يدك إلى ، وهلم نتعاون على الحق الذى تعرفه كما أعرفه ، وتؤمن به كما أومن به ، ولكن الأخ الآخر يتلكأ فى قبول هذه الدعوة ويغلب عليه الاستكبار ، وتجيش نفسه بالحسد ، وينسى فى سبيل هواه ماضيه ، ودعوته وإيمانه ، فهو يجادله ، ويثير حوله الشبهات ، ويظاهر عليه أعداءه ، ويضع فى طريقه كل ما يستطيع من الحواجز ، لا لأنه يعتقد فى قرارة نفسه أن أخاه كاذب مبطل ، ولكن لأنه يحسده ويخشى نجاحه ، ولا يطيق أن يراه وقد ظفر بما أراد ، ودان له أعداؤه ، واستقرت أموره ، وإذا أردنا أن نحصى المظاهر العملية التى نشأت عن وفاء الإسلام لأهل الأديان

الأخرى ، فإن ذلك يستدعى أن تؤلف كتاباً ضخماً ، ولكننا نجتزئ ببعض الأمثلة :

١ — كان من تلطف الإسلام مع اليهود والنصارى أن سماهم « أهل الكتاب » وهذه التسمية فيها اعتراف بهم ، وتكريم لهم ، واعتداد بما عندهم من أصول الحق ، وأسس الخير .

والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، وقد جاء إطلاق هذا الاسم عليهم فى مواطن كثيرة من القرآن الكريم فى سياق المدح حين كان يقرر ما لبعضهم من صفات حميدة ، وفى سياق الذم حين كان يصف تمرد المتمردين منهم ، أو يدحض أباطيلهم ، وهو فى الحالة الأولى بمثابة من يرجع فضلهم واستقامتهم إلى كونهم أهل كتاب وأصحاب دين سماوى فلا يستبعد ذلك منهم وهم له أهل ومعدن ، وفى الحالة الثانية بمثابة من يعاتبهم على تمردهم ، ويشير إلى تناقضهم ، فإن مقتضى كونهم أهل كتاب أن ينزلوا على حكم كتابهم ، وأن ينظروا فى أمر الإسلام ونبيه بروح العارف بهذا الشأن الذى بلاه من قبل وخبره ، لا بروح أهل الجاهلية الذين لا يدركون معنى الرسالة والكتب ، ولا عهد لهم بالهداية الإلهية ، وقد كانوا معهم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم على اختلاف وعداوة ، وكانوا يترقبون مبعثه ويعدونه فتحا لهم قريباً « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

٢ — كان القرآن يفرّق بين صالحى أهل الكتاب وفاسقيهم ويعطى كل فريق حقه ملتزما جادة العدل والصدق .

نجد ذلك فى مثل قوله تعالى « ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » ، « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً » ، « وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » ، « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم » ، « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين » .

وقد حمل هذا الثناء القوى فريقاً من المفسرين على أن يقولوا إن المراد بأهل الكتاب الذين يثنى الله عليهم من آمن منهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، كعبد الله بن سلام وأضرابه ، نقل هذا عن ابن عباس ، ولكن روى عن قتادة أنه كان يقول فى هذه الآية : « ليس كل القوم هلك ، قد كان لله فيهم بقية » ، بل نقل عن ابن عباس نفسه نحو ذلك فى رواية أخرى .

والذى حمل بعض المفسرين على ما ذكرنا هو ظنهم أن هذه الأوصاف لا تكون إلا للمسلمين ، وكأنهم استصعبوا أن يكون أحد من أهل

الكتاب يؤمن بالله على هـذا النحو ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسارع فى الخيرات. ولكن من يتأمل أسرار القرآن وأهدافه السامية، يدرك أن الله تعالى حكم عدل، وأن دينه واحد على ألسنة جميع الأنبياء، فمن آمن به وفعل الخير من أى دين فله أجره «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

٣ — وقد رسم القرآن طريقة مجادلة أهل الكتاب من حيث الأسلوب والموضوع، فأوصى بأن يكون أسلوبنا معهم فى الجدال هادئا حسنا، ماداموا غير متعنتين، وبأن يكون جدالنا معهم قائما على أن دعوتنا ودعوتهم واحدة فى أساسها وجوهرها، وأننا لا نبغى منهم إلا أن يصلحوا ما أفسده التحريف والتبديل فيها، ولا نحاكمهم إلا إلى قلوبهم وعقولهم بشرط أن يكونوا منصفين. وفى ذلك يقول الله عز وجل «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»، «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق»، «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله؛ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»، «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير. وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء».

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

٤ — اعتبر الإسلام نصر أهل الكتاب على المجوسية نصراً للحق على الباطل، وفرح به المسلمون، وذلك أن كسرى حارب الروم، وكان المسلمون والمشركون من أهل مكة يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهف، فلما انهزم الروم - وهم أهل كتاب - شق ذلك على المسلمين، وفرح به المشركون شماتة بهم، حتى كان ما كان بين أبى بكر والمشرك من الرهان، ونزل فى النبوءة بنصر الروم فيما بعد قوله تعالى «الم' غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم».

وقد تحققت هذه النبوءة فانتصرت المسيحية على المجوسية وظفر هرقل بأعلام فارس وعسكر كسرى، وكان اغتباط المسلمين يومئذ بهذا النصر عظيما كأنهم هم الذين انتصروا. وهذا من أكبر

الأدلة على أن الإسلام غير متعصب على أهل الكتاب ، وأنه يعتبر عدوه الحقيقي إنما هو الشرك . وسيأتي اليوم الذي يصيخ فيه أهل الكتاب إلى دعوة الإسلام بعد أن تموت الأحقاد ونوازع الحسد والبغي ، وتخلص العقول إلى الحق فتراه سافرا ليس من دونه حجاب .

٥ — أباح الإسلام طعام أهل الكتاب ، وأحل ذبائحهم ، وأجاز للمسلمين أن يتزوجوا من نسائهم ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .

وهو بهذا يثبت للزوجة الكتابية جميع حقوق الزوجية ، ويتركها حرة في أداء شعائر دينها ، ويوجب القسم بينها وبين الزوجة المسلمة سواء بسواء ، وبهذا وُجد مسلمون ذوو أمهات وأخوال من أهل الكتاب ، ووجدت تبعا لذلك الرحم بين الأسرة المسلمة والأسرة الكتابية .

٦ — قبل الإسلام من أهل الذمة ما لم يقبل من المشركين وهو أن يعيشوا في ذمة المسلمين بشرط أن يساهموا في تمكين الدولة من القيام بواجبها بإعطاء الجزية مع الخضوع للدولة ، وهذا شرط طبيعي لا شطط فيه ، وقد فهم بعض الناس من قوله تعالى « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » معنى القسوة والإذلال ، مع أن المراد هو أن يكونوا مساهمين في تحمل الأعباء نظير حمايتهم ، وأن يكونوا خاضعين للدولة غير متمكنين من النزوع إلى الثورة عليها ، وهذا هو ما عبر عنه بعض الفقهاء بقوله « ولا تقبل منهم الجزية إلا إذا كانوا بحيث تنالهم أحكامنا » ، ولا شك أن ذلك من حق أي دولة تريد أن تحتفظ بكيانها وألا تعرضه للهدم أو التزلزل حينا بعد حين .

٧ — وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل الذمة ، وخص القبط فقال « استوصوا بالقبط خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » وقال « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » .

وأوصى بهم عمر بن الخطاب عند موته فقال « أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرا ، وأن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم » ومن أجمل ما يؤثر عن عمر رضي الله عنه من الرفق بأهل الذمة أنه رأى شيخا ذميا يسأل على أبواب المساجد فقال « ما أنصفناك . أخذنا منك الجزية في شبيبتك ، ثم ضيعناك في كبرك . ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

* * *

أما بعد فهذا قُل من كُثْر ينبيء عن موقف الإسلام من أهل الكتاب ، واعتباره إياهم أصحاب دعوة سليمة في أصلها ، موافقة لما جاء به . غير أنهم غيّروا وكابروا وتنكروا للحق الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فكان على الإسلام أن يردهم إلى هذا الحق ، وأن ينقذهم من أنفسهم وأهوائهم ، وأن يعاملهم مع ذلك معاملة كريمة رحيمة ؟

محمد محمد المدني

فى الفقه المقارن

الشُّفْعة بين الفقه والقانون المدنى

للدكتور محمد يوسف موسى
الاستاذ المساعد للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

فى الفقه الإسلامى ثروة ضخمة من التشريعات العديدة التى تتناول الفرد والمجتمع والدولة من النواحى المختلفة ، بل تتناول العلاقات الدولية بين الأمم جميعاً أيضا . ولن يستطيع أن يقف على مبلغ هذه الثروة من قصر نفسه على مذهب واحد لا يعدوه إلى غيره ، بل يجد تجاوزه غير جائز له ما دام قد التزم مذهباً فقهياً بعينه !

وإذا كانت « الدراسة المقارنة » هى الضرب الأمثل من الدراسات فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية ونحوها ، فإنها كذلك بلاريب فى الفقه والتشريع ، وهى لهذا ، الواجبة الاتباع فى هذه الأيام بخاصة . إنها تساعدنا على التحرر من رِبْقة التقليد فى الأصول والفروع الذى أخذ منا بالخناق ، وتجعلنا نعرف يقينا أن الله لم يخص بالحق كله فقيها أو مذهباً واحدا بعينه ، وتقدم مادة خصبة متجددة للذين يقومون هذه الأيام بالقوانين الوضعية الحديثة ؛ وذلك ما يجعلهم يعرفون للشريعة الإسلامية منزلتها الكبرى ، فيفيدون منها أجل فائدة حتى تكون المصدر الرسمى الأول لما يضعون من قوانين .

فضلا ، عن أن هذا النوع من الدراسة يرسم لنا لوحة أمينة صادقة لجهود العقل الإنسانى فى هذه الناحية ، ولتطور الفكر البشرى فيما يتصل بالتشريع والتقنين ليتناسب مع ما يجدُّ للناس من الظروف والأحوال . وسواء فى ذلك جهود الفقهاء فى الشرق والغرب ، من المسلمين وغير المسلمين .

وإذا كان لكل قانون سماوى أو وضعى خصائصه وسماته التى تميزه عن غيره من القوانين ، فإن للتشريع الإسلامى من الخصائص والسمات ما يجعله بحق ضربا فريداً من التشريعات ؛ سواء من ناحية المقاصد التى قام عليها ، أو من ناحية التشريعات التى استحدثها لأنها جد ضرورية لما تدفع من ضرر وتجلب من خير .

وليس من همِّنا الآن الإشارة ، ولو بإجمال ، إلى ما قام عليه التشريع الإسلامى من مقاصد عامة وقواعد كلية ، فلذلك موضعه الخاص به . إلا أننا رأينا من الخير أن نبدأ بجهدنا الضعيف فى هذه المجلة فى عهدها الجديد المبارك بإذن الله ، بدراسة بعض ما انفرد به الفقه الإسلامى ، دراسة مقارنة ، وفى أوائل ذلك « الشفعة » ، باعتبارها سبباً من أسباب الملكية ، مثل الشراء والهبة والميراث . والله ولى التوفيق والسداد ، ونسأله أن يجعل فى هذه الدراسة ما نرجو لها من فائدة كفاء ما نلقى فيها من عناء [1] .

° ° °

بحث الشفعة يتطلب الكلام فى موضوعات مختلفة نتناول منها اليوم البحث فى بيان ماذا تكون فيه الشفعة .

(١) من البديهى ألا نتعرض فى هذه الدراسة للتفاصيل التى يعرفها طلاب الفقه فى معاهده المختلفة ، بل الموضوعات الرئيسية التى هى مجال الاختلاف فى الآراء والأحكام .

١ – يعرّف الفقهاء الأحناف «الشفعة» بأنها تملك الشفيع العقار المبيع جبراً عن البائع والمشترى، بما قام عليه من ثمن وتكاليف أخرى ، ومعنى هذا أن الشفعة لا تكون إلا فى العقار وما يتصل به من منقول كالبناء والشجر . ويقررون بعد ذلك ، بأن هذا الحق يثبت للشريك فى العقار المبيع ، وللجار الملاصق له وإن لم يكن شريكا فيه .

أما ثبوت الشفعة فى العقار فقط وفيما يتصل به اتصال قرار كالبناء والشجر ، فقد نظر من ذهب إليه من الأحناف وغيرهم إلى أن الأصل أن يكون المرء حراً يبيع لمن شاء ، إلا أن من أصول الشريعة أنه « لا ضرر ولا ضرار » ، ومن حق الشريك أو الجار على مثله ألا يؤذيه بجلب آخر دخيل يشركه أو يجاوره فيما يملك . وكان المنطق لذلك أن يجيزوا الشفعة فى المنقول المبيع استقلالا ، لكنهم رأوا ألا يتوسعوا فى هذا الحق الذى يحد – كما رأينا – من حرية البائع، فأثبتوه فيما جاءت الشريعة به . وفى هذا يَروُون أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنها قوله : « لا شفعة إلا فى ربْع أو حائط » ، أى دار أو بستان ؛ سواء أكان العقار مما يحتمل القسمة أم لا يحتملها كالدار الصغيرة والحمام والرَّحا والبئر ، بينما يرى الشافعى أن هذا الحق لا يثبت إلا فى عقار يكون قابلا للقسمة [1].

والحنابلة ، كالأحناف والشافعية ، لا يرون الشفعة إلا فى العقار أيضاً وبشرط أن يكون قابلا للقسمة كما يرى الشافعى . وفى رواية عن الإمام ابن حنبل نفسه أن الشفعة تثبت فى هذا النوع أيضاً لأنه يتأبد ضرره [1] ، أما فيما يقسم فيزول الضرر بقسمة الشريك مع المشترى المالك الجديد ، وإن كانت الرواية الأولى التى لا تجعل الشفعة إلا فيما يقسم من العقار ، هى ظاهر المذهب على ما جاء بكتب الحنابلة .

بل ، قد روى عن الإمام أحمد جواز الشفعة فى المنقول أيضاً ؛ فقد سئل عن الدابة من الحيوان تكون بين رجلين ، فأراد أحدهما بيع نصيبه منها ، فقال: الشفعة فى هذا أوكد . وقد نقل هذا الرأى عنه ، ورضيه واستدل له بالمعقول والمنقول من الأحاديث الصحاح الإمام ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ . وإذاً – على هذا الرأى – لا تكون الشفعة فى العقار الذى لا ينقسم فقط ، بل فى كل مبيع ولو كان منقولا ما دام مشتركا بين البائع وغيره ، لما جاء عن الرسول فيما رواه جابر : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشفعة فى كل شىء [2].

٢ – وهذه النظرة التى ترى أن حق الشفعة ثبت على خلاف الأصل لمعارضته حرية المالك والمشترى ، ولذلك تضيّق منه فلا تجعله إلا فى العقار وتوابعه مما يتصل به اتصال قرار، هى النظرة التى صدر عنها واضع القانون المدنى الجديد .

جاء فى مجموعة الأعمال التحضيرية لهذا القانون : « استقر الرأى على إبقاء حق الشفعة سبباً لكسب

(١) البدائع لعلاء الدين الكاسانى المتوفى عام ٥٨٧ هـ ، جـ ٥ : ١٢ – ١٣ ، نهاية المحتاج لشمس الدين الرملى جـ ٤ : جـ ٤ – ١٤٢ ، ١٤٤ ؛ الوجيز للغزالى المتوفى عام ٥٠٥ ، جـ ١ : ٢١٥ .

(١) المغنى لابن قدامة المتوفى عام ٦٢٠ هـ ، جـ ٥ : ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٢) إعلام الموقعين ، طبعة فرج الله الكردى ، جـ ٢ : ٢٤٩ وما بعدها .

الملكية (لاعتبارات تاريخية ، ولأن هذا النظام قد أصبح جزءاً من التقاليد القانونية للبلاد) ؛ هذا ، إلى ما للشفعة من فائدة فى جمع ما تفرق من حق الملكية ، كضم حق الانتفاع إلى الرقبة من طريق الأخذ بالشفعة . على أن المشروع إذا كان قد انتهى إلى استبقاء الشفعة ، فقد عمل من ناحية أخرى على التضييق فى الأخذ بها ، إذ هى قيد يرد على حرية التصرف فيحسن عدم التوسع فيه . ضيق المشروع فى الشفعة من ناحية الموضوع ومن ناحية الإجراءات ، فأورد فى الموضوع ثلاثة أحكام تقيد منها ... وحذف المشروع الجوار كسبب من أسباب الأخذ بالشفعة . وعالج من ناحية الإجراءات مسألة هامة بروح التضييق فى الأخذ بالشفعة ، فأوجب على الشفيع أن يودع الخزينة مبلغاً يساوى الثمن الحقيقى الذى حصل به البيع » [1]

ومن تلك التضييقات الموضوعية ، أن نصت المادة ٩٣٥ من القانون نفسه على أن «الشفعة رخصة تجيز فى بيع العقار الحلول محل المشترى ، فى الأحوال وبالشروط المنصوص عليها فى المواد التالية .

هذا ، وروح التضييق التى استوحاها واضع هذا القانون ، لا معنى لها فيما نرى ، وذلك من ناحيتين :

ا — إن الحرية التى يحرص على توفيرها بقدر الإمكان للمالك والمشترى ، لا تضار بشىء مطلقاً إذا توسعنا فى ثبوت حق الشفعة حتى يثبت فى المنقول كما يثبت فى العقار ، لأنه يجب أن يستوى عند المالك أن يبيع للأجنبى أو للشريك أو الجار ، مادام الثمن الذى يدفعه له هذا لا يقل بحال ما عن الثمن الذى يدفعه له ذاك . والمشترى لن يضر بشىء ؛ لأنه هو المتعدى ، وسيسترد ما دفع من ثمن وغيره .

ولأن الحرية يجب أن تكون مقيدة بألا تضر بالغير ، ومن الضرر بالشريك فى المبيع أن يجىء له شريك آخر لا يرضاه ، وكذلك من الضرر بالجار أن يجلب له جاره جار سوء . ومن ثم ، يكون من العدل ورعاية مصلحة الجميع أن تثبت الشفعة فى العقار والمنقول ، وأن تثبت للشريك أو الجار فى العقار ، أما فى المنقول فلا يتصور فيه جوار بطبيعة الحال إلا فى بعض صور وحالات سنعرض لها قريبا .

ب — ومن ناحية أخرى ، يجب أن ننظر لعلة أو حكمة شرعية الشفعة ، هذه الحكمة ليست إلا دفع أذى الدخيل عن الشريك أو الجار ، أى عن صاحب حق الشفعة على اختلاف المذاهب والآراء . ومن المسلم به فقها ومنطقاً أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدما ، وقد لا يقل ضرر الدخيل فى المنقول عن ضرره إذا كان المبيع عقاراً ، وسيجىء لهذا زيادة إيضاح عند الكلام على مذهب الظاهرية ومن إليهم .

٣ — وإذا كان الأحناف والشافعية ومن ذهب مذهبهم من الحنابلة ، لم يجيزوا الشفعة إلا فى العقار وما يتصل به ، وقد استوحاهم فى هذا واضع القانون المدنى كما رأينا ، فإن المالكية وسعوا قليلا من نظرهم فأجازوها فى بعض المنقول أيضاً وإن بيع مستقلا عن العقار .

---

(١) الجزء السادس : ٣٤٣ - ٣٤٤

فالإمام مالك رضى الله عنه يرى وجوب الشفعة فى السفن، لأن السفينة — كما يقول — تتخذ مسكنا مثل الدار، فتجب فيها الشفعة كما تجب فى المسكن الآخر وهو العقار [١]. ونرى المالكية بصفة عامة يرون الشفعة فى بعض ما هو منقول، وإن لم يكن متصلا بالعقار اتصال دوام وقرار كالبناء والشجر، مثل الفواكه والخضراوات.

ومن هنا، نجدهم يقولون بأن الشفعة تجب فى القثاء والبطيخ والخيار ونحوه، وفى الباذنجان والفول الأخضر والقرع والبامية ونحوها مما له أصل يبقى وقتا ما، إذا باع أحد الشريكين شيئاً من ذلك ولو مفرداً عن أصله [٢]. ولعلهم رأوا الشفعة فى أمثال هذه الأشياء؛ دون كل منقول لأن الأصل عندهم هو أن الشفعة لا تجب إلا فى ثلاثة أنواع: العقار كالدور والحوانيت والبساتين، وما يتعلق بالعقار مما هو ثابت لا ينقل ولا يحول كالبناء والشجر، وما يتعلق بهذه كالثمار. وما عدا هذا من العروض والحيوان لا شفعة فيها [٣].

٤ — أما الذين توسعوا إلى أقصى الحدود فى إيجاب حق الشفعة للشفيع، فهم الظاهرية (أتباع داود شيخ أهـل الظاهر المتوفى عام ٢٧٠ هـ) ثم (أبى محمد على بن حزم المتوفى عام ٤٥٦ هـ) الذين ذهبوا إلى وجوب الشفعة لصاحبها فى كل مبيع، عقارا، أو منقولا، متصلا أو متعلقا بالعقار، أو منقولا لا صلة له مطلقا بالعقار.

(١) البدائع للكاسانى، جـ ٥ : ١٢ .
(٢) الشرح الصغير للدردير، جـ ٢ : ٢٥٢ ؛ شرح أبى عبد الله الخرشى على خليل، جـ ٦ : ١٦٨
(٣) بداية المجتهد لابن رشد الحفيد، جـ ٢ : ٢٥٤ - ٢٥٥ طبعة مطبعة الاستقامة عام ١٩٢٨

وفى هذا يقول ابن حزم، فى المسألة رقم ١٥٩٤، ما نصه: «الشفعة واجبة فى كل جزء بيع مشاعا غير مقسوم بين اثنين فصاعدا من أى شىء كان، مما ينقسم ومما لا ينقسم، من أرض، أو شجرة واحدة فأكثر، أو عبد، أو ثوب، أو أمة؛ أو من سيف، أو من طعام، أو من حيوان أو من أى شىء بيع، لا يحل لمن له ذلك الجزء أن يبيعه حتى يعرضه على شريكه أو شركائه. فإن أراد من يشركه فيه الأخذ له بما أعطى فيه غيره، فالشريك أحق به؛ وإن لم يرد أن يأخذ فقد سقط حقه ولا قيام له بعد ذلك إذا باعه ممن باعه. فإن لم يعرض عليه كما ذكرنا، حتى باعه من غير من يشركه فيه؛ فمن يشركه مخير بين أن يمضى ذلك البيع، وبين أن يبطله ويأخذ ذلك الجزء لنفسه بما بيع به» [١].

هذه الجملة الموجزة تجمع أصول مذهب الظاهرية فى هذه المشكلة، مشكلة الشفعة وفيم تكون. إنها تكون عندهم فى كل شىء بيع كما رأينا، بشرط أن يكون المبيع جزءاً مشاعا فى كل، فهى إذاً تكون للشريك لا لغيره.

ويستدل ابن حزم لما يرى استدلالا قويا من وجوه عدة بأحاديث الرسول أولا، ثم بالعقل ثانياً، ناظرا إلى حكمة تشريع الشفعة ووجوب تعميمها فى كل مبيع.

فالآثار متواترة متظاهرة لإثبات ما يقول. ومنها ما رواه جابر وابن عباس بأن الشفعة فى كل

(١) المحلى، طبع منير الدمشقى عام ١٣٥١ هـ، جـ ٩: ٨٢ - ٨٣ .

مال ، وفى كل شيء ، وفى كل ما لم يُقسم ؛ وما رواه ابن أبى مليكة من أن الرسول قضى بالشفعة فى كل شيء : الأرض والدار والجارية والخادم ؛ إلى أحاديث وآثار أخرى تشهد لمذهبه.

ومن باب العقل ونظره ، نراه يقول : (١)

« لا تخلو الشفعة من أن تكون من طريق النص كما نقول نحن ، أو من طريق النظر كما يقول المخالفون . فإن كانت من طريق النص ، فهذه النصوص التى أوردنا لا يحل الخروج عنها ؛ وإن كانت من طريق النظر ، كما يزعمون أنها جُعلت دفعاً للضرر عن الشريك ، فالعلة بذلك موجودة فى غير العقار كما هى موجودة فى العقار بل أكثر ، وفيما لا ينقسم كوجودها فيما ينقسم ، بل هى فيما لا ينقسم أشد ضرراً » (٢) .

ثم نراه لا ينسى الرد على ما استدل به المخالفون من وجوب أن يكون المشفوع فيه عقاراً . فهو يرى مثلا أن ما روى عن الرسول من أن الشفعة فى كل شِرْك : فى أرض ، أو رَبْع ، أو حائط ، ليس فيه أنه لا شفعة إلا فى هذا فقط ، وإنما فيه إيجاب الشفعة فى هذه الأشياء دون التعرض لكون ما عداها فيه الشفعة أو لا ؟ فيجب إذاً طلب حكم ما عداها من نصوص أخرى كالتى ذكرنا بعضها . ومن القياس أيضاً وفى هذا يقول: كيف ، والحنفيون والمالكيون والشافعيون المخالفون لنا فى هذا أصحاب قياس بزعمهم ! فهلا قاسوا على حكم الأرض والحائط والبناء سائر الأملاك بعلة الضرر ودفعه (١) .

٥ — هذا ، ولنا أن نخرج من ذلك كله بأن من الواجب أن نثبت الشفعة فى كل مبيع ، منقولا كان أو عقاراً ، ليكون الحكم مطرداً مع علته وجوداً وعدماً ؛ ولأن المالك لا يضر بشيء إذا كان البيع لشريكه فى العقار أو المنقول أو لأجنبى ، بينما يضر الشريك فى المنقول (لأنه لا يتصور طبعاً الجوار فى المنقول) إذا جاء له شريكه بشريك آخر رغماً عنه ، كما لن يضر المشترى المتعدى ، ما دام يسترد ما دفع من ثمن وغيره .

وعلى ذلك ، نرى أن للشريك فى سيارة ، أو دابة كما يحصل فى القرى ، أو كشك بيع صحف مثلا ، أو أدوات قهوة أو سينما ، ونحو ذلك كله ، الشفعة فى نصيب شريكه إذا باعه دون رضاه من أجنبى ما دام سيدفع نفس الثمن الذى يدفعه هذا الأجنبى الآخر . وتعلُّل المالك الذى يريد البيع لأجنبى فى هذه الحالة بحريته فى التصرف وفى البيع لمن يريد ، يعتبر تعنتاً لا ينبغى أن تعين الشريعة عليه مطلقاً . ومما يجب أن نشير إليه هنا أن القول بثبوت حق الشفعة فى المنقول كما فى العقار ، ليس مذهب أهل الظاهر وحدهم ، بل قول أهل مكة قبلهم ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل نفسه أيضا (٢) ؟ (للبحث بقية)

محمد يوسف موسى

---

(١) المحلى ، ٩ : ٨٤ - ٨٥

(٢) بهذا يرد على الشافعى والحنابلة باشتراطهما فى المشفوع فيه أن يكون قابلا للقسمة ، كما تقدم

(١) المحلى ، ج ٩ : ٨٥ - ٨٦

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم ، ج ٢ : ٢٤٩ ؛ المحلى لابن حزم ، ج ٩ : ٨٦ .

في اللغة والأدب

من سيرة عمر

للدكتور طه حسين باشا

كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة . بذلك تحدث ابن مسعود رحمه الله فيما نقل عنه الثقات من رواة ابن سعد . وكان ابن مسعود يفسر بعض هذا فيقول : لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي . وكان عمر أشد المسلمين قوة في الحق ، وذوداً عنه ، ونضالا في سبيله ، حتى يفرضه على المعاندين له فرضاً . وكان أبغض الناس للهوادة في الدين وأنآهم عن إيثار العافية حتى يبذل في سبيل الحق آخر جهده . كان عنيفاً في الدفاع عن المأثور من وثنية قريش ، وخرج ذات يوم وقد تقلد سيفه وليس له إلا هم واحد هو أن يقتل محمداً فيريح قريشاً منه ومن أصحابه ومن هذا الدين الجديد ، لا يبالي أن يغضب بنو هاشم ، ولا أن يثور بنو زهرة ، ولا أن يثور لأولئك وهؤلاء بنو عبد مناف . قد جعل لنفسه غاية لا بد من أن ينتهي إليها وهي أن يستأصل هذا الدين ويحفظ على قريش ما ورثت من دين آبائها ، ولا عليه بعد ذلك أن يموت وقد أراح قريشاً ، أو أن يموت في راحة قريش .

ولكنه علم في طريقه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم أن الدين الجديد قد غزا أسرته واستقر في بيت أخته فيتحول إلى هذا البيت ليبطش بمن فيه ثم يمضي بعد ذلك إلى محمد فيبطش به . ولا يكاد يبلغ دار أخته حتى يسمع هينمة فتبلغ الحفيظة به أقصاها . وقد دخل الدار وأحسه أهلها فاستخفى رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يقرىء القرآن أخت عمر وزوجها . فيسأل عمر أخته ما هذه الهينمة التي سمعتها ؟ قالت : إنما كنا نتحدث . قال : ما أرى إلا أنكما صبوتما عن دين قومكما . قال ختنه : ويحك يا عمر ! فإن كان الحق غير هذا الدين ؟ هنالك يثور الفتى ويبطش بزوج أخته بطشاً شديداً ، وتقبل أخته تريد أن تفرق بينه وبين زوجها فيلطمها لطمة تجري الدم على وجهها . ويرى الفتى ذلك فيلين قلبه الخشن . ثم يطلب إليهما أن يظهراه على الصحيفة التي يقرآن فيها ، وتأبى أخته عليه حتى يتطهر فيجيبها إلى ما أرادت . ثم يقرأ في الصحيفة ويسمع المختبىء صوته وهو يقرأ فيحس فيه رقة وليناً فيخرج من مخبئه . وما هي إلا أن يتحدث إلى عمر بعض الحديث حتى يسأله أن يدله على مكان محمد ، فيصحبه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم . ويبلغان الدار وقد وقف على بابها رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا رأوه هابوه - وفيهم حمزة بن عبد المطلب رحمه الله - فيقول حمزة : إن يرد الله بعمر خيراً يهده إلى الحق ، وإن يكن غير ذلك يكن قتله علينا هيناً . وقد أقبل عمر وعرف رسول الله مكانه ، فيخرج إليه ويأخذ

بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ويقول له فى صوت مهيب رحيم : «أما أنت مُنتهٍ يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد ابن المغيرة . اللهم هذا عمر بن الخطاب! اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب» .

ويقع هذا الكلام من قلب الفتى موقع الغيث من الأرض المجدبة فيملؤها خصبا ويحيلها روضة نضرة ، وإذا عمر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإذا المسلمون يكبرون فرحين مبتهجين يرون إسلام هذا الفتى فتحاً مبيناً .

وقد كان كما رأوا ، فقد كان الإسلام دعوة يستخفى بها من استجاب لها مخافة بنى قريش ، فلما أسلم هذا الفتى جاهر قريشاً بإسلامه وصلى فى المسجد عنوة وأعان غيره من المسلمين على أن يفعل مثل فعله ، فهابت قريش هذا الدين وتركت لأتباعه مكانهم من المسجد يصلون فيه كما يشاءون. وكان هذا أول الفتح . وما كاد الناس يرون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يختلفون إلى المسجد ويصلون فيه آمنين حتى فشا فيهم الدين الجديد وكثر الساعون إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وأصبح أتباع الدين الجديد حزباً ظاهراً تحسب له قريش حساباً . وكان إسلام عمر متأخراً شيئاً فلم يسلم إلا فى السنة السادسة للبعثة ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره فتى جلداً صليباً مهيباً يخافه الناس ولا يخاف من الناس أحداً .

أقام بمكة بعد إسلامه أبياً للضيم ممتنعاً على البغى مانعاً غيره من ظلم قريش ما وجد إلى ذلك سبيلا ، حتى أذن الله لرسوله وللمسلمين فى الهجرة إلى المدينة . وكانت قريش ترصد الرصيد للمهاجرين من أصحاب محمد تأخذهم أفراداً أو جماعات فتحبسهم عن الهجرة وتذيقهم ألوان العذاب تفتنهم به عن الدين ، فلما أراد عمر الهجرة انفق مع صاحبين له على أن يخرجوا معاً فحبست قريش أحد صاحبيه وخرج مع صاحبه الآخر عياش بن أبى ربيعة . ولم يبلغا المدينة حتى لحق بهما رسول قريش فما زال الرسول بعياش حتى خدعه وأعاده إلى مكة فحبس فيها و بقى عمر فى المدينة ينتظر مقدم النبى صلى الله عليه وسلم فكانت هجرته نصراً لم تستطع قريش أن تحبسه ولا أن تفتنه ولا أن تصده ولا أن تخدعه . وقد صحب رسول الله فى المدينة كما صحبه فى مكة ، فكان ناصحاً لله ورسوله أميناً فى النصح قوياً فى الحق عوناً على النوائب . شهد مع النبى صلى الله عليه وسلم بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها باذلا نفسه فى سبيل الله لا يتحفظ ولا يستأنى ولا يجد الضعف إليه سبيلا .

وكان رسول الله ربما احتاج الى أن يخفف من شدته ويكفكف من عنفه ويحمله على إيثار العافية واصطناع الرفق ، حين كان صلى الله عليه وسلم يرى أو يُلهم أن الخير فى إيثار العافية واصطناع الرفق . وقد شهد الحديبية وكان له موقف ما زال المسلمون يذكرونه .

وهذا الموقف يبين شخصيته أوضح بيان وأجلاه ؛ فقد رأى ميل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الصلح فلم يرضه الصلح . أحس فيه ظاهراً من الضعف فراجع رسول الله فيه واجترأ حتى قال له : ألست على الحق ؟ قال رسول الله : بلى . قال عمر: فلم نعط الدنية فى ديننا ؟ هنالك ظهر الغضب فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : أنا رسول الله ـ أراد أن يعرض له بأنه أمر لا يشير فيه الرجال ـ وكان عمر يعنف أحياناً حتى يتبين له أنه تجاوز مع رسول الله ما ينبغى

له من المشورة والرضى فيثوب إلى نفسه وينيب إلى الله ويأخذه البكاء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف منه ذلك ويعرفه له ويحمده من أخلاقه لأنه لا يصدر إلا عن الإيمان الخالص بالحق والجهاد الصادق فى سبيل الحق . وكانت لعمر فى قلب رسول الله مكانة ممتازة لا من حيث رجولته وجلده وصلابته فى الحق فحسب ، ولا من حيث صدق رأيه وصحة مشورته وحسن بصره بالأمور وتدبر عواقبها فحسب ، ولكن من حيث ارتفاع منزلتـه من رضى الله عز وجـل . حتى روى ابن سعد بإسناده : أنه استأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن له ، فلما انصرف رده وقال لاتنسنا يا أخى وشبنا بشىء من دعائك .

ومثل موقفه فى الحديبية موقفه يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد أنكر أن يكون محمد قد مات وأنذر بأنه سيبطش بكل من زعم ذلك ، فلما تلا أبو بكر رحمه الله قول الله عز وجل : « وما محمد إلارسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » فلما سمع الآية خر صريعاً إلى الأرض . وقال بعد ذلك : كأنى لم أسمع هذه الآية حتى تلاها أبو بكر !

كان إذا آمن ووثق اندفع مع إيمانه وثقته إلى غير حد ، فإذا ظهر له أنه كان مخطئاً رجع عن خطئه فى مثل الشجاعة التى اندفع بها إليه .

ومثل هذين الموقفين موقفه من بيعة أبى بكر .

رأى اختلاف الأنصار فى أمر الخلافة فأشفق من الفتنة ، فلما رأى رضى الأنصار بأن الإمامة فى قريش أسرع إلى بيعة أبى بكر فبايعه النـاس ، ثم استبان له بعد ذلك أن أمر الخلافة لا ينبغى أن يتم إلا على ملأ وبعد مشورة من المسلمين ، فلم يتردد فى أن يعلن من فوق منبر النبى صلى الله عليه وسلم أن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها .

أراد أن أبا بكر كان أحق الناس بها فلم تقع الفلتة موقع الخطأ والضرر ، ثم نظم الشورى فى أمر الخلافة بعده كما استطاع . وتستطيع أن تتبع برامج الخلفاء والملوك والوزراء والرؤساء فى الحكم على اختلاف العصور ، فان تجد أروع ولا أدق من هذا البرنامج الذى أعلنه عمر لسياسته فى الحكم حين فرغ من دفن أبى بكر فنفض يده من تراب قبره ثم قام فى مكانه فقال للناس : « إن الله ابتلاكم بى وابتلانى بكم وأبقانى فيكم بعد صاحبىّ ؛ فوالله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن الجزء والأمانة ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ولئن أساءوا لأنكلن بهم » .

قال راوى هـذه الكلمات فوالله ما زاد على هذه الكلمات حتى فارق الدنيا ، وأحسبه أراد أن يقول : فوالله ما حاد عن ذلك حتى فارق الدنيا .

فأما الزيادة فقد زاد رحمه الله وأربى على كل ما كان ينتظر من خليفة مثله ولى أمور المسلمين وهم فى آخر عهدهم بالبداوة وأول عهدهم بالحضارة. لم يكن قد ساح فى الأرض ولا عرف حضارة الأمم القديمة معرفة دقيقة مفصلة ، وهو مع ذلك قد أرسى أسس الحضـارة الإسلامية كأمتن ما تكون ، أخذ من تجارب الأمم القديمة صفوها وترك منها ما كان منافراً لطبيعة الإسلام وأصوله

ثم ملأ الأرض عدلا فى غير تكلف ولا تعمل ، وإنما هو العدل السمح ، قد اشتقت سماحته من سماحة الإسلام . لم يكن يعرف أصول الديمقراطية اليونانية ولا أصول الارستقراطية

الرومانية ولا طبيعة الملك الشرقى القديم ولم يكن يعرف أصول الديمقراطية الحديثة ، ولكنه مع ذلك حكم الأمة الإسلامية حكما مثاليا ما أرى أن الإنسانية عرفت مثله ، وما أرى أن الأمم الحديثة تصطرع وتختصم وتشقى بألوان الحرب والبأس إلا لتحقق عدلا فى الأرض يقارب ما وصل إليه عقل ذلك الرجل الذى لم يبعد عن البداوة إلا قليلا . حقق الديمقراطية فى الحكم بدون برلمان ودون أن يلجأ إلى نظام من هذه النظم التى ألفها القدماء والمحدثون ؛ وإنما جعل على نفسه وعلى عماله وأعوانه من كل مسلم بل من كل محكوم رقيبا يقول فيسمع ، ويشكو فينصف ، ويدعو فيجاب . وجعل من نفسه على نفسه وعلى عماله وأعوانه رقيبا أى رقيب . لم يرح ولم يسترح وإنما أتعب نفسه وأتعب الناس أيام خلافته كلها ، أضف إلى ذلك أنه قد فتح الأرض على المسلمين دون أن يقود الجيوش الفاتحة بنفسه ، وإنما قادها بتدبيره وهو مقيم فى المدينة لا يكاد يفارقها إلا لحج أو عمرة أو رحلة قصيرة إلى الشام . فلو لم يزد على هذه الفتوح لكان عظيما تقاس عظمته إلى عظمة الإسكندر وقيصر ونابليون ، فكيف وقد أقام بناء للعدل لم تر الإنسانية مثله . ولست أدرى أترى مثله إلى آخر الدهر ! ؟

وكان أروع خصال عمر فيما اعتقد أنه لم يؤمن لنفسه بشىء من العظمة قط ، وإنما استكثر الخلافة على نفسه وشك دائما فى سياسته . لم يعرف الاطمئنان قط إلا إلى شىء واحد هو إيمانه الخالص بالله ورسوله والقرآن .

كان يخلو إلى نفسه فيقول : بخ . بخ يا ابن الخطاب ! أصبحت أمير المؤمنين ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك عذاباً شديداً .

كان يرحل من المدينة إلى مكة حاجاً أو معتمراً ويعود من مكة إلى المدينة فما رآه المسلمون يضرب على نفسه فسطاطاً ليستظل أو ليستريح ، إنما كان يعلق الرداء أو ما يشبه الرداء إلى شجرة ثم يأوى إليه فيأخذ حاجته من الراحة والظل ورآه المسلمون ذات يوم يرقى إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا إليه فقال : أيها الناس لقد رأيتنى وما أجد ما آكله ، إلا أن خالات لى من مخزوم كنت أستعذب لهن الماء فيعطيننى قبضات من زبيب . ثم نزل فقال له الناس : إلام أردت بهذا ؟ قال : لم أرد إلى أكثر من أنى أحسست من نفسى شيئاً فأردت أن أردها إلى التواضع .

وكان يسوى نفسه أيام الشدة لا بأوساط الناس ولا بذوى المكانة منهم ، بل بأضعفهم وأدناهم شأناً فيأكل كما يأكل الفقير المحتاج ، ولا يرفه على نفسه قليلا حتى يخصب الناس .

وكانت له كلمات بدأ بهن خلافته ثم رددهن كثيرا بعد ذلك . كان يقول : « اللهم إنى شديد فليّنّى ، وإنى ضعيف فقونى ، وإنى بخيل فسخّنى » .

وأدركه قضاء الله حين حمل أبو لؤلؤة إليه الموت فكان لقاؤه للموت أروع لقاء . تلا قول الله عز وجل : وكان أمر الله قدرا مقدورا .

ثم دبر أمر المسلمين فيما أتيح له من الحياة بعد هذه الطعنة فأوصى فى أمور الدين والدنيا بما رأى أنه الخير . ثم فارق الدنيا لا جزعا على فراقها ولكن جزعا من خشية الله . وصدق من كان يقول من الخلفاء إذا ذكر بسيرة عمر : ومن لنا بمثل عمر ؟

طه حسين

القصة العلمية

للأستاذ عباس محمود العقاد

القصة العلمية نوع من القصص يختاره العالم أو الفيلسوف ليبسط فيه فكرته على لسان أبطال الرواية أو فى خلال سرد الحوادث والتجارب التى توحى بالفكرة إلى القراء، من حيث لا يلتفتون اليها، بل يحسبون أنهم يتتبعون حكاية حرب أو مغامرة أو غرام.

وقد عرفت القصة العلمية فى اللغة العربية منذ ألف سنة، وظهرت فيها ثلاث قصص كتبها ثلاثة من الفلاسفة بعنوان واحد، وهو «حى بن يقظان» لابن سينا وابن الطفيل والسهروردى. ودارت كلها على تخيل نشأة الإنسان ودوافع حياته، كما بدت لأولئك الفلاسفة، ويعزى إلى إحدى هذه القصص - وهى قصة ابن الطفيل - أنها ألهمت رواد القصة الأوربية كتابة الروايات المطولة قبل ثلاثة قرون.

والقصة العلمية ذات مزية وذات عيب، ومزيتها هى عيبها فى وقت واحد. فإذا انتقدتها من وجهة الفن القصصى، قيل لك إن المهم فيها هو بسط الفكرة العلمية، فلا بأس فيها بإهمال الأصول الفنية بعض الإهمال، وإذا انتقدتها من وجهة الحقيقة العلمية، قيل لك إن القارىء يعلم وهو يتتبع حوادثها أنها من قبيل الأحلام العلمية التى لم تتحقق بعد فى عالم الواقع، فلا بأس فيها بالترخص فى تمثيل النظريات والتجارب، والتحلل من قيود المعمل والمدرسة، فليست هى علماً بحتا ولا قصصاً بحتاً، ومن هنا عيبها، ومن هنا أيضاً مزيتها، لأنها تستفيد من أسلوب القصة شيوعها بين القراء الذين لا يتفرغون للدراسة العلمية ويحصلون بهذا الأسلوب على القسط الضرورى لهم من المعارف العامة، ثم هى تستفيد من إطلاق الحرية للكاتب فى وصف التجارب العلمية أن تسبق المرحلة الحاضرة إلى المرحلة التابعة لها، فترسم للبحث طريقاً ينتهى إلى غاية ولو بعد فترة تطول أو تقصر، وتعتمد على الخيال فى تصوير الحقيقة العلمية كما ستكون بعد سنوات، أو كما سوف تكون بعد أجيال.

وقد راجت القصة العلمية رواجا عظيما بعد الحرب العالمية الأولى، وازدادت رواجا فى هذه الأيام بعد الحرب العالمية الثانية. وتبين من مراجعة موضوعاتها والمقابلة بينها أن قراءها يفضلون منها موضوعين اثنين لا يعدلون بهما موضوعا آخر، وهما: مستقبل السلاح الذرى، ومستقبل المجتمع الإنسانى كما يكون بعد الفصل فى النزاع القائم بين الديمقراطية والشيوعية. فهذان الموضوعان هما الشغل الشاغل لقراء القصة العلمية فى الوقت الحاضر، وهما فى الواقع أهم ما يشتغل به عقل إنسان فى هذا الزمان.

وعلى سبيل التمثيل للقصة العلميــة ولتفـكير الدارسين وجمهرة القراء فى هذين الموضوعين نلخص فى كل منهما قصة نموذجية تدل على نوعها ، ونختار لموضوع السلاح الذرى فى المستقبل قصة « بعد غد » لمؤلفها « روبرت هينلين » ولموضوع النظام الاجتماعى المقبل قصة (١٩٨٤) لمؤلفها « جورج أرويل » ونعتقد أنهما مثلان صالحان للحكم على هـذا النوع من القصة فى الآداب الأوربية والأمريكية التى يقبل عليها أوساط القراء.

(١) بعد غد

أما قصة بعد غـد فلها اسم آخر هو « الطابور السادس » قياساً على الطابور الخامس الذى اشتهر فى الحرب العـالمية الأخيرة ، ومهمته التخذيل ونزع الثقة ، وهدم القواعد التى تقوم عليها غلبة المنتصر أو تقوم عليها دعواه فى السيادة.

ويتخيل مؤلف القصة أن أمم الجامعة الآسيوية أغارت على أمريكا الشمالية واحتلت عواصمها ، وقهرت جيوشها بسلاحين جديدين : أحدهما يستخرج الطاقة الذرية من عنصر رخيص متوفر ، والآخر يتحكم فى أشعة الشمس ويسلطها للإحراق والإتلاف ، وأن القادة الغالبين عملوا على محـو الثقافة القومية فى أمريكا الشمالية ، ولم يتركوا لأبنائها حريتهم فى غير ميدان واحد : هو ميدان الدين والعقيدة.

ويصل الخبر إلى لجنة من لجان البحث والاختراع التى ظلت مختفية عن الأعداء وقوامها كلها ستة من العلماء والجنود ، فيخطر لهـا أن تبتدع سلاحاً يصيب الغالبين فى المدن الأمريكية ولا يصيب أبناء البلاد المغلوبين ، ويضع بعضهم نظرية الاختراع المطلوب التى يهتدى بها فى بحثه فيلخصها فى فرضين مقبولين فى رأيه (أولهما) أن خلايا الدم الحمراء لها موجة تختلف فى الطول بين حيوان وحيوان ، وبين طائفة وطائفة من النوع الواحد (وثانيهما) أن الجنس الأصفر من النوع البشرى له موجة تخالف موجة الخلايا فى الجنس الأبيض ، وأن الشعاع الذى يتسلط على مدينة واسعة قد يخـل بترتيب الموجات فى فريق من سكانها ويدع الفريق الآخر سليما لا يمسه أذى ، على حسب اختلاف الدم فى الأقوام والأجناس.

ويقول مؤلف الرواية إن القُوى التى يتكلم عنها العلماء كأنها قُوى متفرقة هى فى الحقيقة قوة واحدة ذات درجات متعددة فى الإشعاع وسرعة الأمواج ، فليست هنـاك قوة كهربية وقوة مغناطيسية وقوة جذب أو جاذبية ، بل هى جميعاً قوة واحدة ذات إشعاع متعدد ، فإذا تحكم المخترع فى الإشعاع المغناطيسى مثـلا أمكنه أن يتخلل الموجات الإشعاعية الأخرى بمـا يفسد حركتها فتضطرب وتتعرض للشلل الدائم أو الموقوت ، ومتى ثبت أن موجة الخلايا الحية تختلف فى الطول بين نوع ونوع من الحيوان ، فليس من الصعب على من يحكم الإشعاع أن يفنى جيشاً كبيراً وهو متغلغل بين السكان الذين يخالفونه فى تركيب الدم تبعاً لاختلاف الأجناس والأقوام.

وإذا استطاع المخترع أن يتحكم فى الإشعاع ، ففى استطاعته أن يحول العناصر بعضها إلى بعض بغير جهد كبير ، وما عليه إلا أن يفك ذراتها ويعيد تركيبها على حسب الطلب ، فيكون عنده

المقدار الذى يريده من الذهب أو الجواهر الكريمة ، ولا فرق بينها وبين المعادن الطبيعية التى توجد فى مناجمها .

كذلك يستطيع هذا المخترع أن يستخدم الإذاعة على الموجة التى يختارها دون أن يقاطعه أحد ، فيرسل الأخبار إلى كل مكان ويتلقاها فى كل مكان ، ويقف وحده بين ألوف الخلق فيسمع ما لا يسمعون ويتحدث بما لا يفقهون ، وهم يحسبون أنه يستمع إلى الوحى أو يأمر الجنة والعفاريت فتفعل ما يريد ، ويتهاوى القوم من حوله قتلى وصرعى وهو واقف بينهم لم يمسسه سوء .

وانتهى المؤلف إلى نتيجة هذه النظريات وهى تتلخص فيما يلى :

(أولا) أن اللجنة تمكنت من كشف الطيف المغناطيسى والطيف الجذبى ، وعرفت أطوال الموجات التى تتشعع منها فاستخدمتها فى صنع القذائف التى تخل بتركيب الدم فى الأجناس الأخرى .

و (ثانياً) أنها استخدمت هذه القوة فى صنع الذهب بالقناطير المقنطرة واستعانت به على رشوة الرؤساء والقادة من أعدائها .

و (ثالثاً) أنها اعتمدت على الهياكل الدينية لنشر الدعوة وتبادل الأخبار والأوامر بأجهزة الإذاعة على الموجات المجهولة .

ثم تهيأ لها تركيب الأسلحة وتنظيم المراكز التى تسلطها عليها ، فأطلقت موجاتها المهلكة وأفسدت دم الغالبين بعد أن أفسدت ضمائرهم حينما احتاجت إلى التكتم والإغضاء .

١٩٤٨ (٢)

أما مستقبل « المجتمع الإنسانى » فظاهر من الرقم عنوان الرواية (١٩٨٤) أن المؤلف يتوقع التغيير المزعوم فى جيل واحد ، ويحسب أن المعاصرين الذين سيعيشون إلى سنة ١٩٨٤ م سيشهدون ذلك التغيير .

وليس المستقبل فى رأى المؤلف لحكم الدهماء ولا لحكم القادة العسكريين أو الزعماء السياسيين ، ولكنه للنظام الصارم الذى يشبه نظام أصحاب الطريق المترمتين المتحرجين الذين يعرفون أسرار عملهم ، ويطلعون عليها أتباعهم شيئاً فشيئاً بالمقدار الذى يفرضونه وفى الوقت الذى يرسمونه . ومن خالفهم من أولئك الأتباع أو انحرف عن طريقهم يمنة أو يسرة ، أزاحوه عن الطريق ولما يعلم به أحد أو يظهر لمخالفته أثر بين دهماء الرعية .

سيعيش الدهماء يومئذ فى جهل مطبق بأسرار السياسة ومشكلات المجتمع ، وسيتولى إقناعهم دهاة مختصون بفنون الدعوة على أساليب العلم والدراسات النفسية ، وتصدر إليهم الصيحات التى يرددونها ويتداولونها من وزارة تسمى وزارة الحقائق ، تلقنهم مثلا أن القوة هى أن تعمل وأنت مغمض العينين ، وأن الحرب هى سبيل السلام ، وأن الحرية باب الفوضى والعبودية ، وأن المجتمع له « أخ أكبر » يرعاه ولا يسأل عما يفعل ، وله عدو أكبر يستحق منه البغضاء وهو لا يدرى فيم يبغضه وفيم يثور عليه ، فإذا بهذه التلقينات تسرى بين الرعية كأنها العلم اللدنى يوحى إليه من حيث لا يعلم ، وإذا بقوة الإعجاب والنقمة تستخدم فى ذلك المجتمع ، كما

تستخدم قوة الكهرباء بحساب معلوم وعدد مرقوم ، فإذا لزمت الحماسة سلطت على الجماهير أسبابها فهى شعلة من نار ، وإذا لزمت السكينة شاعت بين الجماهير دواعيها فهى مطمئنة البال سريعة القرار .

وتقوم بمهمة الحكم هيئة من الرجال وهيئة من النساء وهيئة من الشرطة تخضع لأوامر الهيئتين بغير مراجعة . وشرط العضو الذى يختار لهيئة الحكم أن يتجرد من العاطفة ويسيطر على نزوات الطبع الحيوانى فلا تفلت من زمام إرادته نزوة جامحة ، ومن أحس منه الرقباء المهيمنون على الشريعة جنوحا إلى الضعف العاطفى أبعدوه بغير هوادة ولم يدعوا له فرصة لاتباع هواه وبث عدواه فيمن عداه .

وفى الرواية حوار طريف فى مواقف كثيرة ، لعل أظرفه ذلك الحوار بين الرقيب وبين عضو منحرف محكوم عليه بالفناء ، وفيه يقول الرقيب ما فحواه : إن الأقدمين كانوا يعاقبون المتمردين فيجعلونهم شهداء ويتركون أفكارهم تحيا بعدهم فتحدث من الخطر ما لم يحدثه أصحابها الأحياء ، وإن أتباع كارل ماركس فطنوا لذلك فاحتالوا على هـــذا الخطر بتعريض المتمردين للزراية والاحتقار وتقديم المتهمين إلى المحاكمة وهم معترفون على أنفسهم بأشنع الجرائم مستسلمون لأقبح ضروب الهوان مجردون من عناء البطولة والإصرار على التحدى والإباء ، ولكنها حيلة قاصرة لأنها تكشف عما وراءها من الإكراه والتعذيب ولا تلبث أن تحمل الناس على التساؤل والاستطلاع .

أما أسلوب المجتمع المقبل فى معاملة المتمردين فهو برىء من حماقة السابقين واللاحقين ؛ لأن المتمرد لا يعاقب وهو مصر على عناده ، ولا يعاقب وهو خانع مستغفر بادى المذلة والانكسار ، ولكنه يعالج بأفانين من الإقناع النفسانى والمؤثرات الآلية والعقارية حتى يعود وهو كافر بما كان يؤمن به ، ومؤمن بما كان يكفر به عن يقين وروية ، ويوشك أن ينسى أنه خالف المجتمع فى عادة أو خرج عليه فى وصية ، فيستوى بعد ذلك أن يحل به العقاب أو ينبذ نبذ المهانة والاستخفاف .

ومن براعة المؤلف أنه يتدرج بوصف الأطوار الاجتماعية حتى يبدو فى النهاية أن نبوءته هى النتيجة المحتومة التى لا محيد عنها ، ولكنه مع هذه البراعة لا يقيم تلك الأطوار على أساس مكين يحتمل ما عليه من الطباق المتوالية ، إذا روجعت بعد حين مراجعة المنطق والتفكير السليم ، ولعله مستند إلى غرائب الأطوار بين الجماعات وانطلاقها فى معظم الأحيان من قيود التقدير والترتيب .

* * *

هـذان نموذجان للقصة العلمية التى تنبىء عن مستقبل الأسلحة والحروب أو مستقبل النظم الاجتماعية . إن صحت نبوءاتها فقد صح ما هو أغرب منها ، وإن كذبتها الأيام فما ضاع على القارىء وقت ينفقه فى تقليب وجوه النظر وفتح أبواب الترجيح والاحتمال ؟

عباس محمود العقاد

مَنطِقُ أرسْطِو والنّحو العَربيّ

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

لم يصادف نحو من العناية ما صادفه النحو العربى . نشأ فى الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة ، وبقى ينمو ويتكون خلال التسعة قرون التالية ، فبُحث عن الرواة ورجال البادية لتؤخذ عنهم الأساليب الصحيحة والتغييرات المستقيمة ، ويُستشهد بنقلهم ورواياتهم ، وتوالت المدارس بعضها على أثر بعض ، بين بصرية وكوفية ، أو بغدادية وأندلسية ، تتلاقى أحيانا وتتعارض أخرى ، أو تتوسط فتسلك مسلك الجمع والتوفيق ، ووضعت الرسائل الصغيرة فى بعض الموضوعات الفرعية ، كالمقصور والممدود والمذكر والمؤنث ، أو الكتب الجامعة ، نثرا أو نظما ، كالكتاب لسيبويه والمفصل للزمخشرى والكافية لابن الحاجب والألفية لابن مالك والمغنى لابن هشام ، وخلط النحو باللغة والأدب ، ثم فصل عنهما ليصطبغ بصبغة معينة ويعتمد على مصطلحاته الخاصة ، وشرحت النصوص والشواهد ، وجمعت الشواذ والغرائب ، وأحصيت أوجه الخلاف بين نحوى ونحوى ، أو بين مدرسة وأخرى ، وترجم للنحاة ، ورتبوا طبقة بعد طبقة ، وقد تشعبت الدراسات النحوية بحيث استوعبت معظم نشاط المثقفين فى القرون الستة الأخيرة ، وفى اختصار يمكننا أن نقول مع «دى بور» إن علم النحو أثر رائع من آثار العقل العربى ، لما فيه من دقة فى الملاحظة ونشاط فى جمع ما تفرق ، وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به .

وإذا قارنا النحو العربى بعلوم النحو القديمة والحديثة وجدنا أن أحـــدا منها لم يصادف ماصادفه من درس وعناية، فللاغريقية واللاتينية نحوهما ، ولبعض اللغات الشرقية القديمة نحو معروف كالسريانية والعبرية ، غير أنه لم يصل نحو من هذه إلى ما وصل إليه النحو العربى من عمق البحث وسعة الدراسة وتشعب الآراء ، أما اللغات الحديثة فقد اختزلت - فى الغالب — نحوها واختصرته فى أضيق الحدود الممكنة .

ولم يكن غريباً أن يعنى المسلمون بالنحو هذه العناية ، فهو أداة من أدوات فهم الكتاب والسنة ، ووسيلة ضرورية لمن شاء أن يعالج العلوم الدينيـة ، وخاصة من الموالى والأعاجم الذين ليست العربية فطرتهم ولا الفصحى سليقتهم . وقد جاء فى مقدمة ابن خلدون أن من أراد الشريعة فلابد له من معرفة علوم اللسان العربى ، وهى أربعة : لغة ونحو وبيان وأدب ، وأهمها النحو لأنه يبين أصول المقاصد بالدلالات ، ولولاه لجهل أصل الإفادة واختل التفاهم جملة .

بيد أنه لا يزال فى النحو العربى جوانب غامضة ، أخصها ما اتصل بنشأته والعوامل التى أثرت فى تكوينه . وعندى أن هـذه العوامل كثيرة ومتنوعة ، بين داخلية وخارجية ، وعربية وأجنبية . وسأقصر كلمتى هذه على منطق أرسطو وأثره فى النحو العربى .

ولاشك فى أن المنطق الأرسطى قد صادف فى القرون الوسطى المسيحية والإسلامية نجاحا لم يصادفه أى جزء آخر من فلسفة المعلم الأول .

فعرف أرسطو المنطق قبل أن يعرف أرسطو الميتافيزيق ، وترجم الأرجانون قبل أن يترجم كتاب الطبيعة أو كتاب الحيوان . وللأرجانون فى العالم العربى منزلة خاصة ، فكانت أجزاؤه الأولى أول ما ترجم من الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية ، ثم ألحقت بها الأجزاء الأخرى فترجمت وشرحت واختصرت . وتوالى البحث فى المنطق لدى المدارس الإسلامية المختلفة ، عند الفلاسفة والمتكلمين ، بل وعند الفقهاء .

والغزالى فى حملته على الفلسفة والفلاسفة يضع المنطق جانباً لأنه إنما ينصب على قوانين الاستدلال العقلى بصرف النظر عن موضوعه ، ويذهب إلى أبعد من هذا مقرراً أن المنطق ليس خاصاً بالفلاسفة وحدهم ، بل هو متصل أيضاً بالمتكلمين الذين يسمونه علم الجدل ، أوعلم النظر . وقد استخدم الفقهاء كثيراً من المصطلحات المنطقية فى بحوثهم الأصولية ، فتحدثوا عن الجنس والنوع ، والكلى والجزئى ، والعام والخاص ، واعتبروا القياس أصلا من أصول التشريع الأربعة ، ورسموا قواعده ونظموا طرقه محاكين صنيع أرسطو فى قياسه المنطقى . ونعود مرة أخرى إلى الغزالى فنجده يقول فى مقدمة كتابه معيار العلم : « إن النظر فى الفقهيات لا يباين النظر فى العقليات فى ترتيبه وشروطه وعياره » . ويضيف إلى هذا أنه ما دامت الهمم فى عصره متجهة نحو البحث الفقهى فإنه سيقدم فى هذا الكتاب المنطقى أمثلة فقهية كى يعم النفع .

وفى كتاب آخر له أصولى ـ وهو المستصفى ـ يرى لزاما عليه أن يقدم له بمقدمة منطقية خالصة يعتبرها ضرورية ومتممة لعلم أصول الفقه .

* * *

ولم يقف الأمر ـ فيما نعتقد ـ عند الفقه والكلام والفلسفة ، بل امتد إلى دراسات أخرى من بينها النحو . وقد أثر فيه المنطق الأرسطى من جانبين : أحدهما موضوعى ، والآخر منهجى . فتأثر النحو العربى عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو فى كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوى أن يحدد ويوضح على نحو ما حدد القياس المنطقى .

وقد يقال : ما للنحو والمنطق واللغة فى أساسها اصطلاح كثيراً ما يعصى على قوانين العقل والمنطق ؟ ولكن لا نزاع فى أن منطق أرسطو قد اشتمل على مبادىء نحوية ، ففى المقولات وهى الجزء الأول من كتبه المنطقية يعرض للألفاظ ، ثم يتناول فى الجزء الثانى ـ كتاب العبارة ـ الجمل ويفصل القول فيها ، وهذه أمور فى ظاهرها نحوية . ولم تخل كتبه المنطقية الأخرى من قواعد الأجرومية اليونانية .

ونود أن نلقى نظرة عاجلة على بعض هذه القواعد لنتبين ما يمكن أن يلحظ من شبه بينها وبين أول ما عرف من قواعد النحو العربى ، ورائدنا فى هذا ، الأرجانون من جانب وكتاب سيبويه من جانب آخر . ففى مقدمة كتاب العبارة ، يقسم أرسطو الكلمة إلى اسم وفعل ، معرّفا الأول بأنه ما دل على معنى وليس الزمن جزءاً منه ، ومعرفا الثانى بأنه ما دل على معنى وعلى زمن .

ثم يشير فى كتاب منطق آخر - هوطوبيقا أو الجدل - إلى قسم ثالث من أقسام الكلمة يسميه الأداة . وهنا ننتقل إلى كتاب سيبويه فنجده يبدأ بتقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف ، ويعرفها الواحد تلو الآخر تعريفا يحاكى من بعض النواحى التعريف الأرسطى . ومن الغريب أن ما يسميه سيبويه حرفا يسميه الكوفيون الأداة ، وكأنهم شاءوا أن يحتفظوا بالمصطلحات المنطقية احتفاظا تاما .

وندع جانبا ما ورد على لسان أرسطو من حديث عن النوع والكم ، أو بعبارة أخرى عن التذكير والتأنيث والإفراد والجمع ، وما عرض له من توضيح الإثبات والنفى ، والطلب والاستفهام مما له بالنحو صلة وثيقة . ونكتفى بأن نشير إلى مثل آخر له شأنه ، ألا وهو أساس تكوين الجمل فعلية أو اسمية ، ونعنى به الإسناد . وذلك أن أرسطو عرض بإسهاب لنظرية الإسناد فى كتابى المقولات والعبارة ، فنى الأول يحاول أن يحصر أنواع المحمولات العامة الممكنة ، وفى الثانى يوضح الصلة بين المحمول والموضوع ويعرف الجملة التعريف النحوى الصحيح . وهنا نعود إلى سيبويه ، فنجده يتحدث فى « الكتاب » عن المسند والمسند إليه ، وفى مكان آخر يعقد الفصل الآتى : « المبتدأ والمبنى عليه » ، وكأنه يريد أن يقول الموضوع والمحمول عليه . وواضح أن الإسناد دعامة كل نحو ، عربياً كان أو غير عربى .

وقد يُتساءل ما لسيبويه الفارسى أصلا العربى تربية ولمنطق أرسطو ولم يعرف له ولوع بالفلسفة والمنطق ؟ وما أحوجنا إن شئنا أن نجيب على هذا السؤال إجابة واضحة أن نعرض لشىء من تاريخ الترجمة فى الإسلام . والترجمة أثرها فى نشأة المصطلحات العلمية والفلسفية ، وأعتقد أن نشأة كثير من العلوم الإسلامية تتصل أيضا بالمترجمين . ومن الثابت أن كتب أرسطو المنطقية الثلاثة الأولى (المقولات ، والعبارة ، وأنالوطيقا الأولى أو التحاليل الأولى) كانت معروفة لدى السريان وقد ترجمت إلى لغتهم الأولى قبل الإسلام ، ويقال أيضا إنها نقلت إلى الفارسية . والمهم أنها ترجمت إلى اللغة العربية منذ النصف الأول للقرن الثانى الهجرى ، ترجمها عبد الله ابن المقفع عن الفارسية أو ابنه محمد عن السريانية على خلاف فى ذلك ، فهى إذن ثروة جديدة نقلت إلى العالم العربى ، ولابد أنها قوبلت بما تستحق من تقدير ، إن من سيبويه أو من سبقه ممن اشتغلوا بالمسائل النحوية ، وقد كان النحاة يحاولون - شأن كل باحث - أن يستعينوا على ما هم بصدده بما يعرفون من لغات أو دراسات أخرى .

على أن هناك عملا مشابهاً تم على مقربة من نحاة العرب الأول ، وهو وضع النحو السريانى بمدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى . ولا شك فى أن هذا النحو قد تأثر بالنحو اليونانى ومنطق أرسطو ، ومن بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعرب ونحاتهم وعاشوا معهم . فيعقوب الرهاوى له شأنه فى وضع النحو السريانى وهو معروف فى الأوساط العربية ، وحنين بن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه ، بل

وصديق للخليل ، وقد تعلم العربية فى سن متقدمة وعانى منها ما عانى ، ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية ، خصوصاً ويعزى إليه أنه قد ترجم بعض كتب الأجرومية اليونانية ، وأتم مع ابنه إسحق ترجمة البقية الباقية من كتب أرسطو المنطقية .

وفى وسعنا أن نقرر بعد كل هذا أن المترجمين إن فى تعلمهم للعربية أو فيما نقلوا من كتب أجنبية ، قد بدأوا فى القرن الثانى للهجرة فأثاروا جواً حول المشاكل النحوية . ولأرسطو فى هذا الجو نصيب ملحوظ . ولا يصح أن نغفل ما لهذا الجو من أثر على نحاة العرب الذين عاشوا فيه وتغذوا بغذائه المادى والمعنوى ، وتشبيه المنطق بالنحو قديم فصناعة المنطق من العقل والمعقولات كصناعة النحو من اللسان والألفاظ ؟ وهذا ما أشار إليه صاحب السلم بقوله :

فالنحو للسان كالمنطق للجنان

ولأمر ما سمى نحاة البصرة « بأهل المنطق » ، ولهذه التسمية ما لها من دلالة .

ولعل فى هذا ما يفسر تلك المفاجأة التى أحدثها كتاب سيبويه ، بظهوره فى تلك الصورة الجامعة دون أن تصل إلينا سوابق ممهدة له ، الأمر الذى دفع صاحب طبقات الأمم أن يقول إنه لا يعرف كتابا ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها ، فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بدقائقه ، غير كتب ثلاثة : المجسطى فى الفلك ، والأرجانون فى المنطق ، وكتاب سيبويه فى النحو . وفى هذه الدعوى تسامح ظاهر وجهل بالتاريخ . وإذا تركنا الفلك والمنطق جانباً ، وجدنا أنه عرفت مؤلفات فى النحو العربى قبل كتاب سيبويه ، وإن كانت لم تصلنا . وقد مهدت له دون شك ، وإن كانت أقل منه مستوى ، كما مهدت له البحوث الأدبية واللغوية السابقة والمعاصرة التى اضطلع به أمثال عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء . ولسنا فى حاجة أن نلاحظ أنه مزيج من الأدب والنحو واللغة ، هذا إلى أنه أشبه ما يكون بتوجيه لبعض التعبيرات والاستعمالات ، منه بتقنين القوانين ووضع المبادىء ، فهو لم يقعِّد قطعاً قواعد النحو على الصورة التى قعِّدت بها فيما بعد . وقد مهد له تلك البحوث النحوية التى نقلها المترجمون عن نحو السريانية أو عن منطق أرسطو ، ويبدو على سيبويه نفسه أنه لم يكن مغمض العينين عن أمثال تلك المؤثرات . ويكفى أن نشير إلى ذلك الفصل الذى عقده فى الجزء الثانى من « الكتاب » ، وعنوانه « باب اطراد الأبدال فى الفارسية » .

ولقد سبق لبعض المستشرقين أن أثاروا هذه النقطة ، وإن كانوا لم يقفوا عندها طويلا ، ونذكر من بينهم « بروكلمان » و « دى بور » والأستاذ « ليتمان » ولا يضير النحو العربى فى شىء أن تتضافر عوامل شتى على تكوينه ، أو أن يساهم منطق أرسطو فى التوجيه إليه . وهناك ناحية أخرى من نواحى الصلة بين هذا المنطق والنحو العربى ، ونعنى بها تلك الناحية المنهجية التى أشرنا إليها من قبل ، والتى لم توضح بعد التوضيح الكافى ؟

(للبحث بقية)

ابراهيم مدكور

صفحة منسية من الأدب العربي

للدكتور أبو العلا عفيفي بك
أستاذ الفلسفة بجامعة فاروق

١ — إننى ليتملكنى العجب وتستولى علىَّ الدهشة ، كلما سألت أديباً من أدبائنا المعاصرين عما يعرفه من الأدب فى كتابات الصوفية شعراً كان أو نثراً ، فألفيته لا يحير جواباً ، كأنه لم يسمع بهذا اللون من الأدب ، أو يقرأ للصوفية ما يستحق فى عرفه الخاص أن يسمى أدباً . بل ربما سألنى بعض هؤلاء الأدباء بدورهم ، وعلى شفاههم ابتسامة من السخرية ، وهل للصوفية أدب تستطيع التحدث عنه ؟ وما هو ذلك الأدب ؟ كأن الصوفية فى زعمهم قوم اعتزلوا العالم وما فيه وغلّقوا على أنفسهم الأبواب ، وأمضوا حياتهم فى العبادة والتأمل ، ورياضة النفس ، ولم يكتبوا شيئاً أو يفكروا فى شىء . بل كأنى ببعضهم ولسان حاله يقول : وما للصوفية وهذا الفن الدنيوى الذى يصور مشاعر الإنسان وما يحس به من الأحاسيس إزاء هذه الحياة ، وهم طائفة حيوا فى نفوسهم فى غير حياتنا ولم يشعروا بمشاعرنا !

٢ — وإننى ليتملكنى العجب وتستولى علىَّ الدهشة ، إذا سألت أستاذاً من أساتذة الأدب فى الجامعات المصرية ، عما إذا كان يفسح للأدب الصوفى مجالا فى مناهج دراسته الجامعية ، فكان جوابه سلباً ، بل ربما تحذلق وتشدق ، وأخذ يعرِّف لى الأدب ويذكر فنونه من شعر ونثر ، ويحيلنى على المراجع الموثوق بها ، التى لا تذكر الأدب الصوفى من بين أبوابها . وإذ كان الأدب الصوفى ليس معدوداً من بين أبواب الأدب التقليدى ، ولا يخضع لتعريف هؤلاء الثقات ، أهمله الأساتذة والأدباء جميعاً ، وجرّوا عليه أذيال النسيان ، وأصبحوا وهم لا يعرفون له وجوداً ولا يعترفون له بوجود ، واكتفوا بأن يسموه « تصوفاً » وحسب . وطالبوا المشتغلين بالتصوف بدراسته وتذوقه ، أما هم فيدرسون ويتذوقون الفنون الأدبية الأخرى !

وإذا سمحت لأساتذة الأدب العربى أوقاتهم ، أشاروا من طرف خفى إلى الأدب الصوفى فى باب الحكم والمواعظ ، أو عرّجوا على شىء من الشعر الصوفى فى باب الزهـــد ، واتخذوا من شعر أبى العتاهية أنموذجاً لهم ، مع أن شعر أبى العتاهية ليس فى الزهد الحق فى قليل أو كثير ! أما الأدب الصوفى الذى يجب أن يعرف ويدرس على أنه تعبير صادق عن أحوال روحية عميقة ، ووجدانات دينية خاصـة ، ومشاعر نفوس صافية ، فشىء لا يدخل فى حسابهم ولا فى برامجهم .

٣ — ومن الغريب أن القصيدة إذا كانت

فى الحب الإنسانى ، يتغنى فيها صاحبها بجمال محبوبته ، ويصف فيها شوقه إليها ، وحنينه إلى مزارها ، عدّوها أدباً . لأنها داخلة فى باب « الغزل » وإذا كانت مدحاً فى عظيم تفيض بكل نوع من أنواع الرياء والنفاق ، عدّوها أدباً ، لأنها داخلة فى باب « المديح » ؛ وإذا كانت تصور الألم والحسرة لموت عزيز وتعدد مآثره وحسناته ، عدّوها أدباً ، لأنها داخلة فى باب « الرثاء » ، وهكذا . أما إذا كانت القصيدة فى الحب الإلهى : يصوّر فيها الصوفى حنينه إلى ربه ومعراجه الروحى إليه ، ويصف فيها أحاسيسه فى أحوال القرب والبعد ، والأنس والوحشة ، والبسط والقبض ، وماشا كل ذلك من الأحوال . لم يعدّوها أدباً ، وإنما عدّوها تصوفاً وحسب ، لأنها لا تدخل فى باب من أبواب الأدب التى اصطلحوا عليها . وإذا كانت القطعة النثرية توسّلا إلى عظيم ، أو استشفاعاً عند ذى جاه ، أو تملقاً أو استجداء أو رسالة إخوانية أو نحوها ، عدّوا ذلك أدباً ، أما إذا كانت مناجاة بين العبد وربه ، أو استغاثة صوفية أو دعاء ، أو ورداً أو توسلا إلى الله ، لم يعتبروها أدباً .

٤ — كم من علماء الأدب وأساتذته فى الشرق العربى يدرسون ديوان ابن الفارض ، وترجمان الأشواق لابن عربى ، وديوان الششترى ، والمدائح النبوية للبوصيرى والبرعى ؟

أى محبوبة إنسانية وصفها شاعر بمثل ما وصف عمر بن الفارض الذات الإلهية التى فنى فى حبها فشغلته عن كل ما سواها ، وجرت من نفسه مجرى الدم فى العروق حيث يقول :

وفرّغت قلبى عن وجودىَ مخلصا
لعلّىَ فى شغلى بها معها أخلو
جرى حبها مجرى دمى فى مفاصلى
فأصبح لى عن كل شغل بها شغل
فنافس ببذل النفس فيها أخا الهوى
فإنْ قَبِلَتْهَا منك : يا حبذا البذل

غير أن محبوبته عزيزة المنال ، صعبة المراس والوصال ؛ تعد ولا تفى بوعدها ، وتوعد فتنجز وعيدها ، وهو راض بكل ما يصدر عنها مهما يكن فيه من حرمان :

إذا وعدت لم يلحق الفعلُ قولها
وإن أوعدت بالقول يسبقه الفعل
عدينى بوصل وامطلى بنجازه
فعندى إذا صح الهوى حسن المطل

إن كثيراً من شعر ابن الفارض محتفظ بصفات شعر الغزل العربى فى صورته وخصائصه التقليدية وموضوعاته وأخيلته ، وقلما تظهر معانيه الباطنة إلى السطح . ولكن القارىء مع ذلك يحس بوجود تلك المعانى فى كل مكان من ديوانه عن طريق ما تثيره قصائده فى النفس من شعور قوى غريب ، لا سيما إذا كان شعره من النوع الرصين الخالى من الصناعة البلاغية المتكلفة كما فى قوله :

ما بين معترَك الأحداق والمهج
أنا القتيل بلا إثم ولا حَرَج

ودّعت قبل الهوى روحى لما نظرت
عيناى من حسن ذاك المنظر البهج
عذّب بما شئت غير البعد عنك تجد
أوفى محبٍّ بما يرضيك مبتهج
وخذ بقية ما أبقيت من رمق
لا خير فى الحب إن أبقى على المهج

وأين خمر أبى نواس المادية من خمر ابن الفارض الإلهية، القديمة، التى وجدت قبل أن توجد الأشباح؟ تلك الخمر الطاهرة النقية التى ليس على شاربها إثم ولا حرج، والتى شربتها الأرواح قبل أن يخلق الكرم؟

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوى
ونور ولا نار، وروح ولا جسم
تقدّم كلّ الكائنات حديثها
قديما، ولا شكل هناك ولا رسم

بل أين ذلك المحب الإنسانى الذى انطبعت صورة محبوبه فى قلبه فأصبح يراها فى كل شىء، ويعبدها فى كل مجلى؛ بل اتخذ من حبها ديناً له، ومن قلبه حرماً يعبد فيه كل معبود يمثلها كما يقول ابن عربى:

لقد صار قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه فالدين دينى وإيمانى؟

٥ — والنثر الصوفى! ما أجمل ما فيه من فنون الأدب العالى! لئن كان فى اللغة العربية نثر تأثر بالقرآن حقا واستلهم معانيه وأشرب روحه، وفاضت فيه أساليبه قوية متدفقة، تحرك المشاعر كأنها السحر، فذلك هو النثر الصوفى. لست هنا بصدد ذكر خصائص هذا النثر وشرح فنونه، ولكنى بصدد التلويح والإشارة إلى نوع من النثر الفنى أهمله رجال العربية ولم يعيروه التفاتاً، على ما فيه من روعة وجمال وقوة تأثير.

سأكتفى بذكر نموذجين من هذا النثر الصوفى أحدهما من مناجيات الحسين بن منصور الحلاج، والآخر من حكم ابن عطاء الله السكندرى.

أما الحلاج، فلو جردنا أنفسنا من كل ما يتصل بتاريخه ومأساته، ولم نلق بالاً بما حام حوله من شبهة فى دينه وطعن فى عقيدته، لوجدنا فيما أُثِرَ عنه من المناجيات كثيراً من الجمال والفتنة، اللذين تخفق لهما القلوب. فما أثر عنه يوم أحضر لصلبه ورأى الخشبة والمسامير أنه صلى ركعتين ثم ناجى ربه بالمناجاة الآتية:

« اللهم إنك المتجلى عن كل جهة، المتخلى من كل جهة؛ بحق قيامك بحقى، وبحق قيامى بحقك. وقيامى بحقك يخالف قيامك بحقى ... أن ترزقنى شكر هذه النعمة التى أنعمت بها علىّ، حيث غيّبت أغيارى عما كشفت لى من مطالع وجهك

وحرّمت على غيرى ما أبحت لى من النظر فى مكنونات سرك . وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصباً لدينك ، وتقرباً إليك . فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى ، لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما ابتليت . فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد » .

فالحلاج فى ساعة محنته لم يستدر عطف أولئك الذين اجتمعوا لقتله ولم يتوسل إليهم ؛ وإنما أشفق عليهم والتمس لهم المعاذير لأنهم فعلوا ما فعلوا تعصباً لدين الله ؛ وتوجه بكل قلبه إلى الذى أنعم عليه النعمة الكبرى فكشف له عن مكنونات أسراره وأشهده مطالع وجهه الكريم . فهو سعيد مغتبط مستهين بآلام البدن لاستغراقه فى لذة الاتصال بالله .

وأما ابن عطاء الله السكندرى فكتابه المعروف « بالحكم » كنز من النثر الفنى لا ينضب له معين ؛ ولعل أصدق وصف وُصف به أسلوبه الصوفى هو الحلاوة والجلالة وسحر البيان . استمع إليه وهو يقول فى إحدى استغاثاته المشهورة :

إلهى أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى ؟

إلهى أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟

إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ، ولك المنة علىّ ؛ وإن ظهرت المساوىء منى فبعد لك ، ولك الحجة علىّ .

إلهى كيف يستدل عليك من هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟

انظر إلى هذه المثانى المتقابلة : كيف يأخذ بعضها بحجز بعض فى نسق موسيقى متصل . كيف يرتبط أول كل جملة بآخرها ارتباط المقدمة بالنتيجة ، وهو ترابط عليه مسحة من الاستدلال المنطقى ، ولكن قوته وسيطرته على النفوس لا يأتيان من هذا الجانب ، بل من الشعور بالإيمان العميق المتدفق من قلب ابن عطاء الله .

٦ — وبعد فلم أقصد بهذا الحديث إلا أن ألفت الأنظار إلى تلك الصفحات المنسية من الأدب العربى ، المبعثرة هنا وهناك فى بطون كتب التصوف ، عسى أن يقيِّض الله لها من أبناء الشرق العربى من يعنى بدراستها ويُحِلها المحل اللائق بها فى تاريخ أدب اللغة ، وتاريخ حضارتنا الإسلامية .

أبو العلا عفيفى

المصلح فى الأمة كالمصباح فى الصحراء ، لا ينشر ضوءه إلا إذا تركته الرياح آمناً .

القلادة المباركة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

بقيت مكة واجمة حيرى ، منذ خرج منها محمد ابن عبد الله وأعجز مطارديه حتى دخل يثرب وحلّ فيها عزيزاً بعيداً عن سلطان قريش . ومضى عام طويل لم يزد أهل مكة إلا وجوما وحيرة ، بل لقد زادهم قلقاً وخوفا . فقد تجرأ عليهم أولئك الضعفاء . الذين هاجروا من مدينتهم يتسللون ، هربا من التعذيب والتنكيل ورفعوا رؤوسهم يتحدونهم على ملأ من القبائل ، واستجمعوا نفوسهم وصاروا يخرجون بين حين وحين إلى سبل القوافل فى شرق يثرب وفى غربها يترصدون لتجارتهم فى ذهابها إلى الشام أو عودتها منها . بل لقد تجرأ هؤلاء المستضعفون على أن يسيروا إلى قريب من الطائف ويضعوا أيديهم عنوة على عير ضخمة عادوا بها غنيمة إلى مدينتهم ليقسموها بين أنفسهم . وما كان أهل مكة يحسبون أن الأمور تؤول بهم يوما إلى مثل تلك الحيرة ولا ذلك القلق ، بل كانوا يحسبون أن محمداً وأصحابه لن يلبثوا أن يضيقوا بحياتهم الجديدة ويسألونهم العفو ، ويرضون بما يفرض عليهم من الخضوع لقاء السماح لهم بالعودة . ولكنهم رأوا بأعينهم كيف يتحمل هؤلاء كل مشقة فى سبيل عقيدتهم الجديدة ، وكيف يقاومون الفتنة مهما أوقع بهم العقاب ، فلا يزدادون مع الشدائد إلا ثباتاً ومقاومة . وهاهم هؤلاء قد أصبحوا خطراً داهما يهدد ينبوع الحياة فى مكة ولم يمض عليهم فى يثرب إلا عام واحد ، فكيف لو امتد بهم الأمر عاما بعد عام ؟ !

ومضى الصيف مرة أخرى منذ خرج محمد وأصحابه وكان الحر متقداً لا يريد أن يهدأ وكأن السماء تعمدت أن تزيد قريشاً من الضيق والحنق ، فكانت تشرق على البطحاء محرقة لا تعترضها غمامة تلطف من حرها ، وكان الهواء يركد حتى يصير الفضاء كأنه قد فرغ وخوى ، لولا دفعات لافحة كانت تثور بين حين وحين ، فتعقد فى الجو سحائب غبراء خانقة ، تلقف الصدور منها أنفاسها وتكاد تشرق بها . وكانت العيون تخشع للأشعة المتوهجة وتعشى منها ، والشفاه تجف وتتشقق والنفوس تضيق وتفور غيظا . وكان الناس مع ذلك لا يطيقون أن يحتجبوا فى بيوتهم ليحتموا بظلها إذ كان ظلها أشد وطأة عليهم من وهج الفضاء وركود الهواء وسحب الغبار ، كانوا لا يطيقون الاستقرار وكل يوم يطلع عليهم بنبأ جديد تغوص منه القلوب فى أجوافها وهى تشتعل بالحقد .

فكانوا يخرجون إلى الرحبة الفسيحة التى حول الكعبة ، أو يجتمعون فى دار الندوة يقلبون وجوه الرأى ، لعلهم يهتدون إلى حيلة فى دفع ذلك الخطر الرهيب ، الذى يجثم لهم عند الأفق ، يهدد حياتهم ويؤذن مجدهم بالزوال .

ولم يعد إلى نفوسهم شىء من السلام ، بعد أن خفت وقدة الحر فى الخريف ، ولا بعد أن أقبل الشتاء وترفقت بهم الشمس ، ولان لهم جو السماء فقد بقى القلق مرنقاً على حياتهم لا يفارقها . وخرجت القافلة الكبرى التى اعتادوا أن يبعثوا

بها كل عام إلى الشام فأودعوها كل ثروتهم ، حتى لم يكد يبقى أحد من قريش بغير أن يضارب فيها بسهم ، كأنهم أرادوا أن يكابروا خوفهم ، ويخادعوا أنفسهم ، عن الخطر الذى يحسونه فى أعماق صدورهم . وقفوا أسبوعين طويلين يترقبون عودة الرسل الذين ساروا مع العير ليحملوا إليهم بشرى سلامتها إذا مرت بيثرب بغير أن يتعرض لها محمد ولما عاد الرسل إليهم لم تزدهم بشرى السلام إلا توجساً من المستقبل ، إذ عرفوا أن أبا سفيان قائد العير لم يستطع النجاة إلا بأن تسلل مع الجهد والحذر ، وكان يضرب فى أكباد الإبل ليلا ونهاراً ليسرع بها قبل أن يدركه محمد . فكانوا إذا جلسوا فى دار الندوة تناجوا فيما بينهم يتساءلون : هل يستطيع أبو سفيان أن ينجو فى عودته من الشام ، وأن يتسلل بالعير مرة أخرى كما تسلل فى ذهابه ؟

وكان الحديث يتمادى بهم حتى ينتهى إلى أن تمتلىء قلوبهم غيظاً ، فإن مكة لن تستطيع أن تقضى حياتها على مثل ذلك الفزع المتصل . فإذا سأل أحدهم : كيف السبيل إلى تجنب ذلك الخطر أو إزالة ذلك الخوف ؟ لم يجدوا جواباً سوى أن يعجبوا كيف استطاع هؤلاء المستضعفون أن يرفعوا رؤوسهم هكذا ، وأن يردوا عليهم الكيد بمثل هذه الجرأة العجيبة !

واجتمع سادة قريش فى دار الندوة بعد أربعة أشهر من خروج العير إلى الشام ، يتنسمون الأخبار عن عودة قافلتهم الكبرى ، التى اعتادت أن ترجع فى مثل ذلك الوقت . ويتساءلون فى ضجر : كيف لم يبعث إليهم أبو سفيان رسولا يحمل إليهم أنباء العير ليهدئ عنهم المخاوف التى لا تدع لهم قرارا ؟ وكان أشد القوم حنقا أبو جهل عمرو بن هشام .

فقال فى إحدى دفعاته الثائرة : أهكذا يستطيع رجل واحد أن يقهرنا جميعاً وأن يذلنا جميعاً وأن يشعرنا هذا العجز الذى نحسه فى قلوبنا ؟ أهكذا يجعلنا محمد نجلس كل يوم نتبادل الأحاديث الخانقة كما يجلس النساء ، لا نملك إلا أن نتساءل ونتجادل ؟ أهذا كله ولم يمض على خروجه من مكة خائفاً يترقب إلا عام ونصف عام ؟

وكان القوم مطرقين فى صمت وقلوبهم تختلج بما فيها من شجون . وعاد أبو جهل فقال وهو أشد ثورة :

— مالى أراكم لا تجيبون كأن وجوه الرأى قد أغلقت دوننا ؟ مالى أراك يا أبا الوليد لا تحرك ساكنا ؟

فرفع الناس رؤوسهم ينظرون إلى عتبه بن ربيعة لا يدرون بم يجيب ، وقد عرفوا ما بين الرجلين من موجدة ، ونظر عتبة إلى أبى جهل فى تحد وهو صامت . ومضى أبو جهل قائلا :

أرضيت يا أبا الوليد أن يضيع هكذا مجدنا وأن تهون هكذا عزتنا ؟ مالى أراك تنكت الأرض بهذا القضيب فى يدك ، كأنك لا تبالى شيئا من هذه الكوارث التى تهددنا . فإذا كنت لا تبالى ضياع العز ، ولا تغضب لما يلحقنا من الهوان ، أفلا تحرص على أموالك التى خاطرت بها فى عير أبى سفيان ؟ وإذا كنت لا تحرص على

أموالك فى العير لوفرة غناك أفلا تهتم لضياع أموال أهلك من الفقراء ؟ ؟

وقال عتبة فى صوت خافت يجمجم غضبه :

ـ أراك تخصنى بالحديث يا أبا الحكم .

فقال أبو جهل متماديا :

ـ أخصك بالحديث لأننى أعرف أنك لا توافقنى . فقد طالما نصحت لقومى بالشدة فأبيت إلا أن تلين ، ونصحت لهم بالحرب فأبيت إلا السلام ونصحت لهم بالحزم فابيت إلا الموادعة .

فقال عتبة فى دفعة :

ـ ليس هذا أول عهدى بهذا الحديث يا أبا الحكم . وحق هذه الكعبة ما أراك تنتهى بنا إلا إلى الكوارث التى نريد أن نتجنبها . ولقد صبرت عليك حتى نفد صبرى ، وسكت حتى صرت تنعى على صمتى ، ولست أدرى ماذا يرضيك منى حتى أبادر إليه مطيعاً ، أما يرضيك أننى فى كل موقف أنزل عن رأيى وألوذ بالصمت حتى أرى ما بينك وبين الناس ؟ ألا يرضيك أننى أجمجم بما فى نفسى كلما أردت شيئاً حتى لا أوقع الفرقة فى قومى ؟ ألا يرضيك أن أسكت حتى أرى ما يستقر عليه ملأ قريش ثم أمضى وراءه ؟ قل لى ماذا يرضيك منى بعد هذا حتى أخضع لك وأطيعك ، وإن كان ذلك على رغمى . أم تريدنى أن أقف وراءك كلما قلت رأيا صحت بأعلى صوتى : هذا هو الرأى أيها الناس فأطيعوه ، لكى أتحمل وزر خطئك وأعينك على زيادة البلاء والوباء .

فوقف من الجمع رجل ضخم الجثة عظيم الهامة عميق الصوت وهو أمية بن خلف وقال :

ـ مهلا يا أبا الوليد فما ينبغى لك الغضب ومهلا يا أبا الحكم فلا تمض فى هذا القول .

فقال أبو جهل متجهاً إلى أمية ثم إلى عتبة :

ـ لم أقصد كل هذا يا أبا على ، ولا تؤاخذنى يا أبا الوليد فما أردت أن أغضبك . ولكنى علمت مالك من سداد فى الرأى وشهامة فى النفس ، فأحببت أن أستطلع رأيك فتشير علينا بما يكشف هذه الغمة .

فقال عتبة وما يزال غاضباً :

ـ تريد أن تجد عندى رأيا أشير به ؟ فاسمع يا أبا الحكم ما أقول إذا شئت أن تعرف رأيى : دع ذلك الرجل حيث هو ولا تعرضنا إلى عداوة صريحة . دعه هناك وجنّب قومك عداوة أهل يثرب . وأما تجارتنا إلى الشام ففى يدنا أمرها . فلنبعث مع كل عير جيشا منا يحرسها حتى تبلغ مأمنها ثم لنبعث لها جيشا منا يستقبلها ولنبعد فى سيرنا إلى الساحل حتى نباعد ما بيننا وبين الأوس والخزرج . دعه حتى يبادئنا بالعداء والحرب فلن نعدم عند ذلك أن نجد من العرب أنصاراً يغضبون لنا .

فقال أبو جهل فى سخرية :

ـ أهذا رأيك يا أبا الوليد ؟ أترى أن نتركه حتى يستفحل أمره وتنتشر رهبته ؟ إذا كان هذا رأيك فلنقبع فى ديارنا حتى يغزونا فى عقر دارنا . أيها القوم دعوا محمداً يبعث على رأس كل شهر سرية تنزع منا أموالنا وتقتل رجالنا . دعوه حتى يجمع الناس عليكم ويقبل على حرمكم هذا ليحطم آلهتكم .

ولم لا تقول يا أبا الوليد أن نرسل اليه وفداً منا يعرض عليه إسلامنا ؟ بل لم لا تقول إننا ضللنا سبيل الحكمة إذ لم نخضع له وهو مقيم بين ظهرانينا ؟ أهذا ما تريد أن تقول ؟

وتحرك الجلوس فى مواضعهم وعلت منهم همهمة غامضة وجعلوا يقلّبون أبصارهم بين الرجلين المتحاورين وانفجر عقبة بن ربيعة قائلا :

ـ مالى أراك تجبهنى بما أكره ، وتقول على مالم أقل ، وتسلقنى بحد لسانك الساخر ؟! قل ما شئت أيها الرجل فلن تسمع منى بعد هذا لفظا . هلم فاذهب إذا شئت إلى يثرب وادع من أطاعك من قريش وأشعلها حربا تنسى الناس ما مضى من أيام القتال . اذهب اليه وأضرم نيران حرب ضروس تتحدث عنها الأجيال من بعدنا كما نتحدث نحن اليوم عن تفانى عبس وذبيان وحروب بكر وتغلب وأيام داحس والغبراء .

وهمّ واثبا ينفض ثوبه يريد أن يعود إلى بيته ووثب الناس يتمسكون به من كل جانب . وبقى أبو جهل ساكنا لا يكاد يتبين شيئا من الأصوات المختلطة التى تعالت بين جدران المنتدى واستطاع أمية بن خلف أن يعيد عتبة إلى مجلسه واتجه إلى أبى جهل قائلا :

ـ ما أراك تنصف صاحبك يا أبا الحكم . فقد علمت أنه كان من أشدنا وفاء لآلهتنا ، وأنه كان لا يألو جهداً فى ردع سفهائنا ، وعقاب ضعفائنا ، ولم يخرج على إرادتنا عندما اعتزلنا بنى هاشم ثلاث سنين فى شعب أبى طالب ، ولا عندما تراضينا على الفتك بمحمد ، ثم لم يتخلف عنا عندما خرجنا وراءه نقتفى أثره على طريق يثرب .

فقال أبو جهل :

لست أنكر ما تقول يا أبا على وما أردت لوماً ولا تعنيفاً ولا سخرية ، فوحق هذه الكعبة ماقلت حرفاً إلا وأنا مشفق على عزة قومنا .

فقال عتبة متمالكا نفسه :

ـ إذن فقل يا أبا الحكم ما شئت فيما نحن فيه ، فلعلنا نجد عندك مايزيل عنا الغمة التى ذكرتها .

فقال أبو جهل :

ـ أنصفت يا أبا الوليد ولن أتعرض لك بما تكره ، ولندع محمداً وأصحابه فى يثرب ولننظر إلى أنفسنا ، فلا أقل من أن نجمع رأينا على أمر واحد فلا نتفرق شيعاً ، وليس يجدينا أن كل عشيرة منا تبرز شوكتها كلما حسبت أن شيئاً يمس فرداً منها ، فما لنا ندع البعض منا يوالون محمداً ويتربصون بنا الدوائر هنا ؟!

فصاح أمية بن خلف :

ـ بيِّن لنا معنى قولك ، وكن أكثر إفصاحا .

وقال عتبة :

ألسنا نمسك بهؤلاء ونعاقبهم ونحبسهم ونحرمهم من كل خير حتى يعودوا إلى ما نرضى ؟

فقال أبو جهل :

ـ بل هذا لا يغنى عنا شيئاً . فالذين نحبسهم ونعاقبهم أقل خطراً ممن نخشاهم ونحاسنهم . فالأولون يعلنون ما عندهم ويكشفون عما فى أنفهم . وأما الآخرون فلا يظهرون إلا مانرضى وهم فى قرارة أنفسهم كارهون لنا . يوالون محمداً

ويصهرون إليه ويفضون بأسرارنا إلى نسائهم إذا انصرفوا عنا .

فصاح صوت عميق من أقصى الجمع :

— بيِّن لنا معنى قولك ، كما قال أبو على ، كن أكثر إفصاحاً .

وكان المتكلم رجلا عريض الصدر ، كبير الهامة وقام يعدل رداءه فوق كتفيه فكان رجلا طوالا كأنه يتحفز لنزال .

فقال أبو جهل فى صوت ساخر : أنصفت يا أبا على إذ تسألنى أن أكون أكثر إفصاحاً . هو ذاك يا أبا على . هو ذاك يا أبا العاص بن الربيع . أنت هنا مثلا تقيم بيننا وتفشى مجالسنا وتجهر بما تشاء من الرأى فى شئوننا ثم تذهب إلى بيتك فتفضى بأسرارنا إلى زينب بنت محمد !

فصاح أمية بن خلف :

— على رسلك يا أبا الحكم .

ولكن أبا العاص بن الربيع اندفع قائلا بصوته الملء : ماذا تقول أيها الرجل ؟ لقد عرفت أنك تقصدنى وتشهر بى ، وقد طالما تحدثت إلى فى خلوة بهذا الحديث .

وأعاد أمية بن خلف قوله :

— على رسلك يا أبا على !

فمضى أبو العاص قائلا بصوته الجهورى :

— ماذا يقول هذا الرجل عنِّى وعن أهلى ؟ أما كفاه أن تجرأ علىَّ فسألنى أن أطلق امرأتى ؟ أما كفاه أن رددته فى رفق قائلا إنها ابنة خالتى ومن بنات عمومتى ؟

ألا فاعلم يا أبا جهل أنك لا تملك رقابنا ولا تفضلنا حسبا ولا نسبا . من ذا سلَّطك علينا وأباح لك الأمر والنهى فينا والتعرض لحرماتنا وأعراضنا . أكان محمد يقول لصاحب له طلق زوجتك لو كانت مخزومية أو كانت ابنة أبى جهل؟ فما بالك تتعدى حدك وتستحل ما لا يباح لك أو لغيرك ؟ ألا فاعلم أيها الرجل أن زينب لو كانت زوجة رجل غيرى ثم أراد أن يؤذيها لوقفت له بسيفى دونها لأنها بعض دمى ، ثم هى بعد ذلك صاحبتى وأم ولدى . وقطع لسان من ينطق يوما بكلمة تخدش سمعها لو بلغتها ، ألا فاعلم يا عمرو ابن هشام أننى قد أعددت لك جوابا شافيا حاسما إذا حدثتك نفسك يوما أن تعيد على ما قلت فى شأن أهلى .

ثم مد يمينه إلى قائم سيفه واستدار فمضى مسرعا لا يجيب الأصوات التى تعالت من ورائه تناديه أن يبقى .

وما كاد أبو العاص ينصرف حتى شغل الناس عنه وعما كان بينه وبين أبى جهل ، فبينما هم فى وهرة من أثر ذلك الخصام المحتدم علا صوت صريخ من جانب الوادى كأنه شيطان يعوى ، وأسرع أبو جهل قائما يصيح بصيحات جشاء غير مبينة ، وانفض الجمع مضطربا يتبادرون على غير هدى نحو الصوت الذى ما زال ينبعث من بطن الوادى . وبدا من بعيد شخص واقف على بعيره وقد حول رحله وشق ثيابه من أمام ومن خلف وكان البعير مقطوع الأذنين مجدوع الأنف والرجل يصرخ بأعلى صوته : « يا معشر قريش أدركوا عيركم ! الغوث الغوث ! »

ولما اقترب الناس منه جعل يعيد عليهم ما بعث إليهم أبو سفيان قبل أن يصل إلى يثرب ؛ فقد عرف أن محمدا وأصحابه قد خرجوا من المدينة ليهبطوا على العير التي أودعها أهل مكة كل ثروتهم وكل أملهم في الربح ذلك العام .

ومضت لحظة قصيرة خفتت فيها الأنفاس ثم انفجر أبو جهل قائلا :

ماذا ننتظر هنا أيها القوم ينظر بعضنا إلى بعض كأننا نساء في مأتم ، ألم أقل لكم ابدءوا به قبل أن يبدأ بكم ؟ لا تضيعوا ساعة ولا يقف أحد منا يقول لصاحبه كلمة . هلموا إلى سيوفكم ورماحكم وخيلكم ورواحلكم واجعلوها موقعة فاصلة ، إنه صوت الآلهة ينادينا إنه قد آن لنا أن نضرب الضربة القاضية .

وزاد اللغط ، واختلطت الأصوات وصاح أبو جهل مرة أخرى :

هلم يا قوم فاستعدوا للحرب ولا يتخلف منكم إلا من آثر القعود مع النساء .

ومضى مسرعا إلى بيته بغير أن ينظر إلى الناس وهم يتفرقون سراعا إلى بيوتهم في لهفة .

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام قد خرج من المدينة مع من استطاع الخروج معه من أصحابه يترقبون عودة عير قريش مع أبي سفيان ، وكان المسلمون لا يحسبون أنهم يخرجون إلى حرب ، بل أرادوا أن يكيدوا للذين أخرجوهم من وطنهم وأبوا عليهما الحرية التي وهبها الله للأحياء جميعا ، أولئك الذين شردوهم ، وحرموهم من أموالهم ، وانتهكوا حرمة أشخاصهم ، وعقيدتهم وأرادوهم على إنكار إنسانيتهم ، أولئك الذين أرادوا أن يخدعوهم عن عقولهم وقلوبهم وأنزلوا بهم أشد العذاب لينزعوا الإيمان من صدورهم .

ثم جاءتهم الأنباء عند ما صاروا قريبا من وادي بدر فعلموا أن أهل مكة قد عرفوا خروجهم وأقبلوا سراعا إلى نجدة صاحبهم ، إذن فهي الحرب التي لم يتوقعوها وهي الصدمة التي لم يقصدوا إليها .

وأشفق رسول الله أن يقتحم بأصحابه حرباً على غير أهبة ، وكان يعلم أنهم قليل في العدد قليل في العدة ، يعتقب الثلاثة منهم أو الأربعة بعيراً واحداً ، وليس معهم من السلاح والدروع إلا اليسير الذي لا يغني في قتال جيش . وكان لا يريد من خروجه أكثر من إيقاع عقوبة تروع أهل مكة وتجعلهم أكثر خضوعاً للحق ، وأقرب إلى الإدراك والفهم كان لا يريد أكثر من أن يفتح عيونهم لتبصر ، وأن يفتح آذانهم ليسمعوا ، وأن يظهر لهم أن للمسلمين شوكة لعلهم يجنحون إلى المسالمة . ولكنهم خرجوا إليه فصار بين أمرين : إما أن يرجع إلى المدينة ، وإما أن يصادم جيشاً كبيراً .

واستمع إلى أصحابه يجيبونه في صراحة عند ما سألهم أن يشيروا عليه .

فقال بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له .

وقال آخرون : امض في سبيلك فنحن معك .

وقال غيرهم : لو خضت بحراً لخضناه معك ، ولو علوت جبلا لعلوناه وراءك ، ولو ذهبت بنا

إلى برك الغماد لتابعناك عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك .

وعادوا يقولون : سر بنا على بركة الله !

فمضى الجمع الأحمس الصغير نحو وادى بدر ، وهو يعلم أنه مقبل على عدو جاء إليه يسعى مدلا بقوته ، حريصاً على أمواله جامحاً مع كبريائه .

ثم توالت الأخبار، فعلم محمد وأصحابه أن أبا سفيان استطاع أن يفلت بالعير مباعداً بينه وبين المسلمين مقترباً من ساحل البحر . فلم يبق أمامهم سوى الجيش وحده ـ وقد أخرجت فيه مكة أبطالها وسادتها فحشدت فيه ألفاً من بواسل فرسانها .

وأقبل الليل فأرخى سدوله على الأرض وكان الوادى صامتا لا يسمع فيه حس ولا يجلجل فيه صوت جرس فى عنق بعير . ثم طلع القمر بعد حين إذ كان شهر رمضان قد مضى أكثر من نصفه . وغمرت الأشعة الفاترة بطن الوادى وخلعت عليه رهبة وغموضا .

وجلس محمد وأصحابه مرة أخرى يتشاورون ويتراجعون فلم يذوقوا تلك الليلة نوما حتى قرب مطلع الفجر بعد أن اختاروا مواقفهم ودبروا معا خطة القتال إذا أقبل الصباح .

وخرج أبو العاص بن الربيع وحده من جيش مكة فاعتلى جانب الكثيب مشرفا على الوادى الصامت لا يرى فيه سوى أشباح تبرق ثم تختفى كأنها أرواح شفافة . وذهب خياله إلى مكة حيث ترك امرأته زينب وحيث خلف ولده عليا وابنته أمامة . وجالت فى نفسه خواطر شتى عن قومه ، وعن محمد أبى امرأته : أقد جاء حقا يريد أن يحارب جد بنيه مع أبى جهل وأمية ابن خلف وسائر هؤلاء ؟ أكان ينبغى له أن يخشى أقوالهم عندما اتهموه بخيانتهم والولاء لمحمد خفية عنهم ؟ وهل كان يقوى على مخالفة قومه والتخلف عن الخروج ، فتكون تلك سبة الدهر فتلصق به تهمة الجبن أو الخروج على قومه ؟

ولكنه كان كلما تمثل صورة محمد ، أحس قلبه يخذله ويكاد يتهمه . فكيف يخرج إلى حرب رجل عرفه ورأى نبله وصدقه ؟ أليس هو الذى أخرجه قومه طغيانا وظلما بعد أن أذاقوه مرارة الاضطهاد والأذى ؟ فكيف يخرج مع أبى جهل وأصحابه الذين يشمخون بأنوفهم كبرياء وغروراً لكى يحارب الرجل الذى يدعو إلى العدالة والكرامة ؟

ولكنه عاد آخر الأمر إلى خيمته يجرر قدميه فوق الرمال ، وفى صدره معركة عنيفة من جدال حانق . وكان الناس ما يزالون يصخبون فى خيامهم يتعللون بما يطلع به الغد عليهم من متع الحياة ومباهجها ، سيجدون الوادى خلاء من المسلمين الذين لن يقدروا على الثبات لهم فى القتال وسيجدون الجو صحوا ، فيقيمون ثلاثة أيام فى بطن بدر ينحرون الجزائر ويطعمون أهل القرى ويشربون الخمر ويستمعون إلى غناء القيان . وسوف تسمع العرب بموقفهم من محمد فيزدادون هيبة لهم ومسارعة إلى محالفتهم على المسلمين .

وطلع النهار واعتلى جيش قريش جانب الكثيب ليهبطوا على الوادى . وكان أبو العاص يسير قريباً من عتبة بن ربيعة . وكان محمد وأصحابه هناك ما يزالون ينتظرون فى ركن صغير إلى جانب

بئر، ومن ورائهم حوض ممتلىء بالماء أقاموه تحت ستر الليل.

فنظر عتبة إلى أبى العاص قائلا فى همسة:

-- إنها الحرب يا أبا على. إنها الحرب لا ما يزعم هؤلاء، فما هى نزهة ولا خمر ولا قيان.

وقال أبو العاص مجيباً:

ــ فيم الحرب يا أبا الوليد وقد نجت العير التى خرجنا من أجلها؟

فقال عتبة:

ــ لقد وددت يا ولدى لو عدت إلى مكة، ولولا المعرة وما يقوله هذا الأحمق أبو جهل لما نزلت إلى هذا الوادى.

وعاد أبو العاص يحدث نفسه:

ــ أحقاً أحارب اليوم وأضرب بسيفى من أجل هؤلاء؟ أئذا رأيت محمداً رفعت يدى هذه وأهويت عليه حتى أشفى غليل أبى جهل وأحرق قلب امرأتى؟

ولما رآه عتبة صامتا قال له:

ــ سوف أبذل الجهد ياولدى لأخلص قومى من هذا القتال. إن ذلك الرجل يدفع بنا إلى هاوية.

ونزلا فى صمت مع الجيش الصاخب حتى صاروا فى فضاء الوادى وتفرق الناس فى أطرافه ينظرون إلى الجمع الصغير القابع حول حوض الماء، وأخذوا يحزرون عددهم ويجيلون أبصارهم فيما حولهم، وما لبثوا أن عرفوا أنهم لن يجدوا فى يومهم ماء، فقد طم المسلمون كل الآبار غير ذلك القليب الذى بنوا الحوض إلى جنبه.

وجاء حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة فقال له، هل لك فى خير لا تزال تذكر به آخر الدهر يا أبا الوليد؟

فنظر عتبة إلى أبى العاص نظرة سريعة ثم قال هادئاً: ـ تجدنى مطيعاً لك.

فقال الرجل: اردع الناس عن القتال وعد بهم إلى مكة.

فقال عتبة: وهل يطيعنى هذا؟.

فقال حكيم: أنت سيد قريش وما عليك أن يقول أبو جهل ما يشاء. ألا ترى هؤلاء المسلمين مع قلتهم يتلمظون للقتال. إنهم ثلثمائة رجل، ولكنهم لن يصابوا حتى يصيبوا منا مثل عددهم. وما خير الحياة إذا أصيب من هؤلاء الأشراف ثلثمائة؟.

ونهض عتبة إلى بعير فركبه وسار بين الصفوف يدعو الناس إلى الانصراف بغير قتال.

وما كاد أبو جهل يسمع بما قال عتبة حتى انطلق يسير فى الجيش يتهم عتبة بالجبن وأنه يخشى أن يصاب ابنه أبو حذيفة الذى خرج مع محمد.

وسمع عتبة ما قال أبو جهل فصاح غاضباً:

سيَرى هذا الأحمق أينا أولى بأن يكون الجبان المشئوم. هاتوا لى درعا وسأكون أول من يبرز للقتال. سيَرى هذا الرجل أينا أحرص على الحياة.

وتفرقت الجموع تتشاحن وتتجادل بعضهم يوافق عتبة، وبعضهم يتابع أبا جهل، وتفرقت الآراء واختلفت الأهواء، واعتزل أبو العاص ركناً من الوادى وقلبه يفيض حزناً وغماً .

ثم بدأ القتال وغطى الغبار على الوادى بسحابة كثيفة تظلل ميدان المعركة الحاسمة . فلما انجلى الغبار آخر اليوم كان جيش مكة بين قتيل وصريع وأسير ومنهزم، يتلفت خلفه ويلوذ بالفرار من حذر المطاردة .

وكان أبو العاص بن الربيع واحداً من الأسرى السبعين الذين أخذوا إلى المدينة من بقايا المعركة، أما بدر فقد طوى رماله على جباه كثيرة كانت لا تعرف الانطواء : أبو جهل وعتبة وأمية بن خلف . وأكثر من كانوا يتجادلون فى دار الندوة ويتقسمون الرأى فى مكة .

وخرجت بقية السادة من مكة مرة أخرى يسيرون إلى المدينة ليسألوا محمداً أن يمن عليهم بإطلاق من عنده من الأسرى . وكان محمد يقبل منهم الفداء، كل على قدر ماله، فمن لم يكن له مال وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة غلمان من المدينة يعلمهم الكتابة .

وجاء عمرو بن الربيع يطلب أخاه الأسير أبا العاص بن الربيع وعرض على رسول الله فداءه وكان عقداً ثميناً . فما كاد رسول الله يرى العقد حتى عرفه . وفاض قلبه الكبير رحمة ورقة .

كان عقد صاحبته الأولى وزوجه الوفية النبيلة التى وهبت له قلبها وأخلصت له إيمانها، كان عقد الصديقة الأولى التى كانت تشاركه فى البأساء والضراء وتواسيه فى أيام الكرب والشدة، خديجة بنت خويلد .

وقال عمرو بن الربيع : هذا فداء أخى حملته إليك من عند امرأته زينب .

وتمثلت للرسول الكريم صورة امرأته الحبيبة كأنها جاءت إليه تشاركه فى عزة الإسلام كما كانت تواسيه فى أيام شدته .

أهكذا تسخو زينب بهدية أمها، لكى تفدى زوجها ؟ كان ذلك العقد هدية الأم إلى ابنتها عند زفافها، فأى موضع للرجل فى قلب امرأته !

ولم يكن أبو العاص ضئيلا أو خسيسا فقد ذاع بين الناس موقفه من صاحبته عند ما تحدى أبا جهل علانية، وأبى أن يتخلى عنها أو يخدش سمعها بكلمة . وقد سمع رسول الله ذلك وشكره له . وإن كان أبو العاص ما يزال فى صفوف أعدائه، فإنه يحمل بين جنبيه قلبا كريما .

ونظر رسول الله إلى أصحابه جائش القلب، وقال لهم وفى صوته فيض من الرقة :

إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا .

وأجاب من حوله وفى أصواتهم صدى رقته فقالوا : نعم يا رسول الله نفعل .

ثم هبوا فأطلقوا أبا العاص وردوا القلادة إلى أخيه عمرو ليحملها معه إلى الزوجة الوفية .

محمد فريد أبو حديد

مختار من الشعر القديم والحديث

تحيـــــــــة الأزهر

« قالها المغفور له أحمد شوقى بك أمير الشعراء سنة ١٩٢٤ »
« لمناسبة المناداة بإصلاح الأزهر والبدء فيه فى ذلك الحين »

قم فى فم الدنيا وحىِّ الأزهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر إن فصَّلْتَه
فى مدحه خرز السماء النيِّرا (١)
واذكره بعد المسجدين معظِّما
لمساجد الله الثلاثة مُكبِرا (٢)
واخشع ملياً ، واقض حق أئمة
طلعوا به زُهراً وماجوا أبحُرا
كانوا أجلَّ من الملوك جلالةً
وأعزَّ سلطانا وأفخمَ مظهرا
زمنُ المخاوفِ كان فيه جنابُهم
حرمَ الأمان وكان ظلُّهم الذَّرا (٣)
من كل بحرٍ فى الشريعة زاخرٍ
ويُريكهُ الخلق العظيمُ غضنفرا
لا تحذُ حـــذو عصابة مفتونة
يجدون كلَّ قديم شىءٍ منكرَا
ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا
من مات من آبائهم أو عُمِّرا
من كل ماضٍ فى القديم وهدْمه
وإذا تقـــدَّمَ للبنـاية قصرا (٤)

وأتى الحضارةَ بالصناعة رثَّةً
والعلم نَزْراً والبيان مُثرثرَا (١)
يا معهداً أفنى القرونَ جدارُه
وطوى الزمان بهاؤه والأعصرا
ومشى على يَبس المشارق نورُه
وأضاء أبيض لجِّها والأحمرا
وأتى الزمان عليه يحمى سُنةً
ويذود عن نسكٍ ويمنع مشعرا (٢)
فى الفاطميين انتمى ينبوعــه
عذب الأصول كجدِّهم متفجرا (٣)
عينٌ من الفرقان فاض نميرها
وحياً من الفصحى جرى وتحدَّرا (٤)
ما ضرَّنى أن ليس أفقك مطلعى
وعلى كواكبه تعلمت السُّرى (٥)
لا والذى وَكلَ البيانَ إليكَ لم
أكُ دون غايات البيان مقصِّراً
لما جرى الإصلاحُ قمتُ مهنِّئاً
باسم الحنيفةِ بالمزيد مُبشِّراً

(١) المراد بخرز السماء الكواكب والنجوم .
(٢) المسجدان : المسجد الحرام والمسجد الأقصى .
(٣) الذرا : الملجأ . يريد أن أولئك الأئمة كانت ساحاتهم وظلالهم ملجأ الخائف وموطن الأمان .
(٤) ماض : نشط .

(١) نزرا : قليلا . مثرثرا : مختلطا .
(٢) النسك : العبادة ، والمشعر : موضع مناسك الحج .
(٣) جد الفاطميين : على بن أبى طالب .
(٤) الفرقان : القرآن ، والحيا : المطر .
(٥) يريد أنه - وإن لم يكن من خريجى الأزهر - لم يفته نفعه ، إذ تعلم على أساتذته وأخذ عن شيوخه .

نبأ سَرَى فكَسا المنارة حِبْرة
وزَها المصلىَّ واستخفَّ المِنبرا (١)
وسَمَا بأروقةِ الهدَى فأحَلَّها
فرْعَ الثُّريا وهي فى أصل الثَّرى
ومشى إلى الحلقات فانفرجتْ له
حلقاً كهالات السَّماء منوْرا
حتى ظننا الشافعىَّ ومالكاً
وأبا حنيفةَ وابنَ حنبل حُضَّرا
إن الذى جعل العتيق مثابةً
جعل الكنانى المبارك كوثرا (٢)
العلم فيه مناهلا ومجانياً
يأتى له النُّزَّاع يبغون القرى (٣)
الله أكبر يا ابن إسماعيل لم
تترك لصناع المآثر مفخراً (٤)
بالأمس تُنهضُ مصرَ فى دستورها
واليوم تُنهضُ للسِّماك الأزهرا
مِننٌ على الوادى السعيدِ ، تقلَّبت
أعطافُه فى وَشْيِهِنَّ مُنشَّرا
حرَّكْنَ فيه النيل قبل وفائه
فوفىَ وَهيَّجْن الربيعَ فبكَّرا
الأزهر المعمور قُلِّد حُرَّةً
لك فى الهبات حرية أن تشكرا (٥)
أرْعيْتَهُ عينَ العناية مُصلحاً
وأجَلْتَ فيه يد البناء مُعمِّراً
وعدْ وعدتَ ، له بوادرُ صدقه
كالبرق لم يَفْتُرْ حتى أمطرا (٦)

وبلغتَ بالمعروف غايةَ صفْوه
أيكون معروف الملوك مُكدَّرا ؟
لم تبْغِ بالضعفاء عُدوانا ولم
تقذف على حرم الشريعة عسكرا
نظراً وإحساناً إلى عميانه
وكُنِ المسيحَ مُداوِياً ومُجبراً
والله ما تدرى : لعلَّ كفيفهمْ
يوماً يكون أبا العلاء المبصرا (١)
لو تشتريه بنصف مالك لم تجد
غبناً ، وجلَّ المشترِى والمشترَى
إن فاتهم من نور وجهك فائتٌ
لم يعدَموا لوجوه بِرِّك منظرا
لمسوا نَداك كمن يشاهد مُزنةً
ويدُ الضَّرير وراءها عيْن ترى (٢)
زدْهم أبا الفاروق إنك خيرٌ
من خيِّر ولد الكريم الخيِّرا
يا فِتيةَ المعمور سارَ حديثُكم
ندًّا بأفواه الرِّكاب وعنبرا (٣)
المعهد القُدسىُّ كان نديَّه
قطباً لدائرة البلاد ومحورا (٤)
وُلدتْ فضيَّتُها على محرابه
وحبتْ به طفلاً وشبَّتْ مُعْصرا (٥)
وتقدَّمتْ تُزجى الصفوف كأنها
(جاندرك) فى يدها اللواء مظفَّرا

---

(١) الحبرة : السرور . (٢) العتيق : المسجدالحرام، والكنانى : الأزهر منسوبا إلى الكنانة وهى مصر .
(٣) النزاع : القصاد (٤) ابن إسماعيل : المغفور له الملك فؤادالأول . (٥) حرة : منة . (٦) وعدته بالإصلاح وعدا صادقا لم يلبث أن تحققت بوادره كالبرق يعقبه المطر .

(١) المقصود بالمبصر هنا : المدرك ببصيرته .
(٢) المزنة : السحابة الممطرة ، « ويد الضرير وراءها عين ترى » معناه أن الضرير يدرك باللمس ماتراه عيون المبصرين .
(٣) المعمور : الأزهر . (٤) ندبه : ناديه .
(٥) المعصر : الفتاة المدركة ، يقصد أن الأزهر كان مهدا للحركة الوطنية ، ويشير إلى أثره فى حياة البلاد قديما وحديثا .

فى التاريخ والاجتماع

صحيفة من تاريخ الأزهر

للأستاذ محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة الشئون الاجتماعية

لا نستطيع أن نقول إن المؤرخين المصريين قد قاموا بما ينبغى عليهم نحو تاريخ الأزهر . فتلك العجالات أو النبذات التى أعدت ونشرت للمناسبات المختلفة ، لا يمكن أن تسمى تاريخاً للأزهر ، وإن حملت ذلك الاسم . وهذا الكتاب الذى نشره الشيخ راضى الحنفى بعنوان « كنز الجوهر » ما هو إلا تلخيص سقيم للفصول المتعلقة بالأزهر من الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك . وهذه الفصول لا تزال إلى وقتنا الحاضر خير ما يرجع إليه القارىء فى موضوع الأزهر .

وتقع هذه الفصول فى الجزء الرابع من المجلد الأول من الخطط (ص ١٠ — ٤١) هذا إلى إشارات عديدة للأزهر ورجاله وشؤونه فى مواضع عديدة متفرقة من الخطط . ويمكن القول بصفة عامة إن كلام على باشا مبارك أتم وأوفى بالنسبة للعهد العثمانى والعهد المحمدى العلوى ، منه بالنسبة للعصور التى سبقت ذلك . وقد جمع مبارك باشا مادته من المراجع التاريخية المتداولة ، اللهم إلا بعض الوثائق الرئيسية كحجج أوقاف بعض السلاطين والأمراء .

ولا أعرف أحداً رجع إلى الوثائق الاصليه ، بل لا أعرف أحداً ابتدأ بحصر تلك الوثائق ، فنحن إذن فى البداية وأمامنا بعد كل شىء .

على أن الإنصاف يقتضى أن أشير بصفة موجزة لدراسات مثمرة تكون منها ومن مثيلاتها صفحات تاريخ الأزهر . فبالنسبة للعصر الأول « العصر الفاطمى » أعتقد أن اتجاه الدكتور كامل حسين الأستاذ بكلية الآداب نحــو بحث ما يتعلق بالدعوة الفاطمية فى مصر وفى غيرها من الأقطار الإسلامية ونحو نشر النصوص ، اتجاه مثمر يستحق التنويه ويستحق أن نرجو من وراء مثابرته وجده — علماً حقيقياً بأصول الأزهر وتاريخه الأول ، أما بالنسبة للعصر التالى « العصر الأيوبى » فأعتقد أن دراسة الدكتور إبراهيم سلامة الأستاذ بكلية دار العلوم لنظم التربية والتعليم الإسلامية (وهى موضوع رسالة لدرجة الدكتوراه فى الآداب) قد جمعت مادة قيمة لتاريخ المدارس وتاريخ الأزهر وكشفت عن أسباب تدهور المدارس فى عصور المماليك والعثمانيين ، ونهوض الأزهر جامعة إسلامية بالمعنى الدقيق . وأما بالنسبة للأزهر فى العهد العثمانى فقد عالجه عن طريق تراجم

الرجال مؤرخ أزهرى هو الشيخ زكى غيث فى مجموعة تراجم شيوخ الأزهر فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر التى نشرها فى العدد الأول من المجلد الثانى من المجلة التاريخية المصرية (مايو سنة ١٩٤٩) وسنرى بعد قليل مزايا طريقة الشيخ زكى غيث لدرس تاريخ الأزهر.

وأخيراً يجب على أن أشير إلى دراسة الأستاذ «كريزويل» للأزهر من ناحية العمارة والآثار فيما نشر من تاريخ العمارة الإسلامية. وهو مؤلف ضخم نشر منه فى الشهر الحالى الجزء الثالث، ويتعلق بعهد الفاطميين والأخشيديين. ولعل من تلاميذ الأستاذ «كريزويل» الأثريين المعماريين المصريين من يتبع أستاذه فى درس الأزهر من الناحية المعمارية الأثرية، ثم يخرج لنا باللغة العربية ثمرات ذلك الدرس.

وتدلنا الدراسات التى خصصتها بالذكر على أربعة أنواع من المباحث، أعتبرها أساسية: فالنوع الأول أثرى معمارى. والنوع الثانى دينى صرف، والنوع الثالث نظام تعليمى، والنوع الرابع تراجم الرجال. وتقوم الأنواع الأربعة على الوثائق الأصلية.

ويصح أن أقول إن الأزهر من جهته، وأخواته الصغرى الجديدة من جهتها، قد كونت نخبة من الشبان المؤرخين يصلحون كل الصلاحية لأن يضطلعوا بالمهمة الكبرى: مهمة تاريخ الأزهر على النحو الذى أشرت إليه، بشرط أن ينظم العمل والتوجيه. وقد تشرفت بالعمل ممتحنا لرسائل العالمية من درجة أستاذ، ولم يختر طالب ما موضوعا تاريخيا متصلا بجامعته! ولن يتم - فى رأيى - فهم صحيح وإدراك حقيق لأحوال الأمة المصرية إلا بتاريخ الأزهر.

فلنخصص إذن لإيضاح هذه الحقيقة صفحة من تاريخ الأزهر، ولتكن القرون: الحادى عشر والثانى عشر، والثالث عشر. وهى الفترة التى ترجم الشيخ زكى غيث لشيوخ الأزهر فى جزء منها. ولندرج كلامنا عنها فى الأنواع الأربعة التى رسمناها للمباحث الأزهرية.

فمن حيث العمارة كانت الإضافات والتجديدات العظيمة المقترنة باسم الأمير عبد الرحمن كتخدا، ويبلغ من عظمتها وجلالة قدرها أننا يمكننا بحق أن نعتبر هذا الأمير من بناة الأزهر المنشئين.

ولنتحدث بإيجاز عن منشآته: ذكر الجبرتى فى ترجمته سنة وفاته (أى سنة تسعين ومائة وألف) أن الأمير المشار إليه أنشأ فى مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولا وعرضا. ويشتمل على خمسين عموداً من الرخام، تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت. وسقف أعلاها بالخشب النقى، وبنى به محرابا جديداً ومنبرا وأنشأ له باباً عظيما جهة حارة كتامة. وبنى بأعلاه مكتباً بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام القرآن. وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيما وسقاية لشرب العطاش المارين. وعمل لنفسه مدفنا بتلك الرحبة وجعل عليه قبة معقودة وتركيبة من رخام بديعة الصنعة. وجعل بها أيضا رواقا مخصوصاً بمجاورى الصعايدة المنقطعين لطلب العلم، يسلك

إليه من تلك الرحبة بدرج يصعد منه إلى الرواق . وبه مرافق ومنافع ومطبخ ومخادع وخزائن كتب . وبنى بجانب ذلك الباب منارة وأنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وجعل عليه منارة أيضا . وبنى المدرسة الطيبرسية وأنشأها إنشاء جديداً وجعلها مع مدرسة الآقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذى أنشأه خارجهما جهة القبو الموصل للمشهد الحسينى . وهذا الباب الكبير عبارة عن بابين عظيمين كل باب بمصراعين وجعل على يمينهما منارة وجعل فوقه مكتباً أيضا وبداخله مع يمين السالك بظاهر الطيبرسية ميضأة وأنشأ لها ساقيـــة لإجراء المياه إليها . وبداخل باب الميضأة درجا يصعد منه للمنارة ولرواق البغداديين والهنود ، فجاء هـذا الباب وما بداخله من الطيبرسية والآقبغاوية والأروقة من أحسن المبانى فى العظم والوجاهة والفخامة ، والباب هو باب المزينين . والآقبغاوية هى مكتبة الأزهر حالا .

وبعد فما وجه اتصال هذا بإيضاح تاريخ مصر ؟ نقول إن من أمراء مصر قرب نهاية العصر العثمانى من استطاع أن يجارى أعظم سلاطينها وملوكها وخلفائها فى العصور السابقة فى العمارات العظيمة والمآثر الهندسية والخيرية الكبرى . وإن العصر الذى عاش فيه أمير كعبدالرحمن ووجد فيه من رجال الهندسة والفنون والصناعات الذين تولوا تنفيذ مشروعاته وتوافرت فيه الموارد للإنفاق عليها ، لايمكن عده بحال عصر تدهور أو انحطاط . وإن علينا جميعاً أن نراجع وأن ننقح أقوالنا فيه . وإذا أضفت إلى عمارات عبد الرحمن كتخدا إنشاء الأمير محمد أبو الذهب لجامعه التعليمى المشهور المقابل للأزهر ، تأكدت من صحة ما ذهبنا إليه من وجوب تأخير نسبة التأخر لذلك العصر إلى عهد مراد بك وابراهيم بك أى إلى قبيل الحملة الفرنسية ولا نحتاج إلى دليل ، فعمارته بسيطة بين عمارات عبد الرحمن فى الأزهر وغيره . وعمارة مراد بك بجامع عمرو تدلك على أن التدهور كان حقاً سريعاً جدا .

وعلى ذلك ، فعبد الرحمن كتخدا يستحق ترجمة جيدة ، وعماراته التى أكسبت الأزهر شكله الحالى بصفة شبه تامة تستحق رسالة مفصلة من جانب أحد تلاميذ « كريزويل » المصريين .

ومن حيث التاريخ الدينى الصرف ، فأهم ما يلاحظ على الفترة التى حددناها ، الاتجاه التصوفى الغالب عليها . وقد أرخه الدكتور توفيق الطويل تأريخاً جيدا ، ولا محل للمقارنة بين النزعة الصوفية فى ذلك العصر ، وبين ما سما إليه الفكر الصوفى الإسلامى فى العصور السابقة . إنما الذى يلفت النظر هو اختفاء ما كان بين الفقهاء ورجال التصوف فى بعض الأزمنة السابقة ، وانتظام العلماء جميعاً تقريبا فى أهل الطريق . نخص بالذكر من هؤلاء : الشيخ الحفنى المتولى لمشيخة الأزهر بين سنة ١١٧١ و ١١٨١ والشيخ عبد الله الشرقاوى المتولى للمشيخة بين سنة ١٢٠٨ و ١٢٢٧

والذى يحتاج إلى بحث من هـذا الموضوع أمران : الأول دراسة الطرق من حيث التاريخ الاجتماعى ، والثانى دراسة الطرق من حيث نظام الدولة .

والمسألة الثانية : من مسائل التاريخ الدينى

هى الكيفية التى استقرت بها مناهج الدراسة الدينية . وأثر الأزهر فى ذلك الاستقرار . وهذه لا تزال فى حاجة إلى البحث الوافى . من ذلك ما نلحظه من اختفاء الدرس الحر أى المستقل عن الجامعة الأزهرية ، بحيث إذا حدث شىء من ذلك نبه إليه المؤرخ المعاصر وتحدث عنه . وإليك ما ذكره الجبرتى فى ترجمته الرائعة لأستاذه الكبير السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس وشرح الإحياء المتوفى، سنة خمس ومائتين وألف وهو صاحب الفضل الأول فى توجيه الجبرتى نحو التاريخ . وربما كان آخر العلماء أصحاب الدروس الحرة (بالاصطلاح لكلمة حرة) . وقد مكن للسيد مرتضى من إقامة الدرس المستقل أمور : أولها بطبيعة الحال فضله ومواهبه ، ثانيها تشجيع بعض الكبراء له ، ثالثها طريقته . فمن هذه حرصه على جمع الفنون التى أغفلها المتأخرون كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث واتصال طرائق المحدثين المتأخرين بالمتقدمين ، ومنها كونه غريباً وعلى غير صورة العلماء المصريين وشكلهم . ويعرف اللغة التركية والفارسية ، بل وبعض لسان الكرج الخ . وكان درسه بجامع شيخون بالصليبة يومى الاثنين والخميس ، وكانت له دروس أيضا فى بيوت الأعيان فيذهب إليهم مع خواص الطلبة والمقرىء والمستملى وكاتب الأسماء فيقرأ لهم شيئا بحضور الجماعة وصاحب المنزل وأصحابه وأحبابه وأولاده وبناته ونسائه من خلف الستائر وبين أيديهم مجامر البخور بالعنبر والعود مدة القراءة ، ثم يختمون ذلك بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم على النسق المعتاد ؛ ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتى النساء والصبيان والبنات واليوم والتاريخ ، ويكتب الشيخ تحت ذلك «صحيح ذلك» ، وهذه كانت طريقة السلف كما روى الجبرتى فى الكتب القديمة . الخ

ومن حيث النظام التعليمى فهناك عدة مسائل منها تحقيق الزمن الذى أنشئت فيه مشيخة الأزهر ؛ فالمعروف أن الشيخ الخرشى أو الخراشى من علماء القرن الحادى عشر هو أول من تلقب بلقب شيخ عموم ، وأن ذلك كان سنة ١٠٩٠ ويقول الشيخ زكى غيث فى بحثه : إن الأزهر قديماً كان يتولاه الولاية العامة سلاطين مصر وأمراؤها ويباشر شئونه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة ومشايخ الأروقة يعاونهم خطيب المسجد ، والمشرف ومعاونوه من العمال والخدم . وفى عهد سلطنة برقوق (القرن الثامن) عين للأزهر ناظر ، والناظر من الأمراء ينوب عن السلطان فى الإشراف على شؤون الأزهر والسهر على رعاية مصالح أهله . ثم اقتضى نمو الأزهر واتساع أرزاقه وإدارته ومصالح أهله وجود شخص يتفرغ للإشراف على شئون هذا المعهد الدينية والإدارية معاً ، ويكون رئيساً لشيوخ المذاهب والأروقة وسائر علماء الأزهر وطلابه ، ومسئولا مباشرة أمام الولاة والسلاطين . ويصح جدا أن يكون الأمر كذلك ؛ ولكن ليس لدينا نص أو نصوص بهذا الأمر الخطير . والغريب أن ينشأ منصب ذو خطر كالمشيخة بلا مقدمات وبلا تنظيمات وبلا تحديد . ويقتضى كل ذلك التحقيق العلمى . واستمر عدم التحديد وعدم التنظيم يصاحبان تاريخ المنصب زمناً طويلا .

والظاهر أن القاعدة جرت بأن يعتمد ولى الأمر من يجمع عليه العلماء ، ولكن هذا الاجماع أو شبهه كان لا يتم إلا بعد أزمة يشتد فيها الخلاف اشتداداً كبيراً أو صغيرا ، ويرجع الخلاف أحيانا إلى تعصب لشخص بناء على مذهبه أو على موطنه . وأشد الأزمات تلك التى حدثت بعد موت الشيخ الدمنهورى (١١٩٢) بين أنصار الشيخ عبد الرحمن العريشى الحنفى وأنصار الشيخ أحمد العروسى الشافعى ، وانتصر الشوام والترك وبعض الأمراء للعريشى ، وقاوم الشافعية ما عدوه اغتصابا لحق الشافعية فى المشيخة ، وبلغ الخلاف حد الاصطدام واستخدام القوة . وفى وقت ما حلت الأزمة بإقرار العريشى شيخاً للحنفية ، والعروسى شيخاً للشافعية ، والدردير للمالكية ، وخلص الأمر بتقليد العروسى المشيخة . وكانت القاعدة على العموم أن من يتقلدها من الشافعية يكون فى نفس الوقت شيخاً للمذهب .

والمسألة الثانية الخاصة بشيوخ المذاهب وهى مناصب أقدم من منصب شيخ العموم وكيف تطورت . والمسألة الثالثة حقوق الأروقة وشيوخها وهكذا . كل هذه مسائل نملك بشأنها معلومات عديدة ولكن لابد من تحقيق الكثير منها بالرجوع إلى الوثائق .

ومن حيث تراجم الرجال أعتقد أن ما نشره الشيخ زكى غيث عن الشيوخ يكفى ليدل القارىء على ما احتواه تاريخ الرجال من مادة قل أن تجاريها مادة فى الشخصيات والمواهب والأطوار. وخذ على سبيل المثال الشيخ على الصعيدى العدوى المالكى المتوفى سنة ١١٨٩ قال صاحب الخطط : بلغ من نفوذه وعلو كلمته وجاهه أنه هو السبب فى إنشاء الأمير عبد الرحمن كتخدا لرواق الصعايدة وللخير العظيم الذى أجراه الأمير على أبناء الصعيد وقيل إنه لحبه للصعايدة من أجل الشيخ جعل مدفنه بجوار هذا الرواق . وقد دفن فيه فعلا . وقد اتخذ أكابر الأزهر هذا المدفن قديما مجلسا يجتمعون فيه عند المشورة فى المهمات ولنفوذ الشيخ على أيضا ، استقرت مشيخة الرواق من عدة أجيال فى المشايخ العدوية لكثرة العلماء به من بنى عدى . وإليك مثلا آخر : الشيخ أحمد العدوى الشهير بالدردير المتوفى سنة إحدى ومائتين وألف شيخ المالكية فعند ما ثار جماعة من أهل الحسينية بسبب ما حصل من هجوم الأمير حسين بك على منازلهم ونهبها حضروا إلى الأزهر وذهبوا إلى الشيخ الدردير فساعدهم بالكلام وقال لهم أنا معكم . وفى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معهم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم . . الخ . أو الشيخ محمد عليش فى الأزمنة القريبة وهكذا .

ولم يواجه أهل الأزهر مسائلهم الخاصة فحسب بل واجهوا المسائل العامة مواجهة مستمرة .

ولعل فيما أثبت ما يكفى لإظهار ما ذهبت إليه من أن تاريخ مصر لا يفهم إلا بفهم تاريخ الأزهر ولعل فيه أيضا ما يشوق أبناءه الأفاضل للقيام بما عليهم نحو تحقيق تاريخه وإخراج ذلك التحقيق لكافة الناس .

محمد شفيق غربال

بين خليفة وقاض

للأستاذ عبد الحميد العبادى بك
أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة فاروق

أما الخليفة فهو أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله الذى استوى على عرش الأندلس خمسين سنة (٣٠٠ — ٣٥٠ ﻫ) تعد بحق أزهى عصور الأندلس، ومن أمجد العصور الإسلامية على الإطلاق. تولى والأندلس على أسوأ حال: شمل ممزق وفتن ضاربة أطنابها وعدو يتحفز لينقضّ عليها من فوقها ومن أسفل منها. فما زال بالفتن حتى قطع دابرها، وبالأعداء يجاهدهم تارة بنفسه، وأخرى بأبرع قواده، حتى خضد شوكتهم، وكسر شرتهم، وأنزلهم على حكمه.

ولما رأى فساد أمر الخلافة العباسية بالمشرق، واستفحال أمر العبيديين بالمغرب، استقر فى نفسه أنه أحق بلقب الخلافة من العباسيين والعبيديين جميعاً، لأنه أجمع منهم لشروطها فأعلن خلافته فى سنة ٣١٦ ﻫ وبايعه الشعب بالخلافة طائعاً راضيا. ثم إنه رفع للعلم والحضارة بالأندلس مناراً عاليا. وعنى بالبنيان والعمارة فشيد مدينة الزهراء التى كانت تضرب بروعتها الأمثال. وطار صيته فى الخافقين وازدلفت إليه ملوك أوربا، وقدمت عليه وفودهم طالبة موادعته ومودته، فكان بحق أوحد ملوك العالم فى عصره.

* * *

وأما القاضى، فهو أبو الحكم منذر بن سعيد البلّوطى، أصله من فحص البلوط بناحية قرطبة، ولد فى العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى، ونشأ وتفقه بالأندلس على عبيد الله ابن يحي بن يحيي الليثى وأمثاله، ثم رحل إلى المشرق حاجا وطالبا للرواية، على عادة كثير من علماء الأندلس فى ذلك الزمان، واجتمع فى رحلته بجمهرة من علماء المشرق، وظهر فضله هناك. وممن سمع عليهم بمكة: محمد بن المنذر النيسابورى، سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء، المسمى «بالأشراف»، كما روى بمصر كتاب «العين» للخليل عن أبى العباس بن ولاد، والشعر القديم عن أبى جعفر بن النحاس. ثم عاد إلى وطنه، وقد استحكمت سنه وكملت تجاربه وتمت ثقافته، وأصبح معدوداً فى كبار فقهاء الأندلس وثقاتها فى العلم، وقد صنف كتبا فى علوم الفقه والكلام والتفسير، وكان يغلب عليه التفقه بمذهب داود الظاهرى. ويأخذ به نفسه وذويه. فلما تولى القضاء كما سيجيء، كان لا يقضى إلا بمذهب مالك، لأنه المذهب الذى كان عليه العمل بالأندلس، على أنه كان مع ذلك واسع الأفق فى مسائل الفقه، ميالا إلى الاجتهاد، غير ملتزم التقليد، يشير إلى ذلك قوله:

عذيرىَ من قوم إذا ما سألتهم ... دليلا أجابوا: هكذا قال مالك
فإن زدت قالوا: قال سحنون مثله ... وقد كان لا تخفى عليه المسالك
فإن قلتُ: قال الله، ضجوا وأعولوا ... علىّ وقالوا: أنت خصم مماحك

وكما كان منذر فقيهاً متبحراً فى الفقه، كان خطيباً

مفوَّهاً وواعظاً جهير الصوت بليغ العبارة، قريب الدمعة، حسن الترتيل، قوى التأثير فى سامعيه، وكان فوق ذلك شاعراً، وشعره من قبيل شعر العلماء، وقد أورد المقرى فى كتابه نفح الطيب، مساجلات شعرية جرت بينه وبين أبى على القالى وغيره من الأدباء. وكانت فيه مع جده وورعه، دعابة ربما انخدع بها من لا يعرف باطنه، فإذا أراد النيل من دينه يتكشف له عن أشد ورد لا يرام حماه.

* * *

والظاهر أن منذر بن سعيد كان يحيا فى قرطبة حتى سنة ٣٣٩ حياة فقيه يدرس العلم ويصنف الكتب ويساجل العلماء والأدباء، دون أن يلى للسلطان عملا، مع فضله وتقدم سنه. لذلك لم يكن الناصر يعرفه شخصياً على نحو ما يعرف السلطان كبار رجال دولته. اللهم إلا أن يدعى فى زمرة الفقهاء إلى الحفلات الرسمية، التى كثيراً ما كانت تعقد فى البلاط على عهد الناصر. ثم عرضت ظروف نبهت الخليفة إلى مكانة منذر وفضله وخطره، ورفعت فى طرفة عين منذراً إلى مكان الصدارة من رجال الدولة. ففى عام ٣٣٩ قدم من قرطبة وفد عاهل القسطنطينية، يحمل إلى الناصر تحفاً وهدايا، ويرغب فى توثيق أواصر الود والصداقة بين الناصر والعاهل البيزنطى. وقد أراد الخليفة أن يستقبل هذا الوفد فى بعض مجالس الزهراء أفخم استقبال وأعظمه. وقد أتى المقرى فى كتاب «نفح الطيب» على وصف ذلك الحفل بالتفصيل. قال: «وتقدم الناصر إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده بإعداد من يقوم من الخطباء ويقدمه أمام إنشاد الشعراء، فتقدم الحكم إلى أبى على القالى البغدادى، ضيف الخليفة وأمير الكلام، وبحر اللغة، أن يقوم، فقام وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم انقطع وبهت، فما وصل إلا قطع، ووقف ساكتاً مفكراً، فلما رأى ذلك منذر ابن سعيد، وكان ممن حضر فى زمرة الفقهاء، قام بدرجة من مرقاة أبى على، ووصل افتتاحه بكلام عجيب، بهر العقول جزالة، وملأ الأسماع جلالة. وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه، وثبات جنانه، وبلاغة لسانه، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه. وأقبل على ابنه الحكم فسأله عنه، ولم يكن يثبت معرفته، فقال له: هذا منذر بن سعيد البلوطى، فقال والله لقد أحسن ما شاء. وأراد الخليفة مكافأته والانتفاع بمواهبه فولاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بمدينة الزهراء. ثم حدث بعد قليل من الزمن أن توفى قاضى الجماعة بقرطبة، فولى الخليفة منذرا قضاء الجماعة بقرطبة، وأقره على الصلاة بالزهراء.

* * *

وهكذا نشأت الصلة بين الخليفة الناصر لدين الله وبين القاضى منذر بن سعيد. نشأت من مناسبة عارضة أعجب منها الخليفة بالقاضى والقاضى بالخليفة. غير أنه سرعان ما وقعت الوحشة بين الخليفة وقاضيه، وذلك لاختلاف وجهة نظر كلٍّ إلى الأمور.

أمَّا الخليفة فكان ينظر إليها نظرة ملك عظيم ربما جانبه الصواب فى بعض تصرفاته على غير قصد منه، ولكنه يحب مع ذلك أن يعرف له

حقه من التبجيل والتكريم ، أما القاضى فكان يرى أن واجبه يحتم عليه أن يجرى فى تصرفاته على أساس العدالة المطلقة ، مهما علا مكان المتقاضى إليه ولو كان الخليفة نفسه . قالوا إن الناصر احتاج إلى شراء دار فى قرطبة لإحدى نسائه ، فوقع استحسانه على دار واسعة ذات مستغلات وافرة ، وكانت لأيتام فى حَجْر القاضى . فأرسل الخليفة من قوّمها بقدر ماطابت نفسه ، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصى الأيتام فى بيعها عليهم ، فذكر أنه لا يجوز البيع إلا بأمر القاضى منذر ، فأرسل الخليفة إلى القاضى فى بيع هذه الدار . فقال لرسوله : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه : منها الحاجة ، ومنها الوهى الشديد ، ومنها الغبطة . فأما الحاجة فلا حاجة بهذه الأيتام إلى البيع ، وأما الوهى فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها . فإن أعطاهم أمير المؤمنين ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع وإلا فلا . فنقل جوابه إلى الخليفة ، فأظهر الزهد فى شراء الدار طمعاً فى أن يغير القاضى رأيه . ولكن القاضى لم يغير رأيه ، ثم إنه خاف أن تنبعث من الخليفة عزيمة تلحق بالأيتام ضرراً ، فأمر وصى الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ففعل ذلك ، فكانت قيمة الأنقاض أكثر مما قومت به للسلطان . عند ذلك أرسل الخليفة إلى القاضى منذر يسأله عما دعاه إلى نقض الدار ؟ قال أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » مقوموها لم يقوموها إلا بكذا ، وقد قبض فى أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت القاعة والحمام ، ونظر الله للأيتام ، فلم يسع الخليفة إلا أن يقر القاضى على ما عمله وقال : « نحن أولى من انقاد إلى الحق ، فجزاك الله عنا وعن أمانتك خيراً » .

* * *

وأذن الخليفة للحادث أن يمر بسلام ، وإن كان أبقى فى نفسه شيئاً من الموجدة على القاضى الذى تحداه على هذا النحو الذى لم يعهده . ثم سرعان ما وقع حادث آخر كان أشد من الحادث الأول وأدهى . لقد كان الناصر بطبعه ميالا إلى العمارة ، مشغوفاً بتشييد البنيان ، يرى أن ذلك من أبهة الملك والدليل الباقى على فخامة الدولة . وينسبون إليه أنه القائل :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محته حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

ولقد أقبل على عمارة الزهراء أيما إقبال وأنفق من أموال الدولة فى تشييدها وزخرفتها ما أنفق ، وهى لا تعدو فى حقيقة أمرها أن تكون مجموعة من القصور الفاخرة مخصصة لنزله وسكنى خدمه وحشمه وحرسه ، وكان ربما أشرف بنفسه على شئون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة ثلاث جمع متواليات . فاشتد ذلك على خطيب المسجد الجامع بالزهراء وإمام الصلاة فيه ، ورأى خروجا من تبعة التقصير فيما أوجب الله على العلماء من تنبيه الغافل وتذكير الناس ، أن يلقى على

الخليفة درساً قد يكون ثقيلا عل نفسه، ولكن فيه شفاء له من علة الإسراف، ورد إلى طريق الصواب. ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس وفى المسجد الجامع بالزهراء نفسها. وعلم أن الخليفة سيشهد صلاة الجمعة بعد طول انقطاعه عن شهودها، فأعد خطبة قويه ضمنها كل ما كانت تجيش به نفسه من المعانى. فلما كان يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة اعتلى المنبر، والخليفة حاضر والمسجد غاص بالمصلين، فابتدأ فى أول خطبته بقوله تعالى « أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » إلى قوله « قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » ثم مضى فى ذم تشييد البنيان، والاستغراق فى زخرفته، والأسراف فى الإنفاق عليه، بكل كلام جزل، وقول فصل، تلا قوله تعالى « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم، والله لا يهدى القوم الظالمين » وراح يخوف من الموت ويحذر من فجاءته ويدعو إلى الزهد فى هذه الدار الفانية ويحض على الإعراض عنها، ونهى النفس عن اتباع الهوى، فأسهب فى ذلك كله وأضاف إليه من آى القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشا كله، حتى ادّكر من حضر من الناس وخشعوا ورقوا وبكوا وضجوا ودعوا ... وأخذ الخليفة من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود به، فبكى وندم على تفريطه.

غير أن الخليفة وجد على منذر لغلظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده الحكم بعد انتهاء الصلاة وانصراف الخطيب، وقال: والله لقد تعمدنى منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى فأسرف على، وأفرط فى تقريعى وتأنيبى ولم يحسن السياسة فى وعظى، فزعزع قلبى، وكاد بعصاه يقرعنى، ثم استشاط غيظاً عليه، فأقسم أن لا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها خلف صاحب الصلاة بقرطبة ويجانب الصلاة بالزهراء.

هذه كل العقوبة التى نال بها الخليفة الخطيب الذى تجاوز الحد فى وعظه وإرشاده. ولقد قال له الحكم: فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال به غيره؟ ولكن الخليفة زجره وقال له «أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه، يعزل لأرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون ... بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله، فما أظننا نعتاض منه أبداً».

بيد أن الجفوة تأكدت واشتدت بين الخليفة والقاضى، وأحب «ولى العهد» الحكم لو أزالها أو خفف من حدتها، فقيل إنه اعتذر إلى الخليفة عما قال منذر وقال يا أمير المؤمنين: إنه رجل صالح وما أراد إلا خيرا، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية، لعذرك، ويريد بالبنية هنا القبة التى بناها الناصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضة، وبعضها مغشى بالذهب، وجعل سقفها نوعين: صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة، يستلب الابصار شعاعها. فلما قال له الحكم ذلك، أمر ففرشت

بفرش الديباج ، وجلس فيها لأهل مملكته . ثم قال لقرابته ووزرائه : أرأيتم أم سمعتم ملكا كان قبلي صنع مثل ما صنعت ؟ فقالوا لا والله يا أمير المؤمنين ! ، وإنك لأوحد في شأنك ! فبينما هم على ذلك ، إذ دخل منذر بن سعيد واجما ناكسا رأسه ، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته ، فأقبلت دموع القاضي تتحدر على لحيته وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكن ، مع ما آتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين ، حتى ينزلك منازل الكافرين ! فاقشعر الخليفة من قوله ، وقال له انظر ما تقول ! كيف أنزلني منازلهم ؛ قال : نعم ! أليس الله تعالى يقول « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون » : الآيات . فوجم الخليفة ، ونكس رأسه مليا وجعلت دموعه تتحدر على لحيته ، ثم أقبل على منذر وقال له : « جزاك الله عنا وعن الدين خيرا ، فالذي قلت هو الحق » ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها .

وهكذا أقر الخليفة للقاضي بأنه على الحق فيما قال . وزال ما كان في نفسه من الموجدة عليه .

ولكن بقي أن يرضى القاضي عن الخليفة . ولم يكن ذلك بعيدا . فقد قحطت الأندلس في آخر مدة الناصر (سنة ٣٥٠ هـ) فأمر منذرا بالخروج للاستسقاء ، فخرج ، واجتمع له الناس في مصلى الروض ، وصعد الخليفة في أعلى مصانعه المرتفعة ليشارك الناس في الخروج إلى الله . وأبطأ القاضي حتى اجتمع الناس ، ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا مخبتا ، وقام ليخطب . فلما رأى خشوع الجمع وإخباتهم رقت نفسه وغلبته عيناه ، فبكى حينا ، ثم افتتح خطبته فقال : « يأيها الناس : سلام عليكم ! » ثم سكت ووقف شبه الحصر ، ولم يكن من عادته ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض ، لا يدرون ما عراه ، ثم اندفع في خطبته ، فهز القلوب وأبكى العيون ، وكان الخليفة أشد الحضور وجلا وخشوعا ، وأغزرهم بكاء وأحرهم دعاء ، فلما رأى القاضي منه ذلك تهلل وجهه وقال : « قد أذن الله بالسقيا ، إذا خشع جبار الأرض . فقد رحم جبار السماء » قالوا وكان كما قال ، فلم ينصرف الناس إلا عن السقيا .

وتوفي الخليفة الناصر في سنة ٣٥٠ أما القاضي منذر فكانت وفاته في سنة ٣٥٥ في خلافة الحكم المستنصر . وقد ظل حتى وفاته على قضاء الجماعة بقرطبة والخطابة والصلاة بجامع الزهراء .

وإن الإنسان لا يدري بأي هاتين الشخصيتين هو أشد إعجابا ؛ أبالخليفة في نبله . وسعة احتماله ، وإذعانه للحق عند وضوحه ، أم بالقاضي في عدالته ، وصراحته ، وشجاعته وشدة إخلاصه لدينه وواجبه . ألا حيا الله تلك النفوس الكبار فعلى مثلها تصلح الدول وتستقيم أمور الناس ؟

عبد الحميد العبادي

صفحة مجهولة من التاريخ الإسلامى

للدكتور محمد عبد الله ماضى
السكرتير العام للجامع الأزهر

إن تاريخ اليمن الزيدية يكاد يعتبر من النواحى المجهولة فى التاريخ الإسلامى ، فإن الباحث فى تاريخ اليمن الإسلامى إذا استقصى المراجع المعروفة عربية وأوربية ، فسوف لا يجد فى هذه المراجع ما يغنى عن اليمن الزيدية . فإنا نجد مثلا الطبرى ، فى تاريخه المشهور ، لا يذكر الهادى إلى الحق مؤسس اليمن الزيدية إلا فى إشارة عابرة تبلغ نحو الخمسة أسطر من كتابه « أخبار الرسل والملوك .. » الذى يبلغ ١٥ جزءاً فى طبعة ليدن . وحتى فى هذه الإشارة العابرة لم يذكره الطبرى بالاسم ، وإنما تحدث حديثاً عاماً عن رجال من العلويين ، كذلك أبو الفرج الأصبهانى صاحب « موسوعة الأغانى » ، ذلك الرجل الذى كان واسع الاطلاع والمعرفة نجده فى كتابه « مقاتل الطالبيين » لا يعرف شيئاً عن الطالبيين باليمن ، فهو يصرح ويقول : « على أنه يوجد فى اليمن فى هذا الوقت وبنواحى طبرستان ، جماعة من آل أبى طالب قد ملكوها وتغلبوا عليها ، إلا أن أخبارهم منقطعة عنا لقلة من ينقلها إلينا ، بل لعدمهم وفقدانهم » . وابن الأثير فى كتابه « الكامل » نجده يصف لنا ضعف الخلفاء العباسيين وتدهور الأحوال فى الدولة العباسية فى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجرى ، خصوصاً فى عهد الخليفة الراضى ، ثم يعدد أصحاب الأطراف الذين استقلوا بما تحت أيديهم والدويلات التى انفصلت عن الدولة العباسية والأسر التى ظهرت لغاية سنة ٣٢٤ هـ ويعدها جميعها تقريباً ، ولكنه لا يذكر شيئاً عن الأئمة الزيديين فى اليمن ، مع أن دولتهم فى ذلك الوقت كانت قد قامت فى اليمن منذ أربعين سنة تقريباً ، أما ابن خلدون فى كتابه « العبر » فقد عرف الهادى إلى الحق بالاسم وتحدث عنه فى نحو عشرة أسطر ، ولكنه مع الأسف حتى فى هذه الأسطر القليلة لم يورد إلا بعض المعلومات غير الصحيحة ، إذ يذكر عن الهادى أنه ولد فى بلاد السند ، وأنه قدم إلى اليمن من هناك ، مع أنه ولد فى المدينة وقدم إلى اليمن من جبل الرس بالقرب من المدينة ، كما تذكر كل المخطوطات اليمنية . كذلك أبو الحسن الأشعرى الذى ينتسب إليه مذهب الأشاعرة المعروف فى العقائد ، نجده فى كتابه « مقالات الإسلاميين » لا يذكر شيئاً عن زيدية اليمن .

أما قدماء الجغرافيين الإسلاميين ، أمثال شمس الدين المقدسى (محمد أبو عبد الله) فى كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، وأبو القاسم بن حوقل فى كتاب « المسالك والممالك » ، وابن رسته (أحمد بن على) فى كتاب الاعلاق

النفيسة ، وأبو إسحاق الكرخي (إبراهيم بن محمد الفارسي) ، في كتاب « المسالك والممالك » كل هؤلاء الأعلام لم يذكروا لنا في كتبهم عن اليمن الزيدية شيئاً يعتد به ، بل هم لم يذكروها إلا بإشارات عابرة.

هذا هو شأن المراجع العربية أما المراجع الأوروبية الحديثة التي كتبت عن اليمن مثل « أئمة صنعاء » the Imams of Sana 'à' لتريتون (Tritton.) واليمن في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) لفستنفيلد (Westenfeld) فهذه وأمثالها لم تعالج الدولة الزيدية باليمن ، وإنما أرخت للحكم التركي هناك ، وأما ما كتبه الدكتور « انصالدي » الطبيب الإيطالي الذي عاش باليمن وكتب عنه في عهد موسوليني في كتابه اليمن (Il Yemen von Ansaldi) .

فإنه لم يخرج عن ملاحظات عامة عن الشعب اليمني وجغرافية اليمن في العصر الحاضر .

ونحب أن نشير هنا إلى بعض الكتب العربية التي ظهرت حديثاً عن اليمن ولخصت لنا بعض المعلومات المختصرة عن اليمن الزيدية من المخطوطات اليمنية الزيدية مثل كتاب . « تاريخ اليمن » للشيخ عبد الواسع الواسعي اليمني وكتاب « المقتطف من تاريخ اليمن » للقاضي عبد الله الجرافي ، وهي كتب ولا شك مفيدة قيمة شأنها شأن كتاب « ظهور الإمامة الزيدية باليمن »

(Die Entstehnug des zeidietischen. Imamats in Yemen)

الذي ألفه VanA rendonk. بالهولندية في سنة ١٩١٩ عن الهادي إلى الحق مؤسس الدولة الزيدية باليمن واعتمد فيه على كتاب سيرة الهادي المخطوط لعلي بن محمد بن عبيد الله العباسي العلوي وعلى بعض المخطوطات الأخرى ؛ وهو كتاب يعتبر من الكتب القيمة في الموضوع . ولكن هذه الكتب لا تغني الباحث في تاريخ اليمن الزيدية عن الاطلاع على المخطوطات الكثيرة التي تعتبر المراجع الأصلية لتاريخ اليمن الزيدية والتي كتبها أصحابها اليمنيون الزيديون في تاريخ زيدية اليمن ، مثل كتاب « الإفادة في تاريخ الأئمة السادة » للإمام الناطق بالحق أبي طالب يحيي ابن الحسين الهاروني الحسني المتوفى سنة ٤٢٤ هـ ، وكتاب « تتمة الإفادة ... » لعماد الدين يحيي ابن علي القاسمي المتوفى بعد سنة ١٠٨٨ هـ ، وكتاب « أنباء الزمن في تاريخ اليمن » ليحيي بن الحسين بن المؤيد بالله اليمني المتوفى سنة ١١١٠ هـ وهذا الكتاب الأخير له ميزة الإفاضة في ذكر تاريخ الأئمة الزيدية والتعرض لعلاقات الدولة الزيدية بدولة الخلافة أو بغيرها من دويلات اليمن المختلفة التي عاصرت الزيديين وجاورتهم ، والمؤلف فوق هذا ثقة يعتمد عليه .

وهذه المخطوطات الزيدية يوجد بعضها بمكتبات أوربا ، مثل مكتبة ليدن بهولندا ، ومكتبة برلين بألمانيا ، والمتحف البريطاني بعاصمة « انكلترا » ولكن أكثرها لا يزال للأسف مطموراً مجهولا بمكتبة الإمام بصنعاء ، أو بالمكتبات الشخصية عند بعض الأفراد اليمنيين ، وحبذا لو ساعدت الظروف على البحث عن جميع هذه المخطوطات الهامة في اليمن والعمل على إخراج بعضها ، فإن

المؤرخ الإسلامى فى حاجة شديدة لمثل هذا العمل النافع، وإنا نستبشر خيراً بما قامت به وزارة المعارف أخيرا ، فقد أرسلت بعثة إلى اليمن استحضرت بعض المخطوطات ووضعتها تحت بحث المختصين .

* * *

وإنه لجدير بنا بعد ذلك أن نتساءل ، ما هى الأسباب التى جعلت أحوال اليمن ، وخاصة اليمن الزيدية ، مجهولة لدى المؤرخين إلى هذا الحد الذى بيناه ؟ خصوصا وقد كانت اليمن فى العصور الأولى موطن الحضارة العربية القديمة ، ومقر الملك لملوك الدول الحميرية ، فقد كان اليمنيون القدامى أصحاب حضارة وفن ،كما تدل على ذلك الآثار القديمة والحفائر فى بعض البلاد اليمنية مثل : غيمان ، وصُرواح ، ومأرب ، ومعين ، وظفار وغيرها من بلاد اليمن ، هذه الآثار التى تشهد بما وصل إليه اليمنيون القدامى من فن المعمار وإقامة التماثيل وبناء السدود وهندسة الرى والزراعة . وكذلك كان اليمنيون مهرة فى صناعات كثيرة مثل صناعة النسيج والدباغة وصنع السلاح وغير ذلك ، كما كانت اليمن فى تلك العصور هى الواسطة فى التجارة بين الشرق والغرب تنقل التجارة من طريق البر على ظهور الإبل قبل نقلها على السفن الشراعية عن طريق البحر ، وفوق هذه الصلات التجارية كانت لليمن القديمة صلات سياسية وثقافية مع الدول الأخرى فى ذلك الوقت، خصوصاً مع الحبشة والفرس والروم،كل هذا وغيره معروف عن أحوال اليمن فى العصور القديمة ، فما هو السبب إذاً فى أن أصبحت اليمن الإسلامية وخصوصاً اليمن الزيدية مجهولة إلى هذا الحد ؟ !

أظن أن الجواب على هذا سوف لا يكون عسيراً إذا علمنا أنه بعد أن أهملت الشئون الإصلاحية العامة فى أخريات أيام اليمن المستقلة صاحبة الحضارة المزدهرة ، أيام حكم الملوك الحميريين ، وبعد تصدع سدود المياه مثل سد مأرب الذى تسبب عن تصدعه ضياع المياه المخزونة اللازمة للرى والزراعة ، رأت القبائل اليمنية الكثيرة نفسها بعد ذلك مضطرة إلى الهجرة والتفرق فغادرت اليمن للبحث عن الرزق لأنفسها وعن المرعى لدوابها ، وهاجرت إلى عمان وجبال السراة فى عسير وإلى الحجاز والعراق والشام ، فانحطت بعد ذلك الحضارة والتجارة فى البلاد اليمنية ، خصوصاً بعد أن فقدت اليمن استقلالها على يد الأحباش أولا ، ثم على يد الفرس أخيرا ، وأصبحت اليمن غير ذات أهمية خاصة ، وانقطعت أخبارها إلا النزر اليسير منها ، وعاش اليمنيون الذين لم يغادروا البلاد بعد ذلك فى شبه قطيعة وعزلة ، وساعد على ذلك وعورة المسالك فى الجبال اليمنية ، وعدم وجود الطرق المعبدة بهذه البلاد .

فلما ظهر الإسلام كانت قد تكونت للعرب فى شمال الجزيرة فكرة واضحة عن بعد بلاد اليمن وانقطاعها ، حتى أنهم أصبحوا يضربون المثل فى بعد المنال بصنعاء عاصمة اليمن فقالوا : لابد من صنعا وإن طال السفر . وأصبح ذلك مثلا يضرب عند ما يريد الإنسان أن يقول سوف لا تحول العقبات بينى وبين ما أبتغيه ، وسوف لا يمنعنى بعد الشقة من الوصول إلى الهدف وإن بعد ما بينى وبينه بعد صنعاء

فى الفلسفة والعلم

الفلسفة فى خدمة المجتمع

للدكتور محمد البهى
مراقب عام البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر

الفلسفة رمز لثورة الإنسان على الإنسان ، والفلاسفة حملة لواء هذه الثورة ضد المحتكرين ـ فى نظرهم ـ توجيه الإنسان لا باسم الإنسانية ، والذين يرسمون بكلماتهم سلوكه فى سعيه ويحددون هدفه من هذه الحياة .

وهى فى الوقت نفسه عنوان فى نظر الفلاسفة على المنهج المثالى لحياة إنسانية معتدلة لا إفراط ولا تفريط فيها ، يضع ـ إذا ما طبق ـ حدا بين مآسى الإنسان فى ماضيه قبل أن تنشأ الفلسفة وبين آمال طيبة مرتقبة له فى مستقبله بعد قيامها ونشأتها .

تصور الفلاسفة عند ما بدأوا عملهم الفلسفى

عاصمة اليمن، وبقى هذا المعنى فى العصر الأول للإسلام، فإنا نجد مثلا سعد بن معاذ الصحابى الأنصارى المشهور يظهر للرسول عليه السلام خضوعه له واتباعه لأوامره مهما كلفه ذلك من مشقة فيقول له : سوف لانقول لك كما قال قوم موسى له : فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون ، وإنما نقول لك سوف نتبعك ولو سرت بنا إلى بَرْك الغماد . وبرك الغماد هذا موضع ببلاد اليمن ، كذلك فى أيام الدولة العباسية نجد هذا المعنى باقياً أيضاً ، ففى أيام الخليفة المقتدر نجد أن الوزير أبا الحسن على بن الفرات حينما يبحث عن المنفى البعيد ليرسل اليه سلفه الذى أصبح مغضوباً عليه «على بن عيسى» لايجد أبعد من صنعاء عاصمة اليمن ليرسل به اليها ، فنفاه اليها فى سنة ٣١١ هـ ولم يرجع على بن عيسى من المنفى إلا بعد خلع ابن الفرات فى السنة التالية سنة ٣١٢ هـ حيث أذن له أن يغادر المنفى إلى مكة .

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم من أسباب جهل الأحوال باليمن وعدم ذكر مشاهير المؤرخين والجغرافيين الإسلاميين إلا النزر اليسير الذى لايغنى عن اليمن وخصوصاً عن اليمن الزيدية ، ويمكننا أن نضيف سبباً آخر ، ذلك أن هؤلاء المؤرخين الذين عاش أغلبهم فى عصور الدولة العباسية ومن أتى بعدهم كانوا يعتبرون أصحاب الدولة الزيدية باليمن من الذين خرجوا على دولة الخلافة ، فهم حتى وإن علموا شيئاً عن أحوال الدولة الزيدية ـ وهو أمر غير واضح ـ لايعطونها الأهمية التى تستحقها ولا يعنون بالتأريخ لها لهذا السبب ؟

محمد عبد الله ماضى

أن الإنسان والجماعة الإنسانية فى ذلك العهد طغت على توجيهها نزعة الاستغلال والاحتكار من أولئك الموجهين الذين احتفظوا لأنفسهم بحق « المعرفة » والحديث عنها وباسمها ، تلك المعرفة التى لها إذ ذاك طابع القداسة والعصمة لأنها تتصل بآلهة الكون . تصور الفلاسفة أن هؤلاء أصحاب « المعرفة » فى الجماعة عندئذ قد توسعوا فى تحريفها أو تفسيرها تفسير المغرضين لتحقيق غايات خاصة ورغبات فردية عن طريق غير مباشر .

الفلسفة بعد نشأتها و « الميثولوجى » طرفان فى الخصومة حول السيطرة على توجيه الإنسان . كلتاهما تكافح الأخرى وتعمل على تقويضها فى هذا المجال: تلك تشيد بعقل الإنسان وتعتمد عليه ، وهذه تستوحى القول ممن لهم فى نظر المعتقد إذ ذاك عصمة وقداسة . كان على الفلسفة أن تهدم وتبنى مستقلة عما فوق الإنسان ، وكان على الميثولوجى أن تقص وتروى عمن لهم استطاعة غير مقدرة فى اعتقاد المؤمن المتدين . وعُرفت الفلسفة لذلك بالمنطق ، كما عرفت الميثولوجى بالنقل ، وأصبح المنطق والنقل متقابلين يدلان على اتجاهين متغايرين — على الأقل فى المصدر — فى توجيه الإنسان وتحديد غايته فى حياته الخاصة والعامة ، أو فى حياته الفردية والجماعية .

وبقى « المنطق » عنوان العمل الفلسفى فى العهود الزمنية التالية للعهد الأول ، واستمر « النقل » مصطلحا على الاتجاه المتقابل ، وهو الدين ، بعد الميثولوجى . واستمرت الفجوة — على الأقل فى تصور الإنسان ، إن لم يكن فى واقع الأمر — فى العصور اللاحقة بين الفلسفة والدين ، على نحو قريب مما كان بين الفلسفة عندما نشأت والقصص الدينى القديم الذى عاصر نشأتها .

الفلسفة كانت إذن طرفا فى الخصومة حول التوجيه ، وكان عملها يتمثل فى الهدم والبناء :

كانت تتجه فى هدمها طبعا إلى الميثولوجى ، وتحطيم ما انطوت عليه من معتقدات ترسم حياة الإنسان القريبة والبعيدة ، وتوضح الوسائل التى يتجنب بها الإنسان المعتقد غضب الآلهة ، ويستدر رضاها . وما كانت ترسمه قصص الميثولوجى فى عباراتها الشعرية الخيالية لحياة الإنسان . كان لا يتجاوز صورة بدائية مادية ، قلما تُرى فيها مُثُل عليا ، يجب على الإنسان بحكم العقيدة أن يحاكيها ، فيقترب منها .

وفى بنائها كانت ترمى إلى تحديد الوجود وشرح عوالمه وأنواعه ، ووضع الأسس التى يصل بها الإنسان إلى غاية الوجود كله ، وهى غاية تسمو على التصورات المادية القريبة المبتذلة .

وعند ما ضعفت العقائد الشعبية الأولى التى كانت تصورها الميثولوجى ، وسيطرت محلها الأديان السماوية ، حاول نفر من الفلاسفة أن تظل الفلسفة فى مهمتها الأولى ، وتقف من هذه الأديان موقف الهدم والبناء ، كما كان أمرها مع العقائد الشعبية وقصصها الدينى : تهدم هنا وإن لم يكن ما يستحق أن يهدم ، وتبنى كذلك وإن لم يكن جديد فيما تبنيه .

وباستمرار الفلسفة عن طريق هذا النفر من

الفلاسفة فى أن تهدم الديانات السماوية وتبنى على أنقاض ما تهدم، أصبح الصراع الأول الذى كان فى القديم بين الفلسفة والميثولوجى أشد عنفاً وأكثر تعقيداً، بعد ما أضحى بين الفلسفة والدين.

والنصر الذى أحرزته الفلسفة على الميثولوجى قديماً، حيناً من الدهر، لم تستطع الآن أن تنال مثله أو ما يقرب منه، سواء فى مدته وزمنه أو فى كثرة المتحمسين له والمشيدين بذكره. ذلك لأن قضايا الدين السماوى لم تقف فى تصوير الحياة الإنسانية عند الجانب المادى، كما كان الأمر فى الميثولوجى، ولأنه من ناحية أخرى لم تستمر الفلسفة فى تمجيد «المثالية» على نحو ما كانت تمجدها على عهد خصومتها ونزاعها مع القصص الدينى والعقائد الشعبية.

وبرغم ذلك بقيت «الثنائية» بين المنطق أو العقل من جانب، والنقل أو السنة من جانب آخر، أو بين الفلسفة والدين، ومع ذلك أيضاً بقيت محاولة الفلسفة، كما كانت، فى أن تقنع الإنسان بأنها فيما تهدمه أو تبنيه فى خدمة المجتمع الإنسانى: فالفلسفة المادية، فى أوضح صور الدعوة إلى الأخذ بالوجود المادى، لا تنى فى خطوة من خطواتها عن أن تقود الإنسان إلى الاقتناع بأنها لسعادته، دون الدعوة المثالية التى تمجدها الأديان السماوية.

* * *

دعا أفلاطون إلى إنسان أفضل، ومجتمع بشرى أفضل، أو رسم بفلسفته فى جوانب الوجود هذه الصورة أمام الإنسان، بعد ما أبان عن الخطأ أو التحريف الذى صاحب «معرفة» الكهان فى توجيه الإنسان والجماعة الإنسانية. دعا إلى تفضيل «العقل» على «النقل»، وشرح أن فى الاعتماد على العقل فى التوجيه توفيراً لكرامة الإنسان، وأمناً من الزلل فى السلوك فى الحياة:

(ا) ارتضى فيما بعد الطبيعة أن تكون الموجودات هناك «مُثُلا»، ونماذج لموجودات الطبيعة، وبحكم أنها مُثل ونماذج، تكون فى وضع الغايات والمقاصد تتجه موجودات الطبيعة نحوها وتحاكيها فى سعيها وحركاتها. والوجود الطبيعى لذلك ليس غاية فى نفسه، وما فيه لا يصح أن تقف حركات الإنسان عنده.

وبتحديد أفلاطون للوجود كله على هذا النحو، غاير بين الفلسفة والعقيدة الشعبية، إذ هذه تجعل من الوجود الطبيعى غاية، وتتخذ من بعض موجوداته آلهة يقصدها الإنسان فى سعيه وحركته والآلهة فى أية عبادة نهاية الوجود فى نظر المعتقد. وحياة أصحاب هذه العقيدة حياة مادية، تسيطر عليها الرغبة فى المنفعة المادية، أو دفع الضرر المادى، ونظرتهم فى أفق مادى لا تتجاوزه، وسعادتهم وشقاوتهم مادية. ولذا توصف حياة الوثنى بالبدائية وعدم التهذيب أو السمو.

وبهذه المغايرة التى أتى بها أفلاطون يستطيع الإنسان غير الوثنى وغير المتفلسف أن يقر العقل فيما ذهب إليه هنا فى وصف الوجود وتحديده، ولا يتابع النقل أو العقيدة الشعبية فيما تصوره بأسلوبها القصصى من حياة الإنسان وما يجب أن يتجه إليه فى الوجود.

(ب) ورأى فى دائرة السلوك الأخلاقى أن

أن الفضيلة العليا فى « العدل » أى فى التوازن بين قوى النفس . ومظهر هذا العدل أن تسود الحكمة ، أو يسيطر العقل الإنسانى على قوتى الغضب والشهوة . وجعل من الوسائل العملية لذلك أمران : الزهد والتذكر . والزهد معناه ترفع عن هذا الوجود المادى ، وتقليل فى النظرة إليه ، وقلة فى الأخذ منه . والتذكر موضوعه الأسمى ما بعد الطبيعة ، أو المثل والنماذج على العموم ، والخير المطلق من بينها على وجه أخص ، فإذا زهد الإنسان فى الوجود المادى وصعد بفكره وتأمله إلى المثل وحاكى منها أعلاها وهو الخير المحض ، كان عادلا أو ذا خلق فاضل .

وهو هنا أيضاً يبتعد عن تقويم الحياة المادية والوجود المادى كله على النحو الذى قومته به الميثولوجى والعقيدة الشعبية . والعقل هنا فيما رآه يفضل النقل أيضاً لدى الإنسان غير المتحيز .

(ج) وفى المجتمع الإنسانى ساوقت نظرة أفلاطون إليه نظرته إلى سلوك الفرد . والفضيلة التى تمثلت هناك فى العدل بين قوى النفس تتمثل هنا فى « العدل » بين طبقات المجتمع : فغضب النفس الفردية تساويه الطبقة المدافعة فى الجماعة . وشهوتها تساويها الطبقة العاملة ، والتوازن بين الطبقتين ، وهو العدل يمثله رجال الحكمة أو الفلسفة . والسياسة المثلى فى الجماعة البشرية عند ما توضع مقاليد الأمور بيد الحكماء . والحكماء من الناس هم الفضلاء فى السلوك الفردى وهؤلاء هم الذين اتجهوا بتفكيرهم إلى المثل والخير الأعلى وزهدوا فى الوجود المادى .

فالمجتمع الفاضل هو الذى لا ترتبط سياسته بالماديات وحدها ، ولا يقاس تدبيره بمقياس مادى ؛ بل تسوده الحكمة والعقل ، وتغلب عليه المثالية والخير المطلق .

وأفلاطون بهذا أيضاً ، أوضح الفرق بين فلسفة تعتمد على العقل ، وبين عقيدة شعبية يصدر فيها أصحاب القول عن نقل ورواية فى جانب ثالث من جوانب حياة الإنسان ، وهو جانب سيره وارتباطه بالمجتمع البشرى . وهو فرق ترجح به الفلسفة على العقيدة .

وهكذا لو نظرنا فى إجمال إلى أرسطو فى فلسفته لوجدناها تقوم على المثالية ، وتقصد إلى غايات غير مادية فى النهاية ، وإن بدا عليها طابع الطبيعة أو قوّم أرسطو فى جملتها من وجهة نظر كثير من المؤرخين بأنه فيلسوف طبيعى ؛ إذ مادامت له فلسفة فيما بعد الطبيعة ، وما دام له رأى فى هذا الجانب من الوجود أكثر كمالا مما فى الوجود الطبيعى وقيمة عليا تزيد عما فى الحياة المادية ، فهو غائى لا مادى : غاية الوجود عنده فى الكمال المطلق والقيمة العليا ، أى فيما بعد الطبيعة لا فى الطبيعة .

عنده فى فلسفته واجب الوجود ، غاية الوجود . وواجب الوجود مجرد عن المادة ومطلق من تحديدها . وإليه يسعى الوجود كله فى حركته ، وبه يتشبه فى تغيراته وتطوراته . وهدف كل موجود فى تجرده عن المادة حتى يصبح شبيهاً بواجب الوجود أو يصير إليه .

والإنسان ـ ككل موجود آخر ـ يجب أن

يتجه فى حياته ، أو يجب أن تكون حركات وجوده تتجه إلى أن يصير عقلا صرفاً أو حكمة خالصة حتى يكون مجرداً ، وبذا يشبه واجبَ الوجود ، أو بذلك يقترب من غاية الوجود كله وهو المجرد أو الواجب . والسبيل إلى ذلك أن يعرف ويعلم ، وتنتقل معرفته من الجزئى إلى الكلى أو من المشخص إلى العام . فإذا وصل فى معرفته إلى علم المبادىء العامة ، ثم إلى علم المبدأ العام للوجود كله ، اقترب من غاية الوجود الأخيرة . والإنسان المميز هو العالم بالمبادىء العامة ، وهو الإنسان الفاضل .

ولا شك أن من يضع غاية الوجود فى ما بعد الطبيعة ، ويطالب الإنسان بأن يسعى إلى هذه الغاية عن طريق العلم والمعرفة ، لا يجعل الوجود المادى غاية فى نفسه ، كما لا يقومه بأكثر من وسيلة أو من رحلة يبتدأ منها إلى غيرها .

وأرسطو بذلك لا يفترق عن إفلاطون فى غاية الوجود ، وكلاهما يفترق عن العقيدة الشعبية أو عن الميثولوجى فى تحديد الوجود وتقويمه .

وكذا لو عرضنا لأرسطو رأيه فى المجتمع الفاضل أو فى السياسة الفاضلة ، لا نراه يفترق فى الجوهر عن أفلاطون . إذ كلاهما ينشد وضع القيادة والزعامة السياسية وتدبير شئون المجتمع فى يد الفلاسفة . فالفيلسوف بين أفراد المجتمع غاية أو صورة نهائية لتطور الإنسان ومن عداه يجب أن يتجه فى سعيه وحركته ليكون شبيهه وصنوه . وإذا كان الفيلسوف غاية الأفراد ، والحكمة غاية سعى الإنسان ، فيجب أن يكون صاحبها هو الإمام والقائد فى الجماعة ، لأنه الكامل عندئذ . وتدبير الكامل مؤدٍ حتما إلى « العدالة » ، وحفظ التوازن بين طبقات المجتمع . وتلك هى السعادة . ومجتمع بشرى تغمره السعادة مجتمع فاضل .

وهو أيضاً هنا مع أفلاطون يغايران فى آرائهما ما تنقله الأساطير الدينية فى توجيه الإنسان فى حياة المجتمع وصلته بغيره من الناس .

* * *

نعم هنا فجوة بين الفلسفة فى القديم وبين الميثولوجى أو العقائد الشعبية على عهدها . وهنا مغايرة بين النوعين من المعرفه فى تصوير الوجود ، وتحديد غاياته ، ورسم سلوك الإنسان فى حياته . وهنا اختلاف فى القيمة ويتبعه ترجيح أحد المصدرين فى التوجيه ، سواء للإنسان الفرد أو للجماعة الإنسانية .

أما الفجوة أو المغايرة فلما ذكرنا من أن أحد الطرفين ينشد المثالية أو اللامادية ، والآخر يدور فى الوجود المادى وحده . وأما ترجيح مصدر العقل هنا فى التوجيه وهو صاحب الاتجاه المثالى على مصدر العقيدة الشعبية وهى صاحبة الاتجاه المقابل ، فلأن المثالية صورة الحياة الراقية المهذبة ، بينما المادية رمز البدائية والطفولة الإنسانية .

لكن بعد أن سيطرت الأديان السماوية لم تبق هذه الفجوة ؟ أو بالتالى لم يرجح مصدر العقل مصدر النقل وهو الوحى ؟ ولم تكون الفلسفة وحدها فى خدمة المجتمع ؟ . ولِمَ لا تكون « المثالية » مقومة وراجحة أنىّ كانت ، فى الفلسفة أم فى الدين ؟ .

الدين ـ والإسلام بصفة واضحة ـ جعل غاية الوجود فى الله . والله فى رأيه فوق الوجود المادى ، ومنه ابتدأ الوجود كله وإليه يرد الوجود جميعه .

وسعى الإنسان فى نظر الدين يجب أن يتجه إلى الله وحده ، وفى سبيل الله لا فى سبيل غيره . وسلوك الإنسان الفاضل ما نشأ عن حب فى الله وقصد به وجه الله .

والجماعة الصالحة الفاضلة هى التى تصدر فى تصرفاتها وتدبيرها عما يصدر عنه الإنسان الفرد فى سلوكه ، وتقصد فيها إلى ما يقصده الفاضل من الناس فى عمله : حب فى الله واتجاه إلى ذات الله .

وإذا كان الدين يرى فى الله كمال الوجود كله وخيره الصرف ، فربطه الإنسان به فى عبادته ، وسلوكه الشخص فى حياته وتدبيره وسياسته لجماعته ، هو تحويل له عن الوجود المادى وانتقال به من سيطرة المادية العنيفة إلى أفق المثالية الصافية .

وشتان إذن بين دين يسمو بالإنسان فى تصوير الوجود له هذا السمو ، وبين عقيدة شعبية على عهد الفلسفة أول نشأتها ، حرصت على أن تجعل حياة الإنسان وسعيه فيما يحيط به من بيئة مادية فحسب تقدم له معبودا ماديا ، وتحدد له فى السلوك الأخلاقى غاية مادية ، يتحكم فيها الحصول على نفع مادى أو دفع ضرر مادى .

أإذا حاولت الفلسفة أن تنال الآن من الدين تكون حقا اعتمدت على العقل والمنطق ؟ وتكون قد هدفت إلى خدمة المجتمع ؟

إن الاتجاه الفلسفى الذى يحاول أن يهدم الدين ليس هو الاتجاه المثالى من بين اتجاهاتها ؛ بل هو ذلك الاتجاه الذى يحارب المثالية فى أية صورة لها : فلسفية أو دينية . إنه الاتجاه الذى يسحب الأسطورة والخرافة على آراء ما بعد الطبيعة ، ويؤمن الإيمان كله بالمادة والوجود المادى فحسب ، إنه الاتجاه الذى يكفر بالعقل وبالدين معا ويطمئن فقط إلى الأحاسيس المادية وما يسميه بالتجارب الواقعية .

من حق هذا الاتجاه أن يتمدر غيره بما يشاء ، ولكن ليس من حقه أن ينكر على الغير أن يقومه نفسه كذلك بما يراه .

وأجدر بالنزاع أن لا يكون بين الفلسفة والدين ؛ بل بين المادية والمثالية ، أما خدمة المجتمع فأحق بادعائها ما يوجه الإنسان إلى الاطمئنان النفسى . والجماعة الإنسانية إلى السلام والتكافؤ .

محمد البهى

دخل رجل على الخليفة المعتصم بالله وهو جالس بين الأمراء والوزراء وفى يده نعل فى منديل وقدمها إلى الخليفة قائلا : هذه نعل رسول الله !

فأخذها الخليفة ووضعها على عينيه وقبلها من باطنها وظاهرها وأعطاه عشرة آلاف درهم !..

فلما انصرف الرجل تعجب من كان يجالس مع الخليفة فابتسم وقال لهم :

ـ إنى أعلم أنها ليست نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلا عن أنه صلوات الله عليه لم يلبسها ولم يرها . ولكنى خشيت إن رددته أن يخرج بين الناس ويقول : « أتيت بنعل رسول الله لخليفة رسول الله فنهرنى ! » . فيكون الناس أميل إلى تصديقه منهم إلى تكذيبه ! لأن من شأن العامة نصرة الضعيف وإن كان ظالماً ! فأردت أن أشترى لسانه وأصون عرضى ! وأن هذا الذى فعلناه لأصوب وأحمد !

القضاء والقدر بين القدماء والمحدثين

للدكتور أحمد فؤاد الإهوانى الأستاذ بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول

حاضر الأستاذ « وليم جيمس » عالم النفس المعروف فى جامعة « هارفارد » عن مشكلة الجبر والاختيار ، فقال للسامعين : إنه على الرغم من أن هذه المسألة قد قتلت بحثا ، فلا يزال فيها جديد يمكن أن يقال . وقد فعل مثل ذلك الدكتور أحمد أمين فى كتابه « ضحى الإسلام » عند ما عرض لرأى المعتزلة فى القدر ، أتأثروا بالمناقشات الحادة التى كانت دائرة بين المذاهب المسيحية ، أم استقلوا بالرأى ؟ فذهب إلى أنَّ التفكير فى أعمال الإنسان سواء أكان حراً فى أدائها أم مجبراً عليها ، مما يستولى على الأذهان فى كل زمان وينتشر عند سائر الأمم ويشيع فى كل دين .

واتخذت مشكلة القضاء والقدر فى تاريخ المسلمين مع اختلاف العصور صوراً مختلفة ، ففى الصدر الأول من الإسلام كان الناس يؤمنون بقضاء الله وقدره ويقبلون فى الوقت نفسه على اتباع ما جاء فى الشرع من أوامر ونواه دون أن يخوضوا فى أسرار القدر ، ومعرفة الصلة بين إرادة الله وقدرته وعلمه ، وبين إرادة الإنسان وحريته . قيل إن على بن أبى طالب سأله سائل عن القدر ، فقال: طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال : بحر عميق لا تخض فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال : سرٌّ خفى لله لا تفشه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال رضى الله عنه : يا سائل ، إن الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء . قال : إن الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ؟ فقال : كما شاء . فقال: يا سائل ، لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته أو دون مشيئته ؟ فإن قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وإن قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته .

وعلى الرغم من النهى عن الخوض فى القدر ، ظهر جماعة يقولون بهذه المقالة ، ومنهم غيلان الدمشقى ، ومعبد الجهنى ، وعنهما أخذ واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، بدعة القدر . فلما انفصل عن حلقة الحسن البصرى ، وقال بالمنزلة بين المنزلتين قيل عنه : إنه مع كفره « قدرى » فذهب ذلك مثلا لمن يجمع بين خصلتين فاسدتين .

واهتم المعتزلة أعظم الاهتمام بمسألة حرية الإنسان فى اختيار أعماله ، حتى يصح التكليف ، والأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، وحتى ينفوا عن الله الظلم ، ولذلك عُرفت هذه المشكلة عندهم بالعدل ، وسموا لكثرة مباحثهم فيها والنظر فى نواحيها ، أهل العدل

والعدلية . وجملة مذهبهم الذى أجمع عليه سائر المعتزلة ، أنَّ الإنسان خالق لأفعال نفسه ، ثم تعمقوا فى بحث الصلة بين الإرادة الإلهٰية وإرادة الإنسان ، وفصلوا هذا الكلام فى ثلاثة أبواب هى : التوليد ، والصلاح والأصلح ، والتحسين والتقبيح .

ولم تعجب هذه المقالة الأشاعرة ، ولم يرضوا عن مذهب المعتزلة فى إيجاب العدل على الله ، وقالوا : المُلك لله تعالى يفعل فيه مايشاء . وهذه قصة صغيرة نذكرها لبيان الفرق الأساسى بين المذهبين . قيل : اجتمع القاضى عبد الجبار وأبو اسحق الإسفراييني عند الصاحب بن عباد ، فقال عبد الجبار : « سبحان من تنزه عن الفحشاء » ، فأجاب الإسفراييني على الفور : « سبحان من لا يجرى فى ملكه إلا ما يشاء » .

ويعرف مذهب الأشاعرة فى الجبر والاختيار بالكسب . وهى نظرية دقيقة ، بلغ من دقتها أن أصبح يضرب بها المثل فى الخفاء ، فيقال « أخفى من كسب الأشعرى » وترجع صعوبة هذا إلى مبدإ منطقى لا يسهل قبوله . فالمعروف أن منطق أرسطو يعتمد على مبدإ « عدم التناقض » ، وعلى هذا الأساس أقام المعتزلة مذهبهم فى حرية الإنسان بإزاء الإرادة الإلهية ، وقالوا « باستحالة وجود مقدور واحد بين قادرين » فلو فرضنا أن فلاحا زرع فدانا من الارض ، كان الزرع مقدوراً ، والله والفلاح قادرين ، وطبقاً لمبدأ عدم التناقض المنطق ، أو استحالة وجود مقدور بين قادرين ، إما أن يكون الزرع من خلق الله أو من عمل الإنسان ، ثم أثبتوا القدرة المؤثرة فى الأفعال للإنسان ، أما الأشاعرة فقد هدموا ذلك المبدأ المنطقى ، نعنى عدم التناقض ، وقالوا بإمكان الجمع بين قدرتين تؤثران فى مقدور واحد ، وبذلك يتعلق الزرع من جهة بقدرة الله وخلقه ، ومن جهة أخرى بقدرة الإنسان وكسبه .

استقر معظم المسلمين على مذهب الأشاعرة زمناً طويلا ، حتى جاء الشيخ محمد عبده فقال فى رسالة « التوحيد » : أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نُهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد العقول تصل إليه » ومعنى ذلك أن الشيخ محمد عبده عاد إلى مذهب الصحابة الأولين ، وإلى مذهب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، الذى نهى عن الخوض فى طلب سر القدر . ويريد الشيخ من المسلم أن يعتقد أمرين : أن الإنسان كاسب لأعماله حر فى أفعاله ، وأن « قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى فى إتمام مراد العبد بإزالة الموانع . . . »

وفى موقف الشيخ محمد عبده شىء جديد يضاف إلى رأى القدماء . حقاً نهى القدماء عن التماس الأسرار الخفية وأمور الغيب والتسليم بها اعتقاداً ، ولكن الشيخ ، وقد قرأ فلسفة القرنين الثانى عشر والتاسع عشر ، واطلع على مذهب « سبنسر » بوجه خاص ، فقد تأثر به وذهب مذهبه . ذلك

أن « سبنسر » يقول بوجود أمور يمكن للعقل البشرى أن يعرفها ، وأخرى لا يمكنه ذلك ، ويسميها فى اصطلاحه « ما لا يمكن معرفته » Unknowable ومنها هذه الأمور الدينية التى يقول عنها الشيخ إنها من باب « الغيبيات » وعندنا أن هذا الموقف ، ولو أنه فلسفى من جهة النظر إلى قيمة العقل ومدى معرفته ، إلا أنه يسد باب المعرفة ، ويعد فى الواقع هرباً من المشكلة لا حلاً لها . وبخاصة إذا رأينا أن هناك عقولا كثيرة لا تقتنع بهذا التسليم ، وتحاول اقتحام المشكلة والهجوم عليها والنظر فيها .

وقبل أن ننتقل إلى عرض مذاهب المحدثين فى هذه المشكلة التى حارت فيها العقول من قديم الزمان ، نود أن نشير إلى مذهب صدر الدين الشيرازى ، الذى أخذ فيه بمذهب وحدة الوجود الصوفية . يقول فى رسالة « القدر » بعد عرض مذاهب المجبرة والمعتزلة والأشاعرة والاعتراض عليها ما نصه : « إن الموجودات على تفاوتها وترتيبها فى الشرف الوجودى ، وتخالفها فى الذوات والأفعال وتباينها فى الصفات والآثار ، تجمعها حقيقة واحدة إلهية جامعة لجميع حقائقها ودرجاتها وطبقاتها ، إلى قوله : « لا ذرة من ذرات الأكوان الوجودية إلا ونور الأنوار محيط بها وقادر عليها . وهو قائم على كل نفس بما كسبت » وهذا الذى ذهبوا إليه مما أقيم عليه البرهان طبق ما شاهدوه بالبصيرة والعيان . وجملة هذا المذهب أن الله والعالم شىء واحد ، وأن الموجودات والأفعال المتحققة فى الواقع « شأن من شئون الحق الأول ، ولمعة من لمعات وجهه » . إلا أن مذاهب الصوفية ـ كما نعرف ـ لا تعوّل على العقل ، بل على الذوق والبصيرة ، وهم يعتقدون فى حقائقها بالكشف لا بالبرهان ، وليس لنا مع هؤلاء إقامة حجة أو مناقشة دليل .

ولنرجع إلى مذاهب المحدثين فى نهاية القرن الماضى ومستهل القرن العشرين ، حتى الوقت الحاضر ، فإنها تحتاج إلى بسط فى القول ، لأنها تضيف إلى مشكلة الجبر والاختيار أموراً جديدة لم يتناولها القدماء بالبحث . وترجع هذه الأمور الجديدة إلى ظهور علم النفس فى صورة جديدة ، وإلى تقدم العلوم الطبيعية وبخاصة فى مباحث الكهرباء والذرة ، وإلى النظرة الجديدة فى المنطق ، وإلى ظهور فلسفات جديدة أخصها الوجودية .

نقل المحدثون مبحث الجبرية Fatalism إلى الحتمية Determinism ، وساد القول فى القرن التاسع عشر بالحتمية العلمية ، وارتباط الأسباب بالمسببات ارتباطاً ضروريا لا انفكاك له . وترتب على هذا الاعتقاد العلمى صراع شديد بين الدين والعلم ، حتى شاعت مذاهب الإلحاد ، غير أن الاكتشافات الأخيرة فى علم الطبيعة ، أفضت إلى الشك فى مبدأ الحتمية ، وإلى إفساح مجال الاحتمال Probabilité ، لا الجزم بالضرورة المطلقة القائمة على العلاقة الواجبة بين الأسباب والمسببات . وأبرز مثال لذلك ، انفلاق الذرة وتبددها ثلاثة أشعة ، يسير أحدها فى مسار نحو اليمين أو نحو الشمال فى الفضاء . وقد لاحظ العلماء أن اتجاه

الشعاع اتجاهاً معيناً لا يخضع لسبب ولا تحكمه ضرورة ، فقد يذهب يميناً كما يذهب شمالا ، فهو « حر » . وما دام الأمر كذلك فالأمر يرجع إلى « الاحتمال » ، ومن هنا ظهر منطق جديد يسمى منطق الاحتمالات ، ظهرت بذوره عند الفيلسوف « ليبنتز » ، وتقررت أصوله فى العصر الحاضر .

وعلى هذا الأساس ناقش الأستاذ « وليم جيمس » مشكلة الجبر والاختيار ، وسمى الحرية « مصادفة » أو اتفاقا ، وأثبت للإنسان حريته لأنه يحس بها ويعتقد فيها ، ونظر إليها من نافذة التشاؤم والتفاؤل ، وطلب من الإنسان ما دام على قيد الحياة أن « يعيش » هذه الحياة ، وربط هذه الأصول بعضها إلى بعضها الآخر . وقد أحس « وليم جيمس » بخطورة النقد الذى يمكن أن يوجه إليه حين يجزم بحرية الإرادة ، وهو نقد أثاره القدماء ورموا به المعتزلة ، نعنى به إبعاد قدرة الله وإرادته من دائرة الأعمال الإنسانية . وقد يترتب على ذلك إنكار وجود الله ، أو الوقوع فى الشرك . وردّ « جيمس » على هذا النقد بقوله ما فحواه : إذا أجزنا منطق الاحتمالات فى العالم الإنسانى ، فلماذا لا تجيز مثل هذا المنطق فى العلم الإلهى . ثم ضرب مثلا برجلين يلعبان الشطرنج أحدهما ماهر والثانى ضعيف عاجز ، فلا ريب فى أن الماهر هو الذى سوف تتغلب قدرته فى آخر الأمر على قدرة الضعيف ، ولكنه فى أثناء اللعب لا يعلم الحركات الفعلية التى يحرك بها اللاعب الضعيف حجارة الشطرنج ، ولو أنه يعلم الحركات الممكنة وكيف يرد عليها . فالله تعالى هو القوى القادر الذى خلق العالم ورسم غايته بحكمته ، ولكنه ترك الوسائل التى يسلكها الناس لبلوغ هذه الغاية لحريتهم وإمكانهم ، وسواء أسلك الناس هذه السبيل أم تلك ، فالنتيجة واحدة ، وهى محتومة منذ الأزل .

يعتمد أنصار حرية الإرادة الإنسانية ، على فكرة الزمان المستقبل ، وكذلك يعتمد أصحاب الحتمية على فكرة الزمان ، غير أنهم يعتقدون أن المستقبل ثمرة الماضى ، وأن مستقبل المرء خاضع لتاريخه . لهذا السبب نظر الفلاسفة المحدثون ، وعلى رأسهم « برجسون » فى الزمان ، باعتباره حجر الزاوية فى هذه المشكلة ، فالإنسان عند « برجسون » يمتاز « بالشعور » ، ويمتاز الشعور عن المادة ، بخضوعه للزمان ، أى باتصال الأحداث متتابعة من الماضى إلى المستقبل .

ولما كان المستقبل مجهولا ، لأنه يقوم على على عنصر الاحتمال ، فلا يمكن معرفة الطريق الذى يسلكه الكائن الحى إلا بعد وقوعه بالفعل . ومن الغريب أن مذهب « برجسون » يتفق إلى حد ما ، بل إلى حد كبير ، مع مذهب الأشاعرة ، فهو يرى أن الذات الإنسانية الشاعرة بحريتها والتى تحس « بالمدة » ، أى بالجزء من الزمان ، تلتقى مع الزمان المطلق . وهذا هو الذى نقول عنه إنه شبيه بنظرية الأشاعرة فى الكسب ، والتقاء الإرادة الإنسانية الجزئية بالقدرة الإلهية العامة .

لقد خرج أنصار حرية الإرادة من مأزق فأدخلوا أنفسهم فى مأزق آخر أكثر إشكالا ،

وأشد صعوبة ، وهو معنى الزمان . ولا يعنينا فى الوقت الحاضر مناقشة فكرة الزمان بوجه عام إلا بمقدار اتصالها بالأعمال الإنسانية وتعلقها بالقدرة الإلهية الأزلية . ويكفى أن نقول « الأزلية » لنفهم من ذلك أن الله يتعالى عن الزمان ، وأن الماضى والحاضر والمستقبل أمور نسبية ، بالإضافة إلى هذا الإنسان المحدود الذى لم يكن ثم كان ، ويكون ثم يفسد ، ولا تستطيع نظرته أن تحيط إلا بالماضى لأنه وقع بالفعل ، أما المستقبل فهو محتمل أو غيب ، لا يعلمه ، كما لا يدرى أى سبيل سوف يسلكه .

وطلعت الفلسفة الوجودية برأى جديد ، تربط فيه بين وجود الله وبين حرية الإنسان ، وبين فكرة الزمان . وهؤلاء هم المؤلهة من أصحاب المذهب الوجودى ، لأن منهم مَنْ ألحد وخرج عن أمر ربه . فالحرية الإنسانية عند « كركجارد » Kierkegaard ضرورية لاستقامة الأخلاق والدين ، لأن وقوع المرء فى الذنب وارتكابه المعصية ، يتطلب أن يكون حراً فى اختيار أحد طريقين ، إما طريق الخير ، وإما طريق الشر ، والتردد فى الاختيار بين الطريقين هو الذى يحدث عند المرء تلك الحالة التى يسميها الوجوديون « القلق » . وهو يرى ، كما ذهب إلى ذلك الأشاعرة من قبل ، أن أعمال الإنسان تقع بصفة عامة تحت تأثير القدرة الإلهية ، وأنها التقاء الإرادة الإنسانية المحدودة بإرادة الله المطلقة ، غير أن حجر الزاوية فى فلسفة « كركجارد » وفى فلسفة الوجوديين من بعده مثل « هيدجار » Heidegger ، هو أن عالم الإنسان عالم إمكان ، وأن طبيعة الإنسان كما يرى « هيدجار » هى اتصاله بفكرة المستقبل ، تلك الفكرة التى يفتح فيها الباب أمام الاحتمالات ، فيحس المرء معها بحريته .

ومع ذلك فهنالك فلاسفة آخرون لم يأخذوا بمبدأ الحرية ، أو كما يقولون « اللاجبرية » ، ويرون فى العالم حتمية تخضع لارتباط الأسباب بمسبباتها بالضرورة . وهؤلاء الفلاسفة من علماء الطبيعة والرياضة بوجه خاص ، ويحاولون أن يربطوا نتائج العلم الذى يشاهدونه فى عالم المادة على أحوال الإنسان الذى يمتاز بالحرية كما يمتاز بالتدين .

وقبل أن نذكر رأى المعاصرين ، نود أن نشير إلى مذهب « اسبينوزا » صاحب فلسفة وحدة الوجود ، إذ له تشبيه طريف يحاول أن يقرب به إلى الأذهان ما يشيع فى النفوس من إيمان بالحرية ، أو قل إنه يحاول أن يعزى الإنسان عن حريته . فهو يذهب إلى أن أعمالنا خاضعة خضوعاً ضرورياً لحتمية أشبه شىء بالضرورة الرياضية ، أو بالعجلة التى تدور فى الآلة ، فإذا أحس أحدنا بالحرية ، فإنما يشعر بذلك حين « يستمتع » بالعمل المفروض عليه . ثم قال : « لو ألقينا حجراً فى الهواء ، ثم استطاع الحجر أن يفكر ، لظن نفسه حراً إذا نسى تلك اليد التى قذفت به » . يريد أن يقول إننا كهذا الحجر ، نظن فى أنفسنا الحرية ، وننسى يد الله تعالى التى خلقتنا وأبدعت وجود سائر الكائنات .

ولنذكر الآن رأى الأستاذ « الكسندر » الذى يشبه من بعض الوجوه رأى « اسبينوزا » ، لأنه

أيضاً من أصحاب المذهب الحتمى ، ولكنه يقسم الكون خمسة عوالم ، أدناها عالم الزمان والمكان ، ثم عالم المادة ، ثم عالم الحياة ، ثم عالم العقل ، ثم الله . ويخضع كل عالم من هذه العوالم للضرورة الحتمية ، ولكنه يلاحظ أن أهل كل عالم يعتقدون فى أنفسهم بالحرية حين ينظرون إلى العالم الأدنى . مثال ذلك أن الذرات فى عالم المادة إذا نظرت إلى عالم الزمان والمكان وجدته خالياً من الحرية ، وأحست الذرات فى أنفسها بهذه الحرية . والإنسان حر بإزاء عالم النبات . والله حر، وهو المتعالى عن سائر العوالم التى تخلو من الحرية .

جملة القول أن المعاصرين لم يهدأ لهم بال حتى نظروا فى أمر القضاء والقدر فى أضواء جديدة ألقتها مصابيح العلم الحديث . وما كاد القرن التاسع ينتصف حتى اشتد ساعد مذهب الحتمية ، واعتقد العلماء أن الظواهر الطبيعية خاضعة لضرورة محتومة يسرت لهم سنّ القوانين العامة ، وكذلك اعتقدوا أن أعمال الإنسان تخضع لحتمية مستمدة من ماضى كل شخص ، بحيث يمكن معرفة المستقبل فى ضوء هذا الماضى ، وطبقوا هذا المذهب ، لاعلى علم النفس فقط ، بل على المجتمع والاقتصاد والأدب ، كما فعل « تين وكارل ماركس » وتفرع عن هذا التصوّر أمران فيما يتعلق بالصلة بين الله والإنسان ، فالذين آمنوا بوجود الله مع وجود هذه الحتمية فى ظواهر الطبيعة وأعمال الإنسان ، ارتموا فى أحضان التشاؤم ، إذ لا يمكن أن يتخلص أحد مما كتب عليه أو ما رسمته يد الوراثة والبيئة ، أما الذين اصطنعوا المذهب المادى ، فقد أنكروا وجود الله ، ولذلك شاع فى أوربا موجة شديدة من الإلحاد ، ووقف العلم موقف عداء صريح من الدين .

حتى إذا كنا فى أواخر القرن التاسع عشر واستهلال العشرين حتى الوقت الحاضر ، أعاد العلماء النظر فى مذهب الحتمية ، وأفسحوا المجال للحرية والاحتمالات التى تقع فى المستقبل ، ولم يستقر مبدأ السببية على أساس وطيد سوى مجرد الاعتقاد به أو التسليم بصحته ، حتى لاتقف عجلة العلم ، ولكن ليس لهم من براهين كافية تقنع العقل بارتباط الأسباب بالمسببات ارتباطا ضروريا . ونظروا فى باطن الإنسان وأقروا بحريته لاعلى أساس حجة عقلية أو برهان منطقى ، بل على أساس الشعور المباشر ، الذى يحدثنا بأننا أحرار فى سلوكنا ، وأقبلوا على الحياة يرغبون فى تحقيقها ، كما يجب أن يحققها كل رجل يحس أنه مسئول .

فهذه ظلال جديدة أضيفت إلى مشكلة قديمة ، ولكنها لم تحل فى الواقع المشكلة ، بل نحن مانزال كما قال « نيوتن » كالأطفال الذين يلعبون بالحصى على شاطىء البحر . ويجهلون سر أمواجه المتلاطمة وأغواره العميقة ، ولم تتكشف لهم إلا ذرة يسيرة من حقائقه ؟

أحمد فؤاد الاهوانى

آراء وأحاديث

الأزهر جامعة الشرق الكبرى

للدكتور أحمد زكى بك
رئيس مجلس فؤاد الأول للبحوث

الأزهر جامعة الشرق الكبرى ، وإن شئت قلت : إنه أقدم جامعات العالم التى امتدت حياتها إلى يومنا هذا ، وهكذا نود أن نحسبه لما انتهت حياة الجامعات الأخرى ، تاريخَ ولادة ومجرى طفولة ، فأكثر جامعات أوروبا العتيقة وجدت حقا ، وعلى ثبوت ، فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ولكن كان لها وجـود قبل ذلك ، ذهب فى القدم مسافات لا يعرف على التحقيق مداها .

ومهما يكن من قدم الأزهر ، طال هذا القدم أو قصر ، فهو بهذا القدم ، وعلى الاتصال المتواصل الذى كان ، صنع للإسلام وللغة الإسلام مالا أحسب أن جامعة مثله صنعت لدين أو لغة من أديان الكون ولغاته ، فهو قدم محفوف بالإجلال والاحترام بالذى أدى وما صنع .

الأزهر فكرة خالدة

وليست صلة الأزهر بماضيه أقل من صلته بحاضره ، أو أقل من صلة سوف تكون له المستقبل . إذ لو كان الأزهر استفرغ أغراضه فأصبح غير ذى موضوع ، إذاً لطوينا موضوعه ، وطويناه بانطواء موضوعه ، ودفناه كما يدفن الرجال العظام . ولكن الأزهر فكرة ، والفكرة لا تشيخ ، ولا ينزل بها الموت كما ينزل بالرجال . إن الفكرة كالروح خالدة ، يختلف عليها الناس ، وتحل سائر الرؤوس ، وتفنى الرؤوس ، والفكرة تأبى الفناء . بل هى تتجدد كلما حلت برأس مؤات جديد . إنى لا أقول بتناسخ الأرواح ، ولكنى أقول بتناسخ الفكر ، ومن الأفكار ما يزداد شباباً كلما زاد بالتناسخ قدماً ، وهكذا الأزهر ، أو هذا ما أرجو أن يكون له .

الأزهر يتحول

وبدأ هذا القرن الميلادى الحاضر ، القرن العشرين ، والأزهر فكرة فى الرؤوس عتيقة . عاش فى هذا القرن وهو ليس منه ، وانتسب بالتاريخ اليه وهو أقرب انتسابا إلى سواه من القرون الماضية وزاره الناس إجلالا ، وزاره الأقرباء والغرباء ، كما يزورون المتاحف ،

وشاقتهم تلك الحلقات التى كان يتحلقها طلابه والسامعون حول أساتذتهم بحسبانها بقايا من بعض تلك العصور البائدة. ولقد حضرت الأزهر فى العقد الثانى من هذا القرن أستاذا، ودرست فيه علوم الأحياء، وتحلق الطلاب حولى أربعمائة عدًّا أو يزيدون، فما وجدت الحلقات بمانعة من علم، ولا التحلق بمانع من نظام، وكان الطلاب فى ذلك الزمان أكثر إقبالا وأكثر استماعا وأجدر، إن هم صادفوا علما، أن يعوه ويستوعبوه. وكان الأزهر فى تلك السنين قد بدأ يتحول. وما عنيت قط بتحوله شكلا، ولا اهتممت له. ولكنى عنيت واهتممت بتحوله موضوعا. بتحول دراساته واتساعها، فى الناحية التى ظلت زمانا تناديه وتغريه بأن يتبع فلا يسمع، وإن سمع فلا يلبى، تلك ناحية العلم الحديث.

الأزهر والعلم الحديث

ولقد كان عارض هذا الاتجاه بعض شيوخ لأنهم حسبوا أن فيه الضلال. ورأوه يهب مع ريح الدبور من الغرب فأخذتهم منه ريبة. وأنا أحب الحذر الذى يأمن الإنسان معه الضرر، ولا أضيق بالحفاظ إلا أن يستمر على الرغم من الحجة فيكون حفاظ الماء الآسن الراكد، أو عناد الكاره فى كل تحول. ولكن ما لبث أن اطمأن هؤلاء الأشياخ إلى أن الأمر ليس فيه ما يريب، وأن العلم الحديث بعض ضروب العرفان، وإنه علم من بعض علم الله، أنزله وينزله على رؤوس من اختار أو يختار من عباده، وأنه كالإسلام، طريقته النظر والبصر والتعقل. وما اقتنعوا فاطمأنوا حتى لحقوا بالركب، فانتظمهم، وساروا مع السائرين.

ولقد وددت أن أعرف كم أخذ الأزهر فى عهده الجديد من العلم الحديث وكم ترك، وإلى أى حد صار العلم الحديث بعض فكره، وإلى أى درجة صار منطق هذا العلم، منطق سائر ضروب العرفان التى يتعاطاها الطلاب. ولكن أغنانى أن أسعى إلى عرفان هذا، أن الدوى الذى توقعت أن يقع، فى صحون الأزهر، لم يقع، والشموس التى زعمت أنها وشيكة البزوغ فى آفاقه لم تبزغ، أو هى لم تبزغ بالكثرة التى زعمتها، وأركان الأرض التى رجوت أن تصلها أصداء هذه النهضة المباركة مستجيبة الدعاء، ملبية النداء، ظلت لا تصلها إلا الأصداء الضعيفة القديمة البالية.

وأسيت للأزهر، وأسيت لنفسى، أن أملى القديم فى الأزهر لم يتحقق كما رجوته.

قد يقال لى، إنه سائر فى الطريق، ومن سار على الدرب وصل. فأقول لعل وعسى.

عامل الزمن

ولكن الأمر فى الأشياء ليس وحده فى بلوغ الغاية، ولكن فى كم من الزمان تبلغ الغاية. وقد زاد الأمر خطورة فى هذه العصور الحديثة، أن القرون الماضية كانت تمشى الهوينا، أما هذا

القرن والذى قبله، والذى سوف يليه، فما مشت أو تمشى، ولكنها جرت أو تجرى، فلا تلتفت وراءها لترى من تخلف أبداً. والسبق هنا قوة، والتخلف ضعف، والضعيف مأكول، وليس يغنى الحق أنه الحق ليعيش، وليعز على العيش، وليس يغنى الفكرة الصالحة صلاحها وحده لتبق، ولتحمد البقاء. والأزهر فكرة لا يغنى عنها صلاحها إلا إذا هى جاهدت وناهضت، وسايرت الزمان، وأسرعت فى الخطو، فإن لم تسبقه فلا أقل من أن تلحقه، وإنها للاحقته على الهمة العالية، والإيمان الصادق وأن بعدت الآن الشقة واستطال المدى.

التجديد ريبة

ومن الناس من يكره معنى التجدد والتجديد، ويأخذ من يقول به بالريبة، ولا سيما فى لغة ودين. لهذا أبادر فأقول: ما كل جديد صالح، وما يطلب التجديد للتجديد وحده عاقل، إلا أن يتروح فينتقل من روض إلى روض، أو ينقلب من جنب إلى جنب. ولغتك كأنفك لا تغير منها أو تتروح فى أمر من أمورها إلا بالجراحات الكبيرة الخطيرة. والإسلام مبادىء أرساها مرسيها على صخر متين، فهى باقية بقاء الصخر، دائمة دوامه. ولكن الإنسان هو المتغير، وفهمه هو المتطور، وأداة هذا الفهم هى التى يعتريها الزيادة والنقصان. لهذا اختلفت الأمم الإسلامية فى فهم الإسلام، وفى أسلوب العبادة، عبادة الله على الإسلام، من بقعة فى الأرض لبقعة، ومن قرن الزمان لقرن، تبعاً للجهل الذى ساد، وتبعاً للعلم إذا تفشى.

فتح من الله جديد

ولقد فتح الله على ابن آدم فى القرنين الأخيرين فتحاً عظيما، فوهبه أداة للفهم حديثة خالفت كل ما كان قد سبق للفهم من أداة، وفتحت أبواباً للمعرفة كانت مغلقة فى سابق القرون. ورأينا ما وراء هذه الأبواب ساحات هائلة، تجول فيها البصائر الإنسانية فتراها واضحة بينة جلية فكأنما تراها الأبصار. إذن فنحن اليوم أقدر، بأداة الفهم هذه الحديثة، بالعلم الحديث، على فهم كتاب الله، والقليل الذى صح من سنة رسول الله ونحن أقدر من الأسلاف، وأقدر كثيراً. وإن يكن دين يربو على العلم الحديث، والنظر الصادق، فالإسلام، دون إبعاد لغيره، هو هذا الدين. لأنه الدين الذى جادل الناس ليؤمنوا، وجادلهم بالمنطق، فمن لم يقتنع منهم، مخلصاً، فأمره إلى الله. ولأنه الدين الذى أغرى الناس بالنظر إلى الأرض، وأمرهم بالنظر والتبصر فى السماء، وعرض عليهم ما عرض من شئون الخلق، من حولهم، ومن تحت أرجلهم ومن فوق رؤوسهم، ليتفهموا قوانين الله، وليتخذوا منها دعامة يدعمون بها عقيدتهم فى العلم. وما العلم الحديث إلا هذا الكون مدروساً، وإلا تلك القوانين مبوّبة مصفوفة. والعلم الحديث لا يضعف

من دين . ولقد مارسته فعلمت أنه ، لو لم توجد الأديان التى تهدى إلى الله ، لهدى العلم إلى الله ، وحده ، وبدون كتاب . وإذن لقامت كتب العلم التى لا عدّ لها تهدى إلى الله .

والأزهر لا مفر له من أن يأخذ نصيبه الأوفر من هذه الأداة الحديثة للفهم ، ولاستقصاء معنى الدين ، ومعنى الكون ، ومعنى الله . والقرآن ، ومعانيه قائمة دائمة لا تبديل لها ، لا بد أن يفهم ، لا فى ظل أساطير القدماء وأباطيلهم ، ولكن فى نور تلك الشموس التى أرادت مشيئة الله آخر الدهر أن تطلعها مشرقة فى كل جنب من جنبات هذا الوجود ، ليكون الإنسان أعون على فهم هذا الوجود وأجدى ، ولتكون إلى الله أهدى .

للأزهر واجبات

إن للأزهر حقوقاً وعليه واجبات . وواجبات الأزهر عديدة ثقيلة . وهو لا بد أن ينهض لها ، وهو لا بد أن يتخذ العُدة الحديثة لها ، القمينة بها . إن صراع الرجال فى الميدان اليوم لا يكون تحاطباً ، ولا ينفع فيه السيف ولو كان مهندا . وصراع الرجال اليوم فى ميدان الفكر لا يكون كذلك تحاطباً فكرياً إنه لا بد له من أداة العصر الحديث ، ذلك فهم الكون ، وفهم ما فى الكون ، ومن بالكون ، بالعلم الحديث والمنطق الحديث .

وواجبات الأزهر لا تنحصر فى مصر . إن وراء مصر أمما تنظر إلى الأزهر سبباً كبيراً من أسباب الخلاص : فى باكستان ، فى الهند ، فى أندونسيا ، فى الصين ، فى التركستان ، وفى مشارق الأرض ومغاربها . يعلقها بالأزهر ذلك الاسم الضخم الذى كان . فهل يجيب الأزهر هذا الدعاء ؟ وهل يفى باستجابة كل هذه الصرخات المتعاليات فى أركان كثيرة من أركان هذه المعمورة . وهل هو بحاله الحاضرة قمين بها ؟ وهل هو من العدة بحيث يستطيع أن يجيبها ويفى بها ؟ وما الذى ينقص الأزهر ليكون كل ذلك ؟ أهو العلم الحديث وحده أم هى أشياء كثيرة غير هذا ، من ظاهرة وخافية ؟

هالة للأزهر تهول

إن يد الإصلاح امتدت إلى الأزهر بالكثير ولكن هناك الكثير الأكثر الذى يجب أن تمتد إليه الأيدى بالصلاح .

دعـوة

إنى أدعو كل مفكر أن يفكر فى الأزهر ، وكل كاتب أن يكتب فى الأزهر ، مدرسة الإسلام الكبرى ، ليتحقق للأزهر ما يبتغيه ، وما يبتغيه له على ضوء من الفكر هادٍ إن شاء الله ؟

احمد زكى

لا يكمل عقل المرء إلا إذا استوى مدح الناس وذمهم إياه .

إذا كانت السعادة وردة فإن الأمل كمامها .

العيد الألفى لمدينة القاهرة والجامع الأزهر

للأستاذ عزيز خانكى بك

فى أبريل سنة ١٩٥١ احتفلت فرنسا بمرور ألفى سنة على تأسيس مدينة باريس وبهذه المناسبة اعتزمت باريس إنشاء متحف يجمع أشتات الآثار التاريخية والصناعية والأدبية والفنية الخاصة بباريس وهذا علاوة على الـ ٨٩ متحفا الموجودة فى باريس .

ومن بضع سنوات احتفلت سوريا بالعيد الألفى لأبى العلاء المعرى .

وقد احتفلت العراق فى شهر مارس سنة ١٩٥٢ بذكرى مرور ألف سنة على ميلاد الفيلسوف الحكيم « ابن سينا » الذى ولد فى خلال سنة ٣٧٠ فى إحدى قرى بخارى وتوفى فى سنة ٤٢٨ بهمذان إحدى مدن بلاد فارس عن ٥٧ سنة - وألف أكثر من ١٠٠ كتاب فى الفلسفة والمنطق والطب واللغة والموسيقى والرياضات والطبيعيات والإلاهيات والأراجيز . ومع أنه عاصر تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر فإن مصر لم تحتفل بعيدهما الألفى على الرغم من أن القاهرة أصبحت عاصمة الشرق وأصبح الأزهر أكبر معهد إسلامى فى العالم كله .

وفى هذه السنة تحتفل طائفة الأروام الأرثوذكس بالإسكندرية بذكرى مرور ألف سنة على تأسيس مكتبتها الفخمة الضخمة ببطريركية الأروام الأرثوذكس بالإسكندرية .

واحتفلت مدينة ليزبون عاصمة البرتغال بذكرى مرور ثمانية قرون على تحريرها من احتلال المغاربة .

واحتفل آباء كنيسة سانت تريز بذكرى مرور ٧٠٠ سنة على تجلى السيدة العذراء فى جبل الكارمل للرئيس الدينى سيمون ستوك .

واحتفلت إيطاليا بذكرى مرور ٥٠٠ سنة على مولد « كريستوف كولمبس » الذى ولد فى سنة ١٤٥١ وقد هام من صغره بركوب البحار فخاض المحيط الأطلنطى أربع مرات إلى أن انتهى بكشف أمريكا فى سنة ١٥٠٤ وأمريكا الآن أغنى وأقوى بلاد العالم .

واحتفلت إيطاليا ويشاركها فى هذا انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وبلاد أمريكا الجنوبية بذكرى مرور ٥٠٠ سنة على مولد « ليوناردو دى فنش » Leonardo De vinci الذى ولد فى خلال سنة ١٤٥٢ وهو من أعظم الرجال الذين أخرجتهم إيطاليا إذ اشتهر فى القرن الخامس عشر بالهندسة وبالرسم والنحت والمعمار وله فى أغلب متاحف أوروبا وأمريكا لوحات من أروع ما أخرجته قرائح الفنانين .

واحتفلت ألمانيا فى سنة ١٩٤٩ بذكرى مرور ٢٠٠ سنة على ميلاد جوته شاعر ألمانيا الأكبر الذى ولد فى سنة ١٧٤٩ وتوفى فى سنة ١٨٣٢

وفى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٥٨ ستحتفل انجلترا بذكرى مرور ٢٠٠ سنة على ميلاد الأميرال « نلسون » أكبر أمراء البحر الانجليز .

وفى سنة ١٩٤٧ احتفلت مدرسة النورمال العليا بباريس ، بذكرى مرور ١٥٠ سنة على تأسيسها ، وقد احتفلت من قبل فى سنة ١٨٩٧ بعيدها المئوى .

وستقيم الجمعية الزراعية الملكية فى شهر مارس سنة ١٩٥٥ معرضاً دولياً لمناسبة مرور ١٥٠ سنة على تولية محمد على الكبير عرش مصر ، وستدعو الحكومة المصرية جميع الدول للاشتراك فيه ليكون أول معرض دولى يقام فى مصر .

وفى سنة ١٩٥٢ ستحتفل فرنسا بذكرى مرور ١٥٠ سنة على ميلاد شاعرها الأشهر « فيكتور هوجو » .

وفى ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ احتفلت اليونان بالعيد المئوى لاستقلالها (وقد كانت تابعة لسلاطين آل عثمان) .

واحتفلت كلية الطب فى جامعة فؤاد الأول بذكرى مرور مائة عام على اكتشاف ديدان مرض البلهارسيا فى مصر ، تمجيدا لذكرى الدكتور « بلهارز » الألمانى الذى قدم إلى مصر فى سنة ١٨٥٠ ووفق لكشف ديدان المرض الذى سمى باسمه . ويقال إن ١٤ مليون مصرى مصابون بهذا المرض . وقد اتخذ هذا العالم مصر وطنا ثانيا له . وتوفى فى سنة ١٨٦٢ ودفن فى مقبرة اللاتين الكاثوليك بمصر القديمة .

واحتفلت جامعة « مكسيكو » بذكرى مرور مائة سنة على تأسيسها ، وقد اشتركت مصر فى المهرجان .

واحتفل البنك اليونانى الأهلى ، بذكرى مرور مائة سنة على تأسيسه .

واحتفلت جريدة « نيويورك تايمس » بذكرى مائة سنة على تأسيسها .

واحتفلت فرنسا ، بذكرى مرور مائة عام على تأسيس الفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسى وقد أسست فى مارس سنة ١٨٥١

واحتفلت أمريكا بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس مدينة شيكاجو .

واحتفلت فرنسا فى ٢٠/١٠/١٩٥١ بمرور مائة عام على ميلاد المارشال « فوش » الذى قاد جيوش فرنسا وجيوش حلفائها إلى النصر فى الحرب العالمية الأولى .

واحتفلت مصر بالعيد المئوى للسكة الحديدية المصرية .

واحتفلت شركة روتر التى أسسها البارون « يوليوس روتر » بعيدها المئوى واشتركت خمسون دولة فى المهرجان الذى دام أسبوعا كاملا وانتهى بمأدبة جمعت ألف مدعو . وفى المأدبة تلا رئيس الشركة رسالة وردت له من ملك انجلترا قال فيها : إنى سعيد إذ علمت بأنكم تحتفلون احتفالا باهرا بذكرى مرور مائة عام على تأسيس هذه المؤسسة العظيمة . وفى صبيحة يوم المهرجان أطلقوا مائة حمامة من الحمام الزاجل ، وكان الوسيلة

التى استخدمها روتر لنقل الأخبار من «بروكسيل» عاصمة بلجيكا إلى «آخن» من بلاد ألمانيا .

واحتفلت كندا بذكرى مرور ٨٤ سنة على تأسيس نظامها الفيدرالى .

وفى سنة ١٩٥١ احتفلت ألمانيا بذكرى مرور ٧٥ سنة على تأسيس مسرح «بايروت» الذى شيده «فاجنر» أشهر موسيقار فى العالم .

وقد احتفلت كلية اللاهوت بجامعة سيدنا يوسف بيوبيلها الماسى .

وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٢ تحتفل فرنسا بذكرى مرور ٥٠ سنة على وفاة «إميل زولا» من أكبر كتاب فرنسا .

وفى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٥ احتفلت فرنسا بذكرى مرور خمسين عاما على وفاة عالمها الأشهر «باستور» وقد توفى فى سنة ١٨٩٥

واحتفل فى أمريكا بذكر مرور ٥٠ عاما على اختراع «جيليت» وهى الموسيات الأمريكية المعروفة .

وفى خلال سنة ١٩٢٥ احتفلت المحاكم المختلطة بعيدها الخمسينى .

وفى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ احتفلت مصر بالعيد الخمسينى للمحاكم الأهلية .

واحتفل كبار العلماء والأدباء فى يوم ١٩٥١/١٠/٢٠ ببيروت باليوبيل الذهبى لمجلة «العرفان» تكريماً للعلامة المجاهد الشيخ أحمد العارف الزين ، لمرور خمسين عاما على ظهور مجلة العرفان .

وفى ١٧ مايو سنة ١٩١٤ احتفلت بلاد النرويج بعيد دستورها الذى نشر فى ١٧ مايو سنة ١٨١٤

وفى خلال سنة ١٩٥١ احتفلت شركة المترو «جولدين ماير» السينمائية بعيدها الفضى .

واحتفل «لوريل وهاردى» الممثلان الهزليان الأمريكيان ، بذكرى مرور ٢٥ سنة على بدء تمثيلهما فى السينما .

واحتفلت إيطاليا بالعيد الفضى لماركونى (١٩٢٦ — ١٩٥١) .

واحتفلت طائفة الأقباط الكاثوليك باليوبيل الفضى الأسقفى لصاحب الغبطة الأنبا مرقس الثانى بطريرك الإسكندرية .

وفى سنة ١٩٥٠ احتفلت الجامعة المصرية بذكرى مرور ٢٥ سنة على تأسيسها .

واحتفل فى الإسكندرية بالعيد الفضى للمطران الرسولى «كاير» .

وفى النية الاحتفال باليوبيل الفضى للسينما فى مصر .

هذا ما جرى وما يجرى هنا وهنالك .

وقد طوى النسيان – ولا أريد أن أقول الإهمال – ذكرى مرور أكثر من ألف سنة على تأسيس مدينة القاهرة المعزية والجامع الأزهر الشريف ، فعسى مصر أن تحتفل فى عهد فاروقها

العظيم بالعيد الألفى لتأسيس مدينة القاهرة. وعسى أن يوفق حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ عبد المجيد سليم فيحتفل الأزهر فى عهده بعيده الألفى.

ومن أراد المزيد من البيان التاريخى لوجوب الاحتفال بالعيد الألفى لمدينة القاهرة وللجامع الأزهر، فليراجع ما كتبناه فى جريدة الأهرام فى عدد ٢٢ يونيه سنة ١٩٣٣ وتعليق المرحوم داوود بك بركات رئيس تحريرها. ثم تعقيب حضرة صاحب الفضيلة الشيخ أحمد أبو رحاب من علماء الأزهر فى عدد ٢٥ يونيه سنة ١٩٣٣ فى الأهرام نفسها. والتعليق والتعقيب أيدا وحبذا اقتراحنا. وقد كتبناه ونشرناه من قبل تمام الألف سنة بست سنوات (راجع كتابنا «نفحات تاريخية» صفحة ٨ وما بعدها). وهاهى ذى قد مضت ١٩ سنة على ندائنا، ومرت ١٢ سنة على الألف، ومع ذلك لم يحرك أحد ساكناً. حنانيك يارب!

اليوبيل:

كلمة عبرية معناها (البوق). كان اليهود فى العصور الغابرة يحتفلون فى كل خمسين سنة بعيد الغفران. وفيه كان يغفر للمذنبين ذنوبهم ويعفى عن المجرمين من الجزاءات والعقوبات التى حبسوا من أجلها، وتبرأ ذمم جميع المدينين من ديونهم وترد إليهم أطيانهم وأملاكهم التى تكون قد نزعت منهم، وقد قلدهم النصارى فى هذا، ففى سنة ١٣٠٠ أصدر «بونيفاس» بابا روما، أمرا بالاحتفال بأول «يوبيل» على أن يتجدد هذا العيد كل مائة سنة. إلا أن البابا «كليمان» السادس عدل الأمر، وجعل الاحتفال باليوبيل كل خمسين سنة. ورأى البابا «بولس الثانى» خفض المدة إلى ٢٥ سنة. وكان الأزواج يحتفلون بذكرى مرور خمسين سنة على زواجهم. والملوك يحتفلون بذكرى مرور خمسين سنة على استوائهم على العرش. وأصحاب المهن كانوا يقتدون بهم فيحتفلون بعيدهم الخمسينى، ثم عمت العادة وتطورت، فأصبحوا يحتفلون بذكرى مرور ألف سنة ويسمونه العيد الألفى، أو مائة سنة ويسمونه العيد المئوى، أو ٧٥ سنة ويسمونه العيد الماسى، أو خمسين سنة ويسمونه العيد الذهبى، أو ٢٥ سنة ويسمونه العيد الفضى.

وقد احتفلت مصر فى سنة ١٩٠٥ بالعيد المئوى لمبايعة محمد على الكبير والياً على مصر. كما احتفلت انجلترا من قبل بالعيد الخمسينى على استواء الملك ادوارد الثالث على عرش انجلترا. (ومن المصادفات الغريبة أن هذا الملك توفى فى أثناء يوبيله)، كما احتفلت انجلترا أيضا فى سنة ١٨٨٧ بالعيد الذهبى لجلوس الملكة فيكتوريا على العرش خمسين سنة.

عزيز خانكى



العالم الإسلامي في شهر

للدكتور محمد عوض محمد بك

تواجه كل دولة من دول العالم الإسلامى مشكلة ليس حلها دائماً بالأمر اليسير، وليس من شك فى أن قضية كل بلد إسلامى قضية عادلة واضحة المعالم - ولو أن أمور العالم تجرى على سنن العدل والإنصاف لما تعذر الحل لمعظم تلك المشاكل، غير أن العالم لا يزال - مع الأسف - تتنازعه الشهوات الاستعمارية، وتستبد به الآراء الرجعية. ولذلك ظل كثير من الدول الشقيقة تكافح وتناضل لنيل حقها المغتصب، وتحقيق مطالبها العادلة.

ولئن كان تضامن الأقطار الإسلامية من أهم الوسائل لتحقيق العدل والإنصاف، فليس معنى هذا أن ذلك التضامن صادر عن تعصب دينى أهوج. والتاريخ خير شاهد بأن الشعوب الاسلامية لم تكن تصدر فى أعمالها فى أى عصر من العصور، عن تعصب واستبداد. وقد شهدنا فى المؤتمرات الدولية التى أصبحت من مميزات هذا العصر، وقفات كريمة للدول الاسلامية، كانت تتوخى فيها دائماً نصرة الضعيف، وإقامة العدل، حتى فى المسائل التى لا تمس الاسلام والمسلمين.

ولن يتسع المقام هنا للتعرض لجميع الأطوار التى مرت بمختلف الأقطار الاسلامية بل سنكتفى بسرد موجز لبعض الشئون الهامة، التى ظهرت فى الأسابيع الأخيرة.

قضية تونس:

ليس القطر التونسى جزءاً من ممتلكات فرنسا، لا فى عرف القانون الدولى، ولا القانون الفرنسى، وإنما هو قطر منفصل عن الدولة الفرنسية، له ملكه جلالة الباى، وشعبه العربى المسلم. وكل ما يربطه بفرنسا معاهدة ترجع إلى القرن الماضى، اتخذت منها فرنسا ذريعة للهيمنة على جميع شئون البلاد ومرافقها. وفى الحرب العالمية الأخيرة فقدت فرنسا تونس وسائر بلاد المغرب فقداً تاما، كما فقدت هى حريتها واستقلالها، واحتل العدو أرضها وديارها. ولو تركت فرنسا لنفسها لظلت إلى اليوم خاضعة للنير الأجنبى مسلوبة الارادة والحرية. ولكن تطورات الحرب، دعت أمريكا إلى التدخل وإلى إرسال الجيوش الجرارة إلى بلاد المغرب، فلم تزل تحارب وتناضل حتى أجلت العدو الغاصب عن بلاد مراكش والجزائر وتونس، ودامت الحرب فى تونس نفسها شهوراً طوالا. أريق فيها دم الأمريكيين والهنود وجنود

المستعمرات ، ولم يبذل الفرنسيون فى ذلك سوى تضحيات تافهة . ومع ذلك لم تكد تستقر الأمور ، حتى أخذت فرنسا تحشد رجالها ، لا ضد أعدائها من الألمان وقد أجلوا عن البلاد ، بل ضد شعب تونس وأبنائها الذين لا ذنب لهم سوى أنهم يريدون أن ينالوا حقهم المغتصب وأن يوفروا لبلادهم وسائل التقدم والرقى .

ولم يكن بد من أن يثور الأحرار وأن تنهض الأمة التونسية غاضبة ، لتطالب بحقها ، على الرغم من العدو المدجج بالسلاح ، الذى لا يتردد فى الالتجاء إلى مختلف وسائل القمع والارهاب . ولعل أصدق دليل على عدل القضية التونسية أنها نالت عطف كثير من الشعوب غير الإسلامية ، ولذلك رأينا اثنتى عشرة دولة - منها أربع دول غير إسلامية - وهى : الهند ، وبرما ، وليبيريا والفلبيين ، وثمانية إسلامية ، وهى باكستان ، وأفغانستان ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وإيران ، واليمن ، وأندونيسيا ، ومصر ، تتقدم كلها متضامنة إلى منظمة الأمم المتحدة ، مطالبة بعرض قضية تونس فوراً على مجلس الأمن .

حدث هذا فى منتصف شهر رجب - وكان السيد أحمد بخارى مندوب الباكستان هو رئيس مجلس الأمن فى تلك الدورة ، فبذل جهداً كبيراً لكى تدرج المسألة التونسية فى جدول أعمال المجلس ، وجردت دول الاستعمار أسلحتها لكى تحول دون عرض الموضوع على المجلس ، زاعمة أنها فى سبيل مفاوضة التونسيين للوصول إلى حل يرضونه ، وبذلك أمكنها أن تقنع الكثرة من أعضاء مجلس الأمن ، على معارضة إدراج القضية أو إلى الامتناع عن التصويت . وقد كان عرض الموضوع فى يوم الثلاثاء ٢٠ من رجب (الموافق ١٥ أبريل) فوافق خمسة أعضاء على إدراج الموضوع فى جدول الأعمال . وهم : الباكستان ، وروسيا ، والصين ، والبرازيل ، وشيلى ، وعارضته بريطانيا ، وفرنسا . وامتنع عن التصويت كل من : الولايات المتحدة ، وتركيا ، وهولندا واليونان . فلم يظفر الأمر بالأصوات السبعة التى لا بد من توافرها لكى يدرج فى جدول الأعمال . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرفض فيها المجلس مجرد النظر فى موضوع . ولذلك أثار القرار نقداً مريراً فى مختلف دوائر الأمم المتحدة وفى الصحافة الامريكية . وغضب له كثير من الناس فى مختلف الأقطار .

وقد زعمت فرنسا أن شئون تونس يجب أن يترك أمرها إليها وإلى حكومة الباى . وأنه ليس لأى طرف ثالث حق التدخل بينهما . وأنها على كل حال ستقوم بمفاوضات لحل المشكلة . وطلائع الأمور لا تدل مع الأسف على أن فرنسا قد خلصت نيتها لمنح الشعب التونسى ولو حظا مقبولا من حقوقه المشروعة . فقد مهدت للمفاوضات بالحجر على حرية الزعماء ، أمثال السيد بورقيبه — وبعزل وزارة السيد محمد شنيق — وإحلال حكومة جديدة برئاسة السيد صلاح الدين باكوش - وكان وزير الخارجية فى هذه الوزارة فرنسيا - وتدل الشواهد على أن الدستور الجديد الذى تحبذه فرنسا قوامه مجلس نيابى يضم

تونسيين وفرنسيين . وأعلن رئيس وزراء فرنسا أن ليس فى هذا أى ضرر بمصالح تونس . فالمشروع الجديد لا يكاد يمهد لعهد جديد — بل هو الشراب القديم يصب فى زجاجة جديدة — وطعمه الحنظلى لم يتبدل أو يتغير .

ولم يكن بمستغرب والحال هذه أن يحس بعض الأمريكيين بشىء من وخز الضمير - فإن أمريكا هى التى ضحت برجالها وأموالها لتحرير فرنسا وطرد الألمان من تونس . فهل عملت هذا كله لكى تمكن للفرنسيين من القضاء على حرية الشعوب وتسخيرها لشهوات الاستعمار ؟ رأى كثير من الأمريكيين غير ذلك . فكتب نائب من نوابهم خطابا إلى وزير الخارجية مستر دين اتشيسون يلومه على موقف الحكومة الأمريكية فى مجلس الأمن -- وهو يعد ذلك الموقف وصمة فى جبين أمريكا . فرد عليه السفير الأمريكى بخطاب - أذيع نصه فى أوائل شعبان - قال فيه :

« أن أمريكا لم تتخذ قرارها الصعب بالامتناع عن التصويت لإدراج مسألة تونس فى جدول أعمال مجلس الأمن ، إلا بعد فحص دقيق لجميع نواحى الموضوع وملابساته . فقد بدا لنا أن الفرنسيين لا يعترضون على برنامج للإصلاح فى تونس يصل بالبلاد إلى الاستقلال ، وهو ما يريده التونسيون ، وإنهم على وشك الدخول فى مفاوضات مع حكومة تونس لتحقيق هذا الهدف ، فرأت وزارة الخارجية أن موقف فرنسا هذا ينطوى على العطف على مطالب التونسيين .

« وقد كان دائماً من المبادىء المقررة لدى الولايات المتحدة ، أنه لا ينبغى عرض مسألة على الأمم المتحدة إلا إذا عجز الطرفان المتخاصمان عن الوصول إلى اتفاق مباشر فيما بينهما ، لذلك رأت الحكومة الأمريكية أن عرض الموضوع على مجلس الأمن قد يعوق إجراء تلك المفاوضات ، ولذلك امتنع مندوبها عن التصويت » .

ويختم الوزير خطابه بالعبارة الآتية :

« وبديهى أنه إذا خابت آمالنا فى قيام تلك المفاوضات (بين فرنسا وتونس) فإن أى عضو من الأمم المتحدة حر فى أن يعرض الموضوع من جديد ، وفى هذه الحال ستعيد الولايات المتحدة النظر فى موقفها على ضوء الحالة القائمة حينئذ » .

لا شك أن هذه العبارة الأخيرة تحمل فى طياتها معنى الانذار لفرنسا ، وليس من الممكن لرجال السياسة أن يتكلموا فى مثل هذا الموقف بعبارة أكثر وضوحا وصراحة . . . ولذلك لم ترض الدوائر الفرنسية عن عبارة الوزير الأمريكى . ولكنها لن تستطيع أن تتجاهلها . أما أن يكون إحساسها باهتمام أمريكا بمسألة تونس - حافزا للحكومة الفرنسية على أن تنتهج سياسة أرقى إلى العدل والإنصاف - وأقرب إلى روح هذا العصر - فذلك ما ستكشف عنه الأيام .

مؤتمر كراتشى :

عقد فى كراتشى عاصمة باكستان — مؤتمر إسلامى افتتح يوم السبت ١٦ من شعبان واستمر

إلى نهاية الأسبوع . وهو ليس مؤتمرا دوليا ، إذ لم تشترك فيه الدول الإسلامية بصفة رسمية ، وقد دعيت إليه الهيئات الإسلامية الحرة . وعقد المؤتمر تحت إشراف منظمة شعوب المسلمين وزعيمها السيد «جودرى خليق الزمان» الذى دعا إلى عقد المؤتمر . وغرضه زيادة توثيق الروابط بين الأقطار الإسلامية . وقد أرسلت بعض الهيئات المصرية مندوبين عنها إلى ذلك المؤتمر ، فأتاحت هذه الاجتماعات فرصة لهم لكى يتعرفوا على بلد إسلامى ناهض يقوم بدور إيجابى حازم فى الشئون العالمية والميادين الدولية .

وفى أواخر رجب الماضى ، حضر وفد من علماء باكستان ومن بينه الأمين العام لمنظمة شعوب المسلمين ، إلى القطر المصرى ، وتشرفوا بمقابلة فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر . ملتمسين أن يمثل الأزهر مندوب فى المؤتمر المذكور . وقد أكد لهم فضيلة الأستاذ الأكبر أنه شديد الحرص على توثيق الروابط بين الشعوب الإسلامية . وأنه لاحظ تعدد المؤتمرات الإسلامية وياحبذا لو أن هذه الهيئات وحدت كلمتها ونظمت صفوفها ، فتكون بذلك أقدر على تحقيق أهدافها .

أسبانيا والعالم العربى :

فى الأسابيع القليلة الماضية طاف وفد من إسبانيا بالبلاد العربية ، مبتدئاً بلبنان وسوريا ثم العراق والمملكة الأردنية ، ثم المملكة العربية السعودية . وكان آخر الزيارة لأرض الكنانة ، حيث أقام الوفد بضعة أيام ، ثم غادرها فى الرابع والعشرين من رجب عائدا إلى أسبانيا .

ولا شك أن هذه الزيارة الرسمية كانت تهدف إلى تقوية روح المودة والصداقة والتعاون الثقافى والاقتصادى بقدر الإمكان بين دولتى أسبانيا وبين الأقطار العربية .

وللزيارة معنى آخر ، وهو أنها بمثابة تقدير من الحكومة الأسبانية للموقف الكريم الذى وقفته الدول العربية من أسبانيا فى ميدان العلاقات الدولية . وفى الوقت الذى سلكت فيه دول أوربا ، وبعض دول أمريكا مسلك الجفاء نحو أسبانيا ، وسحبت سفراءها ووزراءها من العاصمة الأسبانية ، ظلت البلاد العربية على صلاتها الطيبة ، مبقية على بعثاتها السياسية كاملة ، بل إن مصر رفعت مفوضيتها فى مدريد إلى سفارة . وأنشأت مصر فوق ذلك معهداً للدراسات الإسلامية فى العاصمة الأسبانية .

فجاءت زيارة الوفد الأسبانى بمثابة تقدير للسياسة التى سلكتها الدول العربية . ومن التعسف أن نذهب إلى أبعد من هذا ، وأن نغلو فنتوهم أن هنالك أغراضاً سياسية أو «تكتلية» وراء تلك الزيارة . ولا شك أن أسبانيا تدرك أن البلاد العربية لا يرضيها من أسبانيا شىء أقل من أن تعمل حكومتها على تحرير شعب مراكش الخليفية . ولا نظن أن الساسة العرب قد فاتهم أن يشيروا إلى ذلك فى أحاديثهم مع الوفد الأسبانى فإن هذا وحده هو العمل الذى يؤدى إلى زيادة الصداقة والمودة بين الشعوب العربية ودولة أسبانيا .

ما يقوله الإسلام

موقف الإسلام من الرق

للدكتور على عبد الواحد وافى بك
وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

أخذ كثير من باحثى الفرنجة على الإسلام أنه أباح الرق، وأن فى هذا هدماً لأعظم ركن من أركان الحرية الإنسانية؛ لأن حالة الرق تجعل الشخص قاصراً من الناحية المدنية، وتحول بينه وبين مباشرة أى عقد أو القيام بأى التزام، وتنزع عنه أهلية التملك، بل تجعله هو نفسه مملوكا لغيره، وتنزله من بعض النواحى منزلة السلعة يتصرف فيها السيد كما يشاء.

وردنا على هؤلاء يتلخص فى نقطتين: إحداهما أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تكتنف العالم فى العصر الذى ظهر فيه الإسلام، كانت تحتم على كل شارع حكيم أن يقرّ الرق فى صورة ما، وتجعل كل محاولة لإلغائه إلغاء سريعا مقضياً عليها بالإخفاق. وثانيتهما أن الإسلام لم يقر الرق إلا فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج.

ظهر الإسلام فى عصر كان نظام الرق فيه دعامة ترتكز عليها جميع نواحى الحياة الاقتصادية، وتعتمد عليها جميع فروع الإنتاج فى كثير من أمم العالم. فلم يكن من الإصلاح الاجتماعى فى شىء أن يحاول مشرع تحريمه تحريماً تاماً مرة واحدة؛ لأن محاولة كهذه كان من شأنها أن تعرض أوامر المشرع للمخالفة والامتهان. وإذا أتيح لهذا المشرع من وسائل القوة والقهر ما يكفل به إرغام العالم على تنفيذ ما أمر به، فإنه بذلك يعرض الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهزة عنيفة، ويؤدى تشريعه إلى أضرار بالغة لا تقل فى سوء مغبتها عما تتعرض له حياتنا فى العصر الحاضر، إذا ألغى بشكل فجائىّ نظام البنوك أو الشركات المساهمة، أو حرم استخدام العمال، وقضى على كل مالك أن يعمل بيده، أو بطل استخدام السكك الحديدية، أو استخدام البخار، فالرقيق كان بخار الآلة الاقتصادية فى تلك العصور.

لذلك أقر الإسلام الرق، ولكنه أقره فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج، بدون أن يحدث ذلك أى أثر سيئ فى نظام المجتمع الإنسانى، بل بدون أن يشعر أحد بتغيير فى مجرى الحياة والوسيلة التى ارتضاها للوصول إلى هذه الغاية من أحكم الوسائل وأبلغها أثرا وأصدقها نتيجة. وهى تتمثل من جهة، فى العمل على تضييق الروافد التى كانت تمد الرق وتغذيه

وتكفل بقاءه ، ومن جهة أخرى فى توسيع المنافذ التى تؤدى إلى العتق والتحرير . وبذلك أصبح الرق أشبه شىء بجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه موارده التى يستمد منها الماء . وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف . وبذلك كفل الإسلام القضاء على الرق فى صورة سلمية هادئة . وأتاح للعالم فترة للانتقال يتخلص فيها شيئاً فشيئا من هذا النظام .

كانت روافد الرق فى العصر الذى ظهر فيه الإسلام كثيرة متنوعة أهمها سبعة روافد : (أحدها) الحرب بجميع أنواعها ، فكان الأسير فى حرب أهلية أو خارجية لا يخرج مصيره عن القتل أو الاسترقاق . و (ثانيها) القرصنة والخطف ، فكان ضحايا هذه الاعتداءات يعاملون معاملة الأسرى ، فيفرض عليهم الرق . و (ثالثها) ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا ، فكان يحكم على مرتكب واحدة منها بالرق لمصلحة الدولة أو لمصلحة المجنى عليه أو أسرته . و (رابعها) عجز المدين عن دفع دينه ، فكان يحكم عليه بالرق لمصلحة دائنه . و (خامسها) سلطة الوالد على أولاده ، فكان يباح له أن يبيعهم بيع الأرقاء . و(سادسها) سلطة الشخص على نفسه فكان يباح للمعوز أن يتنازل عن حريته ويبيع نفسه لقاء ثمن معين . و (سابعها) تناسل الأرقاء ، فكان ولد الرقيقة يولد رقيقاً ولو كان والده حراً . [١]

وكانت هذه الروافد تقذف فى تيار الرق كل يوم بآلاف مؤلفة من الأنفس ، حتى إن عدد الأرقاء كان يزيد فى كثير من الأمم على عدد الأحرار زيادة كبيرة .

جاء الإسلام وروافد الرق على هذه الكثرة والغزارة والقوة فحرمها جميعاً ، ما عدا رافدين اثنين ، وهما رق الوراثة وهو الذى يفرض على من تلده الرقيقة . ورق الحرب وهو الذى يفرض على الأسرى . وعمد إلى هذين الرافدين نفسيهما فقيدهما بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل .

فمن أهم القيود التى قيد بها رق الوراثة أنه استثنى منه أولاد الرقيقات من أسيادهن ، فقرر أن ما تأتى به الجارية من سيدها يولد حراً إذا اعترف به السيد [٢] . وإذا لاحظنا أن الغالب فى أولاد الرقيقات أن يكونوا من أسيادهن أنفسهم ، لأن الأغنياء ما كانوا يقتنون الجوارى إلا لمتعتهم الخاصة ، تبين لنا أن هذا القيد الذى قيد به الإسلام رق الوراثة كفيل بالعمل على انقراض هذا المورد نفسه ونضوب معينه بعد أمد غير طويل .

ومن أهم القيود التى قيد بها المورد الثانى وهو رق الحرب أنه استثنى منه الذين يؤسرون

---

(١) انظر تفاصيل هذه الموارد والأمم التى كانت تستخدمها ، فى كتابين لى باللغة الفرنسية طبعا فى باريس سنة ١٩٣١ : « الحالات المولدة للرق » صفحات ٩٩ - ٢٣٩ و « الفرق بين رق الرجل ورق المرأة » صفحات ٢٥٤ - ٢٨١ .

(٢) أنظر بدائع الصنائع للكاسانى ، الجزء الرابع صفحتى ١٢٤ ، ١٢٥ (طبعة الخانجى ١٩١٠) ، والميدانى على القدورى صفحة ٢٦٦ (المطبعة الأزهرية ١٩٢٧) . - وقد استثنى الاسلام كذلك من هذا المورد من تأتى به المدبرة والمكاتبة وأم الولد بعد التدبير والمكاتبة والاستيلاد ، على ما سيأتى بيانه .

فى حرب بين طائفتين من المسلمين ، فهؤلاء لا يضرب عليهم الرق ، سواء أكانوا من الطائفة الباغية أم من الطائفة الأخرى [١] ، أما الحروب الأخرى وهى التى تكون بين المسلمين وغيرهم فلا تؤدى إلى رق من يؤسرون فيها إلا بشروط كثيرة ، من أهمها أن تكون الحرب شرعية أى يجيزها الإسلام وتنفذ وفق قوانينه ويعلنها خليفة المسلمين . ولا يكاد الإسلام يبيح الحرب إلا فى ثلاث حالات : حالة الدفاع . قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ؛ وحالة نكث العهد والكيد للدين الإسلامى ، قال تعالى « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » ؛ أو حيث تقتضى ذلك اعتبارات تتعلق بسلامة الدولة والقضاء على الفتنة ، قال تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . ولم تتجاوز حروب الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الحالات ، سواء فى ذلك حروبه مع العرب وحروبه مع اليهود وحروبه مع الروم . — فإذا لم تكن الحرب مشروعة بأن أعلنت فى غير الحالات السابقة ، أو لم تنفذ وفق المناهج التى وضعها الإسلام ، أو لم تكن معلنة من قبل الخليفة ، فإنها لا تؤدى إلى رق من يؤسرون فيها [١] . — وحتى مع توفر هذه الشروط فإن الإسلام لا يجعل الرق نتيجة لازمة للأسر بل يبيح للإمام أن يمن على الأسرى بدون مقابل ، أو يطلق سراحهم فى نظير فدية أو عمل يؤدونه ، أو فى نظير أسرى من المسلمين عند العدو ، أو فى نظير جزية تفرض على رءوسهم [٢] بل إن القرآن قد تحاشى أن يذكر الرق من بين الأمور التى يباح للإمام أن يعامل بها الأسرى ، واقتصر على ذكر المن أو الفداء ، قال تعالى . (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها)

(١) انظر الميدانى على القدورى صفحتى ٣٨٣، ٣٨٤ ، وبدائع الصنائع للكاسانى ، الجزء السابع صفحة ١٤١ ومؤلفى بالفرنسية عن الحالات المولدة للرق صفحتى ١٢٨ ، ١٢٩ .

(١) انظر تفاصيل هذه الأحكام فى الجزء السابع من البدائع صفحات ٩٧ - ١٤٢ ، والميدانى على القدورى صفحات ٣٦٧ - ٣٨٤ ، وحاشية الشرقاوى على شرح التحرير لزكريا الأنصارى (مذهب الشافعى) جزء ثان ٢٧٤ - ٤٠٣ (طبعة دار الكتب ١٢٦٢ هـ) ، وحاشية الدسوقى على الشرح الكبير للدردير على متن خليل (مذهب مالك) جزء ثان ١٧٢ - ٢٠٨ (المطبعة الأزهرية ١٩٢٧) ، ومحمد الخضرى بك ، تاريخ التشريع الإسلامى ٥٤ - ٦٧ ، ومؤلفى بالفرنسية عن الحالات المولدة للرق صفحتى ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) أنظر الميدانى على القدورى ٣٧٠ ، ٣٧١ ، والبدائع جزء سابع ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، والشرقاوى على التحرير ، جزء ثان ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، والدسوقى على الشرح الكبير جزء ثان ٣٨٤ ، والشيبانى على مرعى [مذهب ابن حنبل] جزء أول ص ٢٦ [المطبعة الخيرية ١٣٢٤ هـ ، والألوسى على القرآن جزء ٢٦ صفحتى ٤٤ ، ٤٧ ، والطبرى على القرآن جزء ٢٦ ص ٢٧ والطبرى على القرآن جزء ٢٦ ص ٢٧ والخضرى ، تاريخ التشريع ٥٩ ، ٦٠ ، والغزوات فى سيرة ابن هشام ، والشرقاوى على الزبيدى على البخارى جزء ثان ٣٠ ، ٣٦٦ وثالث ١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٤٩ . — وانظر مؤلفنا بالفرنسية ١٢٩ — ١٣٥ والمراجع المنوه عنها فى هذه الصفحات وملحقاتها .

ومن هذا يظهر أن الإسلام قد سلك حيال الرق عن طريق الأسر المسلك نفسه الذى سلكه حيال الرق الوراثى . فقد قيده بقيود تكفل القضاء عليه . فهو لم يجعله نتيجة لازمة للأسر ، بل جعله مسلكا من المسالك التى يصح أن يتخذها الإمام ، ولم يرغّب فيه ، بل رغّب فى غيره وفضله عليه . على أنه لم يجز الالتجاء إليه إلا بشروط لا تكاد تتوفر إلا فى الحروب التى اضطر إليها الإسلام فى مبدأ ظهوره . أما بعد استقراره وتنظيم العلاقات بين أممه والأمم الأخرى ، فيندر أن تتوفر هذه الشروط . ومعنى هذا : أن الإسلام لم يبح هذا النوع من الرق إلا لأجل معلوم .

هذا ما فعله الإسلام حيال روافد الرق ، قضى عليها جميعاً ما عدا رافدين اثنين ، وقيد هذين الرافدين بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل .

وأبلغ من هذا كله فى الدلالة على حرص الإسلام على مبادىء الحرية هو ما سلكه حيال العتق وتحرير الأرقاء .

كانت منافذ العتق قبل الإسلام ضيقة كل الضيق فلم تكن له إلا سبيل واحدة ، وهى رغبة المولى فى تحرير عبده ، فبدون هذه الرغبة كان مقضياً على الرقيق أن يظل هو وذريته راسفين فى أغلال العبودية أبد الآبدين . هذا إلى أن معظم الشرائع كانت تحظر على السيد أن يعتق عبده إلا فى حالات خاصة وبشروط قاسية ، وبعد إجراءات قضائية ودينية معقدة كل التعقيد ، وبعضها كان يفرض على السيد ، فضلا عن هذا كله ، غرامة مالية كبيرة يدفعها للدولة ؛ لأن العتق كان يعد تضييعاً لحق من حقوقها [1] .

جاء الإسلام وهذه حال العتق فى ضيق منافذه وقسوة شروطه ، فحطم كل هذه القيود ، وفتح للأرقاء أبواب الحرية على مصراعيها ، وأتاح لتحريرهم آلافاً من الفرص ، وتلمس للعتق من الأسباب ما يكفى بعضه للقضاء على نظام الرق نفسه بعد أمد غير طويل .

فجعل الإسلام من أسباب العتق أن يجرى على لسان السيد فى أية صورة ، لفظ يدل صراحة على عتق عبده ، سواء أكان قاصداً معنى هذا اللفظ أم لم يكن قاصداً له ، بأن جرى خطأ على لسانه ، وسواء أكان جادا فى إصداره أم كان هازلا ، وسواء أكان مختارا أم مكرها عليه ، وسواء أكان فى حالة عادية أم فاقداً لرشده بفعل الخمر وما إليها من المحرمات[2] . ومن هذا يظهر أن الإسلام يتلمس أو هى الأسباب لتحرير الأرقاء .

ومن أسباب العتق كذلك ان يجرى على لسان

---

(١) أنظر فى تفصيل ذلك

Wallan : L'Histoire de L'Esclavage dans L'Antiquité, T. I, 334-357 ; T. II. 385-439.

(٢) هذا فيما يتعلق بالألفاظ الصريحة فى العتق ، أما الألفاظ التى تستخدم كناية فتشترط فيها النية . وما ذكرناه هو مذهب أبى حنيفة النعمان ، انظر البدائع ، الجزء الرابع ص ٤٦ وتوابعها ، والميدانى على القدورى ٢٦٣ وتوابعها ،

السيد فى أى صورة لفظ يفيد « التدبير » أى يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده . فبمجرد أن تصدر من السيد عبارة تفيد هذا المعنى تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده . وقد اتخذ الإسلام جميع وسائل الحيطة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد . فخظر على السيد فى أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر أو يرهنه أو يهبه ، أو يتصرف فيه تصرفا ينقل ملكيته إلى شخص آخر . وإذا كان المدبر جارية يسرى حكمها على من تلده بعد تدبيرها ؛ فيعتق معها بعد وفاة سيدها ، أقر ذلك ورثته أم لم يقروه (١) .

ومن أسباب العتق فى الإسلام كذلك أن يأتى السيد من جاريته بولد يعترف ببنوته ، فنى هذه الحالة يعتبر الولد حرا من يوم ولادته ، كما ذكرنا ذلك فيما سبق ، وتصبح الأم نفسها حرة بعد وفاة سيدها وقد اتخذ الإسلام لضمان الحرية لهذا النوع من الرقيقات ، الاحتياطات نفسها التى اتخذها حيال النوع السابق . وإذا جاءت « أم الولد » (وهذا هو الاسم الشرعى الذى يطلقه الفقهاء على كل رقيقة من هذا النوع) بعد ذلك بولد من غير سيدها يسرى حكمها عليه ، فيعتق معها بعد وفاة السيد(١) .

ومن أسباب العتق فى الإسلام كذلك أن يكاتب السيد عبده ، أى يتفق معه على أن يعتقه إذا دفع له مبلغاً من المال . وقد ذلل الإسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال فى صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على الحرية ، فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار ، فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود ، حتى يستطيعوا أن يجمعوا المبالغ التى كوتبوا عليها فتحرر رقابهم . وحث جميع المسلمين على مساعدتهم والتصدق عليهم ، فقال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » . ولم يكتف الإسلام بذلك بل خصص جزءاً من ميزانية الدولة لمساعدتهم وتخليصهم من الرق كما سيأتى بيان ذلك . ويدل ظاهر القرآن فى الآية التى ذكرناها على أنه لا يصح للسيد أن يمتنع عن قبول المكاتبة ، متى أبدى العبد رغبته فى تحرير نفسه لقاء مبلغ يدفعه . وقد سأل ابن جريج عطاء بن أبى رباح ،

---

(١) انظر تفصيل هذه الأحكام فى الميدانى على القدورى ٢٦٧ وتوابعها ، والبدائع ، جزء رابع ١٢٣ وتوابعها ، والشرقاوى على التحرير جزء ثان ٤٩٤ وتوابعها ، والشيبانى على مرعى ، جزء ثان ١١٧ وتوابعها ، والدسوقى على الدردير على خليل جزء رابع ٤٠٧ وتوابعها ، - وانظر كذلك مؤلفنا بالفرنسية صفحة ٣٣ .

(١) انظر تفصيل هذه الأحكام فى الميدانى على القدورى ٢٦٦ و ٢٦٨ ، والبدائع ، الجزء الرابع ، ١٢٢ وتوابعها ، والدسوقى على الدردير على خليل ، جزء رابع ٣٨٠ وتوابعها ، والشرقاوى على التحرير ، جزء ثان ٤٩٢ وتوابعها ، والشيبانى على مرعى ، جزء ثان ١٠٤ وتوابعها . - وانظر كذلك مؤلفنا بالفرنسية صفحتى ٣٢، ٣٣

فقال: « أواجب على إذا طلب منى مملوكى الكتابة أن أكاتبه » ، فأجابه بقوله: « ما أراه إلا واجباً » ، واستدل بالآية الكريمة السابقة.

وإذا كان المكاتب جارية سرى حكمها على من تلده بعد مكاتبتها ؛ فيعتق معها بدون عوض بمجرد أدائها المبلغ الذى تعاقدت مع سيدها عليه ، سواء أرضى السيد بذلك أم لم يرض به [١]

وفضلا عن هذا كله ، فقد عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء التى يكثر حدوثها ، وجعل كفارتها تحرير الأرقاء : فجعله تكفيراً للقتل الناشيء عن خطأ وما فى حكمه ، قال تعالى: « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة . . » ؛ وللحنث فى اليمين ، قال تعالى: « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » ؛ وللإفطار فى رمضان ؛ وجعله وسيلة لمراجعة الزوجة إذا أوقع عليها زوجها ظهاراً ، أى قال لها « أنت علىّ كظهر أمى » ، قال تعالى: « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » . وتقرر الشريعة الغراء أن من وجبت عليه كفارة من هذه الكفارات ولم يكن يملك عبداً ، وجب عليه أن يشترى عبداً ويعتقه متى كان قادراً على ذلك.

وبجانب هذا كله حبب الإسلام إلى الناس تحرير الأرقاء ، وجعله أكبر قربة يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى ، حتى إن النبى عليه السلام ليضرب به المثل فى جلال العمل وعظم الأجر ، فيقول: « من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة » أو « يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة ».

ولم يكتف الإسلام بهذا كله ، بل خصص كذلك سهما من مال الزكاة ، أى جزءا من ميزانية الدولة ، فى الإنفاق على تحرير الأرقاء ، أى شرائهم وعتقهم ، ومساعدة من يحتاج منهم إلى مساعدة فى سبيل تحريره ، كالمكاتبين ومن إليهم ، فقال تعالى: « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب » ، أى فى فك قيود الرق عن رقاب الأرقاء . والمقصود بالصدقات فى الآية ، الزكاة التى كان يتألف منها أهم جزء من موارد الدولة.

ومن هذا يظهر صدق ما قلناه من أن الإسلام يُقر الرق إلا فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج ؛ وذلك بأن ضيق روافده ، بل لم يسمح ببقائها إلا لأجل معلوم ، ووسع منافذ العتق إلى أبعد الحدود . وبذلك أصبح الرق كما قلنا أشبه شيء بجدول كثرت مصبانه وانقطعت عنه منابعه التى يستمد منها الماء ؛ وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف ؟

على عبد الواحد وافى

(١) انظر تفصيل أحكام المكاتب فى الميدانى على القدورى ص ٢٧ وتوابعها ؛ والبدائع جزء رابع ص ١٣٣ وتوابعها ؛ والشرقاوى على التحرير ، جزء ثان ص ٥٠٨ وتوابعها ؛ والشيبانى على مرعى جزء ثان ص ١٠٧ وتوابعها ، والدسوقى على الدردير على خليل جزء رابع ص ٣٨٨ وتوابعها . ومؤلفى بالفرنسية ص ٣٣ وتوابعها .

ما يقال عن الإسلام

تمهيد :

كان أكثر ما يكتب عن الإسلام من عهد ليس ببعيد ، مبعثه الرغبة فى محاربته ليس غير ، فكان المستشرقون من المبشرين وغير المبشرين يفترون على الإسلام ما ليس منه ، مثل : هانوتو ومرجليوث والقس زويمر وأمثالهم ، فإذا أشرق عليهم بنوره وتحداهم بآياته جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، وراحوا يقلبون محاسنه مساوئ ويتخذون من حججه عليهم ، ما يزعمونه حججاً لهم ! وكانوا يتناولون فى أكثر ما يكتبون حياة الرسول صلوات الله عليه ودعوته وجهاده ، ويتناولون العقيدة الإسلامية فى كثير من السفه والحقد ، وينعون على الإسلام ما يزعمونه من تعصبه وجمود أهله ، إلا نفرا قليلا منهم كتبوا يريدون الحق ، وإن لم تخل كتاباتهم أحيانا من الخطأ ، ومن أبرز هؤلاء فى القرن الماضى المؤرخ الإنجليزى الشهير «جيبون» فى كتابه العظيم (ضعف الدولة الرومانية وسقوطها) والفيلسوف الكبير «توماس كارليل» فى كتابه (الأبطال وعبادة البطولة) وفى القرن الحالى «ه . ج . ولز» فى كتابه (معالم تاريخ العالم) .

ثم أيقن المبطلون أنهم بهذا لن ينالوا من الإسلام شيئا . وأكبر الظن أنهم اليوم يخجلون مما سلف لهم من لجاجة ، لذلك بدأت منذ سنوات تتغير نزعتهم فى الكتابة ، وإن لم تفتر رغبتهم فى الكيد ، فاستبدلوا خطة بخطة ، وصارت كتاباتهم فى الأكثر تدور حول حركات النهوض فى العالم الإسلامى . وتبين أغراضها ومدى ما يرجى لها من نجاح ، وهم يهتمون بهذا الأمر اهتماما شديدا يزداد يوما بعد يوم ؛ وهم يتناولون النظم الإسلامية ، وحياة المجتمع الإسلامى ، ويعنون بمسائل يظنونها من مواطن العيب فى الحياة الإسلامية ، ويبالغون فى تصوير ما يزعمون فيها من عيب ، كالرق مثلا ، وكمركز المرأة فى الأسرة والمجتمع ، وكتعدد الزوجات ، والطلاق ، وما إلى ذلك مما يزعمون عن قصد أو عن جهالة ، وتراهم إذا ألفوا كتباً عن الإسلام يوهمون القارئ بما يشبه أن يكون له سمة التحقيق العلمى ، وما هو فى الواقع إلا ما يتمنونه من المزاعم أن يكون ، ولو بعد كل البعد عن الحقيقة ، إلا فئة قليلة منهم يكتبون عن بينة ، وقد فهموا حقيقة الإسلام وقدروه حق قدره .

وسنعرض فى هذه الصفحات ما نقع عليه مما يقول هؤلاء وهؤلاء فى كتبهم ومجلاتهم ، لتدفع الشبه وتصوب الأخطاء وتذاع المحامد .

* * *

المسلمون ونهضاتهم واتجاهاتهم الحديثة :

لا تكاد تخلو مجلة تعنى بالشرق أو كتاب حديث عن الإسلام ، من إشارة طويلة أو قصيرة

عما يتطلع إليه الإسلام من نهوض ، فنى مقال عنوانه « الأزهر البالغ من العمر ألف سنة » نشرته مجلة (كرستيان سينس مونيتور) - مرشد العلوم المسيحية ، أشار الكاتب فى صدد ذكره بعض الحركات الحديثة للأزهر، إلى أن هناك روحا جديدة للمقاومة، فقد نشأت فى الإسلام، روح جهاد وعراك فى سبيل الحياة ، وإلى أن الدين الإسلامى هو الآن فى حالة مقاومة وجهاد ، إما بسبب رد الفعل الناشىء عن الإلحاد السائد فى هذا الزمن ، وإما بسبب ما رسخ فى أذهان بعض الناس من أنه لابد أن تسنح الفرصة قريباً ، ليسير الإسلام إلى الأمام مرة ثانية ، كما حدث فى القرن الأول بعد الرسول، حيث وصل غرباً إلى أسبانيا وشرقاً إلى الهند . ومما يدل على ذلك تجدد النشاط الذى يبدو فى التآخى بين المسلمين ، ذلك التآخى الذى كان قد ضعف منذ سنوات مضت ، والذى يعود الآن .

وذكرت مجلة « العالم الإسلامى » التى تصدرها بالإنجليزية «البعثة الإسلامية» فى ووكنج بانجلترا بعض ما يقوله غير المسلمين عن نهضة الإسلام ، ومنه ، أن العالم الإسلامى بما يحاول من الملاءمة بينه وبين مقتضيات العصر ، وبما يأخذ وما يدخل فى حياته الخاصة من فن الغرب وفكره ومناهجه وأسلوبه فى الحياة ، إنما يبعد عن الإسلام ، وأن هذا البعد سوف يضطرد حتى ينقطع نهائياً ما بين العالم الإسلامى والإسلام ؛ ومن أقوالهم كذلك أن النزعة الوطنية قد اشتدت فى الأمم الإسلامية، وأن هذه النزعة وافدة من أوروبا وأنها غريبة عن نظرة الإسلام إلى الحياة .

أما عن المسألة الأولى ، فإنا وإن لم يك المجال هنا مجال الرد المفصل ، نميل إلى الاعتقاد بأن المسلمين المتهاونين فى دينهم خليقون بأن تجرفهم أساليب الحياة الأوروبية ، ولن يمسكهم فى مزالق الفتنة إلا استمساكهم بدينهم ؛ ولقد ردت مجلة « العالم الاسلامى » على هذه المسألة بقولها : إن المسلمين جديرون بأن يأخذوا بهذه الأشياء فى حياتهم ويبقون مع ذلك على ولائهم لدينهم ، وأن المسلمين أشد استمساكا بدينهم اليوم عما كانوا قبل أعوام ، وإن الإسلام وهو الدين الذى يؤمن أهله برسل الله ، لا يمنع أن تأخذ شعوبه من الثقافات المختلفة فى حدود تعاليمه .

وأما رد المجلة عن المسألة الثانية ، فيتلخص فى أن الأخوة بين المسلم والمسلم ، هى من صميم روح الإسلام ، فالمسلم فى وطن ما ، مهما اشتد حبه لوطنه يشعر بروح الأخوة نحو المسلمين أينما كانوا ، وهذا ما عجزت عن صنعه أوروبا ، لأن الإسلام يؤاخى بين قلوب المسلمين قبل أن يؤاخى بين دولهم .

الرق والنظم الإسلامية

تحت يدنا كتاب حديث هو كتاب « النظم الإسلامية » للمؤلف الفرنسى « موريس جودفرى دى موبين » درس فيه الإسلام : أمته وفكرته وعقيدته وقانونه وعباداته ، ثم سرد كثيراً من نظمه : كالأسرة ، والملك ، والقضاء ، والحياة الاجتماعية ، والحياة الاقتصادية وغيرها .

ومما هو جدير بالنظر فى هذا الكتاب ، وهو كثير، كلام مؤلفه عن الرق حين يتكلم عن الأسرة ، ومما قاله : « إن الأسرة عند العرب

ـ فى أوسع معنى للكلمة ـ تكمل بضم الرقيق إليها ، الأبيض منه والأسود سواء ؛ وقد أقر القرآن الرق ، وأوصى بأن يحسن معاملة الرقيق وأن يعتقوا . وليس للعبد شخصية كاملة ، فهو متاع لسيده ، يمكن أن يقتنى كما يقتنى جميع ما يمتلك بالشراء ، أو عن طريق الهبة والميراث ، وينتقل حق امتلاكه بنفس هذه الوسائل ؛ وكل ما يمتلكه العبد فهو ملك لسيده ويمكن أن يعتق العبد سيده ، كما أن للسيد أن يجعل هذا العتق لعبده بعد وفاته ، وله أن يلغى ذلك قبل أن يموت » .

ولم يتعرض الكاتب لطرق الاسترقاق ، ولكنه قارن بين رقيق الأسرة وبين الرقيق الذى يباع جماعات فى الأسواق ، وقال عن النوع الأول : إن المسلمين يعيدون فيه ما كان عليه الحال أيام الرومان ، ثم عاب على المسلمين النوع الثانى [1] وقال : إنه ينبغى أن تنظر إلى الرق فى غير رحمة على أنه نظام بال ، وأنه امتهان لكرامة الإنسان . ولم يسه المؤلف عن أن يقول : « إن تاريخ تجارة الرقيق فى المستعمرات الأمريكية وصمة فى سمعة المسيحية » .

التبشير والمقارنة بين الاسلام والمسيحية :

« هل لعلم الدين المقارن من أهمية للمسيحيين الذين يعتقدون أن لهم رسالة إلى المسلمين يحاولون أن يذيعوها ؟ هل من جدوى فى المقارنة ؟ أم أن الأمر على عكس ذلك ؟ هل تضع المقارنة الإسلام والمسيحية فى مستوى واحد ، وبذلك تجعل جمعيات التبشير عقيمة ؟ إذ أنه لو ثبت أن لا خلاف بين الدينيين ففيم التبشير إذاً ؟ » .

بهذا استهلت مجلة « عالم المسلمين » المسيحية التبشيرية التى أسسها القس « زويمر » فى أمريكا إحدى افتتاحياتها ، ثم عادت تتساءل قائلة : « إذا حاولنا أن نفهم الإسلام قدر جهدنا فهم أمانة ونبل ، فهل يبقى بعد ذلك مجال لأعمالنا التبشيرية ، أم هل سنضطر فى النهاية إلى التسليم بأن الإسلام كالمسيحية واليهودية مصدره إله الجميع ، وأن له فضلا عن ذلك رسالة جديدة مستمدة من الإله ذاته ؟ » .

وردت المجلة على ذلك بأن الجواب يتوقف على ما يفهم من معنى المسيحية ، فإذا كانت مجرد قواعد خلقية ، فإن الإسلام كفيل فى هذا الميدان بأن يقدم قواعد خلقية للحياة ذات خطر ، وعلى ذلك فالفرق بين الدينيين هو فى وسيلة كل منهما إلى الله .

ثم نهت المجلة بعد ذلك عما يوجه من مطاعن إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالت : إن ذلك عمل تعس يأتى بالضرر ، والواجب أن تقوم المحاجة على أسس علمية لا على ما يفسر بأنه من الأمور الشخصية .

لونان من الكتابة عن الاسلام :

« كتاب الرسول » أو « حياة محمد » مؤلف كتبه بالإنجليزية الكولونيل « بودلى » وقد كتبت المراقبة العامة للبحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر تقريراً عنه جاء فيه أن المؤلف « حاول أن يلتزم فيه منهج التحقيق العلمى الأمين متجنبا

(١) انظر الرد على مسألة الرق فى باب « ما يقوله الاسلام »

مبالغات بعض المسلمين من جهة، وأباطيل الكثيرين من المسيحيين من جهة أخرى؛ وهو يرى أن الراغب فى اتباع المنهج العلمى يجد ضالته عند البحث فى سيرة النبى وتاريخ حياته، وذلك لوفرة ما حفظه المسلمون بأمانة ودقة من أخبار النبى وآثاره، مما لم يتيسر مثله أو شيء منه لأى نبى آخر، أو أى عظيم ممن يعنى بهم رجال التاريخ والأخبار ... والكولونيل «بودلى» معجب بما وجده فى الإسلام من فضائل ويشيد بمناقب الرسول على حسب ما أداه إليه علمه واجتهاده؛ ويلخص عقيدة الإسلام بأنها دعوة إلى السلام وإلى التسليم بإرادة الله والإيمان بوحدانيته، ويقول إن من أعظم الكبائر فى نظر الإسلام الشرك بالله؛ ويتكلم المؤلف عن القرآن فى الفصل السادس عشر ويقر بإعجازه؛ ويقول عن النبى أنه لم يدع لنفسه صفة إلهية وأنه كثيراً ما صرح بأنه ليس إلا بشرا يوحى إليه؛ وأن السبب فى سرعة انتشار الإسلام عن غيره من الأديان، هو عدم ادعاء النبى صفة إلهية، وعدم دعوته إلى عبادة شخصه، وكذلك تسليم القرآن بصحة الديانات المنزلة من قبل.

ومن أحسن ما كتبه هذا المؤلف المنصف ما أخذه على طريقة الكثيرين من الكتاب الأوربيين الذين أعماهم التعصب عن رؤية الحقيقة الظاهرة، ثم تصديهم للكتابة فى هذا الموضوع الخطير، دون أن يستعدوا لما يحتاج إليه من معارف وعلوم. وقد ذكر على سبيل المثال كتابا عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم ألفه قسيس أمريكى كان يعيش فى نيو إنجلند ولم يغادرها طول حياته. ويقول بودلى «إنه على الرغم من تظاهر هذا المؤلف بمعرفة اللغة العربية وبالكتب المقدسة، فقد كشف فى كتابه هذا عن جهل فظيع بسيرة محمد وبمنزلته الحقيقية» وأنحى «بودلى» باللائمة على المتعصبين من الكتاب «وما ظلوا يروجونه من أباطيل وسخافات عن الإسلام منذ الحروب الصليبية».

نائب فى البرلمان الإنجليزى يشيد بالإسلام:

نشرت «مجلة العالم» الإسلامى السالفة الذكر أن جمعية المسلمين فى مدينة بردفورد بإنجلترا، قد أقامت منذ قريب حفلا، فكان من خطبائه مستر «جورج بردك» عضو البرلمان الإنجليزى، وقد نوه فى خطابه بما يبثه الإسلام من شعور الإخاء بين أبنائه، وقال إنه يستطيع أن يرد الاهتمام العظيم بالدين الإسلامى إلى أنه دين عالمى بطبيعته. ثم قال: «إن الإسلام دين السلام والمحبة بين البشر وإنه يلعب دورا خطيرا الآن فى شؤون العالم، وإنى أعتقد أن خطره وتأثيره فى مستقبل العالم سيزداد جيلا بعد جيل».

العالم الإسلامى بين شقى الرحى:

كتبت مجلة «الأدب الإسلامى» التى يصدرها فى لاهور باللغة الإنجليزية الشيخ محمد أشرف افتتاحية تحت عنوان «الرأسمالية أم الشيوعية»؟ تناولت فيها بالنقد اللاذع ما أخذت تردده الأوساط الأجنبية من القول بأن بعض المحافل الإسلامية مرغمة على الاتجاه نحو الشيوعية السوفييتية، برغم القوى الروحية المنيعة التى تستند إليها الحياة الإسلامية، وبرغم الروابط الروحية القوية التى تربط العالم الإسلامى بالديمقراطية الغربية ...

الكتب

الديمقراطية فى الاسلام

للأستاذ عباس محمود العقاد

القاهرة — دار المعارف — ١٧٨ صفحة من القطع الأوسط

هذا كتاب جديد لصاحب «العبقريات» و «الفلسفة القرآنية» ، وغيرها من الكتب والفصول فى دراسة الإسلام ، واستجلاء وجهة نظره فى المشكلات الحيوية ، والمذاهب الفكرية فى مجتمعنا الحديث .

وكتب «العقاد» فى دراسة الإسلام من خير مايهتدى به الشباب المثقف فى الوقوف على حقائق الدين ، لأنها تدرس مسائله وقضاياه على أدق المناهج العلمية فى البحث ، وتجرى على ضوء من التحليل الفلسفى ، والموازنة التاريخية ، وتمحيص ما تمخض عنه الفكر الجديد من نظريات وآراء .

وقد اختار لكتابه هذا موضوع «الديمقراطية فى الإسلام» . وكلمة «الديمقراطية» أسير كلمة فى مجتمعنا العصرى ، وهى مدار الكثير من المعضلات فى حياتنا الحاضرة ، سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية ، فما كان أحوجنا إلى هذه الدراسة العلمية التى تجلو حقيقة

وتساءلت الافتتاحية ، ما هى الروابط الروحية القوية التى تربطنا نحن المسلمين بالديمقراطيات الغربية الرأسمالية ؟ فإنه إن صدق هذا القول كان معناه أن الإسلام أصبح صورة جديدة للإلحاد الذى تعيش عليه الديمقراطية الرأسمالية !

وقالت : إن هؤلاء السادة الذين يروجون هذه الفكرة ، قد نسوا أو تناسوا أن أسس الحياة الإسلامية الحق قبل ميلاد الارستقراطية الأموية ، كانت تستند إلى العدالة والمساواة الاقتصادية والاجتماعية ، وهل تتمشى هذه الأسس الإسلامية مع النعرات القومية العنيفة التى يتصف بها الغرب ، ومع التحيز العنصرى وعبادة المال ؟

وتعرضت للشيوعية فقالت : إن دعوتها إلى التفرقة بين الشؤون المادية والشؤون الروحية فى الحياة اليومية ، أمر يعارض تعاليم الإسلام ، فالإسلام ينظر إلى الحياة كوحدة لا تتجزأ ، ويعد الشؤون المادية متفرعة عن الحياة الروحية .

ثم ذكرت أن الدين فى المجتمع الإسلامى الأول كان يسيِّر الحياة السياسية ، ويحتفظ بكرامته وأهميته فى دنيا الناس .

وأكدت أن الخطر الشيوعى على المجتمعات الإسلامية سيظل على حدته ما دامت تصر بعض هذه المجتمعات على الأخذ فى مقاييسها الأخلاقية ونظمها الدنيوية ، من حضارة الديمقراطيات الغربية دون تمحيص ؟

« الديمقراطية فى الإسلام » .

وإذا ذكر أنصار « الديمقراطية » - بوصفها منهجاً اجتماعياً - كان الأستاذ « العقاد » فى طليعة أولئك الأنصار ، ولطالما عززها بقلمه فى شتى المواقف ، وإيمانه بها وليد الدراسة والبحث ، وهو لذلك يؤيدها تأييد منطق وإقناع .

استهل المؤلف كتابه بأن الأمم الإسلامية أحوج ما تكون فى مرحلتها الحاضرة - مرحلة النهوض والتقدم - إلى الحرية والإيمان معاً متفقين ، وأشار إلى أن موضوعات كتابه صالحة للعرض على مقاييس العلم وموازينه ، وأن أسلوب الوجدان فى تحصيل الحقائق يثبتها ولا يبطلها ، ثم علل الدليل الوجدانى تعليلا يدخله فى منطقة العلم ، وبهذا يتلاقى رجل العلم ورجل الدين ، ويقوم حساب الضمير إلى جانب حساب العقل .

وتناول بعد ذلك تاريخ « الديمقراطية » فأثبت أنها لم تقم فى العصور القديمة على أساس أنها حق للإنسان ، وإنما كانت إلى الضرورة العملية أقرب منها إلى المبادىء الفكرية ، وفسر ذلك بأنها لم تكن إيجابية تعنى حكم الشعب نفسه بنفسه ، ولكنها سلبية لا تقصر الحكم على أن يكون فى يد فرد ولا فى يد طبقة .

وبعد أن وصف « الديمقراطية » فى الأديان الكتابية بأنها كانت خليطاً ومزاجا ولم تكن خالصة ، تحدث عن « الديمقراطية » العربية قبل الإسلام ، فأثبت أنها ديمقراطية واقع لا ديمقراطية فكرة ، فهى كحرية الأوابد فى الخلاء ، والطير فى الهواء . ثم عرض نظم الحكم فى الدول المختلفة على عهد الدعوة المحمدية ، وأوضح أن تلك النظم خلت من الديمقراطية بالمعنى المفهوم .

وخلص من هذه المقدمات التاريخية إلى تقويم الديمقراطية الإسلامية على أسس أربعة : المسؤلية الفردية ، وعموم الحقوق ، ووجوب الشورى ، والتضامن بين الناس . وأتبع ذلك فصولا فى إيمان المسلم بأن للكون حاكما أكبر ، وفى معانى كلمات الحكم والسيادة والإمام . واستطرد من هذا إلى تفصيل ديمقراطية الإسلام فى السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والأخلاق والتشريع ، والقضاء ، ومعاملة الأجانب ، والعلاقات الخارجية .

وكأنما خشى الأستاذ « العقاد » أن يُلقى فى روع القارىء لهذه الدراسة أن منهج الديمقراطية الإسلامية مثالى محض ، فعقد لذلك فصلا أبان فيه أن هذه الديمقراطية لم تستعص على التجربة والتطبيق ، واستشهد لذلك بما وسعه القدر المقسوم .

وقبل أن يختم دراسته بسط القول فى مناقشة أقوال المفكرين الإسلاميين « الغزالى ، وابن سينا وابن خلدون » فى موضوع الإمامة ، وحقوق الراعى والرعية ، وما حفلت به كتب التاريخ والأدب والأخلاق من وصايا ونصائح تقوم على قاعدة واحدة ، هى الحكم لمصلحة المحكومين .

وكانت الخاتمة إجمالا لصورة الديمقراطية فى الإسلام ، فهى ديمقراطية خاصة ، تتسع بأصول الحكم حتى تخرج بها من الصبغة المحلية إلى الصبغة الإنسانية ، بل الكونية .

ولعل القارىء لهذا الكتاب لا يكاد ينتهى من قراءته حتى يشعر بأن بعض فصوله، كفصل التشريع، وفصل القضاء، يرسم الخطة، ويفتح الباب، ولكنه - على عذوبته - يثير الظمأ، ويدفع إلى طلب المزيد، ويدع النفس على شوق.

أما أسلوب الكتاب فإنه فى إحسانه لا يعد إحساناً ... لأنه فوق الاحسان ؟

عباس خضر

كتب أجنبية جديدة
تعالج موضوعات إسلامية

الوصول الى الاسلام

تأليف : أريك بنتام

من منشورات : Southern Publishing

Hosé Nashies lle-Teumessee.

BRIDCE TO ISLAM

٢٨٤ صفحة وثمنه ٢¼ دولار .

مؤلف هذا الكتاب مبشر مسيحى أنفق فترة طويلة فى أعمال التبشير فى الشرق الأوسط . وقد حاول أن يسرد - بطريقة غير مباشرة - المصاعب التى تواجهها بعثات التبشير فى عالم الإسلام، وهى مصاعب تستند إلى تأصل العقيدة الإسلامية فى نفوس أتباعها أكثر مما تستند إلى أى شىء آخر .

ويحاول المؤلف أن يشرح لقرائه كيف أن الإسلام وتعاليم الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام قد تأصلت فى نفوس المسلمين، وخلقت فيهم مناعة ضد قبول المذاهب الدينية المسيحية التى تولى صاحبنا المؤلف الدعوة إليها فى أوساط المسلمين .

ويقول بأن الخلاف الجوهرى بين الإسلام والمسيحية يعود إلى أن الإسلام لا يرضى بأن يشرك مع ربه أحدا ، فنظرية الثالوث المقدس التى يستند إليها دعاة المسيحية بين الإسلام لا تجد أى صدى بين الجماعات الإسلامية مهما كانت عليه هذه الجماعات من جهل أو معرفة . وفى رأى المؤلف أن عدم اعتقاد المسلمين بالخطيئة الدنيوية كما يشرحها المبشرون ويحاولون إقناع الناس بأنهم قادرون على إزالتها باتباع تعاليم الكنيسة ، هذا الاعتقاد بين المسلمين من أهم الأمور التى سببت فشل الدعوة المسيحية فى العالم الإسلامى .

وفى الكتاب استعراض موجز للعقيدة الإسلامية راعى فيها المؤلف الدراسة المقارنة مع التعاليم المسيحية . ولا يبخل المؤلف فى ثنايا الكتاب بكلمات رقيقة عن الإسلام وأهله .

بريطانيا والشرق الأوسط

Britain and The Middle East

تأليف ريدر بولارد

من منشورات دار هتشنسون . بلندن

١٩٥ صفحة والثمن ٦ شلنات ونصف

كانت المطابع البريطانية قبل الحرب العالمية

الأخيرة تكاد تحتكر المنشورات عن أحوال الشرق الأوسط فى إنتاج الغرب . وقد قضت أزمات بريطانيا الاقتصادية المتتابعة بأن يزول هذا الاحتكار ، وأن تدخل أمريكا فى ميدان الإنتاج الفكرى كمنافسة قوية لبريطانيا .

على أن الأفلام البريطانية لا تزال أفضل من يعالج مسائل الشرق الأوسط من وجهة نظر الديمقراطيات الغربية ، ولعل سر ذلك طيلة عهد بريطانيا فى معالجة شؤون هذا الشرق ومشاكلها معه .

والكتاب الذين نحن بصدده محاولة لاستعراض تاريخ العلاقات البريطانية مع منطقة الشرق الأوسط (وهى تشمل الهند والدول الإسلامية كلها فى المنطقة)من أول الأزمنة إلى عام ١٩٥٠م ويسجل الكاتب التسرب البريطانى إلى الشرق الأوسط عن طريق التجارة والجاسوسية وما يلحق بهما من نشاط تبشيرى وثقافى؛ ويستعرض كذلك علاقات بريطانيا بخليج العرب ، واحتلال مصر ، والعلاقات البريطانية الإيرانية ، والتركز البريطانى فى شرقى الجزيرة العربية والشرق الأدنى .

ولعل أزمة الورق فى بريطانيا قد حالت بين المؤلف وبين أن يتوسع فى دراسته وهى دراسة دقيقة شيقة .

ويدعو المؤلف بريطانيا إلى ملاقاة رغبات شعوب الشرق الأوسط فى الحرية السياسية والاقتصادية والسعى لاحتضان الحركات القومية العنيفة التى تجتاح المنطقة عوضاً عن مقاومتها .

وفى رأى المؤلف أن تعطى الأمم المتحدة السيطرة والإشراف على مراكز القوة فى الشرق الأوسط من بترول إيران والجزيرة العربية إلى قناة السويس . ولا يبخل صاحبنا بالكلمات المعسولة فى مدح إسرائيل .

المركسية أو الإسلام

MARXISM OR ISLAM

تأليف مظهر الدين صديقى

من منشورات : دار النشأة السفية فى حيدر آباد الدكن (بالهند)

٣٠٢ صفحة وثمنه ٥ روبيات

هذا الكتاب محاولة جدية للتدقيق فى تعاليم مركس من نافذة الإسلام . وقد حاول المؤلف موفقا فى تحليل المركسية وتفنيد ما تروج له من مبادىء ، والمقارنة بين هذه المبادىء وما نصت عليه تعاليم الإسلام ، من دعوات إلى الإصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

ويبسط الكتاب فى قوة وعمق كيف تختلف الدعوة المركسية عن تعاليم الإسلام ، وكيف تلتقى فى بعض الأسس الجوهرية للإصلاح الدنيوى بعد أن تفقد هذه الأسس المثل الأخلاقية والحلى الروحانية التى تجردت منها تعاليم مركس .

الأدب والعلوم في شهر

العرب ومكافحة الفيضان :

نشر الدكتور و . ف . ألبرايت رئيس دائرة الدراسات الشرقية فى جامعة جون هوبكنز بأمريكا بحثاً قال فيه : إن قدماء العرب فى شبه الجزيرة العربية كانوا أول من اكتشف المبدأ الفنى لمكافحة الفيضانات ونفذوه فى بلادهم منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

وجاء بحث الدكتور البرايت نتيجة لدراسة شخصية قام بها فى جنوبى شبه جزيرة العرب فى المدة الأخيرة كرئيس لبعثة الحفريات الأمريكية التى عسكرت فى تلك المنطقة فترة طويلة من الزمن.

ووصف الدكتور البرايت هندسة الرى عند قدماء العرب فقال : بانهم كانوا يختزنون مياه الأمطار الآتية مع رياح السموم فى أحواض واسعة ينبعث منها مجار هندسية دقيقة وسدود متقنة الصنع . وقد تقدمت صناعة الرى وصيانة التربة فى جنوبى شبه الجزيرة فى تلك المدة تقدماً حسناً مما دعا الرومان أن يطلقوا عليها اسم « جزيرة العرب السعيدة » .

تقدم فلكى جديد فى صناعة المراصد :

كانت مؤسسة نيوفيلد البريطانية قد تبرعت منذ ثلاثة سنوات لجامعة مانشستر البريطانية بمبلغ مليون دولار لبناء مرصد فلكى جديد سيكون قطر أكبر عدساته حوالى ٢٦٥ قدما . وقد تم تجهيز المراصد بأنواع جديدة من آلات الالتقاط اللاسلكية بحيث يطمع صانعوه والمشرفون عليه بأن يسجلوا اتصالات فيزيولوجية مع الكواكب والسيارات السابحة فى فضاء الكون .

والظاهرة الجديدة فى هذا المرصد أنه لايعتمد على العدسات فقط لرؤية الكواكب وتسجيل حركاتها . فكثيرا ما تكون التقلبات الجوية والضباب الكثيف سبباً فى ضعف الرؤية .

ويقول الفلكيون المشرفون على هذا المرصد إنهم قد استطاعوا بآلاتهم الحديثة رؤية عدد جديد من الكواكب التى لم تكن معروفة معرفة علمية .

وقد ساعد على رؤية هذه الكواكب الجديدة وتسجيلها بالمرصد الجديد الإشعاعات الراديوية التى تنبعث عن هذه الكواكب وتندفع بسرعة فى الفضاء الكونى . وقد استطاعت الأجهزة والمعدات فى مرصد جامعة مانشستر الجديد أن تلتقط هذه الإشعاعات وأن تصل منها إلى معرفة حركات الكواكب المصورة لهذه الاشعاعات .

مراعاة الأخلاق فى انتاج مصر الفنى :

توصل المسؤولون فى إدارة المطبوعات المصرية إلى الاتفاق مع ممثلى السينما والمسرح والمؤلفين والمنتجين فى مصر على رعاية المبادىء الأخلاقية فى إنتاج مصر الفنى .

وقد ارتضى ممثلو الحركة الفنية فى مصر أن يجعلوا من أنفسهم رقباء على إنتاجهم الفنى مراعين المبادىء التالية .

١ - أن تكون فنونهم حريصة على توقير الملكية إذا تعرضت للتاريخ ومعالجته فى مسرحية أو أغنية أو فلم.

٢ — أن يحرصوا فى مؤلفاتهم وإنتاجهم وأغانيهم على استقرار الأمن فلا يتعرضوا للمبادىء المتطرفة أيا كانت .

٣ — أن يكون لسمعة مصر المحل الأول فى موضوعاتهم ، بحيث تعطى عنها صورة طبيعية فى الخارج ، على أنه لا يجوز أن تصور الحياة الاجتماعية على غير حقيقتها بشرط ألا يتعارض ذلك مع كرامة البلد .

٤ — أن يراعى فى معالجة الموضوعات ملاحظة المسائل الدينية بحيث لا يتعرض أهل الفن لمنازعها ولو كانت فى التاريخ ، ولا يدخل فى هذا المعنى تصوير حياة الجماعات الدينية أو طبقتها بشرط ألا يقلل من اعتبارها أو توفيرها .

٥ — أن تكون رعاية الآداب العامة قاعدة لكل موضوع ، وبما أن الحكم لها أو عليها خاضع للذوق الخاص ، فإن المؤلف أو المنتج مطالبان بالبعد عن الألفاظ النابية والأغانى الماجنة والمشاهد الفضاحة .

٦ — ألا يتعرض الموضـــوع لشخصية عامة لا تتعدد نظائرها فى الدولة أو الحياة العامة إلا إذا كان التعرض لها مصحوبا بالتقدير والاحترام .

الشاعر والمجتمع :

المستر « ج . إيزاك » من نقاد الشعر المعروفين فى بريطانيا وأمريكا . وقد أصدر مؤخراً كتابا استعرض فيه أسس الشعر الحديث والعوامل التى أثرت فيه فخلقت هذه المدارس الفنية الجديدة التى نشأت فى الأوساط الشعرية فى أوربا وأمريكا .

ويقول المستر « إيزاك » : إن الشعر يجب أن يتصل اتصالا فنيا دقيقا بالقارىء قبل أن يستطيع القارىء فهم القصائد والأبيات ، ويعنى المستر « إيزاك » بذلك أن العمل الفنى يتطلب وسيلتين لتقدير الإعجاز الفنى فيه ، فكما يجب على الشاعر أن ينظم ما يشعر عقودا ولآلىء فإن على القارىء أن يقوم من تلقاء نفسه بجهد فنى لكى يستطيع استيفاء هذا الشعور وهذه العقود واللآلىء المنظومة . فليست تبعة الإبداع الشعرى حتما على الشاعر وحده فإن على القارىء أن يقبل على الشعر وفى نفسه محاولة فنية صادقة للتعرف على الجمال الفنى فى القصيدة والبيت ، ولا ينتظر أن يطرح عليه الشاعر اللآلىء كما يطرح الجوهرى عقود اللؤلؤ على الزبائن .

وفى رأى المستر « إيزاك » أن الاتصال الفنى بين الشاعر وقرائه لابد ان يتم ، إلا إذا كان القصيد إبداعا فنيا صادقا ، فإنك لابد أن تجد بين القراء جماعة يدركون هذا الإبداع من أول وهلة . ولكنك لا تنتظر أن تقنع جميع القراء بهذا الإبداع دفعة واحدة

وكلما كان الشعر أكثر اتصالا بالاتجاهات الشعورية الراهنة ، كان تفهم القراء له أسرع وأصدق . ويقول المستر « إيزاك » إن هذا الأمر يلقى على الشاعر مسؤولية كبرى ، فإن عليه أن ينقل فى شعره إلى المجتمع ما يقع فى المجتمع ، ولا يكتفى بأن يلقى أبيات الرثاء على الأطلال ، فصلة الشاعر بالحياة اليومية يجب أن تكون مستمرة إذا كان للشعر الحديث أن يلقى آذانا صاغية .

مؤتمر عام للصحافة العربية :

تجرى الآن اتصالات بين نقابات الصحافة فى البلدان العربية للاتفاق على عقـد مؤتمر عام للصحافة العربية تتبادل فيه وجهات النظر حول تنسيق الجهود فى خدمة القضايا العربية والشرقية ، والاتفاق على النواحى التى ترفع مستوى الصحافة العربية وتنميتها . والمرجح أن يعقد هذا المؤتمر فى لبنان خلال الصيف المقبل .

حرية الصحافة ومسئولية رجال القلم :

ختمت «لجنة حرية الصحافة والأنباء» التابعة لهيئة الأمم المتحدة دورتها الخامسة (والأخيرة) لوضع ميثاق عالمي لحماية الأنباء وحرية الصحافة. وكان يتولى رئاسة اللجنة في دورتها الأخيرة، الدكتور محمود عزمي الصحفي المصري المعروف.

وقد انتهت اللجنة من وضع مشروع لآداب الصحافة يكون بمثابة عهد شرف دولي يتقيد به رجال القلم في كل مكان لمعالجة أنباء الناس والمجتمعات والدول.

ويتألف هذا المشروع من خمس مواد وتتلخص أسسه في ثلاثة أمور :

١ — التعهد باحترام الحقيقة في نشر الأنباء والتعليق عليها.

٢ — عدم المساس بالمسائل الشخصية.

٣ — عدم الخضوع للمؤثرات المغرضة.

وقد اتفقت لجنة حرية الصحافة والأنباء هذه، مع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة على أن تعمل على عقد مؤتمر دولي من الصحفيين والمساهمين في وسائل الاتصال الفكري؛ وسيكلف هذا المؤتمر بحث «عهد الشرف» الذي وضعته اللجنة، وتقرير العمل بمقتضاه.

ورأت اللجنة ألا تكون لهذا المؤتمر أية علاقة بالحكومات ولا بهيئة الأمم المتحدة التي يقتصر عملها فيه على الدعوة إليه وتهيئة اجتماعه ودفع تكاليفه، وذلك رغبة في إبقاء الصحافة بعيدة عن كل المؤثرات أيا كان مصدرها.

جهاز لالتقاط الإشعاع الذري يعلن الحرب خطأ :

دقت أجراس التلفونات في مراكز الجيش والطيران والأسطول في مدينة نيويورك وفي مركز القيادة العسكرية في العاصمة الأمريكية صباح يوم من أيام شهر إبريل المنصرم، تحمل أنباء هجوم ذري يتجه نحو أوروبا من وراء البحار.

فذعر القادة وأوعزوا إلى مراكز الدفاع العسكري في الساحل الشرقي من القارة الأمريكية بالاستعداد للطوارىء.

واهتزت أسلاك الأثير تطلب محطات التقاط الإشعاع الذري من مختلف التحصينات التي أقامها الأمريكان تستفسر عن أنباء هذا الهجوم غير المترقب وجاءت الأنباء بأن كل شيء على ما يرام؛ فمحطات الإنذار هادئة لا تسجل أية حركة من حركات النقل الجوي الذري يحمل في طياته القنابل الذرية.

وانقضت ساعات قاسية قبل أن يكتشف أولو الأمر سر هذا النبأ.

وتفصيل ما حدث أن جهازاً ضخما من أجهزة التقاط الإشعاع الذري من أحد مختبرات جامعة كولومبيا الشهيرة في نيويورك، أخذ يسجل في سرعة جنونية تنقلات متوالية من موجات الإشعاع الذري متجهة نحو ساحل أمريكا الشرقي عبر البحار من القارة الأوربية — في روسيا!

وهذا الجهاز دقيق الصنعة تحيط به السرية ويخضع لإشراف القيادة العسكرية الأمريكية برغم أنه مركب في مختبر علمي لجامعة أهلية.

وثبت بعد فحص دقيق أن الإبرة الحساسة الرئيسية لهذا الجهاز قد سئمت قلة الحركة فرأت أن تداعب الأرقام التي تحيط بها وأخذت تصول وتجول في سرعة جنونية أقلقت مضاجع رجال الجيش والأسطول والطيران.

وأصلح الخلل في الجهاز وأعيدت الإبرة إلى قاعدتها مثبتة بمسمار جديد.

طرائف علمية وأدبية

الانقلاب الجوى

ليست هناك بقعة فى العالم لم يشعر أهلها بتغير محسوس فى حالاتها الجوية حتى فى البلدان التى عرفت باعتدال مناخها واتزان فصولها وقد نشرت مجلة «أوجى» الإيطالية فصلا عن هذا الانقلاب قالت :

« فى السنة الماضية شاهد هنود «بنوبسكوت» الذين يعيشون فى جزيرة صغيرة من شواطىء « فان » حادثاً غريباً . ففى فصل الشتاء من كل سنة تجمد مياه البرزخ الذى يفصل جزيرتهم عن اليابسة فيتصلون بهذه مراً على الجليد .

أما فى السنة الفائتة فلم تجمد المياه كعادتها . وليس هذا الحادث الوحيد من نوعه . فقد تعددت فى كل أنحاء العالم أمثال هذه الظواهر الطبيعية التى تعزى إلى انقلاب فى مناخ أرضنا ، ففى « اسكوسيا » كانت الثلوج لا تبرح قممها ، أما اليوم فأكبرها عار ، وفى سويسرا يتوالى انهيار الثلوج من قمم الجبال ، وفى شمالى «فنلندا» وألاسكا أخذت تنمو غابات من الأشجار فى السنوات الأخيرة ، ولم يكن يرى قبل ذلك فى تلك المناطق أثر للنبات . ومنذ خمسين سنة لم يكن يجرى مركب فى مياه « سبيستزبرغ » مدة سبعة أشهر من كل سنة إلا بواسطة محطمة الجليد ، أما اليوم فالمياه لا تجمد إلا ثلاثة أشهر .

ويقابل ذلك الجفاف المتلف الذى يحدث فى أمكنة كثيرة ولا سيما فى إفريقيا الاستوائية حيث جفت البحيرات .

وقد أثبت التحقيق العلمى أن عشرة فى المائة من جليد القطب الشمالى يذوب فى المحيطات حتى يرفع مستواها ، وأن مياه المحيط الأطلسى الشمالى قد ازدادت ملوحتها اليوم عن ذى قبل . وكان المطر يتساقط أكثر غزارة منه فى المناطق المعتدلة ، وأن الصحراء الكبرى الأفريقية تمتد بطيئاً نحو الجنوب .

وكان من نتيجة هذا الانقلاب أن السمك والطيور والحشرات قد غيرت مجرى حياتها ومواعيد رحلاتها .

فمن ذلك أن ١٦٠ حوتا قذفها البحر إلى شواطىء «اسكوسيا» فى شهر إبريل من السنة الماضية ، و٩٦ حوتا غيرها ماتت فى الشهر التالى بخليج هولند . ويعزى هذا الانتحار غير المقصود إلى تغير فى المجارى البحرية .

ولما اجتمع فى لندن مئات من علماء الطبيعة لحضور العيد المئوى للجمعية الملكية الطبيعية تناولوا هذا الموضوع بكثير من الاهتمام . وقد أبدى الأستاذ هنزاهملن العالم الجغرافى الأسوجى رأيه فى تلك الأعراض فنسبها إلى ازدياد برودة الأرض فى المناطق الاستوائية وإلى ازدياد حرارتها فى المناطق القطبية ، وعزاها غيره إلى اضطراب فى الأشعة الشمسية ، ونسبها بعضهم إلى تسرب مقدار كبير من الأشعة فوق البنفسجية ، وذهب آخرون إلى أن الاختلال الحالى هو عارض لا يلبث أن يزول ويعود كل شىء إلى مجراه الطبيعى السابق .

على أن رجل الشارع يقول :

إن القنبلة الذرية هى أول شىء يخطر بالبال فى هذه الأيام ، فكل نكبة طبيعية أو كل جفاف أو إعصار ينسب عفواً إلى هذه القنبلة ، فلا عجب إذن أن رماها بكل فرية وألقى عليها تبعة كل النكبات والمصائب .

ومن الناس من يتهمون التلفزيون لاعتقادهم أنه يزيد حرارة الجو ، وكثيرون من أعداء الشيوعية يلصقون الذنب بروسيا التى لا تكتفى على قولهم بالثورات السياسية والاجتماعية التى تثيرها فى العالم بل تريد أن تقلب نظام الفلك ، ثم يقولون : إن العلماء الروس يستخدمون الأشعة الكونية والأسطوانات الطائرة وغيرها من الأسلحة السرية ليحولوا المجارى الجوية والبحرية .

وللعامة آراء ومذاهب أخرى لا تقل غرابة عن تلك ولا يأخذ بها رجال العلم ، ماعدا القنبلة الذرية ، ومن عادة هؤلاء أن يزنوا كلامهم قبل أن يلقوه ، فالعالم الطبيعى «هرولد أورى» الحاصل على جائزة نوبل يقول : إن تلك الأعراض قد يكون سببها ازدياد حرارة الأرض لشدة النشاط الراديو ى فى جوفها . ويرى غيره من العلماء أن تجارب القنبلة الذرية التى تجرى فى كل أنحاء العالم تقريبا قد تكون مدعاة لهذه الثورات الجوية التى نشاهدها ويقول بعضهم : إن الكميات الهائلة من الجليد التى تتراكم فى القطب الجنوبى قد زحزحت محور الدورة الأرضية ، فأدى ذلك إلى هذا التغير الذى نلحظه .

على أن العالم البريطانى « برانت » ، الذى درس الانقلاب الجوى فى إنكلترا فى خلال قرنين يقول : إن الانقلاب الحالى ليس حدثا جديدا وقد وقع مثله بين ١٧٦٠ و ١٧٨٠ .

ويؤخذ مما تقدم أن علماء اليوم ، على رغم تعمقهم فى الأسرار الطبيعية ، لا يستطيعون أن يبنوا حكما ثابتا فى هذا الموضوع . وعلى أية حال فهم لا يكلون عن البحث والتقصى ، فبعثاتهم العلمية إلى المناطق القطبية متتابعة ، وآلاتهم التى يعرفون بها انتقال المجارى البحرية فى تحسن مطرد .

ولا بد من يوم يتمكن فيه الإنسان أن يفسر لماذا أثلجت السماء بالقاهرة فى شهر سبتمبر ، بينما الناس بلندن فى الشهر نفسه يستروحون فى هايدبارك ؟

زعامة الأدب الفرنسى :

من القضايا التى يهتم بها اليوم رجال الأدب فى فرنسا ، اختيار من يستطيع أن يخلف « أندريه جيد » فى زعامة الأدب الفرنسى .

إن حل هذه القضية ليس سهلا كما يتبادر إلى الأذهان ، لأن خليفة « جيد » فى زعامة الأدب الفرنسى يجب أن يكون أديباً كبيراً حاصلا على رضا كل طبقات الأمة ، وذا شهرة عالمية واسعة .

إن الأجنبى الذى يزور باريس ، ويطلع على ما فيها من آثار ومتاحف وأندية وملاه ، يود طبعاً أن يعلم أيضاً من هو كبير أدبائها . كانت فرنسا فى القرن الماضى تفاخر بوجود عدد غير قليل من أعاظم الكتاب والشعراء ، أمثال هوجو وبلزاك ، وفلوبير ، وموباسان ، وزولا ، وموسيه ولامرتين ، وبودلير وغيرهم . فكانت تستطيع أن تقول عن أى واحد منهم إنه كبير كتابها أو شعرائها . وهكذا انتقلت زعامة الأدب الفرنسى بعد وفاة شاتوبريان إلى هوجو ، ومن هوجو إلى أناطول

فرانس ، ومن هذا إلى جيد . أما اليوم فمن الصعب أن تتفق كلمة الأدباء على من يخلف « جيد » .

وقد تناولت مجلة « الأخبار الأدبية » هذا الموضوع ، فعرضت عدداً كبيراً من الأدباء دون أن تصل إلى نتيجة حاسمة .

إن الذين يعدون اليوم في طليعة أدباء فرنسا هم : موررياك ، وموروا ، ومونترلان ، وملرو . ولكن لا يستحق واحد منهم في نظر المجلة المذكورة ، أن يكون خليفة جيد الذي كان يمثل كل ما في الأدب الفرنسي من نزاهة وصراحة ، ونزعات أدبية صرفة . ولا تزال أندية الأدب تذكر إشرافه منذ سنوات قليلة على تمثيل روايته « أقبية الفاتيكان » على مسرح الأبرا ، والتأثير البالغ الذي أحدثته في عالم السياسة والأدب والاجتماع .

وبين الأسماء التي ذكرتها المجلة في معرض كلامها عن خليفة « جيد » ، اسم موررياك ، ومونترلان ، وملرو . فموررياك ينعم بشهرة واسعة كأديب كاثوليكي ذي مركز مرموق في المجتمع الباريسي . ولكنه ينتسب إلى جملة مؤسسات صحفية مما يجعله عرضة لمقاومة الكثيرين . ويحول دون اختياره .

هجرة الطيور :

ما برحت هجرة الطيور لغزا من الألغاز التي لم يهتد العلماء إلى حلها حتى اليوم على كثرة آرائهم وتعليلاتهم وتفاسيرهم المتباينة . فنهم من علل اهتداء الطيور إلى مسالكها عند هجرتها بحاسة سادسة خفية في أبدانها لا يمكن إدراكها ، ومنهم من زعم أن الطيور تسترشد بأبصارها دون غيرها عندما تطير من جهة إلى أخرى ، ومنهم من ظن أن الرياح الموجهة في الجو تؤلف مسالك جوية ترشد الطيور المهاجرة في رحلاتها الجوية الطويلة .

وكان العالم الطبيعي . نيكولسن ، الأستاذ في متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك ، قد علل استرشاد الطيور عند طيرانها بجهاز خفي فيها يقوم مقام البوصلة التي تهدي السفن البحرية . وهذا الرأي يفسر تحويم الحمام الزاجل عدة مرات عند إزماعه قطع مرحلة طويلة ، كأنه يتحسس خطوط المغنطيس الأرض فيهتدي بها في طريقه .

وبين الوسائل العديدة التي فسر بها العلماء اهتداء الطيور المهاجرة إلى المسالك القويمة ، الخطوط الخاصة بالقوة المغنطيسية الثابتة الممتدة شمالا وجنوبا بين القطبين المغنطيسيين الدائمين للأرض . وقد تأيدت هذه النظرية بالتجارب التي أجريت في أنحاء مختلفة من العالم ، فقد أطلقوا حمام الزاجل على مقربة من عمود من الأعمدة العالية الحاملة موصلات جوية لاسلكية في محطة قوية من محطات الراديو ، فحدث عند حبس أمواج الراديو في تلك المحطة ، أن هام الحمام باحثا عن السبل القويمة بضع ثوان ثم اهتدى إليها فطار متبعاً إياها إلى موطنه ؛ ولما استؤنف العمل في محطة الراديو وأطلقت موجاتها في الجو ارتبك الحمام وأخذ يصفق بأجنحته ويحوم حول ذلك المكان زهاء نصف ساعة ثم تفرق باحثاً عن الطريق المستقيم فأخفق ، وقد فسروا ذلك بأن إطلاق الأمواج اللاسلكية في الجو ولد شحنات كهربائية قضت على الطاقة الكهربائية الطفيفة التي في عضو الحس الذي تتألف منه بوصلة ذلك الطائر . ويقول الدكتور ميلز أن العيون هي دليل ذلك السر .

أنباء العالم الإسلامي

* يعتبر فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد المعطى الشرشيمى ، أحد كبار علماء الأزهر ، أكبر العلماء المعاصرين سنا ، فقد دخل المائة الثانية من عمره المبارك المديد ، وقد اقترح بعض العلماء أن يقام لفضيلته ـ بهذه المناسبة ـ حفل تكريم لما بذل من الجهود العلمية فى هذه الحقبة الطويلة . ودعا فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر إلى حفل فى داره تكريما للعالم الكبير ، فلبى الدعوة كثير من العلماء وبعض الشخصيات الكبيرة ، وممن حضروا الحفل الدكتور طه حسين باشا الذى حرص على إظهار وفائه لأستاذه إذ كان من الطلاب الذين تلقوا عليه العلم فى الأزهر .

---

* عقدت معاهدة ثقافية بين مصر وأسبانيا تهدف إلى توطيد التعاون العلمى بين البلدين بمختلف الوسائل كتبادل الأساتذة والطلاب والبعوث العلمية . وكان قد لوحظ أن بعض الكتب المدرسية الأجنبية تحوى معلومات عن العالم الإسلامى وعن مصر الحديثة لا تطابق الواقع والحقائق الجغرافية والتاريخية ، فاتفق الجانبان المصرى والأسبانى على وجوب تصحيح هذه المسائل حتى لا تنطبع فى أذهان النشء صورة غير دقيقة عن مصر والعالم الإسلامى .

---

* تحدث سفير أسبانيا إلى بعض الصحفيين عن زيارته لفضيلة شيخ الجامع الأزهر ، فقال : إن هذه الزيارة كانت رمزا للمجاملة الواجبة نحو أكبر المعاهد الثقافية الإسلامية ، أما البحث الذى جرى بيننا فقد كان بطبيعة الحال خاصا بالثقافة الأسبانية العربية ، ولكننا لم نبحث مشروعات معينة .

---

* أصدر فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر قرارا يقضى بتأليف لجنة من بعض كبار العلماء الأزهريين الذين نهلوا من الثقافة الأوربية وبعض أساتذة جامعة فؤاد الأول وبعض كبار المشتغلين بالشئون الإسلامية ، لتنظيم العلاقات بين الشعوب الإسلامية من حيث الثقافة والمناهج التعليمية والعمل المشترك للقضية الإسلامية ، ونظرا لأهمية ما ستقوم به اللجنة من بحوث فقد جعلها فضيلته تحت رياسته الخاصة .

---

* يجرى البحث الآن بجامعة الدول العربية فى تنظيم الحلقة الثالثة للدراسات الاجتماعية العربية ، وينتظر أن تعقد ببغداد فى شهر نوفمبر القادم ، وقد تقرر أن يشترك فيها ممثلون لتونس والجزائر ومراكش إظهاراً للعلاقة بين هذه البلاد الإسلامية وسائر الدول العربية .

ومن الموضوعات التى ستبحث فى هذه الحلقة « الزكاة والوقف ومسئولية الأقارب » وذلك لبيان وجهة النظر الإسلامية فيما يتصل بهذه المسائل من أحوال المجتمع الإسلامى ، وقد ألفت لجنة لهذا الغرض برياسة فضيلة الأستاذ

الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر

* جاء من « واشنطن » بأمريكا أن الدكتور محمود هبة الله مدير المعهد الاسلامى هناك يعمل على أن يبدأ المعهد عمله قبل نهاية هذا العام، وقد صرح بأن جميع الدول الاسلامية تتعاون معه فيما يحتاج إليه المعهد، وأن وزارة المعارف والجامعات فى مصر وعدت بأن تزود المعهد بالكتب المتعلقة بالثقافة الاسلامية، وأنه ينتظر هبات مماثلة من الدول الاسلامية الأخرى.

* وقال الدكتور هبة الله أن من أغراض المعهد التيسير لرجال العلم الأمريكيين القيام بأبحاثهم عن العالم الإسلامى، وإتاحة الفرص للأمريكيين العاديين ليجدوا فيه كتباً تعطيهم فكرة صحيحة عن مبادىء الدين الإسلامى. ثم ذكر أنه يفكر فى إصدار مجلة توزع فى أنحاء البلاد وتحقق غرضين أحدهما زيادة المعرفة بالشئون الإسلامية والآخر تزويد المعهد بإيراد يساعده على نفقات إدارته.

* سيصدح صوت المؤذن فى أحد أحياء واشنطون ـ حيث أوشك العمل فى إنشاء جامع وشنطن على التمام ـ بالدعوة إلى الصلوات الخمس فى القريب. وقد ذكرت جريدة واشنطون ستار فى جملة التعليقات التى عقبت بها مختلف الصحف على إنشاء المسجد أن طريقة الأذان فى المسجد الجديد ستكون على غرار الطريقة التى أخذت تتبعها بعض المساجد فى القاهرة فى المدة الأخيرة بأن يؤدى المؤذن الأذان من داخل المسجد بدلا من المئذنة على حين تتولى مكبرات الصوت المثبتة فى المئذنة تكبير الأذان ونقله إلى الأسماع بوضوح

* استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم الأستاذ مصطفى كامل رئيس الديوان الملكى فى ليبيا، والأستاذ عبد العزيز حمزاوى وكيل الديوان، ودار الحديث فى هذه المقابلة حول تطبيق الشريعة الإسلامية فى ليبيا، فقال فضيلته: « لا شك أنها خير تجربة، وأتمنى أن تكون تجربة ناجحة تشجع الدول الإسلامية على تطبيق الشريعة التى يرجع عدم الأخذ بها إلى جهل ما فيها من جمال وضمان لصالح الناس جميعاً ».

* أعلنت مؤسسة « روكفلر » الأمريكية الخاصة أنها قد منحت جامعة « ماكفل » بكندا مبلغاً قدره ٢٢٤٨٠٠ دولار كى تستعين به على نفقات معهد الدرات الاسلامية الذى افتتح فيها حديثاً وقالت المؤسسة إن تفهم الدين الاسلامى مشروع تعاونى هام يصبوا إليه المسلمون والغربيون معاً.

* أذاعت وكالة الأنباء العربية من مكة أن أسئلة الامتحانات العامة هناك ستكون مطابقة للأسئلة فى مصر، تمشياً مع نصوص الاتفاق الثقافى بين المملكة السعودية وجامعة الدول العربية الذى يرمى إلى توحيد التعليم فى العالم العربى.

النشاط الثقافي للأزهر

تمهيد :

فى الأزهر أكبر جامعات الشرق وأقدمها نهضة ثقافية ، إلى جانب رسالته ، أو هى على الأصح جانب من هذه الرسالة ؛ وترجع أرومة هذه النهضة الثقافية فى الواقع إلى عهد محمد على الكبير منشئ النهضة المصرية الحديثة ؛ فقد كان من نوابغ بعثاته إلى أوربا فى مختلف العلوم والفنون ، عدد من أبناء الأزهر ، وكان لهؤلاء بعد عودتهم عظيم الفضل فيما أخرجت مطبعة بولاق من مؤلفات ومن كتب معربة ، كما كان لهم عظيم الأثر فى نهضة التعليم بالبلاد .

وظل أثر الأزهر فى الحياة المصرية يتجلى حينا بعد حين ، فى أشخاص من نهلوا من منهله من رجال الأدب والقانون والسياسة والإصلاح الاجتماعى ، ولقد كان لكثير من هؤلاء الأزهريين المدنيين مكان القيادة فى نهضتنا الثقافية منذ مستهل هذا القرن ، كل فى محيطه .

ولما نهض العاهل العظيم الملك العالم فؤاد الأول بمصر نهضته ، كان للأزهر نصيب عظيم من همته ، فأصدر - نضر الله وجهه - سنة ١٩٣٠ القانون الذى قامت عليه الجامعة الأزهرية الحديثة ، ثم أتبعه بالقانون الذى صدر فى سنة ١٩٣٦ والذى تم به تنظيم الأزهر الحديث والمعاهد العلمية الإسلامية ، وما زالت تنمو هذه الجامعة وتمد فروعها فى أنحاء مصر ، وتفتح أبوابها لقاصديها من أقطار الشرق حتى أصبحت جامعة الشرق الكبرى ، وصارت تضارع فى مبانيها ومعداتها وأجهزتها كبريات الجامعات فى العالم . وهى ومعاهدها تضم اليوم أكثر من عشرين ألفا من الطلاب منهم قرابة أربعة آلاف من البلاد الإسلامية

وتتهيأ اليوم هذه الجامعة الكبرى لنهضة ثقافية عظيمة يتولى قيادتها شيخها الأكبر بتوجيه من حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول أعزه الله وأعز به الإسلام والمسلمين ولقد أشار إلى ذلك فضيلة الأستاذ الأكبر بقوله فى بيانه الذى ألقاه على رجال الصحافة بتاريخ أول نوفمبر سنة ١٩٥٠ :

« لقد تشرفت فى العاشر من المحرم سنة ١٣٧٠ هـ الموافق (٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٠) بمقابلة حضرة صاحب الجلالة مولاى الملك المعظم ... وأصارحكم بأنى كنت قبل أن أتشرف بهذه المقابلة محساً بثقل التبعة ، مشفقاً على نفسى من تحمل هذه الأمانة الكبرى ، فلما تشرفت بمقابلة جلالته ، ولقيت من عطفه السامى ما لقيت ، وشعرت وأنا فى حضرته بشدة رغبته فى الإصلاح ، شرح الله صدرى وأقر عينى وأحسست أن روحا من القوة والعزيمة يسرى فى نفسى . لقد وجدت جلالته حفظه الله محيطاً بشؤون هذا المعهد دقيقها وجليلها ، وكان من ذلك أن جلالته أدام الله توفيقه ، بادرنى بتوجيهات وإرشادات سامية ، أضاءت لى السبيل إلى تحقيق ما أبتغيه من ضروب الإصلاح .

وإنى إذ ألخص لحضراتكم خطتى ومنهاجى ، إنما أصدر عن هذه التوجيهات الكريمة والإرشادات السامية ،

ومن النواحى الإصلاحية والثقافية فى هذه النهضة المباركة العمل على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، وتوجيه العلماء إلى وضع أبحاث فى الفقه والتشريع تساير الروح العلمى الحاضر ، وإلى إصدار نشرات ووضع مؤلفات باللغات الأجنبية لبيان حقيقة الإسلام والتعريف بمزاياه ، والعمل على النهوض بالبعوث الإسلامية وتنظيم الاتصال بالبلاد المحتاجة إلى معونة الأزهر ، والعناية بمجلة الأزهر حتى تكون فى طليعة المجلات الكبرى ، وتتمكن من أداء مهمتها على الوجه الأكمل ، والعمل على إنشاء مطبعة خاصة تعين على إخراج ما يرى الأزهر إخراجه من الكتب وعلى طبع مؤلفات علمائه ، إلى غير ذلك من الشؤون العلمية والثقافية .

ولقد أخذت تدب فى الأزهر روح جديدة نرصد بعض مظاهرها على قدر ما يتسع له هذا المجال .

الأزهر ومهرجان ابن سينا :

اشترك الأزهر فى الاحتفال الألفى بابن سينا الذى انعقد فى بغداد من ٢٠-٢٨ من شهر مارس الماضى ، وقد كان لمندوب الأزهر نشاطه الملحوظ فى هذا الاحتفال ؛ ولقد أذاع من محطة الإذاعة العراقية كلمة موضوعها « الأزهر واحتفال ابن سينا » بين فيها عناية الأزهر طوال عمره المبارك بالمحافظة على التراث الإسلامى العلمى وأشاد بنهضته الحديثة ؛ واتصل بكثير من الشخصيات المهتمة بنشر الثقافة الإسلامية ، وبين لهم خطة الأزهر لتحقيق هذه الغاية .

جوائز فؤاد الأول للخريجين :

وفى الثامن والعشرين من شهر أبريل الماضى احتفل الأزهر بتوزيع جوائز المغفور له الملك فؤاد الأول على المتفوقين من خريجى الكليات الثلاث ، وذلك فى يوم ذكرى العاهل الراحل الذى تبرع من ماله الخاص بهذه الجائزة وقدرها مائة جنيه لتوزع سنويا على النابهين . وقد شرف الحفل مندوب من قبل جلالة الملك ، وألقى أوائل الخريجين الفائزين بالجوائز كلمات أشادوا فيها بفضل الملك الراحل على الأزهر

واقتداء بهذه السنة الملكية الكريمة ، أصدر فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم أمره برصد ألف جنيه لإنشاء جوائز للمتفوقين من الخريجين كل عام ، ولمن يحسنون من الطلبة دراسة كتب معينة فى الإجازات الصيفية كل سنة . وعلى قدر فهمهم وإفادتهم منها تكون مكافآتهم . وستكون هذه الجوائز بعون الله قوية الأثر فى النهضة الثقافية للأزهر .

الأزهر فى مؤتمر كراتشى :

أوفد الأزهر مندوبا إلى المؤتمر الذى انعقد بمدينة كراتشى فى الشهر الحالى ليشترك مع الوفود الإسلامية فيما ترجوه من توثيق الصلات والتعاون بين أمم الإسلام . ولقد كان لبعض الشخصيات الأزهرية - فضلا عن مندوب الأزهر الرسمى - نشاط واضح فى هذا المؤتمر الإسلامى .

اذاعات أزهرية فى أمريكا :

قد أجاب الأزهر السفارة الأمريكية إلى ماطلبته عن طريق المراقبة العامة للبحوث والثقافة

الإسلامية من تنظيم سلسلة من المحاضرات الدينية يلقيها على طلاب الثقافة الإسلامية الأمريكيه فى شهر رمضان المبارك ، خمسة من العلماء المعروفين بسعة الاطلاع وعمق البحث ، فى واجب الفرد نحو الله ونحو الإنسانية ، والتعاون بين المسيحية والإسلام، وفى سماحة الإسلام ، وحاجة العالم إلى الورع والتقوى، واختيار الأصدقاء فى نظر الإسلام وقد سجلت هذه المحاضرات فعلا لتذاع فى أمريكا .

مجمع فاروق الاول للشريعة الاسلامية

ومن المشروعات الجليلة التى يعمل الأزهر لتحقيقها إنشاء مجمع على غرار مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، يسمى مجمع فاروق الأول للشريعة الإسلامية ، ومما جاء فى مذكرة اللجنة التى ألفت لبحث هذا المقترح قولها تخاطب الأستاذ الأكبر : « يا صاحب الفضيلة » إذا كان مجمع فؤاد للغة العربية قد قضت به الضرورة ، ودعا إليه داعى الإصلاح ، واستلزمته مقتضيات العصر وما جد فيه ، فإن ذلك كله يوجب أيضا أن يكون فى مصر ، وتحت ظلال الأزهر ، مجمع دينى علمى ينسب إلى الفاروق العظيم ، ويكون له فخراً على الاولين ولسان صدق فى الآخرين » .

مشروعات المراقبة العامة للبحوث

وفى المراقبة العامة للبحوث والثقافة الإسلامية نهضة جديرة بالتنويه العظيم . وحسبك أن تقرأ فى جدول أعمال لجنتها الاستشارية بتاريخ ١٩ من هـــذا الشهر : النظر فى الأسس التى يقوم عليها نظام بعوث الأزهر إلى البلاد العربية ، وإنشاء معهد للدعوة الإسلامية ؛ والنظر فى أمر بعثة الأزهر بلندن ، ودراسة إرسال بعثات علمية أخرى للجامعات الأوربيــة ؛ ووسائل نشر الثقافة الإسلامية فى البلاد الأوربية ؛ وتأليف لجنة أو لجان لاختيار أصلح التزجمات باللغات الأوربية المتداولة الآن للقرآن تلبية للطلبات الخاصة بذلك ، حتى تتم ترجمته من قبل الأزهر ؛ وإرسال بعض علمـــاء الأزهر إلى باريس وهامبورج وكارديف وجزر ترنداد ، حسب الطلبات الواردة منها .

مجلة الأزهر

ونستأذن القارىء فى أن نشير إلى مجلة الأزهر فى عهدها الجديد ، ونتقدم بها إليه متواضعين دليلا على ما يدب فى الأزهر اليوم من روح النهوض .

فى الكليات والمعاهد

بقى أن نشير إلى ما فى بعض الكليات والمعاهد الأزهرية من نشاط ثقافى اجتماعى تجلى على خير ما يرجى فى مسرحيات إسلامية مثلها طلاب الأزهر كمسرحيات « صلاح الدين الأيوبى » ، و « المعز لدين الله الفاطمى » و « عبد الرحمن الناصر » . وقد ظفرت كلها بإعجاب من شهدها من علية المثقفين وثنائهم . ويشرف على هذا الجانب من النشاط الأستاذ محمد كمال أنور محمد مفتش العلوم بمعهد القاهرة . وكذلك نشير إلى ما يبذله الأستاذ محمد مصطفى شوقى مفتش العلوم ومراقب النشاط الاجتماعى والرياضى فى الأزهر من عظيم الهمة فى ميدان الرياضة على اختلاف أنواعها حتى لقد أدهش الأزهر كل من شهد فرقه فى التدريب العسكرى وألعاب القوى والسباحة والمصارعة وكرة القدم وكرة السلة وغيرها من وسائل النهوض بالأبدان والأذهان .

مدير المجلة ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات بك
العنوان : إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون : ٨٤٥٩٥

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٥٠ في مصر والسودان
٦٠ في الأقطار الإسلامية
٥ ثمن الجزء

الجزء العاشر - القاهرة في غرة شوال سنة ١٣٧١ — ٢٣ يونية سنة ١٩٥٢ — المجلد الثالث والعشرون



فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

أين المسلمون اليوم من الإسلام ؟

أصبح من المعلوم فى بداهة العقل الحر أن الدين الإسلامى هو الصورة الكاملة لشرائع الله ، والقوة المهذبة لقوانين الطبيعة . وضع فيه شارعه الأعظم وهو فاطر الأرض ، وواهب الحياة ، ومنزل الوحى ، أسس القواعد التى تكفل للعالم نظامه وسلامه ، وللمجتمع وحدته وقوته ، وللفرد سعادته وكرامته ، مهما يتطاول الأمد وتتغير الحال . ومَن غير الله جلت قدرته يفجر نور الهدى للأرض من غار مظلم موحش ، ويبجس نبع الحياة للناس من جبل مجدب وعر ؟ وهل كان لولا وحى الله فى غار حراء من جبل النور ، فى مقدور أمى تشأريب اليُتم والعُدم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز المقفر، أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته ، وهى الحقوق التى أعلنت بعضها فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر بعد الثورة ، وأعلنت بعضها أمريكا فى أواسط هذا القرن بعد الحرب ؟

وما كان لبشر سليم الفطرة أن يستريب فى أن الدين الذى أكمله الله لنبيه ، ورضيه لخلقه ، ونسبه إلى نفسه ، هو وحده مصدر الخير المحض ، ومظهر الكمال المطلق ، وسبيل الغاية التى يجد عندها ابن آدم المكدود المجهود نفَسا من كربه ، وراحة من تعبه ، وسكينة من اضطرابه ؛ تلك الغاية التى كان يراها ، منذ هبط العاصى من الجنة ، حداً لشقائه ونهاية لألمه ، فكان يتشوف إليها من وراء الغيوب ، ومن خلال القرون ، فلا يراها ، لا فى الحروب التى شن ، ولا فى النظم التى سن ، ولا فى الشرائع التى اعتقد ، حتى أراد الله للاغب الضال أن يهتدى ويسترفه ، فكان محمد هو المنار ، وكان الإسلام هو المرفأ !

إن من المبادىء التى ميزت الإسلام التوحيد وهو سبيل القوة ، والإخاء وهو سبيل التعاون ، والمساواة وهى سبيل العدل ، والحرية وهى سبيل الكرامة ، والبر وهو سبيل المحبة ، والسلام وهو سبيل الرخاء . وكل هذه المبادىء معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . وهى كما ترى تضمن أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى المدنية ؛ فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وأن تقيم ما اعوج من نظام الدنيا . وقد كانت كذلك يوم كان لحماتها دولة ، ولدعاتها صوت ، ولمعتقديها يقين ، فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعانا فى فدافد الأرض ، لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى . ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه .

أين المسلمون اليوم من إسلام عمر وخالد، والرشيد والمأمون، والناصر والحكم، والعزيز والحاكم؟ ألم يبلغ هؤلاء بفتوح الجيش وفتوح الدين وفتوح العلم وفتوح الخلق من السلطان والعمران ما لم تبلغه أمة من قبل، فنزل على حكمهم الدهر، ودخل فى ملكهم العالم؟

إن الدين الذى رفع هؤلاء السادة والقادة إلى الذروة، وضمن للخلافة فى عهودهم العزة والمنعة والقوة، لا يزال هو الدين، لا يغيره الزمن، ولا تجافيه الطبيعة، ولا يعاديه العلم، ولا تنسخه المذاهب؛ وإنما الأمر فيه كما قال الرسول صلوات الله عليه: «مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، كان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى؛ إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ».

والمسلمون اليوم هم هذه القيعان، تحدرت إلى ما ركد فيها من سلسل الوحى عكارات المذاهب الطارئة، ورواسب العقائد الخاطئة، فكان منها ذلك الخلط العجيب الذى يعوق عن السعى ويمنع من النظر ويصد عن الفكر؛ ثم كان من أثره أن نرى اليوم مواطن العروبة والإسلام: مراكش والجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين وسورية والعراق وإيران وباكستان والصين وأندونيسيا وسائر جزر الهند الشرقية، قد أصبحت نهباً مقسما بين دول الاستعمار يتنازعون فيه، ويتقاتلون عليه، وليس من أهلها من يقول فيسمع قوله، أو من يفعل فيخشى فعله، وإنما هم أشياء كثيرة الأرض، خسارة على المغلوب وربح للغالب.

لقد تغيرت عقائد الإسلام الحرة النقية فى نفوس الكثرة من المسلمين كما يتغير الشراب الخالص فى الإناء القذر! انحلت الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل، وتقاطعت القلوب فلا تتواصل فى دين ولا وطن، واستأثرت النفوس فلا تتعفف فى صداقة ولا نسب، واستبهمت المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس؛ وأصبحت غاية الدين فى رأيهم مظاهر من العبادة لا تخدع، وظواهر من البدع لا تنفع، وأقاويل من الوعظ لا تدل.

من يصدق أن المسلمين اليوم يفقهون القرآن حق الفقه، وهو الكتاب المبين الذى يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم، وكل انتفاعهم منه أن يحملوه للحفظ كما تحمل التمائم، وأن يقرءوه للبركة كما تقرأ الأوراد، وأن ينشدوه للطرب كما تنشد الأغانى؟

من يصدق أن المسلمين اليوم يقدُرون الرسول حق القدر، وهو الذى قال فيه أصدق القائلين: «وإنك لعلى خلق عظيم»، «وعلمك مالم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما»، وكل ما يمدحونه به أن يرفع المؤذن عقيرته فى الأذان بالصلاة على «مليح الوجه»، وأن يتغنى منشد سيرته المطهرة بحمرة خديه وسواد عينيه، كأن الصباحة والوسامة والرواء هى كل ما يمتاز به محمد نبى التوحيد والوحدة، ورسول السلام والمحبة، وداعى الحرية والكرامة! لقد أنف عبد الملك ابن مروان أن يمدحه ابن قيس الرقيات بقوله:

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له : وماذا من الفضل فى تألق التاج ونصاعة الجبين ؟ هلا مدحتنى بمثل ما مدحت به مصعب بن الزبير إذ تقول فيه :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ثم حرمه عطاءه العمر كله . والفرق بين فضل الرسول وفضل الخليفة كالفرق بين الجبل والذرة ، أو بين الشمس والشرارة !

من يصدق أن المسلمين اليوم يؤمنون بالإسلام وفيهم من يؤمن بالشيوعية وأهلها يزعمون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه فى تقسيم رزقه . ثم يقولون بكل وسيلة من وسائل القول : كل شىء مشاع ، وكل أمر مباح ، وكل إرادة طليقة ! والمسلمون يسمعون هذه الأضاليل تبث فى الإذاعة ، وتنشر فى الكتب ، وتردد فى المجالس ، فيرهفون لها سمع الغبى ، وتدفعهم شهوة الإباحية إلى أن يشتروا الضلال بالهدى ، ويستبدلوا الخبيث بالطيب ، ويؤثروا أن يكونوا كالذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

والعلة فى كل أولئك هى الجهل التام والعلم الناقص ، فلو أن المسلمين اعتقدوا ربهم اعتقاد المؤمن ، وفقهوا دينهم فقه المقتنع ، واتبعوا رسولهم اتباع المصدق ، لما أصبحوا فى الحال التى تنبأ بها الرسول صلوات الله عليه إذ قال : «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » . فقال قائل : أو من قلة نحن يا رسول الله يومئذ ؟ قال : لا . إنكم حينئذ لكثير ؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل ! فقال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت»

* * *

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ؟ » .

بلى ، والحمد لله قد آن للمؤمنين أن يكشفوا عن العيون غشاوة الباطل ، ويجلوا عن القلوب صدأ الغفلة ، فيبصروا الطريق ويستبينوا الغاية . وإن فى يقظة الوعى الإسلامى التى بدت فى تعاطف المسلمين على البعد ، وتناصفهم فى القرب ، وتحالفهم على الأحداث ، لأشعة من تباشير الصباح ، قبلها الليل المظلم ، وبعدها النهار المشرق . ولعل الأزهر وحده هو الذى يملك أن يقوى هذا الوعى ويوجه هذا الشعور . إذا عمر الصدور بالإيمان الخالص عن طريق التعليم فى المدارس ، والوعظ فى المساجد ، والنشر فى الصحف ، والحديث فى الإذاعة ، والنظر قبل ذلك كله فيما يقرأ المسلمون من كتب ، وفيما يدرس المتعلمون من مناهج ، وفيما يقمش المموهون من بدع ؛ فإن تنقية الدين مما علق به ودس فيه تكشف للناس عن جوهره وتصلهم بروحه . والقتام يحجب الشمس ، والقذى يفسد الشراب . وإن الماء إذا راق ساغ ، وإذا ساغ روى . وعما قريب نبشر المسلمين والأزهريين بما رأى الشيخ الأكبر من إصلاح ، وبما عزم من عمل . جدد الله بسعيه حبل الإسلام ، وحقق فى عهده صلاح الأزهر ؟

أحمد حسن الزيات

في الدين والفقه

مثل الحق والباطل في كتاب الله

لصاحب الفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف
مفتى الديار المصرية

قال الله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل ؛ فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » .

بين الله تعالى فى الآيات السابقة ما كان من المشركين من التشبث بالباطل واتخاذهم أولياء من دون الله ، وما كان من المؤمنين من الإذعان للحق ، والإقرار بالوحدانية لله تعالى .

ومثل للفريقين بالأعمى والبصير ، ومثل للشرك والتوحيد بالظلمات والنور فى قوله « قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور » . ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار .

قامت دعوة الإسلام على هذا التوحيد الخالص ، وأن كل ما سوى الله تحت سلطانه وقهره لا مثيل له من خلقه ولا شريك له فى ملكه وجاء القرآن يضرب أروع الأمثال ، ويقيم أقوى البراهين للهداية إليه ، والدلالة عليه ، فاستجابت له الفطر السليمة . وأذعنت له العقول المستنيرة ، فعرفت أنه الحق ، وجحدته خلائق عنادا واستكبارا أو جهلا وضلالا . فعمى عليهم السبيل « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

بعد أن بين الله هذا ضرب فى هذه الآية مثلين للحق فى استقراره وثباته ، وللباطل فى زهوقه واضمحلاله . ليبين أن الباطل وإن استعلى أمة من الدهر لابد أن يقهر ويزول ، وأن الحق وإن اختبأ ضوءه حيناً لابد أن يبدو .

وقد جرت عادة القرآن أن يضرب الأمثال للناس عظة واعتباراً ، وهداية واستبصاراً ، وتنويراً للعقول ، وتقريباً للمعقول ، حتى أصبحت أمثال القرآن فناً رائعاً من فنون البلاغة ، وعلماً مدوناً من علوم القرآن .

قال تعالى « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » .

وقال (وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون) . ومنها هذه الآية الكريمة فقد نظمت فى سلك واحد مثلين لكل من الحق والباطل . أولهما مثل مائى ، والثانى مثل نارى ، نظما فائقا بديعاً ، وتأليفاً رائعاً بليغاً ، وتصويراً للحق والباطل بصورة محسوسة لتتمكن منها العقول فضل تمكن .

فشبه الله الحق بالماء الذى يستقر فى بطون الأودية بعد السيل فى صفاء ونقاء بعد أن يخلص من الزبد والغثاء فينتفع به الناس فى كل شىء .

وشبهه بالمعادن التى ينتفع بها الناس حلية أو متاعا بعد أن تخلص من الخبث بالصهر بالنار .

أما الباطل فشبهه بالزبد الرابى الذى يحمله

السيل فى قوة اندفاعه ثم لا يلبث أن تدفعه الرياح ، وتقذفه الأمواج إلى جنبات الأودية فيضمحل ويذهب ، وبالخبث الذى يخالط المعادن فى الأرض ويعلوها إذا صهرت كزبد السيل ثم يقذف به ويرمى لتصفو من كدره فإذا هو لقى مطرح ، وإذا المعدن خالص نقى .

وذلك قوله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) بمقدارها الذى اقتضته الحكمة الإلهية فى نفع الناس بالماء (فاحتمل السيل زبداً رابياً) عاليا فوق وجه الماء ، والزبد هو الرغوة والغثاء الذى يحمله السيل إذا جاشت مياهه واضطربت أمواجه وهذا مثل للحق والباطل،ثم ضرب المثل الآخر بقوله تعالى (ومما يوقدون عليه فى النار) من المعادن النفيسة وغير النفيسة (ابتغاء حلية أو متاع) أى ابتغاء اتخاذها حلية للزينة والتجمل أو متاعا ينتفع به . (زبد مثله) مثل زبد السيل فى كونه رابيا فوقه (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى يضرب مثل كل منهما هداية وتبصرة للناس . (فأما الزبد فيذهب جفاء) مرمياً به مقذوفا . يقال جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورماه . (وأما ماينفع الناس) من الماء الصافى النقى من الغثاء ، ومن الجوهر الخالص النقى من الخبث (فيمكث فى الأرض) .

فعقيدة التوحيد هى الثابتة المستقرة التى ينتفع بها فى الدار الأخرى ، وعقيدة الشرك والضلال هى المضمحلة الزائلة التى لا نفع لها فى العقبى (كذلك يضرب الله الأمثال) فى كل شأن جليل لكمال اللطف والعناية فى الإرشاد والهداية .

وبعد أن بين سبحانه مثل الحق والباطل فى الحال والمآل ، بين مآل المحقين والمبطلين يوم الجزاء بقوله (للذين استجابو لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) . فأما الذين استجابوا لربهم حين دعاهم إلى الحق واعتصموا به فلهم المثوبة الحسنى والجزاء الأوفى (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وأما الذين لم يستجيبوا له وتشبثوا بالباطل والأهواء وتقليد الآباء فلو أنهم يملكون ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أنفسهم من عذاب الله . أولئك لهم سوء الحساب . وهو الحساب الذى لا يغفر لهم فيه ذنب . ومأواهم جهنم وبئس المهاد .

بالدعوة إلى الحق نطقت آيات القرآن فاستجاب لها ، وآمن بها من شرح الله صدره للإسلام وأودع فى قلبه النور والهدى ، فأبصر واهتدى ، وكذب بالآيات من ختم الله على قلبه وعلى سمعه ، وجعل على بصره غشاوة فضل السبيل وغوى . وذلك قوله تعالى (أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) .

وقد بين الله تعالى إثر ذلك أن الأمثال التى يضربها للناس للاعتبار ، والأعلام التى ينصبها للهداية ، إنما ينتفع بها أولو الألباب الذين يطلبون من كل صورة معناها ، ويفهمون فى كل قصة مغزاها ، ويأخذون من كل قشرة لبابها . وينفذون من ظواهر الأشياء إلى أسرارها وحكمها . فقال سبحانه : (إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم

وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار)

هؤلاء هم أولو العقول السليمة وهم الذين يعقلون ما ضرب الله من الأمثال ويعبرون منها إلى ما وراءها من الأحكام والحكم والأسرار وقد وصفهم الله تعالى بتسع صفات .

١ - وصفهم بأنهم يوفون بعهد الله . وعهد الله هو كل ما عوهد الله عليه وأمر بحفظه ومراعاته، فيشمل الميثاق الذى أخذه على عباده بمقتضى الفطرة أن يقروا بربوبيته ويشهدوا بوحدانيته ، والأحكام التى ألزم بها عباده فى كتابه وسنة رسوله ، وما ألزم به العباد أنفسهم من القرب ونوافل الطاعات ، والوفاء بالعهد فى العبادات ورأسها الإيمان ، وفى المعاملات والأمانات وغيرها من أخص صفات المتقين ، والإخلال به من أمارات النفاق والحث عليه مما لا يحصى كثرة لعظم شأنه وجليل أثره فى صلاح المجتمع .

قال تعالى « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وقال « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ، « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

وفى الأحاديث : (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) (ومن عاهد الله فغدر كانت فيه خصلة من نفاق) (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى عمله وظلمه أجره ، ورجل باع حرا فاسترق وأكل ثمنه.

٢ — ثم وصفهم بأنهم لا ينقضون الميثاق الذى وثقوه على أنفسهم والتزموه فيما بينهم وبين الله تعالى من الإيمان به والتزام أحكامه والوفاء بما شاء من طاعاته . وفيما بينهم وبين العباد من العقود والمعاملات على اختلافها . واحترام المواثيق مثل الوفاء بالعهود لا يصدر إلا عن النفوس الأبية .

والحث عليه فى القرآن والسنة من صميم الإصلاح الاجتماعى الذى حرصت عليه الشريعة .

وليس من ذلك بالضرورة تلك المواثيق والعهود الباطلة أو الضارة التى تقع بين الناس ، أو بين الدول فإنها واجبة النقض والرفض ، ولا يجوز الوفاء بها بأى حال ، بل هى من المنكر الذى يجب أن يزال .

٣ — ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل فى كتابه وعلى لسان رسوله فيصلون بينهم وبين ربهم بالإيمان به والإذعان لأحكامه والاحتكام إليها فى كل دقيق وجليل (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » ، ويصلون بينهم وبين الناس بالحسنى واحترام الحقوق والمواساة والبر والإحسان . ويصلون ذوى الأرحام توثيقاً للروابط بين الأسر ، وتأكيداً للتعاون على البر .

وفى الحديث ثلاث يأتين يوم القيامة لها ذلق (أى حدة لسان) الرحم ، تقول أى ربى قطعت ، والأمانة تقول أى ربى تركت ، والنعمة تقول أى ربى كفرت .

بل يصلون الحيوان الأعجم برعاية حقه والرفق به والإحسان إليه حتى فى ذبحه وبالقيام بما يطلب فى شأنه وجوبا أو ندبا ، فهو مما أمر الدين أن يوصل.

وعن الفضيل بن عياض الخراسانى أن جماعة وفدوا عليه بمكة فقال من أين أنتم قالوا من أهل خراسان ، يذكرونه بما بينهم وبينه من صلة المنشأ - فقال : اتقوا الله تعالى وكونوا من حيث

شئتم واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن محسنا .

هذا موقف دين الإسلام من الرفق بالإنسان بل والحيوان عامة ، فأين منه أولئك القساة الذين يفنون الأمم بالقنابل الذرية وغير الذرية ، ويسترقون الأحرار بكل ما أوتوا من قوة ، ويسومون الإنسان الخسف والهوان ، إن الإسلام قد أعلى مبادىء الحرية منذ ألف وثلثمائة ونيف وسبعين عاما ، وأقام الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس الإخاء والتراحم وقرر مبدأ الرفق بالحيوان والإحسان إليه ، فأية مدنية تدانيه ! وأية حضارة تفاخره .

٤ — ثم وصفهم الله بأنهم يخشون ربهم فإذا ذكر الله وجلت قلوبهم وهابوه مهابة الجلالة مهما جهدوا فى طاعته ودنوا من مرضاته فإن أقرب العباد إلى الله أشدهم له خشية .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية من الله وهو الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

إن الخشية من الله تعالى ثمرة العلم بعظمته وجلاله،وقدسيته وكماله قال تعالى:(إنما يخشى الله من عباده العلماء) ومن لم يعرف الله ولم يشهد جلاله لا تطرق قلبه خشية الله ، ولذلك كان أجرأ الناس على الله أجهلهم به وأبعدهم عنه .

٥ — ثم وصفهم الله بأنهم يخافون سوء الحساب فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويرجون من الله العفو عن السيئات ومن نوقش الحساب عذب ، ومن لم يظفر بالعفو هلك .

٦ — ثم وصفهم الله بأنهم يصبرون ابتغاء وجه ربهم على أداء الأوامر واجتناب المنهيات ، وعلى قمع الشهوات طمعا فى رضا الله ، ورضاء بما قدره وقضاه ، وثقة بأن الخير فيما كان لا فيما يؤمل أن يكون ، والصبر عدة الجهاد ، وعنوان اليقين وهو لأجل الله أعظم وأكمل .

٧ - ثم وصفهم الله بأنهم يقيمون الصلاة فيأتون بها قيمة كاملة الهيئة والأركان ، وهى سَنامُ الإسلام وعمودُه ، وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى الفارق بين المؤمن وغير المؤمن .

٨ — ثم وصفهم بأنهم ينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية على الفقراء والمساكين لا يقتصرون فى ذلك على القدر المفروض من الزكاة بل يؤدون لإخوانهم المؤمنين ما يعلمون أنهم فى مسيس الحاجة إليه مهما كان قدره ، وفى هذا إصلاح للمجتمع ، وبعث روح التعاون والتعاطف بين الناس . وهو باب إذا ولجه المسلمون بصدق وإيمان قوى ، انجابت عنهم شرور ومحن .

٩ـ ثم وصفهم أخيرا بأنهم يدرءون بالحسنة السيئة فيدفعون الذنوب بالتوبة والاستغفار ويدفعون الشرَّ بالخير ، والجهلَ بالحلم ، والإساءة بالإحسان وفى هذا التسامح .الأمن والسلام والمحبة والوئام.

وكم كان لمقابلة الشر بالشر والسيئة بالسيئة أثر سيء وأخطار فادحة !

ومن أدب القرآن فى ذلك قوله تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وقوله تعالى (وأعرض عن الجاهلين) .

أولئك المتصفون بهذه الصفات المتخلقون بهذه الأخلاق (لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)

حسنين محمد مخلوف

الوعظ الديني وكيف يكون

للدكتور احمد امين بك

من أهم أركان الإسلام الوعظ الديني . ولهذا عد من أهم تعاليمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس هذا إلا الوعظ . وأساس الفكرة أن الإنسان ليس مسئولا عن نفسه فقط ، بل هو مسئول أيضاً عن مجتمعه الذي يعيش فيه ؛ لأن أي شر يصيب المجتمع يصيب الفرد ، وأي خير يصيب المجتمع يصيب الفرد . يقول الله تعالى: « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وفي الحديث ما معناه: أن جماعة ركبوا سفينة فاقتسموا فصار لكل منهم موضع، فأخذ أحدهم نصيبه يكسر فيه ، فقالوا: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أفعل به ما أشاء . قال: فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإلا هلك وهلكوا . وهي نظرة تؤيدها النظريات الحديثة في علم الاجتماع، فكل فرد في مجتمع مسئول عن كل ما يجرى فيه من خير أو شر ، ومكلف أن يطالب بالخير ، ويتجنب الشر وليست البرلمانات الحديثة إلا أسلوباً راقياً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذا العمل من أهم الأعمال التي ينبغي أن يقوم بها الأزهر على خير وجه . وهو شاعر بهذه التبعة ، فهو يقوم بالوعظ ، ويؤسس له قسما يسمى قسم الوعظ والإرشاد ، ويبعث البعوث في البلاد الإسلامية لتحقيق هذا الغرض . بل إن الأزهر أيضاً أسس للوعظ والإرشاد ، لتحقيق الأغراض الشيعية . فجُعل فيه أول ما جعل مجلس لداعي الدعاة ، لا يزال مضمون أحاديثه بين أيدينا ، وأنيب عنه الدعاة في جميع البلدان .

والآن وقد زالت عنه الصبغة الشيعية لا يزال يعظ ويدعو ، ولكن : هل يحقق الغرض من الوعظ؟ إن النجاح في الوعظ يحتاج إلى شيئين (١) إجادة لأساليب الوعظ من الواعظ ، (٢) استجابة من الموعوظ . فإذا لم تكن هذه الاستجابة ، فمهما بلغ الواعظ في وعظه ، لا يؤثر في السامع . أما الموعوظون فهم في الغالب يحسنون الاستجابة إذا وفق الواعظ ، لأن الإيمان لم يمت في قلوب أكثر الناس ، وإنما هو نائم في أعماق نفوسهم ، يحتاج إلى إيقاظ ، وهذا الموقظ هو الواعظ . وإجادته تحتاج إلى أمرين أيضاً :

(١) علم بنفسية الموعوظين ، فيعرف ما يناسبهم وما لا يناسبهم ، وما يحركهم وما لا يحركهم .

(٢) وعلم بأساليب الكلام الذي يتفق معهم . وقد قال علماء البلاغة في كتبهم « إن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال » . فمتى جهل الواعظ بنفسية الذين يعظهم ، أو جهل أساليب الكلام التي تتفق معهم ، انقلب الوعظ سخرية . وقد حدث أني رأيت من أمثال هذا الفشل في الوعظ مثلين ، حزنت لهما حزنا شديداً :

الأول : أني رأيت واعظاً يعظ النساء في مسجد الحسين رضى الله عنه ، فيروى لهن حديثاً ، ثم يريد أن يشرحه ، فيدخل في تفاصيل لامعنى لها : من ذلك أنه يسائلهن ، لم حذف المسند إليه ؟ ، وهن لم يسمعن قط بمسند ولا مسند إليه والثاني شهدته وأنا قاض في الواحات الخارجة ، فرأيت خطيب المسجد يحذر الناس من قضاء الصيف في باريس ، مع أن السامعين في غاية التأخر والانحطاط ، لم يسمعوا بباريس ولا بأوربا . وكل أملهم إذا رحلوا أن يرحلوا إلى الصعيد أو إلى القاهرة . وإنما دعاه إلى هذا الغلط أنه كان يقرأ من ديوان مطبوع ألف في وعظ أهل القاهرة .

كل هذا يدل على أن الواعظ ينبغي أن يكون عالما بأسرار النفوس ومقتضيات الاحوال . وقد أنصف العلماء الاولون إذ سموا تقويم الأخلاق « الطب الروحاني » مقابلة بالطب الجسماني . فكما أن الطبيب الجسماني يجب أن يتحسس المرض ليتعرفه ، ثم يضع له ما يناسبه من العلاج ، فكذلك الطبيب الروحاني يجب أن يتعرف أمراض النفوس وطرق علاجها . وهذا علم خاص قد يوفق فيه من لا يحسن النحو والصرف والتفسير والفقه ، ولا يوفق فيه من يحسنها . بل نرى الرجل قد يكون جاهلا من الجهال ، أو صانعاً من الصناع ، فيقف بين أمثاله من العمال فيأتي لهم بكلام دقيق مفيد قد لا يحسنه العالم المطمطم .

ثم إن من عيوب الوعاظ عندنا أنهم كثيراً لا يدرون من شؤون الدنيا شيئاً ، والدنيا قد أصبحت غير الدنيا ، وكل عملهم أنهم ينقلون من كتاب قديم ، أو نظرة قديمة . خذ لذلك مثلا كلامهم في أكثر وعظهم في المساجد ، وفي خطب الجمعة على المنابر فإنه يدور حول طلب التزهد والرضا بما كان . ولكن هل الزمان صالح لهذا ؟ إن الزمان قد تغير ، وأصبحت النصيحة الصحيحة ، الحث على الكفاح في سبيل كسب العيش ، والعمل الدائب على رفع مستوى المعيشة ، ومطالبة الحكومة بأن تعمل لصالح الشعب ، وأن تعمل للفقير أكثر مما تعمل للغني ، وتفهيم الفلاح أن له حقا على الحكومة أن يسكن بيتاً نظيفاً ، ويشرب ماء نظيفاً إلى آخر ذلك . أما المطالبة بالتزهد فأصبحت نمطاً قديماً وأسلوبا بالياً ، لعلها اخترعت لتخدير أعصاب الناس ، وعدم مطالبتهم بحقوقهم ، وصبرهم على فقرهم ليتمتع الأغنياء كل التمتع بغناهم ، ورمي الحمل على القدر الذي جعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، كأن الجهد والعمل والنشاط والكد لا أثر لها في الموضوع . وكل عصر يتطلب نوعا من الكلام يناسبه . قد كان الكلام مثلا في العصر الماضي حول النساء جميلا ومفيداً في احتجابهن وعدم تعليمهن القراءة والكتابة ومثل ذلك . ولكن هذا الكلام إذا ألقي اليوم كان مثاراً للضحك ، لأن الزمان قد تغير ، والعقلية قد تغيرت .

وكما اختلفت الموضوعات من عصر إلى عصر اختلفت أساليب الكلام . فالكلام الذي في

الكتب الدينية القديمة ، وكتب الفقه لا يصلح أن يكون لغة للعصر الحاضر بل لا بد أن يترجم إلى لغتنا لنفهمه . ولكل عصر أسلوبه .

وقد شاهدت وعاظاً أوربيين يخطبون فى كنائسهم ، فملأنى العجب والإعجاب من بعضهم . يختارون موضع الحديث مما حدث فى الأسبوع ، ثم يتحدثون عنه حديثاً علمياً ودينياً رائعا . يدل على معرفة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع ، وعلى علم تام بالأساليب .

وقرأت مجلة تنشر للأطفال وفى كل عدد منها فصل دينى يتناول مشكلة دينية فيحللها تحليل العصر الحاضر ، ويعبر عنها تعبير العصر الحاضر ، مما ليس له عندنا مع الأسف مثيل .

إن الواعظ أول كل شىء ، يجب أن يملأ عين السامع ؛ لأن هيبة السامع من الواعظ وتوقيره يتوقف عليهما نصف العمل بالعظات .

إن مهمة الوعظ فى زمننا متشعبة متنوعة ، فوعظ العلماء فى المعاهد ، وخطبة الخطباء على المنابر أيام الجمع ، والدروس الدينية فى المدارس . والإذاعات الدينية فى المذياع وغير ذلك ، كلها قادرة إذا صلحت أن تغير من نفسية الشعوب ، وتدفعهم دفعاً قويا إلى الأمام ، لأن أعمال الإنسان وليدة عقيدته ، فإذا أصلحت العقيدة وامتلأ القلب إيمانا ، صلح العمل ، وقلت الجرائم ، فاتجهوا اتجاها نافعاً فى الحياة العامة من اقتصادية واجتماعية وأخلاقية بل وسياسية . فإنى أعتقد أن الخطأ حتى فى التصور السياسى نتيجة لضعف الإرشاد .

لقد شاهدت فى حياتى واعظين مجيدين ، أحدهما الشيخ زكى الدين سند فى المسجد الحنفى ، فقد كان من أحاديثه وأساليبه ونبرات صوته ما يسيل الدموع ، ويحرك القلوب ، ويحمل على التوبة من المعاصى والإقبال على الطاعات ، فكان بذلك مثلا رائعاً ، لولا أنى لاحظت فيه عيباً وهو : اشتمال خطبته على موضوعات كثيرة ، أو دعوة إلى تقوى الله بشكل عام . وأعتقد دائماً أن النجاح فى هذه المواعظ ، إنما يكون بالكلام فى جزئية وتوسيعها وتعميقها ، واستخراج العظة البالغة منها . والثانى كان الشيخ على الجربى رحمه الله . فقد كان من أكبر مزاياه أنه كان يفقه نفسية السامعين ، وينزل إليهم ليأخذ بيدهم ويصعد بهم . وكان من أهم مزاياه أيضاً أنه يشرك السامعين معه فى الأقوال فيكون كما يفعل الفرنج الآن ، يطلبون من الحاضرين أن يغنوا معهم ، فيطلب من الحاضرين بعد موعظة من المواعظ أن يقولوا تبنا إلى الله ورجعنا إليه ، وعزمنا على أن لا نعود . ويكررونها فتمتلىء نفوسهم بالهيبة والجلال ، والعزم على مواجهة الله بالأعمال الصالحة . وحبذا لو كثر عندنا أمثال هؤلاء يلهبون العواطف ، ويثيرون المشاعر ، ويبكون على الشر ، ويبعثون على الخير . قد انضاف إلى مواهبهم معرفة بالدنيا الحاضرة وشؤونها . وما يحسن أن يقال فيها ، وكيف يقال فيها . إذن لانتقلنا نقلة واسعة ، وخطونا خطوات جريئة . والله الموفق .

أحمد أمين

لا ولاية بين الحق والباطل

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد محمد المدنى

تحية لوفد السودان فى مصر

هناك فرق بين « الولاية » التى هى النصرة والمعاونة على تحقيق غرض مشترك ، بحيث يشعر كل من الوليين أن لصاحبه عليه حقاً هو مطالب بأدائه عن باعث قلبى ، وبين البر والقسط ، اللذين يجب ان يسودا المجتمع ، وتقوم عليهما العلاقة بين المواطنين ، وإن لم تجمعهما فكرة ، أو تواخ بينهما عقيدة . ولذلك يبيح الإسلام للمسلم أن يعامل مخالفه فى الدين معاملة أساسها البر والرحمة والقسط ، ما دام لم يصدر منه إيذاء له أو تحريض عليه ، أو محاولة لفتنته عن دينه « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » بل لعله يذهب إلى أبعد من هذا فيبيح للمسلم أن يتخذ البر والقسط أساساً للتعامل بينه وبين مخالفه الذى آذاه ، وظاهر عليه بشرط ألا يصل هذا البر به إلى حد أن يكون له ولياً وناصراً ، فإنه لا ولاء بين مؤمن وكافر ، وقد يستفاد هذا من قوله تعالى بعد الآية المتقدمة : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . فلم يقل كما قال فى الآية الأولى « أن تبروهم وتقسطوا إليهم » ولكن قال « أن تولوهم » ، فدل ذلك على أن المنهى عنه هو اتخاذهم أولياء ، لا مجرد البر بهم والقسط إليهم .

وقبل هاتين الآيتين يقول جل شأنه : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » وفى هذا إيحاء بأن العداوات ليست دائمة ، وأن القلوب تتغير وتتحول ، وأن الرفق والإحسان قد يكونان سبيلا إلى إصلاح النفوس ، وتقريب القلوب ، وفى الحديث الشريف : « أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » وقال الشاعر :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما
يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

* * *

إذا توافق جماعة على أمر ، فكان نظرهم إليه واحداً ، وحظهم منه واحداً ، فالفطرة تقضى بأن يكونوا فيه نصراء ، بعضهم أولياء بعض ، لا فرق فى ذلك بين المحقين والمبطلين ، ولذلك أثبت الله الولاية للمؤمنين والكافرين . فقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » ولم يثبتها للمنافقين . ولكن قال : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » والتعبير بلفظ (من) يدل على معنى التشابه ، ولا يفيد معنى التناصر والولاية إذ لا رابطة بين منافق ومنافق ، فكل منهما يريد أن يصل من طريق النفاق إلى ما يبتغيه دون

أن تساوره فكرة الانتصار لشيء ، لأنه غير مؤمن بشيء !

وقد نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء فى غير موضع من كتابه الكريم نهياً شديداً .

فمن ذلك ما جاء فى أول سورة « الممتحنة » وهى سورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق »

وقد نزلت هذه الآيات فى شأن حاطب بن أبى بلتعة وهو رجل من المهاجرين شهد بدراً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة أراد حاطب أن يتخذ فى قريش يدا يحمون بها قرابته وماله ، فكتب إليهم كتابا يخبرهم فيه بما اعتزمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسله مع ظعينة كانت بالمدينة وقصدت إلى مكة ، فأطلع الله رسوله على ذلك فأرسل عليا والزبير والمقداد فأدركوها فى الطريق وأخذوا منها الكتاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياحاطب ما هذا ؟ » قال « لا تعجل على . إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم - يعنى أنه لا نسب له فيهم لأنه إنما كان حليفا لعثمان - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى. وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه صدقكم » فقال عمر: دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقد جاء التعبير فى هذه الآية وغيرها بقوله : « لا تتخذوا » إشعارا بأن العلاقة بين المسلمين والكفار لا يمكن أن ترقى إلى درجة الولاية الحقيقية الطبيعية ، وإنما هى من باب « الاتخاذ » والاصطناع ، وذلك أن هناك فرقا بين أن تقول : فلان صديق فلان ، وأن تقول : اتخذه صديقا ، فالأول مفيد أن الصداقة بينهما حقيقة طبيعية ، والثانى دال على أنها تعتمد التكلف والتصنع ، وقد جاء لفظ « الاتخاذ » فى القرآن الكريم غالبا فيما ليس الشأن فيه أن يكون ، مثل « ما اتخذ الله من ولد » ، « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب » ، « إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » ، « اتخذوا أيمانهم جنة » ، « اتخذوا دينهم لهوا » ، « اتخذوا الشياطين أولياء » ، ولا يخرج عن ذلك ما جاء فى قوله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » ، فإن شأن الألوهية عدم الخلة على الحقيقة وإنما هو اتخاذ أى اصطفاء واختصاص بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله .

فالقرآن ينهى المؤمنين عن إيجاد هذه العلقة بينهم وبين الكافرين ، بأن يتخذوهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، أما الولاية الحقيقية فمنفية بالطبع ليست مما يُنهى عنه ، لأن المؤمن الذى استقر الإيمان فى قلبه حقاً وصدقا لا يمكن أن يجتمع فى قلبه مع الإيمان ولاء لكافر عدو لدينه .

* * *

بين لنا القرآن الكريم الأسباب التى من أجلها نهينا عن اتخاذ أعداء الله أولياء فكان منها :

(١) أن العداوة بيننا وبينهم أساسية جوهرية ، فنحن قد آمنا بما جاءنا من الحق ، وهم قد كفروا به ، ولا يمكن لاثنين مختلفين فى أمر أساسى أن يتعاونا تعاونا صادقا . نعم قد تتلاقى مصالحهما فى شىء فيتفقان عليه ، ويتحالفان فى سبيله ، لكن هذه العلاقة بينهما ليست بسبيل من الولاية بمعنى نصرة أحدهما للآخر ؛ لأنه فى الحقيقة إنما ينصر نفسه ويتخذ ذلك سبيلا لتحقيق مصلحته . وشتان بين هذا وبين من ينصرك ناظرا إلى أنك مستحق لنصرته وإن لم يفد منها لنفسه خيرا ، أو يدفع بها عن نفسه ضيرا ، وقد استفيد هذا التعليل من قوله تعالى : « وقد كفروا بما جاءكم من الحق » .

(٢) أن هؤلاء الأعداء لا يزالون يعملون على فتنتنا عن الحق الذى آمنا به ، فهم أخرجوا الرسول وأخرجونا من ديارنا لا لشىء إلا لأننا آمنا بالله ربنا ، وهم لا يدعون فرصة يتمكنون فيها من إيذائنا إلا انتهزوها ، وهم يتمنون من صميم قلوبهم أن نخرج من ديننا فنعود إليهم كافرين « يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » ، « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » .

وإذا كان الاختلاف فى العقيدة مانعاً من أن تقوم بين المختلفين ولاية أو شبه ولاية ، فما أجدر أصحاب الدعوات الإسلامية بأن يكونوا على حذر من الذين لا يؤمنون بدعواتهم ، ولهم تاريخ فى إيذائهم والتحريض عليهم وودادة فتنتهم وانقلابهم ، إنهم يطلبون محالا إذا ظنوا أن ملابسة هؤلاء على باطلهم تجتلب ولاءهم ، أو تكفكف من غلوائهم ، فقد فسدت منهم القلوب ، والتوت العقول .

* * *

وبين لنا القرآن الكريم البواعث التى تبعث على اتخاذ الكافرين أولياء ، وأنها ترجع إلى ضعف فى النفوس ونقص فى الإيمان :

١ — فمن ذلك أن يلاحظ المرء مصلحة لأهله ورحمه ، فيجامل مخالفيه فى العقيدة إلى حد أن يكون لهم وليا ونصيرا على إخوانه وموافقيه ، حفظا لمصالح أهله ورحمه ، وهذا هو ما أراده حاطب بن أبى بلتعة حين كاتب قريشاً ينبئها بخبر الرسول ، وهذا ضعف فيه كاد يودى به ، وقد سماه عمر رضى الله عنه نفاقا ، ولولا سابقة الرجل وأنه كان من أصحاب بدر وما وقر فى نفس الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صدقه لكان من الهالكين .

فعلى المؤمن أن يكون واثقاً بالله ، متوكلا عليه ، وأن يؤدى ما فرضه عليه ، وينتهى عما نهاه عنه ، غير ناظر إلى عواقب ما يفعل أو يترك ، فإنه إذا كان مبتغياً بفعله وتركه وجه الله كان الله حسبه ، وإذا دار فيما يفعل أو يترك حول أوهامه فى نفسه أو ولده أو رحمه اضطرب وأغضب ربه ولم ينفعه ما قدر « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » .

وفى هـذا إيحاء بخطأ الذين يخرجون عن حدودهم وما أمرهم الله به خوفا على أهليهم وأولادهم، فتراهم يرتكبون الأوزار، ويغضون عن مرتكبيها، مصانعة لعيشهم، واحتفاظاً بوظائفهم أومراكزهم فى المجتمع، وضنا بأولادهم أو أقربائهم أن يصيروا إلى فقر بعد الغنى، أوذل بعد العز، أو تقشف بعد النعيم، وهؤلاء فى الحقيقة يوازنون بين رضا الله ورضا أنفسهم وأهليهم، وشهواتهم على الله وبئس ما يصنعون.

٢ — ومن ذلك أن ينظر المرء إلى عدوه نظرة الخوف من تغلبه عليه «فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة».

وهذا شأن كثير من الذين تبتلى بهم دعوات الإصلاح والخير، فى قلوبهم دائماً فزع، ينظرون إلى غدهم متوجسين منه شراً، ولا يستطيعون أن يواجهوا أهل الباطل أقوياء ثابتين، وإنما يقفون أمامهم متزلزلين خائفين، وإن ضرر هؤلاء على أصحاب الإصلاح لشديد، بل هم أشد من الأعداء السافرين. وقد دلت التجربة الصادقة على أنه لا صلاح لأمر إلا إذا كان الدعاة إليه والقائمون عليه مؤمنين به، حاسمين فى موالاة أوليائه، ومجافاة أعدائه، أما التوسط فى هـذا فلا خير فيه، بل هو الشر كل الشر.

٣ — ومن ذلك أن يبتغى المرء بموالاة عدوه شيئاً من العزة والسلطان والجاه، فتراه يتشبث بأهدابه، ويترخص فى مجاملته وموالاته، وهو يعلم أنه عدو الله، ولعله لا يبذل مثل هـذه المجاملة والموالاة لبعض أصحابه، ويعلل هذا وذاك بأنه كياسة ولباقة ومداراة واتقاء لقالة السوء وابتعاد عن مظنة التحيز، وما هو فى الحقيقة إلا ضعف وكلال «الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عنـدهم العزة فان العزة لله جميعا».

٤ — ومن ذلك أن يتقى المرء بموالاة عدوه شيئاً من ضرره وأذاه، وهـذا فى الحقيقة ليس موالاة وإنمـاهو نزول موقت على مقتضى القوة، يجب أن يقدر بقدره. وقد جاء ذلك فى قوله تعالى «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير».

قال المفسرون: الاستثناء فى هذه الآية معناه أن ترك موالاة الكافرين على المؤمنين حتم فى كل حال إلا فى حال الخوف من شىء يتقونه فلهم حينئذ أن يوالوهم بقدر ما يتقى به ذلك الشىء لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذه الموالاة تكون صورية لأنها للمؤمنين لا عليهم.

والظاهر أن الاستثناء منقطع أى ليس لكم أن توالوهم على المؤمنين، ولكن لكم أن تتقوا ضررهم بإجابتهم إلى ما يطلبون مما يشبه الولاية والنصرة مع أخذ الحذر من الله، واتقاء أن يعلم فيكم سوءاً أو نية باطلة، والله عليم بذات الصدور؟

محمد محمد المدنى

الأهلية في الشريعة الإسلامية والقانون المدنى

لصاحب الفضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف بك
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

البحث فى أهلية الإنسان لإلزامه والتزامه بالحقوق والواجبات ، ولاعتبار ما يصدر عنه من العقود والتصرفات ، ومطالبته بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، من أول البحوث التشريعية الأساسية فى الشريعة الإسلامية ، والشرائع الوضعية ؛ لأن مدار التكليف بالأحكام شرعية كانت أو وضعية أهلية الإنسان لما يكلف به ولاعتبار ما يصدر عنه ، ولهذا أفاض علماء أصول الفقه الإسلامى فى بحوث هذه الأهلية وبيان المراد منها ، وأساس ثبوتها للإنسان ، وأنواعها ، ومتى تثبت للإنسان ، ومتى تنتهى ، وتأثير العوارض التى تعرض للإنسان فى أهليته وغير هذا من البحوث التى أوفوها حقها أتم إيفاء ومنارهم فى كل بحوثهم أن الإنسان مدنى بفطرته لابد له من تبادل الحقوق والواجبات مع بنى نوعه . وأن مناط اعتبار أقوال الإنسان وأفعاله تمييزه بعقله . وأنه لا تكلف نفس إلا وسعها . وقبل أن نبدأ فيما قصدنا إليه وهو الموازنة بين الشريعة الإسلامية والقانون المدنى المصرى فى بعض بحوث الأهلية نمهد ببيان معنى الأهلية فى اللغة العربية وفى اصطلاح الشرعيين .

الأهلية : لفظ من المصادر الصناعية كالإنسانية والجنسية والوطنية ، ومعناه فى اللغة العربية الصلاحية يقال: هو رجل أهل لأن يكرم أى صالح للتكريم. واستأهل للخير أى صار أهلا له. والمؤهلات : المميزات التى تجعله أهلا . فأهلية الإنسان للشىء معناها فى اللغة العربية صلاحيته له .

وأما الأهلية فى اصطلاح الشرعيين فالمراد منها صلاحية الإنسان لأن تجب له حقوق على غيره ولأن تجب لغيره حقوق عليه . وصلاحيته لأن تعتبر شرعا أقواله وأفعاله ، فتترتب الآثار والأحكام على ما يصدر منه من قول أو فعل .

ومن هذا يتبين أن الأهلية فى اصطلاح الشرعيين نوعان أحدهما أهلية لتبادل الإلزام والالتزام بالحقوق والواجبات أى أهلية الإنسان لأن تفرض له حقوق وتفرض عليه واجبات . وهذه تسمى أهلية الوجوب أو أهلية التمتع . وثانيهما أهلية لمباشرة العقود والتصرفات والقيام بالتكليفات وأداء الواجبات بحيث يكون ما يباشره الإنسان معتبراً شرعاً وتترتب عليه آثاره فإن كان عقداً أو تصرفاً ألزم بما يقتضيه . وإن كان واجبا أسقط عنه . وإن كان جناية أوخذ بها . وهذه تسمى أهلية الأداء أو أهلية المباشرة . ووجه التسمية ظاهر لأن النوع الأول هو مجرد صلاحية الإنسان لأن يجب له ولأن يجب عليه من غير نظر إلى أدائه لواجبات أو اقتضائها . وأما النوع الثانى فهو صلاحيته للتنفيذ ومباشرة الأعمال بأداء

ماعليه ، واقتضاء ماله ، وعقدالعقود ، والتصرف بالتصرفات واعتبار كل هذا منه . ونحن نوازن بين الشريعة والقانون المدنى فى كل من النوعين :

١ – أهلية الوجوب

أهم البحوث فى أهلية الوجوب هى ما المراد منها ، وما أساسها فى الإنسان ، ومتى يبتدىء ثبوتها للإنسان وبم تنتهى ؟ وما أطوار الإنسان بالنسبة اليها ؟

١ – ما المراد منها – تبين من التمهيد الذى قدمناه أن المرادبأهلية الوجوب صلاحية الإنسان لأن تجب له حقوق على غيره ولأن تجب لغيره حقوق عليه . أو صلاحيته لتبادل الالتزام والإلزام مع بنى نوعه .

وهذا المعنى لم يختلف فيه الشرعيون والقانونيون ؛ ولكن القانون المدنى استعمل كلمة شخصية الإنسان بدلا من كلمة « أهليته للوجوب » فقد جاء فى المادة ٢٩ ما نصه « تبدأ شخصية الإنسان بتمام ولادته حيا وتنتهى بموته » وليس بين الكلمتين تباين فى الجوهر لأن أهلية الوجوب للإنسان تترتب على شخصيته فبمجرد مايصير الإنسان فى الوجود شخصاً له استقلاله بشخصيته صار محتاجا إلى تبادل الحقوق والواجبات فثبتت له أهلية الوجوب. ورأيى أن التعبير الشرعى أنسب بالتقنين ولو قيل تبدأ أهليةالوجوب للإنسان بتمام ولادته لكان أولى .

٢ – ما أساسها فى الإنسان ؟ الإنسان مدنى بفطرته ولابد له فى حياته من التعاون مع بنى نوعه . وهـذا التعاون الضرورى لنظام المجتمع الإنسانى يستلزم أن يكون كل فرد من أفراده أهلا لأن يلتزم بحقوق لغيره ، ولأن يلتزم غيره بحقوق له حتى يتوافر تبادل المصالح والحاجات ، فكل إنسان حى ، سواء أكان طفلا أم مميزاً أم بالغاً ؛ وسواء أكان عاقلا أم مجنوناً أم معتوهاً ؛ وسواء أكان رشيداً أم سفيهاً له أهلية للوجوب له وعليه .

وقد قرر علماء الشريعة الإسلامية أن أساس ثبوت هـذه الأهلية للإنسان ذمته . وعرفوا الذمة بأنها وصف شرعى اعتبارى مفروض وجوده فى الإنسان ، وبه يصير الإنسان أهلا للوجوب له وعليه . ومنشأ اعتبار هذا الوصف الشرعى فى الإنسان هو الفطرة التى فطره الله عليها ، إذ كوّنه من مجموعة من حواس ظاهره ، وقوى عاقلة ، ونفس باطنة ، أى أن المجموعة الإنسانية المكونة من قوى ظاهرة وباطنة جعلت للإنسان استعداداً خاصاً به ليس لغيره من الحيوانات . وبهذا الاستعداد استأهل للوجوب له وعليه . فالذمة هى الاستعداد الفطرى للإنسان ، أو هى الخاصة التى ميز الله بها الإنسان عن سائر الحيوان ، أو هى إنسانية الإنسان . فليست الذمة الإنسانية وصفا حسيا يدرك بإحدى الحواس . وليست الذمة الإنسانية هى العقل ، لأن المجنون الفاقد العقل له ذمة ، وإنما هى خاصة الإنسان التى ثبتت له من تكوينه الخلق ، وامتاز بها عن غيره من المخلوقات وبها استأهل للوجوب له وعليه . فذمة الإنسان ، والاستعداد الفطرى

للإنسان ، والخاصة الإنسانية فى الإنسان ألفاظ مترادفة . وفى تفسير قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » ، ذهب بعض المفسرين إلى أن الأمانة هى الذمة أو الفطرة التى استأهل بها الإنسان للوجوب له وعليه .

فالله سبحانه صور لعباده الفرق بين الفطرة التى فطر عليها الإنسان والفطرة التى فطرت عليها السموات والأرض والجبال . فالفطرة التى فطرعليها الإنسان أعدته للالتزامات وتبادل الواجبات لحمل الواجبات والتكليفات . والفطرة التى فطرت عليها السموات والأرض والجبال لم تعدها هذا الاستعداد فلم تحمل الواجبات ولا التكليفات . وبعض علماء القانون ذهبوا إلى أن أساس أهلية الوجوب فى الإنسان هو القانون وذلك لأن القانون أثبت لكل إنسان حى الحق فى أن يطالب هو أو من يلى أمره بحقوق له وفى أن يطالب هو أو من يلى أمره بحقوق عليه ؛ فتمليك الشرع أو القانون للإنسان أن يطالب أو يطالب هو أساس أهليته للوجوب ، لأنه لا يطالب إلا بما وجب له ولا يطالب إلا بما وجب عليه فالقانون الذى أثبت للإنسان أن يطالب ويطالب هو الذى أثبت له أهليته للوجوب له وعليه . وهذا خلاف غير جوهرى . ولفظ الذمة شائع استعماله فى الشرع وفى القانون كما فى قولهم : الأصل براءة الذمة - وفى قولهم براءة ذمة الواقف ليست شرطاً لصحة وقفه . وفى قولهم : الكفالة ضم ذمة إلى ذمة فى المطالبة . فلا بد أن يكون لهذا اللفظ معنى مراد منه وهو ما بيناه وهو معنى مقدر فى الإنسان أو معتبر وجوده فيه .

٣ — متى يبتدىء ثبوتها للإنسان وبم تنتهى ؟
تثبت أهلية الوجوب للانسان من حين أن يكون حملا مستكناً فى بطن أمه . وتستمر له من حين ولادته إلى أن يموت ويوفى ما عليه ويستوفى ما له وتنفذ وصاياه وتورث تركته .

فالحمل المستكن تثبت له أهلية وجوب عند فقهاء الشريعة الإسلامية . وذلك لأنهم نظروا فى الحمل المستكن فوجدوا أن الشارع أثبت له أحكاماً تدل على أنه اعتبر له شخصية واعتبره أهلا للوجوب . وأثبت له أحكاما تدل على أنه لم يعتبر له شخصية واعتبره جزءاً من أمه .

فالشارع حكم بأن الحمل يرث مورثه ولهذا يحفظ له نصيبه حتى يولد حياً فيستحقه . وحكم بأن الحمل يستحق ماأوصى له به . وحكم بأن الحمل يستحق فى ريع الوقف . وبأن الحمل يقام عليه وصى .

فهذه الأحكام تدل على أن الشارع اعتبر للحمل شخصية وأثبت له أهلية للوجوب له .

ومن وجهة ثانية الشارع حكم بأنه إذا بيعت الجارية الحامل دخل حملها فى البيع تبعاً لها . وإذا أعتقت الجارية الحامل عتق حملها تبعاً لها . فهذه الأحكام تدل على أن الشارع لم يعتبر للحمل شخصية واعتبره جزءاً من أمه فتوفيقاً بين هذه الأحكام قرر فقهاء الشريعة الإسلامية أن للحمل

أهلية وجوب . ولكنها أهلية وجوب ناقصة أى أنه أهل لأن تجب له حقوق وليس أهلا لأن تجب عليه حقوق لأن الأحكام التى أثبتها الشارع له تدل على أهليته لأن يجب له ولم يثبت له الشارع حكما يدل على أهليته للوجوب عليه . ولهذا قالوا إن الحمل المستكن فى بطن أمه له أهلية وجوب ناقصة أى أهلية لأن يجب له لا لأن يجب عليه .

فإذا ولد الحمل حيا ثبتت له من حين ولادته أهلية وجوب كاملة ، أى أهلية لأن يجب له وعليه وأى حال كان فى صغره وكبره وجنونه وعقله وسفهه ورشده لأنه فى كل حال إنسان . وإنسانية الإنسان هى أساس أهليته للوجوب . فإذا مات وله تركة وعليه حقوق لغيره وله حقوق على غيره تعتبر أهليته للوجوب ثابتة حتى تسوى أموره وتصفى تركته . فإذا تم هذا انتهت ذمته وانتهت أهليته للوجوب .

أما القانون المدنى فقد خالف فى مبدأ ثبوت أهلية الوجوب للإنسان ، وفيما تنتهى به . فقد جاء فى المادة ٢٩ ما نصه :

١ - تبدأ شخصية الإنسان بتمام ولادته حيا ، وتنتهى بموته .

٢ - ومع ذلك فحقوق الحمل المستكن يعينها القانون .

ويؤخذ من هذه المادة أن مبدأ ثبوت شخصية الإنسان بتمام ولادته حيا . وأما وهو حمل مستكن فليست له شخصية الإنسان والمراد أنه ليست له شخصية الإنسان المستقلة من كل وجوهها ؛ فشخصية الإنسان المستقلة من كل وجوهها هى أهليته الكاملة للوجوب له وعليه . ومع أن القانون لم يثبت للحمل المستكن شخصية فإنه راعى أن لا يهدر الحقوق التى أثبتها الشارع له ولهذا قال فى الفقرة الثانية من المادة : ومع ذلك فحقوق الحمل المستكن يعينها القانون . أى ومع أنه قبل ولادة الإنسان حيا لا تثبت له شخصية فإن هذا لا يستلزم تضييع حقوق الحمل المستكن بل يعين القانون هذه الحقوق . وإذاً فالشريعة والقانون متفقان فى أن الحمل المستكن له حقوق وإنما الاختلاف فى أساس ثبوت هذه الحقوق له . فأساسها فى الشريعة أن له ذمة وأهلية وجوب ناقصة أو شخصية غير مستقلة . وأساسها فى القانون هو تعيين القانون هذه الحقوق له .

ويؤخذ من هذه المادة أيضاً أن شخصية الإنسان تنتهى بموته أى أنه بعد موته ليس أهلا لأن تجب له حقوق ولا لأن تجب عليه حقوق ؛ لأن ذمته بطلت وانتهت بموته . وهذا رأى الحنابلة وبعض فقهاء المسلمين . وأما فقهاء الحنفية فقد ذهبوا إلى أن ذمة الإنسان لا تبطل بموته إلا بعد أن تسوى أموره وتصفى تركته فيسدد ما عليه ويستوفى ما له وتخلص تركته لورثته .

وأما ما دامت له بعد موته حقوق على غيره ولغيره حقوق عليه ووصايا ولم تنفذ فتعتبر ذمته باقية ويعتبر أهلا للوجوب له وعليه ، وهذا مجرد اعتبار وفرض دعا الحنفية إليه أن الإنسان بعد موته قد يطالب بما لم يكن مطالباً به حال حياته ، وبعد موته قد يدخل فى ملكه ما لم يكن فى ملكه حال حياته ، ومثلوا للأولى بما إذا

حفر الإنسان فى حياته حفرة فى الطريق العام وبعد وفاته تردى فيها حيوان فمات فإن الضمان يلزم المتوفى ويؤخذ من تركته . ومثلوا للثانية بما إذا نشر الإنسان فى حياته شبكة للصيد ، فاصطادت بعد وفاته فإن الصيد يملكه المتوفى ويكون من تركته .

والظاهر ما ذهب إليه الحنابلة وبعض الفقهاء وسار عليه القانون من أن شخصية الإنسان تنتهى بموته وأنه بعد موته ليست له أهلية وجوب لا كاملة ولا ناقصة ولا هو أهل لأن يجب عليه ضمان أو أى حق ولا هو أهل لأن يتملك . وما له من الحقوق فهى من تركته ويستحقها ورثته وهم يطالبون بها لأنها آلت إليهم ، وما عليه من الحقوق فقد تعلقت بتركته بعد أن كانت متعلقة بذمته . والورثة يطالبون بها لأنها حقوق على ما فى أيديهم من تركته . وفى مسألة الحفرة التى حفرها ضمانه مستندا إلى السبب وهو مباشرته الحفر فى حياته . وفى مسألة الشبكة الصيد للورثة لأن الشبكة صارت ملكا لهم ونماء الملك لمالكه .

٤ - ما أطوار الإنسان بالنسبة إليها ؟ فى رأى علماء الشريعة للإنسان بالنسبة إلى أهلية الوجوب طوران اثنان :

الأول وهو حمل مستكن ، وفى هذا الطور تثبت له أهلية وجوب ناقصه أى أهليته لأن يجب له حقوق لا لأن تجب عليه حقوق .

الثانى من حين ولادته حياً إلى أن يموت وفى هذا الطور تثبت له شخصية تامة أو أهلية وجوب كاملة فيكون فى هذا الطور أهلا لأن تجب له حقوق وتجب عليه حقوق . وما دام حياً فله هذه الأهلية الكاملة لا فرق بين طفل وحمل ولا بين بالغ ومجنون ومعتوه وعاقل ولا بين ذكر وانثى ولا بين سفيه ورشيد ؛ لأن مناط هذه الأهلية وأساسها إنسانية الإنسان وهى لا تفارقه إلا بالموت فلا يعرض لأهليته للوجوب عارض يزيلها أو ينقصها أو يؤثر فيها .

أما فى القانون المدنى فالإنسان له بالنسبة إلى أهلية الوجوب طور واحد ، وهو ثبوتها له كاملة من حين ولادته حياً إلى أن يموت .

عبد الوهاب خلاف

بين متصدق وسائل

مر أديب كبير بشيخ يتكفف الناس على قارعة الطريق . فوقف يعطيه شيئاً . ثم أخذ يبحث فى جيوبه عن حافظة نقوده فلم يجدها ، لقد نسيها فى البدلة التى غيرها ! وكان السائل المسكين لا يزال باسطاً يده إليه ليتلقى ما يجود به . فما كان من الأديب إلا أن وضع يده فى يد السائل وصافحه بشدة .

فتهلل وجه السائل وقال له :

أشكرك ! هذه أيضاً صدقة .

في الفقه المقارن

الشُّفْعَة بَيْن الفِقْه والقانُون المَدَني

للدكتور محمد يوسف موسى

استاذ للشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

عرفنا من القسم الأول من هذا البحث ماذا يكون المشفوع فيه ، وانتهينا منه إلى أن الشفعة تكون فى كل مبيع وإن كان منقولا بين شريكين ، وهذا هو رأى فقهاء أهل مكة والظاهرية جميعاً ، خلافاً لجمهور الفقهاء ورجال القانون الذين لا يرون الشفعة إلا فى العقار . واليوم نكمل البحث فى هذا الموضوع :

٦ — والآن ، من هو الشفيع ؟ أهو الشريك فى المبيع وحده ، أم الجار أيضاً ؟ هذه المسألة أثارت خلافاً كبيراً بين الفقهاء من ناحية ، وبينهم وبين واضع القانون المدنى من ناحية أخرى:

(ا) فعند الأحناف يثبت هذا الحق للشريك ثم للجار إن لم يكن للبائع شريك فى المبيع ، وفى هذا يقول الطحاوى : « وأولى الشفعاء بالمبيع الشريك الذى لم يقاسم ، ثم يتلوه الشريك الذى قاسم وبقيت له شركة فى الطريق ، ثم يتلوه الجار الملاصق [1]. وهذا المذهب نجده فى كل مؤلفات الأحناف المتقدمين والمتأخرين ، لأن علة إثبات حق الشفعة للشريك توجب ثبوته للجار أيضاً [2].

(ب) أما الجمهور الأعظم من الفقهاء ، أى الشافعية والمالكية والحنابلة ، فلا يرون الشفعة إلا للشريك فى نفس العقار المبيع ، فلا شفعة عندهم للجار أو للشريك فى حق من حقوق الارتفاق الخاصة بالمبيع لا فى المبيع نفسه . ذلك بأن الشفعة ثبتت على خلاف الأصل كما يقولون ، فلا يصح التوسع فيها، بل يجب الوقوف على ما ورد به النص ، وفى هذا يروون أحاديث كثيرة منها : قضى رسول الله بالشفعة فيما لم يقسم . فإذا وقعت الحدود وصرّفت الطرق فلا شفعة،

ونذكر لإثبات هذا الرأى من علماء الشافعية الغزالى إذ يقول فى كتابه الوجيز (ج ١ : ٢١٥) « فلا شفعة للجار عندنا » . والرملى يصرح بذلك فى كتابه نهاية المحتاج (ج ٤ : ١٤٥) ، ويوجب تأويل الأحاديث التى جاءت فى إثباتها للجار بحملها على الشريك لأن ملك كل شريك مجاور لملك صاحبه [1] .

(ج) وبعد أن ذكرنا لإمام ابن القيم رأى الذين أثبتوا الشفعة للشريك وحده ، ثم رأى الذين أثبتوها للجار أيضاً ، انتهى إلى رأى وسط وهو إثباتها للجار إن كان مع جواره شريكا أيضاً

(١) مختصر الطحاوى ، الطبعة السابقة ، ص ١٢٠

(٢) انظر مثلا بدائع الصنائع ح ٥ : ٤ - ٥ ؛ الهداية للمرغيانى ، ح ٤ : ١٨ - ١٩

(١) وراجع عند المالكية الشرح الصغير للدردير ح ٢ : ٢٤٩ - ٢٥٠ : الخرشى على خليل ، ح ٦ : ١٦١ - ١٦٣ . وانظر عند الحنابلة ، المغنى لابن قدامة ، ح ٥ : ٢٨٥ ؛ إعلام الموقعين لابن القيم ، ح ٢ : ٢٥٣ وما بعدها .

فى حق من حقوق الارتفاق الخاصة كالطريق أو الشرب ، وإلا فلا شفعة للجار إن لم يكن بين ملكه وبين العقار المبيع حق مشترك ألبتة وهذا الرأى هو كما يذكر ابن القيم ، رأى البصريين وغيرهم من فقهاء الحديث ، وقول عمر بن عبد العزيز والقاضيين : سوار بن عبيدالله وعبيد الله بن الحسن العنبرى ، وهو أعدل الأقوال ومختار ابن تيمية [١] .

٧ — هذا من ناحيــة الفقه الإسلامى ، أما التشريع المدنى الجديد ، فإن المادة ٩٣٦ منه جعلت للجار أن يأخذ بالشفعة فى حالات خاصة . ومن هذه الحالات أن تكون أرضه ملاصقة للأرض المبيعة من جهتين ، وتساوى من القيمة نصف الأرض المبيعة على الأقل . ومنها أن يكون هناك حق ارتفاق مشترك بين الأرض المبيعة وبين أرض الجار .

ومن هذا يتبين أن واضع القانون لم يذهب مع الفقهاء الذين أباحوا للجار مطلقاً الأخذ بالشفعة بعد الشريك ، ولا مع الآخرين الذين منعوه مطلقاً من أن يكون شفيعاً ، بل جاء بحكم وسط يشبه ما اختاره ابن تيمية وابن القيم ، وذلك على الرغم من رغبة المشرع المدنى فى التضييق من حق الشفعة باعتبارها سبباً من أسباب كسب الملكية . وهذه الرغبة واضحة مما سبق نقله من مجموعة الأعمال التحضيرية للقانون بخصوص المادة ٩٣٥ ومن مناقشات لجنة واضعى مشروع هذا القانون واللجان الأخرى بمجلسى النواب والشيوخ ، ومحاضر جلسات هذين المجلسين [١] .

ونعتقد أن الخير فى اتفاق القانون وبعض مذاهب الفقه الإسلامى فى منح الجار هذا الحق ، إذا لم يوجد شريك فى نفس المبيع يطلب الشفعة . أن ذلك يمنع كثيراً من الشر فى القرى ، حيث يحرص كل جار من المزارعين على توسيع رقعة ما يملك ، ويرى فى شراء أجنبى عنه ما كان يستطيع شراءه عدواناً عليه يقابله بعدوان آخر !

٨ — ولا خلاف بين القانون وبين مذهب الأحناف الذى أباح الشفعة للجار ، فى أنه إذا تعدد الشفعاء ولم يكونوا من مرتبة واحدة ، يقدم أولا الشريك فى نفس المبيع ، ثم يجىء بعده الشريك فى حق من حقوق الارتفاق الخاصة ، وأخيراً - إن لم يوجد أحد من الضرب الأول أو الثانى - يكون حق الشفعة للجار [٢] .

أما إذا تزاحم الشفعاء من مرتبة واحدة ، كأن كانوا جميعاً شركاء أو جيرانا ، فإن العقار المطلوب أخذه بالشفعة يقسم - متى حُكم بها - على الطالبين لها بنسبة ما يملكه كل منهم عند الشافعية والمالكية ، وبالتساوى على عدد الرءوس عند الأحناف لاستوائهم جميعا فى سبب استحقاقها وهو الشركة أو الجوار ، على أن فى مذهب

(١) إعلام الموقعين ، حـ ٢ : ٢٦٠ - ٢٦١

(١) مجموعة الأعمال التحضيرية ، حـ ٦ : ٣٥٨ وما بعدها .

(٢) تراجع المادة ٩٣٦ من القانون الجديد ، وبدائع الصنائع حـ ٥ : ٨

الشافعية قولا بالتقسيم بالتساوى على عدد الرءوس كما هو الأمر عند الأحناف (١) .

٩ — ومن شروط الشفعة التى يجب التعرض لها هنا ، مهما كنا مضطرين للإيجاز ، أن يخرج المبيع المشفوع فيه عن ملك البائع خروجاً باتاً نظير عوض مالى ؛ وأن يكون الشفيع مالكا لما يشفع به وقت العقد ، ثم يستمر هذا الملك حتى يحكم له بالشفعة . وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل ؛ كما أن فى بعضه خلافا بين رجال الفقه الإسلامى من ناحية ، وبينهم وبين القانون المدنى من ناحية أخرى :

(ا) يجب لثبوت الشفعة أن يخرج المشفوع فيه عن ملك صاحبه على وجه بات وفى مقابل عوض مالى . ومن ثم ، لا تثبت الشفعة فى المبيع بشرط خيار البائع لأنه يمنع زوال ملكه للمبيع ، وتثبت إذا كان الخيار للمشترى لأن خيار المشترى لا يمنع من خروج المبيع عن ملك البائع ، وكذلك لا شفعة فى المبيع بيعا فاسدا حتى ولو قبض المشترى المبيع ، لأن للبائع نقض البيع - بل ذلك واجب متى كان ممكنا - رفعا للفساد ، وفى ثبوت الشفعة للشريك أو الجار حينئذ تقرير للفساد الواجب رفعه (٢) .

(١) نهاية المحتاج ﺟ ٤ : ١٥٥ ؛ الوجيز للغزالى ، ﺟ ٢ : ٢٢٩ ؛ الشرح الصغير للدردير ، ﺟ ٢ : ٢٠٦ ، بدائع الصنائع ، ﺟ ٥ : ٥ - ٦ . ويتفق التشريع المدنى (الفقرة ٢ من المادة ٩٢٧) مع مذهب الشافعية والمالكية فى أن قسمة المشفوع فيه تكون بنسبة ملك كل من الطالبين . وانظر فى هذا أيضاً « شرح القانون المدنى فى الأموال » للدكتور شفيق شحاته ، القسم الأول ص ٢٦٦ » .

(٢) بدائع الصنائع ، ﺟ ٥ : ١٣

ولو زال ملك المالك عن العقار المشفوع فيه ، لا فى نظير عوض مالى ، لا تثبت الشفعة فيه للشريك أو الجار ؛ فإن الشفعة هى تملك الشفيع العقار جبرا عن المشترى بما قام عليه ، وهنا قد تملكه الطرف الآخر مجانا . فلا شفعة إذا فى عقار خرج عن ملك صاحبه بهبة أو وصية أو ميراث ، أى بعقد غير معاوضة وهو البيع وما فى معناه ؛ ولهذا تثبت الشفعة فى العقار الموهوب بشرط العوض إذا حصل التقابض من الطرفين ، لوجود معنى المعاوضة ، ولأن الهبة بشرط العوض تعتبر تبرعا ابتداء ومعاوضة انتهاء (١) .

وإذا خرجت العين عن ملك صاحبها بعوض ولكنه غير مال ، لا تثبت الشفعة عند الأحناف ، ولكن تثبت عند الشافعية . ومن مُثُل هذه الحالة أن يتزوج رجل امرأة على دار له يجعلها مهراً لها ، أو يستأجر مزرعة ويجعل الأجرة دارا أو أرضاً أخرى له . فنى هذه الحالات وأمثالها تثبت الشفعة عند الشافعية ، وعلى الشفيع حينئذ أن يدفع للزوجة مهر مثلها ولصاحب المزرعة أجرة مثلها أيضاً (٢) . وهنا نرى ابن حزم يروى مذهب الأحناف ومذهب الشافعية ، ثم يميل مع الأحناف فيقول : « ولا شفعة إلا فى البيع وحده ، ولا شفعة فى صداق ولا فى إجارة ولا فى هبة ولا غير ذلك ، وهو قول جماعة من السلف » (٣) .

(١) مختصر الطحاوى ص ٢٢٢ ؛ نهاية المحتاج ﺟ ٤ : ٢٥٠ - ٢٥٢ ؛ الوجيز ، ﺟ ٢ : ٢٢٢ - ٢٢٢

(٢) نفسه ، ﺟ ٤ : ١٠ - ١٢

(٣) المحلى ، ﺟ ٩ : ٨٨

١٠ — وحين تذكر المادة ٩٣٥ من القانون المدنى الجديد أن : « الشفعة رخصة تجيز فى بيع العقار الحلول محل المشترى ، الخ يتضح لنا أن واضع هذا القانون يشترط فى المشفوع منه أن يكون قد تملك العين محل الشفعة بمقتضى عقد بيع . وإذا ، فلا شفعة إذا كان قد تملكها بالهبة أو الوصية أو نحو هذا وذاك من الطرق الأخرى التى ليست فى معنى المعاوضة .

على أن من تولوا شرح هذا القانون يرون بحق أن الهبة بشرط العوض ليست فى الحقيقة إلا معاوضة ، وعلى هذا تكون فيها الشفعة ، كما يرى فقهاء الإسلام . وحينئذ يكون على الشفيع متى حكم له بالشفعة أن يدفع للموهوب له القيمة الحقيقية للشىء الموهوب ، لا قيمة العوض الذى دفعه للواهب ، ليكون قد تملك المشفوع فيه بقيمته الصحيحة[١] . وهنا ، يجب علينا أن نلاحظ بحق أن هذه النظرة أدق من نظرة الشافعى حين رأى أن يدفع الشفيع ، فى حالة جعل الدار مهراً فى الزواج ، مهر المثل لا قيمة الدار نفسها .

(ب) ومن الطبيعى أن يشترط لثبوت الشفعة الشرط الثانى الذى أشرنا إليه فيما سبق ، أى أن يستمر ملك الشفيع عما يشفع به إلى أن يحكم له بالشفعة . وعلى هذا ، لو بيع عقار فطلبه جاره أو الشريك فيه بالشفعة ، ثم قبل الحكم بها للشفيع باع العقار الذى يشفع به ، فلا شفعة له حينئذ ؛ لأنها شرعت لدفع ضرر الشريك أو الجار الجديد ، وبعد بيع الشفيع ما يشفع به لم يبق شريكا ولا جاراً ، فلم يخشى أو يخاف من المشترى !

وقد فرع الفقهاء على هذا الشرط أيضاً أن ذلك الذى اشترى من الشفيع ما كان يشفع به ، وكان هذا الشراء بعد بيع البائع للعقار محل الشفعة ، ليس له حق الشفعة لأنه لم يكن مالكا لما يشفع به وقت العقد الأول الذى خرج به المشفوع فيه عن ملك صاحبه . وفى هذا يقول علاء الدين الكاسانى المتوفى عام ٥٨٧ هـ : « ومنها [أى شروط وجوب الشفعة] ، ملك الشفيع وقت الشراء فى الدار التى يأخذها بالشفعة ؛ لأن سبب الاستحقاق جوار الملك ، والسبب إنما ينعقد سببا عند وجود الشرط ، والانعقاد أمر زائد على الوجود ، فإذا لم يوجد عند البيع كيف ينعقد سبباً ! فلا شفعة له بدار يسكنها بالإجارة أو الإعارة ، ولا بدار باعها قبل الشراء[١] ، ولا بدار جعلها مسجدا ... الخ[٢] » .

١١ — وهذا الشرط ، أى استمرار ملك الشفيع لما يشفع به من وقت العقد إلى حين الحكم له بالشفعة ، ليس بشىء عند الظاهرية . هذا ابن حزم يقول[٣] : « ولو أن الشريك ، بعد بيع شريكه قبل أن يؤذنه ، باع أيضاً حصته من ذلك الشريك البائع أو من المشترى منه أو من أجنبى ، علم بأن له الشفعة أو لم يعلم ، علم بالبيع أو لم يعلم ، فالشفعة له كما كانت ، لأنه حق قد أوجبه الله تعالى له فلا يسقطه عنه بيع ما له ولا غير ذلك أصلا » .

ونحن لا نرى معنى لبقاء حق الشفعة لمن باع

---

(١) الدكتور شفيق شحاته ، المؤلف السابق ذكره ، ص ٢٧٢

(١) ونقول : أو بدار اشتراها بعد شراء المشترى للعقار محل الشفعة (٢) بدائع الصنائع ، حـ ٥ : ١٤

(٣) المحلى لابن حزم ، حـ ٩ : ٩٥

ما يشفع به كما يقول ابن حزم ، لأنه لن يتأتى أن يضار بالمشترى بعد أن باع نصيبه فى الشيء المشفوع فيه . ولكن ، قد يكون من الحق أن نثبت الشفعة لمن اشترى عقاراً مجاوراً لعقار آخر بيع ، وكان شراؤه من الشريك أو الجار الذى كان له حق الشفعة ولكنه لم يطلبها ، ثم لم تكن قد مضت فترة تسقط حق طلب الشفعة لصاحبها . إن فى القول بهذا فائدة لهذا المشترى الثانى للعقار المشفوع به ، وهى دفع ما قد يصيبه من أذى من ناحية مشترى العقار المشفوع فيه ، على أن الفقهاء الإسلاميين لم يذهبوا إلى هذا القول ، لأن الشفعة ثبتت على خلاف الأصل فى رأى الأكثرين منهم ، ولهذا لا يصح التوسع فيها . ولكل رأى حظه من النظر ، ولكل وجهة هو موليها ، والله أعلم بالصواب [١] .

١٢ — وبعد الحكم بالشفعة للشفيع الذى طالب بها ، عليه أن يدفع للمشترى ما دفعه من ثمن وما أنفقه من مصروفات أخرى ، كأجر الوسيط فى الشراء ورسوم التسجيل .

وهنا قد تنشأ مشكلة يجب حلها وبيان حكم الله فيها كما نعرفه عن الفقهاء المسلمين . ذلك ، بان البيع قد يكون تم على تأجيل الثمن إلى أجل معين يدفعه فيه المشترى للبائع ؛ فهل ينتفع الشفيع إذا حكم له بالشفعة بهذا الأجل ، أو يجب عليه دفعه فوراً للمشترى ؟

يرى الأحناف أن القضاء بالشفعة ليس تحويل الصفقة من المشترى للشفيع ، بل نقض البيع الذى كان بين المالك والمشترى ثم انعقاد بيع آخر للشفيع . [١] وعلى هذا يكون للشفيع أحد أمرين : إما أن يأخذ المبيع المشفوع فيه ويدفع الثمن حالا . وإما أن ينتظر حتى يحل الأجل فيدفع الثمن ويأخذ المبيع حينئذ ، أى ليس له الانتفاع بالأجل الذى كان قد منحه البائع للمشترى . وإن اختار الانتظار فى دفع الثمن وتسلم المبيع حتى يحل الأجل ، لم يكن ذلك ليعفيه من طلب الشفعة ، طلب المواثبة وطلب التقرير المعروفين وإلا سقط حقه فيها إن أخر ذلك وهو متمكن منه ؛ لأن شرط ثبوت حق الشفعة هو وجود العقد الذى به خرج المشفوع فيه عن ملك صاحبه البائع ، وقد وجد فعلا . وفى هذا يقول علاء الدين الكاسانى : « ولو اشترى داراً بثمن مؤجل ، فالشفيع بالخيار : إن شاء أخذها بثمن حال ، وإن شاء انتظر مُضىّ الأجل فأخذ عند ذلك . وليس له أن يأخذها للحال بثمن مؤجل ؛ لأن الشفيع إنما يأخذ بما وجب بالبيع ، والأجل لم يجب بالبيع ، وإنما وجب بالشرط ؛ والشرط لم يوجد فى حق الشفيع . ولهذا لم يثبت خيار المشترى للشفيع بأن اشترى على أنه بالخيار لأن ثبوته بالشرط ولم يوجد من الشفيع . وكذا البراءة من العيب لا تثبت فى حق الشفيع ، لأن ثبوتها بالشرط ولم يوجد من الشفيع » [٢]

(١) نذكر هنا أن القانون المدنى مع الفقهاء المسلمين ، ماعدا الظاهرية ، فى اشتراط استمرار ملك الشفيع لما يشفع به حتى يحكم له بالشفعة ، راجع الدكتور شفيق شحاته ، المؤلف السابق ذكره ، ص ٢٦٨

(١) ذلك هو المشهور من قولهم ، وفى رأى البعض أن القضاء بها تحويل للصفقة من المشترى للشفيع .

(٢) البدائع ، حـ ٢ : ٢٧ . وإذا نص الشفيع بتعجيل الثمن ، كان للمشترى أخذه وعدم دفعه للبائع إلا فى أجله . يراجع البدائع ، حـ ٢ : ٢٧ ، المبسوط ، حـ ٢٤ : ٢٣ .

وعدم انتفاع الشفيع بالأجل الممنوح للمشترى على ما رأينا عند الأحناف ، هو كذلك عند الشافعية . ولكن عند المالكية ، للشفيع الانتفاع بالأجل الممنوح للمشترى ، فله أن يأخذ المبيع المشفوع فيه ثم يدفع الثمن عند حلول أجله . وهذا إذا كان موسراً لا يخشى ضياع الثمن عنده ، أو كان معسراً ولكن ضمنه مليء ، أى موسر ؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، كان عليه أن يدفع الثمن فوراً ، وإلا فلا شفعة له ، إلا إن كان المشترى مثله فى الفقر والحاجة فله أخذ المشفوع فيه بأجله دون تقديم ضامن له بالثمن [١] .

١٣ — ونعتقد أن رأى المالكية هذا فيه خير للشفيع وللمشترى معاً ، وهو رأى ابن حنبل أيضاً . وهو أحوط للمشترى من رأى الإمام زفر المتوفى عام ١٥٨ الذى يقول بأن الشفيع يأخذ المشفوع فيه بما تم العقد عليه بين البائع والمشترى ، حتى إذا كان الثمن مؤجلا لم يلزمه إلا ذلك مع استيلائه على المبيع طبعاً .

وهنا ، نشير إلى أن الفقرة الأولى من المادة ٩٤٥ مدنى جديد تقول بأن الشفيع يحل محل المشترى فى جميع حقوقه والتزاماته قبل البائع . إلا أن الفقرة الثانية منها ، قد عنيت بالنص على أنه لا يحق للشفيع الانتفاع بالأجل الممنوح للمشترى فى دفع الثمن إلا برضاء البائع . ومعنى هذا أن للشفيع إذا رضى البائع تسلم المبيع فوراً مع دفع الثمن متى حان أجل دفعه .

ونؤكد مرة أخرى بعد مقارنة هذه الآراء كلها بعضها ببعض ، أن رأى المالكية هنا هو خير الآراء ، ففيه تيسير على الشفيع بالانتفاع بتأجيل الثمن إذا كان موسراً أو كفله مليء ، وبذلك لا يضيع حق البائع أو المشترى ، وإلا كان عليه تعجيل الثمن واستلام المشفوع فيه .

١٤ — وأخيراً ، نختم هذا البحث ببيان أن حق الشفعة يسقط بأسباب كثيرة ، ومنها أن يرضى الشفيع بالبيع الذى صدر من المالك للمشترى ، بشرط ألا يكون فى الأمر تدليس . فلو رضى بهذا البيع على أن الثمن هو ألف جنيه مثلا ، أو على أن المشترى هو فلان الرجل الفاضل ، ثم ظهر أن الثمن أقل من ذلك أو أن المشترى فلان السيء الجيرة ، كان له حق الشفعة أيضاً ؛ لأن ما رضى به ليس هو الذى كان فعلا ، وما رضى إلا لما زعموه من الثمن أو المشترى . ونحن جميعاً نعلم أنه قد يزهد فى الشراء إذا وجد الثمن مرتفعاً عما يجب ، أو رأى أن المشترى هو رجل لا يتضرر بجواره متى صار جاراً .

كما نذكر أن حق الشفعة لا يورث عند الأحناف [١] ، ويورث عند الآخرين إذا كان المورث قد طالب بها قبل موته لأن الوارث يخلفه فى كل ما كان له من حقوق . والقضاء وشراح قانون الشفعة يأخذ بعضهم برأى الأحناف ، لأن الشفعة حق شخصى فلا يورث ، وبعضهم يأخذ بالرأى الآخر لما قلناه من أن الوارث خليفة المورث فيقوم مقامه فيما له وما عليه [٢] .

محمد يوسف موسى

---

(١) نهاية المحتاج ، حـ ٤ : ١٥٠ ، الشرح الصغير للدردير ، حـ ٢ : ٢٥٢

(١) انظر الطحاوى حيث يقول فى مختصره : « والشفعة لا تورث » ، ص ٢٢٣

(٢) انظر مجموعة الأعمال التحضيرية للقانون المدنى الجديد ، حـ ٦ : ٣٥٦ ، الدكتور شفيق شحاته ، المؤلف السابق ، ص ٨٨

التقوى في القرآن

لصاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت

ذكر القرآن التقوى فى معرض اتباع الهداية الإلهية ، وأنها تجعل الإنسان فى أمن من الخوف والحزن ، وبذلك يطمئن إلى الحياة ، ويسكن قلبه ، فيفكر ويعمل ويؤمل « يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى معرض الانتفاع بالقرآن الكريم ، والحصول به على الهدى والفلاح « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . وفى معرض البر العام ، والصدق فى الإيمان « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . وفى معرض النصر والتأييد « بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » « وأن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » ، وفى معرض ولاية الله وأنها للمتقين من عباده خاصة ، وليس شىء منها لمن فسدت فطرهم وانحرفوا عن طريق الحق والصواب ، فأشركوا بالله ، وتجبروا على عباد الله ، وأسرفوا بنعم الله « وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون » « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » . وذكرها فى معرض تحصين النفس من نزغات الشيطان والهوى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . وفى معرض تفريج الأزمات وحل المشكلات « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » . وفى معرض الرحمة الخاصة « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويأتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » . ويذكرها فى معرض السلامة من الفتن التى يعم الأمة ضررها ، ويؤخذ فيها المجرم وغير المجرم ، يؤخذ فيها المجرم بإجرامه وغير المجرم بسكوته ، وهى فتن التفرق فى الحكم والسلطان ، والتفرق بالمذاهب والآراء ، والتفرق بإهمال واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ورد الأمة إلى وحدتها ، والاعتصام بما يجمعها من رباط مقدس « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » . ويذكرها فى معرض التيسير للخير « إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » ، وفى معرض التمتع ببركات السماء والأرض عن طريق الإلهام بوسائل استخراج الكنوز والإحاطة بالأسرار والانتفاع بها فى الحياة « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء

والأرض ، وفى معرض الثواب العظيم ، والنعيم المقيم « مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا » ، « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ؛ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًّا » « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » . ويذكرها بعد ذلك كله فى معرض المعيَّة الإلٰهية بالنصر والتأييد ، والعطف والرحمة « واعلموا أن الله مع المتقين » ، « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وهكذا ذكر القرآن التقوى فى معرض الطهر من كل نقص ، والصلاح من كل خلل ، والسلامة من كل شر . ذكرها فى معرض الأمن والسكينة ، والاطمئنان والاستقرار ، فى معرض الحصول على خيرى الدنيا والآخرة .

ومن هنا اشتدت عناية القرآن بالتقوى وأكثر من الأمر بها ، وتوجيه النفوس إليها ، وكانت له فى ذلك أساليب مختلفة ، ووجوه متعددة : أمر بتقوى الله هكذا بصفة الألوهية التى تقضى بالتوجه إليه وحده فى العبادة والتقديس ، وبصفة الربوبية التى توحى بنعمة الخلق والإيجاد ، والهيمنة والتنمية ، ونعمة التربية المادية والروحية ، وبصفة أنه مصدر الإمداد بما يتمتعون به من مال وبنين وخيل وحرث . وأمر بتقوى عذابه ، وبتقوى يوم الحساب والجزاء « واتقوا الله » ، « اتقوا ربكم » ، « واتقوا الله الذى أمدكم بما تعلمون » « وإياى فاتقون » ، « لا إله إلا أنا فاتقون » « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » .

وتقوى الله تنتظم تقوى ما يأباه جلاله وجماله من الشرك والبنوة ، والاتحاد والحلول ، وتقوى ما تأباه حكمته من مجاوزة حدوده ، والخروج عن شرائعه وأحكامه . وتقوى إهمال سننه الكونية التى أحكم بها نظام العالم ، وربط المسببات فيه بالأسباب . وفى تقوى ذلك كله ، تقوى عذاب الله وعقابه ، والعقاب ، منه أخروى ، ينزل بالأفراد نتيجة تقصيرهم وعدم تقواهم فى التكاليف الإلهية الخاصة ، ومنه دنيوى ، ينزل بالأمم كما ينزل بالأفراد نتيجة الإعراض عن الأخذ بالأسباب الكونية ، والإعراض عمَّا توجبه روابط الرحم الإنسانى ، والإيمان بمبدع الكون ومنظمه .

وقد كان للسلف فى التعبير عن التقوى عبارات ؛ فمن قائل : التقوى ترك الإصرار على المعصية ، وترك الاغترار بالطاعة . ومن قائل : التقوى ألا تختار على الله سوى الله ، وأن تعلم أن الأمور كلها بيد الله . ومن قائل : ألا يجد الخلق فى لسانك عيباً ، ولا الملائكة فى أفعالك عيباً ، ولا ملك العرش فى سرك عيباً . ومن قائل : التقوى أن تزيّن سرّك للحق كما تزيّن ظاهرك للخلق . ومن قائل : التقوى ألا يراك مولاك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . ومن قائل : المتقى من سلك سبيل المصطفى ، ونبذ الدنيا وراء القفا ، وكلف نفسه الإخـــلاص والوفا ، واجتنب الحرام والجفا .

كان لهم فى التعبير عن التقوى هذه العبارات وأمثالها ، وللتقوى منازل ، وللقلوب أحوال ، ولخلق الله نزعات ، وقد كان من سنة القوم فى الإرشاد إلى معانى الخير وأسس الفضيلة والتنبيه إلى الجوانب التى يتسرب منها النقص الخلقى أو الروحى إلى الإنسان ،كان من سنتهم فى ذلك أن يقصدوا إلى إبراز الجزئيات ، والنواحى التى تأثرت بها ، وغلبت على أحوالهم ، وشعروا منها بالكمال الذى تطمئن إليه نفوسهم ، والروح الذى تسكن به قلوبهم ، أو الجزئيات التى يرونها توقظ وعيا فى سائل ، أو تحيي عاطفة فى مريد ؛ فيقدمون له العلاج الخاص بذلك الوعى فيتيقظ ، أو بتلك العاطفة فتحيا . ويرون أن التخصيص هكذا فى مقام العلاج أنجع فائدة ، وأعظم أثرا ، وأقرب فى الحصول على الهدف المقصود ، وسد ناحية التقصير أو القصور ، مما إذا قدم العلاج بالعنوان العام ، والمعنى الشامل ، الذى لا تظهر فيه العناية بجانب دون جانب ، وبذلك يقف المريد أو السائل حائرا أمام الجوانب المتعددة التى يمليها عليه العموم، ولا يجد فيه ما يدفعه على وجه خاص إلى أن ينشط فى أخذ أهبة التكميل النفسى أو العملى فى الناحية التى هو فى حاجة إلى تكميلها والارتقاء فى سبيلها . وهذا شأن لا بد من مراعاته فى أساليب التربية والتقويم حتى يكون للتربية أثرها وللتقويم فائدته .

إلى هذا المبدأ تعددت عبارات القوم واختلفت إجاباتهم عن التقوى وما إليها من المنجيات كالشكر ، والصبر . وكانت دائرة بين الإعراب عن أحوالهم القلبية واتجاهاتهم الخاصة ، والإعراب عما يرون الناس فى غفلة عنه وفى حاجة إليه ، غير أنه مهما اختلفت أجوبتهم وتعددت مشاربهم ، وتراءى للناظر بين العبارات والمعانى نوع من الاختلاف ، دعا إليه أحد الموقفين المذكورين ، فإنه لو عرضت فى الوقت نفسه جميع العبارات المأثورة عنهم ، عليهم جميعا ، لكانت محل اتفاق بينهم ، ولما أنكر أحدهم ما نزع إليه صاحبه ، من بيان وتصوير ، أو توجيه وإرشاد ، ولتلاقت جميع العبارات ، وجميع الجزئيات عند حدها المشترك وهو حصانة النفس عما يضر ويؤذى ، وعما يحول بينها وبين الكمال . ولعل الذى حمل القوم على سلوك هذا السبيل فى التعبير عن التقوى أنهم كانوا عمليين قبل كل شىء ، ينهون على المعدوم ليوجد ، وعلى الضعيف ليقوى ، وعلى المنحرف ليستقيم . وإن من يتتبع صحف الإرشاد النبوى ليجد كثيرا من هذا المنهج ؛ فمرة كان يوصى عليه السلام بالحلم وترك الغضب ، وأخرى بالحياء ، وثالثة ببر الوالدين ، ويجعل ما يوصى به كل الإيمان أو كل الخير والبر .

وقد رأينا من المفسرين من يبين معنى التقوى الواردة فى القرآن الكريم بحسب المقام الذى سيقت فيه ، فيفسرها فى قوله تعالى مثلا « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » الواردة فى أول سورة النساء . وقوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم »

بخشية الله والخوف منه . وفى قوله تعالى « وألزمهم كلمة التقوى » وقوله « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » يفسرها بالتوحيد . وفى قوله « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا » يفسرها بالتوبة عن المعاصى . وفى قوله « أن أنذروا أنه لا إله الا أنا فاتقون » يفسرها بالطاعة وفى قوله « وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله » يفسرها بترك المعصية . وهكذا حتى ظُن أن للتقوى معانى متعددة يختلف بعضها عن بعض ، وأنها من قبيل المشترك اللفظى الذى يتحد لفظه ويتعدد وضعه ومعناه . والواقع أن مسلك السلف فى الإرشاد ، ومسلك المفسرين فى التفسير ، لايعدو أن يكون أساسه ؛ إما مجاراة الأحـــوال ، أو مجاراة السياق ، وليس من مقصودهم جميعا أن يحددوا بهذه العبارات الخاصة المعنى الكلى بكلمة « تقوى » الذى تدل عليه بوضعها وأصل اشتقاقها لأنهم إنما يرمون عن قوس الإرشاد إلى التحلية العملية ، والتناسب فى السياق ، وليس من هدفهم التعليم العلمى بعرض الجزئيات فى ثوبها الكلى العام ، ومع ذلك فإنا لو وضعنا هذه المعانى الجزئية التى تمليها الأحوال، إلى رجال التصفية والتهذيب ، أو يمليها السياق إلى رجال التفسير ، لو وضعناها فى صعيد واحد ونسبنا بعضها إلى بعض ، لوجدناها متعانقة متلازمة . لا يستقل واحد منها عن صاحبه ، ولا يغنى أحدها عن الآخر ؛ فالتوحيد أصل وخشية الله أثره ، وآية الصدق فيه . والتوبة عن المعاصى من لوازم الخشية وتوابعها ، والمعصية يأباها الإيمان . وهذا هو سبيل تلاقى الجزئيات التى فسرت بها التقوى فى عبارات القوم وعبارات المفسرين ، ذلك أن التقوى فى أصل معناها جعل النفس فى وقاية ، ولا تجعل النفس فى وقاية إلا بالنسبة لما يخاف ، فالخوف أصلها ، وهى ثمرته ، والخوف يستدعى العلم بالمخوف ، والمخوف إما العذاب ، وإما المعذِّب ، ومن هنا كان الذى يعلم الله ، هو الذى يخشاه ، وكان الذى يخشاه هو الذى يتقيه ، فلا تقوى حيث لا خشية ، ولا خشية حيث لا علم ، ومن عرف الله وآمن بقدرته القاهرة وعلمه المحيط ، وسلطانه النافذ ، وشرعه الحكيم ، تمثل عظمته فى كل شىء وخاف سطوته فى كل شىء ، واتقاه فى كل شىء ، وإذن فالتقوى هى صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤذى سواء أكان متصلا بالنفس أم بالنوع ، أو بالخلق كله ، وعن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة التى بها كماله فى جسمه وروحه ، وفرده وجماعته ، وفى دنياه وأخراه ، وبعبارة أخرى هى تحصين النفس من كل ما يعرضها للنقص الإنسانى ، أو الدينى ، أو الاجتماعى .

ولعل أول مظهر من مظاهر التقوى ، أرشد الله إليه فيما افتتح به سورة البقرة ، وهو أن التقوى كانت سبباً لاختصاص المتقين بهداية القرآن والانتفاع به ، ذلك أنهم حصنوا أنفسهم من الأسباب التى تفسد على الإنسان فطرته ، وتجعله لا يؤمن إلا بالحس المشاهد ، وتجعله

مقطوع الصلة عن مصدر الخير الدائم الباقى ، كما تجعله فظا غليظ القلب ، متحجر الوجدان ، لا تهزه رحمة ، ولا تدفعه إلى المعونة عاطفة ، وتجعله ذا عصبية تحول بينه وبين الاعتراف بالحق والتمتع بالخير إذا لم يجر على لسانه وجرى على لسان غيره ، أو لم ينزل من سمائه ونزل من سماء غيره ، واقرأ فى ذلك متدبراً قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » . اقرأ هذا لتعلم أن من عصم فطرته من تسلط المادة المظلمة عليها ، ومن قسوة القلب على أخيه المحتاج ، ومن العصبية الفاسدة لما ورث ، هو المتقى عند الله ، وأن تقواه هذه هى التى ترفعه إلى مكانة الانتفاع بالكتاب ، والتغذية من أحكامه وإيحائه حتى يصل به إلى أقصى درجات الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » وكما خلع الله على هؤلاء الذين حصنوا أنفسهم من تلك العلل ، عنوان المتقين ، نراه فى آيات أخرى قد خلع عليهم عنوانى العلم المطلق ، والإيمان الكامل وجعل القرآن لهم تذكرة كما جعله لهم هدى وشفاء « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق » « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » « وإنه لتذكرة للمتقين » .

وبينما نراه يخلع ذلك على المتقين الذين لم يدنسوا فطرهم بتلك العلل التى تبعد الناس عن الخير وإدراك الحق ، نراه يخلع غير ذلك على آخرين ، فسدت فطرهم بيئات الشر وموروثات الفساد وأوهام الضلال ، وعصبيات الجهل ، فلم يعرفوا الحق ولم يؤمنوا به ؛ بل عاندوا ولجوا فى العناد وأخذوا يحاربون الله فى السر والعلن ، نراه يخلع عليهم أن القرآن عليهم عمى وأنه لا يزيدهم إلا تبارا ، وأنهم « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . ويضع فى مستوى هؤلاء طائفة أخرى فسد باطنها كما فسد باطنهم ، ولبسوا فى ظاهرهم للمؤمنين ثوب الخداع والزور ، فقالوا كلمة التوحيد كما يقولون ، وصلوا كما يصلون ، واهتم القرآن بالحديث عنهم فعرّف عن خلالهم ، وصور كثيراً من نياتهم ، وضرب الأمثال فى شرح حالهم وعاقبة أمرهم .

هؤلاء هم الكافرون وهؤلاء هم المنافقون ، قد اشترى الفريقان الضلالة بالهدى ، ودنسوا نفوسهم فعمى الحق عليهم ولم يهتدوا بما أنزل الله لهم وبعث به الرسل إليهم وصاروا إلى مآل سيء .

أما المتقون الذين حافظوا على ما منحوا من فطر سليمة ، ونعم ظاهرة وباطنة حتى انتفعوا بهداية الله ووضعوا كل نعمة فى موضعها ، وسلكوا بأنفسهم وبنى جنسهم سبيل الله الذى رسمه بسننه الكونية وأحكامه الشرعية ؛ أما هؤلاء

فقد ظفروا بمكانة السمو الإنسانى ، ودرجة الفلاح عندالله ، وأناروا بما يسر لهم من وسائل الخير العام سبيل الحق والهـدى لخلق الله فعصموا الناس كما عصموا أنفسهم من علل العقيدة ، ومن علل الأخلاق ، ومن علل الأعمال ووجهوهم فى كل ذلك إلى لب الحياة وسر الوجود وكانت التقوى لهم نورا به يهتدون وبه يهدون ، وقوة بها ينصرون ، ومعارج عليها يصعدون ، وذلك هو ما وعد الله به فى قوله « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، فنور التقوى هو ذلكم الفرقان الذى جعله الله ثمرتها ، وجعل فيه جزاء المتقين ، والفرقان ما يفرق به بين الشيئين أو الأشياء وفسره بعض السلف بنور البصيرة الذى يفرق بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة . وفسره آخرون بالنجاة من الشدائد ، أو النصر الذى يفرق بين ما يعز وما يذل ، وكلا التفسيرين قصد إلى البيان بالجزئيات ، كما هى سنتهم فى البيان والإرشاد ، والواقع أن الفرقان ، منه علمى ، وهو نور ، أو ملكة ، يفرق بها بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، والحجة والشبهة . ومنه عملى ، وهو ثمرة العلمى وهو يرجع إلى الفصل بين ما ينبغى فعله وما يجب تركه فى سبيل العزة والنجاة من الشدائد ، والحصول على الرغائب . وانظر كم يتطلب الفرقان بنوعيه من دراسات وتفقه ، وتدريب على الفضائل ، وبحث عن السنن والأسرار .

وإذا حصلت على هذه الدراسات ، وشعرت من نفسك بهذا الفرقان ، فاعلم أنك قد منحت درجة المتقين : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » .

* * *

هذه هى التقوى فى القرآن الكريم ، وهذه ثمرتها فى الأفراد والجماعات ، ولو أن الناس عرفوها حق المعرفة ، وقاموا بواجبها وحقها لسكت الغضب عن العالم ، وانطفأت ثورة الشر التى ألهبت جوانحه وأقضت مضاجعه ، وكادت تقضى على حكمة الله فى خلق الإنسان « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

محمود شلتوت

قيمة كل امرىء فيما يعطى

بينما كان فولتير يسير على شاطىء نهر التيمز فشاهد غنياً يوشك أن يغرق ، ولكن أحد الفقراء خاطر بحياته فأنقذه فمنحه الغنى قرشاً .

وكان جمع من الناس قد احتشدوا ورأوا ما حدث فهموا بالغنى يريدون أن يفتكوا به ، ولكن فولتير هدأ روعهم بقولهم : إن هذا الغنى يعرف أكثر من غيره ماذا تساوى حياته .

ولقد صدق « إيتان راى » إذ يقول « إن المال لا يظهر حماقة الناس وإنما يظهر حقيقتهم » .

دين العقل

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى بك

الإسلام دين العقل ليس فى ذلك شك ، جهله من جهله ، وعلمه على وجه من علمه . والناظر فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهما ما هما ، لا يكاد ينقضى عجبه مما لقى العقل فيهما من عناية وإكبار وهداية . أما الحديث الشريف فيكفى منه ما ذكر الإمام الغزالى فى الإحياء فى باب شرف العقل وما بعده ، ويكفى مما ذكر قوله صلى الله عليه وسلم (ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم عليه من العقل) . وهذا يفسر وجه التكريم والتفضيل الذى منّ الله سبحانه به على الإنسان فى قوله تعالى من سورة الإسراء « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . إذ بالعقل وحده تصرّف الإنسان فى البر والبحر ، وتسلط فى الأرض على غيره من الكائنات . ولقد فسرت آيةَ الإسراء من هذه الناحية آيتا سورة الجاثية : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ؛ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . فالعقل أساس لهذا التسخير من غير شك ، إذ بدونه لم يكن التسخير ليتم . وأساس آخر هو ما أودع الله خلق السموات والأرض من أسرار على وجه يطوّع للإنسان الوصول إليها والتصرف فيها بعقله . وإلى الأساسين جميعاً أشارت خاتمة الآيتين « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، وفى هذه الخاتمة الكريمة ما فيها من حض على تطلب تلك الأسرار للانتفاع ثم للاعتبار .

فالقرآن الكريم إذ جاء لهداية البشر من عند فاطر الفطرة سبحانه ، إنما يخاطب العقل أول ما يخاطب . ولقد تنوعت أساليب الخطاب حتى ليظن الناظر أن ليس هناك فى الفطرة أسلوب فى خطاب العقل والقلب لم يأت به القرآن .

فالدعوة إلى الله وتوحيده قائمة فيه على العقل قبل كل شيء . والذى يتتبع مواقف تلك الدعوة يأخذه العجب من وضوح حججها حتى فى مواطن الإيجاز فى إيرادها ، فالناظر فى مثل قوله تعالى من سورة الطور : « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ » ، لا يجد بدا من الإقرار بالخالق سبحانه و « من غير شيء » هنا معناها من غير خالق كما نبه إليه الإمام الغزالى فى باب التفسير من الإحياء . فإذا نظر فى قوله تعالى من سورة فصلت : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى

خلقهن » أو قوله من سورة الحج « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منـه ، ضعف الطـالب والمطلوب » ، أو قوله سبحانه من سورة الرعد : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » ، عجب كيف يمكن أن يتعطل العقل فى الإنسان فيتخذ مع الله آلهة لا تملك لغيرها ولا لنفسها من شيء ؛ ثم لا يكون ذلك إلا فى أمم كالعرب والروم والفرس أو كالهنـد والصين ، لكل منها فى قديم التاريخ مكان .

فإذا تركنا خطاب القرآن أهل الشرك ونظرنا فيما خاطب به أهل الكتاب وجدنا مُثلا أخرى من إقامة الحجة فى إيجاز وإلزام نجتزىء منهـا بمثل واحد ، هو قوله تعالى من سورة المـائدة : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام » . ففى الكلمات الثلاث الأخيرة وما اندرج فيها برهان أى برهان على بطلان ما يدعيه عبّـاد عيسى ومريم عليهما السلام .

ولا يبقى بعد هذا فى أمر التوحيد إلا نفى الـنِّد مطلقا عن الله سبحانه ، وهنا تلق العجب العجاب من الحجاج المعجز بيانا ومنطقا ، من نحو قوله تعالى فى سورة الأنبياء « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ، أو قوله تعـالى من سورة الإسراء « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » ، أو قوله تعالى من سورة المؤمنون « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إلـٰه ، إذن لذهب كل إلـٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » . وهى حجج قاطعة تسد على فروض الفلاسفة الأبواب .

وكما حاكم القرآن الناس إلى العقل فى أمر الإلـٰه الحق حاكمهم إليه فى أمر الرسول الحق محمد بن عبد الله ومن قبله من الرسل ، على نفس النسق من الروعة وإحكام الحجة ووضوح البرهان . وهنا أيضاً لا يتسع المقام إلا لبعض أمثلة جمعت بين الوضوح والإيجاز .

والاعتراضات التى كانوا يعترضونهـا على رسالة الرسول فيها سخف كثير ، كاعتراضهم على بشريته ، فحـكى الله اعتراضهم فى شيء من التعجب من سخفه ، وذلك فى قوله تعالى من سورة الإسراء « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » ، ثم كرَّ عليـه بقوله « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » . فأول الجواب توكيد لرسالته صلى الله عليه وسلم بكلمة « قل » ، وآخره تقرير لسنة من سنن الله فى الاجتماع ، وهى أن الرسول ـ أو المصلح ـ لا يكون إلا من بين المرسل إليهم ، فالبشر لا يكون رسولهم إلا من البشر ولو كان هناك ملك رسول ، فلن يرسل إلا إلى أمة من الملائكة . وفى الجواب ما فيه من التهكم الخفى بعقول يحول بينها وبين قبول الحق مثل ذلك الاعتراض .

واللجاج من عادة المعاندين الذين أضلهم الهوى عن سبيل الحق والعقل فعدلوا اعتراضهم من طلب الرسول الملك إلى طلب ملك يكون مع الرسول البشر ، فانظر كيف حكى القرآن الكريم اعتراضهم الجديد وكيف رد عليه من سورة الأنعام : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

إنهم إذن يكونون بين أمرين : إما أن يروا الملك على هيئته الملائكية فيهلكوا رعباً ، إذ لا طاقة للبشر برؤية الملائكة على صورتهم التى فطرهم الله عليها ، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الرسول أصابته غشية حين أجابه جبريل عليه السلام فتبدى له على صورته . وإما أن يأتيهم الملك فى صورة بشر حتى لا يهلكوا من الخوف وإذن لا يدرون أملك هو أم رجل ويظلون فى نفس الإشكال الذى أوقعهم فيه العناد

وأخرستهم الحجة فحملهم العناد على اعتراضات أسخف ، قالوا كيف يتبعون رسولا يأكل كما يأكلون وسيموت كما يموتون ، فجاءهم الجواب من سورة الأنبياء « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » . فانظر إلى سخف الاعتراض وجلال الجواب ! فالرسل بشر ، والبشر ذوو أجساد ، والجسد لابد له من طعام يقيمه، والمغتذى بالطعام لابد له فى هذه الدنيا من أن يقع به الانحلال فيموت سنة الله فى كل جسد حى أن يطعم وأن يموت .

وعادوا يعترضون بأنه صلى الله عليه وسلم له أزواج مثلهم وذرية ، فجاءهم الجواب من سورة الرعد « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » ، وهو من ناحية يقرر رسالة الرسول صلوات الله عليه ويؤكدها؛ فضمير المتكلم هنا هو ضمير الجلالة ، وضمير الخطاب هو ضمير الرسالة ، ومن ناحية أخرى يشعرهم حين أغفل ذكرهم أنهم لن يكونوا أهلا للخطاب حتى ينزلوا على حكم العقل ويقلعوا عن سخيف الاعتراض .

ومن جليل مظاهر اعتماد الإسلام على العقل التحدى بالقرآن . وما التحدى إلا تحاكم إلى العقل وتحكيم له فيما زعم الزاعمون من أن القرآن من عند محمد لا من عند الله . ولم يكن التحدى أول ما أجيبوا به على هذا الزعم كما يبدو من قوله تعالى من سورة يونس : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ! قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » . فلما لم يعقلوا ما انطوت عليه هاتان الآيتان الكريمتان من حجج ولجّوا فى زعمهم ، تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم مثل محمد فى النشأة العربية . وتساهل معهم - إرخاء للزمام وتمكينا للحجة عليهم - فأباح لهم الاستعانة بمن شاءوا من العرب أو من غير العرب من أهل الكتاب أو غير أهل الكتاب

وآيات التحدى مشهورة معروفة لمن قرأ القرآن. فهناك آية الطور : « أم يقولون تقوَّله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، ثم آيتا هود :

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ » . ثم آيتا يونس أيضا : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وهذه كلها آيات مكية . ثم أعيد التحدى فى المدنية بعد الهجرة بآيتى سورة البقرة : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ! » . وترى أن خاتمة آيات التحدى هذه فيها ما ليس فى أخواتها من تنبؤ بأنهم لن يفعلوا وهى نبوءة لا تزال قائمة إلى اليوم .

وهناك آيات أخرى غير آيات التحدى حكت كيف رمى المشركون فيها النبى صلوات الله عليه بافتراء القرآن ، وأجابت على إفكهم هذا بما يبرىء النبى وإن بغير التحدى ، مثل آية سورة هود أيضاً : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون » . وآية سورة الأحقاف : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بينى وبينكم » .

وفى القرآن آيات أخرى كثيرة ودلائل لا تحصى يكفى بعضها للدلالة اليقينية أن القرآن حقا كلام الله لا كلام أحد من خلقه ، أنزله على رسوله الأمين هدى ونورا للناس « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » . آخر سورة الشورى .

وبعد فينبغى أن يوقن المسلم عن دليل لا عن تقليد أن محمداً رسول الله ، وأن القرآن كلام الله ، وهما قضيتان ليس أهم منهما للمسلم من قضية بل للبشرية . وهما ثابتتان بالعقل كما رأيت ثبوتا لا يحتمل شكا قط ، فمن كان من المسلمين فى نفسه منهما أو من إحداهما شىء فعليه ألا يهدأ حتى يزيل ذلك الشىء من نفسه . فهما بعد ثبوتهما عقلا حق اليقين . وكم فى يقين الناس من باطل ، ثم إليهما بعد ذلك ترد قضايا كثيرة تثبت بهما وعن طريقهما ، فيكون ثبوتها عن ذلك الطريق ثبوتاً عقلياً علمياً كما ثبتت ثبوتا رياضيا نتيجة النظرية الهندسية ، فيتوحد للمسلم بذلك ويتحد ؛ طريقا العقل والنقل .

ولا يزال فى الموضوع بقية تزيد المسلم بصراً بأن الإسلام دين العقل حقا ، نرجو أن نتناولها ببيان فى العدد الآتى إن شاء الله ؟ .

محمد أحمد الغمراوى

فى اللغة والأدب

لغة منطقية

للأستاذ عباس محمود العقاد

من رأينا أن اللغة العربية لغة منطقية ، وأنها تمتاز بذلك مزية قليلة النظير بين اللغات الحية .

ولست أعنى بهذه المزية أن مصطلحات قواعدها مستمدة من مصطلحات المنطق كما وضعه اليونان ، ولست أعنى كذلك أنها تتسع لتعبيرات المنطق ومفهوماته ، فهذا وذاك صحيح على الجملة ، ولكن المنطقية التى أعنيها غير هذا وذاك ، وفحواها أن أحكام اللغة قابلة للتعليل المنطق لا يمنعها أن تعلل على هذا الوجه غير جهل الأسباب ، وجهل الأسباب فى كل شيء - لا فى اللغة العربية وحدها - يحول دون التعليل الصحيح .

أسمع من بعيد من يقول هنا ما يقال عادة فى سياق الاعتراض على هذا الرأى : وهل معنى ذلك مثلا أن الصيغ والأوزان فى اللغة العربية تجرى على حكم القياس فى جميع الأحوال ؟

وأجيب كما أجيب عادة من قريب : كلا . ليس معنى « المنطقية » فى اللغة العربية أن صيغها وأوزانها تجرى دائماً على قياس واحد . إذ لو كانت كذلك لكانت لغة آلية ولم تكن لغة منطقية ، فليس من المنطق أن تجرى أحكام البنية الحية على قياس واحد فى جميع الأحوال ، وما من بنية حية تسيغ فى الشتاء ما تسيغه فى الصيف أو تطيق فى الكبر ما تطيقه فى الصبا ، أو يلائمها فى جميع البيئات ما يلائمها فى بيئة واحدة ، وليس بالمعقول أن تجرى صيغ اللغة العربية وأوزانها على قياس واحد إلا إذا كانت كلماتها جميعاً قد نشأت دفعة واحدة فى موضع واحد ، على نحو واحد ، فإذا كانت الكلمات تنشأ فى أوقات مختلفة ، على ألسنة مختلفة ، لأغراض مختلفة ، فالذى يناقض المنطق هنا أنها تجرى مع الاختلاف كما تجرى مع الاتفاق ، على سنة الآلات الصماء بغير فارق بين دواعى الحياة .

وأفضل من مناقشة النظريات أن نضرب المثل ببعض الملاحظات التى تثبت المنطقية لأحكام اللغة العربية ، وهى فى وضوحها وثبوتها على درجات .

فمن أوضحها أن اللغة العربية - مع أنها من اللغات التى تفرق بين صيغة التذكير وصيغة التأنيث - تسقط علامة التأنيث حيث تبطل الحاجة إليها ولا يقتضى العقل وجودها ، بل يقتضى حذفها والاستغناء عنها ، فيقال حامل ومرضع فى أخص صفات المؤنث ، لأن هذا الخصوص هو الذى يبطل الحاجة إلى التفرقة بالعلامات .

وأدق من هذه الملاحظة فى باب المنطق ، استخدام الأداة التى تنفى وقوع الحدث فى الماضى دون غيره ، فلا حاجة مع هذه الأداة إلى العدول عن صيغة المضارع إلى صيغة الماضى ، لأن

الكلام عن الماضى هنا مفهوم بالبداهة بغير علامة من أوزان الأفعال.

يقولون: لم يكتب. ولا يقولون لم كتب، لأنهم حين ينفون حدوث شيء يفهمون أنهم يقصدون الماضى ولا يقصدون وقتا لم يأت ولم يقع فيه حدوث أو يمتنع فيه حدوث.

وهنا موضع التفرقة المنطقية الدقيقة، فقد يقال: ما كتب وما يكتب، وما ضل صاحبكم وما غوى، وما كذب فلان وما يكذب. ولكن لا يقال: لم كتب ولم ضل ولم غوى، والفرق بين الحكمين هو فى الواقع فرق بين حكمين عقليين على غاية من الدقة، وليس قصاراه أنه فارق بين لفظين أو عبارتين.

ماذا نفهم حين يقال لنا مثلا: «لا يكذب فلان أو فلان لا يكذب؟ إننا لا نتكلم هنا عن الحدث وإنما نتكلم عن الصفة التى ينشأ منها الحدث فى جميع الأزمنة، غير مقيد بالماضى أو بالحاضر أو بالمستقبل، فإذا عهد فى إنسان أنه لا يكذب فالنفى هنا ممتد إلى جميع الأزمنة خلافا للنفى الذى يتعلق بشيء منتظر الحدوث قبل نفيه.

وقد اخترنا هذا المثل الواضح لأننا أردنا مثلا بعيداً من اللبس والاشتباه، فجعلناه من خصائص الأخلاق الثابتة لأنها أدخل فى هذا الباب من الحوادث التى لا تتعلق بالأخلاق.

ولكننا مع هذا نستطيع أن نلحظ الفارق بين قولنا ما كتب فلان وقولنا لم يكتب فلان، فليس القول الأول مطابقاً للقول الثانى فى جميع مدلوله، وإنما قولنا «ما كتب فلان» مسألة يغلب عليها أنها مسألة تقدير، أما قولنا «لم يكتب فلان»، فهى مسألة إخبار بحادث معين، وليس التقدير فيه هو المقصود.

إذا قلتُ «ما كتب فلان»، فإنما أريد أن تقديرى يخالف حصول الكتابة، ولكننى إذا قلت إنه «لم يكتب»، فليس لهذا القول غير معنى واحد: وهو أننى علمت أن الكتابة لم تحدث. وليس الأمر هنا مجرد الكلام على ما أقدره أو ما ينبغى لفلان فى نظرى، سواء صح ما قدرت أو أخطأت فيه حسن التقدير.

وجملة القول أن «لم يكتب» غير «ما كتب» وأن الاختلاف هنا دقيق جداً يرجع إلى التصور والحكم العقلى، ولا يرجع إلى لفظ اللسان وحده، ومتى بلغت أدوات اللغة هذا المبلغ من الدقة فى التفرقة بين التصورات فهى من المنطق على أساس متين.

ومن الذى يفهم مثلا أن فلانا لم يكذب عليك تساوى، أن فلانا ما كذب عليك؟ ومن الذى يفهم الفرق، ويرى أدوات اللغة كفيلة بالتعبير عنه، ثم يرى أن المنطق منعزل عن التعبير العربى على ألسنة المتكلمين به فى لغة العلم أو لغة الطريق والسوق؟

ولست أشك فى أن الأوزان اختلفت لحكمة تخفى علينا فى الوقت الحاضر، ولكنها خليقة أن تعرف متى عرفت جميع الظروف التى أحاطت بها عند وضعها، ويحضرنى فى هذا الباب أن السليقة توحى إلينا أن نعود إلى الأوزان كما نشأت على غير علم بالقواعد والتخريجات. ومن أمثلة ذلك أننى سمعت بعض الباحثين ينكر العلل التى ينتحلها النحاة لتغيير الأوزان، ويرجح أنها محض تعسف ومصادفة، وكان الكلام يدور على الفعل الذى يدل على وصف ثابت من قبيل كرم وعظم

حسن وسخف بضم العين فى جميع هذه الأفعال ، فحضرنى فى هذا الباب أن العامة التى تجهل القواعد والتخريجات ، تقول طال الليل ولكنها تقول : طول الصبى أو طول بكسر الطاء والواو أو بضمهما ، كأنهم يجعلون للطول العرضى صيغة غير صيغة الطول الذى يدوم ، ويقاس على ذلك ما كان من حكم السليقة قبل ألوف السنين .

وأعتقد كذلك أن أحكام الإعراب لها علل قديمة وليست محض تعسف ومصادفة ، وشاهدى - بل شواهدى - أن عمل الحركات فى اختلاف الدلالة متمكن من بنية اللغة العربية أسمائها وأفعالها وأوائلها وأواخرها على السواء ، فالفرق بين الفعل المبنى للمعلوم والفعل المبنى للمجهول إنما هو فرق بين حركات بعض الحروف ، وكذلك الفرق بين صيغة الفاعل وصيغة المفعول ، وبين بنية المضارع وبنية الماضى ماعدا حروف المضارعة ، وليس من الأشياء العرضية أو من فعل التعسف والمصادفة أن يكون هذا شأن الحركة فى دلالات اللغة كلها ، وبخاصة حين نعلم أن اللغات يمكن أن تنقسم فى هذا المعنى إلى قسمين : قسم تتغير مدلولاته بالحركة وقسم تتغير مدلولاته بإضافة المقاطع إلى أوائل الكلمات أو أواخرها ، وأن أصول هذه المقاطع معروفة كلها أو أكثرها ، فلا يعقل أن تأتى الحركات التى تقوم بهذه الدلالات عندنا من غير أصول وأن تأتى جزافا وهى تطرد على جملتها ذلك الاطراد .

والآية الكبرى على « المنطقية » فى اللغة العربية أنها تتسع للجملة الاسمية والجملة الفعلية على جميع أوضاعها ، لأن المعانى العقلية تتغير حين تتغير الأوضاع ، فليس من المنطق أن تدور اللغة على تركيب واحد كأنه هو التركيب الوحيد الذى يسمح به عقل المتكلم والسامع .

وهذه أمثلة لما يفهم من اختلاف موقع الفعل من الجملة ، ويكاد يفهمه العامة كما يفهمه الخاصة ، ويتيسر لهم أن يفهموه بالتفهيم فى غير عناء .

فمحمد كتب الصحيفة ، وكتب محمد الصحيفة ، وكتب الصحيفة محمد ، وهى عبارات تختلف دلالتها مع اتفاق كلماتها ، وإنما يأتى الاختلاف من التقديم والتأخير ، ومما نسميه بالجملة الاسمية والجملة الفعلية ، وكلاهما ميسور لمن يتكلم العربية ولكنهما غير ميسورين كذلك لمن يتكلمون غيرها من أكبر اللغات .

عند ما نقول « محمد كتب الصحيفة » فالفاعل هو الذى يعنينا ونقصد الكلام عنه ، وعند ما نقول « كتب محمد الصحيفة » فهناك خبر نذكره سواء عنينا بالكاتب أو لم نعن به على الإطلاق ، وعند ما نقول « كتب الصحيفة محمد » فالصحيفة هى التى تشغلنا ونخصها بالإخبار .

تلك جمل ميسورة فى اللغة العربية بمنزلة واحدة من السهولة ، ولكنها لا تتيسر على هذا النحو فى اللغات الأوربية التى تقصر التعبير على الجملة الاسمية ، ويرجع تعذرها إلى أصل التركيب ولا يرجع إلى مجرد الاستعمال ، ونريد بالتعذر من أصل التركيب أن التقديم والتأخير لا يتيسران فى جميع الأحوال كما يتيسر للعربى العامى أن يقول : « كتب محمد الصحيفة ، ومحمد كتب الصحيفة » . . . وحسبنا من هذا الفارق شاهدا على امتياز التفكير المنطقى ورجحان اللغة التى تسمح بتركيب الجمل المتعددة على اللغة التى تردها إلى تركيب واحد ، فإن شيوع الجملة الاسمية

على ألسنة العامة لم يكن رجحانا أو ارتقاء فى استخدام الكلام وتحرى الدقة المنطقية ، بل هو قناعة بالقليل من الكثير ، على القدر اللازم من التعبير والتفكير .

ولقد يبدو للمتعجل أن دعوى المنطقية تصطدم بأقوى الموانع فى مسألة العدد وأحكامه الغريبة عند من ينظر إليها لأول وهلة .

والذى يبدو لنا أن مسألة العدد أقوى الشواهد على المنطقية وليست أقوى الشواهد على غيابها وامتناعها .

فاللغة العربية « أولا » لم تنس التفرقة بين الفرد والزوج ولم تكتف بالتفرقة بين المفرد والجمع ، كما اكتفت لغات كثيرة ، ولا ريب أن قسمة العدد إلى فرد وزوج أصيلة فى العقلية الرياضية المنطقية .

واللغة العربية ، بعد ، قد تمشت مع العدد من نشأته البدائية على السنة المعقولة ، إذا لاحظنا أن أطوار العدد قد تدرجت منذ كانت الخمسة هى غايته القصوى ، إلى أن أصبحت «العشرون» وحدة له ملحوظة فى اللغات الرفيعة ، ومنها اللغة الفرنسية التى تعد الثمانين أربع عشرينات وليس فيها اسم خاص للثمانين .

فالعدد ، غير معلق على المعدود ، بعد الواحد والاثنين هو « ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة » .

ومن المحقق أن تغليب المذكر فى الكلام كان حكما عاما فى جميع اللغات ، حتى أن اللغة الانجليزية مثلا تسمى الرجل إنسانا وتسمى المرأة إنسانا ذا رحم (Wo-man) .

فإذا تكلم الناس عن الرجال قالوا : رجل ورجلان وثلاثة رجال ، ثم يجرى العدد من من الأربعة إلى العشرة مجرى الثلاثة ، فيقال أربعة رجال وعشرة رجال .

وإذا تكلموا عن النساء احتاجوا إلى التمييز بالمغايرة فقالوا ثلاث نساء وعشر نساء .

ثم يكون المعدود تمييزا حتى نصل إلى العشرين ، فإذا جعلناه مضافا إليه قلنا عشرو رجل وثلاثو رجل وأربعو رجل على حكم جمع المذكر السالم ، فإذا جعلناه تمييزا فذاك أخف على اللسان ولا إخلال فيه بقاعدة من قواعد اللغة ، وإذا انتقلنا من تسعة وتسعين إلى مائة فلا ثقلة فى الإضافة ولا خطأ فى التمييز ، حكم العقل هنا لا حكم النحو وحده ، ومتى تساوى الحكمان عقلا فلا ضير من التساوى باللفظ على اللسان .

ومسألة العدد خليقة أن تهدينا إلى طريقة تطبيق المنطق على اللغات ، فنحن نبدأ بالتطبيق منذ استخدام العدد تبعا لأطواره المتعاقبة ، ولا ننتظر بأحكام العدد حتى تكمل ثم نطبق عليها المنطق ومقتضياته فى الزمن الأخير ، وكم قرنا مضت على المتكلمين وهم لا ينطقون بالعقود وما فوقها ؟ وكم قاعدة تقررت خلال ذلك مع الترقى بالأعداد والمعدودات ؟

ومؤدى ما تقدم أن اللغة العربية تقبل التعليل بالمنطق كلما عرفت المقدمات والأسباب ، وأن الكشوف المقبلة كفيلة فيما نرجو أن تهدينا إلى كثير من المقدمات والأسباب المجهولة ، ويومئذ ندرك العلل المنطقية التى تخفى علينا اليوم ، وندرك معها عراقة هذه اللغة التى لا يكفى لتفسير أطوارها أن نرجع بها إلى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة ، فإنها لأقدم من ذلك بغير خلاف ؟

عباس محمود العقاد

مَنطِق أرسطو وَالنّحو العَرَبيّ

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
عضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

كلنا يعلم ما للقياس من أهمية فى نشأة النحو العربى، وغزارة مادته، واستخلاص قواعده، وضبط أحكامه. ذهب اليه النحاة الأول بحكم فطرتهم وسجيتهم، مقارنين بين الأشباه والنظائر ومستنبطين منها الأوصاف المشتركة التى تلتقى فيها. وتوسع فيه من جاءوا بعدهم، فجعلوه منهجا ذا قواعد ثابتة ومعالم محدودة، واعتبروه منبعا رئيسياً تستمد منه القواعد النحوية. وربما حكموه فى لغات العرب ورواياتهم، فيقولون إن لغة أقيس من أخرى، وأن تعبيراً ما، يجيزه القياس وإن لم يرد به السماع، وكأنما يشرعون فى النحو كما شرع الفقهاء فى المعاملات. وها هو ذا ابن جنى يقول: «إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلا، وجب أن يكون قياساً وعقلا». ويقرر من بعده ابن الأنبارى: «إن انكار القياس فى النحو لا يتحقق، لأن النحو قياس كله، فمن أنكره فقد أنكر النحو، ولا يعلم أحد من العلماء ينكره». ويعزى إلى الكسائى ذلك البيت المشهور:

إنما النحو قياس يتبع
وبه فى كل أمر ينتفع

وقد استخدم القياس فى النحو منذ المراحل الأولى، فعالجه عبد الله الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ هـ، وأخذ يقيس ويعلل لأقيسته. ونماه الخليل بن أحمد وأدعمه، وتوسع فيه سيبويه أيما توسع. وفى «الكتاب» أقيسة عدة واعتداد بالقياس فى مناسبات مختلفة لترجيح رأى على آخر. وقد لا يقف عند استقراء الأمر الواقع، بل يفترض فروضاً نظرية ويعطيها أحكاما خاصة. وإذا كان نحو البصرة قد سبق نحو الكوفة بطبقتين كاملتين أو بما يقرب من مائة سنة، فان البصريين يعتبرون بحق واضعى دعائم القياس فى النحو العربى. على أن الكوفيين أيضاً لم يترددوا فى استخدام القياس والتعويل عليه، وربما اكتفوا بالشاهد الواحد فاستنبطوا منه قاعدة عامة، وبالغوا فى الأقيسة النظرية والعلل العقلية. وها نحن أولاء نقيس حتى اليوم، ولمجمع فؤاد الأول قرارات سابقة تتصل ببعض الأقيسة النحوية، كالنسبة إلى جمع التكسير، واستعمال وزن مفعلة للمكان.

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة، فان مما يلفت النظر أن القياس النحوى نبت ونما فى العراق حيث نبت ونما القياس الفقهى. ولم يجىء ذلك عبثا، وإنما كان

وليد الاعتداد بالرأى والتأثر بالثقافات الأجنبية ، ومن بينها منطق أرسطو . وهنا نقطة ينبغى توضيحها . نتحدث عن قياس فقهى وآخر نحوى ومن الخطأ أن يظن أن الأمر فيهما كما هو فى القياس الأرسطى، ذلك لأن هذا الأخير يقوم فى أساسه على سير من الكلى إلى الجزئى ، أما قياسنا النحوى وزميله الفقهى فعلى عكس ذلك يسيران من الجزئى إلى الكلى . ولكن ينبغى أن نلاحظ فوراً أن أرسطو لم يهمل هذا النوع من الاستدلال ، فقد عرض فى لواحق قياسه لضربين من الاستدلال هما الاستقراء والتمثيل . وإذا كان لم يعتد بهما كل الاعتداد ، فقد قدر لهما أن يستخدما فى البحوث والدراسات العلمية التى جاءت بعد ، وعلى الاستقراء بوجه خاص يعتمد البحث العلمى الحديث .

فالقياس النحوى تمثيل إن استنبطت القاعدة من شاهد واحد ـ الأمر الذى كان يبغضه نحاة البصرة ـ أو استقراء ناقص إن استخلصت القاعدة من عدة حالات فردية . وهو على كل حال فطرى فى صورته الأولى التى تتلخص فى تتبع الأشياء المتشابهة والبحث عن أسبابها وعللها . وليس لأحد أن يدعى أن هـذا القدر الفطرى من صنع أرسطو أو فيلسوف آخر . ولكن يوم أن تتحول الفطرة إلى فن وصناعة ينبغى البحث عن عوامل هذا التحول . ولم يقف القياس النحوى عند تلك الصورة الفطرية التى أشرنا اليهـا ، بل فلسفه النحاة وافتنوا فيـــه إلى درجة كبيرة .

فبحثوا عن أركانه ، وقالوا كما قال الفقهاء إنها أربعة : أصل وهو المقيس عليه ، وفرع وهو المقيس ، وحكم قد يتنوع كما تتنوع الأحكام الفقهية فيكون واجباً أوممنوعا أو حسناً أوقبيحاً ، وأخيراً علة وهى دعامة القياس . ثم حاولوا بعد هذا أن يحددوا شرائط القياس النحوى الصحيح كما حدد أرسطو شرائط إنتاج قياسه المنطقى . وإذا كانت هذه الشرائط لم تصلنا على شكل كامل وفى صورة مهذبة فإنا نجد منها شذرات هنا وهناك فى « الخصائص » لابن جنى ، وفى « أصول النحو » و « الإنصاف » لابن الأنبارى ، وفى « الاقتراح فى أصول النحو » للسيوطى

ودون أن نتتبع مبادىء القياس النحوى ، نكتفى بأن نشير إلى أمثلة منها ، فيقال يحمل الأقل الأندر على الأعم الأكثر لا العكس ، والحمل على ماله نظير أولى من الحمل على ما لا نظير له ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ، والقياس على الفاسد فاسد ، وإن أجازوا القياس على ما ورد فى ضرورة الشعر بشرط أن يستعمل فى هذه الضرورة أيضاً . وفى هذه المبادىء وأمثالها ما يدل على أن نحاة العرب أرادوا أن يضعوا لقياسهم أصولا تحاكى تلك الأصول التى وضعها الفقهاء . وأصول القياس النحوى كأصول القياس الفقهى تلتقى فى أنهـا تترسم خطى القيـاس المنطقى .

ومثل واحد بين هذه الأصول كاف فى توضيح

ذلك ، ألا وهو مبدأ العلية ، وقد كان لهذا المبدأ شأن فى النحو العربى لا يقل عن شأنه فى المنطق الأرسطى ، ذلك لأن العلة هى الدعامة التى يقام عليها القياس النحوى والمنطقى . وما نظرية العامل النحوية إلا وليدة مبدأ العلية الفلسفى ، وإذا قلنا نظرية العامل فإنما نلخص النحو فى جملته ، وقديماً قالوا : « النحو أثر يجلبه العامل » . وقد وضع أبو على الفارسى كتاباً سماه « العوامل » استوعب فيه النحو جميعه ، كما وضع عبد القاهر الجرجانى كتابا آخر اسمه « العوامل المائة » فيه خلاصة نحوية مستوفاة .

والعوامل ظاهرة ومضمرة ، وقوية وضعيفة ، ومجموعة العوامل المتشابهة تكون أسرة واحدة . وهناك كلمات تعمل بنفسها ، وأخرى لمشابهتها لغيرها ، فالأصل فى العمل للأفعال ، وتلحق بها الأسماء إذا شابهتها . وتكون الكلمة عاملا حيناً ومعمولا حيناً آخر ، ولا يمكن أن تكونهما فى آن واحد . والبحث عن العوامل بيان وتوضيح لعلل الإعراب ، وقد عرفت علل الإعراب أو علل النحو قبل أن تعرف نظرية العامل فى ثوبها الكامل ، ويعتبر « كتاب » سيبويه أول بحث جامع للعلل النحوية .

فمن أين استمد النحاة فكرة العلل أو نظرية العامل هذه ؟

يذهب فريق إلى أنهم تأثروا فيها بالفلسفة الكلامية ، وإذا كان لكل حادث محدث فلكل معمول عامل . ويقول الإمام الرضى إن : « النحاة يحررون عوامل النحو كالمؤثرات الحقيقية » .

ويذهب فريق آخر إلى أنهم تأثروا بالبحوث الفقهية ، ذلك لأن القياس النحوى شبيه كل الشبه بالقياس الفقهى . يقول ابن جنى فى « خصائصه » : « اعلم أن أصحابنا انتزعوا العلل من كتب محمد ابن الحسن ، جمعوها منها بالملاطفة والرفق » ، ويشير الزمخشرى إلى شىء شبيه بهذا فى مقدمة « مفصله » ويضع السيوطى كتابه « الاقتراح فى أصول النحو » على ترتيب يحاكى - فيما يرى - أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم . ولكن ابن جنى يعود فيقرر أن علل حذاق النحاة أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل الفقهاء ، لأنها أكثر مجاراة للطبع .

وسواء أكانت العلل النحوية أشبه بالعلل الكلامية أم بالعلل الفقهية ، فان كلا العرضين لا يحل الموقف تمام الحل ذلك لأن علل الإعراب عرفت فى أوائل القرن الثانى للهجرة قبل أن تذاع وتعرف علل المتكلمين والفقهاء . وإذا صدق كلام ابن جنى والزمخشرى على القرن الرابع والخامس ، فإنه ليس من السهل أن توضح به أحداث القرن الثانى - على أن فكرة العلية عند المتكلمين والفقهاء أنفسهم قد تأثرت بأصل أرسطو .

وذلك أن الفيلسوف اليونانى عرض لمبدأ العلية فى كتبه الطبيعية والميتافيزيقية والمنطقية ، ويعنينا الآن الجانب المنطقى لهذا المبدأ ، ففى « التحاليل الثانية » يشرح أرسطو العلل الأربع :

المـاديه ، والصورية ، والفاعلية ، والغائيـة ، ويبين مدى استخدامها فى التعريف والبرهان ، فالتعريف الصحيح هو الذى يوضح مادة الشىء وصـورته ، أويكشف عن باعثه وغايته ، والقيـاس العلمى الدقيق هو الذى يستخلص النتيجة من عللها الحقيقية ، وكلما كان الحـد الأوسط أحد العلل الأربع كان الاستنتاج سهلا يسيرا ، والاستدلال واضحا فيها .

ولم يعمل النحاة شيئا أكثر من أنهم حاولوا أن يدعموا قياسهم بمبدأ العلية ، كما فعل أرسطو من قبل ، فتلمسوا عللا لما قرؤوا وما سمعوا ، وقاسوا عليه كل مايشترك معه فى علته . وتنوعت العلل عندهم كما تنوعت عند الفيلسوف اليونانى ، فلديهم علة تشبيه كبناء الاسم لمشابهته للحرف ، وإعراب المضارع لمشابهته للاسم ، وعلة استثقال كحذف واو يعد استثقالا لوقوعها بين ياء وكسرة ، أوعلة تغليب مثل : وكانت من القانتين . وقد غلوا فى هذه العلل إلى حد أفقدها كثيرا من قيمتها . ومن أمثلة المتعلمين : العلة النحوية كالوردة تشم ولا يضغط عليها . وإذا كان ابن جنى والسيوطى قـد تصديا للدفاع عن العلل النحوية ، فما ذاك إلا لما أخذ عليها من ضعف ووجه اليها من نقد .

هذه هى آثار منطق أرسطو فى النحو العربى ، وجه الى بعض قواعده ، وساهم فى تكوين بنيانه وأعان على رسم منهجه ، وكان عاملا قويا من عوامل غزارة مادته واتساع أبوابه ـ ولـكنه من ناحية أخرى أصابه ـ فيما يظهر ـ بشىء من العقم والصورية التى بلى بها المنطق الأرسطى نفسه ، فعنى بالصور والأشكال أكثر مما عنى بالمـــدلولات والمعانى ؛ وأكثر من القوانين والضوابط فأثقل على العلماء والمتعلمين ، وغلا فى القواعد بحيث أصبحت جوفاء لا تصدق إلا على حال أو أحوال محدودة ، ومع ذلك لم تخل من شذوذ واستثناء . وأسرف فى التعاريف غير العملية التى جاءت وليدة تشبيه وفروض وهمية لا أساس لها . ومن يقرأ شرح السيرافى على « كتاب » سيبويه أوشرح أبى حيان على التسهيل يلمس أن النحاة كثيرا ماأفسدوا النحو بماوضعوا من فروع وعلل وأصـول وأقيسة ومسائل غير عملية .

وفوق هـذا فتح مبدأ العلية على النحاة باب فلسفة مفرطة وثقيلة أحيـانا ، فهناك علل أول وثوان وثوالث ، وقد يـكون للمعلول الواحد أكثر من علة يتأولها كل نحوى كما يتراءى له . وفى باب الممنوع من الصرف أمثلة من تلك العلل المتهافتة ، وفى باب الاشتغال ولا النافية أمثلة أخرى من تلك الاعتبارات الفلسفية غـير المقبولة . وكثيراً ما ورد فى المسألة قولان أو أقوال ، واستخدمت العلة الواحدة فى إثبات الشىء وضده .

وكان من نتائج هذا أن اختلف النحاة فيما بينهم اختلافا بيناً ، اختلفوا مدارس كما اختلفوا أفرادا . وجدَّ كل فريق فى الدفاع عن رأيه والتـدليل

على وجهة نظره . واعتبرت التوجيهات النحوية ضربا من النشاط الذهنى الذى افتن فيه أيما افتنان فكانت مثار جدل طويل لم يعدم أرسطو الحيلة فى أن يغذيه بوسائله الجدلية الكثيرة ومن الغريب أن الخلاف فيما يصح أن نسميه فلسفة النحو أشد من الخلاف فى النحو نفسه ، ونظرة إلى « كتاب الإنصاف » لابن الأنبارى تكفى لتوضيح ذلك ، فالبصريون والكوفيون مجمعون على رفع المبتدأ ، والخلاف بينهم فى علة الرفع : هل هى الابتداء أو الخبر ؟ والنحاة متفقون على نصب المفعول معه ، وإنما يختلفون فى علة هذا النصب؛ فالجمهور يراها ما تقدمه من فعل، والجرجانى الواو المقارنة لهذا المفعول ، والزجاج يضمر لذلك فعلا خاصاً ، والكوفيون يقولون بعامل معنوى هو الخلاف . ولا أظننى أبيح لنفسى أن أثقل عليكم بسرد أدلة كل رأى من هذه الآراء .

ولو وقف الأمر فى هذا كله عند الخاصة والمتفوقين ، لقلنا لهم شأنهم وليسلكوا من سبل البحث ما يشاءون . أما أن يفرض على شباب المتعلمين جميعاً ، فهذا تكليف بما لا طاقة به ، وإجهاد فى غير طائل . ولعل هذا هو الذى دفع ابن مضاء الأندلسى إلى القول بإلغاء نظرية العامل ورفض القياس والعلل النحوية ، فوق ما كان لديه من اعتبارات أخرى نظرية ولا شك فى أن نظمنا التعليمية خطت خطوات فسيحة فى إعفاء شباب المتعلمين من هذه الفلسفات العقيمة والخلافات غير المجدية ، ولكن لا تزال دعوة تيسير النحو قائمة . وما أحوجنا أن نصنفه تصنيفاً جديداً ، فنحذف منه ما لا لزوم له وما أكثر ذلك ، ونستغنى عن التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات ونقرب نحونا من روح العصر ومقتضيات الحياة الحاضرة ، ونرعى فيه تطور النحو فى اللغات الأخرى .

وإذا كانت لجنة الأحوال الشخصية ، بل والبرلمان قد يسرا للناس كثيراً من أمر حقوق الأسر ، فلن يعز علينا أن نيسر لهم قواعد لغتهم التى يتخاطبون بها ويكتبون قبل أن يتقاضوا ويختصموا .

ابراهيم مدكور

أسد وكلب

جاء هوميروس الشاعر اليونانى رجل وقال له : أهجنى لافتخر بهجائك إذا لم أكن أهلا لمديحك : فقال له : لا . فقال الرجل : إذن سأمضى إلى زعماء اليونان أخبرهم بنكولك . فقال هوميروس : بلغنا أن كلباً حاول مرة قتال أسد بجزيرة قبرص ، فامتنع عليه الأسد أنفة منه . فقال الكلب : سأمضى فأخبر السباع بضعفك . فقال الأسد : لأن تعيرنى السباع بالنكول عن مبارزتك ، أحب إلى من أن ألوث شاربى بدمك .

خصائص الثقافة الإسلامية

للأستاذ محمد خلف الله بك
عميد كلية الآداب بجامعة فاروق

الثقافة - فى اصطلاح الباحثين - هى مجموعة المعارف والجوانب الروحية الأصيلة من حياة الأمة ، ممثلة فى تعاليمها الدينية وتقاليدها ، وأدبها وفنها وفلسفتها ، وأنظمة تفكيرها فى الحياة والسلوك .

ومما ينفع المسلمين فى المرحلة الحاضرة من تاريخهم أن يتعرفوا خصائص ثقافتهم ، ويعملوا على إحيائها ونشرها فى مجتمعهم الحديث ، حتى يصبح مجتمعا موحد النزعات والأهداف ، له طابعه وكيانه المستقل ، وله دوره الإيجابى فى تطور الحضارة الإنسانية المعاصرة . والطريق الصحيح إلى تعرف هذه الخصائص هو العودة إلى تاريخ الإسلام ودراسة مقومات الحياة الإسلامية فى عصورها الذهبية .

لقد نشأ الإسلام فى جزيرة العرب ، ولم تلبث أضواؤه أن انتشرت شرقاً وغرباً ، فنفخت فى الإنسانية روحاً جديداً ، وأخرجت لها ثقافةً واضحة السمات ، أولُ خاصة تميزها أنها تستمد مُثلها وأهدافها ونظم حياتها من وحى السماء : فهى تقوم على عقيدة التوحيد ، والإيمان برسل الله ، لا تفرق بين أحد منهم ، وهى تنظم الصلات والمعاملات بين الناس ، وتبنى قواعد السلوك فى الفرد والمجتمع ، على أسس التشريع السماوى .

والخاصة الثانية لهذه الثقافة أن لسانها المبين هو اللغة العربية : فقد اقتضت حكمة الله أن يختار رسول الإسلام من العرب ، وأن يجعل معجزة دينه كتاباً عربياً ، هو عند المسلمين نهاية الإعجاز فى البيان ، وهو النموذج الخالد الذى يتطلع إليه كل منشىء وأديب فى لغة الضاد . وقد أطلعت الثقافة الإسلامية - تحت راية هذا الكتاب - أعلاماً من المفكرين والمؤلفين بتلك اللغة ، من مختلف الأجناس . وكان القرآن هو الينبوع الذى تفجرت - أو استمدت - منه الدراسات الإسلامية الأصيلة ، من تفسير وتشريع ، وفقه وتوحيد ، وأصول وبيان ، وأخلاق وتصوف ، بل كانت دراساته وتوجيهاته وسيرة رسوله هى الباعث الأول على نهضة التأليف فى الأدب واللغة والتاريخ فى البيئات الإسلامية .

ولم تلبث تلك العقول التى أنشطها الإسلام من عقالها أن تنبهت إلى ما حواليها من مختلف الثقافات القديمة والمعاصرة ، فأقبلت عليها ، ورحبت بممثليها ، وأفسحت لهم المجال فى قصور خلفائها ، ورحاب معاهدها ، وشجعتهم على النقل والترجمة ، فتلاقت بذلك جداول التراث القديم والفيض الدافق الذى فجرته يد الإسلام ، فكان من كل أولئك تلك الثروة الفكرية التى لعبت دورها فى نهضة العالم الحديث .

هذه الثقافة الإسلامية من أغنى الثقافات

العالمية وأعرقها ، فى آدابها ومعارفها الواسعة . فهى تمتاز بكثرة ما أخرجت من الموسوعات الأدبية والعلمية والتاريخية ؛ ولها اتجاه فلسفى ذو طابع خاص حاولت فيه أن توفق بين روح الدين ، وبين التفكير البشرى الفلسفى . ولهذه الثقافة فنها الذى استمد روحه واتجاهاته من بيئاتها ودينها ونظم حياتها ، فكانت له نقوشه وخطوطه ورسومه ، وكان له طابعه الشرقى فى البناء والعمارة .

امتازت هذه الثقافة - إذن - فى معارفها بالشمول وسعة الآفاق وحرية التبادل الفكرى ، وكثرة من أطلعت سماؤها من نجوم الفكر وشموس المعرفة .

ولكن لهذه الثقافة جانباً آخر لا يقل شأناً عن سابقه ، ذلك هو الجانب السلوكى والاجتماعى منها ، فقد وضعت أمام الفرد مثالا من الحياة الصالحة يستطيع أن يسمو إليه ، إذا أحسن استعمال ما وهبه الله من عناصر الخير فى طبيعته. وقد تعهدت هذه الحياة بجملة من الشعائر والعبادات ، وبضروب من التوجيه الروحى والمعاشى ، فى آيات القرآن وسنة الرسول والسلف الصالحين .

وأخص ما تتميز به هذه الحياة التى دعا إليها الإسلام أنها وسط معتدل ، لا هو بالروحى الفانى فى روحيته ، ولا هو بالمادى الطاغى فى ماديته ، يستطيع فيه الفرد أن يعيش لذاته ولغيره ، وأن يعمل لدنياه ولآخرته ، وأن يحاول توفير السعادة لنفسه ، ولأكبر عدد ممكن من بنى الإنسان .

وقد تميزت هذه الثقافة فى ناحيتها الاجتماعية بنظام لا تنفك الأيام تكشف كل حين جديداً من فضائله ومزاياه . هذا النظام فى ناحيته المدنية يوفق توفيقاً حكيما بين سلطان الحاكم وحرية المحكوم من جهة ، وبين مصالح الجماعة وحقوق الأفراد من جهة أخرى ؛ وهو فى ناحيته الاقتصادية عملى مثالى معا ، يحترم الملكية الفردية ، ويقيم إلى جانبها دعامة من البر والتعاون بين الغنى والفقير .

وهو فى ناحيته الإنسانية لا يفرق بين لون ولون ولا بين عنصر وعنصر ، إلا على أساس التقوى والعمل الصالح . وهو فى ناحية الآداب العامة يحض على التزام الطهر والاحتشام فى موقف كل من الجنسين نحو الآخر ، وعلى أن يكون طابع الحياة طابع جد ووقار واعتدال وإخلاص ، فلا إسراف فى متعة ، ولا إغراق فى لهو ، ولا إضاعة للعمر فى عبث أو فضول ، ولا انتهاك للحقوق والحرمات بين الناس .

هذه فى إجمال ، مقومات الثقافة الإسلامية فى ناحيتى المعرفة والسلوك . ومن واجبنا أن ننظر فى ضوئها إلى مجتمعنا الإسلامى الحاضر ، لنرى موقفنا ، ولنتبين طريقنا إلى الإصلاح .

إن الأمم الإسلامية اليوم وصلت إلى درجة من الوعى أدركت معها ضرورة الجد فى توجيه ثقافتها وجهة إسلامية قومية . ولاشك أن الركن الأول فى خلق مجتمع موحد مستقل ، هو قدر عام مشترك من الثقافة القومية يزود به كل مواطن قبل أن يتجه إلى التخصص فى فرع من فروع المعرفة . ومعنى ذلك أنه يجب أن يبنى

التعليم العام فى الأمة الإسلامية على أساس موحد ، يتغذى فيه الناشىء المسلم بالروح الإسلامية ، ويفقه تراث آبائه وأجداده ، ويتعرف إلى معالم تاريخه ، والخالدين من مفكريه وأبطاله.

هذه نقطة مهمة فى جهادنا الثقافى فى الوقت الحاضر ، وقد تنبهت لها مصر ، وقطعت فى العمل بها شوطاً كبيراً : فقربت بين مناهج تعليمها ، وعنيت بتعميم نواحى الثقافة القومية فى تلك المناهج ، وأخذت هى وشقيقاتها من البلاد العربية تسعى فى الاتفاق على قدر من الثقافة ، لا بد لكل مواطن عربى أن يحصله ، وإذا اطّرد السير فى هذا المضمار ، كان لنا أن نتطلع منذ اليوم إلى عهد فى الثقافة العربية الإسلامية ، تتوحد فيه المشاعر ، وتتقارب طرائق التفكير ، ويتصل حاضر هذه الأمة بماضيها ، ويصبح كل مثقف فيها - أيا كانت مهنته أو ناحية تخصصه - فخوراً بتراثه ، ملما بحيوات رجاله ، تهتز نفسه اهتزاز العزة كلما ذكر علياً وعمر والشافعى والطبرى وابن سينا والغزالى والرازى وابن خلدون والجاحظ والمتنبى ومحمد عبده وشوقى ، وغيرهم من رجالات الفكر الإسلامى.

ومن الطبيعى أن تأخذ اللغة العربية فى هذا الجهاد حيزاً كبيراً من التفكير والعناية ، فهى الترجمان الناطق عن هذه الثقافة الإسلامية ، وقد كان هذا شأنها فى مختلف أقطار الإسلام من عربية وغير عربية ، إذ كان المثقف المسلم يهتم بإتقان هذه اللغة قبل أن يهتم بإتقان لغته المحلية . ولا شك أن الحكمة العملية تقضى بأن تحافظ الأمم الإسلامية على هذه الرابطة الكبرى ، وأن تتعاون على تجديدها ونشرها .

أما المجتمع العربى الإسلامى فعليه فى هذا واجب خاص يحتمه مركزه من ثقافة الإسلام : ذلك أن الفصحى هى اللغة القومية لهذا المجتمع ، ومن تمام هذه القومية أن تكون تلك اللغة لغة العلم والحياة معاً ، ولن يستقيم أمر الثقافة العربية الإسلامية حتى تتوحد فيها طرائق التعبير فى البيت والسوق والمدرسة ، وحتى يتفاهم الجميع ويقرءوا ويكتبوا بلغة واحدة .

أما فى الناحية السلوكية فلا مفر للمجتمع الإسلامى - إذا أراد أن يكون له كيانه المستقل - من أن يقيم أركان دينه ، وأن يصبغ حياته الفردية والجماعية بالصبغة الإسلامية ، وأن يعنى فى مجتمعاته العامة بالمحافظة على آداب الاسلام ، وأن يصدر عن روح الإسلام وتعاليمه فيما يعالج من شئون الحياة ومذاهب التفكير .

إن أمام المجتمع الإسلامى اليوم أهدافاً ثلاثة رئيسية ، ينبغى ألا يقصر عن تحقيقها :

الأول - التحرر من رق التبعية لأى سلطان أجنبى ، وهذا شرط لابد منه لوجود ثقافة إسلامية سليمة .

والثانى - التحرر من رق الجهل بمحو الأمية ونشر التعليم ، والعناية بالطابع القومى فى التربية .

والثالث - التحرر من رق التقليد الاجتماعى بالرجوع إلى مناهج الحياة الإسلامية الصحيحة فى السلوك والأخلاق وآداب الاجتماع .

محمد خلف الله

حياة اللغة العربية في الجزيرة قبل الإسلام

للدكتور عبد الحليم النجار
مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

هناك ظاهرة غالبة ، يشبه أن تكون حقيقة ثابتة ، فى حياة العرب اللغوية قبل الإسلام . تلك هى اختصاص الأدب الرفيع ، والتعبير الفنى ، بلغة يغلب عليها طابع موحد ، ونظام متسق ، يخالف ما عرف عن العرب ، وما هو كامن فى طبيعة كل لغة حية ، من تباين فى اللهجات ، واختلاف فى الألسنة .

ويذهب الجمهور من علماء اللغات المحدثين ـ وعلى الأخص المستشرقون ـ تجاه هذه الظاهرة ، إلى التفرقة بين لغة الأدب ولغة الشعب ، بين لسان الشعر وفن القول من جانب ، ولسان الحياة فى مباذلها ومدارجها الرتيبة المعتادة من جانب آخر .

دعنا من بعض مستشرقين آخرين زعموا أن الأمة العربية الأمية فى عهد الجاهلية كانت بمعزل عن صبغة الترتيب العقلى ، والتهذيب الفكرى ، الذى يزعمون أن سبيله الوحيدة هو الثقافة المكتسبة ، فاستكثروا أن تكون للعرب ثروة أدبية بالكلية ، وادعوا أن ما روى لهم من أشعار وآثار هو من صنيع الرواة والعلماء ، بعد أن عرفوا العلوم واصطنعوها ، بوساطة احتكاكهم بالأمم ذات الحضارات القديمة ، والعلوم المتوارثة ؛ بل من هؤلاء المستشرقين من يذهب شططا فيزعم أن القرآن نزل أول ما نزل بلغة عرب الجاهلية المبتذلة ، كما يتصورونها ، وأن القراء والرواة والعلماء هم الذين صقلوه ، ووسموه بميسم العربية الذى ابتدعوه [1] .

ولقد دمغ الراسخون من المستشرقين أنفسهم هذا الرأى بأنه هراء ، وقرروا أنه لا يستحق ذكرا بين الآراء [2] .

ويقرر جمهور المستشرقين [3] أن العرب ازدهرت لهم فى الجاهلية أفنان من الشعر القوى زكت ثمارها ، وأينعت قطوفها ، وإن لم يشارك فى هـذا الازدهار جميع العرب ، بل سكان أواسط الحجاز ، وأهل نجد جميعا ، وما جاور

---

(١) أنظر :

K. Vollers, Volkssprache U. Schrifts-porache im Alten Arabien, 1906.

و :

P. Kahle, The Cairo Genia, London, d. 78-84.

و :

P. Kahle, The arabic Readers of the Koran (Jour. of New Eastern Studies 8, 1947, p. 65-71) etc.

(٢) انظر :

Th. Noldeke, Neue Beitraege zor semitischen Sprachwisseuschaft, 1910, 1-5.

و :

Encyclopédie de l'Islam (sous le titre: Quran).

(٣) انظر :

C. Brockelman, Grundriss der vergleichenden Gramuratik der semitischen Sprachen, I, p. 23.

نجداً من المساكن والديار ، ويدخل فى ذلك سهل الفرات . على حين أن العرب الذين كانوا تابعين للأمبراطورية الرومانية فى سورية لم يظهروا فى هذه الثروة إلا آخذين متأثرين ، لا صانعين مبدعين . وكل شعراء تلك المناطق والديار ، على الرغم من اختلاف قبائلهم وعشائرهم ، اصطنعوا لسانا مشتركا عاما ، لم تكن له - فضلا عن ذلك - حياة فيما عدا هذه اللغة الغنائية الفنية ، لغة الشعر والأدب الرفيع .

ويحاول هؤلاء المستشرقون تقريب ذلك الافتراض - مع اعترافهم بأن تحققه غير طبيعى لعدم ألفة العرب فى الجاهلية للكتابة التى من شأنها تحديد مستوى من التعبير يترفع عن لغة العامة - بأنه توجد فعلا أحوال مشابهة عند بعض الأمم الطبيعية البدائية التى يسود عندها أسلوب خاص فى التعبير الغنائى ، مختلف عن أسلوب التخاطب اليومى الرتيب دون أن تعرف الكتابة ، أو توجد لديها وسيلة إلى اكتساب الثقافة المنظمة .

وهم يرون أن لغة الأدب العربى هذه تمتاز بثروة كبيرة من الصيغ والقوالب ، وتبلغ بدقة وسائل التعبير فيها أعلى قمة النمو بين اللغات السامية كافة ؛ كما أن كنز مفرداتها غنى غنىً خارجا عن المألوف ، لأنه يستمد مددا لا ينقطع تياره من جميع اللهجات الشعبية المتفرقة .

* * *

بهذا الشرح والتفسير يحاول علماء اللغة المحدثون فهم ظاهرة اتحاد لغة الأدب ، إزاء اختلاف لهجات العرب ، وهو فهم يخالف رأى علماء العربية ، ولا يجارى ما تناقلته الروايات التى تفيض بها كتب اللغة والأدب . وقبل أن نأخذ فى بيان ذلك يحسن أن نتعرض لفحص الأسس التى بنى عليها هذا الشرح والتفسير .

يقر المستشرقون ومن جاراهم - كما سبق - بأن افتراضهم غير طبيعى ، إذ لم يكن للعرب عهد فى الجاهلية بذيوع الكتابة وانتشارها على صورة ترسم للتعبير أساليب ثابتة ، ومعايير لها صبغة العموم . وأقصى ما يعتمدون عليه فى تسويغ إمكان وقوع ذلك الافتراض هو القياس على بعض الأمم الطبيعية التى لاتزال موجودة وعندها أسلوب خاص للتعبير الغنائى مخالف لأسلوب كلامها العادى .

ونحن نرى أن هذا القياس بعيد المنزع ، غير واضح المهيع ؛ فشتان بين الأمم الطبيعية المعاصرة فى مجاهل أفريقية ، أو بين شعوب الأمريكيين الحمر ، وبين عرب الجاهلية الذين كان أدبهم ديوان حكمة ، وقانون أمة ، ومشرع حضارة ، ومعين ثقافة ، وبلغ من النضج الفكرى ، والسمو الوجدانى ، والمستوى الخلقى ، مبلغا قل أن نرى مثله عند شعوب أخرى فى القديم والحديث .

كيف وقد رأينا أن هؤلاء العلماء يرون امتياز لغة الأدب العربى بثروة فى الصيغ ، والأساليب ، ترفعها إلى الذروة بين جميع اللغات السامية التى شهدت حضارات ومدنيات متنوعة الألوان ، متفرعة الأغصان . فهل يجوز عقلا أن تسمو لغة أمة بدائية فى تكوينها وطبيعة حياتها - مهما كانت هذه اللغة لغة الأدب فحسب - على لغات

سارت فى ركب الحضارة بخطى سراع، وزاحمت فى ميدان العلوم والمعارف بمنكب وباع ؟

ثم ما هذا التضارب والتناقض! وكيف تسمو لغة الفن والأدب الرفيع على لغة الشعب والحياة المبتذلة ، مع تقرير أن الأولى تستمد عدداً لا انقطاع له من الثانية ، أى من اللهجات الشعبية الدارجة ، الجارية فى تلك الحياة الرتيبة المبتذلة ؟

لا جرم أن الحكم على هذه الصورة لا يستقيم ، ولا يجد مساغا فى العقل السليم ؛ كما أن التسليم بذلك قد يتناقض مع كثير من الأدلة المعقولة والمنقولة ، وينقض كثيراً من الأصول المسلمة المتلقاة بالقبول :

(١) فكثير من الآيات القرآنية ، بله الروايات المتضافرة ، يصرح بأن القرآن - ولغته لغة الأدب الرفيع ، بل أسمى نماذجه باتفاق القدماء والمحدثين - نزل على نبى من العرب ، بلسان العرب ، متحديا العرب جميعا أن يأتوا بمثله أو بعضه ، ومعجزاً إياهم جميعا ، مع أنه من نوع كلامهم، وعلى سنن بيانهم، وبأسلوب تعبيرهم؛ وإلا لما جاز أن يتحداهم ، ولا تم له أن يعجزهم [١].

(٢) كما أنه لو كان للعرب كلام يختلف فى أساليبه ومناهج تعبيره عن لغة الأدب والفن لوجدنا دليلا على وجود ذلك الكلام غير سبيل الافتراض والتخمين ، ولما فقدنا من يشير إلى ذلك أدنى إشارة بين العلماء والرواة ونقلة اللغة الذين كانوا أحرص الناس على مخالطة البدو وانتجاع ديارهم ، وتدوين كلامهم ، وجمع المادة اللغوية من أفواههم ، دون تمييز فى ذلك بين الشاعر المغلق ، والخطيب المفحم ، والشيخ الفانى ، والشاب الجذع ، والعجوز الحيزبون ، والفتاة الرود [١] .

وإذاً فلا بد هناك من حلقة ساقطة تشرح كيف يتحد لسان الأدب والفن عند جميع القبائل فى الصيغ والأساليب ومناهج التعبير ، مع أن هناك أدلة قوية على حصول اختلاف بين تلك القبائل فى اللهجات وفيما اختصت به كل قبيلة من لحن القول .

* * *

هناك حقيقتان تنبغى ملاحظتهما جيداً إذا أردنا أن نفهم حياة العربية فى الجزيرة على حقيقتها قبل الإسلام . ومرد هاتين الحقيقتين إلى تحقيق مدى كل من الاتحاد والاختلاف اللغويين اللذين كانا موجودين فى الجزيرة زمن الجاهلية .

وجميع الشواهد والدلائل تتجه إلى إفادة أن الإسلام لم يشرق نوره ، ولم ينزل فرقانه ، إلا بعد أن كانت قد انتهت فى الجزيرة منذ عهد بعيد سابق على ذلك معارك صراع عنيف بين لهجة قريش وبقية اللهجات الأخرى ، وإلا بعد أن تم للهجة قريش - بما تهيأ لها من أسباب الغلب والظفر - الانتصار الساحق على غيرها . فلا غرو إذاً أن نرى الشعراء ورجال البيان واللسن فى قبائل العرب جميعا يضعون نصب أعينهم مثالا يحتذونه لا يتجاوزونه إلا قليلا ، وأسلوبا موحدا لا يشذ إلا فى جزئيات تافهة يسيرة لا تنقض وحدته ، ولا تعكر صفاء ينبوعه .

(١) انظر مبحث إعجاز القرآن فى كتب الكلام والبلاغة وكتاب إعجاز القرآن للباقلانى بوجه خاص .

(١) أخذ بهذه الحجة نولدكه Th. Noldeke فى الكتاب الذى ذكرناه آنفا .

وقد حفلت كتب العربية [١] بالروايات والآثار التى تؤكد هذه الحقيقة ، والتى تشير إلى عوامل عدة ساعدت لهجة قريش على ما تم لها من ظفر وانتصار . وقد يمكن تلخيص هذه العوامل فى :

(١) العامل الجغرافى : فقد كانت قريش تسكن منطقة مستقلة سميت حجازاً لها يقيها من التأثر البعيد المدى بالمؤثرات الخارجية . ومن هنا احتفظت بخصائص لغتها فلم تندمج فى غيرها ، ولم تأخذ من قبائل العرب إلا بالقدر الذى يروقها ، وينسجم فى دائرة طبيعة لسانها ، أما غيرها من أطراف الجزيرة فكان مفتوح الأبواب للتأثر من داخل الجزيرة وخارجها ، بل من داخلها على وجه أوسع لما كان العرب عليه فى مجموعهم من شبه عزلة عن العالم الخارجى من ناحية ، ولما كانت عليه قريش من مكانة مرقومة تجعلها قدوة فى نظر العرب جميعاً من ناحية أخرى .

(٢) والعامل الدينى : فقد كانت قريش سدنة البيت وجيرته الأدنين ؛ والبيت محجة العرب فى الجاهلية ، وحرمها المقدس الذى كانت تقصد إليه معظم القبائل للعبادة وتبادل المنافع .

وكانت مكانة البيت هذه سبباً فى غزوة الفيل التى ساقها أبرهة الحبشى إلى مكة مدفوعا بباعث الحقد على البيت وعلى توحيده للعرب ، والرغبة فى صرف العرب عنه إلى بيت يؤسسه هو ويكون شعاره سيادة الحبشة .

(٣) والعامل الاقتصادى : فقد كانت معظم تجارة العرب فى أيدى قريش يجوبون بها طرف الجزيرة شمالا وجنوبا فى مختلف الفصول . ومن ذلك رحلتا الشتاء والصيف الوارد ذكرهما فى القرآن الكريم .

فكان من أثر ذلك احتكاك قريش بشتى القبائل ، وفسح مجال الصراع بين لهجتها ولهجاتهم؛ ولاسيما إذا كانت تلك الرحلات طويلة بسبب طبيعة التنقل فى ذلك العهد ، وكان الاختلاط لهذا أعم وأكثر تغلغلا وتأثيراً فى النفوس والألسنة ؛ فضلا عما تجلبه التجارة معها من أرباح مادية وثقافية واجتماعية وغيرها ، إلى جانب البضائع المختلفة الأسماء والوظائف والفوائد ، وكل ذلك هيأ لقريش سمواً وتفوقا على غيرها فى اتساع المدارك وتذوق ألوان الحضارات .

كما كانت أعظم مجامع العرب وأسواقها فى الجاهلية بعد الحجيج تعقد على مقربة من مكة ، وهى عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز . وفيها كان تبادل المنافع ، ومفاداة الأسرى ، والمفاخرة ، والمنافرة ، والتغنى بالحب والجمال ، والتهذيب بالحكم والأمثال ؛ وكان لهذا كله أثره فى صقل اللغة وتوحيدها

---

(١) انظر : المزهر للسيوطى (الفصل الثانى فى معرفة الفصيح من العرب) ؛ وانظر كتاب : فقه اللغة تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، فى تغلب لهجة قريش الخ .

(٤) والعامل السياسى المترتب على كل ما تقدم، فقد يسر ذلك كله لقريش أسباب النفوذ فى أنحاء الجزيرة وظهر أثر ذلك فى الاحتكام إليها عند اللجاج والخصام ؛ وقد بقى هذا النفوذ السياسى لقريش ظاهرا بارزا بعد انتشار الإسلام ، فنرى أبا بكر يحج الأنصار حين طمعوا فى الخلافة قائلا : « لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش » .

إلى غير ذلك مما يقرب فهم غلبة اللهجة القريشية على غيرها ، ويفسر ما تفيض به كتب العربية من أن لهجة قريش أعظم لهجات العرب ثروة وأغزرها مادة، وأسلسها وأرقها وأقربها إلى ذروة البيان ، وأحقها بالتحدى والإعجاز ، وأن قريشا أفصح العرب لسانا ، وأبينهم بيانا الخ [١] .

بيد أن هناك روايات كثيرة أخرى تتعارض كلها فى ظاهرها ، إذ تنسب كل منها أعلى درجات الفصاحة إلى قبيلة معينة غير قريش . فقد ذكر أن أفصح العرب قبيلة سعد بن بكر ، وجشم ابن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وعليا هوازن ، وسفلى تميم الخ [٢] .

ولكننا إذا أنعمنا النظر فيما تقدم من أن اتجاه العرب إلى توحيد لغتهم بتأثير ما للهجة القرشية من قوة وفتوة كان أمرا سابقا على الإسلام بكثير ، فلم يجىء الإسلام إلا وقد عمل فى ذلك الاتجاه عمل كبير ، استطعنا أن نزيل ذلك التعارض فى ظاهر الأمر بأيسر الخطب . فإن العربية كانت قد قطعت فعلا أشواطا بعيدة فى سبيل التوحيد جعلتها وحدة عامة فى الصيغ والأساليب ، وصور التركيب ما عدا هنات هينات من اختلاف يسير تنفرد به كل قبيلة عن غيرها . فكانت هناك قبائل موسومة بالفصاحة لقلة ما فى لغتها من مظاهر ذلك الاختلاف ، وكانت كل قبيلة من هذه تباهى بخلوص لهجتها وفصاحة لغتها ، وتفوقها على غيرها فى الاقتراب من المثل الأعلى للفصاحة ، ومن ثم ادعت كل قبيلة من تلك القبائل أو ادُّعى لها أنها أفصح العرب .

أما أنه كان لا يزال هناك اختلاف بين لهجات القبائل عند ظهور الإسلام فهذا أمر لا يستطيع أحد إنكاره لثبوته بكثير من الأدلة . ولو كانت العربية لغة واحدة لما جاز أن يكون هناك فصيح وأفصح بين اللهجات ، ولما وضحت دلالة للحديث المستفيض الذى ينص على أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، إلى غير ذلك من الأدلة على أن الجزيرة كانت تشتمل على كثير من اللهجات، بمقدار كثرة قبائلها وعشائرها ، وهذا ما تقضى به أيضا طبيعة اللغة فى حياتها ونموها وتأثرها بالمؤثرات المختلفة من جغرافية ، واجتماعية ، واقتصاديه ، وسياسية ، وغيرها .

ولكن هذا الاختلاف لم يصل إلى المستوى المنحط الذى يصوره المستشرقون ، بل هو اختلاف لا يتجاوز ما يمكن أن يكون بين اللهجات من اختلاف .

---

(١) انظر ما نقله السيوطى فى المزهر (الفصل الثانى فى معرفة الفصيح من العرب) عن ابن فارس والفارابى فى أن قريشاً أفصح العرب .

(٢) المزهر فى الموضع السابق .

علم الملوك

لصاحب الفضيلة الشيخ عبد القادر المغربي

رئيس المجمع العلمي العربي – وعضو مجمع فؤاد الأول

علم الملوك هو العلم المعروف بعلم الخبر أو علم الأخبار ، والضليع في هذا العلم كانوا يسمونه أخباريا . والأخباريون هم أولئك الذين اشتهروا بغزارة المادة وسعة الرواية في أخبار الناس . وواقعات حياتهم على اختلاف أزمانهم . وتباين طبقاتهم . وخاصة طبقة العظماء من ملوك وأمراء ووزراء وعلماء وأدباء وشعراء .

وليس كل خبر يصح أن يدخل في موضوع هذا العلم . وإنما موضوعه الخبر الذي فيه طرافة وله روعة . وفي سياقه مفاجأة تثير العجب . وتبعث على الطرب .

وقد يمزج صاحب هذا العلم أخباره بشيء من

ذلك أن هناك مقداراً من الاتفاق والاختلاف ينبغي ألا تتجاوزه اللهجات ما دامت لهجات تابعة للغة واحدة ، ولم تتحول إلى لغات تختلف في طبيعتها بعضها عن بعض .

فاللهجات لكي تبقى لهجات لا بد أن تتفق في طابعها اللغوي العام ، أي أن تكون مطابقة للغتها الأصلية في طبيعة تكوينها التركيبي ، وفي المجموع الغالب من مفرداتها ، وكذلك في الصبغة العامة من أساليب استعمالها ومناهج تعبيرها .

وقد تختلف اللهجات بعد ذلك في أمور عرضية أخرى ، كاختلاف الأصوات بين الفتح والإمالة أو التحقيق والتخفيف ، أو الحذف والإبدال ، أو التصحيح والإعلال ، أو الفك والإدغام ، أو ما شاكل ذلك ؛ كما قد تختلف في بعض المفردات ، وبعض أساليب التعبير ، بحيث لا يغير ذلك من طابعها اللغوي العام .

ومثل ما ذكر من الاختلاف ربما كان سائداً بصورة قوية قبل ما ذكرناه من سيادة اللهجة القرشية وطغيانها على بقية اللهجات العربية ولا سيما في قلب الجزيرة . وربما أعان على توضيح مدى ذلك الاختلاف وبيان قوته ما أسفر عنه التنقيب من نقوش ثمودية وصفوية ولحيانية ، ثم ما كشف من نقوش النمارة وزبد وحران وأم الجمال [1] .

أما بعد سيادة لهجة قريش فقد تكون بقيت بقايا من ذلك الاختلاف هنا أو هناك ، وعند هذه القبيلة أو تلك ، ولكنها لم تزد على أنها كانت بقايا ينظر إليها كأنها هنات من بقع سوداء تشوه وجه التعبير السليم .

ومن هنا نرى علماء العربية يحصون تلك البقايا والخصائص القبلية ، ويعدونها عيوباً في ألسنة قبائل معينة ينبغي أن ينزه عنها الكلام الفصيح ؟

عبد الحليم النجار

---

(١) انظر :
Enno Littmann' Semitic Tnscribtions.

مسائل العلوم والفنون الأخرى فى أثناء سرد أخبار المتفقهة والمحدثين والصوفية والنحاة واللغويين وغيرهم .

هذا هو معنى الأخبار والأخباريين فى تفسير موضوع (علم الملوك) وقد ذكروا لهذا العلم آداباً منها لا يطال الحديث فيملل ، وأن لا يوجز فيجهل . ومنها حسن إلقائه وحسن البيان فيه . ومنها أن يتجنب فيه التكرار وإعادة القول . وقد نظم هذا بعض الشعراء فقال :

إذا تحدثت فى قوم لتؤنسهم
بما تحدث من ماض ومن آت
فلا تعد لحديث ، إن طبعهمو
موكل بمعاداة المعادات

وهناك أخبار أخرى عن أخبار الماضين من رجال التاريخ وأخباريون آخرون وهم الذين يقال لهم فى الأعم الأغلب « أصحاب الأخبار » . كما يقال للواحد منهم « صاحب الخبر » . ويراد بالأخبار إذ ذاك أخبار الناس الحاضرين باعتبار تسميتهم رعية وما يقع لهم فى أسواقهم ومجتمعاتهم وأماكن لهوهم وسمرَهم وسائر أعمال حياتهم حتى أسرار بيوتهم ، يوصلها صاحب الخبر إلى الحكام وذوى السلطان فتساعد هؤلاء معرفتهم بها على سياسة المملكة ، وضبط الرعية ، وتصريف الأمور طبق إرادتهم ، ووفقاً لقوانين دولتهم . وقد يتولى صاحب الخبر مع عمله هذا ، أعمال البريد ، ونقل أخبار البلاد إلى عاصمة الملك . وهو ما نسميه اليوم مدير البرق والبريد .

هذه الأخبار هى التى عناها أحد ملوك أمية وقد سئل عن سبب زوال ملكهم فقال (وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا فزال ملكنا عنا بنا) .

فصاحب الأخبار إذن مأمور سياسى أو إدارى . ويسمى فى لغة هذه الأيام (مأمور تحرى) أو (مأمور استخبارات) والأتراك كانوا يسمونه (خفية) وإذا أريد تحقيره سمى (جاسوساً) . وقد فصلت هذه الوظيفة اليوم عن وظيفة أعمال البريد وأصبحتا مستقلتين بعد أن كانتا قديماً توكلان إلى عامل واحد .

هذا هو الأخبارى فى الاصطلاح السياسى أو الإدارى . أما أخباريّنا العالم بعلم الملوك فهو عالم متفنن مؤرخ أديب محاضر نقاد .

قال السمعانى فى كتابه (الأنساب) : الأخبارى نسبة إلى الأخبار ويقال لمن يروى الحكايات والقصص والنوادر الأخبارى . اهـ) .

وعبارة السمعانى هذه تشعر بلمز هذا العلم وغمز موضوعه ، والغض من مكانة علمائه ، حتى إن قوله هذا حمل بعضهم على الزعم بأن هؤلاء الأخباريين قد يتعمدون الكذب والوضع ، إرضاءً لشهوة الملوك ، واستثارةً لدهشتهم .

وناهيكم سوء ظن العلماء المتزمتين بأكبر أخبارى عربى أعنى (الجاحظ) فهم يعدون علمه قشورا ، وثقافته بورا .

وكأن المؤرخ الكبير ، والأخبارى العظيم ، (المسعودى) توقع أن يوصم هذا العلم ورجاله بما وصمهم به هؤلاء فقال فى تاريخه (مروج الذهب) ١٠ أجزاء ١٩٠ صفحة .

« كل علم من (الأخبار) يستخرج ، وكل حكمة منها تستنبط ، والفقه منها يستثار ، والفصاحة منها تستفاد ، وأصحاب القياس عليها يبنون ، وأهل المقالات بها يحتجون ، ومعرفة الناس منها تؤخذ ، وأمثال الحكماء فيها توجد ، ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقتبس ، وآداب سياسة الملك والحزم منها تلتمس ، وكل غريبة منها تعرف ، وكل عجيبة منها تستطرف ، وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل ، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصيّ والعاميّ ، ويميل إلى روايته العربي والعجمي ، وبعد فإنه يوصل به كل كلام ، ويتزين به فى كل مقام ، ويتجمل به فى كل مجلس » .

وذكرنى حلو الزمان وطيبه
مجالس قوم يملؤون المجالسا
حديثاً وأخباراً وشعراً وحكمة
وبراً ومعروفاً وإلفاً مؤانسا [(١)]

« ففضيلة علم الأخبار بينة على كل علم . وشرف منزلته صحيح فى كل فهم ، فلا يصبر على فهمه ، ويتقن ما فيه إلا إنسان قد تجرد له ، وفهم معناه وذاق ثمرته ، واستسفر [(٢)] من غُرره ، ونال من سُرره [(٣)] . ا هـ » .

وفيما قاله المسعودى دليل واضح على نزاهة هذا العلم ، وكرم موضوعه ، وأمانة علمائه ، وإن كان فيهم من يجرؤ على الوضع أحياناً فشنشنة نعرفها من إخوانهم الوضاعين فى علم الحديث والتاريخ والأنساب : ففى كل علم من هذه العلوم الثقة المحقق ، والوضاع الممخرق ، وعلم الأخبار والسير والحديث والتاريخ والأنساب ويضاف إليها علم القصص والمقامات والمحاضرات ، متقاربة فى موضوعاتها ، متفاوتة فى شرفها ونبل غاياتها ، وليس المقام متسعاً للمقارنة بينها . وشرح (المبادىء العشرة) لكل منها ، وإنما نقتصر على (علم الأخبار) أو (علم الملوك) الذى هو موضوع كلمتنا هذه .

ورجال هذا العلم طبقات . فالطبقة الأولى عاشت فى صدر الإسلام أى فى زمن الدولة الأموية ، وأول من اشتهر من رجال هذه الطبقة عبيد بن شرية الجرهمى . الذى كان يسمر مع معاوية (رضى الله عنه) ويحدثه بأخبار الأمم الماضية ، ولا سيما ملوك اليمن . وكان معاوية يرتاح إلى أخباره ويستزيده منها . ثم أمر كتابه أن يدونوا ما يقوله ابن شرية . فجمعوا روايات فى كتاب سمى باسم (أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) وهو فى نحو مئة و ثمانين صفحة طبعت أخيراً فى الهند وهذا الكتاب يجعله بعضهم أول كتاب دون فى الإسلام .

ثم يأتى من بعد ابن شرية (وهب بن منبه)

---

(١) ويشبه هذا ما قاله بعض الفضلاء فى هذا العلم وهو : أن فى علم الأخبار سلوة للنفوس وآدابا نافعة للرئيس والمرؤوس لأن القلوب ترتاح الى الأخبار من شجونها ، والآذان تصغى الى سماع طرفها وفنونها ، والوحيد يأنس بمطالعتها . والجليس ينبسط الى مطارحتها . والملوك يتحفون بها . وينال الجاه عندهم بسببها . ا هـ

(٢) استسفر المرأة طلب منها أن تسفر .

(٣) سرة الحوض مستقر الماء فى أقصاه . فيكون معنى نال من سرره استخرج فوائده من أعمق أبحاثه .

المتوفى سنة ١١٠ هـ فقد كان أخبارياً واسع الرواية جداً ، وقد جمعت رواياته فى كتاب على حدة سمى بكتاب (التيجان فى ملوك حمير) وقد طبع هذا الكتاب فى الهند أيضاً .

ويأتى من بعد هذين محمد بن اسحاق (المتوفى سنة ١٥٢) والواقدى (المتوفى ٢٠٧) والهيثم ابن عدى (المتوفى سنة ٢٠٦) ومحمد بن سعد (المتوفى سنة ٢٣٠) وهشام الكلبي وغيرهم . ومصنفات هؤلاء فى الأخبار والسير والمغازى مشهورة . وقد أدركوا أوائل عهد بنى العباس .

أما الطبقة الثانية من الأخباريين فهى التى كانت فى عهد ازدهار خلافة العباسيين . وأشهر رجال هذه الطبقة حماد الراوية والأصمعى وأبو عبيدة وابن قتيبة الدينورى صاحب عيون الأخبار المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ثم المسعودى صاحب مروج الذهب المتوفى ٣٤٦ هـ والأصبهانى صاحب كتاب الأغانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ وأبو حيان التوحيدى المتوفى سنة ٣٨٠ وصاعد اللغوى المتوفى سنة ٤١٠ هـ ولا يمكن حصر رجال هذا العلم لكثرتهم ولفقد كتبهم وآثارهم ، فأبو الفضل أحمد طيفور (المتوفى سنة ٢٨٠ هـ لم نعرف أنه من كبار الأخباريين إلا بعد أن نشر أحد المستشرقين (هنس كلر) الجزء السادس من تاريخ بغداد الذى ضمنه طيفور سيرة الخليفة المأمون . وكذلك أبو محمد البلوى الذى عاش بين القرنين الثالث والرابع لم نعرف أنه من كبار الأخباريين إلا بعد أن نشر كتابه (سيرة أحمد بن طولون) .

ومن أراد استيفاء طبقات هذا العلم ومعرفة رجاله وما تركوا من الآثار فليرجع إلى فهرست ابن النديم فإنه فى الفن الأول من المقالة الثالثة سرد أسماءهم واحداً واحداً . وأتى على شىء من تراجمهم وغريب ما يروى عنهم .

وهناك واحد من رجال هذه الطبقة (الثانية) بذّ الأوائل والأواخر فى استحكام ملكة هذا العلم فى نفسه . أعنى به أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ صاحب التصانيف الممتعة فى كل ضرب من ضروب الأخبار ، وهو بحق سيد الاخباريين الإسلاميين وإمامهم . إمامة الجاحظ فى علم الخبر جعلته ترتقى بفنه إلى الأوج ، ويضع فيه المصنفات ويباهى به أرباب العلوم والصناعات ، حتى سمّاه (علم الملوك) إكباراً له عن أن يسمى (علم الخبر) : فقد ذكر الإمام السيوطى فى كتابه المزهر (جزء ٢٠ صفحة ٣٥٧) أن الجاحظ كان يقول « إن علم الخبر والنسب وهو علم الملوك » ، ويريد بالنسب أنساب العرب ، ولا جرم أن معرفتها جزء من معرفة أخبار البشر .

وقام بعد هذه الطبقة الثانية العباسية طبقة ثالثة شغلت بأخبارها ومصنفاتها التاريخية عقول أهل القرون الوسطى :

منهم ابن الجوزى وابن منقذ وابن خلكان والصفدى والذهبي وابن السبكى وفى طليعتهم ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فإن معجميه

(معجم الأدباء ومعجم البلدان) من أمتع كتب الأخبار وأجمعها للفوائد والطرائف ، ومما يعجب ذكره : أن (ياقوتاً) سمى علم الأخبار (علم الملوك) كما سماه الجاحظ ، ولا نعلم إن كان هذا منه اتفاق مصادفة ، أو اتباع موافقة . وذلك أن (ياقوتاً) رد على من حط من قدر كتابه (معجم البلدان) وتنقص الأخبار التي فيه . فقال ياقوت : (إن هذه الأخبار أخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث ، وبصناعتهم تُنال الإمارة ، ويستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الإسلام ، وباستنباطهم يُعلم الحلال والحرام ، وإن كتابي هذا هو علم الملوك والوزراء والكبراء ، يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ، ونزهة لنفوسهم) .

وإذا صح ما نقل عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أنه قال : (عليكم بطرائف الأخبار فإنها من علم الملوك والسادة . وبها تنال المنزلة والحظوة لديهم) - إذا صح هذا - كان سيدنا عمر هو صاحب التسمية ويزداد هذا العلم بذلك شرفاً على شرف . ومهما يكن من أمر واضع هذا الاسم - أكان عمر أو ياقوتاً أو الجاحظ - فإن الملحوظ أنه إنما سمى بعلم الملوك ، لما أن الملوك لهم من مشاغل الملك ومهام السياسة ما يصرفهم عن النظر فى العلوم ، وكد الذهن فى فهم حدودها وتعريفاتها ، وحفظ مسائلها وتقسيماتها ، فلم يبق إلا أن تقدَّم إليهم هذه العلوم بشكل خلاصات أو (مستحضرات) يتناولونها فى مجالس أنسهم ، وبين أهل سمرهم ، وقد تضمنت المستملح من أخبار الناس الحاضرين، وحوادث البشر الغابرين .

فالأخبار التى دونها كل من المسعودى والجاحظ ثم من جاء بعدهم كالمحسِّن التنوخى فى كتبه (نشوار المحاضرة [1]) و (الفرج بعد الشدة) وأبى الفرج الأصبهانى فى كتابه (الأغانى) - لم تكن أخباراً ساذجة ، ولا أحاديث لهو لاغية ، بل إن لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية

فكل طالب نصيب من هذه المعارف البشرية يجد فى (علم الملوك) ما يشحذ ذهنه ، ويثقف عقله ، ويقوى ملكته . ويعده لأن يخوض غمار الحياة العملية ، بعد أن يكون واقفاً وقفة العواجز على عتبة علومه النظرية .

والملوك ورجال السياسة والإدارة فى طليعة من يستفيد من هـذا العلم الذى سميناه (علم الملوك) .

وروى عن أبى العتاهية أن المأمون استدعاه يوما فدخل عليه فإذا هو مطرق مفكر . قال أبو العتاهية . فأحجمت عن الدنو منه وهو على تلك الحال ، فرفع رأسه وأشار بيده : أدن . فدنوت ، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه فقال : ياأبا إسحاق شأن النفس الملل وحب الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . (ويريد المأمون بالاستطراف طلب معرفة الغريب النادر من الأخبار ، قلت أجل يا أمير المؤمنين ولى فى هذا المعنى بيت من الشعر ، قال هاته ، فقلت :

---

(١) هو فى عدة أجزاء ظفر منها بثلاثة طبع أحدها المستشرق مرجليوث وطبع الاثنين الأخرى مجمعنا العلمى الدمشقى

لا يصلح النفس ما دامت مقسمة
إلا التنقل من حال إلى حال
والنفس المقسمة هي المهمومة . ا ه .

وقد وسمت طبقة الإخباريين الراسخين في (علم الملوك) من بين سائر طبقات العلماء بميسم الكياسة والحذق والظرف : فقد روى أن إمام النحاة أبا عثمان المازني رتب طبقات علماء كل علم وماز بعضهم عن بعض بأوصاف خاصة فقال:

أصحاب القرآن فيهم كذا وكذا[1] .
وأصحاب الحديث فيهم كذا وكذا[1].
وأصحاب الشعر فيهم هوج .
وأصحاب النحو فيهم ثقالة .
وأصحاب الأخبار فيهم الظرف كله .

وقد عرف الخلفاء والملوك والأمراء لرجال هذا العلم فضلهم ومزيتهم فقربوهم وأدنوا مجالسهم وتنافسوا في اجتذابهم إليهم ، وإغداق الصلات والجوائز عليهم .

بل إن الجاحظ نبه إلى فضيلة هذا العلم وجلالة قدره وفضله على الإنسانية بما لم يسبقه إليه سابق ، فقد ذكر في رسالته (كتمان السر وحفظ اللسان)

« من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار ، وبهذه الجبلة نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين وعن الغائبين إلى الشاهدين ، وأحبَّ الناس أن ينقل عنهم ، ونقشوا خواطرهم في الصخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . فقام مجيء الأخبار عن غير تشاعُر ولا تواطىء مقام العيان ، وعُرفت البلدانُ والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات . ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار ، وحلت محلها بينهم ، ولكن الله خالقهم حببها إليهم لهذا السبب » .

ولعلم الملوك مسائله . وهانحن أولاء نذكر منها على سبيل المثال النموذجين الآتيين :

احتاج الناصر إلى قطعة أرض من أراضي الأحباس العامة وهي ما نعبر عنه اليوم بقولنا (الأوقاف العمومية) وتقع تلك الأرض قبالة قصره في قرطبة . وكانت ترمى فيها القاذورات ، وتسرحُ فيها دواجن البيوت . فأراد الناصر استبدالها بأرض من أملاكه ، وتحويلها إلى متنزة يضمه إلى متنزهات قصره . فكتب إلى فقهاء قرطبة في طلب الأرض ، وذكر في طلبه أنه يعوض الوقف أرضاً أرفع ثمناً ، وأوفر غلة .

فلم ير الفقهاء في مذهبهم المالكي ما يجيز هذا الاستبدال ، فاستدعاهم الملك إلى قصره فحضروا ، وكان فيهم قاضيه (ابن بقي) فأخرج إليهم أحد وزرائه يكلمهم في الأمر فقال :

يقول لكم أمير المؤمنين : يا مشايخ السوء ، يا مستحلي أموال الناس ، وذكر جُملاً أخرى من هذا الطراز إلى أن قال : إن الخليفة واقفٌ على أعمالكم ، وهو مغض عنكم حتى احتاج في المدة الأخيرة إلى دقة نظركم في حاجة مرة واحدة في دهره فلم تلبوا طلبه ، ما كان هذا ظنه فيكم ، ليفعلن بكم وليفعلن .

فأسرع منهم شيخٌ ضعيف النفس فاعترف بذنبه ، وطلبَ من الملك العفوَ والصفح وأعلن

(١) قال المازني فيهم قولا نزهق ونتنزه مقالنا عن ذكره

توبته . فالتفت إلى ذلك الشيخ ! (محمد بن حسونة) وقال له : مِمّ تتوب يا شيخ السوء ؟ نحن براء منك . ثم خاطب الوزير قائلاً :

بئس المُبَلِّغ أنت . وكلّ ما ذكرته على لسان أمير المؤمنين هو صفتكم أنتم معاشرَ خَدَمَته . أنتم تفعلون كذا وكذا . أما نحن فأعلامُ الهدى . ومصابيحُ الظلام . بنا تُقام الفرائض ، ويُفرَّق بين الحلال والحرام . ثم قال :

هلا بلغتنا رسالة أمير المؤمنين التى قالها على غيظ بألين أسلوب . وأخفّ كلام . فنحن نعلم أن أمير المؤمنين لا يتمادَى على هذا الرأى فينا بل سيرجع بالعذر علينا ، على أنه لو صحّ ما قلته على لسانه لبطل جميعُ ما تمّ على يدنا من العقود والأحكام فى مدة خلافته ، فلا عقدُ حربٍ ولا سلم ولا وقفٍ ولا عتق ولا بيع ولا شراء مما جرى بشهادتنا وحكمنا .

ثم نَهَضَ وتبعه رفاقه . فوجه الخليفةُ من ردّهم اليه ، فأكرمهم واعتذرلهم ، وخلع عليهم .

وكان فى قرطبة لذاك العهد فقيهٌ داهيةٌ اسمه (ابنُ لبُابة) كان فى مجلس الشورى فعزل منه . فأرسل إلى الخليفة يقول : لو لم أكن معزولا لأفتيت سيدنا الخليفة بجواز الاستبدال .

فردّه الخليفة إلى الشورى ثم عاد فاستأنف طلب استبدال أرض الوقف من الفقهاء . فردّوا طلبه كالأول . فاستفتى (ابن لبابة) فأجابه : إن قول مالك فى المسألة هو ما قاله الفقهاء من أهل المغرب ، أما العراقيون من فقهاء المشرق فهم لا يجوزون الوقف أصلا . وإذ قد دَعَتْ الحاجة أميرَ المؤمنين إلى استبدال أرضه فأنا أفتيه بذلك مقلّداً العراقيين .

فاعترض الفقهاء عليه آسفين من تركه مذهب مالك . وهو مذهب البلاد وأبنائها ، والخليفة وآبائه فاحتج عليهم (ابن لبابة) قائلا :

ـ أسألكم فاصدقونى : ألم تنزل بأحدكم نازلةٌ اضطرته إلى تقليد إمام غير إمامه مالك ؟

فقالوا : بلى . فقال لهم فأمير المؤمنين أولى أن تفتوه بتقليد غير مذهبه كما فعلتم . فسكتوا .

عندها عمل الخليفة بفتوى (ابن لبابة) وعوض الوقف أملاكا تزيد قيمتها أضعافاً .

أمّا الخديو (عباس) فهل وُفّق إلى ما وُفّق اليه (الناصر) فيقوم من فقهاء زمانه فقيهٌ يسارع فى هواه . ويفتيه بما يرضيه ؟ كلا .

أحب سمو الخديو عباس أن يستبدل أرضاً فى الجيزة . معدة للبناء . تابعة للأوقاف العمومية بمزرعة من مزارعه الخاصة معروفة باسم (مشتهر) ، وأن تعطيه الأوقاف زيادة على أرضها ثلاثين ألف جنيه . وأن ذلك كله يكون فى مصلحة الوقف .

وقد عرض طلبه هذا على مجلس الأوقاف الأعلى . وكان فى هذا المجلس مفتى الديار المصرية أستاذنا الشيخ محمد عبده كما كان للخديو فى المجلس نائب عنه هو المرحوم (حسن باشا عاصم) .

فعارض المفتى فى هذا الاستبدال ما لم تعين لجنةٌ من أهل الخبرة يقدرون ثمن أرض الوقف ، وثمن المزرعة الخديوية ، ليعرف ما إذا كان هذا الاستبدال فى مصلحة الوقف أولا ؟

وبعد أيام قدمت اللجنة إلى المجلس تقريراً

القمة الموحشة

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

المدير العام لمعاهد المعلمين والمعلمات

« ستذهب إلى هذا الرجل يا سليمان بن مخلد ، وستجلس اليه خالياً أو مع غيرك من أهل هذه الدولة ، وستسمع منه وتقضى اليه بما تراه من رأيك ، فاعلم يا سليمان أنك لن تستطيع أن تدرك غوره وإن خيل اليك أنك تفعل » .

هكذا كان عبدالملك بن حميد يتحدث إلى سليمان ابن مخلد أبو أيوب المورياني عندما أراد أن يقدمه لأبي جعفر المنصور أمير المؤمنين العباسي .

وكان أبو أيوب شابا حسن الهيئة تلوح عليه الوداعة ويلمع الذكاء فى شعاع نظراته إذا رفع عينيه من إغضائهما . وأجاب الفتى قائلا :

ـ سأكون يا سيدى عندما تحب ، وسترضى عن اختيارك إياى ، وسأحفظ لك هذا الصنيع ما دمت حيا .

فقال الشيخ وكان فى صوته ما ينم عن الحزن :

ـ لست أدرى يا ولدى إن كنت تعرف هذا الرجل وما تكلفك مصاحبته من المشقة . وقد كنت أحاول جهدى أن أستميل قلبه وأبلغ عنده ما أحب ولكنها الشيخوخة يا ولدى . الشيخوخة والمرض وضيق الصدر تجمع على فلا أملك نفسى ولا يُطيعنى لفظى حتى عرفت أننى ثقلت عليه وتبينت أنه يريد أن يستبدل بى غيرى .

وها أنذا أسبقه فاخترك لتكون عنده بدلا منى حتى لا يختار له كاتباً آخر يهدم علينا كل ما بنيناه ويفسد كل ما ترفقنا فى إصلاحه . ولست أحب أن أخيفك أو أن أخلع قلبك قبل أن تبدأ عملك ، ولكنى لا أجد بدا من أن أفتح عينيك وأجلو بصيرتك لعل الله يكتب لك التوفيق معه .

كانت خلاصته : إن أرض الوقف تفضل مزرعة سمو الخديو بعشرين ألف جنيه .

وبهذا التقرير خسر الخديو خمسين ألف جنيه : الثلاثين ألفاً التى كان يتوقع الحصول عليها من الزيادة ، والعشرين ألفاً التى أوجب عليه الخبراء تأديتها لجهة الوقف .

فأحفظ هذا الصنيع قلب سموه على المفتى فجعل من يومئذ يتربص به الدوائر .

وكان لهذه الحادثة أثرها الجميل فى نفوس المصريين . وقد هنأوا المفتى والباشا على هذا الموقف الذى دل على تجردهما وكبر نفوسهما . ومبلغ ثباتهما فى خدمة الحق ، وصيانة العدل .

هذان نموذجان من العلم الذى سميناه (علم الملوك) فيهما تسلية وفكاهة ، وفيهما علم وفقه ، وفيهما تاريخ وخبر ، وفيهما عظات وعبر لمن اتعظ واعتبر .

[دمشق] المغربى

فقال الشاب هادئا :

- بارك الله عليك يا سيدى فقد عرفت مقدار برك بى وحدبك على ، وليست هذه أول مرة تغمرنى بفضلك وبرك . ولكنى أحسب أننى أعرف الرجل ولا أجد فى نفسى قلقاً من التقرب اليه .

فقال الشيخ فى فتور :

- تحسب أنك تعرفه ؟

فقال أبو أيوب : بل أعرفه حقاً يا سيدى . أعرف أنه لا يشبه إذا حلق فى الفضاء وانقض على فريسته وأعرفه كالذئب ينام بإحدى مقلتيه ويسهر بالأخرى . وأعرفه كسنان الرمح لا يلين فى طعنته . عرفت فيه هذا وغير هذا ولكنى لا أجد فى نفسى قلقاً من التقرب اليه .

فقال الشيخ باسماً :

- أمروض سباع يا أبا أيوب ؟

فقال الشاب باسماً كذلك :

- ولم لا أكون يا سيدى ؟ أنت تعلم أننى من أول من دخلوا فى دعوة هذه الدولة وأننى بايعت آل محمد وكنت من المقربين إلى أبى سلمة الخلال . ولست بعيداً عن قلب الرجل فقد كانت لى عليه يد لا ينساها . فصاح الشيخ عبد الملك .

- لك عليه يد ؟ .

فقال سليمان بن مخلد : إذا شئت أن تسميها يدا . كنت كما تعلم كاتباً لسليمان بن حبيب وهو عامل لمروان بن محمد على الاهواز فأتى حراسه برجل : قالوا عنه إنه أبو جعفر عبد الله بن محمد العباسى . فما وقعت عينى عليه حتى عرفت أنه سيكون صاحب هذه الدولة الجديدة إذا لم يحل الموت دونه . وجعل سليمان يعنفه ويطالبه بما معه من الأموال ويتهمه بأنه اختان الدولة وسلب رعيتها ودعا بالسياط فضربه أربعين سوطاً . ولكن الرجل كان كما قلت فى وصفه أصلب من سنان الرمح فلم يستطع سليمان ابن حبيب أن ينال منه شيئاً . فالقيت بنفسى عليه وحميته بظهرى واخذت أجادل بن حبيب وأخوفه من دولة بنى العباس المقبلة وأشعره باليأس من دولة بنى أمية حتى رضى أن يضعه فى السجن ويعدل عن تعذيبه .

فلما سكن الليل حركت الجنود المضرية فاقتحموا عليه سجنه وأطلقوه فأصبح يسير آمناً على طريق البصرة . ألم تكن هذه يدا لى عنده ؟

فقال عبد الملك فى اهتمام :

- إذن فالرجل يعرفك يا ولدى . لقد نبهتنى إلى شىء لم أفطن إليه قبل هذا . اذكر الآن أنه كان يتجه بى إلى جهتك فى حديثه حتى إذا ما نطقت باسمك وثب إليه وثوبا . ألا ترى أنه رجل لا يسبر غوره ؟ حتى أنا لم استطع أن أسبر غوره .

ثم قام وأمسك بيد الفتى وتلفت حوله كأنه يخشى أن يكون أحد فى ركن من أركان الحجرة فيسمع من قوله حرفا . ثم قال هامساً .

- تذكر ياسليمان بن مخلد أننا نخاطر بحياة أمة بأسرها ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها . تذكر ما ذاقه قومنا الفرس منذ مائة عام حتى لاحت لنا هذه البارقة من آل محمد . فهؤلاء هم يبذلون لنا الوعود ويظهرون لنا المودة ويعتمدون

علينا ويجعلون ثقتهم فى ولائنا ، وإذا لم يفسد علينا هذا الأمر كان من اليسير علينا أن نستعيد فى دولتهم مجد أمتنا . ولكن آمالنا كلها معلقة على شعرة . أتفهم قولى ؟

وكان الفتى يستمع إليه فى لهفة وقلبه يخفق سعيداً بأن عبد الملك بن حميد يتحدث إليه ويثق فيه ويفضى إليه بمكنون أسراره ، وقال فى صوت متهدج :

أظننى أفهم طرفا مما تقول ياسيدى ، ولكننى لا أفهم كيف تتعلق الآمال بشعرة .

فقال الشيخ مرتاحا :

أحسنت فى سؤالك وهذه بشرى تنبىء بأنك جاد فى نيتك . أقول إن آمالنا معلقة على شعرة لأن أبا جعفر مثل أخيه الذى سبقه - أبى العباس عبد الله بن محمد ومثل سائر بنى هاشم ليسوا سوى عرب خلص . وإذا كان غيظهم من بنى أمية يجعلهم يلجأون إلينا ويستندون على نصرتنا ، فإنهم لن يلبثوا أن ينقضوا عهدنا إذا أحسوا منا خوفا .

ورفع الفتى رأسه فى شىء يشبه الذعر فتلاقت عيناهما فى صمت ، ومضى الشيخ قائلا :

فليكن كل همك ألا تقطع هذه الشعرة ياولدى ، بل اجعل همك أن تقويها وتعززها حتى تصير سبباً متيناً يصل بين هذه الدولة وبين أمتنا . هلم نذهب إلى أمير المؤمنين يا ولدى فإنه ينتظرنا ولا ينبغى أن يرانا أحد نطيل حديثنا ، سوف ألقاك فى مجلس الخليفة بين حين وآخر؛ ولكنى سأعرض عنك ولا أظهر لك ارتياحا ، ولتكن مراسلتنا سرا ورمزا . وسأختار لك الأمين الذى يحمل رسائلنا ، هلم بنا إلى القصر لندرك وقت الصلاة فنصلى العشاء وراءه جماعة .

وخرج الشيخ مع صاحبه فركبا إلى قصر أمير المؤمنين أبى جعفر فى مدينة الكوفة . وهكذا اتصل أبو أيوب أول مرة بالخليفة العباسى الصارم فى أول حكمه عند ما كان لا يزال يبنى قواعد ملكه .

وكان أبو أيوب ظريفاً لبقا حلو الحديث كأنه خلق ليكون صاحبا للملك . كان خبيراً بالكيمياء والطب ، حاذقا فى الحساب ، أديبا بارعا فى اللغة ، وكان فوق هذا عالما بالنجوم يتحدث إليها ويستطلع أخبارها ، قديراً فى السحر حتى قالت العامة إنه اتخذ لنفسه دهنا يمسح به وجهه كلما دخل على الخليفة فإذا هو أسلس الناس له قيادا .

وما أسرع ما صار سليمان بن مخلد سيد رجال الدولة وأقرب أولياء الخليفة حتى كان أبو جعفر يقول لأمرائه إذا أعدت له مجلساً أنيقاً ، إنه لا يجد فى ذلك المجلس متعة إلا إذا شاركه فيه كاتبه أبو أيوب المورياتى .

وهل يستطيع الإنسان أن يكون سوى إنسان ؟ كان قلب أبى أيوب عند ما دخل على الخليفة أول مرة يحس أنه يحمل معه أمل أمه . كان كما قال له عبد الملك يعرف أن ذلك الأمل معلق على شعرة ، وأن عليه أن يقويها ويحميها ويعززها ، ولكنه بلغ من الجد ما لم يبلغه أحد من رجال الدولة ، ونال من بر الخليفة وثقته ما لم ينله كاتب ولا وزير فى دولته . ووجد نفسه آخر الأمر يعتلى ذروة شامخة لم يستطع أحد أن

يطمح إليها ، ولم يجرؤ وزير قبله أن يرقى إليها . أصبح هو العين التى يرى الخليفة بها ، والأذن التى يسمع بها واليد التى يحركها إذا أراد بطشاً . ومنذ بلغ تلك القمة نسى كل شىء إلا أن يحتفظ بمكانته السامية فوقها .

صار كل همه أن يحمى نفسه من المنافسين الذين يخشاهم على نفسه ، وأن يحتفظ بثقة سيده الذى أعطاه ما لم يعطه ملك لأحد من رعيته . وبدأ يشعر بالقلق والخوف ويمتلىء بالهم والرهبة . كان يحس فى أعماق حسه المرهف أنه لن يتحرك من ذروته الشاهقة إلا لكى يهوى إلى هوة عميقة . كان ينظر حوله من فوق تلك الذروة التى يتسنمها ، فلا يرى إلا خلاء موحشاً ليس فيه أنيس ولا صديق ، ثم يلقى بنظرة إلى أسفله فلا يرى سوى غور مظلم بعيد . كان لا يحس فى قلبه سلاماً ، ولا يعرف اطمئناناً ، بل كان فى مجده شقياً وفى سلطانه العظيم مضطرباً خائفاً . كان مثل الثرى الذى تحوى خزائنه الكنوز العظيمة ، ويقضى أيامه ولياليه فى حراستها دائم القلق والنصب .

ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يدفع عن نفسه إرادة القضاء فنفذت إليه المقادير من حيث كان يريد أن يزداد أمناً على مكانته ، وهكذا نحن معاشر الأحياء نتجه إلى مصائرنا كأن عيوننا مغلقة ، وإن خيل إلينا أننا نبصر ، وننقاد إلى أقدارنا وإن حسبنا أننا نمسك بأعنتها .

كان أبو جعفر قد نقل عاصمته إلى بغداد الجديدة ـ بغداد الصغيرة التى بدأت مثل عدد ضئيل لا يستطيع أحد ممن دخلوا إليها أول مرة يتصور أنها ستبلغ من السعة والعظمة ما بلغته من بعد . كانت عند ذلك لا تزيد على حصن يشبه الدائرة يحيط به نطاقان من الأسوار وفى قلبه قصر أمير المؤمنين مثل النواة فى الثمرة .

وأما أمير المؤمنين المنصور فمقامه فى حجرة تكاد تكون عارية ، ليس فيها شىء ما يدل على أبهة الملك أو براعة الفن . وكان يخلو هناك إلى نفسه وإلى هموم دولته الفسيحة كأنما هو أحد السباع الحانقة يتربص فى مكمنه ويجيل بصره فيما حوله ولا يشم إلا رائحة الدماء . لم يجلس هناك يوم فى لهو أو طرب ولم يعبأ فيه بسمر أو نجوى صديق . كان ينتظر هناك صاحب البريد الذى يحمل أنباء الثورات أو صاحب الشرطة يحمل إليه رقاع الجواسيس الذين يبلغونه الهمسات الخافتة .

وهناك أتى إليه يوما فتى يريد أن يفضى إليه بنصيحة وأبى الأدلاء بها إلى أحد غير الخليفة . بل إنه أبى أن يقضى بها إليه إلا إذا خلا المجلس من كل من كان هناك من خاصة رجال الدولة فلما صار وحده مع أبى جعفر رفع إليه عينيه فوجده ينظر إليه كما ينظر السبع الحانق إلى فريسته . وثارت فى قلب الفتى دعوة كما ثارت فى قلب الخليفة شكوك كثيرة . فماذا يريد ذلك الفتى الذى لم تقع عينه عليه من قبل ؟ أهو أحد البائسين جاء إليه يتعلل بتلك النصيحة ليحاول أن يفتك به ؟ ولكن وجهه كان لا ينم على شىء من الشر أو الغدر ، فهو وسيم وديع فيه شبه عجيب بصورة

مألوفة . فمن يكون ؟ وما تكون تلك الصورة المألوفة التى تشبه الطيف فى الحلم البعيد ؟ وجعل أبو جعفر يتأمل نظرة الفتى وجبينه وأنفه ولونه الأسمر وقامته الفارعة المتينة .

كانت نظرته إلى الخليفة تشبه نظرة كلب أليف فيها جرأة وفيها مودة وفيها انكسار وخشوع . فاطمأن أبو جعفر وأطال النظر إلى مودة الفتى مرتاحا كأنه يسبح فى حلم غامض بعيد العهد وقال فى نفسه : « لا ليس مثل هذا من يضمر الغدر بى » .

وقال للفتى :

ـ هات ما عندك يا فتى . من أنت أولا ؟ .

فقال الشاب فى صوت خافت به هزة مكبوتة :

ـ أنا ابنك يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور فى صرخة : ابنى !

فأجابه الشاب : نعم أنا ابنك وهذه علامتى .

وأخرج من جيبه قميصاً وخاتما وقال :

ـ هذه علامتى .

فاستلقى المنصور على ظهر وسادته كأنه كان مشدوداً إلى وثاق ثم انفك منه فجأة . وغاب لحظة طويلة فى ذكريات قديمة هجمت عليه كما تهجم الأمواج على الشاطىء الصخرى فى ساعة المد . إنه يعرف هذا القميص حقاً وهذا هو الخاتم الذى أعطاه لزوجته الأهوازية عندما كان يضطرب فى الأرض وحيداً طريداً خائفاً يتخفى فى بيوت أصحابه ويخشى أن تمتد إليه أيدى أعدائه . حقا هذا هو الخاتم الذى خلفه عند امرأته الحسناء ابنة دهقان الأهواز . لقد أنسته الحوادث الجليلة تلك الزوجة المسكينة التى سكن إليها أشهراً قليلة ثم أزعج عنها فغادرها وذهب فى الأرض ليستأنف اضطرابه ، ويمهد لدولة بنى العباس بالعرق والدماء والأشلاء . ونذكر يوم ودعها وهى تتمسك به باكية وتذكره بالجنين الذى يجاور كبدها . مسكينة تلك الزوجة البعيدة ، فماذا كان اسمها ؟ لقد نسى اسمها كما نسى الجنين الذى خلفه عندها ، وها هو ذا يرى ابنها أمامه شابا فيه ذلك الشبه العجيب من الصورة الغامضة التى لاحت له كأنها شبح فى حلم بعيد العهد . وقام فاعتنق الفتى وأسال من دمعه على كتفيه واختفى المنصور العارم المخيف ولم يبق منه إلا الوالد الذى يهزه الحنين .

وكان بينهما حديث طويل أحس فيه الرجل الذى قضى حياته فى الصراع والجلاد بأنه عاد شابا طريداً يتوجس خيفة من أنظار الأعداء . ألا ما أعجب هذه المقادير فى تصاريفها ، وما أضعف القلب البشرى فى نسيانه ! كان عند ذلك لا يملك شيئاً من دنياه ولا يأمن شيئاً على نفسه ؛ وها هو ذا قد أصبح سيد الدنيا ويملأ الآفاق بهيبة سلطانه ؛ ومع ذلك فهو ما يزال مضطربا لا يأمن على نفسه شيئاً . أهى سخرية القضاء أن يهب له كل ما كان يطمح اليه ثم يدعه آخر الأمر دائم الطموح والقلق كأنه لم يقبض إلا على خيال .

ودعا صاحبه أبا أيوب المورياني بعد أن قضى حيناً فى حديث مع ولده وكان قلبه ما زال يشتعل حنيناً وقلقاً . فماذا يقول لوزيره وماذا يقول للناس ؟ أيأمن أن يجهر قائلا ها هو ذاك ابنى ؟

وماذا يقول ابنه محمد المهدى الغيور الذى كان أشد حرصاً على ولاية عهده من أبيه على ملكه ؟ إنه لو جهر بهذه الحقيقة لأدخل على الدولة سبباً جديداً للفتنة وفتح للناس باباً جديداً من الأحاديث ، ومن يدرى ؟ من يدرى ماذا يكون وراء هذه الأحاديث وتلك الفتنة ؟

وأوصى الفتى قائلا :

ـ لا يسمع أحد منك لفظاً مما قلت لى يا ولدى . ولا يجتمع بك أحد من الناس إلا أن يكون فى حضرتى وأما هذا الذى بعثت اليه ، هذا الوزير أبو أيوب المورياني ، فإنه رجل أهوازى مثلك ، وستقيم عنده فى بيته حتى أدبر لك من بعد هذا أمرا . ولكن السر الذى بيننا لا ينبغى له ولا لغيره أن يعرف منه حرفا . أتعدنى ؟

فقال الفتى : اسمع وأطيع يا أبى .

ووقعت نغمة صوته فى أذن أبى جعفر كأنما هو يسمع نفسه .

وقال المنصور لوزيره عند ما أقبل عليه :

اجعل هذا الفتى فى بيتك واصنع له ما كنت تصنع لولدى لو بعثت به إليك ، وله أن يزورنى متى شاء فلاحجاب لأحد عليه ؛ ولكن لا يقترب منه أحد غيرى .

وخرج أبو أيوب مع الفتى من القصر خفية حتى بلغ داره . وكان فى طريقه صامتاً دهشاً لايدرى أى سر جديد ذلك الذى طرأ على الخليفة بغتة . من هذا الفتى ؟ ولم يبعثه المنصور إلى بيته ليقيم معه ؟ وما الذى يحمله على كل ذلك التستر ، وعلى كل هذه التوصية ؟ ثم من هو حتى يذهب إلى القصر متى شاء فلا يحجب عنه ولا يؤذن لأحد أن يراه أو يقترب منه غيره ؟

ومنذ حل الفتى فى بيت أبى أيوب لم يهدأ له بال فى ليل ولا فى نهار ، فكان فى كل يوم يصابحه ويماسيه لغزاً غامضاً مستعصيا .

كان الفتى لا ينبس بكلمة كأنما هو باب مغلق ينطوى على سر عميق ، باب نهاه أمير المؤمنين أن يعرف ما وراءه . إنها القصة القديمة — لا تدخل من هذا الباب فيتحرق القلب شوقا إلى الدخول ، ولا تأكل يا آدم من هذه الشجرة فيخاطر آدم بالخروج من الجنة ويأكل من الشجرة.

وهكذا أحس أبو أيوب . أحس كأنه وهو واقف على قمته العالية ومن حوله الفضاء الموحش ومن تحته الهوة العميقة ، يرى شبحا غامضا يقبل عليه فيزاحمه ولا يدرى من أين أتى . فماذا يبغى المنصور من وراء إقامة ذلك الفتى عنده ؟ أيضمر له كيدا كما أضمر من قبل لأبى مسلم وغير أبى مسلم من أوليائه الذين أقاموا له دولته ؟ أم هو يطمع فى أمواله كما كان يطمع فى أموال غيره من العمال الذين يرفع إليه جواسيسه أنهم يخفون كنوزهم العظيمة حيث لا يطلع أحد عليها؟

إن أعداءه كثيرون يتربصون به الدوائر ويحاولون فى كل يوم أن يدفعوه عن القمة التى يعتليها ، ولكنه يدفعهم عنها ويلقى بهم إلى الهاوية العميقة التى تحف بها . فهل ذلك الفتى أحد هؤلاء ؟ وحاول مرة بعد مرة أن يعرف من الفتى أو يكشف عما يكون بينه وبين أمير المؤمنين

إذ خلا إليه ، ولكن الفتى كان لا يبيح له أن يتدسس إلى شيء من أسراره .

وهكذا نسى أبو أيوب كل شيء إلا الخطر الذى يلوح له من جانب الفتى الصامت الذى لا يريد أن ينطق له بكلمة . نسى كل شيء إلا نفسه والقمة العالية التى يقف عليها وحده والهوة العميقة التى تحت قدميه .

وقضى ليلة مسهدة طويلة يفكر فى أمر المنصور وذلك الشاب الغريب الذى كان يذهب إليه كل ليلة فيخلو معه ساعة طويلة ثم يعود إليه متستراً بالظلام ولا يقول له فيم كانا يتناجيان . فماذا عليه لو دفع ذلك الشاب المجهول عن قمته التى جاء يزاحمه فيها ، ثم يبتدع عذراً يحتال فيه بحكمته كما ابتدع من قبل أعذاراً كثيرة فيمن تخلص منهم من المنافسين .

وكان أبو أيوب بارعا فى الطب والكيمياء كما كان بارعا فى حساب النجوم . وها هى ذى النجوم تبسم له قائلة « أقدم ولا تتردد » .

وأعد فى أكوابه وبواتقه جرعة لا يفيق من يتجرعها ، ثم أعد معها طعاما من طرف مختارة ، وفواكه ممتازة ، وحلوى شهية ، فى ليلة من ليالى الخريف الساجية . فلما عاد الشاب من مجلسه فى القصر وقف له يخدمه بنفسه وفاء بوصية أمير المؤمنين ، ثم تركه وذهب إلى مخدعه ينتظر الصباح فى لهفة . فلما طلع الصباح ذهب إلى الفتى على عادته ليقوم على خدمته فوجده على الأرض ميتا ووجهه المقلص يدل على ما قاساه من الآلام المبرحة .

وما هى إلا ساعة قصيرة حتى ضجت الدار بالفزع والحزن وانطلقت أصوات الفجيعة من النساء والجوارى يندبن الفتى النبيل الذى وافاه الأجل كما يوافى الناس فجأة .

وذهب أبو أيوب مسرعا إلى الخليفة ليحمل إليه النبأ الفظيع وكانت عيناه تدمعان وصوته يضطرب وهو يروى قصة المفاجأة القاسية . بات الفتى أتم ما يكون شبابا وصحة ثم طلع عليه الأجل فى الصباح كما يقتل الصقيع الزهرة واطرق حزينا ويداه على صدره خشوعا ، وكانت تلوح له من وراء غشاء الدمع صورة الفتى وهو يزاحمه على القمة العالية يريد أن يدفعه إلى الهوة التى تحتها . وكاد يصرخ عندما خيل إليه أن شبح الفتى يريد أن يتمسك به لكى يترديا فى الهاوية معا :

وسمع المنصور وهو يقول له فى صوت أجش كأنه حشرجة قتيل : « أمات حقا فجأة ؟ »

ونظر إليه أبو أيوب فلم يقو على أن يلتقى نظرة عينيه الصارمتين التى تشبه نظرة الفهد الغاضب ، فأغضى مرغما وخرج موليا غير متمالك من الخوف ، كأن الفهد يثب من ورائه يريد أن ينشب فيه أنيابه .

وقضى أبو أيوب الليلة فى سجن القصر مسهداً كما قضى الليلة السابقة فى داره مسهداً . ثم دخل عليه الموكلون بالعذاب ليستقصوا منه أمواله قبل أن يقذفوا به إلى الهاوية المظلمة التى تحف بالقمة التى كان واقفاً عليها ـ القمة الموحشة ؟

محمد فريد أبو حديد

المساواة في الإسلام

للدكتور علي عبد الواحد وافي بك

لم يصل أى تشريع سماوى أو وضعى فى مبلغ الحرص على مبدأ المساواة إلى ما وصل إليه الإسلام ، فقد قرر الإسلام مساواة الناس أمام القانون ومساواتهم فى الحقوق العامة السياسية وغيرها ، وقرر ألا تفاضل بينهم إلا على أساس أعمالهم وكفاياتهم ومايقدمه كل منهم لربه ونفسه ووطنه والمجتمع الإنسانى . فقضى بذلك على نظام الطوائف وأساليب التفرقة بين الطبقات فى الحقوق والواجبات . وفى ذلك يقول الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ويقول عليه السلام فى خطبة الوداع التى جعلها دستوراً للمسلمين من بعده وجمع فيها أسس الدين الإسلامى : « أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ؛ فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ! ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » ، ويقول عمر رضى الله عنه فى وصيته لسعد بن أبى وقاص : « إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ؛ فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء » ، ويقول فى وصيته للخليفة من بعده : « اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله » .

ولم يكن الأمر مقصوراً على وضع قواعد وتقرير مبادىء ؛ بل إن التاريخ ليغبئنا أن هذه المبادىء كانت منفذة بحذافيرها أدق تنفيذ فى عهد الرسول عليه السلام وفى عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، أى فى أثناء هذه المرحلة الذهبية التى تمثل مبادىء الإسلام أصدق تمثيل . فقد جاء مرة أسامة بن زيد إلى النبى صلى الله عليه وسلم يشفع فى امرأة وجب عليها حد السرقة ، فانتهره عليه السلام وقال مغضباً : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وتقاول مرة أبو ذر الغفارى وعبد زنجى فى حضرة النبى عليه السلام ، فاحتد أبو ذر على العبد وقال له : « يا ابن السوداء »

فغضب النبى عليه السلام وقال : « طف الصاع ، طف الصاع ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، فوضع أبو ذر خده على الأرض ، وقال للأسود : « قم فطأ على خدى » .

وشكا يهودى على بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب فى خلافته ، فلما مثلا بين يدى عمر ، نظر عمر إلى على وقال له : « اجلس يا أبا الحسن » ، فظهرت آثار الغضب على وجه على . فقال له عمر ما معناه : « أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وأن تمثل وإياه أمام القضاء » . فقال على : « لا ! ولكننى غضبت لأنك لم تسوّ بينى وبينه إذ خاطبتنى بكنيتى ، فقلت يا أبا الحسن » (والخطاب بالكنية كان عندهم أسلوبا من أساليب التعظيم) وحدث مرة أن ولداً لعمرو ابن العاص ضرب رجلا من دهماء القوم من المصريين ظلما فى عهد ولاية أبيه على مصر ، فأقسم المجنى عليه ليشكونه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقال له ما معناه : اذهب فلن ينالنى ضرر من شكواك فأنا ابن الأكرمين ، فبينما كان الخليفة مع خاصته وعمرو بن العاص وابنه معهم فى موسم الحج قدم هذا الرجل عليهم وقال مخاطباً عمر : « يا أمير المؤمنين إن هذا - وأشار إلى ابن عمرو - ضربنى ظلما ، وقال اذهب فأنا ابن الأكرمين » فنظر عمر إلى عمرو وقال له . « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، ثم توجه إلى الشاكى وناوله درته ، وقال له « اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك » وحدث مرة أن عمر بن الخطاب فى أيام خلافته رأى رجلا وامرأة على فاحشة ، فجمع الناس وقام فيهم خطيبا ، وقال : « ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة » فقام على وأجابه بقوله : « يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف ، شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين » . فسكت عمر ولم يعين شخصى المجرمين .

ولم يكتف الإسلام بتقرير المساواة بين الناس أمام القانون وفى الحقوق العامة السياسية وغيرها ، بل عمل كذلك على تقرير أكبر قدر ممكن منها فى الناحية الاقتصادية ، وعلى تقليل الفروق بين طبقات الناس وتقريبها بعضها من بعض ، وتحقيق الاشتراكية المعتدلة فى أحسن صورها ، واتخذ لذلك وسيلتين : إحداهما الميراث ؛ والأخرى فرض ضرائب على الأغنياء . والإنفاق منها على الفقراء وعلى مرافق الدولة .

أما نظام الميراث فى الإسلام فهو من أمثل النظم لتوزيع الثروات بين الناس . وذلك أنه يقسم التركة على عدد كبير من أقارب المتوفى ، فيوسع بذلك دائرة الانتفاع بها من جهة ويحول من جهة أخرى دون تكدس ثروات كبيرة فى يد فئة محدودة من الناس ، فبفضل هذا النظام الحكيم لا تلبث الثروات الكبيرة التى يتفق تجمعها فى يد بعض الأفراد . أن تتوزع ملكيتها بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الأنفس وتستحيل إلى ملكيات صغيرة .

وهذه هى أمثل طريقة لتقليل الفروق بين

طبقات الناس وتقريبها بعضها من بعض وتحقيق الاشتراكية المعتدلة في أحسن صورها. ولحرص الإسلام على الوصول إلى هذه الأغراض حظر على الشخص أن يوصى بشيء من ماله لأحد ورثته، فقال عليه السلام: «لا وصية لوارث»؛ وحظر عليه كذلك أن يوصى لغير ورثته بأكثر من ثلث ماله. فأين من هذا النظام الحكيم نظم أوروبا الحديثة التي ينتقل بعضها جميع ثروة المتوفى أو معظمها إلى البكر من أولاده، ويدع بعضها المالك حرا في أن يوصى بها لمن يشاء! فتجمعت من جراء ذلك ثروات ضخمة في يد أفراد محدودين من الناس، وأثار هذا حفيظة الفقراء، وأورثهم الحقد على المجتمع ونظمه. فنشأت المذاهب المتطرفة الهدامة، واضطرب نظام الحياة الاقتصادية أيما اضطراب، وأدى هذا إلى معظم الانقلابات والثورات العنيفة التي تعرضت لها أوربا في العصور الحديثة.

أما الوسيلة الثانية التي اتخذها الإسلام لتحقيق أكبر قدر ممكن من المساواة في الحياة الاقتصادية، وهي فرض الضرائب على الأغنياء وصرف ما يجبى منها لسد حاجات الفقراء وللإنفاق على المرافق العامة، فقد طبقها الإسلام في أوسع نطاق، فلم يغادر أية ناحية من نواحي الثروة إلا فرض عليها نوعاً من الضريبة الثابتة أو التصاعدية. ففرض الخراج على العقار، وفرض العشر أو نصف العشر على ما تنتجه الأرض، وفرض الزكاة على جميع مظاهر الثروة الأخرى؛ فرضها على عروض التجارة وما في حكمها؛ وفرضها على الذهب والفضة وما في حكمهما، وعلى الأنعام ومنتجاتها.

وبجانب هذه الضرائب المقررة أوجب الإسلام التصدق على الفقراء في مناسبات كثيرة كعيد الفطر والحج؛ وجعل التصدق على المساكين أو إطعامهم أو كسوتهم كفارة لعدد كبير من الجرائم والخطايا التي يكثر حدوثها.

وفضلا عن الضرائب المقررة والصدقات التي تقدم للفقراء في المناسبات السابق ذكرها، فقد حبب الإسلام إلى الأغنياء التصدق بفضل أموالهم على الفقراء، وجعل هذا من أكبر القربات وأعظمها أجراً. فقال تعالى يمدح المؤمنين: «وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم»، وقال: «يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون»؛ «إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير»؛ «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»؛ «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم»؛ «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون». «مثل الذين ينفقون أموالهم في

سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وأوجب الإسلام على أهل كل حى أن يعيش بعضهم مع بعض فى حالة تكافل وتعاضد ، يرق غنيهم لفقيرهم ، ويسد شبعانهم حاجة جائعهم . فأكثر عليه الصلاة والسلام من الإيصاء بالجار ، حتى قال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » . ويروى أن رجلا كان عند عبد الله بن عباس وغلام له يذبح شاة ، فقال ابن عباس : « يا غلام لا تنس جارنا اليهودى » ، ثم عاد فكررها ثانية وثالثة . فقال له الرجل : « كم تقول ذلك يا ابن عباس ؟ ! » فقال : « والله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما زال يوصينا بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » أى سيجعل له نصيباً مما نترك .

وقد قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة أمام القانون وفى الحقوق العامة ، فجعل المرأة مساوية للرجل فى هذه الشئون ، فأباح لها التعلم بمختلف أنواعه ومراحله ، بل جعله فريضة عليها فى الحدود الضرورية لها فى شئون دينها ودنياها . فقال عليه السلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وأباح لها كذلك أن تضطلع بمختلف الوظائف التى يمكنها الاضطلاع بها ولا تتعارض مع واجباتها الأخرى ولا مع أوضاعها فى الأسرة والمجتمع .

وقد سوّى الإسلام بين الرجل والمرأة فى الحقوق المدنية والمالية ، فجعل للمرأة الحق فى أن تملك وتبيع وتشترى وتهب وتقبل الهبة وترهن وتوصى وتعقد باسمها العقود وتتصرف فى مالها بسائر وجوه التصرف ، بدون حاجة إلى إذن زوجها أو رضاه . وهذه المنزلة من المساواة لم يصل إلى مثلها بعد أحدث القوانين فى أرقى الأمم الديمقراطية الحديثة . فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت لا تزال إلى عهد قريب أشبه شىء بحالة الرق المدنى .

فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية ، كما تنص على ذلك المادة ٢١٧ من القانون المدنى الفرنسى إذ تقرر أن « المرأة المتزوجة - حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها - لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » (1) . ومع ما أدخل على هذه المادة بعد من قيود وتعديلات ، فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر . وتوكيداً لهذا الرق المدنى المفروض على المرأة المتزوجة

(1) Art. 517. La femme, même non commune ou séparée de biens, ne peut donner, aliéner, hypothéquer, acquérir à titre gratuit ou anéreux, sans le concoars du mari dans l'acte, au son consentement par écrit.

تقرر معظم قوانين الأمم الأوربية ، أو يقضى عرفها ، أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها ، فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ، بل تحمل اسم زوجها وأسرته فتدعى « مدام فلان Madame un tel » أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها . وفقدان الاسم رمز إلى فقدان الشخصية المدنية للمرأة واندماجها فى شخصية الزوج ، ومن الغريب أن كثيراً من المتفرنجات من سيداتنا يحاولن أن يتشبهن بالغربيات حتى فى هذا النظام الجائر ، ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة فتسمى الواحدة منهن نفسها « مدام فلان » أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته ، بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها كما هو النظام الإسلامى . وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه المحاكاة العمياء . وأغرب من هذا كله أن اللائى يحاكين هذه المحاكاة هن المطالبات بحقوق النساء ومساواتهن بالرجال .

وإذا كان الإسلام لم يسوّ بين الرجل والمرأة فى شئون الإشراف على البيت ومرافق الأسرة والوظائف العائلية والاجتماعية ، فخص كلا منهما بأمور حرم منها الآخر ، فقد كان ذلك لحكمة بالغة ، وهى مراعاة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له والعمل على صون المرأة من الابتذال . وفى هذا ضمان لصلاح المنزل والمجتمع وتحقيق لمبدأ توزيع العمل .

وإذا كان الإسلام لم يسوّ بينهما فى الميراث ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، فما ذاك إلا لأن مسئولية الرجل فى الحياة من الناحية المادية وغيرها أوسع كثيراً فى الأوضاع الإسلامية من مسئولية المرأة ، فالرجل هو رب الأسرة وهو المكلف بالإنفاق على جميع أفرادها . على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على نفسها . فنفقتها واجبة على أبيها أو ولى أمرها أو أقاربها ما دامت لم تتزوج أو فى غير عصمة زوج . ونفقتها واجبة على زوجها ما دامت فى عصمته لا فرق فى ذلك بين أن تكون فقيرة لا تستطيع الإنفاق أو غنية تستطيعه . ونفقتها واجبة على بيت المال إن لم يكن لها زوج ولا عائل ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون قادرة على العمل والكسب أو غير قادرة عليه ، فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من حظ المرأة حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التى وضعها الإسلام على كاهله وأعفى منها المرأة ضمانا لسعادة الأسرة .

وإذا كان الإسلام لم يسوّ بينهما فى الشهادة فجعل شهادة المرأتين معادلة لشهادة رجل واحد ، فما ذاك إلا لأن ناحية العاطفة فى المرأة تطغى أحيانا على ناحية إدراكها وتمتزج بعناصره ، فتغير كثيراً من صور ما أدركته من حيث لا تشعر هى بذلك ، فاقتضت العدالة أن يتخذ شىء من الاحتياط حيال شهادتها . وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » . ؟

على عبد الواحد وافى

الشيخ عبد الله الشرقاوى

للأستاذ محمود الخفيف
سكرتير تحرير مجلة الأزهر

واخشع ملياً واقض حق أئمة طلعوا به زهراً وما جوا أبحراً
من كل بحر فى الشريعة زاخر ويريك الخلق العظيم غضنفراً
شوقى

ترى ماذا كانت تحدثه به نفسه حين قدم إلى الأزهر مجاوراً قبيل الثلث الأخير من القرن الثانى عشر للهجرة ؟ أكان يحس فى نفسه من الطموح ما يرجو معه أن يكون فى غده شيخ الشيوخ ؟

انتهت به رحلته الشاقة من بلدته « الطويلة » إلى الجامع العتيق ، وحل الفتى القادم من الشرقية بحى الأزهر ، كما يحل الآلاف غيره من المجاورين لا يكادون يعرفون من القاهرة إلا هذا الحى .

ولقد كانت القاهرة يومذاك موطنين ، يذكر الناس فى أحدهما اسم الله بكرة وعشيا وحين يغدون وحين يروحون ؛ ولا يكاد يذكر اسم الله فى الآخر ذاكر ... أما الأول فحيث يقوم الأزهر فى مدينة المعز ، وأما الثانى فحيث تقع بركة الأزبكية فى حى المماليك . وكانت تتحلق حول الأزهر مساكن المجاورين والعلماء ، عليها فى النهار سيما التخشع والاستحياء ، وتضيئها فى الليل كما تضىء المسجد مصابيح كابية ، ولكن من نورها نوراً ينفذ إلى أقطار الشرق . وكانت تدور بالبركة قصور البكوات والأمراء تتألق فى الضحى ، وتزخر بالجاه ونعيم الحياة ، وتتوهج مصابيحها فى الليل ولكنها لا تكاد تضىء ما حولها . والناس بين هذين الموطنين تجار وأصحاب حرف ، ليس لهم جلال العلماء ، ولا أبهة المماليك . فأكثرهم جهلاء مستضعفون .

وأقام المجاور الشرقاوى حيث يذكر اسم الله ، تقع عيناه كل يوم على العلماء يتحلق الطلاب حولهم . وأكبر الظن أن قصارى ما كان يمتد إليه أمله هو أن يغدو شيخاً كهؤلاء الشيوخ . ولو قد تكشفت حجب الغيب يومذاك لهذا الفتى الشرقاوى عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الذى ولد فى بلدة الطويلة فى حدود سنة خمسين ومائة وألف كما يقول الشيخ الجبرتى ، والذى حفظ القرآن فى قرية «القرين» ، لرأى أنه سوف يغدو فى قومه أول مصرى يجتمع فى شخصه طرفا المدينة ؛ فهو فى غده شيخ الأزهر وهو فى نفس الوقت رئيس الديوان الوطنى الذى سوف يعينه بونابرت ليعاون الحاكم الفرنسى فى حكم القاهرة !

* * *

بدت على الفتى الشرقاوى أمارات الذكاء

والجد ، وأقبل على أشياخه وكتبه ، لا يلهيه عن العلم عبث ، ولا يفتنه عن الجد ما عسى أن يفتن الشباب من زينة الدنيا ! وأنى له اللهو والزينة وهو حتى لو لم يكن له من دينه وخلقه وازع ، لا يكاد يجد قوته إلا فى كثير من العسر ؟ وهل كان للأزهرى المجد إلا أن يُقبل على شيخه إذا انعقدت حلقته وأن يعكف على كتبه إذا انفضت الحلقة ؟

« سمع الكثير على الشهابين : الملوى والجوهرى والحنفى وأخيه يوسف والدمنهورى ، والبليدى ، وعطية الأجهورى ومحمد الفاسى وعلى المنسفيسى الشهير بالصعيدى وعمر الطحلاوى ، وسمع الموطأ فقط على على بن العربى الشهير بالسقاط » هذا ما يذكره الشيخ الجبرتى عن بعض ما حصل معاصره وزميله الشرقاوى من العلم .

وأراد الشرقاوى السلوك فى طريق من الطرق الصوفية على عادة أكثر الشيوخ فى ذلك العهد ، يقول الجبرتى « ولما أراد السلوك فى طريق الخلوتية ولقنه الشيخ الحفنى الاسم الأول حصل له ولهٌ واختلال فى عقله ، ومكث بالماريستان أياما ثم شفى ولازم الإقراء والإفادة » .

ولكن ذلك لم يحل بينه وبين العلم ، وما لبث المجاور عبد الله بن حجازى أن أصبح عالما بين العلماء . ونُبه اسم الشرقاوى وذهب له صيت « ودرس الدروس بالجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية وبرواق الجبرت والطيبرسية وأفتى فى مذهبه وتميز فى الإلقاء والتحرير » .

وظل الشيخ الشرقاوى مجداً يطلب المزيد من العلم ، كما ظل حريصا على إفادة من يتحلقون حوله من المجاورين . وما تزال حلقته تتسع سنة بعد سنة . وكان إذا فرغ من دروسه ومن العمل فى مؤلفاته انقلب إلى الشيخ محمود الكردى ، إذ كان شديد الحرص على المشاركة فى أذكاره فقد تلقن منه وواظب على مجالسته .

« وكان على حال من خشونة العيش وضيق ذات اليد فلا يطبخ فى داره إلا نادراً ، وبعض معارفه يواسونه ويرسلون إليه الصفحة من الطعام » .

ولكن خشونة العيش لا توهن عزيمته ولا تصرفه عن الدرس والتأليف فى الفقه والتصوف ، وكذلك لا تصرفه مشاغل العلم عن شيخه الكردى ، حتى اشتهر فى الناس صلاحه كما ارتفع بينهم ذكره ، وأخذ يقدِّم إليه بعض محبيه من المصريين والشاميين الصِّلات نخفت عليه خشونة العيش . ولما مات الشيخ الكردى كان الشرقاوى من جملة خلفائه وصار كثيرون من المجاورين الذين يتحلقون حوله فى النهار يطلبون العلم ، يدورون به فى الليل يذكرون الله .

هكذا عاش الشرقاوى حتى أواخر العقد السادس من عمره لا يكاد يخرج من مدينة المعز ، ولا شىء من صلة بينه وبين مدينة المماليك ، أو بينه وبين مصر كلها التى آل أمرها منذ سنة ١١٨٣ إلى على بك الكبير ثم إلى مماليكه من بعده : محمد أبى الذهب وإبراهيم ومراد . وماذا عسى أن يكون من صلة بين مواطن الحكم والسلطان ، وبين شيخ من شيوخ الأزهر ، يعكف

على الدرس طيلة نهاره ، ويقوم ليله إلا قليلا يعبد الله ؟

* * *

فى سنة ١٢٠٨ مات الشيخ أحمد العروسى شيخ الأزهر ، وأشيع فى أهل الأزهر تارة أن المشيخة بعده للشيخ مصطفى الصاوى ، وأشيع تارة أخرى أنها للشيخ عبد الله الشرقاوى ، وما زالت الشائعات تختلف قوة وضعفا حتى جاء اليقين ، فإذا بالشرقاوى يغدو شيخاً للأزهر « فزاد فى تكبير عمامته وتعظيمها حتى كان يضرب بعظمها المثل » .

ولكن ما لبث أن اشتد الخلاف بين الصاوى والشرقاوى على أمر غير المشيخة وشايع كلا منهما فريق من الشيوخ . ولقد كانت للصاوى منزلة عظيمة عند العروسى وظلت له عند خلصائه . وكان ما تنازع عليه الشيخان درساً يؤدى بعد صلاة العصر بالمدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى . وكان العرف أن يلقى هذا الدرس شيخ الأزهر. وكان لهذه الوظيفة معلوم ؛ وحدث أن تركها العروسى لشيخ ضرير نازعه عليها ، وكان يرى أنه أحق بالمشيخة منه ، هو الشيخ محمد المصيلحى . ولما مات المصيلحى أجلس فيها الصاوى ، وظل الصاوى يلقى الدرس بعد أن آلت المشيخة إلى الشرقاوى ؛ ولكن بعض أصحاب الشرقاوى ما زالوا يوسوسون له أن مشيخته لا تتم إلا بها حتى ركن إليهم . ثم إنه ذهب فى جمع منهم وألقى الدرس بدلا من الصاوى واستعان الصاوى بكتخدا إبراهيم بك الكبير ، وجمع له جمعاً من العلماء وذهبوا إلى الشرقاوى فى بيته فنزل عنها للصاوى بعد أن أشهد الجمع على أنها استحقاقه . ولم يرض الصاوى هذا الكلام فأغلظ له وعاب عليه انقياده لمن حوله.

ولقد توحى هذه الرواية بأن فى الشرقاوى ضعفاً. وبخاصة إذا زدنا عليها أنه حين آلت إليه بعد موت الصاوى عمل بعض ذوى الكيد على إخراجه منها فشكوا من شدته فى طلب المعلوم إلى الباشا ، وهو الوالى العثمانى ، ووشوا عنده بوشايات أخرى ، حتى حمله الباشا على أن ينيب فيها بعض الفقهاء .

ولكن للشرقاوى من مواقف القوة فيما نقصّه من سيرته ، ما نرجح معه أنه إنما خشى الحرج من اتهامه بالحرص على معلوم الوظيفة فلان للصاوى ولان للباشا .

وما عهدنا الشرقاوى بعد ذلك يلين فى موقف من مواقف الحق ، بل لقد عهدناه يزداد قوة كلما تجبر أولو القوة .

حدث فى السنة الثانية من مشيخته ، أن أهل قرية من الشرقية كان للشيخ بها حصة شكوا من تعسف مماليك الألفى واستعانوا بالشيخ ؛ فاتصل الشرقاوى بإبراهيم بك ومراد بك فلم يفعلا شيئاً ، فما كان من الشيخ إلا أن أغلق الجامع الأزهر ، وأمر الناس فأغلقوا الأسـواق والحوانيت ، وركب فى طائفة من المشايخ نحو مقر المماليك وتبعهم خلق كثير من أهل القاهرة

ومن بعض القرى ممن ضاقوا بجور هؤلاء المماليك. فلما صاروا بحيث يراهم إبراهيم بك هاله جمعهم، فأرسل إليهم أيوب بك الدفتردار فقال العلماء: «نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها، فأجاب الدفتردار إن المماليك إن فعلوا ذلك «ضاقت عليهم المعايش، فقال العلماء: «ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس، وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك، والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ»؛ وانصرف الدفتردار ولم يعد لهم بجواب، فعاد الشيخ ومعه العلماء إلى الأزهر واجتمع أهل الأطراف والرعية وباتوا بالمسجد... ومعنى ذلك أن القاهرة باتت تتحفز لوثبة!

وخشى إبراهيم العاقبة ونصح لمراد بالصلح، وأذعن مراد واستعان ببعض الشيوخ ليصلحوا بينه وبين الشيخ الأكبر، وجاء الباشا نفسه إلى بيت إبراهيم واجتمع هناك بالأمراء، وجاء العلماء يحيطون بالشرقاوى شيخ الأزهر. «ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح»... وكان من شروط هـذا الصلح «أن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس... ويسيروا فى الناس سيرة حسنة» وأرسلت هذه الشروط إلى مراد بك نختم عليها «وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء، وعاد الشرقاوى إلى كتبه وحلقات دروسه وحلقات ذكره...

* * *

فى اليوم العاشر من المحرم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، ورد إلى القاهرة من الإسكندرية أن سفناً فرنسية رست بالشاطئ «لا أول لها يعرف ولا آخر يوصف».

ماذا يصنع إبراهيم ومراد؟ وماذا يصنع الباشا العثمانى؟ وماذا يقول أهل القاهرة؟ هل شعروا أن صفحة تفتح فى تاريخهم القومى؟ إنهم يتطلعون إلى العلماء منذ أن جاءتهم تلك الأنباء، وهل كانوا ليتطلعوا إلى مراد وإبراهيم؟

وزحف نابليون إلى القاهرة زحفه، وقد أخذ المماليك بمدافعه ومربعاته، وأعد لأهل مصر ادعاءاته ومنشوراته، وفر مراد إلى الصعيد، وهرب إبراهيم إلى الشام، وكان مع إبراهيم الباشا العثمانى والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وكثير من العلماء منهم السادات والشرقاوى. ولبث بونابرت فى مقر قيادته بالجيزة، واهتدى الناس إلى مقر قيادتهم فى الأزهر... وتشاور العلماء فسلموا المدينة العزلاء للفاتح الغالب، وحل نابليون بالأزبكية، ولئن خلت المدينة حين دخلها من مظاهر الغضب، فإن فى كل قلب من قلوب أهلها غضبة.

فهل اطمأن نابليون وقد فر المماليك من وجهه؟ كلا إنه يوجس فى نفسه خيفة؛ إنه يخاف من الأزهر الأعزل، وإن لم يعد يخاف من مراد وإبراهيم.

وماذا يصنع بعد منشوره للشعب ، ذلك الذى افتتحه باسم الله ثم أعلن فيه احترامه للإسلام وعداءه للبابا ؟ إنه يريد أن يجتذب أهل مصر بشىء حرموا منه قرونا ، وذلك أن يشعرهم بأن حكم مصر قد أصبح فى أيدى نفر من بنيها . وألف نابليون ديوان القاهرة من تسعة من العلماء اختاروا الشرقاوى رئيساً لهم . وقد عاد كما عاد السادات ، وأسند إلى الديوان حكم مدينة القاهرة ، كما ألف الديوان العام من العلماء وأعيان العاصمة والأقاليم واختير الشرقاوى كذلك رئيساً له .

وهل كان لشيخ الأزهر أن يعتز بغير مشيخته ؟ وهل أذعن الشرقاوى حقا وأصحابه للفرنسيين ؟ دعاهم بونابرت ذات يوم يريد أن يكرمهم كما زعم . وهو إنما أراد أن يبلو أنفسهم ، فلما اطمأن بهم المجلس نهض فأثبت الشارة الفرنسية على كتف الشرقاوى؛ ولكن ما كان أشد دهشة نابليون حين نظر إلى الشيخ فإذا به ينتزع الشارة فى عنف ويلقى بها بين قدميه ! ، واستعفى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه ، ولم تجد إغراء الترجمان إياه وإخوانه ؛ واغتاظ بونابرت وقال محتدا : إن هذا لا يصلح رئيسا للديوان . وخرج الشرقاوى وصحابته ولم يتكلم . وأى كلام أبلغ من إلقائه بالشارة الفرنسية إلى الأرض فى وجه نابليون ؟ إنه يقول للقائد الغالب إن كنت ملكت رقابنا بسيفك فإنك لن تملك قلوبنا ، وإن كنت لم تر حتى اليوم ثورة فى القاهرة فإن فى كل قلب من قلوب أهلها ثورة .

وثارت القاهرة ثورتها ولم يمض على غضبة الشرقاوى واستعفائه أكثر من خمسين يوما، ولم تنفع بونابرت إدعاءاته ولم تجده حفلاته ، وتبين له أنه كان محقا فيما يوجس من خيفة ، وأن العزل جديرون بأن يزعجوه ، وأن الأزهر لم يكن مسجدا فحسب ، وإنما هو مسجد وحصن ومقر قيادة . . . .

وقتلت القاهرة ديبوى حاكمها العسكرى ونحو مائتين من رجاله وبعض الضباط والمهندسين ، واستشهد من أهلها نحو أربعة آلاف ، وقد سلط بونابرت مدافعه عليها وصوبها أكثر ما صوب نحو الأزهر حيث كانت تجتمع لجنة الثورة . ثم أرغمت المدافع المدينة على السكوت ولكن إلى حين . وأقبل بونابرت فى جنده فدخل الجامع بركبانه ومشاته « وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه » .

واختتم بونابرت المأساة بأن أعدم ستة من خيرة العلماء رميا بالرصاص فى القلعة فصعدت أرواحهم إلى بارئها راضية مرضية .

* * *

رحل بونابرت عن مصر خفية بعد نحو عشرة أشهر ، وخلفه على قيادة الحملة كليبر وظلت

للشرقاوى رياسة الديوان فى عهده ، وثارت القاهرة ثورتها الثانية على الفرنسيين ، وكانت قيادة الثورة هذه المرة لغير العلماء من أمثال السيد عمر مكرم والسيد المحروقى .

وكان أعظم مراكزها فى بولاق . وكان للأزهر نصيبه فى الجهاد والاستشهاد ، واستمرت الثورة أكثر من شهر . وعظمت مقاومة الشعب بقدر ما عظم هول الحوادث . وكان مع الشعب عدد من العثمانيين كانوا تسللوا إلى القاهرة . وأمعن الفرنسيون فى القتل والتدمير « وجرى على الناس ما لا يسطر فى كتاب ولم يكن لأحد فى حساب ... منها عدم النوم ليلا ونهاراً ، وعدم الطمأنينة ، وغلو الأقوات ... وغلبة الجهلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء ، وتهور العامة ، ولغط الحرافيش » .

وأرسل كليبر إلى المدينة يطلب وفداً من العلماء ليكونوا رسله إلى الشعب ، وذهب الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى ، وحصلوا على شروط للصلح « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الإنكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى » .

وما زالت المدينة تصلى نار الفرنسين حتى أرغمت ثانية على التسليم ، وفر عمر مكرم ، وعذب السادات وأهين ، ولكن الأزهر انتقم ، فقد تسلل أزهرى حلبى إلى حيث يقيم كليبر بالأزبكية فقتله بخنجره !

واستدعى للمحاكمة فيمن استدعوا الشرقاوى ، شيخ الأزهر ، وقد كان الفرنسيون يرتابون فيه وفى العلماء فنشطوا فى البحث عن أدلة يأخذونه بها ، وكانوا لا يفتأون يسألون المتهمين من الأزهريين ألم يعلموا بأن الحلبى كان يبيت بمنزل شيخ الأزهر . ولكنهم عجزوا عن إدانته فأطلقوه ... ولقد استبعد نابليون فيما أثبته فى مذكراته بعد ذلك بسنوات أن يجهل علماء الأزهر كيف دبرت هذه المؤامرة . ثم إن الفرنسيين شددوا الرقابة على الأزهر حتى ضاق بهم شيخه فقرر إغلاق أبوابه وظلت مغلقة حتى خرجت الحملة من مصر ...

* * *

خلف « مينو » كليبر ، وظلت للشرقاوى شيخ الأزهر رياسة الديوان . ونشطت انجلترة فى العمل على إخراج الفرنسيين من مصر ، ونزلت قواتهم بالإسكندرية ، وخاف مينو أن تعود القاهرة إلى الثورة فأنذر أعضاء الديوان بطشه ، وحملهم تبعة أية حركة . ثم إنه ما لبث أن ألقى القبض على الشرقاوى وثلاثة من الأعضاء وسجنهم بالقلعة . يقول الشرقاوى فى كتابه « تحفة الناظرين » ، « وقد حبسونا فى القلعة مع إخواننا العلماء خوفاً من قيام أهل البلد عليهم كما وقع منهم سابقاً فمكثنا بالقلعة مائة يوم » .

* * *

وخرجت الحملة من مصر فى أوائل سنة ست عشرة ومائتين وألف ، وخرج الشرقاوى من سجنه وهو يومذاك شيخ الأزهر ليس غير . وطال النزاع بين العثمانيين والمماليك ، إلى أن ظهرت على مسرح الحوادث شخصية ليس مثلها فى الشخصيات ، ونظر الشعب الحائر الذى أرهقه طول الاضطراب

فإذا به يحس أن نجاته من الفوضى هى أن يلتف حول هـذه الشخصية ... ومن ثم أقبل شعب القاهرة وفى مقدمته العلماء على محمد على.

وكانت عبقرية محمد على تتفتح أكمامها وكان القدر يهيئه لأن يجعل من هذا البلد الذى تمزقه الفوضى دولة قـوية ناهضة تضاف الى الدول الحديثة.

وفى مستهل شهر صفر من سنة عشرين ومائتين وألف، قصد حشد كبير من الناس إلى منزل محمد على فبايعوه والياً على مصر « لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من الخير والعدالة »، وأعلنوا إليه عزمهم على عزل خسرو باشا، وتقدم الشرقاوى، والسيد عمر مكرم وقد أحضرا « كركا » وعليه قفطان فألبساه إياه...

وظل الشرقاوى عند الباشا بعد أن تم له الأمر فى مصر وهو مكين أمين، إلى أن وشى به السيد عمر وبعض العلماء فأرسل إليه الباشا ياوره فى السابع من شهر رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف يأمره « بلزوم داره لا يخرج منها ولا إلى صلاة الجمعة » على أن القاضى ما لبث أن شفع له عند الباشا فى شهر شعبان فقبل الباشا شفاعته وأصلح القاضى بين الشرقاوى وخصومه.

وعادت للشرقاوى مكانته وظل مهيباً فى الناس موفور الجلالة على الرغم مما كان يكيد له السيد عمر مكرم. وفى سـنة خمس وعشرين ومائتين وألف، أوشك أن يغضب الباشا عليه مرة أخرى فقد جمـع الباشا العلماء والأعيان ذات يوم ليعينوه على جمع ما تطلبه إصلاحاته من المال، وتكلم أحد مستشارى الباشا قائلا: « إن حصص كثير من المشايخ مرفوع ما عليها من المغارم ويرجع تتميم الغرامة على حصص الشركاء » وهنا احتد الشيخ وقال له « أنت رجل سوء » يقول الجبرتى « وثار عليه باقى المشايخ الحاضرين وزاد فيهم الصياح فقام الباشا من المجلس وتركهم وذهب بعيداً عنهم ».

وفى يوم الخميس وهو الثانى من شهر شوال سنة سبع وعشرين ومائتين وألف، مات الشيخ عبد الله الشرقاوى وصلى عليه بالأزهر فى جمع كثير. قال الجبرتى « مات الشيخ الإمام العلامة والنحرير الفهامة الفقيه الأصولى النحوى شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ عبد الله بن حجازى ابن ابراهيم الشافعى الأزهرى الشهير بالشرقاوى »، وقال يصف علمه « وله مؤلفات دالة على سعة فضله، من ذلك حاشيته على التحرير، وشرح نظم يحيى العمريطى، وشرح العقائد المشرقية والمتن له أيضاً، وشرح مختصر فى العقائد والفقه والتصوف مشهور فى بلاد داغستان، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد، ومختصر الشمائل وشرحه له، ورسالة فى « لا إله إلا الله » ورسالة فى مسألة أصولية فى جمع الجوامع وشرح الحـكم، والوصايا الكردية فى التصوف، وشرح ورد سحر للبـكرى، ومختصر المغنى فى النحو وغير ذلك ».

رحم الله الإمام الشرقاوى وجعل لنا فى أعماله أسوة وفى سيرته قدوة.

محمود الخفيف

في الفلسفة والعلم

أزمة الضمير الديني

للدكتور محمد البهي

١ - الضمير الديني في الفرد هو القوة النفسية التي تدفع الإنسان إلى سلوك معين في اتجاه خاص. ويعتمد تكونها في نفس الإنسان على امتلاء نفسه بوجود الله في الكون وعظمته في خلقه ، وقدرته بين عباده ، ورحمته ورضاه عن المؤمنين به . وكلما امتلأت نفس الإنسان بوجود الله وتمثل لها الله في كل شيء في الحياة ، التزمت السير وفق خطة الدين ومنهج الوحي الإلهي .

ونفس الإنسان إذ تتمثل الله في كل شيء في الوجود لا يعني ذلك أنها لابد أن تعتقد بحلوله أو باتحاده بكائنات هذا الوجود ، بل معناه أنها ترقب يقظته وهيمنته في كل وقت وآن، حتى لكأن وجوده ملازم لنظرات الإنسان ، أو حتى لا تكاد ترى النفس في الوجود شيئاً سواه « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم . . . . » .

والضمير الديني محتاج في تكونه في نفس الإنسان ثم في تزايده ونمائه فيها إلى أن تثار عاطفته الدينية أو ما تسمى بغريزة التدين في الإنسان ، كما أنه محتاج في عمله ودفعه الإنسان إلى السير في طريق الدين ، إلى التوجيه السليم وإدامة توجيهه على نحو يكفل لصاحبه عدم الانحراف في السير .

فإيقاظ العاطفة الدينية وتوجيهها توجيها سليما أمران ضروريان في سلوك الإنسان وفق تعاليم التنزيل ووصايا الشرائع السماوية .

هذا في الفرد أما في الجماعة فضميرها الديني هو قوتها الذاتية التي تدفع أكثريتها إلى العمل الصالح ، وإلى التآخي في سبيل الله ، والتعاون على البر والتقوى . ويتبع الضمير فيها قوة وضعفا رقابة الموجه العام للجماعة ، والتربية القومية ومقدار العناية بها أو إهمال شأنها .

والظاهرة التي توضح وجود الضمير الديني في الفرد أو الجماعة هي سيطرة الخشية من الله في الفرد والجماعة . وليس هنا مجال الحديث في فضل هذا الضمير ووجوده في نفوس الأفراد وبين طبقات الجماعة المختلفة . فإن من الشواهد الجلية على فضل وجوده قلة وقوع الأحداث المنافية لمبادىء الخلق الحسن في سلوك الأفراد ، والأخرى التي من شأنها أن تضعف كيان الجماعة في الأعمال العامة .

* * *

٢ ـ وإذا كان الأثر الايجابى للضمير الدينى فى حياة الأفراد والأمة متوقفا على أن يكون قويا وذلك باستمرار إثارة العاطفة الدينية فى الأفراد وتقوية معنى المشاركة الوجدانية فى الجماعة ـ فإنه بالعكس إذا ضعف عامل الإثارة أو أهمل شأن المشاركة الوجدانية ضعف الضمير الدينى وضعفت بالتالى آثاره فى الحياة الخاصة والعامة .

ويصل أمر هذا الضمير الدينى إلى أزمة إذا لم يستطع الدعاة وقادة التوجيه وهم المربون وأصحاب الرأى فى الجماعة أن يقوموا بوظيفة الدعوة وبأداء واجب التوجيه الصحيح وهو ذلك التوجيه الذى يقوم على تقدير الفضيلة الفردية والجماعية ويرفع من شأن القيم المعنوية فى محيط الإنسان وأمته .

والدعاة لا يستطيعون القيام بوظيفة الدعوة الدينية إما لأنهم لا يحملونها ويحترفون بها فقط ، وإما لأنهم لا يفقهون أمرها ولا الوسيلة النفسية لإبرازها وحمل الناس على اتباعها .

والمربون وأصحاب الرأى فى الجماعة يعجزون عن التوجيه الصحيح إذا وهن إيمانهم بالفضيلة الفردية والجماعية ، وذلك إذا غلب عليهم زخرف الحياة المادية وطغت عليهم موجة التوجيه المادى .

والحروب العالمية من أوضح آثارها أمران : إدلال المنتصر بما أحرزه على خصمه من نصر مادى ، وانزواء المنهزم فى نفسه وميله إلى العزلة سواء فى الحديث وإبداء الرأى أو فى السعى إلى المحافظة على بقائه الخاص . والطرف الذى أصاب النصر فى الحرب لا يفتأ يذكر الرأى العام العالمى بالقدرة المادية وأثرها فى إنهاء الحرب وصيانة السلم . لأنه كان الطرف المنتصر فإنه يعطى لنفسه الحق فى أن يرسم علاقات الأمم بعضها ببعض ، وهى علاقات تقوم فى الأغلب على وصايته على غيره من الشعوب والتدخل من آونة إلى أخرى فيما يسمونه حق صيانة السلم العالمى .

فأمر العالم أثناء الحروب الكبرى يدور إذن فى إطار القوة والغلبة ، ويسير فيما ترسمه القوة أيضاً من توجيه وفيما تخطه للإنسانية من طريق ، وما تضعه أمامها من أهداف .

ومن شأن انجذاب العالم أفراداً وجماعات إلى القوة وخضوعه إلى آرائها وسياستها ـ أن يتأثر الدعاة والمربون وقادة الرأى تأثراً سلبيا ، وأن يتأرجح تبعا لذلك شأن الضمير الدينى ويخف وزن القيم الأخلاقية الفردية والجماعية . إذ أن إغراء المادة الممثل فى شتى مظاهر القوة المادية قلما يفلت منه واحد من هؤلاء .

رجل الدعوة يهن نشاطه الروحى ، وإذا تحدث عن دعوة الدين فحديث المحترف لا حديث الذى امتلأ قلبه إيمانا بها . لأن قوة المادة وبريق الحضارة المادية قلما يتركان فى نشاطه الذهنى فراغا لاستقرار المثل العليا والقيم الرفيعة . فهو مندفع فى تيار الحضارة الراهنة ، ولذا يتخذ من تعاليم الدين ومن الحديث عن وصاياه مهنة ووسيلة يصل بها إلى مستوى فى عيشته ترسمه له أحوال بيئته وجماعته شأنه فى ذلك شأن الطبيب أو رجل الجيش ، يتخذ كلاهما من فنه فى ظروف سيطرة

القوة المادية مهنة وحرفة يصل بها إلى هدفه فى الحياة ، وهو هدف قلما تتمثل فيه انسانية الطبيب وشجاعة المدافع .

والمربى وصاحب الرأى ليس كلاهما أشد صلابة من رجل الدعوة الدينية أمام زحف القوة المادية أثناء الحرب العالمية وبعدها ، فتربية المربى تصبح صنعة وليست فنا فيه الصبر والمتعة ، وإبداء صاحب الرأى رأيه يخضع فيه لملابسات الحال الراهنة ، ولا يصدر فى توجيهه عن تأمل دقيق ووزن محكم للأمور ، بغض النظر عما يدور فى محيطه من مؤثرات وإغراء ، ومن هنا تتجلى أزمة الضمير الدينى عقب الحروب العالمية ، بعد أن تضمحل قوته أثناءها . وآية هذه الأزمة استهتار الأفراد بعد الحرب بالقيم والفضائل ، وكثرة الجرائم الخلقية والجماعية فى الأعمال العامة وفى تدبير أمور الجماعة وفى تصريف مسائل الشعوب .

فالتقاليد تنتهك ، وحرمات الأفراد لاحدود لها ، وشعور الأخوة فى الجماعة لا يكاد يوجد ، وأمر الدولة ومرافقها العامة أمر مباح لمن بيده تصريف شئونها . وتسيطر على الناس روح الانفرادية بمعناها الواسع : الاعتبار الشخصى أساس التقدير والحكم ، والمنفعة الخاصة أساس العمل والسلوك . ووراء هذه المنفعة الخاصة أمر الدولة والجماعة وشئونها العليا . وإذا تفشت الانفرادية تعددت المذاهب والآراء ، وهى على تعددها لا تتجاوز الأهداف المادية لأن ذلك من واقع الأمر بعد أى حرب عالمية .

وهنا تفتكس الدوله ويسود الأمر فيها ما يشبه الفوضى ، كما يسود حال الأفراد ما يشبه التحلل من قيود الأخلاق والعادات . وليس من الهين على المصلح أن يسير خطوة فى إصلاح دون أن يلقى عقبات ، وليس من اليسير على الداعى إلى الله - إن وجد هذا الداعى عن إيمان بدعوته - أن يجمع حوله الناس دون أن يستهدف لنظرة فاجرة أو يسمع كلمة مؤذية .

* * *

٣ — ومع ذلك فكثيراً ما يردد اسم الدين بعد الحرب ، وكثيراً أيضا ما يرتفع صوته ونداؤه ، ليس من رجال الدين فقط ولكن من الساسة ورجال الفكر والعلم كعلاج لحال الفوضى فى الجماعة وحال التحلل الخلقى فى الأفراد . ويدعو رجال السياسة والفكر والعلم إلى الدين رغبة منهم فى إيقاظ الضمير الدينى من جديد وعملا على عودة الجماعة والأفراد إلى حال ما قبل الحرب وهى حال الشعور بالله وبالأخوة والإنسانية .

وكثيرا ما تكون دعوة رجال الفكر والفلسفة إلى الدين والاستعانة به أقوى وأوضح من دعوة غيرهم ، بالرغم مما يكون لذلك من أثر غير إيجابى على مدارسهم الفلسفية والعلمية ، وهم يعترفون صراحة بعجز هـــذه المدارس عن أن ترجع بالإنسانية المضطربة القلقة بعد الحروب العالمية إلى حال الاستقرار الأول ، وعن أن تعود

بالفرد إلى اطمئنان النفس الذى يرجع إلى حد كبير إلى إيمانه بالجزاء الأخروى.

هؤلاء الفلاسفة والمفكرون الذين يدعون دعوة قوية إلى التمسك بالدين والإيمان بالله بعد الحروب العالمية يتخذون من الفترات الطويلة التى تعقبها والتى يتزايد فيها القلق ويشيع فيها الخوف وعدم الأمن – آية على عجز الفلسفة بعد أن تهيأت لها الفرصة وأفسح المجال لنشر آرائها ومذاهبها وأسند لأصحابها زمام الأمور؛ فقادة الحروب هم أصحاب فلسفة، ورجال السلام بعد هذه الحروب أصحاب فلسفة، وأرباب المواثيق والعهود فى ربط الأمم والشعوب أصحاب فلسفة.

* * *

٤ – إن الإنسان كى يطمئن فى الحياة، ويقتنع بالوجود، وينتج فى العمل، ويؤاخى فى السلوك، فى حاجة إلى الضمير الدينى. وأن الجماعة الإنسانية أو الدولة كى تنجو من الفوضى، وتستند فى مواجهة الصعاب الخارجية إلى لبنات قوية، وتسير قدما نحو حياة جماعية رغدة، فى حاجة إلى الضمير الدينى.

وأن الضمير الدينى استعداد فى طبيعة الفرد والجماعة، وأن الدعوة إلى الله وإقناع الناس بالسير فى طريق الله من عوامل تكوينه وخلقه، كما أن الاستمرار فى إرشادهم إلى هدى الله من أسباب زيادته ونمائه.

وأن ضعف رجال الدعوة الدينية وضعف أصحاب الرأى والتوجيه فى الأمة يؤثر على كيان الضمير الدينى، وإن الحروب العالمية وما يعقبها من فترات القلق والاضطراب لمما تهز رجل الدعوة فى إيمانه بما يدعو إليه، وصاحب الرأى فيما يقود به أمته وجماعته.

وأن فترات ما بعد الحرب فترات تتصارع فيها الآراء الإنسانية والمذاهب الفلسفية كما تتشيع فيها الأفراد إلى شيع وتنقسم إلى طوائف فى الرأى، وكلهم يغلب عليهم طابع الانفرادية واتجاه النفعية.

ليس من السهل على القائم على شأن الدعوة الدينية أن يوجه دعاته إلى دعوة الناس إليها، ويرتقب من دعوتهم عملا إيجابياً، إذ عليه قبل ذلك أن يخلق منهم أو من غيرهم جيلا يعرف الحد بين سلطان القوة المادية التى ظهرّ طغيانها بعد الحرب وبين الاقتناع بالمثل والقيم والفضائل وأثرها فى طمأنينة الأفراد واستقرار الجماعات.

وليس من السهل على الموجه العام، وهو المصلح والمدبر لشئون الجماعة أن يقود جماعته إلى المبادىء العامة ويحمل الأفراد على الحد من الاستهتار بالمصالح العليا، إذ عليه أن يصبر فى جهاده ولا يستهين بالعقبات فى طريق كفاحه وهو شاق طويل، لكنه الطريق المتعين لاستقرار الأمة وصلاحها.

محمد البهى

المذهب المادى فى العصر الحاضر

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول

من سمات التفكير الشائع فى الشرق هذه الأيام « المادية » - نعنى المذهب المادى - حتى لقد سرى هــذا الاصطلاح إلى لغة الصحف والمجلات والأحاديث والمحاضرات ، والناس منقسمون فى أمرها إلى مؤيد ومعتقد ، أو منكر ومعارض ، أو جاهل بحقيقتها ، لم يرتفع إلى مرتبة الخاصة من المثقفين الذين تتسع نظرتهم فيصدرون فى حياتهم عن إيمان بمذهب فلسفى يفسر هذه الدنيا ويعلم النظام الذى تخضع له .

ومع شيوع هــذا الإصطلاح ، وجريان لفظة المادية على الألسنة والأقلام ، فإن معظم الناس يرددونها تقليداً لا فهما ، ويعلمون عنها قشوراً لا تنفذ إلى اللباب ، ولا تتخطى الظواهر إلى الأعماق . وقد يكونون من الماديين وهم لا يشعرون؛ أليس الجمهور وأوساط الناس ممن يعتقدون أن المادية هى اقتناء المال وتقديره ، ثم تسخيره فى شراء ألوان المتاع والزينة من طعام وشراب وملبس ومسكن ، وما إلى ذلك مما يشبع رغبات النفس ويجيب مطالبها ويحقق لها اللذة ! ولذلك يسمون المقبل على الدنيا ، وطالب اللذات ، والباحث عن الذهب « ماديا » .

وهم فى ذلك يأخذون المادية من « المادة » ، وهى عندهم ، كما هى الحال فى التفكير التجريبى الساذج ، هــذه الأشياء التى ندركها بالحواس فنرى لها طولا وعرضا ووزنا وحجما . ويعتقد الإنسان فى وجود هذه الأجسام خارجة عنا ، ومستقلة عن أنفسنا ، وسابقة على إدراكنا لها بالحواس ، ويسمى هــذا الضرب من الوجود « موضوعيا » ، بالإضافة إلى ذاتنا أو وجودنا « الذاتى » . فهذه الشجرة ، وهذا الباب ، لهما وجود فى ذاتهما ، سواء أدركتهما أم لم أدركهما ، وسواء أكنت على قيد الحياة أم انقضت حياتى ، على خلاف جماعة من المثاليين الذين يذهبون إلى القول بأن وجود الأشياء لا يكون إلا فى الأذهان العاقلة .

هذه هى النظرة العامية فى الاعتقاد بوجود المادة ، وفى إقامة مذهب المادية على أساسها .

وهناك مصدر آخر خلاف وجود الأشياء الخارجية بإزاء أنفسنا ، يجعلنا نعتقد فى وجود المادة ، ويفضى بنــا بعد ذلك إلى تصور مذهب مادى ، أو ثنائى ، أو روحانى . وذلك المصدر مستمد من أنفسنا . فنحن مركبون من بدن ونفس ، من جسم وروح ، ويدلنا النظر اليسير على الاختـلاف العظيم بين هذين الجوهرين ؛ فالبدن من عالم المادة ، لأنه يمتاز بالخصائص المعروفة للأجسام ، أما النفس أو الروح أو كما يسميها بعض الفلاسفة العقل ، فإنهــا من عالم آخر يختلف فى خصائصه عن المادة ، إذ لا توجد فى مكان ، وليس لها طول

ولا عرض ولا عمق ، ولا تدرك بالحواس الظاهرة كالبصر والسمع واللمس . وآثار النفس موجودة ، ومظاهرها واقعة لا ريب فيها ، كهذه الصور التى تعرض فى صفحة الخيال ، أو الرؤى التى تظهر فى الأحلام ، ثم المعقولات الكلية وهى موضوع التفكير ، وبالجملة هذه المظاهر التى يقول عنها علماء النفس المحدثون إنها تجرى فى «الشعور» ، ولهذا السبب أقام برجسون [١٨٥٩ - ١٩٤١] فلسفته على مبدأين : المادة ، والشعور أو الذاكرة ، وله فى ذلك الكتاب المشهور بعنوان المادة والذاكرة ، فلا غرابة أن تكون فلسفته ثنائية تسلم بوجود الجسم والنفس ، أو المادة والشعور .

وفى ذلك يقول : « كل واحد منا جسم يخضع للقوانين ذاتها التى تخضع لها الأجزاء الأخرى من المادة ، فإذا دفعت هذا الجسم تقدم إلى الأمام ، وإذا شددته رجع إلى الوراء ، وإذا رفعته ثم تركته هوى ، وإلى جانب هذه الحركات المنبعثة ميكانيكياً عن علة خارجية ، توجد حركات أخرى تنبعث فى الداخل وتسمى « إرادية » ؛ فما علتها ؟ إنها تلك التى يعنيها كل واحد منا بقوله « أنا » ؛ وما الأنا ؟ الأنا ، شىء يبدو ـ إن خطأ أو صواباً ـ متخطياً الجسم الذى تتصل به من جميع أجزائه ، متجاوزا إياه فى المكان والزمان على حد سواء . . . »[١]

وإنما بدأنا بعرض نظرية برجسون لأنه يمثل رأى المحدثين فى القرن العشرين حين يرد على المادية التى سادت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فقد بدأ الفكر الأوربى منذ عصر النهضة مع اكتشافات كبلر وجاليليو فى الفلك ، حتى عهد نيوتن ، يعتقد فى إمكان رد جميع الظواهر الفلكية والفيزيقية[٢] إلى قوانين ميكانيكية ، حتى لقد خيل إلى الفلاسفة أن العالم المادى ، بما فيه من جمادات وأحياء ، أشبه شىء بآلة ضخمة خاضعة للقوانين الرياضية ، وليست الكائنات الحية ، والإنسان كذلك ، إلا جزءاً من هذه « الساعة » الميكانيكية . ويترتب على ذلك أن أعمال كل شخص محدودة ومحتومة وخاضعة لما يدفعها فى ذلك الجهاز الآلى الضخم ، وليس له إرادة أو حرية أو شعور أو ابتكار . وقد ولى الآن عهد الميكانيكية التى كانت تفسر حركة الأجسام بالنسبة إلى الكتلة والقوة المحركة لها من خارج ، وأخذت بالمذهب الديناميكى الذى يفسر حركة الأجسام بالقوة الدافعة لها من باطن ، أو ما يسميها برجسون بدفعة الحياة Elan Vital ، وإلى مذاهب أخرى غير مذهب برجسون ، ولكنها على أى الحالات تختلف عن تصور علماء القرن التاسع عشر وفلاسفتهم .

ولنرجع إلى حديث المادية قديما ، نعرض ماقال الفلاسفة عنها عرضاً سريعاً ، لأن المادية فى العصر الحاضر ، كأى مذهب من المذاهب ، إنما يعد تطورا للأفكار على مر الزمان من جيل إلى جيل . وقد انقسم الماديون من فلاسفة

---

(1) Le Materialisme Actuel, Famlmarion, 1833, p. 8.

(٢) نقصد بالفيزيقية هنا ما يراد باللفظة الأجنبية .

اليونان فريقين ، أصحاب المادة الأولى ، وأصحاب الذرة ، وذهب طاليس إلى أن المادة الأولى هى الماء ، وقال غيره بالهواء أو بالنار ، وساد مذهب العناصر الأربعة ، الماء والهواء والتراب والنار ، وأخذ به أرسطو ، وعد كل جسم مركبا من هذه العناصر بنسب مختلفة . أما ديمقريطس فقال بالذرة أو الجزء الذى لا يتجزأ ، ومنها تتركب الأجسام . وقد تسرب المذهبان إلى الفلسفة الإسلامية ، فأخذ بعضهم بمبدأ العناصر الأربعة ، وساد مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين بوجه خاص .

وقد سميت المدرسة المادية التى بدأت بطاليس بمدرسة الطبيعيين . وسوف نرى فيما بعد أن المذهب الطبيعى ذو صلة وثيقة بالمذهب المادى . على أن هذه المدارس اليونانية المادية على اختلاف أنواعها ، رأت أن المادة وحدها لا يمكن أن تفسر وجود الموجودات وكونها وفسادها ، فأقروا بوجود إله مدبر لها ، وهذا طاليس يقول : العالم مملوء بالآلهة .

ومذهب أرسطو جدير بالنظر ، لأنه ظل مسيطرا على العلم حول عشرين قرنا من الزمان ، ولا نزال نستعمل مصطلحاته حتى الآن . فهو يرى أن كل جسم طبيعى يتركب من مادة وصورة ، وسمى المادة جوهراً وكذلك الصورة ، وكذلك الموجود المركب من المادة والصورة وإذا علمنا أن الفلسفة الإسلامية ممثلة فى الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد إنما اعتمدت اعتماداً عظيما على أرسطو فى طبيعياته ، فلا غرابة أن نجد كتب هؤلاء الفلاسفة تأخذ بفكرة المادة والصورة والجوهر ، وتميز بين الوجود والماهية ، وليست الماهية فى الواقع إلا الصورة المضافة إلى المادة . فأرسطو ثنائى فى فلسفته ، ولكنه يغلب الصورة على المادة .

ثم وقفت الفلسفة الإسلامية عند هذا الحد ، وانتقل مركز الفكر إلى أوربا ، ونادى ديكارت فى القرن السابع عشر بأن العالم يتركب من مبدأين هما الامتداد والفكر ، وهما يتمثلان فى الإنسان الذى يستطيع كل واحد منا أن يتميزهما عندما يتأمل نفسه وجسمه . وقد رأينا كيف رد برجسون على ديكارت ولم يقبل منه تفسيره الميكانيكى .

فلما اشتد ساعد العلم فى القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر ، سادت فكرة « القانون الطبيعى » وحلت مكان « الماهية » التى أعلنها أرسطو وتبعه فيها فلاسفة العصر الوسيط إسلاميون ومسيحيون . وهذا هو السبب فى قولهم إن العلم الحديث مادى ، لأن العلم الحديث يمتاز بالبحث فى الطبيعة ، حتى لقد كان شعار رواد العلم منذ عصر النهضة « اقرأ كتاب الطبيعة » . فلا غرابة أن يكون المذهب المادى مرادفا للمذهب الطبيعى .

وهذا هو الذى فهمه جمال الدين الأفغانى حين كتب رسالته « الرد على الدهريين » وجعل الفصل الأول منها فى « بيان حقيقة مذهب النيتشرية والنيتشريين وبيان حالهم » . وهو يعنى بالنيتشرية الإصطلاح الأجنبى Naturalism ثم شرح مقاصدهم ووسائلهم وبين أن غرضهم هو إنكار الأديان ، ثم شرع ينقض مذهبهم ويبين فساد أصولهم منذ اليونان قديماً حتى زمانه فى القرن التاسع عاشر .

غير أن المذهب الطبيعى ، أو المذهب المادى

بعد التقدم السريع الذى حققه العلم الفيزيقى أخيراً ، وبخاصة فى مباحث الذرة ، لم يصبح منعزلا عن ميدان الأخلاق والدين كما كان الأمر فى القرن الماضى ، ولم يعد هناك ذلك الفارق الحاسم بين الجسمانى والنفسانى أو الروحانى حتى لقد أصبح كثير من الماديين يقرون بوجود الله والنفس وخلودها باسم العلم نفسه .

يقول «برات» فى كتابه «المذهب الطبيعى»[1] ما فحواه : إن العالم الذى يدرسه أصحاب المذهب الطبيعى لا يقوم على أهوائنا أو معتقداتنا ، بل على الواقع وما تفضى إليه تجارب العلم . ويهدينا العلم إلى أن الكون خاضع بالضرورة لنظام يمكن أن ننفذ إلى معرفته وتعليله . ويمضى فى آخر الكتاب فيقرر أن العلم الحديث أصبح يمتاز بميزتين ، الديناميكية والغائية ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإن الغائية تستلزم بالضرورة عقلا مدبراً ، وبذلك يقترب العلم من الدين .

يقع الخلاف بين المادية الحديثة Neo-materlalism ، وبين مادية القرن التاسع عشر فى أمرين : أحدهما علمى والثانى فلسفى .

أما العلمى ، أو بوجه أدق الفيزيقى ، فهو انفلاق الذرة . فقد كان الظن إلى عهد قريب أن المادة لا تنقسم إلى ما لا نهاية له ، بل تقف عند جزء لا يتجزأ ، هو الذى سموه الذرة أو الجوهر الفرد . ثم أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة ، فبعض الذرات ينفجر من تلقاء ذاته مثل ذرات الراديوم واليورانيوم وغيرهما من العناصر ذات النشاط الإشعاعى ، ويمكن أن يحطم البعض الآخر أو يهشم بوسائل خاصة كما تمكن تشارلس ويلس عام ١٨٩٦ من تصوير ذرة اليورانيوم بعد تهشيمها ، فخضع البحث للتجربة العلمية وانتقل من مجرد فرض إلى نظرية علمية مقررة ، وحقيقة واقعة . واتضح أن الذرة تنحلل إلى ثلاثة أجزاء ، أو «أشعة» هى ألفا وبيتاً وجاما ، وتتجه أشعة ألفاً التى تحمل الكهرباء الموجبة نحو اليمين ، وبيتا التى تحمل الكهرباء السالبة نحو الشمال ، وتذهب أشعة جاما ، وهى ليست مكهربة بل نوراً ، نحـــو الإمام . وبذلك انطلقت المادة الذرية وأصبحت «طاقة» يمكن استخدامها فى أغراض الحرب والسلم . والذى يهمنا فى هذه الكلمة أن نقرر أن مفهوم المادة القديم قد تغير ، وأصبحت المادة طاقة . ونحن ننقل إليك رأى المرحوم الدكتور مصطفى مشرفة باشا أحد الذين ساهموا فى مباحث الذرة. قال : «ومن المهم أن يفهم القارىء أن هذه الطاقة المختزنة فى بواطن الذرات ليست شيئاً يضاف إلى المادة ، بل إنما هى المادة ذاتها . فالحصول على ٢٥ وحدة من وحدات الطاقة من كيلو جرام من المادة ليس معناه استخراج هذه الطاقة من داخل ذرات المادة مع بقاء الكيلو جرام كيلو جراماً ، بل إن معناه أعمق من هذا بكثير ، ألا وهو تحويل المادة إلى طاقة . فالكيلو جرام من المادة يعادل ٢٥ وحدة من وحدات الطاقة ويساويها مساواة . وإذا أمكن الحصول على هذه الطاقة

---

(1) Pratl : Naturalism, 19s9, Yale unversir, i press.

فيكون ذلك على حساب المادة ذاتها فتفنى ويمحى أثرها من الوجود . ومعنى هذا أن المادة والطاقة قد صارا مظهرين لشيء واحد ، أو صورتين مختلفتين لنفس الشيء » [١] .

ويختم الأستاذ جان فال Jean Wahl كتابه « طريق الفلاسفة » بفصل بعنوان « الماهيات والصور ، وفكرة المادة » جاء فيه ما يأتى : لم تعد المادة معارضة للعقل أو الصورة ، وهى لذلك لا يمكن أن تعترف ، وقد يحتمل قيام مادية صوفية Mystical Materialis ، بل هى ولا ريب حقيقة واقعة [٢] .

ولكن أخطر النتائج العلمية التى نشأت عن التقدم فى البحوث الفيزيقية هو إفساح المجال للحرية ، حتى فى عالم الفيزيقا ، وهو أول درجة من درجات المادة ذلك أن الطاقة التى تتبدد من الذرة عند انفلاقها فتذهب يميناً أو شمالا ، لا يمكن تحديد مسارها . فإذا كان هذا هو الحال فى عالم الذرة فما بالك بعالم الإنسان ؟ وحرية الإنسان فى أعماله شرط ضرورى للتدين ، حتى يصح الثواب والعقاب . وقد كانت معارضة المادية القديمة للأديان من هذا الوجه ، نعنى من جهة القول بالحتمية المستمدة من طبيعة الأشياء ، حتى لقد ذهب غلاة الماديين إلى القول بأن المادة هى كل شىء ، وهى أصل العقل والشعور ، وليس العقل إلا إفرازاً من إفرازات المخ ، كما تفرز الكبد الصفراء ، أو المعدة العصارية المعدية .

أما الخلاف الفلسفى بين مادية اليوم ومادية الأمس ، فإنه يقع فى الاتجاه الحديث الذى يسلم بالقيم ، ولم تكن مادية القرن التاسع عشر تفعل ذلك ، لأن فلسفة القيم باب حديث لم يفتح للبحث إلا منذ عهد قريب ، وتعتقد المادية الحديثة أن للأشياء الخارجية المادية قيمة ، وتستند هذه القيمة إلى حاجة الشخص إليها ، وتعتمد الحاجة على الرغبة وعلى المحبة وكلاهما من العواطف الأساسية الفطرية فى الإنسان . وكل ما يرغب فيه الإنسان ويحبه ، فهو « خير » ، وبذلك انقلبت الآية عند الماديين ، فجعلوا الخير مترتباً على الرغبة والمحبة ، على أن المذاهب المثالية والروحانية تقدم الخير وتطلبه لذاته ، وكان ذلك هو مطلب الماديين من قديم الزمان ، كالأبيقوريين الذين جعلوا « اللذة » غايتهم ، ولا يزال الماديون يطلبون اللذة ، والسعادة ، والخير ، والمنفعة والمصلحة ، ولكنهم يمتازون اليوم من حيث الأخلاق بأمرين : الأول أنهم ينظرون إلى « السلوك » ويجعلون ميزان العمل هذا السلوك الصالح الذى يوفر أعظم قسط من السعادة للفرد ، ويجلب له أكبر قدر من النفع ، ويحقق له أكثر مقدار من اللذة . والأمر الثانى هو ما أومأنا إليه من تقدير « قيمة » الأعمال ، مما لا يتسع له المجال الآن أن نبسطه .

ومن صور المادية البالغة الأثر فى العصر الحاضر تلك التى نادى بها كارل ماركس ، [١٨١٨ - ١٨٨٣] والتى تعرف باسم المادية الجدلية Dialectical وقد تطور المذهب بعد

---

(١) الدكتور على مصطفى مشرفة : الذرة والقنابل الذرية . ١٩٤٥ ، ص ٤٩

(٢) Jean Wahl : The philosophers way, 1948 ,p. 75.

أن استنفد أغراضه ، وتحول إلى مايسمى بمذهب الآلات Instru mentalism ، أى استخدام الآلات فى شتى صور الحياة ، وهو الذى أفضى إلى « تصنيع » الزراعة . ونحن نشهد أثر ذلك الآن فى داخل الدور ، حيث تستخدم الثلاجات والمغاسل والأفران الكهربائية ، حتى الكنس أصبح يتم بالآلة .

أما مادية كارل ماركس فهى نظرة إلى طبيعة ومنزلة الإنسان فيه ، وصلة الإنسان بالبيئة التى يعيش فيها والتى يعد ثمرة لها . وقد اعترض ماركس على مادية القرن الثامن عشر التى كانت تنزل المادة الخارجية منزلتها وتجعل موقف الإنسان منها سلبياً ، أى أن الأثر راجع إلى المادة فلما تأثر ماركس بفلسفة هيجل الجدلية ، جعل الأثر شركة بين الأشياء الخارجية وبين ذات الإنسان ، فينتج عن ذلك شىء ثالث هو المجتمع الجديد الذى ينحو نحو التقدم إلا أن هيجل كان يرى « العقل » أو الروح القوة المحركة لهذا الجدل أو « الديالكتيك » ، أما ماركس فعنده أن « المادة » هى القوة المحركة ، وهو يعنى بالمادة هذه الصلة بين الإنسان والأشياء التى يترتب عليها «الإنتاج» ، والإنتاج هو الأصل فى الاقتصاديات.

ثم فسر ماركس التاريخ تفسيراً ماديا ، وزعم أن النظام الاقتصادى هو العلة فى وقوع الأحداث التاريخية .

ونحن لا ننكر أن الاقتصاديات لها أثر عظيم فى حياة الشعوب ، وهى علة الحروب الأخيرة التى لانزال نكتوى بنارها ، غير أن إطلاق هذه القضية وتعميمها على سائر الحوادث مجازفة كبيرة . مثال ذلك ظهور الإسلام وانبثاقه من قلب جزيرة العرب ، وانتصار المسلمين وهم قلة فى العدد والعدد على الفرس والروم مع كثرة رجالهم ووفرة عتادهم ، كل ذلك من الأمور التى لا يمكن تعليلها تعليلا ماديا ، بل لابد من النظر إلى هذه العقيدة الجديدة وإلى هذا الإيمان العميق ، لنرى كيف انتصرت القوى الروحية على الكثرة المادية انتصاراً ساحقا ، وانتشر الإسلام انتشاراً سريعاً حتى شمل معظم العالم القديم فى أقصر زمان .

والفضل فى ذلك إلى الروح والإيمان لا إلى المادة .

وإن شئت مثالا قريباً لم يغب بعد عن الأذهان فانظر حال غاندى الذى تجرد عن الدنيا وزينتها ، وتأمل كيف تغلب على الغاصب المدجج بالسلاح وهو أعزل من كل سلاح مادى ماخلا الإيمان .

والإسلام فى جوهره ثنائى ، يقر بوجود الله وبوجود العالم ، والدنيا والآخرة ، والروح والجسد ، والنفس والبدن ، ولكنه يعلى من شأن الدين ويرفع منزلة الروح ويدعو إلى الحياة الآخرة ، ولا يحرم فى الوقت نفسه الإقبال على الدنيا بشرط التوسط والاعتدال . قال تعالى فى سورة الأعراف : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

أحمد فؤاد الأهوانى

موازنة فى التعليم بين رابليه وبعض فلاسفة الإسلام

للأستاذ محمود الخضيرى
المراقب المساعد للبحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر

يستحق الكاتب الفرنسي الحكيم فرانسوا رابليه Rabelais أن يدرس من جهات مختلفة ، وقد جرت العادة أن يقبل طلاب الآداب والتاريخ على قراءة كتبه فيخرج كل واحد منهم راضيا بما قرأ لأنه فاز بالاطلاع على آثار ممتعة يشيع فيها فن ساحر يجمع فى يسر ومرح بين سعة الإحاطة وحسن التوفيق بين المقاصد ، وهذا هو السر فى دوام الإقبال على مؤلفاته بالرغم من مرور أكثر من أربعمائة سنة على ظهورها وبالرغم من تقادم لغتها حتى أصبحت مختلفة فى المبنى والمعنى عن لغة العصر الحاضر .

كان رابليه خير معبر عن الحماس لاستكشاف المدنية القديمة وعلوم الأوائل بعد أن ظلت قرونا كامنة فى بطون المخطوطات لا يحفل بها غير حكماء العرب واليهود والقليل من الرهبان . ولكنه كان أيضاً شديد العناية بالكتب المقدسة ؛ فهو إذن ممن يرجع إليهم الفضل فى تحديد المدنية الأوروبية الصحيحة القائمة على أساسين : أحدهما الديانة المسيحية ، والثانى الثقافة اليونانية الرومانية .

وسأكتفى فى هذا المقال بدراسة خطاب له مشهور وجهه على لسان والد إلى ولده وهو طالب علم فى باريس ، وفيه يرسم ما تنبغى دراسته من العلوم ، ثم أوازن بعد ذلك بين آرائه وآراء منسوبة إلى الفيلسوف الإسلامى ابن سينا ، وأستنتج من ذلك نتيجة أراها خطيرة لأنها تدعونا إلى إعادة تقديرنا لما هو معروف من تاريخ حياته ، وهذا الخطاب وارد فى الفصل الثامن من الكتاب الثانى من مؤلف رابليه المعروف باسم Pantagrvel وهو اسم الطالب الموجه إليه الخطاب .

قال رابليه ما ترجمته :

« أوصيك يا بنى أن تبذل شبابك فى الإفادة من تحصيل العلم والفضيلة . وإنك لمقيم فى باريس ولك فيها أستاذك والعالم . تفيدك باريس بما فيها من علوم حية ، ويعلمك أستاذك بالقدوة الحسنة . وإنى أريد أن تتعلم اللغات على خير وجه : فتتعلم أولا اللغة اليونانية على نحو ما رسمه كونتليان[1] ثم اللغة اللاتينية ، ثم تدرس اللغة العبرية لتقرأ الكتب المقدسة ، وكذلك اللغة الكلدانية واللغة العربية ، وأن تعنى بأسلوبك فى اللغة اليونانية على مثال أفلاطون وفى اللاتينية على مثال شيشرون . وألا تترك شيئاً من التاريخ والقصص إلا استوعبته وتأكدت من حفظه ، وأن تستعين بما كتبه المؤلفون فى علم الهيئة . وفيما يختص بالفنون الشريفة[2] ، فإنى حببتها

(١) Quintilian عاش ما بين سنتى ٣٥ و ٩٥ بعد الميلاد واشتغل عشرات من السنين أستاذا للبلاغة فى روما وله كتاب مشهور فى تنشئة الخطيب رسم فيه المنهج المثالى للتعليم .

(٢) الفنون الشريفة arts liberales عددها سبع وهى النحو والخطابة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وقد يضاف الى هذه الجملة علوم الأخلاق والطبيعيات والالهيات فتصير عشرة . والأرجح أن رابليه يعنى فى هذا الموضع بالعلوم الشريفة القسم الأول منها المحتوى على النحو والخطابة والمنطق وهو ما يسمى فى العصور الوسطى باسم Trivium.

إليك عندما كنت صغيرا فيما بين الخامسة والسادسة من عمرك فامض فى دراستها ، وفيما يختص بالفلك اعرف جميع قوانينه . واهجر علم النجوم القائم على التخمين والحدس وصنعة لوليوس Lullius (أى الكيمياء القديمة التى يقصد بها تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) لأن كليهما عبث . وفيما يختص بالقانون المدنى فإنى أريد أن تحفظ نصوصه الجميلة عن ظهر قلب وأن توازن بينها بحكمة .

وأما فيما يختص بمعرفة الطبيعة فإنى أود أن تفرغ للوقوف على أحداثها بعناية ؛ وألا يبقى بحر ولا نهر ولا نبع إلا عرفت جميع أسماكه . وينبغى أن تعرف جميع ما فى الجو من طيور وجميع مافى الغابات من أشجار وشجيرات وفسائل وجميع ما على الأرض من نبات وجميع ما يكمن فى باطنها من معادن وأحجار الشرق كله والجنوب ، وألا يبقى شىء ما مجهولا لديك .

وعليك بعد ذلك أن تدرس كتب الأطباء اليونان والعرب واللاتين دون أن تزدرى علماء التلمود والكبال (علماء الشريعة وأصحاب العلوم الخفية من اليهود فى العصور الوسطى وكان منهم أطباء) واستعن بالكثير من الهياكل البشرية لتحصل على معرفة تامة بالعالم الآخر (العالم الصغير) الذى هو الإنسان .

واجعل من كل يوم بضع ساعات تبدؤها بمطالعة الكتب المقدسة وأولها باليونانية « العهد الجديد » ، ووسائل الرسل ثم بالعبرية « العهد القديم » .

وبالجملة فإنى أرى العلم لاحد له ، فإذا ماصرت رجلا فعليك أن تخرج من هدوء الدرس ودعته وأن تتعلم الفروسية وأنواع السلاح لتحمى بيتى وتنصر أصحابنا إزاء غوائل الأشرار .

وإنى أريد أن تمتحن فى أقرب وقت مقدار ما أفدته . وخير سبيل لذلك أن تنهض على ملأ من المستمعين مؤيدا لبعض الدعاوى من جميع أنواع المعرفة منتصرا لجميع الناس أو معارضاً إياهم ؛ وأن تغشى أمكنة أهل الأدب فى باريس وغيرها من البلاد .

ولكن لما كانت الحكمة لا تدخل نفساً خبيثة (١) كما يقول سليمان الحكيم : ولما كان العلم ، إذا لم يقترن بالضمير ، مهلكة للروح ، فإنه يجدر بك أن تعبد الله وأن تحبه وتخشاه وأن تجعل فيه جميع أفكارك وكل أملك وأن تتقرب إليه بالإيمان الذى تصنعه المحبة والإحسان بحيث لا تدع الخطيئة تقصيك عنه . واحذر عبث الدنيا ولا تشغل قلبك بالباطل ؛ لأن هذه الحياة طريق انتقال ؛ ولكن كلام الله يبقى إلى الأبد . وكن نافعاً لجميع من حولك وأحببهم كما تحب نفسك ، ووقر معلميك ، واهجر صحبة الذين لا تريد أن تتشبه بهم ، ولا تعطل ما أسدى إليك الله من نعم .

ثم عد إلى عندما تعرف أنك حصلت جميع ما هناك (فى باريس) من معارف لأراك وأدعو الله أن يباركك قبل أن أموت .

وليصحبك يا بنى سلام الله ونعمته » .

وقد حرصت على ترجمة الخطاب ليتبين قارىء اللغة العربية كيف يتصور رابليه التعليم المثالى

(١) كتاب الأمثال ، الإصحاح الرابع عشر ـ العبارة السادسة ، ونصها على حسب ترجمة حديثة هو « المستهزىء يطلب الحكمة ولا يجدها » .

ويحصى العلوم والمعارف التى ينبغى أن يحيط بها الإنسان لكى يكون حكيما يجمع بين العلم النظرى الذى تتوارثه أجيال الإنسانية من عهد اليونان والتربية الوطنية ، وبين الدين الذى هو سياج المجتمع وعماد نظامه وأمله فى الحياة السعيدة . وهو لم يقنع بما بلغه الأوائل من معارف بل نصح أيضا بدراسة العربية والعبرية والكلدانية لينتفع بما دونه أهلها من علوم وليتمثل الحضارة الإنسانية فى أوسع حدودها . وأراد فوق هذا أن يستمر المتعلم فى مراحله المختلفة مواظباً على قراءة الكتب المقدسة كل يوم لكى تظل عاطفته الدينية فى نمو متصل .

وأشير فى هذه المناسبة إلى أن رابليه لم يخترع هذا البرنامج اختراعا ، ولم يدع ذلك ، وإنما ينحصر فضله فى التوسع والتنظيم وإحكام الوسائل لتحقيق الغاية من التعليم .

أوازن بعد ذلك بين أقوال رابليه فى نظام التعليم المثالى وبين برنامج الدرس والتحصيل الذى اتبعه ابن سينا على حسب ما يروى عنه فى ترجمته لحياته (١) .

قال ابن سينا فيما يذكر عنه : إنه ما كاد يتم عشر سنين من عمره حتى كان قد حفظ القرآن واطلع على كثير من الأدب . وفى رواية أخرى أنه لما بلغ سن الإدراك سلمه أبوه إلى معلم القرآن ثم إلى معلم الأدب « فكان كل شىء قرأه الصبيان على الأديب أحفظها والذى كلفنى أستاذى كتاب الصفات وكتاب غريب المصنف ثم أدب الكتاب ثم إصلاح المنطق ثم كتاب العين ثم شعر الحماسة ثم ديوان ابن الرومى ثم تصريف المازنى ثم نحو سيبويه فحفظت تلك الكتب فى سنة ونصف ؛ ولولا تعويق الأستاذ لحفظتها فيما هو دون ذلك ؛ وهذا مع حفظى وظائف الصبيان فى المكتب » .

والمهم أن المرحلة الأولى من مراحل التعليم تنتهى فى سن العاشرة . وإذا سلمنا أنه قضى فيها سنة ونصف سنة كانت بدايتها فى سن الثامنة والنصف أو دون ذلك بقليل لتعلم الخط . ولنقل إن البداية فى سن الثامنة ، وتشتمل هذه المرحلة الأولى على تعلم النحو والشعر والأدب بجوار حفظ القرآن وتعلم الخط .

وأما المرحلة الثانية فإنها على نحو ما يصفها ابن سينا فيما نقل عنه تشتمل على الاستماع إلى عقيدة الوالد وأصحابه والاستماع إلى ما يجرونه على ألسنتهم من كلام فى الفلسفة والهندسة وحساب الهند ثم الاشتغال بالفقه على فقيه حنفى وعلم الجدل والمناظرة ودراسة الحساب على معلم خاص ثم دراسة المنطق والهندسة والهيئة على معلم آخر .

ثم اشتغل فى المرحلة الثالثة بتحصيل العلم بنفسه ودرس فيها العلم الطبيعى والإلهى وانتقل بعد ذلك إلى الطب وانتهى من هذه المرحلة وعمره ست عشرة سنة ولم يكف فى أثنائها عن الاختلاف إلى دروس الفقه والمناظرة .

وعنى فى المرحلة الرابعة بمراجعة ما حصله فى المنطق والفلسفة بجميع أجزائها واستغرق فيها سنة ونصف سنة بذل فيها مجهوداً مضنياً ليتيسر له فهم العلوم جميعاً والتحقق من صحة ما حصله . وكان آخر ما راجعه هو العلم الإلهى ولم يتيسر له فهمه إلا بفضل كتاب صغير للفارابى هو أشبه بالدليل المرشد فى هذا العلم . ثم ساعدته الظروف على أن يختلف فى مدة نصف سنة إلى خزانة الأمير نوح بن منصور ليقرأ فيها من

(١) ابن أبى صيبعة ، طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢ - ٤

الكتب مالم يقرأه من قبل وبذلك أتم التحصيل وعمره ثماني عشرة سنة .

ونلاحظ أن ابن سينا يكون قدقضى فى تعليمه عشر سنوات كاملة وهذا رقم ينبغى ألا ننساه .

وإذا أحصينا العلوم التى درسها فى هذه المدة على حسب تصنيفه إياها وجدناها عشرة .

النحو ؛ والأدب والشعر ومعهما حفظ القرآن ؛ والفقه والمناظرة ؛ والحساب والمنطق ؛ والهندسة ؛ والهيئة ؛ والطبيعى ؛ والإلهى ؛ والطب .

ولنوازن هذا بما كتبه حنين بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ للهجرة أى قبل ميلاد ابن سينا بأكثر من مائة سنة ، وذلك فى كتابه المعروف بنوادر الفلاسفة الحكماء وآداب المعلمين القدماء . وهو كتاب لا يزال مخطوطا ونتمنى أن نراه محققا منشوراً فى القريب ، قال حنين بعد أن أورد خطبة بليغة منسوبة إلى أرسطو : « وهذا الصنف من الآداب أول ما يعلمه الحكيم للتلميذ فى أول سنة مع الخط اليونانى ثم يرفعه من ذلك إلى الشعر والنحو ثم إلى الحساب ثم إلى الهندسة ثم إلى النجوم ثم إلى الطب ثم إلى الموسيقى ثم بعد ذلك يرتقى إلى المنطق ثم الفلسفة . فهذه علوم عشرة يتعلمها المتعلم فى عشر سنين » (١) .

وبالرغم مما يظهر من اختلاف بين ترتيب حنين لهذه العلوم العشرة والترتيب الذى اتبعه ابن سينا فى تعليمه إلا أنه لا يفوتنا أن ابن سينا نفسه أشار إلى عودته إلى المنطق بعد انتهائه من دراسة الطب ليطبقه على جميع مادرسه من علوم ؛ كما أنه أشار إلى استعصاء العلم الإلهى على فهمه فأخذ يعاود قراءته بعد ذلك حتى اهتدى إلى كتاب الفارابى فيه ، فتيسر له بذلك إدراكه وفهمه ، وعلى هذا النحو كانت الفلسفة الإلهية هى آخر ما انتهى من دراسته فى برنامجه .

وهكذا يطابق برنامج ابن سينا فى الدراسة والتحصيل ما ذكره حنين بن إسحق عن نظام اليونان فى ترتيبهم لبرنامج التعليم مطابقة جوهرية ولا يختلف عنه إلا فى إضافة ابن سينا حفظ القرآن ، والفقه دون أن يغير فى الترتيب .

وكذلك يطابق البرنامج الذى رسمه رابليه للتعليم فى جوهره نفس البرنامج الذى يقال إن ابن سينا اتبعه . والخلاف بين البرنامجين راجع إلى اختلاف الرجلين فى الدين واللغة والزمن . ويمتاز برنامج رابليه عن برنامج ابن سينا فى أنه يعنى بالتربية الدينية عناية أكثر .

وفى الجملة نرى أن برنامج ابن سينا أقرب من برنامج رابليه إلى النظام الذى كان يتبعه المتعلمون اليونانيون ، ولم يدخل عليه من التعديل إلا حفظ القرآن ودراسة الفقه . ثم إن ابن سينا يجعل المواظبة على دراسة الفقه فى جميع مراحل التعليم مكان ما ينصح به رابليه من المواظبة على قراءة الكتب المقدسة . وكلاهما يختلف أيضاً عن النظام اليونانى فى إدخال الفقه أوالقانون فى صميم البرنامج الدراسى . ثم إن رابليه أشار إلى تعلم الفروسية وأنواع السلاح ولم يشر ابن سينا إلى شىء من ذلك ، لأن هذا يخرج عن تكليف المعلمين فهو من واجبات المتعلم بعد الانتهاء من التحصيل وإلى ذلك أشار رابليه على كل حال .

ومن الواضح أن اليونان كانوا يتبعون فى التعليم ما ذكره حنين ابن اسحاق من برامج يكلف

(١) مقتبس فى طبقات الأطباء لابن أبى صبيحة ج ١ ص ٦٣ ومحبوب القلوب لقطب الدين اللاهجى ص ١١٠

في الثقافة العامة

الهندوكية

دين في الناس عتيق

للدكتور احمد زكي بك

الهندوكية دين من أغرب الأديان ، ومن أقدم الأديان ، ومن أمتع الأديان دراسة ، لمن عنده الدراسة متعة ولذاذة ، ولاسيما إذا كان موضوعها الإنسان ، في فكره ، وفي عاداته ، وفي تطوره .

ومن غرابة هذا الدين أنه دين ولا دين
أو هو دين تضمن أديانا

وتبحث عن هذا الدين أو هذه الأديان فلا تجد لها مساكا يمسكها ، أو حدوداً تحدها ، أو معالم بينة واضحة تدل عليها ، كما تدل سمات وجه الرجل عليه .

وعلى انبهام حدود هذا الدين ، فقد اتسعت هذه الحدود حتى وسعت كل شيء ، فما من مذهب جاء يخطبه إلا خطبه ، وما من عقيدة جاءت تحتويه إلا احتواها . فهو كالسوق الهائلة القائمة الصاخبة ، في غير نظام ، تجد فيها البضاعة الجيدة والرديئة ، وتشترى فيها الشيء الغث والشيء السمين .

ويرجع هذا إلى أنه محصول السنين ، وأن أصوله تضرب فيما قبل المعروف من القرون . وجاء القرن بعد القرن فأودع كل قرن نصيبه فيه حتى زخرت خزانة هذا الدين بالكتب العديدة الضخمة ، التي تدخلها قارئا فتضل فيها ، للذي فيها من سعة ، ومن اعوجاج طرق واختلاط سبل ، ومن تناقض وتنافر ، لأن الذي كتب ، وقلما عرف من كتب ، لم يكن قلما واحدا ، ولكن عدة من أقلام ، والذي أملاها لم يكن رأسا مفكراً واحداً بل عدة من رؤوس ، لم يجمعها الزمان الواحد ، ولا المكان الواحد ، فتباينت ألواناً واختلفت طقوساً ومذاهب .

وللإسلام قرآنه ، وللمسيحية إنجيلها ، وللعبرانية توراتها ، حتى الكنفوشية لها كتاب يصف تقاليدها وتسأل في الهندوكية عن كتاب واحد كهذا فلا تجد شيئا .

ويعتنق هذا الدين نحو من ٢٦٠ مليون نسمة من خلق الله .

المعلم بالنهوض بأعبائها ، وكذلك فإنه مما لا شك فيه أن رابليه رسم نظاما مثاليا للتعليم ، وإن كان يتفق في بعض أجزائه مع ما كان يجرى عليه المتعلمون في زمانه . أما البرنامج الذي اشتهر أن ابن سينا اتبعه في تعليمه فإننا نرجح أنه لا يعدو أن يكون من البرامج المخترعة على غرار البرنامج اليوناني .

محمود محمد الخضيري

الهندوكية والآرية

وتبدأ القصة المعروفة لهذا الدين من الألف الثالثة قبل ميلاد المسيح . فمن بقعة غير مؤكدة من بقع الأرض ، فى آسيا أو فى أوربا ، نزحت قبائل عن أرضها ، وتفرقت ، ومنها من اتجه إلى أوربا فسكنها ، فكان منهم أكثر أهل أوربا ، ومنها من اتجه إلى آسيا فتفرق فى أرمينية وإيران وهندستان أو الهند . فهؤلاء الأخيرون حملوا عقائدهم إلى شمال الهند فكانت منها الهندوكية بعد تطورها على السنين .

ويستدل الباحثون على هذا من بحوث مقارنة فى لغة هذه الأقوام ، وفى أديانهم ، وفيما كشف الحفارون فى حفائر الأرض .

وتعرف هذه الأمم التى جمعتها هذه الأصول بالآرية .

ولم يحمل الآريون إلى الهند ، الهندوكية ، فى صورها الأولى فحسب ، فهم حملوا اليها كذلك لغتها ، السنسكريتية .

ولقد حاول المؤرخون والباحثون تقسيم الهندوكية إلى اطوار ، تصف ما طرأ عليها من اختلاف كبير ، ومنهم من جعل هذه الأطوار ستة ، ومنهم من جعلها سبعة ، ومنهم من زاد . وبحسبنا أن نجعلها ثلاثة أطوار لا رابع لها ، مقتصرين على الخطوط العريضة الكبرى التى فصلت ما بين طور كبير وآخر كبير .

طور الهندوكية الأول ، الفيدوى

ونسبته إلى الفيدا ، وهى كلمة معناها العلم أو العرفان ، ويقصد بها هنا العرفان المقدس ، وقد نزل به الإلهام على جماعة من بينهم اختارتهم الآلهة دون غيرهم لهذا ، وقامت هذه الجماعة المختارة تنقله وتنشره فى الناس أناشيد يتغنى بها الكهنة للناس . كان هذا قبل ألف سنة قبل ميلاد المسيح ، والآرية قائمة . فأصل هذا العلم أو العرفان ، أصل الفيدا ، آرىّ . واحتفظوا به بالتواتر شفاها ، من أذن للسان ، ومن لسان لأذن ، خمسة قرون . ثم هم سجلوه فى كتب ثلاثة ، أولها الرج فيدا ، أو العلم الأناشيدى ، وهو الأصل ، وبه ١٠٢٨ أنشودة . ومن هذا الأصل اشتقوا الكتاب الثانى ، وأسموه الساما فيدا ، ثم الكتاب الثالث ، وأسموه الباجور فيدا . ورابعاً أدخلوا فيها أدعية للحجابة والتعويذ ، اشتقوه من الأصل القديم وما استحدث من بعده ، وأسموه الأثارفا فيدا ، نسبة للكهنة الذين جمعوه ، واسمهم الأثارفانيون .

آلهة الطور الاول ، الفيدوى

وتأخذ تبحث فى هذه الكتب الأربعة ، هذه الفيدات الأربع ، عما يعبدون ، فيتعبك البحث ، وأنت من بعده لا تكاد تخرج على شىء متناسق ، يأتلف أوله وآخره . ولا عجب ، فهذا تراث لم يعرف له على التحقيق أول ، ولم يعرف من أوحاه وإلى من أوحى ، ومتى أوحى به وكيف . وهى كتب لم يعرف من كتبها أو كتبوها ، أو من جمعها أو جمعوها . والذى تقول به لم يصدر

عن سلطة تستطيع أن نشير إليها فنقول هذه أصدرتها ، ولم تقرره جماعة نستطيع أن نشير إليها فنقول هذه الجماعة هي التي أقرتها أوجمعتها . إنه ميراث لاصاحب له انحدر من السنين كما ينحدر الشيء من السماء ، لاتعرف له مأتى ، أو كالماء ينحدر من الجبل لا تبلغ له مصبا ، لأنه بدأ فى الأحراج والأدغال حيث لا تستطيع أن تصل قدم .

وتبحث فيه عن الآلهة فتحسب أحياناً أنها أسرة واحدة لإله واحد اسمه دايوس (قارن بين هذا وبين إله الآلهة زيوس عند الإغريق) . وتبحث عن الآلهة فتقع على الإله أورانوس ، وإذا بهم يدعونه إله الآلهة . وتبحث عن الآلهة فتجد أحياناً أنهم يثلثون ، كما ثلث قدماء المصريين فى مثل زمانهم أو قبله ، أو كما ثلث النصارى . فالإله « أجنى » ، ويمثل النار (قارن بين هذه وبين الكلمة الأغريقية ، إجنس ، ومعناها النار) ، أو هو إلهها ، والإله إندرا وهو إله المطر ، والإله « سوريا » ، وهو إله الشمس . أو هى آلهة ثلاثة للأرض والهواء والسماء .

وإذ كانت الآلهة ، لزمت القرابين .

وكانوا يتقربون إلى الآلهة بالهدايا يهدونها على نعمة سلفت . ثم أخذوا يهدونها لنعم ترجى أو نقم تدفع .

ويقيمون الأفراح ويدعون الآلهة إليها ، ويجمعون لهم ولأنفسهم فيها كل مستطاب . فالآلهة تأكل مما يأكل الناس . وهى كالناس تحب اللبن والزبد والخبز واللحم ، لحم الأغنام والمعز والثيران والأبقار . وكانت الأبقار عند ذاك تؤكل .

وغالوا فى الذبائح التى يذبحونها للآلهة ، فكانوا يذبحونها بالمئات ، وينزل الآلهة من السماء الثالثة ضيوفاً على أرباب هذه الولائم ، فيأكلون ويقصفون على الأناشيد والترانيم .

وجعلوا للآلهة أزواجاً ، زيادة فى الترفيه ، وانسجاماً مع ما يرون من سنن الوجود .

والآلهة كانت من أصول ، كالناس ، فانية . ثم نالوا الخلود .

والآلهة لها وجوه ولها ، كالناس ، أعضاء . وأحياناً يلبسونهم ملابس الكهنة ، وأحياناً ملابس الجند ، والكل يركبون الهواء ، فى عربات من نور ، تجرها فاخرات الجياد .

ومن الآلهة الإناث ، كإلاهة الأرض وإلاهة الليل ، ولكن ليس لهن خطر الرجال ، وليس لهن رأى فى حكم الدنيا .

والصفة الغالبة للآلهة القوة ، وهم بها يديرون هذا الكون ، وهم بها يقهرون جنود الشر فيه . ولهم على الخلائق الحكم المطلق ، لا دفع لأمرهم ، ولا يستطيع مخلوق أن يعيش يوماً فوق اليوم الذى حددوه لموته . وهم على خلق حميد ، أمناء فلا يخونون ، وهم أصدقاء لكل ذى عدل وصدق وهم خصوم كل ذى خطيئة أو جرم .

ولاشتراك الآلهة فى كل صفة محمودة ضاعت ما بينهم الفروق ، فليس فى أحدهم من صفة اختص بها فصارت عليه علماً . ومن أجل هذا كانت الناس تدعو أكثر من إله فى المأزق الواحد أو النازلة الواحدة ، فكل سواء فى دفعها ، قمين

بتفريجها ، وزاد هذا الإبهام بين الآلهة على الذهن وكان من هذا أنا نجد فى الأناشيد المتأخرة من «الفيدات» أن الآلهة صور عدّة لموجود مقدس واحد . وكان بين هذا وبين توحيد الله خطوة واحدة لم يخطها أحد عند ذلك قط ، ولكنها مهدت للفكر الذى قضى بتوحيد الكون وتأليهه فى الدور الهندوكى الثانى ، دور البراهمة .

تأليه الحيوان وتقديس الجماد

فى الطور الأول

وأول هذه الحيوانات وأكثرها ذكراً فى « الفيدا » البقر ، فالبقرة هى التى تجر عربة الفجر لتطلع على أهل الأرض بالنور ، وسحب السماء مثلوها فكانت أبقاراً ، وهى تدر الخير على الناس مدراراً ، وبلغوا بها من حيث الرفع إلى أن جعلوا منها آلهة ، ومنعوا ذبحها ، وهذا أقل ما يصنع لمن بلغ هذا المبلغ الرفيع .

ومن الحيوانات التى ذكرت فى الفيدا ، فكان لها من أجل ذلك فى التقديس مكان بالذى صنعت ، الجدى والحمار . وبورك الحمار بما خدم الإنسان وبما شقى فى هذه الدنيا ، والقرد والنسر والثعبان .

والأنهار والجبال ألهوها وقدسوها .

والظاهر أنهم لم يكونوا قد عرفوا الأوثان بعد ، فهى لم يذكر منها فى كتبهم شىء .

أبطالهم

وفى الفيدات أقاصيص ، وللأقاصيص أبطال وهم عادة أبطال حرب ، ولكن أبطال الفيدات حكماء ، وأولهم اسمه «مانو» وهو الإنسان الأول ومع هذا فله أب مذكور ، وهو كنوح جاءه الطوفان فأغرق ما أغرق ، أغرق كل الخلائق ونجا هو فى سفينته .

والأبطال تلعب فى الهندوكية ، من بعد هذا الطور الأول ، دوراً كبيراً .

الشياطين

ونذكرهم بعد أبطال الناس ، فى موضعهم الأوفق ، فهم أعوان الشر وطلابه . والشياطين فى الهندوكية الأولى صنفان : شياطين سماء وشياطين أرض . أما شياطين السماء فيخاصمون الآلهة ، ويجرى بين هؤلاء وهؤلاء شجار ، وتقوم حرب . وقد يغلب الشيطان فى أول الأمر ثم ينخذل ويلقى مغبة أمره . منهم شيطان يقوم بكشف الشمس . والآلهة تقتل الشياطين فتموت ، فهى ، كالناس ، غير خالدة .

أما شياطين الأرض فيخاصمون الناس . وهى تظهر للناس فى صورة طير أو حيوان . وتأخذ شكل الإنسان إمعانا فى الخديعة وهى تدخل جسم الإنسان وتلبس جلده ، وتصيبه بمرض الجسم أو مرض العقل . ومقصدها فناؤه ، فهى تحب اللحم وتتحرق إلى شرب الدماء .

العبادات

وأولها الحمد ، يتوجه به المتعبد إلى الآلهة .

وهو يحمدهم ويكبرهم ويسبح لهم ليحظى بحبهم ، ومن وراء الحب الخير الكثير .

وهو يتوجه إليهم أيضاً ليغفروا له الذنوب

ومن العبادة الأضاحى ، يضحى بها المتعبد للآلهة ، ليكسب ودهم . ويقذف بالأضحية فى فم النار ، فهى فم الآلهة ، وعن طريقها تذهب الأضحية إلى الإله المقصود إن كان الإله فى الماء قذفوا الأضحية فى الانهار والبحار . وإن كان فى الهواء رفعوها إليه . وللأضاحى مراسم طويلة

ومن العبادة ، غير التوجه إلى الآلهة ، التفرغ إلى الشياطين ، لدفع شرورهم ، بعون الآلهة ، قليلا ، وبالحجب والتعاويذ وبالسحر ، كثيراً .

وقامت بين الناس وآلهتهم فئة من الناس ، هم الكهان ، تخصصوا لهذه الوساطة الخطيرة بما كسبوا من علم ، وبما مهروا فى هذه الصناعة ومراسم العبادة استطالت وتعقدت ، فكان لابد لها من دارسين ، ومعلمين ، فكان هؤلاء دارسوها ومعلموها وبقيت هذه الكهانة فى أسرٍ عرفت بها ورضيهم الناس عليها .

الموت وما بعده

ويموت الفرد منهم فتخرج روحه من جسمه ويحرق الجسم . أما الروح فتأخذ سبيلها إلى السماء حيث ذهب من قبل الآباء : وهناك يعود إليها جسمها . وهناك يلقى الفرد أمه وأباه ، والإخوة والأخوات والأقارب ، ويلقى الزوجة والأبناء . وهناك المتع التى لا حد لها فاللبن والعسل والخمر تجرى أنهاراً والموسيقى تخرج من أوتارها ، والأغانى . والمرض لا يعرف ، ولا تعرف الهموم والأحزان ، ولا يعرف الفقر ، وأبقار مختلفة الألوان تجيب المرء إلى ما يشاء .

ولم يكن مذهب تناسخ الأرواح قد نشأ بعد .

فهذه هى الجنة أو ما يشبهها عندهم . وعندهم كذلك جهنم . وكانت عندهم فى الأرض ، فى أسفل سافل منها . فيها الظلام وفيها العذاب .

وأخيرا

وأخيراً فهذا هو الطور الأول من أطوار الهندوكية ، فيه سعة بالذى تخلف منه من مكتوب ومسطور . إلا أنها سعة غير مجزية لأن فيها إبهاما وفيها تناقضاً . فان أشكل عليك شىء فهو من بعض إشكال هذا الطور . ويتلو هذا الطور طور البراهمة ؟

أحمد زكى

من الحكم المأثوره

حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم .

* * *

الموت لا يكون إلا مره
والموت أحلى من حياة مرة

الدنيا كالنار ، قليلها متاع وكثيرها بوار .

انتعاش الإسلام في الجمهورية التركية

للدكتور محمد عوض محمد بك

عندما تولى مصطفى كمال زعامة الأمة التركية ، لتحريرها من نير الظلم والاستعباد الأجنبي بعد الحرب العالمية الأولى ، أسلم اليه الشعب الزمام - وأصبح الآمر الناهي المطاع في كل شيء . وقد كللت جهوده بالنجاح - واستطاع أن يهزم الجيوش اليونانية شر هزيمة ويطردها من أرض الوطن - وأن يقضي على النظام الاستعماري في منطقة البوسفور والدردنيل - ويضطر الإنجليز إلى الانسحاب منها بقواتهم العسكرية وبعثاتهم المدنية - فأمكن لجيشه أن يسترد الآستانة والجزء الأوربي من تركيا كما سبق له بسياسته الجريئة أن استرد مقاطعات قارص وأردهان من روسيا - وقليقية من فرنسا - وأمكنه أن يملي شروطه في معاهدة لوزان على البريطانيين واليونان .

لا شك أن ظروفاً عديدة ساعدت مصطفى كمال على إحراز هذا النصر الباهر ، ولا مراء أيضاً في أن كثيراً من الفضل يرجع إلى تأييد عدد كبير من زملائه الأكفاء ، ولكن لا شك أيضا أن الفضل الأول يرجع إلى قيادته الحازمة وما رزق من صفات الجرأة والهمة والدأب إلى جانب نبوغه في القيادة العسكرية . وكانت الظروف تقضي على الأمة التركية بأن تلتف حول قائد مغوار جريء يقودها في أكبر محنة تعرضت لها . فكان مصطفى كمال هو ذلك القائد .

أكسبه نصره الباهر مكانا ممتازا قلما أحرزه قبله زعيم . وقد تعودت الأمة أن تطيعه طاعة عمياء ، وهو يكافح لتحرير الوطن أربع سنين : فلما انجلت الغمة وانجابت المحنة - وجدت نفسها لا تزال تطيعه طاعة عمياء وتأتمر بأمره في كل صغيرة وكبيرة . قلدته الزعامة لكي يقودها في محاربة أعدائها - فلم يكن بد من أن يظل حاكمها المطلق وزعيمها الأوحد بعد أن هزم العدو هزيمة ساحقة . ورأى مصطفى كمال أن النصر على العدو ليس الغاية الوحيدة ، بل هو أيضا وسيلة لتحقيق غايات أخرى يرمي بها إلى نهضة تركيا الحديثة والرقي بها إلى مستوى الأمم الغربية . وأن يتم هذا كله بسرعة هائلة وفي أقصر وقت ممكن . ولذلك لا بد له أن يظل الحاكم المستبد ، وألا يسمح لفرد أو لمجموعة من الأفراد أو طائفة من الطوائف أن تعارض أمره وإرادته ، أو تقيم أية عقبة في سبيل ما يرى هو إدخاله من التغييرات في نظام الدولة وفي حياة أبنائها وبناتها .

ومن الناس من يرى أن مصطفى كمال نفسه ، كان يرمي في النهاية إلى أن يقوم في تركيا بعد حقبة من الزمن نظام برلماني ديمقراطي حر ، حين يؤون الأوان لإقامة مثل هذا النظام ، ولكنه كان على كل حال مصمما أن يدخل في بلاده أنظمة جديدة بسرعة . قبل أن ينشأ مثل هذا النظام .

ولعل هذا الأمر لم يشغل بال الزعيم كثيراً ، لأنه على كل حال أمر لا يزال بعيداً ، وأمامه برنامج لا بد من تنفيذه بسرعة . ويهمنا من هذا البرنامج المسائل التي لها صلة بالدين من قريب أو بعيد ،

ونخص بالذكر منها إلغاء الخلافة ، وجعل الدولة « علمانية » أى ليس لها دين رسمى . ولم يكن معنى هذا اضطهاد الدين الإسلامى ، بل معناه أن الدين مسألة شخصية بحتة ، لا شأن للدولة بها . ومما يتصل بذلك إلغاء القوانين المبنية على الشريعة ، وإنشاء قوانين جديدة مستمدة من شرائع الدول الغربية .

ثم اتبع ذلك بتحريم التعليم الدينى فى المدارس ، وجعل يوم الأحد هو العطلة الأسبوعية ، وتحويل مسجد آيا صوفيا فى الآستانة إلى متحف ، والاستيلاء على أموال الأوقاف ، وإلغاء الطرق الدينية المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، والاستيلاء على ممتلكاتها ، وحظر حفلاتها واجتماعاتها .

وهناك أعمال أخرى قد لا تكون ذات صلة مباشرة بالدين ، ولكنها منبعثة من نفس الروح التى أملت تلك الإجراءات ، مثل استبدال الكتابة اللاتينية بالعربية ، والتقويم الجريجورى بالتقويم الهجرى ، وإغلاق الأضرحة والمزارات . كما صدرت أوامر بأن يكون الأذان والصلاة باللغة التركية . وأغلقت المعاهد العليا التى أنشئت لتخريج رجال الدين ، وجرد هؤلاء من كل سلطة وتعرضوا لبعض الضيق والاضطهاد .

وليس من شأننا هنا أن نتعرض لهذه الأعمال بالنقد أو التجريح ، غير أننا لا نملك أن نلاحظ أنها فيما يبدو لم تؤثر تأثيراً عميقاً فى الأمة . وظل الشعب يمارس دينه ، ويحترم رجال الدين . وحتى الطرق الصوفية نفسها لم تزل آثارها تماماً . وقد حدث فى سنة ١٩٣٠ ، أى بعد صدور القانون بحلها بنحو خمس سنوات أن كان أحد رجال الدين فى بلدة بالقرب من أزمير يخطب فى أتباعه وينقد الحكومة وسياستها ، فتعرض له ضابط متحمس يدعى كوبيلاى ، فما كان من الجمهور إلا أن اعتدى على الضابط ، وانتهت المشاحنة بقتله [1] .

وأمر آخر لا بد من الإشارة إليه . وهو أن الدولة التى أسسها كمال أتاتورك ، كان من شأنها على الرغم من تلك الإجراءات ، أن تظهر الدين الإسلامى فى تركيا على غيره من الأديان ، فقد عمل مصطفى كمال على إخراج اليونان وهم مسيحيون من تركيا ، وأن يستبدل بهم الأتراك المقيمين فى مقدونيا وغيرها من البلاد الخاضعة لحكومة أثينا . والمقياس الوحيد الذى قامت عليه المبادلة هو نقل المسيحيين الأرثوذكس من تركيا ، ونقل المسلمين من اليونان . وفى هذا ما فيه من تقوية الصفة الدينية للدولة التركية الجديدة . بحيث أصبحت كلمة تركى ومسلم من المترادفات .

وقد بقيت بقية من المسيحيين واليهود فى الدولة الجديدة . وكان أفراد هذه الطوائف فيما مضى يحتلون كثيراً من الوظائف ويتمتعون بكثير من النفوذ . ولكنهم لم يلبثوا أن أقصوا عن مناصب الدولة ، وحرموا ما كان لهم من الخطر لأن الدولة الجديدة تركية ، تؤثر الأتراك . والصفة الرئيسية التى تميز التركى من غيره هى الإسلام . ولذلك أصبح كثير من الأكراد والعرب المقيمين فى استامبول وغيرها من البلاد التركية يوصفون رسمياً بأنهم ترك .

ومن المعروف أن كثيرا من قادة الرأى فى تركيا لم يكونوا راضين عن كثير من الأعمال التى قامت بها الدولة للإقلال من شأن الدين

---

(١) كرمت الحكومة ذكرى هذا الضابط بأن أقامت له نصبا تذكاريا - تقام حوله حفلة كل عام فى موعد وفاته ، غير أن هذا الأمر قد عطل حديثاً ، لأنه كان مثار اضطراب وشجار

ورجاله . ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة الإرادة الجبارة التى تهيمن على شئون الدولة كلها . والتى لم يكن لديهم أمامها حول أو قوة .

لو أن أتاتورك كان حياً اليوم لما أريت سنه على الواحدة والسبعين ، وهى ليست بالسن النادرة فى أعمار الرجال : غير أن إرادة الله شاءت أن تهدأ تلك النفس الثائرة ولم يتجاوز صاحبها منتصف الحلقة السادسة من العمر ، فطواه الردى . وتقلد عصمت أنونو شئون الدولة فتوقع غير قليل من الناس أن كثيراً من الأشياء التى لم يكن لها سند تركن إليه سوى تلك الإرادة القوية ، مقضىٌ عليها بالزوال : بعد أن زالت القوة الدافعة التى كانت تدفعها فى غير رفق ولا هوادة :

ولكن هذا التغيير لم يحدث فجأة بل حدث بالتدريج .وظهرت آثاره بقوة فى الأعوام الأخيرة بوجه خاص فى كل ما له صلة بالدين . والذين يذكرون الجهود الجبارة التى بذلها الزعيم الراحل للإقلال من شأن الدين ، سيدهشهم فى زيارة عابرة لتركيا اليوم أن يلاحظوا التطورات التالية :

١ — إعادة الأذان باللغة العربية .

٢ — تلاوة القرآن من محطات الإذاعة الحكومية ثلاث مرات فى الأسبوع على الأقل

٣ — الاهتمام الرسمى بالأعياد الدينية بعد أن كانت مهملة .

٤ — زيادة تعمير المساجد بالمصلين زيادة واضحة .

٥ — إنشاء مساجد جديدة بواسطة الدولة والهيئات الحرة والأفراد .

٦ — ازدياد المؤلفات الدينية التى تخرجها المطابع زيادة هائلة . وإنشاء المجلات الدينية التى لا تتردد اليوم فى انتقاد السياسة القديمة للدولة . ومن أشهر هذه المجلات سبيل الرشاد ، وسلامت ، ودائرة المعارف الإسلامية التركية ، ثم مجلة متطرفة اللهجة والمذهب تدعى بيوك دوغو (الشرق الأكبر) .

٧ — عودة التعليم الدينى إلى المدارس الحكومية .

٨ — إنشاء كلية اللاهوت فى جامعة أنقرة حيث تدرس علوم الدين والتاريخ الإسلامى وبعض العلوم الاجتماعية والطبيعية وذلك لتخريج أفواج جديدة من رجال الدين .

لا شك أن هذه التطورات كلها تمثل حركة جديدة فى الجمهورية التركية ، وفى كل منها خروج واضح على ذلك النظام العلمانى الذى كان ركنا من أهم أركان الدولة .

وكان من نتائج هذه التطورات أن كثيرا من المثقفين الذين كانوا فيما مضى يخشون التظاهر بالدين ، أصبحوا يجهرون بإقامة شعائر الدين ، دون أن يخشوا أن ينالهم أذى فى أرزاقهم أو مناصبهم . وأقبل الخاصة والعامة على أداء فريضة الحج وبلغ عدد النازحين لتأدية الفريضة قرابة العشرة آلاف فى العام الماضى ، وأرسلت ثلاث من الصحف اليومية مراسلين فى موسم الحج لمصاحبتهم وإرسال أنبائهم وأنباء الحج إلى الجرائد.

وهكذا أصبح من الواضح أن الانتعاش الدينى فى تركيا أصبح حقيقة ملموسة ، يدركها بوجه خاص ، بل ويندهش لها . من زار تركيا فى العام الماضى ، بعد أن رآها منذ بضعة عشر عاما ؛ غير أن المطلعين على حقيقة الحال فى أنحاء البلاد المختلفة كانوا واثقين تمام الثقة أن هذا الانتعاش آت لا ريب فيه ، لأن الركود الدينى كان شيئا مصطنعا فرضه الاستبداد على كره من قادة الرأى

ودون أن يكون له سند من إرادة الشعب .

ولم يكن بد بعد هذا الكبت الطويل العنيف أن يكون الانتعاش مصحوبا ببعض مظاهر التطرف . ففي شهر فبراير من العام الماضي ، ظهرت حملة تخريبية، قامت بتحطيم كثير من تماثيل كال أتاتورك المنتشرة في طول البلاد وعرضها . ولم يسلم من هذا التخريب حتى النصب الضخم المقام في العاصمة ، واضطرت الحكومة إلى إصدار قانون يقضي باحترام ذكرى الزعيم .

قامت بهذه الأعمال العنيفة جماعة تنتسب إلى الطريقة « التيجانية » يتزعمها اليوم رجل من المثقفين ثقافة قانونية يسمى كال بلاوأغلو ، وهو يزعم أن أتباعه يبلغون الأربعين ألفا ، والطريقة التيجانية من الطرق المعروفة المشهورة ، نشأت في بلاد المغرب في أواخر القرن الثامن عشر ثم انتشرت في إفريقية ووادي النيل ، ولها في السودان أنصار وأتباع ولم يؤثر عنها العنف والشدة ولذلك نرى السلطات في كثير من الأقطار راضية عنها بوجه عام

ولم تكن الطريقة التيجانية معروفة في تركيا وقت تأسيس الجمهورية التركية ، وإذا كان لها أتباع في ذلك الوقت فانهم من القلة بحيث لم يحس أولو الأمر وجودهم ، ولذلك كان القرار بإلغاء الطرق الصوفية خاصا بالطرق الشهيرة مثل النقشبندية والمولوية والقادرية والخلوتية ، ويبدو أن الطريقة التيجانية نمت في الخفاء واكتسبت الاتباع والأنصار في عهد الكبت والاضطهاد ، إلى أن لفتت الانظار بتطرفها وأعمالها العنيفة .

غير أن هذه النزعات العنيفة ظاهرة لم يكن عنها محيص ، وسواء أرخصت الحكومة بعودة نشاط الطرق الصوفية أم لم ترخص فإنه ليس من المنتظر أن تتكرر مظاهر العنف ـ لأن الحكومة تستطيع أن تعتمد على تأييد الرأى العام في الحد من أعمال التطرف والعنف .

وقد يحق لنا أن نتساءل هل هذا الانتعاش الديني في الجمهورية التركية ظاهرة عابرة لا تلبث أن تزول . والخبراء في شئون الدولة التركية يؤكدون أن هذا الانتعاش شيء ثابت في حياة الأمة . وليس مظهراً زائلا . وذلك لسببين : أولهما أن الإسلام في تركيا راسخ في نفوس الشعب وله فيها مكانة قوية . وأن أعمال الكبت التي حدثت في العهد الكمالي لم يكن لها أثر كبير في حياة سكان الريف ، وهم السواد الأعظم من الأمة . وإنما كان له بعض الأثر في المدن والبلدان الكبيرة والمتوسطة . وهذه المدن هي التي أخذت اليوم تحس الانتعاش وتتنفس بحرية ، وتقبل على ممارسة الشعائر الدينية دون حرج .

أما السبب الثاني ، فهو التطور السياسي الذي شهدته الجمهورية في الأعوام الثلاثة الأخيرة . فتألفت فيها أحزاب سياسية أهمها الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي . ولابد لقادة كل حزب أن يخطبوا ود الجماهير ، ويلتمسوا مرضاتهم ، حتى يكسبوا أصواتهم في الانتخابات . فكانت هذه الحركة الديمقراطية سبباً في تنافس الحزبين الكبيرين في تأييد الدين واستهجان كل حركة ترمي إلى الحد منه أو من سلطانه . وهكذا أصبح قادة كل حزب وقد آلوا على أنفسهم أن يعملوا لنصرة الدين وتدعيم أركانه .

إلى شباب الأزهر
تحية ووصية
لصاحب الفضيلة الشيخ على الطنطاوى

أشكر للأستاذ الزيات هذا الشرف الذى أسبغه علىّ حين مكّن لى أن أكون من أسرة «مجلة الأزهر» وأدخلنى جنديا فى الجيش الضخم، الذى امتد من عصر النور إلى عصر النور، خائضا ظلمات التأخر والانحطاط، وتابعاً فى موكب العلماء الأعلام الذين (كانوا أجل من الملوك جلالة، وأعز سلطاناً) وكانوا حماة الإسلام، وحراس الحضارة - لولاهم ما اتصلت حضارة العرب الأولى بحضارة العرب الجديدة، ولم يصل إرث الآباء من عهود الازدهار إلى الأبناء فى عهد النهضة. هم حملوا أمانة العلم حين غلبت على أمة الإسلام الجهالة، وهم رفعوا مصباح الدين حين انتشر الظلام، وإليهم كانت تشد الرحال من كل بلد إسلامى: يفد عليهم الأمى الجاهل فيرجع وهو إمام الهداية، وعالم البلد، كما كان يفد الأعرابى على الرسول - فيعود وفى يمينه من نور النبوة قبس يهدى الضالين.

أولئكم علماء الأزهر، وهل فى الدنيا معهد علم له قدم الأزهر، وعظمة الأزهر، وأثر الأزهر فى الفكر البشرى وفى الحضارة الإنسانية؟ أى معهد يجرّ وراءه أمجاد ألف سنة؟ ما الجامعات؟ إنهن بنات اليوم والأمس، والأزهر لدة الدهر. تكسرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم، وارتدت عن بابه هجمات الجهالة والضلالة والشهوات والأوهام، غالب الفناء، وزاحم الزمان فى طريق الخلود، وكان الأفق الذى أطلع شموساً وأقماراً وأخرج للدنيا نجوما كانت هدى السالكين. الجامع الأزهر لا تظلموه فتسموه جامعة، فلقد كان والله الجامع، جمع شعوب الإسلام على الحق فى أزمان تفرقت فيها شعوب الإسلام، إنه الجامع، وفى الجامع العبادة والعلم، وفيه الروح والجسم، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، فأين منه الجامعات؟

فيا شباب الأزهر افخروا بجامعكم فما له على ظهر الأرض قرين!

وليس من المنتظر أن تتبدل هذه الحال. فقد أوضحنا فى أول هذا المقال الظروف العديدة الشاذة التى جرت على البلاد أعمال الكبت والقمع ومن الصعب أن نتصور أن تعود تلك الظروف مرة أخرى، ومن الخير لتركيا ألا تعود، لأن البلاد تواجه خطراً كبيراً لابد لها أن تلقاه مجتمعة الرأى، موحدة الكلمة، والإسلام خير درع بقى من أخطار المبادىء الهدامة. وهذه المبادىء الهدامة هى العدو الأكبر الذى تواجهه الجمهورية التركية اليوم.

محمد عوض محمد

يا شباب الأزهر أنتم ورثة هذا المجد كله ، أنتم خلفاء أولئكم الجدود فصلوا طريفكم بتليدكم ، وأتموا بفعالكم مجد أسلافكم : بالعلم لا تسمو الأمم إلا بالعلم ، بالبيان لا علم إلا ببيان ولا فكر إلا بلسان بالأخلاق أخلاق العلماء الذين أخلصوا الخضوع لله ، فخضع لهم جبابرة البشر ، وألقوا كلمة السماء فرفعتهم فوق أهل الأرض.

وزهدوا بزخارف الدنيا ، وأوهام الجاه ، فانقادت لهم الدنيا وسعى إليهم الجاه ، بالأخلاق فالأخلاق قبل العلم ، ونحن لا نريد نسخا من الكتاب ، ولكن نريد رجالا يكونون نماذج للمسلم الكامل ، نريد دعاة إلى الله بالأفعال لا بالأقوال .

ولقد دخل أهل البلاد المفتوحة أفواجا فى الإسلام ، وما سمعنا أن محاضرة فى الإسلام دعوا إليها ، ولا رسالة فيه وزعت عليهم ، ولكنها أخلاق المسلمين ، هى التى أدخلتهم فى الدين . على أننا نحتاج مع ذلك إلى دعاة يلخصون أصول الإسلام فى كلمات ، ويلقونها فى جلسات ، وتكون أسوتهم برسول الله ، يجيئه الاعرابى المشرك ، فيقيم معه اليوم واليومين ، ويسمع منه الحديث والحديثين ، لا يقرأ عنده كتابا فى الفقه ، ولا يتلقى دروساً فى التجويد ، ولا يحفظ قواعد الأصول ، ولا يلقن أدلة العقائد ، ويصير بذلك مسلماً ، ويرجع عالماً ، ويكون داعى قبيلته ومرشد قومه ، وانتشر بذلك الإسلام ، وعم ثلث المعمور ، فى أقل من ثلث قرن .

واجتنبوا الغلظة فى الدعوة . فإن لبعض المتدينين غلظة تنفر من الدين ، ودعو الرّقة التى تذهب الرجولة ، وتجرى بالداعى مع هوى الخصم ، وأعرفوا أقدار نفوسكم ليعرف الناس أقداركم ، فمن أهان نفسه لم تكرم على أحد بعده . وابتغوا القوة فى كل شىء ، فلا شىء كالقوة يزين الرجال، قوة الجسم وقوة العلم ، وقوة اللسان وقوة الجنان، فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم رجلا كامل الرجولة ، وكان رياضيا صبورا [1] لما صرخ النذير بالغابة ، وابتدر المسلمون أفراسهم وكانت مرتبطة بأفنيتهم وأسرعوا رأوا رسول الله ، قد سبقهم إلى الحمى على فرس عار بلا سرج ولا لجام ، وعاد يقول لا تراعوا ! .

ولما تحداه ركانة بطل المصارعة فى الجزيرة العربية ، صارعه صلى الله عليه وسلم فصرعه ، ثم صارعه فصرعه فأسلم الرجل . وكان يسابق السيدة عائشة ، فإذا جد الجد ، وحمى الوطيس ، احتمى به أبطال الحروب ، وفرسان الملاحم ، وكان (إذا القادة تخفوا فى مثل هذا الموقف واستتروا) - ينادى ، أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . فاجمعوا القوة من أطرافها، واستكملوا أسباب الرجولة ، واستعدوا فإن الرجاء منوط بكم ، والأمل مقعود عليكم ، أنتم يا من أدركوا مقاصد الشرع ، وعرفوا حاجات العصر .

إن شعلة الإسلام اليوم وسط هبات من زوابع الباطل ، ولن تنطفىء إن شاء الله ، وستخمد هذه الرياح كما خمدت من قبل رياح أشد منها قوة ، وأعلى عزيفاً ، ولكن لا بدَّ من رفعها عن الإسلام فدعوا النسفية والسنوسية وشرح المواقف

---

(١) لم لا نقول فى ترجمة (سبور) رجل صبور ؟ .

والرّد على أقوام بادوا ولم يبق لهم أثر ، ورواية شبههم ودراية ضلالاتهم ، واعمدوا إلى الردّ على الشيوعية والقومية والقاديانية والملاحدة ، وما فى كل بلد إسلامى من جند إبليس ، وكل محب للظهور ، على فراغ فى رأسه ، وضعف فى علمه ، يعجز عن ولوج العظمة من الباب فيدخل من النافذة ، فيأتى بحماقة يحسبها فلسفة ، ويظنها مذهباً اجتماعياً ، ويقلده فيها من هو أجهل منه جهلا ، وأشد حمقا .

وشرّ من هذه المذاهب كلها هذا الفجور البادى فى المجلات والأفلام وعلى الشواطىء وفى النوادى وهذا الاختلاط فى الأسواق والسينمات وفى الجامعات ، هذا هو السهم المسموم الذى يقصد كل قلب ، وذلك لأن تلك النحل والمذاهب لاتجد لها إلا عند الأقل رضا وقبولا ، أما ما يثير الغرائز ويحرك الشهوات ، فلا يكاد يخلص منه إلا من عصم الله ، وقليل ما هم .

ولا تشتغلوا جميعاً بمناظرة أهل تلك المذاهب الضالة ، لا خوفا منهم فالإسلام لا يخاف من مناظرة أحد ، ولكن خوفا على جهدكم ووقتكم ، وليتفرغ لهم قوم من كباركم ، ممن قوى فى العلم ، وتمرس بالجدل ، واعلموا أنهم أقل وأذل من أن تجعلوهم شغلكم .

ودعوا المناقشة بينكم فى الأمور الاجتهادية ، وما لا جدا منه ولا نفع فيه ، فلقد ضاع من وقت هذه الأمة ومن تفكير أبنائها فى الكلام فى التوسل ، حله وحرمته ، وفى الهجوم على الوهابية والدفاع عنها ، وفى محاربة الصوفية وتأييدها ، ما لو أنفق بعضه فى العلم النافع لسبقنا به فى طريق الحضارة سبقاً بعيدا ، وما دام أمامنا عدو واحد هو الكفر البارز والمستتر ، والفجور الظاهر والباطن ، فلنحارب هذا العدو أولا ، ولنصمد له جميعا ، ولندع الخلاف بيننا معشر أهل الدين إلى ما بعد ذلك . ولا يبلغ بنا ضيق الفكر وقصر النظر ، أن نجعل همنا كله توافه الأمور ، كإطلاق اللحية ، وإرسال العذبة ، وترك الدخان ، وأمثال ذلك مما وقفت عنده همة أقوام تعرفهم فلا يشتغلون إلا به ، ولا يقبلون إلا عليه وأمامنا ما هو أهم وأجدى ، وأعظم عند الله خطراً وأظهر فى الأمة أثراً .

واعلموا أن أولى من ذلك كله بكم ، وواجب عليكم ، أن تدفعوا عنا شر ما ابتلانا به الضعف والتخاذل وهو أنا أغنى أمة فى الدنيا فى التشريع[1] أصول نظرياته ، وفروع مسائله ، ولدينا منه كنز هائل ولكننا تركناه ورحنا (نشحذ) فضلات موائد التشريع عند الأمم ، نأخذ من كل مائدة لقمة حتى صار تشريعنا كطبق المسحر ، فيه من كل شيء . . . وليس فيه شيء ! وصار عجبا فى التخليط ، وعجبا فى ضعف اللغة ، وركاكة التعبير[2] وقصور اللفظ وغموض المعنى ، ولو لم يكن هذا التشريع لنا دينا لكان علينا أن نتمسك به لأنه ثوب فصل علينا ، وقطع على مقدارنا ، وأخذ من أعرافنا وأوضاع ناسنا ، فكيف وهو مع ذلك دين ، إن تركناه تركنا ديننا ، وكفرنا بإسلامنا .

---

(١) الفصيح هو الشرع لا التشريع ولكنه حرف تمكن ابن الألسنة والأقلام

(٢) أنظر مقدمتى لرسالة (لغة القانون) للدكتور عدنان الخطيب

وليس الذنب كله على من جاء به من عند غير الله؛ ولكن الذنب (كما قال ابن القيم) على العلماء ضيقوا الواسع من شرع الله ، وحصروا الدين فى كتب المتأخرين ، فلما لم يجد عندهم الحاكمون علاج الداء الذى يجدون ، اعرضوا عنهم ، وطلبوه من غيرهم ، ولا تكون العودة إلى التشريع الإسلامى بالخطب ولا بالصياح ، بل بأن يتفرغ قوم منكم إلى استخراج القانون المدنى الشامل من كتب الفقه من المذاهب الأربعة ، وأوسعها الحنفى لأنه صار مذهب دولة طول عهد العباسيين والعثمانيين ، والمالكى مذهب الدولة فى الأندلس والمغرب إلى اليوم ، ثم الشافعى ثم الحنبلى ، ومن مذاهب غيرهم إن صح نقلها وقام دليلها ، من المحلى لابن حزم ، والفتاوى والرسائل لابن تيمية ، والاعلام والطرق لابن القيم وأمثالها

وملاك الأمر كله أن يكون منكم فرق كفرق الجيش ، ففرقه للعلم والانقطاع إلى كتبه ، وفرقة لدعوة المسلمين إلى الرجوع إلى دينهم ، وفرقة لدعوة غير المسلمين، وفرقة لمحاربة الدعارة والمذاهب الضالة ، وفرقة للعمل فى التشريع الإسلامى .

وعليكم بكتبكم ، لا يزهدكم بها ويصرفكم عنها عداوة أقوام لها وسخرهم منها ، ونبزهم إياها بالكتب الصفراء ، فما فى الصفرة عيب ، والذهب أصفر مذكان الذهب ، ولكن العيب أن نكون عونا للعدو على أنفسنا . ولقد رأى العدو عظمة المكتبة الإسلامية ، فحسدنا عليها ، فعمل على صرفنا عنها ، وما أظهن أن البشر صنع شيئاً أعظم منها ، وإنكم لتعلمون ما أصابها من النكبات ، نكبة هولاكو لما ألقاها فى دجلة فسودت بياض الماء والأسبان لما أوقدوها ليالى الفتح فبيضت سواد الليل ، وما أصابها من نكبات الأفراد ، من التخريق والتمزيق والتحريق . حتى لم يبق منها إلا الأقل ، ولا تزال المطابع فى الشرق والغرب ، تطبع مخطوطات هذا الأقل ، ولم يطبع من مئة سنة إلى اليوم ربعه ولا خمسه ، فكيف لو وصلت إلينا كاملة ؟ وكيف لو كانت المطبعة معروفة على عهد الجدود ؟

ولكن لا تقفوا عندها ، ولا تكتفوا بكيمياء العرب عن كيمياء الافرنج ورياضة ابن الهيثم عن رياضة انشتاين ، كلا : ولا بفقه ابن عابدين عن الاستنباط والبحث ومعرفة حكم الله فيما جدّ من أحداث وما تبدل من أعراف ، على أن يكون وقوفكم عند الكتاب والسنة وقواعد الإسلام ، لا تكونوا عباد نصوص المتأخرين . ولا تحكموا آراءكم واهواءكم فى الدين .

* * *

ومابكم حاجة إلى نصح مثلى وفيكم المشايخ الأعلام. أئمة الدين . وعلى الأزهر شيخ الإسلام القوى الأمين ، ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

وثقوا بأن المستقبل لنا ، للإسلام ، إن العالم اليوم على فم البركان ، والناس صفّان يتباريان أيهما يسبق فيحمل إلى الدنيا الموت والخراب ، ولا أمل إلا بكم ، بشباب المسلمين ، فان لم تحققوا الأمل ، يستبدل الله بكم قوما غيركم ، أمة حية ترفع راية الإسلام . ونبقى نحن لا دنيا ولا دين . ولن يكون ذلك إن شاء الله أبداً ، لن يكون وفينا الصالحون المصلحون ، والعلماء العاملون .

علي الطنطاوي

قاضي دمشق

العالم الإسلامي في شهر

النزاع المصرى البريطانى ـ وفد المهدى باشا

لا يزال الموقف بين مصر وإنجلترة يكتنفه الغموض فيما يتصل بمصير المحادثات بين البلدين ، ولازالت إنجلترة تمعن فى المماطلة فتكسب الوقت بين تلقى رد من مصر ، وبين التروى قبل أن ترد على ما ترسله مصر وذلك على الرغم مما هيأه صاحب الدولة رئيس الوزارة المصرية الحالية فى البلاد من هدوء صالح للتفاهم وما أشاعه حوله من ثقة أثنت عليهما الصحف الإنجليزية ، ولكن مهما يكن من أمر السياسة الإنجليزية فقد أوضحت مصر للعالم كله بما لا يدع مجالا للشك أن مطلبها الأساسيين وهما الجلاء ووحدة الوادى لن يتغيرا بتغير الوزارات.

وكان أبرز ما فى محيط السياسة المصرية فى الأسبوعين الأخيرين قدوم وفد سودانى من قبل السيد عبد الرحمن المهدى باشا لمباحثة الحكومة المصرية فى شأن الوحدة بين شطرى الوادى ، وتكاد تتفق الآراء على أن المباحثات قد دارت بين الطرفين حول تقرير الوحدة بين مصر والسودان ممثلة فى التاج المشترك والنظر فى المبادىء الرئيسية التى يجب أن ينص عليها فى دستور السودان وفقاً للوحدة الطبيعية بين الشمال والجنوب من جهة ، ووفقاً لرغبة السودانيين فى أن يتولوا إدارة شؤونهم من جهة أخرى ، وتنسيق السياسة الخارجية لشطرى الوادى ، وتقوية الروابط الاقتصادية ، ورفع القيود الجمركية ، وتوحيد الجنسية ، والنقد ، ونظام الضرائب ، والجيش.

ومما يذاع فى الأندية والصحف أن الرغبة فى الوصول إلى تفاهم متبادلة بين الجانبين . على أن مهمة وفد السودان محدودة فلا بد له بالضرورة من الرجوع إلى المهدى باشا ، فإما أن ينتهى الأمر إلى الاتفاق وإما أن تستأنف المباحثات الوصول إلى هذا الاتفاق الذى يبشر به ما بدا من حسن النية من الجانبين . وسترحب مصر بإيفاد وفد إلى السودان للتشاور مع المهدى باشا إذا اقتضى الحال ذلك.

ولم يتضح بعد هل يتغير موقف إنجلترة من المحادثات المصرية الإنجليزية ، بعد هذا الذى دار من محادثات بين مصر ووفد الجنوب ؟ هل يكون لهذه المحادثات علاقة بما تنتويه إنجلترة من رد على مصر ؟ أم أن إنجلترة ترى أن قد أتيح لها فى هذه المباحثات بين الشمال والجنوب وسيلة جديدة للمماطلة وكسب الوقت ؟

بين العراق والمملكة الهاشمية الأردنية :

كان للقرار الذى اتخذته الحكومة الأردنية بتعيين هيئة نيابية تتولى شؤون البلاد نيابة عن جلالة الملك طلال بسبب مرضه ، نتائج لم تكن فى الحسبان ، فإن سمو الوصى على عرش العراق قد اتهم حكومة عمان بأنها لم تصن كرامة الملك طلال ؛ فلما رد دولة توفيق أبو الهدى باشا

رئيس الوزارة الأردنيه على هذا الاتهام ، أحدث هذا الرد أزمة حادة بين البلدين اللذين تربطهما أسرة هاشمية واحدة ، إذ رأت العراق فيه تحديا لا يجوز السكوت عليه وخروجاً على المألوف من العرف ؛ وحملت الصحف العراقية حملات عنيفة على أبى الهدى باشا ، وذهبت إحداها إلى القول بأن أبا الهدى يتآمر مع الشيشكلى على الأسرة الملكية الهاشمية ، وقالت صحيفة أخرى إن عمل أبى الهدى يصلح لأن يستغله أعداء العرب للنيل من وحدتهم ، وقالت ثالثة إن هذا العمل يوحى باتفاق بين أبى الهدى والإنجليز على على تدبير مؤامرة لاستعباد الشعب الأردنى ، ولا سبيل لإحباط هذه المؤامرة إلا بتوثيق عرى الاتحاد بين العراق والأردن .

ولقد اهتمت سوريا بما يجرى بين العراق والأردن وأبدت قلقها من أن يكون وراء موقف العراق ما يؤدى إلى تحقيق المشروع القديم بضم الأردن إلى العراق ، ولهذا التقى الشيشكلى بأبى الهدى فى الخامس من شهر يونيو ليبلغه رأى سوريا ؛ فلقد كان من سياسة الملك طلال أن زالت الجفوة بين سوريا والأردن .

وإن كل حريص على تضامن العرب ، وما أحوجهم اليوم إلى التضامن ، ليتمنى أن تزول أسباب هذا النزاع الخطير بين العراق والأردن حفظاً لوحدة العرب .

إيران وانجلترة أمام محكمة العدل الدولية

لا تزال مشكلة البترول بين إيران وإنجلترة فى مقدمة المسائل التى تشغل بال الدكتور محمد مصدق وحكومته ، وذلك على الرغم من أن إنجلترة لم تصل كل الوصول إلى غرضها وهو أن تدفع بإيران إلى الإفلاس ، وذلك بفرض الحصار الاقتصادى على إيران وعلى بترولها ؛ فقد استطاعت إيران أن تجد بعض الأسواق لبترولها وبخاصة فى أمريكا وألمانيا الغربية ، وأن تعيد جزءاً من معامل تكرير « عبدان » إلى العمل تحت إشراف الإيرانيين أنفسهم .

وتنحصر هذه المشكلة فى أن الحكومة الإيرانية أقدمت على تأميم البترول فى شهر مارس من العام الماضى ؛ وهو عمل داخلى بحت بين الحكومة الإيرانية وشركة البترول الإنجليزية الإيرانية السابقة .

وقد أبت إنجلترة مدفوعة بدافع مصالحها الاستعمارية إلا أن تشكو إيران إلى محكمة العدل الدولية وهى بذلك تنكر على إيران ما فعلته هى فى بلادها فقد أممت صناعاتها الحيوية رعاية لمصالح شعبها وإبعاداً لشبح الشيوعية عنها . وقد دافع الدكتور مصدق عن بلاده بالفرنسية قائلا : إن الحكومة الايرانية بتأميم البترول قد وضعت حداً لعهد من العبودية والفساد دام ثلاثين عاماً ؛ وقال : إن الحكومة الإيرانية لن تعترف بحكم المحكمة لأنها فى رأيها غير مختصة بالنظر فى النزاع .

وقد يزداد موقف إنجلترة تعقداً حيال مشاكل الشرق الأوسط إذا قضت المحكمة فى صالح إيران ؛ والمفهوم أن لهذا الحكم كيفما كان ، أهميته الدولية لما له من صلة وثيقة بالحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى ، حتى لقد أشيع فى وزارة الخارجية الإيرانية أن القاضى السوفييتى فى المحكمة

سيؤيد وجهة نظر إيران ، على أن ذلك القاضى قد اعتذر من عدم حضور الجلسة لمرضه .

مطامع الانجليز فى سلطنة لحج :

ورد من الأنباء فى الخامس من شهر يونيو ما مؤداه أن سلطان لحج فضل بن عبد الكريم قد فر إلى اليمن فى نهاية شهر أبريل الماضى ، حينما طلب إليه حاكم عدن أن يحضر إلى هناك أثناء التحقيق فى حادث موت أميرين فى السجن هما ابنا عمه ، وقد ألقيت عليه مسؤولية موتهما .

وبعد ذلك ببضعة أيام قدم بعض أعيان لحج فى مصر إلى وزارة الخارجية المصرية مذكرة جاء فيها أن الإنجليز احتلوا السلطنة وأخرجوا منها عظمة السلطان مستعينين ببعض أفرادأسرته وعينوا مستشاراً إنجليزيا للأشراف على إدارتها ، وتكاد تكون الأحكام العرفية معلنة فى جميع أنحاء السلطنة ؛ وقد ذكر مقدمو المذكرة أن الإنجليز يطمعون فى أن تحل منطقة « بيرأحمد » المتاخمة لسلطنة لحج محل منطقة « عبدان » فى معامل تكرير البترول ؛ ونحن نميل إلى تصديق ما جاء فى هذه المذكرة لأنه صورة صادقة لأساليب إنجلترة فى تحقيق أطماعها فى كل بلد شرقى .

فرنسا والمغرب الاسلامى

لا تزال فرنسا ماضية فى سياستها الاستعمارية فى شمال أفريقيا ، حتى لتكاد تحيط هذه البلاد بستار حديدى على نحو ما يفعل السوفييت فى البلاد الخاضعة لهم ، وإذا ذكرنا أن فرنسا لا تربطها بهذه البلاد الإسلامية - تونس والجزائر ومراكش - أية رابطة من لغة أو دين أو جنس أو تاريخ أو عرف ، أدركنا مبلغ ما فى سياستها من منافاة للعدالة . على أن اللوم لا ينصب على فرنسا وحدها ، وإنما يشمل أمريكا فإنها تدرك مبلغ ما فى سياسة كل من فرنسا وإنجلترة من عرقلة لمسناها فى كسب ود العرب ، ومع ذلك فقد امتنعت أمريكا عن التصويت حينما أريد عرض قضية تونس على مجلس الأمن فى منتصف شهر أبريل الماضى .

ويبدو أن أمريكا أرادت أن تخرج من حرج موقفها بعد ذلك ، فلمح وزير الخارجية الأمريكى المستر دين أتشيسون منذ أيام إلى أن أمريكا سوف تؤيد عرض قضية تونس على مجلس الأمن إذا لم تنفذ الحكومة الفرنسية برنامج إصلاح داخلى فى تونس ، وقد أدى هذا التلميح إلى أن يتقدم المقيم الفرنسى فى تونس للسيد صلاح الدين ابن باكوش بمشروع تمنح فرنسا تونس بمقتضاه فى خلال خمسة أعوام الحكم الذاتى فى نطاق الاتحاد الفرنسى ، ولكن الوطنيين التونسيين لا يوافقون بالضرورة على مثل هذا المشروع فغايتهم الاستقلال عن فرنسا استقلالا كاملا ، وسترى فرنسا أن اتجاهها إلى البطش لم يعد يجدى فى هذا العصر ، والذى يرى فيه العالم الإسلامى أن كل عدوان على أى بلد من بلاده إنما هو عدوان على المسلمين جميعا .

ما يقال عن الإسلام

أمثلة من جهل بعض الأجانب بالإسلام

لا نكاد نقلب صفحات أكثر الكتب التى يصدرها الأجانب عن الإسلام فى هذه الأيام ، حتى يزداد شعورنا بالحاجة إلى كتاب يشرح الإسلام كما يعرفه أهله ، ينشر فى أكثر من لغة أجنبية (١) ؛ ومن أمثلة تلك الكتب كتابان حديثان لم تكد تخلو منهما مكتبة تبيع الكتب الإفرنجية بالقاهرة ؛ أولهما يسمى « الإسلام » ألفه ا . س . ترتن ، أستاذ العربية فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ، وقد نشرته مؤسسة حديثة واسعة الانتشار هى مؤسسة هاتشنسون كحلقة فى أحد فروع ما تنشره من كتب للثقافة العامة هو فرع الديانات العالمية ؛ والثانى هو كتاب « النظم الإسلامية » ألفه بالفرنسية موريس جودفروى دى مومبين ، وقد أشرنا إليه فى العدد السالف من المجلة .

وأبرز عيوب كل من الكتابين أنهما لا يفرقان بين ما هو من الدين ، وبين ما هو من قبيل العادات الاجتماعية أو الخرافات والأباطيل التى يبرأ منها الدين الصحيح . وإنهما ليتفقان فى كثير من المواطن اتفاقاً يشعر معه المرء فى كثير من الأسف أن هؤلاء الأجانب يأخذون مثل هذه الأمور مأخذ الحقائق المقررة . وحسبنا أن نشير فى هـذا المجال إلى كلامهما عن عقيدة البعث مثلا عند المسلمين عن المسيخ الدجال ، وكيف يظهر راكباً حماراً وعلى جبهته كلمة الكفر وحوله مليون يهودى ! وإلى منكر ونكير ، وانضمام القبر ، والساعة ، والصراط الذى هو أدق من الشعرة وأحد من السيف ، والميزان فى الآخرة الذى يشبه ميزان البائع .

وأسخف من ذلك كلامهما عن الزواج والطلاق وموضع المرأة من الرجل ، فالصداق هو استمرار للزواج بطريق البيع كما كان متبعاً فى الجاهلية . وما أيسر أن يطرد الرجل امرأته بكلمة . وله أن يستمتع بأربع نسوة تحت سقف واحد ، وللرجل أن يجبر ابنته على الزواج بمن يريد . وابن أخى الرجل أحق من غيره بابنته . فإن لم ينلها فإنه يقتل من يظفر بها دونه ! وللزوج السلطة المطلقة على زوجته وبنيه !

وأعجب من هـذا الكلام الذى يساق على أنه من الدين كلامهما عن حقوق المواطن فى الإسلام ؛ فالمواطن ذو الحقوق هو المسلم وحده ؛ ولغير المسلم المذلة ودفع الجزية . والإهانة تلحقه على أعين الناس ، فليس له أن يركب دابة ، وعليه أن يضع على كتفه علامة تميزه ، وعليه أن يفسح الطريق للمسلم ؛ ولا يسمح له أن يرفع بيته إلى مثل ارتفاع بيت المسلم ؛ وليس له شىء من الاطمئنان فى عبادته ، وقد يتعدى على معبده ، ويصعب عليه إقامة هـذا المعبد من جديد فيظل خربا . . إلى غير ذلك من هذه الادعاءات الباطلة (١) .

---

(١) إن وضع هـذا الكتاب من أهم ما يعنى به الأزهر اليوم من ضروب الاصلاح .

(١) راجع مقال موقف الاسلام من أهل للكتاب فى الجزء السابق من المجلة .

وفى الكتابين غير هذا كثير من الأمور التى يجعلها الأجانب عادة من صميم الدين، وهى لا تصلح حتى أن تكون من العادات الاجتماعية إذ هى أقرب إلى القصص منها إلى أى كلام يتسم بالجد.

دين جدير بالدراسة:

قدم أحد الناشرين لكتاب حديث عن الإسلام بقوله «صار العرب أمة فجأة، وحطموا فارس وارثة إحدى الإمبراطوريات العريقة، وسلبوا روما الجديدة أغنى ممتلكاتها، وتناولوا علم يونان وفلسفتها وهذبوهما؛ وفى المعمار وبعض الفنون ليس لهم أن يخشوا منافسا؛ وكان دينهم أول الأمر هو الذى وحدهم. ولقد أخذوا وهم عرب فى الأصل من الشعوب المغلوبة ومزجوا ما أخذوه بما عندهم فكان من ذلك وحدة لم تخل من كثير من أوجه الاختلاف؛ وخلقوا نظاما تشريعياً جديراً بأن يقارن بالفقه الرومانى؛ كما أقاموا حضارة متقدمة على كل شىء معاصر لها فى أوربا؛ ودينهم كقوة حية يسيطر اليوم على الملايين؛ وإن دينا هذا شأنه لجدير بالدراسة.

بين الإسلام وحركة التسلح الخلقى:

مبتدع حركة التسلح الخلقى هو المصلح الاجتماعى الإنجليزى الدكتور فرانك بكمان وقد قصد بها إلى تغيير المجتمع بتغيير أفراده ووسيلته أن يتسلح كل فرد بمبادىء يأخذ نفسه بها فى غير تساهل، ومن هذه المبادىء: الاتجاه إلى الله والإصغاء إلى أوامره وطاعته؛ وأن يحاسب المرء نفسه كلما أذنب مصمما على أن يتجنب الرذائل، وأن يتعاون الأفراد على تحقيق هذه المبادىء كى تسود فى المجتمع «فالانقسام من علامات عصرنا... والاتحاد مطلبنا العاجل، والانقسام نتيجة التكبر والحقد والشهوة والخوف والطمع، وهو من صنع المادية وهو العلامة التى تميز بضاعتها».

وقد عقد أحد الكتاب فى «المجلة الإسلامية» التى تصدرها بالإنجليزية الجمعية الإسلامية فى ووكنج بإنجلترة، مقارنة طريفة بين مبادىء الإسلام الخلقية وبين ما تدعو إليه حركة التسلح الخلقى؛ ومما قاله هذا الكاتب وهو هولندى يدعى فرانزستال، أن التوبة فى الإسلام هى وسيلة تغيير الأفراد أنفسهم وهى «سلاح خلقى عظيم؛ ففيها الندم والتغير والتحول، واستعرض معنى التوبة وأهميتها عند نفر من المسلمين مثل الحسن البصرى والمحاسبى والحلاج والغزالى، وقارن بين ما يقول هؤلاء فى التوبة وبين ما يدعو إليه الدكتور فرانك بكمان مبينا أسبقية الإسلام وترجم قول الله تعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، وأظهر إعجابه بما تنطوى عليه هذه الآية من معان جليلة؛ ثم أشار إلى ما يدعو إليه الإسلام من الوحدة فهو «دين التوحيد والوحدة»، وأورد تفسيراً للشاعر محمد إقبال لمعنى الوحدة فى الإسلام فهى «المساواة والتضامن والحرية».

أمريكى يتحدث فى الكونجرس عن الإسلام:

تحدث فى الكونجرس النائب جون. ت. وود، يندد بالنزعة الاستعمارية، فتعرض لسياسة أمريكا فى الشرق فكان مما قاله عن الشعوب الإسلامية:

«إن الشرق إسلامى إلا فيما ندر؛ وهذا ينطبق كذلك على شمالى أفريقيا. وإن الإنسانية التى تعمر هذه البقاع تبلغ نحو ٤٠٠ مليون نسمة، ويوجد مسلمون حتى فى بقعة نائية كالفليبين.

ويتصف هؤلاء الملايين بشعورهم الديني العميق ؛ وتخضع الكثرة الكاثرة منهم لتعاليم دينهم أكثر مما يخضع لدينهم الكثرة من المسيحيين. والمسلمون من أشد الناس شعوراً بالوطنية والدين ؛ والإسلام اليوم من أقوى العوامل الروحية فى هذا العالم المادى ؛ ولم تجرؤ روسيا السوفيتية على غزو البلدان الإسلامية بالرغم من أن الفرصة قد أتيحت لها فى إيران مثلا ؛ والواقع أن الاتحاد السوفييتى لم يستطع بعد أن ينشىء له أحزاباً شيوعية ذات بال فى العالم الإسلامى ، لحيث ينتشر الإسلام لا يجد الإلحاد أرضاً خصبة . ولا مناص من أن تتراجع الشيوعية أمام المسلم الصادق . وبينما استطاعت الشيوعية أن تجد فى البلدان المسيحية مرتعاً ، فقد عجزت عن أن تثبت قدماً قوية فى أرض الإسلام . وحرى بالعالم المسيحى أن يزجى الثناء للإسلام على صموده فى وجه الإلحاد فى عالمنا الحاضر . وسينهزم الإلحاد وتذهب ريحه حين يوجد فى العالم أربعمائة مليون مسيحى يشدون أزر أربعمائة مليون مسلم يكافحون الإلحاد . ولا يخشى المسلم الصادق الموت فى سبيل عقيدته ؛ فالموت فى سبيل الله يضمن له مكاناً فى الجنة ؛ وإنه لخير لنا ألا نمثل دور النعامة فندفن رؤوسنا فى الرمال . وإن الأمريكان ليخطئون إذا هم استمعوا إلى ما يقوله أعداء الإسلام من أن المسلمين مخادعون لا يوثق بولائهم ولا يعتمد على تحالفهم ، فالإسلام فى حقيقته يدعو إلى مثل ماتدعو إليه المسيحية الأولى من أن الناس إخوة .

لماذا اعتنقت الإسلام

هذا شاب أمريكى يدعى لويس أورفس إيفان شرح الله صدره للإسلام ، فكتب إلى « المجلة الإسلامية» يصف فيما يلى كيف دخل فى دين الله قال : « بعد أن تقلبت فى مراحل من الإلحاد الـغر ، لا أومن حينذاك أن للعقل سبيلا فيما هو من شؤون الوحى ، وبعد أن عشت زمناً حيال المسيحية بين الصدود والإقبال ، وبعد أن أغرتنى الكاثوليكية الرومانية ثم ردتنى بخيبة مرة . . . . بعد كل أولئك اكتشفت الإسلام !

وإن اليوم الذى بدأت فيه أدرس الإسلام لهو نهاية البداية . لقد وجدت الإسلام ديناً يتصف باليسر والجمال العظيم : دينا يلائم العقل حين لا يلائمة دين آخر . وبعد أن درست الإسلام بمعونة البعثة الإسلامية فى وكنج ، انتهيت إلى أنى كنت قبل ذلك مسلما . ولما اندمجت فى الأخوة الإسلامية ، لم أشعر أنى تحولت ، إذ تبين اليوم أتم تبين ماذا كنت أعتقد دائما من قبل .

لقد صممت أن أكون مسلما ؛ ولكن ليس هذا هو كل الحق ، الواقع أنى أحسست ذات ليلة كما لو أن يد الله تمس روحى ، ومن ثم أصبحت مسلما . لقد كان الأمر أكبر من مجرد عزيمة ، ولقد تملكنى بادىء الأمر عندما أصبحت مسلما بالفعل شعور مزدوج ، فإنى من ناحية أحسست سكينة عليا لم أذق مثلها من قبل ، أحسست كأنى أسبح فى النعيم ؛ ومن ناحية أخرى شعرت بالغبطة أذ اكتسبت طوائف من الأصدقاء وأذ أصبحت أنتمى إلى شىء أعظم كثيراً من ذاتى ، أو على حد تعبير أحد أساتذتى السابقين لقد وصلت إلى « اليقين النفسى » .

وصف جميل للاسلام

جاء فى كتاب أمريكى عنوانه «الله إله الإسلام»

وصفته مجلة نيويورك تيمز بأنه أوسع كتاب عرف عن الإسلام وحياة أهله ، وصف جميل للإسلام نورد منه هذه الفقرة :ـ

« إن الإسلام من أعظم الأديان ديمقراطية وحيوية ... وإن من أسباب سرعة انتشاره بساطته وخلوه من الوساطة ، فليست فيه رهبانية ، ولا أسرار غامضة ، ولا مذاهب ذات زخرف . وإن فرائضه محددة عملية ، وغاياته فى متناول الرجل العادى ، وآماله للناس جميعا . إن ديمقراطية الإسلام أشبه شىء بديمقراطية الجيش ، فليست هناك فوارق بين قوم يركعون جميعاً فى خشوع للمهيمن الأعلى ؛ ولكل نفس من نفوس أهله أهمية فى ذاتها ، ذلك أنها تقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم ؛ وما كان لامرىء أن يحتقر أحداً يسمع له الله » .

مبشر مسيحى ينقلب مسلماً !

ألف مستر جورج . م . لامسا ، الكاتب الأمريكى المعروف بمؤلفاته المختلفة عن المسيحية ، كتابا سماه « موجز القرآن » وقد ذكر فى حديثه عن غرضه من تأليف هذا الكتاب وعن مبعث اهتمامه بالإسلام ، بعض أنباء نورد منها قوله : « إن كثيرين من المبشرين فى الشرقين الأوسط والأقصى تأخذهم الدهشة وتتولاهم الحيرة أحيانا حين يجادلون المسلمين ؛ ذلك أنهم يجدون أن هؤلاء يعرفون عن المسيح وعن الرسل وعن « العهد الجديد » أكثر مما يعرف أولئك الذين أرسلوهم ليبشروا فى دنيا الإسلام . ومرد ذلك إلى أن الأمريكان والأوربيين لا يعلمون إلا قليلا عن الإسلام والقرآن كتابه المقدس ؛ وقد حدث منذ بضع سنوات أن مبشراً أمريكيا كان قد وصل لتوه إلى الهند ، زار مسلماً هندياً يريد أن يفتنه عن دينه ليدخله فى المسيحية ؛ ولكن ذلك المسلم الذى اختاره المبشر لأولى محاولاته التبشيرية كان مثقفا عالما بالكتب السماوية ؛ فما أن انتهى بينهما الجدل حتى انقلب المسيحى مسلماً ! ولقد قرأت نبأ دخوله فى الإسلام فى مجلة كان هو نفسه يحررها فى لاهور ؛ وفيها يعترف أن ما لقنه فى مدرسة اللاهوت عن المسيح وعن عقيدة الكنيسة كان يشوبه الغموض ، وأن المسلمين فى فهمهم أقرب إلى تعاليم المسيح من الكنيسة التى أعد فيها ليكون مبشراً » .

الإسلام لا يقنع بالنظريات فى المساواة

كتبت « المجلة الإسلامية » فى ووكنج ؛ عن موقف الإسلام فى صدد حديثها عن مشكلة الأجناس والألوان فقالت « كانت المساواة بين الشعوب ذلك المثل الأعلى الذى جاء به الإسلام إلى الدنيا وسياستها أعظم الأمور أهمية فى أديان العالم كلها . ولئن سألنا أى الأديان يدعو إلى المساواة بين البشر أجاب كل فرد إنه الدين الذى ينتمى إليه ؛ ولكن إذا غيرت صورة السؤال ، فتساءلنا ما الدين الذى استنبط الوسائل التى تجعل المساواة ذات أثر ، والذى أظهرها فى صورتها الفعلية ، لم يكن ثمة إلا جواب واحد وهو إن كل دين يبدئ الكلام ويعيده إذ يدعو إلى المساواة ، ولكن ما كل دين قد فسر تعاليمه بالعمل ، وما من دين غير الإسلام قد تغلب على مشكلة الأجناس بصورة عملية

وإن عبقرية الإسلام السياسية لهى عبقرية أصيلة فى هذا الصدد ؛ فليست تقتصر على أن تقرر فى الأذهان المساواة بين البشر ، وإنما تبين لأتباعها بالأساليب العملية السبل إلى جعل هذه الفكرة حقيقة واقعية مادية فى سلوكهم اليومى » .

الكتب

آية البر

من آيات القرآن العظيم

للأستاذ عباس الجمل

القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

٥٢٧ صفحة من القطع الكبير

هذا كتاب جليل حقا ، ممتع حقا ، أثبت أنه جدير بما نهض له من مقصد عظيم ، وأنه كذلك جدير بأن يحمل اسم مؤلفه البليغ .

نهج الأستاذ المؤلف فى كتابة هذا السفر نهجا يجمع بين الإحكام والطرافة ؛ فقد كان يفكر فى كتاب جامع فى دين الإسلام وكيف يكون هذا الكتاب ، وكيف يهتدى إليه من يكتبه ، وذلك حين كان العلماء يتجادلون فى ترجمة القرآن بين مؤيد ومعارض ، وحين انتهى الرأى إلى أن خير مايصنع هو وضع كتاب جامع تكون ترجمته لغير اللسان العربى أيسر وأقرب من ترجمة القرآن العظيم قال الأستاذ المؤلف : « فإذا أنا أتلو آية البر ، وإذا بى أجد فيما حوته من الإيمان والعلم والحكمة والهدى والضياء والنور ما ينير الطريق إلى وضع الكتاب الجامع فى دين الإسلام يستملى من آية البر كل ما يريد أن يجمعه عن دين الإسلام » .

وقسم الأستاذ بحثه إلى خمسة عشر منهجا ، كل منهج فقرة من هذه الآية الكريمة . المنهج الأول « ليس البر » ، والمنهج الثانى « أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » ، والمنهج الثالث « ولكن البر من آمن » ، وهكذا حتى نهاية الآية .

ووجه الطرافة فى هذا البحث المتين المحكم أن الأستاذ المؤلف قد اعتمد على القرآن فى تأويل آية البر ففصلها تفصيلا استغرق صفحات هذا السفر الضخم ؛ فما من معنى من المعانى التى ساقها فى حسن فهم وسلامة ذوق وبلاغة عبارة إلا زاده إشراقا وقوة بما يورد من الشواهد من كتاب الله . يقول فى ذلك « هذا ما أخذت نفسى به ، فجعلت القرآن العظيم هو مرجعى فى تأويل آية البر ، لم أرجع إلى غيره ، ولم أنحرف عنه مستعينا بآيات الله البينات ، مهتديا بها إلى الحكمة فى آية البر ، وإلى علمها وأحكامها وهداها » .

فإذا أضاف القارئ إلى هذا النهج القويم ما عرف عن المؤلف من بلاغة التعبير وجمال الأسلوب ، وما اتصف به من قوة المنطق وعمق التفكير ومتانة العلم ، أمكنه أن يدرك ما لهذا الكتاب الجليل من عظيم الخطر وبعيد الأثر .

النهضات الحديثة فى جزيرة العرب

الجزء الأول

فى المملكة العربية السعودية

للدكتور محمد عبد الله ماضى

عيسى البابى الحلبى وشركاؤه - ٤١٥ صفحة من القطع الأوسط

إن حاجة المسلمين اليوم عظيمة إلى كل ما يعرفهم بشئون البلاد الإسلامية وما يدب فيها من روح النهوض ، وهذا فيما نعتقد هو الذى وجه المؤلف الفاضل إلى كتابة هذا البحث الذى اختار له عنوانا جانبياً هو « حاضر العالم الإسلامى » .

ولقد مهد الأستاذ المؤلف لبحثه باستعراض النهضات الحديثة فى الشرق الإسلامى وعوامل قيامها ، وأورد فى إيجاز محكم تاريخ المسلمين منذ صدر الإسلام ، وما تعاور نهضاتهم من عوامل الضعف والقوة ، ثم قصر بحثه فى هذا الجزء على المملكة العربية السعودية فكان كتابه من أوسع الكتب فى موضوعه هذا . ويتسم بحثه بالإحاطة والشمول فى يسر ووضوح وتمكن، وللأستاذ من تخصصه وعمق ثقافته واتساع أفقه ما يجعل لكتابه نفاسة عند المؤرخ المختص وعند القارىء الذى يطلب مجرد الثقافة . والحق أن هذا ضرب من التأليف فى النهضات الإسلامية يعد جديداً فى بابه من حيث الطريقة ودقة النظرة ، تجد مثالا لذلك فى مثل قوله « ونستطيع أن نقرر أيضاً أن القومية فى بلاد الشرق الإسلامى التى هى من عوامل قيام النهضات الحديثة شىء آخر غير القومية الغربية التى شرحناها ؛ فالقومية الإسلامية الشرقية تجمع بين القوتين اللتين ظهرتا فى أواخر القرن التاسع عشر ، تجمع بين القومية الوطنية المشابهة للأوربية من بعض الوجوه ، وبين المعنى الدينى الإسلامى الذى يقضى بتعاون المسلمين واتحادهم فى سبيل النهوض والاستقلال ودفع سيطرة الأجنبى والتحرر من « ولاية » غير المسلمين . ولقد أصبحت القومية بهذا المعنى الجامع مسيطرة على النفوس موجهة لحركات النهوض والاستقلال فى الشرق الإسلامى ، وحلت محل الجامعة الإسلامية .

وبالكتاب ملحق قيم بالوثائق والمعاهدات التى تتصل بموضوعات البحث مما يزيد قيمته الفنية والعلمية ، ويجعله بحق كسباً صحيحاً للمكتبة العربية.

الشفاء — المدخل (ايساغوجى)

للشيخ الرئيس ابن سينا

المطبعة الأميرية - ٧٧ + ١٥٩

٤٥ صفحة من القطع الكبير

عند ما اقترب العيد الألفى لمولد الشيخ الرئيس، أصدر وزير المعارف منذ ثلاث سنوات قراراً بتشكيل لجنة من المشتغلين بالفلسفة على رأسهم الدكتور إبراهيم مدكور ، ويشرف على توجيه العمل الدكتور طه حسين باشا ، يكون الغرض منها نشر كتاب الشفاء ، وإعداد العدة لذلك بجمع المخطوطات المختلفة ، ورسم خطة النشر فبدأت لجنة مكونة من الأساتذة : الأب قنواتى ومحمود الخضيرى وأحمد فؤاد الأهوانى بنشر أول جزء من منطق الشفاء ، وهو المدخل ، المعروف باسم إيساغوجى. فراجعته على إحدى عشرة نسخة خطية ، بعضها موجود فى القاهرة ، والبعض الآخر مصور عن مخطوطات اسطنبول وقد تبين للجنة أن أصح النسخ وأوثقها هى نسخة الشيخ بخيت ، وهى المحفوظة بمكتبة الأزهر .

وجاء فى تصدير معالى الدكتور طه حسين لهذا الجزء قوله « حين تحدث الناس عن الاحتفال بالعيد الألفى للشيخ الرئيس أبى على ابن سينا ، كبير فلاسفة الإسلام غير منازع ، رأيت أن خير مشاركة تقدمها مصر فى هذا السبيل يجب

أن تكون كتلك المشاركة التى قدمتها مصر فى عيد أبى العلاء، فتحيى آثار الشيخ الرئيس. كما أحييت آثار رهين المحبسين ... »

وقدم للكتاب الدكتور مدكور بمقدمتين فى ٧٧ صفحة. ترجمتا مع تصدير الدكتور طه حسين إلى الفرنسية فى ٤٥ صفحة، فتحدث فى المقدمة الأولى عن كتاب الشفاء وموضوعه ومتى ألفه ابن سينا، وفى أسلوبه ومنهجه. وفى صلته بكتب الشيخ الأخرى، وفى مدى تعبيره عن فلسفته، وفى شروحه ونقله إلى اللغة اللاتينية وأثره فى العالم العربى والغربى. ثم تكلم فى المقدمة الثانية عن المدخل، أو إيساغوجى، وصلة مدخل ابن سينا بمدخل فرفريوس، وكيف عرض الشيخ الرئيس لموضوع المنطق ومنفعته، وللفكر واللغة، وغير ذلك من المباحث الرئيسية التى ضمنها مدخل المنطق. وأتبع ذلك بمنهج النشر، مع وصف النسخ التى اعتمدت اللجنة عليها.

ولما كان هذا الجزء قد ترجم قديماً إلى اللاتينية وقد عهدت وزارة المعارف المصرية إلى الآنسة « دلفرنى » بنشر النص اللاتينى بعد تحقيقه، فقد ألحقت اللجنة بالكتاب فهرساً للمصطلحات مع ما يقابلها باللاتينية.

وقد كان هذا الكتاب أنفس ما قدمته مصر فى مهرجان ابن سينا الذى انعقد فى بغداد فى شهر مارس ١٩٥٢، ووزعه الدكتور مدكور رئيس وفد مصر على أعضاء الوفود.

إيساغوجى

لفرفريوس الصورى نقل أبى عثمان الدمشقى
١١٦ صفحة ـ دار إحياء الكتب العربية

نشره الدكتور أحمد فؤاد الإهوانى، مع مقدمة طويلة فى حياة فرفريوس الصورى، تلميذ أفلوطين فيلسوف الاسكندرية، وصاحب الأفلاطونية الحديثة. وجاء نشر هذا النص موافقا لنشر « مدخل الشفاء » لابن سينا، لأنه اعتمد عليه، وأيده فى بعض المسائل واختلف معه فى بعض المسائل الأخرى. وإيساغوجى كتاب يبحث فى الكليات الخمس، وهى الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام. ولا يمكن أن يفهم القارىء هذه الاشارات التى يذكرها الشيخ الرئيس، وبخاصة لأنه لا يذكر اسم فرفريوس صراحة بل يقول عنه، « صاحب إيساغوجى » أو « قال الرجل » وما إلى ذلك، إلا بالرجوع إلى إيساغوجى فرفريوس.

أما ترجمة فرفريوس الصورى التى تقع فى ٦٦ صفحة، فهى أول ترجمة فى اللغة العربية، تلقى الضوء على حياة هذا الفيلسوف، الذى تولى رئاسة مدرسة أفلوطين فى روما بعد موته، والذى وضع أساس الفلسفة الكلامية بشروحه على أفلاطون وعلى أرسطو بوجه خاص.

كتب أجنبية جديدة

تعالج موضوعات إسلامية وشرقية

الاتجاهات الحديثة فى الإسلام

تأليف هـ . ا . ر . جب

Modern Trends In Islam
H. A. R. GIBB

هذا كتاب للمستشرق المعروف مستر جب أهداه إلى « محمد حسنين عبد الرازق ذكرى صداقة خمس وعشرين عاما »؛ والغرض من هذا

الكتاب كما يتبين من عنوانه تتبع الاتجاهات الحديثة فى العالم الإسلامى وتبين بواعثها وأهدافها؛ وأثر زعماء الفكر فى نشأة هذه الاتجاهات ونشاطها، كالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى مصر، والسيد أحمد خان والشاعر محمد إقبال فى الهند وباكستان.

والأستاذ جب الذى ولد فى مصر، والذى اشتهر بمؤلفاته عن الإسلام وحياة أهله خليق بأن يعرض هذه الاتجاهات الحديثة فى الإسلام عرض وثوق وخبرة، وهذا ما يثبته مؤلفه الذى نتحدث عنه خير إثبات. ولقد اختتم هذا الكتاب القيم بفصل ممتع يعد من خير ما كتب فى بابه عنوانه «الإسلام فى العالم»، شرح فيه مذاهب قادة الإسلام المحدثين شرحا موفقا.

موجز لطبيعة الشرك

AN OUTLINE OF THF NATURE OF SHIRK

من تأليف فاريشتا جابريلا دى زاياس

من منشورات دار الشيخ محمد أشرف بلاهور (الباكستانى) الثمن روبيتان

يحاول هذا الكتيب (٧٩ صفحة) أن يحدد معنى الشرك كما نص عليه القرآن الكريم. ورغبة المؤلف من هذا التحديد هو الرد على عد المدعين بأن الإسلام فى الوقت الحاضر قد فشل فى مواجهة التحدى الذى جاءت به موجات العلم والفلسفة والمذاهب الفكرية المعاصرة.

وفى رأى المؤلف أن فشل بعض المسلمين أو بالأخرى أولئك الذين يتعلقون بقشور الإسلام، فى مواجهة هذا التحدى يرجع فى الواقع إلى إشراكهم.

وفى هذا الكتيب فوق كذلك دعوة إلى مبادىء الدين الحنيف موجهة إلى المسلمين وغير المسلمين.

إيران وافغانستان

L'IRAN : PERSE et Afghanistan.

تأليف ريمون فورون

من منشورات : دار Payor بباريس

٣٣٦ صفحة وثمنه ٩٠٠ فرنك

هذه طبعة جديدة معدلة لكتابين أصدرهما المؤلف سابقاً وأدخل عليهما تنقيحات جديده: وكان أحد الكتابين يختص بإيران والآخر بأفغانستان، فجمعهما المؤلف فى سفر واحد.

وللمؤلف رأى غريب فهو يطلق كلمة «إيران» لتشمل بلادفارس وأفغان، مخالفاً بذلك المصطلح عليه فى جغرافية المنطقة والعرف الدولى وحقائق الأوضاع الراهنة.

ويحتوى الكتاب على إحصاءات عديدة عن مختلف النشاط فى هذين البلدين الإسلاميين، ولكنه يغمط البلدين حقهما فى الحقائق التاريخية والاتجاهات الثقافية ونواحى العمران والتقدم السياسى الذى ألم بهما. ودراسة المسيو فورون نموذج من هذه المادة التى تصدرها المطامع الأجنبية عن البلدان الإسلامية فتحاول أن تبرز وجهات نظر متحيزة فتسخر الإحصاءات والمراجع العلمية لهذه الغاية. لقد صدق مارك توين (الكاتب الفكاهى الأمريكى) إذ قال. إن هناك ثلاثة أنواع من الكذب: كذبة بيضاء، وكذبة سوداء، وكذبة الإحصاء!

أنباء العالم الإسلامي

* فى غرة رمضان المبارك تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أعزه الله فوجه رسالة ملكية كريمة إلى شعب وادى النيل العزيز جاء فى مستهلها قول الفاروق العظيم « يثير شهر رمضان فى نفوسنا نحن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أكرم المعانى ، يوحد بين قلوبنا ويؤلف بينها قرآن كريم نزل بالحق المبين على نبى كريم يهدى للتى هى أقوم ، وتمثل فيه تعاليم الإسلام السمحة التى تزكى فى المسلمين إيمانهم وتدفعهم إلى التعاطف والتراحم والتى يقوم الأزهر الشريف مؤيداً بكل ما نملك من قوة وتوجيه بنشر رسالتها بين المسلمين جميعاً لتقف درعاً واقياً ، وسداً حائلا فى وجه نوازع الشر ومبادىء الهدم والتدمير ، وهى رسالة ما أسماها وما أكرمها وما أشد جدواها وأعظم نفعها » .

وتوجه المليك العظيم بالدعاء إلى الله العلى القدير « أن يعيد هذا الشهر المبارك على الأمم الإسلامية متمتعة بما تصبو إليه من نعمة الاستقلال وعزة الحرية » .

وتفضل جلالته فأشار إلى قضية الوادى بقوله « إن بلادنا وهى تناضل عن حقوقها قد صح منها العزم على إدراك مطالبها ، وإن سياستها هى سياسة الحرية والوحدة وقد توحدت بين العرش والأمة والحكومة وسنبقى أمناء على هذه السياسة » .

وقد شملت الأزهر ، شيخه وعلماءه وطلابه وموظفيه ، فرحة كبرى بهذه الرسالة الملكية الكريمة واشتد اعتزازهم بها . ورفع فضيلة الأستاذ الأكبر إلى مقام المليك كتاب شكر وولاء جاء فيه « إن هذه الرسالة السامية درس عظيم من دروس الإيمان والوطنية الصادقة ، جدير بنا معاشر أهل العروبة والإسلام أن نعيه وأن نتعمق فى إدراك معانيه ومراميه ، وأن نستمسك بما يدعو إليه من هدى وصلاح وعزة ، فى ظل من تعاليم الإسلام ومحبة الأوطان والحرص على أن نعيش فى بلادنا عيش الكرام » .

---

* وافقت بالإجماع لجنة حقوق الإنسان التى هى فرع من فروع هيئة الأمم المتحدة ، على مادة تتعلق بحرية الأديان لتكون جزءا من الميثاق المقترح التى تضع اللجنة صيغته ، وقد رددت الأنباء أنه كان للأستاذ محمود عزمى بك مندوب مصر ضلع كبير فى وضع صيغة هذه المادة ، فقد قال فى اللجنة « إن الشريعة الإسلامية لا تقبل الاضطهاد الدينى ، وإن المادة ١٢ من الدستور المصرى نصت على حرية الأديان ، وليس معنى ذلك حرية كل فرد فى اعتناق دين معين فحسب ، ولكن له أيضا حرية الانتقال من دين إلى آخر » .

وكلام الأستاذ عزمى بك يحتاج إلى تصحيح عاجل إذا صحت نسبته إليه ، فالإسلام وإن كان سمحا إلا أنه لا يبيح للمسلم أن يرتد عن دينه إلى دين آخر وإلا حق عليه القتل إن كان ذكراً ، والحبس حتى الموت إن كانت أنثى ، بعد أن يستتاب كل منهما ويمهل أياما ليتدبر فى الأمر . وأما المادة ١٢ من الدستور المصرى فمع أنها

نصت على أن حرية الاعتقاد مطلقة ، إلا أن ذلك ليس معناه حرية الفرد فى الانتقال من دينه إلى دين آخر .

* فى السابع من شهر مايو الماضى أبلغت مشيخة الأزهر أن حضرة صاحب الجلالة الملك تفضل فأصدر أمره الكريم بالموافقة على إنشاء مدينة فاروق الأول للبعوث التى تفد إلى الأزهر من مختلف البلدان الإسلامية ، على أن تلحق هـذه المدينة بالمبانى الحديثة المقامة إلى جوار الجامع الأزهر وتسند رياستها الفخرية إلى حضرة صاحب السمو الأمير محمد عبد المنعم .

وقد تفضل جلالة الملك فتبرع من ماله الخاص بعشرين ألف جنيه مساهمة من لدن جلالته فى إنشاء هذه المدينة .

* من مظاهر نشاط الباكستان فى كل ماله صلة بشؤون العالم الإسلامى توجيهها الدعوة لعقد مؤتمر لرؤساء وزارات الدول الإسلامية ، ومما تحدث به السيد محمد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان فى هذا الصدد قوله « إننا نحن رجال الدول الإسلامية لا نريد سوى وضع سياسة مجدية للتعاون بيننا ، فمعظم الدول الإسلامية تواجه كثيرا من الصعاب ينبغى العمل على تذليلها . ولن تتخذ قرارات ما فى المؤتمر الذى دعونا لعقده بل ستجرى مناقشات تسفر عن تفاهم وإدراك لمختلف وجهات النظر » ثم قال « إن المؤتمر لا يهدف إلى إضعاف الجامعة العربية أو منح الباكستان دور الزعامة فى العالم الإسلامى ، أو فصم عرى التعاون والاتحاد بين أعضاء الكتلة الآسيوية الافريقية » .

* تعتزم البعثة الإسلامية فى ووكنج بانجلترة عقد مؤتمر من المسلمين المقيمين بالمملكة المتحدة عقب عيد الفطر مباشرة أى فى الخامس والعشرين من يونيو الحالى .

والغرض من هـذا المؤتمر النظر فى الوسائل والسبل التى توثق الروابط بين المسلمين الذين يعيشون فى إنجلترة والتى تؤدى إلى عيشتهم معيشة جماعية .

وإذا نجح المؤتمر فإن البعثة سوف تفكر فى عقد مؤتمر فى العام القادم يجمع المسلمين فى انجلترة وأوربا .

وسترسل البعثة التفاصيل اللازمة لكل من يرغب شهود هـذا المؤتمر ، كما أنها ترحب بأن تتلقى مقترحات من يهمهم هذا العمل .

* قررت السلطات السورية إصلاح زى رؤساء الدين والمعتقد أن الحكومة تبحث الآن فى تحريم لبس الطربوش .

وقد تم الاتفاق على زى موحد لرؤساء الدين لا يرتديه إلا من كان حائزاً لشهادة من دار الفتوى ، ولا يجوز للابسه دخول المقاهى .

ويتألف هذا الزى من طاقية بيضاء حولها عمامة أو قطعة قماش أو كوفية . أما رؤساء الأشراف فيرتدون عمامة خضراء على طاقية بيضاء وقد حظر الآن جعل العمامة فوق الطربوش .

وتلبس الجبة السوداء فى الحفلات الرسمية فقط . أما فى المناسبات الأخرى فتلبس الجبة من اللون الأزرق القاتم على أن يكون تحت الجبة جاكتة قصيرة وصدرية ، ويجب أن تقفل الجبة بأزرار إلى الرقبة ولا تستعمل « الكرفتات » .

ومن التشريعات الجديدة التى يضعها النظام الحالى فى سوريا ما يتعلق بالجنازات ودفن الموتى

والأنظمة التي يجب إتباعها في هـذا الصدد .
وستمنع الجنازات وأعمال الحانوطية بمقتضى قانون جديد. فإذا توفي شخص أبلغه ذووه قسما خاصاً بمصلحة الصحة السورية فترسل سيارة لنقل الجثمان .

* أفتتح أول مجلس تشريعي في إريتريا بعد أن أجريت له انتخابات ويضم المجلس ٣٤ عضوا مسيحيا ومثلهم من المسلمين . وهذه هي المرة الأولى التي تجرى فيها انتخابات عامة في تاريخ تلك البلاد. وقد انتخب ٣١ عضوا من الثمانية والستين بالتزكية ، وكانت نتيجة الانتخاب في دائرتين إسلاميتين غير حاسمة وقد أعيد الانتخاب فيهما مرة ثانية .

وستكون أول مهمة يضطلع بها المجلس دراسة مشروع دستور إريتريا الذي وضعه مندوب الأمم المتحدة.

والواقع أن الأكثرية الاسلامية في إريتريا قد أصابها الإجحاف بهذا الإجراء الذي اعطى للأقلية المسيحية نسبة مساوية للأكثرية الاسلامية . فإن عدد السكان المسلمين في إريتريا ثلاثة أضعاف السكان المسيحيين .

* يقوم بعض المشاغبين في ولاية البنغال الشرقية بحملة لجعل اللغة البنغالية لغة رسمية في ذلك الجزء الهام من الوطن الباكستاني ، وهدف هذه الحركة تشجيع اللامركزية في الدولة الباكستانية الاتحادية .

والمعروف أن لغة الباكستان الرسمية هي الاوردية ، وهناك مساع ومشروعات وضعها المسؤولون الباكستانيون لجعل اللغة العربية في المستقبل هي اللغة الرسمية للباكستان لأنها لغة الكتاب والسنة ولأنها تعزز أواصر الاخوة والوحدة الإسلامية التي يتوق الباكستانيون إلى تحقيقها .

وقد أصدر الأمين العام لحزب العصبة الإسلامية في شرقي الباكستان السيد يوسف على شودورى نداء إلى أعضاء العصبة ناشدهم فيه السكينة وعدم التعرض لهؤلاء المشاغبين بالأذى حرصا على الأمن وصيانة لوحدة الأمة .

* في أواسط القارة الافريقية عدد كبير من المسلمين من السكان الأصليين الزنوج ، ومن الجاليات الإسلامية التي هاجرت إليها من السودان والصومال وجنوبي جزيرة العرب ومن الهند والباكستان .

وقد بلغ الوعي في منطقة النفوذ البريطاني في أفريقيا الوسطى حدا كبيرا ، وأصبح من الصعب على السلطات البريطانية الحاكمة أن تظل على عهدها بأساليب الاستعمار القديمة .

وكانت آخر مظاهر حركة التحرر الوطنية في هذه المناطق الرغبة في الوحدة الإقليمية ، وصيانة حقوق السكان الوطنيين إزاء مطامع الرجل الابيض (الاوربي) .

ولم تجد بريطانيا مناصا من التسليم على مضض ببعض مطالب هذه الحركة . فقد تم الآن إعداد دستور يوحد المناطق الآنفة الذكر ، ويحقق للسكان الوطنين بعض الحقوق السياسية .

وستجرى قريبا انتخابات عامه يشترك فيها المسلمون وغير المسلمين من السكان الافريقيين لاختيار ستة نواب للمجلس التشريعي مقابل سته وعشرين نائبا من الأوربيين المستوطنين هناك .

* * *

الأدب والعلوم في شهر

محنة الأدب :

نشرت جريدة الأهرام فى نهاية شهر مايو الماضى مقالا بهذا العنوان للدكتور طه حسين باشا ، استهله بقوله : « حياتنا الأدبية فيما يظهر من أمرها راكدة خامدة ، ما فى ذلك شك ، فقد أصبحت الكتب القيمة نادرة ، يمر العام دون أن يظهر منها كتاب واحد ، فضلا عن كتابين أو كتب ، والصحف اليومية والأسبوعية لاتكاد تحفل بالأدب ، وقدتمر الأسابيع وقد تمر الشهور دون أن نقرأ فى صحيفة يومية أو أسبوعية فصلا أدبيا ذا بال . والمجلات الشهرية تعنى بلون من الأدب يسير، لايكلف كاتبه عناء طويلا ولايكلف قارئه جهداً ثقيلا » .

ومما قاله الدكتور : « إن مصر قد وجلت حتى كاد الوجل يقض مضاجع أبنائها حين جاءها النذير بغارة الجراد ، ولكن مصرلم تحس وجلا ولا فرقا حين أجدبت الحياة الأدبية . . . عفا الله عن مصر ، ما أشد تقصيرها فى ذات الأدب والفن والعلم » .

وقد عزا الدكتور محنة الأدب إلى أسباب كثيرة أهمها فى نظره ثلاثة : أولها يأتى من ظروف السياسة وما يتبعها من رقابة ، وثانيها من الناشرين وشيوخ الأدب ، وذلك أن كثيراً من الشباب يكتبون ثم لايعرفون كيف يظهرون الناس على ما يكتبون ، ولا يجدون من شيوخ الأدب تشجيعاً ولا تأييداً ، وثالثها من ضعف التعليم الأدبى فى مصر ، « فى مصر مدارس ومعاهد وجامعات يدرس فيها الأدب ولكنه يدرس على نحو يحزن أكثر مما يسر » .

وقد بعث هذا المقال نشاط كثيرين من الكتاب فردوا على الدكتور بين مؤيد لرأيه ومخالف له ، وعقب الدكتور على هذه الآراء فى مقال آخر ، ثم اغتبط بهذا النشاط قائلا إن فيه « دليلا قاطعاً على أن فى أدبنا حياة كامنة تريد أن تظهر وخصبا مستترا يريد أن يملأ الجو العقلى سعة ورخاء » .

لم يعد السرطان غولا خفيا :

ابتكر العالم الأمريكى الدكتور سدنى جلادستون طريقة جديدة لفحص حالات السرطان فى درجاته المبكرة التى كثيراً ما يصعب اكتشافها بالوسائل التى كانت متبعة حتى الآن . وبذلك هان الأمر كثيراً وغدا من الممكن تدارك المصاب وعلاجه قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء وينتهى إلى المصير المحتوم .

كانت الطريقة المستخدمة لاكتشاف السرطان حتى سنة ١٩٤٨ معقدة تستغرق وقتاً وجهداً طويلين ، ويحتاج الطبيب إلى دراية خاصة للتمرن على إجراء الاختبارات اللازمة لذلك الكشف . وفى النهاية يتمخض الاختبار عن النتيجة المؤلمة ، وهى أن الداء قد بلغ مرحلته النهائية .

أما طريقة الدكتور جلادستون فتمتاز بالسهولة

والبساطة واختصار الوقت ولا يحتاج الطبيب إلى دراية خاصة أو أدوات خاصة ؛ فقطعة صغيرة من الإسفنج هي كل ما يتطلبه الاختبار .

ولقد تم فحص ألفى حالة بالطريقة الجديدة فأمكن اكتشاف الإصابة فى وقت مبكر ، كما أمكن - وهذا هو المهم - التأكد من أن كثيراً من القرح المريبة لا صلة لها بالسرطان بالمرة ، فأنقذ المصابون من جراحات خطيرة لا مبرر لها .

والآن تعتبر طريقة جلادستون - التى بحثت فى المجلات العلمية العالمية ، والتى منح صاحبها شهادة الجدارة تقديرا لجهوده التى أدت إلى ابتكارها ، من الطرق العلمية الثابتة المعترف بها ، بعد أن نوقشت وجربت فى المؤتمرات العلمية ، وبعد أن شاع استخدامها فى انجلترة وإيطاليا والولايات المتحدة .

الاحتفال فى أمريكا بذكرى إقبال

دعا معهد الشرق الأوسط الأمريكى بواشنطن فى الشهر الماضى ، جمعاً كبيراً للاحتفال بذكرى شاعر الإسلام « محمد إقبال » وقد شهد الحفل عدد من الرجال الرسميين وعدد من رجال الأدب والفكر ، من أمريكا وباكستان ومصر وإيران . وكان من خطباء هذا الحفل الأستاذ محمد حسن الزيات الملحق الثقافى بالسفارة المصرية الذى نوه بما قدمه إقبال إلى الإنسانية ، ورأى فيه مرشداً يهدينا إلى القمة التى نريد أن نبلغها » ؛ وتكلم بعده سفير الباكستان ، فشكر للمعهد احتفاله باسم باكستان والعالم الإسلامى ؛ ونوّه بما صنعه إقبال من المزج بين ثقافة الشرق والغرب ؛ وأعقبه أمريكى من قسم الدراسات المتصلة بالشرق الأدنى ، وأشار إلى أثر إقبال فى نهضة المسلمين الإصلاحية ؛ وتكلم غلام على ، مستشار السفارة الايرانية ، فوضع إقبال فى مستوى أقطاب الفكر والأدب فى العالم ؛ وخطب غير هؤلاء ، الدكتور كانتول سمث مدير المعهد الإسلامى بجامعة ماكجل بكندا ، والأستاذ خليل أحمد ناصر محرر صحيفة « شروق الاسلام » التى تصدر فى وشنطن .

بطيخ خال من البذور :

نوه الدكتور « بولارد » أحد خبراء برنامج فولبرايت للبحوث العلمية ، وقد غادر مصر أخيراً لاستئناف عمله فى جامعة « ايداهو » بالولايات المتحدة أستاذا لعلم فلاحة البساتين ، بالأبحاث التى كان يقوم بها بالتعاون مع وزارة الزراعة فى مصر وكلية الزراعة بجامعة فؤاد الأول عن إنتاج بطيخ بدون بذور .

وقد أوضح بأن البطيخ الهجين الخالى من البذور لايزال فى مرحلته التجريبية تماما كما كانت الذرة الهجين منذ عشرين عاما .

وذكر الدكتور « بولارد » أن فى الإمكان استخدام الكولشسين - وهى مادة قلوية لمنع تكوين الألياف فى خلايا النبات - فى علاج بذور البطيخ عقب تفريخها مباشرة وذلك لإنتاج بطيخ خال من البذور ، وكان عمله فى مصر ينحصر فى معرفة درجة تركيز الكولشسين اللازمة ومدة استخدامها فى مختلف أنواع البطيخ المصرى .

ثم قال إن هذه الطريقة فى إنتاج بطيخ خال من البذور ليست صعبة على الرغم من حاجتها إلى عدد كبير من الأيدى العاملة ، وارتفاع أجور العمال فى الولايات المتحدة يحول دون إنتاج مثل هذا البطيخ هناك ، أما فى مصر فيمكن إنتاجه مع ضمان الربح .

واستطرد يقول إن البطيخ الخالى من البذور

له مزايا أخرى إلى جانب سهولة أكله ، فهو يقاوم الأمراض ويحتوى على كمية أكبر من السكر ويمكن حفظه مدة أطول .

هيلين كيلر تصف مشاهداتها فى مصر

وصفت الآنسة هيلين كيلر وهى الكاتبة الأمريكية العمياء الصماء التى زارت مصر أخيراً زيارتها لمصر بقولها :

ما أبدع منظر القاهرة من عل بقسميها الجديد والقديم . وما أروع النقوش الجميلة التى لامست أصابعى فسحرتها بنشوة الإعجاب والتقدير .

وماذا عسى أن أقول فى متحف القاهرة العجيب ، حيث لمست بالفعل مدنية جبارة دفنت حية . أو فى النيل البديع ، وحدائقه الغناء فى جانب والأهرام الشامخة الشماء فى جانب آخر ؟

لقد خالجتنى رهبة غريبة وأنا أفكر فى الآلاف المؤلفة من الرجال الذين رفعوا تلك الصخور الضخمة الصماء ليشيدوا بها أهرام مصر ، وفى الملوك الذين دفنوا هناك فتحولت أجسامهم إلى تراب ورماد ، بينما صمدت تلك المبانى الحجرية لعوادى الأجيال والقرون .

ثم ما أروع تلك الليلة التى قضيناها فى الصحراء تحت ظلال الأهرام الجبارة حيث شعرت كما لو كنت أرى بعينى وأسمع بأذنى ذلك السكون العميق ... وكأنه سكون عالم لم يولد بعد ، ذلك الغموض الرهيب ... غموض الرمال التى تمتد على مرمى النظر فى جميع الاتجاهات .

على أن ما هو أعظم من جميع هذه الأعاجيب التى لمستها فى مصر ، تلك الحفاوة البالغة والتكريم الخالص الذى يمتاز به الشعب المصرى ، وطهارة النفس ونقاء السريرة اللتان تنطوى عليهما قلوب العاملين لخير المشوهين وذوى العاهات ، وفخرى وابتهاجى بصداقة معالى طه حسين باشا ، والرضا الذى غمر نفسى لعلمى بأن العميان فى مصر سيعوضون من عصور عذابهم المظلمة عن طريق ذلك النور الداخلى الذى يبعثه فى قلوبهم التعليم والحياة المفيدة .

مرشّح للاسلكى جديد :

تشكو الإذاعات عامة - وإذاعات الموجة القصيرة على وجه خاص - من مختلف ضروب التشويش الصناعى والمؤثرات الجوية الطبيعية .

ولقد استطاع المهندسون الأمريكيون الذين يعملون فى محطة صوت أمريكا اختراع جهاز صغير الحجم ، رخيص الثمن لترشيح الإذاعات الخارجية إلى حد كبير مع الاحتفاظ بالإذاعة فى مستوى صوتى مسموع .

ويستخدم الهترودابن - وهو اسم المرشّح الجديد - فى محطات التقوية التى تستقبل الإذاعات من المحطات الرئيسية ثم تذيعها فى الحال . وقد دلت التجارب على نجاح الهترودابن فى تخفيف ٥٢ فى المائة من المؤثرات الجوية واللاسلكية .

ويتفوق المرشح الجديد على مرشحات البلور القديمة من حيث محافظته على درجة الصوت بينما تنخفض المرشحات البلورية بدرجة الصوت إلى مستوى غير مسموع .

ويقول الدكتور « ولسون كومبتون » مدير إدارة الاستعلامات الأمريكية : إنه وإن كان الهترودابن لم يتغلب على التشويش الذى يوجهه السوفييت إلى الاذاعات الأمريكية الخارجية ، فإنه مع ذلك خطوة عظيمة فى سبيل اختراق الستار اللاسلكى الذى أقامه الكرملين .

طرائف علمية وأدبية

الجسم يعمل أبدا

يعتمد أتباع الطريقة الغاندية فى الصوم على نظرية (الجسم يعمل أبداً) ويقولون إنه فى حال انقطاع الجسم عن تناول الطعام عن طريق الفم يبتكر طريقة جديدة للتغذية ، فيبدأ بإحراق المخزونات الدهنية المتلبدة فى مستودعاته الكثيرة وأهمها البطن ، وهو مستودع الشحم الذى ينتج عن كثرته ضعف فى القناة الهضمية ، أما القلب وجلدة الرأس فهما مستودعان للدهن ، فالدهن يسبب ضعف الأول ، ويميت بصيلات شعر الرأس فيؤدى إلى الصلع فى الثانية ، فالجسم يتغذى بهذا الدهن الضار أثناء الصوم ، وهذا يعنى أن التغذية الداخلية تبتدىء بعد عشرين ساعة على انقطاع الطعام الخارجى ، إذ يبتدئ الجسم بأخذ الاحتياطات الكافية لدرء الخطر فيجهز العضلات الزائدة ويجعل منها وقودا لحفظ حرارة الحياة فيه.

ويعتقدون أن الصوم مدة أربعين يوما يشفى من جميع العلل الجرثومية ، لأنه يحرق الخلايا الهزيلة والفضلات التى لا يحتاج إليها ويتغذى بها ، وهذه الفضلات هى بمثابة أعشاش للجراثيم ، فيتعذر على أية جرثومة أن تعيش بعد فقدان عشها . ويؤكدون أن فى كل جسم فضلات زائدة ضارة تكفيه لأن يتغذى أربعين يوما فقط وهذا معناه أن كل إنسان يمكنه أن يقضى هذه المدة المحدودة دون طعام .

الحرب المقبلة :

صرح الفيلسوف البريطانى برتراند رسل أنّ روسيا سائرة بخطى واسعة إلى حرب جديدة ستدوم على الأقل عشر سنوات ، وأن العالم يشرف اليوم على الحرب العالمية الثالثة لأن روسيا ترى أن مجابهة الولايات المتحدة اليوم أفضل من مجابهتها فى مستقبل غير محدود ، تصبح فيه القنبلة الهيدروجينية أمراً واقعياً . ثم قال : « إن كثرة الإشاعات عن انفجار ذرّى فى روسيا تحمل على الاعتقاد بأن لدى الاتحاد السوفييتى نوعا من القنبلة الذرية . وفى رأيى أنّ نار الحرب القادمة ستشب فى وقت واحد فى أوربا وآسيا . ولن ينجو أحدٌ من سكان لندن إذا اتخذت الحربُ الشكل الذى أتصوّره » .

نشاط المخ :

يقول العلماء : إن أمخاخ السمك والزواحف هى أدنى الأدمغة وأقلها تطوراً ونمواً بين سائر الأحياء ، وإن مخ الإنسان على كبره وقابليته للتطور أكثر تعقداً بشكله وتركيبه ؛ فهو كتلة من الأنسجة والخلايا والأعصاب وغيرها .

والمخ الإنسانى هو مركز النشاط العقلى وإليه ينتهى قسم كبير من الطاقة التى تولدها الأغذية فى الجسم.

وقد صرح أخيرا الدكتور هرولد هرتلى الإنجليزى وأحد الاختصاصيين بدرس المخ فى الجمعية البريطانية لتقدم العلوم، بأن المخ يستهلك أحياناً من نشاط الجسم ثلثه، وأنه يستهلك ربع هذا النشاط متى كان الجسم مستريحاً لا يعمل فيه غير القلب والرئتين.

التعليم بالتلفزيون

ابتدعت جماعة وسترن ريزرف بولاية أوهايو طريقة تربوية مبتكرة أتاحت للكثيرين أن يستمتعوا بدراساتهم إلى جانب الموقد دون تكلف مشقة الذهاب إلى الجامعة. فلقد نظمت الجامعة منهاجا بالتلفزيون لمحاضرات علم النفس والأدب المقارن يستطيع المتتبع لها أن يحصل فى النهاية على نفس الشهادة التى ينالها الطلبة الحاضرون.

عجائب الطبيعة

ظهر فى نيويورك كتاب جديد للعالم والمكتشف الأمريكى الدكتور روى تشابمان أندروز، أورد فيه كثيراً من عجائب الطبيعة نجتزىء منها بالأمثلة القلائل الآتية:

« تشم العثة رائحة أختها على بعد ميلين ».

« يسمع الهزار الأحمر صوت الديدان فى حركتها تحت الأرض ».

« يولد الأنقليس (ثعبان الماء) شحنة كهربائية تكفى لقتل حصان ».

« لا يزيد حجم القنفر الوليد على حجم قرص الاسبرين ».

إنسان الغد

فى رأى عالم طبيعى أميركى أن إنسان الغد سيكون مسيخا إذا استمر الناس على هذه الحياة الصناعية التى يعيشونها، فانصراف إنسان اليوم عن الأغذية القاسية التى تقتضى مضغاً عنيفاً سيفقده أضراسه، واعتماده على الآلة فى معظم شؤونه سيضعف حيويته، ويصبح عرضة لمختلف الأمراض ثم يقول: إن أجدادنا الذين عاشوا منذ عشرة آلاف سنة كانوا يختلفون عنا اختلافا كبيراً بعضلاتهم القوية وأضراسهم الطبيعية التى كانوا يقضمون بها الحبوب ويدافعون بها عن كيانهم. وإن الابتعاد عن الحياة الطبيعية قد مسخ شكل الإنسان حتى أنك لا تشاهد فى أكثر الناس اليوم غير الأصلع والبطين والحسير والسقيم وأمثالهم.

الجراحة الحديثة

تخطو الجراحة خطوات جبارة فى سبيل التقدم وتكشف عوالم جديدة فى الفن الجراحى، فقد جاء فى مجلة « العلم والحياة » الفرنسية أن بعض الاختصاصيين يعتمدون نوعاً جديداً من المعجونات التى يطلقون عليها اسم « بلاستيك » لتشغل مقام العظم الذى يحتاج الجراح أحيانا إلى قطعة من الجسم ولا سيما فى استبدال بعض الأعضاء كالآذان والأنوف والأشداق وأجزاء من الجمجمة.

وذهبوا إلى أن للبلاستيك مزايا ليست لغيره

فهو ينحل ولا يلتوى، فضلا عن أنه سهل الالتصاق دون أن يضر بألياف الجسد مع المحافظة على مرونته الطبيعية .

الطاقة الذرية وكنوز البحار

تتجه أنظار العلماء إلى استخدام الطاقة الذرية لاستخراج ما فى البحار من الكنوز التى لا تحصى ، فالبحار على قولهم تحوى من الذهب ما لو وُزّع على سكان الكرة الأرضية لأغناهم ؛ إذ فى كل ميل مربع من المياه البحرية نحو ١٦٠ طنا من العناصر الكيماوية ، وفى هذه الكمية من الذهب ما تبلغ قيمته ٢٥ مليون دولار ، ومن اليود ٣٠ مليون دولار، وفيها ٢٥٠ الف طن من البرومو ، وخمسة ملايين وخمسمائة الف طن من الماغنزيا الذى هو أخف المعادن الصناعية .

انفجار كوكب

انفجر أحد الكواكب القديمة عام ٣٤٢ ميلادية . وفى العاشر من شهر نوفمبر عام ١٩٤٢ تمكن بضعة علماء من مشاهدة هذا الانفجار الذى استغرق وصول مشهده إلى أرضنا ألفاً وستمائة سنة . وقد كان نوره يسير مدى هذه الأعوام كلها على معدل ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية ...

الدم والشخصية

قديماً كانوا يعتبرون الدم أحد الأخلاط الأربعة التى يتركب منها الجسم ، وكانوا يعتقدون أن الجسم إذا دخل فيه دم غريب اكتسب خاصة جديدة . وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً حتى القرون الوسطى مع أن محاولة نقل الدم من جسم إلى آخر لم تنفذ إلا فى القرن السابع عشر .

وفى سنة ١٤٩٢ أشير على البابا أينو سانسيو الثامن أن يشرب من دم ثلاثة فتيان ليستعيد قواه . ولا يزال الكثيرون فى يومنا يعتقدون أن الدم يمثل شخصية الإنسان ، غير أن هذا الاعتقاد ليس مبنياً على حقيقة علمية كما أثبت السير ليونل وينبى أستاذ الطب فى جامعة كمبردج بقوله : « إن الصفات لا تنقل من شخص إلى آخر بواسطة الدم ، وكل جسم يدخل فيه دم غريب لا يكتسب شيئاً من طباع صاحب هذا الدم أو من خاصية جنسه ، سواء أكان زنجياً أم صينياً أم أوربياً . وعلى هذا فخصائص الفرد وصفاته تنتقل إليه بالوراثة لا بالدم الغريب » .

رأى إديسون فى الكيمياء

يقال إن إديسون لما بلغ السنة الرابعة والثمانين من عمره ألقى عليه مراسل إحدى الصحف السؤال التالى : إذا فرضنا أنك عدت إلى الشباب ثانية فأية مهنة تمارس ؟ فأجابه إديسون بدون تردد : « الكيمياء !

إن الكيمياء تتعلق بجميع العلوم ، وستؤدى الاكتشافات الكيماوية للجنس البشرى فى المستقبل منافع هامة يستحيل علينا أن نتخيلها الآن » .

مكتبات للمكفوفين

فى الولايات المتحدة ٢٧ مكتبة إقليمية تشرف عليها الحكومة وتقوم بإعارة المكفوفين ـ دون مقابل ـ تسجيلات صوتية للكتب المختلفة فضلا عن الكتب المطبوعة بطريقة بيرل .

إيفاد مكفوفين إلى فرنسا وإنجلترة :

رأى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ما أبداه عالمان مكفوفان أحدهما مدرس بمعهد القاهرة والآخرمدرس بالقسم العام ، من تفوق يستحق الرعاية الخاصة فرفع كتابا بشأنهما إلى الدوائر المسؤولة ، فوافقت على إيفاد هذين العالمين إلى أوربا ، أولها إلى فرنسا وهو الشيخ محمد فتحى عبد المنعم وهو حائز على شهادة العالمية مع إجازة التدريس ، ومنتسب إلى كلية الحقوق الفرنسية ، وثانيهما إلى انجلترة وهو الشيخ زكى مشعل وهو حائز على شهادة الليسانس فى الفلسفة من جامعة فؤاد الأول فضلا عن شهادته الأزهرية كما أنه يجيد اللغة الانجليزية .

وقد عرض فضيلة الأستاذ الأكبر أمرهما على المجلس الأعلى للأزهر فى مذكرة خاصة فأصدر قرارا بالموافقة على إيفادهما على نحو ما بينا .

فى المراقبة العامة للبحوث والثقافة :

من القرارات التى وافقت عليها اللجنة الاستشارية لنشر الثقافة الاسلامية .

أولا — فيما يختص باختيار أصلح التراجم للقرآن الكريم تلبية للطلبات الخاصة بذلك حتى يتم الأزهر ترجمته . وقد رأت اللجنة أن هذه التراجم لاتصلح فى جملتها ، ولا بد من فحصها وتصحيح ما فيها أو فى مقدماتها من أخطاء وأن ينشر هذا التصحيح باسم الأزهر فى أوسع نطاق .

ورأت اللجنة أن من أهم مايجب على الأزهر فى نشر معانى القرآن الكريم باللغات الأجنبية أن يوضع تفسير موجز للقرآن ثم يترجم ذلك التفسير إلى ما يراد من اللغات ، وترى اللجنة أن فى هذا تنفيذا للرغبة الملكية الكريمة السابقة التى صدر بها مرسوم فى سنة ١٩٣٦

ثانيا : فيما يختص بالبعوث العلمية إلى البلاد الأوروبية : وقد رأت اللجنة الموافقة على إرسال بعثات سنوية إلى الجامعات الأوروبية لسد حاجة كليات الأزهر إلى الأساتذة المتخصصين وأن يكون عدد أعضاء البعثات السنوية عشرة .

ثالثا : فيما يختص بنشر الثقافة الاسلامية فى البلاد الأوروبية ، وقد رأت اللجنة تأليف ثلاث لجان لاختيار الكتب الصالحة فى اللغات الأوروبية لنشر الاسلام وذلك تلبية للطلبات الواردة فى هذا الشأن ، على أن تختص لجنة باختيار الكتب الألمانية وأخرى باختيار الكتب الفرنسية وثالثة باختيار الكتب الانجليزية .

رابعا : فيما يختص بانشاء مكتبة خاصة بمراقبة البحوث والثقافة ، وقد وافقت اللجنة على إنشاء هذه المكتبة ، وتقدمت مراقبة البحوث بمذكرة إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، بينت فيها الغرض منها وهو أن تزود دائما بالمستحدث من الكتب لتكون موضع الفحص والبحث والتقدير الدينى والعلمى وإذ ذاك يبدأ عمل المشيخة فى المشاركة فى توجيه الرأى العام فى الشرق ، وذلك بالرد والاقناع بعد الفحص .

ومما هو معروض على اللجنة الاستشارية موضوع على جانب عظيم من الأهمية وهو إنشاء معهد للدراسات الاسلامية أو معهد الدعوة الاسلامية ، وقد جاء فى المذكرة الخاصة بذلك أن معهد التخصص فى الدعوة الذى يتبع كلية أصول الدين والذى يحصل فيه الطالب على إجازة الدعوة والارشاد ، قد قصد به أن يكون المتخرج فيه ذا أهلية خاصة لنشر الدعوة الدينية والثقافة الاسلامية فى مصر وبقية العالم الاسلامى .

ولكن التجربة قد بينت أن هناك نقصا يحول بين رجال الأزهر وبين الدعوة على الوجه المطلوب ، وذلك هو عدم وقوف الطلاب على الأحوال النفسية والاجتماعية والثقافية للشعوب والجماعات الاسلامية ، فضلا عن العادات والمذاهب الدينية الشائعة بينها .

لذلك تقترح مراقبة البحوث والثقافة الاسلامية أن يحول قسم الوعظ والارشاد إلى معهد للدراسات الاسلامية أو معهد لدراسة أحوال الشعوب الاسلامية على نحو ما ينتهى إليه الرأى فى تسمية هذا المعهد ، على أن يوزع الطلاب فيه إلى شعب ، تعد كل شعبة لحمل الدعوة الاسلامية إلى بلد من بلدان العالم الاسلامى ، فتدرس فى كل شعبة لغة ذلك البلد وأحوال اهله دراسة مجدية مؤدية إلى الغرض بجانب تعاليم الاسلام والثقافة الاسلامية فى شتى عصورها .

وينبغى أن يكون أسلوب المتخرجين فى هذا المعهد فى نشر الدعوة هو الأسلوب العلمى الحديث كى يتمشى مع عقليات الشعوب ونوازعها واتجاهاتها فى الحياة على أن يغلب فيه طابع المعرفة والثقافة على طابع الوعظ .

الإذاعات الأزهرية فى أمريكا :

أشرنا فى الجزء السابق من المجلة إلى إجابة الأزهر ما طلبته السفارة الأمريكية من إذاعات تذاع فى امريكا .

وقد ورد إلينا من السفارة الأمريكية نصوص احاديث فضيلة الشيخ محمود شلتوت وفضيلة الدكتور محمد عبد الله ماضى وفضيلة الدكتور محمد البهى . وموضوع الحديث الأول التعاون إلى هداية الله ، وقد بين فيه فضيلة الشيخ شلتوت أن دين الله هو الذى يقوى جانب الخير فى الانسان كما بين أن العقيدة الصحيحة فى الله والعقيدة الصحيحة فى اليوم الآخر هما عنصرا هذا الدين وأن الله قد أخذ العهد والميثاق على كل نبى يرسله أن يصدق من جاء قبل وأن يؤيد من يأتى بعده ، « فعلى أرباب الرأى والقيادة إن أرادوا حياة طيبة أن يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا الى عهد الله لهم فى جمع الناس على هذه الحقيقة الواحدة وهى الدين عند الله » .

وموضوع الحديث الثانى « حاجة العالم الى الورع والتقوى » وقد بين فيه الدكتور ماضى أهمية التقوى فى تكوين الجماعة الصالحة ، وقال « إن من مقاصد الاسلام أن يربى الفرد بحيث يكون له وازع من نفسه ورقيب من ضميره » .

وموضوع الحديث الثالث « مسؤولية الفرد نحو الله والانسانية » وقد بين فيه الدكتور البهى كيف حدد الاسلام مسؤولية الفرد نحو الله ونحو المجتمع واختتمه بآية البر الكريمة .

بيان من إدارة المجلة

تصدر المجلة اثنى عشر جزءاً فى اثنى عشر شهراً ، منها عشرة أجزاء باللغة العربية ، وجزءان باللغة الإنجليزية لا يوزعان إلا فى البلاد الأجنبية .

لطلاب العلم فى المدارس والمعاهد والجامعات الحق فى اشتراك مخفض قدره ثلاثون قرشاً على أن يدفع مرة واحدة .

يطلب الاشتراك من إدارة المجلة رأساً فى مصر والسودان . ومن المكتبات الكبيرة فى شمال إفريقية والمملكة السعودية وعدن والبحرين ، ومن وكالة فرج الله وفروعها فى بيروت ودمشق وبغداد . ومن مكتبة زكى جرجس بطليموس فى الخرطوم

بهذا الجزء تنتهى السنة الثالثة والعشرون للمجلة وستستأنف صدورها فى أول المحرم بعدد ممتاز سيكون بعون الله آية فى التحرير والإخراج

موقف الإسلام من أهل الكتاب :

التبس على بعض القراء معنى أوردته فى مقالى فى الجزء السابق من المجلة .

وسبب الالتباس الاستدلال بقوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا » الآية ، فى مقام إثبات أن للعاملين من أى دين أجرهم ، ذلك الأجر الصادق بالأجر فى الدنيا من تيسير أمورهم وصلاح شئونهم ، وبأجر فى الآخرة من تخفيف بعض العذاب عنهم ، كما قال بذلك بعض العلماء ، وليس من المعقول أن نرى ان اتباع الأديان الأخرى ناجون من عذاب الآخرة وإن لم يؤمنوا بمحمد ، والعياذ بالله ؟

محمد محمد المدنى

مجلة الأزهر فى عهدها الجديد

استقبل القراء عدد رمضان من مجلة الأزهر استقبالا جاوز المأمول ، فلم يبق مما طبع منه على كثرته شيء . كذلك رحبت الصحافة المصرية ترحيبا كريما يقل بجانبه الشكر ، ويقصر عنه الثناء . وإن لنا فى هذا الاستقبال وهذا الترحيب خير مشجع على مضاعفة الجهد لتظل المجلة ماضية بعون الله فى نشر دعوتها وأداء رسالتها .

بيان من لجنة الفتوى بالأزهر :

أصدرت لجنة الفتوى بيانا مفصلا عن حكم الشريعة الاسلامية فى اشتراك المرأة فى الانتخاب للبرلمان وقد ذهبت اللجنة بعد أن أوردت الأدلة فى تقص وشمول إلى أنه « يتبين أن حكم الشريعة فى اشتراك المرأة فى انتخاب عضو البرلمان هو كحكمها فى اختيارها لتكون عضوا فيه ، كلاهما ممنوع » .